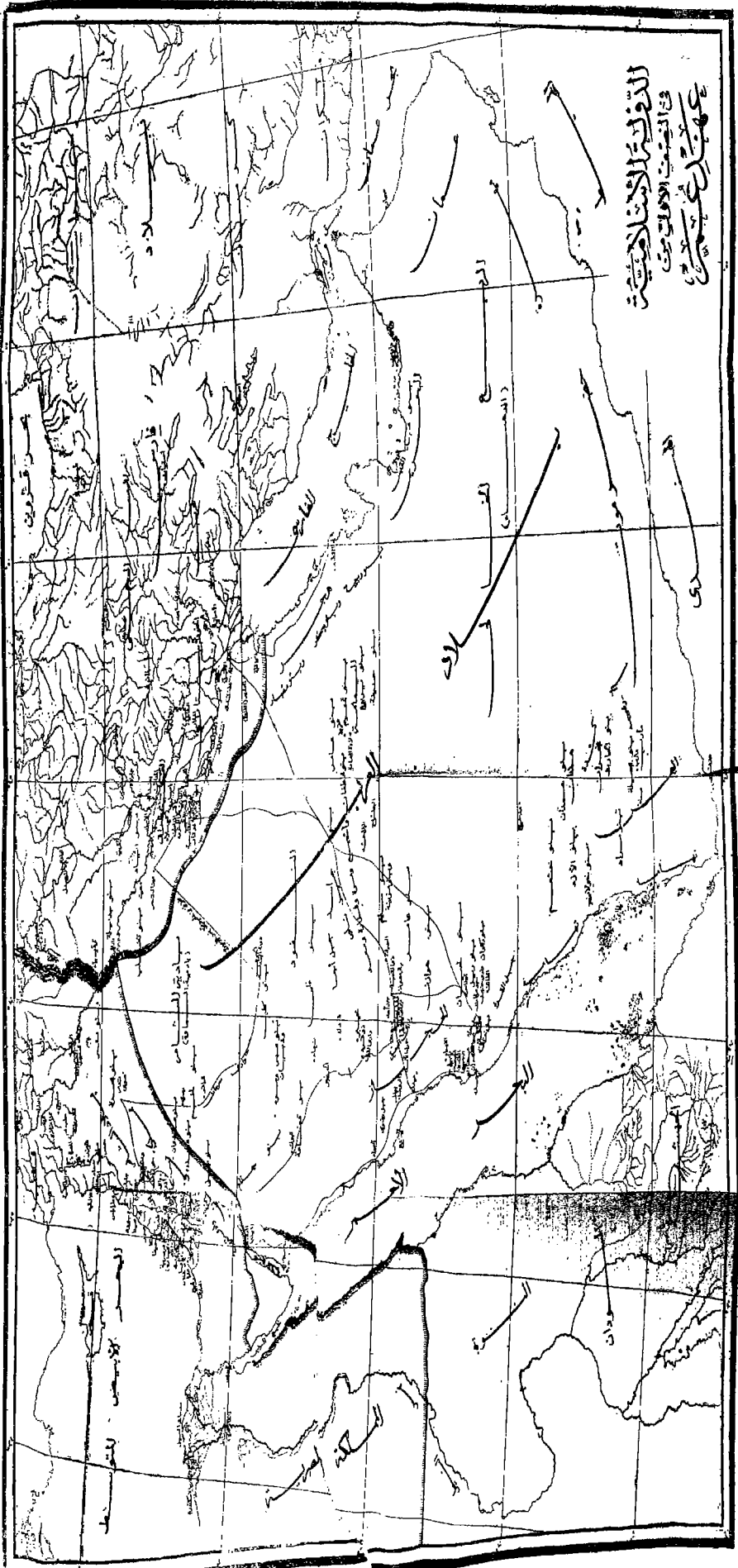


الخريطة الاستراتيجية  
في الوقت الأولي  
على أساس...

البحر المتوسط  
البحر الأحمر  
الخليج العربي  
الجزيرة العربية  
بلاد الشام  
بلاد العراق  
بلاد فارس



الفاروق ع





# الفاروق ع

جَعَلَ اللهُ الْيَمَنَ عَلَى الْإِسْمِ عِيسَى وَقَلْبَهُ  
حَدِيثًا ثَرِيْفًا

## محمد حسين فضل

### الجزء الأول



مطبعة النشر والطبع  
مكتبة النهضة المصرية  
لأخواتها حسن بن محمد وأولاده  
9 شارع عدلي، ناشا بالقاهرة

١٩٦٣

جميع الحقوق محفوظة

## فهرس الكتاب

صفحة

تقديم

عمر والإمبراطورية الإسلامية — العوامل التي أقامت الإمبراطورية — عمر ونظام ١  
الإمبراطورية — جهد المؤرخ لعهد عمر — الحياة فسكره أولاً وقبل كل شيء — الحرية  
الفكرية وكرامية الاختلاف في الإسلام — سياسة عمر مع عماله ومع رعيته — التاريخ  
السياسي لنشأة الإمبراطورية هو الفرض الأساسي من هذا الكتاب .

### الفصل الأول — عمر في جاهليته

سوق عكاظ — صورة لعمر الشاب في السوق — طريقة تفكيره لذلك العهد — قبيلة عمر ٢٣  
ومكانها من قبائل مكة — والد عمر — زيد بن عمرو واعتزله عبادة الأوثان — طهولة  
عمر وصباه — حذق عمر المصارعة وركوب الخيل والفروسية — أزواج عمر — ثقافة عمر —  
تعصب عمر لدين قومه — خصومة عمر للإسلام في عهده الأول .

### الفصل الثاني — إسلام عمر

الروايات في سبب إسلامه — الرواية المسندة إلى عمر نفسه — حرض عمر على نظام قومه ٤١  
ومكانة بلدهم — كيف اهتدى عمر فأسلم ؟ عمر يعلن الإسلام وينافخ عنه .

### الفصل الثالث — عمر في صحبة النبي

خصومة قريش والمسلمين — موقف عمر بمكة وهجرته إلى المدينة — عمر والأذان ٥٣  
للصلاة — عمر في غزوة بدر ورأيه في أسراها — عمر في غزوة أحد — اجتهاد عمر  
في عهد النبي — عمر وعمر بن الخطاب — عمر ونساء النبي — جعل الله الحق على لسان عمر  
وقلبه — أخلاق عمر — جزعه لوفاة النبي .

### الفصل الرابع — في عهد أبي بكر

عمر في سقفة بني ساعدة — سياسة أبي بكر وسياسة عمر — موقف عمر من الردة ٧٤  
والمرتدين — وموقفه من بعت أسامة — ومن خالد بن الوليد — عمر يشير بجمع القرآن —  
عمر وفتح الشام — عمر ونظام الطبقات — أبو بكر يستخلف عمر .

### الفصل الخامس — عمر بعد فتح عهده

بيعة عمر وانتدابه للمسلمين للذهاب إلى العراق — أمره برد السي إلى عشائريهم — خطبته ٩١  
الأولى — تردد المسلمين هبة لفارس — أبو عبيد الثقفي أول مندوب للعراق وأمير الجند فيه —  
عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وسببه — إحصاء نصارى نجران عن ديارهم — تلقب  
عمر أمير المؤمنين .

## الفصل السادس - أبو عبيدة والثني في العراق

- الثني في طريقه إلى الحيرة - سير أبي عبيدة إلى العراق وانتصاره على الفرس بالتمارق ١٠٨ والسقاطية - الفرس يسيرون للتأثر - غزوة الجسر ومقتل أبي عبيدة بها - هزيمة المسلمين فيها - تحصن الثني ومعاونة النبائل له ولإمداد عمر إياه - مسيرة الفرس للقاء المسلمين - غزوة البويب وانتصار المسلمين الحاسم فيها ومغانمهم منها - ماتدل عليه غزوة البويب - عظمة الثني ومكانه في التاريخ الإسلامي .

## الفصل السابع - فتح دمشق وتطهير الأردن

- عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش - أبو عبيدة وخالد بن الوليد يسيران إلى دمشق - ١٢٩ موقع دمشق وعمارتها ولبن العيش فيها - المسلمون يحاصرون دمشق ويهاجمونها - هل فتحت دمشق عنوة أم صلحاً - الخلف على صلح دمشق - غزوة حُل وانتصار المسلمين فيها - مصالحة أهل طبرية - صلح أهل أذرعان وعمان وجرتس ومآب وبصرى - سير هاشم بن عتبة في جيش العران إلى القادسية .

## الفصل الثامن - القادسية

- انسحاب الثني بن حارثة إلى ذي قار على تخوم بادية العراق - إعداد عمر للعود إلى العراق ١٥٠ وُغزوه - تأمير سعد بن أبي وقاص - مسيرة سعد وبلوغه شراف وزواجه من سلمى أرملة الثني بن حارثة - اتصال عمر الدائم بقوات الغزو ومتابعته مراحلها - افتتاح المسلمين العذيب وبلوغهم القادسية - تبادل الرأي بين يزيدجرد وقائده الأكبر رستم في لقاء المسلمين - وفد المسلمين إلى يزيدجرد وحوارهم معه - مسيرة رستم إلى القادسية - تطير رستم من دلالات النجوم - معركة القادسية كيف بدأت - مرض سعد بن أبي وقاص من أولها - التقاء الجيشين - يوم أرماث وفتك القبيلة فيه بالمسلمين - يوم أغوات وقتال التتاق بن عمرو وأبي عبيد بن جندب - ليلة الهدأة - يوم عماس وليلة الهيرير - اليوم الحاسم وانتصار المسلمين المؤزر فيه - جسامه منام القادسية - أمر القادسية في قيام الإمبراطورية - سر القادسية وعبرتها .

## الفصل التاسع - فتح المدائن

- فرار الفرس من القادسية إلى أطلال بابل - هزيمتهم أمام المسلمين - سير المسلمين من بابل ١٨٨ إلى المدائن في سواد العراق - وقوف المسلمين أمام بهرسير وحصارهم - فتحهم بهرسير ووقوفهم على شاطئ دجلة - أبيض كسرى - المعجزة في اجتياز دجلة - فرار يزيدجرد إلى حلوان ونزول قصر الأكاسرة - جسامه منام المدائن - عمر وسعد ويزدجرد .

## الفصل العاشر - المسلمون في العراق

- الدول التي نزلت العراق - مقام المسلمين بالمدائن - اجتماع الفرس بجولاء - سير هاشم ٢٠٥ ابن عتبة إليهم وحصاره لإيائهم وظفره بهم - موقف عمر من غزو فارس بعد العراق -

صفحة

سياسة عمر في العراق — ترك الحكم الداخلي لأهله على أن يقيموا العدل بإشراف المسلمين —  
بناء الكوفة والبصرة وجعلهما مسالخ للمسلمين — إصلاح العراق لزيادة إنتاجه — أثر السياسة  
العمرية في حياة العراق .

### الفصل الحادي عشر — مهلاء هرقل عن سورين :

سير أبي عبيدة بن الجراح وخالده بن الوليد من دمشق إلى حمص — التقاها بالروم عند ٢٢٦  
مرج الروم وظفراها بهم — حصار حمص وصلحها والسير منها إلى أنطاكية — خالد بن الوليد  
يفتح قنسرين — أنطاكية : تاريخها وموقعها ومقاومتها حصار المسلمين — تسليم أنطاكية  
وصلحها — هرقل يودع سورية الوداع الأخير — السرى اندحار هرقل أمام المسلمين —  
سياسة المدينة وأثرها — قصة جبلة بن الأيهم بالمدينة وموقف عمر منه ومصيره .

### الفصل الثاني عشر — عمر في بيت المقدس :

قوات العرب والروم بفسطين — موقعة إجنادين وظفر المسلمين بالروم فيها — انسحاب ٢٤٦  
الأطربون إلى بيت المقدس — موقع بيت المقدس ومنعة حصونها — حصار بيت المقدس  
والقائد الذي تولاه — سير عمر من المدينة إلى الحياية — رسل صفريوس إلى عمر وصلحه  
معهم — دخول عمر المسجد الأقصى — اعتذار عمر عن الصلاة بكنيسة انقيامة وسببه —  
تسامح عمر مع أهل بيت المقدس — عود عمر إلى المدينة واستقباله بها .

### الفصل الثالث عشر — مهلب خالد بعد إخضاع الشام

الروم يحصرون أبا عبيدة بجمص — الإمبراطورية الناشئة تتحرك لنصرته — تغلبه على ٢٦٤  
عدوه قبل أن يبلغ عمر الحياية — شمال الشام يخضع كله للمسلمين — عمر يتهم خالد بن الوليد  
وبأمر بعزله — إهانة خالد في تنفيذ الأمر بالعزل — موقف خالد بعد هذه الإهانة — خالد يسير  
إلى المدينة ويلقى عمر بها — موقف المسلمين بالمدينة من عزل خالد — موت خالد وحزن عمر  
والمسلمين عليه — رأينا في عزل خالد وسببه .

### الفصل الرابع عشر — المجاعة والوباء :

سبب المجاعة في بلاد العرب — كيف عالج عمر المجاعة ؟ — إمداد بلاد العرب من الشام ٢٨٧  
والعراق — آثار المجاعة في بلاد العرب — سياسة عمر كما يجاها تصرفاته في المجاعة —  
طاعون عمواس وشدة فتكها — أفراراً من قدر الله يا عمر ! — عمر يحاول استخراج  
أبي عبيدة من الوباء — علة الوباء في رأى المتأخرين وفي رأى المتقدمين — موت أبي عبيدة  
وغيره من كبار المسلمين في الطاعون — زوال الوباء وانتقال سمر إلى الشام — القدرية  
الإسلامية في نظر عمر وفي نظر أبي عبيدة — الحرية العقلية والإسلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ • إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ • أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
• صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ •

## تقديم

ليس في التاريخ الإسلامي ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجل تُرَدَّدُ الألسنُ اسمه ما تُرَدَّدُ اسم عمر بن الخطاب . وهي تُرَدِّده وتقرن به ، في إعجاب وإكبار ، ما عُرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب . فإذا ذكّر الناس الزهد في الدنيا مع القدرة على النهل من أنعمها ذكروا زهد عمر . وإذا ذكروا العدل المطلق غير مشوب بشائبة ذكروا عدل عمر . وإذا ذكروا النزاهة لا يفرق صاحبها بين أقرب الناس إليه وأبعدهم عنه ذكروا نزاهة عمر . وإذا ذكروا العلم والفقه في الدين ذكروا فقه عمر ودينه . وأنت تتلو من أبناء ذلك في الكتب ما تحسب الكثير منه مبالغة لا يكاد العقد يصدقها ؛ فهي أدنى إلى المعجزات التي تنسب إلى الأنبياء منها إلى ما عُرف عن أكبر العطاء سموًا وجلال قدر . ويرجع ذلك إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية في عهده . فقد خلف عمر أبا بكر على إمارة المؤمنين حين فرغ أبو بكر من حروب الردة ، وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام . فلما قبض عمر كانت الإمبراطورية الإسلامية قد اشتملت العراق والشام جميعًا ، وقد تحطمتا فاشتملت فارس ومصر . بذلك بلغت حدودها الصين من الشرق ، وإفريقية من الغرب ، وبحر قزوين من الشمال ، والسودان من الجنوب . وقيام هذه الإمبراطورية العظيمة في عشر سنوات معجزة لا ريب . والمعجزة أعظم قدرًا بعد أن تحطمت فارس والروم والإمبراطوريتان صاحبتا السلطان على عالم يومئذ ، وتحطمتا بأيدي العرب الذين كانوا إلى سنوات قبلها قبائل متنافرة لا تهدأ منازعاتها ولا تطمئن فيما بينها إلى قرار .

أما وقد تمت هذه المعجزة في عهد عمر وبتوجيهه فهو ، لا جرم ، رجل عظيم . وقد بدت بوادر هذه العظمة في عهد رسول الله وفي عهد أبي بكر ، ثم ضاعف نصر المسلمين من بعدها قدرها ، كما زادها مرة العصور وأضاف إليها . فقد تبين الناس على تعاقب الأجيال أن هذه الإمبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الإمبراطورية ما بقيت وتزول بزوالها ، بل كانت قائمة على أساس قوى من خلق متين وحضارة سليمة الأساس .

فيذا صبح أن بُشيد الناس بعظمة يوليوس، قيصر والإسكندر الأكبر وچنكزنخان و نابليون  
لأنهم أقاموا من الإمبراطوريات ما أقاموا ، فأخبر بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة  
عمر بن الخطاب وأكبر قدراً لآثارها .

تمت المعجزة بقيام الإمبراطورية الإسلامية في عهد عمر . فقد كان المسلمون ، إلى  
يوم استُخلف ، يحشون الفرس والروم ، ولذلك أتوا حين ندهبهم عمر للذهاب إلى العراق  
يواجهون الفرس فيه . وكان لهم من العذر عن تناقلهم أن كان اسم فارس لا يزال يزلزل  
القلوب والأسماع ، وكان جند المسلمين قد جلوا عن العراق بعد ذهاب خالد بن الوليد إلى  
الشام بأمر أبي بكر . وأقام الناس على تناقلهم أياماً ، ثم لبي أبو عبيد الثقفي دعوة عمر  
وذهب في بضعة آلاف يلقي جنود كسرى ، فنكسب في غزوة الجسر إذ مات وانهزم جيشه .  
ولم تزعزع هزيمته من عزيمة عمر ، بل زادت إقداماً ودفعته لينهض بنفسه على رأس  
المسلمين يريد مواجهة الفرس ليحوج عار تلك الهزيمة . وقد كان فاعلاً لولا أن صرفه  
أولو الرأي عما أراد . عند ذلك أرسل سعد بن أبي وقاص مكانه . وظفر سعد بالفرس  
في غزوة القادسية ظفراً حاسماً ؛ ففتح له أبواب عاصمة الفرس ، وفتح المسلمين أبواب فارس  
جميعاً . وفي هذه الأثناء كان أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يسيران مظفرين  
في الشام ، يردان هرقل جاهل الروم على أعقابهِ ، ويدفعانه دفعاً ليفر إلى عاصمة ملكه .  
تمَّ ذلك ولما تنقض من خلافة عمر سنتان . ومن يومئذ حالف النصر أعلام المسلمين  
حيثما ساروا ، ففتحوا للدائن وفتحوا بيت المقدس ، ثم تخطوا العراق إلى فارس ، وتخطوا  
الشام إلى مصر فاستقر لهم الأمر فيها . وكذلك شاد عمر الإمبراطورية الإسلامية في عشر  
سنوات لتستقر في العالم ، وتوجه حضارته الأجيال والقرون .

أليس من حق عمر ، وذلك شأنه ، أن تردّد الألسن اسمه ، وأن تذكر من جليل  
صفاته وعظيم مواهبه ما يثير في النفس غاية الإعجاب والإكبار .

وهذا الإكبار يدعوننا لتحريض التاريخ وتحقيق وقائعه ، حتى نستكشف العوامل التي  
أتاحت لعمر تشييد الإمبراطورية . فلولا أن تضافرت عوامل عدّة لما كفت عبقريته  
بوحدها لتشيدها .



وقيام الإسلام أول هذه العوامل وأقواها . فالإسلام هو الذي وحد العرب بعد شتات ، وجعل من قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة ، ودفعهم لإذاعة تعاليمه وإعلاء كلمته ودفع من يريدون فتنه الناس عنه .

وقد كان العرب قبل إسلامهم ضعافاً أمام الفرس والروم وكانت مناطق كثيرة من بلادهم خاضعة لنفوذ كسرى ونفوذ قيصر . فلما أسلموا أسرع هذا النفوذ إلى الزوال عن شبه الجزيرة كلها . مع ذلك ظلت هيبة الفرس والروم آخذة بنفوسهم ، حتى لقد حسبوا ، حينما دُعوا لغزو العراق ولغزو الشام ، أن حصونهما لا تؤخذ ، وأن جنودهما لا تقهر . لكنهم لم يلبثوا ، حين تحطوا التخوم وواجهوا هذه الجيوش وحاصروا هذه الحصون ، أن تبينوا أن السوس نخرها ، فهي كالجدار المتداعي ، تنقض أعاليه لأول صدمة ، وتندك أسسه ما وجدت المعول القوي الذي يأتي عليها من القواعد .

وإنما قدر العرب بعد إسلامهم على الفرس والروم ، لأن الإسلام أنشأهم نشأة جديدة ، وبث فيهم روحاً أحالتهم خلقاً جديداً . ذلك بأنه اقتحم على نفوسهم مناطق عقائدها وعباداتها ، واتصل بوجدانهم في صميمه ، فألقى فيه بذرة التوحيد صافية الجوهر ، نقية من كل شائبة ، بسيطة لذلك كل البساطة . ثم إنه فرض عليهم من العبادات ما زادهم بالتوحيد إيماناً وما ربط بين قلوبهم بأوثق رباط . فرض عليهم الصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ فأما ما وراء ذلك من سالف شعائرهم فقصى عليه إلى غير رجعة . بذلك تحررت نفوسهم من قيود الوهم ، وتطهرت قلوبهم من رجس الوثنية ، وشعر كل واحد منهم بأنه لا حجاب بينه وبين الله ما عمل صالحاً وأجاب داعي الله .

ولم يفرض الإسلام هذه العبادات على أنها شعائر رسمية من شأن الدولة ، بل هي فروض الله على المؤمنين به يُثنى عليهم عنها ، ويؤاخذهم بتركها . فمن آمن بالله ثم لم يؤد لله فرضه فعلى الله حسابه ، ومن أدى فرض ربه وعمل صالحاً فله عند الله مثوبة الصالحين ، وأعظم بها من مثوبة ! .

أخذ هذا الإيمان بمجامع القلوب فجمع بينها ، فانتقل أثره من الفرد إلى الجماعة . وما كان أعظم هذا الأثر ! كان المسلمون يجتمعون للصلاة ، فيربط اجتماعهم بينهم ، ويمحو

توجههم إلى ما في نفوسهم من غِلٍّ ، فإذا هم إخوة يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه . ويؤدُّون فريضة الصوم فإذا غنيهم وفقيرهم سواسية أمام الله والناس ، وإذا غنيهم طهر الصوم نفسه يعطف على فقيرهم فينال رضا الله عنه ومثوبته له . ويؤتُونَ الزكاة قنزيل ما بين طوائفهم من نضال ؛ لأنها تجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغني . ويجمعهم الحج كل عام من مختلف بقاع الأرض ، ليتواصوا بالصبر والصلاة ، وليتعاونوا على البرِّ والتقوى . وكان النظام الاجتماعي الذي سنّه الإسلام بسيطاً كالنظام الروحي ، فكان له مثل أثره في توحيد الجماعة العربية . كانت المساواة أمام الله أساس التوحيد الإسلامي ، والمساواة أمام القانون أساس النظام الاجتماعي . فقد كانت المرأة العربية تعامل قبل الإسلام معاملة غير كريمة ، فرفعهما الإسلام إلى مقام الكرامة ، وجعلها مساوية للرجل أمام الله ؛ وإنما فضّل الرجل عليها بما أنفق من ماله وما عاملها بالمعروف وجعل صلته بها صله مودّة ورحمة . وكان الفقراء يسامون المهانة ، فرفع مكانهم إذ جعل تفاضل الناس عند الله بالتقوى لا بالمال . هذه القواعد وما إليها مما نظم الوحي به شؤون الجماعة العربية لهدى رسول الله ، وما جعله نظاماً للجماعة الإنسانية كلها ، قد كان له من الأثر في توحيد العرب وتقوية روحهم المعنوية ما قامت الإمبراطورية الإسلامية على أساسه .

وقد بدت آثار ذلك في حياة الرسول ، وبدت تباشير الإمبراطورية المقبلة من خلاله . ففي السنة السابعة من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعث رسله إلى قيصر وإلى كسرى وإلى غيرهما من الملوك والأمراء يدعونهم إلى الإسلام . وقد أغلظ كسرى لرسوله في الجواب ، وبعث إلى بازان عامله على اليمن ليحيثه برأس « هذا الرجل الذي بالحجاز » . لسكن كسرى قُتل قبل أن تصل رسالته . إلى بازان . وشعر هذا الأمير الفارسي بقوة محمد وأصحابه ، فخلع عن اليمن نير الأكاسرة ، وانضم إلى رسول الله ، فكان انضمامه الخطوة الأولى في تحرير البلاد العربية من ربقة النير الأجنبي .

وكان رسول الله لا يفتأ بعد ذلك يفكر في الروم ومناجزتهم . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة سار على رأس جيش العُسرة إلى تبوك ؛ وسمع الروم بمقدمه فخافوه وانسحبوا داخل حدود الشام ولم يلقوه . مع ذلك صالح يوحنا بن روبة صاحب أيلة

كما صالح أهل الجرباء وأذرح على الجزية . وأيلة والجرباء وأذرح من أعمال الشام الخاضعة لسلطان الروم . بذلك كانت تبوك قاضية على كل نفوذ للروم في شبه الجزيرة ، وكانت أول إرهاب من اتجاه الإمبراطورية الإسلامية إلى ناحية الشام .

اختار الله رسوله إليه ، فبايع المسلمون أبا بكر بخلافته . وخیل إلى جماعة من العرب أنهم قادرون على الثورة بخليفة الرسول وبدينه ، فكان انتصار أبي بكر في حروب الردة دليلاً قاطعاً على أن العرب أشربت نفوسهم بمبادئ التوحيد ؛ ولذلك لم يقل أحد من الذين ادّعوا النبوة أنهم يدعون الناس إلى وثنتهم وإلى جاهليتهم الأولى ، كما دل على أن الذين امتثلوا هذه المبادئ من أصحاب رسول الله المهاجرين والأنصار قد وهبوا لها نفوسهم فلا غالب لهم . من ثمّ أسرعت وحدة العرب إلى التماسك والثبات ، فلم يمض عام على خلافة أبي بكر حتى كان المسلمون يواجهون الفرس في دلتا الفرات فيقهرونهم ، ولم يقض العام الثاني حتى كانوا يواجهون الروم في الشام ويثبتون لهم . وكذلك مهّد أبو بكر للفتح وللإمبراطورية بعد أن هيا الدين الجديد لها القلوب والأفتدة ، ثم تابعه عمر فدفع بالإمبراطورية إلى الحدود التي ذكرناها .

هذه اللسحة السريعة عن نشأة الإمبراطورية تشهد بأن الإسلام دفع إلى نفوس العرب قوة معنوية عظيمة حفزتهم لطرح نير الأجنبي عن كواهلهم . وللاندفاع إلى ما وراء تخومهم ، ومواجهة الفرس والروم في أعقار دورهم . والقوة المعنوية أس الظفر في كل نضال ، ذلك بأن صاحبها لا يعرف الهزيمة ولا يرضاه ؛ فإذا ارتد يوماً لم يوهن ذلك من عزيمته ، بل حفزه لمضاعفة الجهد ، وجعله يستهين بكل صعب ، ويستهين بالحياة نفسها في سبيل الظفر بالنهاية التي يريد بلوغها . وتاريخ العالم من أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر شهيد بأن الفوز في النضال قد كان دائماً لصاحب العقيدة الثابتة والإيمان الراسخ ؛ لأن هذا الإيمان وهذه العقيدة يورثان صاحبهما من القوة ما يجعل الجبل إذ يقول له انتقل من مكانك ينتقل . أقامت العقيدة إذن بناء الإمبراطورية الإسلامية . ومن هنا كان الرسول بهذه العقيدة ، محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذي وضع الأساس الثابت لهذا البناء ، ثم كان صفته وخليله أبو بكر هو الذي مهّد لقيامه بما قضى على الذين حاولوا مناوأة هذه العقيدة ، وحين دفع

العرب فتخطوا تخوم العراق وتخوم هشام . وجاء عمر من بعده فأتم هذا البناء وتركه متين الدعائم . فازدادت رُقعته فسحةً بقوته الذاتية المنبعثة من روح الإسلام . وظلت هذه الرقعة تنفسح ، حتى أصاب الفكرة الدافعة لإقامة الإمبراطورية ما أصابها ؛ إذغشت عليها أوهام ، ما أشبهها بأوهام الجاهلية ، أثارت التنازع والبغضاء بين المسلمين .

وقد روينا حديث التاريخ عن عهد رسول الله وعهد أبي بكر ، فرأينا ما كان لهذه القوة المعنوية من أثر في نفوس المؤمنين بالعميقة الباعثة لها . وفي هذا الكتاب من أعمال البطولة التي قام بها المؤمنون في عهد عمر ما يُبَيِّنُ إيمانك بأثر هذه القوة . وما يُدحض قول الذين قالوا : إنما اندفع المسلمون لقتال الفرس والروم حباً للغزو وتهاوناً على مغامره . فكيف لأمة قليلة العدد والعُدَّة أن تخاطر بغزو جارات يزيدون عليها في العدد والعُدَّة أضعافاً مضاعفة ، لغير شيء إلا إرضاء هوى الغزو الكمين في طبعها . ومتى وهب الناس حياتهم راضين طمعاً في منعم قد تذهب حياتهم قبل أن يبلغوا منه قليلاً أو كثيراً ! ألا إنه الإيمان الصادق بالعميقة السليمة هو الذي سما بنفوس هؤلاء المسلمين الأولين تغلّذوا على التاريخ من صف المجد ما قل في التاريخ نظيره . وليس هذا التقديم موضعاً لسرد ما فعلوا ، فسيجده القارئ مفصلاً في خلال الكتاب ، مقنعاً كل منصف يريد الاقتناع بالحق بأن القوة التي بثها الإسلام في نفوس الذين أخذوا في ذلك المهدي بمبادئه هي التي دفعتهم إلى ميادين المجد والشرف ، وهي التي حبيت إليهم الاستشهاد في سبيل الدعوة إلى الحق الذي أوحاه الله إلى رسوله . ومن أحب الاستشهاد في سبيل الحق انتصر لا محالة .

ولو أن القوة المعنوية التي اندفع المسلمون بتأثيرها واجهت قوة معنوية تقف في سبيلها لتغيّر ، ولو إلى حد ، وجه الحوادث . لكن دولتي الفرس والروم كانتا تسيران مسرعتين إلى الانحلال ؛ فلم يكن لأيتهما من الجلد ما يمكنها من الثبات أمام الغزاة المؤمنين ، فقد كان النزاع على العرش في بلاط كسرى بالغاً أشده ، وكانت الثورات والحروب الداخلية تنشب الحين بعد الحين بسببه . ولم يكن الروم أحسن حالاً ؛ فقد تارهرقل بالقيصر فوكاس وقتله وجلس على عرش بُرْنَطِيَّة مكانه . ثم إنه رأى النزاع الديني بين الفرق المسيحية

يفت في عضد الإمبراطورية ، فأراد فرض مذهب رسمي تتوحد فيه هذه المذاهب ويؤمن به المسيحيون جميعاً ، فانقلب سعيه وبالأعلى عليه ؛ لأنه لم يدع إلى مذهبه بالحسنى ، ولم يتخذ إليه سبيل الحكمة والموعظة الحسنة . هذا إلى أن فارس والروم كانتا في حروب متصلة ؛ تغزو فارس أرجاء الروم فتنتزع منها الشام ومصر ، ثم يسترد هرقل للروم ما انتزعه الفرس منهم ، فتذيب هذه الحروب الدولتين وتذهب بريحهما . وكان من أثر هذه الأحداث أن كان الشعب الفارسي ينظر إلى أعمال الأكرسة وبلاطهم ، فيرى عبثاً بصرفه عن التثبث بنصرتهم . وكانت الشعوب الخاضعة للروم تجد من ظلم القياصرة وعمالمهم ما يخذلها عن القيام بمعاونتهم . لهذا كله تداعت القوة المعنوية في فارس وفي الروم ، فلم تستطع أي الدولتين أن تصدر التيار الجارف الذي اندفع إليهما من شبه الجزيرة .

وتمَّ عامل آخر لا يصح إغفاله ، ذلك هو انتشار العرب في العراق والشام ، وقيام الملوك اللخمييين في الجزيرة والفسانيين في الشام . هؤلاء وأولئك لم يلبثوا ، حين رأوا بنى عمومتهم يقاثلون الفرس والروم ويحالف النصر أعلامهم ، أن انضم كثيرون منهم إلى صفوف المسلمين في القتال عوناً لهم ، وإن لم يدخلوا من بادىء الأمر في دينهم . وقد كان لهذه المعاونة من الأثر في غزوات عدّة ماخذل الفرس وخذل الروم ، وأسرع بالمسلمين إلى قهرهم واكتساح بلادهم .

هذه أهم العوامل التي أدت إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية بالسرعة التي قامت بها ، وإلى استقرارها بعد ذلك القرون الطوال . على أن الفصل في هذا الاستقرار يشترك فيه عامل آخر كان له أعظم الأثر ، هذا العامل هو السياسة التي أديرت على مقتضاها شؤون البلاد المفتوحة وشؤون البلاد العربية نفسها . ولعمر بن الخطاب في إقرار هذه السياسة حظ عظيم .

صحیح أن المبادئ الأساسية لهذه السياسة ترتكز على قواعد الإسلام وتعاليمه . وقد فصل رسول الله وفصل أبو بكر من بعده بعض هذه المبادئ تفصيلاً اقتدى به عمر ، فكان قوى الأثر في توجيهه . وعلى أساس من هذه المبادئ وهذا التوجيه أنشأ عمر للبلاد العربية وللإمبراطورية كلها نظاماً اتبع في عهده ، واتبع زماناً من بعده . وهذا النظام هو

الذي صان الإمبراطورية وأبقاها ، ثم كان له أعمق الأثر في إسلام أهل فارس والعراق والشام ومصر وغيرها من البلاد التي انضمت من بعد إلى العالم الإسلامي . وقد اجتهد عمر برأيه في وضع هذا النظام اجتهاداً يسجل له في صحف التاريخ مجداً لا يقل عن مجده في بقاء الإمبراطورية إن لم يزد عليه .

وسيرى القارئ من تفصيل هذا النظام في فصول الكتاب ما يغني عن القول فيه هنا . على أنني أضرب منه مثلاً . ذلك أن الغزاة المسلمين أرادوا أن يقسم الخليفة بينهم سواد العراق وأرض الشام على أنها فيء غنموه ، فأبى عمر ذلك عليهم ، ترك الأرض لأهل البلاد يستغلونها كما كانوا يفعلون من قبلي ، لقاء خراج يدفعونه عنها . ولم يكفه هذا ، بل بعث رجالاً قاموا بمساحة هذه الأراضي وبجلب المياه إليها لتسهيل ربيها وتيسير كل السبل لاستغلالها . ومن قبيل ذلك أنه أقر سياسة عمرو بن العاص حين حبس من خراج مصر وجزيتهما ما يقتضيه إصلاح الترع والجسور ، ولم يبعث إلى المدينة إلا بما فاض عن ذلك . ثم إنه رأى إعفاء من أسلم من أهل البلاد المفتوحة من الجزية ومساواتهم بالمسلمين الفاتحين ، فكان ذلك مغرباً لكثير منهم بالدخول في الإسلام . وإسلامهم هو الذي جعل منهم في أجيال قليلة هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف . وقد أعفاهم عمر من الجزية وسأواهم بالفاتحين وهو يعلم ما سياتر على ذلك من نقص في موارد المدينة ، ومن رد الحكم في هذه البلاد إلى أهلها . ومع ذلك لم يتردد في الأمر ولم تنهه هذه الاعتبارات عنه ؛ لأن المسلمين لم يفتحوا هذه البلاد لإخضاع أهلها ، وإنما فتحوها لتكون الدعوة للإسلام حرة فيها ، فإذا أسلم بنوها أصبحوا بنعمة الله إخواناً للمسلمين الفاتحين ، لهم من الحقوق ما لهم ، وعليهم الواجبات ما عليهم .

أما وقد كانت هذه سياسة عمر ، وكان هذا هو النظام الذي وضعه للإمبراطورية الناشئة ، فطبيعي أن يذكره المسلمون على كر الدهور في أرجاء العالم الإسلامي كله ، وأن يقرنوا ذكره بكل إجلال وإكبار . وقد فعلوا ، ولن يزالوا يفعلون . ولذلك أرخ العلماء والكتاب لعمر أكثر مما أرخوا لغيره من أمراء المؤمنين ، لم يثنهم عن ذلك أن لم تسكن لعمر بطانة تدعو إليه وتدفع الناس بمختلف الوسائل للإشادة بذكره .

بل لقد بلغ من إكبار المؤرخين لسيرته أن أضافوا إليه أمراً أدنى إلى المعجزات التي خُصَّ بها الأنبياء ، وأن ذكروا ما لا يستطيع المؤرخ إثباته . وعمر في غير حاجة إلى شيء من ذلك يضاف إلى سيرته . فسا قام هو به وما تم في عهده مما يقرره النقد التاريخي ؛ يقيم له في صحف التاريخ صرحاً عالياً باقياً إلى الأبد .

ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق إلى سيرة عمر لأغنوا من جاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها ، ولجئبهم الاختلاف على مبلغ صحتها ، ولما طُفَّ ذلك من قدر عمر ، ولا نقص من جلال صنعه . وقد رأيتُ من الخير أن أغفل من هذه الحوادث ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد ، ثم رأيتني بعد ذلك مضطراً إلى أن أثبت حوادث يتصور العقل في شيء من العسر وقوعها ، ومع هذا تضافر المؤرخون على روايتها تضافر توأريدعو إلى النزول على حكمهم فيها . وما كان لي إلاً أفعل ومن هذه الحوادث ما يزيد صورة عمر وضوحاً ، ومنها ما يتصل بسياسته في الحرب وبسياسته في إدارة شؤون الدولة أوثق اتصال . على أنني حاولت أن أفسر ما استطعت تفسيره من هذه الحوادث على هدى البحث العلمي . وأكبر رجائي أن يكون التوفيق قد صادفني فيما حاولته من ذلك .

على أن هذه الصعوبة في التمحيص والتفسير ليست كل ما يلقاه المنقب في كتب الأقدمين عن سيرة عمر . بل إنك لترى هؤلاء الأقدمين يختلفون في بعض الأحيان على الوقائع اختلافاً يقف الإنسان منه موقف الحيرة . ثم إن من هؤلاء المؤرخين من يُسهبون في طائفة من الوقائع ويتناولون أدق تفاصيلها ، على حين يحمولون طائفة أخرى إجمالاً لا تكاد تبين معه دلالتها . وأسوق مثلاً لذلك : أن الطبري وابن الأثير والبلاذري يتحدثون عن وقائع الغزوة في العراق بإسهاب تكاد ترى معه أعمال كل بطل من أبطال هذه الوقائع ، فإذا انتقلوا إلى سياسة المسلمين وإدارتهم للبلاد بعد فتحها أجملوا الحديث فيها إجمالاً لا يتفق بحال من إسهابهم الأول . وهؤلاء المؤرخون أنفسهم أقل إسهاباً حين الحديث من فتح الشام ، وإن كانوا مع ذلك قد وقوه حقه . . أما حديثهم عن مصر فوجز إيجازاً لا يبالي من يسميه مخلا . وحسبك لتشاركني في هذا الرأي أن تعلم أن الطبري قد أفرد لغزوة القادسية وحدها أكثر من ستين صفحة ، وقد تحدّث عن فتح المدائن

في اثنتي عشرة صفحة ، ثم لم يجعل لفتح مصر كلها غير خمس صفحات .  
ولا شك في أن غزوة القادسية جديرة بأعظم العناية في التأريخ لها ؛ فهي التي مهدت  
للمسلمين العود إلى العراق بعد أن أجلاهم الفرس عنه ، وفتحت لهم أبواب المدائن ثم  
أبواب فارس كلها . لكن فتح مصر لم يكن دون فتح العراق وفتح فارس خطراً ،  
وكان لذلك جديراً بأن يلفت هؤلاء المؤرخين ليتوقفوا على استيفائه أكثر مما فعلوا .  
وقد نلتمس لهؤلاء المؤرخين من العذر أنهم درّبوا ما استطاعوا الوقوف عليه من  
الروايات ، أو أنهم كانوا أكثر عناية بالبلاد التي نشأوا فيها منهم بالبلاد البعيدة عنهم .  
ولا أراني في حاجة إلى الاعتذار عنهم ولا إلى نقد طريقتهم وقد فصلت بيننا وبينهم قرون  
عدّة ، وأنا بعدُ بصدد الحديث عما يلقاه من يؤرخ اليوم لذلك العصر القديم من جهد .  
ولذا أسارع إلى القول بأن في تناول هذا المؤرخ مادة لا ينضب معينها يستطيع أن يسد بها  
كل نقص . فما أجمله الطبري وابن الأثير وابن خلدون والبلاذري وابن كثير قد فصله  
غيرهم تفصيلاً يقف منه الإنسان على ما يشاء . أشرت إلى إجمال هؤلاء تاريخ الفتح  
العربي لمصر ؛ لكن هذا الفتح مفصل في كتب أخرى أدقّ تفصيل . فقد كتب  
ابن عبد الحكم والسيوطي وابن تفرّج برّدي عنه وفصلوه ما فصل الطبري فتح العراق .  
والكتب التي وضعت في لغات غير العربية تأتي من الضياء على تاريخ الفتح الإسلامي  
والإمبراطورية الإسلامية ما لا غنى لمؤرخ عن الاستئانة به . وتمحيص الوقائع بموازنة  
ما جاء عنها في كتب المؤرخين على اختلاف لغاتهم ومناهجهم وميولهم خير عون على  
الاهتداء إلى الحق . وهذا إلى ما لمؤرخي العصر الحديث في الشرق والغرب من فضل  
في بحث ما أوردته كتب الذين سبقوهم وفي تمحيصه وإبرازه في صورة تتفق ومألوف  
هذا العصر في التفكير والتقدير . أما ومادة التاريخ متوافرة هذا التوافر فلن يصد الجهد  
باحثاً عن الاستفادة منها في الناحية التي يريد أن يعرض لها ويطلع الناس بما يعتقد  
الحق فيها .

فلكل مؤرخ ناحية تستأثر بعنايته يتوفر على دراستها ويجعل ما سواها سنداً له  
في هذه الدراسة . والمؤرخ الذي ينقطع لدرس عهد بذاته من كل نواحيه يقسم هذا العهد



وإن قصر، ويفر ذلك نكاحية منه دراسة خاصة قد تستغرق المجلد أو المجلدات . فإذا أراد أن يلخص هذه النواحي جميعاً كان تلخيصه أدنى إلى البحث في فلسفة التاريخ منه إلى التاريخ نفسه .

ولفأخذ موضوع عمز مثلاً يوضح ما تقدم : فقد يُعنى المؤرخ بشخص عمر ويقف عنده ، ويجعل من كل ما يقع في بيئته وعصره وسيلة للمزيد من إيضاح صورته . وقد يعنى بمعهد عمر في ناحيته الاقتصادية أو في ناحيته الاجتماعية أو في غير هاتين الناحيتين من نواحي الحياة العربية ، وبما كان لعمر من أثر في الناحية التي جعلها المؤرخ غرض دراسته . وكل واحدة من هذه النواحي جديرة بعناية خاصة في الدرس ، كقيلة بأن تبرز للناس سقراً قياً يجمع بين المتاع به والفائدة منه . ودراسة الحياة الأدبية للجماعة العربية في عهد عمر دراسة مستفيضة كقيلة بأن تبين للناس كيف تأثرت هذه الحياة بالتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية التي سبقت هذا العهد وعاصرته ، وأن تضيف إلى المكتبة العلمية ثروة علمية وأدبية أعظم بما فيها للناس من متاع وقائدة .

وقد تناولت في هذا الكتاب ، كما تناولت في « حياة محمد » وفي « الصديق أبو بكر » . نواحي من الحياة العربية لذلك العهد ، رأيت تناولها مما يكمل به ما عرضت له من بحث لكنني لم أتناولها بدراسة مستفيضة ؛ لأنها لم تكن غرضي الذي قصدت إليه ، بل تناولتها بالقدر الذي يتم به هذا الغرض . فأما ما قصدت إليه من وضع هذه الكتب فقد بينته في تقديم كل واحد منها . فقلت في تقديم « حياة محمد » إنه : بينا يقوم بين الشرق والغرب تعاون علمي جدير بأن يؤتى خير الثمرات ، إذا طائفة من رجال الكنيسة المسيحية ومن كتاب الغرب لا يفترون عن الطعن على الإسلام وعلى محمد ، وإذا الاستعمار الغربي يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأي ، ويؤيد في الوقت نفسه دعاة الجمود من المسلمين ، ويخاصم من يحاربون هؤلاء أو أولئك . وقد رأيت ما يحدث من ذلك في بلاد الشرق الإسلامي ، بل في البلاد الإسلامية كلها ، ورأيت ما بقصد إليه من القضاء على الروح المعنوية في هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأي وحرية البحث ابتغاء الحقيقة ، فشعرت بأن عليّ واجباً لا مفرّ لي من القيام به ، فعمدت إلى دراسة حياة محمد صاحب

الرسالة الإسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجود الجامدين المسلمين من ناحية أخرى ، على أن تكون دراسة علمية خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده . وهذه الدراسة جديرة لذاتها بأن تهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة التي تتلمسها .

أما كتاب « الصديق أبو بكر » فقد بدأت فيه بدراسة الإمبراطورية الإسلامية وأسباب عظمتها وانحلالها ؛ لأن هذه الإمبراطورية قامت على أساس من تعاليم النبي العربي وسنته ، ولأن الشعوب التي تمحضت عنها هذه الإمبراطورية بعد انحلالها ترتبط كلها بالإسلام ، ويرتبط أكثرها بالعربية ، وقد عقد بينها الماضي صلوات لا انفصام لها ما بقي الإسلام وما بقيت اللغة العربية . وفي تنظيم هذه الصلوات خير الإنسانية عظيم . ولا سبيل إلى هذا التنظيم إلا معرفة ما كان بين هذه الأمم في الماضي من صلابة ، فمعرفة الماضي هي سبيلنا لمعرفة التشخيص الحاضر والتنظيم المستقبل .

وهذا الكتاب عن عمر حلقة ثلاثة من هذه السلسلة . لكنها تختلف عن الحلقة الأولى ، كما تختلف كل واحدة من هاتين الحلقتين عن الأخرى اختلافاً ظاهراً . هذا مع توالد الحلقات الثلاث كل واحدة عن سابقتها ، كما تخرج الجذور من البذر ، ثم ينبثق الجذع باسماً من الجذور ، ثم تتفرع الأغصان من الجذع . قد تذبل الأغصان ويبقى الجذع مع ذلك قوى الحيوية ، بل قد يحف الجذع ثم تبقى الجذور سائمة قادرة على أن ينشئ جذعاً أقوى وفروعاً أكثر نضارة . فإذا كانت الإمبراطورية الإسلامية قد انحلت فلا يزال الإسلام الذي أنشأها قديراً على أن ينشئ وحدة إنسانية عظيمة تلائم روح العصر ونظامه .

وقد اقتضاني تصوير النشأة الأولى للإمبراطورية الإسلامية أن أتناول بالبحث نواحي الحياة المختلفة لشبه الجزيرة والبلاد التي فتحها المسلمون الأولون ؛ على أنني لم أقف عند هذه النواحي إلا بالقدر الذي اقتضاه قيام هذه الإمبراطورية . وليس هذا القدر مع ذلك باليسير ؛ فهو يجلو صورة ، وإن موجزة ، للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد العرب ، وصورة مثلها قد تكون أكثر إيجازاً لنواحي الحياة في البلاد المفتوحة . وقد حاولت هذا التصوير في الكتابين السابقين من هذه السلسلة ، ثم حاولته على وجه أوفى في هذا

الكتاب ، وبخاصة ما اتصل بشؤون الفرس والروم . وأكبر جأنى ألا يبلغ هذا الإيجاز مبلغاً يقصر عن أن ينقل إلى ذهن القارئ ما أردت تصويره .

وهذه الحلقات الثلاث التي تؤرخ لنشأة الإمبراطورية الإسلامية والعالم الإسلامى ، تصور فترة من تاريخ العالم هي لا شك أمتع الفترات في الحياة الإنسانية ، وأكثرها وقفاً للنظر ، وإيجاء للتفكير والتأمل . فهي تدل على أن الحياة الإنسانية فكرة أولاً وقبل كل شيء . وهي في إقامتها هذا الدليل ترسم لنا سلسلة من الصور تعاقبت في زمن قصير تعاقباً محتوماً ، ولكنه مع ذلك فذو في تاريخ الإنسانية مذ كانت الإنسانية . ذلك بأنها تصور الفكرة المستجمة في نفس من أعدّه القدر ليبلغ العالم رسالته ؛ وظهور هذه الفكرة بوحي من الله إلى رسوله ليدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ وقيام الناس في وجه الفكرة ومحاربتهم لها ابتغاء وأدها والقضاء عليها ؛ وانتصار الفكرة بانتصار رسولها ، وإقبال الناس لذلك عليها مأخوذين بعظمته وقوة شخصيته ؛ وانصراف الناس بعد وفاة صاحب الفكرة إلى مألوف حياتهم فراراً من فروضها ؛ وقومة من صدق إيمانهم بالفكرة وإعادتهم المرتدين إلى حماها وإلزامهم أداء فروضها ؛ وتأصل الفكرة بعد ذلك في الوجود تأصلاً جعل منها قوة لا قبل لشيء في الحياة بها ولا قدرة لسلطان أن يتغلب عليها ؛ وبلوغها من هذا التأصل مبلغاً جمع إليها عالمًا يغرس في أفطان الأرض المختلفة أصولها . أية صورة أروع من هذه الصورة وأكثر امتاعاً للعقل والقلب والمدارك !! . وهل قام في تاريخ العالم دليل على قوة الفكرة لذاتها ومقدرتها على اكتساح الإمبراطوريات مثل هذا الدليل ؟

لا ريب في أن تاريخ الإنسانية يتلخص كله في بضعة أفكار رئيسية قام نظام العالم على أسسها . وقد سلكت كل واحدة من هذه الأفكار طريقها إلى النفوس وتركت على الحياة أثرها ، لكن كل واحدة منها لم تكن تكاد تظهر حتى تلتقي من المقاومة ما يردّها إلى حدود ضيقة تنكش فيها ليردها الناس من بعد يريدون تمحيص ما تنطوى عليه من حق ونقي ما يخالطها من زيف ، ثم ينتهون إلى صورة معدلة من الفكرة الرئيسية يرتضون العيش في كنفها . وهم لا ينتهون إلى هذه الصورة المعدلة قبل أن تنفضي أجيال ويستحرق

نضال وتسيل دماء وتزهق أرواح ، ثم تكون الفكرة في أثناء ذلك كله محل أخذ ورد ونفي وإثبات وتعديل يجعل مانتتهى إليه شيئاً عن صورتها الأولى جيداً الاختلاف .  
 يل إن من الأفكار ما يظهر ثم لا يحتل النضال ، فيختفي إلى غير عودة . ولدينا من ذلك مثل يقابل قيام الإسلام حين نشأته . ذلك ما حاوله هرقل من توحيد المذاهب المسيحية وإدماجها في مذهب رسمي يُفرض في أرجاء الإمبراطورية كلها . ففقد بذلك هرقل غاية جهده لتنجح محاولته : جمع الجامع من كبار رجال الدين وفرض عليهم أن يتفقوا ، وانفق من هؤلاء الرجال من اتفق ، وأقام على رأيه من أقام . ثم إن الإمبراطور أرسل عماله إلى الشام وإلى مصر وإلى غيرها من البلاد الخاضعة لسلطانه يدعون الناس إلى للمذهب الرسمي طوعاً وكرهاً . ولجأ هؤلاء العمال إلى كل الوسائل لتنفيذ ما أمرهم هرقل بتنفيذه . مع ذلك التوى القصد عليهم ، وثار الناس في كل البلاد بهم ، فأخذوا الثائرين بألوان النكال ، فكانت مأس ومذامح انتهت كلها إلى إخفاق الإمبراطور فيما حاول وقد رأى هذا الإخفاق بعينه قيل أن يموت ، ولعله سأل نفسه مررات وظل يسأل إلى ساعتها الأخيرة : كيف نجح النبي العربي ولا سلطان له في إقامة دين جديد ، وأخفق هو ، وله من الأيد والسلطان ماله ، في جمع الناس حول مذهب موحد لدين استقر في العالم أكثر من ستة قرون ١٩ .

وهو قد عجز ، ولا ريب ، عن أن يظفر بجواب على سؤاله . فلو أنه ظفر بهذا الجواب لما ترك عماله يعمنون في إرهاب الناس وفي تعذيبهم وقتلهم ، حتى يفتح المسلمون سورية ويفتحوا مصر ويحلوه وجنوده عنهما ويضطروهم إلى الفرار منهما . ولو أن بطش الملك لم يَطغ على تفسكيره ولم يحجب الجواب عنه لاهتدى إليه . فهذا الجواب بسيط كل البساطة ؛ وهو أن النبي العربي نجح لأنه لم يكن له سلطان غير سلطان العقيدة السليمة التي دعا الناس طوعاً بأسر ربه إليها ، وأن هرقل أخفق لأنه أراد إكراه الناس على مذهب لم تهتد بصائرهم إلى أنه خير مما يؤمنون به . وقد نجح النبي العربي لأنه لم يكن يتمصب لغير الحق ، فكان يقول بوحى ربه : « آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ

النَّبِيِّونَ مِنْ رَبِّهِمْ . لَا فَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَمَنْ لَهُ مُسْلِمُونَ . » . وأخفق هرقل لأنه تعصب لذهب على غيره من مذاهب تنسب كلها لعيسى عليه السلام ، ولحوارييه . ونجح النبي العربي لأنه لم يكن يبتغى للناس غير الهدى إلى سبيل ربهم ، فكان يقول لو فقد النصراني الذين جاءوا من نجران يجادلونه : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . » . وأخفق هرقل لأنه أراد أن يتخذ بعض الناس بعضاً أرباباً من دون الله ، فنار الناس به حين رأوا دعوته وليس فيها من الحق ما يصرفهم عما وجدوا عليه آباؤهم . لهذه الأسباب نجح النبي العربي بإذن ربه ، وقامت على أساس دعوته إمبراطورية استقر فيها مادعا إليه . وكانت هذه الإمبراطورية قبيضة أن تضم العالم كله في كنفها لولا أن غير أصحابها ما بأنفسهم فغير الله ما بهم .

وإنما غير المسلمون ما بأنفسهم يوم افترقوا مذاهب وشيعا ، فنقلوا تفكير الناس وعنايتهم من جلال العقيدة في صفاء جوهرها ، إلى الخوض في التفاصيل والجدل فيها جدلا زاد بينهم شقة الخلاف وجعل بعضهم لبعض عدواً . وطالما عاب رسول الله ثم عاب أبو بكر وعمر من بعده من دار مثل هذا الجدل بنحو اطهرهم . بل لقد نههم رسول الله إلى أن من هلك قبلهم من الأمم إنما هلك بسبب المجادلة في أمور لا يؤدي الجدل فيها إلى حق ولا ينشأ عنه غير الخلاف والتنازع والبغضاء . فقد رأى المسلمون الأولون مافي ذلك من حق فامتثلوا أمر النبي ، وأيقنوا أن الذين يجادلون في الدين إنما مثلهم كمثل اليهود والمنافقين الذين كانوا يندشون بين المسلمين يسألونهم : إذ كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ أو يسألونهم عن الروح ، يحاولون بهذه المسائل وبمثالها أن يدسوا إلى عقولهم الشك في عقيدتهم . وقد كان الوحي ينزل بالجواب على بعض هذه المسائل في إيجاز حاسم ، فيقول تعالى : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . ويقول : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . ويقول : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » . ويقول : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » .

وكان عمر أشد الناس كراهية للاختلاف ، فكان يهدد الذين يختلفون ولو كانوا من أصحاب رسول الله ومن أرفعهم مكانة عند المسامحين . ولا عجب في أن يكون ذلك شأنه ، وسيرى من بعد أن يتفق مع تفكيره في جاهليته وفي إسلامه . وليس يرجع ذلك إلى ما زعمه بعضهم من ضيق أفقه ؛ فقد كان عمر من أكثر أهل زمانه علماً وأوسعهم أفقاً ، بل لأنه كان يقدم نظام الجماعة على كل اعتبار ، ويرى في ثبات هذا النظام واستقراره أقوى كفيل بخير الأفراد وبخير المجموع كله .

كيف يتفق هذا النفور الشديد من الاختلاف في الرأي مع دعوة الإسلام إلى النظر والتدبر والحكم ؟ وكيف يمكن لحرية الرأي أن تستقر في بيئة يهدد صاحب السلطان فيها بمعاينة المختلفين ؟

هذا اعتراض أورده بعض المستشرقين بالفعل . ونحن ندفعه هنا ، لغير شيء إلا أن تاريخ الفكر الإنساني ينفقه . فكثرة العلماء تذهب اليوم إلى أن التجريد المنطقي في الفروض النظرية إنما تسلط على تفكير الإنسانية في العصر الميتافيزيقي حين لم يجد ذهن من المقررات العلمية سنداً له في الحياة ، فكان هذا التجريد ملجأً نشاطه . وهو قد أتجه بهذا التجريد إلى نظريات لا تثبت عن طريق العلم ، وتناول به أموراً يدخل معظمها في دائرة ما سماه هيربرت سبنسر ( مالا سبيل إلى معرفته The Enknowable ) . فلما استقر العلم وقامت الفلسفة الواقعية على أساسه ، أصبح هذا التجريد المنطقي ترفاً عقلياً ضعيف الأثر في حياة العالم الفكرية . فإذا كان رسول الله وكان خلفاؤه الأولون قد نهوا عن الخوض فيما لا سبيل إلى معرفته ، لأن هذا الخوض يثير الخلاف والتنازع ، فهم بذلك لم يحرّموا حرية الفكر ، بل قاوموا طريقة بذاتها من طرق التفكير بصفها العلم اليوم بأنها طريقة الجدل العقيم .

فأما صور التفكير المستندة إلى وقائع الحياة والوجود ، والتي يعتبرها العلم اليوم موضع نظره ومجال بحثه ، فكانت محل التشاور والعناية في ذلك العهد ، وكان ما يتصل منها بشؤون الحكم والقضاء مدار الاجتهاد بالرأي ، فإن أصاب المجتهد فن الله ، وإن أخطأ فن نفسه ومن الشيطان .

وسيرى القارىء فى صلب الكتاب تفصيلاً لبعض ما حرّم الاختلاف فيه وحكمة هذا التحريم . وحسبى أن أشير إلى نهى رسول الله عن الخوض فى مسألة القدر فنستبين هذه الحكمة . فقد أثارَت مسألة القدر فى عصور التجريد (الميتافيزيقى) أشدَّ الخلاف وأعظم الجدل ، وهى مع ذلك لم تنته ، ولا يمكن أن تنتهى يوماً إلى نتيجة . وهذا دليل على أن النهى عن الخوض فيها كان الحكمة عين الحكمة . وتبلغ هذه الحكمة حدَّ البدهاة إذا ذكرنا أن الدين كان يومئذ فى إبان نشأته ، وأن اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يحاربون مبادئه الرئيسية ، بإثارة ما قد يتصل بهامن المسائل الجدلية ، لينشروا حول هذه المبادئ جواً من الريبة يصرف الناس عنها . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصدر الأول للإسلام كان عهد جهاد متصل ، وأن ما يؤدى إليه الجدل من الاختلاف ينجى على هذا الجهاد ويضر بالجهاد الذى يبذل لنجاحه ، لم يبق للاعتراض الذى أورده بعض المستشرقين أساس ، وكان لشدة عمر فى النهى عن كل ما يثير الخلاف مسوغ بل موجب .

لا أستطيع ، وقد أجملت فى هذا التقديم ما نضافر من العوامل لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، ألا أتحدث عن عمر نفسه . فسيرى القارىء صورته واضحة قوية الأثر فى كل فصل من فصول هذا الكتاب . وقد يرى من بروز شخصيته ما يدعو للموازنة بينه وبين أبى بكر . لهذا أسارع قبل الحديث عن عمر فأثبت هنا نص ما ذكرته فى تقديم «الصدىق أبو بكر» إذ قلت : «قد يبلغ الأمر ببعضهم أن يوازن بين عهد أبى بكر وعهد عمر ليفاضل بينهما . وهذه مفاضلة لا موضع لها بين رجلين بلغ كل منهما من مراتب العظمة ما قل أن يبلغه سياسى أو حاكم الأمة فى تاريخ العالم كله . ولقد كان عهد عمر من أعظم عهود الإسلام لا ريب ؛ فيه استقرت قواعد الإمبراطورية ، واستتب نظام الحكم ، ورف لواء الإسلام على مصر وغير مصر من البلاد التى اعتز بها الروم واعتز بها الفرس . لكن هذا العهد الفاروق العظيم مدين لعهد الصديق ومتم له ، كدَيْن خلافة الصديق لعهد رسول الله وإتمامها له .»

على أنه إذا لم يكن للموازنة بين العهدين موضع وعهد عمر متم لعهد أبى بكر ،

فإن الموازنة بين الرجلين يسيرة ، ومن شأنها أن تجلو لنا من صورتيهما ما يزيدنا إدراكاً لقيمة ما أحرزه كل منهما من الفوز في عهده . ولسنا نجد في هذه الموازنة تصويراً خيراً من تصوير رسول الله حين شاورَ المسامين في أسرى بدر ، فأشار أبو بكر بقبول الفداء منهم ، وأشار عمر بضرب أعناقهم . فقد ضرب رسول الله للمسامين في كل من الرجلين مثلاً ؛ فأما أبو بكر فمثله في الملائكة كمثل ميكال ينزل برحمة الله وعفوه عن عباده ، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم ، كان ألين على قومه من العسل . قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : « أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . وأن قال : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . ومثله في الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : « إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله . ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا » ، وكمثل موسى إذ يقول : « رَبَّنَا أَطْمِئِنُّ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

هذه الصورة تصف كلا الرجلين في حياة الرسول أدق الوصف . فلما استُخْلِيفَ أبو بكر بقي على رفقته ولينه في كل أمر لا يتصل بعقيدته وإيمانه . فأما ما اتصل بالعقيدة والإيمان ، فلم يكن موضع رفق أو لين عنده . ذلك أن نفسه كانت تنطوى على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام ، وعلى مقدرة ممتازة في بناء الرجال وإبراز ملكاتهم ومواهبهم ، وفي دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة . لذلك كان إذا عهد إلى أحدهم في أمر ترك له من الحرية في تنفيذه ما يتفق وثقته به ، وثقته بحسن تقديره هو في اختيار هذا الرجل . من ثم رأيناه يضع أنخطط العامة لقواده في حروب الردة وفي غزو العراق والشام ، ويترك تفصيلها لهم ولا يسألهم حساباً ما نجحوا في مهمتهم . فإذا لم يصادفهم التوفيق فسكّر في سبب إخفاقهم والتمس الوسيلة لعلاجه . كذلك فعل حين أبي على القواد الذين لم ينتصروا في حروب الردة وفي غزو الشام أن يعودوا إلى المدينة ، حتى لا يرهن عودهم إليها من يقيمون بها ، وحين وقف قواد الشام موقف الجود أمام الروم ،



فأمدهم بخالد بن الوليد ونقله إليهم من العراق ، حتى ينسى الروم وساوس الشيطان . ولم يكن ذلك شأنه مع القواد في وقائع الحرب وكفى ، بل كان كذلك شأنه في الأمور الدينية ؛ لا يتدخل فيما عهد منها إلى عماله إلا لتقويم معوج أو إصلاح فاسد . أما ما سارت الأمور سيرتها السلمية فهو يدعها لينصرف إلى غيرها من شؤون الدولة . ولهذا ترك زيد بن ثابت بعد أن عهد إليه في جمع القرآن يقوم بمهمته ، فلم يكن يتدخل في عمله إلا حين يطلب زيد إليه رأيه .

والأمير الذي يقف من سياسته عند الأمور العامة مطمئناً إلى عماله واثقاً بهم ، يبرز اسم عماله إلى جانب اسمه ، فيحسب من لا يتعلق في الأمور أن لبعض العمال فضلاً أعظم من فضله . وهذا خطأ في التقدير ؛ فالفكرة الأساسية هي كل شيء في كل عمل . وحرية العامل الموثوق به في تولى التفاصيل تزيد هذا العامل نشاطاً وإقداماً على الاضطلاع بالتبوعات ، وحرصاً على الفوز بمزيد من ثقة الأمير به ، ليزداد ركونه إليه وتقديمه له .

كانت هذه السياسة متفقة مع طبيعة أبي بكر وما عرف من لينه ورفقه وحسن إيمانه وقوة عقيدته ، متفقة كذلك مع سنّه ؛ فقد تولى الخلافة حين جاوز الستين من عمره ، ضعيف البدن رقيقه . أما عمر فتولى الخلافة وسنه حول الخمسين ، وفيه من قوة النشاط في كل شيء ، لا تكمن ذاتيته حتى تبرزها الحوادث في جلال قوتها ، بل كانت ذاتيته دائمة البروز ، وكان لذلك حريصاً على أن يتولى الجليل والدقيق من شؤون المسلمين أفراداً وجماعات ما استطاع . وهذا البروز في الذاتية كان يدفعه ، مع ثقته بمن يعهد إليهم في أمور الدولة ، إلى أن يجعل عينه دائماً عليهم وأن يكون دائم الاتصال بهم ، حتى تحاله وهو بالمدينة حاضراً مع من كان منهم بالعراق أو بالشام أو بفارس أو بمصر . وهذا الاتصال وهذه المراقبة جعلاه دقيق المحاسبة لهم دقة ثارت لها غير مرة نفوس بعضهم . ولو أن من ثارت به نفوسهم كان رجلاً غير عمر في قوته وصلابته وبأسه لكان لهذه الثورة من الأثر ما يخشى ألا تُحمد عاقبته .

وكان لذاتية عمر وبروزها أثرٌ في الحياة العقلية كأثرها في إدارة الشؤون العامة .

فقد كان من أكثر المسلمين اجتهاداً بالرأى . كان ذلك شأنه في حياة الرسول وفي حياة أبي بكر ، ثم كان المجتهد الأول في خلافته . فلم تعرض مسألة تعنى الجماعة الإسلامية إلا كان له فيها رأى ، ولم تكن مسألة فقهية إلا كان ما يستقر عليه حكمه فيها حجة يأخذ بها الناس في عهده ، ويأخذ بها الناس من بعده . وسترى أنه خالف رسول الله وخلافته أبا بكر غير مرة ، وأن الوحى أيد رأيه أحياناً وخالفه أحياناً أخرى ، وأن الناس في خلافته كانوا يطمثون إلى اجتهاده أيما اطمثان . ولقد زاد في قدر رأيه أنه اطّرح وراء ظهره كل مصلحة خاصة وكل اعتبار ذاتى ، وأنه تجرّد لله ولدين الله ولخير المسلمين تجرداً لم يوصف به أحد من أمراء المؤمنين بعده .

ولو أن ماروى عن إنكار نفسه كان كله صحيحاً لكان عمر مثلاً فذّاً في التاريخ ، ولكان أذى إلى مراتب الأنبياء والرسل منه إلى مراتب العظام<sup>(١)</sup> . فهذا الرجل الذى بلغ أسمى مكانة في عصره ، فكان العاهل المطلق اليد في الإمبراطورية الكبرى لعالم يومئذ ، قد كان يأبى على نفسه كل ما يُرْفُه عنها ، ويحرص على أن يعيش عيش الفقير لبسه ما يمسّه . على أن زهده في الدنيا لم يكن زهد عائف عنها ، بل كان زهد قادر عليها متحكماً فيها . ولذلك كان ، مع شدة ورعه وعظيم تقواه ، ينكر صنيع أولئك المتنسكين الذين يرون في الحرمان متاعاً ولذة ، والذين يخفضون من أصواتهم إذا تكلموا ويتباطئون في مشيتهم إذا ساروا ، يريدون أن يقول الناس عنهم إنهم نُسّاك . ذلك لأنه كان يمتد الضعف في كل مظهره ، وكان أشدّ مقتاً للتظاهر به .

وزهد عمر في أنعم الحياة هو الذى طوّع له أن يكون مضرب المثل في العدل . فقد كان لهذا الزهد لا يخشى إلا الله ، ولا يرجو أحداً غيره . وكانت خشيته الله ورجاؤه إياه شديدين . وكان يعلم أن الله محاسبه عما ولى من أمر المسلمين فيزداد خشية ، فتزيده الخشية حرصاً على تحرى العدل إرضاءً لله جل شأنه . لذلك كان في عدله لا يفرّق بين قريب له وبعيد عنه ؛ فالؤمنون عنده جميعاً سواء ، ومن دخل في ذمة المسلمين أصبح

(١) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كان من بعدى نبى لكان عمر ابن الخطاب » رواه عقبه بن عامر في مسند أحمد .

وله من الحق في عدل أمير المؤمنين ما لم . وحبه العدل مجرداً من الهوى جعله يطلب إلى عماله أن يكونوا مثله عدلاً وإنصافاً ، ويطلب إلى الناس في أرجاء الإمبراطورية أن يرفموا إليه ما قد ينزل بهم على يد عماله من حيف حتى ينصفهم إذا رأى إنصافهم حقاً . فإن شكوا إليه عاملاً كيداً بغير حق أنصف هذا العامل منهم ، لتبقى للحكم هيئته ، وليبقى للعامل العادل مكانه وسلطانه .

وزهده عمر في أنعم الحياة هو الذي دفع إلى قلبه من الرفق بالفقراء والعطف عليهم ما خشى الناس يوم استخلف ألا يكون له منه نصيب . فقد رأوه في عهد رسول الله عادلاً صارم العدل ، ورأوه في عهد أبي بكر شديد البطش بالظالمين ؛ فلم يدُرْ بخلد أحدهم أنه سيعرف الرحمة حياته . لهذا لم يلبث ، حين آل الأمر إليه ، أن احتفظ بكل شدته على الظالمين ، ثم كان بالضعفاء والفقراء برّاً رحياً ، بل كان أحنّ عليهم من آبائهم وأمهاتهم : يكفكف دموعهم ويحمل إليهم بنفسه حقوقهم ، ويرطام صغاراً وكباراً . والضعفاء والفقراء هم السواد في كل أمة . لذلك لم يلبث هذا السواد أن وجد في عمر ملجأ وملاذه ، وأن أصبح هذا الرجل الباطش أحب إليهم من أنفسهم ومن آبائهم .

لا أريد بما قدّمت أن عمر بن الخطاب لم يكن يخطيء ، أو أنه لم تكن له ميول تجعل الناس يختلفون في بعض أحكامه وسننهم كيف اختلفوا فيما كان بينه وبين خالد بن الوليد : يرى بعضهم أنه ظلم القائد القاهر الذي وضع للإمبراطورية أساسها ، ويرى آخرون أنه قصد إلى خير الإمبراطورية أكثر مما قصد إلى العدل في أمر خالد . وسننهم كذلك كيف عزل سعد بن أبي وقاص سياسة في غير محجّز ولا خيانة . لكن اختلاف الناس فيما اختلفوا فيه من آراء عمر ومن تصرفاته وأحكامه ، لا يغيّر من أنه لم يَمَلْ يوماً مع الهوى ولم يُخالف يوماً ضميره ، وأنه كان يحاسب نفسه أدقّ الحساب كلما اجتهد برأى أو قضى بحكم أو أصدر أمراً .

هذه صورة مجملة من حياة عمر ومن تصرفاته . وهي مفصّلة في هذا الكتاب تفصيلاً أرجو أن يجلوها بينة واضحة . وهذه الصورة تدلّك على ما كان لشخصه من أثر

في بناء الإمبراطورية العظيمة في الزمن الوجيز الذي قامت فيه ، ونكشف لك عن السبب الذي أبقى على التاريخ اسم هذا الرجل العظيم يتحدث الناس عنه على الأجيال في مشارق الأرض ومغاربها حديث إكبار وإعجاب .

على أن ما فصل في هذا الكتاب لم يتخط التاريخ السياسي لهذه الفترة القصيرة من حياة المسلمين الأولين . أما ما جاء في فصوله عن حياة العرب الاجتماعية وعن الفرس والروم ، وإنما جاء مجملأً أريد به إيضاح هذا التاريخ السياسي ، ولم يقصد به إلى تفصيل ما حدث من تطور الحياة الاجتماعية في بلاد العرب بقيام الإسلام ، ولا إلى تفصيل الحياة السياسية نفسها في البلاد التي فتحها المسلمون . كذلك لم يتناول الفصل الذي أفرد لاجتهاد عمر تفصيل هذا الاجتهاد . وقد تناول بعض العلماء والباحثين في عصرنا طائفة من هذه الفواحي ببحوث ممتعة أيما إمتاع . وللمستشرقين في مثل هذه البحوث فضل تقترن به أسماء مع أسماء علماء العربية وكتّابها . مع ذلك لا يزال هذا الميدان مفتقراً إلى التنقيب . وما أشك في أنه سيلقى من العناية ما هو جدير به .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفقنا جميعاً للحق في كل ما نعرض له من بحث . فالحق خير ما يرجو الباحث المنصف . والله خير حافظاً من الزلل ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

محمد بن عبد الله

## الفَصِيلُ الْأَوَّلُ

### عمر في جاهليته

استهل ذو القعدة لسنوات قبل مبعث النبي ، فأقبل العرب أفواجاً يحدون إبلهم من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة ليقيموا سوق عكاظ كعادتهم قبل الحج من كل عام . وكانت السوق تضطرب بمن جاءوا إليها من مختلف القبائل ، وفيهم من أهل مكة عدد غير قليل . وقد أقام هؤلاء العرب مضاربهم في فسحة البطحاء المترامية التي تقوم السوق عليها ، ثم جعلوا ناحية منها للتجارة . وفي هذه الناحية أقام جماعة أمام مضاربهم متاجر يعرضون فيها سلماً قلماً ما كان من صناعة الحجازيين أنفسهم ، في حين قد جاء أهل مكة ومن إليهم بأكثرها من اليمن ومن الشام في رحلتى الشتاء والصيف . والناس يؤثرون هذه المتاجر رجالاً ونساء ، يتعاونون منها ما يشاءون . وأكثر ما تقف النسوة عند البزازين بائعي الأقمشة والثياب ، يقلبن بين أيديهن شتى ألوانها ، ثم يخترن من نسج اليمن أو صناعة الشام ما تهوى إليه قلوبهن . فإذا كانت بينهن مליحة جذبت إلى المضرب من الشبان والرجال من يتظاهرون بالشراء ، وإن كانوا أشد حرصاً على اجتناء جمال المليحة منهم على مس الحرائر والمتاع بألوانها واقتناء ما يعجب منها . وعلى مقربة من هذه المتاجر قامت حلقات للهو يؤمها الشبان طرقاتاً من النهار وأطرافاً من الليل ؛ ولا تأبى الحسان أن يكن على مقربة منها . فإذا أقبل الليل ذهب الشبان يحتمسون الشراب حتى تميل أعناق بعضهم، ثم تركوا لنوازع اللهو والهوى العنان . ولم أدت هذه النوازع إلى مهارات ومصاولات بدأت طفيفة ثم تجسّمت ، حتى انتهت إلى قتال بين القبائل امتد على السنين .

قام شاعر يوماً في جانب السوق ينشد قصيدة له ؛ يتغزل في مطلعها ، ثم ينتقل من الغزل إلى المفاخرة بنفسه وبقبيلته ، ثم إلى التعريض بقبيلة نازعت قبيلته العام الفائت وإلى النيل منها . والتفت حول هذا الشاعر المجيد حلقة من أهل السوق تسمع له وتستجيد غزله . فلما انتقل من الغزل الفخر صفق له قوم طرباً ، وصاح به آخرون إنكاراً

واستمجاناً . أما إذا انتقل إلى التعريض بالقبيلة التي خاصمت قبيلته وإلى النيل منها ،  
فها هي ذى صيحات الطرب وصيحات الإنكار تنقلب نزاعاً عنيفاً يحرك السيوف  
في غمودها . فلما أتم الشاعر قصيدته قام شيخ ذو حكمة ودعا القوم إلى السلم ، وما زال بهم  
حتى جنحوا لها .

كان بين الذين يستمعون لهذا الشاعر شابٌ تجاوز سفة العشرين ، ضخيم جسمٍ مديد  
القامة ، تملو هامته هامات الجمع كله ، أبيض اللون تملوه حمرة تضرب بلونه السمرة .  
وقد كان يُنصت إلى الشاعر إنصات إعجاب يدفعه ليهز رأسه الحين بعد الحين ، آية  
اغتيابها بما سمع وطربه له ودقة تذوقه إياه . لم يشارك الصائحين في صياحهم ، لأن مفاخرة  
الشاعر بقبيلته لم تعنه ، وتعريضه بالقبيلة الأخرى لم يعنه كذلك ؛ فهو ليس من هذه  
القبيلة ولا من تلك ، بل لعل القبيلتين كانتا بعيدتين عن موطنه بعدما زاده انصرافاً عن  
أمرها إلى المتابع بجمال الشعر الذي يسمعه . وأتم الشاعر قصيدته فأقام الفتى ينصت لما  
يقول الحكيم . فلما جنح القوم للسلم انصرف يتقدم جماعة من أصحابه مسرعاً في مشيته  
حتى لقد شق على تابعيه أن يلحقوا به . ذلك لأنه كان أروح في رجليه سعة فلا يعرف في  
المشي بطئاً . وكان أصحابه يحادثونه علمهم يستوقفونه فلا يفوتهم بسعة خطوه . واتصل هذا  
الحديث متنقلاً في الحوار الهادى إلى جدل فيه عذفٌ وشدة . عند ذلك وقف الشاب ،  
وقد احمرت عيناه وبدت عليه أمارات الغضب ، فنفخ وفتل شاربه الطويل وقال :

— بهذا الفتى تحوّفوني !! لست للخطاب إن لم أصرعه لأول ما ألقاه !!

واندفع في طريقه أكثر إسرعاً ، حتى كانت خطوات أصحابه من خلفه أدنى إلى  
المرولة منها إلى السير . فلما بلغوا حلقة المضارعة المنصوبة في جانب من عكاظ ألقوا فتياً  
أشداء مفتولى الغض ، يشهدون أحدهم جائماً على صدر صاحبه وقد ألقاه إلى الأرض  
صريعاً . وما لبث القوم ، حين رأوا عمر بن الخطاب يسير إليهم ، أن فسحواله طريقاً .  
وقام المتصارعان فوقنا مع النظارة وقد أيقنا أن عمر لم يحيى شاهداً ، وإنما جاء مصارعاً .  
وأدار عمر بصره في الحاضرين ، ولا يزال الغضب آخذاً منه . فلما صادف الفتى الذي  
دار عنه الحديث بينه وبين أصحابه دعاه لينازله . وابتسم الفتى وتقدم حتى توسط الحلقة ،

وهو أشد ما يكون اطمئناناً إلى نفسه وثقته بقوته ومقدرته . إنه لم يصارع عمر من قبل ، فهذه أول مرة جاء فيها مع قبيلته إلى عكاظ ؛ لكنه لم يُقَلَّبْ مرة منذُ جاء ، حتى لقد هابه الأقران وحسبوا حسابه . وكان يقرب عمر طولا وجسامه . وتقدّم إليه عمر يصاوله . وحاول الفتى البدوي أن يصرع عمر ، وأبدى من ضروب المهارة في النزال ما جعل النظارة يتكاثرون ويزداد عددهم إلى ما لم يألّفه أحد من قبل . وأقبلت فتيات كن على مقربة من المسكان سمعن أسمى المتصارعين ، فحرصن على أن يرين ما سيكون منهما . فقد عرفن ، كما عرف الناس في الأعوام التي خلت ، أن ابن الخطاب لا غالب في المصارعة له . فلما أقبل هذا البدوي وصرع كل الذين صارعوه ، رجا أهل عكاظ جميعاً أن يصارع ابن الخطاب ، وراهن بعضهم بعضاً لأى الفتين يكون الغلب . فلما دعا عمر صاحبه للمصارعة سرى الغلباً في السوق كلها مشرعى البرق ، وأقبل كل من لم يمسه عمله ، يريد أن يأخذ من هذا المشهد بنصيب . وترك عمر صاحبه زمناً يحاوره ويحتال ليصرعه ، وهو منه في موقف المدافع ، لا يبذل من الجهد ما يبذل البدويّ البارع . فلما أحسن به هاضمه الجهد انقضّ عليه فركب أكتافه وألقاه على الأرض صريعاً . وضجت الحلقة بذكر عمر ومقدرته ، وتذاكر شهودها سابق فعاله في مثل هذه المواقف . ولم تنكن الفتيات والنساء أقل من الرجال والفتيان إشادةً بالفتى القرشي النبيل ذى الأيد .

بدأت الشمس بعد قليل تنحدر إلى المغرب ، وبدأ النظارة ينصرفون كل إلى مقصده . وصار عمر يجوس خلال السوق وأصحابه من حوله يُبدون من الإعجاب به ما يكافئهم عنه بابتسامه . قلما كانوا يرونها مرتسمة على حُجَّابِه . هو لم يكن يخص أصحابه بهذه الابتسامه ؛ فقد كان يرى أبصار من يمر بهم شُدَّتْ إليه وهم أشد من أصحابه إعجاباً به ، ويرى فتيات يشرن إليه ويتهاقن يردن أن يحظين أمنه بنظرة رضا عنهن أو هوى لحسن المليحة منهن ، فيبعث ذلك إلى نفسه من أسباب الرضا ما تعبر هذه الابتسامه عنه .

وجنّ الليل ، فمال في أصحابه إلى ملهى قام على حافة السوق ، تنفسح البادية من ورائه إلى مدى الأفق . وتخيز عمر أدنى مكان من البادية فجلس فيه بعد ما أهدى تحية المساء لمن مرّ بهم من معارفه الكثيرين الذين ردّوا تحيته بأحسن منها ، وأضافوا من عبارات

الإعجاب به والثناء عليه ما أعجبه . وأقبلت خمارة هيفاء تنهادى وكل نظرها إلى الفتى الظافر ، وقد طوّقت ثغرها بابتسامة بدت من خلالها ثناياها الغرّ العذاب . وأبدى عمر في حديثه إليها سماحةً لم يُبدها منذ أقيمت السوق ، فلم تأب أن تقيه دلاً عليه . وبعد هنيهة عادت أدراجها ثم كرّرت راجعةً تحمل الخمر المعتمة لهؤلاء الشاربين الأوفياء الذين لم يقضوا من ليالي السوق ليلة في غير حانتها . وكان عمر بين أصحابه يشرب بالكبير ، ويشرب سائرهم بالصغير . وتقدّم الليل والفتيان يشربون ويسمرّون ، ينتقل بهم الحديث من الجدّ إلى المجانّة ، ومن الغزل بالنساء إلى ركوب الخيل ، ومن أيام العرب إلى أنسابها ، وعمر يفيض في ذلك كله إفاضةً عليم حلت الخمر عمّدة لسانه ، وزاده الظفر بصاحبه البدوي إقبالا على الحديث واسترسالا فيه . وهم يتذاكرون فارساً رأوه صحّي يركب جواداً ينهب به الأرض ، وصاح عمر :

— واللوات والعزى لقد خلّنتني إياه إعجاباً بقدرته على رياضة جواده ا .

وابتسم صاحبه الذي حاوره من قبل في أمر البدوي المصارع وقال :

— تفغر العزى لابن عمك زيد بن عمر وقوله :

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى طشم أدير

أرباً واحداً أم ألف ربّ أدين إذا تقسمت الأمور ا

وتجهم عمر لما سمع من ذلك وقال :

— تبّاله ا ولا غفرت العزى كفرانه ا خيراً فعل الخطاب إذ أخرج ابن أخيه من مكة ومنعه من أن يدخلها منذ فارق ديننا ، وعادى أوثاننا ، وصبأ يلتمس إلهاً عند اليهود والنصارى ، فلم يظفر من هؤلاء ولا من أولئك بخير فزعم أنه على دين أبيه إبراهيم . ولو أن الخطاب ترك لى أمره لصرعته فأوردته حتفه .

وينتقل الحديث من بعد إلى شؤون أدعى إلى طمأنينة النفس . وإن القوم لفي سمرهم إذ طرقت سمعهم أصوات ناعمة العذارى خرجن من مضاربهن إلى فسحة البادية ينعمن فيها بأسرار الليل أو يقضين فيها بعض شأنهن . وأمسك عمر عن الحديث وكأنما لعبت هذه الأصوات بفؤاده . فلما رآه أصحابه أمسك أجالوا فيه أبصارهم ، فإذا هو بالقيام



ويقول : سأدعكم هنيئاً لبعض شأى وسرعان ما أعود . وابتسموا ، فصاحبهم صاحب نساء كما أنه صاحب خمر . وقصد عمر إلى ناحية الصوت الناعم ، فسمع غانية تقول لصاحباتها : هذا عمر يقدّمنا ؛ فلنخيل إليه أننا نفرٌ منه كي لا بصرعنا ، فلما اقترب منهن تظاهرت كلٌّ بالفرار إلى ناحية ، ولم تبق إلا هاته الغانية أسقطت خمارها ، وزعمت أنها تصلحه . وعرفها ابن الخطاب صاحبه التي لقيها منذ أيام ، فسعد معها بأحلى سويعات عكاظ هذا العام . وأدركت صاحباتها حيلتها فتعالت أصواتهن بضحكات السخط والسخر والغيرة . وعاد عمر إلى أصحابه على موعد منها . ولم يطل به المقام حتى نقد الخمارة قدر ما شربوا ، ثم انصرف عن أصحابه إلى حيثما اتفق .

كان النهار ضحى حين لقي عمر أصحابه كرتةً أخرى ، وقد تذاكروا مصارعة أمس وما أبدى عمر فيها من مهارة ، وتمنوا لو أن عمر صارع صاحبه كرتةً أخرى حتى يصرعه ، فلا تقول لهذا البدوى من بعدُ في ميدان المصارعة قائمة . وخالفهم عمر ورأى في قولهم مالا تقره الشهامة . إنه الفائز ، فإذا أراد صاحبه أن يثار لنفسه فإن يتردد في مصاولته . لكنه لن يبدأ بالدعوة إلى هذه المصاولة ولن يتحداه . والسوق بعدُ موشكة على خنماها . فبعد ثلاثة أيام ينصرف الناس عن عكاظ إلى مجنة ليجهزوا للطواف بالبيت ، فتقدم كل قبيلة هديماً قريباً لصنمها . فإذا نحر الناس ذهبوا إلى ذى المجاز يتروون منه لصعود عرفات . وفي الأيام الثلاثة التي تسبق مجنة يشغل الناس بالتجهز للحج عن كل مصارعة أو مصاولة .

واقضت ثلاثة الأيام وقد أذعن الفتى البدوى لما أصابه ؛ إذ رأى ابن الخطاب قرناً لا يقهر . وتجهز الناس للانصراف من عكاظ ، فكان عمر أسبغهم إلى هذا التجهز : دعا غلامه فاتاه بجواده حين أضحى النهار . ورأى شباناً من نبلاء القبائل المختلفة هذا الجواد ، فأعجبوا بلونه الأدهم وأذنيه الصغيرتين ورأسه المترفع وساقيه الدقيقتين وبطنه الضامر . وكانما أدركت بعضهم الغيرة لما رأوا من اعتراز عمر بنفسه وبجواده ، اعترازاً فيه صلفٌ وغازلة ، فدعوه السباق ، فإذا فرغوا من السباق استراحوا ثم انحدروا إلى مجنة بعد أن تنكسر القيولة .

وقيل عمر دعوتهم ، فدعوا فيثوا بجيادهم ، وساروا جميعاً إلى فسحة البادية ، فاخترابوا حلبة سباق فيها . وامتطى كل جواده ودفعه حين إشارة المشير ، فإذا عمر وجواده كأنهما كقطعة واحدة لا يدري الشاهد أهي تنهب الأرض أم تلتقي في يد الريح التراب . ولم يكن إعجاب أهل السوق بفوز عمر في السباق دون إعجابهم بفوزه في المصارعة . ولم يقف أسر الفتيات عند الإعجاب به ؛ فقد أخذ منهن بمجامع القلوب وملك عليهن كل الجوارح . وكانت صاحبته التي أمتعتته بأحلى سويعات عكاظ هذا العام تبسم بينهن ابتسامة زادت من غيرة ، وجعلتهم يرمقنها من عيونهن العربية الجميلة بنظرات لعابها بعض ما عناه عمر ؛ بن أبي ربيعة حين قال :

حَسَدًا حُمَّلَنَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ .

وأفاض الناس من عكاظ إلى حجة ثم إلى ذي الحجاز ، فقصوا المناسك لأصنامهم ، ورجعت كل قبيلة منهم إلى مقامها من شبه الجزيرة .

واستدار العام وجاء موسم عكاظ ، فكان لعمر فيه مثل ما كان له في العالم الذي سبقه ، وظل ذلك شأنه عدة سنوات .

ثم إنه تأخر عاماً عن مفتتح السوق ، فافتقده الناس وتساءلوا عن سبب تخلفه : وزاد تساؤلهم أنه كان قد بدأ يزاول التجارة ويشتغل بها . وكيف لتاجر له من المسكنة ما للعير أن يغيب عن سوق العرب العامة ومعرضهم السنوي الأكبر لسكنهم عرفوا أنه اضطلع بالمهمة التي كان يضطلع بها أبأوه من قبيلة عدى بن كعب ، مهمة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل كلما حدث بينهم خلاف ، وأن هذه المهمة وُكلت إليه في أمر ذي بال جد بين إحدى قبائل قريش وجماعة ثقيف : ولشد ما اغتبط أهل السوق جميعاً حين علموا أن عمر جاء إليهم ليقضى معهم ما بقي من أيام السوق ، وأنه أتم سفارته على خير حال . جاء ممتطياً جواده الأدهم ، فبدأ يباشر تجارته وكانت قد سبقته . ثم لم تدهه مبادرتهم عن المصارعة ، ولم يززع ما له من شهرة بين أصحابه أنه صاحب خمر وصاحب نساء . . . . .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا العام ، ثم أذاع في النساء رسالته ، فانبرى له عمر يحاربه بحمى الشباب والفتوة حرباً جاهلية عنيفة أشد العنف . فإذا جاء

إلى عكاظ ، وجلس إلى الناس وصادف حديثهم سيرة الرجل الذي قام في قريش يدعوها إلى نبذ الأصنام وعبادة الواحد الأحد ، هاج عمر وماج ، وأطلق لسانه في محمد ، وعابه بما فرّق من كلمة قريش وبما صبأ عن دين آبائه وأجداده . ولقد كان الغضب يبلغ منه لخروج محمد على قومه ، فلا يُحجم عن التهديد بقتله لولا منع بنى هاشم له وما يجره هذا القتل من ثارات لا قبيل لمسكة بها .

وظل ذلك شأنه حتى أسلم ، فصار يدافع عن دين الله وعن رسول الله بمثل الحمية التي كان يجارهما بها قبل إسلامه .

هذه صورة من شباب عمر بن الخطاب ، ترسم أمامك واضحة تمام الوضوح كلما ازدت إمعاناً في قراءة كتب التاريخ الإسلامي قديمها وحديثها . فإذا أردت أن تعود إلى ما قبل شبابه لم تجد في هذه الكتب ما يُعينك على رسم صورة من طفولته وصباه في هذا الوضوح ، وإن أسعفتك في أمره بخير مما تسعفك أمر الكثيرين ممن عاصروه .

فهو من قبيلة عدى بن كعب . وهي قبيلة عدنانية من قريش ، انتهى إليها الشرف كما انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن ، في مقدمتها هاشم ، وأمّية ، وتيم ، ومخزوم . على أن عدياً لم تبلغ من المكانة في مكة قبل الإسلام ما بلغه بنو هاشم وبنو أمّية ؛ فلم يكن لها من مناصب مكة الدينية أو الزمنية ، ولم يكن لها من الثروة ما لهم . مع ذلك كانت تنافس بنى عبد شمس الشرف ، وتحاول أن تبلغ مكانتهم ، وظل هذا التنافس ممتداً على الأجيال ، حتى اضطر بنو عدى في حياة الخطاب بن نقيّل والد عمر إلى الجلاء عن منازلهم القائمة عند الصفا والأنحياز إلى قبيلة بنى سهم والمقام في جوارهم . وقد حفز هذا التنافس أجداد عمر ، فكانوا ، على قلة عددهم وعلى ضعف مكانتهم من القبائل الكبرى ، ذوى دراية وعلم وحكمة . وقدّمهم عليهم وقدمتهم حكمتهم إلى مكان السفارة والحكم في المناقرات ، فكانوا للمتحدثين عن قريش إلى غيرها من القبائل فيما ينجم من خلاف يتسنى جسمه بالمفاوضة . وكانت حكومتهم تُرضى في المناقرات ، وكانوا ذوى بلاغة وحسن عبارة . وقد أدّت بهم الحكمة إلى أن ظهر من بينهم زيد بن عمرو أحد من اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنعوا من أكل ذبائحها . ثم كان من بينهم عمر بن الخطاب ، وحسبك به فخرأ لقبيلة ينتهى إليها .

هذه قبيلة عمر . أما أبوه فهو الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله ابن قُرظ بن رزاج بن عدى بن كعب . وعدى هو أخو مُرّة الجدّ الثامن للنبي . فأما أمه فَحَنَّتْمَةُ بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله عمر بن مخزوم .

وقد كان الخطاب شريفاً في قومه ، لسكنه لم يكن ذا مال ولا خدم . كتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو على مصر كتاباً يسأل فيه عن أصل المال الذي جمعه بها ؛ فغضب ابن العاص وكان مما أجاب به : « . . . ووالله لو كانت خيانتك حلال ما خنتك وقد ائتمنتني ؛ فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك .

ذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير مني ، فإذا كان ذلك فوالله ما دقت لك يا أمير المؤمنين باباً ولا فتحت لك قفلاً » .

وبلغ الغضب من ابن العاص لكتاب عمر أن قال لمحمد بن مسلمة حين ذهب إليه من قبل عمر يحاسبه : « . . . لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر ! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءةً قَطَوَانِيَّةً<sup>(١)</sup> لا تجاوز ما بضع ركبتيه ، وعلى عنقه حزمة حطب ، والعاص بن وائل في مززرات الديباج » . فقال له محمد : إيهما عنك يا عمرو ! فعمر خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار . . . » .

وكان الخطاب فظاً غليظاً . مرَّ عمر في خلافته يوماً بمكان كثير الشجر يقال له ضَبْجَنان ، فقال : « لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطاب في هذا المكان ، وكان والله ما علمت فظاً غليظاً » . وفي رواية الطبري أن عمر لَمَّا مرَّ في خلافته بضعجان قال : « لا إله إلا الله المعطى ماشاء من شاء ! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً يتعبنى إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت . وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد . . . » ثم تمثل بأبيات من الشعر<sup>(٢)</sup> .

(١) عباءة قَطَوَانِيَّة : بياض قصيرة الخمل .

(٢) هذا نص الأبيات كما أوردها الطبري وغيره :  
 يبقى الإله ويودي للسال والولد  
 والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا  
 والإنس والجن فيا بينها ترد  
 من كل أوب إليها راكب يفد  
 لا بد من ورده يوماً كما وردوا

لا شيء فيا ترى تسبق يشاشته  
 لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه  
 ولا سليمان إذ تجرى الرياح له  
 أين الملوك التي كانت نوافلها  
 حوضاً هنالك موروداً بلا كذب

ولم يكن الخطاب يتزوج النساء لشهوة ، بل ليكثر ولده ؛ فقد كانت كثرة الولد بعض ما تفاخر به العرب ، وأنت تذكر أن عبد المطلب جد النبي عليه السلام أحسن قلة حوله في قومه لقلّة أولاده ، فنذر إن وُلد له عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . وقد ذكرنا أن بنى عدى كانوا يحسون قلة حولهم لقلّة عددهم ، ولذلك أجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا . فلا عجب أن يلتمس الخطاب كثرة الولد يتمتع بها ما استطاع .

وكان الخطاب رجلاً ذكياً ، موفور الاحترام في قومه ، شجاعاً يخوض المعارك على رأس بنى عدى في جراءة وثبات جنان . اشتركت بنو عدى في حرب الفجار ، فكان على رأسها زيد بن عمرو بن نفيل والخطاب بن نفيل عمه وأخوه لأمه ؛ ذلك أن نفيلاً كان على جيّداء فولدت له الخطاب وعبد نهم . ثم مات نفيل فتزوج ابنه عمرو زوجته جيّداء ، وكان من أم غيرها ، وقد كان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية . وولدت جيّداء لعمر بن زيد بن عمرو ، فكان للخطاب أخاً وابن أخ<sup>(١)</sup> . وتقرّب الرجلين في السن هو الذي جعلهما على رأس قومهما في حرب الفجار .

ولما اعتزل زيد بن عمرو عبادة الأوثان وامتنع من أكل ما يذبح لها ، جعل يقول لقومه : « أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السامة فتدعى منه ، وتذبحوها لغير الله ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري ! » ثم قال الشعر يدعو إلى نبذ عبادتها<sup>(٢)</sup> . عند ذلك خاصمه الخطاب واشتد في خصومته . وألب .

(١) راجع الأغاني ج ٣ ص ١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) ينسب إلى زيد بن عمرو في ذلك شعر غير قليل أورده صاحب الأغاني ، وأورده ابن هشام في السيرة ، وأورده غيرها . ومن شعره البيتان اللذان أثبتناهما في هذا الفصل ، وهما من أبيات كثيرة ومنه قوله :

أسلمت وجهي لمن أسلمت	له الزن تحمل عذبا زلالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخرأ ثقلا
دحاها فلما استوت شدحا	سواء وأرسي عليها الجبالا

وقد روى صاحب الأغاني بإسناد أن سعيد بن زيد بن عمرو وعمرو بن الخطاب سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد فقال : « يأتي يوم القيامة أمة وحده » .

عليه جماعة من قريش أخرجه من مكة ومنعوه أن يدخلها ، وكان الخطاب أشدهم في ذلك وأقساهم عليه .

وقد تزوج الخطاب ، فيمن تزوج ، حَنْتَمَةَ بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم ، وهي لخالد بن الوليد ابنة عم لَحْمًا ؛ فالمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم جدتها معاً . وكان المغيرة المخزومي سيداً من سادات قريش وبطلاً من أبطالها . وكانت له إمارة الجند التي كانت لسيد بني مخزوم ، وكان لذلك يلقب صاحب الأَعِنَّة : وكان لسكانته من قريش أول من نصح إلى عبد الطلب جد النبي ألا يذبح ابنه عبد الله وفاءً لنذره ؛ فقد قال له : « والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه . فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه » . وكانت حنتمة لسكانتها هذه مرعية الجانب من زوجها ، مفضلة عنده على غيرها من ضرائرها . فلما ولدت عمر فرح أبوه لمولده ، وقرب للأصنام مبالغَةً في إظهار سروره ، ونال فقراء بني عدى الكثيرين يومئذ من الطعام ما قلَّ عهدهم به .

متى وُلد عمر ؟ ذلك أمر لا سبيل إلى القطع به . فالثابت أنه مات في أحد الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة . لكن الخلاف قائم على سنه يوم مات : قيل كان ابن خمس وخمسين ، وقيل كان ابن سبع وخمسين ، وقيل كان ابن ستين ، وقيل كان ابن ثلاث وستين ، وقيل غير ذلك . وأكبر الظن أنه مات حول الستين . فإذا صحح ذلك كان قد هاجر وهو دون الأربعين . وليست صحة هذا الظن مما نستطيع الجزم به .

ونشأ عمر في طفولته وصباه نشأة أمثاله من أبناء قريش ، ثم امتاز عليهم بأنه كان ممن تعلموا القراءة ، وهؤلاء كانوا قليلين جداً ، فلم يكن في قريش كلها حين بُعث النبي غير سبعة عشر رجلاً يقرءون ويكتبون . ونحن نقول اليوم إنه امتاز على أقرانه بذلك . أما العرب لذلك العهد فلم يكونوا يعدون القراءة والكتابة مزية ، بل كانوا يرغبون عن تعلمها وعن تعليمها أبناءهم .

ولما شبَّ عمر جعل يرعى لأبيه إبله بضجنان وغير بضجنان من ضواحي مكة . وقد ذكرنا حديثه عن أبيه وقسوته عليه حين رعيه إبله . وروى صاحب العقد الفريد أن عمر

قال يوماً للناطقة الجعدىّ: «أسمعتى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له . قال : « وإنك لقاتلها ؟ » قال : « نعم ! » . قال : « لطلما غنيت بها خلف جمال الخطاب » . وكان رعى الإبل بعض ما يعهد به إلى أبناء قريش على اختلاف منازلهم من الشرف . ولما تدرّج عمر من الصبا إلى الشباب بدا في مظهر من القوة بذّ به أقرانه . فاقهم طولاً وجساماً ، حتى لقد رأى عوف بن مالك الناس جمعوا في صعيد واحد ، فإذا رجل قد علام جميعاً على نحو يقف النظر ، فسأل عنه ، فقيل : هذا عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup> . وكان أبيض اللون تلوّه حمرة ، أعسر أيسر ، في رجليه رَوْحٌ يسرع به في مشيته .

وقد حذق من أول شبابه ألواناً من رياضة البدن ؛ حذق المصارعة وركوب الخيل والفروسية . لما أسلم لقي رجلاً راعياً فقال له : أشعرت أن ذلك الأعسر الأيسر أسلم ؟ فقال الراعى : الذى كان يصارع في سوق عكاظ ؟ فلما أجاب الرجل أنه هو ، صاح الراعى : أما والله ليوستعهم خيراً أو ليوستعهم شراً . وكان ركوب الخيل من أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته أقبل يوماً في خلافته على فرس يركضه حتى كاد يوطئه الناس . وعجب الناس حين رأوه فقال : وما أنكرتم ! وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته . وكان له في الحرب مواقف ورثها عن أخواله بنى مخزوم . وذلك قول أبي بكر في مرض وفاته : « وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يديّ كليهما في سبيل الله » .

وكما حذق الفروسية والمصارعة وغيرها من ضروب الرياضة وألوانها ، تذوق الشعر ورواه . كان يسمع الشعراء في عكاظ وفي غير عكاظ ، ويحفظ عنهم ويروى ما يروقه من شعرهم ، وكان له من بعدُ أحاديثٌ طويلة مع الخطيئة وحسان بن ثابت والزُّبَيْرِ قان وغيرهم . ثم إنه برّز في معرفة أنساب العرب إذ تعلمها عن أبيه ، فصار من أنسب العرب للعرب . وكان جيّد البيان حسن الكلام . لهذا كله كان يذهب في سفارات قريش إلى غيرها من القبائل ، وكانت حكومته تُرضى في المنافرة بحكومة أبيه من قبله .

(١) في رواية ابن سعد في الطبقات : « فإذا رجل قد علا الناس ثلاثة أذرع . قيل من هذا ؟ قيل : عمر بن الخطاب » .

وكان عمر ، كغيره من شبان مكة ورجالها ، محباً للشراب متوقفاً عليه . بل اعله كان أشد من أمثاله ولما به . كذلك كان له صدرٌ شبا به غرامٌ بالفانيات ، جعل الذين يترجمون له يُجمعون على أنه كان صاحبَ خمر وصاحب نساء . وإنما كان يجرى في هذا على ما لوف قومه ؛ فقد كان لأهل مكة بالنبيذ غرام أى غرام ، وكانوا يجدون في النشوة به نعيماً أى نعيم وكانوا يتخذون من جواريههم وما ملكت أيماهم متاعاً للهوهم وشهوتهم ، ويجدون في غير الجوارى سلوةً وجديهم وغرامهم . وشعرهم في الجاهلية يتحدث عن ذلك ويفتن فيه . ومن بعد الإسلام كان شعر عمر بن أبي ربيعة وأمثاله فتنه لفانيات مكة من ورثن عن أمهاتهن وخالاتهن نزوعاً إلى الهوى أئمه الإسلام ولم يكن مأثماً قبله .

فلما تيم لعمر شبابه هوت إلى الزواج نفسه . وقد ورث عن قومه ميلاً لكثرة الزوجات طلباً للولد . فتزوج في حياته تسع نسوة ولدن له اثني عشر ولداً : ثمانية بنين وأربع بنات . تزوج زينب بنت مظعون فولدت له عبد الرحمن وحفصة ؛ وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب فولدت له زيداً الأكبر ورؤية ، وأم كلثوم بنت جرجول بن مالك فولدت له زيداً الأصغر وعبيد الله . وقد فرّق الإسلام بين عمر وأم كلثوم بنت جرجول . وتزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح فولدت له عاصماً . وكانت جميلة هذه تدعى عاصية ، فغير النبي اسمها ، وقال لها : بل أنت جميلة . وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة فولدت له فاطمة . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو فولدت له عياضاً . أما الهية فأم ولد ، وولدها عبد الرحمن الأوسط . وفسكية أم ولد كذلك وقد أنجبت زيداً أصغر ولده . كما أن عبد الرحمن الأصغر أمه أم ولد اختلف المؤرخون في اسمها .

وقد تزوج عمر أربعاً من أولئك النسوة بمكة ، وخمساً بعد هجرته إلى المدينة . على أن جمهم لم يكتمل قط في بيته . فقد رأيت الإسلام فرّق بينه وبين أم كلثوم بنت جرجول ، وقد طلق نسوة غيرها : طلق أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وطلق جميلة التي ولدت عاصماً . ولو أن السن امتدت به لتزوج غير أولئك النسوة التسع . فقد خطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة ، وهو على إمارة المؤمنين ، وأرسل فيها إلى أختها عائشة ، فسألت أم المؤمنين أختها في ذلك فرغبت عنه ، وقالت : إنه خشن العيش شديد



على النساء . وخطب كذلك أم أبان بنت عُثبة بن ربيعة ، فكرهته وقالت : يغلُق بابَه ويمنع خيرَه ، ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

وما ذكرته أم كلثوم بنت أبي بكر عن شدته وغلظته ، وما ذكرته أم أبان عن عبوسه وقسوة عيشه ، كان بعض طبعه في شبابه ، ثم لزمه سائر حياته . لما استُخلف كان أول دعائه قوله : « اللهم إني غليظ فليتنى اللهم إني ضعيف فقوّنى ! اللهم إني بخيل فسَخِّنِي ! » . ولقد ورث الغلظة عن أبيه وقسوته عليه في صباه ، ثم أعانتها قوة بدنه من بعدُ على بقائها . أما ما ذكر عن بخله فسببه أنه لم يكن غنياً ، وأن أباه لم يكن غنياً . وقد ظل متوسط الحال في الغنى طيلة حياته ، مع أنه كان يعمل في التجارة كالكثيرين . - بناء مكة . ولعل غلظته هي التي حالت بينه وبين الإفادة من التجارة ما أفاد غيره . فهو لهذه الغلظة لم يكن يستطيع بالتجارة أن ينبع الماء من الحجارة ، ولا أن يحيل التراب ذهباً ، على تعبير قومه من قريش . هذا مع أنه لم يكن يقف من تجارته عند رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام ، بل كان يذهب إليهما وإلى غيرها من بلاد فارس والروم . لكنه كان في رحلاته هذه أكثر اشتغالا بتنقيف ذهنه منه بإتمام تجارته . وقد أشار المسعودي في مروج الذهب إلى رحلات عمر في جاهليته وأنه لقي في أثناءها كثيراً من أمراء العرب وتحدث إليهم . وأغلب الظن أن ما كان يقوم به من السفارة عن قريش ، وما بلغه من المعرفة بالأنساب وأيام العرب ، وما أطلع عليه أثناء قراءاته في كتب عصره ، قد جعله أكثر حرصاً على الكسب لزيادة علمه منه على الكسب لنماء ماله .

وهذه حال تجعل صاحبها أكثر اعتداداً بذاته واعتزازاً بنفسه . فصاحب المال في حاجة إلى إدامة صلواته الحسنة بالناس ، محافظةً على ماله وطمعاً في تكثيره . والعامل في التجارة نجاحه فيها بحسن حيلته وافتنانه في أساليبها . أما طالب الحكمة والراغب في المعرفة ، فيستعين بالمال وبذل الدنيا ؛ لأن الحرص على المال يصرفه عن الحكمة ويزيده تعلقاً بالدنيا وإذعاناً لذوى السلطان فيها . ومن أذل الدنيا واستهان بالمال وطلب الحكمة والمعرفة اعتر بنفسه أيما اعتزاز ؛ وقد يبلغ من ذلك أن يعتزل الناس ازوراراً عنهم ، ورغبة عما بأيديهم ، وتسامياً عليهم . وهذه مرتبة لم يبلغها عمر في شبابه ،

فأما الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذات فكان له منها أوفر نصيب .

والتماس عمر أسباب المعرفة قد جعله منذ شبابه يفكر في شؤون قومه وما يصلحهم ؛ ثم جعله اعتزازه بنفسه يتعصب لرأيه فيما ينتهي إليه من ذلك ، فلا يقبل فيه جدلاً وقد مالت به شدته ومال به بأسه إلى أن يبلغ بتعصبه حد العنف ، وأن يناضل عن رأيه بيد البطش ، كما يناضل عنه بحدة اللسان . لكن ذلك لم يمنعه من أن يقلب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه ، ليسكون أبلغ حجة في رفعها وأقوى يداً في القضاء عليها .

ولم تكن الآراء في مكة ولا في غيرها من بلاد العرب لتختلف في شؤون الاقتصاد وشؤون الاجتماع وما إليهما ؛ فقد ألف الناس في هذه الشؤون ألواناً من الرأي ، ورثوها عن آبائهم ، وأخذوا بها في حياتهم ، واطمأنوا إليها فيما بينهم من صلوات ؛ وإعما وقع الخلاف على دينهم وعباداتهم . ذلك أن النصارى واليهود المقيمين بينهم كانوا ينكرون عبادة الأصنام ، ويرونها باطلاً يجب أن يتنزه العاقل عنه . وقد كان الذين رآهم العرب ببلاد الروم أثناء رحلة الصيف من أمثال هؤلاء اليهود والنصارى أرقى من الغرب حضارة ، وكانوا ينسبون رقيهم إلى أديانهم . ثم إن المبشرين بالمسيحية في ذلك العصر كانوا ذوى نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به مثل نشاطهم اليوم . لذلك صبأ من العرب أفراد ذوو حكمة أنكروا الأصنام وعبادتها .

ترى أصبأ عمر ، وهو القارئ السكاتب ، مع الصابئين ؟ .

كلا ! بل كان حرباً على هؤلاء أهول الحرب . وكان يرى في خروجهم على دين قومهم تقويضاً لركن الجماعة العربية ، ويرى لذلك محاربتهم والقضاء عليهم حتى لا يستفحل أمرهم . ولعله لم يكن متعصباً في هذا الرأي للأصنام وعبادتها تعصبه لقومه ، حرصاً على نظامهم وعلى ما يكفله النظام من إمساك كياناتهم وشد أزهم إزاء غيرهم من الأمم . والواقع أن العالم اضطرب منذ أقدم العصور بين أمرين جوهرين لحياته ، وهو لا يزال حتى اليوم مضطرباً بينهما ، ينصر أحدهما حيناً وينصر الآخر حيناً . هذان الأمران هما الحرية والنظام : حرية الفرد ، ونظام الجماعة . فالجماعة لا حياة لها إلا بالنظام . والفرد لا حياة له إلا بالحرية . فإذا تمارضت حرية الفرد ونظام الجماعة فأيهما تؤيد ؟

النظام لا ريب ، لحرية الفرد لا كفيل لها إلا نظام الجماعة . وإذا أهدر نظام الجماعة أهدرت حرية الفرد معه لكن ! أليست حرية الفرد حدود تجعلها لا تتعارض ونظام الجماعة ! أو ليست لنظام الجماعة حدود كذلك تجعله لا يتعارض وحرية الفرد ! هذه الحدود هي التي كانت ولا تزال موضع الخلاف . فلحرية الفرد حدود في الحياة الاقتصادية ، وفي الحياة الاجتماعية ، وفي الحياة السياسية ، وفي غير هذه من مظاهر الحياة . ولنظام الجماعة كذلك حدود في مظاهر الحياة ومرافقها جميعاً . ولطالما قامت الثورات وشبّت الحروب بسبب الخلاف على هذه الحدود للحرية وللنظام في الأمة الواحدة وفي علاقات الأمم بعضها ببعض . بل إن الحرب كثيراً ما شبت لأغراض السيادة والاستعلاء ، ثم لم يلبث الدعاة لها أن استظلوا بلواء الحرية حيناً ، وبلواء النظام العالمي الكفيل للحرية العامة حيناً آخر . وقد تواضع الناس في كثير من الأزمان على أن حرية الرأي والعقيدة لا يمكن أن تتعارض مع نظام الجماعة ، مادامت محصورة في حدود العقيدة والرأي والتعبير عنها . لكن ذلك لم يكن أمراً مقررأ في عهد عمر . وكثيراً ما شبت الحرب بين فارس والروم تعصباً لدين على دين . بل لقد شبت الحروب الصليبية بعد ذلك بين أوروبا المسيحية والمسلمين ، وظلت أزماناً طويلة متصلة الضّرام بسبب العقيدة . ذلك لأن الدين اعتبر من أسس الحياة الاجتماعية . وقد أدى ذلك إلى اعتبار الذين يدينون بغير دين الدولة في حكم الأجانب عنها ، إذا تسامحت معهم لأنهم ورثوا عقائدهم عن آبائهم فإنها لن تجعل لهم من الحقوق ما لبني دينها . لا عجب إذاً أن يكون عمر في جاهليته عدواً لمن يهودون غير الأصنام . ولا عجب أن يكون حرباً على من صبأ من بني قومه على عبادة ما كان يعبد آباؤه وأجداده .

ولم يُعَن عن هؤلاء الصابئين عنده أنهم كانوا ذوى حكمة ورجحان عقل ؛ بل لعل حكمتهم ورجحان عقلمهم جلاهم أكبر جريرة في نظره . فالناس لا يتبعون الجهال منهم ولا يتابعون عامتهم ، وإنما يتبعون من بني عشيرتهم من عرفوا حسن بصره بالأمر ، ودقة منطقته في تهرى الحق . فإذا جاز لقس بن ساعدة الإيادي أن يعيب أوثان العرب فهو نصراني له من دينه ما يعذره . أما زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان

ابن الحويرث ، وعبد الله بن جحش وأمثالهم من أهل مكة الذين انصرفوا عن عبادة الأصنام ، وقال بعضهم الشعر في التوحيد ، فلا عذر لهم ولا مفرّ من خصومتهم وحرهم . فلو أنهم تَرَكُوا وشأنهم لأضلوا جمهور الناس وفرّقوا كلتهم ، ولأوشكوا أن يُثيروا في الأرض الفساد . وهذه الحدة من عمر وأمثاله قد حفظت على قريش وحدثها ، وعلى مكة مكاتها ، وجعلت الحكماء يقصرون حكمتهم على أنفسهم ، فلا يثيرون غيرهم لاتباعهم ، وتغيير ما ورث الناس من عقائد آبائهم وأجدادهم .

وقد كان عمر من أشد قريش على الصابئين فيها وأكثرهم جرأة عليهم ، وأقسام معاملة لهم . وكان له من غلظته ومن سرعته إلى الغضب ما يدفعه إلى المبالغة في شدته . وهو لم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين ، فكان شبابه يذهب به في التعصب لرأيه إلى أبعد مدى . وقد اقترنت حدته في التعب لرأيه بغلظته وقسوته ، فكان يحارب الخارجين على عبادة الأصنام أشد الحرب ، ثم كان أشد حرباً للذين يعيبونها .

في هذا الحين أذن الله فبعث محمداً إلى قومه يدعوهم للهدى ودين الحق . فلما بدأت دعوة التوحيد تنتشر ، أخذ المتعصبون للأصنام من أهل مكة يعدّون للمستضعفين ممن أسلموا ليردوهم إلى عبادة الأصنام وكان عمر بن الخطاب من أشد أهل مكة خصومة للدعوة الجديدة ومحاربة لها ، وسعيًا لفتنة الذين اتبعوها .

ذكر ابن هشام أن أبا بكر مرّ به يوماً وهو يضرب جارية ويعذبها لتترك الإسلام ، ولقد ظل يضربها حتى ملّ لكثرة ما ضرب بها . عند ذلك تركها وقال : إني أعتذر إليك إني لم أتركك إلا ملالة . وأجابته الجارية : كذلك فعل الله بك . وابتاع أبو بكر الجارية فأعتقها .

لم يكن عمر يحارب محمداً ودعوته تعصباً وجهلاً ؛ فقد رأيت من أحكم أهل مكة وأكثرهم علماً . وهو قد سمع من أقوال محمد ما أعجبه ، فلم يزد ذلك خصومته للدعوة الحديثة إلا لاجبة وقوة ، ولم يزد إلا إمعاناً في إبداء من يستطيع إبداءهم من المسلمين ، حتى كانوا يلقون منه البلاء أذى لهم وشدّة عليهم . ذلك بأنه رأى في متابعة هذا الرجل نفوياً لنظام مكة وإثارة للفساد فيها . ومكة ونظامها وطمانينة أهلها أحب إليه من محمد

ومن دعوته التي فرقت كلمة قريش وهوت مكانة البلد الحرام . والصبر على هذه الدعوة يزيد كلمة قريش فرقة ومكانة مكة تهوينا . ولئن وقفت قريش من محمد عند مناوأة الذين اتبعوه . ومحاولة رد الضعفاء منهم عن دينهم ، ليذهبن ذلك بريح مكة ، وليجعلن قريشاً مضعة في أفواه العرب جميعاً .

وأى ذنب جنى هؤلاء الضعفاء حتى بعدوا ! إنما الذنب ذنب محمد وسحر بيانه وقوة منطقته . فهذا البيان الساحر هو الذى حَلَب عقول الضعفاء وعقول غيرهم من صبتوا عن دين آبائهم وأجدادهم . فلو أن محمداً مات لانقضت الفتنة وانجلت الغمة ، وأظل السلام البلد الحرام . وما قتل فرد لنجاة قبيلة ، بل لنجاة قبائل مكة جميعها ، فتعود كلمتها إلى الاجتماع ، ونظامها إلى الاستقرار ! !

لكن محمداً يقول كلاماً حسناً . وهو لم يزد على ترديد هذا الكلام ودعوة الناس بالحسنى لاتباعه . وهو بعدُ رجل لم تجرّب عليه قريش كذباً قط . أفيقتل لغير شيء إلا أن يقول ربّي الله ، ويقول ذلك لأنه يعتقد به ويؤمن به !

وكيف السبيل إلى قتله أو التخلص منه وهو من بنى هاشم ، وبنو هاشم يمدعونهم ! وبين الذين آمنوا به واستجابوا لدعوته وقاموا معه جماعة ذوو مكانة ينتمون إلى قبائل عزيزة تمنعهم كما يمنع بنو هاشم محمداً . فأبو بكر وطلحة بن عبيد الله من بنى تيم بن مرة ؛ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص من بنى زُهرة ، وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ؛ وأبو عبيدة بن الجراح من بنى فهر بن مالك ، والزبير بن العوام من بنى أسد . ول هؤلاء جميعاً من المكانة في قبائلهم ما يقتضيها الذود عنهم إذا اعتدى معتد عليهم . فلو أن عمر حاربهم وحارب محمداً معهم وألب قريشاً عليهم لأثار بمكة حرباً أهلية أشد خطراً على مكاتها من محمد ودعوته .

كانت نفس عمر تضطرب بهذه الخواطر كلما خلا إليها . فإذا خرج إلى قومه ورأى تفرق كلمتهم راجعه حرصه على أن تعود إلى مكة سكينة بالقضاء على مصدر هذه الفرقة . وظل هذا الخاطر يتردد في نفسه ، حتى أمر محمد من أتبعه بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله يدينهم . فلما رآهم عمر يفارقون أهلهم ووطنهم رقى لهم ، وحزّ الألم في قلبه لفرارهم ، وعظم

عليه الأمر ، فثارت نفسه وطال تفكيره في التخلص من محمد ودعوته . إنه إن لم يفعل يُرْحَ قريشاً ويُرَضِ آلهة الكعبة وآلهة العرب جميعاً . فإن أصابه بفعلة مكروه احتمله في سبيل قريش وفي سبيل مكة . وقريش أهله ، ومكة وطنه . والمكروه في سبيل الأهل والوطن سائغ مستحب .

ذلك ما استقر عليه عزمه . لكنه نسي أن لله في الخلق حكمة ، وأن حكمته جل شأنه قضت أن يقلب عقل عمر ثورة غضبه ، فيؤمن بمحمد ليكون الفاروق الذي يتحدث الناس باسمه في إجلال وإكبار إلى آخر الدهر .

## البَیضُ الشَّانِي

### إِسْلَامُ عُمَرَ

المشهور أن عمر بن الخطاب أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة . وتزيد روايات في هذا العدد وتنقص أخرى منه . وقد لاحظ ابن كثير في « البداية والنهاية » أن عمر أسلم بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وأن عدداً الذين هاجروا إليها قارب التسعين بين رجال ونساء ، وأن عمر ذهب بعد هجرتهم يريد محمداً وأصحابه المسلمين بدار الأرقم عند الصفا فكانوا أربعين رجلاً ونساء : أنت إذاً في حلٍّ من القول بأن الذين سبقوا عمر إلى الإسلام يقرب عددهم من ثلاثين ومائة ، وإن تعدد عليك أن تصل من ضبط العدد إلى أكثر من هذا التقريب المخالف للمشهور .

أما الروايات في سبب إسلامه فتختلف . وأشهرها أن عمر ضاق ذرعاً بما فرقت دعوة محمد من كلمة قريش ، وما حملته وأمثاله على إيذاء من أسلموا ليفتدوهم عن دينهم ، ويردّوهم إلى دين قومهم . فلما أشار محمد على أصحابه أن يتفرّقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم ، ونصح لهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة ، ورآهم عمر يترحلون ، رقّ لهم وشعر بالوحشة لفرارهم . روى عن أم عبد الله بنت أبي حنّمة أنها قالت : « والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ، وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا . وقف وقال : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ؟ قلت : نعم والله ! لنخرجنّ في أرض الله . آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجاً . فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقّة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه ، فيما أرى ، خروجنا . وعاد زوجها فذكرت له هذا الحديث الذي دار بينها وبين عمر وأنها طمعت في إسلامه . فقال لها : لا يُسلم هذا حتى يُسلم حمار الخطاب .

وتجري الرواية بأن عمر حزن لترحل بني قومه عن وطنهم ، بعد أن عذبوا وأوذوا ، جعل يفكر في الوسيلة التي تُنقذهم مما هم فيه ، فرأى أن هذا الأمر لا ينجح

فيه إلا علاج حاسم . هنالك عزم أن يقتل محمداً ؛ فليس إلى اجتماع كلمة قريش مع بقائه بينها سبيل . ففدا يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه ذكراً لهم اجتمعوا بدار الأرقم عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء . وفيما هو في طريقه لقيهم نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ؟ قال : أريد محمداً ، هذا الصابيء الذي فترق أمر قريش ، وسفّه أخلاقها ، وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله . قال نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ! قال عمر : وأى أهل بيتي ؟ فأجابه صاحبه : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر عامداً إلى أخته وخنته ، وكان عندها خباب بن الأرت ومعه صحيفة يُقرئها فيها سورة « طه » : فلما سمعوا حس عمر اختفى خباب في مخدع لهم وأخذت فاطمة الصحيفة . ودنا عمر من البيت ، وسمع قراءة خباب فقال حين دخل : ما هذه الهينة التي سمعت ؟ قالت فاطمة : ما سمعت شيئاً . قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتا محمداً على دينه ، وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت فاطمة لتكفّه عن زوجها فضربها فشجّها . فلما فعل ذلك قال له : نعم ، قد أسلما وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مبادلك ! فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطيتني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وأجابته أخته : إنا نخشاك عليها : قال : لا تخافي ، وحلف لها بألمته ليردنها إليها متى أتم قراءتها . وأعطته فاطمة الصحيفة ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع خباب عبارته خرج من مخبئه وقال له : يا عمر ! والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر ! عند ذلك قال عمر له : فدأتني يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا في نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشح به ، وسار حتى ضرب الباب على رسول الله وأصحابه ! وسمع القوم صوته ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع



فزناً يقول . يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف . قال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلفاه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذّن له . فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بمجمع رداءه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حين ينزل الله بك قارعة ! فقال عمر : يارسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ؛ فكبر رسول الله تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم .

هذه أشهر الروايات في إسلام عمر . وتمّ روايات أخرى ، من أشهرها ما أسند إلى عمر نفسه أنه كان يقول : « كفت للإسلام مباحداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية ، أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش . فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ، فلم أجد فيه منهم أحداً . فقلت : لو أني جئت فلاناً الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمرأ فأشرب منها ، فخرجت إليه فلم أجد . فقلت . لو أني جئت الكعبة فطقت بها سبعا أو سبعين ! لجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي . وكان إذا صلى استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام وكان مصلاً بين الركنتين : الركن الأسود والركن اليماني . فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ! وخشيت إذا أنا دنوت منه روعته ! فجئت من قِبَل الحجر فدخلت تحت ثياب الكعبة ، فجعلت أمشي رويداً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن ، حتى قمت في قبلته مستقبلاً ، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة . فلما سمعت القرآن رق له قلبي ، فبكيت ودخلني الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف يريد بيته فتبعته ، حتى إذا اقترب من بيته أدركته ، فلما سمع حسّي عرفني وظن أني إنما أتبعته لأوذيته ، فزجرني ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ! قلت : جئت لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله . فحمد الله ثم قال : قد هدك الله يا عمر . ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات ، وانصرفت عن رسول الله مؤمناً بدينه . »

ولهذه الرواية المنسوبة إلى عمر صورة وردت في مسند الإمام أحمد بن حنبل لعلها تكمل ما تقدم ، وهي تجرى بأن عمر قال : « خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقامت خلفه ، فاستفتحت سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ا فقرأ : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ) . قلت كاهن ! فقرأ . ( وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ) ، إلى آخر السورة . فوقع الإسلام في قلبي كل موقع . » .

هذه هي الرواية التي تلى الأولى في الشهرة . وابن إسحاق يثبت الروایتين ويردفيهما بقوله : « والله أعلم أى ذلك كان » .

هاتان الروایتان ومثلهما مما أوردته الكتب عن إسلام عمر تصوّر اليوم الذى ترك عمر فيه آباءه وأجداده ، وأشهد رسول الله على إيمانه بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . لكنها جميعاً لا تصور التصور النفسى الذى أدّى بعمر إلى أن يُسلم . أفكان ذلك أمراً مفاجئاً ؟ أفبلغ من مباعضة عمر للإسلام وعداوته له أنه أبى النظر فيه والتدبر لشيء من أمره ، ثم قذف الله بالإيمان إلى قلبه ، وجعل الصحيفة التي كان خبّاب يقرؤها لأخته ، أو القرآن الذى كان رسول الله يتلوه في صلاته ، وسيلته جل شأنه لهداية هذا الرجل الذى كان لدينه عدواً ؟ أم كان الأمر غير هذا ، وأن عمر قد سمع القرآن قبل أن يقرأه في صحيفة خبّاب ، وقبل أن يخنفي تحت ثياب الكعبة فيسمعه من رسول الله ، وأنه قلب فيه نظره بينه وبين نفسه ، ثم كان يعود إلى التفكير في أمره وأمر محمد ومن اتبعه ، وأن تفكيره الطويل هداه بإذن الله إلى ما اهتدى إليه ؟ .

لا تصور لنا روايات المؤرخين عن إسلام عمر ما كان من هذا أو ذاك ، مع أن تصويره ليس بالأمر العسير ، ومع أن هذا التصوير يحسم أمراً يعتبره الجمهور من المسلمات ، ونراه مرجوحاً لا يثبت للنقد لحظة .

هذا الأمر هو ماجرت به الرواية المشهورة من أن عمر ذهب يقتل محمداً وهو

في أصحابه عند الصفا لولا أن هداه الله حين قرأ الصحيفة التي كان خباب يُقرؤها ختنه وأخته. فليس بمعقول أن يقصد عمر إلى قتل محمد بالسيف وهو بين أربعين من أصحابه فيهم حمزة ابن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهما من أبطال مكة، ثم يحسب مع ذلك أنه قادر على تنفيذ مقصده. قد يصح أنه عزم التخلص من محمد بالقتل، وأنه فكر في الوسيلة لتنفيذ عزمه، فلما قرأ الصحيفة ورأى ما فيها حسناً رجع عما فكر فيه ثم أسلم. أما أنه أراد القتل على النحو الذي تصوره القصة المشهورة في إسلام عمر فلا يسيغه العقل، وهو لذلك مرجوح عندى. والراجح ماورد في الرواية الثانية على لسان عمر نفسه وما أيده ابن حنبل في مسنده.

وهذا الراجح يتفق وما عُرِف عن نفسية عمر وشخصيته. فقد كان من صميم قومه، وكان متعصباً لهم، حرصاً على نظامهم وعلى مكانة بلدهم. ثم إنه كان رجل عمل، قيمة الفكرة عنده أثرها الفعال في الحياة. فأما التأمل للتأمل، وأما الهيام بالفكرة لتذاتها وإطالة التقلب فيها ابتغاء الحقيقة المطلوبة في جوانبها، ولو لم يكن للحقيقة وللالفكرة مظهر يتأثر الناس في حياتهم به، فذلك مالم يكن يُغريه أو يخرج عن إلف قومه. كان ذلك رأيه في شؤون الحياة جميعاً، بل كان رأيه في شؤون العاطفة نفسها. فهو لم يكن يطمئن أن يقضى الشاب وقته يتلطف بامرأة أو يتعمى بمفاتنها، يريد بذلك أن يفتنّها، بل كان يرى ذلك ضعفاً غير جدير برجل كملت رجوليته: لذلك لم يعطف يوماً على أولئك الغزّلين الذين يتخذون من النغنى بالحب صناعة لهم. أما مظهر رأيه هذا في أمر العقيدة، فكان في شدة برّمه بابن عمه زيد بن عمرو، لأنه صبأ عن دين قومه، وذهب يلتمس دين الحق عند غيرهم: هذا كله كان في رأى عمر خيالاً لا أثر في الحياة له، ولا يتفق مع ما فطر عليه من حرص على نظام الجماعة، وعلى مكانة مكة بين العرب جميعاً.

وقد كان هذا الاتجاه الفكرى متفقاً مع خلق عمر؛ فقد كان قوياً في بدنه، وكان لذلك يؤمن بالقوة في كل مظاهرها. وكان أشد بمظاهر القوة إيماناً أول ما بعث النبي لأنه كان في فتوة شبابه، لمّا تحفف تجارب الحياة من حدته واندفاعه. لهذا كان يعدّب من يستطيع تعذيبهم ممن يتبعون رسول الله ليفتحمهم عن دينهم. ولو أستطاع أن

يحاربهم جميعاً لحاربهم . ولكنه كان يعلم أن قبائل قريش تمنع رجالها ، وأن من قبيلته بنى عدى من لم يكونوا على رأيه . لذلك وقف أمره كما وقف أمر غيره من قريش عند تعذيب المستضعفين ، دون أن يستطيعوا البطش بأبي بكر وعثمان بن عفان وأبي عبيدة ابن الجراح وأمثالهم ممن كانت قبائلهم تمنعهم ، وإن لم يصدّم ذلك عن مقاطعةتهم وإيذاء من يستطيعون إيصال الأذى إليه منهم .

على أن عمر كان إلى هذا كله رقيق القلب ، دقيق الحس بمعنى العدل . ومن آيات رقيقته ما كان منه حين قامت أخته تكفّه عن زوجها فضربها فشحّها ، فلما رأى ما بها من الدم ندم وارعوى . وهذه رقة كثيراً ما نجدّها في الأقوياء والباطشين حين يرون أنفسهم جاوزوا الحد اعتماداً على قوتهم . وحواره مع أم عبد الله بنت أبي حثمة يوم أزمعت الرحيل مع المهاجرين إلى أرض الحبشة ، يشهد بهذه الرقة ويدل عليها بأبلغ الدلالة . وقد بلغ من تأثر أم عبد الله بن أبي حثمة بهذه الرقة أن قالت لزوجها حين رجع إليها: «لورأيت عمر أنفأ ورقيقته وحزنه علينا ، حتى طمعت في إسلامه » . هذه الخصال مجتمعة تفسر لنا إسلام عمر من بعد .

تقد كان حريصاً على نظام مكة وعلى مكائنها ، مشفقاً أن تسيء الدعوة للدين الجديد إليها . فلما رأى النبي وأصحابه يدعون إلى رهم بالحسنى ولا يثيرون في الأرض فساداً ، ثم رآهم إلى ذلك أقوياء في دينهم كل القوة ، ورأى عقيدتهم أتمن عندهم من كل مافي الحياة ومن الحياة نفسها ، عاد يفكر في أمرهم وفي موقفه منهم . فقد هدّدوا وأوذوا وعذبوا ، فما استكانوا وما ضعّفوا ، وما كان جوابهم على ما أصابهم إلا أن قالوا ربنا الله . وزاد بهم الأذى والعذاب ، فأثروا التضحية بوطنهم على التضحية بعقيدتهم ، فركبوا البحر مهاجرين إلى أرض الله فراراً بدينهم . ليس هذا الدين إذ أفكرة نظرية لا أثر لها في حياة أصحابها ، ولا في حياة الجماعة التي يعيشون فيها ، بل هو قوة دافعة جسيمة الأثر في الحياة الفردية والحياة القومية كليهما . وقد بدا هذا الأثر في حياة مكة منذ بدأ الإسلام فيها ، ويكون هذا الأثر أعظم على الأيام وأكثر وضوحاً . فإذا يؤول إليه أمر مكة ومكائنها إذا اتصلت هذه الهجرة ، وتسامع العرب أن أبناءها

لا يقيمون بها لأنهم يُظلمون فيها مع ما بينهم وبين القبائل التي تتألف منها أم القرى من صلة القرى وآصرة المودة ، ويظلمون لغير شيء إلا أنهم خالفوا قومهم عن عقيدتهم . وفي بلاد العرب شتى العقائد : فيها المؤمنون بمختلف الأصنام والأوثان ، وفيها من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وفيها مجوس يتبعون فارس . أليس خيراً للمكة أن يترك هؤلاء المسلمون لا يُضارون في عقيدتهم ولا يُفتنون عنها ، وأن تترك الحرية لمن شاء أن يدخل في دينهم وأن يكون معهم ؟! وهل لرجل كعمر تعلّم ما لم يتعلمه غيره ، وعرف من حكمة الفرس والروم واليهود والنصارى أكثر مما عرفوا ، أن يظل مُباعداً للمسلمين ، والأب ينظر في دينهم نظر البصير الناقد لا نظر المتعصب الخاقد ؟!

لقد سمع وقومه دعوة محمد والقرآن الذي يوحي إليه . وقد عرف نبأ الذين خرجوا يستمعون إلى رسول الله وهو يصلي أثناء الليل في بيته ، وكيف عادوا ليلة بعد أخرى يستمعون إليه ، وعرف ما كان من تلاومهم ، ثم عرف أن أبا الحكم بن هشام سئل عما سمع من ذلك فقال : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا<sup>(١)</sup> على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا منّا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذا ! والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقك ! » ولهذا ظل أبو الحكم ومن معه يعدّون المسلمين بغياً بغير حق . وظل المسلمون على دينهم لا يفتنهم عنه المذاب ، بل يزيدهم له حبّاً وبه تمسكا . أليست هذه حجة دامغة على أنهم على الحق ، وأن أبا جهل إنما أبي أن ينظر في دين محمد ، وأن يؤمن به أو يصدّقه ، لما بين بنى عبد شمس وبنى عبد مناف من تنافس ! فما لعمر لا ينظر في هذا الدين ، ولا تنافس بين بنى عدى وبنى عبد مناف ! لهذا ذهب عمر يستتر بثياب الكعبة ليرى محمداً يصلي ، وليسمع ما يتلو في صلاته من قرآن ربه . ولهذا حرص على أن يتلو سورة طه في الصحيفة التي كانت عند أخته . ولقد نظر في هذا كله وأطال فيه الفكر فاهتدى ، فأيد الله به دينه ، ونصر به رسوله .

(١) تجاذبنا : تجاذبنا . من جذا مثل جثا .

كان النبي عليه السلام شديد الحرص على أن يؤيد الإسلام برجل قويٍ جرىء الجفان، لا يخشى أن يناهض خصومه في سبيل عقيدته . ولذلك كان يدعو ربه : « اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ا ». وكان أبو الحكم رجلاً حديد الوجه ، حديد اللسان ، قوى الشكيمة ، لا يبالي الحرب ولا يهابها . وكان عمر بن الخطاب مارأيت . فإسلام أحدهما جدير بأن يؤيد المسلمين ، وأن يدفع الكثير مما يصيبهم من الأذى . لكن أبا الحكم كان متأثراً بما قدمنا من عامل المناقصة بين عشيرته وعشيرة محمد ، فلم يكن إيمانه بالدين الذي جاء به محمداً ميسوراً . أما عمر فقد ظلت الدوافع تؤدي به إلى طريق الحق شيئاً فشيئاً ، وتحطم من حوله قيود التعصب لقومه ولنظام مدينته رويداً رويداً ، وتقلب في نفسه عناصر العدل الأصيل فيها على سائر العناصر ، حتى انتهى إلى ما قدمنا ، فجاء إلى محمد وهو بين أصحابه في دار الأرقم عند الصفا ، أو تبعه في الطريق من مصلاه عند الكعبة إلى بيته ، فلما سأله رسول الله : ما جاء بك ؟ قال في غير تردد : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

وكذلك أسلم عمر عن بيعة بعد أن تبين ما لهذا الدين من أثر قوى في نفوس المؤمنين به ، يتمدى أفرادهم إلى حياة الجماعة ونظامها : لذلك دخل في دين الله بالحلمة التي كان يحاربه من قبل بها ، وحرص على أن يكون لجماعة المسلمين نظام يدافعون عنه كما تدافع قريش عن نظامها . فما لبث حين أسلم أن عمل على أن يذيع في قريش كلها إسلامه . روى أنه قال : « لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتته فأخبره أنني قد أسلمت . فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت على أبي جهل بابه ؛ فخرج إليّ فقال : مرحباً وأهلاً بابن أختي ! ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أنني قد آمننت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به . فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله ! وقبح ما جئت به ! » .

وكان عبد الله بن عمر يوم أسلم أبوه غلاماً يعقل ما يرى : وقد ذكر من حرص أبيه على إذاعة إسلامه وتحديده قريشاً في ذلك فيما روى عنه أنه قال : « لما أسلم أبي عمر

قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجُمحى . فغدا عليه فقال له : أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ فوالله ماراجعه حتى قام يجرّ رداءه . واتّبعه عمر ، حتى إذا وقف على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش — وهم في أنديتهم حول الكعبة — ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ! فيقول عمر من خلفه : كذّاب ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . عند ذلك ثاروا به ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم . وأعياء عمر فقمعد، وقاموا على رأسه وهو يقول : إفعالوا ما بدا لكم . فأقسم بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم ، أو تركتموها لنا . فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حَبْرَة وقميص موثى ، حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ! قال : فمه ! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أنزون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ ! خَلَوْا عن الرجل .. فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشِط عنه ...» فلما هاجر عمر سأله ابنه عبد الله : يا أبت ! من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ فقال عمر : ذاك يا بُنى العاص بن وائل السهمى .

والعاص بن وائل السهمى هو أبو عمرو بن العاص . وقد بلغ من حمايته عمر حين أسلم أكثر مما رأيت . توعدت قريش عمر بعد أن انفضت عنه ، فبات في داره خائفاً يترقب . قال عبد الله بن عمر : فبينما هو في الدار خائف إذ جاءه العاص بن وائل السهمى وهو من بنى سهم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : ما بالك ؟ قال عمر : زعم قومك أنهم سيقتلوننى أن أسلمت . قال : لا سبيل إليك . وبعد أن قالها أمين عمر ؛ فقد خرج العاص من عنده فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فسألهم : أين تُريدون ؟ قالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذى صبأ . قال : قد صبأ عمر فما ذاك ! فأنا له جار ! فتفرقت الناس .

ولم يكن عجيباً أن يُجبر العاص عمر بن الخطاب بعد الذى قدّمنا من جوار بنى سهم لبني عدى بن كعب في الجاهلية ، وذلك حين نافس بنو عدى بنى عبد شمس فُعَلِبُوا على أمرهم ، وأجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا ، واضطروهم إلى جوار بنى سهم .

وقد زاد هذا الجوارُ عمر جرأة في إسلامه ، وتحدياً لقريش ، ودفعاً لأذاها عن المسلمين .  
بذلك زادت شخصيته بروزاً واعتداده بنفسه ظهوراً ، فكان له من المواقف ما لم يكن  
لغيره ممن سبقه إلى الإسلام ، وما يسجله له المؤرخون تسجيل ثناء عليه وإعجاب به  
أى إعجاب .

رُوى أن عمر راح يسأل النبي : يا رسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا أو حيننا ؟ فقال  
عليه الصلاة والسلام : « بلى ! والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حيتم » . قال :  
فقيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ! : فما لبث النبي أن خرج في صفين أحدهما  
فيه عمر والآخر فيه حمزة ، ولهما كديد<sup>(١)</sup> كأنه الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش  
تنظر وتعلوها كآبة ، فلا يجرو سَلِيْطٌ منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .  
إنه أسلم ، فيجب أن يعرف الناس جميعاً أنه أسلم : ليفض منه من شاء أن يفض ،  
وليحاربه منهم من شاء أن يحاربه ، وليتألب عليه من اجتمعوا في أندية حول الكعبة  
وليناصروه وليقاتلوه ، وليبلغ ذلك منه حتى يناله الإعياء ، فلن يصرفه ذلك عن تحديهم  
ومصارحتهم بأنه محاربهم ، وبأن المسلمين متى بلغوا ثلاثمائة رجل فستكون الحرب حتى  
يجلى المسلمين المشركين عن مكة ، أو يُجلبهم المشركون عنها . ولن يرده ما يعرفه من حدة  
أبي جهل وبأسه عن أن يذهب إليه في داره فيضرب عليه بابه ليقول له إنه أسلم هو  
قوى مؤمن بالقوة . وهو شاب أشد بالقوة إيماناً . وهو جرىء صريح لا يهاب الأقران  
ولا يخشى أحداً . لذلك لم يَسْتَخْفِ كما استخفى غيره من المسلمين ، بل أقسم لِيَصْلُبْنَ مع  
المسلمين عند الكعبة ، وذلك بعد أن كانوا يصلون مستخفين في شُعب من شعاب الجبل  
الحيط بمكة .

ولقد برت يمينه . كان عبد الله بن مسعود يقول : « كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت  
هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة . لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر  
فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا » . وكان يقول : « مازلتنا أعزة منذ أسلم عمر » .

(١) الكديد : التراب الناعم .



وروى عن صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ أَنَّهُ قَالَ : « لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَدَعَا إِلَيْهِ عِلَانِيَةً ، وَجَلَسْنَا حَوْلَ الْبَيْتِ حِلَقًا وَطَفْنَا بِالْبَيْتِ ، وَانْتَصَفْنَا مِنْ غُلُظِّ عَلَيْنَا ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ بَعْضَ مَا يَأْتِي بِهِ » .

والحق أن عمر لم تَطِبْ نفسه إلا أن جاهد قريشاً ، ليكون له وإخوانه المسلمين ما لغيرهم من حق في بيت الله والصلاة لله حوله . وهو ما لبث حين جاهدها أن رأى معه حمزة بن عبد المطلب يجاهد جهاده ، ويخرج وإياه مع المسلمين إلى موقف إيجابى لم يقفوه من قبل ، موقف النضال ليكون لهم من الحقوق ما لغيرهم من قريش ، وليكون لهم من حرية الدعوة إلى دينهم ما لا سبيل لقريش أو لغير قريش أن تقف دونه .

وكان لهذا الموقف الإيجابى أثره في قبائل قريش جميعاً . كان فيها كثيرون تهوى قلوبهم إلى الإسلام ، ثم يمنهم الخوف من أذى قريش أن يدينوا به ، فلما رأوا عمر أسلم وقاتل قريشاً وصلى عند الكعبة وصلى المسلمون جميعاً عندها ، دخلوا في دين الله وظنوا أنهم أصبحوا بمنجاة من الأذى ومن العذاب . عند ذلك قالت قريش لبعضها لبعض : « إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشى أمر محمد في قبائل قريش كلها » وجعلوا يفكرون في هذا الموقف الجديد كيف يواجهونه .

وانتشر النبا بإقبال كثيرين من قريش على الإسلام ، ثم انتقل هذا النبا من الحجاز إلى الحبشة ، وعرفه المسلمون الذين هاجروا إليها ، فعادوا إلى وطنهم . فلما دنوا من مكة بلغهم أن ما تحدثوا به من إسلام أهلها لا يتفق والواقع . ذلك أن قريشاً ما لبثت حين رأت كثيرين من أبنائها يقتفون أثر عمر ويتبعون محمداً ، أن تعاهدت قبائلها فيما بينهم فكتبوا صحيفة تعاقدوا فيها على بنى هاشم وبنى المطلب ، على ألا يَنكحُوا إليهم ولا يُنكحُوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . ورأى الذين هوت أنفسهم إلى الإسلام ولما يُسلّموا ما صنعت قريش ، فترددوا ، فوقفوا دون اتباع رسول الله . بذلك عادت الحرب العوان بين قريش والمسلمين . وعرف المسلمون الذين عادوا من الحبشة ما كان من ذلك ، فلم يدخل أحد

منهم البلد الحرام إلا بجوار أو مستخفياً ، ورجع منهم إلى الحبشة كثيرون .  
 عادت الحرب العوان بين قريش والمسلمين ، وصار عمر يتعرض لما يتعرض له أصحاب  
 رسول الله ، ويصيبه ما يصيبهم ، ويتبع الوحي الذي ينزل من عند الله ثم يزداد بقوة  
 إيمانه ودقة نظامه وحسن رأيه قرباً من النبي وحظوة عنده ، ليسكون له من بعد في صحبة  
 رسول الله ، وفي عهد أبي بكر ، ، وفي حياة الإسلام ذلك الأثر البالغ الذي جعل اسمه علماً  
 على القوة والعدل والرحمة والبرمجتمعة ، وجعل عهده من أعظم العهود في تاريخ الإمبراطورية  
 الإسلامية ، بل في تاريخ الحضارة الإنسانية .

## الفصل الثالث

### في صفة النبي

دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها . فما لبث حين أسلم أن حرص على أن يذيع في قريش كلها إسلامه . كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلوا بالبيت العتيق ، فقاتل عمر قريشاً حتى تركوهم فصلوا ، وكانت الدعوة إلى الإسلام تجري خفية ، حتى إذا أسلم عمر دُعيَ إليه علانية ، وجلس المسلمون حول البيت وطافوا به وانتصفوا ممن غلظ عليهم . لذلك فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فأقبل كثيرون من أبنائها على الإسلام . هنالك ائتمرت قريش ، فتعاهدت قبائلها فكتبوا بينهم صحيفة علقوها في جوف الكعبة وتعاهدوا فيها على ألا تكون بينهم وبين محمد وبني هاشم وبني المطلب تجارة أو صلة . بذلك ازدادت الحرب شدة بين قريش والمسلمين .

وقد استعانت قريش في هذه الحرب بكل الأسلحة : استعانت بسلاح الدعاية فرعمت أن محمداً ساحر البيان يفرق بقوله بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . ودست عليه النَّضْر بن الحارث يخلفه في كل مجلس ليقصَّ على قريش نبأ فارس ودينها ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتبها كما اكتبتها . وأذاعت أن غلاماً نصرانياً اسمه جبر هو الذي يعلم محمداً أكثر ما يأتي به ، وكان محمد يكثر من الجلوس عند المرور إلى مَبَيْعَةَ هذا الغلام .

ثم إن قريشاً اشتد في إيذاء محمد وأصحابه : كانت أم جميل زوج أبي لهب تحمل الشوك فتطرحة على طريق رسول الله حيث يمر . وكان أمية بن خلف يهيمزه ويلمزه كلما رآه . وكانت فتنة المستضعفين بمختلف أساليب العنف من مألوف ما يجري بمكة كل يوم . وكان رسول الله والمسلمون الذين أقاموا معه بمكة ولم يهاجروا إلى الحبشة يلقون ما يصيبهم من ذلك كله صابرين على البأساء والضراء . فلما بلغ منهم الأذى وقاطعتهم قريش احتموا في شِعْب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، فكانوا فيه يمانون الحرمان ،

ولا يجدون من الطعام إلا القليل يحمله إليهم من أهل مكة من أخذتهم الشفقة بهم ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً . وقد ظلوا في هذا الشعب ثلاث سنوات حسوماً ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم . وفي هذه الأشهر كان محمد ينزل إلى العرب يبلغهم رسالة ربه ، فيرى بعضهم في صبره وصبر أصحابه على الأذى إيماناً بالحق الذي أوحاه الله إليه فيتبعونه . وضاق هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية زرعاً بالصحيفة الظالمة التي قاطعت قريش بها محمداً فاتفقا مع آخرين فنزعوها من جدار الكعبة وشقوها . ولم تثر قريش لعملهم ، فماد محمد وأصحابه من الشعب ، وجعل يذيع دعوته بمكة وفي القبائل التي تفد إليها في الأشهر الحرم .

وكانت قريش تزدد في حرب محمد عنفاً كلما ازداد في الدعوة إلى الله إيماناً . ومات عمه أبو طالب ، وماتت زوجته خديجة ، فشجع ذلك قريشاً على زيادة التعرض له وإيذائه . وأراد أن يستنصر ثقيفاً بالطائف فردّوه بشرّ جواب . وعرض نفسه في المواسم على القبائل وأتاها في منازلها ، فلم يسمع له منها أحد .

ثم كان الإسراء ، فانصرف جماعة من المسلمين عن دينهم ، وازداد قريش إيذاء لمن أقاموا على إسلامهم حتى ضاقوا بما يلقون منها ذرعاً . على أن دعوة محمد كانت قد انصلت على السنين ، فتركت من الأثر ما جعل كثيرين يفكرون فيها وفي الحق الذي تنطوى عليه . وكان أهل يثرب أكثر تأثراً بها من سائر العرب . لذلك أسلمت طائفة منهم كانوا النواة لبيعة العقبة الأولى ، وكان إسلامهم أول ما دعا رسول الله للتفكير في الهجرة إلى يثرب .

فلما استبدار العام أقبل من المدينة خمسة وسبعون مسلماً ، ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . وهؤلاء هم الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية أو الكبرى . بايعهم رسول الله على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . ومن يومئذ أمر أصحابه بمكة أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا تتورق قريش بهم . وكان هذا مبدأ الهجرة إلى المدينة ، وبدأ انتقال الإسلام إليها وانتشاره منها إلى سائر الأرجاء من شبه الجزيرة . هذه الفترة التي انقضت بين إسلام عمر وأسر محمد أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب

هي لاريب من أدق الفترات التي مر بها رسول الله ودين الله . أفكان لعمر بن الخطاب فيها مواقف تتفق وما عُرِف من صراحته وبأسه وقوة شكيمته ؟ لم نقف في كتب السيرة وكتب التاريخ على شيء من ذلك فيه غناء . لكن ذلك ليس معناه أن عمر في فتوة شبابه ومضاء بأسه وبالغ قوته ، قد وقف من الأحداث التي مرت حينئذ برسول الله وبالمسلمين موقفاً سلبياً . فهو من غير شك قد كان من أكثر المسلمين شجاعة في احتمال ما ينزل بهم وصبراً عليه ، ومن أشدهم دفعا لما يستطيع دفعه من الأذى عن رسول الله وعن إخوانه المسلمين . لكنه رجل يؤمن بالنظام ويحرص أشد الحرص على اتباعه ، كان ذلك شأنه في الجاهلية فأحر به أن يكون شأنه في الإسلام . وقد كانت سياسة رسول الله في هذه الفترة التي نتحدث عنها تتجنبُّ البأس والشدة في كل مظاهرها ، ولا تتجاوز المغفرة لمن أساء إليه ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم . كان ذلك موقفه من قريش بمكة ، ومن تقيف بالطائف ، ومن سائر القبائل التي دعاها إلى النور والهدى فاستكبرت وأعرضت عن دعوته . وهذه سياسة لم يكن لبأس عمر وقوته أن يظهرها معها ظهورها يوم أسلم وقاتل المشركين حتى صلى وصلّى المسلمون معه عند الكعبة .

فلما كانت الهجرة هاجر عمر إلى المدينة كما هاجر غيره من المسلمين ، فترك مكة في سر من أهلها ، وإن جرت رواية تنسب إلى علي بن أبي طالب بأنه قال : « ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ؛ فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتفكّب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً واختصر عَنزَتَه <sup>(١)</sup> ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلقى واحدة واحدة يقول لهم : شأهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن يُشكّل أمه أو يُؤتم ولده أو يرثل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادى . »

فابن هشام وابن سعد والطبري لا يُثبتون هذه الرواية ، بل يذكرون ابن هشام في السيرة وابن سعد في الطبقات أن رسول الله أذن للناس في الهجرة ، على أن يتركوا مكة متفرقين

(١) العنزة : عصا لها زج كالرمح الصغير .

حتى لا تتورق ريش بهم ، فجعل للمسلمون يخرجون أرسالاً ، يركب أهل القوة ويعتقبون ، فأما من لم يجدوا ظهراً فيمشون . قال عمر بن الخطاب : « فكنت قد اتعدت أنا وعتياش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ، وكنا إنما نخرج سرّاً ، فقلنا أيكم ما تخلف عن الموعد فلينطلق صاحباه . فخرجت أنا وعتياش بن أبي ربيعة ، واحتبس هشام بن العاص ففتن فيمن فتن . وقدمت أنا وعتياش فنزلنا قُبَاء » . ثم تذكر الرواية بعد ذلك أن عتياشاً عاد إلى مكة استجابةً لطلب أمه ، وأنه حُبِسَ هناك ثم فُتِنَ فافتن .

هل تتناقض هاتان الروايتان ؟ أم يستطيع التوفيق بينهما بأن عمر تحدى المشركين على ما جاء في الرواية المنسوبة إلى علي بن أبي طالب ، ثم هاجر بعد ذلك فخرج سرّاً على رواية ابن هشام وابن سعد ؟ نرجح أن عمر لم يتحدّ أحداً ، وأنه هاجر من مكة في سر من أهلها . وهو لم يفعل ذلك ضعفاً منه أو جبناً ؛ فهو لم يعرف الجبن ولا الضعف حياته ، لكنه كان رجل نظام ؛ فهو يتبع الجماعة ويحمل غيره على اتباعها . وقد كان المسلمون جميعاً يخرجون في هجرتهم سرّاً . فلا عجب أن يحاربهم عمر في ذلك حرصاً على نظامهم ، وحتى لا يشعر الذين يخرجون سرّاً بأنهم دون عمر في قوة إيمانه بالله ورسوله .

بلغ عمر قُبَاء ، فنزل بها في بني عمرو بن عوف على رفاعة بن عبد المنذر ، ونزل أهله على رفاعة معه . فلما جاء رسول الله مهاجراً وفي صحبته أبو بكر ، كان عمر فيمن استقبله وسار في ركبه إلى المدينة . وعمل عمر مع رسول الله والمسلمين في بناء المسجد وبناء بيت رسول الله ، حتى انتقل عليه الصلاة والسلام إليه من بيت أبي أيوب الأنصاري .

كانت الهجرة إلى المدينة بدء عهد جديد وسياسة جديدة في حياة الإسلام والمسلمين . اجتمع الذين هاجروا من مكة إلى الذين أسلموا بالمدينة ، فكانوا قوة رفعت صوت المسلمين وأعلت كلمتهم . وأراد رسول الله أن يزيد هذا الصوت رفعة ، وهذه الكلمة قوة ، بأن يزيد ما بين المهاجرين والأنصار من رابطة ، فيضاعف في نفوسهم الشعور بوحدتهم وعزتهم . لذلك دعاهم ليتأخروا في الله أخوين أخوين ، فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين ، وكان عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وتأخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم

إخاء الدم والنسب . وفي هذا الإخاء كان عمر بن الخطاب وعُتبان بن مالك ، أخو بني سالم ابن عوف بن عمرو بن عوف الخزرجي ، أخوين<sup>(١)</sup> .

عزّزت هذه المؤاخذة مكانة المسلمين بالمدينة ، فحشى أهل يثرب من المشركين ومن اليهود بأسهم . لذلك لم يتردد اليهود فوادعوا رسول الله ، وعقدوا معه عهداً يقرّر حرية العقيدة وحرية الرأي وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المأل وتحرّم الجريمة . وأضعف هذا العهد الذين أقاموا على شركهم من أوس المدينة وخزرجها ، كما قوى المسلمين وزادهم بأساً وعزّة .

هذه المكانة التي بلغها المسلمون في حياة المدينة العامة قد فتحت لعمر بن الخطاب ميادين لم تكن مفتوحة أمامه بمكة . إنه رجلُ نظام ، ورجل رأى يناضل عنه في سبيل النظام . وقد كان المسلمون بمكة قلّة عصمها إيمانها بالله ورسوله فلم تُفتن ولم تضعف ، متخذة من المقاومة السلمية سلاحها لدفع من يحاول فتنها عن دين الله والمقاومة السلبية لا تتفق وطبيعة عمر النائرة القوية المتحفزة لتحدي من يتعرض لصاحبها . لذلك لم يكن بمكة منسع لنشاطه يبدو فيه وتظهر آثاره . أما وقد أصبح للمسلمين في حياة المدينة ونظامها هذا الأثر ، فقد آن لعمر أن تظهر شخصيته وأن يكون له في الحياة العامة أثره .

بل لقد بدت في عمر صفات لم تعرف له بمكة : بدا أنه رجل مُحدّث ، يلهم الرأي وكأنما حدّث بما ظن . لَمَّا اطمان رسول الله بالمدينة كان الناس يجتمعون للصلاة حين موافقتها بغير دعوة . وأراد رسول الله أن يجعل للمسلمين بوقاً كبوق اليهود يدعون به لصلاتهم ؛ لسكنه كره البوق ، فأمر بناقوس يدق ساعات الصلاة كما يدق الناقوس للنصارى ، فُنِحَتِ الناقوس وكُلِّفَ عمر أن يشتري الغداة له خشبتين . وبينما عمر نائم في داره إذ رأى في المنام : « لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة » ، فذهب إلى رسول الله يخبره بما رأى فإذا الوحى سبقه به .

(١) في روايات ابن سعد رواية أن رسول الله آخى بين أبي بكر وعمر ، ورواية أخرى أنه آخى بين عمر وعويم بن ساعدة ، وفي رواية ثالثة بين عمر ومعاذ بن عفراء . وثم روايات أخرى أثبتتها ابن حجر في فتح الباري . والرواية المشهورة للتواترة أن عمر وعُتبان بن مالك كانا في هذا الإخاء أخوين .

ويروى أن عبد الله بن زيد سبقه إلى رسول الله فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف  
 في هذه الليلة طائف : مرّ بي رجل عليه ثوبان يحمل ناقوساً في يده ، فقلت له :  
 يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوه به إلى الصلاة ، قال :  
 أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ وألقى إليه صيغة الأذان ، فأمر رسول الله بلالاً فأذّن بها ،  
 فسمها عمرو وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله يجرّ رداءه ويقول : يا نبي الله ! والذي بعثك  
 بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى ا .

من يومئذ بدأ الأذان للصلاة يعطّر جو المدينة كل يوم خمس مرات فكان الحجّة  
 القائمة على أن كلمة المسلمين أصبحت العليا . والأذان للصلاة دعوة للنظام الذي يزيد  
 الآخذين به أيداً وقوة ، أما وقد حُدِّثَ به عمر قبل أن ينزل به الوحي ، فذلك الدليل على  
 أن دين الحق قد أخذ على هذا الرجل القوي مسالك نفسه ، فصار لا يفكر في شيء  
 تفكيره في النظام الذي يزيد هذا الدين عزّاً وانتشاراً .

على أن اليهود والمشركين الذين أقاموا على دينهم برّوا بسطان المسلمين وقوتهم ،  
 فبدعوا يأتمرون بهم ويعملون على مناوأتهم . وقد كان للمسلمين في مقاومة مؤامراتهم  
 أساليب لا تخلو من شدة وعنف ، وكان عمر بن الخطاب يشارك في هذه المقاومة كغيره  
 من المسلمين .

وأراد رسول الله أن يرهب اليهود والمنافقين ، وأن يقنع قريشاً بأن الخير لها أن تصالحه  
 على حرية الدعوة لدين الله ، فبعث السرايا ، وأمر عليها حمزة بن عبد المطلب وعبيدة  
 ابن الحارث وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن جحش ، كما خرج بنفسه على رأس بعضها .  
 ولم تذكر كتب السيرة ولا كتب التاريخ شيئاً عن اشتراك عمر في هذه السرايا الأولى . ولعل  
 رسول الله قد آثر أن يبقى عمر بالمدينة لما كان من حسن سياسته مع صراحتة في الحق .  
 يشهد بذلك ما حدث حين قدّم وفد من نصارى بَجْرَانَ إلى المدينة يجادلون رسول الله ،  
 فردّ جدالهم وجدال اليهود بقوله تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ  
 بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرْبَابًا  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . ثم دعا الوفد إلى قبول ما نزل عليه



من ذلك أو يلاعنهم . ورأى هؤلاء النصارى أن يعودوا إلى قومهم ولا يلاعنوه، ثم رأوا شدة حرصه على العدل ، فرغبوا إليه في أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أمور اختافوا عليها . فقال لهم رسول الله : اثبتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين . روى ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان يقول : ما أحببت الإمارة قط حتى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحتُ إلى الظهر مهجراً . فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزل يلتبس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فذهب بها أبو عبيدة .

وإنما طمع عمر في أن يوليّه رسول الله الحكم لما كان يتولاه هو وآباؤه في الجاهلية من السفارة والحكم في المداقرات بين القبائل . فاختيار النبي أبا عبيدة مع ما كان لعمر في نفسه من مكانة ، يشهد بأن رسول الله حرص على بقاء ابن الخطاب بالمدينة كما يستمين بصراحتة وجرأته وحسن رأيه هذا ، على أنه قد يكون خشى شدة عمر وغلظته ، فاختر أبا عبيدة لأنه جمع بين الأمانة ولين الجانب ورضا النفس .

لم تقع قريش بما أراد رسول الله من موادعتها على حرية الدعوة لدين الله ، بل ظلت على عداوتها له ولأصحابه . فلما خرج يلقاها ببدر في ثلاثمائة من المسلمين ، عرف أن الذين جاءوا من مكة يزيدون على الألف ، استشار أصحابه : أيقاتلهم أم يعود أدراجه إلى المدينة ؛ وكان عمر كما كان أبو بكر ممن أشاروا بالقتال . فلما بدأت المعركة ثم حى الوطيس ، كان مهجع مولى عمر بن الخطاب أول قتيل من المسلمين . وفي أثناء المعركة قتل عمر خاله العاص بن هشام . يروى أن عمر التقى يومئذ هو وسعيد بن العاص فقال له : « إني أراك كأن في نفسك شيئاً . أراك تظن أني قتلت أباك . إني لو قتلت لم اعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة . فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور برّوقه <sup>(١)</sup> فحدث عنه ، وقصد له ابن عمه عليّ فقتله . »

هذه الكلمة التي قالها عمر هي أول ما يروى عنه في هذه الغزوة التي وجهت تاريخ

(١) روق الثور : قرنه .

الإسلام وتاريخ العالم كله وجهة جديدة ، وهي تصور الأثر الذي تركه الإسلام في نفس عمر أرق تصوير . ففي سبيل هذا الدين يجب أن يستهين الإنسان بكل شيء ، ويجب ألا يتردد حين القتال إذا واجهه أخ أو قريب . إنه يقدم حياته لله وفي سبيل الله ، فليس له أن يتردد لأي اعتبار دون ما ينصر دين الله .

وأسر المسلمون سبعين من قريش أكثرهم من ساداتها وذوي المسكانة فيها ، فكان عمر بن الخطاب أشد المسلمين على هؤلاء الأسرى وأحرصهم على أن يُقتلوا . وقد طمع الأسرى في الحياة وأن يُقتدوا ، فبعثوا إلى أبي بكر أن يكلم رسول الله لئلا عليهم أو يفاديهم ، ووعدهم أبو بكر خيراً . وخافوا أن يفسد عمر عليهم أمرهم ، فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبي بكر ، فنظر إليهم شزراً . وتحدث أبو بكر إلى رسول الله لئلا على هؤلاء الأسرى أو يفاديهم فيأخذ منهم ما يأخذ قوةً للمسلمين . أما عمر فكان الشدة كل الشدة والبأس غاية البأس ، قال « يا رسول الله ! هم أعداء الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم . هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطيء الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك » .

واستشار رسول الله المسلمين في هذا الأمر فانتهوا إلى قبول الفداء ، وأفدى النبي الأسرى وأطلق سراحهم . لكن الوحي مالم يث بعد ذلك أن نزل بقوله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . وكذلك كان عمر مُحَدَّثًا فيما أبدى من رأى عن أسرى بدر ، كما كان مُحَدَّثًا في أمر الفداء بالأذان للصلاة . وبذلك زاد في نظر النبي وفي نظر المسلمين قَدْرُ رأيه وزادت عند النبي وعند المسلمين رفعة مكانته .

وقدم مِكرزُ بن حفص في فداء سهيل بن عمرو ، وكان سهيل خطيباً بالغ الحجة . فلما رأى عمر مكرزاً يفنديه ، أسرع إلى رسول الله يقول : دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فيدفع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً . وأجابه رسول الله : « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً » وعبارة عمر صريحة الدلالة في إصراره على رأيه ألا يُترك القادرون من هؤلاء الأسرى يهودون لمناواة المسلمين . وهو قد

أصر على هذا الرأي مع ما كان من إقرار جماعة المسلمين قبول الفداء .  
 نزل الوحي مؤيداً رأى عمر في أمر الأسرى ، فزاد ذلك عمر قرباً من النبي ومكانة  
 عنده ، وأصبح وزيره كما كان أبو بكر وزيره . وكانت حفصة بنت عمر زوجاً لخُنَيْسِ  
 ابن حُدَافَةَ أحد السابقين إلى الإسلام وقد فارقتها خُنَيْسِ قبل بدر بأشهر ، فتزوجها رسول  
 الله كما تزوج عائشة بنت أبي بكر من قبل . وربطت المصاهرة بينه وبين عمر ، وأتاحت  
 لابن الخطاب أن يتردد عليه ، كما كان أبو بكر يتردد عليه .

استدار العام وخفت قريش تأخذ لثأرها من بدر ، وأشار الناس على رسول الله  
 بالخروج لملاقاتهم بظاهر المدينة عند أحد . ودخل رسول الله بيته ، ودخل معه أبو بكر  
 وعمر ، فعماء وألبساء درعه ، وتقلد سيفه وسار في أصحابه يواجه عدوه . وانتصر المسلمون  
 أول النهار ، ثم دارت الدائرة عليهم حين خالف الرُّمَاءُ أمر رسول الله فنزلوا من مراكزهم  
 فوق الجبل يشاركون الناس في الغنيمة ؛ فقد دار خالد بن الوليد بقرسان قريش وراء  
 المسلمين ، ثم صاح صيحة ردت قريشاً لمهاجمة محمد وأصحابه وهم في شغل يجمع أسلاب  
 الموقعة . واضطرب المسلمون لهجوم قريش وتداعت ضفوفهم ، ثم زادها تداعياً أن صاح  
 مشرك : إن محمداً قد قتل ؛ فقد خيل إلى المسلمون حين سمعوا هذه الصيحة أنهم لم يعد  
 لهم ولا للدين الذي آمنوا به بقاء . وما بقاء هذا الدين ثم ما بقاؤهم وقد وعد الله رسوله  
 النصر ، وهذا رسول الله يقتل بيد المشركين ، وهؤلاء أصحابه يهزمون ويفتك المشركون  
 بهم ! بل لقد ألقى رجال من كبار المهاجرين والأنصار بأيديهم وتولاهم اليأس ، فانتحوا  
 ناحية من الجبل جلسوا فيها . وانتهى أنس بن النصر إلى مجلسهم ذلك ، فألقى عمر  
 ابن الخطاب وطلحة بن عبيد الله وطائفة من المسلمين معهم وهم في اضطرابهم وبأسهم  
 لا يدرون ما يصنعون . عند ذلك هتف بهم : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : « قتل رسول الله » .  
 قال : « فماذا تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه » . ثم استقبل  
 المشركين ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وأبلى في قتالهم أحسن البلاء ، ولم يُقتل حتى ضرب  
 سبعين ضربة أزالته معالته ، فلم يعرف جثمانه بعد موته إلا أخته ، عرفته بيناته .  
 على أن المسلمين المالبثوا ، حين عرفوا أن رسول الله لم يمت ، عادوا إلى إيمانهم بأن

الله ناصر رسوله ، فأسرع إليه أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والزيد بن العوام ورهط غيرهم يمنعونهم . وعرف خالد بن الوليد مكانهم ، فعلاً الجبل على رأس فرسان معه يريد أن يقضى على محمد ومن حوله . لكن عمر بن الخطاب ورهطاً من المسلمين واجهوا خالداً وفرسانه ، وقتلوه مستميتين دفاعاً عن الرسول فردّوهم على أعقابهم ، ولم يصل خالد إلى بغيته . قدّمت أن ما حدّث به عمر عن الأذان للصلاة يشهد بأن دين الحق كان قد أخذ على هذا الرجل القوى مسالك نفسه ، فجعله لا يفكر في شيء تفكيره فيه وفي النظام الذي يزيده عزاً وانتشاراً . وموقف عمر من أسرى بدر ونزول الوحي فيهم مؤيداً رأيهم ، ووقفته في وجه خالد بن الوليد قبل أن يفاجيء النبي ومن معه ، هذان الموقفان يدلان أبلغ دلالة على استئثار دين الله بنفس عمر استئثاراً جعله يتعصب له ويشتد في نصرته . ولا عجب في ذلك ؛ فقد كان عمر منذ نشأته مؤمناً القلب بما يعتقده . وإذا آمن القلب وهب المؤمن نفسه هبة خالصة لما يؤمن به . لقد رأينا مواقف عمر في جاهليته : رأينا تعصبه لقريش على غيرها من القبائل ، وتعصبه لدين قريش على دعوة محمد تعصباً جعله يشارك في تعذيب المسلمين الأولين ؛ فلما هدى الله قلبه إلى الإيمان به ، وقف في جانب دين الله ينصره بالحجة التي كان يقائله من قبلها . والآن وقد عزّ المسلمون بدينهم وبنبيهم ، فلا شيء يعدل عند عمر أن ينصر هذا الدين وأن يضحى له بكل شيء ، وأن يضحى في سبيله بحياته . وما أصابه وأصاب للمسلمين من بأس حين تحدثت قريش بوفاة النبي ، كان بعض هذا التعصب للدين تعصباً جعل الحزن يخرج بعمر عن سداده . فلما عرف أن رسول الله حيٌّ أقبل يُلقى بحياته في سبيل ما آمن به قلبه ، فنصره الله على القائد العبقري الذي اعتزت به قريش ولذي كسد لها أهدا .

على أن إيمان عمر وتعصبه لهذا الإيمان لم يتنهها من اعتزازه بنفسه واعتداده برأيه أمام رسول الله نفسه . وقد كان عمر في هذا الاعتزاز بالرأى من أقوى المسلمين شكيمة وأبلغهم حجة . صحيح أن المسلمين جميعاً كانوا يومئذ لا يعرفون الجود ، وكان صاحب الرأى سهم يشير على رسول الله ، ويجادل لينصر رأيه أو يقتنع بنقيضه ، شأنه في ذلك شأن المؤمنين في عهود الثورة ، إذ يريدون أن يبلغوا بها إلى أسى ما تنطوى عليه مبادئها .

لكن عمر كان أصرحهم وأكثرهم جرأة . لم يمنعه حبه رسول الله وعظيم إيمانه برسالته أن يُبدل أمامه برأيه وأن يصبر عليه . وأنت قد رأيت في موقفه من أسرى بدر كيف طاب أن ينزع ثيبي سهيل بن عمرو بعد ما قبل المسلمون فداء هؤلاء الأسرى . وسنرى له مثل هذه المواقف من بعدُ صحبة رسول الله وفي خلافة أبي بكر ، ثم نرى من اجتهاده في حياة الرسول ما أقر القرآن بعضه ، كما نرى الكثير من الأحكام والمبادئ التي اجتهد فيها برأيه بعد وفاة الرسول باقياً يأخذ المسلمون به إلى اليوم .

لما سار رسول الله لقتال بني المُصطَلِقِ وفرغ منهم ، ازدحم رجلان من المسلمين على الماء واختلفا فاقْتتلا . وكان أحد الرجلين من المهاجرين والآخر من الأنصار ؛ فصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين ! وصرخ صاحبه : يا معشر الأنصار ! عند ذلك قال عبد الله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين بالمدينة لمن حوله : « لقد كاثرتنا المهاجرون في ديارنا . والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ . أما والله إن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل » . وبلغت هذه المقالة رسول الله وعنده عمر بن الخطاب فهاج هايج عمر فقال : يا رسول الله ! مرُّ به عتاد بن بشر فليقتله . وأجابه رسول الله فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! وأمر أن يؤذن بالرحيل في ساعة لم يكن المسلمون يرتحلون فيها .

وذهب ابن أبي إلى رسول الله يفكر ما قال ، فنزل الوحي بتكذيبه . عند ذلك ذهب عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وكان مسلماً حسن الإسلام ، فقال : « يا رسول الله ! إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي . فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أرتُّ بوالده مني . وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار » . وأجابه رسول الله : « إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » وأقام ابن أبي بعد ذلك ينظر إليه أهل المدينة شزراً ولا يقيمون له وزناً . وتذاكر النبي يوماً شؤون المسلمين مع عمر ، وتناول الحديث ذكر ابن أبي وتعنيف قومه إياه ، فقال رسول الله : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قات لي أقتله لأرعدتُ

لَهُ أَنْفٌ لَوْ أَمَرْتَهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتَهُ « . قال عمر : « قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى » .

ولما مات عبد الله بن أبي هَمَّ النبي بالصلاة عليه ، فقام عمر يذكر كيد الرجل للإسلام ونسكابه به ، ويذكر قوله تعالى : ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ) . وابتسم النبي لحاسته في الطعن على رجل مات وقال : « لو أعلم أني زدت على السبعين غفر له زدت » . وصلى عليه ومشي معه حتى فرغ من دفنه وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى : ( وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ) وأذن رسول الله في الناس بالحج لست سنوات من هجرته إلى المدينة . فلما قرب من مكة خرجت فرسان قريش تلقاه لتصدده عن دخولها ؛ فقد أقسمت لا يدخلها محمد عليهم عَنوة . وكان رسول الله إنما جاء حاجاً ولم يجيء غازياً . لذلك نزل الحدَّ بَيْبَةِ في أصحابه وعزم أن يفاوض قريشاً لِيُفَسِّحَ لهم طريق الطواف بالبيت وأداء فريضة الحج . ودعا إليه عمر بن الخطاب ليُدخل مكة فيتحدث إلى قريش فيما جاء له . قال عمر : « يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدى بن كعب أحد يئدني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان » . ودخل عثمان مكة ، وطال حديثه مع قريش واحتماسه عن المسلمين حتى ظنوا أنه قتل ، وبايع رسول الله أصحابه بيعة الرضوان لقتال قريش أن قتلوا عثمان . على أن عثمان عاد يذكر أن قريشاً تأتي على المسلمين أن يدخلوا مكة هذا العام حفظاً لهيبتها بين العرب ، لكنها لا تأتي المفاوضة للخروج من موقف الخصومة بعد أن أيقنت أن محمداً جاء حاجاً ولم يجيء غازياً . واتصل الحديث بين الفريقين ابتغاء التعاهد والصلح . ولقد ضاق عمر صدرأ بما كان النبي يقبله في هذه الحادثات ، حتى لقد وثب فأنى أبا بكر فقال : يا أبا بكر! أليس برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ؟ قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : فعلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر الزم قرآنك<sup>(١)</sup> ، فإني أشهد أنه رسول الله : قال عمر . وأنا أشهد أنه رسول الله

(١) أي أتبعه ولا تغالف أمره . وأصل الغرز : ركاب الرجل من جلد .

لم يقنع عمر بهذا الحديث بيده وبين أبي بكر ، فذهب إلى رسول الله ، والغضب لا يزال أخذاً منه ، فقال : يا رسول الله ! ألسنت رسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ! قال رسول الله : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يُضيعني ، وسكت عمر لهذا الجواب ، وكان يقول من بعدُ : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً .

أرأيت إلى هذا الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالرأى ! وما لعمر لا يعتز برأيه ، وقد أيدته الوحي في موقفه من أسرى بدر ! ولقد ظل على رأيه حين أشار بقتل عبد الله بن أبي حتى أيقن أن أسر رسول الله أعظم بركة من أسره ، كما ظل على رأيه في عهد الحديبية حتى نزل الوحي يؤيد رسول الله ويذكر أن هذا العهد فتح مبين . وكذلك كان يجادل رسول الله في الرأى مجادلة رجل لرجل حتى يتبين له الحق ، إما بنزول الوحي ، أو بتأييد الواقع رأيه ، أو نقض الواقع له .

رأيت أن عمر لم يتجه بتفكيره إلى النظريات المجردة يقلبها ويمتحنها ليرتب عليها آثارها المنطقية ، وإنما كان اتجاهه في الإسلام ، كما كان قبله ، إلى ما له أثر عملي في واقع الحياة الحاضرة أمامه . وهذا الأثر العملي هو الذي استثار رأيه في أسرى بدر ، وفي أسر ابن أبي ، وفي عهد الحديبية ، كما أنه هو الذي استثار رأيه من بعدُ فيما لم ينزل به الوحي من شؤون المسلمين العامة ، ومن شؤون رسول الله الخاصة .

كان لأهل مكة غرام بالنبيذ ، وكان عمر صاحب خمر في الجاهلية . وقد ظل المسلمون يشربون الخمر طيلة مقامهم بمكة وعدة سنوات بعد الهجرة إلى المدينة . ورأى عمر ما يهيجه الشراب من سورة النضب في النفوس ، وما يدعو إليه من تفانٍ الشاربين ولمز بعضهم بعضاً . وكثيراً ما اتهمز اليهود والمنافقون أوقات الشراب ليشيروا بين الأوس والخزرج منازلهم القديمة . عند ذلك سأل عمر رسول الله عن الخمر ، ولم يكن قد نزل فيها قرآن وقال : اللهم بين لنا فيها ، فنزلت الآية : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . ولما لم يكن في هذه الآية نهى

عن الخمر فقد ظل بعض المسلمين يقضون ليلهم متوفرين على شراهم ، فإذا ذهبوا إلى الصلاة لم يعلموا ما يقولون فيها . وعاد عمر فقال : اللهم بين لنا في الخمر ، فإنها تذهب العقل والمال ! فنزلت الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . ومن يومئذ كان مفادى الرسول للصلاة يقول : لا يقربن الصلاة سكران . وأقلّ المسلون من الشراب وإن لم يتهوا عنه ، فبقي من أثره في بعضهم ما يسوء . شجّ أحد الأنصار مهاجراً بعضاً من عظام الجزور التي كانوا يأكلونها حين شراهم بخلاف قام بينهما ، وثمل حين فنشاجرا فشجّ بعضهم بعضاً فاضطغنا . ورأى عمر ذلك فعاد يقول : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب العقل والمال ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ » . ولم يرق أناساً من المسلمين هذا النهي فقالوا : أتكون الخمر رجساً وهي في بطن فلان وفلان قتل يوم أحد ، وفي بطن فلان وفلان قتل يوم بدر ؟ ! فنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

هذا موقف عمر في شأن من شؤون المسلمين العامة قبل أن ينزل الوحي بحكم فيه . ولم تكن شؤون رسول الله الخاصة في رأى عمر كشؤون غيره من الناس ، بل كانت كشؤون المسلمين العامة سواء . لذلك لم يكن يأبى أن يتعرض لها وأن يحدث النبي فيها . روى البخارى عن عائشة أنها قالت : « كان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احب نساءك فلم يفعل وكان أزواج النبي يخرجن ليلاً قبل المناصع <sup>(١)</sup> . خرجت سودة بنت زمعة ، وكانت امرأة طويلة ، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس فقال : عرفتك يا سودة ، حرصاً على أنه ينزل الحجاب ، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب » . وروى عن عمر أنه قال : « قلت : يا رسول الله ! سيدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات

(١) المناصع : المواضع يتخلى فيها لقضاء الحاجة .



المؤمنين بالحجاب، فنزلت آية الحجاب «، وآية الحجاب قوله تعالى: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِنْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» وقوله جل شأه: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيقِهِنَّ، ذَلِكَ آدَابِي أَنْ يُعْرَفَنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

كان لعمر مع النبي في شؤونه الخاصة موقف آخر، لعله لم يكن يقفه لولا أن ابنته حفصة كانت من أمهات المؤمنين. ذلك أن أزواج النبي أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بينهما، وأنه لحبه عائشة يظلمهن. فلما ولدت مارية إبراهيم وشغف رسول الله بالطفل حباً، ظهرت عليه حفصة وعائشة وتابهما سائر أزواجه، رأى أن يهجرهن وأن يهدد بفراقهن. ورد في الصحيح عن ابن عباس أنه سأل عمر: من اللتان تظاهرتا على النبي من أزواجه؟ وأجابته عمر: تلك حفصة وعائشة، ثم قال: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم. فبينما أنا في أمر آتمة إذ قالت لي امرأتى: لو صنعت كذا وكذا! فقلت لها: ومالك أنت ولما هاهنا وما تكلفك في أمر أريده؟! فقالت لي: عجيباً لك يا بن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلم يومه غضبان، قال عمر: فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة، فقلت لها: يا بُنَيَّةُ! إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلم يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لتراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرُك عقوبة الله وغضب رسوله يا بُنَيَّةُ لا تفرّتيك هذه التي قد أعجبها حسنُها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها. خرجتُ حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلّمتها، فقالت لي أم سلمة عجيباً لك يا بن الخطاب! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه. قال عمر: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض

ما كنت أجد ، فخرجت من عندها ، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتية بالخبر ، وكنا نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدرنا منه ، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب ، وقال : افتح افتح . فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه . فقلت : رغم أنف حفصة وعائشة ! فأخذت ثوبي فأخرج حتى جئت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشربة يرقى إليها بعجلة<sup>(١)</sup> ، وغلأم لرسول الله (ص) أسود على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب ، فأذن لي . قال عمر . فقصصت على رسول الله (ص) هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم .

وفي رواية أن النبي اعتزل نساء شهرأ كاملا ، فلما أوفى الشهر على التمام أقام المسلمون بالمسجد ينكتون الحصى ويقولون : طلق رسول الله (ص) نساءه . عند ذلك ذهب عمر إلى رسول الله في مشربته ، فنادى غلامه ربأحأ كي يستأذن له ، ولم يجب رباح ، فكرر عمر النداء . فلما لم يجب رباح للمرة الثانية ، رفع عمر صوته قائلا : يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله (ص) فأبى أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها وأذن له النبي (ص) فدخل ، وبعد هنيهة قال : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدث النبي حتى تحسرت الغضب عن وجهه وحتى ضحك .

ويروى أن عمر دخل على نساء النبي حين اعتزلهن النبي وقال لهن : إن انتهيتي أوليبدلن الله رسوله خيرا ممنكن . وأجابته إحداهن قائلة : يا عمرا أما في رسول الله (ص) ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت اوفي هذا نزل كله قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ

(١) العجلة هنا : جذع نخلة ينقر فيجعل فيه مثل الدرج ليرقى عليه .

أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْريلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا . فلما نزلت هذه الآية زجج رسول الله إلى نساءه تائبات عابدات مؤمنات<sup>(١)</sup> .

هذه أمور أثبت المؤرخون جميعاً أن الوحي نزل فيها بؤيد رأى عمر . وفي صحيح البخارى أن عمر قال : « وافقنى ربي في ثلاث . قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلىً ، فنزلت : ( وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى ) . قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي ( ص ) في الغيرة عليه فقالت هن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت هذه الآية » . ولعل نزول الوحي موافقاً رأى عمر في هذه المواقف هو الذى جعل رسول الله ( ص ) يقول : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » ، أو يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » .

لهذه المواقف الكثيرة التى وقفها عمر من أسرى بدر ، ومن عبد الله بن أبى ، ومن نأخذيبية ، ومن حكم الحمر ، ومن نساء النبي ، دلالة تلفت الفطر ، وتكشف عن جانب من شخصية عمر كان يزداد على الزمن وضوحاً وقوة . ولسنا نقصد جراً أنه وصراحته وبروز شخصيته ، وما إلى ذلك مما أسلفنا ذكره ، ولسنا كذلك نريد حسن رأيه وواسع علمه ، وإنما نرمى إلى ما دلت هذه المواقف عليه من عظيم اشتغاله بالشؤون العامة ، وتوفره عليها توفر من تعنيه سياسة قومه وتدبير أمورهم والعمل على حسن نظامهم . والواقع أنه برز في هذه الناحية أكثر مما برز غيره ؛ ولذلك كان النبي بدعوه وزيره ، وكان حين يشاور أصحابه يجعل رأى عمر مكانة تعدل مكانة الرأى الذى يبديه أبو بكر صفى رسول الله وخطيله . وكان قدر عمر لا يفتأ لهذا يسمو فى عيون المسلمين جميعاً ، مع أن النبي كان يخالف رأيه فى كثير من المواقف مخالفة ترجع إلى ما كان لعمر من صلابة تجاوز الحزم ، ولا تلتقى

(١) راجع فى تفصيل هذا الحديث عن نساء النبي كتاب ( حياة محمد ) ص ٤٢٨ — ٤٣٦ .

من ثم مع من جمع رسول الله بين الحزم والحسنى ، وبين القدرة والعمو .  
 لتأسار المسلمون إلى فتح مكة ، خرج العباس بن عبد المطلب ، فرأى جيش ابن أخيه  
 وقوته وأن لا قبيل لقريش به وخرج أبو سفيان بن حرب في جماعة ينتطسون الأخبار .  
 وفيما أبو سفيان يتحدث إلى أصحابه عرف العباس صوته فقال له : يا أبا سفيان ، هذا  
 رسول الله في الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة ! قال أبو سفيان : فما الحيلة فذاك  
 أبي وأمي ؟ وكان العباس على بغلة النبي البيضاء ، فأركبه في عجزها ، ورد أصحابه إلى مكة  
 وسار به يريد النبي . ورأى عمر البغلة وعرف أبا سفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن  
 يُجبره ، فأسرع إلى خيمة النبي وطلب إليه أن يضرب عنقه . فقال العباس : إني يا رسول الله  
 قد أجزته . واحتدمت المناقشة بين عمر والعباس في أمر أبي سفيان ، فأرجأ رسول الله  
 الأمر إلى الصباح . وفي الصباح أسلم أبو سفيان بعد حوار بينه وبين رسول الله ، فحمل  
 النبي له من الفخر أنه : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابها فهو آمن ،  
 ومن دخل المسجد فهو آمن » وذهب عمر محمقاً لنجاة أبي سفيان ، حتى إذا فتحت مكة  
 أبوابها ، علم أن أمر رسول الله في هذه ، كما مره من قبل في قصة ابن أبي ، كان أعظم بركة  
 من أمره .

على أن صرامة عمر وصراحته ومخالفة النبي رأيه في بعض ما أشار به لم تنقص يوماً  
 من مكانة عمر أو من احترامه ذلك بأنه كان صادق الإخلاص في كل ما يراه ويشير به .  
 وله خلص علينا حق احترامه وإكباره ، وإن لم تأخذ بمشورته ؛ ما بالك به إذا جاء الحق  
 على لسانه في الكثير من موافقه ! ثم ما بالك به إذا خالفنا فرأيناه على الحق فرجعنا إلى  
 رأيه ! فبعث النبي أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه . فلما  
 سمعه عمر رده إلى رسول الله ردّاً عنيقاً ، وذهب في أثره يسأل رسول الله : أحقّ قد بعثه يبشر  
 الناس هذه البشرية ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : فلا تفعل ، فإنني أخشى أن  
 يتكل الناس عليها ، نغفّ لهم يعملون . وأخذ رسول الله برأيه وقال : نغفّ لهم .

ولما أشد برسول الله مرضه الأخير أشار إلى رجال من المسلمين كانوا في البيت حوله  
 فقال : « إيتوني بدواة وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » . واختلف

الحاضرون، يقول بعضهم: «قرّبوا لي كتبكم كتاباً لا تفضلوا بعده»، ويخالفهم آخرون على رأسهم عمر فيقولون: «إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله». رأى النبي خلافهم فقال: «قوموا. ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف». ولم يكتب. ولعله قد تأثر برأى عمر أكثر مما تأثر برأى غيره، لما عرف من صدقه في إخلاصه وصراحته في رأيه . . .

والرّجل أجدر باحترامنا وإكبارنا ما أنكر ذاته فصدر رأيه عن إخلاص للخير العام وحرص عليه. وكان عمر في ذلك خير مثل. وقد رأيت فيما قدّمنا من آرائه كيف تنزه عن كل شائبة. بل لقد رأيت كيف ودّ أن يحرمّ الله الخمر ولم تكن محرمة، وقد كان في جاهليته رجل خمر يحبها ويتوفر على شراها. فهو إنما ودّ أن تحرم حرساً على خير الجماعة وتماسكها وقوة نظامها. ثم إنه كان من أشد الناس زهداً في المال، فكان إذا أعطاه رسول الله مالا من فء غنمه المسلون قال: أعطه أفقر إليه مني. وقال ذلك يوماً لرسول الله فقال له: خذه فتموّه وتصدّق به.

بل لقد بلغ من زهده أن أصاب أرضاً بخيبر، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ وأجاب به رسول الله: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها». فتصدق عمر بها في الفقراء والقريبى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويعطم صديقاً غير متمول فيها، وقال: إنه لا يباع أصلها ولا توهب ولا تورث. فكانت هذه أول صدقة تصدّقت بها في الإسلام، وكانت الأصل الأول لنظام الوقف عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

رجل ذلك شأنه وهذا زهده لا عجب أن كان موضع التقدير والاحترام من كل المسلمين على ما كان في خلقه من شدة وغلظة، وموضع المحبة والإكبار من رسول الله حتى كان يدعوهم يا أخى. استأذنه عمر يوماً في العمرة فأذن وقال له: «لا تنسنا يا أخى من دعائك» وكان عمر كلما ذكره هذه الكلمة يقول: ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس لقوله «يا أخى».

وإخلاصه وتنزهه عن الهوى وحبه العدل هو الذي أبقى الفاروق لقباً له . وقد اختلف فيمن سُمِّيَ عمر الفاروق . روى عن عائشة أنها سئلت عن ذلك فقالت : النبي عليه السلام . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وهو الفاروق فرق به بين الحق والباطل » . وذكر ابن سعد في الطبقات عبارة بإسنادها نصها : « بلغني أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر الفاروق ، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم ، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ذلك شيئاً » . وأيضاً صح من هذه الروايات فقد كان عمر فاروقاً لا ريب . وذلك ما خلد اسم الفاروق على

الزمن ؛ بقي لعمر إلى يومنا هذا ، وسبقني له أجد الدهر

أما شدته وغلظته فهي التي جعلت رسول الله أبا بكر يؤثر عليه ، ثم لا يؤثر عليه غير أبي بكر أحداً ، لإخلاصه وصراحته وعزمه وحزمه . وبلغ من شهرة عمر بالشدّة والغلظة أن لم يخفف منهما ما كان له في مواقف كثيرة من لين جانب ورقة عاطفة ذكرنا شيئاً منهما في حديث إسلامه . روى أن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ونستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قن يبتدرن الحجاب . ودخل عمر ورسول الله يضحك ويقول : « عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب » . قال عمر : فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن ، ثم قال : أي عدوات أنفسهن ! أتمهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلن : نعم ! أنت أظ وأغلظ منه .

ولعل شدة عمر هي التي جعلت رسول الله يأمر في مرضه أن يصلي أبو بكر بالناس . وغاب أبو بكر يوماً فصلى عمر بالناس وكبّر بصوته الجهور ، فقال رسول الله : « فأين أبو بكر ؟ أي أبي الله ذلك والمسلمون » .

وقد تعجّب لهذه الشدة وهذه الغلظة أين كانتا ساعة وفاة رسول الله ؛ إذ أذهل النبأ عمر عن الواقع فكذب من حاول إقناعه بالحقيقة الأليمة ، ووقف في المسلمين يقول : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم

رجع إليهم بعد أن قيل قدم مات . ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهن زعموا أنه مات « فلما جاء أبو بكر ورأى رسول الله أيقن أنه مات ، فوقف في الناس يقول : « إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . فلما تلا أبو بكر هذه الآية خرَّ عمر إلى الأرض ماثملاً رجلاه ، وكأنه لم يسمعها من قبل . فأين كانت شدته وغلظته هذه الساعة ! بل أين هو في جزعه وهلمه من ثبات أبو بكر رقيق القلب سريع الدمع خليل رسول الله وصفيه ، وأين هو من تجلده !

على أن عمر لم يلبث حين راجعه صوابه أن عاد الرجل السياسي ، فأخذ يفكر في مصير المسلمين بعد الحادث الفاجع . وقد كان لتفكيره ولتصرفه في مواجهة هذا الموقف الدقيق من الأثر مارد عن الإسلام كل عادية ، وما مهتد لانتشاره في الخالفين .

## الفصل الرابع

### في عهد أبي بكر

أيقن عمر أن رسول الله قد مات ، فأخذ يفكر في مصير المسلمين من بعده . وكان الأمر جديراً بأعمق التفكير ؛ فلو أن العرب تنازعا أمرهم بينهم لأصاب الإسلام شرٌّ ماله من دافع . فقد كان البعيدون عن مكة والمدينة ، في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لا يخفون برمهم بسطان قریش وسطان المدينة . ورمهم بهذا السلطان هو الذي أثار الأسود العنسي في اليمن ، وهو الذي دفع بنى حنيفة من أهل اليمامة ليتابعوا مسيلة ابن حبيب حين تزعم أنه نبي ، ودفع بنى أسد ليتابعوا متنبئهم طليحة بن خويلد . فما عسى أن يكون مصير الإسلام بعد رسول الله إذا لم يجزم المسلمون أمرهم ، ولم يواجهوا هذا الحادث الجلل بوحدتهم وثبات عزمهم ؟

فكر عمر في هذا الأمر لأول ما أيقن أن رسول الله قد مات . وسرعان ما تبين في وضوح أن الأمر إذا ترك فلم يتولّه في الحال من يهض به ويدبر سياسة المسلمين ، أو شك المهاجرون والأنصار أن يختلفوا ، وأوشكت الثورة أن تضطرم في بلاد العرب كلها . لذا أسرع يشق طريقه خلال المجتمعين بالمسجد يتحدثون في وفاة رسول الله ، وسار حتى أتى أبا عبيدة عامر بن الجراح ، فقال له : « أبسط يدك أبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله » . ووجم أبو عبيدة حين سمع مقالة عمر ، وأدرك ما أدركه من ضرورة البيت العاجل في أمر المسلمين ، لكنه لم يرض رأي عمر ، بل حدّق فيه وقال له : « مارأيت لك فتهة <sup>(١)</sup> - قبلها منذ أسامت ! أتبايعني وفيكم الصديق وتاني اثنين ! » وإن الرجلين ليتبادلان الرأي في هذا الأمر الخطير إذ جاءهم النبا بأن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة يريدون أن تكون الإمارة على المسلمين لهم . عند ذلك أسرع عمر فأرسل إلى أبي بكر في بيت عائشة ليخرج إليه . وردّ أبو بكر الرسول يقول : « إني

(١) الفتهة : السطة والجهلة .



مشتغل» ، لكن عمر رأى أمر المسلمين أخطر من أن يترك لحظة أو يشغل عنه شاغل ولو كان جهاز رسول الله لذا بعث كربة أخرى يقول لأبي بكر : « إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره » .

وخرج أبو بكر يسأل : أى أمر يمكن أن يصرفه عن جهاز رسول الله؟ قال عمر : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبيدة ، وأحسنهم مقالة من يقول : منا أمير ومن قريش أمير؟ » . ورأى أبو بكر خطر الموقف ، فأسرع ومعه عمر وأبو عبيدة يريدون السقيفة .

فلما بلغوها تولى أبو بكر مجادلة الأنصار في حزم ورفق . أما عمر فأقام إلى جانبه ينتظر ما يصير إليه الأمر . فلما رأى الحباب بن المنذر يحرض الأنصار ليثوروا إن لم يكن منهم أمير ومن المهاجرين أمير قام فقال : « هيهات ! لا يجتمع اثنان في قرن ! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ! ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ! ولنا بذلك على من أوى من العرب الحججة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا بنازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة ! » . ورد الحباب يطلب إلى الأنصار إجماع المهاجرين عن المدينة أو يتولوا عليهم الأمر ، ثم وجه الحديث إلى المهاجرين الثلاثة يقول : « أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة » . فصاح به عمر : « إذا يقتلك الله ! » . ورد الحباب : « بل إياك يقتل ! » .

حركت هاتان العبارتان النفوس إلى الثورة ، فتدخل أبو عبيدة بن الجراح في الأمر وقال موجهاً حديثه إلى أهل المدينة : « يامعشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير » .

سكنت هذه العبارة ثورة النفوس ، فعاد القوم يتجادلون بالحجة ، وانضم بشير بن سعد من زعماء الخزرج إلى المهاجرين فشق كلمة الأنصار . وقدّر أبو بكر أن الأمر استوى وأن اللحظة لحظة الفصل ، فقام يدعو الأنصار إلى الجماعة ويحذّرهم الفرقة ، ثم أخذ بيد كل من عمر وأبي عبيدة ونادى : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ! » ورأى

عمر الناس اختلّفوا ، فلم يدع للخلاف أن تلبت بشجرته ، فقام فنادى بصوته الجهورى : « اِسْطُ يَدِك يا اَبَا بَكْر ! » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم بأمر النبي أن تصلى أنت يا اَبَا بَكْر بالمسلمين ! فأنت خليفة رسول الله ، فضع نبايعة لتبايع خير من أحب رسول الله من جميعاً » . وبايع أبو عبيدة اَبَا بَكْر وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في النار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! » . وتتابع أهل السقيفة فبايعوا اَبَا بَكْر جميعين ، لم يندّ عنهم إلا سعد بن عبيدة . فلما تمت البيعة عادوا إلى المسجد يتلقفون الأنبياء من بيت عائشة عن جهاز الرسول . فلما كان الغد جلس أبو بكر في المسجد ، وقام عمر يعتذر إلى المسلمين عما ذكره من أن النبي لم يمت فقال : « إني قلت لكم بالأمرس مقالة ما كانت مما وجدت في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيد بر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله نداء بقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله ، فإن اعتصم به هداكم الله كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما في النار ، فقوموا فبايعوا » . وقام الناس جميعاً فبايعوا بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

هذا أول موقف لعمر بعد وفاة رسول الله . وهو كما ترى موقف حزم وبعد نظر وحسن سياسة . بل هو موقف يرشح عمر للإمارة ، ويشهد بجدارته لتولى سياسة الدولة الناشئة ، مع إنكاره لذاته وتوجهه بكل تفكيره لخير الجماعة وحسن نظامها . لقد كان أشد الناس جزعاً لوفاة رسول الله فلم يصدق حدوثها ، فلما تيقنها لم يملك الجزع عليه تفكيره ، ولم يصرفه الحزن عن التحدث إلى أبي عبيدة في أجل شأن المسلمين خطراً : في تدبير أمورهم وتوجيه سياستهم . وهو لم يكن يبتغى الأمر لنفسه على جدارته به ، بل كان يفكر فيه تفكيراً منزهاً عن الأثرة والهوى . لذلك أسرع يريد أن يبايع اَبَا عبيدة ، فلما نبهه أميين الأمة إلى أن الصديق أحق للمسلمين جميعاً بالأمر لم يتردد في إقرار رأيه . ولم يلبث حين عرف اجتماع السقيفة أن دعا اَبَا بَكْر ليوأجهاوا الأنصار فيه ، ثم لم يصرفه عن مواجهتهم ما قيل له من أن الأنصار قر رأيتهم فلن يعدلوا عنه . ودعاه مع صاحبيه

إلى السقيفة هو الذي أدى إلى بيعته أبي بكر ، وإلى اجتماع كلمة المسلمين .  
 'لم يكن موقف عمر فيما قيل من تخلف علي بن أبي طالب وبنى هاشم عن بيعته أبي بكر دون موقفه في السقيفة حزماً وحسن سياسة . أنا في ريب من روايات التخلف عن البيعة ، وقد أبديت هذا الرأي حين فصلت بيعة أبي بكر<sup>(١)</sup> . لكنني لا أستطيع مع ذلك أن أجزم بأن علياً وبنى هاشم أقبلوا على البيعة راضين إقبال غيرهم من المسلمين . والثابت أن فاطمة ابنة رسول الله ظلت مغاضبة أبا بكر إلى توفيت . أفكان ذلك لحرمان الصديق إياها ما طلبته ميراثاً لها من أبيها ، أم لأنها كانت ترى زوجها أحق من أبي بكر بالخلافة ؟ ذلك ما اختلف فيه . فأما الذي لا خلاف عليه فذلك أن عمر كان يرى رأى أبي بكر أن تركة النبي صدقة لا تورث ، ولا ريب أن رأيه هذا أغضب فاطمة . أفأدعى غضبها إلى ثورة علي وإلى تهديد عمر وأخذة الأمر بالحزم ؟ أيأكان ما حدث فقد ترك ماروى عنه أثرأ في تاريخ الإسلام لا يزال باقياً . وقد هذا الأثر عدم إكبار الشيعة وغيرهم من العلويين عمر ، بل عدم رضاهم عنه .

كانت سياسة أبي بكر بعد بيعته ألا يدع أمراً كان رسول الله يصنعه ، وألا يصنع أمراً كان رسول الله يدعه . لذلك كان أول ما أمر به في خلافته أن يتم بعث الجيش الذي جهزه رسول الله بأمره أسامة بن زيد لغزو الروم بالشام ، وقد برم المسلمون بهذا الأمر كما برموا به في عهد رسول الله ؛ لأن أسامة كان حَدَثًا لَمَّا يبلغ العشرين . وزاد في برهم خشيتهم تتعرض المدينة للخطر إذا غاب هذا الجيش عنها وانتقض العرب عليها وقاموا يناوئون سلطانها . لذلك قالوا لأبي بكر : « إن هؤلاء - أي جيش أسامة - جل المسلمين . والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ؛ فليس ينبغي تفرق عنك جماعة المسلمين » وأجابهم أبو بكر في حزم : « والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تحطفني لأفدت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيري لأفدته » . أفكانت سياسة عمر في هذا الموقف كسياسة أبي بكر حزماً وقوة ؟ ذكروا أن

(١) صفحة ٥٢ وما بعدها من كتاب « الصديق أبو بكر » .

أسامة طلب إلى عمر أن يستأذن أبا بكر في عودة الجيش إلى المدينة ليسكون عون الخليفة على المشركين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبي إلا أن نمضي فأبلغنا عنا واطلب إليه أن يوتى أمرنا رجلاً أقدم سنًا من أسامة » . ولم يرفض ابن الخطاب طلب أسامة ولم يرفض طلب الأنصار ، بل ذهب إلى أبي بكر فأبلغه ما قالوا . فكان رد الخليفة : « لو خطفتني الكلاب والذئاب لن أردت قضاء قضى به رسول الله (ص) » . وقال في طلب الأنصار : « تكلمك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله (ص) وتأمرنى أن أنزعه ! » . سار جيش أسامة وفيه جلة للمسلمين مهاجرينهم والأنصار . وفيه عمر بن الخطاب شأنه شأن رجل منهم يدين بالولاء لاسامة أمير الجند . وسار أبو بكر يودع الجند ويوصيهم . فلما آن له أن يرجع ، قال لاسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » . وأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

من الحق علينا أن نقف هنيئة ننسب إلى هذا الاختلاف في الاتجاه السياسي بين أبي بكر وعمر . فقد كان أبو بكر متبعاً وليس مبتدعاً ، فما صنع رسول الله هو لا محالة يصنعه . وللمسلمين أن يقولوا ماشاءوا ، وأن يخالفوه عن رأيه ، فإن يسمع لهم ما كان يصدر عن أمر رسول الله . وقد أمر رسول الله أن يتم بعث أسامة فليتم . ليختلف المهاجرون والأنصار ، ولتتأثر شبه الجزيرة كلها . ولتتعرض المدينة لما عسى أن تتعرض له من خطر ، كل ذلك لا يمكن أن يصرف الصديق عن إنفاذ ما أمر رسول الله بإنفاذه ، أليس الله قد اصطفاه وأوحى إليه كتابه ، ووعد النصر وأن يحفظ دينه فكيف تطوع مسلم نفسه ألا ينفذ أمره ! وكيف تخلفته الأول أن يكون أو مخالفيه !

وكان عمر يرى واجباً على السياسي أن يقيم وزناً لسكل ما حوله من الأحداث . ومن هذه الأحداث أن خلاف المهاجرين والأنصار لم يظهر في عهد رسول الله ما ظهر في اجتماع السقيفة ، وأن انتفاض العرب على سلطان المدينة لم يبلغ حد الثورة إلا حين ذاعت الأنباء بوفاة رسول الله في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة . إن المسلمين قد كانوا يدينون لأمر رسول الله عن إيمان وتسليم ، وليس من حق أبي بكر أن يطعم في أن يدينوا له كما كانوا يدينون للرسول المصطفى من عند الله . فجدير بالخليفة أن يقيم لهذه الأمور وزنها ،

وجدير به ، وقد انتطع الوحى بوفاة الرسول ، أن يكون السياسى الذى يدبر الأمور بثاقب نظره وحسن بصره بالأمر ، بعد أن لم يبق لغير البصر بالأمر تدبير أو سلطان .

هذا اختلاف جوهرى بين الرجلين فى سياسة الدولة - لكن هذا الاختلاف لم يكن ليحضى على تقدير أحدهما صاحبه ومحبه إياه واحترامه له . لذلك أدى عمر لأبى بكر حقه . فلم يصنع أكثر من أن أبلغه رأى المسلمين وأيده بمجته . فلما أصرت الصديق على رأيه سار عمر فى الجيش جندياً مجاهداً فى سبيل الله بإمارة أسامة . وما كان له ألا يفعل وقد بايع أبى بكر وأقر له بخلافة رسول الله . وأدى أبو بكر لعمر حقه ، فاصطفاه وزيراً يشير عليه كما كان يشير على رسول الله . وكذلك ظلت علاقات الرجلين علاقات مودة صادقة واحترام متبادل وتعاون وثيق لخير الإسلام والمسلمين .

وقد حدث مثل هذا الاختلاف فى رأى بين الرجلين وجيش أسامة لايزال فى الشمال من شبه الجزيرة يقاتل أنصار الروم . ذلك حين أرادت قبائل عبس وذبيان القريبتين من المدينة أن تمنعا الزكاة . فقد رأى أبو بكر أن يقاتلهم ، ودفع مخالفيه فى رأى بقوله . « والله لو منعونى عقلاً كانوا يؤدونى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ! » . وكان عمر من هؤلاء المخالفين القائلين بموادعة من أرادوا منع الزكاة والاستعانة بهم على المرتدين ، وقد كان عنيماً فى تأييد رأيه ، حتى لقد وجه الكلام إلى أبى بكر فى شىء من الحدة يقول : « كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله ! » . وأجاب أبو بكر على اعتراض عمر بقوله : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها » . مع هذا الخلاف فى رأى ، ومع أن أبى بكر حمل التبعة كاملة فقاتل الذين منعوا الزكاة وظفر بهم . لم يتغير ما بين الرجلين من ود ، وسار عمر إلى جانب الصديق مجاهداً فى صفوف المسلمين . إنه رجل نظام ، وأبو بكر هو المسئول عن شؤون الدولة . فواجب عمر أن يشير برأيه ، وواجبه كذلك أن يطيع أمر الخليفة متى أمر . وقد فعل ، ثم بقى الوزير الذى يُسمع لقوله وتُقدر مشورته .

ظفر أبو بكر بالذين منعوا الزكاة ، فكان ظفروه حجة ملموسة لرجاحة رأيه وحسن سياسته . ويروى عن عمر في هذا الشأن أنه قال : « والله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » . فلما عزم أبو بكر بعد هذا النصر أن يقاتل المرتدين في أرجاء شبه الجزيرة جميعاً لم يخالفه أحد . ولعل المسلمين رأوا في هذا الرجل الذي لزم الرسول عشرين عاماً سويّاً نفعاً من روح الرسول جعلته يرى بنور الله مالايرون ، ويكلمهم من الرأى مالا يلمون . وسارت جيوش المدينة بإمرة عمرو بن العاص وخالدين الوليد إلى قضاة وإلى بني أسد تحارب المرتدين وتردهم إلى دين الله ، والمسلمون مطمئنون إلى نصر الله جنده المجاهدين في سبيله ، وابن الخطاب مقيم إلى جانب الخليفة يشير عليه بالرأى ويدبر وإياه سياسة الدولة .

وقضى خالد بن الوليد على الردة في بني أسد ، وانتقل من منازلهم إلى البطاح يقضى على الردة في بني تميم ، فقتل زعيمهم مالك بن نويرة وتزوج من امرأته<sup>(١)</sup> ، مخالفاً بذلك تقاليد العرب إذ كانوا يجتنبون النساء في الحرب .

غضب أبو قتادة الأنصاري لمقتل مالك بن نويرة بعد ما أظهر إسلامه ، وظنها حيلة من خالد ليتزوج الجميلة ليلي ، وكان يقال إنه يهواها في الجاهلية . وذهب أبو قتادة ومُعْتَمَّ ابن نويرة أخو مالك إلى المدينة ، ولقيا أبا بكر وقصصا عليه ما رأيا ، فلم يزد على أن ودى مالكا ، وكتب برد السبي ، ثم أنكر على أبي قتادة أن يطعن في خالد أو أن يتهمه . وتحدث أبو قتادة إلى عمر بن الخطاب ، فشاركه عمر في رأيه وانطلق يطعن معه على خالد وينال منه . ثم إنه ذهب إلى أبي بكر محققاً وقال له : « إن في سيف خالد رهقاً ، وحق عليه أن يقيده » . ولم يكن أبو بكر يقيد من عماله . لذلك قال حين ألح عمر عليه : « هبْ يا عمر تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . ولم يكف هذا الجواب عمر ، فلم يكف عن المطالبة بعزل خالد ، حتى ضاق الخليفة بالحاحه فقال له : « لا يا عمرا ما كنت لأشيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين ! » .

هذا جواب حاسم لا ريبه معه في أن أبا بكر لن يعزل خالداً . أتري عمر اكتفى به ،

(٢) راجع تفصيل ذلك في الفصل الثامن من كتاب « التصديق أبو بكر » .

مطمئناً إلى أنه أدى واجبه في المشورة ، وإلى أن واجبه بعد ذلك أن ينزل على رأى الخليفة والآيثير الشبهة فيه ؟ كلا ! فقد كان عمر ثائراً بخالد ثورة جعلته يبالغ في الذيل منه ، فيجمع من حوله متمياً وأياً قتادة ومن لف لقمها ، ويستنشد متهما شعره في رثاء مالك ، ويظهر الرضا عنه وعمما يقول . وكيف لعمر أن تطيب نفسه فيسكت عن رجل قتل امرأ مسلماً ونزا على امرأته ، فوجب رجحه ! ليكن هذا الرجل سيف الله ! وليكن خال عمر وابن عم أمه ! وليسكن له من الفضل في قتال المرتدين ماله ! إن الأمر يتصل بنظام الجماعة والحفاظة عليه . ولا شيء أضر بهذا النظام من التفريق بين الناس في المعاملة . والتسامح مع أحدهم في أمر يؤخذ به غيره ويماقب عليه . لذلك لم يهدأ ثأره حتى استدعى أبو بكر خالداً إلى المدينة ؛ ولا يشك عمر في أن الخليفة سينتهى إلى رأيه فيعزل القائد العبقري . لكن أبا بكر لم يصنع إلا أن عتف خالداً على الزوج من امرأة لم يحف دم زوجها ، ثم تجاوز عما كان من قتله مالسكا ومن معه من بنى تميم ، وأمره أن يسير ليلقى مسيماً ورجاله باليمامة ، مطمئناً إلى أن الله سينصر خالداً على بنى حنيفة ، فيصهره النصر وينسى الناس زواجه من ليلي .

لم يتزحزح عمر مع ذلك عن رأيه فيما صنع خالد في وجوب عزله وكان لهذا الإصرار أثره من بعد حين تولى عمر إمارة المؤمنين ، فقد عزل خالداً عن إمارة الجيش أول ما تولى ، ثم عزله من بعد ذلك عن عمله في الجيش كله . وسنقص تفصيل ذلك ورأينا فيه في مواضعه من هذا الكتاب .

لم ترو كتب التاريخ أن أبا بكر وعمر اختلفا في أمر ما اختلفا في أمر خالد . وهو اختلاف يتفق وطباع الرجلين واتجاه كل منهما في سياسة الدولة . فقد كان عمر يرى أن لا عذر لرجل عن إثم إلا أن يكفر عنه ؛ بذلك يستقر الأمر ، ويقوم نظام الحكم على أساس متين من المساواة الصحيحة . والكبراء الذين يأتمون أكبر جريرة عنده ، فالعفو عنهم أشد على نظام الجماعة خطراً . أما أبو بكر فكان يذكّر أن رسول الله هو الذي سمى خالداً سيف الله ، وأنه إذا وجب أن تدرأ الحدود بالشبهات في أوقات السلم ، فأوجب أن تدرأ بها في أوقات البأس والخطر . وقد كان المسلمون في حاجة إلى خالد وعبقرية قيادته ( م ٦ - الفاروق - ج ١ )

يوم استدعاه أبو بكر وعنه أكثر من حاجتهم إليه من قبل لذلك لم يعزله أبو بكر ، بل وجهه إلى مسيلة باليمامة ف قضى عليه ، ثم وجهه إلى العراق ففتحه ، ثم نقله إلى الشام فأنسى الروم به وساوس الشيطان .

أدى إصرار عمر على رأيه في خالد أن يتسقط كل هناة له ، وأن يطلب إلى الصديق مؤاخذته بها . تزوج خالد إثر انتصاره باليمامة بنتاً بكرأ ، فكتب الصديق يعذفه ويقول له : « لعمرى يابن أم خالد إنك لفارغ ! تفكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجحف بهدا ! » . ونظر خالد في الكتاب فقال : هذا عمل الأعتسر . والأعتسر عمر بن الخطاب . ولما فتح العراق وبلغ فيه منازل هذيل وقضى عليهم ، قتل رجلين معهما كتاب من أبي بكر بإسلامهما : ورأى عمر في مقتلهما ما يؤاخذ خالد به . فرد الصديق رأيه ، وقال عن الرجلين : « كذلك ياقى من ساكن أهل الحرب » .

يرى بعضهم عجباً أن يشور عمر بخالد كل هذه الثورة ، وخالد سيف الله وناصر دينه . وقد يزيل من هذا العجب ما يرويه بعض المؤرخين من أن عمر كان سيء الرأي في خالد من قبل إسلامه ، وكان سيء الرأي فيه حياته<sup>(١)</sup> . ولعل عمر لم ينس لخالد غزوة أحد وموقفه منها ، وانتصار المشركين على المسلمين بمهارته فيها ، ثم مهاجمته رسول الله لولا أن وقف عمر في وجهه وصدّه عن غرضه . ومهما يكن من شيء فالثابت أن ابن الخطاب لم يحب خالداً وإن لم يمتعه ذلك من تقدير قدرته والإعجاب بعبقريته قيادته . وكان خالد يبادل عمر هذا الشعور ، ويرى إصبعه في كل أمر يجيئه من الخليفة لا يوافق هواه . وذلك قوله حين نقله أبو بكر من العراق إلى الشام . « هذا عمل الأعتسر ابن أم سخله . حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » .

من حقلك أن تعجب لهذا الاختلاف الواضح بين أبي بكر وعمر في أمر خالد بن الوليد . لكن من الحق عليك أن تُعجب بهذين الرجلين العظيمين كيف لم يغير هذا

(١) يقول اليعقوبى في تاريخه : « كان عمر سيء الرأي في خالد على أنه ابن خاله ، لقول كان قاله في عمر » . والتعبير بابن خاله توسع من اليعقوبى .



الاختلاف البين من مودتهما ومن وثيق تعاونهما لخير الإسلام والمسلمين . فقد ظل عمر على ولائه لأبي بكر وعلى عهده معه ؟ يؤدي واجبه في الإداء بالشورة ، وينفذ أمر الخليفة بإخلاص تام في كل ما يعهد الخليفة إياه في تنفيذه . وقد ظلت ثقة الصديق بعمر كما كانت ، لم يعرّها وهن ولم تتغير في قليل ولا في كثير . وهذا الإخلاص المتبادل وهذه الثقة الأكبدة هما ملاك النظام في الدولة ومصدر بأسها وقوتها . ولذلك بلغت المملكة الإسلامية في عهد هذين الرجلين شأواً لم يتح للمملكة غيرها في العالم كله ، وظل اسم أبي بكر واسم عمر في صحف التاريخ علماً على الصدق والأمانة والقوة ، ولا يدانيه في الجلال والعظمة علم غيره .

أبي أبو بكر أن يقيد من خالد بن الوليد لقتله مالك بن نويرة وتروجه من ليلى ، ووجهه إلى اليمامة ، فكان نصره فيها حاسماً ، وكان إيذاناً من الله بالقضاء على الردة في أرجاء شبه الجزيرة جميعاً ، وإن استشهد فيها من المسلمين ألف ومائتان . وقد جزع أهل المدينة لمن استشهدوا ، وكان عمر بن الخطاب من أشدهم جزعاً لمقتل أخيه زيد ، حتى لقد واجه ابنه عبد الله حين رجع إلى المدينة بقوله : « ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارىت وجهك عنى ! » . وأجابه ابنه في صدق وإيمان : « سألت الله - الشهادة فأعطيها ، وجهت أن تساق إلى فلم أعطها » ،

على أن جزع عمر لمقتل أخيه لم يثنه عن التفكير في أمر هو أجل الأمور في حياة الإسلام والمسلمين خطراً ؛ فقد كان فيمن استشهد عدد من حفاظ القرآن فاعسى أن يكون الأمر إذا تلاحت الغزوات فقتل فيها مثل من قتل من الحفاظ باليمامة ؟ فكّر عمر في هذا الأمر حتى استقر رأيه ، ثم ذهب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد ، فقال له : « إن القتل قد استحرّ بقاء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير . وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن » .

فوجىء الصديق بهذا الاقتراح ، فكان جوابه : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » وأيد عمر رأيه بالحجة فأقنع أبا بكر ، فدعا زيد بن ثابت وذكّر له مدار بينه وبين عمر ، ثم قال له : « إنك رجل شاب عاقل ولا تهملك . كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فأجمعه » وتردد زيد كما تردد أبو بكر ، ثم شرح

الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فقام فتتبع القرآن يجمعه من الرقاق والأكتاف والعُسب وصدور الرجال . وكذلك كانت مشورة عمر هي التي أدت إلى جمع القرآن وإلى بقائه كما جمع من بومئذ ، حتى ليقول عنه المستشرق الإنجليزي وليم ميور : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملاً بنص هذا مبلغ صفائه ودقته » .

وتذهب رواية إلى أن عمر أول من جمع القرآن في المصحف . وهذا قول يخالف التواتر . على أن التواتر يقر بفضل في المشورة على أبي بكر بالجمع وإقناعه به . فلو أن عمر لم يتنبه إلى ما قد يتعرض له القراء في غير اليمامة من المواطن ، وما قد يترتب على ذلك من ذهاب قرآن كثير ، لما فكر الصديق في جمع القرآن ولما أقدم عليه بل لو أن عمر لم يراجع أبا بكر حين قال : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله « ولم يقنعه بضرورة الجمع لما حرص أبو بكر عليه ، ولا دعا زيد بن ثابت ليقوم به . فإذا كان لأبي بكر من الفضل في هذا العمل العظيم ما جعل علي بن أبي طالب يقول : « رحمة الله على أبي بكر ! كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف » ، فلا ريب في أن عمر يشاركه في الأجر والفضل جميعاً ، وفي أن المسلمين مدينون له دينهم لأبي بكر في جمع كتاب الله . وهذه واحدة من نفحات روحه العظيمة ، ومن أجل هذه النفحات وأعظمها خيراً وبركة .

لعلك رأيت فيما سبق ما بلغه عمر من مكانة في عهد الصديق ، ورأيت أنه كان في هذا العهد كما كان في صحبة رسول الله رجل مشورة وحسن سياسة أكثر مما كان رجل مواقع وغزوات . بل لقد رأيت كيف خالف أبا بكر في قتال من منعوا الزكاة ، كما ورد قبل ذلك ألا يتم بعث أسامة . فلما رأى سياسة الجهاد والحزم تؤدي إلى الرقعة والنصر ، آمن بها ، وأيد أبا بكر فيها بكل قوته . أليست سياسة الجهاد هي التي قضت على الردة وأعدت المرتدين إلى حظيرة الإسلام ، وجمعت شبه الجزيرة إلى لواء واحد ؟ أو لم تفتح هذه السياسة أبواب العراني وتمهد للإدالة من دولة كسرى ؟ لا عجب إذ أن يؤمن عمر بها ، وأن يدفع في تأييدها اندفاعه في تأييد كل ما يؤمن به .

لما تقدم خالد بن الوليد في العراق ، ودوت أنباء نصره في شبه الجزيرة وما حولها ،

عزم أبو بكر فتح الشام . وأصبح يوماً فدعا إليه أهل الرأى وعمر في مقدمتهم ، وذكروهم أن رسول الله كان عول أن يصرف همته إلى الشام ، فقبضه الله إليه ، واختار له مالهديه « والعرب بنو أم وأب . وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً عند الله عز وجل ثواب المجاهدين » . وطلب إليهم رأيهم في ذلك ، فكان عمر بن الخطاب أسبقهم إلى إجابته ، قال : « والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . وقد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرب إليهم الخليل في أثر الخليل ، وابتعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتبعها الجنود ؛ فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومقر الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله » .

لم يتحمس الحاضرون لهذه الدعوة مع ما كان من كلام أبي بكر وعمر ، بل تداولوا الحديث وقد أخذتهم هيبه الروم . فلما فرغوا منه عاد أبو بكر يدعوهم للتجهز فسكتوا عند ذلك صاح فيهم عمر . « مالكم يا معشر المسلمين لا تجيئون خليفة رسول الله إذ دعاكم لما يحميكم ! » . وهزت هذه الصيحة الحاضرين ، فرضوا الجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على عدوه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً .

نقف هنا وقفة أخرى ؛ فهذا التغيير الذى طرأ في اتجاه عمر ، وأدى به إلى تأييد سياسة الغزو بكل هذه القوة ، يعزز تصويرنا السابق لطريقة تفكيره ، ويزيدنا اقتناعاً بأنه كان رجلاً عملياً لا يقيم وزناً للفكرة من حيث هى ، ولذاتها ، بل من حيث ما تترك من أثر في واقع الحياة . ذلك ما ذكرناه حين صورنا طريقة تفكيره لمناسبة إسلامه . وانقلابه من سياسة الحذر إلى سياسة الغزو في عهد الصديق يزيد هذه الصورة جلاء ووضوحاً . فهو قد كان للإسلام مباعداً ، وكان على المسلمين حرباً حين لم يكن للمسلمين من البأس ما يجعل غيرهم على الاعتداد بهم ، فكان يرى وجودهم خطراً على نظام مكة وعلى مكاتها الدينية . فلما رأى المسلمين يثبتون على دينهم ويحتملون الأذى والتضحية في سبيله ، ويبلغ بهم ذلك حتى يهاجروا عن وطنهم ، تبين له ما لهذا الدين الجديد من سلطان على نفوس من يدبون به .

وأيقن أنهم لن يُخلّبوا . عند ذلك راجع نفسه وجعل يفكر فيما يسمع من القرآن ، حتى آمن بالله ورسوله وما جاء من عند الله ، فلما آمن أبداً للمسلمين بمثل القوة التي كان يحاربهم بها من قبل . وهو قد كان لسياسة أبي بكر في القتال مباعداً . لم يطب نفساً يبعث أسامة ولم يرض قتال الذين منعوا الزكاة . فلما جهز أبو بكر المدينة لحروب الردة وقف بعيداً عن هذا التجهيز ، فلا يكاد المؤرخون يذكرون له يومئذ رأياً . لكن سياسة أبي بكر في الغزو نجحت فقصت على المرتدين وفتحت العراق . عند ذلك انقلب عمر يؤيدها بكل قوته ، كما آمن فانقلب يؤيد الإسلام بكل قوته .

وقد كان لهذا الاتجاه الجديد في تفكير عمر أثره من بعد في استخلاف أبي بكر إياه ، وفي نجاح سياسة الفتح التي بدأها أول الخلفاء . وسنرى من بعد كيف أدت حماسة عمر لهذه السياسة إلى إقامة الإمبراطورية الإسلامية على أنقاض الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . على أن ما حدث يومئذ من تغير في اتجاه عمر السياسي لم يصحبه تغير في تفكيره الاجتماعي . وكان تفكير عمر في الناحية الاجتماعية يخالف تفكير الصديق في طائفة من الأمور الجوهرية مخالفة تبلغ بعض الأحيان حدّ المناقضة . كان أبو بكر شديد الحرص على المساواة بين المسلمين لا يفرق فيهم بين عربي ومجبي ، ولا بين السابقين إلى الإسلام ومن دانوا بعدهم به . ففتح في عهده منجم الذهب على مقربة من المدينة ، فكان يسوي في قسمة الذهب الذي يجيء منه بين المسلمين . وقيل له في تفضيل السابقين إلى الإسلام على قدر منازلهم ، فكان جوابه : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، وفيهم ذلك في الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . ولقد دعا أهل مكة يشاورهم في غزو الشام وبستمدم إليه ، كما فعل أهل المدينة . أما عمر فكان يميل بتفكيره إلى نظام الطبقات ؛ كان يؤثر السابقين إلى الإسلام ، ويؤثر أهل البيت على هؤلاء السابقين . وقد ترك هذا التفكير العمري أثرًا في حياة المسلمين وفي سياسة الدولة الإسلامية وجه التاريخ الإسلامي في كثير من الحقب ، ولا يزال باقياً إلى اليوم . وسنرى من ذلك ، حين الكلام عن الديوان وعن نظام الحكم ، ما لا يدع مجالاً للريب فيه .

وهو لم يكن يخفي هذا الميل إلى تفضيل بعض الطبقات على بعض في عهد أبي بكر

لمّا شاور الصديق أهل مكة في غزو الشام واستمددهم إليه ، على نحو ما فعل مع أهل المدينة ، عارضه عمر في ذلك معارضة أساسها الحرص على أن يكون للمهاجرين والأنصار من السابقين إلى الإسلام أولوية في الرأي والسلطان على سائر المسلمين . وقد اعترض سهيل ابن عمرو رأى عمر في ذلك وقال له : « أسنا إخوانكم في الإسلام وبنى أبيكم في النسب أفننكم أن كان الله قدّم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعوا أرحامنا ومستهيئون بحققنا ؟ » . وأجابه عمر في صراحة : « إني والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم للإسلام وتحرّياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » .

على أن مارآه عمر من تفضيل السابقين للإسلام وتفضيل أهل بدر وتفضيل آل البيت لم يكن مصدره الهوى ، وإنما كان مصدره الاقتناع ؛ فلم يكن له أى أثر في معاملته لهؤلاء جميعاً وفي عدله بينهم في خلافة أنى بكر وفي خلافته . ذلك أنه كان مفطوراً على العدل ، كَمَلَّ في نفسه معناه وتجمست في بصيرته صورته . وُلِّيَّ القضاء في عهد أبي بكر طامين فلم يختلف إليه متقاضيان . ولا ريب أن قد كان لاشتغال المسلمين بالغزو والفتح في حروب الردّة وفي فتح العراق والشام أثر في ذلك كبير . ولا ريب كذلك في أن ما اشتهر عن عمر من العدل قد كان له فيه أثر أى أثر ، فمن العوامل التي تشجّع الناس على التقاضى طمّح من لاحق له في أن يخطيء القاضى فيفضل طريق الحق ، أو يجابى فيحيد عن هذا الطريق ، ولم يعرف الناس أن عمر كان يجابى في الحق أحداً ، أو أنه كان ينظر في الأمور بغير روية أو تمحيص يهديانه الحق ويكشفان له عنه . لا عجب وذلك شأنه ألا يذهب إليه متقاض يلتمس عنده غير الحق . ثم لا عجب أن يخشى الباغى سطوته ، فيرجع عن بغيه ويرد إلى صاحب الحق حقه .

وكان العدل في فطرة عمر منذ نشأته ، ثم نمت فكرة العدل في نفسه حتى بلغت الكمال ؛ لأنه سما بعقله وقلبه فوق شهوات هذه الحياة الدنيا ، فلم يجعل لها عليه سلطاناً . اشتغل بالتجارة صدرّ شبابَه فكفاه منها أن ترزقه وترزق عياله رزق كفاف لا رزق نعمة وترف . وكان يذهب في تجارته إلى العراق وإلى الشام واليمن ، فكان أشد حرصاً على مقابلة الأمراء والحكّاء من أهل هذه البلاد ليزداد بالتحدث إليهم علماً ، منه على أن تزاد تجارته

ربحاً فيصبح من الأغنياء . فلما أسلم اتجه به إسلامه شيئاً فشيئاً إلى ناحية التطهر ، فاتخذ من التقشف وسيلته إلى هذه الناية . لذلك استغنى عما في أيدي الناس ، فلم يكن له عند أحد منهم حاجة ، ولم يكن له في أحد منهم مطعم أو مأرب . ولعلّ ما عرّف عنه من غلظة قد دفعه إلى هذا التطهر وأعانه عليه ، فهو لم يكن يبالي أن يقول لكل إنسان كل ما يعتقد من غير مداراة أو التماس للرضا . ألم يذهب إلى رسول الله إثر عهد الحديبية يقول له : « أأنت رسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ فعلامَ نعطي الدنيا في ديننا ؟ » . ولم يكن عمر يصطنع هذه الجرأة معتزاً بها ما استغنى عن الناس ، فإذا احتاج إليهم داري وتزأف ؛ فإنما يدارى ويتزلف من تذلّه الدنيا وتستهو به ، فأما من أذل الدنيا مستغنياً عنها فهو أشد استغناء عن الزلّي وعن المداراة ؛ وذلك شأن المتطهرين أولى النفوس الكبيّرة والقلوب المصفّاة . وكان عمر في الطليمة من هؤلاء .

هذه الصفات التي اجتمعت لعمر مالت به إلى إثارة الخير العام على نفسه وعلى أهله وذويه . وهذا التفكير الذي انتهى به إلى أن يؤمن بسياسة أبي بكر في التوسع بالعراق والشام ، جعلت أبا بكر يراه أجدر من يخلفه على سياسة المسلمين . لكن في عمر شدّة وغلظة ترغبان بالكثيرين من أولى الرأي عن موذّته . وأصحاب الرأي هم أعوان الخليفة في سياسة الدولة . فإذا انقطعت الودة بينه وبينهم لم يسرعوا إلى معاونته بالرأي ، فشق عليه أن يسومهم وأن يسوس الدولة بهم . أفلا يجمل بأبي بكر أن يوازن بين صفات عمر وحسن سياسته وبين ما فطر عليه من غلظة قد تفسد عليه الأمر ثم لا تسكّتها سائر مزاياه ؟ .

فكر الصديق في هذا الأمر حين شعر في مرضه بأنه مشفٍ على الموت . أنراه بدع المسلمين يختارون لأنفسهم ، فلا يشير عليهم في الأمر برأى ولا يستخلف منهم أحداً ، وله أسوة في رسول الله ؟ ! هذا أيسر طريق وأهونه . لكن الصديق ذكر سقيفة بني ساعدة وموقف الأنصار بها ، وذكر ما كان موشكاً أن يحدث لولا أن جمع الله كلمة المسلمين على بيعته . ولئن اختلف المسلمون حين وفاته ليكونن اختلافهم أجسم خطراً ؛ فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون غيرهم بعد أن جاهد العرب ولا يزالون يجاهدون

في العراق والشام ، يواجهون فارس والروم . فإذا قبضوا واختلقوا ، أدى اختلافهم إلى فتنة قد تتور بلاد العرب كلها ، فتفسد الأمر وتقضى على سياسة التوسع وهو لا يزال في بداءته فأمّا إذا استخلف وجمع كلمة المسلمين على من استخلفه فقد اتقى ما يخشى . وإذا كان رسول الله لم يستخلف ، فذلك لئلا يظن الناس أن من استخلفه قد استمد الأمر على المسلمين بوحي من عند الله ، فأصبح خليفة الله . ولا خوف من مثل هذا الظن إذا استخلف أبو بكر ، فجنب المسلمين الاختلاف ، وكفل لسياسة التوسع الاستمرار والنجاح فليفعل ! وليكن عمر خليفته ! وليجمع كلمة المسلمين عليه ! وهو إن استطاع أن يجمعها فذلك التوفيق من الله توفيقاً ينصر دينه .

وأصبح فدحا إليه عبد الرحمن بن عوف فسأله عن عمر ، فقال : « هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة » . قال أبو بكر : « ذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمّقتة فرأيتة إذا غضبتُ على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له أراني الشدة عليه » . وانصرف عبد الرحمن ، فدعا الخليفة عثمان بن عفان فسأله عمر ، فقال : « اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله » . وبعد انصراف عثمان شاور أبو بكر سعيد بن زيد وأسيّد بن خضير وغيرها من المهاجرين والأنصار ، حريصاً على أن يجمع كلمتهم على خلافة عمر . وسمع بعض أصحاب النبي بمشاورات أبي بكر في استخلاف عمر ، فأشفقوا من غلظة ابن الخطاب وشدته أن يفرّق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا بالخليفة ليرجع عن عزمه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة بن عبيد الله : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناسُ منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك !؟ » . وغضب أبو بكر لما سمع من ذلك وصاح بأهله : أجلسوني . فلما أجلسوه قال ، ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه « أبا لله تخوّفوني ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول : اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك ! » . ثم أجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عني ما قلت لك من وراءك ! » .

أشفق أبو بكر من هذا الحديث ألا يكون قد جمع كلمة المسلمين على الرضا بخلافة

عمر له ، ففضى ليله مؤثراً ، فلما أصبح دخل عليه عبد الرحمن بن عوف فبادله التحية . ثم تحدث الصديق وكأنما عناه ما حدث بالأمس فقال : « إني وليت أمركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه » وأجاب عبد الرحمن : « خفف عليك رحمك الله ! فإن هذا يهيبك . إنما الناس في أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ، ولم تزل صالحاً مصلحاً » .

لم يكتف أبو بكر بمشاورة أولى الرأي من المسلمين وبخاصة بعد أن رأى منهم من خالقه في رأيه . لذلك أشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد ، فقال مخاطبهم جميعاً : « أترضون بمن استخلف عليكم ؟ إني والله ما ألوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد وليت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ! » وأجاب الناس : « سمعنا وأطعنا » عند ذلك رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقوام عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم » . وسمع الناس دعاءه فزادوا كثرتهم اطمئناناً لما صنع .

ودعا أبو بكر عمر فعهد إليه وأوصاه بمتابعة الحرب في العراق والشام من غير هوادة ، وذكره بما يجب على من ولي أمر المسلمين من تجرى الحق ، وبأن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راهباً لا يثني على الله غير الحق ، فإن فعل لم يكن غائب أحب إليه من الموت ، يحاسبه الله بعده فيثيبه عن الحق وأتباعه . فلما فرغ من وصيته خرج عمر من عنده وهو يفكر في هذا الأمر الذي ألقى على عاتقه ، فود لو أن الصديق برىء من مرضه ليواجه موقفاً ما أدقّه .

لكفه لم يتردد في قبول ما ألقى عليه متى آن له ينهض بقباعته . إنها تبعة عظيمة وعبء جَمِّ المتاعب ، لكن ! من لهذا العبء كابن الخطاب يحملُه وينهض به ! ولقد حمله عمر بعزم وقوة ، فلم يترك هذه الدنيا حتى امتد الفتح الإسلامي فشمّل فارس والشام ومصر ، وحتى قامت الأمبراطورية الإسلامية على أمتن دعامة وأقوى أساس .



## الفصل الخامس

### عمر يستفتح عهده

قبض أبو بكر بعد مغيب الشمس من مساء الإثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة من الهجرة (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٢) فلما جنَّ الليل غُسلَ وحُمِلَ على السرير الذي حمل عليه رسول الله إلى المسجد ، وصُلِّيَ عليه ، ونُقِلَ جثاته إلى قبر الرسول ، ودُفِنَ في حفرة إلى جنبه صلى الله عليه وسلم ، وجُعِلَ رأسه إلى كتف رسول الله وألصق اللحد باللحد . وقد تولى دفنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر .

أتم عمر واجبه الأخير للخليفة الأول ، وخرج من حفرة القبر بدار عائشة فسلم على أصحابه ، ثم انطلق عائداً أدراجَه يؤمُّ داره بعد منتصف الليل<sup>(١)</sup> . ودخل مضجعه وجعل يفكر فيما يتفكس عنه الغد : فسببابعه السامون من بكرة النهار ليتولى أمورهم ، فيواجه منهم من رضى استخلافه كارهاً ، ثم يواجه الموقف الحربي الجليل اللدقيق في العراق وفي الشام ؛ فإذا عسى أن يفعل ليتغلب على هذين الأمرين وهما بأعظم مكان من جلال الخطر في حياة الدولة الناشئة .

(١) أورد ابن سعد في الطبقات روايات عن أول خطبة خطبها عمر ، ومنها رواية مسندة إلى عفان ابن مسلم ووهب بن جرير بن حازم عن حميد بن هلال عن شهد وفاة أبي بكر ، نجري بما نصه : « فلما فرغ عمر من دفنه ففض يده من تراب قبره ، ثم قام خطيباً مكانه » ثم نورد خطاباً سئلوا الفاريء نفسه وموضعه من هذا الفصل . ونحن نرتاب في قيام عمر يخطب في هذا الموقف ، ونرجح أن عمر أتى هذا الخطاب في موقف آخر . فقد ابن عمر أبا بكر كما أبته على ابن أبي طالب وأبنته عائشة أم المؤمنين لأول ما ذاع نبأ وفاته بعد مغيب الشمس ، ولم يزد عمر في تأيينه على أن قال : « يا خليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً . فبهيات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك » . وقد دفن أبو بكر بعد ما جن الليل . ودفن بدار عائشة في الحفرة التي دفن فيها رسول الله ، ولم يكن بالحفرة أحد غير الذين تولوا الدفن . وقد أراد عبد الله بن أبي بكر أن يهاونهم ، فقال له عمر : « ككفيت » . فليس طبيعياً أن يقوم عمر خطيباً في هؤلاء . ثم إن أكثر الناس كانوا قد أووا إلى منازلهم ، فلم يكن منهم بالمسجد في هذه الساعة إلا قليلون هم أهل الصفة ، لأن المسجد لم يكن يضاء في ذلك العهد .

كان موقف المسلمين بالعراق والشام يومئذ بالغاية الدقة؛ فند جمدت قوات المسلمين بالشام أمام قوات الروم، فأجدها أبو بكر بخالد بن الوليد في عدد من جيش العراق. مع ذلك أقامت القوات وخالد على رأسها ولا يبلغ السامين بالديقة من نبيها ما يبعث إلى نفوسهم الأمل في نصرها أو يطمئنهم على مصيرها. وقد ضعف جيش العراق بغياب خالد فيمن فصل بهم من المسلمين إلى الشام، فلم يستطع المثنى بن حارثة الشيباني، على براعته ومقدرته، أن يحتفظ بكل ما غنمه المسلمون من سواد العراق، فارتدى إلى الحيرة وتحصن بها. حقا أنه انتصر على جيش من الفرس وجّهه شهريران بن أردشير بقيادة هرمز جاذويه، فالتقى هو والمسلمون على أطلال بابل فردوه مدحوراً. لكن المثنى رجع بعد نصره يتحصن بمواقفه الأولى خيفة أن يباغت، موقفاً أنه لن يستطیع التقدم وإن استطاع المقاومة. بل لقد أصبح المقاومة أمراً عسيراً إذا اطمأن بلاط فارس وزال اضطرابه. لهذا كتب إلى أبي بكر يستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة، وكان أبو بكر قد حرم الاستعانة بهم في الحرب. فلما أبطأ عليهم رد الخليفة استخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين، وذهب إلى المدينة بمرض موقفه الدقيق، ويدافع عن رأيه في الخروج منه. ترى كيف يواجه عمر هذه الأمور كلها؟ في هذا وفيما يتصل به بات يفكر ليله، ضارحاً إلى الله أن يلهيه الرأي، وأن يهديه الصراط السوي. إنه سيرى المثنى في طليعة من يراهم متى أصبح، وسيطلب المثنى إليه ما يطلبه إلى أبي بكر من قبل، أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة، وسيردد المثنى أن التائبين من أهل الردة يطعمون في مقامهم الفزء، فلا أحد أنشط إلى الحرب منهم، وقد أوصى أبو بكر عمر في أمر العراق وصية لا بد من تنفيذها، إذ دعاه إليه وقال له: « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به! إنني لأرجو أن أموت من يومى هذا. فإن أنا مت فلا تسمين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تُصبحن حتى تندب الناس مع المثنى. وإن فتح الله على أمراء الشام فارذذ أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهل وولاء أمره وحدّه، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم». أفيندب الناس مع المثنى أم يدعه يستعين بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة؟ إنه ليخشى أن يتعاس الناس إذا ندبهم بعد ما رأوا أصحابهم بالشام لا يستطيعون التقدم

فيه ، ورأوا الثني بالمدينة خائفان من الفرس ووصولهم . ولكن المسلمين لابقاء لهم بالعراق إذا لم تعزّر قواتهم فيه بمدد قوى . والتفكير في الانسحاب من تلك البلاد أمر لا يخطر للمثني بيال ؛ فهو الذي دفع أبا بكر لغزوها ، وهو الذي تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إليها ؛ فليس حيناً على نفسه أن يجلو عن بلد كان الطليعة في غزوه ، وأن يجلو عنه وهو موقن بمقدرته على فتحه . ولو أن عمر أمده بالتائبين من أهل الردة ، لتابع الفتح ففض على كسرى إخوانه . ولم يخطر الانسحاب من العراق بيال عمر كذلك ؛ فإنما استخلفه أبو بكر ثقة منه بأنه أقدر المسلمين على متابعة سياسته . ولا سبيل إلى متابعة هذه السياسة إلا أن يأخذ الأمر بالحزم . وأن ينفذ وصية الصدّيق فيندب الناس مع المثني ، وأن يعزز قوات المسلمين بالشام . أتري وجوه المسلمين وأصحاب رسول الله الذين برموا باستخلافه يعاونونه في ذلك صادقين ؟ وإذا ترددوا في معاونته فما عساه يصنع ؟ وماذا يكون من أثر ترددهم في العرب وفي ولائهم للمدينة ؟ إلا إن سياسة الحزم وحدها هي التي تنجح في هذا المرقف . والحزم لا ينقص عمر . فليعزم الأمر ، وليتوكل على الله !

بات عمر وقد عناه التفسكير في هذا كله ، وأصبح نفرج إلى الناس بالمسجد ، فأقبلوا على بيئته إقبالا سكن بعض ماجاشت به نفسه . فلما كان الظهر ازدحم الناس للصلاة ، صمد عمر المنبر درجة درن الدرجة التي كان يقوم أبو بكر عليها ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ، وذكر أبا بكر وفضله ثم قال : « أيها الناس ! ما أنا إلا رجل منكم ، ولو لا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم » . قال هذه العبارة متأثراً في تواضع ورفق . أخذ بهما الناس ورأوا فيهما دليلاً على صدق فريسة الصدّيق فيه ، ويؤمّد نظره في استخلافه ، فأنثوا على عمر خيراً وزادهم ثناء عليه أن رأوه يتوجه بنظره إلى السماء ويقول : « اللهم إني غليظ فليبي ! اللهم إني ضعيف فقوي ! اللهم إني بخيل فسخني ! » . وأمسك عمر هنيهة حتى سكن الناس ، ثم قال : « إن الله ابتلاكم بي ، وابتلاني بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحبي . فوالله لا يحضري شيء من أمركم فيليه أحد دوني ، ولا يتغيب عني قالوا فيه عن الجزء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأسكتن بهم » .

أتم عمر كلامه ثم نزل فأتمّ الناس للصلاة ، حتى إذا فرغ منها التفت إليهم فندبهم للذهاب إلى العراق مع المثنى ، وذكر لهم وصية أبي بكر في ذلك . وسمع الناس نداء الخليفة ، فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يجب الدعوة منهم أحد . وكأنما ذكروا ما أصاب إخوانهم بالشام ، فلم يريدوا أن يصابوا بمثله . أليس أبو بكر قد دعاهم لغزو الشام فترددوا فقام عمر يومئذ فصاح بهم : « مالكم يا معشر المساهين لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم إلى ما يحبيكم ؟ » . عند ذلك أجابوا الدعوة ، فساروا لمواجهة هرقل وجنوده . وهام أولاء أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ، ومن معهم من الصحابة ومن تبعهم من الأمراء والأبطال من مختلف الأرجاء في شبه الجزيرة ، في موقفهم من الروم لا يستطيعون التغلب عليهم ، ثم لم يُغن عنهم أن أمدهم أبو بكر بخالد بن الوليد بعد ما دَوَّخَ الفرس بانتصاراته في العراق . أترام يكونون أحسن حظاً إذا لبوا نداء عمر وساروا مع المثنى إلى العراق ؟ أم ترام يقفون هناك من جنود كسرى موقف أصحابهم بالشام من جنود هرقل ؟ وليس يطمع أحد منهم في أن يردّ عمر خالداً إلى العراق وهم يعلمون سوء رأيه فيه ، ويذكرون موقفه منه في حادث مالك بن نويرة . والمثنى بن حارثة قائد عظيم لاربيب ، ولكنه ليس من قریش وليس من أصحاب رسول الله ، بل هو من بنى بكر بن وائل . ثم إنه لم يلبث ، حين فصل ابن الوليد من العراق إلى الشام ، أن انسحب من سواد العراق إلى الحيرة ، ثم جاء إلى المدينة يستمد الخليفة ، ويدل بذلك على أنه في مكان الفرس لا يحسد عليه . ولعل له عذره ؛ فاسم الفرس كان يلقى في قلوب العرب الرعب . ولقد ظن بعضهم أن خالداً غلبهم لأنهم استخفوا بادىء الرأى بأمره ، فلم يواجهوه من قوتهم بما يردّه على عقبه . أما وذلك الشأن فما لهم ولقتال قد تدور عليهم دائرته ؟

لَمْ يَخْفِ أَحَدٌ مِنَ الزَّعَمَاءِ وَأَوْلَى الرَّأْيِ مَلِيئاً نِدَاءَ عُمَرَ . وَإِذَا تَنَاقَلَ هَؤُلَاءِ كَانَ غَيْرُهُمْ مِنْ جَهْوَرِ النَّاسِ أَكْثَرَ تَنَاقُلًا . هُنَالِكَ أَطْرَقَ عُمَرَ هَنِيئَةٌ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَجْلِسِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَعَادَ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ عَلَى بَيْعَتِهِ وَانصَرَفَ النَّاسُ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَبَقِيَ عُمَرَ لَيْلَهُ يَفْكُرُ . فَلَمَّا أَصْبَحَ وَأَخَذَ مَكَانَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَعَادَ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ عَلَى بَيْعَتِهِ . وَنَادَى الْمُنَادِي بِالصَّلَاةِ

الظهر ، فالتبث عمر حين انتقل منها أن نادى في الناس بصوته الجهوري يأمرهم أن يردّوا سبائيا أهل الردّة إلى عشائهم ، ويعمل ذلك بقوله: « إني كرهت أن يصير السبي سنة في العرب ». سمع الناس هذا الأمر ، فشخصت أبصارهم إلى عمر ، وجعلوا يتساءلون بينهم : ماذا أراد به ؟ ! لقد سبى المسلمون من العرب في حروب الردة تنفيذاً لأمر أبي بكر حين أذاع في أرجاء شبه الجزيرة أنه أمر كل قائد من قواده ألا يقبل من مرتدّ إلا الإسلام ، ومن أبي ، أن يقاتله على ذلك ، ولا يُبقي على أحد منهم قدر عليه ، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبي النساء والذراري . أفيريد عمر بهذا الأمر أن يخالف أبا بكر وأن يجري على غير سنته ؟ أم إنه رأى الناس تقاعسوا حين ندهبهم للذهاب مع المثنى فأراد أن يستميل العرب من مختلف القبائل إليه ليمد المثنى بهم ؟ أيّ ما كان الأمر ، فما أمر به جديد في سياسة الدولة يقف النظر ويوجب التساؤل .

الحق أن عمر لم يذق النوم في الليلتين اللتين انقضتا منذ قبض أبو بكر إلا غراراً . فالناس يتتابعون على بيعته احتراماً لعهد الصديق ووصيته . لكن الكثيرين من زعمائهم لا يزالون يبرمون به لغظته ، وقد كان لبعضهم في ولاية الأمر مأرب . ولن تستقيم الأمور في دولة لا يتضامن أولو الرأي فيها على توجيه سياستها ، والموقف أدق من أن يدعه عمر للزمن مكتفياً بأن يدعو الله أن يجيبه للناس وأن يجيب الناس إليه . فإن لم يأخذ الأمر بالحزم أو شكت شؤون الدولة أن تضطرب . أما وقد أمر بردّ السبي إلى عشائهم فتأنف قبائل العرب وكسب قلوباً كانت تنفر من شدّته ، فليمض غير متردد في سياسته . ولقد خرج إلى الناس بالمسجد في اليوم الثالث ، فلما فرغوا من بيعته قام فيهم فقال : « إنما مثل العرب مثل جملٍ أنفٍ <sup>(١)</sup> اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . أمّا أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق » .

ازدادت الأبصار شخصاً إلى عمر ، وخيل إلى الحاضرين بالمسجد جميعاً أن هذا الرجل سيكون عليهم سوط عذاب بشدّته وغلظته . ورأى عمر ذلك في وجوههم ، فصعد المنبر حين ازدحموا الصلاة الظهر فقال :

(١) جمل أنف أي ذلول ، وهو الذي عقر الحشاش أتمه ، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به .

« بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشتم علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ! ومن قال ذلك فقد صدق .

« . . . لأننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان ، كما قال الله ، بالموثمين رءوفاً رحياً . فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يُعْمَدنى أو يدعى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله كثيراً وأنا به أسعد .

« ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تُنكرون دعتهم وكرمه ووليفته ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بليته ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يُعْمَدنى أو يدعى فأمضى فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

« ثم إنى وليتُ أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتمدى عليه حتى أضع حده على الأرض ، وأضع قدمى على الخلد الآخر حتى يذعن بالحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .

« ولكم على أيها الناس خصال أذكركمها لكم فخذوني بها :

« لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه .

« لكم على إذا وقع فى بدى ألا يخرج منى إلا فى حقه . ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على ألا أقيم فى المهالك ، ولا أجمركم فى ثغوركم <sup>(١)</sup> ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

« فاتقوا الله ، عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ! وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

(١) تجدير الجيش : جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم .

قال عمر هذا القول ثم نزل فأمر الناس للصلاة ، وأتمها ثم انصرف عنهم . وجعل الناس يفكرون فيما سمعوا منه . لقد عرفوه رجلاً صريحاً ظاهره كباطفه ، وسره كعلائيقه وعرفوه رجلاً عادلاً مع مافيه من شدة وغلظة . وهاهو ذا يذكر لهم أن شدته لن تكون إلا على الظالمين . وهو لا يخذعهم حين يقول إنه سيكون لأهل السلامة والتقصد ألين من بعضهم لبعض ؛ فقد عرفوا من رفقه ورقته في بعض المواضع مالا سبيل إلى إنكاره أو نسيانه . ثم إنه وعدهم أن يزيد في عطاياهم وأرزاقهم ، وأن يكون أباً لعيالهم إذا غابوا عنهم في حرب . أليس خليقاً بهم أن يؤلوه كل ثقتهم ، وأن يجيبوا دعوته إذا دعاهم ؟! كان ذلك شأن كثيرين من سواد الحاضرين . أما زعمائهم فقد ظلوا في تحفظهم ، برماً بعمر من جانب بعضهم ، وهيبةً للموقف في الشام وفي العراق من جانب الأكثرين وعاد عمر لصلاة العصر . ثم ندب الناس مع المثني فاثاقلوا . وكان المثني حاضراً ، وكان شديد الإلحاح على عمر أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، فهم لقتال الفرس أنشط . وزاد الإلحاح شدة حين أمر عمر بردّ السبي من أهل الردة إلى عشائرهم ، ثقةً منه بأن هذا الأمر سيجعلهم أكثر إقبالا على السير منه . فلما أبطأ عمر في إجابته إلى ما طلب ، ورأى الناس يزدادون إقبالا على عمر وطمانينة لخلافته ، طمع في أن يتقدموا لما ندبهم الخليفة له . لكنه رأى تفاقمهم ، وتبين في وجوههم أن وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وعزيم وشوكتهم وقهرهم الأمم . عند ذلك وقف يخطبهم فقال .

«أيها الناس ! لا يعظمن عليكم هذا الوجه ؛ فإننا قد تبججنا<sup>(١)</sup> ريف فارس وغلبناهم على خير شقّي السواد وشاطرناهم وثلنا منهم واجترأ من قبّلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .»

سمع عمر عبارة المثني ورأى حسن أثرها في الناس فقام فيهم خطيباً ، فكان مما قاله لهم «إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة<sup>(٢)</sup> ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . أين الطرّاء

(١) تبجج السكان : توسطه وتمكن منه

(٢) النجعة : طلب الكلاء في موضعه .

للمهاجرين عن موعود الله! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال . ( لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ) . والله مُظْهِرُ دِينِهِ ، ومعزّ ناصره ، وموَلِ أهله موارِيثَ الْأُمَمِ . أين عباد الله الصالحون ! » .

شعر الناس بما في تناقلهم من سبّة لهم بعد الذي سمعوا من كلام المثنى ومن كلام عمر . إنهم نصروا رسول الله وأعزوا دين الله ، ونصروا أبا بكر من بعده فنصرهم الله ، فما بالهم لا يتجرّكون لدعوة عمر ! وترددوا : أيلبّون الدعوة أم يظلون على تقاعسهم . وإنهم لكذلك إذ تقدّم أبو عبيد بن مسعود بن عمرو النخعي للسير إلى العراق ، فكان أوّل منتدب لهذا الأمر الجليل وثني من بعده سليط بن قيس . عند ذلك اجتمع الناس إليهما وأجمعوا السير معهما ، فكان معهما ألف رجل من أهل المدينة . ورأى عمر اجتماع ذلك البعث فاغتبط أيما اغتباط ، وخفق قلبه شكراً لله أن أخرج المساهين من ذلك الجود الذي كانوا فيه ، والذي أوشك أن يفسد عليهم أمرهم .

من من المهاجرين والأنصار يتولى إمارة هذا البعث؟ فكر الذين ترددوا في إجابة الدعوة في هذا الأمر ، وخافوا أن يجعل عمر الإمارة على جيش فيه عدد عظيم من أهل المدينة لواحد من غير أهل المدينة . لذلك أسرع قوم إلى الخليفة يقولون له : « أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار » . لكن ترددهم ثلاثة الأيام الأولى من خلافة عمر كان قد حزّ في نفسه وأحفظه عليهم . لذلك لم يتردد أن أجابهم : « لا والله لا أفعل ! إن الله إنما رفعكم بسيفكم وسرعتكم إلى العدو . فإذا جَبُنْتُمْ وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . والله لا أوامر عليهم إلا أولهم انتداباً » . ثم دعا أبا عبيد فولاه الإمارة ، ودعا سعد بن عبيد وسليط بن قيس وقال لهما : « أمّا إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى مالكما من القدمة » .

اطمأن المثنى بين حارثة حين رأى هذا الجيش يتأهب للسير معه إلى العراق . أمّا عمر فرأى أن لا حاجة بالمثنى إلى البقاء بالمدينة ؛ ولذلك أمره أن يرجع إلى العراق فيأحق بقواته فيه ، وقال له « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك .. » . وأخذ الجيش الجديد في الأهبة ، حتى إذا دنا موعود الرحيل قال عمر لأبي عبيد يوصيه : « اسمع من أصحاب النبي .



صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المسكين الذي يعرف الفرصة والكف .  
 هذه مشكلة معقدة ألم الله عمر فيها الرأي ، فخلها في أربعة الأيام الأولى من خلافته .  
 ثم لم يصرفه اشتغاله بها عن التفكير في المشاكل الأخرى القائمة أمامه . فقد فكر في أمر الشام ، وفي أمر نصارى نجران ، وفي سائر الأمور التي كان يرى فيها غير رأى أبى بكر ، وفكر في الخطّة التي يجب أن يسير عليها لينفذ رأيه ويجمع المسلمين حوله . وكان حين تنفيذ رأيه في هذه المسائل صريحاً كعهد المسلمين به ، حازماً غاية الحزم ، لا يعرف التردد ولا اللدراة ، ولا يأبى أن يحمل التبعة كاملة ، لأنه كان يؤمن بأنه على الحق ، وأن الله مؤيده لذلك لا محالة .

لقد عرف الناس جميعاً سوء رأيه في خالد بن الوليد ، وحرصه في حادث مالك بن نويرة على أن يقيد أبو بكر منه . ولم يتغير رأى عمر في خالد من بعد هذا الحادث . وقد فصل خالد من العراق إلى الشام بأمر أبى بكر وولى الإمارة على قوات المسلمين فيه ، ثم قضى به أكثر من شهر فلم يتغلب على قوات الروم ، بل لم يواجههم أية فرصة خير من هذه لعزل خالد عن إمارة الجيش ورد هذه الإمارة إلى أبى عبيدة ! وهذا ما فعل عمر . فقد كتب إلى أبى عبيدة غداة قبض أبو بكر ، يخبره بوفاة الخليفة ، ثم كتب بعزل خالد وتولية أبى عبيدة إمارة الجيش مكانه . وأن يكون خالد أمير اللواء الذى كان أبى عبيدة أميره . وبعث بوفاة أبى بكر مع زرفاً مولاه ، وبعزل خالد وإمارة أبى عبيدة مع تحميمة بن زنيمة وشداد بن أوس وأوصى أبى عبيدة في كتاب توليته بقوله : « تقدّم المسلمين إلى هلسكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف ماتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كنف من الناس . وإياك وإلقاء المسلمين في هلكة ! وقد أبلاك الله بي وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيتهم مصارعهم ! » .

كيف غامر عمر بعزل خالد وخالد على رأس قوات المسلمين بالشام ، وهذه القوات في موقف دقيق ؟ فقد كانوا هناك بإزاء الروم لا يواجهونهم ولا يتقدرون من أمرهم على

شيء ، ولا يقدر الروم من أسر المسلمين على شيء . كان ذلك موقفهم قبل أن يذهب خالد بن الوليد من العراق إليهم ، ثم ظلوا فيه بعد أن أقام خالد بينهم . كان كلا الفريقين يتحين الفرصة التي يخرج فيها من جموده ، ويوقع فيها بعلوته . أفلا يخشى الخليفة أن يفتر أمره بعزل خالد في أعضاء المسلمين فيزيد موقفهم دقة ؟ أو لم يكن الأجل به أن يترث حتى يخرج خالد بالمسلمين من الأذى الذي هم فيه ، وله بعد ذلك أن يأمر بما يشاء ؟ !

هذه اعتبارات لها من غير شك قيمتها في تطور القتال . وسنرى من بعد أن أبا عبيدة قدّر لها قدرها دون أن يخشى برّ الخليفة به أو غضبه عليه . لكن عمر نظر في الأمر من غير هذه الناحية . فلو أنه أرجأ الأمر بعزل خالد إلى ما بعد المعركة لأضرّت ذلك بسياسته وأفسد عليه خطته . فليس للمعركة مصير إلا أن ينهزم المسلمون فيها أو ينتصروا . فإن انهزموا لم يُعزل خالد هزيمتهم ، وإن انتصروا وخالد قائدهم لم يكن لعمر أن يعزل قائداً في أوج نصره ، فإن فعل أي أمرأ إذا . وعمر حريص على ألا يبقى خالد على القيادة العامة بالشام أو بغير الشام . لذلك أسرع فأصدر الأمر بعزله ، وله من العذر أن خالداً لم يحقق ما ندمه أبو بكر لتحقيقه . فإذا انتصر المسلمون بعد هذا فلا تريب على عمر فيه ؛ فهو إما صنع ما اقتنع بأنه الحق ، وصنعه وخالد في موقف لا يظلمه فيه من يأمر بعزله . يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر في عزل عمر خالداً ، وخالد سيف الله على لسان رسول الله ، وهو الذي قضى على الردة وفتح العراق ، وهو البطل لا يشقّ غباره ، وعبرى الحرب غير منازع . أحق أن مقتل مالك بن نويرة وتزويج خالد من امرأته قد بقى له من الأثر في نفس عمر ما حمله على هذا التصرف ؟ أم خشي عمر أن يفتتن خالد بالناس كما افتتنوا به لا نتصاره المتصل في الحرب ، وقد يجر افتتانه على الدولة شرّاً ؟ يرى بعضهم هذا الرأي الأخير ، ويذكرون أن خالداً رجح إلى المدينة يسأل عمر عما حمله على عزله فأجابته : « ما عزلت لك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس ، فخشيت أن تفتتن بالناس » . وهذه رواية لا سند لها . فالثابت أن خالداً لم يذهب إلى المدينة بعد عزله ، وأنه بقى بالشام يتابع غزواته بإمرة أبي عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش في السنة السابعة عشر من الهجرة . ولا أحسب كذلك أن مقتل مالك بن نويرة كان سبب

العزل ؛ فقد انقضت سنتان بين هذا الحادث واستخلاف عمر . وفي هاتين السنتين بلغت عبقرية خالد في القيادة أوجها ، وكانت فعالة في غزوة اليمامة وفي حرب العراق حديث الناس جميعاً في شبه الجزيرة وفي فارس الروم . وعندى أن عمر إنما عزل خالداً لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا أثناءها .

ولست أقصد ثقة عمر بعبقرية خالد ، أو ثقة خالد بعزل عمر ، وإنما أقصد الثقة القائمة على ما يكون للرجل من حسن الرأي في صاحبه حتى ليغضى عن هفاته ، وحتى لتذهب الحسنة التي يأتيها صاحبه أضعافها من سيئاته . وقد كان عمر يرى في خالد زهواً يدفعه إلى التسرع في الحرب ، وإن لم يكن للتسرع مسوغ ، وإن خالف به أمر ولي الأمر . وقد دفعه الزهو والتسرع إلى القتال يوم فتح مكة ، حين نهى النبي عن القتال ، كما دفعه للسير إلى بنى تميم وقتل مالك بن نويرة دون إذن من أبي بكر . وكان خالد ينسب كل ما يوجهه الخليفة الأول إليه من لوم وإلى تحريض عمر ، حتى ليقول حين أمره الصديق بمغادرة العراق إلى الشام : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخله ، حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » . وإذا ضاعت الثقة بين رجلين على هذا النحو ، لم يكن تعاونهما مستطاباً ، وبخاصة إذا كان أحدهما رئيس الدولة والآخر أمير جندها وصاحب لوائها . لا عجب إذاً أن يعزل عمر خالداً حتى لا تسكون بينهما صلة مباشرة ، بل يكون أبو عبيدة هو الذى يوجّه خالداً ويصدر إليه أوامره . وقد كانت الصلة بين خالد وأبى عبيدة صلة مودة وحسن رأى .

قد يمترض على رأينا هذا بأن الخليفة لا يلى أمر الدولة لحسابه ، بل لحساب المسلمين جميعاً . وكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسى ما بينه وبين خالد ، وأن يدع سيف الله يمضى لا يشيمه ، متأسياً في ذلك بأبى بكر ، وما صنع ضارباً للمثل للمسلمين في تقدير الرجال بأعمالهم ، والسمو بهذا التقدير على الآراء والميول الذاتية . وهذا اعتراض له وجهته في المنطق النظرى لا ريب . لكن وجهته هذه تتضاءل كل التضاءل أمام الواقع من أمر هذه الحياة . فنحن ، معشر هذا الناس ، لا نتصرف في شؤون الحياة بعقولنا وحدها ، بل إن لمواطننا علينا لسلطاناً أى سلطان . وسواء كان ما نتصرف فيه من خاصة شؤوننا أو بعض

ما وُكل إلينا من شؤون غيرنا فإننا نتأثر حين التصرف فيه بشعورنا كتأثرنا بعقولنا ، وقد يكون الشعور أكبر من العقل أثراً في اتجاهاتنا . ومن المحال أن نقيم بين حكم الشعور وحكم العقل حداً فاصلاً . صحيح أن بعض الناس أكثر تأثراً بشعورهم ، وبعضهم أكثر تأثراً بعقلهم ؛ لكن اختلاف الحكم لا يغير من تزاوج الشعور والعقل في توجيه أحكامنا . ولا ريب أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد . ولعله كذلك قد ظن أن خالدًا حسده على الخلافة ، كما ظن خالد من قبل أن عمر حسده على فتح العراق . والرجلان بالغان غاية القوة كلٌّ في ناحيته . فإذا تعارض شعور كل منهما نحو صاحبيه على هذا النحو ، خيف أن يتصادما ، وأن يكون لتصادمهما أثر سيء في شؤون الدولة وفي مصيرها . لذلك أخذ عمر الأمر بحزم حاسم لا يعرف هوادة ، غير ناظر إليه من ناحية العدل وما يوجبه ، بل من ناحية النظام العام ، ومن ناحية أمن الدولة وسلامتها .

على أن تصرف عمر بعزل خالد لم يكن شذوذاً منه ، وإن كان الأول من نوعه ، بل كان سياسةً جرى عليها مع الولاة والأمراء طيلة عهده . وسنرى من بعد أن مؤاخذه هؤلاء الولاة والأمراء بالشدّة كانت من مألوف خطته ، وأنه كان يدعوهم إليه ، ويحاكمهم عما يبالغه من شكائيات ، ويعزل من لا يقتنع بدقته وأمانته في أداء عمله . ذلك أنه كان يحرص على تركيز السلطة كلها في يديه . وذلك قوله أوّل ولايته : « والله لا يحضرنى من أمركم شيء فيليه أحد دوني . ولا يتغيب عني فألوفيه عن الجزء والأمانة . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكّلن بهم » . إذا اجتمع هذا الرأي في سياسة الدولة إلى ما عُرف عن عمر وسوء رأيه في خالد وضياع الثقة والألفة بين الرجلين ، تكشف السر في عزل خالد ، وتكشف مكان هذا السر من نفس عمر .

عزل عمر خالدًا عن إمارة الجيش بالشام وردّها إلى أبي عبيدة . لكن ذلك لن يغيّر من موقف المسلمين بإزاء الروم ، ولن يشدّ أزرهم في قتالهم ، بل لعله يؤدّي إلى التقيض فتكون الطامة الكبرى .

وإذ كان عمر قد أمر برد السبي من أهل الردة إلى عشائرم فكسب بذلك قلوبهم ، فقد أقبلوا سرّاعاً من كل حدبٍ يلثبون دعوته يريدون أن يأخذوا في الحرب بتصيب

يظهرون من سابق ردّتهم ، ويجعل لهم ولدويهم من مغنم الحرب ما لسائر المسلمين . بذلك اطمأن عمر إلى توفيق الله له في معالجة الموقف الدقيق لجيوش المسلمين خارج شبه الجزيرة ، فاتجه بتفكيره إلى ناحية أخرى لا تخالف سياسة رسول الله وسياسة الصديق في أساسها ، وإن خالفت هذه السياسة في بعض تفاصيلها .

ذلك أن رسول الله دعا الناس كافة إلى دين الله ، لم يفرّق في دعوته بين أهل الكتاب وغيرهم . وقد رأى يهود المدينة في هذه الدعوة خطراً عليهم ، فوادعوا محمداً وعاهدوه على حرية العقيدة . لكنهم ما لبثوا حين رأوه يستقرّ له الأمر أن ائتمروا به ، فقاتلهم وأجلاهم عن المدينة وعن أكثر منازلهم من شبه الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا قليلون بعد غزوة خيبر صالحوه على البقاء بأرضهم والعمل فيها على أن يكون للمسلمين النصف من غلاتها . أمّا نصارى نجران فبعثوا وفداً يجادل النبي ، فلما دعاهم ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، تولوا وعادوا إلى بلادهم . ثم إنهم بعثوا إليه وفداً صالحه على الجزية يدفعونها لقاء دفاع المسلمين عن حرية عقيدتهم . فلما تولى أبو بكر أقرّ نصارى نجران وعاهدهم على ما عاهدهم النبي عليه ، واقتضى يهود خيبر ما كان يفتضيه رسول الله .

ونظر عمر في الأمر يوم استخلف فاتجه فيه وجهة جديدة . فقد دعا إليه يعلى بن أمية وألقى عليه أن يجلي نصارى نجران عن ديارهم ، وقال له : « إيتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجّل من أقام منهم على دينه ، وأقرّر المسلم ، وامسح أرض كل من يُجلى منهم ، ثم خيّرهم البلدان . وأعلنهم أنا نُجليهم بأمر الله ورسوله ألا يُترك بجزيرة العرب دينان . فليخرج من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بدينهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم من الريف » .

يحسب بعضهم أخذ عمر بهذه السياسة نقضاً لما صنعه رسول الله وما تابعت الصديق عليه . والمستشرقون يذهبون لذلك في التحامل على عمر إلى حدّ لومه على ما صنع . أما المؤرخون المسلمون فيلتمسون له المماذير ، فيذكر بعضهم أن رسول الله إنما عاهد نصارى

نجران على ألا يفتنوا عن دينهم « ما رعو العهد ، وانصحو ، ولم يأكلوا الربا » ، وأنهم أكلوا الربا أضعافاً مضاعفة فنقضوا العهد ، فحق لعمر أن يجلبهم عن شبه الجزيرة . وبذكر آخرون أنهم اختلفوا فيما بينهم واشتد اختلافهم ، فطلبوا إلى عمر أن ينقلهم إلى ديار غير ديارهم . ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أنهم قويت شوكتهم ، فخشيتهم عمر فأجلاهم . وسواء أصح بعض ما روى من ذلك أم لم يصح كله ، فإنه في رأيي لم يكن السبب في تصميم عمر على إجلائهم عن شبه الجزيرة ، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى تكييف عام لسياسة الدولة اقتنع به عمر فنفذه في حزم وعدل .

ولكن نقدر هذا التكييف يجب أن ننفي عن عمر تهمة التعصب كما يلقيها عليه المستشرقون ؛ فهم يذكرونها متخذين من اقتناع أهل هذا العصر الحاضر بمبدأ حرية العقيدة حجة لهم في مؤاخذه عمر بما صنع . وهذا خطأ أدى إليه تجاهل الواقع . فالواقع من عصر عمر أن العقيدة كانت أساساً جوهرية في حياة الجماعة ، فكان المخالفون لعقيدة الجماعة أو الخارجون عليها يعدون في حكم الأجانب عن الجماعة ، بل في حكم الخارجين عليها ، كان حربهم لذلك حلاً لصاحب الأمر بل واجباً عليه . ولهذا حارب محمد في دعوته إلى الله وإلى دين الله ، ولهذا شبت حروب شعواء بين الروم والفرس بسبب العقيدة . وقد ظلت الأمر على هذا في أوربا وفي غير أوربا إلى عهد غير بعيد منا . ففي سبيل العقيدة شبت الحروب الصليبية بين النصارى والمسلمين ، وفي سبيلها حدثت المآسى والمجازر بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد عاهد رسول الله نصارى نجران ، لأن شبه الجزيرة لما تكن وحدتها السياسية قد تمت ، فكانت نجران لصيقة باليمن التي ظلت على وثنياتها زمناً غير قليل بعد هذا العهد بين محمد وهؤلاء النصارى . فما قبض رسول الله وخلفه أبو بكر ، كانت اليمن في طلبعة من انتقض على سلطان المدينة وارتد عن الإسلام ، فكان طبيعياً أن يعاهد الصديق نصارى نجران على ما عاهدهم رسول الله عليه . وقد قضت حروب الردة على الانتفاض وعلى الردة جميعاً ، وأدى القضاء عليهما ثم أدى ما تلاها من غزو العراق والشام إلى توطيد الوحدة السياسية والوحدة الدينية في أرجاء شبه الجزيرة جميعاً ، فأصبحت كلها دولة واحدة ، عاصمتها المدينة ، وحاكمها خليفة رسول الله . وكذلك تولى عمر المسلمين

وقد زالت الأسباب التي أدت إلى معاهدة نجران في عهد النبي وفي عهد الصديق ، وأن لعمر أن يفكر تفكيراً جديداً في سياسة دولة أتمدت أجزاءها من شمال شبه الجزيرة إلى جنوبها ، وأصبحت المدينة عاصمتها لا يفازعها منازع .

أما وقد أصبحت بلاد العرب دولة متحدة تدين كلها بدين واحد ، ويسوسها رجل رضى أهلها جميعاً ببيعته ، فجدير بأميرها أن ينفى عنها كل سبب للضعف أو الوهن . ومن أسباب الوهن لأمة أن تعدد أجناسها أو تتعدد الشرائع ذات السلطان النافذ بين أهلها . ذلك أمر أقره الناس ولا يزالون يقرونه . ولذلك نرى المعاهدات المختلفة إلى أحدث العصور تنقل الجماعات من أهل الجنس الواحد إلى صعيد واحد ، ولذلك لا تبيح أمة متحضرة أن يقوم فيها أكثر من تشريع واحد . والإسلام يتناول فيما يتناوله أموراً لا تتفق ومقررات النصرانية ؛ فهو يحرم الربا ، والنصرانية لا تحرمه ، ويحرم الخمر ، والنصرانية لا تحرمها ؛ وهو دين توحيد ، والنصرانية دين تثليث . وقد كانت هذه المقررات وما إليها نافذة يومئذ لا يستطيع أحد أن يتسامح فيها كما يتسامح الناس فيها اليوم باسم حرية العقيدة . فلم يكن عجباً أن يصير عمر على ألا يترك بجزيرة العرب دينين وقد أصبح للعرب في شبه الجزيرة كلها دين واحد ارتضوه في عهد رسول الله ، وعادوا إليه بعد ما ارتد بعضهم عنه في عهد أبي بكر . فوحدة الدين هي الكفيلة بطمأنينتهم وبمثانة وحدثهم ، وبألا تقوم بينهم وبين من لم يكونوا على دينهم تأثيرات تجنى على الطمأنينة أو تعيث بالوحدة . وهذا ما فعل ؛ ولهذا دعا إليه يعلى بن أمية وألقى عليه أن يحلى نصارى نجران .

وتصرف عمر في هذا الأمر خليق بالحد ، غير خليق بالتعامل ولا باللوم . فهو لم يلجأ إلى ما لجأ إليه أصحاب الكثرة من الكاثوليك أو البروتستانت ؛ إذ كانوا يرهقون خصومهم في المذهب حتى ليقتلهم بعد أن يذيقوهم المذاب ألواناً ؛ بل كان أول ما أوصى به يعلى أن يفتن نصارى نجران عن دينهم ، وأن يدع لهم الحرية كاملة في البقاء عليه أو التحول عنه إلى الإسلام ، وأن يعطيهم أرضاً كأرضهم خارج شبه الجزيرة . بذلك لا يظلمهم ولا يصنع معهم إلا ما صنعه الدول المتحضرة اليوم ، إذ تنقل أهل جنس من الأجناس إلى حيث تقم كثرة من بني جنسهم ، وحيث يأمنون أن يضرهم الاختلاف في الجنس مع جيرانهم أشد مما يضر الكثرة الضخمة القائمة من حولهم .

كَمْ يَرْتَبِ النَّاسِ بَعْدَ مَا عَرَفُوا أَمْرَ عُمَرَ بِإِجْلَاءِ نَصَارَى نَجْرَانَ فِي أَنَّهُ سَيُحْلَى الْيَهُودَ وَيَجْلَى غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا عَنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ . وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السِّيَاسَةُ جَدِيدَةً عَلَيْهِمْ ، لَسْكَنْهُمْ لَمْ يَنْكُرُوهَا وَلَمْ يَعْجَبُوا لَهَا . بَلْ لَعَلَّهُمْ كَانُوا كَثْرًا عَجَبًا لِتَوَلِيَةِ أَبِي عُبَيْدِ الثَّقَفِيِّ إِمْرَةَ الْجَيْشِ بِالْعِرَاقِ وَفِيهِ مِنْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَهَاجِرِيهِمْ وَالْأَنْصَارِ ، ثُمَّ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ عَجَبًا لِعَزْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ إِمَارَةِ الْجَيْشِ بِالشَّامِ . لَسْكَنْهُمْ رَأَوْا عُمَرَ يَأْخُذُ الْأَمْرَ بِالْحَزْمِ وَالْعَدْلِ مَعًا ، وَذَكَرُوا مَوَاقِفَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ ذَكَرُوا مَوْقِفَ الْمُسْلِمِينَ وَدَقَّتْهُ بِالْعِرَاقِ وَبِالشَّامِ ، وَرَأَوْهُ يَخْطُبُهُمْ مُنْكَرًا نَفْسَهُ مُتَجَرِّدًا لِلَّهِ فِي سَبِيلِ خَيْرِهِمْ جَمِيعًا ، فَأَثَرُوا أَنْ يَدْعُوا لَهُ الْأَمْرَ وَأَنْ يُلْقُوا عَلَيْهِ التَّبِعَةَ ، وَأَنْ يَضْرَعُوا إِلَى اللَّهِ بِالِدَعَاءِ أَنْ يَوْفِقَهُ كَمَا وَفَّقَ أَبَا بَكْرٍ قَبْلَهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مَا يَخْطُبُهُمْ عُمَرَ بِهِ أَقْلَ مِنْ سَائِرِ الْاِعْتِبَارَاتِ أَثْرًا فِي نَفْسِهِمْ ؛ فَقَدْ كَانَ إِخْلَاصَهُ بِتَجْلِي فِي عِبَارَاتِهِ ، وَكَانَ إِنْكَارُهُ لِنَفْسِهِ وَتَجَرُّدُهُ لِلَّهِ فِي سَبِيلِ خَيْرِهِمْ تَمَّ عِنْدَهُمَا كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِ . كَانَتْ يَقُولُ لَهُمْ : « إِنِّي لِأَرْجُو إِنْ عَمَّرْتُ فِيكُمْ ، يَسِيرًا أَوْ كَثِيرًا أَنْ أَعْمَلَ بِالْحَقِّ فِيكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ وَالْأَيُّبِيُّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِي بَعَثِهِ ، إِلَّا أَنَا هُوَ حَقُّهُ وَنَصِيْبُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ » . وَكَانَ يَقُولُ : « إِنِّي أَمْرٌ مُسْلِمٌ وَعَبْدٌ ضَعِيفٌ إِلَّا مَا أَعَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَلَنْ يَغْيِرَ الَّذِي وَلِيْتُ مِنْ خِلَافَتِكُمْ مِنْ خَلْقِي شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . إِنَّمَا الْعِظَامَةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَلَيْسَ لِالْعِبَادِ مِنْهَا شَيْءٌ . فَلَا يَقُولُونَ أَحَدُكُمْ إِنْ عَمَّرْتُ تَغْيِيرَ مَنْذُ وَلِي . أَعْقَلُ الْحَقُّ مِنْ نَفْسِي ، وَأَتَقَدَّمُ وَأَبَيِّنُ لَكُمْ أَمْرِي . فَإِنَّمَا رَجُلٌ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ أَوْ ظَلَمَ مَظْلَمَةٌ أَوْ عَتَبَ عَلَيْنَا فِي خَلْقٍ فَايُوْذِنِي ، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ . . . وَأَنَا حَيِيْبٌ إِلَى صَلَاحِكُمْ ، عَزِيْزٌ عَلَى عَتْبِكُمْ . . . وَأَنَا مُسْتَمُولٌ عَنْ أَمَانَتِي وَمَا أَنَا فِيهِ ، وَمَطَّلَعٌ عَلَى مَا يَحْضُرُنِي بِنَفْسِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، لَا أَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ مَا يُبَدُّ مِنْهُ إِلَّا بِالْأَمْنَاءِ وَأَهْلِ النَّصِيْحِ مِنْكُمْ لِلْعَامَةِ . وَلَسْتُ أَجْعَلُ أَمَانَتِي إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ وَبِمَثَلِهَا كَانَ عُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ فَيَتَأَلَّفُ قُلُوبَهُمْ . وَقَدْ تَأَلَّفَ قُلُوبَ الْعَرَبِ فِي أَرْجَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ مِنْذُ أَمْرِ بَرْدِ السَّبِيِّ مِنْ أَهْلِ الرَّدَةِ إِلَى عَشَائِرِهِمْ . فَلَمَّا أَمَرَ أَبُو عُبَيْدٍ ، وَعَزَلَ خَالِدًا ، وَأَمَرَ بِإِجْلَاءِ نَصَارَى نَجْرَانَ ، لَمْ يَرِ النَّاسَ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً مَا يَبْرَمُونَ بِهِ ، وَإِنْ رَأَوْا فِيهِ جَدِيدًا اسْتَفْتَحَ عُمَرَ بِهِ عَهْدَهُ ، مُسْتَقْلًا فِيهِ بِرَأْيِهِ ، غَيْرَ مُتَأَسِّ فِيهِ بِسَلْفِهِ . وَمَا لَهُمْ يَبْرَمُونَ بِهِ وَتَبِعَهُ ذَلِكَ كَلِمَةً



عليه ، وقد عرفوه رجلاً يضطلع بأجسم التبعات فلا ينوء بحملها ، وكثيراً ما يلهمه الله الرأي فيما ينهض به منها ، فيكون التوفيق رائده ونصيبه !

وجلس عمر يوماً في المسجد وقد فرغ من توجيه المسلمين إلى سياسته ، وقد آن لهم أن ينفذوها . وأقبل عليه أبو عبيد يودّعه ليسير إلى العراق في الجيش الذي اجتمع حول الرأية وأقبل في أثره عدد من الناس غير قليل ، وكلهم يحيون خليفة خليفة رسول الله . وقد وجدوا هذا اللقب ، رغم ترددهم له ، ثقيل النطق ثقيلًا على السمع ، فجعلوا يتحدثون بينهم فيما اختلجت به نفوسهم . وإنهم لكذلك إذ أقبل أحدهم يحيي عمر ويقول : « سلام الله عليك يا أمير المؤمنين <sup>(١)</sup> » . واعتبط الناس لهذا اللقب الجديد حين سمعوه وافترت ثغورهم أمانة رضاهم عنه . ومن يومئذ لم يدع أحد عمر خليفة خليفة رسول الله بل دعاه الناس جميعاً « أمير المؤمنين » . وبقي هذا اللقب له ولمن بعده من خلفاء المسلمين وملوكهم .

<sup>١</sup> والآن وقد سبّنا المثنى إلى العراق فلنسارع لنالحقه به ، ولنزو حديثه حتى يدركنا أبو عبيد بجيشه ، فتكون القيادة العامة له ، ثم يكون له من حسن البلاء ما ينتهي به إلى الغامرة وإلى الاستشهاد .

(١) أورد ابن عسّكر في ( تاريخ دمشق ) روايتين فيمن بدأ بدعوة عمر أمير المؤمنين . أولاً : أن المغيرة بن شعبه هو أول من دعاه بهذا اللقب . والثانية . أن عمر كتب إلى عامله بالعراق أن ابعث لى رجلين جليدين نبيلين أسألهما عن أمر الناس ، فبعث إليهم بعدى بن حاتم الطائي ولييد بن ربيعة . فلما بلغا المدينة أتاها خارا حلتيهما بقاء المسجد ثم دخلاه ، فاستقبلا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين . قال عمرو : فدخلت على عمر فقلت : يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخرجن مما قلت أو لأفعلن : قلت : يا أمير المؤمنين ، بعث عامل العراق بعدى بن حاتم ولييد بن ربيعة . فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت : أئنا والله أسبنا ؟ هو الأمير ونحن المؤمنون « فبقى هذا اللقب لعمر من ذلك اليوم وجرى الكتاب به .

## الفصل السادس

### أبو عبيد والمثنى في العراق

كان أبو عبيد بن مسعود الثقفي أول منتدب للعراق . لذلك ولأه عمر إمارة الجند فيه ، وأمره بالسير إليه متى تم تجهيز جيشه . أما المثنى بن حارثة فعجله عمر وقال له : « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك ! » ، وامتطى المثنى جواده ورجع أحراجه يريد الخيرة . وجعل وهو في طريقه إليها يذكر أياماً خلعت في خلافة أبي بكر ، حين قضى السلام ابن الحضرمي على الردة في البحرين ، فانضم هو إليه وقعد بكل طريق للمرتدين المنهزمين الذين يميئون في الأرض فساداً ، ثم سار مشاطئاً الخليج الفارسي يقاوم دسائس الفرس ، ويقضى على أنصارهم من القبائل حتى بلغ مصب القرات . عند ذلك أمده الصديق بخالد ابن الوليد ، فسار للمثنى تحت لواء القائد العبقرى يدوخ معه جيوش كسرى وتفتض جنودها الأمصار ، وتفتح الخيرة والأنبار وعين التمر وغيرها من البلاد . حتى يبلغ خالد الفراض على تخوم الشام من شمال العراق .

وبستقر الأمر بخالد في أرض الأكرسة ، ويعتبط المثنى بما فتح الله عليهم من ذلك ، وبقيم قواته بالخيرة وبأرض السواد أكثر من سنة ، ثم إذا أبو بكر يأمر خالد بالسير إلى الشام يتولى فيه إمارة الجند لمقاتلة الروم . ويفصل خالد من العراق في عدد من خيرة رجال الجيش فيه ، فيخشي المثنى العاقبة ، ثم يفتح الله عليه فيقهر هرمز جاذويه على أطلال بابل ، ويرتد إلى الخيرة يتحصن بها ، ثم يستمد أبا بكر بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . ويبطئ الخليفة عنه لاشتغاله بأمر الشام ، فبسير المثنى إلى المدينة ، فإذا الصديق مشغولاً على الموت ، ثم إذا الله يختاره إليه ، وإذا عمر يتولى الأمر من بعده ، فيندب الناس مع المثنى ويجعل أبا عبيد على رأسهم .

لم ينس المثنى وهو يذكر هذه الحوادث ما ساد بلاط فارس من الاضطراب أثناءها ، وما أوهم هذا الاضطراب من قوة الفرس وشدة من عزم المسلمين . لقد حكم الأكرسة

الفرس وحكموا عرب العراق حكماً مطلقاً لامعقب لكلمتهم فيه . وكان كسرى أبرويز هو الذي قتل أبا قابوس النعمان بن المنذر وقضى على ملك اللخميّين بالحيرة ، وهو الذي حارب الروم وغلبهم ، وامتد ملكه في أرضهم إلى بيت المقدس وإلى مصر . فلما تولى هِرَقْلُ أسر الروم ، قاتل كسرى وردّه على أعقابهِ . واغتبط العرب واغتبطت الفرس الذين برّموا ببطش كسرى لما حلّ به . فلما ثار به ابنه شيرويه وقتله ، اختلف أمراء الفرس وأنقسم رأيهم فيما أصابه . وصار شيرويه في الفرس سيرة حمق وغرارة جعلت أهل بلاطه يبرمون به ، وجعلت كل طامع في العرش يحالف من الأمراء من يعاونه لبلوغ غرضه . وقتل شيرويه ، فجعل هؤلاء الطامعون يقتتلون فيقتل بعضهم بعضاً ، جهرة حيناً ، وغيلة حيناً ، يتولى صاحب الغلب منهم الأمر شهوراً حتى يُقتل . لذلك تعاقب على العرش في أربع سنين تسعة من الأمراء . لا عجب وذلك هو الأمر أن تضعف قوة الفرس وأن ينهدّ ركنهم ، فتدور الدائرة عليهم في الغزوات التي دارت بين العرب وبينهم .

وتنبّه أهل فارس لما جرّه الاضطراب عليهم من فساد أمرهم فذكروا عليهم شهريران بن أردشير ، وتعاهد أمرؤهم على معاونته . وعرف شهريران مسيرة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام ، فكان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . لكن للثنى قهر قائده على أطلال بابل فخّم قات .

خلفت دُخْتُ زَنان بنت كسرى أباها على العرش . لكنها ضعفت عن النهوض بالأمر فخلفت ، وتولى سابور بن شهريران الملك مكانها . واستوزر سابور القرخزاد ، وأراد أن يزوجه آزر مبدخت بنت كسرى ، فسأها أن يتزوجها بعدها ، فدست عليه سياتوخش الفاتك فقتله في مخدعها ليلة عرسه ، ثم سارت معه في أعوانها إلى سابور فخصرتة وقتلته . ورأى الثنى أن يواجه الفرس وبلاطهم مضطرب ، فاستمد أبا بكر فأبطأ عليه ، فذهب بنفسه إلى المدينة يستعجل المدد . وها هو ذا في طريقه عائداً إلى الحيرة . ترى ألا يزال الفرس في اضطرابهم فلا شيء أيسر من الظفر بهم ؟ أم تراهم اطمأن ملكهم ، فلا بد للظفر بهم من قوات كثيرة العدد والعدة ؟

بانح الثنى الحيرة ، فكان أول سؤاله عما يجري بلاط فارس ، وعلم أنهم شغلوا عن

المسلمين أثناء غيبتة باختلافهم . ثم علم أن بُوران بنته كسرى تعمل على جمع كلتهم .. وكانت بوران أميرة ذات حكمة ، فكان الفرس كما اختلفوا رضوا حكمها واطمأنوا إلى عدلها . فلما قتل سیاوخش الفرّخزاد ، وجاست آزر ميدخت على العرش ، اختلف على فارس ، ورأت بوران أن لاسبيل إلى مصالحتهم . هنالك بعثت إلى القائد رستم بن الفرخزاد من أنباء بمقتل أبيه واستحثه على السير إلى المدائن . وكان رستم حين ذلك على فرج خراسان ، وكان قائداً بارعاً ، فأقبل في جنده مسرعاً يريد المدائن . ولاقى في طريقه إليها جيوشاً لآزر ميدخت فهزمها . ثم حاصر المدائن وحصر آزر ميدخت وسياوخش فيها . وظفر بعدوه فدخل العاصمة ، وقتل سیاوخش ، وقتل آزر ميدخت ، وأقام بوران على عرشها . وتولت بوران السلطان في فارس على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك في آل كسرى : في الرجال منهم إن وجدوا وإلا ففي النساء . واستوزرت بوران رستم ، وأطلقت يده في أمور الدولة ، وجعلته على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسموا له ويطيعوا .

عرف المثنى ذلك كله وهو مقيم بالحيرة لا يستطيع شيئاً إزاءه . لقد نحف جيشه فلم يبق في مقدوره أن يهاجم حتى يجيئه أبو عبيد ، وقد أقام أبو عبيد بالمدينة شهراً بعد المثنى يجهز جيشه ويتجهز للسير به . فلما أتم تجهزه استأذن عمر في السير ، فأذن له بعد أن أعاد عليه النصيح أن يسمع من أصحاب النبي وأن يُشركهم في الأمر ، وأن يشاور سليط ابن قيس الجرائنة وتجربته . وكان لعمر بسليط ثقة ، حتى لقد قال لأبي عبيد : « إنه لم يمنعني أن أوامر سليطاً إلا سرعته في الحرب : وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . والحرب لا يصلحها إلا المسكيت » . وسار أبو عبيد في الجند ، حتى إذا بلغ العراق ألقى المثنى قد انسحب من الحيرة إلى خفان على حدود البادية .

ذلك أن رستم كان رجلاً جريئاً طموحاً ، يثير طموحه إعجاب الفرس وتعلقهم به . وطموحه هذا هو الذي جعل المؤرخين يذكرون أنه كان عالماً بالنجوم ، وأنه رأى فيها مآل فارس . وأنه سئل كيف يتولى أمرها وهو يرى في النجوم ما يرى ، فقال : الطمع وحب الشرف .

وما لبث حين أمّرت بوران أن كتب إلى دهاقين السواد يأمرهم أن يثوروا بالمسلمين .

ودس في كل رستاق رجلاً يثير أهله ، ثم بعث جنداً لمصادمة المثنى . وانتشرت أوامره في الناس ، فنار أهل العراق من أعلاه إلى أسفله بالمسلمين . وبلغ المثنى نبأ ما حدث ، ورأى أن لا قبيلَ لجنوده بلقاء من عبّأهم رستم لمصادمته ، فأثر الحذر وانسحب من الحيرة إلى خفّان حتى لا يؤتّى من خلفه . وأدركه أبو عبيد بخفّان فنزل في الناس ليرميحوا ظهورهم وأقام يتدبّر خطته لمهاجمة القوات التي جاءت تنازله .

كان رستم قد بعث في المدائن جيشين يواجهان المسلمين ، جعل على أحدهما القائد جابان ، وأمره أن يتخطى الفُرات إلى الحيرة ، وجعل على الآخر القائد نرسي وأمره أن يعسكر بكسّكر بين الفرات ودجلة ، وكان أبو عبيد قد خرج من المدينة في أربعة آلاف ثم اجتمع إليه في الطريق عدد عظيم زاد جنده إلى عشرة آلاف . فلما جمّ الناس خرج يلقي جابان ، فالتقيا بمكان يقال له التمارق بين الحيرة والقادسية . والتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً أظفر الله فيه أبا عبيد بجابان وجنوده . وأسر جابان ، أسر قائد تحت إمرته يدعى مرد انشاء ، وقتل هذا الأخير من أسره . أما جابان ، كان شيخاً كبيراً ، فخدع الذي أسره إذ قال له : « إنكم معشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمّني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وأعطيك كذا وكذا . . . » وأجزل له الوعد . قال أسره ؛ نعم قال : فأدخلني على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه ، فأدخله على أبي عبيد فشهد على ماتم . على أن قوماً من المسلمين عرفوه وقالوا لأبي عبيد . أقتله فإنه الأمير . وأجابهم أبو عبيد : « وإن كان الأمير ، فإنني لا أقتله وقد أتمته رجل من المسلمين : فالمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد ، مالزم بعضهم فقد لزمهم كلهم » .

عرفت بوران ماحل بجابان ، وعرفه رستم ، فأمر الجالينوس أن يسير لنصرة زملائه وأن يلحق نرسي بكسّكر . وفضل الجالينوس يعدّ السير إلى غابته ؛ لكن أبا عبيد كان أسرع منه سيراً . فإنه مالبث حين هزم جابان أن أمر جنده بالسير لمواجهة نرسي . ولاقوه والمنهزمين الذين فروا إليه من التمارق بمكان يدعى السقاطية على مقربة من كسّكر ، وذلك قبل أن يصله الجالينوس ، ولم يثبت نرسي للمسلمين أكثر مما ثبت جابان ، ففر من جنده تاركا لعدوه مغنم كثيرة . وعرف أبو عبيد أن الجالينوس في جنده

قد بلغ قرية بأرُسْمًا فواجهه وهزمه ، ففر كما فر نرسی في النهزمين حتى بلغوا المدائن .  
 ووجه أبو عبيد قواده ، والمثنى في مقدمتهم ، فاحتلوا سواد العراق من أعلاه إلى  
 أسفله ، وأذاعوا الرعب في الناس ، وأعادوا إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد وفعاله .  
 ورجع الدهاقين إلى أنى عبيد يصلحونه ويعتذرون عما كان منهم في مملأة الفرس على  
 العرب ، ويذكرون أنهم غلبوا على أمرهم ، فلم يكن لهم فيما حدث نهى ولا أمر . ولما  
 أتم أبو عبيد الصلح معهم جاءوه بآنية فيها ألوان من طعام فارس الشهى وقالوا : هذا  
 قرى لك وكرامة أكرمناك بها . قال : أكرمتم الجند بمثله وقريرتموهم ؟ ! قالوا : لا !  
 فردّه وقال . « لا حاجة لنا فيه ! بئس المرء أبو عبيد إن صحب قومًا من بلادهم وأهراقوا  
 دماءهم درنه ، أو لم يهريقوها . فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ! لا والله لا يأكل مما أفاء الله  
 عليهم إلا مثلما يأكل أوساطهم ! » . ولم يأكل من طعام أتى به الدهاقين غداة ذلك  
 اليوم حتى علم أنهم قربوا مثله لأصحابه .

أفاء الله على المسلمين بعد غزوة السقاطية مغنم كثيرة ، بينها من الأطعمة مقادير  
 عظيمة ، فلم يفرحوا منها بشيء فرحهم بلون من التمر يدعى الترسيان كان ملوك فارس  
 يحبونه . وقد اقتسموه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفلاحين . ثم بعثوا بخمسة إلى غمر بالمدينة  
 وكتبوا له : « إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحبونها . وأحببنا أن تروها  
 لتذكروا إنعام الله وإفضاله » .

وعاد المثنى ودخل الحيرة واستقرّ بها وكله الرجاء أن يستتب له الأمر فيها كما استتب  
 لخالد بن الوليد من قبل ، فقد ظل خالد بها سنة كاملة لم يجرؤ جيش من جيوش فارس  
 على التصدي له أثناءها ، ترى أيواتي الحظ المثنى ما واني خالداً ، فيقيم بالحيرة زمناً ثم يفتح  
 المدائن ؟ كان ذلك كل أملة ، كان له في تحقيقه أكبر الرجاء .

لكن أملة سرعان ما ذوى . فقد عظم على رستم ، وفيه من الطموح والكبرياء  
 ما ذكرنا أن تنهزم جيوش فارس أمام هؤلاء الأجلاف من العرب ، فسأل خاصته :  
 « أى العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » : وأجابوه : « إنه ذو الحاجب بهمن جاذويه  
 فدعاه إليه ووجهه على قوة عظيمة ، ورد الجالينوس معه وقال له : إن عاد لثمل ما فعل

فأضرب عنقه، وليظهر للناس مبلغ عنايته بالموقف وحرص على رفع ما أنزل المسلمون بجند فارس، جعل في مقدمة الجيش راية كسرى، وكانت من جلود النمر، عرّضها ثمانى أذرع وطولها اثنتا عشرة ذراعاً؛ وسار بهم من المدائن يقصد مواجهة عدوه والقضاء عليه.

وتراجع أبو عبيد وجنوده إلى قرية قس الناطف، فعبروا النهر إليها، وتحصنوا ينتظرون عدوهم بها. وأقبل بهم عليهم فلم يكن إلا النهر بينه وبينهم، ثم بعث إلى أبي عبيد يقول له: «إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبّر إليكم». وأشار أصحاب أبي عبيد ألا يعبر، وأن يدع الفرس يعبرون. لكن أبا عبيد أخذته العزة فقال: «لا يكونوا أجراً على الموت منا، بل نعبّر إليهم!». فناشده سليط بن قيس ووجوه الناس وقالوا: «إن العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا، وإنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزهراء والعدّة بما لم يلقنا به أحد، وقد نزلت منزلنا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرّة إلى كربة». فقال: «لا أفعل! جبتُ والله إذا!» وجبن سليطاً، فردّ عليه سليط بقوله: «أنا والله أجراً منك نفساً، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم». من عجب أن يقف أبو عبيد من أصحابه هذا الموقف، وأن ينسى نصيحة عمر إياه أن يستشير أصحاب رسول الله، وأن يشرّكهم في الرأى معه، وأن يقيم لرأى سليط وزنه. وأعجب من ذلك أن ينسى قول عمر: «إنك تقدّم على أرض المكر والخديعة والخيانة. تقدّم على قوم قد جرهوا على الشر فعلوه، وتناسوا الخير مجلوه»؛ والأيدى كران الخليفة أمره ولم يؤمّر سليطاً لأن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث، وسليط سريع إلى الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان. لكنها الأقدار تُنسى البصير بصره، والحكيم حكيمته. ومن يدري! فاعلم مشورة سليط بالأى يعبر المسلمون النهر إلى الفرس زادت أبا عبيد عناداً وتشبثاً برأيه. ولذلك أمر جنوده بالعبور فعبروا من المروحة حيث تحصنوا، إلى قس الناطف حيث أقام الفرس، وعبر سليط بن قيس في مقدمة العابرين. كان جند المسلمين دون عشرة الآلاف. مع ذلك ضاق بهم المسكان الذي تركه لهم الفرس وراء الجسر، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرّة إلى كربة. ولم يمهلم بهم حين تمّ عبورهم أن أمر جنوده فحملوا عليهم، وفي مقدمتهم الفيلة عليها الجلاجل. ونظرت خيول

المسلمين إلى هذه القبيلة وسمعت رنين جلاجلها ، فأنكرت ما رأت وما سمعت ، وفرت فلم يثبت منها إلا القليل على كره . ورشق الفرس المسامين بالنبل فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وحزّ الألم في نفوس المسلمين لما أصابهم وألا يصلوا إلى عدوهم . ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تضطرب ؛ فترجّل وترجّل جنوده ، ومشوا إلى الفرس فصاحوهم بالسيوف . فقتلوا منهم ستة آلاف ، فاشتد بذلك ساعدهم . لكن القبيلة تقدّمت إليهم فجعلت لا تحمل على جماعة إلا دفتهم . ونادى أبو عبيد رجاله أن يقطعوا بطنَ هودج القبيلة وأن يقبلوا عنها أهلها وأن يقتلوه ، ففعلوا فلم يتركوا فيلاً إلا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه . بذلك تداول الفريقان التقدّم والتراجع ، فكانت المعركة سجّالاً بينهما ساعات من النهار . كان أبو عبيد شديد الحرص على أن ينتصر ذلك اليوم . وزاده حرصاً ما كان من مخالفته سليط بن قيس والذين أشاروا عليه ألا يهبر الجسر إلى عدوّه . فلو أن النصر تم للفرس لركبه عار الهزيمة وحده ، ولكان هذا العار مسبة الدهر له . لذلك كان مضطرب النفس تتداوله الانفعالات كلما تغير مصير المعركة : يغتبط ما رأى الفرس يتراجعون ، فإذا تقدموا ملكته خشية العار ودفعته للمعاصرة وقد اطمأن حين قلب جنوده عن القبيلة أهلها فلم يبق عليها من يقودها لكنه رأى على مقربة منه فيلاً أبيض عظيمًا يضرب بحرطومه يمنة ويسرة فيشنت المسامين من حوله ، وكأنه بطل نارع يعرف مواقع ضرباته . وأيقن أبو عبيد أن قتل هذا الفيل بقوى روح المسامين ويضع روح الفرس ، فتقدم إليه فصر بحرطومه سيفه وهاج حر الضربة هاجح الفيل ، فتقدّم إلى أبي عبيد فضربه برجله فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهق روحه . وكان أبو عبيد قد أوصى إن مات أن يتأمّر مكانه على التعاقب سبعة من قومه بني ثقيف سمّاهم بأسمائهم . فلما رأى أوّلم ما حلّ بأبيه أحد اللواء مكانه ، وقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد ، فجزّ جثته إلى المسلمين ثم عاد بحول قتل الفيل ، لكنه لقي حتفه كما لقي أبو عبيد حتفه . وتتابع الثقيفون السبعة كل منهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يموت<sup>(١)</sup> . عند ذلك خشعت أنفس

(١) ذكر الطلحي وغيره من المؤرخين أن دومة امرأة عبيد كانت معه بالروحة ، وأنها رأت في منامها أن رجلاً نزل من السماء ياء فيه شراب من الجنة ، فشرب منه أبو عبيد وجماعة من أصحابه الثقيفون وقصت دومة الرؤيا على زوجها فقال : هي الشهادة . وأوصى ابن يخلفه على قيادة الجيش .



للناس وضعفت روحهم ، وارتد كثيرون منهم إلى الجسر يبتغون النجاة بأنفسهم . وما بقاؤهم  
أما جيش لا قبيل لهم به ، وقد مات أمراؤهم فاختلف نظامهم واضطربت صفوفهم ! .  
ورأى المثنى دقة الموقف فتقدم إلى اللواء فحمله . وهو لم يكن يطمع في أن يقاتل  
وينتصر بعد الذي أصاب المسلمين ، إنما كان يرجو أن يرتد بهم في نظام فيعبر النهر إلى  
الروحة ، ثم يرى بعد ذلك رأيه . ولأنه ليدبر الخطة للتراجع إذ رأى عبد الله بن مرثد  
الثقفي يقطع الزوارق الأولى من الجسر ، وبصيح بأعلى صوته : « أيها الناس ! موتوا  
على ما مات عليه أمراؤكم أو نظفروا » . ورأى الناس ما فعل ابن مرثد ، فتولاهم الفرع  
فتواثبوا في النهر ، ففرق منهم من لم يصبر . وخشى المثنى أن تم الفوضى ، فوقف اللواء  
بيده ينادى : « يا أيها الناس ! أنا دونكم ، فاعبروا على هيئاتكم ولا تدهشوا ، فإننا لن نزال  
حتى نراكم من ذلك الجانب ! » وأمر فجىء ابن مرثد فضربه وضمت السفينة التي  
قُطعت فصالح الجسر ، فبدأ الناس يعبرون مرتدين ، والمثنى يقاتل دونهم ، ويحول هو  
ورجاله بين الفرس وبينهم . وأصاب المثنى وهو في موقفه ذلك ضربة رمح جرحته وأثبتت  
فيه حلقة من درعه . وقاتل معه أبو زيد الطائي النصراني دفاعاً عن المسلمين . ولم يكن  
سليط بن قيس دون المثنى إقداماً وجرأة . بذلك استطاع من بقي من جند المسلمين أن  
يعبروا إلى الروحة والمثنى واقف دونهم لم يعزعه ذلك الجراح الذي أصابه . فلما رأى المثنى  
عبور أصحابه جميعاً سار في مؤخرتهم ، تاركاً وراءه سليط بن قيس شهيداً ، يخطاط دمه بتراب  
ذلك الميدان الذي تردد في أوف من أبطال المسلمين .

ترى أيعبر بهم من جادويه النهر وراءهم فيقتلهم عن آخرهم ويعتق في أرض العراق على  
كل أثر للمسلمين ؟ أم يكتفي بهذا النصر الحاسم وله به عند رستم وبوران والفرس جميعاً  
نخار لم يتخ لغيره من القواد مثله ؟ !

لم يغب عن المثنى أن ذا الحاجب قد يتعقبه ؛ لذلك انحدر مسرعاً بجنوده من  
الروحة إلى الحيرة ، ثم تابع انحداره إلى الجنوب يريد أليس ، وهو يحسب لمتعقبه ألف  
حساب . وكيف لا يفعل وقد قُتل من جند المسلمين في الواقعة من قتل وغرق منهم  
في الفرات من غرق ، وفر ألفان من أهل المدينة يريدون النجاة بأنفسهم ! لكن الأقدار

التي غشّت على بصراً أبي عبيد فدفعته ليعبر الجسر فلبقى حثفه ، ويورد المسلمون موارد الهلكة ، كانت أبره بالمشنى ورافق . فقد بلغ ذا الحاجب والمركة دائرة أن الفرس بالمداين اختلفوا فرقتين ، إحداهما مع رسم ، والأخرى مع القيزان تناصب رسم العداوة . لذلك عاد بالجيش إلى العاصمة ، ولم يتخلف من قواده إلا جابان ومردانشاه في كتيبة من الجنود . وسار هذان القائدان يتعقبان المثنى وهما يحسبان أنهما قادران عليه . لكن أهل أليس أخبروا المثنى بما تراه إليهم عن بلاط فارس ، فخرج في رجاله وفي عدد كبير من أهل أليس ، فأسروا جابان ومردانشاه وأصحابهما ، وضرب أعناقهم جميعاً . وكذلك لقي جابان حظه جزاء خُدعه أبا عبيد يوم أسر بالمارق فاستأمن أسرته فأمنه . أما وقد غدر جابان فرجع يقاتل المسلمين ويخفّر ذمتهم ، فقتله بعد أسره هو المدلل بعينه .

كان أول من قدم المدينة من المسلمين الذين شهدوا غزوة الجسر عبد الله بن زيد . ولقد رآه عمر بن الخطاب حين دخل المسجد فناداه : ما عندك يا عبد الله ؟ وسار عبد الله وألقى الخبر عليه فلم يُبدِ جزءاً ، بل تلقاه ساكناً . ودخل بعض الذين فروا من الغزاة إلى المدينة منكسّين رؤوسهم خزيًا من عار الهزيمة والفرار . أما سائرهم فنزلوا البوادي حياءً أن يلقوا أهلهم فيمربوهم فرارهم وجبنهم . ورأى عمر حالم فرّق لهم ورحمهم ، وجعل يدفع عنهم برّ الناس بهم وسخطهم عليهم ، فكان يقول : « اللهم كل مسلم في حلّ مني ! أنا فنة كل مسلم . من لقي العدو ففطّغ بشيء من أمره فأنا له فنة . يا معشر المسلمين لا تجزعوا ! أنا فنتكم وإنما انحزتم إلى . يرحم الله أبا عبيد ! لو كان انحاز إلى لسكنت له فنة » . وكان معاذ القاريء أخو بني النجّار ممن فروا من الجسر إلى المدينة ، وكان يبكي كلما قرأ قوله تعالى : ( وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ) . فكان عمر يقول له : « لا تبك يا معاذ ! أنا فنتك ، وإنما انحزت إلى » .

يذكرنا موقف عمر من هؤلاء الذين فروا مرتدين إلى المدينة بعد هزيمتهم بالجسر بموقف رسول الله من الجنود المسلمين الذين عادوا غزوة مؤتة بعد إذ قتل قوادهم فيها ، فداور خالد بن الوليد بمن بقي منهم وارتدّ بهم إلى المدينة غير منتصر على عدوة . فقد جعل

أهل المدينة يَحْتُونُ على هذا الجيش التراب ويقولون : « يا فُرَّاراً فررتم في سبيل الله ا . »  
 فيقول رسول الله : « ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّارُ إن شاء الله . » ولم يكن ارتداد  
 المسلمين بمؤتة كهزيمتهم بالجسر فظاعة وسوء أثر ، ولم يكن عمر كرسول الله رحمة ورقة .  
 مع ذلك كان رءوفاً بمن نُكِبوا في الجسر ، بل كان فتنهم ؛ وقف في جانبهم ودافع عنهم ،  
 وأبدى من العطف عليهم ما سكن من روعهم وخفف من عار هزيمتهم . ولا عجب ، وقد  
 صارت إليه إمارة المؤمنين ، أن يكون بالمومنين رحياً ، فيكون أبرَّهم بهم ، وأشدَّهم عطفاً  
 على الضعفاء منهم ، وإن ظلَّ شديد البأس على الأقوياء ، شديد البطش بالظالمين .

كان هذا شأن عمر ومن ارتدوا من الجسر . أمَّا المثنى فتحصَّن بأليس زمناً بعد أن  
 قتل جابان ومردانشاه وجنودهما . فلما أراح ظهره وجثم جنوده ، جعل يفكر في موقفه  
 بالعراق ومصير المسلمين فيه . إنه موقف حَرَجٌ لا ريب . ومتى اطمأن الأمر في بلاط  
 المدائن فستعود الجنود متراسمة تتقدمها الفيلة لتهاجمه . فإذا يصنع يومئذ ؟ أفكتب القدر  
 في لوحة أن يعود سلطان الأ كاسرة إلى ما كان عليه ؟ إن يكن ذلك قضاء الله فلم يعد له  
 ولا لجنده بالعراق بقاء ، وليس في وسعه إلا أن ينسحب كما انسحب الذين فرَّوا إلى  
 المدينة ، وأن يعود إلى أرض قومه بنى بكر بن وائل يقضى بالبحرين بقية أيامه .

لكنه المثنى الذي قال عنه قيس بن عاصم المُنْقَرِيُّ حين سأل أبو بكر عنه : « هذا  
 رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العمد هذا المثنى بن حارثة الشيباني ا »  
 وقد كان له مواقف بالعراق ليست دون موقفه اليوم حرجاً ولا دقة . كان له مثل هذا  
 الموقف أوَّل ما جاء من البحرين إلى دلتا النهرين ، وذلك قبل أن يُمدَّه أبو بكر بخالد  
 ابن الوليد . وكان موقفه أكثر دقة يوم فصل خالد من العراق إلى الشام لينسى الروم  
 وسائس الشيطان . رجلٌ ذلك شأنه ليس بالذي يستسلم أو يُلقى بيديه مخافة ما تكنه  
 الأقدار في حُجُب الغيب ، وإنما هو قوة تُلقِي بها الأقدار لتوجيه مصائر العالم . فليعالج  
 الفسكة بما عُرِف عنه من دقة القائد الصبور الحَمَك ، وليستمد الخليفة فهو لا ريب  
 مُمدَّه . والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيبث .

وكذلك وقف المثنى جُلداً جريئاً ، يواجه الأيام السود التي أعقبت غزوة الجسر

وكأذت تعقَى على سلطان المسلمين بالعراق . ولم يكتفِ بأن بعث إلى عمر يطلب المدد؛ فجىء الجند من المدينة يقتضى زمناً قد يواثبه الفرس فيه . بل بعث فيمن يليه من قبائل العرب ، فتوافوا إليه في جمع عظيم ، بينهم نصارى بنى النمر الذين قالوا : نقاتل مع قومنا . ونقل عسكره من أليس إلى مرج السبخ بين القادسية وحفان ليكون على مقربة من تخوم العرب ، يلجأ إليهم إذا غلبه الفرس ، ويلقى عندهم مدداً جديداً إذا غلب الفرس وما كان أشدَّ حاجته إلى المدد ليتابع ظفروه ! وفي مرج السبخ اجتمع إلى عسكره عدد عظيم من الجند اطمان له ، فأقام فيهم ينتظر ما الله فاعل بالفرس وبه .

لم يكن عمر بن الخطاب دون المثنى قلقاً على موقف المسلمين بالعراق بعد غزوة الجسر ولم يغب عنه أن المثنى بحاجة إلى مدد سريع يواجه به هذا الموقف الدقيق . وكان العرب يفتدون إلى المدينة من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة مليئين نداء الخليفة : منذ رفع الخطر عن ظهرت توبتهم من أهل الردة . فندبهم عمر إلى العراق ، فجمعوا يتحامونه ويتناقلون عنه . ويبدون الرغبة في الشخوص إلى الشام والاشتراك في غزوه . لكن خالد بن الوليد كان قد ظفر بالروم في الشام حين لاقوه على اليرموك ، فلم يكن به من حاجة إلى مدد . لذلك لم يرضَ عمر أن يُشخصهم إلى الشام ، ولم يرغب أحد في الشخوص إلى العراق ، وكان جرير بن عبد الله البجلي قدِم على أبي بكر في خلافته ، فذكر عِدَّة له من رسول الله أن يجمع بنى بجيلة وكانوا مشتتين في القبائل ، فردّه أبو بكر وقال له : « ترى شغلنا وما نحن فيه بقوَّة المسلمين ممن يازأهم من الأسدَّين فارس والروم ، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يُغنى عما هو أرضى الله ورسوله ! دعني وسِرْ نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين ! » . فلما ولي عمر أعاد عليه جرير عِدَّة رسول الله ، وأقام عليها البيئته . فكتب عمر إلى عماله ، فجمعوا بنى بجيلة في صعيد واحد . فلما اجتمعوا قال عمر لجرير : « أخرج حتى تلحق بالمثنى » . فقال جرير : « بل الشام فإن أسلافنا بها » وأردف عمر : « بل العراق فإن الشام في كفاية » . ولم يزل عمر يبنى بجيلة وهم يأبون عليه حتى جعل لهم الربع في خمس ما بئى الله على المسلمين يضاف إلى نصيبهم من الفى . عند ذلك رضوا الذهاب إلى العراق وعليهم جرير . ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة فخذوا

حذوهم ، وكان الذين فرّوا من غزوة الجسر في مقدّمتهم ، ثم تابهم بنو الأزدي وعليهم  
عَرَفَجَة بن هَرَمَةَ ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ؛ وخلق كثير من مختلف القبائل .  
وتحمّل الناس جميعاً ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، وساروا يريدون العراق ينضمون إلى جنده  
ويمدون الثني فيه .

هذا موقف عمر بالمدينة ، وذلك موقف الثني بالعراق ، فإذا كان موقف الفرس  
بالمدائن ؟ ترامت إليهم أنباء الأمداد التي تسير تبعاً إلى العراق ، فهالهم أمرها وأدركوا  
الخطر عليهم منها ، فقسم رستم والفيروزان السلطان بينهما ، وجعا جنداً عظيماً جعلاً عليه  
القائد مهران المهذاني ، وأمراه أن يسرع السير للقاء هؤلاء الغزاة المسلمين . وسارت هذه  
القوات تتقدّمها الفيلة ، ومهران أحرص الناس على أن يُحرز نصراً ينسى الفرس نصر  
ذي الحجاب في غزوة الجسر . وعرف الثني مسيرة هذا الجيش وهو في عسكره برج السباخ ،  
فأرسل إلى جرير بن عبد الله وإلى غيره من الأمراء الذين جاءوا يمدونه يقول : « إنا جاءنا  
أمر لم نستطع منه القيام حتى تقدّموا علينا ، فعجّلوا للحاق بنا وموعدكم البُوب (١) » .  
ثم سار بقواته حتى انتهى إلى البويب على شاطئ الفرات حيث وافاه جند المسلمين  
جميعاً . وسار مهران كذلك بقواته حتى كان قبالة المسلمين لا يفصل بينهما إلى النهر .

أجال الثني بصره في قواته فاطمأن . فائز لم يكن فيها من الفيلة مثل ما للفرس ،  
إنها لتمثل عن انضم إليها من الأمداد قوات العرب جميعاً في شبه الجزيرة وخارج شبه  
الجزيرة ؛ ففيها أولئك الذين استمدّهم الثني وهو باليس فأمدوه . وفيها بجيلة والأزد  
وكنانة وغيرها من قبائل العرب الذين أجابوا نداء عمر ، وفيها من بني النمر نصارى قدّموا  
مع أنس بن هلال وجلاب جلبوا خيلاً . وفيها من تغلب نصارى جاءوا مع ابن مردّ  
الفهر التغلبي وجلاب جلبوا خيلاً . وفيها غير بني النمر وبنو تغلب رجال من قبائل عربية  
أخرى مقيمة بالعراق . هؤلاء جميعاً رأوا موقف العرب من العجم فقالوا : نقاتل مع  
قومنا . وكذلك جمعت رابطة الجنس إلى جيش المسلمين عدداً غير قليل من نصارى  
العراق وقفوا جانبهم وحاربوا في صفوفهم .

(١) البوب : موضع يلي موضع السكوفة اليوم .

وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبث إليكم » . ولم يكن المثنى قد نسي ما أصاب أبا عبيد حين عبر النهر يلقي ذا الحاجب . وكان عمر قد أهاب به بعد غزوة الجسر ألا يعبر نهراً قبل أن يتم له النصر . لذلك بعث إلى مهران أن اعبروا أتم . وعبر الفرس إلى البويب وتعبثوا في صفوف ثلاثة مع كل صف فيل . وخرج المثنى على فرسه الشَّمُوس ، وكان لا يركبه إلا للقتال ، فإذا فرغ من القتال ودَّعه . وكان الفرس يدعى الشموس للين عربيته . وطاف المثنى راكباً في صفوفه يمهّد إليهم عهده ويحضهم ويأمرهم بأمره ويحرضهم ويهزّم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم رايةً رايةً يقول : « إني لأرجو ألا توتى العرب من قبلكم . والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم » . فكانوا يجيئون به بمثل قوله . وإذا كان الشهر رمضان فقد نادى المسلمين : « أيها الناس إنكم صُومَوا والصوم مَرَقَةٌ وَمَضَعْفَةٌ . وإني أرى من الرأى أن تفتطروا فتفتقروا بالطعام على عدوكم » . وأجابه الناس إلى ما طلب فأفطروا . وسمع المثنى من جانب الفرس زجلاً يرددونه وهم يقتربون ، فقال : « إن الذي تسمعون فشل ، فالزموا الصمت وأتمروا همساً » . وجعل الناس يستمعون إلى المثنى وهو يتحدث إليهم منصفاً إياهم جميعاً ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً أو فعلاً ، بل ازدادوا له حباً وبه تعلقاً . فلما قال لهم : « إني مكبرٌ ثلاثاً فتهيشوا ثم احموا مع الرابعة » ، تهبأت الرايات جميعاً تنتظر الشدة على العدو وهي أشد ماتكون اغتباطاً بلقائه وحرصاً على الظفر به . ولم يكد المثنى يكبراً أول تكبيرة حتى أعجل الفرس العربَ وعاجلوهم فشدوا عليهم . واختلت لشدّة الفرس بعض صفوف المسلمين من بني عجل ؛ فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » . واعتدل بنو عجل وشدوا مع سائر الجند على الفرس ، فأعادت شدتهم للصفوف نظامها . واشتبك الفريقان في قتال دام ساعات أعنف قتال . ورأى المثنى أن المعركة تترجح حامية الوطيس بين الفريقين ، وأنها تؤذن أن تطول ، ففكر في الوسيلة التي يكفل بها النصر للعرب ؛ وذلك بأن يحمل على قائد الفرس فيزيله عن مكانه أو يقتله . ولينفذ عزمه دعا إليه أنس ابن هلال النيمري ثم دعا ابن مردى النهري التغلبي ، وقال لكل منهما : « إنك امرؤ

عربي وإن لم تكن في دبننا ، فإذا رأيتني قد حملت على مهران فأحمل معي . » وحمل  
 المثني على مهران حملة صادقة فأزاله حتى دخل في ميمنته . وأرى الفرس ما حدث فاندفعوا  
 يحمون قائدهم ، فاجتمع القلبان وثار النقع ، فلا يعرف أى الفريقين لمن منهما الغلب .  
 وانكشف الغبار لحظة رأى المسلمون فيها تراجع قلب الفرس ، فحملت عليهم الميمنة  
 والميسرة فدفعوهم إلى ناحية النهر يبتغون النجاة . والمثني أثناء ذلك يجرض جنده ويرسل  
 إليهم من يقول لهم : « عادانكم في أمثالهم . أنصروا الله ينفركم » فيزداد المسلمون حماسة  
 وشدة على العدو وضرباً في صميمه .

ولم يطق الفرس أن يثبتوا لهذا البأس فانهزموا وانقلبوا يولون الأدبار ، يريدون أن  
 يعبروا الجسر . فلما رأى المثني انهزامهم سابقهم إلى الجسر وسبقهم إليه وردّهم عنه ،  
 فازداد اضطرابهم ، فتفرقوا تصدّد جماعة على شاطئ النهر وتصوّب أخرى . وحصرهم  
 فرسان المسلمين وهم في اضطرابهم فقتلوهم شرقتلة . وبلغ من فزع الفرس وهم على هذه  
 الحال أن كان الرجل من المسلمين يقتل عدة منهم فلا يرتد إليه أحد يحاول قتله ، حتى  
 لقد سمى يوم البويب هذا يوم الأعشار ؛ لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل  
 واحد منهم عشرة من الفرس في المعركة .

وظل المسلمون يتعمقون الفائلة من عدوهم يُعمنون فيهم قتلاً إلى الليل ، فلما أصبحوا  
 عادوا يتعمقونهم كرةً أخرى إلى الليل . بذلك أزهق في البويب من الأرواح أكثر مما  
 أزهق في أية غزوة أخرى ، فكانوا يحزرون قتل الفرس بمائة ألف ، بقيت جثثهم صرعى  
 طريحة في الميدان حتى بليت وصارت عظاماً ، ثم بقيت دهنراً طويلاً لم تدفن إلا بعد  
 بناء الكوفة ، ثم عفي عليها التراب أزمان الفتنة .

انتصر المسلمون بالبويب كما ترى نصراً مبيناً . وكان اجتماع الناس على محبة المثني  
 من أسباب ذلك النصر ، بل كان أحلّ هذه الأسباب وأعظمها . لقد رأوه يخوض الغمار  
 قوى اليقين جرّاء الجنان ، ففعلوا فعله واستبسوا استبساله ، فنصرهم الله . وكان الذين  
 فروا من الزحف يوم الجسر يقاتلون لا يبالون الموت يريدون أن يتطهروا من عار هزيمتهم ،  
 فيينا كان المثني يعدّل الصفوف للمعركة رأى أحدهم يتقدّم صفّه مندفعاً نحو الفرس

مستقتلا ، ففرعه بالرمح وقال له : « لا أبالك !. إلزم موقفك ، فإذا أتاك قرينك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » . وأجاب الرجل : « إني بذلك لجدير » ، واستقر ولزم الصف . وكان لسائر القواد والجنود مواقف بطولة تسجل بمداد الفخر . لما حى وطيس المعركة اندفع مسعود بن حارثة أخو المثنى يخوض غمارها ، فصرع قبل أن ينهزم الفرس فتضعض من معه ، فرأى ذلك وهو ذئف فقال : « يامعشر بكر بن وائل ! ارفعوا رايكم رفعكم الله ! لا يهولتكم مصرعي » . وكان قبل أن يصاب قد قال لهم : إني رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أتم فيه ؛ فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف . إزموا مصافكم وأغفوا غناء من يليكم » . وقاتل أنس بن هلال النمرى النصراني حتى قتل . وحمل غلام نصراني من التغلبيين على مهرا ن قتلته واستولى على فرسه ثم انتحى يترنم بقوله : « أنا الغلام التغلبي » . أنا قتلت للرزبان » . ولما سبق المثنى الفرس إلى الجسر فمنعهم من عبوره حاز عرفجة ابن هرثة كتيبة منهم إلى الغرات . فلما أخرجوا كروا على عرفجة ورجاله وقاتلوهم قتال المستميت ونالوا منهم . فقال رجل لعرفجة : « لو أخرت رايك ! » فكان جواب ابن هرثة : « على إقدامها » ، وحمل بها على الفرس فوثقوا نحو الغرات ، فلما بلغه منهم أحد حيا ، وجرح من أعلام المسلمين يومئذ وقتل عدد غير قليل ، كما جرح وقتل مثلهم من بني النمر وبني تغلب وغيرهم من عرب العراق . لكن النصر توج استشهادهم فأبقى على التاريخ ذكرهم ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وانتهت المعركة ، فضم المثنى أخاه مسعودا وأنس بن هلال النصراني إليه ، وتوجع لما أصابهما ، لم يفرق اختلاف دينهما من وجدته عليهما . ثم صلى على من استشهد من المسلمين وقال : « والله إنه ليهون على وجدى أن شهيدا البويب . أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم يتكأوا ، وفي الشهادة كفارة » .

وجلس المسلمون أمسية فراغهم من المعركة مقتبطين يسمرؤن . قال المثنى : « قاتلت العرب والمعجم في الجاهلية والإسلام . والله لمائة من المعجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم أشد على من ألف من المعجم إن الله أذهب بأبهم ووهن كيدهم ، فلا يروعكم زهاء تروته ، ولا قيسى فيج ولا نبال



طِوال ؛ فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالمهائم أينا وجهتهموها أتجحف » وذكّر بعضهم أخذ المثنى الجسر على الفرس وما أدى ذلك إليه من إفناء جيشهم ، فلم يدع المثنى المتحدث بلسنرسل في حديثه ، بل أنكر صنيع نفسه في ذلك وأظهر الندم عليه وقال : « لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر حتى أخرجتهم ؛ فإني غير عائد فلا تمدوا ولا تقتدوني ، أيها الناس ، فإنها كانت منى زلة . لا ينبغي إخراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع » .

وهذه العبارة من القائد المنتصر في معركة عظيمة أزالته عن المسلمين عار معركة الجسر ، تشهد بشجاعة المثنى وصراحته في الحكم على نفسه ، كشجاعته في قيادة المعارك وخوض غمارها . فلو أنه كان ممن يزدهيهم الفخر ويلعب بلعبهم إعجاب الناس بهم لما قال منها كلمة . لكنه رأى الفرس الذين ارتدوا عن الجسر يقتلون من المسلمين ويستमितون يريدون الثأر منهم ، فأسف لموت من مات من جنوده . وندم على فعلته ، وقدّر ما ربما كان يترتب على استماتة عدوه من انقلاب كفة النصر ، ثم كان جريئاً في إعلان خطئه حتى لا يقع في مثله غيره .

غنم المسلمون في البويب مغنم كثيرة ، وأصابوا بقرأ وغنماً ودقيماً ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن على تخوم شبه الجزيرة ، وإلى عيالات من أقاموا بالبحيرة ممن سبق إلى العراق في الأيام التي خلت قبل البويب والجسر . ورأى النسوة اللاتي أقمن على تخوم شبه الجزيرة إقبال الخيل عليهن تحمل الميرة ، فحسبها غارة ، فقمعن دون الصبيان بالحجارة والعمد . فقال عمرو بن عبد المسيح وكان مع القافلة: « هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش ! » . واستأمن الرجال النساء وبشروهن بالفتح ودفعوا إليهن ما جاوا به ، وقالوا : هذا أول المغنم .

وأمر المثنى القواد والرجال فانطلقوا في السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن وجيوش الفرس تفرّت أمامهم فرار النعام لا تمنعهم من شيء ولا تمنع منهم أحداً . وانطلق المثنى بدوره فغزا الخفافس والأنبار أيام سوقهما ، فنال منهما ما شاء الله أن ينال من المغنم وبلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد وبلغوا تكريت ، وجعلوا كلما غزوا يقتلون

المقاتلة ويسبون الذرية ويستاقون الأموال ، حتى كان لهم من ذلك ما لا يحصى . بذلك دان لهم العراق كله كرامة أخرى . وقسم المثنى النية على الناس ، وفضل أهل البلاء من جميع القبائل ، ونقل بجيلة ربع الخمس تنفيذاً لعهد عمر ، ثم بعث بثلاثة أرباعه إلى أمير المؤمنين بالمدينة .

استتب الأمر للمثنى كما استتب من قبل لخالد بن الوليد ، فانتشر المسلمون في سواد العراق ينالون من رزقه وينعمون بخيراته . وأقام المثنى بالحيرة يفكر فيمن أفنت هذه الموقعة الضروس من جند المسلمين ، وفي الوسيلة لتمييز الجيش بمن يقوم مقامهم فيه . ولعله لم يكن يستعجل المدد . فقد استولى الرعب على نفوس الفرس بعد ما كرتهم البويب ، حتى لقد خيل إليه أن لا قيام لهم بعدها ، وأن خلافتهم بالمدائن سيشتد على أثرها ، وأن الثورة ستشب بسبب هذا الخلاف في كل أرجاء فارس فتوهن أمرها وتزعزع نظامها .

جدير بنا أن ندع المثنى يفكر في موقفه ، وأن نفكر نحن فيما للبويب من دلالات على التاريخ ؛ فلهذه الغزاة أكثر من دلالة : لقد رأينا النصارى العرب من أهل العراق يقفون في خطوط المسلمين يحاربون الفرس بالحمية التي يحاربهم بها المسلمون ، ورأينا المثنى يقول لأنس بن هلال النمرى : « يا أنس إناك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى حملت على مهران فاحمل معى » ، ثم يقول مثل هذا القول لابن مردى الفهر التغلبى . ألا يقطع ذلك بأن الحرب في العراق لم تكن حرباً صليبية ، ولا حرباً إسلامية ، وأن الدين لم يكن هو الذى أثارها ، وإنما أثارها حرص العرب على أن يتخلص بنو جنسهم من الدين الأجنبي الذى ركبهم قرونًا طويلة ، يكون الجنس العربى وحدة سياسية أينما كانت منازلهم ؟ أحسب الأمر واضحاً فلا سبيل إلى الريبة فيه . والاعتبارات التى أثارها الحرب في العراق هى التى أثارها الحرب في الشام . أما الفتح لنشر الإسلام بالسيف فلم يدر بخاطر أبي بكر ولا بخاطر عمر ، وإن دار بخاطرهما أن تكون الدعوة إلى الإسلام حرة لا يقف فى سبيلها عائق من العوائق .

ذلك أن الدعوة إلى الإسلام بقوة السلاح لا تتفق ومبادئ الإسلام ، ولا يقربها الكتاب الذى أوحاه الله إلى رسوله . وقد كان النبي وخلفاؤه يذكرون دائماً قوله تعالى :

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، وقوله تعالى : « أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » . وإنما انتشر الإسلام تبعاً لاتساع رقعة الفتح ؛ لأن أهل البلاد المفتوحة رأوا مبادئ هذا الدين القيم فأكبروها ثم اعتنقوها ، عن بيعة وتفكير حيناً ، وتشبهاً بالرجال الذين أتوا بالمعجزات في الفتح وفي الحكم حيناً آخر . فإذا صح لهذا السبب أن نقرن انتشار الإسلام باتساع رقعة الفتح ، فلا صحة لما يقال من أن هذا الفتح كانت غايته نشر الإسلام ببطش السيف . هذا بعض ماتدل عليه غزوة البويب . وهي تدل كذلك على أن ما كان بين العرب والفرس من خصومة قد بلغ حداً لا رجاء معه في صلح ولا في هدنة . فقد جاءت البويب على أثر غزوة الجسر حيث انهزم المسلمون هزيمةً نكراء ، فحقت آثار هزيمتهم وجعلت كلتهم العليا ، وألقت في نفوس الفرس الرعب وهدت عزيمتهم . مع ذلك لم يفكر المسلمون في التسليم ولا في الصلح أثر غزوة الجسر ، ولم يفكر الفرس في التسليم ولا في الصلح أثر غزوة البويب . فلم يكن بدًّا من أن تتصل الحرب حتى يذعن أحد الفريقين دون قيد أو شرط .

ولهذا لم يلبث الفرس حين زال عنهم روع البويب أن عادوا يفكرون فيما يوشك أن يصير إليه أمرهم إذا ظلوا فيما هم فيه من فرقة وانقسام . ولقد حُيِّل إليهم أن هؤلاء الغزاة من العرب سيدخلون عليهم عاصمة ملكهم ، ويفتضون عليهم كل حصونهم ، ويخضعون أبناء كسرى لسلطانهم ، إلا أن تكون المعجزة فتتحد كلتهم ليواجهوا الغزاة ويحلوم عن أرضهم . وكيف لكلمتهم أن تتحد ورستم والقيريزان يتنازعا ن السلطان ، والأمراء والدهاقين منقسمون تؤيد طائفةً أحد المتنازعين وتؤيد الأخرى منافسه ! لذا ذهب أهل الفرس إليهما جميعاً فحذروهما عاقبة اختلافهما وما يجره على فارس من وهن يعرضها للهلكة . « فما بعد بغداد وساباط وتكرت إلا اللدائن ! » . ثم إنهم أنذروهما قائلين : « والله لتتجمعان أو لنبدآن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ! » .

وتشاور القيريزان ورستم فاستكتبا بوران كتاباً إلى نساء كسرى وسراربه ، فجاءوا بهن وعرفوا منهن أن لم يبق ذكراً من ذرية كسرى إلا يزيد جرد بن شهر بار بن كسرى

وكانت أمه قد أخفته عند أخواله حين قتل شيري جميع الذكور من ذرية أبيه . فجاءوا به ، وهو يومئذ في الحادية والعشرين من عمره ، فجلوه على عرش أجداده واجتمعوا عليه وتباروا في معونته ، فاطمأنت فارس بسد انزعاجها ، وأخذت تُعَدُّ العدة كيما تتأثر لكرامتها وشرفها .

وترامت إلى المثنى أبناء الفرس فزايلتهم طمأنينة ، وأيقن أن أهل السواد لن يلبثوا أن ينتفضوا على الساميين إذا سارت جيوش الفرس نحوهم ، فكتب إلى عمر بالمدينة يذكر له ما عنده وما يتوقع من ثورة وانتفاض . لكن كتابه أبطأ قبل أن يبلغ عمر وتجهز الفرس ، فأثار تجهزهم قرى العراق ومدنه ، فلم يجد المثنى بداً من أن ينسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة ، فسار في جنده حتى نزل بذي قار ، وجمع ما استطاع من الناس في عسكر واحد ، ثم أقام ينتظر مدد الخليفة ليعود من جديد ويفتح المدائن .

ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر وعرف تجهز العجم بعد أن اجتمع أمرهم واتخذت كلمتهم قال : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! » . وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج إلى تخوم العراق والتفرق في المياه التي تلي العجم ، وأن يستمدوا أهل النجدة ليكونوا معهم حتى لا يبيغتهم الفرس وهم في غير عدد وعُدَّة .

نزل المثنى بذي قار ، فلم يفكر الفرس في السير لمواجهته . وهناك أقام حتى أدركه سعد بن أبي وقاص ، إذ جاء أميراً على الجيوش التي جهزها عمر ليُجهز بها على فارس . لكن مقام المثنى مع سعد لم يطل ؛ فقد نعر عليه الجرح الذي أصابه يوم الجسر وما زال به حتى قضى عليه . بهذا تجرى بعض الروايات . وتجري روايات أخرى بأن المثنى قبض بذي قار قبل أن يصل سعد إلى العراق ، وأنه ترك لسعد وصية نورد حدبها في موضعه . والآن وقد قبض المثنى لحقّ علينا أن نختم هذا الفصل ، وقبل أن نندفع مع الحوادث في تيارها الجارف ، أن نقف هنيئة على قبر هذا القائد القادر نودّعه ونوفيه بعض حقه . فقد حمل هذا الرجل عن الساميين في حرب الفرس عبثاً لم يحمل أحد مثله . كان أول مسلم ذهب إلى دلتا النهرين فدحا أبا بكر للتفكير في فتح العراق ، ولولا ذهابه إليها ومغامراته

فيها لما فكر الخليفة في مواجهة فارس . وقد فتح مع خالد بن الوليد ما شاء الله أن يفتحاه من سواد العراق . ولولا إقدام ابن حارثة وحسن رأيه وبراعة قيادته لما استطاع بعد أن ذهب خالد إلى الشام أن يثبت للفرس وأن يواجههم .

ولقد أوصى أبو بكر عمر بعد ذلك أن يندب الناس مع المثنى . فكان طبيعياً أن يتولى المثنى إماره القوات التي تسير إلى العراق لنجدته؛ فهو الذي عرف مداخلة وسار في أرجائه، فله من الجرأة على أهله ما ليس لغيره . ولو أن أبا بكر عاش لما أمر أحداً غيره . لكن عمر أمر أبا عبيد لأنه كان أول الناس انتداباً، ولأنه كان ثقيلاً من أهل الحجاز، وكان المثنى من بني بكر بن وائل . أفضض المثنى لذلك أو جزاً في نفسه أن خالف عمر وصية أبي بكر في أمره؟ كلا! بل سما بتفكيره فوق هذا الاعتبار، وقدّر تعصب أهل الحجاز لبني وطنهم، فسبق أبا عبيد إلى العراق ثم سار تحت لوائه، فانتصر معه يوم البمارق وحمل اللواء بعد مقتله ومقتل أصحابه يوم الجسر، ثم انسحب إلى أليس، حتى جاءه المدد وكان يوم البويب قاد الموقعة ببراعة تعيد إلى الذاكرة فعال خالد بن الوليد في أعظم غزوته . وتأمر عمر أبا عبيد على المثنى من الخطوات الأولى التي أقر بها أمير المؤمنين نظام الطبقات بين المسلمين . وقد يلتبس لعمر من العذر عن هذه الخطوة أن أبا عبيد تقدّم حين أحجم غيره، فكان أول الناس انتداباً . لكن الواقع أنها كانت خطوة تنفق وتفكير عمر . يشهد بذلك أن جرير بن عبد الله البجليّ ذهب في أعقاب غزوة الجسر مدداً للمثنى . فلما عرف المثنى أنه مرّ قريباً منه كتب إليه أن أقبل إليّ فإنما أنت مدد لي . وردّ عليه جرير : « إني لست فاعلاً إلا أن يأمرني بذلك أمير المؤمنين . أنت أمير وأنا أمير » . وكتب المثنى إلى عمر يشكو جريراً؛ فرد عليه أمير المؤمنين بقوله : « إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » . ولما وجّه عمر سعد بن أبي وقاص إلى العراق كتب إلى المثنى وإلى جرير أنه أمر سعداً عليهما . ذلك أن سعداً كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكان عمر يرى السابقين الأولين إلى الإسلام طبقة تفضل غيرها من سائر طبقات المسلمين .

لم يفضض المثنى لتأمر غيره عليه . ذلك لأنه كان مؤمناً حسن الإيمان، كما كان

جهدياً بأسلاً يقدر معنى النظام وطاقته ، ويسمو بالنظام وبالإيمان جميعاً على أهواء النفس وشهواتها . على أن إقصاءه عن إمارة الجيش لا يفض من قدره ، ولا يمحو ما سجل التاريخ له في صفه . فإن يكن خالد بن الوليد عبقرى الحرب وسيف الله ، فالثني بن حارثة هو السابق الأول إلى فتح العراق ، وهو القائد المحنك الذي حمل العبء في أشد مواقف المسلمين به دقة ، وهو الحكيم الذي جمع قلوب العرب من أهل العراق حوله مع أنهم لم يكونوا على دينه ، فاستطاع بما صنع من ذلك أن يضرب الفرس في البويب ضربة لم يفيقوا منها ولم ينتصروا قط بعدها .

وزيد الثني فخراً أنه أتم ذلك كله في زمن ما أقصره . فقد بلغ أبو عبيد تخوم العراق مستهل الخريف من سنة أربع وثلاثين وستائة لميلاد السيد المسيح ، فانتصر بالتمارق في أوائل أكتوبر من تلك السنة ، وقتل بالجسر في أخريات الشهر نفسه ، فتولى الثني القيادة وانتصر بآليس ثم انتصر نصره الحاسم بالبويب في شهر نوفمبر . ولو أنه جاءه المدد في أعقاب البويب لسار إلى المدائن ففضها قبل أن يطوى ذلك العام أيامه . لكن المدد أبطأ عليه ، ثم إن الموت عاجله ، فمات وقد عقد النصر على هامته إكليلاً من الفخار باقياً على الدهر ما بقي الدهر .

والآن وداعاً أيها القائد القادر وفي ذمة الله ! ولفترك الآن ميدانك يدوى بآيات نصرك لتقف بالشام إلى جانب صاحبك ابن الوليد ! وليذكر الناس جميعاً على تعاقب الأيام أن الثني بن حارثة الشيباني كان الطليعة في التمهيد للإمبراطورية الإسلامية ، ثم كان من بناتها ذوى الحكمة والأيد . ولن يفض من عظمة صنيعه في بنائها أنه لم يكن قرشياً ، ولم يكن من أصحاب رسول الله . وأنه لم يتول إمارة الجيش بعد خالد . فقد تولاها بالفعل في البويب فكان فيها ندًا لخالد إقداماً ، ولعله كان فيها أكثر من خالد تسامحاً وحكمة .

## الفصل السابع

### فتح دمشق وتطهير الأردن

لملك تذكر أن أبا بكر لما عزم فتح الشام واستمد العرب جميعاً لغزوه وجه أربعة أولوية إلى أرضه؛ جعل على أحدها أبا عبيدة بن الجراح، وعلى الثاني عكرمة بن أبي جهل، وعلى الثالث يزيد بن أبي سفيان، وعلى الرابع عمرو بن العاص، وأنه اختص كل لواء بمنطقة في الشام يغزوها، فإذا اجتمعت هذه الجيوش فالأمير عليها أبو عبيدة. وقد لقيت هذه الجيوش من مقاومة الروم وبأسهم ما اضطرها إلى الاجتماع في صعيد واحد على ضفة اليرموك. ولم تدعها جند هرقل تتقدم، بل وقفت إزاءها على ضفة النهر الأخرى. وضاق أبو بكر ذرعاً بمجمود جنوده، فكتب إلى خالد بن الوليد بالعراق ليسيروا إلى الشام أميراً على جيوشه كلها. وبلغ خالد الشام، وأقام شهراً آخر على ضفة اليرموك دون أن يواجه الروم. وقبض أبو بكر وتولى عمر إمارة المؤمنين والموقف لا يزال على جموده، فكان من أول ما استفتح به عهده أن حمل تحميمة بن زعيم وشداد بن أوس كتاباً إلى أبي عبيدة بعزل خالد عن إمارة الجيش ويردها إليه كما كانت قبل أن يفصل خالد من العراق إلى الشام<sup>(١)</sup>.

بينما تحميمة بن زعيم وشداد بن أوس في طريقهما إلى الشام يحملان رسالة عمر بعزل خالد، كان خالد يدبر للقاء الروم والقضاء عليهم. ولقد عرف أن الروم يتجهزون للقاءه، فعبأ جيوشه كراديس على نحو لم يألفه العرب من قبل، وذلك لأنه ليس أكثر في رأى

(١) في الروايات التي أوردها المؤرخون عن هذه الفترة وما يليها في فتح الشام اضطراب فصلناه، وأبدنا رأينا فيه في الفصل الرابع عشر من كتابنا (الصدوق أبو بكر). وهو الفصل الذي تحدثنا فيه عن فتح الشام في عهد الحليفة الأول. واختلاف الروايات يرد على ترتيب الوقائع، حتى ليذكر بعضهم أن اليرموك كانت آخر الغزوات بالشام. كما يرد على عزل خالد وهل كان عن إمارة الجيش مع بقائه أميراً على لوائه ولواء أبي عبيدة، أو عن عمله في الجيش كله. وسنأخذ هنا كما أخذنا في كتاب أبي بكر برواية الطبري ومن جرى مجراه. فهي في رأينا أدنى إلى الواقع. فإذا اقتضى السياق أن نشير إلى رواية البلاذري أو غيره ممن خالفوا الطبري أشرنا إليها.

العين من الكراديس ، ثم حمل بهم غداة ذلك اليوم فالتقى هو وجيش الروم فخطمه ، وقضى على كل أمل للروم في استبقاء الشام<sup>(١)</sup> .

تجربى طائفة من الروايات بأن رسولى عمر بعزل خالد وصلا إلى الشام صباح اليوم الذى وقعت فيه هذه المعركة الفاصلة ، وأنهما رفعا رسالة أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة فلم يُذع ما فيها حتى اتهمت المعركة ، فلما تم فيها النصر للمسلمين أنبا خالداً بها وأذاع في الجيش أمرها ، وتولى القيادة مكان خالد . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبى عبيدة لم يُذع ما في الرسالة إثر الموقعة ، بل أخفاه وسار تحت إمرة خالد إلى دمشق ، حتى إذا فتحت وتم الصلح مع أهلها أذاع أمر أمير المؤمنين . وتسوق بعض الروايات الحوادث غير هذا المساق ، وتذكر أن عمر أمر بعزل خالد عن كل عمله في الجيش وبمحاكمته في أمور تسبها إليه وطلب سؤاله عنها .

والراجح عندى أن أبى عبيدة لم يُذع النبأ بعزل خالد أول ما بلغه ، سواء كان قد بلغه صباح يوم اليرموك أو بعد انتصار خالد فيها ، وأنه كتم هذا النبأ أياماً حاراً أثناء ما يصنع به وكيف يذيعه . وفي هذه الأثناء عرف الناس أن أبى بكر قبض وأن عمر تولى مكانه ، فاختلّفوا رأياً ، وبرم بعضهم بولاية عمر كما برم بها قوم من أهل المدينة ، ثم هدأت ثائرتهم ورضوا الواقع ، حين علموا أنه تم بوصية أبى بكر . وقدّر خالد أن عمر لن يرضاه أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، وأنه لا بد أن سيعزله ، وتحدث بذلك إلى بعض المقربين منه ، ولعله تحدث به إلى أبى عبيدة . عند ذلك أنبأه أبو عبيدة برسالة عمر فلم يقضب ولم يثر ، ورضى طائفاً أن يتولى قيادة لوائه بإمرة ابن الجراح ، كما قبل ابن الجراح من قبل أن يكون تحت لوائه طوعاً لأمر أبى بكر حين بعث خالداً من العراق إلى الشام<sup>(٢)</sup> . ولم يثر

(١) فصلنا هذه المعركة تفصيلاً وافياً في كتاب (الصدى أبو بكر) فليرجع إليه من شاء .

(٢) تذهب بعض الروايات إلى أن الكتاب بعزل خالد ورد إلى أبى عبيدة وهم على حصار دمشق ، وأنه كتبه عن خالد حتى فتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة . ويذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » أن خالداً قال لأبى عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله : « يرحمك الله ما منعك أن تعلمنى حين جاءك ا » وأجابه أبو عبيدة : « إنى كرهت أن أكسر عليك حربك . وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدينا أعمل . وما نرى سيصير لى زوال واقطاع ، وإنما نحن أخوان . وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه وديناه » . وهذا الجواب الذى أجاب به أبو عبيدة يذكّرنا بكتاب خالد إليه حين أمر أبو بكر خالداً على جند الشام =



الناس بأمر عمر وعزله خالداً لأنهم كانوا يعرفون ما بين الرجلين منذ حادث مالك ابن نيرة . وكذلك تم هذا التبديل في إمارة الجيش إثر موقعة انتصر فيها خالد نصرأ حاسماً ، فلم يترك في نظام المسلمين وجندهم أى أثر تخشى مغيبته .

هذا ما أرجحه ، وهو ما يستخلص من مختلف الروايات . وقد كتب به أبو عبيدة إلى عمر وأنباه بما تم من نصر على الروم في اليرموك ، وبعث إليه بخمس النوى ، وذكركه أنه خلف بشير بن سعد بن أبي الحخيرى على اليرموك ليحمى ظهره ، وخرج إلى مرج الصفر يتعقب فلول المنهزمين الذين تجمعوا بفحل ، وأنه أنه الخير بأن هرقل أمد دمشق بقوات من حصص ، وكان هرقل يقيم بها ، فهولا يدري أيبداً بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن . وتناول عمر كتاب أبي عبيدة ، فلم يلبث حين قرأه أن كتب إلى أبي عبيدة : « أما بعد فابدعوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في محورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى تحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغبرا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حصص ، وضع شرخيل وعمرأ بالأردن وفلسطين » .

تلقى أبو عبيدة رسالة عمر ، فبعث إلى فحل بعشرة من قواده في مقدمتهم أبو الأعور الشلمى ، وسار هو وخالد بن الوليد في قوة الجيش الكبرى يقصدون دمشق . ورأى الروم الذين لجئوا إلى فحل مقدّم المسلمين عليهم ، وكان أثر اليرموك وما أورثه إياهم من فزع لا يزال آخذاً بنفوسهم ، فأطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن في الأرض حولهم ، فأوحت وتعذر السير فيها . وغازا المسلمين ماصنع عدوهم ، فوقفوا بإزائهم يحاصرونهم

== مكان أبي عبيدة . فقد كتب له خالد يقول : « أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت رحك الله على حالك التي كنت عليها ، لا يصي أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . تم الله ما بنا وبك من نعمة الاحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ! » ولا ريب أن قد كان هذا التضامن بين قواد المسلمين من أقوى العوامل في انتصارهم .

ولا يستطيعون التقدم في الأرض الموحلة إليهم . وظل ذلك موقفهم حتى فرغ إخوانهم من فتح دمشق ، واستطاعوا أن يمدوهم بقوات زادتهم بأساً وإقداماً . ولم يكن عجباً أن يفتح المسلمون دمشق مع مناعة حصونها وما أمدها هرقل به من جند عظيم . فقد كانوا إلى حين نصرهم الله باليرموك يسرون في أرض مياها جارية ، لكن ما بها من خصب وزرع لم يزد على مواقع الخصب بالمدينة وما حولها ، فلم يبلغ إغراؤه ما بلغت دلتا النهرين بالعراق . فلما ساروا من الواقصة على اليرموك إلى دمشق رأوا جمالا يهبر بهاؤه اللب ، وتسخر بهجته القلب . رأوا أراضي البلقاء في الجنوب تمتد مروجها إلى مسرح النظر ، ورأوا في الشمال مراعى جَوْلان أبهى نضره وأمرع خصباً ، ثم رأوا مزارع القمح والشعير متلاحقة بين هذه المراعى تقوم خلالها الأشجار مختلفاً أنواعها ، منها المثمر وغير المثمر ، ومنها ذو الأريج يفوح شذى زهره فيعطر ما حوله من الأرجاء . والنهيرات والغدران تجري مياها الصافية مصقولة الصفحة حيناً ، متدفقة في اندفاع حيناً آخر ، تسقى هذه الزروع والأشجار والحدائق الغناء ، وقد تحدرت من تلال كست سفوحها الخضرة أو نمت فوقها الأشجار الباسقة ، فجعلت ربّاهما كأنها الأعلام بين أودية تنبسط تارة وتتموج بين الارتفاع والانخفاض تارة أخرى . وهى في انبساطها وفى تموجها يكسوها بساط من الزهر بألوانه البهيجة الفوّاحة . وزادت بنات الأصفر على تعبير العرب ، هذا الوسط الطبيعي الرائع رواء وبهجة . يتهادين فوق هذه الرثى وبين هذه الأودية ، فتمسك النظر قدوهن المشوقة وخدودهن الملساء أشربت وجناتها حمرة تم عن عافية ورى ، وقد سواهن البارىء أحسن تسوية وقومهن أحسن تقويم ، فكان ملائكت هذه الجنان التى يسير العربى خلالها فى الطريق إلى العاصمة الحصينة . وها هنا وهناك تقوم المدائن التى أنشأها الرومان وأقاموا فيها المسارح والملاعب والكفائس ، وكلها عمائر تلفت عظيمتها النظر وتثير الإعجاب . وهناك على حدود الأفق إلى الشمال تبدو أعلى الجبال توجت هاماتها الثلوج ، فبدت فى جلال ، ما أشبهه بجلال المشيب ، ناصع البياض . أى شىء هذا السحر الباهر وهذا الجمال الساحر ! وهل من باعث غير الإيمان أقوى منهما يدفع إلى المغامرة فى سبيلهما ! . ولهؤلاء الجنود المسلمين من قوة الإيمان بالله

ورسوله أوفى حظ وأوفر نصيب . وقد زاد هذا السحر قوة الإيمان في نفوسهم ، فدفعهم يسرعون إلى عاصمة الشام وهم أشد ما يكون حرصاً على فض حصونها والدخول إلى قلبها . بل لقد زادهم اسم دمشق حرصاً على الإسراع إليها والاستيلاء عليها . فكم سمعوا بمجائبها من إخوانهم وآبائهم الذين كانوا يذهبون أثناء رحلة الصيف بالشام إليها ! وكم حدثهم عن تاريخها بنو وطنهم من المسيحيين الذين يحجون إلى بيت المقدس ، ثم يذهبون إلى مقر الملك بالشام يحتلون نعمة الحضارة فيه ، ويتعاونون من متاجره الغنية تحملاً لا مثيل لها بالمدينة المقدسة بفلسطين . قص عليهم هؤلاء المسيحيون تاريخها ، فأذكروا في نفوسهم تطلعا أى تطلع لمشاهدتها والتمتع بجنانها الفيحاء ومياهها الجارية وظلالها الوارقة وفاكهتها الشهية ، وما فيها من جمال يحدث عن حاضر فاتن وماض أكثر فتنة . فدمشق من أقدم مدائن العالم إن تكن أقدمها جميعاً<sup>(١)</sup> . وقد توالى عليها عصور عظيمة كانت فيها مقر عبادة وثنية ضخمة ، فلما جاءت المسيحية جعلت من معبدها الوثني كنيسة لأتباع السيد المسيح لا يبدها في جمالها وجلالها إلا كنيسة أنطاكية كبرى معابد المسيحية بالشام . هذا إلى ما أقامه الروم فيها من عمارت فاقت كل ما وقعت عليه أعين هؤلاء العرب في طريقهم إليها جلال وعظمة . كيف إذاً لا تنهب جيوش المسلمين الطريق إليها نهباً ! وكيف يخامرها ريب في أنها لا بد مستولية عليها بعد أن قهرت الروم باليرموك ، وقضت من جندهم على عشرات الألوف خروا صرعى في الميدان أو تردوا هلكى في هاوية الواقعة ! .

ولم يجد هذا الجيش الظافر في طريقه مقاومة تذكر . فلم يكن الروم يعتمدون في قتالهم على ما كان يعتمد عليه الفرس من التحصن بالأنهار وبحارى المياه المتشابكة بين دجلة والفرات ، لأنه ليس بالشام مثل هذه الأنهار . ولم يكن الروم يندفعون إلى المعارك مستميتين اندفاع الفرس ، لأن العراق كان للفرس منه نصيب عظيم ، وكانت المدائن

(١) يقول صاحب لسان العرب : إن دمشق سميت ببيانها دمشق بن كنعان أو دماشقيوس . ويذكر المؤرخون اعتماداً على ماجاء في التوراة أنها كانت مدينة عظيمة في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنها خضعت لحكم مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وأن اسمها وجد منقوشاً في تل العمارنة على أنه دمشقة .

عاصمة الأكاسرة على شاطئ دجلة أكبر أنهاره . أما الشام فكان ولاية رومية ، وكانت القسطنطينية عاصمة القياصرة بعيدة عن بيت المقدس وعن دمشق ؛ فلم يكن في نفوس المدافعين عنها من الحماسة والاستماتة ما كان في نفوس المدافعين عن المدائن . ولم تبعث العصبية الدينية في نفوسهم حب الاستشهاد في سبيل بيت المقدس . فقد غلب الفرس الروم واستولوا على كنيسة القيامة وعلى كنيسة المهد من قبل ، فلم يجد أهل البلاد في هذا التغيير الذي طرأ على حكمهم ما يدعوهم إلى افتداء هذه المعابد بأرواحهم . فإذا كان هرقل قد ردّ الفرس واسترد فلسطين ، فلم يكن حكم عماله خيراً من حكم الفرس ولا أكثر رفقا ومعدلة . لذلك لم يعتمد هرقل على شيء في هذه البلاد اعتماده على المدن المحصنة ، كدمشق وحص وأنطة كية ، اعتزازاً بحصونها ، واطمئناناً إلى قوة مقاومتها .

بلغ المسلمون غوطة دمشق فازدادوا حماسة واندفاعاً ؛ فقد رأت أعينهم هذا السهل القسيح تقوم عليه أم المدائن وأقدمها ، وكأنه قطعة من الجنة هبط بها الملائكة من سماء الخلد إلى هذه الأرض : أنهار جارية ، وعيون دافقة ، وأشجار متشابكة الأغصان ، وأعشاب وتين وزيتون وجنة نعيم . وبين هذه الظلال الوارفة تسرى خلالها نسيمات توضع عطراً قامت منازل المترفين الذين آتاهم الله من فضله ورزقهم من طيبات هذه الدنيا ، تحدث عما كان فيها ومن كان فيها من سادة يمتعون ، وجوار كأنهن الحور العين . أين من هذا الجمال الرائع والنعمة السابغة ، مارأت عيون الذين صحبوا خالد بن الوليد إلى العراق ، وكانوا يرونه يومئذ سحراً أى سحر ، وفتنة أى فتنة ! فإذا صحت كلمة خالد بالعراق : « ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ! وبالله لو لم يلزنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش ، لساكن الرأى أن تقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن ائناقل عما أتم عليه » إذا صحت هذه الكلمة بالعراق مرة فإنها تصح أمام دمشق وغوطتها ألف مرة . فما يرون هنا ليس هو الطعام بلغ من الكثرة مبلغ التراب ، وإنما يرون مع الطعام ما لم يكن يدور لهم في خيال ، وما حسبه أكثرهم مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر .

ألقى المسلمون منازل الغوطة وقصورها خالية لا يسمع فيها إلا غناء الأطيبار على أفنان

بساتينها . ذلك أن أهل المنازل والقصور هجروها ليحتموا من الغزاة بأسوار المدينة المنيعة . وكانت أسوار دمشق مضرباً للمثل في التحصن والمنعة . بنيت من حجارة ضخمة متينة ، وعلت إلى ارتفاع يزيد على ستة أمتار في سمك يزيد على ثلاثة . وكانت حصونها رفيعة الذرى كثيرة الشرفات ، يحمى بها الرماة بالسهم والمجانيق من المدافعين فيها . وقد زاده هرقل تحصيناً بعد غزو الفرس إياها ، أملاً في أن ترد كل طامع في الإمبراطورية . وكان بالأسوار أبواب منيعة يحكم إغلاقها فلا تدع سبيلاً لداخل إلى المدينة أو خارج منها . وأحيطت الأسوار بخندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار طمته مياه نهر بردى . بذلك كانت دمشق كلها قلعة واحدة ذات أبراج في كل نواحيها ، فلم يكن لها جبهة سبيل إلا بعد حصار طويل يفت في أعضاد أهلها ، ويضعف عزائمهم ويحملهم على التسليم .

قدّر أبو عبيدة ما يقتضيه اقتحام المدينة الحصينة من هذا الحصار الطويل ، فأمر جنوده ففتحوا كنفأس الفوطة ومنازلها واتخذوها مساكن يأوون إليها . وقدّر أن هرقل قد يبعث بجنود من حمص أو فلسطين يحصرون قواته حول دمشق بين حصون المدينة وجيوش الروم ، فبعث ذا السكّالاع الحميرى فعسكر بين دمشق وحمص ، وبعث علقمة ابن حكيم ومسروق العكي فعسكرا بين دمشق وفلسطين . فلما اطمان إلى ما صنع من ذلك أمر قواده وجنوده بالتقدم لحصار العاصمة ، تمهيداً لاقتحامها ، وعين لكل منهم باباً من أبوابها ينزل عليه . فنزل هو على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شرّحبيّل بن حسّنة على باب الفراديس ، ونزل يزيد بن أئى سفيان على الباب الصغير أو باب كيسان . أما خالد بن الوليد فنزل على الباب الشرقى . وكان على مقربة من هذا الباب دير يسمى دير صليبا اتخذ خالد مقرّاً له ، ولذلك سمي من بعد دير خالد .

ونصب المسلمون المجانيق والدبابات حول المدينة وبدءوا بها هجوم حصونها . لكن هذه الحصون كانت أمنع من أن تفتضها عدّة العرب وطرازها ساذج والجنود الذين يستعملونها غير مدربين على فنون الحصار . لذلك قاومت كل هجوم ، وردّحاتها جنود الدبابات ورماة المجانيق بسهامهم ونبلهم . وكان نسطاس حاكم المدينة وباهان قائد جنودها على ثقة من أن هرقل لن يدع عاصمة ملكه بالشام تسقط في أيدي أعدائه وهو مقيم على مقربة

منها بمحص في جيش عظيم ، وأن هؤلاء العرب لن يلبثوا لذلك أن يفضوا حصارها وينفضوا عنها كما فعل غيرهم من قبل . ولهذا الثقة طالت مقاومتهم ولم يجد المسلمون إلى المدينة مفقداً . والحق أن هرقل لم يكذب ظنهم ؛ فقد بعث من حصص بقوات سارت مدداً لدمشق . لكن هذه القوات لقيت ذاك السكراع وفرسان اليمين في طريقها ، فكان بين الفريقين قتال عنيف ارتد الروم على أثره منهزمين إلى حصص . وعرف نسطاس وباهان ما كان من ذلك فاضطربا حيناً ، لكنهما سرعان ما استردا ثقتهما بقدرته دمشق على المقاومة . فعما قريب يشتد البرد فلا يطيق العرب أبناء الصحراء الحارة احتماله ، فيعودون أدراجهم ، وتعود إلى مدينتهم حرمتها وكرامتها .

على أن طمأنيتهم هذه لم تدمهم من أن يبعثوا إلى هرقل من يستعجل مدده مخافة أن يطول بالناس الحصار قهن عزائمهم . وأرسل إليهم قيصر يقول إنه مدمم ، ويحرضهم على الثبات والمقاومة . وقوت رسالة هرقل عزيمتهم ، وجعلتهم يثبتون لهجمات المسلمين ويصدونها ، وإن لم يفاصروا بالخروج من أسوار مدينتهم لمواجهة الذين هزموا جند الروم في البرموك وقضوا عليهم . وطالت مقاومتهم وطال حصار المسلمين إياهم زمناً اختلف فيه : قيل كان سبعين يوماً ، وقيل أربعة أشهر ، وقيل ستة أشهر . وضيق المسلمون عليهم الحصار طول هذا الزمان ، وطال انتظارهم مدد قيصر على غير جدوى . وانقضى الشتاء وأقبل الربيع والعرب على حصارهم لا يربحون عنه . عند ذلك وهت قوتهم ووهنت عزائمهم ، وانقطع رجاؤهم في مدد قيصر وفي جلاء المحاصرين ، فبدءوا يفكرون في التفاهم معهم وفي مصالحتهم . وانتهى المسلمون بالدخول إلى المدينة وعقد الصلح مع أهلها . كيف دخلوا؟ أكان ذلك عنوة أم فتح الدمشقيون لهم الأبواب؟؟ ومن من المسلمين عقد الصلح ، وعلى أي شيء عقد؟ هنا تختلف الروايات بل تضطرب . وأكثر هذه الروايات شهرة أن خالد بن الوليد كان مقبياً على الباب الشرقي لا ينالم ولا ينيم ، وكانت له عيون زاكية فلا يخفى عليه مما يجري في دمشق شيء . ونمى إليه يوماً أن بطريق المدينة ولد له ولد فرح به ، فأولم للناس ، فأكل الجند وشربوا وغفلوا عن مواقعهم وكان خالد قد اتخذ حبالاً كهيئة السلم وأوهاقاً<sup>(١)</sup>

(١) الوهق : الجبل يرى فيه أنشودة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ونواىء الجدران .

فلما أدرك الليل إعجازه نهد هو وجنده الذين قدم بهم من العراق، وقال لهم . إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا ، ثم تقدّمهم ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وأمثالهم من الشجعان المغاوير ، فعبروا الخندق عائمين على القرب ، وأنبتوا أوهاق حبالهم في شرف السور وتساقوا سلاطيمها ، حتى إذا ارتقوا على الجدار جذبوا بعض الحبال وأثبتوها في الشرف التي تلى داخل المدينة وألقوها ، فأنحدر خالد وطائفة ممن معه ونزلوا أمام الباب فعالجوا فتحه بسيوفهم . وكثر إخوانهم الذين أقاموا بأعلى الجدار ، فلما سمع رجال خالد تكبيرهم أسرعوا يعبرون الماء ويتسلقون الحبال إلى زملائهم فوق السوق .

وكان الباب الشرقي أمتع أبواب دمشق وأكثرها ماء وأحصنها مدخلا . لذلك لم يكن عليه من الحراس إلا عدد قليل ، فاجأهم خالد ومن معه وهم في غفلتهم فقتلهم ، وفتحوا أغلاق الباب بالسيوف . فدخل منه من لم يرق إلى أعلى السور واندفعوا داخل المدينة يكبرون . وفزع الناس في سائر أرجائها ، وانتشر بينهم خير المسلمين واقتحامهم الباب الشرقي وقتلهم من قابلهم . عند ذلك أسرعوا إلى سائر الأبواب ففيجوها وصلحوا أبا عبيدة فأمهم ودخل من باب الجابية ولا علم له بما فعل خالد . فلما عرف ما يجري من سفك الدماء بعث إلى خالد أن يكفّ عن القتال فقد صالح الناس وأمنهم . واعترض خالد بأنه فتح باب المدينة عنوة . لكن أبا عبيدة كان الأمير على الجند ؛ فلم يكن بدّ لخالد من أن يسمع لأمره وأن يجرى الصلح على الجانب الذي فتحه .

هذه أكثر الروايات شهرة في فتح دمشق ، وهي تنهض ، على غرابة وقائمتها ، وتجد من يؤيدها من مؤرخي العرب ومن المستشرقين ؛ لأن بطلها خالد بن الوليد . ولو أن بطلها كان غير هذا العبقري صاحب المعجزات في الحرب لرمها المؤرخون جميعاً بالتهافت ، بل لسا أقدم أحد على روايتها . فمن غير خالد لا ينام ولا يدع غيره ينام ا ومن غيره يستوى إليه علم ما تحتويه دمشق من أسرار داخل أسوارها ، حتى ليعلم أن البطريق ولد له وأنه أولم للناس ، وأن الحرس بلغ منهم الطعام والشراب فغفلوا عن مواقعهم؟ ومن غيره ، بعد حصار دام سبعين يوماً أو أربعة أشهر ، أو ستة أشهر . يُقدم على أن يعبر الخندق من أصحابه مستعينين بالقرب ، وأن يتسلق الأسوار على الحبال . وأن يهبط بنفسه

داخل هذه الأسوار معرضاً نفسه للخطر حين إنبلاج الصباح ! لكن لخالد في الحرب معجزات رأيناها في حروب الردة وفي فتح العراق وفي غزوة اليرموك ، فلا عجب أن تكون هذه إحدى المعجزات التي كفلت له في كل غزواته النصر والسؤدد : وأن تجد لذلك من يؤيدها من مؤرخي العرب ومن المستشرقين .

على أن هذا التأييد لم يعصمها من تفنيد الناقدين لها وطمع الطاعنين عليها ، وأخذهم بغيرها من روايات أدنى إلى المؤلف في مثل موقف دمشق . من هذه الروايات أن أبا عبيدة هاجم باب الجابية بقواته ففتحه عنوة ، على حين صالح خالد أهل المدينة مما يلي الباب الشرقي فلما التقى القائدان في قلب دمشق أجاز أبو عبيدة صلح خالد وأجراه على المدينة كلها . ولا فرق بين هذه الرواية والرواية الأولى إلا فيما يتصل بخوارق خالد ، كعلمه بولية البطريق وأثرها في الحراس ، وتسليته الأسوار بالسلاليم والأوهاق . ولو لم يُذكر من هذه الخوارق شيء : وقيل إن خالداً فتح الباب الشرقي عنوة ، وأن أبا عبيدة صالح من بلى باب الجابية ثم أجرى الأمر في المدينة كلها بجرى الصلح ، لتساوت الروايتان ، ولكان معناها أن قواد المسلمين عرفوا أن الحصار أوهن عزائم المحصورين ، فاتفقوا على مهاجمة أبواب المدينة جميعاً فلما رأى دمشقيون هجومهم اختلفوا بينهم ما يصنعون ، ففتحت طائفة أبوابها ، وتأخرت طائفة ، فافتحم القائد الذي يليها بابها عنوة ، وكذلك دخل من دخل من المسلمين صلحاً وافتحم من افتحم دون أن يلقي مقاومة ، ثم أجرى الأمر في المدينة كلها على الصلح .

هذا التصوير يوفق بين تينك الروايتين ولا يناقض غيرها من الروايات المختلفة عن فتح دمشق . ومن هذه الروايات أن أسقف المدينة وقف على أسوارها غير مرة يتحدث إلى خالد بن الوليد ، وأنه قال له يوماً : « يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ، ولى عليك عدّة ، فصالحني على هذه المدينة ! » . ورضى خالد فدعا بدواة وقرطاس وكتب « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها . أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية » . ويضيف البلاذري بعد أن يثبت هذا الكتاب أن الأسقف أفضى



إلى خالد ذات ليلة بأن المدينة في عيد وأن أهلها في شغل ، وأشار عليه أن يلتمس سُلماً ، فجيء بسلامين فارتقى عليهما جماعة من المسلمين إلى أعلى السور ، ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلا رجل أو رجلان ، فتعاونوا عليه وفتحوه عند طلوع الشمس . وكان أبو عبيدة من جانبه قد دخل باب الجابية عنوة ، فنشر له الأسقف كتاب خالد ، فقال بعض المساميين : « والله ماخالد بأمير ، فكيف يجوز صلحه ؟ » . فقال أبو عبيدة : « إنه يجير على المساميين أدناهم » ، وأجاز الصلح .

وتذهب رواية أخرى إلى أنه لما طال الحصار اشتد الأمر على أهل دمشق دستوا إلى المساميين من تحدث معهم في الصلح ، فأصر المسلمون على المشاطرة ؛ أي أن يكون لهم النصف من كل ما في دمشق ، فتردد أهل المدينة في قبول ما عرض عليهم . فلما رأوا حاميتهم عاجزة عن الدفاع عنهم ، وأن لا مفر لهم من التسليم ، بعثوا إلى أبي عبيدة وحصلوا منه على أمان المدينة ، ثم فتحوا أبوابها له ، فدخلها هو وقواده وجيشه من غير قتال . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن حامية دمشق يئست من الدفاع عنها ففادرتها ، فقرر سكانها التسليم ففتحوا مدينتهم للجيش العربي ، ثم صالحهم أبو عبيدة بعد أن دخل المدينة واستقر بها .

هذه هي الروايات المختلفة في فتح دمشق . والمؤرخون متفقون مع اختلافها على أن المدينة فتحت صلحاً ولم تفتح حرباً . وهذا يرجح ما قدمنا من أن طول الحصار واليأس من مدد هرقل أديا بالدمشقيين إلى طلب الصلح فاختلف على شروطه ، فأراد المسلمون أن يقتحموا أسوار المدينة ففتح أهلها أبوابها لهم . ولعل بعض هذه الأبواب قد تأخر ففتح عنوة ، ثم كانت المفاوضات وكان الصلح .

ونود قبل أن نذكر شروط هذا الصلح أن نجتاز مع أبي عبيدة وخالد بن الوليد وزملائهما أسوار دمشق ، وأن نسير هنيئة معهم خلال هذه المدينة العامرة ذات التاريخ الحافل والجمال الرائع ، وأن نلقى أثناء مسيرتنا هذه النظرة على ما تحويه . فلهذه النظرة بشروط الصلح أوثق الصلة . تحدثت عن جمال الطريق المؤدى من اليرموك إلى دمشق ، وعن جمال القوطة . أما المدينة فتبذل هذا الجمال جلالاً وبهاء ؛ فهي ملتقى تجارة الشرق

والغرب من أقدم العصور ، وهي لذلك من أكثر المدن سكاناً وأضخمها ثروة . يشقها طريق مستقيم يصل غربها بشرقيها ، ويمر من باب الجابية إلى الباب الشرقي ، وتقوم على جانبيه متاجر لم ير العرب لها نظيراً في بلادهم ، ولم يروا لها نظيراً في العراق . ويمر خلال المدينة نهر بَرَكْدَى بمياهه المتدفقة الصافية ، وقد قامت حوله القصور الفخمة ذات الحدائق الغناء ترتفع خلالها نوافير المياه صاعدة في السماء . وما أكثر كنائس دمشق وأجلها ! فهي من العمار الرومانية المتفاوتة المياه ؛ يبلغ عددها خمس عشرة ، وأعظمها كنيسة القديس يوحنا المعمدان . بنى الرومان هذه الكنيسة معبداً وثنيّاً قبل أن يدينوا بالمسيحية ، فلما تنصّروا جعلوها مكان عبادتهم وصلواتهم للسيد المسيح ولأمه العذراء البتول . ويقوم من حول هذه الكنائس والقصور والمتاجر ما اعتاد الرومان تشييده من مسارح وحمامات وملاعب . ما أشد ما يقف هذا كله نظر هؤلاء العرب الذين يمرون به ! إنهم لم يشهدوا مثله فخامة وجلالا وعظمة . أين منه ما رأت عيونهم بصنعاء وبالخيرة ! وأين منه الخورنق والسدر قصر النعمان بن المنذر بن ماء السماء ! ترى أية شروط للصالح يليها عليهم هذا الثراء العظيم ، وهذا الجمال الباهر ؟ وهل تراهم يعفون عنه فلا يشاركون أصحابهم فيه ؟ أم تراهم يحرصون على أن يكون لهم منه نصيب أقله نصفه ؟ !

تختلف الروايات في ذلك كاختلافها في فتح دمشق . ففي رواية للبلاذري أن الصالح جرى على ما في كتاب خالد بن الوليد لأسقف دمشق ، وهو الكتاب الذي أثبتنا نصه من قبل ، والذي يجعل للمسلمين الجزية دون غيرها ، يأخذونها لقاء تأمينهم أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم ودورهم وكنائسهم وسور مدينتهم . ويثبت البلاذري تأييداً لهذا الرأي قول أبي عبد الله الواقدي : « قرأت كتاب خالد بن الوليد فلم أجد فيه أنصاف المنازل والكنائس » . ويضيف الواقدي أن المسلمين إنما نزلوا منازل دمشق واستقروا بها لأن أصحاب هذه المنازل تركوا المدينة لما فتحت ، ولحقوا بهرقل إذ كان يقيم بأنطاكية ، فأصبحت منازلهم لا مالك لها فنزل المسلمون بها .

أما الطبري فقد روى أن صلح دمشق كان على المقاسمة على الدينار والعقار ، وعلى جزية دينار عن كل رأس . ويفسر ابن كثير المقاسمة في المال والعقار بأن جانباً من المدينة

فتح عنوة فكان كله حقاً للمسلمين ، على حين فتح جانب منها صلحاً فوجبت عليه الجزية دون سواها ، ولذلك أخذ المسلمون نصف ما في المدينة من كنائس ومنازل وأموال بحكم الفتح عنوة ، وفرضوا عليها الجزية بحكم الفتح صلحاً .

ويقرر الذين يذكرون المقاسمة في الكنائس والمنازل والأموال أن المسلمين أخذوا سبع كنائس من الكنائس الأربع عشر القائمة بدمشق ، وأنهم قسموا الكنيسة الكبرى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، فتركوا نصفها للنصارى يقيمون فيه صلواتهم ويتلون فيه الإنجيل ، وجعلوا النصف الآخر مسجداً للمسلمين يتلى فيه القرآن ويذكرون فيه اسم الله وينادى من فوقه للصلاة .

وظلت هذه القسمة محوياً من ثمانين سنة طلب أثناءها معاوية بن أبي سفيان ، ثم طلب عبد الملك بن مروان أن يزيدا في المسجد بأن يضاف جانب الكنيسة إليه . ومع ماعرضاً في ذلك من مال طائل ، لقد أبى النصارى عليهما ورفضوا لإجابة طلبهما تمسكا منهم بحكم الصلح الذي تم عند فتح دمشق . ولما استخلف الوليد بن عبد الملك طلب إلى النصارى ما طلب سلفاه وعرض عليهم مالا طائلاً ، فأبوا عليه كما أبوا عليهما ، فهددهم ليهدمنها إن لم يقبلوا عرضه . وخوفوه غضب الله فلم يخف وهدمها وأدخلها في المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكوا النصارى إليه ماصنع الوليد بكنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره بأن يرد عليهم ما كان لهم . وكره فقهاء دمشق وأهلها من المسلمين أمر عمر وقالوا : « نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ! » وعرضوا على النصارى أن يعطوهم جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يمسكوا عن المطالبة بما كان لهم من كنيسة يوحنا ، فرضى النصارى ، وأقر عمر بن عبد العزيز هذا الاتفاق .

فلولا أن صلح دمشق كان على المقاسمة لما جعل جانب من كنيسة يوحنا مسجداً ، ولما طلب معاوية وعبد الملك أن يدخل ما بقي بأيدي النصارى في المسجد ، ولما هدم الوليد الكنيسة ، ولما شكوا النصارى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز . كذلك يقول الذين يذكرون أن صلح دمشق كان على المقاسمة ، وأنه لم يقتصر على الجزية . وقد يجيبهم

مخالفوهم بأن كنييسة يوحنا لم تقسم في صلح خالد ولم يقسم غيرها من الكنائس والمنازل والأموال ، فهذا الصلح لم يفرض إلا الجزية . وإيماً طلب معاوية بن أبي سفيان وطلب عبد الملك بن مروان أن تكون الكنييسة مسجداً بعد أن أصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية ، وبعد أن زاد عدد المسلمين فيها على عدد النصارى ، وبعد أن أصبح الأمر فيها لأمر المؤمنين . فإن يكن النصارى قد أبوا عليهما ما طلبا فتركا الكنييسة لم يساها ، فذلك الدليل على التسامح الإسلامي وعلى احترام عهد الصلح مع ما كان من تبدل الأحوال ؛ إذ صارت دمشق عربية إسلامية بعد أن كانت مسيحية رومية ، ومجاراتة هذا التبدل هي التي طوعت للوليد بن عبد الملك أن يفعل ما فعل . ولهذا التطور رضى النصارى في عهد عمر بن عبد العزيز أن يدعوا الكنييسة مسجداً للمسلمين ، وأن يأخذوا كنائس القوطة خارج أسوار العاصمة الإسلامية .

ونحن نميل إلى ترجيح هذا الرأي الأخير . وهو على كل حال أكثر الآراء تواتراً ، ورواته هم أكثر الرواة عدداً .

اختلف الرواة في أمر المقاسمة ، لكنهم جميعاً متفقون على أن الصلح فرض على أهل دمشق جزية يدفعونها لقاء منعهم وحرية عقيدتهم وحماية مدينتهم وأموالهم . وكانت هذه الجزية ديفاراً وكيلاً معيناً من الخنطة على كل رأس وزيتاً وخلاً لقوت المسلمين . هذا خلا الضرائب التي كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم ، فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بتعديله ، وذلك بأن فرّق بين الطبقات في الجزية ؛ إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ، وأربعين درهماً على من دونهم ، وقيل بل جعلهم طبقات على قدر غنى الغنى وإقلال المقل وتوسط المتوسط ، ثم ألزمهم أرزاق المسلمين من الخنطة والزيت من الودك والعسل .

هذا نصاب الجزية في صلح دمشق ، وذلك ما قيل في أمر المقاسمة . وعلى أساس من هذا الصلح العادل بعد حصار طويل استقر المسلمون بعاصمة الشام وجلت عنها حامية هرقل ، وجلى عنها المتعصبون للروم من أهله وكانت سياسة المسلمين في إدارتها هي

السياسة التي رسمها أبو بكر في عهده حين بعث خالد بن الوليد يفتح العراق : تركوا الأهل دمشق ما كان لهم من إدارة مدينتهم ، وأقاموا الأمر فيها على الأساس الذي صورده خالد في كلمته لبعض أهل العراق : « إن كنتم عرباً فماذا تنقمون من العرب ! وإن كنتم عجماً فماذا تنقمون من الإنصاف والعدل ! » . فلما اطمان المقام للمسلمين بالمدينة الجميلة بدءوا يفكرون في الواجب عليهم لدينهم ووطنهم .

كان طبيعياً أن يتجه أبو عبيدة بادية ذي بدء إلى التفكير فيمن خلف وراءه من جنود المسلمين عند فِخْل بالأردن ، وفيما يجب عليه بعد أن يتغلب على قوات الروم هناك . على أن كتاب عمر إليه بتعديل نصاب الجزية تناول أموراً لم يكن له بدٌّ من المسارعة إلى تنفيذها وفي مقدمة هذه الأمور ردّ القوات التي فصل بها خالد بن الوليد إلى العراق على أن يظل خالد بالشام . فقد كان مما أوصى به أبو بكر عمر حين استخلفه أن قال له : « إذا فتح الله على أمراء الشام فأررد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهل وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » . وها قد فتح الله دمشق على أبي عبيدة ثم إن المسلمين بالعراق يلاقون في قتال الفرس الشدائد ، فهم أشد ما يكونون حاجة إلى المدد . والقوة التي فصلت من العراق إلى الشام مدد لا يستهان به ؛ ففيها من الأبطال الصفايد من عركوا الحرب وعركتهم ، ومن كان لهم في كل المواقع التي حضروها بلاء مشهود لذلك أمر أبو عبيدة هاشم بن عتبة على جند العراق وجعل معه القعقاع بن عمرو وأضراجه من أولى النجدة والبأس ، وعوضهم عن استشهدوا في وقائع الشام جنداً يعادل الجند الذي جاء من العراق عدداً وقوة ، وخرجوا جميعاً يقصدون المثنى وعسكره بذي قار على تخوم البادية ، متخذين طريق القوافل المعبد ، بعبيدين عن الطريق الذي غامر بهم خالد فيها حين جاء إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان . ولم يدرب خاطر هاشم بن عتبة وقواته وجنوده أثناء مسيرتهم خلال الصحراء أنهم يتقدمون إلى العراق ليقفوا مع المسلمين بإمرة سعد بن أبي وقاص ، فيواجهوا الفرس في الموقعة الحاسمة التي فتحت الطريق إلى المدائن وإلى قلب فارس : موقعة القادسية .

فلندعهم الآن في مسيرتهم ، ولنصحب أبا عبيدة وأصحابه في الشام . وسنعود عما قليل

إليهم نشهد معهم هذه اللقطة الفاصلة التي تفضت على جيش كسرى وأدالت دولته وفتحت صحفاً في التاريخ جديدة مجيدة<sup>(١)</sup>.

اطمأن أبو عبيدة إلى مقام المسلمين بدمشق ، فأجه إلى التفكير فيمن خلفهم وراه من جنود المسلمين عند فحل بالأردن ولقد دفعت حاسة النظر جماعة من أصحابه ، فأشاروا عليه أن يسير من دمشق إلى حصص ليفتحها . فقد كان هرقل متيهاً أثناء حصار دمشق ، فلما رأى قواته لا تستطيع الوصول إلى عاصمة الشام للذود عنها جلا عن حصص إلى أنطاكية فدان أبا عبيدة سار إلى حصص ففتحها لجلأ هرقل عن أنطاكية إلى الأناضول أو إلى القسطنطينية، فإذا فعل انهدت عزائم جنوده في أنحاء الشام جميعاً فالتوا بأيديهم لا يقاومون ولا يقاوتون . لكن أبا عبيدة خالف هذه المشورة ، وما كان له أن يقبلها وقد أمره عمر ألا يتقدم ما بقي وراءه من الروم جنود يهددون رجعه ، أو يستطيعون أن يقطعوا ساقته . وقد استقر من جنود الروم عند فحل إلى الجنوب من بحيرة طبرية من نجوا من اليرموك ، ثم أيدهم هرقل بقوات جديدة . وكانت هذه القوات لا تزال في فزعها من هزيمة اليرموك حين سار أبو الأعور السلمي في جنود المسلمين ليقاوتها ، لذلك أطلقت مياه البحيرة والنهر في الأرض التي حولها فتوحلت ، فعاقت جيش المسلمين عن التقدم . لكن الروم لم يستطيعوا هم كذلك أن يتقدموا ولم يجدهم لذلك مدد هرقل نفعا . وبقيت الأرض متوحلة طول الشتاء وطيلة حصار دمشق ، وبقي الروم محصورين وراء فحل في وادي بيسان . فلما سلمت دمشق وكان الصيف قد أقبل ، وبدأت الأرض تجف ، ترك أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على قوة من فرسان اليمن بدمشق ، وتقدم معه خالد بن الوليد وقوات الجيش مجتمعة ، فبلغ فحل ووادى بيسان حين بدأ جفاف الأرض يسمح للجيش بالالتقاء والقتال .

وكان أبو بكر قد جعل إمارة الأردن لشرحبيل بن حسنة ، كما جعل حصص لأبي عبيدة ، والبلقاء ليزيد بن أبي سفيان ، والعربيات لعمر بن العاص ، وجعل القيادة العملية لمن

(١) يرجح بعض المؤرخين أن هاشم بن عتبة فصل إلى العراق بعد غزوة فحل . ويعتمد بعضهم في تأييد هذه الرواية على تاريخ الفائق في العراق وفي الشام . وتحديد هذه التواريخ تحديداً دقيقاً متعذر جداً لشدة اختلاف المؤرخين عليه .

يقع القتال في إمارته . ولم يعدل عمر عن هذا الأمر ؛ لذلك تولى شرحبيل القيادة على جيوش المسلمين المقيمين عند فحل ، من أقام منها بإمرة أبي الأعور السلمي من قبل أن تُحصَر دمشق ، من جاء منها بعد حصار دمشق بقيادة أبي عبيدة .

وبعث شرحبيل أبا الأعور في لوائه إلى طبرية فخاصرها ، وجعل خالد بن الوليد على مقدمة الجيش ، وأبا عبيدة وعمرو بن العاص على مجنبتيه ، وضرار بن الأزور على الفرسان . وسارت هذه القوات جميعاً فعبرت اليرموك عند أم قيس على مقربة من مصبّه بالأردن ، ثم تحطت وادي الغور ، حتى إذا بلغت فحل عسكرت بها فوقفت قبالة الروم ببيسان . ولما لم تستطع أن تتخطى الأرض المستوحلة إليهم تشاور الأسراء ، فكتبوا إلى عمر بموقفهم وأقاموا ينتظرون جوابه . ولم تكن قلة المؤونة تُعجلهم إلى الترحيل عن موقفهم ؛ فقد أصابوا من ريفة أفضل مما أصاب الروم ، إذ كان الخصب من حولهم يجعل مادتهم متصلة وعيشهم رغداً . وكان الروم يذامونهم يقفون في ثمانين ألفاً أشد ما يكونون حرصاً على أن يظفروا بأولئك الذين قضوا على قواتهم باليرموك وفتحوا عليهم دمشق .

ولما طال وقوف المسلمين عند فحل حثّل خيّل إلى سقلار بن مخراق قائد هرقل على قواته العظيمة أن الخير في أن يأخذ عدوه على غرّة منه فيوقع به ويقضى عليه . وتخبرت له طلائعه ، خلال الأرض المحيطة به ، مكاناً تسير منه قواته . فلما أقبل الليل تحطى بجنده هذا المكان ولا يخامرهم الريب في أن المسلمين قد أمنوه فهم في غير عُدّة لقتال ، وأنهم لذلك ستضطرب سفوفهم لأول صدمة من صدماته . لكنه قدر فأخطأ ؛ فقد كان المسلمون على حذر لا يأمنون بحجى الروم ، وكان شرحبيل لذلك لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة . لذلك تلقى سقلار وجنوده فقاتلهم أشد قتال وأمرّة . واستبسِل الروم مستقتلين ، فطالت المعركة الليل كله واستمرت اليوم الذي يليه إلى الليل . وكان لخالد ابن الوليد ولضرار بن الأزور يومئذ مواقف ذكّرت المسلمين بفعالها فيما سبقها من الفزوات والوقائع . فلما أظلم الليل خارت قوى الروم ، فاضطربت صفوفهم ، فانهزموا وهم حيارى بعد ما أصيب سقلار ومن يليه من قواده .

أما لهذه القوات المنهزمة من ملجأ تفر إليه أو خط دفاع تحتمى به ؟ كلا ! فقد

أسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فتعذر عليهم السير فيه ، فلحق بهم المسلمون ، وكانوا يحسبونهم على قصد فإذا هم في اضطرابهم لا يطيقون سيراً ولا فراراً ، ولا يستطيعون أن يردوا يد لأمس . وركبهم المسلمون فوخزهم بالرمح وألقواهم في الوحل وقتلهم شرقتلة فأصيب الثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد وكذلك ظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا ، واقتسموا ما أفاء الله عليهم ، واطمأنوا إلى أن الله ناصرهم ، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين بالمدينة يخبره بظفرهم ، وبأنه سيسير ومعه خالد بن الوليد إلى حمص .

وإزداد المسلمون بنصر الله إيماناً حين رأوه جل شأنه يصنع لهم وهم كارهون . كرهوا توخّل الأرض إذا حال بينهم وبين عدوهم ، فكان ما كرهوا عوناً لهم وحصاراً لعدوهم وقضاء آخر الأمر عليه أيما قضاء . أليست هذه آية الله وبرهانه على أنه لا محالة ناصرهم وأنهم سيدلون من دولة الروم والفرس جميعاً<sup>(١)</sup> ؟ .

كان أبو الأعور لا يزال محاصراً طبرية حين فرغ المسلمون من فحل . ونهد شرحبيل ومعه عمرو بن العاص من فحل إلى بيسان فنزل بجنوده يحاصرها . وتحصن أهل بيسان بكل مكان وحاولوا صد المسلمين . وما لهم لا يصدونهم وقد علموا أن خالد بن الوليد وأبا عبيدة عادا إلى دمشق ليسيرا منها إلى حمص ، وأن أبا الأعور لا يزال على حصار طبرية ، وأن قوات المسلمين مقسمة في أماكن مختلفة من الشام ، فالقوات التي بقيت منها لمحاصرتهم ليست مما يتعذر صده الكنهم لم تطل مع ذلك مقاومتهم واضطروا بعد قليل إلى التسليم وقبول صلح كصالح دمشق . ذلك بأن حالهم المعنوية كانت قد هوت إلى منحدر من الضعف بسبب ما أصابهم في اليرموك وفي دمشق وفي فحل . ثم إن أهل الشام لم تبلغ منهم عداوة المسلمين مبلغاً يعاون الروم على المقاومة ؛ فقد حكمهم الروم حكم بأس وقسوة لا يثيرون في النفس حماسة لهذا الحكم أو حرصاً على بقاءه . ومن أهل الشام قبائل كثيرة من العرب والنصارى ، تنازعتهم رابطة الجنس ورابطة الدين زمناً ، فهم عرب كالمسلمين ، ونصارى كالروم ؛ فلما رأوا ضعف هرقل وجبن بلاطه وهزائم قواده لم يَأْبَ بعضهم أن يكون

(١) يسمى المؤرخون هذه الموقعة غزاة فحل ، وغزاة بيسان ، وذات الردغة ، أي الوحل .



مع العرب المسلمين وأن يدآهم على عورات الروم . هذا إلى ما لانصر من لألاء يبهر الأنظار ويدعو الجماهير للإعجاب بالمنتصر والانضمام إليه .

وبلغ أهل طبرية ما أصاب بيسان وأهلها ، فطلبوا إلى أبي الأعور أن يصلحوا شرحبيل ، فجمعهم به فصالحوه كما صالحه أهل بيسان على صاح دمشق ؛ وذلك أن يشاطروا المسلمين المنازل في المدن وما أحاط بها ، فيدعوا لهم نصفها ، ويجمعوا في النصف الآخر ، وأن يدفعوا جزية ديناراً عن رأس كل سنة ، وكيلا من البر عن كل قدر معين من الأرض . واحتذى أهل أذرعاء وعمان وجرش ومآب وبُصرَ مثالم ، وصالحوا المسلمين مثل صلحهم . وكذلك أذعت بلاد الأردن إلى حوران وإلى البادية ، ورضيت سلطان المسلمين الذين أقاموا الجند في المدن ثم تركوا لأهلها إدارة شؤونها ، على أن يتولوا هذه الإدارة بالعدل والنصفة .

\* \* \*

والآن أتتابع أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد في مسيرتهما إلى حمص ، أم نسير مع هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو وجيش العراق لنرى ما فعل الله بالثني ومن بقي معه من رجاله ، ولنشهد القادسيّة مع سعد بن أبي وقاص ؟ وبعبارة أخرى : أتتابع قوات المسلمين في فتح الشام حتى يفتح الله عليهم الشام كلها ، أم ننتقل إلى العراق فنقص أنباءه إلى أن يتم فتحه ؟ جرى بعض المؤرخين على الطريقة الأولى ، وآر آخرون الطريقة الثانية . وسنتابع نحن الآخرين فننتقل إلى العراق ، لتكون رقعة الدولة الإسلامية تحت نظرنا نتابعها في مجموعها ، ونراها أمام أعيننا تنفرج شيئاً فشيئاً إلى الشرق وإلى الغرب . ذلك أدنى إلى أن نقدر الجهد الذي كان هؤلاء المسلمون الأولون يبذلونه في مواجهة الأسدين فارس والروم في وقت واحد ، أدنى كذلك إلى أن نحيط بسياسة عمر ، وأن نعرف كيف كان يواجه هذه الحوادث الجسام المتلاحقة ، وكيف كان ينهض معها بأعباء الحكم في المدينة وفي شبه الجزيرة جميعاً على نحو يزيد العرب طمأنينة إلى حياتهم ، وحماة للفتح الذي كان يُدرّ عليهم من خيرات فارس والروم ما لم يُدرّ مثله بنحو اطهرهم في أي عهد من عهود تاريخهم .

على أنه لا بد لنا ، قبل أن ننتقل مع هاشم بن عتبة وأصحابه إلى العراق ، من أن نقف وقفة قصيرة لنذكر هنا ما ذكرنا في سيرة أبي بكر عن اختلاف المؤرخين في التسلسل التاريخي لوقائع الفتح في الشام . فقد رأينا من حوادث هذا الفصل أن أبا بكر قبض والمسلمون على اليرموك ، وأن المسلمين انتصروا باليرموك في عهد عمر ، وذلك يوم أقبل البريد إلى الشام بوفاة أبي بكر وعزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش وبإسنادها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وأنهم ساروا بعد ذلك بأمر عمر إلى دمشق فحاصروها وفتحوها ، ثم عادوا بعد صلح دمشق إلى الأردن فطهروه وصالحوا أهله على صلح أهل دمشق . وهذه رواية الطبري وابن خلدون وابن الأثير وابن كثير ومن أخذ عنهم . أما الأزدي والوافدي والبلاذري فيخالفون الطبري في هذا الترتيب لوقائع الفتح في الشام ، ويذكرون أن أجنادين ودمشق وغيرها من الوقائع كانت قبل اليرموك . ويذهب بعضهم إلى أن اليرموك كانت آخر الغزوات بالشام . ومن العسير أن نقطع برأى حاسم في هذا الاختلاف . والطبري نفسه يذكر هذا الاختلاف ولا يقطع فيه برأى ، فيقول : « قال محمد بن إسحاق : كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة من رجب ، وكانت وقعة فحل قبل دمشق ، وإنما صار إلى دمشق رافضة فحل واتبعهم المسلمون إليها . وزعم أن وقعة فحل كانت سنة ثلاث عشرة في ذي القعدة . وأما الواقدي فإنه زعم أن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة ، وزعم أن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة ، وزعم أن هرقل جلا في هذه السنة بعد وقعة اليرموك في شعبان من أنطاكية إلى قسطنطينية ، وأنه لم يكن بعد اليرموك وقعة » .

لا غناء في الوقوف عند هذا الاختلاف ما دام القطع فيه برأى غير ميسور . وقد أخذنا في هذا الفصل برواية الطبري ومن أخذ مأخذه ، فلنجر عليها . ولن يجنى ذلك في شيء على ما نريده من التاريخ للإمبراطورية الإسلامية في عهد عمر . فسواء تقدم فتح دمشق على اليرموك أو تأخر عنه فوقائع الفتح متفق على جملتها وإن وقع الخلاف على تاريخها وعلى بعض تفاصيلها . ورواية الطبري عن سيف بن عمرو عن روى عنه أن اليرموك كانت في رجب من سنة ثلاث عشرة ( سبتمبر سنة ٦٣٤ ) ، وأن دمشق حوصرت في شوال من تلك السنة ، وفتحت في أوائل السنة التي تليها ( بين ديسمبر سنة ٦٣٤

وأوائل الربيع من سنة ٦٣٥ ) ، وأن فحل وقعت بعد دمشق في صيف سنة ٦٣٥ ، ثم تلتها سائر مدن الأردن .

سار أبو عبيدة وخالد بن الوليد بعد فحل إلى حمص ، وسار هاشم بن عتبة عائداً إلى العراق . فلندع خالداً وأبا عبيدة ، ولنسر مع جيش العراق لنشهد القادسية ، هذه الغزوة الفاصلة التي فتحت أمام المسلمين أبواب المدائن ، والتي تُعدّ في رأى المؤرخين جميعاً إحدى الغزوات الحاسمة التي وجهت تاريخ العالم وجهة جديدة .

## الفصل الثامن

### القادسية

قضت جيوش المسلمين على قوات الروم بفجّل ، فانصرف أبو عبيدة و خالد يريدان حمص ، في حين سار هاشم بن عتبة والقمقاع بن عمرو على رأس جيش العراق مدداً لقوات المسلمين فيه . وسار سعد بن أبي وقاص من المدينة مثل مسيرتهما من الشام على رأس جيش يزيد عدته على ثلاثين ألفاً وجهه عمر ليقضى على سلطان الفرس في العراق كله . وكانت إمارة سعد على هذا الجيش نتيجة مشاوره طويلة ؛ ذلك أن المثنى بعث إلى عمر بعد غزوة البويب يذكر له اجتماع الفرس وتمليكهم يزيد جرد بن شهر يار بن كسرى وإرساله الجيوش أثر الجيوش لقتال العرب ، وما أدى ذلك إليه من ثورة أهل السودان بالمسلمين ، واضطرابهم لإيامه للانسحاب إلى ذي قار على تخوم شبه الجزيرة . عند ذلك كتب عمر إلى عماله على الكور والقبائل في بلاد العرب كلها يقول لهم : « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والمجمل العجل ! ! » . وقال : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! » . فلما اجتمع له من الجند بضعة آلاف خرج بهم حتى نزل على ماء يدعي صرّاراً فمسكروا به ، ولا يدرى الناس أيسير بنفسه على رأس هذا الجيش إلى العراق ، أم يقيم بالمدينة ويؤمر على الجيش رجلاً غيره . وسأله عثمان بن عفان في ذلك ، فدعا الناس للصلاة ، فلما اجتمعوا سألم رأيتهم فيمن يسير على رأس الجيش إلى العراق . قال العامة : سيرٌ وسيرٌ بنا معك : ودخل عمر في رأيهم وكره أن يدعهم إلا أن يخرجوا من هذا الرأي في رفق . ثم إنه دعا أصحاب المشورة فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : احضروني الرأي فإنني حائر . وتراذوا القول بينهم ، ثم أجمع ملؤهم على أن يبعث أمير المؤمنين رجلاً من أصحاب رسول الله على رأس الجيش ويبقى هو بالمدينة يمد هذا الرجل بالجنود ، « فإن كان الذي يشتهي من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جنداً آخر يعيظ به العدو حتى يجيء نصر الله » . وكان مما قاله عبد الرحمن بن عوف لعمر في تأييد هذا

الرأى : « أقم وأبعث جنداً . فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد . فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك . وإنك تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون ، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً » . عند ذلك جمع عمر المسلمين فخطبهم ، وكان مما قاله لهم : « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم . وإنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً » .

وسأل عمر خاصته عن يتخيره لإمارة هذا الجيش الذى اجتمع إليه . وإنهم ليعرضون الأسماء فيما بينهم إذ جاء عمر كتاب من سعد بن أبي وقاص ، وكان على بعض صدقات نجد ، يخبره بأنه تخير له ألف فارس ذوى نجدة ورأى . وسمع القوم ما فى الكتاب وعمر يسألهم عن يومه . عند ذلك أجابوه : قد وجدت الرجل ! قال : فن ؟ قالوا : الأسد فى برائه ! سعد بن مالك ! . ووافقهم عمر ، وبعث إلى سعد فقدم عليه من نجد ، فأمره على حرب العراق ، ثم كان أول ما أوصاه به قوله : « يا سعد ، سعد بنى وهيب ! لا يفرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ؛ فإن الله عزل وجل لا يمحو السبيء بالسبيء . ولكنه يمحو السبيء بالحسن ! وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ؛ فالناس شريفهم ووضعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة . فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يازمه فالزمه ، وعليك بالصبر ! » .

وإنما أوصى عمر سعداً بهذه الوصية لما كان لسعد من مكانة بين المسلمين وقربى من رسول الله ؛ فقد كان من بنى زهرة أخوال النبى ، وكان من أسبق قريش إلى الإسلام أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان لذلك يقول : « أسلمت يوم أسلمت وما فرض الله الصلاة » . ويقول : « ما أسلم رجل قبلى إلا لرجل أسلم فى اليوم الذى أسلمت فيه . ولقد أتى على يوم وإنى لثُلتُ الإسلام » . وكانت عائشة ابنته تصفه بقولها : « كان أبى رجلاً قصيراً دحداً غليظاً ذا هامة شثن الأصابع أشعر ، وكان يخصب بالسواد » . وكان سعد ذا مال ونعمة ، فكان يرتدى الخنز ويلبس فى يده خاتماً من ذهب . وهو لذلك صاحب

حديث الوصية ؛ فقد مرض وهو بمكة في عفتوان شبابه مرضاً أشقى منه على الموت ، فماده رسول الله يوماً فقال له : « يارسول الله ! إن لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي ، أفأوصي بنتي مالى ؟ » . قال رسول الله : لا . قال سعد : فبئس ما ، وأجاب رسول الله : لا قال سعد : فالثالث ؟ عند ذلك قال رسول الله : « الثالث ، والثالث كثير . أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكففون الناس » .

وكان سعد إلى صفاته هذه فارساً شجاعاً وبطلاً مقداماً ، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله . شهد بدرًا وأحُدًا والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وغزوات الرسول كلها . وكان في فتح مكة يحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث . وقد ثبت يوم أحد مع رسول الله حين ولّى الناس ، ودافع عن رسول الله دفاعاً مجيداً حتى كان صلى الله عليه وسلم يقول له : ارزم سعد فذاك أبي وأمي ا . هذا إلى أنه أول من رمى سهماً في الإسلام حين ذهب في سرية عبيدة بن الحارث إلى ماء بالحجاز بوادي رابغ ، فلقبهم جمع من قريش على رأسهم أبو سفيان فانسحبوا من غير قتال إلا هذا السهم الذي رمى به سعد . ولذلك كان يقول : « إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله » . فارس هذه صفاته لا يجب أن يكون الأسد في برائه ، وأن يتفق الناس رأياً واحداً على تأميره في الجيش الذاهب للعراق ليواجه موقفاً من أدق المواقف التي واجهت المسلمين فيه .

خرج سعد من المدينة قاصداً العراق على رأس أربعة آلاف من الجند معهم نسائهم وأبنائهم . وكانت القوات تقبل بعد خروجه تتأذى إلى المدينة تلبية لنداء عمر ، فكان يبعثها في أثر سعد لتفضم إليه . بذلك ازداد جنده عدداً وقوة . وازداد في قوته أن بعثت شبه الجزيرة بخرية رجالها من الأبطال والفرسان والشعراء والخطباء والرؤساء وكان ذي رياسة ومكانة . وكان بين هؤلاء عمرو بن معدى كرب الزبيدي وطلحة بن خويلد الأسدي والأشعث بن قيس السكندى وغيرهم من الزعماء ، كل على رأس قبيلته . وبلغت القوات عشرين ألفاً حين اقترب سعد من زرود . أما قوات الشثي التي انسحبت إلى ذي قار بعد معركة البويب ، وبعد أن تولى يزدجرد أمر فارس ، فكانت ثلاثة آلاف انضم إليهم من القبائل المجاورة خمسة آلاف غيرهم . وكانت القوات التي فصلت من الشام

بإمرة هاشم بن عتبة ثمانية آلاف ؛ بذلك بلغ الجيش الذي سار من مختلف الأنحاء ليشهد القادسية ستة وثلاثين ألفاً أو نحوها . وذلك أضخم جيش عبّاه المسلمون لغزو العراق منذ سار المثنى إلى دلتا النهرين في عهد أبي بكر .

وقد اكتمل جمع هذه القوات كلها ، خلا القوة المقبلة من الشام ، حين بلغ سعد شَراف . لكن المثنى لم يكن في جنوده ؛ فقد نغر عليه جرح الجسرفات بعد أن استخلف على الجيش بشير بن الخصاصية . ولم يكن المعنى بن حارثة أخو المثنى في هذه الجنود أيضاً ؛ فقد علم أن قابوس بن قابوس بن المنذر ذهب إلى القادسية بأمر الفرس يدعوا العرب إلى الاشتراك مع جنود كسرى في قتال المساهين ، وأنه كاتب بنى بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان بن المنذر يكاتبهم به لينضموا إلى دعوته . وقد أسرع المعنى من ذى قار إلى بنى بكر بن وائل فأفسد على قابوس خُطته ، واستبقى قومه بنى بكر على ولائهم للمسلمين . ثم رجع إلى ذى قار فاصطحب سلمى زوج أخيه المثنى ، وسار بها حتى أدرك سعداً بشَراف حين أزمع الرحيل إلى القادسية .

ودخلت سلمى ودخل المعنى على سعد ، فقص عليه نبأ قابوس وبنى بكر بن وائل ، ثم ذكر له وصية المثنى إليه ألا يقاتل عدوّه من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وماؤهم ، وآلا يقتحم عليهم في عُقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حَجَرٍ من أرض العرب وأدنى مَدْرَةٍ من أرض العجم . فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تسكن الأخرى كانوا أعلم بسبيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يردّ الله الكفّرة عليهم فلما سمع سعد رأى المثنى ووصيته إزداد حزنه لموته وترحم عليه ، وأمر المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً . ثم خطب سلمى إلى نفسها فتزوجها وبنى بها . وكان مثل هذا الزواج بعض عادات العرب تكريماً لذكرى العظيم المتوفى وإكراماً لأرملته حتى تظل في مثل عزها وكرامتها في حياة زوجها الأول .

كان عمر بن الخطاب بالمدينة على علم بحركات جيش العراق وتنقلاته ؛ فقد كانت أوامره إلى سعد أن يكتب له في كل موقف وأن يتلقى أوامره . وكان سعد قد كتب إليه أول ما نزل شَراف وقبل أن يميئه الخبر بموت المثنى يذكر له أنباءه ويسترشده . فلما

قرأ عمر هذا الكتاب بعث إلى سعد ، فكان رأيه ك رأى المثنى في وصيته ، أمر سعداً بالمبادرة إلى القادسية ، والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وأن يكون بين الحجر والمدبر ، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس ، ثم قال له . « ولا يهولنك كثرة عددهم وعددهم فإنهم قوم خدعة مكررة . وإن أتم صبرتم وأحسستم ونويتم الأمانة رجوت أن تُنصروا عليهم ، ثم لم يجتمع شملهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن كانت الأخرى فارجعوا إلى ما وراءكم حتى تصلوا إلى الحجر فإنكم عليهم أجراً ، وإنهم عنه أجبن وبه أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم السكرة » . وكان مما ختم به كتابه قوله : « اكتب إلى جميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون ، وأين يكون منكم عدوكم ، واجعلني بكاتبك إلى كآني أنظر إليكم ، واجعلني من أمركم على الجليية » .

وكان عمر فيما يصدره من أوامره لا تفوته كبيرة ولا صغيرة ؛ فلم يكن يكفيه أن يشجع القواد والجند وأن يهز قلوبهم ، وأن يذكر لهم مفاخرهم ومفاخر قومهم ، ثم لم يكن يكفيه أن يحذّرهم بأس العدو وخذاعه ، بل كان يرسم لهم الخطط ، ويذكر لهم موعد الانتقال من مكان إلى مكان ، وكأما كان على علم بهذه الأرض وتقويتها . كان مما جاء في بعض كتبه إلى سعد قوله : « إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغيب خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنة ، فتكون مسالكك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدبر » . وكتب له باليوم الذي يرتحل فيه من شراف وقال له : « فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس . وشرّق بالناس وغرب بهم » . وجاء في كتاب آخر بعث به إلى سعد قوله : « اكتب إلى أين بلذك جمعهم ؛ ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ؛ فإنه قد منعتني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي يبنفسكم وبين المدائن صفة كآني أنظر إليها » . وكتب إليه سعد يصف البلدان ويصور له موقع القادسية بين التتيق ، أحد فروع الفرات ، وخذق سابور ، ويذكر له سهل القادسية الأخضر الممتد إلى الحيرة بين طريقيين يطلع أحدهما بمن سلسكه على ما بين الخورنق



والخيرة ويسير الآخر إلى الوَلَجَة في فيض من المياه ، ثم يذكر له أن أهل السواد الذين كانوا قد صالحوا المسلمين قد انتقضوا عليهم وانضموا عوناً لأهل فارس . وردَّ عمر على هذا الكتاب يقول : « قد جاءني كتابك وفهمتُه ، فأقم بمكانك حتى ينفض الله لك عدوك . واعلم أن لها ما بعدها . فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله . وإنه قد ألقى في رُوعِي أنكم ستهزموهم ، فلا تشكَّن في ذلك » . وجعل يدعو لسعد خاصة وله وللمسلمين عامة .

هذه الكتب للتبادلة بين سعد وعمر تشهد باهتمام أمير المؤمنين بأمر العراق ، وتبعية أنباء الجند فيه بدقة دونها كل دقة ، وحرصه بذلك على أن يكون وكأنه القائد الذي يسير على رأس الجيش ويجهِّز للمعركة ، فهو يوجهه ويشرف على كل حركة من حركاته . وقد كان ذلك شأنه مع جند المسلمين بالشام ، فكان يكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بمثل ما كان يكتب به إلى سعد بن أبي وقاص ، وكان يتابع بنظره ، بل بقلبه وكل جوارحه ، مسير هؤلاء القواد ومن يلونهم من الجنود ، وكأنه حاضر معهم ، وسائر في خطاهم ؛ مشفق عليهم من عدومهم ، شريك لهم في سرائرهم وضررائهم ، حريص أشد الحرص على نصرهم . وليبلغ هذا النصر جعل يذبح النداء تلو النداء في أرجاء شبه الجزيرة يدعو إليه كل قادر على القتال فيوجهه إلى العراق أو إلى الشام . ذلك بأنه لم يبق لديه ريب في أنه إن لم يفتح المدائن ويضم إليه العراق كله ، وإن لم يفتح حمص وأنطاكية ويضم إليه الشام كله ، بقيت بلاد العرب يهددها الأسدان فارس والروم . وتهديد بلاد العرب يهدد الدين الناشئ فيها . وحماية هذا الدين وحرية الدعوة إليه فرض عين على كل مسلم ، وعلى أمير المؤمنين قبل كل مسلم . ولا بد لحمايته من تقليد أظافر الأسيدين ، ومن القضاء على كل قوة تهدد شبه الجزيرة .

تأقَّى سعد كتب عمر ، فبدأ سيره من شَراف يريد القادسية . على أنه لم يفصل من شَراف حتى كان قد عبأ جيشه تعبئة عرفها عمر وأقرها . فأمر أمراء الأجناد ، وعرَّف العرفاء ، فجعل على كل عشرة عريقاً ، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة في الإسلام ، وجعل على المقدمة المُجَنَّبَيْن أبطالاً حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان في هذا

الجيش أربعائة وألف حاربوا مع رسول الله ، منهم بضعة وسبعون بدريةً ، وبضعة عشر وثلاثمائة ممن كانت لهم صحبة في بيعة الرضوان وما بعدها ، وثلاثمائة ممن شهدوا الفتح ، وسبعائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب . وسار سعد بالناس متمهلاً حتى بلغ العُدَيْب فنزلها وأقام بها زمناً قبل أن يسير إلى القادسية .

وكانت العُدَيْب من مَسَاحِ فارس الحصينة ذات البروج اللمبية . ولقد بلغت طلائع المسلمين في وجه الصبح ، فوقفت قبالتها ، وجعلت تنظر إليها فإذا رجل يتراءى بكل برج من بروجها . لذلك أمسكوا ولم يتقدموا ، حتى إذا أدركهم كَثُفٌ من الجيش ساروا يريدون اقتحام هذه البروج . فلما دنوا منها رأوا رجلاً يركض نحو القادسية ، ورأوا البروج خلاء ليس بها أحد . عند ذلك أيقنوا أن الرجل كان مكيدةً ، وكان يتراءى بين البروج ليبراهم ويعرف قوتهم فينطلق بخبرهم إلى الفرس . ثم وجدوا بالبروج رماحاً ونشاباً وأسفاطاً انتفعوا بها . وقد انطلق في أثر ذلك الفارس زُهْرَةُ الحَوِيَّةِ ليأسره فلم يدركه ، فعاد يشارك المسلمين في الحديث عن ثباته ورباطة جأشه .

استقر سعد بالعُدَيْب حين لم يجد بها من الفرس أحداً ، ثم جعل يبعث قوات من جنده تُغِيرُ على ما حولها تنشر الرعب في نفوس الناس وتجيء بالفنائم والأسرى . وقد سارت إحدى هذه الغارات بليل تريد الحيرة ، فلما جاوزوا السَّيْلِيْحِينَ وقطعوا جسرها في طريقهم إلى عاصمة اللخمين سمعوا جلبة وضوضاء ، فأحجموا وأقاموا كميناً حتى يتبينوا . وإنيهم لسلك ذلك إذ جازت بهم خيول تتقدم ابنة مرزبان الحيرة تُزَفُّ إلى صاحب الصَّيْنِيِّين أحد أشرف العجم . فلما جازت الخيل كمين المسلمين حمل هؤلاء على من يحيطون بالعروس فقروا ، فأخذوا الأثقال وأخذوا ابنة المرزبان في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوايح ومغام عظيمة القيمة ، ثم رجعوا بذلك كله إلى سعد بالعُدَيْب فقسمه بين المسلمين .

تولى أهل العراق الفرز فأنكشوا وسكنت ثورتهم بالمسلمين . واطمان سعد إلى موقفه بالعُدَيْب فحصن الموقع ، وترك به كثيراً من أسر العرب ، ووضع به خيلاً يحمي هذا الحرم ، وأمر عليهم غالب بن عبد الله الليثي ، ثم سار إلى القادسية فنزل بها بحصن قُدَيْس ، ونزل زُهْرَةُ بن الحَوِيَّةِ بجبال قنطرة العتيق ، ووَزَعَ الجند كلَّ فرقة في مكان ، وأقام بها

يبعث الغارات تجيء إليه بمؤونة الجيش غنماً وأبقاراً وبراً ودقيقاً وكل ما يحتاج إليه الناس<sup>(١)</sup>. وأقام سعد بالقادسية شهراً خصب الجيش فيه بما كان يجيء من الطعام في هذه الغارات التي اتسع نطاقها بين الحيرة وكسكركم والأنبار. وكتب سعد إلى عمر يخبره بموقفهم، ولعله وصف القادسية أدق الوصف في هذا الكتاب، ويذكر له أن الفرس لم يوجهوا إليهم أحداً ولم يسندوا أحداً إلى قيادة جيش لمحاربتهم فيما يعلمون. ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن علم من أهل الحيرة أن يزيد جرد وتي رستم بن الفرخزاد أمر الحرب، وأمر بالسير لمواجهة المسلمين، فكتب إلى عمر كره أخرى بالخبر. فكتب عمر إليه. « لا يكرُّ بك ما يأتيك عنهم ولا ما أتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليهم رجلاً من أهل المنظرة والرأى والجلد يدعونه، فإن الله عاجل دعاءهم نوهيناهم وفلجاً عليهم. واكتب إلي في كل يوم». قد تعجب لتباطيء الفرس دون مواجهة سعد وجنوده، بعد اجتماعهم على يزيد جرد ومعاونتهم له حتى ينتقم لهم من هزيمة جيوشهم بالبُويب. فقد فصل سعد عن المدينة في أوليات الربيع من تلك السنة، ثم أقام بشراف وبالغديب أشهراً، وأقام بالقادسية أكثر من شهر قبل أن يعلم بمسيرة عسكر من الفرس لقتاله. فأين كان الفرس؟ وماذا كان يصنع يزيد جرد طيلة هذه الأشهر؟

الواقع أنهم لم يكونوا في غفلة عن الأمر؛ فقد بعث يزيد جرد إلى رستم بن الفرخزاد وقال له: « أنت رجل فارس اليوم؛ وأنا أريد أن أوجهك لقتال العرب ». وأجابه رستم: « دعني بالمدائن، فلعل الدولة أن تثبت بي إذا لم أحضر الحرب، فيكون الله قد كفي ونكون قد أصبنا المكيدة. والرأى في الحرب أنفع من بعض الظفر، والأناة خير من العجلة، وقتال جيش بعد جيش أشد على عدونا. ولن تزال العرب تهاب العجم

(١) يذكر الطبري وغيره من المؤرخين أن عاصم بن عمرو سار في إحدى هذه الغارات إلى ميسان فتحصن أهلها منه بالأجام، فأسر رجلاً واستدله على البقر والغنم، خلف له أنه لا يعلم شيئاً من أمرها، مع أنه كان راعياً، فصاح ثور من داخل الأجمة: كذب والله هانحن أولاء! فدخل عاصم الأجمة فاستاق الثيران كلها. ويضيفون أن الحجاج عرف هذه الرواية في زمانه فكذبها، فأقسم الذين شهدوا الحادث بصحتها فصدقهم. ولا شيء يقتضى تكذيب الرواية إذا ردت إلى المقول. والمقول أن الراعى كذب وأن الثيران بعد ذلك خارت، فاقتم المسلمون الأجمة واستاقوها. ولا تفسير لحوارها عندهم إلا أنها كانت تقول: كذب والله، وهانحن أولاء تمالوا فاستاقونا!

مالم تضرهم بي « ونظر يزيد فيما قال رسم وشاور أهل الرأي فيه . فلما بلغه ما فعل العرب وأخذهم ابنة مرزبان الخيرة وغازتهم على بلاد العراق ، أعاد القول على رسم ، وأعاد رسم كلامه وقال : « لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدءاً لم أنسكلم به . فأشدك الله في نفسك وملسك ادعني أقم بمسكري وأسرح الجالينوس ، فإن تكن لنا فذلك ، وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدءاً ولا حيلة صبرنا لهم وقد همتناهم وحسرتناهم ونحن جاثون . فإن لا أزال مرجواً في أهل فارس مالم أهزم » .

فلما اشتدت غارات العرب على السواد من أسفله إلى أعلاه ، وبعث مرزبانته ودهاقينه إلى يزيد أنه إن لم ينجدهم نزلوا على أمر المسلمين طائمين أو كارهين ، زال من نفسه كل تردد وأمر رسم فسار إلى ساباط . وعلم سعد بمسيرته فكاتب إلى عمر فأجابه بما قدمنا وأمره أن يبعث إلى صاحب القرمس من يناظرونه ويدعونه .

أفراد عمر بكتابه أن يبعث سعد رسله إلى رسم ، أم إلى يزيد ؟ وإلى أيهما سار الرسل بالفعل ؟ هنا تختلف الروايات : فيجري بعضها بأن الرسل تحدثوا إلى رسم ، فلما أخفت رسالتهم وقعت القادسية . ويذهب بعضها إلى أن الرسل ذهبوا وفداً إلى يزيد بالمدائن فأخفت رسالتهم فكانت القادسية . وتجري رواية ثالثة بأن الرسل ذهبوا إلى رسم ، فلما لم تنجح مهمتهم ذهبوا وفداً إلى يزيد فلم يكونوا أكثر توفيقاً في إقناعه ، فعادوا من المدائن ليشاركوا إخوانهم المسلمين في غزوة القادسية .

ولعل وفد المسلمين ذهب إلى يزيد بالمدائن قبل أن يلقى أحداً منه رسم بالقادسية فقد كان رسم لا يزال بساباط على مقربة من المدائن كما رأيت ، ولم يكن قد سار منها إلى القادسية ليقف قبالة سعد وجيشه على ضفة الفرات الأخرى . وكان رسم يبطله في مسيرته تنفيذاً للسياسة التي أشار بها على يزيد . لذلك اكتفى حين بلغ ساباط بما بعثه مسيرة جيشه من الطمانينة إلى نفوس أهل السواد . ثم بعث إلى أهل الخيرة وإلى غيرهم من أهل المدن المنتشرة من أسفل السواد إلى أعلاه بعائتهم لترزع عقيدتهم في قوة دولتهم ولفرعهم من العرب ، ويعددهم أنه بمزق شمل هؤلاء العرب ، وملق بهم إلى صحارى شبه الجزيرة ؛ فلا تحدثهم أنفسهم بالعودة إلى العراق أبداً .

أما سعد فلم يكن له من تنفيذ أمر عمر بد<sup>٤</sup> . لذلك بعث إلى يزيد جرد وفداً فيه أهل الرأى والسياسة والشجاعة ، بينهم النعمان بن مقرن وفُرات بن حَيَّان والأشعث بن قيس وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شُعْبة والمعتى بن حارثة وغيرهم من أمثالهم ، وأمرهم أن يدعوه إلى الإسلام ، فإن أبي فالجزية ، وإلا فالمناجزة . وبلغ الوفد المدائن ، فعجب أهلها حين رأوا رجاله عجافاً ، وجعلوا ينظرون إلى أشكالهم ، وإلى أرواحهم على عواتقهم ، والسيّاط في أيديهم والنعال في أرجلهم ، وإلى خيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، ويتساءلون بينهم : كيف يُقدِّم هؤلاء على غزونا ويطعمون في الظفر بنا واقتحام عاصمتنا ؟ واستأذن الوفد على يزيد جرد ، فاستدعى وزراءه واستشارهم ، ثم أذن للوفد فدخل عليه ، فقال لهم في كبرياء وعظمة : « ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أتراكم اجترأتم علينا لئلا تشاغلنا بأنفسنا ؟ » فأجابه النعمان بن مقرن وذكر له بعث الله رسوله في العرب وما جاء به من عند الله ، ودعاه إلى الإسلام ، ثم قال له : « فإن أبيتهم فالجزية ، فإن أبيتوها فالفاخرة » . وختم كلامه بقوله : « فإن أحببتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم ؛ وشأنكم وبلادكم . وإن أبيتهم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » .

كبر على يزيد جرد أن يسمع مثل هذا القول ، ولكنه آثر الحكمة والحلم مقرنين إلى الحزم فقال : « إنى لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، وقد كنا نؤكل بكم قرى الضواحي ليكشفوناكم ، ولا تغزوكم فارس ولا تطعمون في أن تقدموا لهم . فإن كان عددكم كثر فلا يغرتكم كثرتكم ، وإن كان الجهد دعاءكم فرضنا قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملسنا عليكم ملكاً يرفق بكم » . وسمع الوفد هذه المقالة فسكتوا ، عند ذلك قام المغيرة بن شُعْبة فقال : « أيها الملك ، هؤلاء رموس العرب ووجوههم ، وهم أشرف يستحيون من الأشرف . وإنما يُكرم الأشرف يُعظم حقهم الأشرف . وليس كل ما أرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمت به أجاوبك عنه . فجأوبنى لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى . فأما ما ذكرت من سوء الحال فهى على ما وصفت وأشد . . . » ، وذكر له من سوء عيش العرب وإرسال الله

رسوله إليهم على نحو ما قاله النعمان بن مقرن ، ثم قال : « اِخْتَرْتُ : إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تسلّم فتنتجى نفسك » .

لم يطق يزيدجرد الصبر على ما سمع فقال وقد أخذ منه الغضب : « لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم . لا شيء لكم عندي ! » . ثم أمر من جاء بوقر من تراب فقال : « احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . إرجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مُرسِلٌ إليه رُسُتُم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ! » .

لم يفزع الوفد لغضب يزيدجرد ولم تنفخ قلوبهم لوعيده ، بل قام عاصم بن عمر فحمل التراب على عاتقه وهو يقول : « أنا أشرفهم ، أنا سيد هؤلاء » . وسار يحمل التراب فخرج من الإيوان ، إيوان كسرى ، فركب راحلته وانطلق وأصحابه حتى بلغوا القادسية ودخلوا على سعد بخصن فديك ، وقصّ عاصم بن عمرو ما حدث وكيف حملوا أرض فارس ثم قال : « أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم » .

يتفق مؤرخو العرب جميعاً على رواية ما حدث بين يزيدجرد ووفد سعد ، ولا يقع بينهم خلاف إلا على بعض العبارات التي تبادلها الفريقان . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الروايات وُضعت من بعد ، إن لم يكن في جوهرها ، فعلى الأقل في تفاصيلها . ونحن لم نورد هنا من هذه التفاصيل إلا أقلها . ويستشهد المستشرقون على ما يقولونه بأن هؤلاء المؤرخين المسلمين لا يفوتهم في كل مناسبة يتصل فيها وفد من المسلمين بغيرهم من الجوس أو من النصارى أن يُجروا على لسان المتكلمين من المسلمين حديث العرب قبل بعث النبي وما كان بينهم من عداوة وبغضاء ، وما كانوا فيه من بؤس وشقاء ، حتى إذا بعث الله رسوله إليهم بالهدى ودين الحق آتف بين قلوبهم ، وأغناهم من جوع ، وأفاء عليهم من الخير ما لم يعرفه آباؤهم وأجدادهم . ومع أن هؤلاء المسلمين من كانوا يعيشون قبل الإسلام في رخاء ونعمة ، كأهل اليمن وأهل البلاد التي تشاطئ الخليج الفارسي ، لقد نسب المؤرخون مثل هذه الأقوال إلى المسلمين الذين هاجروا في عهد النبي إلى أرض الحبشة ، وذلك حين دعاهم النجاشي وسألهم عن سبب خروجهم على دين قومهم .

وقد نسبوا مثلها إلى المسلمين الذين ذهبوا إلى أرض العراق واتصلوا بأهله في عهد أبي بكر. ثم نسب ما يشبهها إلى خالد بن الوليد حين لقي جرعة القائد الرومي في موقعة اليرموك. وهام أولاء ينسبون مثلها إلى الوفد الذي لقي يزدجرد. أفلا يدل ذلك على أن هذه الأقوال وُضعت في أزمان متأخرة لغايات سياسية، وأنها أُجريت على السنة المسلمين الأولين دعايةً للإسلام من ناحية، وتثبيتاً لسلطان أمير المؤمنين من ناحية أخرى؟

وبضيف المستشرقون، تأييداً لتقدمهم، أن المؤرخين المسلمين لا يتورعون عن رواية أمور هي أدنى إلى الخرافة. من ذلك أن يزدجرد دعا إليه أولى الرأي ودعا رستم من ساباط، وذكر لهم ما كان بينه وبين وفد المسلمين وقال: إنه استحمق أشرفهم لحمله التراب على رأسه، ولوشاء اتقى بغيره. فقال له رستم: إنه ليس بأحق، وليس هو بأشرفهم، وإنما أراد أن يفتدى قومه بنفسه. وتطير رستم لما سمع، وخرج من عند الملك غضباناً كثيراً. ذلك أنه كان منجماً دلته النجوم على أن الذين خرجوا من اللدائن بترابها إنما خرجوا معهم بأرض فارس. وليتقى مغبة هذه النبوءة بعث في أثرهم رجلاً وقال: «إن أدرك التراب فرده تداركنا أمرنا، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا».

ولما لم يدرتهم الرجل ازداد رستم تطيراً، واستهجن رأى الملك وفعله.

لكنه مع ذلك لم يستطع أن يخالف الملك حين أمره أن يسير لمواجهة المسلمين. ذلك أن يزدجرد قال له: «لتسيرن أو لأسيرن بنفسى». وسار رستم من ساباط، وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وخرج هو في ستين ألفاً، وجعل على الميمنة الهرمزان وعلى الميسرة مهران بن بهرام الرازى، ثم إنه كتب إلى أخيه البندوان يقول: «أما بعد فرموا حصونكم واستعدوا وأعدوا. فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم. وقد كان من رأي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تنقلب سعودهم نحوساً». وبعد أن ذكر ما يرى من ذلك في النجوم ختم كتابه بقوله: «ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظفرون علينا ويستولون على ما يليقنا». مع ذلك تابع سيره وكأنما يدفعه القدر كارهاً إلى حتف فارس وحتفه.

يرى المستشرقون هذه الرواية عن حديث النجوم أدنى إلى الخرافة، ويجدون فيها

تأييداً لفضهم رواية المؤرخين المسلمين عما دار بين وفد سعد ويزدجرد. ولا أرانى أميل  
مياهم وإن كنت لا أتتهم فيه .

فأما أن المسلمين الأولين كانوا يذكرون لعدوهم ما كانوا عليه من فرقة وضعف قبل  
الإسلام ، وما صاروا إليه من وحدة وعزة حين اجتمعوا إلى لوائه ، وأنهم كانوا يحدثونهم  
عن بعث رسول الله بهذا الدين وعن المبادئ السامية التي جاء بها فكان أتباعها سبب عزتهم  
ووحدتهم - أما ذلك كله فلا عجب فيه ولا موجب لابتداعه من بعد لغايات سياسية  
أو غير سياسية . فقد كان هذا الدين ثورة على العقائد والنظم السائدة يومئذ في بلاد العرب  
وفي فارس والروم ، وكان ثورة عالمية قام صاحب الرسالة بباغها للناس كافة ويدعوهم  
إلى اعتناق مبادئها ، ويُلقي على الذين آمنوا به واتبعوه أن يقوموا في هذه الدعوة مقامه .  
وقد كتب رسول الله إلى هرقل وإلى كسرى وإلى غيرها من الملوك والأمراء يبلغهم  
رسالة الإسلام ويدعوهم إليه . فليس عجباً أن يحدو المسلمون في ذلك حذوه ، وأن يتحدثوا  
عن دينهم في كل مكان نزولهم ، وإلى كل شخص اتصل بهم أو اتصلوا به ، بل ذلك كان  
الطبيعي يومئذ ، وهو الطبيعي كلما قامت ثورة تدعو إلى مبدأ جديد . كان رجال الثورة  
الفرنسية يتحدثون عنها ويذيعون مبادئها حينما نزلوا من بقاع الأرض ، وكانوا يذكرون  
ما أصاب فرنسا قبلها من اضطهاد وظلم ، وما نالت فرنسا بعدها من سؤدد وعزة مكان  
أدت إليهما مبادئها السامية . وكذلك فعل الروس ولا يزالون يفعلون . فليس العجب في  
أن يتحدث المسلمون عن دينهم وأن يذكروا سوء حالهم قبله ورفعة مكانهم بعده ، وإنما  
يكون العجب ألا يفعلوا ، وكيف المؤمن ألا يدعو الناس إلى ما يؤمن به وهو يعتقد أنه  
الحق ، ويعتقد أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ! وكيف لمؤمن يرى في المبادئ التي  
يدين بها قوام السعادة الإنسانية ، ثم لا يدعو الناس إليها ، فإذا آمنوا بها كفاه ذلك  
منهم وكان أساساً للإخاء الصحيح بينه وبينهم ، وأساساً لخيرتهم ولسعادتهم وسلامهم !  
أما القول بأن حديث النجوم أدنى إلى الخرافة ، فذلك مالا أتعرض للخوض فيه ؛  
فلست عالماً بالنجوم ، ولست أعرف لذلك مبلغ ما تهدينا إليه من علم بشؤون هذه الأرض  
التي نعيش عليها ، وما يقع من الأحداث فيها . على أن كثيرين لا يزالون يؤمنون بها



ويحسبون أن علمها يهديهم إلى ما يغيب عن غيرهم. ومهما يكن من شيء فالثابت أن الفرس في ذلك العهد قد كانوا من أكثر الناس اطمئناناً إلى علم النجوم واهتداءً بها في حياتهم العامة والخاصة، وأنهم لم يكونوا يرون علمها حديث خرافة. ومن الواجب على المؤرخ ألا يجعل مقياسه في ثبوت الوقائع وعدم ثبوتها مبلغ اتفاقها مع تقديره الذاتي للأمر والآراء، وإنما يكون مقياسه لصحتها عقائد الناس وآراءهم في الزمن الذي حدثت هذه الوقائع فيه. أما والفرس كانوا يزاولون في ذلك العهد علم النجوم، فأبلغ الظن أن أمراء الجند منهم كانوا أشد الناس بهذا العلم عناية. والمتواتر على كل حال أن رسمهم كان علماً بالنجوم، وأنه رأى فيها ما يُضمّره الغيب لفارس، وأن طموحه وكبرياءه هما اللذان دفعاه ليخالف ما رأى، وليشارك بوران في حكم بلاده وأن يسير بأمر يزيدجرد على رأس الجند للقواء سعد بن أبي وقاص والمسلمين.

بينما كان رسم يسير على رأس مائة وعشرين ألفاً من جنود فارس يريدون القادسية كان سعد يبعث بالغانرات إلى النجف والفراض ومنازل القبائل المنتشرة في السواد، يستاقون منها الدواب والماشية والغلال وشتى ألوان الطعام إلى جند المسلمين.

وبلغ رسم الخيرة وكانت قد هادنت المسلمين، فدعا إليه كبارها ولا مهمهم على ما صنعوا وهدد دمهم وبالانتقام منهم؛ فقال له حكيمهم: لا تجمع علينا أن تمجز عن نصرتنا، وتلومنا على أن ندفع عن أنفسنا. وجاوز رسم الخيرة إلى النجف، وقدم الجالينوس إلى السيلجيين. وإياه بالنجف إذ علم أن خيول المسلمين تُفيمر على النهرين، فأرسل إليهم قوة تقاتلهم. وعرف المغيرون نبأ هذه القوة، فرجع عمرو بن معدى كرب ومن معه أدراجهم إلى طليحة ابن خويلد الأسدي فإنه أبي أن يرجع معهم، وقال له أحدهم إذ رأى إياه: «أنت رجل في نفسك غدر، ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن»، يشير إلى ما كان من رجال طليحة حين تنبأ وقاتل خالد بن الوليد في غزوة البزخة<sup>(١)</sup>. مع ذلك أصر طليحة على إباته أن يرجع معهم، ومضى حتى دخل عسكر رسم خفية وقتل اثنين من فرسانه وساق جواديهما ثم خرج يعدو به فرسه، فركب جماعة ومن أصحاب رسم في طلبه فقتل

(١) تفصيل ذلك في الفصل السابع من كتاب (الصديق أبو بكر).

اثنين منهم وأسر الثالث وقد شارف عسكره . عند ذلك ارتدّ طالبوه ، ودخل هو على سعد والأسير معه . وقال الأسير حين سأله سعد عن فعال طليحة : « باشرت الحروب منذ أنا غلام ، وسمعت بالأبطال ، فلم أسمع بمثل هذا . إن رجلا قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهدمك عليهم البيوتات ، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعدّ بألف فارس ، ثم الثاني وهو نظيره ، ثم أدركته أنا وخلقّت من بعدى من بعدلنى وأنا اللئيم بالقتيلين ، فرأيت الموت واستؤسرت » .

وتابع رستم مسيرته حتى بلغ القادسية بعد أن قضى أربعة أشهر مذ فصل من المدائن للقاء عدوه . وإنما تمهل وتباطأ ظناً منه أن يهين العرب إذا لم يجدوا مؤونة تكفيهم ، أو أن يسأموا طول القام فينصرفوا إلى بلادهم . وتمهل كذلك تطييراً من لقاء سعد بعد ما دلته النجوم على سوء مصير فارس . وقد رأيت أنه كان يؤثر البقاء بالمدائن وأن يعيّر لقتال العرب جيشاً إثر جيش حتى يتضعضع ركنهم وينهدّ عزمهم . لكن يزدجرد أبى عليه رأيه وأمره أن يسير بنفسه ، فتباطأ حتى قضى هذه الأشهر الأربعة في طريق كان يستطيع قطعها في أيام معدودات .

بلغ رستم القادسية في جيش عدته مائة وعشرون ألفاً ، يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلاً بينها فيل سابور الأبيض ، وكانت سائر الفيلة تألفه وتتبعه . لكنه كان يود ، مع جسامته هذه القوة ، أن يصرف العرب عن بلاده دون قتال ، علماً منه أنه إن يهزم دونهم تفتتح لهم أبواب المدائن وأبواب فارس كلها ؛ فهو رجل فارس الذي تشرّب إليه الأعناق من كل صوب ، والقائد البطل القادر ليس في فارس كلها بطل مثله ، وهو قد تطيّر من النجوم ودلائلها . ثم إنه رأى في نومه أحلاماً زادت به بدلالة النجوم إيماناً هذا إلى ما أبدى العرب من بطولة لم تثبت لها أعداد فارس وعددها ، ولم تثبت لها الفيلة في الغزوات المتلاحقة التي بدأت منذ أقديم المئتيّ دلنا التهرين إلى أن انتصر على الفرس انتصاره العظيم بالبويب . ففي هذه المواقف جميعاً كان العرب دون الفرس عدداً وعدة . وكانوا مع ذلك يلفنون منهم ويركبون أكتافهم ، وينقلون النساء الطائفة بعد انتصارهم . هم إذا قوم كُتب

النصر لهم . فإن هو ردّهم إلى شبه الجزيرة دون قتال أسدى إلى بلاده وإلى مليكته يداً دونها كل نصر .

صفت رستم إذا عسكره قبالة عسكر المسلمين ، وقدم القبيلة أمامه ، وبدا بذلك في مظهر من القوة يُدخل إلى النفوس الرعب . ثم إنه بعث إلى سعد ليبعث له رجلاً من عقلاء المسلمين يبين له ما جاء هؤلاء المسلمون فيه . وعبر إليه المغيرة بن شعبة وجلس معه على السرير ، وحدثه عن رسول الله وبعثه بمثل ما حدث أصحابه يزجرجد بالمدائن ، وقال له : « إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عليه » ، ثم انتهى من حديثه إلى ما انتهى إليه أصحابه : أن يسلم الفرس أو يؤدوا الجزية ، فإن أبوا هذا وذاك فالقتال .

وعظم على أصحاب رستم أن يذكر المغيرة الجزية تفرضها العرب على فارس ، فهاجهاً بهم . لكن رستم استعمل المغيرة حتى يُروى في الأمر ، ثم بعث الغداة إلى سعد أن يوفد إليه من يحدّثه حديث الصلح . وتسكلم رسول سعد بمثل حديث المغيرة ، فعرض عليه رستم ما عرضه يزجرجد على أصحابه ، أن يفرض للعرب قوتاً إلى خصمهم ، وأن يُكرم وجوههم ، وأن يعودوا إلى بلادهم . فلما أبى سفير المسلمين منه إلا الإسلام أو الجزية أو القتال ، استمهله رستم كرة أخرى ، ثم بعث يطلب سفيراً آخر . وكان المسلمون منذ عهد النبي لا يؤجلون مثل هذه السفارات أكثر من ثلاثة أيام يكون بعدها الصلح أو تكون بعدها الحرب . فلما أصر المسلمون على موقفهم : الإسلام أو الجزية أو القتال ، لم يبق من الحرب مفرّ .

ترى هل بلغ من تطير رستم وإشفاقه من مصير القتيال أنه كان يريد الصلح بأي ثمن ؟! تذهب بعض الروايات هذا المذهب ، ويذكر بعض المؤرخين أن رستم مالت نفسه إلى الإسلام لولا أن رده أصحابه عنه . وهذا رأى مرجوح يدفعه ما سترناه من بأس الفرس في اليومين الأولين من وقعة القادسية . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن رستم أراد بمطالبة المسلمين أن يوقع الخلاف بينهم في الرأي ، فإذا اختلفوا بعد الذي رأوا من قوة هذا الجيش الزاحف إليهم زادهم اختلافهم ضعفاً وعجزاً عن مقاومة القائد القادر وجنوده .

وأثما الرأيين صح ، فقد بقي المسلمون لا يتغير رأى واحد منهم عن رأى صاحبه ، ولا يرضى أحد منهم دون الإسلام أو الجزية إلا بالقتال . عند ذلك بعث رستم إلى سعد يقول له : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم . وما كان لسعد أن يعبر النهر ومثلُ غزوة الجسر حاضر أمام ذهنه . وما كان له أن يدع رستم يعبر إليه وينظم صفوفه لقتاله . لذلك بقي مكانه مطمئناً إلى موقفه يحميه النهر من أمامه ، وخندق سابور عن يمينه ، والصحراء المترامية وراء ظهره .

ما كان لسعد أن يعبر النهر ، وما كان لرستم أن يقف جامداً مكانه ؛ فقد تضعضعت هيبة الدولة وضعف سلطان المدائن في نفوس أهل العراق من فرس وعرب . فإذا لم يضرب رستم في القادسية ضربته ، أو شك هذا السلطان أن ينهار ، وأوشكت هذه الهيبة أن تزول . هذا إلى أن جنود يزيد جرد كانوا يتحرقون للقاء المسلمين يريدون أن يزيلوا مالخق إخوانهم قبل ذلك من خزي وعار . لذلك لم يكن لرستم بدٌّ من أن يعبر النهر وأن يلقى عدوه . وإذا أبى سعد عليهم أن يعبروا العتيق على القنطرة وقال لهم : لا نردّ عليكم شيئاً غلبناكم عليه ، فقد تمهل رستم حتى جنّ الليل ، ثم أمر رجاله فطمّوا العتيق بالتراب والقصب وبكل ما كان لديهم مما لا حاجة لهم به في الحرب . وعلى هذا الجسر عبر جيش الفرس ، ثم جعل رستم الفيلة في القلب والمجنّبتين عليها الصناديق والرجال ، وجعل جنوده من وراءها ، وضرب لنفسه قبة نصب فيها سريره الفخم المسكّفت بالذهب . بذلك وقف الجيشان متأهين للقتال ينتظران بداء بين ساعة وساعة ، وهما يعلمان أنهما مقبلان على معركة حاسمة ليس بعدها إلا أن يندحر الفرس فيفتح أمام العرب طريق المدائن ، أو يندحر العرب فيعودوا إلى صحارى شبه الجزيرة ، وليس يعلم إلا الله أيستطيعون بعده أن يعودوا إلى العراق كرة أخرى . معركة ذلك شأنها كان يزيد جرد حريصاً على أن يعرف أنباءها ساعة فساعة ، بل لحظة فلحظة ، حتى كأنه حاضرها . وقد كان ، على النقيض من رستم ، واثقاً بحسن مصيرها . أليس شاباً ، والشباب لا يعرف اليأس ولا يتصور الفشل والهزيمة ! أو لم تجتمع فارس حوله كما لم تجتمع حول أحد سبقه على العرش ، وقد عقدت العزم على أن تنصرا ! هي لا ريب ستنتصر إذاً . لذلك اشتد حرصه على أن يتابع أطوار المعركة التي تنصُرُها .

ولذلك وضع الرجال من المدائن إلى القادسية ، يُلقى أذنانهم من المعركة بأبنائها إلى من بعده فيلقها هذا إلى من يليه ، وهكذا حتى تبلغ المدائن ؛ بذلك تطير الأنباء نبأ بعد نبأ إلى مسامعه ، فيتلقاها وهو أشد ما يكون ثقة بأن يأتيه النبأ الأخير منها بانتصار رجاله الحاسم . ولعل أول نبأ سمعه قد زاده استبشاراً بالخاتمة التي يؤمن بها . ذلك أن سعد بن أبي وقاص عاوده أول المعركة مرض كان يتردد عليه جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس فهو مكبٌ على وجهه في صدره وسادةٌ يعتمدُ عليها ويشرف على الناس من القصر يرى بالرقاع فيها أمره ونهيه . ذلك المرض كان عِرْقُ النَّسَاءِ ودما مل جعلت هذا الفارس البطل ذا الفعال الجيدة يعجز عن كل حركة يوجبها مكانه من جيش المسلمين في هذا الوقت الرهيب . وزاد يزدجرد استبشاراً ما ألقى إليه من ترَم بعض المسلمين بسعد وتندّرهم بمرضه ، حتى ليقول قائلهم :

فأبنا وقد آمت نساء كثيرةٌ ونسوة سعد ليس فيهن أئيمٌ  
فأبنا وقد آمت نساء كثيرةٌ ونسوة سعد ليس فيهن أئيمٌ

وبلغ سعداً ما يقندر به الناس وأن طائفة من وجوه القوم تنهه وتشغب عليه وترميه بالخور وضعف العزم ، فحز ذلك في نفسه وأثار غضبه ، فقال لمن حوله : اخلونى وأشرفوا على الناس . وارتقى به من حوله ، ورأى الجند ما به من الوجع فعذروه . لكن ذلك لم يَكْفِهِ ، بل شتم الذين شغبوا عليه وهم بهم وقال لهم : « أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم جعلتكم نكالا لغيركم . والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سنّةً يؤخذ بها من بعدى » وأمر برجال بينهم أبو محجن الثقفى فحبسهم وقتيدهم في القصر . إزاء هذا الحزم لم يكتف القوم بأن يعذروا سعداً ، بل أعلنوا ولاءهم وطاعتهم . فكان مما قاله جرير بن عبد الله البجليّ : « أما إني بايعت رسول الله على أني أسمع وأطيع لمن ولاء الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً » . وسرى مثل هذا الروح في نفوس الجند ، فسكنت بوادر الفتنة وانطفأت نارها .

عند ذلك كتب سعد إلى الرايات يقول : « إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفة ، وليس بمعنى أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعوذني ، إني مكبٌ على وجهي وشخصي

لكم باد . فاسمعوا له وأطيعوا ؛ فإنه إنما يأمركم بأمري » . وقرئ هذا الكتاب على الناس فأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع .

وخطب سعد وهو على حاله تلك من يليه من الجند ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خلف . قال الله جل ثناؤه : ( وَأَقْدَمُ كِتَابًا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْ الْأَرْضَ يَرِيهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ) » إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجيبونهم وتسيبونهم إلى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة وعز من وراءكم . فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله . وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم » .

ورأى عاصم بن عمرو ما بسعد من الوجع ، فزاده ذلك تأثراً بما سمع من كلامه ، فقام في الناس فقال : « هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تفلون منهم منذ ثلاث سنين مالا يفلون منكم . وأنتم الأعلون والله معكم . إن صبرتم وصدقتهموم الضرب والطنن . فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم . وإن خرتهم وفشلتهم ، والله لكم من ذلك جاز . وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك . الله ! الله ! اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها . ألا ترون أن الأرض وراءكم بسايس قفار ليس فيها سحر ولا وزر يعقل إليه ولا يمتنع به ! اجملوا همكم الآخرة » .

ودعا سعد إليه جماعة من الذين انتهى إليهم رأى الناس وانتهت إليهم نجاتهم وعظم فيهم شرفهم ، وكان منهم من أولى الرأي الغيرة بن شعبة وعاصم بن عمرو ، ومن أهل النجدة طليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب ، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وعبد بن الطيب ، ومن سائر الطوائف أمثالهم : وقال لهم : « انطلقوا قوموا في الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم . عند مواطن البأس ؛ فأنتم من العرب بالمكان الذي أنتم به . أنتم شعراء العرب وخطبائهم وذوو رأيهم ونجاتهم ، وأنتم ساداتهم . فسيروا في الناس فذكروهم وحرّضوهم على القتال » .

وانطلق هؤلاء جميعاً يخطبون ويقولون الشعر ويعدون الناس النصر في عبارات تهزّ المشاعر والقلوب . قال الهذيل الأسديّ لقومه : « يا معاشر معدّ ! اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربّدوا لهم تربّد النور ، وادّرعوا العجاج . وثقوا بالله وعضوا الأبصار ، فإذا كتّ السيوف فأرسلوا عليهم الجنادل فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » . وقال عاصم بن عمرو : « يا معاشر العرب ! إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم . وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكوننّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم . لا تُحدِثوا اليوم أمراً تكونون به شيئاً على العرب غداً » . وقام كلُّ بنحو هذا الكلام وخطب كل أمير أصحابه ، فتحاضوا على الطاعة والصبر ، وتماهدوا وتواصوا بالنصر أو الموت دونه .

ورأى رستم تجهز العرب ، فنارت في نفسه الحمية لوطنه ، فأنسته طيرته وأنسته دلالات النجوم ، وأعادته الجندی المثلّ الذي عرفته فارس بطلها الأكبر . لذلك لم يلبث ، حين عبر جنده النهر واصطفوا صف القتال ، أن لبس درعيه ومغفراً وأخذ سلاحه ، وأمر بفرسه فأسرج فركبه وهو يقول : غداً ندقّهم دقاً . وبعث من يجرض الجند على القتال دفاعاً عن وطنهم ودفعاً لهؤلاء العرب الأجلاف الذين خضعوا أجيالاً لغير فارس ، ثم إذا هم اليوم تحدّتهم نفوسهم بقتالها والظفر بها . أيّ عار كهذا العار يجب دفعه ! . وكذلك وقف الجيشان ينتظران أمر الصدام ، وقد أخذت منهما الحاسة كل مأخذ بما يسمعه المسلمون عن جنة الخلد ونعيم الدنيا ، وما يسمعه الفرس عن الوطن وعن ملك كسرى وعظمته .

وكان سعد بن أبي وقاص قد أرسل في الناس : إذا سمعتم الكبير فشدّوا شُوع نعالكم . فإذا كُبرت الثانية فتهيّئوا ، فإذا كُبرت الثالثة فشدّوا النواجز على الأضراس واحلوا . وأمر من يقرأ سورة الجهاد فقرئت في كل كتبية ، فهشت قلوب الناس واطمأنوا إلى ما هم مقبلون عليه . فلما فرغ القراء كبر سعد فكبر الذين يلونه ، ثم كبر الثانية قهياً الناس . فلما كبر الثالثة أنشب أهل النجدات القتال وخرجوا يبارزون أهل فارس . وأقبل أهل فارس عليهم وهم في مثل حماستهم يلبّون نداء من يريدون نزالهم . وكان

غالب بن عبد الله الأسدي في مقدّمة من خرجوا ببيارزون . خرج وهو يقول :  
 قد علمتُ واردةُ المسأخ ذاتُ اللبان والبَنان الواضح  
 أرى سِمَامُ البطلِ المسأخ وفارجُ الأمرِ المهمِّ الفاح  
 فخرج إليه هرمز ، وكان من ملوك الباب ، وكان متوجّجاً ، فأسرّه غالب ، فجاء به  
 سعداً ثم رجع إلى المطاردة .

وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :  
 قد علمتُ بيضاء صفراء اللَّبَبُ مثلُ اللّجَيْنِ إذ تَشَاءُ الذهب  
 أنى امرؤ لا من يعيبه السبب مثلى على مثلك يعزبه العتب  
 وبينما هو يرتجز طارد فارسياً نفر منه ، فلقى فارساً معه بغل ففر الفارس واستاق  
 عاصم البغل والرخل ، فإذا الرجل خبّاز الملك ، وإذا في الرجل طعام رستم ، فلما نظر فيه  
 سعد نقله الناس لياً كلوه .

وكتب سعد الرابعة فالتقى الجيشان ، فأبلى أبطال من المسلمين بلاء لم يعرف سعدله نظيراً .  
 وقد كان هؤلاء الأبطال يقدرون مارمتهم به فارس من عدد وعُدّة فزاع ذلك من قلوبهم كل  
 رحمة . كان عمرو بن معدى كرب يجرّض الناس بين الصفين إذا خرج إليه رجل من الأعاجم  
 يرى بشابة فلا تنزل واحدة منها الأرض . ورمى بشابة أصابت درع عمرو ، فالتفت إليه  
 فحمل عليه فاعتنقه فكسر عنقه ، ثم وضع سيفه في حلقه فذبحه ، ثم ألقاه وهو يقول : هكذا  
 فاصنعوا بهم ، أنه أخذ سِوَارِي الفارس القتلِ مِنْطَقَة وَبَلَق<sup>(١)</sup> ديباج كان عليه .

ورأى الفرس بنى بجيلة وعليهم جرير بن عبد الله يصولون ويجولون ، فوجهوا إليهم  
 ثلاثة عشر فيلًا حملوا عليهم ، ففرت خيلهم نفاراً وبقي الرجال وتكاد الفيلة تُبديهم . ورأى  
 سعد ما أصاب بجيلة فأرسل إلى بنى أسد ليذبوا عنهم ، فخرج طليحة بن خويلد وجماعة  
 من قبيلته كل واحد في كتيبة وطليحة يصيح بهم : « يا عشيرتنا ! لو علم سعد أن أحداً  
 أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم . ابتدوهم الشدة ، وأقدموا عليهم إقدام اللبوث الحربة  
 فإنما سميت أسداً لتفعلوا فعله . شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفرّوا ! شدوا عليهم

(١) البلق ( كهمز ) : الفباء : فارسي .



باسم الله ! « فشدوا عليهم فما زالوا يطعنونهم حتى حبسوا الفيلة عنهم . لكن الفيلة عادت فحملت عليهم . فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو يقول : « يامعشر بنى تميم ، أستم أصحاب الإبل والخيل ! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ » قالوا : بلى والله ! ونادى عاصم الرماة ليذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وليستدبروا الفيلة وليقطعوا وُضُها ، وخرج يحميمهم والرحى تدور على أسد . وصنع أصحاب عاصم بالفيلة كما أمرهم ، فاستدبروها وضربوها بالنبل فارتفع عواؤها وألقت ركبانها فقتلوا ، ونفّس عن أسد وعن بجيلة جميعاً بعد أن قُتل من أسد وحدها أكثر من خمسمائة .

كان سعد رابضاً في محبس مرضه بقُدَيْس ينظر إلى هذه المعركة الدائرة الرحي ، ويعجب حيناً بفعال أبطال العرب ، ويفزع حيناً مما تصيب به الفيلة والفرسان رجال بجيلة وأسد ، ويمزّ في نفسه ألا يخوض هذه الحرب الزُّبُونُ كما خاض من قبل أمثالها . وكانت سَمَيْت بنت حفص زوج المثني بن حارثة ثم زوج سعد من بعده مقيمة إلى جانبه ترى ما يرى ، وتذكر ما كان لزوجها الأول من مواقف في مثل هذه الأيام الكُبر . فلما رأت الفرس يشتدون على أسد ويقتلون منهم صاحات : وامُثنياء ! ولا مثنى للخيل اليوم ! « قالت ذلك عند رجل ضجر مما يرى في أصحابه وفي نفسه . وأثار كلامها سعداً فلطم وجهه وقال : « أين المثني من هذه السكتيبة التي تدور عليها الرحي ! » يعنى أسداً وعاصماً . ولم تطأطأ اللطمة من رأس البدوية الأنوف ، بل حدثت في سعد وقالت : « أغيرة وجبينا ! » وحجل سعد لما صنع فتندى بالفرق جبينه وقال : والله لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذريني وأنت ترين ما بي ! » وعرف الناس ما دار بين سعد وسلي ، فأكبروا البدوية الجرئية ، ولم يبق شاعر إلا اعتد بها ، وإن عرفوا سعداً غير جبان ولا ملوم .

مع ما كان من الفعال الجيدة والبلاء العظيم الذي أبلاه المسلمون ، ظل سعد مشفقاً من مصير المعركة لما كان يراه من شدة الفرس وكثرة عددهم وفعال فيكبتهم . وانقضى النهار وغربت الشمس والقتال لا يزال حامياً وطيسه . فلما ذهبت هدأة من الليل رجع الجيشان كل إلى مواقفه ، وكلٌّ يحسب للفد حسابيه . والمسلمون أشد لهذا الفد حساباً بعد ما نزل بهم في ذلك اليوم الأول من كوارث .

ويطلق المؤرخون على هذا اليوم الأول من أيام القادسية اسم أرماث . وليس يذكر أحد منهم لهذه التسمية سبباً . ويحسب بعض المستشرقين أن أرماث اسم للكان الذي وقع القتال فيه . وليس لهذا الظن مايسوّغه ؛ فقد اتصل القتال بالقادسية ثلاثة أيام وليلة في مكان واحد ، ثم أطلق على كل يوم من هذه الأيام اسم يميزه .

رجع الجيشان مساء يوم أرماث كلٌّ إلى مواقفه . فلما تنفس الصبح شغل العرب وشغل الفرس بدفن القتلى ونقل الجرحى . وقد دفن المسلمون قتلاهم بواد قريب من العذيب ، ونقلوا الجرحى إلى العذيب ليقوم النساء على العناية بهم . أما الفرس فدفنوا القتلى في المؤخرة وحلوا الجرحى إلى الضفة الأخرى من النهر .

وبينا هؤلاء وأولئك في شغل بهذا الأمر كان القعقاع بن عمرو التيمي يسرع السير في ألف من الجند الذين فصلوا من الشام نجدة لجيش العراق تنفيذاً لأمر عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة أن يرّد جيش العراق إليه بعد أن ينصره الله بدمشق . فلما فُتحت دمشق وانتصر المسلمون بفجّل ، سار هشام بن عتبة في ستة آلاف مدداً لسعد بن أبي وقاص ، وجعل القعقاع بن عمرو على مقدمته وعجله أمامه كي يدرك سعداً قبل فوات الوقت . والقعقاع هو ذلك البطل المُعَلَّم الذي أمّده أبو بكر خالد بن الوليد عشية مسيرته إلى العراق ، فلما قال له قوم : أتمدّ رجلاً ارفضّ عنه جنوده برجل ؟ ! كان جوابه : لا يهزمُ جيش فيهم مثل هذا وصدق أبو بكر ( فقد سار القعقاع مع خالد في غزو العراق فكان عنده في مثل مكانة المثني بن حارثة ، بل كان أقرب إلى فؤاده وأعظم حظوة عنده . لذلك جعله على الحيرة مكانه حين فصل إلى دومة الجندل مدداً لعياض بن غنم ، ثم اختاره من أسراء جنده حين فصل من العراق إلى الشام . لا عجب وذلك شأنه أن يكون من أجراً العرب على الفرس بالعراق وأعرفهم بأساليب حربهم . ثم لا عجب أن يقدمه هاشم بن عتبة وأن يعجله لغياث سعد والمسلمين ، لجيش فيه مثل القعقاع لا يهزم .

كان القعقاع على مقربة من القادسية فجرّ الغداة من يوم أرماث . وليشدّ مقدّمه عزائم المحاربين في هذه الموقعة الخطيرة قسم رجاله الألف عشر فرق ، وعهد إليهم الأتسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها على مدى البصر ، ثم سار هو على رأس الفرقة الأولى .

وبلغ سعداً وأصحابه بالقادسية قبل استئناف المعركة ، فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وإقبالها ، ثم تقدم الصفوف يستفتح القتال بعد أن قال للناس : إصنعوا كما أصنع . فلما كان بين الصفين نادى : مَنْ يبارز ؟ نخرج إليه ذو الحجاب وعرفه بنفسه قائلاً : أنا بهمن جاذويه ! عند ذلك صاح القمعاق : يا ثارات أبي عُبَيْدٍ وسَلِيطٍ وأصحاب يوم الجسر ! ولم يطل بين الرجلين الجلاد ، فقد انقضت القمعاق على ذى الحجاب وأورده حفته .

ورأى الناس صنيعه ورأوا الجنود المقبلة من الشام ترد دراكاً فتنشطوا وكان لم تكن بالأسم مصيبة ، وزادهم نشاطاً أن لم يروا الفيلة بينهم ؛ أفقد تكسرت توابيتها بالأسم فأصبح الفرس يعالجون إصلاحها ، فلم يفرغوا من ذلك حتى دارت رحي القتال وحمى وطيسه . وكان القمعاق كلما رأى فرقة من فرق جيشه كبر وكبر الناس معه ، فزادوا بذلك نشاطاً وألقوا في روع الفرس أن هذا المدد المقبل عليهم لا آخر له ولا طاقة لجنود رستم بقتاله . وكيف يطيقونه وقد رأوا القمعاق وحده يصرع كل من يلقاه ! صرع ذا الحجاب ، فأراد فارسان معلمان من أبطال فارس الصناديد ، أن يثأرا أصحابهما ، نخرجا يبارزان القمعاق فلقبهما ومعه الحارث بن ظبيان بن الحارث فأورداهما حتماً كحمت ذى الحجاب . ونادى القمعاق في العاس : يامعشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف فإنما يُحصَد الناس بها ، فتواصى الناس وحلوا بسيوفهم على الفرس وجعلوا يضربونهم بها حتى المساء .

وكان سعد بن أبي وقاص قد حبس أبا مِحْجَنَ الثقفي وقيده كما قدمنا ، وكان أبو محجن من فرسان العرب المشهود لهم . فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس في أذنه ، صعديجر أغلاله حتى أتى سعداً يستعفيه ويستقبله ؛ لكن سعداً زجره وردّه . فذهب إلى زوجته سلمى بنت حفص فطلب إليها أن تحمل قيده وأن تعيره باللقاء فرس سعد ، وأقسم إن سلمه الله أن يرجع فتضع رجله في القيد . قالت سلمى : وما أنا وذاك ! فرجع مكتئباً برسف في القيد ويقول :

كفى حزناً أن ترتدى الخليلُ بالقنا	وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قتت عُناني الحديد وأغلقت	مصاريح دوني قد نصم الناديا
وقد كنتُ ذا مال كثير وإخوة	فقد تركوني واحداً لأخاليا
ولله عهدٌ لا أخيس بهمه	لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فلما سمعت سلمى شعره رقت له وقالت : إني استخرت الله ورضيت بعهديك ، وأطلقتها فافتاد اللقاء وركنها وعليه سلاحه ، وانطلق بين الصفيين يكاد ويركض الفرس إلى اليمينه حيناً وإلى اليسرة حيناً آخر ، ويقصف الأعداء بسيفه قصصاً منسكراً ، ولم يعرفه الناس فظنوا أنه بعض أصحاب هاشم بن عتبة . أما سعد بن أبي وقاص فجعل ينظر من القصر ويقول : والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه الباقاء . فلما انقضى اليوم رجع فوضع رجله في القيد . وتحمل سعد فزل فوجد فرسه يعرق ، فسأل في ذلك فروت له سلمى ما حدث ، فرضى عن أبي محجن وأطلقه<sup>(١)</sup> .

واتصل القتال يومئذ إلى منتصف الليل والمسلمون يرون فيه الظفر . وقد بلغ من ابتهاجهم على أثره ما تشهد روايات المؤرخين به : ذكروا أن القمعاق وحده قتل يومئذ ثلاثين رجلاً . وقدره غياب القبيلة عن المسلمين فازدادوا إقداماً وازدادوا للفرس توهيناً . ويضيف المؤرخون أن بنى عم القمعاق جلّوا إبلا وبرقعوها . ودفعوها تحمل على الفرس كأنها القبيلة ، فكان أثرها فيهم يومئذ كأثر القبيلة في العرب يوم أرمات ؛ فقد ولت خيل الفرس نفاقاً من منظرها ، فركبتهم قوات المسلمين وأعملوا فيهم السيوف قتلاً وبتراً وبلغت الحماسة من بعض الجنود فاندفع خلال صفوف الفرس يريد قتل رستم ، فلما كان على مقربة منه موشكاً أن يضربه بسيفه تعرض له من الفرس من قتله وأخذ رستم من يده . وكذلك تنصّف الليل والمسلمون يراحفون عدوهم يريدون إجلاءه عن مواقعه ، فيصيبون منه ويكثرون القتل فيه ، ويكادون يظفرون به لولا كثرة عددهم وشدة مقاومته . فلما تنصّف

(١) تجرى رواية بأن زبراء أم ولد سعد هي التي أطلقت أبا محجن من قيده وأعارته اللقاء . والبلاذري يرجح ذلك ، وابن كثير لا يذكر سلمى . فأما الطبري وطائفة معه فيذكرون في هذه المناسبة سلمى ، ويصفون أنها سألت أبا محجن : في أي شيء حبسه سعد ، فقال : ما حبسني في حرام أكلته ولا شربته ، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسان يبعثه على شفقي أحياناً فإساء لذلك ثأني . ولذلك حبسني أن قلت .

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروى عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفني في الصلاة فإنني أخاف إذا ماتت أن لا أدوقها

وسألت سلمى سعداً بعد أغوات فأطلق لها أبا محجن وقال له : لذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله . قال : لا جرم والله لا أجيب لسانك إلى صفة قبيح أبداً .

الليل لم يكن للفريقين بدء من أن يرجع كلٌّ إلى عسكريه يعيد تنظيم صفوفه ليعود في الصباح إلى الزحف ابتغاء الظفر .

يطلق المؤرخون على هذا اليوم الثاني من أيام القادسية اسم أغواث . ويحسب بعض المستشرقين أنهم اختاروا له هذا الاسم لأن القمعاع أعاث فيه جيش سعد من جاء بهم من الشام . وليس من اليسير إقرار هذا التفسير إلا أن نجد لسائر أيام الغزاة تفسيراً من نوعه وقد رأينا أن يوم أرمات لا يمكن أن يكون له مثل هذا التفسير . أما الليلة التي انقضت بين يوم أرمات ويوم أغواث فيطلق المؤرخون عليها اسم ليلة الهدأة ، كما أنهم يطلقون اسم السواد على الليلة التي تلت يوم أغواث .

بلغ من اغتباط المسلمين بيوم أغواث أن باتوا على إثره ينتمى كل منهم إلى قبيلته . وبلغ من اغتباط سعد به واطمئنانه إلى قوة المسلمين بعده أن قال لبعض من عنده حين عزم النوم : « إن تمَّ الناس على الاتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم . وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء . فإن سمعتم ينتمون فأيقظني فإن اتماء من السوء » .

اطمان سعد ونام . أما القمعاع بن عمر فبات ليله يسرَّب أصحابه الذين جاءوا معه عن الشام إلى المكان الذي كانوا فيه بالصحراء صبح يوم أغواث . وقد أمرهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مائة مائة على نحو ما فعلوا في أمسهم ، فإن أدركهم هاشم بن عتبة وجاء بمن معه يشارك في المعركة فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء في المدد ، فزادهم هذا الرجاء إقداماً في الحرب وإيماناً بالفوز فيها .

أصبح الناس والجيشان في مواقفهم ، وبين الصفيين من القتلى والجرحى ألفان من المسلمين وعشرة آلاف من الفرس . ودفن كل جيش قتلاه ، ونقل الجرحى إلى حيث يُعنى بهم . وكانت نساء المسلمين يُعنين بالجرحى وبمرضهم ، ويبدلن من صنوف العناية ما يرفقه عنهم وما ينسيهم ألمهم . بذلك اشتركن في هذه المعركة الحاسمة ، فكان لمن فيها فضل سجله الشعراء وخلدته كتب التاريخ .

ووقف القمعاع في المؤخرة حين طلعت الشمس ينظر إلى ناحية الصحراء ، فلما بدأت

خيله تُقبِل كَبْر وكَبْر الناس معه وقالوا : جاء المدد . وأدرك هاشم بن عتبة وجنوده رجال القعقاع ، فلما عرف ما صنع صاحبه جعل رجاله فِرَقًا ، وأمرهم أن يتلاحقوا دِرَاكًا ، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها . وسار هو على رأس الفرقة الأولى ومعه قيس بن هُبَيْرَة ، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مَصَافِهم للقتال . فلما رآه الناس ورأوه كَبْر ، كَبَرُوا معه . واندفع هاشم إلى القلب حتى بلغ النهر وهو يرمى العدو بأسمه ، ثم عاد فكرر فعلته ، فلم يجرؤ أحد على مصاولته .

لم يضع المدد الذي جاء المسلمين من عزيمة الفرس ؛ فقد أصلحوا توايبت فيلتهم واقتحموا بها المعركة منذ طلعت الشمس ، وهم موقنون أنها ستفتك بالمسلمين أكثر مما فتكت بهم يوم أرمات وقد اتخذوا حيطتهم لكي لا يصنع المسلمون بها مثلما صنعوا ذلك اليوم حين قطعوا وُضُنْها وقلبوا توايبتها وقتلوا رجالها ونحسوها فولت مدبرة ، فأحاطوها بفرسان يحمونها . وأنست الفيلة إلى هؤلاء الجماء فلم تفتك بهم ، لكنها لم تفتك كذلك بعدوم . ذلك أن الفيل إذا كان وحده كان أو حش ، فإذا أطاف به أصحابه كان آانس . وقد شد فرسان المسلمين على حماة الفيلة من العجم فكانت المعركة تدور حول الحيوانات الضخمة فتذرهما في حير لا تدرى من تضرب ومن تدع لذا ظل القتال على شدته سجالاً بين الفريقين ؛ يتقدم العرب تارة فيردم الفرس ، ويتقدم الفرس تارة فيردم العرب ، ثم يزداد الفرس بأساً إذ يقدم عليهم من المدائن حرس يزدجرد مدداً ، فلا ينهته ذلك من همة العرب ولا يخفف من في النزال .

على أن الفيلة ما لبثت حين ألفت الموقف واشتدت من حولها المعركة أن عادت إلى مثل فتكها يوم أرمات . وراها سعد تفعل الأفاعيل وتفرق بين الكتائب ، فسأل جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلتها : فقالوا ، إنها مشافرها وعيونها : فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو يقول : ا كفياني الأبيض ، وكان هذا الفيل بإزائهما ، وبعث إلى حمال والرَّبِيل ، وكانا من بني أسد ، يقول : ا كفياني الأجر ، وكان بإزائهما . وكان هذان الفيان أشد الفيلة ضراوة ، وكانت الفيلة كلها تتبعهما . وترجل القعقاع وعاصم فوضعا رجليهما في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان من الألم ونفض رأسه ، وطرح سأسه

ودلى مشفره فضربه التقعاع بسيفه . وحمل حمال والرَّبِيل على الفيل الأجرى ففقا إحدى عينيه وضربا مشفره : وصاح الفيلان ، وارند الفيل الأجرى إلى ناحية صفوف الفرس ففخسوه ، فانقلب إلى صفوف المسلمين فوخزوه ، فجعل يهرول ذهاباً وجيئة بين الصفين وهو يصيح صياح الخنزير ، ثم اندفع فوثب في النهر فاتبعه الفيلة كلها وقد ألقت ركبائها عن ظهورها وتخطت الماء وولت مدبرة ولم تعقب .

هنا اضطرب ميزان المعركة ؛ فقد بدأت كفة الفرس فيها ترجح حين بدأت الفيلة تفرق كتائب المسلمين ، فلما اضطربت الفيلة بين الصفوف وقف الجيشان ينظران إليها يحاولان ردّها وبقاء شرها ، فلما رأوها تعبر العتيق وتولّهم أدارها ، قويت عزائم المسلمين ورأوا في قرارها آية من آيات الله لنصرهم على عدوهم . أما الفرس فاعتدوا بعددهم وبالمدد الذي بعثه يزدجرد إليهم ، فأعادوا تنظيم صفوفهم واستأنفوا القتال بحماسة زارها فرار الفيلة استعاراً . وكذلك التقى الجيشان في صدام أوى صدام ، وظلا يقتتلان حتى أقبل الليل والغبار نخب ، فلا يعلم سعد ولا يعلم رستم لمن الدائرة وعلى من تدور .

أتى الجنود رجعوا إلى صفوفهم كما فعلوا أول من أمس ! أتراهم واصلوا القتال جانباً من الليل ثم رجعوا كما فعلوا أمس ؟ لا هذا ولا ذاك ، بل واصل الجيشان القتال وكأنما دار بخواطر الجند من الفرس والعرب جميعاً ألا يضعوا السلاح حتى يحسم بينهم ، وكأنما دار هذا الخاطر بأنفسهم من غير أن يكون لسعد أو لرستم في الأمر رأى . بل لقد حدث الأمر وليس يعرف أحد من المسئول عن حدوثه ؛ فهي الأقدار قضت به ودفعت إليه . وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، ولا راداً لقضائه .

والواقع أن القتال هدأ وطيسه حين أقبل الليل . وقدّر سعد أن الجيشين سيقضيانه يتمياً أن ليوم رابع أشد من أرماث وأغواث وعماس فتكا . لكنه خشى أن يأتيه العدو من محاضة بأسفل العسكر ، فأرسل طليحة وعمراً في جماعة من الجند وقال لها : « إن وجدتما القوم قد سبقوا إليهما فانزلا بجيأهم ، وإن لم نجداهم علموا بها فأقما حتى يأتيكما أمرى » . ولم يجدا على المحاضة أحداً ، فسوّلت لها نفسها أن يخوضها ، وأن يأتيها الأعاجم من خلفهم . واختلفا كيف يفعلان . أخذ طليحة مكانه وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات

ارتاع لها أهل فارس ، وظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم . وتعجب لسماعها المسلمون وظنوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين . وأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل الخاضة ، فلم يبق لديهم ريب في غدر العرب . هم فقدّموا صفوفهم زاحفين . ورأى القعقاع ضيقهم ! فزاحفهم من غير أن يستأذن سعداً . وأطل سعد من مجلسه بقديس وقد بدأ يحسب لزحف الفرس الحساب . فلما رأى القعقاع يزاحفهم قال : اللهم اغفر لها وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذني ! وقال لأصحابه إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا . لكنه ما لبث حين كبر الأولى أن رأى أسداً تزحف ، والنخع تحمل ، وبجيلة تندفع في الغمار ، وكندة تتقدم . ورأى رحى الحرب تدور حول القعقاع ، فاستغفر الله لهؤلاء جميعاً ودعا أن ينصرهم . وكبر الثانية والثالثة . فلحق الناس بعضهم بعضاً ، واستقبلوا الفرس بالسيوف وخالطوهم ، فكان للسيوف قعقة وصليل كصوت القيون ، وكان المقاتلون لا يتكلمون بل يصيحون ، وكان القتال يشتد ويحمى وطيسه كلما تقدم الليل . وبات الجيشان يقتتلان أشد قتال وأقساه ، وسعد ورستم قد انقطعت عنهما الأصوات والأنباء فلا يعلمان من أمر ما يدور شيئاً ، ولا يملك سعد في مرضه غير الدعاء يقبل عليه في ضراعة . وابتهال أن ينصر الله جنده . ولم يغمض لسعد ، كما لم يغمض لأحد من الجند تلك الليلة جفن . فلما بدأ الصبح ينبليج عن الأفق نوره جعل المسلمون ينتمون إلى قبائلهم . عند ذلك اطمأن سعد إلى أنهم الأعلىون ، وأنهم آخذون برقاب الفرس أخذاً . وزاده طمأنينة أن سمع القعقاع بن عمرو يرتجز :

نحن قتلنا مئسراً وزائداً أربعة وخمسة وواحداً  
نُحْسَبُ قوق اللبِّدِ الأسودا حتى إذا ماتوا دعوتُ جاهداً  
الله ربي واحداً ترزت عامداً

تنفس الصبح عن هذه الليلة الدامية الصاخبة ، يسميها المؤرخون ليلة الهرير ، ولما يكن النصر عقد لواءه لأحد الفريقين . فأحسّ الجند الجهد بعد أن قضوا أربعاً وعشرين ساعة في قتال أعنف قتال ، فأن لهم أن يريحوا ظهورهم وأن يناموا ؟ كلا ؟ بل سار القعقاع في الناس يقول : « إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم . فاصبروا ساعة واحملوا ؛ فإن النصر



مع الصبر». واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ومعهم جنودهم، فصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه. ورأت القبائل صنيع المهاجرين والأنصار، فقام فيهم رؤساؤهم يشيرون إلى هولاء المسلمين يقولون: لا يكوننَّ هولاء أجدَّ في أمر الله منكم، ويشيرون إلى الفرس ويقولون: ولا هولاء أجزأ على الموت منكم. وحملت القبائل على من بإزائهم في قتال شديد ظل متصلا حتى قام قائم الظهيرة. عند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب: تراجع الفيرزان والهرمزان في المُجَنَّبَيْنِ فانفرج القلب. هبت ريح دبور عاصف، فأطارت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق. وزحف القعقاع بمن معه إلى السرير فبلغوه، فإذا رستم قد قام عنه إلى بغال قَدِمَتْ عليه بمال. فوقف بجوار أحدها يستظل بحمله. واندفع رجال القعقاع إلى ناحية النهر، وهم لا يعلمون بأمر المال تحمله البغال ولا بأمر رستم واحتمائه بظلمها، فضرب هلال بن علقمة أحدها فقطع حبال الحمل الذي تحته رستم، فوقع عليه أحد العِدْلَيْنِ فكسر فقارَه وهلال لا يشعر به. وزحف رستم وألقى بنفسه في النهر، فرآه هلال فعرفه، فاقتحم النهر وراه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله، ثم صعد سريره يصبح: قتلت رستم ورب الكعبة! إلى! إلى. وأطاف الجند به يكبرون ويهللون. وعرف الأجاج ما أصاب قائد الفرس الأعظم فأسقط في أيديهم، فوهنت قوتهم وانهد ركنهم، فقام فيهم الجالينوس يدعوهم إلى عبور النهر على الرِّدْم كما عبر الفيرزان والهرمزان. لكن الردم انهار بهم في النهر المتدفق التيار، ففرق بانهاره ثلاثون ألف فارسي مقتربين بالسلاسل. وأخذ ضرار بن الخطاب علم الفرس الأكبر — دَرَفَشْكَابِيَان — وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف. وكذلك انهزمت جيوش يزيدجرد شر هزيمة، وانطلقت فلولم يولون الأدبار لا يعقبون.

مع ذلك أمر سعد بن جرج القعقاع وشرحبيل يتعقبانهم، ثم اتبعهما زهرة التميمي والناس من ورائه. وأدرك زهرة الجالينوس يجمع المنهزمين يقتله. وجعل المسلمون يقتلون من يلونهم من الفرس ويأسرونهم، فلا يلقون منهم أية مقاومة. بل إن بعض الروايات لتذهب إلى أن الجند المسلمين كانوا يأمرون المنهزمين بأن يقتل بعضهم بعضاً فيفعلون. ذلك أن الفرس تحطمت روحهم المعنوية فلم يبق فيهم عصب لمقاومة. لقد رأوا القتل

بصيب من ثبت منهم ، ورأوا قوادهم يفترون ، فألقوا بأيديهم واستسلموا ، فكان الشاب من جند المسلمين يسوق العشرات منهم فيسيرون أمامه مفكسة رءوسهم وكانهم قطع من النعم ، لا إرادة لهم ولا رجاء يحركهم إلا الإبقاء على حياة عار ومذلة . أما الذين أنجأهم الفرار ، ففتفروا وكل واحد منهم يحس أنه أدرك بالفرار كبرى أمانى الحياة .

هذا نصر حاسم أحرزه المسلمون ، فتوجهم فخاراً ، ودفع نساءهم وصبيانهم حين عرفوا أمره أن يندفعوا إلى ميدان المعركة ليشاركوا فيه . روى عن أم كثير امرأة همام ابن الحارث التَّمَّحِي أنها قالت : « شهدنا القادسية مع أزواجنا . فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى ، فما كان من المسلمين سقيناه ورفقناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نؤليهم ذلك ونصر فهم به » . وكذلك اشترك المسلمون جميعاً ، رجالاً ونساءً وصبية ، في هذه المعركة العنيفة الفاصلة التي جعلت كلمة الذين آمنوا العليا ، وكان لها من الأثر في قيام الإمبراطورية الإسلامية ما كان لغزوة بدر من الأثر في قيام الإسلام .

ولم يرض المسلمون بثمن ليدركوا هذا النصر المؤزر . لقد رأيت فعالهم الجيدة ، ورأيت من بلاء أبطالهم ما كان القعقاع بن عمرو ومثلاً بارزاً فيه . وقد رأيتهم كيف أرخصوا دمائهم وأرواحهم في سبيل النصر لجزاهم الله أحسنين . قتل منهم في الساعات الثلاثين التي انتهت إلى الظفر ستة آلاف ، وقتل يرمى أرمات وأغواث ألفان وخمسمائة . وهذا العدد من القتلى كان مما يفوق تصور العرب لذلك العدد . لكنه لم يكن شيئاً بالقياس إلى من قتل من الفرس في حومة الوغى ، ومن غرق منهم في النهر حين الهزيمة ، ومن تردى بعد ذلك قتيلاً حين الفرار .

رجع القعقاع وزهرة وسائر الأمراء والجند فأحاطوا بسعد ، فألقوه خفف النصر بعض علته . وجمع الناس الأسلاب والأموال ، فإذا شيء لا يحيط به خيال عربى . وأرسل سعد إلى هلال بن علقمة فسأله عن رستم وقال له : جرده إلا ما شئت ، فلم يدع هلال على القتيلى شيئاً إلا أخذه ، فبلغ ذلك سبعين ألفاً . ولولا أن قلنسوته سقطت في النهر لضاعف ذلك حظ هلال . وجاء زهرة بن الحوية بسبب الجالينوس ، فاستكثر سعد أن ينفه إياه كاملاً

فكتب إلى عمر في ذلك فردّ عليه عمر : « تعمد إلى مثل زهرة وقد صلبى بمثل ما صلبى به ، وقد بقي عليك من حربك ما بقي ، تفسد قلبه . أمض له سلكه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسةائة » .

وقسم سعد النوى في الناس ، فكان عطاء الفارس ستة آلاف والراجل ألفين ، ثم فضل أهل البلاد فزاد كل واحد منهم خمسةائة . مع ذلك بقي من النوى شيء كثير غير الخمس الذي نجاه سعد ليمعث به إلى المدينة وكتب سعد إلى عمر بما فعل ، وسأله عما يفعل بما بقي عنده . فكتب إليه عمر : « أن ردّ على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الواقعة<sup>(١)</sup> » . ونفذ سعد أمر عمر ، فبقى لديه ما اضطره أن يبعث إلى عمر يسأله ما يفعل به . وأمر عمر أن يوزع على حملة القرآن . وإنه ليوزعه عليهم إذ أتاه عمرو ابن معدى كرب وبشر بن ربيعة الخثمي وكانا قد أبليا في الواقعة بلاء ضاعف جزاءهما . وهذا البلاء هو الذي أطعمهما في أن يكون لهما حظ مع حملة القرآن . وسأل سعد عمرو ابن معدى كرب : ما معك من كتاب الله تعالى؟ قال عمرو : إنى أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن . عند ذلك أبا سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيباً . وسأل بشراً عما يحفظ من القرآن ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وضك القوم ولم يفز بشر من هذا المال بنصيب .

أو تحسب الفارسين رضيا جواب سعد أو سكتا قانعين؟ كلا ، بل قال عمرو :

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحدٌ قالت قريش ألا تلك المقاديرُ

نُعطي السوية من طعنٍ على نفذٍ ولا سوية إذ تُعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنحت بباب القادسية ناقتي وسعدُ بن وقاص على أميرُ

وسعدُ أميرٌ خيرُه دون شرِّه وخيرُ أميرٍ بالعراق جريرُ

(١) يذكر الطبرى وطائفة من المؤرخين أن القوات التي جاءت من الشام مع هاشم بن عتبة لم تترك كلها غزوة القادسية . بل وصل بعضها بعد انتصار المسلمين وفرار الفرس . وهؤلاء هم الذين عناهم عمر في كتابه هذا إلى سعد .

تَدَّكَرْهُ هَذَاكَ اللهُ وَقَعَ سَيُوفُنَا      يَبَابُ قُدَيْسٍ وَالْمَسْكْرَةُ عَسِيرُ  
عَشِيَّةٍ وَذَاقَهُمْ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ      يُعَارِ جَنَاحِي طَائِرٍ فَيَطِيرُ<sup>(١)</sup>

وكتب سعد إلى عمر بقصة عمرو وبشر وما قال لهما وردّها عليه ، وبعث إليه بأبياتهما . فكتب عمر إليسه : أن أعطهما على بلائهما . فأعطى كل واحد منهما ألفي درهم أرضتهما ولم تُنضب أحداً ؛ فقد عرف الناس جميعاً أنّهما ، إلى حسن بلائهما ، أحرص على المال من غيرهما .

وكذلك انتهت المعركة إلى ما رأيت من نصر حاسم ، حين كان الناس في كل الأرجاء من شبه الجزيرة يتطلعون ببصائرهم وقلوبهم إلى ناحيتها ، وهم على أحر من الجمر شوقاً لمعرفة أبنائها . يقول المؤرخون : « كانت العرب ، من العُدَيْبِ إلى عدن أبيين . ومن الأُبَيْلَةِ إلى بيت المقدس ، يترصون وقعة القادسية ، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها . وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم » . وكان عمر بن الخطاب أشد الناس تطلعا وشوقا لمعرفة ما تنتهي إليه . لذلك كان يخرج كل صباح إلى ظاهر المدينة يسأل الركبان عن أهل القادسية ، فإذا انتصف النهار رجع إلى أهله ومنزله . وإنه ليسير يوماً إذ لقيه راكب على ناقه عَرَفَ حين سأله أنه مقبل من هناك ، فقال له : يا عبد الله حدثني . قال الرجل : هزم الله للشركين . وجعل عمر يخبّ معه يسأله والراكب يحدثه وهو على ناقته لا يعرفه . وكان هذا الراكب سعد بن عُمَيْلَةَ الفزاريّ رسول سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين ، وكان يحمل رسالة سعد إلى عمر بالفتح وبعده من أصيب من المسلمين وأسماء من عُرِفَ منهم . فلما دخل الرجلان المدينة وسلم الناس على عمر بإمرة المؤمنين ، قال ابن عميلة : هلاً أخيرتني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين وأجابه عمر في بساطة : لا بأس عليك يا أخي اوتناول منه كتاب سعد وقراه على الناس .

بينما كان عمر يتلو على أهل المدينة كتاب سعد بالفتح ، كان يزدجرد بالسدائن

(١) الرواية المذكورة رواية الطبري ومن إليه وهم كثرة للأورخين . والبلاذري لا يروي أبيات عمرو ، ويروي أبيات بشر مع ما يرويه مما قاله أبطال القادسية لإشادة بقناهم ، ولذلك يروي البيت الثاني بالنسب الآتي :

وسعد أمير شره دون خيره      طويل الشدى كابن الزناد قصير

قد كَرَّمَتْهُ الأنبياء ، فأكب يستعيد أقوال رستم وما كان يشير به ، فيتولاه الحزن ويقعد به الهم دون التفكير فيما يستطيع عمله . . . وماذا يستطيع هو ، وماذا تستطيع فارس كلها ؟ لقد انطلق المسلمون في وادي العراق من أعلاه إلى أسفله ، فعاد الناس جميعاً إلى طاعتهم معتذرين عن ولائهم للفرس بأنهم غلبوا على أمرهم . وكان سعد يعذرهم تألفاً لهم وحرصاً على أن تسود الطمأنينة ربوعهم . بل لقد أقبل عليه من قبائل العرب المنتشرة فيما بين النهرين من ذكروا أن إخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام كانوا أوفر منهم عقلاً وأكثر حكمة ، ثم أعلنوا بين يديه إيمانهم بالله ورسوله . ماذا يستطيع يزدجرد إزاء ذلك كله وقد كانت تبلغه أنباؤه قزیده هماً على همه وتدفع اليأس إلى نفسه ، لولا أن أبطت حمية شبابه سراباً من الأمل يلعب أمامه فيخدعه عن الواقع ، ويُفريه بالتعلق بعرش حُرْمِهِ صبيئاً ، فلما اعتلاه تزلزلت قوائمه ، وتزعزعت أركانه ! . وهيئات لسراب أن يحقق أملاً ، أو يدفع للقضاء حكماً ! .

\* \* \*

هذه وقعة القادسية التي فتحت الطريق إلى إيوان كسرى في عاصمة ملكه ، ومهدت للإدالة من دولته والقضاء الأخير على سلطانه . لذلك روى أكثر المؤرخين من تفاصيلها ما روت كتب السيرة من تفاصيل غزوة بدر ، وأضافوا إليها من الخوارق ما لا يحمل على تصديقه إلا ما كان لهذه الغزاة من أثر حاسم في تاريخ العالم . بل لقد أسهب المستشرقون والفرس في روايتها ما أسهب المؤرخون المسلمون . وليس في ذلك من عجب والقادسية أعظم أثراً في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون ، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر وكان لها في توجيه الحضارة أبلغ الأثر . من الحق على المؤرخ ، وذلك شأن القادسية ، أن يقف عندها يستشف أسرارها ويستخلص عبرها . لقد فتح خالد بن الوليد سواد العراق وسار فيه من جنوبه إلى شماله ، وأخضع ريفه ومدنه ، وتولى كل أمره ، وكان له في قتال الفرس عليه معجزات باقية على التاريخ . أفيرجع ظفره بهم إلى تشاغلهم بما كان في بلاطهم من اضطراب ، وما كان بين أمراتهم من تنازع على العرش جعلهم يقتتلون ، فيقتل بعضهم بعضاً غيلةً حيناً وجهرة حيناً ،

حتى لقد جلس على هذا العرش تسعة ملوك في أربع سنوات؟ إن يكن ذلك هو الذي أظفر خالداً بهم، فكيف ظفر بهم أبطال القادسية، وقد اجتمعت كفة فارس بعد شتات، وقد تماهد الأمراء والرعية جميعاً على أن يكونوا رجلاً واحداً حول بزجد بنصرونه ويؤازروانه! . نعم كيف بقيت العلة وقد انتفى سببها، وكيف ظفر المسلمون على قلوبهم بالفرس على كثرتهم، والفرس في بلادهم وهم أصحاب العدة والحضارة، والمسلمون طائرون عليهم، وأكثرهم بدو على فطرتهم، لا يملكون من عُدّة الحرب ما يملك عدوهم، ولا يعرفون من أساليبها ما يعرف! .

السرف في ذلك أن اجتماع كفة الفرس لم يغير ما بأنفسهم، وإنما كان أمراً ظاهراً قضت به ضرورت الساعة، ثم بقيت القلوب في أعماقها شتى، وبقي السادة والأمراء يفكر كل منهم في نفسه وفي مطامعه قبل أن يفكر في وطنه. فلو أنهم انتصروا على العرب وأجروهم عن بلادهم، لعاد الأمر كما كان، ولاضطرب البلاط كرتة أخرى، ولطنت المطامع الذاتية على كل اعتبار سواها. ألم تر إلى رسم كيف تلسكاً فلم يخرج على رأس الجيش إلا كارهاً مخافة ثورة الشعب به إذا خرج يزجره مكانه! ألم تر إلى تباطئه وتباطؤ سائر القواد في السير حتى قضوا أربعة أشهر منذ فصلوا من المدائن إلى أن بنوا القادسية! والواقع أن رسم لم يكن يرى في النجوم إلا ما كان مرتسماً في قرارة فؤاده. لقد استولى عليه حب نفسه فعز عليه أن يهزم أو يقتل، فرأى مصير وطنه مرتبطاً في النجوم بما يخاف من هزيمته ومقتله. ولو أنه عرف فارس ونسى نفسه ورأى موته وحياته سيين في سبيل وطنه، لما تملل ولا تباطأ، ولما رأى في النجوم ما رأى، ولما بروحه فوق الخوف وفوق الإشفاق، ولسرت منه إلى القواد والجند قوة تجعلهم جميعاً يخوضون غمار الموت لا يباليونه. لكن القواد والجند كانوا كرتهم تعلقاً بذواتهم وإشفاقاً مما يصيبهم، فكانت روح كل واحد منهم أعز عليه من فارس ومن كل ما فيها. وإنما كانوا يسرون إلى الممركة تحرك الرؤساء أطعهم وأهواؤهم، ويحرك الجند إذعاناً ومثلة ألقواها أجيالاً طويلة. أتري ما تقضى به ضرورات الساعة من اجتماع الكلمة كافياً ليقضى في النفوس على هذه العوامل

السكينة التي تأصلت فجعلت كل رجل في الدولة يعيش لذاته ، وكل جماعة فيها لا تفكير إلا في مصالحها ؟ .

وكان من أثر هذه العوامل أن قضت النفس الفارسية على فكرة المثل الأعلى تعيش الأمة من أجله وتجاهد في سبيله ، والناس إذا لم تخضع كلتهم على مثل أعلى مصوّر في رسالة يريدون صادقين لتحقيقها ، يهزم للجهاد دافع غير حب الذات والحفاظة على الحياة وكان هذا شأن السادة والأمراء في فارس ، وشأن يزدجرد نفسه . أورثه حب الذات حرصاً على العرش أكبر من حرصه على حرمة بلاده ، كما أورث حب الذات السادة والأمراء حرصاً على مطامعهم غشّي في نفوسهم على كل ما سواه . وسرى هذا الروح في الأمة الفارسية كلها ، فأورت أهلها الخضوع والرضا بحياة الذلة . وقد خدعت همّاتها من ذلك حين غلبت الروم وانتزعت من أيديهم الشام ومصر ، ونسيت أن الروم كانوا كالفرس تدهوراً وانحلالاً . فلما ردّهم الروم على أعقابهم ظنوا الحرب سجالاتاً ، وفاتهم أن القوة السليمة من العلل لا تُردُّ على أعقابها ، فإن رُدّت يوماً فلعلّة بها . لذلك لم تعبأ فارس بغارات المسلمين أول ما شتوها ، وحسبت أنهم لن يلبثوا أن يعودوا أدراجهم هيبّةً لاسم فارس وإعظاما لبأسها . فلما رأت ظفرهم بها وقهرهم لها ، تفتحت منها الأعين ، ولكن لترى هزائمها وزوال ملكها .

أفئذني جيش انحلت قوته المعنوية هذا الانحلال إذا وقف بإزاء جيش كملت فيها هذه القوة ، فهو يجاهد في سبيل مثل أعلى يؤمن به ، ويرى الموت في سبيله شهادة يتقدم بها إلى ربه ، فتفتح له أبواب الجنة يدخلها خالداً في نعيم مقيم ورضوان من الله سرمدي !! وقد اجتمعت كلمة المسلمين حول هذا المثل الأعلى ، فوهبوا أنفسهم لله في سبيله ، واستحبوا الموت على الحياة لتحقيقه ، فكانوا بذلك قوة من قوى القدر هيأها ليرد الإنسانية بها إلى الصراط السويّ ، وألقى عليها رسالة يجب أن يسمع العالم لها محافظّةً على حياته . مثل هذه القوة لا يقف في سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدّها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

لهذا فررت قبيلة الفرس أمامها ، وتداعت صفوفهم لبأسها ، وولّى جمعهم مذبذباً من خشية أبطالها ، فانفسحت لها السبل تذيع عن جانبها رسالتها فيقبل الناس على هذه الرسالة طائعين ، وقد رأوا قوة الحق ماثلة في كل كلمة من كلماتها ، وكل عبارة من عباراتها ، ثم رأوها تدفع الباطل فيزهق . إن الباطل كان زهوقاً .

هذا هو السر في ظفر المسلمين بالفرس في غزوة القادسية . أما العبرة التي تستخلص منها فغير ما يعبّر عنها قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) وقد غيّر الإيمان بالله ورسوله ما بأنفس المسلمين ، وهداهم إلى الحق الذي تقوم الحضارة الفاضلة على أساسه ، فعزّوا بالإسلام وأعزّوه . أمّا الفرس والروم فظلوا أشد حرصاً على مُتّع الحياة ولينها منهم على المبادئ السامية التي تجعل للحياة الإنسانية قيمتها ومعناها ، وتجعلنا لذلك حقيقين أن نحياها فأذلّم المتاع ولينه ، ولم يُغن عنهم الترف شيئاً .

غير المسلمون ما بأنفسهم حين آمنوا بالله ورسوله ، فاجتمعوا حول مثل أعلى صورّه الله في رسالته إلى نبيه ، فأصبح المسلمون بفضل هذا الاجتماع أمة واحدة ، وصار كل واحد منهم في هذه الأمة كالعضو في الجسد ، لا قوة له بذاته ، بل بقوة الجسد كله . بذلك صار كل رجلٍ من أبناء الأمة ، وكل امرأة من نساءها ، قوة يجذبها المثل الأعلى إليه ، ويدفعها قوية للمغامرة في سبيله ، ويسمو بها إلى حيث لا تعرف الضعف ولا التراجع ولا الهزيمة ، بل تُؤثر الموت الكريم على الموقف الشائن . رأيت إلى طليحة بن خويلد الأسدي كيف كان ضعيفاً أمام خالد بن الوليد في حروب الردّة ، وكيف كان قويا بالغ القوة على الفرس في القادسية ! وهل رأيت كيف انهزم عمرو بن معدى كرب والأشعث ابن قيس في رديتها أمام جنود المسلمين ، وكيف أبلينا في القادسية بلاء ذكره لها الذاكرون ! ذلك أن طليحة كان يوماً تنبأ قوياً الشكيمة ضعيف الإيمان ، فلم تغن قوة شكيمته عن ضعف إيمانه . وكذلك كان عمرو بن معدى كرب والأشعث بن قيس وسائر الذين ارتدوا وحاربوا المسلمين . فلما عادوا إلى الإسلام وصاروا فلذة من الأمة التي اعتزت بإيمانها ، زادهم الإيمان قوة على قوتهم ، فكان لهم من الفعال في القادسية ما رأيت ، وكان لهم بعد القادسية من فعال البطولة والمجد ما خلده التاريخ .



وكان أمير المؤمنين من هذا الجسد بمكان الرأس ، يدبر أمور الجميع لخير الجميع ، ويجد السعادة في أن يشقى لیسعد الجميع . وقد تأسى عمر في هذا الأمر برسول الله ثم بأبي بكر ، فكان مثلاً عالياً بعدله وحزمه وإيثاره كل رجل من أبناء الأمة على نفسه ، وإيثاره خير الأمة على خير أي من أفرادها بذاته . رأى الخير بعد القادسية في أن يردّ الخمس من المغنم على الحاربين فردّه ، ورأى أن يُجزل سعد العطاء لأهل البلاد ففعل ، ورأى أن يتألف أهل العراق ممن اعتذروا عن انتقاضهم على المسلمين فتألفهم سعد . ولم بغضب أحد من أهل المدينة لشيء من هذا وفيه ما فيه من حرمانهم ؛ لأنهم رأوا أمير المؤمنين يريد الخير للإسلام كله ، ورأوه يستشيرهم فيما جَل ودق من أمره . وخير الإسلام خيرهم ، وإنكار الذات بعض ما أمرهم الله به . لذلك أعانوا عمر على ما فعل ، فجزاهم الله بعد ذلك عنه أضعافاً مضاعفة .

هذا بعض ما في القادسية من سرٍّ وعبرة . وهذا السر وهذه العبرة هما اللذان شادا بفضل الله للإسلام إمبراطوريته ومجده ، فلنتابع بناء هذه الإمبراطورية والذين رفعوا الواء هذا المجد ، ولنسر معهم ؛ فإنهم لن يلبثوا أن يسيروا إلى المدائن فيفتحوها ، ولن يلبث سعد أن يجلس على إيوان كسرى بعد أن فرّ عنه صاحبه مودعاً إياه الوداع الأخير<sup>(١)</sup> .

(١) اختلف المؤرخون متى وقعت القادسية ؛ يقول بن خلدون : كانت القادسية سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة وقيل ست عشرة . ويذكر أبو الفداء أنها كانت سنة خمس عشرة . وأنا أرجح هذا الرأي ؛ فهي قد وقعت بعد البرموك وفتح دمشق وغزاة نخل ، ووقعت بعد أن أمد عمر المثنى بأبي عبيد فكانت غزوات النمارق والجرس والبويب . ولما جمع عمر جيش سعد بن أبي وقاص سار هذا الجيش متمهلاً تتبع القبائل فيه نساؤها وأبناؤها . وقد أقام سعد بالعذيب أشهراً قبل أن يسير إلى القادسية ، وبقي بالقادسية شهرين على الأقل قبل الموقعة .

## الفصل التاسع

### فتح المدائن

فرّ الفرس بعد القادسية فرار النعام ، فبلغ الجانب الأكبر منهم أطلال بابل ، وتفرق الآخرون في أرجاء فارس . أما المسلمون فأقاموا بالقادسية شهرين حتى أراحوا ظهورهم وأبلّ سعد من مرضه . وكان عمر قد كتب إلى سعد ألا يبرح منازلته حتى يأتيه أمره . فلما اطمان إلى أنباء الجند وأمدّهم ، أمر سعداً بالسير إلى المدائن ، وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، على أن يجعل منهم كئفاً من الجند يكون لهم حظ سائر الجند من المغنم جزاء حمايتهم عيالات المسالمين .

وقدّم سعد زهرة بن الجوبة فسار إلى الحيرة ونزلها ، فلما بلغها عبد الله بن المقثم وشُرْحَبِيل بن السَّمَط عاود سيره منها إلى المدائن . ولقيه أثناء مسيرته جمع من الفرس بئرس<sup>(١)</sup> فهزمهم ففروا ينضمون لمن سبقوهم إلى بابل : وعرف زهرة نبأ الذين اجتمعوا ببابل من فلول القادسية فكتب إلى سعد به إذ كان بالحيرة مع هاشم بن عتبة . وسار سعد يريد بابل ، فلقى الفيرزان فهزمه في أسرع من لفت الرداء . وفر الفيرزان إلى نهاوند ، والمهرمان إلى الأهواز ، ويهران إلى المدائن . وتقدّم جند المسلمين ، فلقبهم شهر يار بكوتى فقتلوه وهزموا أصحابه ، ونقل سعد سلب شهر يار لمن قتله . وتقدّم زهرة بن الجوبة إلى ساباط ، فصالحه أهلها على الجزية ، وذلك حين عرفوا أنه هزم الجند الذي اعترضه فيما بين سورا والدير وقتل قواده . وكذلك كانت جنود المسلمين تسير في أرجاء السواد فلا تلتقي مقاومة تذكر ، وكان المدنيون يهرعون من كل صوب إلى أمراء هذه الجنود بالطاعة ، يُعلن فريق منهم

(١) بئرس : أجة قريبة من بابل . ويسمى بعض المؤرخين بئرانمروث . فيقول البلاذري عن أحمد ابن حماد السكوفي : « أجة بئرس بحضرة صرح نمروث ببابل . وفي الأجة هوة بعيدة الثغر يقال إنها بئران أكر الصرح انخذ من طينها ، ويقال إنها موضع خسف » .

إسلامه ، ويرضى فريق أداء الجزية ، وينزل الجميع على حكم هؤلاء الذين غزوه وأقاموا العدل بينهم ، ثم جَلَّوا عنهم حين فَصَّلَ خالد بن الوليد إلى الشام . هاهم أولاء يعودون إليهم في قوة بددت كل أمل في جلائهم مرة أخرى . من ذا يُجلبهم وقد هلك رستم وتضعضت الروح المعنوية في نفوس الفرس جميعاً إنه إذا الإذعان لقضاء قضاء الله فلا مردّ له ، ولن يقدر عليه أحد .

أقام سعد ببابل ، وقدم زهرة بن الحوية على رأس قوة تسير إلى المدائن . ترى هل أثار أطلال بابل في نفوس سعد والذين نزلوها ذكر المدينة القديمة التي شهدت حضارة الإنسانية الأولى متداولة بينها وبين طيبة ومنفيس وعالم الفراعنة الأولين ؟ وهل تراهم ذكروا عهد الأشوريين وثقافتهم وعقائدهم وما كان لبابل في عهدهم من جلال عظمة بأسوارها النيعمة ، ومعابدها الضخمة ، وأبراجها الحصينة ، وحدائقها المعلقة ، وقصورها الفخمة مهد الترف والنعمه والجمال والدلال ؟ هم لا ريب قد ذكروا بُرْجَ بابل ، وذكروا تداول الأمم الطارئة عايه ، حتى أصبح مضرب المثل هم كثرة اللغات التي يتكلمها من نزول أسارى أو فاتحين . ولكن ما علمهم ذكروه من أمر البرج ومن أمر المدينة نفسها لم يتعد حديثاً يتداولونه أو يقات سمرهم . فقد كانوا في شغل بما هم مقبلون عليه من فتح المدائن . والمدائن عامرة ، وبابل أطلال . والمدائن عاصمة الفرس ، وبابل لم تبق عاصمة ولم تبق مدينة . والمدائن عنوان الحياة ، وبابل أثر دارس لعهد مضى . والناس يتعالمقون بالحاضرة ولما يتخذون من الماضي عبرة . وأكثرهم لا يلتمسون العبرة ما بَسَمَ لهم وجه الحياة ، فإذا تَجَهَّم وجه الحياة وانقبض ، ذكروا المهود الخوالى لعل فيها ما يأسوكلوم الحاضر . وقد كان وجه الزمان باسماء المسلمين أى ابتسام . فاهم لبابل والأشوريين الذين أصبحوا أحاديث . وهم يرون من حولهم حياة زاخرة ، وكنوزاً ثمينة ، وشعباً لا يلبث حين يسمع باسمهم أن يهرع إليهم بالطاعة ، ويلتمس عندهم العفو والمغفرة .

بل إن منهم لمن ذكروا المرأى بابل فعال المساهين بها يوم عسكر الثننى بن حارثة على مرتفع من أطلالها ، وأقام بين شبكة من جداول دجلة ينتظر هرمرز جاذويه وهجومه عليه . ذكر هؤلاء ذلك الموقف العصيب الذى نجأهم بعد مسيرة خالد إلى الشام ، وارتقاء

شهر يران بن أردشير عرش كسرى واعتزاه طرد العرب من بلاده، وذكروا كيف قتل  
المنثى فيل هُرمز، وكيف هزم الفرس وتعقبهم حتى قاربوا المدائن. وتحدث هؤلاء  
بما شهدوا من ذلك إلى أصحابهم الذين جاءوا مع سعد من المدينة، والذين انضموا إليه  
من شتى الأرجاء في شبه الجزيرة، وذكروا لهم أن هذا السواد الذي يسرون فيه  
بين غدران مترعة ومزارع واسعة وحدثات يانعة، قد خضع لسلطانهم، فأكلوا من خيراته،  
وأرسلوا إلى المدينة ما استطاعوا أن يرسلوه من ثمراته.

فبابل وسائر الأماكن التي يمر المسلمون اليوم بها كانت بعض ما فتحوها وحكموا.  
كانت القادسية في يدهم، وكانت الحيرة مقر إماراتهم، وكانت بؤس وكوث وغيرها  
من الريف والقرى تدين لهم، وكانت المدائن مطمح أنظارهم. فهم اليوم يرون بأماكن  
لكثيرين منهم فيها ذكريات رفاهة ونعمة. وإنما الفرق بين أمسها ويومها أنها كانت لهم  
بالأمس مستقرًا وكانوا فيها سادة حاكمين، وهي اليوم ميدان لفتح جديد؛ فهم ينتقلون من  
واحدتها إلى الأخرى متجهين شمالاً بشرق من القادسية إلى الحيرة إلى بؤس، إلى بابل  
يريدون ساباط والمدائن. وهم يجدونها اليوم أهون أمراً مما كانت من قبل بعد أن فت  
الوهن في أعضاد أهلها فأيقنوا أن لا مفر لهم من الله إلا إليه.

سار زهرة بن الحوية وهاشم بن عتبة يريدان المدائن. فلما كانا على مقربة من  
بهرسير لقيتهما بساباط كتيبة لبوران بنه كسرى كان رجالها يلحفون كل يوم ألا يزول  
ملك فارس ما عاشوا. وكان مع هذه الكتيبة أسد تالفة كسرى: ولم تثبت الكتيبة  
للمسلمين أكثر مما ثبت جنود فارس ببرس بابل. وكيف تثبت وقد رأت حظ الأسد  
كحظ الفيلة بالقادسية! فقد اندفع هاشم بن عتبة فضربه بالسيف ضربة جدلته فتبلا.  
هنالك فرت الكتيبة تحتمى بهرسير. وأدرك سعد رجاله وعرف فعالهم، فقتل رأس  
ابن أخيه هاشم إكباراً لقتله الأسد، وقتل هاشم قدم عمه تقديراً لعطفه. ثم رفع سعد  
رأسه إلى السماء شكرًا لله، واتجه بعد ذلك بنظرة إلى ناحية المدائن وتلا قوله تعالى:  
«أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَالِكُمْ مِّنْ زَوَالِهَا».

وجعل سعد أول الليل يفكر في موقفه من المدائن. أيها جما وجنوده لاتزال تهزهم

نشوة الظفر ، فهم أشد ما يكونون حرصاً على اقتحامها ؟ أم يريحهم أياماً ثم يسير بهم إليها ؟ لكنها منه على مقربة ؛ فإذا هو وقف دونها فقد يُغرى وقوفه أهلها بالحرص على الذود عنها . الخير إذاً أن يأخذهم على غرّة . لذلك أمر بعد أن ذهبت هدأة من الليل فارتحل الناس حتى نزلوا على بهرسير .

وبهرسير ضاحية للمدائن ، تقع على ضفة دجلة اليمنى ، وتقع المدائن قبالتها على ضفته اليسرى ؛ فهي لذلك جزء منها وإن فصلها النهر عنها . والمدائن كلها تقع على نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من بغداد التي كانت يومئذ قرية ليس لها على غيرها عن قرى دجلة أى امتياز .

وكانت المدائن عاصمة إيران منذ عهد بعيد . خلقت بابل ثم فاقتها جلالاً وبهاء وعظمة . وقد ظلت ولها جلالها وجمالها مع ما أصابها من غزو الروم إياها واستيلائهم غير مرة عليها ، ومع ما كان من اضطراب بلاطها وقيام الثورات فيها . لذلك كانت الأبصار تشرب من جوانب العالم كله إليها ، وكان اسمها يبهز خيال الناس جميعاً ويثير فيه من معاني الروعة والسحر مالا يثيره اسم رومية ولا اسم القسطنطينية ؛ فقد جمعت من معاني الترف الشرق أبهى صورته وأكثرها حياً لآلهة الفن وشياطين الشعر . لا عجب وذلك شأنها أن يسير المسلمون إليها وكلهم شوق لما سيشهدون فيها مما لم تره عين ولم تسمعه أذن . ولا عجب أن يزيدهم هذا التصور حماسة وإقداماً ليصبح ماظنوه خيالاً قد تجسم أمامهم حقيقة واقعة . سار سعد بالناس إلى بهرسير والحماسة تهزّ الجند هزاً . لذلك كانوا كلما قدمت خيل عليها وقفوا ثم كبروا غير مرة ، لكنهم ألقوا أهلها تحصنوا بها وأغلقوا دونهم أبواب أسوارها ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، ولا مفرّ لذلك من حصارها .

وحاصرها سعد وهو لا يخشى أن يبعته أحد من خلفه ؛ فقد بث الخيول فأغارت على ما بين دجلة والفرات ، فأصابوا مائة ألف فلاح جاءوا بهم أسرى ، وحفروا الخنادق من حولهم . لكن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا جنداً محاربين ، فلم يكن من أسرم فائدة ، ولم يكن في إطلاقهم من الأسر خطر . لذلك أشار شيرزاد دِهقان سابط على سعدا فصرفهم إلى قراهم ليعملوا في الأرض ويكثرُوا من غلاتها . وكتب سعد إلى عمر بما صنع ، فأقرّ

الخليفة مشورة شيرزاد ، فأمن أهل السواد من شواطئ دجلة إلى أرض العرب وأقاموا  
يفلحون الأرض . وأدى الدهاقين الخراج والجزية فازداد الملاحون أمناً . وأقام سعد  
على حصار بهر سير وهو لا يخشى أن يُبعت من خلفه ، وهو مطمئن إلى أقوات جيشه .  
ونصب المسلمون الحجانيق وجعلوا يرمون بهر سير داخل أسوارها . ولم يهين الفرس  
لشدة هذا الرمي ؛ فقد أيقنوا أنهم إن لم يردّوا عدوهم عن مدينتهم انكشفت أمامه العاصمة  
وعظم الخطر عليها . وليس الدفاع عن بهر سير بالأمر العسير ؛ فأسوارها قوية وحصونها  
منيفة ، وجسر دجلة يصلها بالمدائن ، وعلى هذا الجسر تجيء من أرجاء فارس المترامية  
أمداد لا تحصى وأقوات لا نهاية لها . لذا ثبتوا للحصار شهوراً طويلاً ، يختمون المؤرخون  
أكانت تسعة أم كانت ثمانية عشر شهراً . وفي أثناء هذا الحصار كانت قواتهم تتخطى  
الأسوار أحياناً تقاتل المسلمين لعلها تنزل بهم من الهزيمة ما يردّهم على أعقابهم . اسكن  
المسلمين كانوا لا يفتنون يظفرون بهذه القوات ويردّونها إلى المدينة مجللة بالعار تسمى  
بأسوارها . فلما طال الحصار واشتد بالفرس ما يصيبهم أخرجوا جيشاً عليهم من القواد  
من كانت للجنود بهم ثقة أى ثقة . لكن هذا الجيش انهزم كذلك ورجع إلى المدينة .  
وفتت هزيمته في أعضاد الفرس وأدخلت في روعهم أن هؤلاء المسلمين لا غائب لهم .  
وكانت أنباء الحصار والقتال تبلغ يزدجر يوماً فيوماً ، بل ساعة فساعة ، فيتولاه  
الهم ويكاد يساوره اليأس : وطال ذلك به ورأى المسلمين بعد كل هذه الأسابيع لا يهينون ،  
ورأى وراءهم من ثراء العراق طعاماً كرفع التراب . ثم رأى الفرس يزدادتهم وتضعف  
حماستهم ، فأيقن أن بهر سير لا محالة صائرة إلى عدوه . عند ذلك بعث إلى سعد رسولا  
يعرض للصلح أن يكون دجلة حداً فاصلاً بينه وبين العرب ، « فانما ما بابيننا من دجلة  
وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم » . لكن سعداً رفض مصالحة يزدجر  
وردّ رسوله . وكيف يصالحه وأمر عمر بفتح المدائن صريح لا لبس فيه ؛ وكيف يصالحه  
بد أن هزم جنده أهل بهر سير وأسروا منهم ، وهم موشكون أن يقتحمون عليهم أسوارهم !  
ولم يكن الرسول قد بلغ يزدجر لبيئته رفض سعد حين أمر ابن أبي وقاص بتشديد  
الحصار ومضاعفة الرمي بالحجانيق ولم يجب أحد من بهر سير رماة المسلمين بنشابة ولا بسهم ،

فأيقن سعد أن حامية المدينة تخلّت عنها ، فنادى فى الناس ونهّد بهم ليقترضوها . وتسوّرها الرجال وفتحوا أبوابها فلم يجدوا بها من يرُدُّ عادةً عليها ، ولم يخرج إليهم منها إلا رجل نادى بالأمان علّوا منه أن حامية بهر سير انتقلت إلى المدائن بأمر يزيد جرد ، وأنها أحرقت الجسر وجمعت كل السفن التى تجرى فوق دجلة ، ليبقى النهر بتياره المتدفع خط دفاع يرُدُّ الغزاة عن العاصمة العامرة .

دخل المسلمون بهر سير فى جوف الليل ، فلم يثنهم ذلك عن الاندفاع إلى ناحية دجلة يريدون عبوره إلى المدائن ليقترضوها كما اقتحموا ضاحيتها . ولم يجدوا الجسر يعبرون عليه ولم يجدوا سفناً تحملهم ، فوقفوا على شاطئه ، فرأوا أمامهم منظرًا بهرهم ، فأقاموا مبهوتين يحدّقون فيه ملء عيونهم وملء قلوبهم ولا يكادون يصدّقون ما يرون : بناء ضخم بالغ غاية الروعة والهيبه والفضامة يقوم أمامهم على الشاطئ الآخر إلى ارتفاع لم تألفه أبصارهم ، ويميزه بياض لونه رغم دجى الليل المُدّتهم . ورق الليل وصفت السماء وسرى فى الجو نسيم عذب زاده لطفًا وزاده هذا المنظر الفذّ روعة وجلالاً ؛ فأمسك الجند أنفاسهم وفتحوا عيونهم وأفواههم أن ملك الإعجاب عليهم كل حواسهم . وتلاحقت فرّق الجند إلى النهر ووقفت على شاطئه تولهاها البهز وكأنا سُمرت فى أماكنها . فلما أقبل ضرار بن الخطاب فى زمرته ، ورأى مارأوا ، نادى بأعلى صوته : الله أكبر ! هذا أبيض كسرى ! هذا ما وعد الله ورسوله ! عند ذلك تعالت الأصوات بالتكبير من كل جانب وأيقن الناس جميعاً أنهم بإزاء هذا الإيوان الذى طالما سمعوا به مذكوراً فى شعر الشعراء وأحاديث المحدثين . وجعلوا يكبّرون حتى أصبحوا وكلهم الشوق ليعبروا إلى الإيوان ، وليحطموا به وليلثوا عيونهم منه ، وليدخلوه ، وليروا تحت كسرى فى بهوه العظيم ، وليروا قائدهم جالساً عليه يُعلن كلمة التوحيد فتجيبه الأصداء من كل جوانب القصر بأن صدق الله وعده ، فكلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم .

لم يكن عجباً أن يتولّى المسلمين البهر لراى قصر كسرى ؛ فقد كان هذا القصر عجيبية الأرض لذلك العهد . ولم يكن قدمه موضع العجب فيه ، فقد كان يومئذ حديثاً لم يمض على بنائه مائة عام ؛ إنما كان جلاله وكانت عظمته موضع العجب . شادة كسرى

أنوشروان ، سنة خمسين وخمسة ليلاد السيد المسيح ، طرازاً بذّبه أنخم عمائر الرومان والإغريق جميعاً . كانت واجهته تزيد على مائة وخمسين متراً ، ويرُجى ارتفاعه على أربعين متراً ، وكانت القباب الجاثمة فوق أهبائه الخمسة تتوّج بهاءه وجلاله ، وتثير التطلع في نفوس هؤلاء العرب الذين شدّت أبصارهم إليه عما عسى تحتمى هذه الأهباء من ثراء وزخرف . إن بها لاريب من ذلك ما يقصر الخيال دونه . وهذا البهو الذي يتوسطها ، وتعلو قبته قبابها جميعاً ، هو لاريب هذا الإيوان الذي لم يسمع الناس في العالم كله بشيء من مثله . أليست الأحاديث تجري عن نخت كسرى والجواهر الكريمة التي ترصّع قوائمه بما يشبه الأساطير ! والتخت والإيوان والقصر قائمة كلها أمام الجندلا يفصل بينهم وبينها إلا النهر وهي تزيدهم في كل لحظة بهراً . متى إذاً يهبون إليها ويرون رأى العين كل ما فيها ؟ !

بينما تدور هذه الخواطر في نفوس المسلمين يغذيها خيالهم ، ويزيدها منظر المدائن حياة وقوة ، كان يزدجرد مشتت الخاطر يهيم على وجهه في أهباء القصر وقد ركبتة الوسوس من كل جانب . إن دجلة حصن طبيعى بسعة مجراه وتدفع تياره . وقد زاده في هذا الفصل سعة وزاد تياره تدفعاً ذوبان الثلوج في أعالي الجبال التي ينبع منها بأذر بيجان والموصل . ولا سبيل للمسلمين إلى تخطيه بمد أن مُجمعت السفن كلها إلى جانبه الشرقى . ألا تستطيع قوات الفرس أن تحمى شاطئه ، وأن تدفع بذلك كل خطر عن العاصمة ؟

هذا هو التفكير الطبيعى في مثل هذا الموقف ، وكان جديراً بيزدجرد أن يتجه إليه ، وأن يدعو قواده يدير معهم الرأى فيه ، وأن يبعث من روحه الشاب إلى أرواحهم وأرواح الناس جميعاً من أهل العاصمة حماسة للذود عن حرمتهم وعن كرامتهم . ولو أنه فعل لكان ذلك أقلّ ما يجب عليه لنفسه ، ولأمة أسلته زمامها ، والتفت حوله للدفاع عن كيانهما .

لكن اضطرابه أضلّ قلبه وأفسد تفكيره ، وجعله يرى هؤلاء المسلمين جثناً لا تقف قوة في سبيلهم ولا طاقة لأحد إلا بالفرار أمامهم . ومن أولى منه بأن يكون أمام الناس في هذا الفرار نجاة بنفسه وبأهله ! لذلك أمر رجاله فحملوا بيت ماله وما خفّ من متاعه وخزائنه ، وحملوا النساء والذراري وخفّوا بهم يقصدون حُلوان . ورأى الناس ماصنع عاهلهم ، فخارت عزائمهم واندفعوا يفكرون في النجاة بأنفسهم وذويهم . أليس الناس



على دين ماوكنهم ! ولماذا يكون أهل الملك وجواريه أعز عليه من زوج الجندى أو القائد وأبنائهم عليه ! ا بذلك انهارت روح المقاومة في أنفس الفرس ، ولم يبق لهم أمل في غير الحظ يُسعدهم فيجعل النهر أداة في رد الغزاة عنهم ، أو يعثر بهم ككرة أخرى فلا سلطان لهم عليه ولا سبيل إلى مقاومته .

وكذلك كان دجلة يجرى بين جندين : جند تحطمت قواه فلم يبق له عزم ولا إرادة فالقى يديه وترك للحظ مصيره ، وجند سمّت روحه المعنوية وبلغ من قوة الإيمان بالنصر حتى خيل إليه أنه إن ضرب النهر بعصاه ينفرج له فيه طريق يمتاز عليه إلى إيوان كسرى . هذه معجزة أتاحتها الله لكليمه موسى ففرّ بها من مصر مع قومه . وستيحيح الله اليوم مثلها لجند المسلمين فيعبرون النهر ويقتحمون المدائن ويُدبلون دولة الأكَسرة ، ويرفمون لواء الحق فوق الإيوان الأعظم .

نعم ! هي معجزة تلك التي اجتاز المسلمون بها دجلة . لقد وقفوا على شاطئه ينظرون إلى تدافع مياهه ، ويفكر سعد في الوسيلة إلى عبوره ، فلا يسمعه التنكير بنافع . فأسر رجاله فجاءوه بمُلوج من الفرس سألهم فدلوّه على مخاضة في النهر تخاض إلى صلب الوادى . لكنه خشى عادية التيار على الجند ، وهو حريص أن يُبقى على كل رجل منهم . لذلك تردد فلم يعمل بما أشاروا به . فلما كان الغد أتاه النبأ بأن يزدجرد أمر بخزائنه أن تحمل إلى حلوان . عند ذلك جمع الناس وقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه منه . وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم . وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤثتوا منه ؛ فقد كفاكم وهم أهل الأيام وعطلوا نفورهم وأفتنوا ذاتهم . وقد رأيتُ من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » .

أية مفاجأة هذه التي فاجأ سعد بها رجاله ! أو لم يكن إلى أمس متردداً ! ألا يخاف أن يتردد الناس فلا يقوون على أمر فيه من الخطر أهوله ! لكن الناس لم يترددوا ؛ فقد سحرهم مرأى للمدائن أعظم السحر ، وجذبهم قصر كسرى إليه بقوة دونها كل قوة ، فهم يقدّمون على المستحيل ليدخلوا العاصمة وليحيطوا بالقصر . لذلك لم يكذب

سعد يُتمُّ كلمته حتى قالوا جميعاً : « عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل » .  
ولسكن كيف يعبرون ؟ وهبهم عبروا على خيولهم ، فجنّد فارس على الشاطيء الآخر  
يصدونهم فلا يخرجون من الماء . تنبّه سعد لهذا فنذب الناس وقال : من يبدأ ويحى لنا  
الفِراض<sup>(١)</sup> حتى نلاحق به الناس لكي لا يمنعهم من الخروج ؟ ! وانتدب عاصم بن عمرو  
ذو البأس ، وانتدب بعده ستائة من أهل البجدة ، فأمر سعد عاصمًا عليهم ، فساروا حتى إذا  
بلغوا شاطيء دجلة قال عاصم لأصحابه : من ينتدب معي لتكون قبل الناس دخولاً في هذا  
البحر فنحى الفِراض من الجانب الآخر ؟ وانتدب له ستون فارساً تقدّمهم هو إلى حافة  
النهر وهو يقول للذين ترددوا : أتخافون من هذه النطقة ! ويتلو قوله تعالى : « وَمَا كَانَ  
لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا » . ثم دفع فرسه فاقتحم النهر واقتحم زملاؤه  
معه . ورأى القعقاع بن عمرو هذه الكتيبة الأولى تتقدم في سبحها ، ومدّ بصره إلى الجانب  
الآخر من النهر ، فرأى الفُرس وكأنما يتهيئون للقائها ، فأمر سائر أصحابه الستائة فدفعوا  
خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه . وتولّى الفرس العجب لما صنع عدوهم ،  
فقال بعضهم : مجانين ، مجانين ! وقال آخرون : إنكم والله ما تقاتلون إنساً بل  
تقاتلون جنّاً .

وأقام الفرس ينظرون إلى هؤلاء المغامرين حيناً ؛ فلما رأوا عاصمًا وأصحابه توسطوا  
النهر أرسلوا فرساناً لينعومهم من الخروج وليقاتلوهم في الماء . ودنوا من عاصم حين  
دنا من الفِراض ، فقال عاصم لأصحابه : الرماح ، الرماح ! أشرعوها وتوخوا العيون .  
وارتدت خيول الفرس حين أصابت الرماح عيونها ، فلم يملك فرسانها دفعها ليلقوا هؤلاء  
الذين خاضوا غمار الموت في لجة النهر لا يباليون ما يصيبهم . ولم يُصَبْ أحد من كتيبة  
الأهوال بأذى ، بل خرج عاصم على رأسها إلى الشاطيء ففرّ الفرس أمامه . وأدركه  
القعقاع على رأس الكتيبة الخرساء فلم يبق على الشاطيء من الفرس أحد .  
ورأى سعد بن أبي وقاص تحكّم أصحابه في فِراض المدائن ، فأمر فرسانه فاندفعوا  
جميعاً أوفقاً مؤلفة إلى لجة النهر من حيث اقتحمه عاصم . وامتلاً النهر بالخليل ، فلم يكن ماؤه

(١) الفِراض : جمع فِرْضة ، وهي هنا تنفور المحاضة من الناحية الأخرى .

في هذه الساعة لِيُرَى . وأمر عاصم أصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها إلى جانب بهر سير ، فنقلت من جيش المسلمين من لم يعبر على جواده . فلما عبر سعد بالجيش كان أهل المدائن جميعاً قد فروا ، لم يبق منهم إلا من تحصنوا بالقصر الأبيض . ولم يقاوم هؤلاء ، بل قبلوا أداء الجزية ، وفتحوا أبواب القصر للمسلمين .

هذه معجزة من معجزات الحروب لا يكاد العقل يصدقها : فيقول ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن يُتِمَّ وصفها : « وكان يوماً عظيماً وأمرأ هائلاً ؛ وخطباً جليلاً ، وخطباً باهراً ؛ ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقها الله لأصحابه لم يُرَ مثلها في تلك البلاد ، ولا في بقعة من البقاع » . وهذه العبارة للمؤرخ الإسلامي تصور شعوره وتصور شعورنا حين ترسم أمامنا هذه الفعال الباهرة وهذا الإقدام فاق كل إقدام . وهل كلمة غير المعجزة تصح وصفها هذه الأعمال ؟ وأية معجزة كأن تقتحم كتيبة الأهوال النهر وعاصم على رأسها ، وأن تقتحم الكتيبة الخرساء النهر والقعقاع على رأسها ، ثم لا يخشى رجل في الكتيبتين أن يبتلعها الموج أو أن يرميه الفرس من الشاطئ الآخر بالنبل ! ! لكنه الإيمان بالنصر يسمو بالنفس إلى حيث تصبح الحياة ويصبح الموت أمامها ألفاظاً يتساوى مدلولها في سبيل الغاية التي تريد دركها . ولم يكن للمسلمين صبر على المدائن ، فهم يريدون أن يقتحموها وإن بذلوا لفتحها كل ثمن ، وإن بذلوا لفتحها مُهَجِّمهم وأرواحهم . لذا قال الفرس حين رأوهم : إنا لا نقاتل إنساً بل نقاتل جنّاً ، ثم لم يثبتوا لهذا الجن الذي جاءهم من خلل الموج وكأنه بعض قوى القدر التي تنزل الأرض وتدك الجبال . أليست البراكين والصواعق من قوى القدر ! كذلك كانت الكتيبتان ، وكذلك كان سعد وسائر الجيش إذا اندفعوا إلى النهر فرقة بعد فرقة يُحْمِلون لجة مائه خيولاً وفرساناً . كيف لقوة أن تثبت أمام هذه القوة ! وماذا يصنع الفرس ، وقد انحلت قواهم وتحطمت روحهم ، إلا أن يفروا أمام هذا الجن الذي جاءهم فلا نفوسهم رعباً وفرعاً ! .

« هذه معجزة لم يُرَ مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع » . تلك ألفاظ ابن كثير . ولولا أن تيمورلنك أتى بمعجزة مثلها ، إذ عبر جيشه النهر سباحين هاجم بغداد في العقد الأخير من القرن الرابع عشر المسيحي ، لتردد بعضهم في تصديقها . بل إن البلاذري

ليذكرها في شيء من الحذر ، ويضيف إليها روايات يراها أدنى إلى أن تصدق . من ذلك رواية أبان بن صالح إذ يقول : « انتهى المسلمون إلى دجلة وهي تفتح بماء لم ير مثله قط وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الجزيرة الشرقية وحرّقوا الجسر ، فأنتم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا إلى العبور سبيلا ، فأنشد رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسبح المسلمون ، ثم أمروا أصحاب السفن فمعبروا الأثقال . فقالت الفرس : والله ما تقاتلون إلا جناً فانهزموا » . ومنه رواية أبي عمرو بن العلاء إذ يقول : « لم يجد سعد معابر فدلّ على مخاضة عند قرية الصيادين ، فأخاضوها الخيل ، فجعل الفرس يرمونهم ، فسلبوا غير رجل من طيئ لم يصب يومئذ غيره » .

أنت لا ريب ترى ما في هذه الروايات من احتياط يشعر بأن أصحابها يترددون في التسليم بالرواية التي سقناها وأجمع عليها الطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم . لكن هذا الاحتياط لا ينفي هذه الرواية ولا يثبت ما يعارضها ، وإنما هو احتياط من يرى فيها عجباً يدعو إلى شيء من الشك فيها . ولو أن هؤلاء الذين شككوا عاشوا إلى أواخر القرن الرابع عشر للمسيحي وعرفوا أن تيمورلنك عبر دجلة بجيشه ، كما عبره سعد بجيشه ، لانقضى عجبهم وزال من نفوسهم كل شك في الرواية التي اجتمعت الأقوال عليها ، بل لما رأوا عجباً فيما يدعو منها إلى العجب ، ولأيقنوا أن سعداً « اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد . فساروا فيها كأنما يسرون على وجه الأرض حتى ملثوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة . وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن ، والثوق بأمر الله ووعدده ونصره وتأيبده . . . وأن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر ، وقد رمى بهم في هذا اليم فسدّدهم الله وسلبهم ، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد ، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل كانت علاقته رثة فدفعه الموج إلى الجانب الذي يقصدونه ، فأخذته الناس ثم ردّوه على صاحبه . . . وكان الذي يسير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي ، فجعل سعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهورن الله دينه ، ولهم من الله عدوه ، إن لم يكن

في الجيش بنى أو ذنوب تغلب الحسنات . فقال له سلمان : ذَلَّتْ لهم والله البحور كما ذُلَّ لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده لَيَخْرُجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً . نخرجوا منه كما قال سلمان لم يفرق أحد ولم يفقدوا شيئاً .

وخرج جيش المسلمين من الماء تنفض خيوله أعرافها صاهلة ، ودخلوا اللدائن فلم يجدوا إلا من تحصن بالقصر . ذلك أن يزدجرد كان قد أخذ سائر أهله وما قدروا عليه من الأموال والمتاع وفرّوا إلى حلوان . ودعا سعد من تخصصوا بالقصر لينزلوا فنزلوا ، ودخل بحفده ، وجعل يحيل بصره فيما احتواه هذا القصر اللذيذ من نفائس ومُتَمِّعٍ ويتلو قوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَبُيُوتٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا : فَآكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ » .

ما أعظم هذا الفتح وأجله ! فهذه مدينة كسرى وهذا إيوانه . وهؤلاء هم جنود شبه الجزيرة المجذبة الجرداء بسيرون تولاهم البهْرُ خلال جنات القصر بين أزهار يانعة وأشجار باسقة وثمر وفاكهة وأعشاب شتى ألوانها ، لم تقع أعينهم قط على مثالها . وينتقلون من الحدائق إلى الأبهاء فيزيدهم مافيها بهراً . نقوش جلّ جلالها وجلت دفتها عن الوصف ، وأنث لم يروا في دمشق نظيره ، وطنافس من حرائر فارس طرّزت بالذهب والفضة ، وأسباب الترف والنعمة تجعت إلى هذا الإيوان من بدائع صنع الشرق في مختلف أرجائه . أرى شيء هذا كله ! وهل يجزى الشكر لله عنه ؟! لكن سعداً وأصحابه لا يملكون غير الشكر لله على ما فتح عليهم . لذلك صلى سعد شكراً لله صلاة الفتح ، ثماني ركعات بتسليمة واحدة ، ثم أمر أصحابه فجاءوا بميالات المسلمين من الحيرة ومن سائر مدن العراق وقراه ، فأنزلم في اللدائن .

ونزل سعد قصر الأكَسرة وأقام به ، واتخذ الإيوان مصلى ، وترك ما به من تماثيل قائم لم يحركه ، وماله يحركها ولم تسكن إلا بعض الزخرف الذي ازدان به القصر وازدانت به أبهاؤه جميعاً ، وإن حُصَّ الإيوان منه بأكثره مهاء وروعة ! وقد كسا الزخرف وكست النقوش جدران القصر من مستوى الأرض إلى أعلى العقود ، ثم تُركت الجدران التي تبدو للنظر من الخارج ملساء ساطعة البياض .

ووجد سعد خزائن كسرى مترعة بالأموال وبنفيس الثياب والأمتعة والآنية والألطف

والأدهان وما إلى ذلك مما لا تعبر الألفاظ والأرقام عن قيمته . وكان سعد قد بعث جنده يطاردون يزدجرد والذين فرّوا معه إلى حلوان ، فأدركوهم وجاءوا به بما حلوه ، فإذا قيمته تضاهى قيمة ما بالقصر . ووجد المسلمون بدور المدائن من التحف والنفائس مأذهل خيالهم ، وما دلّ على ترف أهلها ترفاً لم يعرفه غير الفرس .

وإننا لتتولانا الدهشة اليوم لنفاسة هذه الغنائم وقيمتها وكثرتها ، فلا عجب أن تولّت أولئك الفاتحين الذين رأوا هذه الغنائم بأعينهم أضعاف ما يتولانا من البهر والدهشة ، وأن يذكر المؤرخون العرب هذه الغنائم في تفصيل يسوّغ دهشتنا ودهشة الفاتحين .

ذكروا أن سعدا وجد بنجران كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف دينار ، ثلاث صرات ، ووجدوا بالقصر من التحف والأمتعة ما لا ندرى قيمته . وجاء الذين خرجوا في أثر يزدجرد بتاج كسرى مرصّعا بالدر والجوهر : وبثيابه من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، ومن غير الديباج منسوجاً ومنظوماً ، كما جاءوا بنجران كسرى ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر . وطارد القعقاع بن عمر فارسياً فقتله وأخذ منه عيّبتين فيهما أسياف وأدراع لكسرى ولهرقل وخلقاقان الترك وللعنمان والملوك آخرين غزاهم الفرس وعزّوا الفرس . وجاء عصمة بن خالد الضبي بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولبّاته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ، ولجامه كذلك ، وفارس من فضة مكلل بالجواهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل<sup>(١)</sup> مع ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت . وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر . ووجد المسلمون بدور المدائن سلالاً مختومة برصاص ظنوا ما فيها طعاماً فإذا هو آنية من الذهب والفضة وبلغ من كثرة ما وجدوا من ذلك أن كان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متائلين . ووجدوا بدور المدائن كذلك كافوراً كثيراً حسبوه لكثرتهم ملحاً فجعفوا به فوجدوه مرأ . ترى أغرت هذه الكفوز أولئك العرب . فهم أحد منهم بأن يأخذ شيئاً منها لنفسه ولا يرده إلى من ولّاه سعد قبضها لنفسه من بعد ؟! كلا ! بل جاء كل بما استولى عليه من السلب فسلمه وإلى القبض حتى يرى سعد فيه رأيه . واما جاء القعقاع بن عمر

(١) الشليل هنا : مسخ من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرجل .

بأسياف كسرى والملوك وأحضرها عند سعد خيَّره بينها ، فاختار منها سيف هرقل وترك ساثرها . وأقبل رجل إلى والى القبض بحُقيّ نفيس ، فقال الوالى والذين معه : ما رأينا فيما عندنا مثل هذا ما يعدله أو يقاربه ، وسألوا الرجل : هل أخذت منه شيئاً ؟ قال : لا والله ، لولا الله ما أتيتكم به ! وسألوه : من هو ؟ فقال : لا أخبركم فنحصدوني ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه . وعرف سعد أمر هذا الرجل وأمثاله ، فقال : والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر . وكان جابر بن عبد الله يقول : « والله الذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . فقد اتهمنا ثلاثة نفرهم طليحة وعمرو بن معدى كرب وقيس بن المكشوح فما رأينا كما اتهمهم وزهدهم » . وهذه الشهادة من جابر لأولئك الثلاثة لها دلالة خاصة ؛ فقد كانوا على رأس المرتدين الذين حاربهم أبو بكر وحاربه حرصاً على الدنيا وسلطانها . وهام أولاء حسن إسلامهم . فأصبحوا فى طليعة العرب جهاداً فى سبيل الله ، وزهداً فى الدنيا ، وتقرباً إلى الله بالعمل الصالح والبلاء فى الحرب أحسن البلاء .

فصل سعد خمس الغنائم ليرسله إلى المدينة ، وحرص على أن يكون فيه كل ما يعجب منه العرب وكل ما يُعجبهم . ثم أراد أن يرسل خمس القطيف ، وهو بساط كسرى ، فرآه لا تعتدل قسمته ، فقال للمسلمين : هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه ، فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء ، فإننا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقعاً ؟ وكان هذا البساط مربعاً ستون ذراعاً فى مثلها ، وكانت الأكامرة تعدّه للشقاء إذا اشتدّ القرّ وذهبت الرياحين . وقد صوّرت فى هذا القطيف طرق المملكة وبُسِطت فيه الأرض مُذهبة تجرى خلالها أنهار رصعت بالدر ، وجعلت حافاته كالأرض المزروعة فيها نبات الربيع قام على سوق من ذهب ، وجُعل ورقه من الحرير وثمره من الجوهر . وأقرّ الناس رأى سعد ، فأرسل القطيف مع الخمس إلى المدينة .

وقسم سعد الفى فى الجند ، وكان قد تم ستين ألف فارس ، فأصيب الفارس منهم اثني عشر ألفاً ، ثم جعل لأهل البلاد على قدر بلائهم . وقسم سعد المنازل بين الناس ، وأنزل العيالات فى الدور فأقاموا بها حتى ارتحل عن ارتحل منهم عنها بعد أن امتد الفتح

إلى ما وراءها من ريف فارس؛ وأنت في حلٍّ من أن تصوّر لنفسك مبلغ ما أدت إليه هذه المغنم من غبطة الناس، ومن حماسهم لفتح جديد يدر عليهم مغنم جديدة .

ذهب بشير بن الخصاصية بخمس الف إلى المدينة، ووضعه بين يدي أمير المؤمنين، وكان عمر قد سبقت إليه الأنباء بفتح المدائن، إذ كتب سعد إليه بما يجعله كأنه حاضرها. مع ذلك دهش لما رأى من كثرة هذا الفء ونفاسته وإحضار المسلمين له كاملاً، فالتفت إلى من حوله يقول: «إن قوماً أرادوا هذا لأمناء!». وأجابه علي بن أبي طالب «إنك عفتت فعمت رعيتك. ولو رمت لرتعت». ونظر عمر إلى ثياب كسرى وأسيافه ودروعه، فألبسها خشبة ونصبها أمامه ليرى الناس ما في هذه الزينة من العجب. وقيل إنه دعا إليه سراق بن جشم، وكان من أجسم العرب وأبدنهم، فألبسه قميص كسرى وسراويله وقبائه وسيفه ومنطقته وسواريه وتاجه وخفيه وقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال: بئح بئح، أعيراني من بني مدج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه! رب يوم ياسراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك!.. وقيل كذلك إنه كانت لكسرى عدة أزياء لكل حالة زينة، فجاء عمر بأجسم عرى بأرض المدينة وجعل يلبسه إياها زياً بعد زياً، فيرى الناس ينظرون إليها أمراً عظيماً من سحر الدنيا وفتنتها. فلما فرغ الأعرابي من لبسها جميعاً رفع عمر رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني؛ ومنعت أبا بكر، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك؛ وأعطيتني، فأعوذ بك أن تكون أعطيتني لتسكربني!». هذه لفتة من لفتات عمر سيذكرها من بعد، وسيذكر أثرها في الأمة في صراحة دونها كل صراحة؛ فقد أحسن بما لهذا الترف من فتنة تجذب النفوس إليه: فتجعله مثلاً الأعلى تففق في سبيله كل ما أوتيت من قوة وتديبر، وتصرف لذلك عن المعاني الإنسانية الكريمة التي تسمو بقلوبنا وعقولنا إلى أرفع الندى، فتقر بنا من الله، وتجعلنا بفضل منه نرى وجه الحق ذي الجلال. ولهذا اللفتة، ولخشية عمر أن يكون الله قد أعطاه متاع كسرى ليسكر به، بكى حتى رحه من كان عنده، ثم أشار إلى هذا المتاع



وقال لعبد الرحمن بن عوف : « أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمشي ! » .  
 وقسم عمر الخمس بين الناس على أقدارهم ، ونقل منه من غاب ومن شهد من أهل  
 البلاء . ورأى القطيف لا ينقسم فقال ابن حوله : « أشيروا علىّ في هذا القطيف » .  
 قال الملاء : قد جعل لجند ذلك لك ، فالرأى فيه رأيك . وقال بعض : إنه لأمر المؤمنين  
 لا يشركه فيه أحد . وأبى عمر أن يقبضه أو يبدي في أمره رأياً . فقام علىّ بن أبي طالب  
 فقال : « لم يجعل الله عاملك جهلاً ، ويقينك شكاً . إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت  
 فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفانيت . وإنك إن تبقي اليوم على هذا لم  
 تعدم في غد من يستحق به ما ليس له » . قال عمر : « صدقتني ونصحتني » . ثم قطع  
 القطيف وقسمه بين الناس ، فأصاب علياً منه قطعة لم تكن أجود تلك القطع ، ومع ذلك  
 باعها بعشرين ألفاً .

بينما كان عمر يقسم الفء بين الناس بالمدينة ، فيرى الناس فيما يصيهم منه نعمة  
 من الله لم يكن لهم من قبل بمثها عهد ، كان سعد بن أبي وقاص قد اطمان بالمدائن واستقر  
 بقصر كسرى ، وجعل إيوانه مصلياً للمسلمين ؛ ينادى فيه باسم الله ، وتقام فيه الصلاة ،  
 ويجتمع الناس به كل جمعة ليخطبهم سعد ويؤمهم . وكان يزدد قد نزل حلوان  
 مغموماً مدحوراً ، يقطع لهم نياط قلبه ويفرى الأمى كبده ، ويذكر عظمة فارس وجلال  
 مجدها ، فيزداد به الحزن ، ويتراءى له شبح رستم وما كان يذكره من دلالات النجوم .  
 أين يومه اليوم من تلك العهود الخوالي حين زحف أسلافه من إيران إلى العراق فاكتمسحوه  
 إلى شواطئ دجلة ، وحين أقاموا بطيسفون قبالة سلوقية ، وحين مدوا طيسفون وضموا إليها  
 ما حولها من البلاد ، وجعلوا منها ومن سلوقية بلداً واحداً هو المدائن ، ثم أطلقوا على سلوقية  
 اسم بهر سير لينسى أهلها أيام عزها ، إذ كانت مدينة يونانية حريصة على استقلالها حرص  
 أتينا على استقلالها ، وحرص إسبرطة على استقلالها ! وأين يومه اليوم من عهد أجداده  
 الأكاسرة بنى ساسان الدين دوخوا العالم ، ومن عهد جده أردشير صاحب القصر  
 والإيوان والفخامة والنعمة ! ! إنه اليوم مايك غلب على أمره ، وطرد من عاصمة ملكه ،  
 ففر كما يفر الجبناء . أترأه يصبر على هذه الهزيمة ويرضى بهذه النكبة ؟ وهل كتب

التدر لهؤلاء العرب أن يطاردوه إلى أقصى الأرض؟ إنَّ به من حرارة الشباب وإقدامه ما يمدُّ له في حبال الأمل . أفبقيت له من هذا الأمل بقية؟ أم حطمت الهزيمة هذا الإقدام وأثلجت تلك الحرارة ، ففضت في نفسه على كل أمل وكل رجاء؟ ! .

لم يفكر الشاب المنهزم في شيء أول ما نزل حلوان . لقد عرض على المسلمين الصلح على أن يكون دجلة حدًّا فاصلا بينه وبينهم . أتراهم وقد فتحوا المدائن يكتفون بها ويقفون عندها؟ إنهم إن فعلوا يحمقوا بعض رجائه ، والمستقبل كفيل من بعدُ بتدبير شأنه . لكنهم منتصرون ، والمنتصر لا يعرف هواده ، وجيوشه الكثيرة تطير إلى كل جانب تطلب النجاة . فلما ترك الأمر للأيام ! وغد لناظره قريب !

ماذا يكون في غد؟ ذلك حديثنا في الفصل التالي .

## الفصل العاشر

### المسلمون في العراق

استقر سعد بقصر كسرى، وأقام المسلمون في دور المدائن من حول القصر ينعمون بحياة دعة ونعمة. وما لهم لا يفعلون وفي أيديهم من المغنم التي نفلوها ما يكفيهم السنين، وأقواتهم تبيحهم من البلاد المجاورة سهلاً وفيرة، ودجلة تجري من تحتهم فينسيهم البادية وكثبان الرمال، والجسر الذي يصل بين سلوقية وطيسفون، ويجعل منهما هذه المدائن البارعة متنزّه المترفين، جدير بأن يلهم الشاعر العربي ما ألم مثل هذا الجسر ببغداد على بن الجهم إذ قال:

عيونُ المَهْمَا بين الرّصافة والجسرِ  
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري!  
وكان الناس يجتمعون بسعد في قصر كسرى، فيتحدث سعد إلى ذوى العلم منهم بماضى هذه البلاد، ويذكر ويذكرون أياماً سلفت كانت فيها مقراً حضارة العالم. ففي أرجاء مختلفة منها قامت دول البابليين والآشوريين والكلدان، وكانت بعض هذه الدول تستقر بها، وكان بعضها يطرأ عليها ثم يترحل عنها، ثم تطلق كل دولة اسمها على الجانب الذي استقرت به بين النهرين: دجلة والفرات.

و « بين النهرين » اسم أطلق هو أيضاً على هذه الأصقاع من أقدم العصور؛ فكذلك كانت تسمى عهد الفراعنة الأقدمين حين امتد سلطان مصر إليها، وكذلك كانت تسمى حين خضعت لحكم الإغريق بعد حكم الفراعنة، ولا عجب أن يظل هذا الاسم باقياً لها إلى اليوم، وهو يصف موقع أرضها بين نهرين يجريان فيها بالخصب والحياة. ولم يُطلق اسم العراق على ما بين النهرين إلا بعد أن دخلت في سلطان الفرس؛ فقد زحف الفرس من سهل إيران إليها بعد أن جلا الفراعنة والإغريق عنها، فاكتسحوا البلاد إلى شواطئ دجلة وما وراءها، وأقاموا بطيسفون عاصمة ملكهم، ثم جعلوا منها ومن البلاد السبع المحيطة بها ومن سلوقية اليونانية المستقرة، تلك « المدائن » التي أقامت

قروناً تُزهِى على التاريخ بجلال عظمتها ، وسعة سلطانها ، وطائل ثرائها ، وترف أهلها . وإذا كانت بلاد ما بين النهرين تجاور العراق العجمي ، فقد غاب الفرسُ عليها اسمه ، واعتبروها جزءاً منه ، كما اعتبروا سلوقية جزءاً من طيسفون . ومن يومئذ أُطلق اسم العراق على هذه البلاد .

ويمتد هذا العراق الذي غلب المسلمون عليه الفرس من دلتا النهرين جنوباً ، حتى ينتهي في الشمال إلى مادون بلاد الموصل ، متاخماً الشام من أعلاه مُتَّاخَةً كان لها أثرها في تاريخ الفرس والروم ، ثم كان لها أثرها في تاريخ الفتح الإسلامي . وقد أدت متاخمة العراق للشام إلى انتقال الأديان التي ظهرت بفلسطين إلى رُبوعه ، وإلى غزوها وثنية اليونان ومجوسية الفرس فيه . ولذا استقرت به جالية كبيرة من اليهود ، ثم انتقلت النصرانية إليه بعد انتقالها إلى الشام .

ولما كانت بلاد ما بين النهرين تجاور العرب ، كما تجاور العجم ، فقد نزحت إليها قبائل كثيرة من شبه الجزيرة ، استقرت بها وجعلتها منازلها ، كما نزحت إلى الشام قبائل كثيرة استقرت به وجعلته منازلها . فلما غزا العرب ما بين النهرين كانوا قد ألفوا العراق اسماً لهذه البقعة من الأرض ، فلم يُطلقوا عليها اسماً غيره ، ثم أطلقوا اسم السَّوَاد على ما بين دجلة الفرات وما جاورها . وليفرقوا للمؤرخون بين هذا العراق وعراق العجم أسماً أحدهما العراق العربي ، والآخر العراق العجمي .

وطبيعة الأرض في العراقين متباينة أشد التباين ؛ فالعراق العربي سهلٌ يجري فيه النهران ، وتنتشر فيه شبكة من النهرات والجداول والغدران ، تجعل الجانب الأكبر منه أخضر يانعاً كثير الخيرات وافر الثمرات . وهو ينتهي من الشرق إلى جبل رفيع الذرى يفصل بينه وبين العراق العجمي ، تتلاحق وراءه جبال وأودية تنتهي إلى سهل إيران . وقد كان هذا الجبل حاجزاً طبيعياً شديداً المنعة ، يفصل آسيا وشرقها الأقصى عن هذه البلاد الواقعة في غرب آسيا ، والتي كانت لذلك أكثر اتصالاً بالشعوب المقيمة حول البحر الأبيض في إفريقية وأوربا منها بالبلاد المجاورة لها في الشرق .

وكان من أثر هذا الوضع الجغرافي الذي أتاح لقبائل العرب أن تهاجر إلى العراق

وإلى الشام أن امتدت منازل الجنس العربي من خليج عدن والمحيط الهندي في الجنوب إلى أقصى الشمال من أرض العراق والشام ، وأن خضعت هذه القبائل كما خضعت أرجاء كثيرة من شبه الجزيرة قرونًا طويلة لحكم فارس والروم . وهام أولاء عرب شبه الجزيرة يفزون الدولتين العظيمتين ، فيباعدون دمشق في الشام والمدائن في العراق ، وينزل سعد ابن أبي وقاص قصر كسرى في عاصمة ملكه .

وأقام سعد بالعاصمة الفاتنة حتى جَمَّ وجَمَّ جنده . وما كان له أن يتعقب الفرس في بلاد العراق العربي المترامى الأطراف فيما وراء دجلة ، فلم يكن عمر قد أذن له في تعقبهم . لذلك لم يزد على تنطس أخبارهم وإرسال العيون من رجاله ليعودوا إليه بأنبيأهم . وقد جاءته الأنبياء بأن الفرس الذين فرّوا منهنهم بلغوا جُلّولاء ، على نحو أربعين ميلاً في شمال المدائن ، وأنهم رأوا الطرق عندها تفترق إلى شتّى الأرجاء من إيران ، فقال بعضهم لبعض : « لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا . فلهوا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذي نحب ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبدينا عُذراً » . وجاءته الأنبياء كذلك بأن يزدجردا اجتمع إليه وهو في طريقه إلى خُلوان رجال وأعوان وجنود من شتّى البلدان ، فأمر عليهم مهران ووجهه معهم إلى جولاء ، وأقام بمقره الجديد يمدّم بالرجال والأقوات . واجتمع هؤلاء وفُلال المدائن واحتفروا حول المدينة خندقاً عظيماً أحاطوه بحسك الحديد ، وأقاموا بها في القُدّ والعدد وآلات الحصار وتوائفوا وتعاهدوا ألا يفروا ، وأن يفنوا المسلمين عن آخرهم ويُجْلُوم عن بلادهم .

جاءت هذه الأنبياء سعداً وهو في مقره بقصر كسرى ، فبعت بها إلى عمر بالمدينة . وكتب عمر إليه أن سرّح هاشم بن عتبة إلى جُلّولاء في اثني عشر ألفاً ، واجعل على مقدّمهم القعقاع بن عمرو ، وعيّن له من يكونون على اليمين واليسرة والساقة بأسمائهم . وكان الجند قد جَمَّ واستراح ، وتحركت في نفسه الحماسة للقتال ، بعد أن قضى بالمدائن أشهراً استمتع فيها بما فتح الله وأفاء عليه من مغانم طائلة لا عهد له بمثلها<sup>(١)</sup> . وبلغ هاشم

(١) تجرى بعض الروايات بأن المسلمين أقاموا بالمدائن أياماً ، ثم سار هاشم بن عتبة إلى جولاء حين بلغهم اجتماع الفرس بها . هذه الرواية مرجوحة في رأينا لما يقتضيه استعداد الفرس وإمداد يزدجرد =

جولاء ، فألقى الفرس متحصنين بها ، مستميتين في الدفاع عنها ، فحاصرها . ولم يكن الحصار وحده ليحملها على التسليم ؛ فقد كانت الأمداد تجيء إليها تبعاً من حلوان ، كما كانت الإمداد تجيء إلى المسلمين تبعاً من المدائن . لذا طال الحصار ثمانين يوماً كان الفرس يخرجون أثناءها للقاء المسلمين ثم يرتدون إلى حصونهم منهزمين . وأيقن الفرس أنهم إن أقاموا على ذلك ذهبت شوكتهم ، ولم يفن عنهم أنهم أضعافُ جند المسلمين عدداً . لذا أمرهم قائدهم مهران يوماً فصَبَّحوا المسلمين بأهول الحرب . يقول ابن كثير : « فاقْتَتَلُوا قتالاً شديداً لم يُعْهَدْ مثله حتى فنى الشباب من الطرفين ، وتقصفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء . وصاروا إلى السيوف والطَّبْرَزِينَاك<sup>(١)</sup> ، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماءً ، وذهبت فرقة الجوس وجاءت مكانها أخرى ، فقام القعقاع بن عمرو في المسلمين فقال : أهالكُم ما رأيتم أيها المسلمون ؟ قالوا : نعم ! إنا كألُون وهم مريحون ، فقال : بل إنا حاملون عليهم ومجدون في طلبهم ، حتى يحكم الله بيننا ، فأحِلُّوا عليهم حملة رجل واحد حتى نُخاطبهم ! فحمل وحمل الناس . فأما القعقاع فإنه صم الحملة في جماعة من الفُرسان والأبطال والشجعان حتى انتهى إلى باب الخندق . وأقبل الليل بظلامه . ورأى القعقاع الناس يتحاجزون لإقبال الليل فنادى مناديه : « أين أيها المسلمون ! هذا أميركم على باب خندقهم ، فأقبلوا عليه ولا يمنعتكم من بينكم وبيده من دخوله ا . » وحمل المسلمون وقاتلوا عدوهم قتالاً أذكرتهم شدته ليلة الهريز إلا أنه كان أعجل . فلما انتهوا إلى باب الخندق ورأوا القعقاع قد أخذ به ، ورأوا الفرس ينهزمون أمامهم يَمْنَةً وَيَسْرَةً إذ يحول الخندق

== لإمام من حلوان ، من زمن . يضاف إلى ذلك أن سعداً ما كان ليعت جيشاً إلى جولاء دون أمر صريح من عمر ؛ فتلك كانت سياسة الفاروق كما كانت سياسة أبي بكر . ولم يكتب سعد إلى عمر إلا بعد أن أحصى فيء المدائن وقسمه ، وبعث بالجئس إلى المدينة فقسمه عمر في الناس كما رأيت . ثم لأنه لم يكتب إليه إلا بعد أن وقف على جليلة الخبر عن اجتماع الفرس بجولاء وإمداد يزيد جرد لإمام من حلوان . وكتابه إلى عمر بعد هذا كله ورد عمر عليه ليسرح هاشما ، يرجح عندنا أن هاشما لم يفصل بقوته من المدائن إلا بعد زمن من مقامهم بها . والطبري يورد رواية تؤيد ما نرجحه إذ يقول : « كان فتح جولاء في ذى القعدة سنة ست عُمرة في أوله ، بينها وبين المدائن تسعة أشهر . » وسنرى أن فتح جولاء تم بعد حصار داء ثمانين يوماً إذا أسقطت من تسعة الأشهر التي تذكرها الطبري بقى منها ستة أشهر أقامها المسلمون بالمدائن قبل مسيرة هاشم إلى جولاء .

(١) الطبرزين : من آلات الحرب يشبه القأس .

بينهم وبين الارتداد إلى المدينة . عند ذلك أخذهم المسلمون من كل وجه وقعدوا لهم كل مرصد ، حتى لقد قُتل منهم في ذلك الوقت مائة ألف رجل .

وفر من بقي منهم يريدون حلوان ، فاتبعهم القمعاق فأدرك مهران بخانقين فقتله . وفرّ القيروزان على فرسه ينهب الأرض إلى حلوان ، فذكر ليزدجرد مصيبة حلوان ، ففر يزدجرد إلى الرّبي . وقدم القمعاق حلوان ، فخرج إليه حاتمها فقاتلوه قتالاً شديداً ، ثم انهزموا أمامه ، ودخل المسلمون المدينة فغنموا وسبوا و ضربوا الجزية عليها وعلى ماحولها من الكور والأقاليم .

وكتب سعد إلى عمر بفتح حلوان وبالغنائم العظيمة التي غنمها المسلمون فيها ، وبنزول القمعاق حلوان ، واستأذنه في مطاردة الفرس داخل بلادهم . لكن عمر آثر الحذر فخالف بطل القادسية وفتح المدائن عن رأيه ، وكتب إليه يقول : « وَدِدْتُ لو أن بين السواد والجبل سداً لا يوصلون إلينا ولا نخلص إليهم . حسَبْنَا من الريف السواد ! إني آثرت سلامة المسلمين على الأتقال » .

كان هذا الرأي الذي رآه عمر كله السواد . وليس يقف سداً عند إيثار سلامة المسلمين على كل ما سواها ، بل يتخطى ذلك إلى أن المسلمين لم يكونوا قد أمنوا العراق واطمأنوا إلى حياة الاستقرار فيه ؛ فقد كان شماله لا يزال مخشياً الانتقاص ، مع انتصار المسلمين فيه بتكريت والموصل وهيت وقرقيسياء ، وذلك بعد فتح المدائن . وكان جنوبه على مثل هذه الحال مع إخضاع المسلمين إياه قبل المدائن وبعدها . فليس من بُعد النظر في شيء أن يدفع المسلمون جنودهم إلى جبال إيران وإلى ما وراء هذه الجبال من سهول مترامية الأطراف ، فإذا انتقض العراق من بعد ، كما انتقض قبل نزول سعد به وانتصاره الحاسم فيه ، لم يكن التغلب عليه أمراً يسيراً . ومن الخير أن يتخذ المسلمون جبال إيران حداً فاصلاً بينهم وبين الفرس ، وأن يفرغوا للقضاء على كل أثر للانتقاص بالعراق ، ليفرغوا بعد ذلك إلى تنظيم الحكم فيه .

هذا ، ثم إن سياسة عمر كانت إلى ذلك العهد سياسة عربية ترمى إلى ضم الجنس العربي الممتد من المحيط الهندي إلى شمال العراق والشام في وحدة يكون السلطان فيها

لشبه الجزيرة ، بل يكون السلطان فيها للمدينة . وحسبُه أن تظمئن هذه الربوع جميعاً لوحدتها تحت هذا السلطان ، وأن تُسكفَلَ فيها حرية الدعوة لدين الله بالحجة والموعظة الحسنة ، وأن يكون بينها وبين الفرس والروم من حسن الجوار ما يُذهب عن العرب والمسلمين الرُّوع . والله مظهرٌ بعد ذلك دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

لم يكن لسعد إلا أن ينزل على رأى أمير المؤمنين وحكمه . وقد أرضى هذا الرأى الأبطال والجند بعد إذ رأوا القوّات تسير بين حين وحين تقمع كل انتقاص يحدث في أنحاء السواد ، وبعد إذ وقع لهم من مغنم القادسية والمدائن وحلواء أضعاف ما كانوا بطعمون فيه ، فلم يكن حظ الحارب من مغنم حلواء دون حظه من مغنم المدائن . كان المال الذى أصابوه منها ثلاثين ألف ألف ، فيه من النفائس والتحف ما حمله الذين فرّوا من المدائن . ثم إنهم أصابوا من الدواب وعُدّة الحرب ما لم يدع الفرس شيئاً منه بالعاصمة ، كما أنهم سبوا بجولاء ولم يقع لهم بالمدائن سبي . فلما قسم سعد هذا الفء العظيم أصاب كل فارس تسعة آلاف وتسع دواب غير من كان له حظ في السبايا ومن بينهم من نشأ في الدلال والنّعمة ، فأعجزتهم هذه النشأة عن الفرار في الجبال والسهول .

وبعث سعد بأخماس هذا الفء إلى المدينة مع جماعة فيهم زياد بن أبي سفيان . فلما قدّموا على عمر وصف زياد فتح جولاء وحلوان في بلاغة وبراعة وصفاً دفع عمر إلى أن يقول له : « هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذى كلمتني به ؟ » . وأجابه زياد : « نعم يا أمير المؤمنين ! فوالله ما على وجه الأرض رجل أهيب في صدرى منك ، فكيف لا أقوى على ذلك مع غيرك ! » . وقام فقصّ على الناس خبر الوقعة وفعال أبطال المسلمين فيها ، وكم قتلوا من الفرس ، وما أصابوا منهم ، كل ذلك في عبارة قوية أخّاذة بمجاميع القلوب . وأعجب عمر به فقال : هذا والله الخطيب المصنّع ! ومست هذه التحية قلب زياد فقال : « إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا » .

وأشار بعض أصحاب الرأى على أمير المؤمنين أن يجعل الفء في بيت المال ، فقال : والله لا يجنّه سقف بيت حتى أقسمه ! وبات الفء في حن المسجد وعليه عبد الرحمن ابن عوف وعبد الله بن أرقم يجرسانه . فلما أصبح عمر وصلى بالناس الغداة وطلعت الشمس



أمر فكشِف عن النية ، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره وذهبه وفضته بكى ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف : « ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ ! فوالله إن هذا لموطنُ شكر ! » قال عمر : « والله ما هذا يُبكيني ! وتالله ما أعطى الله قوماً هذا إلا تحاسدوا وتباغضوا ، وما تحاسد قوم إلا أُلقي بأُسُهم بينهم . »

تقف هنية عند هذه الكامة الحكيمة . فلم يكن العرب يعرفون الكسب الهين قبل أن ينهال عليهم هذا النية العظيم من كل صوب ، بل كانوا يسعون في منا كسب الأرض يتبعون من رزق الله ، فينال كل منهم جزاء عمله على قدر حظّه ، كانوا يذهبون بالتجارة رحكى الشتاء وال الصيف إلى اليمن وإلى الشام يحتملون ما يُصيبهم من مشقة الطريق ومن عادية المعتدين ، وكانوا يحمون القوافل التي تسير بين الغرب والشرق تحمل ما تحمل من أموال ، لقاء أجر يتعرضون في سبيل اقتضائه لقتال من تحدّثهم أنفسهم بسلب هذه القوافل . وكانوا لذلك يلقون العناء في سبيل ما ينالون من أسباب العيش ومُتّع الحياة . وهام أولاء اليوم يقنمون من الحروب ما شاء الله أن يغنموا ، ويُجسبي إليهم من الخيرات ما شاء الله أن يُجسبي . فما عسى أن يؤدي إليه ذلك الانقلاب الخطير في حياتهم الاقتصادية ؟ ! لا عجب أن ينتهي بهم إلى الدّعة وحب الترف . والدعة تدعو إلى التحاسد والبغضاء إذ يريد كلُّ أن ينال الحظ الأوفر يزداد به ترفاً ونعمةً . والناس إذا استناموا للدعة لانت قناتهم ، وإذا تباغضوا ذهب ريجهم . أين ذلك مما يدعو الله إليه من إخاء وتعاون وتساند ليكون أبناء الأمة عزاً للأمة ، وليكونوا أعواناً للحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ينصرونه ويعززونه ! وقد خشى عمر ماتودي إليه الدعة من لين وتباغض فبكى ، وكأنما رأى خلال الغيب ما خطّه القدر في لوحه لهذه الأمة التي بايعته أميرها فغزّب به وعزّبها ، وأسالت النُّصارَ بفعالها في صحارى شبه الجزيرة الجرداء .

وقسم عمر هذا النية الذي أبكاه بين الناس على ملأٍ وتشاؤورٍ وإجماع من المسلمين ، ونفل من ذلك بعض أهل المدينة . وقد صنع في هذه القسمة ما صنعه حين قسم النية الذي بعث به سعد على إثر غزوة القادسية .

حضر زياد بن أبي سفيان قسمه هذا النية ، ثم رجع إلى سعد بن أبي وقاص

بكتاب عمر وأمره ألا يطارد الفرس داخل بلادهم . وقرأ سعد الكتاب فأكبر حكمة أمير المؤمنين . ذلك أنه يوم كتب إلى عمر باجتماع الفرس بجلولاء وإمداد يزيد جرد إياهم بالقوات من حُلوان ، كتب إليه كذلك بأن أهل الموصل من الروم اجتمعوا بتكريت على دجلة إلى شمال المدائن ، وأن كثيرين من نصارى العرب من إباد وتغلب والنمر انضموا إليهم ومالئوهم على مقاومة المسلمين . وكتب إليه عمر ، فبعث عبد الله بن المعتم إلى تكريت في خمسة آلاف ، ساروا إليها وحاصروها أربعين يوماً . وأرهب الحصار المدافعين عن المدينة ، فعزم الروم على الفرار في السفن بأموالهم . وعرف ابن المعتم نبأهم ، فراسل العرب النصارى يدعوهم إلى الإسلام وإلى نصرته على أن يكون لهم مال للمسلمين وعليهم ما علمتهم . فلما أجابوه إلى ما طلب ألقى إليهم أن يأخذوا أبواب المدينة المؤدية إلى السفن على الروم ، فإذا خرجوا ليركبوها قتلوا منهم كل من قدروا على قتله . وحمل المسلمون على المدينة ، وكبروا وكبر الأعراب من الجانب الآخر ، فاضطرب الروم وأخذوا في الخروج من الأبواب ، فأخذتهم سيوف المسلمين من أمامهم وسيوف الأعراب الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم ، لم يفلت منهم أحد . عند ذلك جرد عبد الله بن المعتم ربيع بن الأفكل العنزى ليسير إلى الموصل ، تنفيذاً لعهد عمر في كتابه إلى سعد . وسار ابن الأفكل مسرعاً ومعه من أسلم من إباد والنمر وتغلب ، ففجأ الحُصنين نينوى والموصل قبل وصول أنباء تكريت إليهما . وأراد من الحُصنين المقاومة ، فلما عرفوا ما أصاب تكريت أجابوا إلى الصلح والجزية : وقسمت مغانم تكريت فبلغ نفل الفارس ثلاثة آلاف وNFL الراجل ألف درهم .

بلغت هزائم الروم يتكريت والموصل سمع إخوانهم بالشام ، وكانوا يلقون من بأس خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ما سئقص نبأه بعد حين ، فتولاهم الفزع أن يبلغ المسلمون بالعراق تخوم الشام فيأخذوهم من خلفهم ، على حين يقاتلهم خالد وأبو عبيدة يدفعونهم متراجعين إلى تلك التخوم . بذلك يحصرون فلا يجدون ملجأ إلا الإذعان والنسليم . لذا بعثوا إلى أهل الجزيرة المواليين للروم يستعدونهم على من عندهم من المسلمين وبلغت أنباؤهم هذه سعداً حين رجع هاشم بن عتبة منتصراً من جولاء ، كما بلغه أن جنداً

عظيماً من أهل الجزيرة اجتمعوا بمدينة هيت على شاطئ الفرات، فأرسل إليهم بأمر عمر جيشاً جعل عليه عمرو بن مالك . وألفاهم عمرو وتحصنوا بالمدينة وحفروا خندقاً حولها . فحلف الحارث بن يزيد على حصارهم بعد أن تبين مَنَعَة موقفهم ، وسار هو شمالاً إلى قرقيسياء عند ملتقى الفرات والخابور على تخوم ما بين العراق والشام ، فأخذها عنوةً على غيرة من أهلها فأجابوه إلى الجزيرة ؛ ثم كتب إلى الحارث بن يزيد أن يُحسِّل عن الجنود الذين تحصنوا بهيت إذاهم خرجوا منها ، وإلاّ حفروا حول خندقهم خندقاً وجعل أبوابه من ناحيته . وبعث الحارث إلى أهل هيت بما عزم من ذلك ، فأيقنوا أنه الحصار حتى الموت ، فأذعنوا وانصرفوا عن المدينة واحتلها المسلمون .

عرف سعد أبناء هيت وقرقيسياء وانتصار جنوده فيها ، فزاد إيماناً بحكمة عمر إذ أمره ألاّ يتعقب جنود يزيد جرد في جبال فارس وسهولها . فلو أنه تعقبهم بقواته ثم انتفض العراق أو حاول الفرس إثارته لتعذر عليه قمع الفتنة فيه . ولقد بلغه بعد انتصار هاشم بجولاء أن قوات الفرس اجتمعت بما سبَدَان على تخوم ما بين العراق العربي من الشرق وفارس من الغرب ، فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب في جيش قاتلهم بسهل ماسيدان ، فهزمهم وقتل قائدهم ، ثم طردهم إلى مدينة ماسيدان فاستولى عليها عنوةً ورأى أهلها فروا في الجبال ، فدعاهم فاستجابوا إلى الجزيرة ، فأقرهم في مدينتهم .

أدى انتصار هذه الحملات المتلاحقة في شمال العراق وشرقه إلى خضوع أهله لسلطان المسلمين وإذعانهم لأمرهم . وقد أذعن جنوب العراق قبل أن يذعن شماله وشرقه ؛ ذلك بأن أهله رأوا بأس المسلمين منذ غزاهم خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة في عهد أبي بكر وقد انتقض هذا الجنوب على سلطان المسلمين حين انتقض العراق كله على هذا السلطان . فلما وجه عمر سعد بن أبي وقاص إلى القادسية وجه عُتْبَة بن غَزْوَان لغزو الجنوب ، فسار ومعه عَرَبُجَة بن هَرْمَة البارقي إلى الأُبَلَّة ، على مقربة من موقع البصرة اليوم ، فاستردّها من الفرس بعد قتال ظل سجّالاً أسابيع عدّة . وكانت الأُبَلَّة يومئذ مرفأً عظيماً ترسو به السفن القادمة من الصين والهند والذاهبة إليهما . وكان به من الهنود المشتغلين بالتجارة عدد كبير . وحمل أهل الأُبَلَّة ما خفت من متاعهم ، وخرجوا منها حين انهزم المدافعون

عنها ، ودخلها المسلمون فغنموا ما فيها واقتسموه . ثم عبر عُتْبَةَ النهر على أثر الجيش المنهزم وتعقبه ، واستولى على دَسْت مَيْسان وأخذ مَرزُبانها أسيراً وبعث بِمِنْطَقَتِهِ إلى المدينة . وعرف عمر من حمل المِنْطَقة إليه أن العرب بالعراق شُغِفُوا بأنعم الدنيا حبًّا ، نخشى مَغْبَةَ ذلك عليهم ، ودعا إليه عتْبة يسأله عما أصابهم . واستخلف عتْبة مجاشع بن مسعود على الجيش والمغيرة بن شُعبَةَ على الصلاة . فلما عرف عمر استخلافه مجاشعاً أظهر الغضب منه وقال له : « تستعمل رجلا من أهل الوَبَرِ على أهل اللَّدَرِ ! . أتدري ما حدث ؟ » وذكر له أن المغيرة بن شُعبَةَ هزم الفرس بالمرَّغاب ، وأنه ، رغم انتصار مجاشع بالقرات ؛ قد أسند أمر الجند إلى المغيرة ، حتى لا يكون لبدويِّ إمارة على قرشي أو على رجل من أصحاب رسول الله .

لم يكن انتصار المغيرة على الفرس يسيراً ؛ فقد اشتدَّ القتال وتداوله الفريقان واستامت فيه الفرس . وإنهم لكذلك إذ رأوا كتيبةً حسبوها مدداً للمسلمين فانهت قوتهم فانهمزوا . ولم تكن هذه الكتيبة إلا نساء المسلمين خرجن من أخبيتهن ، وأنخذن من خُمُرهن رياتٍ وسرن بها يُرَدْنَ معاونة الرجال .

وقد أمر عتْبة بالعودة إلى عمله ، فاستغفاه من ذلك فأبى . وإن عتْبة لنى طريقه إلى العراق إذ وافاه أجله ، فظل المغيرة على إمارة الجند مكانه<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

اطمأن الأمر للمسلمين في العراق فآن لهم أن يفكروا في نظامه وفي موقفهم منه .

(١) تجرى في فتح الأبله على عهد عمر رواية أخرى يرجعها ابن الأثير ، خلاصتها أن العلاء ابن الحضرمي فكر أيام عمر في غزو دلتا النهرين ، كما فكر المثنى في غزوها أيام أبي بكر . ولكنه لم يصنع صنيعه . فلم يشاطيء الخليج الفارسي ليلها بما معه من الرجال ، بل حملهم في السفن من البحرين إلى فارس عابراً هذا الخليج ، فخرجوا إلى مصطخر ، فلقبهم الفرس فالتفوا حولهم ، وحالوا بينهم وبين سفنهم . ولم يكن عمر أذن للعلاء فيما صنع لأنه كان ينجس الغزو في البحر ويأناه . فلما عرف أن العلاء أحيط به مع جرأته وإقدامه واستبسال جنده وظفرهم بالفرس في غير موقع ، أرسل إلى عتْبة بن غزوان أن يسير إليه في جند كثيف لينجده قبل أن يهلك هو ورجاله . وسار عتْبة في اثني عشر ألفاً ساحل بهم وقاتل من لقبهم من الفرس حتى أدرك رجال العلاء وفتسح الأبله والأهواز كلها معهم . ثم استأذن عمر في الحج فأذن له : فلما قضى حجه استعفى عمر فأبى أن يعقيه وعزم عليه ليرجع إلى عمله . ولأنه لنى طريقه إلى العراق إذا وافاه أجله ببطن نخلة فدفن بها .

أتراهم يتركونه مكثفين بأن يتركوا فيه من رجالهم من يفقهون أهله الذين أسلموا في دينهم ، ومن يحصلون الجزية ممن لم يُسلموا ؟ ذلك ما كان يفعله رسول الله حين كان الناس من قبائل شبه الجزيرة ومن مُدُنْها يُعلنون إسلامهم . وكان يبعث إليهم من يفقههم في دينهم ، ومن يقبض منهم الزكاة . ترى لو أن عمر فعل ذلك بالعراق أفكان يأمن العاقبة ، إن رسول الله لم يكن غزا القبائل ولم يكن فتح المدن التي أسلمت ، اللهم إلا مكة والطائف . مع ذلك انتهز المرتدون في أرجاء شبه الجزيرة أول فرصة فأعلنوا تمردهم قبيل وفاته ، ثم انتشر التمرد وانتشرت الردة حين بيعة أبي بكر كما تنتشر النار في الهشيم . هذا وأهل شبه الجزيرة كانوا عرباً ، فلم يكن سلطان المدينة ليثقل عليهم ، ولم تكن نفوسهم لتنفرد منه كما ينفرد غير العرب . طبعي وقد أدت ردة العرب إلى ما عرفت من حروب أن يخشى عمر تمرد الفرس من أهل العراق ولم يكن أكثرهم قد أسلموا ، بل تمرد عرب العراق أنفسهم من أسلم منهم ومن بقي على دينه . فقد أُلِّف هؤلاء جميعاً سلطان الحيرة وسلطان المدائن وما كان يحيط بهذا السلطان من نعمة ورفاهية ، كما أُلِّفوا لونا من الحياة فيه ترف لا يتفق في كثير والحياة العربية في شبه الجزيرة ، ولا يتفق في كثير وتعاليم الدين الذي أوحاه الله إلى النبي العربي . فلو أنهم تركوا وشأنهم لكانوا أدنى من عرب شبه الجزيرة إلى التمرد . وعمر أبعد نظراً وأشد حذراً من أن يدع الفتنة يذرّ قرنهما في بلاد فتحها ، وهي بمدّ تجاور شبه الجزيرة وقد يمتد إليها من هذه الفتنة شرراً ما أغنى أمير المؤمنين عن التقدير لتأنيجه .

لم يكن ذلك وحده ما يخلق بعمر أن يخشاه . فلو أنه من تمرد أهل العراق إذا تركهم وترك معهم من المسلمين من يفقه الذين أسلموا منهم في دينهم ، لوجب عليه أن يحسب الحساب للفرس الذين انهزموا أمام جيوشه إلى ما وراء جبالهم . لقد تمنى لو أن بينه وبينهم جبالاً من نار فلا يخلص إليهم ولا يخلصون إليه . ولكن هذا الجبل لم يكن موجوداً . وليس عجيباً أن يفكر الفرس الذين انهزموا إلى سهول إيران في الرجعة إلى العراق ليثاروا لأنفسهم وليستردوا ما ضاع منهم ، كما فعلوا بعد أن استولى خالد بن الوليد على الحيرة والأنبار ثم فصل إلى الشام مدداً لجند المسلمين فيه . وثأر الفرس لأنفسهم أدنى إلى الذبح

إذا نسحبت قوات المسلمين من العراق . أما إن بقيت به وعززت مراكزها فيه فسيتردد  
الفرس طويلاً قبل التفكير في الثأر ؛ فإذا أقدموا عليه كانت جيوش أمير المؤمنين  
في منعة وقوة وعُدّة للقائهم والقضاء عليهم وردّهم إلى ما وراء جبالهم ، بل كانت في عدة  
للتقدم في سهولهم والاستيلاء على بلادهم ، كما استولت على العراق وأزالت عنه سلطانهم .  
لم يغب هذان الاعتباران عن تقدير عمر ، بل لعلهما لم يكونا موضع تفكيره لأنهما  
بديهيان ، ولأن عمر يوم عزم متابعة الغزو في العراق لم يكن يقصد من غزوه إلى إجلاء  
الفرس عنه وتركه بعد ذلك وشأنه ، وإنما كان قصده أن يضم العراق وأن يضم الشام  
إلى هذه الوحدة العربية الممتدة من خليج عدن والمحيط الهندي وخليج فارس في الجنوب  
إلى أقصى الشمال من بادية الشام . لذلك كان طبيعياً أن يلي الظافرون بالعراق أمره ،  
وأن يطمئنوا إلى الاستقرار به ، وأن يتولوا تنظيم الحكم فيه . أفيقيمون هذا النظام على نحو  
ما كان الروم والفرس يصنعون في البلاد التي يفتحونها ؟ أم ماذا عسى أن يكون النظام الذي  
يقرره عمر في البلاد المفتوحة للإمبراطورية الإسلامية الناشئة ؟ .

لو أن أمير المؤمنين قدّر لإرضاء جنده الظافر بالعراق لسار على خُطّة الفرس والروم  
ويجعل لهذا الجند كل شيء ، ولما ترك لأهل البلاد إلا الفتكات الذي يفيض عن هذا  
الجند ، كما أن دهاقين الفرس لم يكونوا يتركون للفلاحين الذين يعملون في أرضهم إلا الفتكات  
الذي يفيض عنهم . وقد غنم جنود المسلمين في القادسية والمدائن وجولاء وغيرها من الوقائع  
ما لم يكونوا يملحون بمثله ، وقد رأوا من خيرات العراق في شتى أرجائه ما يُغريهم بعيش  
نعمّة وترف يستمتعون بما يشاءون منه في ظلال سيوفهم . وأنت تذكر ما قاله خالد بن الوليد  
لجنوده يوم انتصر بالولجة أول عهد المسلمين بغزو العراق . لقد قام يومئذ فيهم وقال لهم :  
« ألا ترون إلى الطعام كرفخ التراب ! والله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله  
عزّ وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نُقارع على هذا الربف حتى نكون أولى  
به ، وتولى الجوع والإقلال من تولاه ممن أتناقل مما أتم عليه . » . وأين طعام الولجة  
من طعام المدائن ! وأين ثراء القُرات من ثراء دجلة ! وأين عظمة الحيرة وجلال الخورنق  
والسدير من عظمة قصر كسرى ومقر ملكه وعرشه ! والمسلمون هم اليوم سادة هذا الثراء

والناعمون به ، وهم اليوم في أوج تصرهم . أفلا يجدر بعمر أن يرضيهم وأن يجعل لهم من أنعم العراق ما كان يجعله كسرى لجنوده الظافرين ، وما كان يجعله قيصر لجنوده الظافرين !! . إلى هذا الأمر أتجه عمر بتفكيره ، وفيه جعل يشاور أصحابه . وكان أول مادار بمخاطره أن ذكر أوامر أبي بكر إلى قواده يوم وجَّههم إلى العراق يفتحوته . لقد كان العرب في العراق يعملون فلاحين في أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيره ؛ أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم . وقد أمر أبو بكر قواده ألا ينالوا هؤلاء الفلاحين العرب بسوء ؛ لا يقتلون منهم أحداً ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسبون إليهم في أمر يتصل بهم . وهذه سياسة كلها الحكمة لا ريب ، ويجب اتباعها مع فلاحى العراق جميعاً ، عربهم وغير العرب . ويجب أكثر من هذا أن يشعر الفرس أنفسهم ، ممن لم يقاوموا الفاتحين ولم يقوموا في وجوههم ، أن الحكم الجديد لم يفل مصالحهم المادية بأذى ، ولم يُصبهم في أشخاصهم وأهلهم بسوء ، يتساوى من هؤلاء من أقاموا بأرضهم ، ومن فرّوا فرزاعاً من القتال ثم عادوا إلى أرضهم آمنين . وحسبُ الأمير المسلم أن يقتضيه خراجاً أو جزيةً لا ينفون بأيهما . بهذا . وإقامة العدل بين الأهليين يطمئن المحكومون ويستريحون إلى ساطان المسلمين .

على أنه يجب أن يشعروا كذلك بأن للحاكمين من القوة والبأس ما يحطم كل خيال للانقراض يمكن أن يداعب خواطرهم باسم الإباء الذاتى أو العزة القومية . ويجب لذلك أن تكون للفاتحين مدن خاصة بهم ، لا يشاركهم أحد من المحكومين في مساكنها ، بل يستأثرون بها ، ويجتمع جندهم فيها ، ثم يكون هذا الجند على أهبة للقتال في كل وقت بهذا يأمن المسلمون ثورة العراق بهم ، ويأمنون تفكير الفرس في النار لأنفسهم ، ويطمئنون إلى سلطانهم ، وإلى أنهم قادرين في كل حين أن يحافظوا عليه عزيزاً كريماً . هذه هى السياسة التى استقر عندها رأى عمر بعد مشورة أصحابه . وقد أعانت الحوادث على تنفيذها فى هواده لا تُثير هواجس أهل العراق ولا هواجس الفرس ، ولا تشعر المسلمين الفاتحين بأنهم حرّموا مغنمَ الفتح . ذلك لأن جو مدن العراق أضر بصحة الجند المسلمين . قدّمت وفود الجند على عمر من جلولاء وحلوان وتكريت

والموصل يذكرون له الفتح والغنائم ، فلما فرغ من النظر في حاجاتهم قال لهم : « والله ماهيئتكم بالهيئة التي أبدأم<sup>(١)</sup> بها ! ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإني لكما أبدءوا فما غيركم ؟ » . قالوا : « وُخومة البلاد » . وبعث إلى سعد بالمدائن يسأله عما غير ألوان العرب ، فأجابه بمثل ما قالوا . وكان حذيفة بن اليمان مقيماً بالمدائن مع سعد . وكان قد كتب إلى عمر قبل مجيء الوفود إليه يقول : « إن العرب قد رقت بطونها . وجفت أعضادها وتفتت ألوانها » . وخشى الخليفة ما يجرت ذلك على الحاربيين من ضعف ، فكتب إلى سعد يقول له : « إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان . فابعث رائداً يرتاد لهم منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » . وإنما أراد عمر بهذا الكتاب أن يحقق غرضين : أولهما أن يكون المكان الذي يختار لمقام هؤلاء العرب جافاً كالبادية ، تجرى مع ذلك فيه المياه الصالحة . والثاني ألا يحول بحر أو جسر دون إرسال المدد إلى الجند المقيمين بهذا المكان إذا احتاجوا يوماً إليه . وكان حذر عمر يجعله يرى البحر مراكباً ذا خطر ، ويرى لذلك ألا يفصل بينه وبين جنده ما يعرض المدد الذي يبعثه إليه لأي خطر . واستقدم سعد عبد الله بن المُنْتَم من الموصل والقعقاع بن عمرو من جلولاء ، وبعثهما يرتادان المكان الصالح لمقام العرب كما وصفه أمير المؤمنين . وسأل عمر من حوله بالمدينة ممن لهم علم بموقع العراق أيعرفون مكاناً بهذه الصفة ، واتفق رأى الجميع على أن موضع الكوفة على مقربة من الحيرة خير المواقع . فالكوفة كالحيرة تقع على الفرات في مكان نضارة وخضرة ، وهو غير بعيد مع ذلك عن الصحراء . وسار سعد من المدائن إلى موقع الكوفة فاختار أعلى مكان منها وأمر أن يُبني المسجد عليها . وأن يترك حوله فناء فسيح قدر مرعى السهم من أوسط المسجد يكون سوقاً للبيع والشراء . وأقيم المسجد وبنيت له ظلة مائتا ذراع من أساطين رخام أخذت من قصور للأكاسرة تُشبه سماؤها سماء الكنائس الرومية ، وأحيط صحن المسجد بخندق لثلاث يفتحه الناس ببتيان . وبنى معمار فارسي من آجر مباني الأكاسرة داراً لسعد بحول المسجد ، جعلت فيها بيوت الأموال ، وسميت قصر سعد . وأقام الجند منازلهم حول فناء المسجد ، فاختارت كل قبيلة مكاناً نزلته

(١) أبدأ هنا : خرج من أرض إلى أخرى ، ومثله بدأ .



وجعلت به خيامها . فلما استقر الناس كتب سعد إلى عمر يقول : «إني قد نزلت بالكوفة منزلاً فيما بين الخيرة والفرات برياً وبحرياً ينبت الحلفاء والنصي . وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن . فن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلة » .

وطاب مقام الناس بالكوفة ، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم ، فاستأذنوا عمر في أن يقيموا منازل من القصب تكون أكثر من الخيام ثباتاً ، فأذن في كتاب يقول فيه : « إن المعسكر أشد لحرمتكم وأذكى لكم . وما أحب أن أخالفكم » . ولم يلبث الناس حين قرئ عليهم كتاب عمر أن ابتنوا منازلهم من القصب وأقاموا بها . ثم وقع الحريق في هذه المنازل فالتهمها ، فأسمى أصحابها دون ماوى . أيعودون فيقيمون بالخيام ؟ ذلك ملجأ لا غنى عنه ليقى الناس العراء . لكنهم ألّفوا المنازل فلم يبق لهم على المقام بالخيام صبر . لذلك بعثوا إلى عمر يذكرون له خبر الحريق ويستأذنونهم في البناء بالابن ، فأذن لهم وقال : « افعالوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلممكم الدولة » ، وكذلك قامت منازل الكوفة وأقام الناس بها ، وجعلت تنازع الخيرة مكاتها حتى نزعها عنها ، وجعلت عاصمة اللخمين أدنى إلى قرية تقوم إلى جانب هذا البلد الذي صار في عاصمة ذات شأن في التاريخ الإسلامى .

استقر سعد بالكوفة ، فزاد في قصره باباً جعل له ظلّة ، لأن غوغاء الناس بالسوق كانت تمنعه من الحديث . وادّعى بعضهم أن سعداً قال لمعمره : سكن عني الصوت . وبلغ ذلك عمر وأن الناس يسمون الدار قصر سعد ، فسرح محمد بن مسلمة إلى الكوفة وقال له : « إعدنا إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودك على بدئك » . وقدم ابن مسلمة الكوفة ، وبلغ نبؤه سعداً فاستدعاه ، فأبى أن يدخل القصر ، فخرج هو إليه وعرض عليه نفقة ، فأبى أن يأخذها ورفع إليه كتاب عمر فإذا فيه : « بلغني أنك بنيت قصرأ اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً . إنه ليس بقصرك ولكفه قصر الخيال . انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله وتففيهم به عن حقوقهم . ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت » . فلما تلا سعد ما في الكتاب حلف إنه ما قال الذى قالوا . واقتنع ابن مسلمة

بصحة يمينه ، فعاد أدراجه ، فقصَّ على عمر الخبر كله . وقال له عمر : « فَهَلَّا قِبات من سعد !؟ » قال ابن مسلمة : « لو أردتَ ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه » . وأجابه عمر : « إن أكل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم يَنْكُلْ » : وعذر أمير المؤمنين سعد وأقرّه .

بُنيت البصرة في الوقت الذي بُنيت فيه الكوفة وُبُنيت على مقربة من الأبلّة في دلتا النهرين متصلة بالخليج الفارسي . وكان ذلك في السنة الثامنة عشرة من الهجرة ، الرابعة من خلافة عمر . وفي رواية أن البصرة أُقيمت قبل الكوفة ، وإن لم تُتَن دورها باللّين حتى بُنيت به دور الكوفة . ذكر البَلَّاذُري أن عُتْبَةَ بن غزوان غزا الأبلّة في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، فلما فتحها كتب إلى عمر : إنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون فيه إذا شتوا ، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزومهم . وأجابه الخليفة : أن أجمع أصحابك في موضع واحد ، ولكن قريباً من الماء والمرعى ، وأكتب إلى بصفته . واطمأنَّ عمر إلى موقع البصرة حين وصفه له عُتْبَةُ ، فنزلها الناس فبنوا مساكن بالقصب ، وبنى عُتْبَةُ مسجداً من قصب كذلك . وكان الناس إذا غزوا نزعوا القصب وحزموه ، فإذا رجعوا من الغزو أعادوا بنائه . ثم إن الحريق التهم البصرة كما التهم الكوفة ، فأذن عمر فَبَنَى أهل البصرة كما بنى أهل الكوفة باللّين . وصارت البصرة من بعدُ نَعْرَ العراق على الخليج الفارسي ، فبنيت مساكنها بالحجارة ، وأقيم بها مسجد من أنعم المساجد ، ثم كان لها في تاريخ الإسلام مثل ما كان للكوفة من أثر .

ليس من شأننا ونحن نُؤرخ لعهد عمر أن نعدوه لندكر ما قامت به كل من المدينتين من بعده . وحسبنا أن نشير إلى أنهما تركتا ، في تاريخ اللغة والأدب والفقهِ والثقافة الإسلامية ، مذهبَ مازال أثرها يذكر إلى اليوم . وقد كان بين المدينتين من التنافس في ذلك كله مثل ما كان بينهما من التنافس في توجيه سياسة الدولة العامة وسياستها بالعراق خاصة ، وقد بدأت كل مدينة منهما تتبوأ مكائنها في عهد عمر . وكان ذلك طبيعياً ؛ إذ كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكانت البصرة نَعْرَهُ الأول ، وإذ استأثر أهل شبه الجزيرة بالمدينتين كما قدّ منا ، فهاجر أهل الجنوب من اليمن وما جاورها إلى الكوفة ، وهاجر أنصار

المدينة وأهل الشمال إلى البصرة . وقد كان لهذه الهجرة في غزوفارس من بعدُ أحسن الأثر . على أي الموارد كان يعتمد أهل المدينتين لحياتهم بعد إنشائهما ؟ لقد اطمأن الأمر بالعراق كله زماناً قبل أن تعود قوات المسلمين لقتال يزيدجرد وجنوده بفارس فتغنم منهم الغنائم . ولم يكن العرب أهل زراعة ليعتمدوا على عملهم في أرض العراق . أفكانوا يغبصون الفلاحين فيه ثمرات كدّهم كما كان يصنع دهاقين الفرس من قبل !

يتعدى الجواب على هذا السؤال أمر الكوفة والبصرة وما كان يعتمد عليه أهلها في حياتهم إلى ما كانت قوات المسلمين بالمداين وجولاء وتكريت والموصل وشتى أرجاء العراق تعتمد عليه لحياتها . لقد ذكرنا من قبلُ أن عمر أتجه بسياسته إلى ما أتجه إليه أبو بكر قبله ، فأمر قوادته وجنوده ألا يبالوا الفلاحين في العراق بأذى ، وأن يقيموا بين أهله جميعاً عدلاً يطمئنون معه إلى سلطان المسلمين فيه ، وحسبُ الأمير المسلم أن يقتضيه خراجاً أو جزية لا ينوءون بأيهما . فلما فتحت جلولاء كتب سعد إلى عمر في أمر الفلاحين ، من فرّ منهم ومن أقام ، وكان قد فر منهم بضعة وثلاثون ومائة ألف يتألف منهم بضعة وثلاثون ألف بيت ، فكتب إليه عمر : « أن أقرّ الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك ، وأجر لهم ما أجرته للفلاحين قبلهم . وإذا كتبت إليك في قوم فأجرُوا أمثالهم مجرام . أما من سوى الفلاحين فذاك إليكم ما لم تنعموه — أي تفتحوه — ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلّاهم في لستم . فإن دعوتهم وقبيلتهم منهم الجزاء ورددتهم قبل قسمتهما فذلك ، ومن لم تدعوهم في لستم لمن أفاء الله ذلك عليه <sup>(١)</sup> » . ونفذ سعد أوامر عمر هذه ، فأقرّ الفلاحين ، ودعا من لج

(١) ذكر البلاذري أن جرير بن عبد الله البجلي وفد على عمر وسأله أن يقر بجيلة على ربيع السواد كما وعدهم في أمر النوى ، وكانت بجيلة وضعت يدها على هذا الربيع ثلاث سنوات ، فقال عمر : « لولا أني قاسم مسؤل لتركتم على ما كنتم عليه ، واسكني أرى أن تردوه » ففعلوا . ورواية أخرى ذكرها البلاذري أنه لما افتتح السواد قال فاتحوه لعمر : اقسمه بيننا فإننا فتحناه عنوة بسيفنا ، فأبى وقال : « فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ ! وأخاف إن قسمته أن تنفاسدوا بينكم في المياه » . وأقر أهل السواد في أرضهم وفرض عليهم الجزية وعلى أرضهم الحراج . وقول عمر : فالمن جاء بعدكم من المسلمين ، يقصد به ما جاء من مسلمي شبه الجزيرة العراق بعد الفتح . فلو أن عمر قسم أرضه بين الفاتحين لما بقي لمن جاء بعدهم عطاء .

ووضع الخراج على من رجع ، وقيل الذمة ، واستصفي ما كان لآل كسرى ومن لج معهم من الأمراء والدهاقين وغيرهم وكان ما استصفاه من هذه الأموال كثيراً موزعاً بين جبل فارس وتمدوم العرب . وكانت هذه الأموال التي استصفها سعد حبساً لا يجوز بيعه ، كما لا يجوز بيع المنافع العامة من الآجام ومفيض المياه وسكك البريد وما كان لبيوت النار : معابد الجوس .

ترتب على تنفيذ هذه السياسة أن بقيت للفلاحين أرضهم واعتبروا من أهل الذمة ، سواء منهم من أقام بأرضه أثناء الحرب ومن فرّ منها جزعاً ثم عاد بعد الحرب إليها . وكذلك ردت الأرض المملوكة للذين اشتركوا في الحرب من الفلاحين وغير الفلاحين ، ثم دعاهم سعد إليه واعتبرهم من أهل الذمة ولما يكن قد قسم أرضهم بين رجال المسلمين أما الأراضي التي كانت لآل كسرى ولن اشترك في الحرب من الأمراء والأشراف والدهاقين ، فاعتبرت ملكاً خاصاً للدولة ، حُرِّم التعامل فيه ، وأبيح للفلاحين من أهل العراق استقلاله لقاء أجر يدفعونه لخزينة الدولة . وقد أجرى هذا الحكم على الأراضي المملوكة لبيوت النار . فأما المنافع العامة من مجارى المياه وسكك البريد فكانت ملكاً عاماً ، حرمة التعامل فيه قائمة بحكم المنفعة التي خصّص لها .

أدى هذا التنظيم إلى تداق الأموال في خزينة الدولة من مصادر شتى ؛ من الخراج والجزية وأجر الأرض المملوكة للدولة ، وأجرى العطاء من هذه الأموال على الجند وأهلهم بالكوفة والبصرة وسائر مسالح المسلمين . وكان هؤلاء الجند يودّون لوقُسمت أرض السواد بينهم وصارت ملكاً لأفرادهم ولذويهم من بعدهم . ولم يكن سخاء العطاء الذي يصيبهم لينعمهم من أن يفتاحوا الولاية بهذه الرغبة . لسكن عمر كان يأبى عليهم ما يطلبون من ذلك قائلاً : « لولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لفلنا » . وإنما أرى عمر منذ اليوم الأول أن يجعل الأرض قسمة بين الجند حتى لا يسكنوا إلى الزراعة ويألفوا حياة الاستقرار ، فإذا دُعوا إلى قتال اتأقوا عنه ، على حين لا تزال الدولة في حاجة إلى قوتهم وحماستهم ، وإلى جيش تام العدة دائم الأهبة . وكيف لأمير المؤمنين أن يطمئن إلى استقرار جنده وقد يرجع الفرس غداً لتأرهم ، وقد يثيرون العراق كأثأرهم من قبل؟!

فلتبقَ أرض كسرى ملكاً للدولة يستغفمها عُملها بأيدي الفلاحين من أهل العراق ، ولتقيم جنود المسلمين بمسالحها متأهبةً لإجابة كل دعوة للقتال .

وكان عطاء أهل الكوفة وأهل البصرة كعطاء غيرهم من المقاتلين رخاء ووفرة . بل لقد ضاعفت كثرة المقيمين بهما هذا العطاء مما جعل أهلها في رخاء ورغد . مع ذلك نفيس أهل البصرة على أهل الكوفة موقع بلدهم وما كان يُدره عليهم من الخير . سأل عمر بن الخطاب وقدماً من أهل البصرة قدموا إليه عن حاجاتهم ، فقال الأحنف بن قيس وكان معهم : « يا أمير المؤمنين ! إن مفاتيح الخير بيد الله ، وإن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وإنا نزلنا سبخةً ملتفة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبل المشرق البحر الاجاج ومن قبل المغرب الفلاة . فليس لنا زرع ولا ضرع ، تأتينا منافعنا وميرتنا في مثل سرى النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما تربق العنز<sup>(١)</sup> ، يخاف بادرة العدو وأكل السبع . فإلا ترفع خسيستنا وتجبز فائقنا نكن كقوم هلكوا » . فزاد عمر في عطائهم وأمر عامله على الكوفة ، وكان أبا موسى الأشعري ، فأجرى لهم نهراً من دجلة على ثلاثة فراسخ إلى شمالها .

وكذلك عاش المسلمون بالعراق في رخاء لا شيء من مثله في شبه الجزيرة ، ثم كان لهم مع ذلك الرخاء عزة السادة الفاتحين . وقد أقاموا على هذه الحال عدة سنوات لا يفكرون في فتح فارس ولا يسعون إلى فتح جديد ، مكتفين بردّ الهرمزان إذا حاول مناوشتهم في الجنوب الشرقي من ناحية البصرة . ذلك أن عمر كان مصرّاً على رأيه أن يكتبني بالعراق والدفاع عن تخومه ، ولذلك أبي على الذين هزموا الهرمزان أن يلاحقوه داخل بلاده ، وأمرهم أن يهادنوه على شروط تقضها الهرمزان غير سرّة ، فأخذ أسيراً وأرسل إلى عمر بالمدينة . وليس المقام هنا مقام تفصيل لما صنع الهرمزان مع المسلمين وما صنعوا معه ، وسنعود إلى هذا التفصيل بعد حين .

أصرّ عمر أن يكتبني بالعراق وأن يدفع الفرس عن تخومه . وكان الفرس قد شغلوا

(١) ربقه ، جعل رأسه في الربقة ، وهي حبل تشد به البهم .

عن العراق بما أصابهم من اضطراب بلاطهم وفساد أمرهم وتسلط الأثرة على نفوسهم ، فاضطرت شؤون هذا العراق ، وفسدت مرافقه ، وتدهور إنتاجه ، فرأى عمر أن يصرف همته إلى إصلاحه . لذلك أمر رجاله أن يمسحوا أرضه ، وأن ينظموا مجاريه ليصل الماء إلى كل بقعة صالحة للزراعة فيه ، وأن يصلحوا قناطره وجسوره ، وأن يعمروا كل ما خربه الفساد أو خربته الحرب في أرجائه . وكان المهندسون الفرس الذين أقاموا بالعراق خير عون على تنفيذ هذا الإصلاح . ذلك أنهم رأوا السلطان مستقبلاً للمسلمين في البلاد ورأوا كسرى عاجزاً عن استرداد هذا السلطان ، ثم رأوا أمناً مطمئناً وعدلاً شاملاً ، فآثروا التعاون مع الفاتحين لخير العراق وأهله . وزاد ما تم من هذا الإصلاح في ثبات السلطان الجديد واستقراره . فقد رأى كبراء الفرس الذين أقاموا أهل ذمة ورُدّت إليهم أموالهم ما يجره هذا الإصلاح لهم من زيادة ثروتهم ، ورأى الفلاحون فيه عمراً يزيدهم أمناً ونعمة ، ورأى العرب من أهل القبائل التي استقرت به أن بنى جنسهم خير من الفرس حكماً وأعمّ عدلاً ، فاستراح الجميع إلى النظام الذي أقامه أمير المؤمنين أساساً لحكم البلاد ، وانصرفوا إلى أموالهم يثمّرونها ، وإلى أعمالهم يدأبون لإتقانها وتجويدها . وما كان لهم أن يتجهوا بتفكيرهم إلى غير هذه الناحية وهم يرون قوات المسلمين على مقربة منهم في كل مكان ، دائبة الأهبة للقضاء على كل انتفاض يحاول أحدهم أن يثيرها ثأثره . كان العمل للرزق وللثراء حافز أهل العراق جميعاً . أما الفاتحون فكانوا في نعمة بما يصيبهم من العطاء ، وكانوا مع ذلك ينافس بعضهم بعضاً وينفّس بعضهم على بعض وقد رأيت أهل البصرة كيف نفّسوا على أهل الكوفة موقع بلادهم وكثرة خيراتهم . وكانت القبائل التي أقامت بكل من هذين البلدين تنافس ويفاخر بعضها بعضاً . ذلك أن روح القبيلة الأصيل فيهم حفّزهم إلى هذا التنافس وهذه المفاخرة ، وزاد في حفّزهم فراغ قوَى هذا الروح وشجّعه . ثم إنهم رأوا في مفاصلة عمر بينهم وتفضيله قريشاً على غيرها ، ورفع مكانة المهاجرين والأنصار على من سواهم ، ما أغرام بالكيدلن آثرهم الخليفة برعايته . وهذا الكيد هو الذي دعا بعضهم فنسب إلى سعد بن أبي وقاص ما لم يقوله حين بنى باب قصره . وسعى قوم بسعد إلى عمر أنه لا يحسن الصلاة ، فأرسل عمر يسأل

أهل الكوفة في ذلك ، وسأل عنه سعداً ، فلما علم أنه يصلي بالناس صلاة رسول الله قال : ذلك الظن بك يا أبا إسحاق ! . وبلغ من كيد أهل الكوفة لسعد أنه قال لهم يوماً : اللهم لا ترض عنهم أميراً ولا ترضهم بأمير ، وكأنما استجاب الله دعاء سعد ؛ فلم يكن أمير على الكوفة إلا سعى به أهلها إلى الخليفة . ذلك أن الأمير كان يراهم يكيّد بعضهم لبعض ويثور بعضهم ببعض ، فعمل للقضاء على فتنتهم ، فينقلبون إلّبا عليه عند أمير المؤمنين . لم يكن لهذا التنافس بين أهل الكوفة والبصرة وغيرهم من سائر المسلمين بالعراق أثرٌ مُخشّي مغبّته في عهد عمر ؛ فقد كان المسلمون جميعاً جنوداً يدعّون إلى الميدان حيناً بعد حين ، فيسكن تنافسهم ، وينقلب أهلهم إلى التطلع لأخبارهم وما يصيبون من نصر أو يصيبهم من ضرّ . هذا إلى أن النشاط الذي ملأ أرجاء العراق لإصلاحه جعل الناس في شغل به عن الاستماع لهذه المناقسات وأنبيائها . ثم إن عمر كان إلى حزمه وشدته حكيماً رحيماً ، فلم تدع شدته لفتنة أن تثور ، ولم تدع حكمته ورحمته لمظلوم أن يشكو . بذلك سارت الأمور في العراق راضيةً مطمئنة ، لا تزعج الخليفة ولا تزعج غيره من المسلمين .

\* \* \*

بينما كان سعد بن أبي وقاص يسير من القادسية إلى المدائن وبيعت قواده إلى جولاء وتكريت والموصل ، وينشئ الكوفة والبصرة ، ويطمئن له الأمر في العراق كله ، كان أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشمر خبيل بن حسنة ومن معهم من القواد والجنود يجاهدون الروم بالشام ، وكان عمر ابن الخطاب ينتقل من المدينة إلى المقدس وإلى دمشق ، فلذنتقل الآن إلى الشام لنصحهم ، فزى كيف آتوا وحدة الجنس العربي من جنوب شبه الجزيرة إلى شمال بادية السماوة .

## الفصل الحادي والعشرون

### جلاء هرقل عن سورية

بينما كان سعد بن أبي وقاص يهزم الفرس بالقادسية ، ثم يقتحم العراق إلى المدائن ، وينشئ البصرة والكوفة ، وينظم الحكم في البلاد ، كان أبو عبيدة ابن الجراح وزملاؤه بالشام يتقدمون فيه ويفتحون مُدُنَهُ ويُجْلِبون الروم عنه وما كان لهم ألا يفعلوا بعد أن هزموا تذارق باليرموك ، وفتحوا دِمَشقَ ، وقضوا على قوات هرقل بفخسل ، وأخضعوا ما حولها من أرض طبرية وبيسان . ذلك أن طبرية واليرموك وفخسل ودمشق تقع كلها على مقربة من تخوم الشام إلى ناحية البادية . وللروم من الحصون والمعقل المنيعة في داخلية البلاد ما يهدد الغزاة إذا لم يفصّوها على حُماتها . فليتقدّموا إلى هذه المعقل ، وليفتحوا بلاداً عزم أبو بكر ثم عزم عمر فتحها .

وكانت خطة الفتح بالشام تختلف عن خطته بالعراق . كانت إمارة الجند بالعراق موحدة منذ توليها خالد بن الوليد في عهد الوليد ، وظلت كذلك من بعده حتى عهد بها عمر إلى سعد بن وقاص . أما الشام فأنت تذكر أن أبا بكر بعث إليه أربعة جيوش عين لكل منها منطقتاً ، وجعل على كل منها أميراً له تصريف القتال في منطقته ، فإذا اجتمعت فأبو عبيدة بن الجراح أميرها . وكان عمرو بن العاص هو الأمير على القوات التي أرسلت إليها فلسطين .

وقد اجتمعت هذه الجيوش على اليرموك حين مجز كل منها منفرداً عن مواجهة الروم . وضاق أبو بكر ذرعاً بمقامها على اليرموك دون قتال ، فبعث خالد بن الوليد من العراق إليها وجعله أميراً عليها . فلما قبض أبو بكر وتولى عمر عزل خالداً وردّ الإمارة إلى أبي عبيدة . وأبلغ أبو عبيدة خالداً هذا الأمر بعد اليرموك في رواية ، وبعد دمشق في رواية . وخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان في قوة على دمشق بعد فتحها ، وسار معه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسائر القواد والجند ، فهزم الروم بفخسل ، واستوات



قواته على بيسان وطبرية صالحوا أهلها . عند ذلك كتب إليه عمر أن يغزو حصص ، فسار بقواته شمالاً نحو دمشق ومعه خالد بن الوليد ، وترك عمرو بن العاص وشراحبيل بن حسنة بالأردن ليفتحوا فلسطين ، فكان عمرو هو أمير قوات الحرب فيها مع بقاء أبي عبيدة أميراً على الجند كله .

والآن فلتتابع أبا عبيدة في مسيرته بالشام لنعود من بعد فنساير ابن العاص حتى يبلغ بيت المقدس ، فيقيم على حصارها حتى يمقد عمر الصلح مع أهلها . وليس يدعونا للبدء بمسيرة أبي عبيدة أنه الأمير الأول ، وإنما يدعونا لذلك أنه سيعود هو وخالد بن الوليد ليكونا مع عمر على أبواب مدينة المسجد الأقصى ، فمن الخير أن تكون رقعة الفتح بالشام كله مجلوة أمامنا في ذلك اليوم المشهود ، يوم سار الفاروق مع بطريق إيلياء<sup>(١)</sup> خلال المدينة المقدسة ليضع التواعد من مسجد الصخرة ، فيربط في بقعة واحدة من الأرض بين الأديان الثلاثة السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام .

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يأمره بغزو حصص ، فسار في قواته ومعه خالد بن الوليد في طريق دمشق يزيد غايته . فلما بلغ عاصمة الشام أمر هاشم بن عتبة ففصل في قوات العراق مدداً لسعد بن أبي وقاص فيما كان مقبلاً عليه من غزو الفرس بالقادسية . وسار أبو عبيدة يريد حصص ، فاتصل بالقوة التي وقفت رداءً لدمشق من شمالها بإمرة ذى الكلاع الحنظلي فأمرها بالسير معه . فلما بلغ مرج الروم إلى الشمال الشرقي من دمشق لقي جيشاً من الروم بعث به هرقل بإمرة توذر البطريق فوقف قبالة . وإنه لسكذلك إذ أقبلت فرقة من الفرسان على رأسها شنس الرومي مدداً لتوذر . لكن شنس عسكر على حدة . وتداول أبو عبيدة وخالد بن الوليد ما يصنعان ، فاستقر رأيهما على أن يلتقي خالد توذر ، وأن يلتقي أبو عبيدة شنس . ولا يشكان في أن جيشي هرقل يريدان صدّها عن التقدّم إلى حصص .

وقضى كل من الرجلين ليله ينظّم خطته لمواجهة عدوه . فلما تنفس الصبح كان خالد قد استقرّ رأيه على مصادمة توذر والقضاء عليه . ولكن ما أشد دهشته ! فليس لتوذر

(١) إيلياء هي بيت المقدس .

وجيشه فيما حوله من الأرض أثر . أين ذهب ؟ ! وكيف ذهبت ؟ ! وكيف غابت عن حيلة القائد العبقرى حيلته ! ولم يك إلا كبح البصر حتى أيقن خالد أن غريمه انسحب بجنده من أول الليل يقصد دمشق ، ثقةً منه بأن حَمَاتِهَا لن يُطيقوا مقاومتها ، وظنًا منه بأن جيش المسلمين كله سيقف بإزاء شنس يقاتله . وكانت حامية دمشق أضعف بالفعل من أن تصدّ وحدها هذا الجيش الزاحف عليها . فلو أنه افتضّ المدينة وتحصّن بها لَمَا أغنى الانتصار على شنس شيئًا ، ولعاد أبو عبيدة وخالد جميعًا لحصار عاصمة الشام من جديد ، ولأضعف ذلك من عزم المسلمين وضعضع من ركنهم . لذلك استأذن أبا عبيدة وأسرع في كتيبة من الفرسان يلاحق توذر حتى لا يَدَهُمَّ يزيد بن أبي سُفْيَان في مأمنه . وكانت الأنباء قد بلغت يزيد بمقدّم توذرو جيشه ، فخرج ليصدّهم ولا علم له بأمر خالد وكتيبته . وأنشب يزيد القتال بعد أن غلق أبواب المدينة أملًا أن يطول الأمر بينه وبين الروم حتى يأتيه المدد . وبينما توذر يهاجمه أقبل خالد في كتيبته فأخذ الروم من خلفهم . وكبّر خالد وكبر الذين معه ، فسمع رجال يزيد تكبيرهم فأيقنوا مقدّم المدد فزاد ذلك في قوتهم . أما الروم فما لبثوا حين سمعوا التكبير وأحسّوا هجمة خالد عليهم أن تداعت قواتهم واضطربت صفوفهم ، فأخذهم يزيد من أمامهم ، وخالد من خلفهم ، وأمعنوا فيهم قتلا ، فلم يُفَلِت منهم إلا الشريد . وغنم المسلمون خيلهم ودوابهم وأداة حربهم وكل ما خلقوا من متاعهم ، فقسّمه يزيد على أصحابه وأصحاب خالد ، ثم عاد إلى دمشق مجلًا بفخار النصر ، مطمئنًا إلى أن الله منجز المسلمين وعده ما صدقوا وصبروا وآثروا الآخرة على الدنيا .

عاد خالد بعد هذه الموقعة التي قُتل فيها توذر فسار إلى مرج الروم ، فألقى أبا عبيدة انتصر على شنس وقتله ومزق جيشه كل ممزق ، وانطلق يلاحق فلوله إلى حمص وبلغت هذه الأنباء هرقل وبلغه أن أبا عبيدة يحاصر بعلبك ، فارتحل إلى الرّشَاء بعد ما بعث إلى أهل حمص يعلّمهم المدد ويشجّعهم على المقاومة . وكيف لا يقاومون والفصل شتاء وبرد حمص قارس فلا طاقة لهؤلاء العرب باحتماله والصبر عليه ! . ولم تطل مقاومة بعلبك ، بل صالح أهلها أبا عبيدة فتركهم إلى حمص ، فحاصرها وعلى مقدّمته خالد بن الوليد وامتنع أهل المدينة بحصونها فلم يكونوا يخرجون لقتال المسلمين إلا في اليوم الشديد برده .

وبلغ البرد بالمسلمين أشدّه ، وطال بالروم الحصار وهم ينتظرون مدد هرقل أو جلاء المسلمين فراراً من البرد . لكن المسلمين صبروا ، ومدد هرقل لم يصل ، وانصرم الشتاء ، فأيقن أهل حمص أن لا طاقة لهم من بعدُ بهؤلاء الذين لا يرحونهم ولا يفتنون بصيقتهم الخناق عليهم . وإنهم ليختلفون ، فيقول بعضهم بمصالحة المسلمين ، ويرى بعضهم الصلح عاراً دونه الموت ، إذا الأرض زلزلت فتصدّعت جدران المدينة وتهاقت منها دررٌ كثيرة ، فأخذ أهلها الرعب ، ورأوا فيما حدث نذيراً من الله بعذاب شديد ، ففرّعوا إلى رؤسائهم يصلبون الصلح فلا نجاة لهم إلا به .

ولو أن المسلمين اقتحموا حمص في هذا الوقت كما قاومت ولأخذوها عنوة . لكنهم كانوا قد طال حصارهم لها ، واشتد عليهم شتاؤها ، ثم كان اضطراب الأرض بالزلازل قد رابهم وروّعهم ، فلم يشعروا بما كان من رعب أهل المدينة وفرعهم . لذلك أجابوا رؤساء المدينة إلى الصلح حينما فاتحهم فيه ، فتركوا أهلها دورهم وبنائهم ، وصالحوهم على صلح دمشق في الخراج والجزية ، وأخذوا منهم من المنازل ما يكفي لإقامتهم . ثم إن أبا عبيدة كتب إلى عمر بما حدث ، فبعث عمر إليه . « أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ؛ فإنني غير تارك البعثة إليك بمن يكاتفك إن شاء الله » .

أقام أبو عبيدة في مدينته حتى تنصّف الربيع من السنة الخامسة عشرة للهجرة . فلما زالت عن جنده شدة الشتاء وما أصابهم من زهريره ، عاودهم النشاط للفتح ، وانضم إليهم أهل القوة والجلد من عرب الشام فازدادوا نشاطاً ، فعاد أبو عبيدة يفكر في متابعة الغزو بشمال الشام . وزاده إقبالاً على هذا التفكير ما تراءى إليه من أنباء عمرو بن العاص وزملائه وزملائه الذين نزلوا جنود هرقل بفلسطين . وتداول المشورة مع خالد بن الوليد ، فاستقر رأيهما على السير شمالاً إلى أنطاكية من ناحية ، وإلى حلب من الناحية الأخرى . والطريق إلى أنطاكية بشاطئ نهر الأرنؤد<sup>(١)</sup> ، ويمر بحمّة وشيّر . وتهدّده قلاع اللاذقية . ودون الطريق إلى حلب حصن قنّسرين تحيط به هضاب لا بدّ من اجتيازها قبل بلوغ هذا المعقل المنيع .

(١) الأرنؤ أو الأرندهو نهر أورنتس orantes وتقع عليه حمص وحماة وأنطاكية ثم يصب بساحل أنطاكية .

خلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت على حمص ، ومضى في الجيش نحو حماة ،  
 ففتحت له أدستان أبوابها ، ثم تلقاه أهل حماة مدعين ، فصالحهم على صلح حمص .  
 وبلغ أهل شيزر أن المسلمين يسرون إليهم فأسرعوا إلى مصالحتهم من صلح حماة . وفتح  
 أبو عبيدة سلمية ، ثم سار حتى أتى ثغر اللاذقية ، فلما رأى أهلها مقدمه تحصنوا بمعقلهم  
 وأغلقوا باب مدينتهم وأعدوا لمقاومة عدوهم ، مطمئنين إلى أنه إن حاصرهم استطاعوا  
 الوقوف في وجهه ، حتى يأتيهم المدد من طريق البحر . ورأى أبو عبيدة حصون المدينة  
 وأدرك صعوبة مرامها ، وأنه إن يقف قبالتها يطل وقوفه ، فإذا جاءت الأمداد كان بين  
 أن ينصرف عنها عاجزاً دونها ، أو يقيم على حصارها فيصرفه ذلك عن السير إلى أنطاكية .  
 لذلك لجأ إلى الحيلة ، فعسكر على بعد من المدينة ثم أمر أن تحفر حفائر كالأسراب تستر  
 الحفيرة منها الفارس راكباً . فلما فرغ رجاله من حفرها أظهروا أنهم منصرفون عن المدينة  
 إلى حمص . ورآهم أهل اللاذقية يسرون فاطمأنوا ورجعوا إلى مألوف حياتهم . فلما جنَّ  
 الليل عاد المسلمون أدراجهم فاستتروا بتلك الحفائر . وأصبح أهل اللاذقية ففتحوا أبوابها  
 وانتشروا بظاهرها ، فلم يرُعهم إلا المسلمون يخرجون من مكانهم مندفعين إلى المدينة  
 يدخلونها عنوة ، فيقف حرسهم على بابها يمنعون أهلها من دخولها ، وتحيط قواتهم  
 بالحامية القيمة في حصونها . وفرّ الذين خرجوا إلى ظاهر المدينة ، تولاهم الفرع فهم يطلبون  
 النجاة حيثما وجدوا إلى النجاة سبيلاً . ولم يجد الذين أقاموا بالمدينة بدءاً من التسليم فسلموا ،  
 وطلب الفارون الأمان ، فصالحهم أبو عبيدة على خراج يؤدونه قتلوا أو كثروا ، وترك  
 لهم كنيستهم . وبنى المسلمون من بعد مسجداً على مقربة منها .

وسار أبو عبيدة من اللاذقية إلى معرة حمص<sup>(١)</sup> ففتحها ، ووجه خالد بن الوليد منها  
 إلى قنسرين . كورة ولاية حلب . ولم تكن مناعه قنسرين لتخفى على ابن الوليد ، ولم يكن  
 يخفى عليه ما يجيئها من مدد . ولسكن ! متى راعت خالداً قوة حصن أو مناعة مدينة !  
 ومتى ردت الصفوف المتراسة عن اقتحامها وخوض لجنتها ! لذلك سار إلى غايته مطمئناً  
 إلى أن الله ناصره . وكان لقنسرين حاضر إلى جنوبها يُقيم به عرب من تنوخ وسليح

(١) هي معرة النعمان ، وقد سميت بهذا الاسم من بعد نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري .

في خيامهم وكانهم طلائع لهذه المدينة المنيعة ، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم العرب الذين ينزلون ظاهر المدن لحمايتها . وعلم الروم أن القادم عليهم هو العبقرى القاهر ، فلم يطمئنوا إلى مقدرة أهل الحاضر على الوقوف في وجه الغزاة ، فخرج مينا ، أعظم رجل في المملكة بعد هرقل ، على رأس جند عظيم ، فسار إلى الحاضر فعبأ جيشه به وأقام ينتظر مقدم المسلمين ليصدّمهم عن التوغل في ملك قيصر . وبعث رجالا من أهل ثقته يفتشون أخبار عدوه ليدبر على ضوءها خطة لقائه . وإذ لیتنسّم هذه الأخبار إذ فجأه خالد مع الصبح من حيث لا يدري . وحاول مينا أن يصدّه هذه المفاجأة . لكن خالداً كان قد أحكم تدبيره فهاجم الروم بكل قوته ، فلم يستطيعوا الصبر أمامه . وكيف يصبرون واسمه يهزّ القلوب ، وبذلك العزائم ! وكيف يصبرون وقد تداولت أسماعهم أنباء المسلمين وفتحهم دمشق وحصص وحماة واللاذقية ! ومتى كان لجيش تحطمت قوته المعنوية صبر ! وحاولوا الفرار فإذا خالد قد أخذ عليهم مسالكه ، فأمن جنده فيهم فتسلا فمات أكثرهم على دم واحد ، وتردّى مينا على رأسهم يتخبط في دمه . ولجأ الذين فرّوا إلى قنسرين وتحصنوا ، فتبعهم خالد إليها فألقاهم غلغوا أبوابها . عند ذلك بعث إليهم النذير يقول : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ! » . وقاومت حصون المدينة زمناً أيقن أهلها بعده أن لا مفرّ لهم من النزول على حكم قاهر مينا وتذريق وقواد الروم جميعاً ، فبعثوا إليه يطالبون الأمان على صلح حصص . لكن خالداً رأى أن يعاقبهم بمقاومتهم فأبى إلا تخريب المدينة ، ففرّ أهلها إلى أنطاكية تاركين أموالهم ونساءهم وأبنائهم وديعة بيد القدر .

هذه هي الرواية المشهورة في فتح قنسرين . على أن بعض المؤرخين المولعين بالأدب يضيفون إليها موقفاً كان لجبلة بن الأيهم الغسانی في الدفاع عن هذه المدينة . وأنت تعلم أن جبلة كان آخر ملوك بني غسان من قبل هرقل ، وأنه كان حليفاً صادقاً للولاء للروم . وقد كان ، كغيره من ملوك بني غسان وملوك الحيرة . محبباً لشعراء العرب ، يُكرمهم ويحسن وفادتهم . وكان حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله أحبّ الشعراء إليه وأحظاهم عنده . ومدائح حسان فيه لا تزال تروى إلى اليوم على أنها من عيون الشعر

العربي . وكان جبلة مقياً عند جسر الحديد على نهر الأرنؤد قريباً من أنطاكية حين ترامت إليه أنباء قنسرين وحصارها ، فسار إليها يخفف الضغط عنها ويعين حاميتها على قهر عدوهم . وأنه لفي مسيرته إذ جاءت طلائمه برجل من المسلمين ذكر أنه سعيد بن عامر الخزرجي ، وأنه ينتمي إلى أجداد جبلة من مزيقياء إحدى بطون بني ثعلبة العنقاء . واذكر جبلة حين سمع اسم الخزرج صديقه الشاعر الأنصاري ، فسأل سعيداً : كم لك منذ فارقته ؟ وأجابه سعيد ، عهدى به قريب ، وقد دعاني إلى دعوة صنعها وأمر جاريته أن تُنشد شعراً فيك فأنشدت :

لله دَرٌّ عصابة نادتهم يوماً بجلق في الزمان الأول  
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الجواد المفضل  
يُشَوْنَ حتى ما تهرت كلابهم لا يسألون عن السواد الثقيل  
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

فلما سمع جبلة ذلك منه أجازته وذكر له أن الملك بعثه مدداً لقنسرين ، وطلب إليه أن يحذر خالداً بأس جنوده ومضاء أسياهم ، وتابع جبلة وجيشه السير مع الروم ولقي خالداً وكاد ينتصر عليه لولا أن جاء المسلمين مددٌ رجح كفتهم ، فهزموا جبلة واستولوا على المدينة المحصورة ، ففر من أهلها إلى أنطاكية من فر . وقدم أبو عبيدة في جنده فالتقى خالداً تم له النصر . فصالح أهل قنسرين على الأمان والجزية ، وأن تُهدم حصونهم وأسوارهم . ورأى العرب من أهل الحاضر ما كان من ذلك ، فأقبلوا يعلنون الطاعة وأسلم منهم كثيرون . أما من بقي على نصرانته فُضرت عليه الجزية .

وهذه الرواية عن جبلة وسيره للدفاع عن قنسرين مرجوحة في رأيي ؛ ولذلك لم يذكرها الطبري وابن خلدون وابن الأثير وابن كثير ومن إليهم ، وإن ذُكرت في فتوح الشام المنسوب للواقدي . أما الرواية المشهورة التي ذكرها المؤرخون الثقات فهي الراجحة . وقد كتب أبو عبيدة إلى عمر بفعال خالد بن الوليد وقضائه على ميناس وجيشه وفتحاه قنسرين على منعتها ، وقوله لأهلها : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فأخذ عمر الإعجاب بعبقرية خالد بارزة في هذه الأعمال

أيما بروز، وقال: «أمّر خالد نفسه! يرحم الله أبا بكر! هو كان أعلم بالرجال مني!». هذه الكلمات التي قالها عمر تدلنا على أن خالداً أتى في قنسرين بمجزات فاقت مواقفه بدمشق وحص وما سواهما من البلاد التي فتحها المسلمون منذ تولى عمر الخلافة إلى يوم تنفست عنها شفتاه. ودلائلها على ذلك أشدّ وأقوى لما نعرفه عن عمر وسوء رأيه في خالد، حتى لقد عزله عن إمارة الجيش أوّل ما آلت إليه إمارة المؤمنين. وقد بلغ من عمق الأثر الذي تركته هذه الفعّال في نفس عمر أن أسند إلى خالد إمارة قنسرين حين لقيه ببيت المقدس بعد أشهر من ذلك اليوم.

ومن عجب أن تترك فعّال خالد بقنسرين كل هذا الأثر في نفس أمير المؤمنين، وأن تكون قنسرين عاصمة الولاية الممتدة حولها؛ ثم لا يقص المؤرخون الثقات من تفاصيل فتحها أكثر مما رأيت<sup>(١)</sup>. وليس هذا الإيجاز مما خصّت به قنسرين، بل جرى عليه الطبريّ ومن أخذ مأخذه، وجرى البلاذريّ ومن تابعه، فأجلّوا وقائع الفتح بالشام إجمالاً لا يتفق وتفصيلهم وقائع العراق وما حدث. وإنما فصلّوا من وقائع الشام غزوة اليرموك وفتح بيت المقدس، وأعاروا فتح دمشق بعض العناية، لاعتبارهم اليرموك مفتاح الشام كما اعتبروا القادسية مفتاح العراق، ولأن دمشق عاصمة الشام، وبيت المقدس مدينة المسجد الأقصى، وكم ودّدنا لو أنهم فصلّوا ما حدث بقنسرين لنقف منه على السر في كلمة أمير المؤمنين.

(١) لم نعر على تفصيل مستفيض لوقعة قنسرين كتفصيل مستفيض في فتوح الشام. ورأينا أن روايته لا سند لها كما ذكرنا في النص. فالوقائع التي يسوقها أدنى إلى الحرافة؛ فهو يذكر أن خالداً لم يكن معه غير عشرة من أبطال المسلمين حين زحف جبلة وجيش الروم إلى قنسرين، وأن هؤلاء العشرة اندمجوا في جند العدو فلم يعرفهم أحد. فلما فتحت المدينة أبوابها لجبلة ومن معه انقض خالد على أميرها فأخذه أسيراً، ثم أظهر هو ومن معه إسلامهم. وخشى جبلة والقائد الرومي أن يقتلوهم لثلاث يقتل خالد أمير المدينة، وكان مقرباً من هرقل، تجرى بين جبلة وخالد حديث طويل انتهى منه إلى خروج أبطال الروم وأبطال المسلمين للمبارزة رجلاً لرجل، وقتل أبطال المسلمين في هذه المبارزة عدداً عظيماً من الروم دون أن يصاب منهم أحد. وضاق جبلة وقائد الروم ذرعاً بما رأيا فخلاً بجيشهما على المسلمين العشرة فقتل خالد وأصحابه منهم فئة عظيمة. ولما كنهم تولاهم الجهد آخر الأمر وكاد عدوهم يظفر بهم، لولا أن سمعوا تكبير المسلمين فأيقنوا بجيئ المدد فثبتوا، فإذا أبو عبيدة وحيشه يهاجم جبلة والروم وينقذ خالداً وأصحابه ويفتح قنسرين. وهذه خلاصة ما ذكره الواقدي، وقد خلطه بأفانيس هي الحرافة بعينها، فلا محل لذكرها.

ذكرنا أن أهل قسرين بعثوا إلى خالد يطلبون الأمان على صلح خمص ، وأن خالداً رأى أن يجزيهم بمقاومتهم ، فأبى إلا تخريب المدينة ، ففر أهلها إلى أنطاكية . فلما جاء أبو عبيدة وعرف ما طلبوا رأى فيما أراد خالد أن يجزيهم به عدلاً لا غبار عليه ، ولذلك هدم حصون المدينة وأسوارها ، ثم رأى أن يقرن إلى العدل الرحمة ، فأجاب أهل المدينة إلى الأمان والصلح الذي طلبوا ، قيل إن كنائس المدينة ومنازلها قسمت فاستولى المسلمون على نصفها ، وقيل بل أقيم مسجد على بقعة من أرضها وترك ما سوى ذلك لأهلها كما كان فساد الذين فروا إلى أنطاكية وقد رضوا أداء الجزية . وأمر أبو عبيدة فأحسنت معاملتهم كما أحسنت معاملة غيرهم في البلاد التي فتحتها المسلمون ، وقام العدل بينهم على أساس من المساواة الصحيحة وإنصاف الضعيف من القوى .

مع ذلك بقي في نفوسهم من الحفيظة والحقمد مادفعهم إلى الانتقاض والغدر حين سار المسلمون عنهم يريدون حلب . ووجه أبو عبيدة إليهم قوة حصرتهم وأخذت منهم بقرأ وغنائم وتركيت بينهم حامية تسكفل إذعانهم ، وتحمي مؤخرة الجيش الفاتح . واطمأن أبو عبيدة فسار حتى نزل حاضر حلب فاجتمع له أصناف من عرب هذا الحاضر ، صالحهم على الجزية ، وأسلم منهم بعد ذلك من أسلم . وقدم أبو عبيدة عياض بن غنم إلى حلب فحاصرها ، فلم يلبث أهلها أن طلبوا الصلح مع أن حصونهم منيعة . وما مناعة الحصون إذا تضععت القلوب وضعفت الهمم وخارت العزائم ! وقد رأى أهل حلب ما حلّ بمن قبلهم ورأوا المقاومه لا تردّ هؤلاء الفاتحين الذين لا يهابون الموت ، فألقوا بأيديهم . قيل : إن عياضاً قبل ما طلبوا من الأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم . وحصنهم ، فصالحهم عليه ، وأن يدعوا مكاناً يقيم المسلمون فيه مسجدهم ، وقيل : بل صولحوا على قسمة منازلهم وكنائسهم ، وقيل إن أبا عبيدة دخل حلب فلم يجد بها أحداً ورأى أهلها انتقلوا أنطاكية ، فلما تم الصلح رجعوا إليها .

تردد ذكر أنطاكية في هذا الفصل . وقد رأينا من قبل هرقل لجأ إليها حين جلا عن حص بعد فتح دمشق . وسنرى أبا عبيدة الآن يسير إليها فيفتحها ، فلا يلبث هرقل بعد فتحها أن يذّر الشام كله وأن يرتد إلى القسطنطينية ، ثم لا يلبث جبلة بن الأيهم



أن يفضّل إلى المسلمين وأن يذهب إلى عمر بالمدينة. وليس في ذلك من عجب؛ فقد كانت أنطاكية إلى يومئذ عاصمة الإمبراطورية الرومية في الشرق، والمدينة التي تلي فيها مدينة قسطنطين وكان أباطرة الروم يؤثرونها على الإسكندرية لقربها منهم، ولشعورهم بأنها أوثق ارتباطاً بهم من العاصمة المصرية التي يفصلها البحر عنهم، والتي كانت تشور الحين بعد الحين بهم. لذلك كانت أنطاكية موضع عنايتهم، فكانوا يقيمون بها من المعابد والمباني والملاعب ماجعلها تزدهى على دمشق وغير دمشق من سائر مدن الشرق. كان ذلك شأنها أيام الوثنية الإغريقية والرومية، ثم كان ذلك شأنها أيام المسيحية. كانت معابد الأوثان تقوم في أرجائها نفحة ضخمة؛ وقد دكتها الزلازل غير مرة فأعادها الأباطرة أكثر نفخامة وضخامة وكانت الكنائس المسيحية التي قامت من بعد لا تنقل عن تلك المعابد جلالاً ومهابة. ذلك أن لأنطاكية سبقاً إلى المسيحية تفاخر به؛ فأهلها أول من أطلق عليهم اسم المسيحيين، وبطارقتها يذكرون أن القديس بطرس هو الذي نصر آباءهم. وقد أقام برنابا بينهم وأذاع تعاليمه فيهم، فكان له بالمدينة من التلاميذ والأتباع ماجعلها في العصور المسيحية الأولى مقر نشاط ديني عظيم، ومقام بطريق آسيا. وقد عُقدت بها في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي عشرة مجامع كنسية تركت مقرراتها من الأثر في تكوين الفرق المسيحية ما يفصله تاريخ النصرانية. ونشأ عن ذلك أن انفسحت رقعة المدينة في ذلك العهد فبلغ ساكنوها مائة ألف نسمة. وما كانت لتضيق بمعيشة هذا العدد العظيم وموقفها عند مصب الأرنت على بحر الروم يجيء إليها بكل ما يحتاج إليه أهلها محمولاً على السفن من مختلف بلاد الإمبراطورية: كما أن موقعها على طريق القوافل المؤدى إلى حلب، والمتفرع من حلب إلى العراق. وإلى آسيا الصغرى، قد جعلها مستقر تجارة عظيمة متصلة بين الشرق والغرب.

ظلت هذه المسكنة لأنطاكية إلى عهد عمر، فكانت عنده عظيمة الذكر والأمر، وكان فتحها يعادل في نظره فتح المدائن وفتح بيت المقدس. لذلك كان ينتظر أبناء أبي عبيدة عنها بالتلهف الذي كان ينتظر به أبناء سعد بن أبي وقاص عن القادسية. ولم يكن أبو عبيدة يجهل مناعة أنطاكية بموقعها وقوة حصونها، كما لم يقب عنه أن الروم

الذين نجوا بعد هزائمهم في وقائع الشام كلها قد اجتمعوا بها وعزموا الدفاع عنها . وكانت أنطاكية مفيعة حقاً ، تحيط بها من كل جوانبها أسوار رفيعة سميكة يدهش ارتفاعها ويدهش سمكها . وكانت هذه الأسوار ترتفع أحياناً من أخاديد الوادي الممتد إلى ناحية حلب ، وتعلو الجبال المحيطة ببعض نواحي المدينة أحياناً أخرى ، حتى ليُحْتَمَل إلى الناظر إليها أن الجبال أحاطت بها من كل جانب ، فلا سبيل إلى اختراقها أو تخطيطها . موقع هذه مفاعته ، وبه من قوات الروم كلٌّ من تراجع بعد حروب الشمال بالشام ، جديرٌ أن يصدّ المسلمين عنه ، بل أن يصرفهم عن التفكير في منازلته . وكان جديراً بهرقل أن يتحصن به ، وأن يجلب إليه عن طريق البحر كل مدد يدفع به عدوّه ويفسل به العار الذي لحقه ولحق إمبراطوريته . لكن لم يفكر في العود من الرّهاء إلى أنطاكية . ولا في إمداد المدينة العظيمة ، بل تركها يسير أبو عبيدة عليها ، فيخرج إليه أهانها فيهمهم في معركة حامية خارج حصونها ، ثم يحاصرها من كل جوانبها ، فلا تجد مفرّاً من التسليم له والنزول على حكمه . وصالحهم أبو عبيدة على الجزية والجلاء ، ورحل عنهم .

وكأنما كُبر على أنطاكية أن تنزل بهذه الهزيمة النكراء ، فنقض أهلها عهدهم ، فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم ، ففضى على انتقاضهم ، وصالحهم على الصلح الأول . وكتب أبو عبيدة إلى عمر بما كان من ذلك كله ، فكان أمر الخليفة إليه أن يرتب حامية مرابطة بأنطاكية ، وألا يؤخّر عن رجالها العطاء حتى لا تنتقض المدينة كرة أخرى . لم يبق بعد أنطاكية إلا أن يطهر المسلمون ما بقى من شمال الشام ، وأن يقضوا على كل انتقاض فيه . لذلك سار أبو عبيدة إلى حلب حيث اجتمع جيش من الروم كرة أخرى ، فهزمه وبدّد شمله ، ثم فتح قورس ومَنْبِج ، وبعث خالد بن الوليد ففتح مرّعش . بذلك كله اتّصل الفتح في الشام بالفرات ، وقربت الشقة بين قوات المسلمين قيه وقواتهم في العراق . هذا إلى أن يزيد بن أبي سفيان خرج من دمشق ففزا بيروت ففتحها وفتح الثغور المجاورة لها . وترامت هذه الأنباء كلها إلى هرقل وهو بالرها فأيقن أن سورية لم تبق له ، وأنها ضاعت منه وانسلخت عن إمبراطوريته .

ماذا يصنع ؟ أفيبقى بالرها يؤلّب أهل الجزيرة ومن جاورهم ليقاوموا ، ولعل

القدر يبسم لهم بعد عبوسه ؟ كلا ! بل تولاه اليأس وأيقن أفول نجمة . لذلك سار من الرهاء قاصداً القسطنطينية . فلما مر بشمشاط كان خالد بن الوليد يسير في بلاد قلبية من مرعش إلى تل أعزاز إلى الدلوك مهدداً بذلك رجعتة . وفصل هرقل مسرعاً من شمشاط فرّاً في طريقه بشرّف علاه وأشرف منه على أرض سورية الجميلة وقال اللهم ملء جوائحه : سلام عليك يا سورية ، سلاماً لا اجتماع بعده ، ولن يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً ! وبلغ زُبطية مُنهّد الركن ، فألقى بها عصا تسياره دامي القلب كئيباً محسوراً .

أليس عجيباً أن يكون ذلك مصير هرقل ومصير سورية ! لقد غزا الفرس الروم في سنة أربع عشرة وستائة للميلاد واستولوا على الشام ومصر ، فلم يلبث هرقل حين جلس على عرش الإمبراطورية أن سار على رأس جيشه وحارب الفرس وهزمهم ، وأجلاهم عن مصر والشام ، واستردّ منهم الصليب الأعظم ، ثم رده في حفل حافل إلى بيت المقدس . فما بال جيوشه تنهزم أمام المسلمين كل هذه الهزائم ؟ ! ما باله لا يتولّى قيادتها ولا يبعث إليها من قوة روحه مثل ما فعل أول ما جلس على عرشه ؟ ! بل ما باله يبقى بعيداً عنها ، فيقيم بمحص ثم بأنطاكية ، ثم بالرها ، ليفرّ آخر الأمر فرار الجبان إلى بزطية فينزلهما مذموماً مدحوراً ؟ ! هذا ولما تكن عشر سنوات قد انقضت بين انتصاره على الفرس وانهزامه أمام المسلمين ؛ فقد هزم الفرس في سنة خمس وعشرين وستائة ، وبدأت هزائمه أمام المسلمين سنة أربع وثلاثين وستائة ، وكان فراره من سورية كلها سنة ست وثلاثين وستائة . أليس لهذا الانقلاب العجيب من سرّ يمكن جلاؤه ؟ أم إنه القدر دفع المصادفة فأدّت إليه ، فلا سبيل لتفسيره ومعرفة أسبابه ؟ !

ليس في حياة العالم أمرٌ لا يخضع لسنن الكون . ولو أنا عرفنا كل هذه الشنن وأحطنا علماً بكل ما يقع من الحوادث جليها ودقيقها ، لاستطعنا أن نفسر الظواهر الاجتماعية ، وأن نعرف ما يترتب عليها ؛ بالدقة التي نعرف بها مدار الأفلاك وسير الكواكب . لكن كثيراً من الشنن لا يزال علمه غائباً عنا ، ومن حوادث الكون كثير تفوتنا معرفته ؛ إما لأنه مضى ولم يدونه من سبقنا تديناً نظمنا إلى دقته ، أو لأن حياتنا أقصر من أن نحيط أثناءها بكل الدقائق التي تجعل حكمتنا على الظواهر الاجتماعية دقيقاً دقة رياضية . لكن

ذلك لم يمنع الكتّاب والمفكرين في كل العصور من أن يلتمسوا الأسباب ويرتبوا عليها النتائج ، فإذا جاء بعدهم نظراؤهم تحصوا آراءهم ليفوا زيفها وليبلغوا بها غاية الدقة . وهذا التمهيد ابتغاء الدقة سيظل متصلا على الأجيال حتى نباغ من العلم بالسنن الكونية في شؤون الاجتماع ما بلغنا من العلم بالقوانين الرياضية ، ففتجلى أمامنا أسرار الوجود الإنساني ويستوى لنا علم ماضيه ومستقبله . وأغلب ظننا أن الأمد لا يزال بعيداً بيننا وبين هذا المبلغ . فليكن دأبنا مداومة التمهيد لمعرفة الحقيقة ؛ فهذا التمهيد هو مظهر الحيوية العقلية والنشاط الروحي . فإذا لم يتيسر لنا أن نكشف عن كل الحقائق كاملةً استطعنا أن نظفر منها بأكثر حظ مستطاع .

والآن ما سرُّ الانقلاب الذي طرأ على هرقل وجيوشه ، فجعلها تنهزم أمام قوات المسلمين ولما تمضت عشر سنوات بعد انتصارها على الفرس ، وإجلالها إياهم عن مصر والشام ، وتهديدها عاصمة ملكهم ؟! أترأها أجهدها تلك الحروب وقد استطالت ست سنوات واستنزفت من الأموال ودماء الرجال ما استنزفت ؟ قد يكون لهذا السبب قيمته في بعض الأحيان ؛ لكنه لا قيمة له فيما نحن بصدده ، وهو لذلك لا يفسر انقلاب الروم من النصر إلى الهزيمة في هذه السنوات القليلة . ذلك لأن قوة العرب لم تكن كقوة الفرس أو كقوة الروم نظاماً وعدة . وعشر سفوات كافية لتجنيد جيش جديد من أرجاء الإمبراطورية لا يستطيع العرب تجنيد مثله عدداً وعتاداً . وقد رأينا في اليرموك ودمشق وفحل والغزوات كلها أن أعداد الروم كانت تزيد على أعداد العرب أضعافاً مضاعفة ، ثم لم يُعْنِ ذلك عنها ولم يُؤْتِها القوة على المسلمين ، بل صدقت كلمة خالد بن الوليد في اليرموك : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال » . لا مفر إذاً من أن نلتمس لهذا الانقلاب أسباباً أخرى تفسره وتجلوه .

وهذه الأسباب شتى ، ولكنها تضافر جميعاً فتؤدي إلى نتيجة محتومة هي في رأينا علة ما حدث . وخلاصة هذه النتيجة أن سياسة الدولة انتهت إلى بَرَمِ الناس بها وسوء رأيهم فيها ، وإلى انصرافهم لذلك عن تأييدها ، وعدم حماسهم لمؤازرتها . والنصر معتدّر في جو نفسي هذا شأنه . ذلك بأن التجنيد الحربي لا يكفي وحده لإحراز النصر ،

فالتجنيد المدني ليس دونه خطراً . ونحن نشعر اليوم بهذا الأمر شعوراً قوياً ، ويحْيَل إلينا أن مرجعه أن المدنيين يقاسون من أهوال الحرب ما يقاسى الجنود في الميدان ؛ فهم معروضون للحصر البحري ، والغزو الجوي ، وما إلى ذلك مما لم يكونوا يتعرضون في تلك العصور لئله . وهذا صحيح ، ولكنه لا يصوّر إلا الناحية العنيفة مما قد يتعرض المدنيون له ، ولا يصور ما هم مطالبون به من تضحيات إيجابية متصلة هي أساس قوة الجند، وعلى قدرها يكون رجاؤهم في النصر . فالمدنيون هم الذين يُمدُّون الجيش بعتاده وأقواته، وهم الذين يستحبون الحرمان حين الحرب ويؤثرون الجيش على أنفسهم وذوبهم ، ليكفل لهم نصره حياة سلم فيها أمن ودعة . وهم إنما يبذلون هذه التضحيات مخلصين يوم يطهشون إلى سياسة الدولة ، وإلى قيام الحكم على أساس من العدل بينهم وإصلاح شؤونهم . فإذا لم يرضوا هذه السياسة وبرموا بها لم يبذلوا هذه التضحية إلا كارهين ، ولم يكن عندهم من الحماسة لانتصار الدولة ما يزيد جيوشها إقداماً وبأساً . وهذه الحال النفسية أقوى أثراً في انتصار الجيوش وخذلانها من كل مدد وعتاد .

وهذه الحال النفسية هي التي قوت هرقل ونصرته على الفرس . فقد كانت عوامل الفساد والانحلال تدب في كيان الإمبراطورية الرومية قبل أن يجلس هذا العاهل على عرشها ويتولى أمورها ؛ لذلك غلبها الفرس واستولوا على ممتلكاتها . فلما قام هرقل بالثورة على فوكاس لسوء حكمه وتولى الأمر مكانه ، آمن الناس بأن عصرًا جديدًا يوشك أن يزرغ فجره ، وأن الإمبراطورية لن تلبث أن تسترد ما كان لها من عزة وسؤدد . لذلك أقبلوا على هرقل يؤازرونه مخلصين ، يبذلون من التضحيات كل ما يستطيعون بذله، ويرخصون أنفسهم بل حياتهم في سبيل نصرته . وما أعظم ما يستطيع من يرخص حياته ! إذا ظفر هرقل فاسترد ما أضاع سلفه ، وانتظر الناس من بعد أن يتحقق رجاؤهم في العصر الجديد .

لكن هرقل ما لبث حين استتب له الأمر في مصر والشام أن لجأ إلى سياسة أحفظت عليه أهل مصر والشام . لقد خوت خزائنه ، ولا بد أن يملأها ، فهبط أهل هاتين الولايتين بالضرائب ففروا . لكن نفورهم من قداحة الضرائب لم يكن وحده

ليغيّر على العاهل العظيم قلوبهم لو أنهم وجدوا عن التضحية السادية عوضاً في حكم يكفل لهم الأمن والحرية . ولا شيء أعزّ على الناس من حرية العقيدة . إنهم ينفرون إذا حاولت صرفهم عما وجدوا عليه آباءهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وهم لا يستمعون إليك إلا أن يتبينوا إخلاصك لهم وحرصك على عداهم ، فإذا اطمأنوا إلى ذلك قاربوك في حذر أوّل الأمر ، حتى إذا آمنوا بما دعوتهم إليه بذلوا في سبيل إيمانهم دماءهم وأرواحهم . أمّا ذلك شأنهم مع الذين يدعونهم للحق بالحسنى فأخّر بهم أن تنور نفوسهم إذا أراد حاكم أن يصرفهم قصرأ عن عقيدتهم ليفرض عليهم عقيدة غيرها ، فإذا لم يستطيعوا الثورة الصريحة عليه مكروا به وتمنّوا له السوء . وكان هذا شأن هرقل في مصر والشام وسائر بلاد الإمبراطورية . لذلك تغيّرت عليه النفوس ونفرت منه القلوب ، فلم يجد سنداً من قوة المدنيين ومن روحهم المعنوية تؤازر جيوشه في حرب المسلمين .

فهو حين تم له النصر على الفرس وجاء بالصليب الأعظم إلى بيت المقدس أعطى اليهود العهد الذي طلبوه بالأمان على أنفسهم ومعايهم . لكن المسيحيين وقساوتهم جعلوا ، بعد حفلة إعلال الصليب ، يذكرون اليهود بالسوء ويغرونه بهم . إذ يتهمونهم بأنهم كانوا أشد من الفرس قسوة على المسيحيين وأفظع منهم جرماً في تدمير الكنائس وإحراقها . ولقد تردد هرقل بادىء الرأى في نقض عهده ، فلما ألح عليه من حوله وذكروا له من الحجج ما يحله من هذا العهد ، زال تردده ، فأمر بإجلاء اليهود عن بيت المقدس بل أباح دماءهم « حتى لم يبق منهم في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى<sup>(١)</sup> » ولم يكن الذين هربوا من بيت المقدس إلى الصحراء فيما وراء نهر الأردن قليلين . هؤلاء ظل حقدهم على هرقل لهذه الفعلة النكراء متقد الضرام لم يطفئه أنه أذن لهم من بعد بالعود إلى موطنهم ، فتربصوا ، حتى إذا لاحت أعلام المسلمين ضوّوا إليهم وصاروا لهم أدلاء يكشفون لهم عن عورات البلاد ويقفونهم على أسرار الدولة .

لم يكن اليهود وحدهم الذين أكل قلوبهم الحقد على هرقل ، بل كان النصارى يشكون كذلك من الشكوى . ذلك أن هرقل رأى ، حين اطمأن له الأمر ، أن يوحد

(١) المقرئى ، قفلا عن ففح العرب لمصر : فالف بفر وفرجة فرىء أبو ففء ، ص ١١٩ .

المذاهب المسيحية في الإمبراطورية كلها ، إيماناً منه بأن تعدد المذاهب هو الذي فرّق كلتها وخضد شوكتها. وكان أكبر رجائه أن يحقق زعماء الكنيسة هذه الوحدة بمحكتهم لتقوم في أرجاء الإمبراطورية على الرضا والوفاق ، دون إجبار أو إكراه . ولو أن ذلك تمّ لكان قوةً للدولة على أعدائها، ولشاد لهرقل مجدداً باقياً على التاريخ . لكنه لم يكن ليتم ، فبقيت المذاهب على تعددها ، واضطر الإمبراطور أن يُكره الناس على الإذعان للمذهب الرسمي الذي فرض عليهم ، فمن أبي حقت عليه كلمة العذاب . وأبى الناس فاضطهدوا ، فشكوا إلى هرقل بطش عمّاله ، فأغارهم أذناً صمّاء ، فانصرفت عنه النفوس ونفرت منه القلوب .

كان هرقل حسن القصد لا ريب حين أراد تحقيق الوحدة المذهبية . لكنه نسي حقيقة لو ذكرها لساغر غير سيرته ، ولما تغرّب الناس عليه . فتوحيد القوانين تيسيراً للمعاملات بين الناس أمر مرغوب فيه ، بل أمر واجب . ومهما يكن من اختلاف الرأى في صلاح القانون الذي ينظّم هذه المعاملات فمن المستطاع تغييره يوم يخشى سوء أثره . لكن حرية الضمير في أمر العقيدة لا يمكن أن يحدّ القانون منها أو أن ينظّمها . فهذه الحرية ملاك حياتنا الإنسانية ، كما أن الهواء ملاك حياتنا المادية . لذلك يضيق الناس بكل حدّ منها ، ويثورون أعنف الثورة بمن يحاول القضاء عليها . وزعماء الكنيسة وأئمة المذاهب أحرص على حريتهم وعلى حرية الناس في هذا الأمر ، فلن يتفقوا على حدّه وتقييده . ذلك بأنهم إن قيدوه ضُعب سلطانهم الروحي على النفوس وتزعزعت مكاتهم في القلوب . وهذا ما حدث بالفعل حين اختار هرقل أسقفاً لأنطاكية ، وآخر لبيت المقدس ، وثالثاً للاسكندرية ، وفرض على الناس أن يقبلوا المذهب الذي أقره مجمع خلقدونية . فلم ينزل واحد من هؤلاء الأساقفة عن مذهبه ولا عن حرية رأيه ، ثم اختلفوا في سياستهم باختلاف طباعهم ، فاضطهد أسقف الاسكندرية المصريين ليحملهم على تغيير مذهبهم ، ولجأ أسقف بيت المقدس إلى الحيلة ، وكان أسقف أنطاكية أوسع صدرأ . ولو أن هرقل لم يفرض مذهباً ولم يُلزم الناس اعتناقه لَمَا انصرفت عنه النفوس ولا تغيّرت عليه القلوب . ولقد بلغ من تغيرها أن وقف أهل الشام حين غزا العرب (١٦٢ - الفاروق - ج ١)

بلادهم لا تتحرك في نفوسهم الحماسة لدفعهم ، بل كان كثيرون منهم يضرعون إلى الله في أعماق نفوسهم أن تزول دولة قيصر عنهم . كتب أبو الفرج العبري يقول : «لما شكّا الناس إلى هرقل لم يجب جواباً ، ولهذا أنجنا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهمهم الشديدة وعداوتهم المرة » .

فداحة الضرائب ، وحقد اليهود ، والاضطهاد الديني : هذه عوامل ثلاثة جمعت للمدنيين من أهل الشام ينظرون إلى الروم المحاربين فلا تحركهم حماسة لنصرهم ، أو حرص على معاونتهم . وتمّ عامل رابع تضافر مع هذه العوامل الثلاثة التي أدت إلى هزيمة هرقل وفراره من سورية . فلم تسكن حماسة العرب المقيمين على تخوم بادية الشام لتدفعهم إلى الاستماتة في قتال بني عمومتهم من أبناء شبه الجزيرة . ولعل جبلة بن الأيهم كان أكثر هؤلاء العرب حماسة في نصرة هرقل ؛ فهو مدين يملكه للروم الذين عززوه وأنصروه وجعلوا له من المسكنة ما يخشى أن يزول إذا انتصر المسلمون . مع ذلك لا تروى كتب التاريخ من مظاهر هذه الحماسة إلا تلك القصة المرجوحة التي أشرنا إليها حين الحديث عن فتح قنسرين ، والتي لا يُثبتها المؤرخون الثقات في كتبهم . أما والجو الذي أحاط بهرقل وجنوده هو ما رأيت ، فلا عجب أن تدور عليه الدوائر وأن يأفل نجمه ، وأن يفر إلى بُزَظية كاسفَ الببال حسيراً مدحوراً .

وهذه العوامل هي التي جعلته يدع لغيره قيادة جيشه . فقد سمع بفعال العرب في العراق لعهد أبي بكر فأثر أن يقوم تذارق إلى اليرموك في عدد ضخم من الجند . فلما هُزم الجيش وقتل تذارق رأى ألا يقامر بنفسه مخافة أن يهزم فيدفن في الميدان كل مجده . ولعله ذكر يومئذ رسالة النبي العربي يحملها إليه دخية بن خليفة السكبي وهو في طريقه إلى بيت المقدس يردّ الصليب الأعظم إلى قبر السيد المسيح ، وذكر كيف استهان بهذه الرسالة ولم يكثر لها . وها هو ذا يرى العرب الذين اتبعوا محمداً وآمنوا برسالته ينتشرون في الأرض ويندفعون إلى بلاده غزاة فاتحين ، يستحبون الموت على الحياة فيهب الله لهم كل أنعم الحياة أين منهم جنوده الذين لا يصبرون على البأساء ولا يجدون في الفرار عاراً ! وكيف لهرقل وذلك شأنه وشأن جنده أن ينتصر؟ بل وكيف له أن يتحدر من قمة الجبل إلى حضيض



المهوان ؟ لقد نسي أن الله في الكون سُنَنًا لا تبدل لها ، وأن جهل هذه السنن يؤدي بالناس إلى الخطأ ويورطهم في الضلال . وهذا النسيان هو السبب فيما أصابه ، وما جعله في التاريخ عبرة للمعتبر :

رأى جيلة بن الأبهيم مصير هرقل ، ورأى قبائل العرب من أهل الشام يهرع الكثيرون منهم إلى الإسلام ، فأيقن أن لا بقاء للملكه ولا لعزّه إلا أن يُسلم ويسلم ذويه معه . وكتب إلى أبي عبيدة بإسلامه وإسلام بني غسان ؛ فاغتبط أميين الأمة ، وأبلغ النبأ أمير المؤمنين فاغتبط عمر له . ثم أن جيلة كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه فأذن له ، فخرج إلى المدينة في خمسمائة من أهل بيته . وأمر عمر الناس باستقباله ، فلم يبق بالمدينة بكر ولا عانس إلا تبرجت وخرجت تنظر إلى جيلة وإلى زيه . وكان جيلة قد أمر مائتي رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحريز ، وركبوا الخيول معقودة أذنانها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة . ولبس جيلة تاجه وفيه قرطاً مارية جدته . وأعجب أهل المدينة بذلك كله فلما انتهى جيلة إلى عمر رحب به ولطف له وأذن مجلسه .

وأقاموا جيلة بالمدينة زمناً ثم خرج إلى الحج مع عمر . فبينما هو يطوف بالبيت وطىء إزاره رجل من بني فزارة فأنحى ، فرفع جيلة يده فهشم أنف الفزاري . واستمدى الرجلُ عمر ، فدعا جيلة وسأله فأقرّ بما حدث . قال عمر : « قد أقررت . فيما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك » . وأنكر جيلة ما سمع وقال : « وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ ! » قال عمر : « إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية » . قال جيلة : « قد ظننت يا أمير المؤمنين أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية » . قال عمر : « دَعَّ عنك هذا ، فإنك إن لم تُرضِ الرجل أقدته منك » . قال جيلة : « إذا أنتصّر » . قال عمر : « إن تنصّرت ضربت عنقك ؛ لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك » . فلما رأى جيلة الصدق من عمر قال : « أنا ناظر في هذا ليلتي هذه » .

وكان قد اجتمع بباب عمر من شتى الأحياء خلق كثير يعجب بعضهم لحزم عمر ، ويرى بعض فيه شدة ما أعناه عنها . وبلغ من اختلافهم أن كادت تقوم بينهم فتنة .

فلما أمسوا تفرّقوا وأذن عمر لجبلته في الانصراف . وأسرىَّ جبلته إلى رجاله فتحمّلوا بليل إلى الشام فأصبحت مكة منهم خالية . وتابع جبلته مسيرته إلى القسطنطينية ، فدخل على هرقل متنصراً هو ومن معه ، فسُربهم هرقل وظنّ أنه فتح من الفتوح عظيم ، وأقطعه حيث شاء وأجرى عليه ما شاء<sup>(١)</sup> .

وعاش جبلته في جوار هرقل عيش ترف ونعمة يضاهاثان ما كان له في ملكه بالشام أو يزيدان عليه . لكنه ظل مع ذلك دائم الحنين إلى منزله بأكناف دمشق . روى أبو الفرج في الأغاني أن عمر بعث رجلاً إلى هرقل بكتاب منه ، فلما أزمع الرجل الرحيل ذهب إلى جبلته فرأى ما هو فيه من عزّ يزيد على عزّ هرقل نفسه . ورأى الجوارى حوله بفنّينه ويُنشدنه شعر حسان بن ثابت فيه . وسأل جبلته الرسول عن حسان فقال : أما إنه مضرور البصر كبير السن ؛ فأسر جاريته فأنته بمخمسائة دينار وخمسة أثواب من الديباج دفعها إلى الرسول ليدفعها إلى حسان ، ثم راود الرسول على مثلها لنفسه فأبى ، فسكى جبلته ، ثم قال لجواريه : ابكينني ، فوضعن عيدانهن وأنشأن يُنشدن قول جبلته :

تنصرت الأشرافُ من عار لطميةٍ      وما كان فيها لو صبرتُ لها ضررُ  
تكتفني فيها لحاجٌّ ونحوةٍ      وبعث بها العينَ الصحيحة بالعمورُ  
فياليت أُتّى لم تلدني وليتني      رجعتُ إلى القوم الذي قاله عمر !  
وياليتني أرعى الخاضَ بدمنةٍ      وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر !  
وياليتني بالشام أدنى معيشة      أجالس قومي ذاهبَ السمع والبصر !

ورجع الرسول إلى المدينة وذكر لعمر حال جبلته وصلّته حسانا . فلما حصل شاعر رسول الله على الدنانير والأثواب انصرف عن أمير المؤمنين وهو يقول :

إن ابن جفنة من بقية معشر      لم ينفذهم أبأؤهم بالأسوم  
لم ينسني بالشام إذ هو رهشا      كلاً ولا متنصراً بالروم  
يُعطي الجزيل ولا يراه عنده      إلا كعبعض عطية المذموم

(١) الأغاني : جزء ١٤ ص ٤ ؛ طبعة ساسي . ولا يثبت الكثيرون من المؤرخين قصة جبلته هذه ويرون روايتها أدنى إلى فنون الأدب .

وتجرى بعض الرويات بأن جبلة اشتد حنينه إلى منازلها بأكناف دمشق، وودّ لو استطاع أن يعود إلى الإسلام فيعود إليها على أن يزوجه عمر إحدى بناته، وأنه مات قبل أن يصله ردّ عمر بإجابته إلى ما أراد. وهذه الرواية غير صحيحة؛ لأن جبلة عاش إلى عهد معاوية بن أبي سفيان. قيل إن معاوية بعث إليه أن يرجع إلى الإسلام ووعده أن يقطع غوطة دمشق بأسرها فأبى. وقيل إن جبلة بعث إلى معاوية يعرض الرجوع إلى الإسلام على أن يعطيه منزله وعشرين قرية من الغوطة، فكتب إليه معاوية يبيحه إلى ما طلب، فوجده قد مات. وقد استطاع التوفيق بين الروايتين الأخيرتين بأن جبلة أبى ما عرضه عليه معاوية، ثم إنه ندم لإبائه فعاد يطلب ما رفض ومات قبل أن يجاب إليه.

وكانت تقيم مع جبلة بالقسطنطينية جالية من أهله وعشيرته آثروه على منازلهم وأهلهم بالشام وقد قرّبهم ملوك الروم وأعزّوهم فكانوا في بلاطهم حتى دالت دولتهم. يرجّح ذلك أن عدداً من رجال البلاط في قصر هرقل وخلفائه كانوا يسمون باسم جبلة، وهو اسم عربي لم يعرفه الإغريق ولا عرفه الروم قبل أن ينزل جبلة بن الأيهم عاصمتهم.

أقام جبلة في جوار هرقل يهز الحنين إلى منزله قلبه، وأطام هرقل حسيماً في عاصمة ملكه، يود لو استطاع الرجعة إلى الشام يسير بين جناته الفيحاء، وجباله المحللة بالثلوج، وأوديته الخصبية، حتى يبلغ قبر المسيح ببيت المقدس. أتراه يحاول هذه الرجعة وقد ودّع سورية الوداع الأخير، أم أنه وهن عزمه وانهد ركنه؟ ذلك ما سنرى من بعد. فلندعه الآن كاسف البال في قصره، وانعد إلى فلسطين نُسائر قواد المسلمين في ربوعه، حتى ندخل معهم بلد المسجد الأقصى.

## الفصل الثاني عشر

### عمر في بيت المقدس

انتصر المسلمون باليرموك في أوّل خلافة عمر . وقد فرّت فلول الروم من هناك إلى فحلّ فاجتمعت بها . فبعث أبو عبيدة أبا الأعور السلمي يفازلها ، وسار هو إلى دمشق وأقام أبو الأعور فيمن معه من الجند بإزاء تلك الفلول ومن انضم إليها من المدد الذي بعث به هرقل إلى فحل . فلما فتح المسلمون دمشق دعا أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنّة ، فحاصروا الروم بفحل ، وما زالوا بهم حتى هزموهم ، ثم استولوا على طبرية وبيسان ووقفوا على أبواب فلسطين . عند ذلك سار أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حصص تنفيذاً لأمر عمر ، تاركين عمرو بن العاص وشرحبيل على القوّات التي كانت في إمرتهم للاستيلاء على فلسطين . وفتح أبو عبيدة حصص ، وسار المسلمون منها إلى حماة فغلب فأنطاكية فشمال الشام وجنوب قليقية والنصر يسير في ركبهم ، فلم يجد هرقل بدءاً من الفرار إلى القسطنطينية ، مودّعاً سورية الوداع الأخير .

بينما كان أبو عبيدة يسير مظفرأ في شمال الشام ، كان عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة يواجهان قوّات الروم التي اجتمعت بفلسطين ويعملان للقضاء عليها . ولم يكن ذلك أمراً يسيراً ؛ فقد كانت هذه القوّات عظيمة كثيرة العدد والعتاد ، وكان على قيادتها أطرِبون<sup>(١)</sup> أكبر قواد الروم وأكثرهم دهاء وأبعدهم غوراً . وقد رأى ألا يفرّق جنده في أما كن كثيرة حتى تتوحد القيادة في يده ، وحتى لا يفتّ ظفر العرب ببعض هذه القوّات

(١) ورد هذا الاسم في الطبري ومن أخذ عنه على أنه أطرِبون . وبعض المؤرخين يضيفون إليه أداة التعريف فيقولون الأطرِبون . وقد صححه الفرد بتلر في كتابه ( فتح العرب لمصر ) على أنه أطرِبون . وقد ورد هذا الاسم في بعض الكتب وفي بعض الأسفار كما ذكرناه في النص ، أي أطرِبون . ويرى بعض المحققين أن لفظ أطرِبون أصح من « أطرِبون » و « أريطبون » ، وأنه ليس اسم قائد الروم في بيت المقدس ، وإنما هو لقب قائد الروم الأكبر الذي يلي هرقل في المسكنة ، وأنها معربة عن الكلمة اللاتينية Tribunus . ونحن نرجح هذا الرأي . ولذلك أثبتنا اللفظ في النص على أنه « أطرِبون » .

في أعضاد سائرهما . فوضع بالرملة جنداً عظيماً ، ووضع بإبلياء<sup>(١)</sup> جنداً مثله ، وترك بغزّة وسبسطية ونابلس وألد ويافا حامياتها ، وأقام ينتظر مَقدّم العرب عليه ، واثقاً من قدرته على الظفر بهم وتشتيت شملهم .

أدرك عمرو بن العاص دقة الموقف ، ورأى أنه إذا واجه أطربون بكل جيشه فانضمت قوات الروم بعضها إلى بعض لم يقدر عليها ، وقد تقدّر عليه . لذلك كتب إلى عمر ، فأمر الخليفة يزيد بن أبي سفيان أن يوجّه أخاه معاوية إلى قيسارية ليفتحها ، فلا يجيء إلى أطربون مدد من البحر عن طريقها . وكانت قيسارية ثغراً جليل الخطر حصين الموقع تحميه قوة كبيرة . وسار معاوية فحصر أهلها ، فحملوا يراحفونه فيهمزهم ويردّمهم إلى حصونهم . فلما طال ذلك بهم خرجوا يقاتلونه مستميتين فمضى عليهم حتى كانت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً ، بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف . وبسقوط قيسارية والقضاء على جندها أمن المسلمون جانبها ، وامتنع كل مدد يجيء إلى الروم عن طريقها<sup>(٢)</sup> .

وحاصر العرب غزّة كما استولوا على قيسارية . وكانت غزّة قد سقطت في يد المسلمين أيام أبي بكر ثم جلوا عنها . وبوقوع هذين الثغرين في نفوذ العرب أمن عمرو ناحية البحر ، واضطرّ أطربون إلى الاعتماد على القوات التي في إمرته دون غيرها .

لم يكتمف عمرو بهذا . فقد رأى أطربون يتقدم بقواته إلى أجنادين ، فوجّه علقمة ابن حكيم ومسروقاً العسكىّ إلى ناحية إبلياء فشغل بهما جندها ، ووجه أبا أيوب المالكي إلى ناحية الرملة فلم يبق بدٌّ من احتفاظها بحاميتها . وكتب عمرو بذلك كله إلى عمر ، وذكر له دهاء أطربون وسعة حيلته ، ووصف له من قوة الروم وعُدّتهم ما جعل الخليفة يأمر بإرسال المدد العظيم إليه . ثم إنه أعاد النظر في الكتاب فابتسم لصفته أطربون بالدهاء

(١) لإبلياء هي بيت المقدس . ولم تنشأ الرملة إلا في القرن الثامن المسيحي على مقربة من قرية كانت تدعى (راما) فاندثرت من بعد . وقد آثر المؤرخون العرب أن يذكروا اسم الرملة الباقية إلى اليوم حتى لا يختلط الأمر على القارىء .

(٢) بهذا تجرى رواية الطبرى وابن الأثير وابن كثير . ويذكر ابن خلدون أن معاوية حاصر قيسارية ولا يذكر أنه فتحها . ورواية المستشرق ميور أن المسلمين أخضعوا فلسطين كلها خلا قيسارية . وبعض الروايات تذهب إلى أن قيسارية ظلت محصورة سبع سنين . ولعلها فتحت غير مرة ؛ ثم استردها الروم من البحر . وعلى كل حال فقد أدى حصارها إلى امتناع كل مدد لأطربون عن طريقها .

والمكر ، وقال ابن حوله : « قدرمينا أطربون الروم بأطربون العرب فانظروا عمّ تنفرج » . وبلغت الأمداد فلسطين ، فبعث عمرو ببعضها قوتلن شغلوا جند العدو بإيلياء والرملة وسار هو في جلة الجيش يلقي أطربون بأجنادين ، فإذا الروم بحصونهم وخنادقهم في منعة أى منعة . كيف السبيل إليهم ؟ وهل من يدلّه على ماتاهم ؟ لم يجد لذلك وسيلة إلا الحيلة ، فبعث الرسل يتفاوضون في الصلح ، وأسرّ إليهم أن يوافقوه بمدخل العدو وعوراته . لكن الرسل لم تشفّه ، فأثر أن يتولى الأمر بنفسه ، على ألا يظهر عدوّه على أمره . فلئن عرف أطربون أن عمراً هو الذى يحادثه ليأخذته أسيراً ، ثم لن يفتته ؛ هذا إن لم يقتله . وتسكر عمرو وسار إلى أطربون ودخل عليه كأنه رسول بعد أن تأمل حصونه وعرف منها ما أراد . وتحدث الرجال ، فداخلت أطربون الريبة في شخص محدّثه ، وقال في نفسه : « والله إن هذا لعمر ، أو إنه الذى يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ! » . ثم دعا جندياً من رجال حرسه ، فأسرّ إليه إذا امر العربى بمكان بذاته أن يقتله . ووطن عمرو إلى أن فى الأمر كيداً ، فقال لأطربون : قد سمعت منى وسمعت منك . فأما ما قلتّه فقد وقع منى موقعاً . وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكاشفه ويشهدنا أمور . فأزججُ فأتيتك بهم الآن ؛ فإن رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى ما منهم وكنت على رأس أمرك » .

سمع أطربون هذا القول فخالج نفسه الشك فيما ظن ، فاسترجع الحارس الذى أسرّ إليه بقتل هذا العربى ، وقال لعمر : انطلق فجيء بأصحابك . وخرج عمرو مسرعاً إلى عسكره لا يلبى على شىء ولا يظن أن يعود لثاها . وعرف أطربون الأمر فقال : « خدعنى الرجل . هذا أدهى الخلق » . وبلغ عمر ما حدث فقال : « غلبه عمرو ، لله عمرو ! » .

لم يبق أمام عمرو إلا أن يُنشب القتال بعد أن عرف مآخذه ومآتبه ، وبعد أن أعدّ له عدّته . والتقى الجيشان بأجنادين كما التقى جيشا المسلمين والروم من قبل بالواقوسة على اليرموك . وكلاهما يعلم ما لهذا اليوم فى حياة الإمبرطورية وفى حياة الإسلام

من أثر . لذلك بلغت شدة القتال بأجنادين ما بلغت باليرموك ، فكثرت القتلى من الجانبين ، وترجّح النصر زمنًا بينهما . لكن المسلمين كانوا أكثر صبراً . فقد كانت أنباء أبي عبيدة وخالد بن الوليد وانتصاراتهما بشمال الشام قد بلغتهم وبلغت الروم ، وكان أهل فلسطين من اليهود والنصارى يقفون من حكامهم ومن غزاتهم موقف المتفرج ، لا تحركهم حساسة للروم ولا غضب على المسلمين ، فكان لعمرو وجنوده من أنباء إخوانهم ، ومن موقف المدنيين حولهم ، وما زادهم حساسة وحلمهم على الثبات والصبر . فلما أذنت الشمس بالمغيب رأى أطربون صفوفه تضطرب ورجاله تولّاهم الإعياء ، فانسحب في الناس متقهراً إلى ناحية بيت المقدس . ورآه علقمة بن حكيم ومسروق العكبي في تقهقه فأمسرا رجلهما فسحوا له طريقاً ، فدخل المدينة بمن بقي من جنوده معتمداً على مناعة حصونها وقوة مقاومتها ، منتظراً يوماً يكون الحظ فيه أقلّ عبوساً فيكون له من الرجاء في النصر ما فاته هذا اليوم .

وأمر عمرو وعلقمة بن حكيم ومسروق العكبي وأبا أيوب المالكى فعسكروا بقواتهم في أجنادين ، وأقام هو معهم ينظر في مهاجمة أطربون بيت المقدس . وراوا قبل مهاجمته أن يحيطوا به ، وأن يقطعوا خط رجعتهم من ناحية البحر ففتحوا رَفْحَ وغَزَّةَ وسَبَسْطِيَّةَ ونابلس واللدّ وعمواس وبيت جبرين ويافا ، فتحوا بعضها عنوةً ، وسلم بعضها ورضى الجزية بغير قتال . بذلك بقيت بيت المقدس والرملة وحدهما حصينتين يحيط بهما المسلمون . أترام وقد أمنوا ألا يجيئهم أحد من خلفهم يحاصرون بيت المقدس ويهاجمونها ، أم يكتبون بذلك إلى عمر ويقيمون حيث هم إلى أن يجيئهم رأيهم ؟ .

ولإنهم ليفكرون فيما يصنعون إذ تناول عمر رسالة من أطربون يقول فيها : « أنت صديق ونظيرى . وأنت في قومك مثلى في قومي . والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين ، فارجع ولا تغترّ فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة ! » . وتعجّب عمرو حين قرأ الكتاب ، وردّ عليه بأنه « صاحب فتح هذه البلاد » ، وطلب إلى أطربون أن يشاور وزراءه لعلهم ينصحونه قبل أن يدهمه . لكن أجنادين كانت قد استنفدت من جند المسلمين ما جعلهم بحاجة إلى المدد . لذلك آثر ابن العاص أن يكتب إلى عمر

يستمدده ويستشيريه ، فبعث إليه يقول له : « إني أعالج حرباً كثووداً صدوماً وبلاداً  
أدخرت لك فرأيتك<sup>(١)</sup> » .

تناول عمر بن الخطاب هذا الكتاب وقرأه والثابت في روايات المؤرخين جميعاً ،  
المسلمين منهم وغير المسلمين ، ، أنه ذهب من بعدُ إلى بيت المقدس وعقد الصلح مع أهله .  
لكن ما حدث بين تناوله الكتاب ومجيئه إلى فلسطين عقد الصلح يقع عليه خلاف كبير .  
ومن المتفق عليه أن أهل بيت المقدس تولاهم الروع من أجنادين ، وثبت في نفوسهم  
أن مدينتهم صائرة إلى العرب لا محالة . لذلك بادروا بالاتفاق مع الأسقف صفرنيوس فنقلوا  
الصليب الأعظم وكل ما كان في الكنائس من الآنية ، وجعلوا كل ذلك عند الساحل  
ثم وضعوه في سفينة وبعثوا به إلى دار الملك بالقسطنطينية ، ليوضع الصليب من بعدُ  
في كنيسة القديسة أيا صوفيا . وقد انسحب أطربون بقواته من بيت المقدس إلى مصر  
قبل أن تبدأ مفاوضات الصلح بين عمر ورسل المدينة المقدسة . لكن الخلاف يقع  
على ما سوى ذلك وعلى ما يتصل من الحوادث . فهل تقدم عمرو بن العاص فحاصر  
إبلياء قبل أن يبرحها أطربون وقبل أن يحضر عمر بن الخطاب لمصالحة أهلها ، أم هم طلبوا  
الصلح قبل أن يحاصروا ؟ وهل جاء خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح من الشام  
فتوليا حصار المدينة ولم يكن عمرو حاصرها ، أم تولياها معه ؟ وهل جاء عمر بن الخطاب  
من شبه الجزيرة في أمداد اشتركت في الحصار ثم كانت مفاوضات الصلح ، أم جاء  
في عدد قليل من الرجال بعد أن طلب أهل إبلياء الصلح على أن يعقدوه مع أمير المؤمنين ؟  
وهل طال زمن الحصار أم قصر ؟ هذه كلها أمور ترد في أمرها روايات يصعب التوفيق  
بينها وحسبنا أن نوجزها هنا لنفصل بعدها ما أتمه عمر في بيت المقدس حين مفاوضات  
الصلح وبعدها .

(١) تجرى رواية ذكرها الطبري وغيره بأن أطربون ضحك حين قرأ في كتاب عمرو قوله : إنه  
صاحب فتح هذه البلاد ، فأقبل أصحابه يسألونه من أين علم أن ابن العاص ليس بصاحب إبلياء ، فذكر  
لهم أن صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف ، وأن ذلك في التوراة ، وأن فيها من صفة عمر ما لا يدع  
شكاً في أن بيت المقدس ستؤول إلى المسلمين . ويضيف بعض من يذكر هذه الرواية أن أطربون  
ما لبث حين عرفها أن انسحب بقواته إلى مصر تاركاً للأسقف صفرنيوس معالجة الموقف مع المسلمين .



يحمل بي قبل إيجاز هذه الروايات وتمحيص ما استطاع تمحيصه منها أن أشير إلى أن موقع إيلياء بالمنطقة الجبلية في جنوب فلسطين جعلها منذ القدم قلعة حصينة ذات شأن كبير من الناحية الحربية ، وأن قدماء المصريين كانوا يعتمدون عليها في رد أعدائهم الذين يحاولون الانحدار إلى مصر من ناحيتها . وقد ثارت المدينة بحكم المصريين وتخلصت منه ثم رُدَّتْ إليه غير مرة . ففي عهد داود وسليمان استقلت عن مصر فبنى سليمان هيكله بها . واحترق الهيكل واحترق إيلياء كلها حين غزا الفرس فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد . وأعيد بناء الهيكل من بعد ، ثم اتخذه اليهود معبدهم والمكان المقدس لشعائهم ، فقوّوا عمارته وحصنوه وجعلوا منه قلعة ثبتت لغزو الرومان في القرن الأول قبل الميلاد . وهدم هيرودس الهيكل حين تولى أمر فلسطين من قبل الرومان ، ثم أعاد بناءه وزاد فيه ورفع عمدته ، وجعله أكثر مما كان نخامة ومنعة . فلما استقرت المسيحية بفلسطين وتناول عليها العهد أهمل الهيكل حتى كاد يصبح أطلالا . مع ذلك ظلت المدينة المقدسة معتمدة على مناعة موقعها وقوة حصونها ، فلم تفتح أبوابها للفرس حين غزوها في أوائل القرن السابع الميلادي ، بل قاومت حصارهم ثمانية عشر يوماً اضطرت بعدها للتسليم . فلما استردها هرقل أذاق اليهود العذاب قتلا ونفياً وتنكيلا ، لانتهاهم إياهم بأنهم ماثوا الفرس حين الغزو ودلّوهم على عورات البلاد .

هذه اللوحة السريعة من تاريخ بيت المقدس تنفي الرواية القائلة بأنها لم تقاوم المسلمين ، وأن أطربون انسحب منها أول ما جاءه النبا بمسير الغزاة إليها ، وأن أسقفها صفريوس لم يلبث حين بلغ عمرو بن العاص أسوارها أن بعث إليه يطلب الصلح على أن يحضر أمير المؤمنين فيتولى عقده بنفسه . فقد رأيت كيف قاومت الغزو في كل تاريخها ، وكيف قاومت الفرس قبل عشرين سنة من مجيء المسلمين إليها . ولقد ظفر الفرس يومئذ بالروم في الشام وهزمهم في عدة مواقع ، كما ظفر المسلمون بهم في اليرموك ودمشق وفجّل وأجنادين ، ثم لم يحمل ظفر الفرس المدينة المقدسة على الإذعان دون مقاومة . طبيعياً وذلك شأنها أن تقاوم المسلمين كما قاومت الفرس ، وأن تصدق الرواية التي تقول إنهم حاصروها شهوراً قبل أن تطلب الصلح ، وأن ينهار القول بأنها سامت بالصلح دون مقاومة .

ويجب كذلك أن نستبعد الرواية القائلة بأن خالد بن الوليد أو عبيدة بن الجراح حاصر أحدهما أو كلاهما ، على ما ذكره الطبري وابن الأثير وابن كثير وغيرهم . يقول الطبري : « كان سبب قدوم عمر إلى الشام أن أبا عبيدة حصر بيت المقدس ، فطلب أهله منه أن يصلحهم على صلح مدن الشام ، وأن يكون المتوَلَّى للعقد عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة » . وإنما نستبعد هذه الرواية لأن أبا عبيدة وخالدًا كانا حين حصار بيت المقدس ، في شغل بفتح حمص وحلب وأنطاكية ، وبإخضاع ما جاورها من البلاد ، وأن هرقل كان إزاءها بالرهاة يجمع الجيوش لردّها على أعقابها . وقد كان ذلك كله كما كان حصار بيت المقدس في السنة الخامسة عشرة من الهجرة ( ٦٣٦ للميلاد ) . والراجح أن حصار بيت المقدس استطال شهوراً من تلك السنة ، كان هذان القائدان يسيران أثناءها بأقصى الشمال من سورية حتى يضطرا هرقل فيرحل إلى عاصمة ملكه على البسفور . أما وذلك شأنهما فالقول بأن أحدهما أو كليهما حاصر بيت المقدس قول لا ينهض ، ويجب لذلك استبعاده .

بقيت الرواية القائلة بأن عمرو بن العاص هو الذي حاصر بيت المقدس ، وأن حصاره لها طال ، وأنها قاومته مقاومة عنيفة . وهذه الرواية الراجحة في رأينا ، لأنها تتفق وما عُرف عن بيت المقدس من مقاومة كل من أقدموا على غزوها في مختلف العصور ، ولأن عمرو بن العاص لم يكن دون أبي عبيدة مهارة في القيادة ومقدرة عليها ؛ وحسبُه أنه فاتح مصر معقل الروم المنيع . ولعلك تذكر أنه ودّ ، حين وجه أبو بكر الجيوش لغزو الشام أن يكون أميراً عليها ، وأن عمر بن الخطاب قال له يومئذ : « إنك لم تكن أميراً هذه المرة ، فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . ومن قَبْل ذلك كان أميراً على الجند الذي عهد إليه أبو بكر في القضاء على ردة قُضاعة . رجل ذلك شأنه ، وله من الحيلة في الحرب والسلم ما لم يشتهر غيره بمثله ، وهو بعدُ صاحب الإمارة على جيوش المسلمين بفلسطين وصاحب فتحها ، هو لا ريب الذي تولى حصار بيت المقدس ، وهو الذي أقام على حصارها ، والذي دارت محادثات الصلح بينه وبين أهلها .

وقد طال هذا الحصار واشتدت مقاومة المدينة ، حتى كتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول

له : « إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاذاً. اذْخِرْتْ لك فرأيتك » يقول الطبري في رواية : إن أهل إيلياء « كانوا أشجواً عمراً وأشجاءم ، ولم يقدر عليهم ولا على الرملة » لذلك أمده الخليفة بجند عظيم ليتقوى به ويقدر عليهم .

هل سار عمر من المدينة مع هذا الجند ، أم بقي بها حتى فاوض أهل بيت المقدس عمراً في الصلح وانفقوا على تسليم المدينة على أن يأتي الخليفة بنفسه ليكتب عهدها ؟ المشهور أن عمر لم يترك المدينة إلا لِيَتِمَّ الصلح مع أهل إيلياء ، وأنه لذلك ذهب في نفر قليل . وبعض الروايات تجرى بما يخالف هذا المشهور . روى عن عدى بن سهل أنه قال : « لما استمد أهل الشام عمر على أهل فلسطين استخلف علياً وخرج ممدًا لهم ، فقال عليٌّ : أين تخرج ! إنك تريد عدوًّا كلباً » . وفي رواية ذكرها ابن كثير أن عمر ذهب إلى فلسطين ليتم الصلح مع أهل إيلياء ، وأنه سار بالجيوش نحوهم واستخلف على المدينة على بن أبي طالب . ومن عجب أن يسير عمر بالجيوش لغير شيء إلا أن يتم الصلح ويكتب عهده . ومن عجب كذلك أن يطلب أهل بيت المقدس أن يقدم عمر من المدينة ليتم الصلح معهم وهم يعلمون أن بينه وبينهم مسيرة أسابيع ثلاثة تطرد العير أثناءها مقبلة من المدينة إليهم . لذلك أرجح أن عمر ضاق صبراً بطول الحصار ويكتب عمر وإليه عن بأس عدوّه ، وأنه أمده ، فلما طلب إليه مدداً جديداً خرج مع المدد حتى نزل الجابية بين بادية الشام وأرض الأردن ، وكان أبو عبيدة وخالد بن الوليد قد فرغا من إخضاع الشام ، فدعاها ليوافياها إلى الجابية حتى يتشاور معهما ومع غيرها من قواد المسلمين في أنجع الطرق للقضاء على مقاومة المدينة المحصورة .

وعرف أطربون وصفرنيوس مقدم عمر ، وعرفا ما نزل بالروم على أيدي أبي عبيدة وخالد من المصائب ، وقدرا أن المدينة لن تستطيع المقاومة طويلاً من بعد ، فانسحب أطربون مستخفياً في قوة من الجند إلى مصر ؛ فلما اطمان البطريق الشيخ إلى نجاته تولى مفاوضة المسلمين في تسليم المدينة . وإذ كان قد علم أن أمير المؤمنين بالجابية قد اشترط أن يأتي بنفسه ليكتب عهدها . وليس من الجابية وبيت المقدس ما يتعذر معه إجابة صفرنيوس إلى طلبه .

هذا ما أَرَجَّحَهُ ، وما يتفق وسياق التاريخ لوقائع الغزو بالشام وفلسطين . والرواية المشهورة لا تأباه ولا تُنكره مع أنها تخالفه في أن عمر إنما سار من المدينة بعد أن طلب أهل بيت المقدس الصالح ، مشترطين أن يتولاه الخليفة بنفسه . وأصحاب هذه الرواية يختلفون بينهم فيمن بعث بمطلب أهل إيلياء أن يقوم عمر بمصالحتهم أكان أبا عبيدة أم عمرو بن العاص ، كما يختلفون في السنة التي تم فيها فتح المدينة . ولست أناقش أقوالهم ابتغاء تمحيصها بعد ما رجحت ما يخالفها ، فحسبي أن أثبت هنا هذه الرواية المشهورة عن سير عمر من المدينة إلى إيلياء .

ومحل هذه الرواية أن عمر تناول كتاب قائده بالذهاب إلى فلسطين فقرأه على المسلمين بالمسجد واستشارهم فيه . ورأى عثمان بن عفان ألا يبرح عمر المدينة : « فأنت إن أقمت ولم تَسِرْ إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخفٌ ولقتالهم مستعدٌ ، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصَّغَارِ ويُعطوا الجزية » . وخالف علي بن أبي طالب رأى عثمان وأشار على عمر بالسير إلى إيلياء ، فقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المُقام . . . فإذا أنت قدِمْتَ عليهم كان لك وللمسلمين الأمانُ والعافية والصلاحُ والفتح . ولست آمن أن يياسوا منك ومن الصالح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم ، لا سيما وبيت المقدس معظمٌ عندهم وإليسه يحجَّون » . وآثر عمر رأى علي وأخذ به ، فاستخلفه على المدينة ، وأمر الناس بالتأهب للسير معه .

وسار عمر من المدينة حتى نزل الجابية<sup>(١)</sup> . وكان قد كتب إلى أمراء الأجناد

(١) يقول الطبري وابن الأثير وغيرهم إن عمر سار من المدينة إلى الجابية على فرس ، ويقول الواقدي ومن جرى مجراه : إنه سار على بعيره جعل عليه غرارنان في إحداها سويق وفي الأخرى تمر ، وبين يديه قرابة مملوءة ماء وخلقه جفنة لازاد . ومعه جماعة من الصحابة ، ولأنه كان يقرب لهم جفنة في الصباح فيأكلون معه ، ولأنه كان يعلم المسلمين الذين يمر بهم وينهاهم عما يخالف دينهم مما كانوا يقترونه على حمل . فلما أشرفوا على الشام رأوا خيلاً مقبلة عليهم بعث بها أبو عبيدة لتجيشه نبأ عمر ومقدمه . وأراد عمر دخول بيت المقدس وعليه مرقعة من صوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من آدم ، فقال له أصحابه : لو ركبت بدل بعيرك جواداً وليست ثياباً بيضاء ! ففعل وطرح على عاتقه منديلاً من كتان دفعه إليه أبو عبيدة . وقدم له بردون ركبه ، فلما رآه يهملج به نزل عنه وقال لأصحابه : أقبلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد أميركم يهلك بما دخل قاني من العجب والكبر ! . ثم نزع ما كان عليه وعاد إلى لبس مرقعته .

أن يوافوه بها ليوم سماء لهم ، وأن يستخلفوا على أعمالهم . فلما عرفوا مَقْدَمَهُ صاروا إليه يتقدمهم يزيد بن أبي سفيان ، ثم أبو عبيدة ، ثم خالد بن الوليد على الجند في عرض يأخذ بالنظر . وراهم عمر مقبلين عليهم الحرير والديباج ، فغلى الدم في عروقه لمرآهم ، فنزل عن فرسه وأخذ الحجارة ورماهم بها وصاح متضجاً : « سَرَعَ مَأْفِتَمَ عن رأبكم إياى تستقبلون في هذا الزىء ! وإنما شبعتم منذ سنتين ! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المسائتين لاستبدلتم بكم غيركم » . واعتذر أمراء الجند قائلين : « يا أمير المؤمنين إنها بِلَامِقَةٍ وإن علينا السلاح » . ورأى عمر سلاحهم نجف مرآه من ثورة غضبه فقال : « فنعم إذا » وركب حتى دخل الجابية وسار القوم في صحبته .

وبينا عمر معسكر بالجابية فزع الناس إلى السلاح إذ رأوا خيلاً مقبلة عليها الفرسان في أيديهم السيوف . فتبسم عمر لمرآهم وقال : مستأمنة ، لا تراعوا وأمنوهم . وكان هؤلاء رسل صفر نبوس أسقف بيت المقدس جاءوا يئتمون الصلح مع أمير المؤمنين . وصلحهم عمر على صلح دمشق ، بل على صلح أكثر منه سخاء ، وكتب معهم كتاباً أورد الطبرى نصه كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين

= وينسب ابن كثير إلى أبي الغالية الدمشقي وصفاً لهذه الزيارة يجرى بما نصه : « قدم عمر بن الخطاب الجالية عن طريق لميلاء على جبل أوردق ، تلوح صلته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب . وطاؤه كساء أنبجائى ذو صوف هو وطاؤه إذا ركب وفراشه إذا نزل حقيبته نمره أو شملة عمشوة ليفاً ، هى حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل . وعليه قبض من كرايس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال : ادعوا لى رأس القوم ، فدعوا له الجلوس فقال : اغسلوا قبضى وخيطوه وأعيدوني ثوباً أو قيصاً . فأنى بقبضى كتان . فقال : ما هذا ؟ قالوا كتان . قال : وما الكتان ؟ فأخبروه ، فنزع قبضه فنسل ورقع وأنى به فنزع قبضهم ولبس قبضه . فقال له الجلوس أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل . فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان هذا أعظم فى أعين الروم ! . فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً . فأنى برذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا . ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ! فأنى بجمله فركبه » .

ويضيف ابن كثير رواية عن طارق بن شهاب يقول : « لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه ( الموق : الحف ) فأمسكها بيده وخاذ الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض . صنعت كذا وكذا . فصك عمر فى صدره وقال : أو غيرك يقولها ياأبا عبيدة ! لأنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام . فها تطلبا العزة بغيره بذالكم الله ! » .

أهل إيليا من الأمان : أعطاهم الله أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانها وسقيهما وبريئتها وسائر ملتها؛ إنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا لا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطى أهل اللدائن . وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص . فن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويحلى بيهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيهم وصلبهم أن يبلغوا مأمنهم . ومن كان بهامن أهل الأرض فن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصّد حصادهم . وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . » . وختم عمر الكتاب بتوقيعه ، ثم أشهد عليه خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان .

رجع رسل صفريوس بالكتاب إلى بيت المقدس فاغتبط به الأسقف واغتبط به أهل المدينة جميعاً . وكيف لا يغتبطون وقد أقرم المسلمون وأمنوهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، لا يضار أحد منهم بسبب دينه ، ولا يُكره على شيء في أمره ! وكيف لا يغتبطون وقد أباح هذا العهد لمن شاء من أهل المدينة أن يرحل عنها مع الروم ، وأباح لمن شاء من الروم ومن الأجانب المقيمين بالمدينة أن يظلوا بها آمنين ، ثم لم يفرض عليهم غير الجزية يؤدونها لقاء منعهم وكفالة أمنهم ! ابن هذا مما كان يريد قتل أن يُكره أهل المدينة عليه من ترك مذهبهم إلى مذهب الدولة الرسمي فن أبي جُدع أنفه ، وصُلبت أذناه ، وهُدِم بيته ! ألا أن هذا الصلح لعهد جديد فتح الله به على النصراري من أهل بيت المقدس . وهو عهد لم يتهياً لهم في التاريخ ولم يكن لهم رجاء قط في مثله .

وترامت أنباء هذا الصلح إلى أهل الرملة ، فتناولت أعناقهم يريدون أن يعقدوا مع أمير المؤمنين صلحاً مثله . وكذلك كان شأن غيرهم من أهل فلسطين . وقد ظفر أهل

اللذ من عمر بكتاب جرى عليهم وعلى البلاد التي دخلت من بعد معهم فيه . وفي هذا الكتاب أعطى عمر أهل اللد أماناً على أنفسهم وأموالهم وكفأسهم وصلبهم وسقيهم وبريئهم وسائر متهمهم ، وألا يُكْرَهُوا على دينهم ، ولا يضارَ أحد منهم ، على أن يُعطوا من الجزية ما يعطى أهل مدائن الشام . ولما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله أقام على فلسطين رجلين جعل لكل منهما نصفها ؛ فلعلقمة بن حكيم الرملة وما معها ، ولعلقمة ابن مُجَزَّز إيلياء وما معها .

أثم عمر صلح فلسطين فصرف أبا عبيدة وخالداً ومن جاء معهما من شمال الشام كلاً إلى عمله<sup>(١)</sup> . ثم إنه أراد الذهاب إلى بيت المقدس مستصحباً عمرو بن العاص وشُرْحَبِيل بن حسنة ، فوجد فرسه لا يزال يتوحى ، فحجى ببردون فركبه . فلما سار جعل البردون يتخلج به وتصلصل جلاله ، فسكروه عمر ذلك منه ، فنزل عنه وضرب وجهه بردائه وقال : « قَبِحَ اللهُ من علمك هذا من الخيلاء ! » ، ولم يركب بردوناً قبله ولا بعده . وأقام أياماً حَمَّ أثناءها فرسه فركبه ودخل بيت المقدس . وتلقاه البطريق صفريئوس وكبراء المدينة فتلطّف بهم وأدناهم ، وتحدث إليهم حديثاً أدخل في قلوبهم . فقد رأوا منه الصدق فيما أعطاهم من أمان على أنفسهم وعقائدهم ومعابدهم ، ورأوا منه حبا للحق والعدل أين منه ما كان في عهد قيصر من بطش واضطهاد ! وأمسى الوقت وانصرف القوم على أن يلقوه صباح الغد . فلما خلا عمر بنفسه صلى شكراً لله على ما أنعم به عليه .

وأية نعمة أكبر من أن يكون فاتح المسجد الأقصى وخليفة رسول الله في الصلاة به ! لقد أنعم الله على عبده ورسوله فأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي برك حوله ليبريه من آياته . فلما بلغ صلى الله عليه وسلم بيت المقدس صلى على أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وعيسى وموسى . ومن يوم تمت هذه المعجزة بإذن الله لم يذهب رسول الله إلى فلسطين ولم يرد المسجد الأقصى . وخلفه أبو بكر فلم يجعل الله من حظه أن يردّه . وقد أوتى عمر هذا الحظ ؛ فتحت له بيت المقدس أبوابها ، واستقبلته

(١) تنهّب بعض الروايات إلى أنهما دخلا معه ببيت المقدس ، ثم انصرفا إلى عملهما حين سار عمر عائداً إلى المدينة . وروايتنا هنا هي المشهورة .

استقبال الظافر المحبوب لعدله وتسامحه وحرصه على ألا يُكره أحد في دينه . وبيت المقدس هي من بعد أول قبيلة المسلمين ، وهي للنصارى مكان قبر المسيح ، ولليهود أرض المعاد . أفنعمه أكبر من هذه النعمة يشكر عمر ربه عليها ! فإذا أقام الليل بطوله مصلياً ، فلن يقضى إلا بعض ما عليه من حق . وَإِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أَعْفُوٌّ رَحِيمٌ .

أصبح عمر نجاء إليه صفر نيقوس فسار معه خلال المدينة يريه آثارها ومواضع الحج منها . وكم بيت المقدس من آثار ! فهو بلد الرسل والأنبياء : إليه سار كل من خرج من مصر ومعه بنو إسرائيل ؛ وبه كانت قصة صلب المسيح ، وتقوم لذلك فيه كنيسة القيامة ، يذكر المسيحيون أن جثمانه دُفِنَ بها ثم رفع إلى السماء منها ، وبه من آثار الأنبياء محراب داود وصخرة يعقوب ، وهي الصخرة التي تذكر كتب السيرة أن رسول الله صعد منها في المعراج . هذا إلى أطلال هيكل سايمان التي بقيت تذكر ملكاً عظيماً وأنبياء عدة . ولقد قام الكثير من هذه الآثار على أطلال معابد وثنية شادها حكام فلسطين من قبل رومية ، وشاد مثلها قباهم حكام فلسطين من قبل مصر ، ولعل صفر نيقوس لم يَضَنَّ على عمر فذكر له ما كان معروفاً من قصص هذه المعابد ، وهو كثير . وبينما الرجلان بكنيسة القيامة أدرك عمر موعد الصلاة ، فطاب البطريق إليه أن يصلي بها فهي من مساجد الله . واعتذر عمر بأنه إن يفعل يتبعه المسلمون على تعاقب القرون ؟ إذ يرون عمله سنة مستحبة ، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم وخالفوا عهد الأمان . واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة ، وكانوا قد مدّوا له عند بابها بساطاً يصلي عليه <sup>(١)</sup> . وإما صلى في مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل . وفي هذا المكان شيّد المسلمون من بعد مسجداً فخماً ، هو المسجد الأقصى . أما في عهد عمر فقد كان هذا المسجد ساذج البناء كمسجد النبي بالمدينة يوم أُقيم .

يذهب بعض المستشرقين إلى أن عمر إنما اعتذر عن الصلاة بكنيسة القيامة لما كان

(١) تجرى رواية بأنه صلى على عتبة كنيسة قسطنطين ، ثم أعطى عهداً للنصارى ألا يصلي المسلمون على عتبات الكنائس .



بها من صور وتمائيل ، وأنه أبدى العذر الذي ذكرناه سترأ للسبب الحق ، وحرصاً على ألا يجرح شعور البطريق الشيخ . وهذا تفسير غير صحيح لحادث تاريخي جليل الخطر في علاقة أهل الأديان المختلفة بعضهم ببعض في مختلف بقاع الأرض . ومما يشهد بعدم صحته أن عمر زار كنيسة المهد بيت لحم مع صغرنينوس بعد زيارته كنيسة القيامة ، فلما أدركه موعد الصلاة صلى بها ، وفيها من التماثيل والصور والصلبان ما بكنيسة القيامة بل ما يزيد عليه . ثم إنه خشى أن يتخذ المسلمون صلاته بها سنةً فيُخرجون منها أصحابها . فكتب للبطريق عهداً خاصاً يجعل هذه الكنيسة للنصارى ، وألا يدخلها من المسلمين أكثر من شخص واحد في المرة . هذا ، وقد رأينا سعد بن أبي وقاص اتخذ إيوان كسرى مصلىً للمسلمين ولم يحرِّك ما به من التماثيل ، وكان في مقدوره أن يزيلها بعد أن فتح اللدائن وأصبح صاحب الإيوان . وما كان لعمر أن يتحرَّج من الصلاة في الكنيسة وبها من الصور والتماثيل ما بها ، وكان رسول الله قبل هجرته إلى يثرب يصلى عند الكعبة وبها من الأصنام والأوثان ما لم يصدّه أو يصدّ مسلماً عن الصلاة عندها . ولقد جاء إلى مكة بعد سبع سنوات من هجرته ومعه ألفان من المسلمين لعمرة القضاء ، فطاف بالبيت والأصنام لا تزال تعمره . وعلا بلال سقف الكعبة وأذن لصلاة الظهر ، وصلى محمد وصلى الألفان معه عندها صلاة الإسلام . وما كان لحمد والذين اتبعوه ألا يصلوا بمكان فيه صور أو تماثيل ، والإسلام إيمان بالله ، والأعمال فيه بالنيات ، فمن صدق إيمانه وخلص لله وجهه فأينما ولى قَمَّ وجه الله . وإنما حطم محمد الأوثان والأصنام حول الكعبة وفي جوفها يوم فتح مكة حتى يكون بيت الله حراماً على كل دين إلا على الدين الذي أوحاه الله إلى نبيه بينات من الهدى والفرقان ، كي لا تُدَكَّر هذه الأصنام والأوثان أحداً بجاهليته فيثور في نفسه إليها حنين . أما الذين صفت قلوبهم لله وتطهرت نفوسهم من كل عبادة إلا عبادته جلّ شأنه فأولئك لا خوف عليهم أينما صلّوا ، وأولئك يرون وجه الله في كل خلقه ، ثناؤه وتباركت أسماؤه .

وكان اعتذار عمر عن الصلاة بكنيسة القيامة حادثاً جليلاً الخطر في تاريخ الأديان وعلاقة أهلها بعضهم ببعض في مختلف بقاع الأرض ؛ فهو يصوّر تسامح الإسلام وصدق

عمر في تمسكه بأن لا إكراه في الدين ، وبصور سياسة المسلمين لذلك العهد وقيامها على أساس من حرية العقيدة ، وأن الدعوة إلى سبيل الله إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالجدالة التي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم .

عجب أن يحدث ذلك على يد الفاروق في بيت المقدس لأكثر من ثلاثمائة وألف سنة خلت ، ثم يظل بيت المقدس مدار الحروب التي اتصلت من بعد الأجيال والقرون ، ويبقى إلى عصرنا الحاضر مثاراً للنصرة الدينية والتعصب المذهبي في شتى أرجاء العالم ، وموضع النزاع المستمر بين النصارى واليهود والمسلمين . ولو أن الملوك والساسة من أهل الأمم المختلفة أدركوا ما أدركه عمر في ذلك العهد ، ورأوا مثله أن لا إكراه في الدين ، وجعلوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولم يزعموا لأنفسهم حقاً على فلسطين باسم أرض المعاد أو هيكل سليمان ، إذا لاستراح العالم من عناء يقاسيه في شتى أرجائه ، لا تخلو منه قارة من القارات ولا أمة من الأمم . قد يجيبك منصف بحق : ومتى أراد الناس أن يستريحوا ؟ وهل لهم في غير المنازعات وسيلة إلى الجاه والمجد والرخاء ؟ أليس تاريخ العالم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب أثارها الأهواء باسم الدين تارة ، وباسم حرية العقيدة أخرى ، والدين وحرية العقيدة مما يزعمون براء ، وإنما يتخذان تعليلاً لتسويغ الحروب إطفاء لشهوات وأهواء لا يعينها من الدين ولا من حرية العقيدة إلا أن تتحقق ! وهذا جواب حق ، وهو يدل على أن ضمير الإنسانية ما يزال في طفولته ، وأن تعاليم الأنبياء والرسول والفلاسفة والحكماء لما تثمر في نفس الإنسانية الأثر الذي أرادته أحبابها .

أما شأن عمر في معاملة المسيحيين ما قدمت فلا حاجة بي إلى إدحاض ما زعم بعضهم من أنه أثبت في صلح بيت المقدس عهداً على النصارى ألا يمنعوا المسلمين من دخول كنائسهم في الليل أو في النهار ، وألا يتحدثوا عن دينهم أو يحاولوا إقناع غيرهم باعتناقهم ، وألا يلبسوا لباس المسلمين ولا يتزينوا بزيتهم ، وألا يتكلموا العربية لغة الفاتحين ولا يتسموا بأسمائهم ، وألا يركبوا الخيل ولا يحملوا السلاح ، وأن يقفوا إذا مرّ بهم مسلم ، فإذا أقبل عليهم ظلوا وقواً حتى يجلس ، وألا يبيعوا الخمر ولا يرفعوا على كنائسهم صليباً ولا يدقوا أجراسها ، وألا يتخذوا خادماً كان في خدمة مسلم . فلا شيء

من هذا أو من مثله يتفق وموقف عمر بكنيسة القيامة وكنيسة المهد ، ولا شئ من مثله يتفق وما أبداه صفر نيبوس وأهل إبلياء جميعاً من الغبطة لصالح عمر . وموقفه بالكنيستين واستقبال البطريق وكبراء المدينة له وإقبالهم عليه قد فصله المؤرخون المسيحيون الأولون ولم يرد في كتب المتقدمين من مؤرخي العرب عنه شئ يذكر . وإنما ينسب هذه الأمور إلى عمر دعاءهم الذين دفعوا الصليبيين لغزو فلسطين . ودعايتهم ذات الهوى تضيف إلى الفاروق عن عمد كل ما حدث . وفي العصور المتأخرة عنه ، من مساوىء الحكم أو مظاهر التعصب . وقد أدت عوامل التدهور التي دبت من بعد في كيان المملكة الإسلامية إلى مساوىء في الحكم . وقد كان بين المسلمين ومن انتسبوا إليهم في ذلك العهد التأخر متعصبون ودعاة إلى التعصب . لكن عمر كان بريئاً من هذا كله ، وكان سامياً عليه غاية السمو . وما حاجته إليه وقد فتح الله له كل أبواب العالم ، وقد كان الكثيرون يدخلون في الإسلام أفواجاً غير مكرهين ولا مضطهدين ، وكانت جيوش الإمبراطوريتين الفارسية والرومية لا يثبت لجيوشه ولا تملك أمامها إلا الهزيمة والفرار . فلو أن عمر لم يكن السياسي الخنثى البعيد النظر لهدته مع ذلك فطرته إلى أن يُحسن معاملة أولئك الذين تفتّح له أبواب مدنها ويسلمونه مقابلد أمورهم . ما بالك به وقد كان ملهماً في السياسة ، فلم يكن الظفر يُنسيه الحذر أو يدفعه إلى التعاطف والبطر ، ولم يكن الحزم ينسيه أن العدل والرحمة أبلغ أثراً في نفوس الأمم المحكومة ما ظلت ساكنة إليهما ، فلم تدفعها النعرة إلا ما يوجب البطش والجبروت . ولذا أجمع المنصفون من المؤرخين المسيحيين على الإشادة بعدل عمر وتسامحه ورقفه ، وعلى إكبار موقفه بيت المقدس واعتداله في الصالح مع أهله .

ولم يغير من إجماع هؤلاء المنصفين ماروى من أن عمر قام يوماً يخطب المسلمين بيت المقدس ، فذكر في خطبته قوله تعالى : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وُليّاً مُرْشِداً » ؛ فقام قس<sup>١</sup> من النصارى كان حاضراً فقال : إن الله لا يضلُّ أحداً ، فلما كررها قال عمر لمن حوله : « انظروا إن عاد إلى قوله فاضربوا عنقه » فأمسك القس لهذا النذير . وليس يرجع بقاء المنصفين على إجماعهم إلى أن هذه الرواية لا تعتمد على سند ثابت بمقدار ما يرجع إلى أنها إن سحت لم تطعن على تسامح عمر وعدله . فلم يكن

عمر ساعته في موقف جدل مذهبي مع هذا القس ، وإنما كان موقف الخطيب يذكر المسلمين بما يؤمنون به ولا يمارون فيه ؛ فتدخل هذا القس بالمقاطعة وتكريره لها إخلال بالنظام يدعو إلى الظن بأن مفترفه أراد أن يفسد على أمير المؤمنين موقفه . لذلك لم يزد عمر على النذير . فلما أمسك القس ولم يعض في المقاطعة مضى هو في خطابه حتى آتمه ، ثم صلى بالمسلمين ولم ينل القس بسوء .

ولو صح ما روى عن هذا القس لآخذناه حجة جديدة على ما كان لتعدد المذاهب والفرق المسيحية في ذلك العهد من أثر في الحياة العامة ؛ فلم يفضب أحد من المسيحيين لنذير عمر ولم يجد فيه مظهر تعصب أو اضطهاد ؛ ذلك لأن تعدد المذاهب أدى بأصحابها إلى التقاطع ، وجعلهم يرون في مقاطعة القس مخالفة لآداب اللياقة لا يوجبها التعصب لعقيدة مقررة . أما المسلمون يتسامحون من أصحاب المذاهب جميعاً فيسوّون التعصب بينهم ولا يجادلونهم في مقرراتهم ، فقد استحق القس نذير عمر ، ولم يكن لأحد أن يعترضه أو يثور بسببه .

على أن تسامح عمر لم يكن معناه أن يدع بيت المقدس للمسيحيين ، وألا يكون للمسلمين حظهم الديني منه ؛ فبيت المقدس قبلة للمسلمين الأولى ، وإلى مسجده الأقصى أسرى الله بعبده : ففقدسيته عند عمر لم تكن دون قدسيته عند النصارى . هذا إلى أن المسلمين لم يكونوا ينزلون بلداً حتى يقيموا لهم مسجداً به . وقد ذكرنا أن عمر اعتذر لصفريئوس عن الصلاة بكنيسة القيامة . وأنه صلى بمكان قريب من صخرة يعقوب على أطلال الهيكل . وفي هذا المكان أقيم مسجده ساذج البناء كمسجد النبي بالمدينة يوم أقيم . ذكر ابن كثير أن عمر استشار كعب الأحمري في أي مكان يصلي ، وكان كعب الأحمري يهودياً فأسلم ، فقال له : إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة وكانت القدس كلها بين يديك . فقال عمر : ضاهيت اليهودية ، لا ! ولكن أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية الطبري أن عمر سأل كعباً : أين ترى أن نجعل المصلي ؟ قال كعب : إلى الصخرة . وأجابه عمر : ضاهيت والله اليهودية يا كعب ! وقد رأيتك وخلعتك نعمايك ! بل يجعل قلبه صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها .

إننا لم نؤمر بالصخرة ، ولكن أمرنا بالكعبة . وجعل قبلة المسجد صدره متجهاً إلى الكعبة غير متجه إلى الصخرة .

وإنما صرف عمر القبلة إلى الكعبة ولم يجعل الصخرة دونها لأن الكعبة قبلة المسلمين في كتاب الله ، ثم لم يصرفه ذلك عن إعظام الصخرة ، فهي موضع الإسراء في حديث رسول الله . ولقد بلغ من إعظامه لها أنه رأى عليها كناسة كان الروم يلقونها فوقها ، فقال لأصحابه : اصنعوا كما صنع ، ثم جثا في أصلها وجعل يحمل ما عليها بنفسه فيلقيه بعيداً عنها . وصنع أصحابه صنيعه ، وما زالوا بالصخرة حتى زال كل ما عليها . وقد بقيت الصخرة محاطة برعاية المسلمين من يومئذ إلى أن أقام عبد الملك بن مروان عليها قبة بالغ في العناية بعمارها ، فشاها على نحو جعلها أروع آية في البناء ، حتى لقد بذت بها عمارته المسجد الأقصى والمسجد الحرام ، بل بذت بها كل ما بناه من المساجد . وكان عبد الملك قد شغف بالعمارة البيزنطية لقماته بدمشق بين كنائس النصارى وآثارهم ؛ ولذلك كانت المساجد التي شاداها تأخذ بالقلوب والأبصار .

ثم لعمر ما أراد من زيارة بيت المقدس فعادت أدراجه إلى المدينة متخذاً إليها الطريق الذي جاء منه . فلما كان بالجابية أقام أياماً ثم غادرها على فرسه . وكانت أنباء ما صنع بفلسطين قد بلغت علياً والمسلمين ، فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالا حافلا . وكيف لا يفعلون وقد خلصت لهم الشام كما خلصت لهم العراق ! وكيف لا يفعلون وعمر أول من قام بمثل هذه الرحلة من يوم بعث الله رسوله يبلغ الناس في ربوع الأرض دينه ! !

ترى ، أيظمن عمر لما فتح الله عليه فينظم حكمه ويمرزه وحدته ؟ كان ذلك رجاءه ؛ ولذلك ودّ لو أن بينه وبين الفرس جبلا من نار فلا يخلصون إليه ولا يخلص إليه ، وودّ لو أن بينه وبين الروم سداً يصرفهم عنه ويصرفه عنهم . لكن مشيئة القدر كانت أقوى من مشيئته . وقد كتب القدر في لوحه أن يقضى خالد وأبو عبيدة على كل انتقام بالشام ، وأن يفتح عمر بعد ذلك من الممالك ما شاء الله أن يفتحه . فلندع أمير المؤمنين بالمدينة يدبّر أمره ويحكم تدبيره ، ولنعد إلى الشام لنرى ما الله صانع به !

## الفصل الثالث عشر

### مصير خالد بعد إخضاع الشام

عاد أبو عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان من بيت المقدس كلٌّ إلى عمله، فأقام يزيد بدمشق، ونزل أبو عبيدة حمص، واستقل خالد بإمارة قنسرين. وجعل كل واحد منهم يدبّر الأمر في ولايته بحزم يلبّط الرفق من حدته، وعذّل تجرّى الرحمة في مسالكه، وقد أمّنوا نُجاءات العدو بعد أن لحقته الهزيمة في كل مكان، وبعد أن دانت الشام للمسلمين من أقصى الجنوب بفلسطين إلى أقصى الشمال في سورية.

وعلى أن أهل الجزيرة القيمين بين العراق والشام، والذين دهم رجال سعد بن أبي وقاص من قبل منازل إخوانهم بهيت وتكريت والموصل وقرقيسيا، لم تهدأ نفوسهم بعد الذي نزل بإخوانهم، بل رأوا مساكنهم معرضة لغزو المسلمين إذا ظل هؤلاء يسرون بالشام سيرتهم بالعراق؛ يفتحون المدن ويخضعون القبائل، ويفرضون الجزية على من لم يدخل في الإسلام. وكانوا قد يئسوا من يزدجرد بعد فراره إلى الرّبيّ. لذلك كتبوا إلى هرقل أنهم معدّون لمعاونته إذا بعث من البحر جنداً يقاتل المسلمين ويسترد منهم ما استولوا عليه. ونظر هرقل في الأمر فرأى أنه لن يصاب بشرّ مما نزل به، فإن يبسم له الحظ فينتصر بهؤلاء الخلفاء على عدوه، ويقهر المسلمين في شمال الشام، استطاعت جيوشه أن تلاحقهم إلى دمشق وإلى بيت المقدس؛ ويومئذ تكون المعجزة، فيسترد قبر المسيح من العرب كما استرده من الفرس، ثم يسير إليه مجتازاً سورية ومعه الصليب الأعظم يعيده إلى مكانه كما فعل قبل عشر سنين. ألا لئن تم ذلك ليكون للصليب فيه من الفضل مثل ما كان له في عهد قسطنطين، ولينصرن الله المسيحية على يديه نصرأ تعزبه على كل دين!.

وأعاد أهل الجزيرة الكتابة إلى هرقل، فرأى منهم عزماً لا يلين، ورأى أكثرهم من العرب النصارى الذين استمسكوا بدينهم وآثروا الجهاد في سبيله. وكان هرقل قد زايله الروع إذ قضى أكثر من سنة بعيداً عن ميادين القتال بالشام. ثم إنه رأى ثغوره ما يزال

الكثير منها حصيناً يقاوم هجمات المسلمين ، ورأى أسطوله لم يصب بأذى ، ورأى المسلمين يخافون البحر وكل ما يأتي من ناحيته ، فقوى ذلك من عزمه ومال به إلى إجابة أهل الجزيرة لما يطلبون . صحيح أن تخوم المسلمين في شمال الشام حصينة فلا ييسر اقتحامها عليهم . لكن هؤلاء العرب النصارى كفيلون بأن يقضوا مضجع خالد وأبا عبيدة إذا جاءهم من قبل البادية . فإذا سار مدده من البحر في الوقت نفسه وعرف المسلمون أنهم يهاجمون من الشرق والغرب فت ذلك في أعضادهم ، وأثار أهل الشام بهم ، وأتاح له فرصة التآمر منهم .

وكتب هرقل إلى هذه القبائل يشجعهم ويحرضهم ، ويدكر لهم أنه أمر سفته فهي تمخر البحر تجعل الرجال والعتاد من الإسكندرية إلى أنطاكية . وسارت هذه القبائل بكل قواتها من الجزيرة تريد حمص . وبلغت أبا عبيدة أنباء ذلك كله ، فدعا إليه خالد ابن الوليد من قنسرين يشاوره . واستقر رأي الرجلين على أن تجتمع قوات المسلمين بشمال الشام لمواجهة العدو ، فجمعا بمحص جند أنطاكية وحماة وحلب وسائر المسالخ القريبة منها . وترامت إلى هذه البلاد أنباء هرقل ومدده المقبل من البحر ، وأنباء الجزيرة وسير قبائلها إلى حمص ، فتناولت أعناق أهلها وذهبوا ينساء لون : عم تسفر هذه الحملة الجديدة التي يقوم بها قيصر وحلفاؤه ؟ فلما أقبلت سفن هرقل إلى أنطاكية فتحت المدينة أبوابها لجنوده وثارت بالمسلمين ، واندلع كلب الثورة في شمال الشام كله . وألقى أبو عبيدة نفسه محصوراً في حمص يُحيط به الثائرون من كل جانب ، ويسير أعداؤه لهاجمته مقبلين من ناحية البحر ومن ناحية البادية . ماذا عساه يصنع ؟ جمع أصحابه وذكر لهم أنه كتب إلى أمير المؤمنين يستمدد لمواجهة هذا الموقف الدقيق ، واستشارهم في مواجهة العدو وقتاله أو التحصن في انتظار المدد المقبل من المدينة . وانفرد خالد بن الوليد في المشورة بمناجزة العدو ؛ أما سائر الأمراء فرأوا التحصن واستعجال المدد . ورأى أبو عبيدة رأيهم وخالف خالداً ، فزاد في مناعة الحصون ، وكتب إلى عمر بما رآه أصحابه .

لم ينسَ عمر يوماً أن جنده بالعراق والشام قد يتعرض لمثل هذا الخطر ، فيتعرض الفتح الإسلامي كله لمثل ما تعرض له يوم تولى إمارة المؤمنين . لهذا أمر بإنشاء البصرة

والسكوفة وجعلهما مسالح للمسلمين لا يقيم بهما غيرهم ، ثم جعل في كل مصر من ستة أمصار أخرى أربعة آلاف فارس على تمام الأهبة لمثل هذه المفاجآت . فلما جاءه كتاب أبي عبيدة ورأى الخطر العظيم المحيط به ، كتب في التوّة إلى سعد بن أبي وقاص : « أن اندب الناس مع القمقاع بن عمرو ، وسرّخهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابي إلى حمص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به . وتقدّم إليهم في الجِد والحِدّة » . ونفذ سعد أمر الخليفة ليومه ، فندب القمقاع في أربعة آلاف من الفرسان الجريين فانطلقوا يفتنون السير من السكوفة إلى حمص .

كان الأمر أخطر من أن يكفي لمواجهته سير القمقاع على رأس أربعة آلاف ؛ فقد بلغ عدد الذين ساروا من الجزيرة إلى حمص ثلاثين ألفاً : غير منْ بهمهم هرقل على السفن إلى أنطاكية . وكان عمر يعلم أن رجاله في كل بلد من بلاد الشام قد شغلوا بأهله ، فلو أنهم تركوا هذه البلاد إلى حمص لاضطرب النظام في الشام كله . لذلك أردف أمره بسير القمقاع من السكوفة بأوامر أخرى كلها حسن التفكير وبعد النظر . فإما أغرى القبائل التي سارت من الجزيرة إلى حمص بما صنعت ما خيّل إليها من بُعد منازلها عن المسلمين وغزومهم . فلو أن هذه المنازل غزيت لارتدت هذه القبائل على أعقابها ، ولخفف ذلك عن أبي عبيدة وجنوده . فليسرّح سعد بن أبي وقاص سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند ، « فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص » ، ولتكن الرقة مقصد سهيل ، وليسرّح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، فإذا أخضع هذان الأميران الرقة ونصيبين ، فليسيروا إلى حرّان والرّهاء ، وليسرّح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتبوع ، ولتكن لعياض بن غنم إمارة الجند كله في حرب الجزيرة . فإذا سار هؤلاء الأمراء جميعاً ذكر أهل الجزيرة ما أصاب أهل هيت وقرقيساء والموصل فلم يقاوموا . لم يكتف عمر بهذا كله ؛ فقد قدر أن هرقل لم يندفع إلى المغامرة بإرسال جنوده على متن البحر إلى الشام بعد الذى أصابه من الهزائم فيه إلا لأنه استوثق من قوته ، واطمأن إلى قدرته على الثأر لنفسه . ولا أدل على ذلك من أنه جعل ابنه قسطنطين على رأس الجيوش التي نقلتها السفن من الإسكندرية . ولو أن هرقل نجح في هذه



المغامرة لقضى ذلك على سياسة عمر أيما قضاء . ولن يرضى عمر تصور هذا الاحتمال ، ولن يألو جهداً في إفساده . لا بد إذاً من تعبئة كل قوة يستطيع تعبئتها لمواجهة هذا الخطر الداهم ، بل لا بد أن يواجهه هو بنفسه ؛ لذلك حشد ما استطاع من قوات المدينة وما حولها وسار هو على رأسها متخذاً طريق دمشق إلى ميدان القتال .

وكذلك تحركت الإمبراطورية الناشئة من شتى أرجائها للدفاع عن كياناتها . سار القعقاع بأسرع ما يستطيع غيائاً لأبي عبيدة ، وأنطلق سهيل بن عدى وعبد الله بن عتبان والوليد بن عقبة وعياض بن غنم لغزو الجزيرة وتأديب أهلها ، وفصل عمر من المدينة قاصداً حصص . ودوت هذه الأنباء في العراق والشام كما دوت في شبه الجزيرة ، وبلغت أبا عبيدة وأصحابه كما بلغت قبل الجزيرة الذين جاءوا لحصاره . واطمأن أبو عبيدة لما بلغه . أما القبائل فأيقنت أن منازلها بالجزيرة لن تُرعى لها حرمة بعد الذي صنعت ، وأنه مصيبتها ما أصاب الموصل وهيت وقرقيسياً من قبل ، فالتحلت منها القلوب وآثرت الرجعة من حيث أنت ، لعل في رجعتها بعض ما يكفر عن ذنبها .

وأصبح أبو عبيدة يوماً فعمل أن القبائل تفرق أهلها مرتدين إلى بلادهم وذويهم ، وأنه لم يبق بإزائه إلا الروم جند هرقل فدعا إليه أمراء جنده وذكر لهم أنه يرى منافزة القوم . واغتنب خالد بن الوليد ، وأشار بمفاجأتهم قبل أن يأخذوا الموقف الجديد عدته . وظن الروم حين رأوا القبائل تتخلى عنهم ، ورأوا المسلمين يخرجون من حصون حصص للقائهم ، أن في الأمر مكيدة ذُبرت لهم فتولت لهم الحيرة . وهاجمهم أبو عبيدة فلم تمنعهم حيرتهم من الشدة في لقائه شدة تشهد بأنهم أعدوا لهذا اللقاء ما استطاعوا من قوة . فلولاً انصرف القبائل عنهم لكان لهم من البأس ما يسوغ مخاوف أبي عبيدة ومخاوف عمر . لكن حيرتهم أضعفت مقاومتهم وانتهت بهم إلى الهزيمة ، وفروا قبل أن يبلغ القعقاع بن عمرو حصص ، وقبل أن يبلغ عمر الجابية<sup>(١)</sup> في طريقه إلى الشام . فلما بلغها ألقى رسول أبي عبيدة بها يذكر له انتصارهم قبل ثلاثة أيام من وصول القعقاع إليهم ، ويستشيرهم في الفئ وهل يكون لرجال القعقاع نصيب منه . واطمأن عمر ولم ير بعد الذي بلغه

(١) قيل في رواية يرجعها ابن كثير أن عمر لما بلغ سرغ .

أن يتابع مسيرته ، فكتب إلى أمين الأمة كي يُشرك أهل الكوفة في العطاء ؛ فسيرهم لنجدته هو الذي أدخل الرعب إلى قلب عدوه فأدى ذلك إلى هزيمته ، « وجرى الله أهل الكوفة خيراً ، يحمون حوزتهم ويُمدّون أهل الأمصار » ، ثم تحمّل راجعاً إلى المدينة . ترى هل انسحبت جنود هرقل إلى قنّسرين أو حماة أو غيرها من البلاد التي اندلع فيها لهيب الثورة لينظّموا بها صفوفهم للمقاومة ، أم تعقبهم المسلمون فقصوا عليهم ؟ وماذا فعل الثوار بحلب وأنطاكية والمعاقل المنيعة حين بلغهم انتصار المسلمين بمحص ؟ لا يذكر المؤرخون عن ذلك شيئاً يصح الوقوف عنده . وأغلب الظن أن فول الروم التي نجت من الموت طارت إلى السفن بأنطاكية فأقلعت بهم في البحر إلى الإسكندرية أو إلى برنطية وقد تولاهم وتولى قيصر اليأس أن يعودوا إلى الشام أبداً . ولم يلبث الثائرون حين عرفوا إقلاع السفن بالجندل أن هدأت ثورتهم ، فعاد خالد بن الوليد إلى قنّسرين ، وعاد كل أمير في شمال الشام إلى إمارته ، مطمئنين جميعاً إلى أن الأمور سكنت إلى قرار لن يكدر صفوه من بعد مكدر .

على أن مقام خالد بقنّسرين لم يطل ؛ فقد سارت القوات التي فصلت من العراق بظلمها لواء سهيل بن عدى وعبد الله بن عتيبان والوليد بن عقبة بإمرة عياض بن غنم لغزو الجزيرة وتأديب أهلها . فلما بلغت منازل القبائل التي آزت هرقل كانت هذه القبائل قد بدأت تنصرف مرتدة عن حمص . وكان سهيل بن عدى قد سلك بجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى الرقة ، فتحصن أهلها منه فحاصرهم ، فقالوا فيما بينهم : « أتم بين أهل العراق وأهل الشام ، فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء ا » . وبعثوا إلى عياض بن غنم بواسطة يريدون الصلح . وعقد لهم سهيل بن عدى الصلح عن أمر عياض لأنه أمير القتال وجعلهم من أهل الدمة . أما عبد الله بن عتيبان فسلك على دجلة حتى انتهى إلى الموصل ، ومن ثم عبر النهر وسار إلى نصيبين<sup>(١)</sup> ، فلقبه أهلها بالصلح ففقدته لم على صلح أهل الرقة . وقدّم الوليد بن عقبة على بني تغلب وعرب الجزيرة فصووا إليه إلا بني إباد فإنهم ارتحلوا

(١) نصيبين هي الآن ديار بكر . ويذهب كوسان درسفال إلى أن هيت وقرقيساء والموصل أخضعت في هذه الغزوات . ورواية المؤرخين الثقات جميعاً أن هذه البلاد أخضعت من قبل على ما ذكرنا .

إلى أرض الروم . وكتب الوليد إلى عمر بالمدينة يُخبره بما صنعوا وأقام ينتظر جوابه في أمرهم . ثم إن عياضاً ضم إليه سهيلاً وعبد الله بن عتبان وسار في الناس إلى حرّان ، فأخذ مادونها ، حتى إذا انتهى إليها تلقاه أهلها بالإجابة إلى الصلح والجزية ، فأجرام بحرى أهل الذمة . وكذلك فعل أهل الرّهاء حين سار إليهم سهيل بن عدى . بدأ دخلت الجزيرة كلها في حكم المسلمين ، فكانت أسهل البلاد وأيسرها فتحاً ؛ وبفتحتها التقى سلطان المسلمين بالعراق والشام .

ومن عجب أن يكون ذلك شأن القبائل التي كاتبت هرقل ووعدته بتأييدها وإنما عذرنا أنها رأت الروم يفرون أمام عدوهم ، فأبقت أن هؤلاء المسلمين قد صُنِعَ لهم فلا سبيل إلى مقاومتهم ، وانخير كل الخير في مصالحتهم . وإن المؤرخين البرنطيين ليدكرون أن حاكم الرهاء صالح عياضاً على أن يدفع له مائة ألف ذهباً يتقى بها غزو المسلمين ولايته وأن هرقل رفض صنيعه وعزله عن عمله ، فلم يَنْفُذْ لقيصر أمره بعد أن زال سلطانه عن هذه الأرجاء وصار كل أمرها للمسلمين . وكيف ينفذ له أمر وقد صار لا يستطيع أن يرفض لأمر المؤمنين مطالباً، لأنه لا يستطيع أن يؤيد رفضه بالقوة التي تدعمه وتعززه .

لما كتب الوليد بن عُقبَةَ إلى عمر يذكر له أن عرب الجزيرة نهضوا معه إلا بنى إباد فإنهم ارتحلوا إلى أرض الروم ، كتب عمر إلى هرقل يقول : « إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتُخْرِجَنَّهُ أو لتَنْبِذَنَّهُ إلى النصارى ثم لنخرجنهم إليك » . ولم يجد هرقل بداً من النزول على ما أراد عمر فأخرج إباداً من أرضه ؛ فماد أربعة آلاف منهم إلى منازلهم حتى خضعت لسلطان المسلمين ، وتفرق سائرهم فيما بين الشام والجزيرة من بلاد الروم ، وإنما كتب عمر إلى هرقل هذا الكتاب حتى لا يتخذ المهزومون أمام المسلمين أرض عدوهم ملجأً يتحصنون به ليوم ثار ، وحتى يجمع العرب كلهم في صعيد واحد تحت سلطان واحد .

لم يصنع بنو تغلب صنيع إباد . ولم يرتحلوا إلى أرض الروم ؛ لكنهم أبوا على الوليد ابن عُقبَةَ حين لم يقبل منهم إلا الإسلام ، واحتسكوا فيما بينهم وبينه إلى أمير المؤمنين . وكتب الوليد إلى عمر بإبائهم ، فأجاز عمر رأيهم وأنى أن يعرض الوليد الإسلام عليهم ،

« فَإِنَّمَا ذَلِكَ لجزيرة العرب لا يُقبَل من أحد فيها إلا الإسلام ، فدعهم على ألاّ ينصّروا وليدًا ولا يمنعوا أحدًا من الإسلام . » فلما بلغهم حكم عمر رضى بعضهم أن يدخل في دين الله ، وأصر بعض على نصرانيتها ، ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية وذهب وفد منهم إلى المدينة . وكان بينهم بعض من أسلم منهم ، فقال مساهوهم لعمر : « لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولسكن صَعَقُوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء ؛ فإنهم يفضبون من ذكر الجزية ، على ألاّ ينصّروا مولوداً إذا أسلم أبائهم » وأصر عمر على أن يُؤدوا الجزاء . فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم » . قال عمر ؛ « لئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسيبنكم » قالوا : « نغد منا شيئاً ولا نسّمه جزاء » . قال عمر : « أما نحن فنسميه جزاء وسموه أتمّ ما شئتم » . ولما رأى عليّ بن أبي طالب ما باغاه هذا الحوار من شدة ، قال : « يأمر المؤمنين أ لم يضمّف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ » قال عمر : « بلى اورضى منهم الصدقة بدل الجزاء . وإنا أصرّ نصارى بنى تغلب على ألاّ يؤدوا الجزية أن كان في قومهم عزٌّ وامتناع فكانوا يرون في أداء الجزية آية خضوع ومدّة لا تليق بهم ولا تتفق وما عرف الناس لهم من إكرام وكرامة ، وكرامتهم وقوتهم ها اللتان جعلنا الوليد بن عقبة يريدنهم على الإسلام ليكون له بهم قوة ومفعة . ولقد كان تشدد عمر معهم في أمر الجزية باذى الرأى ثم قبول صدقتهم مضاعفة بعد مشورة عليّ بن أبي طالب ، سياسة منه يحمّد عليها ، مع مخالفتها لموقف أبي بكر من أهل الردة ، ومخالفتها لموقفه هو من أعدائه الأقباء في فارس والروم . فبنو تغلب عرب ، وكان عمر حريصاً على عزة العرب . ولئن أقام على نصرانيتها منهم من أقام ليرجعن هؤلاء جميعاً إلى الإسلام ولو بعد حين . والرفق في هذا الموقف أبلغ . وقد دلّت الأيام على حسن فراسة عمر وبعد نظره ؛ إذ نصرت تغلب المسلمين من بعد نصراً عزيزاً ، وأيدتهم على أعدائهم في مواقف كثيرة .

لم يكتف بقبول الصدقة من هؤلاء النصارى ، بل رأى أن ما بينهم وبين الوليد ابن عقبة من خلاف قد يدفعهم إلى إخراجهم فيضف صبره فيسطو عليهم . لذلك عزله عنهم وأمر عليهم فُرأت بن حيان كجا يطمنن إلى استنباب الأمن واستقرار الظمأنينة في ربوعهم .

تم ذلك كله في السنة السابعة عشرة من الهجرة فتمّ به استقرار السلطان للمسلمين بالشام من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال . والواقع أن ما بقي من سيرة عمر لا يعرف في الشام انتقاضاً ، ولا يعرف من جانب هرقل محاولة لاسترداده ، اللهم إلا ما قيل عن قيسارية . فقد سبق أن ذكرنا رواية الحصار الذي ضربه معاوية بن أبي سفيان عليها قبيل فتح بيت المقدس ، وإلى ما قيل من فتحه إياها وقتله فيها ثمانين ألفاً بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف . على أن البلاذري ينسب إلى اختلاف الروايات في أمر هذه المدينة فيقول : « قال قائلون : فتحها معاوية ، وقال آخرون : بل فتحها عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته . وقال قائلون : بل فتحها عمرو بن العاص . . . والذي اجتمع عليه العلماء أن أول الناس الذي حاصرها عمرو بن العاص ، نزل عليها في جمادى الأولى سنة ١٣ فكان يقيم عليها ما أقام ، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم فشهد أجنادين وفِخْل والمرج ودمشق واليرموك . ثم رجع إلى فسطاطين فحاصرها بعد إيلياء ، ثم خرج إلى مصر من قيسارية . وولى يزيد بن أبي سفيان بعد أبي عبيدة فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها وتوجه إلى دمشق مطعوناً فمات بها » . والذي يخلص من هذه الروايات أن قيسارية حوصرت وطال حصارها ، حتى لقد قيل إنها حوصرت سبع سنين . ذلك بأنها كانت تفرأ حصيناً ومعقلاً منبع الأبراج والأسوار ، به من السكان والجنود عدد لا نظير له بأنطاكية ولا بدمشق . يقول البلاذري : إن مائة ألف كانوا يقومون كل ليلة على سورها يجرسونها . وكان سبب فتحها أن يهودياً أتى المسلمين ليلاً فدأهم على طريق في سرب فيه الماء إلى حقو الرجل ، فدخل المسلمون المدينة منه في الليل فكبروا ، فأراد الروم أن يهربوا من السرب فوجدوا المسلمين عليه ويقال إن عمرو ابن العاص كان فتحها في السنة السابعة عشر ثم نقض أهلها وأمدم الروم ، ففتحها معاوية وأقام فيها مَسَدَجَةً ووكل بها الحفظة . وقد وجد بها معاوية سبعمائة ألف من المرتزقة وثلاثين ألفاً من السامرة ومائتي ألف من اليهود ، ووجد بها ثلاثمائة سوق قائمة كلها .

سبق أن قلنا : إن خالد بن الوليد لم يقيم بقنسرين طويلاً . ولم نعثرفي كتب النقثات على تفاصيل لغزوه بعد انصرافه من حمص إلى إمارته أكثر من أنه سار في دروب الروم

مع عياض بن غنم ، ثم عاد من غزواته بمغانم كثيرة . وأراني في حلٍّ من القول بأن ما حدث ، إثر مجيء السفن عليها جنود الروم إلى أنطاكية ، من ثورة شمال الشام بسطان المسلمين ، لم يزل فجة إثر هزيمة الروم بحمص ، وأن ما أشار إليه المؤرخون من انتقاض حلب وحماة وأنطاكية وغيرها من الحواضر قد اقتضى خالداً وعياض بن غنم وغيرها من قواد المسلمين أن يعموه . وقد ذكر الواقدي أن حلب قاومت مقاومة عنيفة ، وأن خالد ابن الوليد إنما تغلب عليها بعد حصار طويل . فلما سكنت الثورة في شمال الشام تجاوزه المسلمون إلى إرمينية ، كما كانوا قد تجاوزوه بعد غزو خالد بن الوليد مرعش وشمشاط وغيرها من قبل ، ثم عادوا إلى الشام كما عادوا إليه أول مرة . ذلك أن عياض بن غنم مالبث حين تم له الأمر بالجزيرة أن صار صوب إرمينية يعزز تخوم المسلمين ويدخل الروع في نفوس أعدائهم . وسار خالد بن الوليد من شمال الشام إلى تلك الأرجاء حتى بلغ آمد والرها ، فكان في مسيرته يفتح البلاد ويستفيء المغنم ، ويلقى في القلوب الرعب<sup>(١)</sup> ، ثم عاد إلى قنسرين قد اجتمع له من الفئء شيء عظيم . لذلك انتجعه رجال من الآفاق يرجون جوائزهم فلم يرضن عليهم . وكان الأشعث بن قيس فيمن انتجعه فأجازه بعشرة آلاف درهم .

تحدث الناس بفعال خالد بن الوليد بقلقيّة وإرمينية مُعجَبين ، وذكروا بها خوارقه الجليلة وانتصاراته المعجزة بالعراق والشام ، وتحدثوا بجوائزهم وأعطياته للأبطال والشعراء وبجائزته العظيمة للأشعث بن قيس ، فذكروا بها أريحية مملوك بنى غسان ومملوك الحيرة . ونمى حديث الإعجاب به وخبر هذه الجائزة إلى عمر بالمدينة كما كان يُنمى إليه كل شيء من أمور عماله ، فهاجهاً على خالد ورآه لا يرجع عن غيّه . فقد بلغه من قبل أن خالداً ، إذ كان بآمد من أرض إرمينية ، دخل حماماً فتدلك بغسل فيه خمر ، فكتب إليه : « بلغني أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرّم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم » . وأجاب خالد : « إنا قد فتنناها فعادت غسولاً غير خمر » . ولم يعجب عمر هذا

(١) يذكر بعض المؤرخين أن خالداً كان يسير في غزواته هذه تحت لواء عياض بن غنم . ويذكر آخرون أنه كان يسير مستقلاً بنفسه وأنه لم يتأمر عليه أحد قط غير أبي عبيدة .

الجواب ، فردّ عليه مغضباً : « إن آل الغيرة ابْتُلُوا بالجفاء فلا أمانكم الله عليه ! ». وكان عمر قد أمره أن يحبس ما يصيبه من المال على ضَعْفَةِ المهاجرين ، وها هو ذا يجعله أعطيات لذوى البأس والشرف واللسان ألا يدل ذلك على أنه لا ينفذ ما أمره به من مراجعته في حساب المال ، وألا يعطى شاةً ولا بعيراً إلا بإذنه ، وأنه مصرّ على قوله يوم وجه إليه هذا الأمر : « إيمان تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك » ؟ !

كيف يستقيم الحال وخالد يريد أن يستأثر بالسلطان ويستقل بالأمر دون حسيب أو معقّب ! بل كيف يستقيم وقد فتن خالد بالناس لإعجابهم به وإكبارهم فعالة ، فخيّل إليه أنه أصبح صاحب الأمر والنهى فى الشام كله ، وأنه صار فيه ملكاً كجَبَلَةَ وآبائه من بنى غَسَّاب يثيب ويعاقب ، ويعطى ويمنع ! ألا لئن ترك شأنه ليلفنّ به الزهويوماً ، فلا يقيم لأمر الخليفة وزناً ولا يحسب له حساباً . فلئن أراد الخليفة يومئذ نزعاً من عمله ليثورنّ به وليجدنّ من الجند ومن أهل الشام أعواناً له ؛ وقد يؤيده الروم فتكون الطامة الكبرى . ويومئذ لا يلومنّ عمر إلا نفسه ، ثم ليحاسبه الله على ما قصر فى أمر المسلمين بتردده وإحجامه

هاج هايج عمر على خالد فقال : « والله ما صدقتُ الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمره فلم أنفذه ! والله لا يلى لى خالد عملاً أبداً ! ». وكتب إلى أبى عبيدة أن يستقدم خالداً وأن يعقله بهامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلم : أجاز الأشعث بن قيس من ماله أم من إصابة أصابها ، فإن زعم أنها من إصابة فقد أقرّ بخيانته ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف . وأمره أن يعزله على كل حال ، وأن يضم إليه عمله .

تناول أبو عبيدة هذا الكتاب فتولّته الحيرة ؛ فلخالد فى نفسه وفى نفوس الجند والمسلمين جميعاً منزلة أعظم المنزلة ، لكن أمير المؤمنين مُطاع ويجب تنفيذ أمره . فليدعْ خالداً إليه ، وليترك التنفيذ لرسول عمر ولتؤذنّ النبى وكتب إلى خالد فقدم عليه ، فلم يذكر له عن كتاب عمر شيئاً ، بل جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، ثم قام البريد الذى أوفده الخليفة يسأل خالداً : أمن مالك أجزت بمشرة آلاف أم من إصابة أصبتها ؟ ودّهش خالد مما سمع ولم يجب . وكرر البريد السؤال فلم ينبسْ خالد ببنت شفة . كل ذلك ( ١٨٣ - الفاروق - ج ١ )

وأبو عبيدة جالس على المنبر ساكت لا يقول شيئاً . فلما ألحَّ البريد في السؤال وأُصِرَّ في الصمت ، قام بلال فقال : إن أمير المؤمنين أمر أن تُعَقَّلَ بعمامتك ، وأن تنزَّي قلنسوتك حتى تجيب عما تُسأل الآن عنه . وزادت بخالد الدهشة فلم يخرج من هنالك تناول بلال قلنسوته ، ولمَّ يديه وراء ظهره وعقله بعمامته ، وقال : « أمن ملك أم من إصابة ؟ » .

دهش خالد لهذا الموقف فوجم وأعياه الجواب . وهو في الحق موقف يخبر إنسان عن صوابه . أليس هو موقف الاتهام الصريح بخيانة الأمانة ؟ ، فإذا به إنسان علانية وعلى ملأ من الناس جشأت نفسه وتولاه الدهول ؛ ما بالك به إلى خالد بن الوليد وهو في أوج ظفركه بأعداء الله وأعداء المسلمين !

وعلى أي نحو يوجَّه هذا الاتهام ؟ على نحو هو الإهانة كل الإهانة : تُضَّ إلى ظهره ، وتُعَقَّلان بعمامته ، وترفع قلنسوته عن رأسه ! باللعار ! ما كان أغنى أمير عن هذا كله ! أو لم يكن حسبه أن يدعو خالداً إلى المدينة مادام قد عزله عن فإذا لقيه بها سأله عما شاء كما شاء فيما بينه وبينه !؟

لم تكن دهشة المسلمين الذين شهدوا هذا النظر بأقل من دهشة خالد . ولقد بعضهم يتساءلون بينهم : ماذا يراد بسيف الله بعد هذا الموقف الذي يُزرى بأحد بَلَّةِ القائد النابغة الذي فتح العراق والشام ودوَّخ الفرس والروم !؟ أمن أجل عشر من الدراهم تُعَقَّل يده وتُنزَع قلنسوته ، وهو هو الذي استفاء المسلمون بئاسه الألوف بل ملايينها ! وماذا تراه صانع بهذه العشرة الآلاف لتلحقه هذه الإهانة ؟ لنفسه وأنكرها على أبي عبيدة أو على الخليفة ؟ كلا ؟ بل أجازها الأشعث بن قيس كنفدة صاحب البلاء العظيم في العراق والشام . ولطالما أُجيز الأشعث وأمثاله ذرو ممن شهدوا المواقع وكان لهم فيها بلاء وخطر ! ألا إنها لتسوة من أمير المؤمنين بلغ من ثقة رسول الله وثقة الصديق وثقة المسلمين به أعظم مبلغ ! .

كان أبو عبيدة ينظر إلى الناس من مجلسه على المنبر فيرى أمارات الدهشة وا بينة على وجوههم ، فلا يزيد ذلك إلا إمعاناً في الصمت الذي التزمه في هذا الذ



والذي أصر عليه منذ دعا خالداً إليه وأصر غيره أن ينفذ أمر عمر فيه . ولعله لم يكن أقل الحاضرين دهشة لهذا المنظر وأسفاً عليه . لقد كان يعرف أكثر من غيره ما يؤاخذ عمر خالداً به من الزهو والتسرع إلى الحرب وشدة الحرص على الاستقلال بالرأى . ولقد صرف غاية همه خلال السنوات التي انقضت من خلافة عمر ليزيل من نفس أمير المؤمنين سوء رأيه في خالد وشدة برمه به . وقد بلغ من ذلك أن حمل عمر على إطراء خالد إثر قنسرين وما أحرزه بن الوليد من النصر المؤزر فيها . أفذهب كل جهده هباء ! فلم تسكن صيحة عمر يومئذ . « أمر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال مني ! » إلا صيحة إعجاب بفعلة عظيمة جزى خالد عنها بإمارة قنسرين ، ثم ظل مع ذلك برماً به ؟ إن يكن ذلك فهو عجب ، وأعجب منه أن يجيء الأمر بعزل خالد وخالد في أوج مجده ، والفرس والروم والعرب والمسلمون يتحدثون جميعاً بفعله ، ويطأطئون الرؤوس إكباراً لعظمته وإجلالاً لعبقرته !

كان ذلك شأن أبي عبيدة وشأن جموع المسلمين شهود هذا المنظر ، فإذا كان شأن خالد نفسه ؟ أترانا نستطيع أن نصور ما كان يدور تلك الساعة بخالده ، وما كانت تختلج به جوارحه ؟ ! إن أفاظ الدهشة والألم والكبرياء الجريح والغيظ المكظوم والثورة المكبوتة لتضيق منفردة ومجتمعة عن أن تصف ما كانت تضرب به في هذه الساعة نفس رجل لم يطأطأ يوماً رأسه ولم يعرف الذلة حياته ، بل كان في جاهليته وفي إسلامه مثال الأنفة والكرامة والعزة ، وكان البطل المعلم ، كم جدل سيفه رموس الأعرزة ، والقائد القاهر عنت لقوة بأسه العروش والممالك . أتراه اليوم يقيد بعامته وكم قيّد بالسلاسل ألوف الأسرى ! أتراه يتهم بخيانة المسلمين في أموالهم وهو الذي أعز الله به الإسلام والمسلمين ! يا لسخرية القدر ! أما كان خيراً له أن يضرع في ميدان البطولة والشرف من أن يجاء به إلى موقف الخونة الأندال فيضرع شرفه وتهدر بطولته ! .

ولكن كيف له أن يخرج من هذا الموقف المهين ؟ فهذا بلال يسأله : أمن ماله أم من إصابة أصابها أجاز الأشعث بعشرة آلاف ؟ وبلال لن يفك طائعاً عقاله حتى يجيب . فيلزم الصمت فيطول هذا به المنظر الزرى ؟ أم يكسر عقاله بيديه ويضع على رأسه

قلنسوته وينظر الحاضرين جميعاً تلك النظرة الفاتكة التي عرفها خصومه وأصدقائه فيقول لهم : لا جواب عندي وليفعل عمر بعد ذلك ما بداله ؟ لكنه جندي من جنود المؤمنين ، وعمر أمير المؤمنين ، وهو الذي قضى بسيفه على المرتدين يوم ثاروا يحاولون أن ينافزوا أبا بكر إمارته . أيتور هو بعمر فينازعه حقوق إمارته ؟ كلا ! إنه لأعظم إيماناً بالله من أن يثور بمن ولّاه المؤمنون إمارتهم . لذلك لم يزد حين كرر بلال سؤاله : أمن مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ، على أن أجاب : بل من مالي !

ضحج المسلمون فرحاً حين سمعوا هذه الكلمة تنفّس عنها شفتنا خالد ، وخيّل إلى كثيرين أن كل شيء قد انتهى ، وأنه سيعود إلى إمارته بقتسرين كما كان ، ثم يُنسى الزمان وتُنسى فعالة ما حدث . وزادهم اطمئناناً إلى ذلك أن بلالاً لم يلبث حين سمع كلمة خالد أن أطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولائنا ، ونفخّم ونخدم مواليها » .

وخرج خالد وخرج الناس من هذا المجلس ، يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويختلف بعضهم مع بعض : يرى قوم أن أمير المؤمنين على حق ، فهو لم يحاسب خالد إلا كما يحاسب غيره من عماله ، ويرى آخرون أن خالداً خير أمير لجند المسلمين وأكثرهم نصراً ، فمن حقه يوم توزن أخطاؤه أن توزن معها جلائل أعماله ، ومن حقه إذا أراد عمر محاسبته أن يدعوه إليه وأن يحاسبه بنفسه وألا يقفه موقف متهم آثم بين جند يقدرونه ، ويقدمونه . وتمصّب لخالد قوم أثارت إهانتته نفوسهم ، فذهبوا يذكرون مواقف عمر منه في عهد أبي بكر وعزله إياه عن إمارة الجند يوم استخلف ، ويزعمون أن أمير المؤمنين إنما عرض خالداً للإهانة غيراً منه لتعلق الناس به ومحبتهم له ؛ فهي المنافسة حرّكت تراتٍ قديمة وليس فيها من العدل شيء .

أما خالد فلم تزيله دهشته بعد هذا المجلس ، بل جعل يسأل نفسه وقد تولته الحيرة : ماذا أراد عمر به ؟ فليس طبيعياً أن يكتبني بإجابته أنه إنما أجاز الأشعث من ماله ، وهو لا بد قد كتب لأبي عبيدة بأكثر مما حدث . ولو أنه لم يقصد إلى أكثر من العلم بمصدر العشرة الآلاف لكفاه أن يسأل أبو عبيدة خالداً وأن يبلغ أمير المؤمنين جوابه . فأما أن

يقفه بين الناس هذا الموقف المهين ، فلأمر له ماوراءه . وهذا الأمر خطير لاريب ، تشهد بذلك حيرة أبي عبيدة حيرةً ألزمته الصمت . أفيأسأله خالد عنه فيخرجه من حيرته ويقف هو على جليّة الخبر؟ تحدّث في هذا إلى بعض خلصائه ، فذكر واه أن الناس يتناقلون بينهم أنه يذكر أن المال الذي أجاز به الأشعث من إصابة أصحابها فلن يفاله سوء وسيرده أبو عبيدة إلى عمله . أتراه يلقي أبا عبيدة فيسّر إليه بما يشاء عمر حتى يعود إلى قنسرين أميراً كما كان ؟ تردد في هذا الأمر بعد أن راودته عنه نفسه . فهو إن يفعل فيعرف الناس تنهدم في أنفسهم كرامته ، وتنهدم معها قنصهم به . لذلك ذهب إلى أخته فاطمة بنت الوليد يستشيرها ، فقالت له : « والله لا يحبك عمر أبداً ، وما يزيد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك » وأقر خالد رأيها وقبّل رأسها وقال لها : صدقت ، وأقام ينتظر الأيام وما تكشّف عنه .

بينما كان ذلك يجري بحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدّم خالد عليه معزولاً عن عمله . فلم يدرك قط بخالده أن يحجم أبو عبيدة عن تبليغ خالد أمر عزله أو أن يدع خالداً يتولى من الشؤون ما لم يبق له بعد العزل أن يتولاه . فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذي كان ، وأدرك أن أبا عبيدة في لينة وتؤدّته وتواضعه قدر ما ينزل بنفس خالد من الهم إذ يعرف المصير الذي أراد له أمير المؤمنين ، وما ينشأ عن ذلك من قلق الجفد والمسلمين في وقت ما أحوج أبا عبيدة فيه إلى اتقاء كل قلق وكل فتنة . أتري أمين الأمة توقع أن يعدل عمر عن أمره ، فإذا سكنت الأيام من جحاح ثورته كتب إليه بردّ خالد إلى عمله ، ولذا سكت وصبر حتى تمر العاصفة فلا يرى أحدها أترأ؟ دار بنفس أمير المؤمنين أن يكون هذا الخاطر قد أمر بخلد أبي عبيدة فلم يطق أن تقوم في نفسه ظنة بأناته وبسداد رأيه ومضاء عزمته ، فكتب إلى خالد يستقدمه ويبلغه الأمر الذي أحجم أبو عبيدة عن أن يبلغه له . فلما تناول خالد كتابه ثارت نفسه ، ورأى في صنيع أبي عبيدة إشفاقاً عليه ، وهو رجل يزدري الإشفاق وينكره . لذلك ذهب إلى أمين الأمة تضطرب نفسه بين محبته والغضب منه ، وقال له . « رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ ! كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ! » . وأجابه أبو عبيدة في مودة وعطف :

« والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بُدًا . وقد علمت أن ذلك يرورك » .  
لم يبق لخالد إلا أن يرجع إلى المدينة معزولا يلقي أمير المؤمنين . فخرج يريد قنسرين  
وثورة نفسه على أشدها ، والغيظ يكاد يفرى مهجته . أذلك جزاؤه عن كل ما قدم !  
وهل أخفى عمر في نفسه يرثه القديمة عليه طيلة هذه السنين ليستخدمه ما كان بحاجة  
إلى قوة ساعده وعبقريه قيادته ، فلما رأى القدرة على الاستعناء عنه تلمس له هنة فلم يجد ،  
فتخذ من قصة الأشعث وجأرتة حجة يقيم عليها هذه المسرحية ليعزله عن عمله بعد  
أن يهدر كرامته ويمرغ في التراب أمام الناس عزته ؟ ! ياله من حاقد لا ينسى حقه !  
ولعل هذا الخلد كان يزداد ضراماً كلما رفع الحظ نجم خالد فيجعله أكثر علواً وسمواً .  
ولو أنه عزله عن كل عمله يوم استخلف لكان له من العذر أنه أشار على أبي بكر بأمر  
فلم ينفذه ، فلما تولى هو مكانه نفذه . فأما أن يدعه أربع سنوات يخوض المعارك ويدوخ  
الأقران ويقهر الجيوش ، فيخضع دمشق ويطهر الأردن ، ويستولى على حمص ، ويأخذ  
قنسرين عنوة ، ويرد حلب إلى الطاعة ، ويطرد هرقل من سورية ، ويتخطى قلقيّة  
إلى إرمينية ، ويصل بين الفتحيتين في العراق والشام ، ثم يعزله بعد ذلك كله بتهمة  
الخيانة أو السرف ، فذلك العذر الذي لاطاقة لخالد باحتماله ، والذي لا عذر عنه من شدة  
عمر بسائر عماله . فلم يأثم خالد ولم يرتكب نكراً . وأين ثراؤه على عظيم بلائه ! وأين  
ما صنعوا مما صنع ! إنهم أولو فضل لأريب . وانتصار ابن أبي وقاص بالقادسية وفتح  
المدائن ، وطرده يزدجرد إلى الري ، من أعظم أعمال البطولة . وفتح ابن العاص بيت المقدس  
نصر أكبر النصر . لكن خالداً صاحب الفضل الأول في فتح العراق وفتح الشام .  
وفتحهما هو الذي دوخ كسرى ودوخ قيصر ، وهو الذي فتح الباب واسما لسيرة المسلمين  
بعده إلى ماشاءوا من الآفاق . أو لو كانت جائزة الأشعث سيئة فأين قوله تعالى :  
( إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) ! ؟ فليكن جزاء خالد عند الله ! والله من بعد حسيت  
عمر ورقيبه ! .

كانت هذه الخواطر تدور بنفس خالد وهو في طريقه بين حمص وقنسرين ، فكان  
يقضى بها إلى بعض خلصائه فيهبون عليه الأمر ويدكرونه بقوله تعالى . ( وَمَا تَدْرِي

سُئِلَ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وبقوله (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مُقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) ، ويحييهم خالد ومسُّ الإهانة يجرى في نفسه: إن عمر ولأني الشام حتى إذا صارت بَثْنِيَّةَ<sup>(١)</sup> وعسلا عزلني . فلما بلغ قنسرين نُظِمَ غِيظُهُ ، وَتَحَمَّلَ وَخَطَبَ أَهْلَ عَمَلِهِ ، وَذَكَرَ بِحَيْدِ فَعَالِمِهِ مَعَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ عَمْرَ بَسُوهُ ، ثُمَّ وَدَّعَهُمْ وَعَادَ بِأَهْلِهِ وَمَتَاعِهِ إِلَى حِمصَ ، فَخَطَبَ أَهْلَهَا وَوَدَّعَهُمْ ، وَفَصَلَ عَنْهُمْ مَنصَرَفًا لى المدينة .

فأما بلغها ولقى أصحابه بها ألنى أمر عمر فيه وما أصابه من مهانة حين تنفيذه قد سبقه إليهم ، ورأى منهم متمصبين له ناقين من عمر ، فتحدث إليهم بأعماله ، وذكر لهم إخلاصه لله وللمدين الذى أوحاه الله إلى رسوله ، وقص عليهم ما استفتاء المسلمون على يديه ، والقليل الذى اختص هو به من هذا النى ، فزادهم ذلك تعصبًا ، ومن عمر نعمة . ثم إنه لقي عمر فقال له : « لقد شكوتك إلى المسلمين . والله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر ! » . ولم يجد الخليفة موضعًا لالين يمكن أن يساء به تفسير أمره ، فقال لخالد ولا يزال يتهمه : « فأين هذا الثراء ! من أين هذا اليسار الذى تجيزم منه بعشرة آلاف ؟ » ، وجعل يكرر عليه للسؤال كلما رآه . فلما ضاق به خالد قال له : « من الأنفال والشهيمان ، مازاد على الستين ألفًا فهو لك<sup>(٢)</sup> » وقوّم عمر عروض خالد بثمانين ألف درهم ترك له منها ستين ألفًا وأخذ العشرين الزائدة فأدخلها بيت المال .

وتحدث قوم إلى عمر فى أمر خالد وما صنع به ، ورأوا أنه قسا عليه وأن خالدًا جدير بالكرامة ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين لو رددت على خالد ماله ! لكن عمر كان لا يزال على سوء رأيه فى سيف الله ولا يزال يتهمه . لذلك أجاب الذين تحدثوا إليه : إنما أنا تاجر للمسلمين . والله لا أردّه عليه أبدًا<sup>(٣)</sup> ! وأنكر قوم هذه الشدة من عمر ، ورأوا فيها من المبالغة مالا يفسره إلا شدة ضيقه على خالد وعظيم حرصه على النيل منه . فإثمانون ألف درهم قيمتها دون السبعة الآلاف من الدنانير لرجل غزا وسبى واستفتاء من المرتدين

(١) بثنية - حنطة منسوبة إلى البثنية بناحية دمشق . أو هى الزبدة ؟ أى صارت كأنها زبدة وعسل .

(٢) وفى بعض الروايات ستين ألفًا فى أيام أبى بكر وما زاد عليها فى أيامك . فإن شئت فهمى لك .

(٣) وفى رواية أنه رد عليه كل ما أخذ منه .

ومن العراق ومن الشام ست سنوات تباعاً ما قيمته الملايين ! وهذا الضمن يبدو في قول الطبري بعد أن روى رفض عمر أن يردّ إلى خالد ماله ؛ فكأن عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك .

ولعل عمر إنما قسا على خالد وبالغ في القسوة عليه بعد عوده إلى المدينة معزولاً ؛ لأنه رأى جماعة من المتمصبين لخالد يحاولون إثارة الفتنة وأن يمشوا بين الناس بالفساد . فلو أنه أظهر اللين لظنّ قوم لينه ضعفاً ، ولأيقنوا أنه عزل خالداً في غير إثم ، ولجرّأ ذلك على الشرّ وشجّع عوامل القلق . ولم يقبّ ذلك عن فطنة خالد ولم تفتته مراحم أمير المؤمنين فيه . فقد كان يرى عمر إذا خلا إليه كان الرقة معه والّطف به ، فإذا تحدّث إليه قوم في الأمر كان مارأيت بأساً وشدة . عاتب خالد عمر يوماً في خلوة وأعاد عليه أنه كان في أمره غير مجملٍ ، فقال عمر له : « يا خالد ! والله إنك على لكريم ، وإنك إلى الحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً » . وكفت هذه الكلمة خالداً فهدأت من ثورة نفسه ، وجملته يردّ الذين حاولوا تحريضه على القيام مع خصوم عمر في الثورة به بقوله . أما وعمر حتى فلا ! وكيف لخالد أن يثور بأمره لأمر أصدره ؛ وهو جندي يعرف النظام ويؤمن به ؛ وهو مسلم حسن الإسلام حريص على أن ينتصر دين الحق : على يديه أو على يدي غيره ! لذا سكن كارها إلى حياة لا ترضاها نفسه ؛ حياة الجندي البطل يرى ميادين القتال مفتوحة أمامه ، وهو مبعده عنها لا يستطيع خوض غمارها لأن أميره عزله وأقصاه . وحسبك لتقدر ماحز ذلك في نفسه أن تذكر قوله ، حين أقام بالحيرة سنة لا يقاتل الفرس امتثالاً لأمر أبي بكر : « ألا إنها لسنة كأنها سنة نساء » .

واطمأن عمر إذ برت يمينه ألا يبلى له خالد عملاً أبداً ثم لم تزل خالد عاصفة ، ولم يبالى خالد أحداً على إثارتها ، فغلب جانب البر فيه جانب الشدة والبأس ، فأذاع في الأمصار : « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » أفتتمبّر هذه الإذاعة تعبيراً صادقاً عن رأى عمر في خالد ، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل لم يرتكب إثم الخيانة ولا إثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة الآلاف ؟ أم هي إذاعة

سياسية قصد بها ان الخطاب إلى تسكين الخواطر التي ثارت لما أصاب سيف الله ، تعصبا له وإعجاباً به ، وخشية أن يجرى عمر في سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظننة في أمر بناء الإمبراطورية الناشئة ؟ أغلب الظن أنها كانت إذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أسر أو شك حين وقوعه أن يحدث حدثاً . وآية ذلك أن خالد مات بعد أربع سنوات من عزله ، ولم يترك من حطام الدنيا غير فرسه وغلماه وسلاحه ، فلما عرف عمر ذلك من أمره حزين وقال : « يرحم الله أبا سليمان ! كان على غير ما ظنناه به . » . إذاً لقد قامت بنفس عمر ظننة في خيانة خالد أو في إسراره كانت سبب سخطة عليه وعزله إياه . وخطب الناس بالجابية يوماً فقال : « إني أعتذر إليكم عن عزل خالد بن الوليد ؛ فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة » . لم تكن فتنة الناس بخالد هي إذاً وحدها التي أدت إلى عزله مخافة أن ياكلوا إليه ويبتلوا به ويتعرضوا للفتنة بسببه ، وليعلموا أن الله هو الصانع ، بل كانت في نفس عمر سخطة على خالد لأسباب كانت فتنة الناس بسيف الله بعضها أو كانت أعظمها .

لم يسكن الناس لإذاعة عمر ولم يروها مسوغة عزل خالد ، بل ظل منهم كثيرون وفي نفوسهم على عمر موجدة لهذا العزل أي موجدة لما خطب بالجابية يعتذر جابهه أبو عمرو بن حفص بن المغيرة بكلام يقول فيه : « والله ما أعذرت يا عمر ! ولقد نزعنا عاملاً استعماله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لواء رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغمدت سيفاً سلّه الله . ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم ! » . وأجابه عمر : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مفضب في ابن عمك » .

عاش خالد أربع سنوات بعد عزله بعيداً عن ميادين نضاله ومجده ، يحزّاهم في قلبه أن يرى إخوانه وبنى وطنه يقتحمون فلسطين إلى مصر والعراق إلى فارس ، وهو مقيم في بيته ، وسيفه في غمده لا يجرده لنصر أو شهادة ، ولا يبديه مشهوراً أمام الأبطال يهز قلوب العدو هزاً ، ويحصد رقابهم حصداً . أفما كان حسبه خلال هذه السنوات أن يستمتع بهذا الحمد انمقده لواءه ، وتكفل بغاره جبينه ! ؟

كلا ! فما المجد لرجل لا يزال قديراً على أن يرفع صرجه ويعلى بناءه ! إنما يسكن إلى مجد بلغه من يقعد به الجهد عن أن يسمو من مراتبه إلى أعظم مما بلغ . وكان خالد لا يزال قديراً أن يقتحم مراتب المجد جميعاً ، فيفتح من أرض الروم أضعاف ما فتح ، ويبلغ حاصمة قيصر كما بلغ سعد بن أبي وقاص حاصمة كسرى . أمّا وعمر قد ألزمه عُقر داره ، فكسر سيفه وهدّ ركنه ، فما أطول أيامه وأشدّ ألمه ! وقد اخترم المم حياتَه فمات بعد هذه السنوات المريرة<sup>(١)</sup> وهو يقول : « لقد طلبت القتل في مظانّه فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي » . وفي الرواية المشهورة أن خالداً بكى حين حضرته الوفاة وقال : « لقد حضرت كذا وكذا زخفاً ، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربةٌ بسيف ! أو طعنةٌ برمح ، أو رميةٌ بسهم ، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء ! » .

حزّن المسلمون لموت خالد أشدّ الحزن ، وكان عمر بن الخطاب من أشدهم حزناً . رووا أنه سمع أمه تندبه وتقول :

أنت خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القوِّم إذا ما كَبِتْ وجوهُ الرجالِ  
 فقال « صدقت والله إن كان كذلك ! » وكان عمر ينهى عن الندب على الميت وبكائه حتى لقد شدّت النسوة اللاتي اجتمعن ببيت عائشة يندبن أباها أبا بكر . فلما اجتمع نساء المدينة يبكين خالداً لم يعرض عمر لمن ولم يعترض عليهن فقيل له : ألا تسمع ! ألا تهاهن<sup>(٢)</sup> ! فقال : « وما على نساء قريش أن يبكين أباسليمان ما لم يكن نَقَعٌ أو لَقْدَقَةٌ<sup>(٣)</sup> . على مثله تبكي البواكي ! » . ودخل هشام بن البَحْتَرِيِّ في ناس من بني مخزوم على

(١) المشهور أنه مات سنة إحدى وعشرين بقية على ميل من حمص . وأصحاب هذه الرواية يذكرون أن خالداً قدم المدينة بعد ما عزل له عمر ، وأنه اعتمر ثم رجع إلى الشام ، فلم يزل بها حتى مات وأن عمر رأى حجاجاً يصلون بمسجد قباء عرف أنهم نزلوا حمص بالشام ، فسألهم عن أخبارها فقالوا : مات خالد بن الوليد . وتجرى رواية بأنه مات بالمدينة . وأصحابها يذكرون أن خالداً ذهب من الشام إلى المدينة زائراً أمه ، فلما كان خارجاً منها اشتكى فقال لأمه وكانت تصعبه : احذروني إلى مهاجري ، فقدمت به المدينة ومرضته حتى مات بها .

(٢) وفي رواية أن عمر قيل له : إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه ، وهن خفاء أن بسمة تك بعض ما تكره ، فأرسل إليهن فأنهين .

(٣) أراد الصياح والجلبة عند الموت .



عمر بن الخطاب فقال : ياهشام أنشدني شعرك في خالد ، فأنشده أجود شعره ، فلما فرغ من الإنشاد قال عمر : « قصرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله ، إنه كان ليحب الشرف وأهله ، وإن كان الشامت به متعرضاً لقت الله » وجرى ذكر خالد يوماً فاسترجع عمر وقال : قال « كان والله سداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة » ، فقال له عليٌّ : « فلم عزلته ؟ » قال : « ندمت على ما كان مني ! . ويُروى أن عمر كان غائباً بحجّ حين مات خالد ، وأنه كان قد عزم على توليته بعد أن يرجع من الحج ، فلما رجع وجدته قد مات . وطبيعيٌّ أن هذه الرواية إن صحت لا تستند إلى أكثر من قول نسب إلى عمر أو نُقل عنه بعد وفاة خالد بن الوليد .

أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قريش يندبنه ثم أظهر الندم على عزله ، وقال فيه كل ماقاله ؟ أم اقتضته سرورته أن يكون مُجَمِّلاً مع ابن خاله في مماته ، ولم يكن مجملاً معه في حياته ، فترك النسوة يبكين لعل في البكاء ما يخفف لوعتهن ، وقال ماقال يعزّي به بنى خالد وأهله ؟ . الله أعلم بالسرائر . ونحن بعدُ إزاء روايات مضطربة عن هذا الموقف من مواقف عمر ، يتعذّر علينا أن نقطع أيها الصحيح وأيها الموضوع .

وإن يصدق حزن عمر فلا عجب والموت يسمو بمن مات إلى مقام السيرة البراة عن الشماتة والحقد ، فللاً حياء منها المثل والمعبرة . ولقد كان لعمر من قوة ثقته وشدّة بأسه وعظيم إيمانه وعدله ، وبالغ رفته ورحمته ، وما بينه وبين خالد من صلة الرحم ، ما يدعوه للحزن عليه والأسى لمصاب أهله فيه . وكيف لا يحزن وعلى مثل خالد تبكي البواكي !! بل كيف لا يحزن ولا يزال اسم خالد يدوي في الآفاق كما لا يزال اسم عمر يدوي فيها ، وخالد أعظم بناء الإمبراطورية الإسلامية ، وعمر أعظم من وطّد ركنها ووجه سياستها !! هذه قصة خالد وعمر وقد وقف غير واحد من المؤرخين عندها ، ونصبوا أنفسهم منصب الحكم بين الرجلين ليقولوا : أظلم عمر خالداً أم لم يظلمه حين عزله . وكثيرون يتعصبون لخالد ويقفون في صفه ويرون أن عمر لم ينصفه . فلو أن قصة الأشعث بن قيس صحت على أسوأ وجهها وكان خالد قد أجازته من إصابة أصابها ، لما كفت في رأيهم سبباً

لعزله . صحيح أن عمر كان شديداً في محاسبة عماله ، وأنه كان يسألهم عما كسبوا من مال في ولاياتهم ، ويقبض منهم ما لعلهم كسبوه بسببها . لسكنه لم يعزل كل من وجه إليه هذه التهمة ، بل لقد وجهها إلى عمرو بن العاص وهو على مصر غير مرة ثم لم يعزله ؛ ولم يكن أحد من ولاة عمر وعماله كخالد بأساً وأيداً ، ولم يكن لواحد منهم مثل عبقريته في القيادة وإقدامه في الحرب . فليس من الإنصاف أن يشتد عمر في مؤاخذته ما لم يشتد في مؤاخذتهم . أما الذين يتمصبون لعمر ويقفون في صفه ، ويرون أنه لم يظلم خالداً حين عزله ، فيذكرون أن جائزة الأشعث لم تكن وحدها سبب عزله ، وإنما كانت بعض المظاهر لزهو خالد وخروجه على أمر الخليفة . فقد أمره ألا يتصرف في الشيء إلا بعد مراجعته فلم يفعل ، وأن يحبس على ضعة المهاجرين فجعله لذوى الشرف واللسان . لذلك خشى عمر أن يُفتتن خالد بالناس كما فتنوا به ، فيكون الخطر على الدولة في بقائه كما خشى أن يظن الناس أن خالداً أصبح ضرورة لا غنى عنها لانتصار جيوش المسلمين ، فتصغر أقدار القادة دونه ، وتعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، وذلك شر إن أصاب الدولة وتأصل فيها فسد أمرها . ولا سبيل إلى استئصال هذا الشر إلا بعزل مصدره ؛ ولو في غير جزيرة . فإذا رأى الناس جيوش الدولة لا تزال من بعد مظفرة ، قرّت عقيدتهم بالله وثقتهم بقوادهم وساستهم ، فكان للدولة ولدين الله بذلك كسب لا يقاس عزل رجل بجانبه ، ولو كان هذا الرجل خالد بن الوليد .

لم يركبوا أن يقفوا من خالد وعمر موقف الحكم إكباراً لها عن مقام القضاء والانهام ، واقتناعاً بأن ما انتهى إلينا من تفاصيل الحوادث وملابساتها فيه من القصور والاضطراب ما يردنا عن الحكم ، وإن أسفوا مع ذلك على ما حدث أشد الأسف ؛ فخالد وعمر رجلان قلّ نظيرهما في الرجال . فلو أنهما تضامنا إلى النهاية في بناء الإمبراطورية وسياستها ، لأسرع الفتح أكثر مما أسرع ، ولاتسعت رقعته أكثر مما اتسعت ، ولدخل المسلمون القسطنطينية وخالد على رأسهم ، ولأدالوا من دولة قيصر ما أدالوا من دولة كسرى ، ولسكان لذلك أثره الباقي في حياة الإسلام وفي حياة العالم ، ولرأينا من هذا الأثر غير ما نرى اليوم ، ولسارت الحضارة غير سيرتها التي عرفنا .

وهذه فروض لا يدرى أحد ما كان يصح منها لو لم يحدث ما حدث . وعندى أن عمر إنما عزل خالداً عن كل عمله للسبب الذى عزله من أجله عن إمارة الجند غداة خلافته . فالثقة بين الرجلين لم تكن قائمة فى عهد أبى بكر ولا من قبله . وكان عمر يود لو أن أبى بكر عزل خالداً لحادث ابن نويرة أو لحادث غيره . فلما أبى الصديق أن يأخذ بظنة عمر فيه ولم يعزله ، لم يكن لعمر يوم تولى أن يفصله عن الجند كله ؛ فقد كانت جيوش المسلمين على اليرموك فى إمرته ، وكانت ضخامة اسمه وثقة الصديق به تحولان دون عزله . لذا اكتفى بردّ أبى عبيدة إلى مكانه من إمارة الجند ، وأن يسير خالد تحت لوائه . فلما انتصر خالد فى اليرموك وفتح دمشق ودوّت فعاله فى شبه الجزيرة كما دوّت فى العراق والشام ، ثم كانت جيوش الروم لا تزال قوية بإزاء المسلمين ، لم يكن لعمر إلا أن يحتمل ابن خاله وإن على مضض ، وأن يُعجَبَ بفعاله وإن بقى على سوء رأيه فيه . فلما فرّ هرقل إلى عاصمة ملكه ثم قمع المسلمون ما حدث من الانتفاض فى شمال الشام ، وحصنوا ما بينهم وبين الروم من تخوم ، وأمن عمر عودة هرقل وجنوده ، لم يبق لخالد إلا أن يكبح جماح زهوه ، وأن ينزل على رأى الخليفة فى النية وغير النية ، كما ينزل كل عامل غيره . لكن خالداً ظل على اعتزازه بنفسه واعتداده بمقدرته ، فاستأثر بما رأى أنه من الحق لنفسه أن يستأثر به حين توزيع العطاء من غنائمه ، مخالفاً بذلك أمير المؤمنين عن رأيه ، خارجاً فيه عن سياسته . وحرك ذلك فى نفس عمر كل ما اجتمع فيها من سوء الرأى بخالد قبل حادث ابن نويرة وبعده ، فكان الذى حدث من استدعاء خالد إلى حصص ليقف بين الناس موقف المتهم ، ولتُنزَعَ قلنسوته ويُعقَلَ بعاملته ، وليُسألَ كأنه خائن للأمانة ، وليعزل بعد ذلك فيبقى بعيداً عن ميسادين نجره ومجده ، حتى يموت على فراشه كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء .

رحم الله خالداً ورحم عمر ! لقد كانا قوتين من أضخم قوى القدر . اتسعت لهما شبه الجزيرة ما كانتا كمينتين ، فلما تفتحتا وانتشرتا ضاقت بانتشارهما ملك الفرس والروم مجتمعين ، فاصطدمتا فلم يكن بدّ من أن تنكش إحداهما حتى تبلغ الأخرى مدى انتشارها . وقد رضى خالد أن يكون القوة التى تنكش ، لى لا يؤدى الصدام إلى تحطيم القوتين

جميعاً . ومن توفيق الله أن حانت ساعة انكشاه بعد أن اطمان المسلمون بالشام إلى سلطان أقره ، وعدل أقاموه ، وسياسة أحكموها .

أفقرت المسلمون بالشام على نحو ما قرئوا بالعراق ، فاستأثروا فيه بمدن أقاموها كما أقاموا البصرة والكوفة ، ثم انتشروا في سائر أرجائه ؟ كلا ! بل أقاموا بدمشق وحمص وغيرها من المدن الكبيرة فيه ، وشجعوا القبائل التي أسلمت وكانت مقيمة بالحاضر المتصل بهذه المدن على الإقامة معهم بها ، ثم لم ينتشروا فيما وراءها . وقد يبدو هذا عجيباً ؛ ففي الشام الحدائق الغناء ، والأودية المرعة الخصب تكسوها المزارع إلى مدى الأفق ، والجبال الباسقة تجلجل هاماتها الثلوج ناصعة البياض ، والأشجار المثمرة من أعناب وتين وزيتون ، والمياه المتدفقة منحدرة من السفوح المرتفعة إلى المنبسطة السهلة الواسعة . فكيف لم يجذبهم كل ذلك إليه ما جذبتهم أرض العراق ؟ السر في ذلك أن بالعراق من أرض البادية ومن أشجار النخيل ما استهوى نفوساً ألفت النخيل وألفت البادية . والناس أكثر ميلاً لما ألفوا واطمئنأنا إليه . ثم إن أهل العراق كانوا أسرع إلى الإسلام ؛ فكان ذلك أدعى لتوثيق الأواصر بينهم وبين أهل شبه الجزيرة . أما نصارى الشام فاستمسك أكثرهم باديء الأمر بدينهم ، وأرادوا أداء الجزية أيسر عليهم من تركه ، فظل اختلاف الدين حجاباً بينهم وبين العرب الفاتحين . على أن سياسة الحكم في القطرين لم تختلف ، بل كانت قائمة فيهما على حماية أهل الذمة والتسوية بينهم وإن اختلفت مذاهبهم وأجناسهم ، وأن يكون المسلمون جميعاً سواء فيما فرضه عليهم الدين الجديد ، يؤدون لله حقه ، ويهبون له حياتهم راضين مطمئنين .

أدى استقرار المسلمين بالشام والعراق إلى وحدة الجنس العربي : أفما آن لعمر أن يضم هذه الإمبراطورية الناشئة في وحدة تزيدها قوة ؟ كان ذلك أكبر رجائه ، بل كان ذلك عزمه الصادق . لكن للأقدار حكماً لا يستقر أمامه عزم . وقد أرادت الأقدار أن تزداد الإمبراطورية سعة ، وأن تزداد رقعتها انفساحاً . وسنرى من بعد ما ينطوى عليه حكم الأقدار في ذلك من موعظة بالغة .

## الفصل الرابع عشر

### المجاعة والوباء

كان المسلمون بالمدينة وفي شتى الأرجاء من شبه الجزيرة ينعمون بأنباء النصر الذي حالف جنودهم في العراق والشام ، وبأخماس الفىء ترد إلى الخليفة ، فيقسمها بينهم أعطيات تزيدهم رخاء ، وتنقلهم من شظف البداوة وتقششها إلى ما يشبه الحضارة ليناً وطراوة . فقد زادتهم هذه الأعطيات قدرة على أن يبتاعوا من تجارة اليمن والشام ما يشاءون ، وأن يقتنوا من خيرات مصر تبيء إليهم محمولة على السفن ما يجدون في افتنائهم متاعاً لم يكن لهم من قبل بمثله عهد . وزادهم ذلك إقبالا على الحياة وتمسكاً للفتح . واستمساكا بالدين القيم الذى يسر لهم نصر الدنيا والآخرة .

وإنهم لسكذلك ناعمون إذ نجأهم القدر ، في أخريات السنة السابعة عشر طيلة السنة التى تلتها ، بهولين عظيمين ؛ أصابهم أحدهما في موطنهم من شبه الجزيرة ، وأصاب الآخر إخوانهم المجاعدين في الميادين ، فأما أول الهولين فالمجاعة التى انتشرت في بلاد العرب من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال ، والتى دامت تسعة أشهر هلك فيها الزرع والضرع ، والحراث والنسل ، وأصاب الناس منها أشد الجهد والبلاء . وأما الهول الثانى فطاعون عمّواس الذى امتد من الشام إلى العراق ، فأفنى الألوف من خيرة المسلمين ، رجالا ونساء ، جنداً ومدنيين ، حتى ارتاع له عمر وارتاع له الناس جميعاً أيما ارتباع .

وسبب المجاعة أن أمسك المطر في شبه الجزيرة كلها تسعة أشهر كاملة ، وأن تحركت الطبقات البركانية من أرضها فاحترق سطحها وكل ما عليه من نبات ، فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب ، فإذا تحركت الريح سقت رماداً . لذا سمي هذا العام عام الرمادة . ونشأ عن إمساك المطر وهبوب الرياح وهلاك الزرع والضرع جوع أهل الناس والأنعام ؛ فقد فنى الكثير من قطعان الغنم والماشية ، وجف ما بقى منها ، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها رغم جوعه وبلواه . ومن ثم أقفرت الأسواق فلم يبق فيها ما يباع

ويشتري ، وأصبحت الأموال في أيدي أصحابها لا قيمة لها ، إذ لا يجدون لقاءها ما يسد رمقهم . وطال الجهد واشتد البلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع والأجرذان يخرجون ما فيها .

كان أهل المدينة أحسن من غيرهم حالاً أول العهد بالمجاعة . فالمدينة حضر ادّخر أهلها حين الرخاء ما اعتاد أهل الحضرة ادخاره ، فلما بدأ الجذب جعلوا يخرجون ما ادّخروا يعيشون منه . أما أهل البادية فلم يكن لهم مدّخرٌ فاشتد بهم الكرب من أول الأمر . ثم إنهم هرعوا إلى المدينة يجأرون إلى أمير المؤمنين بالشكوى ، ويلتمسون لدى أهلها فتناً يقيمهم . وازداد هؤلاء اللاجئون عدداً فضاقت بهم المدينة ، واشتد بأهلها البلاء ، فصاروا في مثل حال أهل البادية جدياً وجوعاً .

ماذا يصنع عمر بنفسه ؟ وماذا يصنع بهؤلاء الجياع ، لقد كان بيت المال في يده ، وكان في مقدور عماله بالعراق والشام أن يبعثوا إليه ما يُبقي به على نظام عيشه قبل المجاعة ، ثم كان له من العذر لو أنه فعل ، أن تبعته كانت تقتضيه ألا يبلغ من الحمل على نفسه والقسوة بها فبنوء به الجهد عن رعاية سائر المسلمين ولكن تصرفه في هذا الموقف كان مثلاً رائماً يحذر بكل من ولي الأمر في أمة أن يعرفه وأن يجتذبه .

حدث بعد ما اشتدت المجاعة أن جيء عمر بنخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلاً بدويًا فأكل معه فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك إلى جانب الصفحة ، فقال له عمر : كأنك مقفر من الودك ؟ وأجابه الرجل : أجل ! ما أكلت سمداً ولا زيتاً ولا رأيت آكلًا له منذ كذا وكذا إلى اليوم . فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يجي الناس ، وظل على هذا العهد حتى أذن الله فعاد المطر وزال عن الناس الجذب

وقد كان جاداً في هذا العهد كل الجد . قَدِمَت السوق عُكَّةً من سمن ووطبٍ من لبن ، فاشتراها غلام له بأربعين درهماً ، وذهب إليه الغلام فقال له : قد أبر الله يمينك وعظم أجرك . قَدِمَ السوق وطب من لبن وعكّة من سمن فابتعتها بأربعين . قال عمر : أغليت فتصدّق بهما فإنني أكره أن آكل إسرافاً . وأطرق هنيهة ثم قال : كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يسنى ما يسهم ! ! .

حكمة ما أعظمها وما أجلها لذاتها، وهي أكثر عظمة وجلالا إذ تصدر من رجل اجتمع له يومئذ من ملك كسرى وملك قيصر وما كان المسلمون يفاخرون به فارس والروم والعالم كله : اجتمع له العراق والشام وما فيها من خير نعمة . وقد كان عمر قديراً يومئذ أن يجمع من ترف الفرس ونعيم الروم ما شاء . لكنه كان يرى النعيم تعلقاً بالدنيا، والترف مَظلة لصاحبه ، فما عليهما ابتغاء الآخرة وابتغاء وجه الله ورضاه . وكان يرى أنه، وهو أمير المؤمنين ، لا يمكن أن يعنيه شأن الرعية إذا لم يشعر بما يشعر به أكثرهم فقراً وإملاقاً ، ليسارع إلى القضاء على الفقر وعلى الإملاق . رآه الناس عام الرمادة وقد أسودَّ لونه وكان أبيض مشرباً بحمرة؛ ذلك أنه كان يأكل السمن واللبن والاحم، فلما أحل الناس حرماً على نفسه وأكل بالزيت ، وأكثر من الجوع ، حتى كان الناس يقولون وقد رأوا ما أصابه : لو لم يرفع الله الخلل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين .

والواقع أنه اهتم بأمرهم وبذل في سبيلهم كل جهده . كتب إلى عماله في العراق والشام يستنجدهم لغياث أهلهم في شبه الجزيرة . وكانت عبارته إلى هؤلاء العمال صادرة من قلبه ، تشهد بسمو تقديره لتبعية ، وعظيم شعوره بأنه مسئول أمام الله وأمام ضميره عن كل فرد من رعيته . كتب إلى عمرو بن العاص بفلسطين يقول : « سلام عليك! أما بعد ، أفتراني هالكا ومن قبلي، وتعيش أنت ومن قبلك! فيا غوثاه! يا غوثاه! يا غوثاه! » وأجابه عمرو : « أما بعد ، فليث . لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي . » وبعث عمر بمثل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح بالشام، وإلى سعد بن أبي وقاص بالعراق ، فأجابوه جميعاً بنحو مما أجاب به عمرو بن العاص .

وكان أبو عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمرو غياثاً لأهل شبه الجزيرة؛ سبقهم جميعاً فقدم في أربعة آلاف راحلة محملة طعاماً ، فولاه عمر قسمته فيمن حول المدينة . فلما فرغ من ذلك أمر له عمر بأربعة آلاف درهم؛ فقال : لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين! إنما أردت الله وما قبله ، فلا تدخل على الدنيا! لكن عمر أجابه : خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلها . وإني قد وليت لرسول الله مثل هذا فأعطاني بعد أن قلت له مثل ما قلت لي . وقبض أبو عبيدة المال وانصرف إلى عمله .

وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفي السفن ثغر أَيْلَةَ (١) .  
بعث في البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث في البر ألف بعير تحمل الدقيق .  
وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام . وبعث سعد بن أبي وقاص  
ألف بعير من العراق تحمل كلها الدقيق ، هذا خلا خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو ،  
وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية .

وولّى عمر من يُطعم الناس ويكسومهم في أمصار المملكة وباديتها ، وتولّى هو بنفسه  
إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم من العرب . وانصرف رسله إلى أرجاء شبه الجزيرة  
يخففون عن الناس بلاهم ، فلقى الموكلون بالتوزيع ما بعث به سعد بن أبي وقاص من  
الأقوات عند أفواه العراق ، فأقاموا ينحرون للناس الجُزُر ويطعمونهم الدقيق ويلبسونهم  
العباء حتى رفع الله البلاء . وكذلك فعل الرسل ما بين مكة والمدينة . وقال عمر لرسوله  
الذي بعثه يلقى غير الشام : « أما ما لقيت من الطعام فإلّ به إلى أهل البادية . فأما الظروف  
فاجعلها لِحْفًا يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من ودكها  
ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا . وأما الدقيق فيصطفون ويحزرون حتى يأتي  
أمر الله بالفرج » .

تولّى عمر إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم ، فكان يأدم الخبز بالزيت يجعله  
ثريداً ، وينحر بين الأيام الجزور فيجعلها على الثريد ، ويأكل مع القوم مما يأكلون .  
فلما أقبلت الإبل من العراق والشام كان ينحر على مائدته كل يوم عشرين جزوراً يُطعمها  
الناس ، وكان له عيون يجتمعون عنده إذا أمسوا فيخبرونه بكل ما رأوه يومهم . وأمر  
ليلة بعد أن فرغ الناس من العشاء بإحصاء الذين طعموا على موائده فكانوا سبعة آلاف  
رجل . وأحصيت العيالات التي لم تأت والمرضى والصبيان فكانوا أربعين ألفاً . وزاد  
هؤلاء وأولئك بعد أيام فكان الذين تغشوا عنده عشرة آلاف والآخرين خمسين ألفاً .  
وكان العمال يُقدّمون في السجّر إلى قدور عمر فيعملون حتى يصبحوا ، ثم توزع العصيدة  
ويوزع اللحم على المرضى والصبيان والعيالات ممن لا يبالون طعامهم على موائد أمير المؤمنين .

(١) آيلة هي العقبة اليوم .



وكان عمر يتعهد هؤلاء جميعاً بنفسه ليطمئن إلى أنهم حصلوا على ما يدفع عنهم غائلة الجوع . وكان يرسل الدقيق والتمر والاذم إلى منازل القادرين على تهيتها لغذائهم شهراً بشهر ؛ يوزع ذلك عليهم في نظام يشبه نظام « البطاقات » أيام الحروب في عهدنا الحاضر ، يزيد فيه وينقص منه على قدر ما عنده . وكان لذلك يقول : « لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسمهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم <sup>(١)</sup> » .

مع هذه العناية من عمر بالعرب جميعاً فشا المرض في الناس ، وهلك منهم كثيرون ، فكان يتعهد المرضى ، ويبعث بالأوكافان لمن مات ويصلي عليهم . وقد استطاع خلال الأشهر التسعة التي قاسى الناس فيها هول الكارثة أن يخفف منها ما قدر أمراء الأنصار على إمداده . فلما قصرت مواردهم ازداد في شبه الجزيرة المرض والموت وبلغ الهول منهم أشده ، فلم يجد عمر ملجأ من الله إلا إليه . لقد كان طيلة هذه الأشهر التسعة يصلي بالناس العشاء ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلي حتى آخر الليل ، ضارعاً إلى الله ألا يجعل هلاك الأمة على يديه . فلما لم يستجب ربه دعائه ، ولم تُسعف السماء الناس بمطر ، عزم على أن يستسقى ، فكتب إلى عماله أن يخرجوا بالناس في يوم عيَّنه ، وأن يتضرعوا إلى ربهم أن يرفع الحجل عنهم ، ويخرج هو بالناس ذلك اليوم وعليه بُرد رسول الله ، فلما انتهى إلى المصلى تضرع وتضرع الناس وألحوا في الدعاء ، وبكى عمر بكاء طويلاً حتى أخضل لحيته . وكان العباس بن عبد المطلب قائماً إلى جنبه ، فأخذ عمر بيده ورفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك ! » ، ودعا العباس ربه وعيناه تهلان . وأقام الناس يدعون ربهم تضرعاً وخشية وقد أيقنوا الموت إن لم يُسعفهم الله بالمطر .

(١) أورد ابن سعد في الطبقات روايات كثيرة عن عناية عمر بالناس وقسوته على نفسه وأولاده . من ذلك أنه أن بلجيم فيه سمن فأبى أن يأكله وقال : كل واحد منهما آدم . واستسقى رجلاً فأتاه بصل فرده وقال : وانه لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة ! ورأى بطيخة في يد بعض ولده فقال : بخ ، بخ ، يا بن أمير المؤمنين ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هنلى ! فخرج الصبي هاربا بيكي فسكت عمر بعد ما علم أنه اشتراها بكف من توى . ومر عام الرمادة على امرأة وهي تعصد العصيدة فقال : ليس هكذا ، فأخذ السوط فإراهها . ورآه أبو هريرة يحمل جرابين وعكة زيت فرأى قوماً مستئين فطبخ لهم حتى شبعوا . الخ . الخ .

واستجاب الله لعباده المؤمنين الذين صدقوه ما عاهدوا عليه ؛ إن الله بعباده لرؤوف رحيم .  
استجاب الله لعباده ، ففتح أبواب السماء بماء منهمر وسيل دافق . وسرعان ما ربت  
الأرض واخضرت ، فلم يبق للأعراب الذين قدموا المدينة أن يقيموا بها . لذلك جعل عمر  
يسير بينهم يقول : أخرجوا ! أخرجوا ! إلقوا ببلادكم ! يخشى أن يظل منهم بالمدينة من  
يظنها ألين عيشاً . بل إنه وكل بهؤلاء الأعراب من يُخرجونهم إلى باديتهم ويعطونهم  
قوتاً وحملاتاً تبلغهم منازلهم ، ثم كان يُخرج بنفسه من يحتاج خروجهم إلى أمره . فلما  
بلغوا مساكنهم عادوا إلى مألوف حياتهم ، وإن لم يجدوا من أعطيات الفئ ما يرفقه عنهم ؛  
فقد شغل عمر بهذه الجماعة في شبه الجزيرة فشدد أوامره إلى جنده ألا يقاتلوا عدوهم  
إلا إذا أكرهوا دفاعاً عن أنفسهم .

لم يبعث عمر جباته عام الرمادة ليقبضوا الزكاة ، بل أصرهم إلى أن ارتفع الجذب .  
فلما اطمأن الناس إلى العيش وكثرت عندهم مادته ، أمر الجبابة أن يسيروا إليهم وأن يأخذوا  
من كل قادر حصتين : حصّة عن عام الرمادة ، وأخرى عن العام الذي بعده ، وأن يقسموا  
إحدى الحصتين على المعوزين ، ويقدموا عليه بالثانية . بذلك زاد في تخفيف الفقر عن  
الفقراء ثم لم يرهق ولم يحملهم ما لا طاقة لهم به .

يجدر بنا أن نقف هنيهة هاهنا ننظر في سياسة عمر كما تجلّوها تصرفاته أثناء هذه الشدة  
التي أصابته وأصابت قومه . ولسنا نريد بوقفنا أن نبدي ما تثيره هذه التصرفات  
في النفس من إعجاب بعمر وإكبار له ، وإنما نريد أن نستشف من هذه التصرفات  
فكرة مجلّة عن صورة الحكم كما ارتسمت في ذهن رجل ألقى عليه الأقدار أن يكون  
أول باديء بتفصيل نظام الحكم في الجماعة الإسلامية . وأشد هذه التصرفات أخذاً بالنظر  
حملُ عمر على نفسه وقسوته عليها ، وأنه لم يكن يحمل عليها رغبة عن الطيبات مما رزق الله ،  
فالإسلام لا يدعو للرغبة عنها ، وإنما كان يفعل ليشعر بشعور الضمءاء والمعوزين  
وذوى الحاجة . وذلك قوله : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسه ! » .  
لذلك نزل بعيشه إلى مستوى حياة الفقراء الذين لم يكونوا يجدون إلا مائدته يجلسون  
إليها مع الأوف من الجائعين لينالوا ما يُبقي عليهم الحياة ، فكان يأكل معهم ولا يرضى

أن يتناول طعامه في بيته حتى لا يظن أحد أنه يُؤثر نفسه بشيء لا يناله ذو الفاقة من قومه . وقد حقق بتصرفه هذا غرضين جليلين : أولهما الشعور بألم الناس شعوراً يدفعه إلى مضاعفة الجهد في العناية بهم والعمل لرفع الضر عنهم ؛ والثاني طمأنينة السواد إلى أن أمير المؤمنين يشاركهم في بأسائهم وضرائهم ، فلا تثور نفوسهم ، بل يظنون راضين بكل ما يصيبهم ، لأن أكبر رجل في الدولة يشاركهم فيه . وقد بلغ عمر من هذين الغرضين خيراً ما يبلغه حاكم في أية أمة من الأمم .

كان عمر إذاً يرى أن أول واجب على وليّ الأمر أن يجعل حياته في مستوى الحياة لجمهور الشعب . لكنه كان يرى كذلك أن يدع القادرين على تدمير المال واستغلال الأرض يستمتعون بطيبات الرزق ، ليزيدهم المتاع بها حرصاً على إتقان العمل وسعيّاً لزيادة خيراته ومضاعفة ثمراته . بذلك يزداد جمهور الشعب لولّي الأمر حبّاً ، وبسياسته تعلقاً ، وعلى التضحية في سبيل هذه السياسة إقبالاً ؛ وتزداد مكانة وليّ الأمر في نظر القادرين وذوى المسكنة سموّاً إذ يرون تعلق الشعب به ومحبته له ، فلا يدور بخلد أحدهم أن يناوئه أو يخرج عليه ؛ ثم تزداد أواصر الودّ بين طبقات الشعب المختلفة تمكينةً ، لأن وليّ الأمر يقوم من هذه الطبقات مقام القلب من جسم الإنسان ، يوزّع بينهما أسباب الحياة بالتقسط ، ويوجهها جميعاً للخير العام .

لم تسكد المجاعة تنقضى ويرفع الله عن الناس الضر حتى روعهم النبا بانتشار الوباء في الشام وامتداده إلى العراق . فقد فشا الطاعون في عمّاس من أرض فلسطين ، ثم انتقلت عدواه إلى الشام ، فجعل يفتك بكل من يصابون به فتكا ذريعاً مزعجاً . لم يكن الواحد منهم يكاد يُطعم حتى يدركه الموت ، وأكثر الذين كانوا يُطعمون ! وطال هذا الوباء شهراً هلك أثناءها من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً ، فيهم من أكابر الناس وأشرفهم عدد غير قليل ؛ منهم أبو عبيدة بن الجراح ، ومُعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان ، والحارث بن هشام ، وسُهَيْل بن عمرو ، وعتبة بن سهيل ، وغيرهم ممن في طبقتهم . وكان الحارث بن هشام قد خرج من المدينة إلى الشام في سبعين من أهل بيته فماتوا جميعاً لم يبق منهم إلا أربعة . وقيل إن أربعين من ولد خالد بن الوليد ماتوا في هذا الطاعون الذي انتشر

في الجند كما انتشر بين المدنيين ، فأفزع الناس وأخافهم عواقبه . فلو أن أعداءهم حاولوا العود إليهم لعجزوا هم عن مقاومتهم . لكن الروم أشفقوا من الوباء أن يصيبهم منه ما أصاب المسلمين ، فلم يفكروا في الرجعة إليهم خوفاً على أنفسهم من هذا الهول الذي فدح عدوهم . لم تكن أنباء هذا الوباء مزعجة أول انتشاره . وكان عمر قد أزمع الذهاب إلى الشام ينظّم شأنه بعد ماتم فتحه وسار من المدينة ، حتى إذا بلغ سرغ على مقربة من تبوك لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشريحيل بن حسنة فأخبروه أن الأرض سقيمة ، وذكروا له طرفاً من أنباء الطاعون وشدة إصابته . وراع عمر ما سمعه منهم ، فلما أمسى جمع المهاجرين الأولين يستشيرهم : أيتابع طريقه إلى الشام مع ما فيها من وباء أم يعود أدراجه إلى المدينة ؟ واختلف رأيهم ، فمن قائل : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ؛ ومن قائل : إنه لبلاء وفناء مانزى أن تقدم عليه واختلف الأنصار كما اختلف المهاجرون كأنما سمعوا قولهم فأعادوه . هنالك جمع عمر مهاجرة الفتح من قریش فاستشارهم ، فلم يختلف عليه اثنان ، بل قالوا جميعاً : رجع بالناس فإنه بلاء وفناء . وأمر عمر فنادى ابن عباس في الناس ليُعدوا وراوحلهم متى أصبحوا . فلما صلوا الصبح التفت عمر إليهم وقال : إني راجع فارجعوا .

لم يكن أبو عبيدة حاضراً مشاورات عمر وما انتهى إليه من رأى ، فلما عرف ذلك قال له : « فراراً من قدر الله يا عمر ! » ودهش الخليفة لهذا الاعتراض ، ونظر ملياً إلى أبي عبيدة ثم قال : « لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ! نعم ! فراراً من قدر الله إلى قدر الله . وأطرق هنيهة ثم أردف ، « رأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان أحدهما خضبة والأخرى جدية ، أليس يرعى من رعى الجدية بقدر الله ، ويرعى من رعى الخضبة بقدر الله ! » .

خلا عمر بأبي عبيدة بعد هذا الحديث يتذاكران في شؤون الشام وفيما يجب أن يقابل الوباء به . وإنهما لفي حديثهما إذا أقبل عبد الرحمن بن عوف فرأى الناس في هرج ، فسألهم ما شأنهم ، فلما أخبروه الخبر قال : عندي من هذا علم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأتم به فلا تخرجوا فراراً منه . واطمأن عمر لهذا الحديث وقال : الحمد لله ، انصروا أيها الناس ! .

وعاد عمر بالناس إلى المدينة ، وعاد أسراء الأجناد ومن معهم إلى أعمالهم . وجعل عمر يفكر في أسر المسلمين بالشام وفيما دهاهم من فتك الطاعون ، فأخذته الشفقة بأبي عبيدة أن يصاب به وأن يتوفى منه . وكان عمر يرجو أن يطول بأبي عبيدة العمر ليخلفه على إمارة المؤمنين . أليس أبو بكر قد دعا الناس لمبايعة أحد الرجلين : أبي عبيدة أو عمر ، فباع الناس أبا بكر ، ثم بايعوا عمرًا ؛ فجدير به أن يستخلف أبا عبيدة وأن يدعو الناس لمبايعته ؛ فإذا توفى في الطاعون فمن ذا ترى عمر يستخلف ؟ هذا إلى أن عمر كان يحب أبا عبيدة أصدق الحب ، ويضعه في أسنى مكان من نفسه ، ولذا فكر في إبعاده عن الشام لاستخراجه من الوباء . لكنه كان يعرف ما انطوت عليه نفس صاحبه من صدق الإيمان بالله وبفكرة الواجب ، وأنه لن يدع رجاله بالشام فراراً بنفسه من قدر الله ، فكتب إليه فلم يشر إلى شيء مما دار بنفسه ، بل قال له : « أما بعد ، إني قد عرضتُ لى إليك حاجة أريد أن أشفئك فيها فعزمت إليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى » . وقرأ أبو عبيدة الكتاب فأدرك مراد عمر ، وأنه إنما حرص على أن يستخرجه من الوباء ، فقال : يغفر الله لأمر المؤمنين ! ثم كتب إليه : « إني قد عرفت حاجتك إلى ، وإني في جنده من المسلمين لأجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله في وفيم أمره وقضاءه . فخلاني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى في جندي » . وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى ، فسأله من حوله : أمات أبو عبيدة ؟ فأجاب ولا يزال الدمع آخذاً بخناقه : « لا ! وكان قد » .

وددت لو أنى وقفت عند كلمة عمر حين اعترض أبو عبيدة عوده إلى المدينة بقوله : أفراراً من قدر الله . وأود لو أقف الآن عند هذين الكتابين اللذين تبادلها عمر وأبو عبيدة . ففي كلمة عمر وفي الكتابين ما يجلو لنا صفحة من حياة ذلك العصر فيها عناصر قوته وأسباب انفساح الإمبراطورية الإسلامية فيه . لكنى أوثر أن أقص ما حدث إلى أن رفع الله البلاء وإلى أن عادت الحياة في الشام سيرتها الطبيعية ، فذلك يزيد هذه الصفحة جلاء ، ويكشف عن تفكير المسلمين الأولين من أصحاب رسول الله ، وعن حريتهم في هذا التفكير وعدم تقيدهم إلا بالحق يملك عليهم بصائرهم ، ويهديهم الله إليه على علم .

قرأ عمر كتاب أبي عبيدة فسكى ، وأخذ يفكر في الوسيلة لإيقاد أهل الشام مما نزل بهم ، وشاور أهل الرأي ، ثم كتب إلى أبي عبيدة يقول : « إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فأرفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » . وإن أبا عبيدة ليفكر في تنفيذ هذا الأمر إذ طعن فئات ، خلفه معاذ ابن جبل ، فطعن ابنه ثم طعن هو وماتا جميعاً . واستخلف معاذ عمرو بن العاص فخطب الناس فقال : إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتمل اشتعال النار فتحصنوا منه في الجبال . ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في المرتفعات ، فأذهب ذلك شدة الوباء وانتهى بزواله . وبلغت عمر مقالة ابن العاص فلم يكرهها ، بل رأى فيها تنفيذاً للأمر الذي بعث به إلى أبي عبيدة .

ماعة هذا الوباء ؟ وإلى أى سبب يرجع ؟ ليس فيما لدينا من الروايات ما يحلو لنا هذه العلة ، ويكشف لنا عن سبب نطمئن إليه ونقتنع به . وإن بعض التأخرين ليذهبون إلى أن طاعون عمواس نجم عن كثرة القتلى في الميادين كثرة تعذر معها دفن أكثرهم ، فأثار ذلك في الجو من الميكروبات ما كان سبب الوباء أمّا المتقدمون من المؤرخين فيردون سببه إلى غضب من الله استنزله أبو عبيدة على أهل الشام لشرب جماعة من المسلمين فيه الخمر . فقد كتب إلى عمر : « إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب ، فسألناهم فتأولوا وقالوا خيرنا فاخترنا ، قال : قول أنتم منتهون ولم يعزم علينا » . ولم يكن القرآن قد نص على حد الخمر ، ولم يحد رسول الله ولا حد أبو بكر شارباً لها . لذلك جمع عمر أصحاب الرأي بالمدينة ، وقص عليهم ما جاء في كتاب أبي عبيدة ، فرأوا أن عبارة القرآن : « فَمَنْ أُنْتَمِ مِنْتَهُنَّ » ، تعنى الأمر ، أى فانتهاوا ، وأجمعوا على أن يضرب الذين شربوها ثمانين جلدة وأن يُفستقوا<sup>(١)</sup> . وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم ، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين . ودعاهم أبو عبيدة وسألهم على رموس الناس ، فقالوا : إن الخمر حرام ، فجلدهم ثمانين ثمانين وقال : ليحدثن فيكم بأهل الشادم حادث ، فكان الطاعون .

(١) تجرى طائفة من الروايات بأن عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل ، فأشار على ابن أبي طالب بأن يحد حد القذف فيضرب ثمانين ، وقال في تعليل ذلك : إن الرجل إذا شربها سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري . وأخذ عمر بهذا الرأي فجلد في الخمر ثمانين — راجع الموطأ ص ٣١١ .

وأحسب الأكثرين اليوم يؤثرون رأى المتأخرين أو مايمائله ، ولا يرون دعاء  
 أبي عبيدة على أهل الشام سبب الوباء . وقد سقت الكلمة التي نسبت إلى أبي عبيدة  
 وإننى لنى ريب من صدورها عنه . فما كان له أن يرجو هذا البلاء المالح لأهل الشام  
 جميعاً لغير شيء إلا أن بعضهم شرب الخمر . فما أكثر ما يرتكب الناس من آثام أعظم  
 من أم الكبائر ثم لا يرسل الله عليهم البلاء حاصداً يصيب للذنب والبريء ! وأبو عبيدة  
 رجل رقيق الطبع شديد الإيمان ، أبر بمن يسوسهم من أن تصدر عنه هذه الكلمة .  
 ما بالك وفيمن يسوسهم من الجند من رأيت من وفائه لهم ما يشهد به كتابه لعمر حين  
 دعاه إلى المدينة ليستخرجه من الطاعون ! على أن ربنا في صدور هذه الكلمة من  
 أبي عبيدة لا يبنى أن قوماً شربوا الخمر ، فلما سألم تأولوا قوله تعالى : « فَهَلْ أُنْتُمْ  
 مُنْتَهُونَ » ، وأنه رفع أمرهم إلى عمر ثم أوقع عليهم الحد تنفيذاً لأمر الخليفة . فتواتر  
 الرواية بهذا الحادث وتنفيذ الحد في عهد عمر ومن بعده يقطع بصحتها . وهى تتفق  
 وما حدث في حياة النبي حين دعا عمر الله أن يبين لهم في الخمر ، وأن يبين لهم فيها بياناً  
 شافياً ، لأنها تذهب العقل والمال . لا عجب وذلك شأنه أن يقسو على شاربها وأن يضع  
 لها الحد وأن يقيمه في خلافته ، فيقام من بعده على أنه من حدود الله .

وأياً ما كان سبب الوباء فقد أدى تفرق الناس في المرتفات ، استجابة لدعاء عمرو  
 ابن العاص ، إلى ذهاب شدته ثم إلى زواله بعد أن أفنى من المسلمين بالشام خمسة وعشرين  
 ألفاً ، وبعد أن انتقل من الشام إلى العراق ففتك فيه بأهل البصرة أشد مما فتك بغيرهم .  
 وكان أهل البصرة من خيرة جند المسلمين . مع ذلك لم يفكر يزدجرد في استرداد العراق  
 أكثر مما فكر هرقل في استرداد فلسطين أو الشام ؛ فقد خشى ما خشيه هرقل أن يصاب  
 جنوده بالوباء وأن ينتقل معهم إلى أرض فارس ، فتكون الطامة شرّاً من الحرب وآثارها .  
 كيف يواجه عمر الموقف بعد أن زال الوباء ؟ إنه إن يترك الشام على حاله بعد فناء من  
 فنى من المسلمين ، وبعد أن مات من جندهم به عدد عظيم ، يتعرض الفتح فيه لعواقب  
 لا يرضاها . فقد يفكر الروم في القدوم إليه يحاولون استرداده . ثم إن النظام الاقتصادى  
 فيه قد شابه اضطراب سببته موارد الذين ماتوا ، وهو لا يأمن أن يثير توزيع التركات

ثأثرات بين المسلمين أنفسهم . فليس له إلا أن يذهب بنفسه ، فينظر في ذلك كله ويضع كل أمر في نصابه . لذا فصل من المدينة في جماعة من الصحابة وخلف علياً عليها ، واتخذ الطريق إلى أيلة . فلما بلغها دفع إلى أسقفها قميصاً له قد انجذب مؤخره عن مقدمه من طول السير ، وقال له : اغسل هذا وارقععه . وغسل الأسقف القميص ورقعه ، وخاط قميصاً آخر مثله ، وعاد بالقميصين إلى عمر وقال له : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته ، وأما هذا فكسوة لك مني . فلبس عمر قميصه وردّ الآخر وقال : هذا أنشفهما للعرق .

وسار عمر من أيلة فنزل الجابية فجاءها مقرّه . وذكر له عماله بالشام وفلسطين ما كان من أمر المسلمين وما نزل بهم ، فزار بلاد سورية جميعها ، وتفقد شؤون المسلمين في شتى أرجائها ، وبذل لهم ، ورتب منازلهم بدمشق وحصص وسائر المدن التي بلغ فيها فتك الوباء أشده . ثم إنه نظم ثغور الشام ومسالحه ، وأعاد توزيع القوات في كوره ، وسعى الرجال الذين عينهم عليها ، فلما فرغ من ذلك قسم المواريث ، فورث بعض الورثة من بعض ، وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم . بذلك استقر كل أمر في نصابه ، وعاد كل شيء إلى نظامه ، واطمأن الناس بعد طول الفزع ، ولم يفكر الروم في الرجعة إلى الشام .

وكان عمر حين جاءه النبا بموت أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان قد ولّى مكانهما شُرْحَبِيل بن حسنة ومعاوية بن أبي سفيان . فلما كان بالجابية عزل شرحبيل عن عمله . وسأله شرحبيل : أعزّله عن سخطة ؟ فقال : لا ! إنك لكما أحب ، ولكنني أريد رجلاً أقوى من رجل . قال شرحبيل : فاعذرني في الناس لا تدركني هُجْنَة . فقام عمر فقال : « أيها الناس ! إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة ، ولكنني أردت رجلاً أقوى من رجل » . والحق أن شُرْحَبِيل كان قائداً قادراً حسن المداورة بالجيش ، لكنه لم يكن رجلاً سياسة يعرف كيف يوجه الناس إلى أغراضه القريبة والبعيدة . أما معاوية فكان على شبابه سياسياً محمّكاً ذا بصر بموارد الأمور ومصادرهما .

ولما قفل عمر من رحلته بالشام إلى الجابية يريد المدينة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ألا إني قد وليت عليكم ، وقضيت الذي عليّ في الذي ولّاني الله من أمركم إن شاء الله . قسطنا بينكم قنياًكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا مالديكم فجددنا لكم الجنود



وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤؤكم وماقاتلتم عليه من شأنكم ، وسمينا لكم أطعاكم ، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم . فمن علم علم شيء ينبغي العمل به فباعتنا ، نعمل به إن شاء الله .

وحضرت الصلاة وكان عمر قد أزمع الرحيل بعدها ، فقال له الناس : لو أمرت بلالاً فأذن ! وكان بلال قد انقطع عن الأذان منذ قبض رسول الله ، فأراد الناس سماعه بعد إذ رفع الله عنهم البلاء ، ليدذكروا نعمته جل شأنه ، إذ أرسل رسوله إليهم فهداهم للإسلام وأورثهم الأرض ووطد لهم أكنافها وأذل لهم الفرس والروم ؛ فلما أصابهم الضر رفعه عنهم ولم ينزل به نعمته عليهم . وأذن بلال بصوته الندى لم تغير منه السنون ، فأحيا في نفوس الذين أدركوا رسول الله عهداً كانوا يقفون فيه وراءه صلى الله عليه وسلم صفوفاً مترابطة يصلى بهم ، ثم يحدثهم فيزيدهم هدى ، فلم يبق من هؤلاء واحد إلا بكى حتى بللت دموعه لحيته . وبكى من يدرك النبي لبكائهم ، كان عمر أشدهم بكاءً لأنه كان أكثرهم لفضل الله ولفضل رسوله ذكراً . ولقد ظل هذا النداء للصلاة ، أرسله مؤذن النبي للمرة الأولى والأخيرة في جوالشام على مقربة من بيت المقدس ، علماً في التاريخ على فتح المسلمين هذه البلاد ، واستقرار الإسلام فيها ، وفراره بها إلى يوم الدين . لذلك لا ينسى مؤرخ أن يذكره ، فهو لذاته نصر من الله وفتح مبين .

ودع عمر أهل الشام وعاد إلى المدينة وقد استقر عزمه على أن يزور العراق . لكن الله لم يشأ له أن يزوره . وقيل إنه كان أزمع الذهاب إلى العراق قبل مسيرته إلى الشام ، فإذا بلغ شماله انحدر إلى حلب ودمشق من الفراض ، فصرفه كعب الأخبار عن عزمه وجعله يبدأ بالشام ، فكانت رحلته إليه آخر رحلة خارج شبه الجزيرة<sup>(١)</sup> .

(١) تجرى بعض الروايات بأن كعب الأخبار خالف على بن أبي طالب عن رأيه في العراق . قيل إن عمر دعا الناس فذكر لهم أنه بدا له أن يطوف على المسلمين في بلدانهم وينظر في آناهم وأنه استشارهم في ذلك . وسأله كعب الأخبار بايها يريد أن يبدأ ، قال عمر : بالعراق ؛ فقال كعب : لا تفعل فإن الشر عشرة أجزاء تسعة منها بالمشرق وجزء بالمغرب ؛ وبالمشرق قرن الشيطان وكل داه عضال . وقال على ابن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ، إن الكوفة للهجرة بعد الهجرة ولانها لقبه الإسلام . ليأتينها يوم لا يبقى مسلم إلا حن إليها . قال عمر : إن مواريت أهل عمواس قد ضاعت . فابداً بالشام لقسم المواريت ، وأقيم =

أما وقد فرغنا من حديث عمّاس وطاحونها وموقف عمر منه ، فلنتحدث عن دلالة ما وقع فيه على حرية المساهمين العقلية لذلك العهد ، وعمّا انطوت هذه الحرية عليه من عناصر القوة ، وكيف فتحت لهم أبواب الإمبراطورية العظيمة التي ظلت تزداد على الأيام فسحة وعظمة حتى غير المسلمون ما بأنفسهم فغير الله ما بهم .

لما سار عمر يريد الشام فلقبه أمراء الأجناد بسرغ وذكروا له أن الأرض سقيمة فأمر الناس بالعود إلى المدينة ، اعترضه أبو عبيدة بن الجراح بقوله : « أفراراً من قدر الله يا عمر ! » فقال : « نعم ! فراراً من قدر الله إلى قدر الله » . وهذا الاعتراض وهذا الجواب يصوران التفكير القدرى وما وقع عليه من خلاف لا يزال قائماً إلى اليوم . ونحسب كلمة عمر أدق تصويراً للقدرية الإسلامية . فابن الجراح والذين أشاروا على عمر بالسير إلى الشام وقالوا له : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك — هؤلاء إذ يؤمنون بأننا لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وبأن لكل أجل كتاباً فإذا جاء أجلهم فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ، يرون أن تفكيرنا أقصر من أن يردّ عادية القدر عنا ، فإذا اعتزمنا أمراً وجب لذلك علينا أن نغض الطرف عن كل ماسواه ، وأن نمضى قدماً في سبيله ، لا يصدنا دونه بلاء يعرض أو عقبه تقوم . وهذا الرأي يؤمن به أمراء الجند مصدر قوة ليس كئنها قوة . والجندي الذي يؤمن بالله مكفول له النصر لا محالة . فأول ما يقضى به الإيمان الصحيح ألا يهاب الجندي الموت ، وأن يقدم عليه مغتبطاً به ، فإن استشهد ففي سبيل الله وفي سبيل الوطن وفي سبيل القضية التي ينصرها ، وإن ظفر فعاش كان ذلك له نجر الأبد . وإيمان الجند بهذا الرأي هو الذي نصر المسلمين في مختلف الميادين ؛ لأنهم آثروا الشهادة في سبيل الله ، فوهب لهم الله حياة كرامة وعزة . لكن القدرية بهذا المعنى العظيم الأثر في حياة الجندي لا يمكن أن تكون القدرية كما يجب أن يفهمها السياسي المسئول عن مصالح الناس ومصيرهم في الحرب وفي غير الحرب ، وكما يجب أن يفهمها الفكر الذي يقبّل الأمور على وجوهها وينظر فيها من كل نواحيها .

== لهم ما في نفسى ، ثم أرجع فاتقلب في البلاد وأبدى لهم أمرى . ويرى بعض النقاد أن العبارة المنسوبة لعلي بن أبي طالب إنما نسبت إليه لتتفق مع ما حدث من بعد حين اتخاذ الكوفة عاصمته ، وأنه لم يكن ليفرق بين الشام والعراق . كما يرون أن الرواية المنسوبة لكعب الأجار مستحدثة هي أيضاً .

فصحيح أن لكل أجل كتاباً ، وأن تفكيرنا أقصر من أن يردَّ عادة القدر عنا. لكننا يجب مع ذلك أن ننظر في الأمور وأن نتدبّرّها لنُحسن التصرف فيها إلى غاية ما يهدينا إليه علمنا وعقلنا . وما يهدينا إليه العقل والعلم وحسن التفكير هو من قدر الله ، كما أن إقدام الجندى على الموت في ميدان القتال وما يصيبه نتيجة هذا الإقدام هو من قدر الله . وأول واجب على أمير الجند ألا يُلقَى بجنده إلى التهلكة بسوء رأيه ، ألا يعرّضهم للموت حتى يستقر رأيه على ملاءمة الأحوال لخوض المعركة ؛ فإذا خاضها وجب عليه أن يعمل للانتصار فيها بأقل تضحية ممكنة . وأول واجب على السياسي ورجل الدولة ألا يعرّض نفسه ومن يسومهم إلى هلكة يستطيع تجنبها ، أو يستطيع إنقاذ الناس منها ، من غير إضرار بمصلحة الدولة العليا وسياساتها للحاضر والمستقبل . فإذا ظفر من ذلك بما أراد كان ظفره نخرأ له كفضخ الجندى بانتصاره ، ثم كان هذا الظفر قدراً من الله رحمةً بعباده .

وذلك مارآه الذين قالوا عن الطاعون إنه بلاء وفناء ، وأشاروا على عمر أن يرجع إلى المدينة فسمع إلى مشورتهم ، وكان سماعه لها ونزوله عليها الحكمة كل الحكمة . فلو أنه سار إلى الشام فطعن فمات لأصابت المسلمين خسارة عظيمة قد تنتقض بسببها عليهم أمورهم . ولو أنه سار إلى الشام فطعن بعض أصحابه فعاد بسائرهم فانتقل الوباء إلى شبه الجزيرة لتمرّض أهلها لكارثة تَوَفِّيَتُهُمْ إياها أول واجب على أمير المؤمنين . وهو حين يقرّ من الموت ويتحاشى نقل الوباء إلى شبه الجزيرة إنما يقرّ من قدر الله ، إلى قدر الله ، فيجنب نفسه ويجنب شبه الجزيرة كارثة لم يردّها الله لهم .

والمثل الذي ضربه عمر لأبي عبيدة في هذا المقام يفسر رأيه في القدرية خير تفسير . فإذا وجد راع وادياً فيه عدوة خصبة وأخرى جدبة ، فرعى الجدبة رعاها بقدر الله ، وإذا رعى الخصبة رعاها بقدر الله . ذلك إنه إما عالم بهما فاختار بينهما ، فاختاره قدر من الله لأن عقله الذي وهبه الله له هو الذي هداه إليه ، أو جاهل لهما فراع ما أمامه بقدر الله لأن الأخرى مغيبة عليه فلا اختيار له بين العدوتين . وقد عرف عمر العدوتين في أمر الشام ووبائهما ، فوجب عليه أن يختار بينهما . وقد استشار فاختار فقرّ من قدر الله إلى قدر الله .

ولقد زاده الله اطمئناناً إلى اختياره ما رواه عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله أنه قال :  
« إذ سمعتم بهذا الوباء في بلد فلا تَقَدَّمُوا عليه ، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه . »  
فهذا الحديث يفرض الحجر الصحي على ما نفهمه في عصرنا الحاضر ؛ إذ يعزل البلد الموبوء  
عن غيره من البلاد ، ثم يعزل الأصحاء من أهله عن المرضى ، ولا يسمح لهؤلاء الأصحاء  
أن يختلطوا بغيرهم في بلد آخر مخافة أن يكون الداء جنيناً فيهم ، فننتقل عدواه منهم  
ولو لم تظهر آثاره عليهم . والاحتياط لمثل هذا الاحتمال واجب . وهذا الاحتياط هو الذي  
دعا أمير المؤمنين لأن يجعل بالعود إلى المدينة .

وليس يمنع الحجر الصحي الناس من أن ينتجعوا في حدود بلادهم مكاناً يرونه أذهب  
للداء عنهم . وذلك ما كتب به عمر إلى أبي عبيدة إذ قال له : « إنك أنزلت الناس  
أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » . وهو بعينه ما أشار به عمرو بن العاص  
حين طلب إلى الناس أن يتَجَبَّلُوا من الطاعون في الجبال . ولم يكره عمر رأى ابن العاص  
لأنه رآه فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، توجيه الحكمة ويقضى به العقل وتفرضه الروية .  
ومعنى ذلك أن ما نكسبه في الحيلة إنما نكسبه بقضاء وقدر . والعامل الحكيم يهديه الله  
إلى الخير فيكون ذلك قدر الله له ، فإذا لم يكن عن إنسان تفكيره فأصابه ما يؤذيه كان  
ما يصيبه قدر الله له .

أترى إلى هاتين النظريتين في مدلول القدرية ، يؤيد إحداهما أبو عبيدة وطائفة  
من المسلمين معه ، ويؤيد الأخرى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ، ويؤمن  
كل من الفريقين بأن له الحرية التامة في التمسك برأيه ، وعليه في نفس الوقت أن يحترم  
الرأى الآخر ، ثم لا يطمئن تأييده هذا الرأى أو ذاك في عقيدته ولا يغير من حسن إيمانه  
وإسلامه . أمّا وعمر أمير المؤمنين فرأيه هو الذي ينفذ ، ثم يبقى أبو عبيدة ومن معه  
على رأيهم لا يبدلونه ولا ينزلون عنه ، ويبقى عمر على احترامهم واحترام رأيهم كما يبقون  
هم على احترامه واحترام رأيه .

هذه الحرية العقلية وما أدت إليه من تبادل الاحترام بين هؤلاء المسلمين الأولين  
كانت عنصر قوتهم وسبب ظفرهم بعدوهم وتغلبهم عليه وفتحهم بلادهم . ذلك بأنهم كانوا

يؤمنون بأن كل واحد منهم إنما يصدر في رأيه عن قصد الخير للجماعة ، وأنه يتجرى الحق لوجه الله جل شأنه . واختلاف الآراء في طبيعة الإنسان مادام حراً عزيز الجانب . وإنما يُغلب رأى على رأى حين تراه الجماعة حقاً تقضى مصلحتها بتغليبها . ومصلحة الجماعة متأثرة أبداً بأحوال تتغير بتغير الزمان والمكان ، فلا ضير عليها أن تغلب رأى الذى تراه حقاً في زمانها ومكانها ، وأن يبقى من يخالفونها عن رأيها أحراراً ما قصدوا إلى الخير وابتغوا برأيهم وجه الحق وحده .

قدمت أن رأى عمر هو في نظرى أدق تصويراً للقدرية الإسلامية . وهو يتفق كذلك مع الجبرية العلمية كما نفهمها نحن في هذا العصر ، وكما فهمها فلاسفة الإغريق منذ أكثر من ألفى سنة . وهذه الجبرية تذهب إلى أننا غير مختارين في رأى أو عمل ، وأن اختيارنا لهذا الرأى أو ذاك ، ولهذا الأمر أو ذاك ، يتأثر بعوامل كثيرة لاسطغان لنا عليها ، من بينتنا وورائتنا ونشأتنا التعليمية وحالنا الصحية كما يتأثر بفرائزنا الإنسانية وبأهوائنا الذاتية . وكثيراً ما وجه حياتنا ووجه تفكيرنا وعلما حادث طارئ لم يكن في حسابنا ولا في حسيان غيرنا . والبيئة والوراثة والنشأة والفرائز والأهواء والطوارئ كلها من قدر الله الذى لا تملك له تحويلاً ولا تبديلاً . لذلك كان فاراً إلى قدر الله من يفر من قدر الله .

أدت الحرية العقلية إلى تبادل الاحترام بين المسلمين الأولين ، فلم يكن ما حدث من خلاف في الرأى بين عمر وأبى عبيدة ليمنع عمر من التفكير في استخراج صاحبه من أرض الوباء إبقاء عليه لخيره وخير المسلمين . والكتتابان اللذان تبودلا بين الرجلين في هذا الشأن يقفان النظر ويثيران في الذهن شتى الفكر ؛ فأنت إذا نظرت إليهما من ناحية العاطفة رأيتهما مثلاً في الوفاء قل نظيره : وقاء من عمر لأبى عبيدة أمين الأمة وصاحبه في السقيفة والقائد السياسى الذى رضى أهل الشام حكمه ، ووفاء من أبى عبيدة لجنوده الذين خاضوا معه المعارك وبذلوا أنفسهم في سبيل الله وأظفروه بالروم أيما ظفر . وإن أنت نظرت إليهما من ناحية الخير العام للدولة الناشئة رأيت الرجلين يختلفان رأياً على هذا الخير وهما يلتقيان مع ذلك عنده . فعمر يعرف قدر أبى عبيدة وما للمسلمين من خير في بقاءه ، ويرى لذلك إنقاذه من وباء فتاك لا يفر لمن يموت به . وأبو عبيدة

يعرف واجبه لجنده ويرى مغادرته إياهم نجاةً بنفسه شرّاً مثل يضرب لهم ولن دونه من أسرائهم . هذا إلى أن كلا من الرجلين يستمسك في كتابه برأيه ، فلا يرى عمر بأساً من أن يفرّ الإنسان من قدر الله إلى قدر الله وهو يدعو أبا عبيدة إلى هذا الفرار؛ ويصرّ أبو عبيدة على ألا يفر مما كتب في لوح القدر وإن رأى الموت جائئاً أمامه ، فيبقى بالشام فيموت راضياً بقضاء الله وقدره . ويقرأ عمر كتاب أبي عبيدة ، ويرى مخالفته له وعدم إذعانه لأمره ، فلا يثور ولا يغضب ، ولا يرى في هذه المخالفة خروجاً على واجب النظام ، بل تأخذه الشفقة بصاحبه فيبكي إذ يراه وكأن قد مات .

هذه الثقة بين أمير المؤمنين وكبار المسلمين ، مع إكباره لهم واحترامه رأيهم ، كانت من عناصر القوة التي دفعت فتحهم ، فأسرع ونجح في أحوال رأينا من دقتها في القادسية وفي شمال الشام شهيداً على ما كان لإيمان المسلمين بالله من فضل في إقدامهم وجراتهم . وقد زادت هذه العناصر ثباتاً وقوة . ولا عجب ، فقد كانت الحرية المحترمة والنقمة المتبادلة قوام الإمبراطوريات الكبرى التي اكتسحت العالم في عصور مختلفة ، فوجهت سياسته وأقرت فيه حضارة تقدّم بها خطوات في سبيل الكمال .

لا أريد أن أختتم هذا الفصل من غير أن أشير إلى ما كان لأمر عمر بعزل شرّ حبيل ابن حسنة عن إمارة الأردن وإقامة معاوية بن أبي سفيان أميراً على الشام كله من أثر أدى من بعد إلى قيام الدولة الأموية ، وإلى انتقال العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق ، وإلى اختلاط العرب بغيرهم من العناصر التي دخلت في دينهم اختلاطاً جعل الدولة الناشئة تتطور لتصبح إسلامية أكثر منها عربية . فقد كان عمر لإكرامه بني هاشم لا يوليهم في البلاد المفتوحة ، بل كان يقيمهم بالمدينة مع كبار الصحابة ليشيروا عليه . وقيل له في ذلك فقال يوماً لابن عباس : «إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم .. والله ما أدري أحترمكم عن العمل ورفعكم عنه وأتم أهل ذلك ، أم خشى أن تهاونوا المكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب » . وكان معاوية رجلاً حكماً عصمته حكمته من أن تغشّى مطامعه على بصيرته ، حليماً صانه حلمه عن بطش القدرة ، نقيب النظر يتألف الناس بسلطانه ويجذبهم إليه بحسن حديثه وحسن حيلته . وطال

عهد به بالشام بقية عهد عمر ، ووليه أيام عثمان ، فاتمته سياسته بأهل الشام إلى تعلقهم به والتفافهم حوله ومناصرتهم له حتى على الأذنين من أهل بيت رسول الله ، فكان لذلك من الأثر في حياة الإمبراطورية الإسلامية ما كان .

ولم يكن عمر ليقدّر ما حدث من ذلك بطبيعة الحال ؛ فقد سكنت منافسات بني عبد الشمس وبني عبد مناف منذ أسلم أبو سفيان وقومه لفتح مكة ، وقدر أيت أبسفيان وبنيه وصدق إخلاصهم أثناء وقائع الفتح . لذلك نسي الناس الحفاظ القديمة . فلم تُثر إقامة معاوية على إمارة الشام في نفس شعبة ، ولم يفكر أحد فيما ترتّب من بعد عليها . وهل كان لأحد يومئذ أن يفكر في أن الثورات الكبرى كالعواطف الهوجاء ؛ تقتلع ما تقتلع ، وتذر وراءها من الآثار ما تذر ، ثم تبقى كوا من الأرض كما هي ، لتنتب بعد مرور العاصفة نباتها القديم في صورة تلائم الجو الجديد ؟ !

أقرّ عمر الأمور في الشام ، ثم ودّع أهله وعاد إلى المدينة مطمئناً إلى زوال الهوليين اللذين نزلوا بالمسلمين . واستقر بها زمناً سار بدهه إلى مكة على رأس المساهين يؤدي فريضة الحج كعادته كل عام . فلما فرغ منها عاد إلى المدينة يستقبل من أنباء الفرس ومن أنباء الروم في مصر ما يتجه به إلى سياسة جديدة يواجه بها أحداثاً كان يربو ألا تكون . فلننتقل معه لمستقبل هذه الأنباء ، ولنرى من أثرها في سياسة الإسلام والمسلمين ما يفسح رقعة الإمبراطورية إلى حدود الصين من الشرق وإلى حدود تونس من الغرب .

## موضوعات الجزء الثانى

---

- الفصل الخامس عشر : التوسع فى فتح فارس  
الفصل السادس عشر : غزوة نهاوند  
الفصل السابع عشر : القضاء على سلطان الأكامرة  
الفصل الثامن عشر : التفكير فى فتح مصر  
الفصل التاسع عشر : فتح مدينة مصر وحصونها  
الفصل التم للعشرين : فتح الإسكندرية  
الفصل الحادى والعشرون : مصر فى يد المسلمين  
الفصل الثانى والعشرون : حكومة عمر  
الفصل الثالث والعشرون : الحياة الاجتماعية فى عهد عمر  
الفصل الرابع والعشرون : اجتهاد عمر  
الفصل الخامس والعشرون : مقتل عمر

## خاتمة



## فهارس الكتاب :

### فهرس الأعلام

١٠٣ — ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٧ ،  
 ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،  
 ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،  
 — ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ،  
 ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ،  
 ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠ ،  
 ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ — ٢٨٠ ،  
 ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،  
 أبو جهل — أبي الحكم بن هشام : ٤٢ ، ٤٧ ،  
 ٤٨ ، ٥٠ ،  
 أبو زبيد الطائي النصراني : ١١٥ ،  
 أبو سفيان بن حرب : ٧٠ ، ١٥٢ ، ٣٠٥ ،  
 أبو طالب ( عم الرسول ) : ٥٤ ،  
 أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي : ٩٨ ، ٢ ،  
 ١٠٦ — ١٠٨ ، ١١٠ — ١١٤ ،  
 ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،  
 ١٧٣ ، ١٨٧ ،  
 و عبيدة بن الجراح : ٢ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ،  
 ٥٩ ، ٧٤ — ٧٦ ، ٩٤ ، ٩٩ ،  
 ١٠٢ ، ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٥ ،  
 ١٣٧ — ١٣٩ ، ١٤٢ — ١٥٠ ،  
 ٢٥٥ ، ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ — ٢٣٠ ،  
 ٢٣٢ — ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ،  
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ — ٢٥٥ ،  
 ٢٥٧ ، ٢٦٣ — ٢٦٧ ، ٢٧١ ،  
 ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ —  
 ٢٩٨ ، ٣٠٠ — ٣٠٤ ،  
 أبو عمرو بن حفص بن القيرة : ٢٨١ ،  
 أبو عمرو بن العلاء : ١٩٨ ،  
 أبو العالية الدمشقي : ٢٥٥ ،  
 أبو الفداء = ا كثير ،  
 أبو الفرج الأصفهاني : ٣١ ، ٢٤٤ ،  
 أبو الفرج العمري : ٢٤٢ ،  
 أبو قتادة الأنصاري : ٨٠ ، ٨١ ،  
 أبو محجن الثقفي : ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،  
 أبو موسى الأشعري : ٢٢٣ ،

( ١ )

أوزر ميديخت بنت كسرى : ١٠٩ ، ١١٠ ،  
 أذان بن صالح : ١٩٨ ،  
 إبراهيم عليه السلام : ١٨ ، ٢٦ ، ٣١ ،  
 ١٣٣ ، ٢٥٧ ،  
 إبراهيم بن الرسول : ١٦٧ ،  
 ابن الأثير ( أبو الحسين علي بن محمد ) : ٩ ، ١٠ ،  
 ١٤٨ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢٣٢ ، ٣٤٧ ،  
 ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،  
 ابن إسحاق ( محمد بن يسار ) : ٤٤ ، ١٤٨ ،  
 ابن تفرى بردى : ١٠ ،  
 ابن حنبل ( أحمد بن علي ) : ٥٧ ،  
 ابن خلدون ( عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ) :  
 ١٠ ، ١٤٨ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٢ ،  
 ٢٤٧ ،  
 ابن سعد ( أبو عبد الله محمد بن سعد ) : ٣٣ ،  
 ٥٥ — ٥٧ ، ٧٢ ، ٩١ ، ٢٩١ ،  
 ابن عباس ( عبد الله ) : ٦٧ ، ٢٩٤ ، ٣٠٤ ،  
 ابن عبد الحكم ( عبد الرحمن بن عبد الله ) : ١٠ ،  
 ابن عساکر ( علي بن الحسن ) : ١٠٧ ،  
 ابن كثير ( أبو الفداء اسماعيل بن عمر ) : ١٠ ،  
 ٤١ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٧٤ ،  
 ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٣٢ ،  
 ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ،  
 ٢٦٧ ،  
 ابن مردى الفهر الثعلبي : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ،  
 ابن منظور — صاحب لسان العرب : ١٣٣ ،  
 ابن هشام ( أبو محمد عبد الملك ) : ٣١ ، ٣٨ ،  
 ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ،  
 أبو الأعمور السلمي : ١٣١ ، ١٤٤ — ١٤٧ ،  
 ٢٤٦ ،  
 أبو أيوب المالكي : ٢٤٧ ، ٢٤٩ ،  
 أبو بكر رضي الله عنه : ١ ، ٢ ، ٥ — ٧ ،  
 ١٥ ، ١٧ — ٢١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ،  
 ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ — ٦٥ ،  
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ — ٧٤ ، ٩٦ ، ٩٨ — ١٠١ ،

٢٧٦ ، ٢٩٩

البلقاء — فرس سعد : ١٧٣ ، ١٧٤

البنديان : ١٦١

بهن جاذويه ذو الحاجب : ١١٢ ، ١١٣

١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٣

بوران بنه كسرى : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٥

١٢٥ ، ١٦٣ ، ١٩٠

(ت)

تدارق : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٢

توذر — البطريق : ٢٢٧ ، ٢٢٨

تيمورلنك : ١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨

(ج)

جاپان : ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧

حابر بن عبد الله : ١٠٢

الجالينوس : ١١١ ، ١١٢ ، ١٥٨ ، ١٦١

١٦٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠

جبر النصراني : ٥٣

جبريل عليه السلام : ١٨ ، ٦٨ ، ٦٩

جبله بن الأبهم الغساني : ٢٣١ — ٢٣٤

٢٤٢ — ٢٤٥ ، ٢٧٣

جرجة القائد الرومي : ١٦١

جرير بن حازم : ٩١

جرير بن عبد الله اليجلي : ١١٨ ، ١١٩

١٢٧ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٢١

الجلومس : ٢٥٥

جميل بن معمر الجهمي : ٤٩

جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح : ٣٤

جنكيزخان : ٢

جنداء ( أم الخطاب ) : ٣١

(ح)

الحارث بن ظبيان بن الحارث : ١٧٣

الحارث بن هشام : ٢٩٣

الحارث بن يزيد : ٢١٣

الحباب بن المنذر : ٧٥

الحجاج الثقفي : ٧٥٧

حذيفة بن اليمان : ٢١٨

حسان بن ثابت الأنصاري : ٣٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٤

الحطيفة ( جروله بن أوس ) : ٣٣ ، ١٦٨

حفصة — أم المؤمنين : ٣٤ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨

حال : ١٧٦ ، ١٧٧

حزة من عبد المطلب : ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠

٥١ ، ٥٦ ، ٥٨

حميد بن هلال : ٩١

أبو هريرة ( الدوسي ) : ٧٠ ، ٢٩١

أحمد بن حماد السكوي : ١٨٨

أحمد بن حنبل : ٤٥

الأحنف بن قيس : ٢٢٣

أردشير — كسرى أردشير : ٢٩٣

أرطوبون = أطرَبون

أرطوبون = أطرَبون

أطرَبون : ٢٤٦ — ٢٥١ ، ٢٥٣

الأزدي ( محمد بن عبد الله ) : ١٤٨

أسامة بن زيد : ٧٧ — ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦

الإسكندر الأكبر : ٢

الأسود المنسي : ٧٤

أسيد بن حضير : ٨٩

الأشعث بن قيس الكندي : ١٥٢ ، ١٥٩

١٨٦ ، ٢٧٢ — ٢٧٨ ، ٢٨٠

٢٨٣ ، ٢٨٤

أم أبان بنت عتبة بن ربيعة : ٣٥

أم جميل — امرأة أبي لهب : ٥٣

أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن النخيلة : ٣٤

أم سلمة — أم المؤمنين : ٦٧ ، ٦٨

أم عبد الله بنت أبي حشمة : ٤١ ، ٤٦

أم كثير — امرأة همام بن الحارث : ١٨٠

أم كلثوم بنت أبي بكر : ٣٤ ، ٣٥

أم كلثوم بنت جروله بن مالك : ٣٤

أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : ٣٤

أمية بن خلف : ٥٣

أنس بن النضر : ٦١

أنس بن هلال النمري : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢

١٣٤

(ب)

بازان الفارسي : ٤

باهان — قائد الروم : ١٣٥ ، ١٣٦

بترل : ٢٤٠ ، ٢٤٦

البخاري ( أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ) : ٦٦

برنابا : ٢٣٥

بشر بن ربيعة الخثعمي : ١٨١ ، ١٨٢

بشير بن الخصاصة : ٩٢ ، ١٥٣ ، ٢٠٢

بشير بن سعد بن أبي الخيمري : ٧٥ ، ١٣١

بطرس — القديس : ٢٣٥

البلاذري ( أحمد بن يحيى ) : ٩٠ ، ٩١

١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٧٤

١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٢٣٣ ، ٢٧١

بلال ( مؤذن الرسول ) : ٢٥٩ ، ٢٧٣

الزبرقان : ٢٣

الزبير بن العوام : ٦٢ ، ٢٩  
 زهر بن الحسوية التميمي : ١٥٦ ، ١٧٩ —  
 ١٨١ ، ١٨٨ — ١٩٠  
 زهير بن أبي أمية : ٥٤  
 زياد بن أبي سفيان : ٢١٠ ، ٢١١  
 زيد الأصغر بن عمر بن الخطاب : ٣٤  
 زيد الأكبر بن عمر بن الخطاب : ٣٤  
 زيد بن ثابت : ١٩ ، ٨٣ ، ٨٤  
 زيد بن حارثة : ٥٦  
 زيد بن الخطاب : ٨٣  
 زيد بن عمرو بن قبيل : ٢٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٤٥  
 زينب بنت جحش : ٦٧  
 زينب بنت مقلون : ٣٤

(س)

سابور بن زهير بن : ١٠٩ ، ١٦٠ ، ٦٤  
 سبارة بن جعشم : ٢٠٢  
 سعد بن أبي وقاص : ٢ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٥٨ ،  
 ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ —  
 ١٦٠ ، ١٦٢ — ١٨٣ ، ١٨٧ —  
 ١٩٣ ، ١٩٥ — ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،  
 ٢٠٧ — ٢١٨ ، ٢١٣ — ٢٢٢ ،  
 ٢٢٤ — ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٨ ،  
 ٢٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ،  
 ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠  
 سعد بن عبادة : ٧٥ ، ٧٦  
 سعد بن عبيد : ٩٨  
 سعد بن عبيدة الفزاري : ١٨٧  
 سعد بن مالك = سعد بن أبي وقاص  
 سعيد بن زيد بن عمرو : ٣١ ، ٤٢ ، ٨٩  
 سعيد بن العاص : ٥٩  
 سعد بن عامر الخزرجي : ٢٣٢  
 سفلار بن مخراق : ٩٤٥  
 سلمان الفارسي : ١٩٨ ، ١٩٩  
 سلمى بنت حفص — امرأة النبي : ١٥٣ ،  
 ١٧٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤  
 سليل بن قيس : ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٣ —  
 ١١٥ ، ١٧٣  
 سليمان عليه السلام : ٣٠ ، ٢٥٤  
 سهيل بن عدي : ٢٦٦ — ٢٦٩  
 سهيل بن عمرو : ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٧ ، ٢٩٣  
 سودة بنت زمعة : ٦٦  
 سياوش : ١٠٩ ، ١١٠  
 حيف بن عمر : ١٤٨

حنتمة بنت هاشم بن النيرة : ٣٠ ، ٣٢

(خ)

خارجة بن زيد : ٥٦  
 خالد بن عرفطة : ١٦٧  
 خالد بن الوليد : ٣ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،  
 ٦١ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٢ —  
 ٩٤ ، ٩٩ — ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،  
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٦ — ١١٨ ،  
 ١٢٤ ، ١٢٧ — ١٣١ ، ١٣٤ —  
 ١٤٠ ، ١٤٢ — ١٥٠ ، ١٦١ ،  
 ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،  
 ١٨٩ ، ١٨٧ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،  
 ٢٢٥ — ٢٣٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ،  
 ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،  
 ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ٢٦٣ — ٢٦٥ ،  
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ — ٢٨٥ ، ٢٩٣

خبيب بن الأرت : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥

خديجة — أم المؤمنين : ٥٤

الخطاب بن نفيل بن عيسه الخزري : ٤٦ ،  
 ٢٩ — ٣٣

خنيس بن حذافة : ٦٤

(د)

داود عليه السلام : ٢٥١

دحية بن خليفة الكلبي : ٢٤٢

دخت زنان بنت كسرى : ١٠٩

دمشق بن كنان : ١٣٣

دومة — امرأة أبي عبيد : ٩٤

(ذ)

ذو السكلاع الجديري : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢٢٧

(ر)

رباح مولى الرسول : ٦٨

ربيع بن الأفلح : ٢١٢

الربيع : ١٧٦ ، ١٧٧

رستم بن الفرخزاد : ١١٠ — ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ — ١٦٩ ، ١٦٩ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٣

رقاعة بن عبد المنذر : ٥٦

رقية بنت عمر بن الخطاب : ٣٤

(ز)

زبارة — أم ولد سعد : ٩٧٤

عائشة — أم المؤمنين : ٣٤ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٩١  
 عائشة بنت سعد بن أبي وقاص : ١٥١  
 عباد بن بشر : ٦٣  
 عبادة بن الصامت : ٢٣٠  
 العباس بن عبد المطلب : ٧٠ ، ٢٩١  
 عبد الرحمن الأصغر بن عمر : ٣٤  
 عبد الرحمن الأوسط بن عمر : ٣٤  
 عبد الرحمن بن أبي بكر : ٩١  
 عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب : ٣٤  
 عبد الرحمن بن عوف : ٨٩ ، ٩٠ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٣ ، ١٥٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣٥٦  
 عبد الله بن أبي بن سبيل : ٦٣ — ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠  
 عبد الله بن أبي بكر : ٩١  
 عبد الله بن أرقم : ٢١٠  
 عبد الله بن جحش : ٣٨ ، ٥٨  
 عبد الله بن زيد : ٥٨ ، ١١٦  
 عبد الله بن عبد الله بن أبي : ٦٣  
 عبد الله بن عبد الطيب : ٣٢  
 عبد الله بن عثمان : ٢٦٦ — ٢٦٩  
 عبد الله بن عمر : ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٣  
 عبد الله بن مرثد الثقفي : ١١٥  
 عبد الله بن مسعود : ٥٠  
 عبد الله بن المعتم : ١٨٨ ، ٢١٢ ، ٢١٨  
 عبد المطلب بن هاشم : ٣١ ، ٣٢  
 عبد الملك بن مروان : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٧٦ ، ٢٦٣  
 عبد نهم : ٣١  
 عبدة بن الطبيب : ١٦٨  
 عبدة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٤  
 عبدة بن الحارث : ٥٨ ، ١٥٢  
 عثمان بن مالك : ٥٧  
 عتبة بن سهيل : ٢٩٣  
 عتبة بن غزوان : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠  
 عثمان بن الحويرث : ٣٨  
 عثمان بن عفان : ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٥٠ ، ٢٥٤ ، ٣٠٥  
 عدى بن حاتم : ١٠٧  
 عدى بن سهل : ٢٥٣  
 عدى بن كعب : ٣٠  
 عرجة بن هرمثة : ١١٩ ، ١٢٢ ، ٢١٣  
 العزى (صنم) : ٢٦  
 عصمة بن خالد الضبي : ٢٠٠  
 عفان بن مسلم : ٩١

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : ١٠  
 (ش)  
 شداد بن أوس : ٩٩ ، ١٢٩  
 شرحبيل بن حسنة : ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٤ —  
 ١٤٧ ، ١٧٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ،  
 ٢٥٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤  
 شرحبيل بن السمط : ١٨٨  
 الشهاخ (بن ضرار) : ١٦٨  
 الشمس — اسم فرس المني : ١٢٠  
 شنس الرومي : ٢٢٧ ، ٢٢٨  
 شهر يار : ١٨٨  
 شهر بران بن أردشير : ٩٢ ، ١٠٩ ، ١٩٠  
 شيرزاد : ١٩١ ، ١٩٢  
 شيرويه بن كسرى : ١٠٩ ، ١٢٦  
 (ص)  
 صفريوس الأسقف : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،  
 ٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢  
 صهيب بن سنان : ٥١  
 (ض)  
 ضرار بن الأزور : ١٤٥  
 ضرار بن الخطاب : ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢١٣  
 (ط)  
 طارق بن شهاب : ٢٥٥  
 الطبري (محمد بن جرير) : ٩٠ ، ١٠٠ ، ٣٠٠ ،  
 ٥٥ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ،  
 ١٥٧ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ،  
 ٢٠٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،  
 ٢٥٠ ، ٢٥٢ — ٢٥٥ ، ٢٦٢ ،  
 ٢٨٠  
 طلحة بن عبيد الله : ٣٩ ، ٦١ ، ٨٩ ، ٩١  
 طلحة بن خويلد الأسدي : ٧٤ ، ١٥٢ ،  
 ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،  
 ١٨٦ ، ٢٠١  
 (ع)  
 عائكة بنت زيد بن عمرو : ٣٤  
 العاص بن هشام بن المنيرة : ٥٩  
 العاص بن وائل السهمي : ٣٠ ، ٤٩  
 عاصم بن عمرو بن الخطاب : ٣٤  
 عاصم بن عمرو : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٨ —  
 ١٧١ ، ١٧١ ، ١٩٦ ، ١٩٧  
 عاصية بنت ثابت = جيلة بنت ثابت

هذبة بن عامر : ٢٠  
 عكاشة بن صمخ : ١٦٣  
 عكرمة بن أبي جهل : ١٢٩  
 الملا بن الحضرمي : ١٠٨ ، ٢١٤  
 هاشمة بن حكيم : ١٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧  
 هاشمة بن عجز : ٢٥٧  
 علي بن أبي طالب : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٢ ،  
 ٧٧ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،  
 ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٨٣ ،  
 ٢٩٦ ، ٢٩٨ — ٣٠٠  
 علي بن المهيم : ٢٥٥  
 عمر بن أبي ربيعة : ٢٨ ، ٣٤  
 عمر بن عبد العزيز : ١٤١ ، ١٤٢  
 عمرو بن العاص : ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٠ ،  
 ٩٤ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،  
 ١٤٤ — ١٤٦ ، ٢٢٥ — ٢٢٧ ،  
 ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ،  
 ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٢٩٧  
 عمرو بن عبد المسيح : ١٢٣  
 عمرو بن مالك : ٢١٣  
 عمرو بن معدى كرب الزبيدي : ١٥٣ ، ١٥٩ ،  
 ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،  
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢٠١  
 عمرو بن نفيل : ٣١  
 عوف بن مالك : ٣٣  
 عوف بن ساعدة : ٥٧  
 عياض بن أبي ربيعة : ٥٦  
 عياض بن عمر بن الخطاب : ٣٤  
 عياض بن غنم : ١٧٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ،  
 ٢٦٦ — ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢  
 عيسى عليه السلام : ١٥ ، ١٨ ، ١٢٨ ،  
 ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٩٤ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧  
 (غ)  
 غالب بن عبد الله اللبني : ١١٩ ، ١٥٦ ، ١٧٠  
 (ف)  
 فاطمة بنت الخطاب : ٤٢  
 فاطمة بنت الرسول : ٧٧  
 فاطمة بنت عمر بن الخطاب : ٣٤  
 فاطمة بنت الوليد : ٢٧٧  
 قرات بن حيان : ١٥٩ ، ٢٧٠  
 القرخزاد : ١٠٩ ، ١١٠  
 فريد أبو حديد : ٧٤٠

فكيهة — أم ولد عمر بن الخطاب : ٣٤  
 فوكاس : ٦ ، ٢٣٩  
 الفيرزان : ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ٢٧٩ ،  
 ١٨٨ ، ٢٠٩  
 (ق)  
 قابوس بن قابوس بن المنذر : ١٥٣  
 قاس بن ساعدة الأيادي : ٣٧  
 قسطنطين بن هرقل : ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥  
 القعقاع بن عمرو التيمي : ١٣٧ ، ١٤٣ ،  
 ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٧٢ — ١٨٠ ،  
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ —  
 ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧  
 قيس بن عاصم النخعي : ١١٧  
 قيس بن مكشوح : ٢٠١  
 قيس بن هبيرة : ١٧٦  
 قيصر : ٣ ، ٤ ، ٤٤ ، ١٣٦ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ،  
 ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٨ ،  
 ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩  
 (ك)  
 كسرى أبرويز : ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨٤ ، ٩٣ ،  
 ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٥ ،  
 ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ،  
 كسرى أنوشروان : ١٩٣ ، ١٩٩ — ٢٠٢ ،  
 ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،  
 ٢٨٩  
 كتب الأخبار : ٢٦٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠  
 كوسان درسفال : ٢٦٨  
 (ل)  
 اللات (صنم) : ٢٦  
 لبيد بن ربيعة : ١٠٧  
 لهية — أم ولد عمر بن الخطاب : ٣٤  
 ليلي — زوجة مالك بن نويرة : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣  
 (م)  
 مارية (القطبية) : ٦٧  
 مارية (بنت ظالم) جدة جبلة : ٢٣٢ ، ٢٤٣  
 مالك بن نويرة : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٤ ،  
 ٩٩ — ١٠١ ، ١٣١ ، ٢٨٥  
 متمم بن نويرة : ٨٠ ، ٨١  
 المثني بن حارثة الشيباني : ٩٢ — ٩٥ ، ٩٧ ،  
 ٩٨ ، ١٠٧ — ١١٢ ، ١١٥ —  
 ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ،  
 ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ — ١٥٤

(ن)

النايفة الجمعدى : ٣٣  
 نابليون : ٢ ، ١٨٣  
 النجاشى : ١٦٠  
 نرسى القائد : ١١١-١١٢  
 نسطاس : ١٣٥ ، ١٣٦  
 النضر بن الحارث : ٥٣  
 النعمان بن بشير الأنصارى : ٧٣٠  
 النعمان بن مقرن : ١٥٩ ، ١٦٠  
 النعمان بن المنذر بن ماء السماء : ١٠٩ ، ١٤٥  
 ١٥٣ ، ٢٠٠  
 نعم بن عبد الله : ٤٢  
 نجيل ( بن عبد العزيز ) : ٣٩  
 نوح عليه السلام : ١٨

(هـ) ح

هاشم بن عتبة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ —  
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٦ ،  
 ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ،  
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٧  
 الهذيل الأسدى : ١٦٩  
 هريرت سبنسر : ١٦  
 هرقل جاهل الروم : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ، ١٥ ،  
 ٩٤ ، ١٠٩ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،  
 ١٣٤ — ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،  
 ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٠ ،  
 ٢٠١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ — ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،  
 ٢٣٤ ، ٢٣٩ — ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،  
 ٢٥٦ ، ٢٦٤ — ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ،  
 ٢٨٥ ، ٢٩٧  
 هرمز جاذويه : ٣٠ ، ٩٢ ، ١٠٨ ، ١٧٠ ،  
 ١٨٩ ، ١٩٠  
 الهرمزان : ١٦١ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٧٧٣  
 هشام بن البختى : ٢٨٢ ، ٢٨٣  
 هشام بن العاص بن وائل : ٥٦  
 هشام بن عمرو : ٥٤  
 هلال بن علقمة : ١٧٩ ، ١٨٠  
 حمام بن الحارث النخعى : ٨٠  
 هيرودس : ٢٥١

(و)

الواقدى ( أبو عبد الله محمد بن عمر ) : ٩٤ ،  
 ١٤٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧٧ ،  
 ووقفة بن نوفل : ٣٧  
 الوليد بن عبد الملك : ١٤١ ، ١٤٢

١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،  
 ١٩٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤  
 مجاشع بن مسعود : ٢١٤  
 محمد — صلى الله عليه وسلم : ٤٥٦ — ٥٧  
 ١١ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ،  
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ — ٨٥ ،  
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،  
 ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ — ١٠٧ ، ١١٠ ،  
 ١١٣ ، ١١٦ — ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ،  
 ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٥٠ —  
 ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،  
 ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،  
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ،  
 ٢٤٤ ، ٢٥٧ — ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،  
 ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ —  
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤  
 محمد بن مسلمة : ٣٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠  
 محمد بن زعيم : ١٢٩ ، ١٢٩  
 مذعور بن عدى : ١٣٧  
 مردا نشاء : ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧  
 مرزة بن كعب : ٣٠  
 مسروق السكى : ١٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩  
 مسعود بن حارثة : ١٢٢  
 المسعودى ( أبو الحسين على بن الحسين ) : ٣٥  
 مسيلة بن حبيب : ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢  
 معاذ القارىء : ١١٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦  
 معاذ بن عفراء : ٥٧  
 معاوية بن أبى سفيان : ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٤٥ ،  
 ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،  
 ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥  
 المعنى بن حارثة : ١٥٣ ، ١٥٩  
 المقيرة بن شامية : ١٠٧ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ،  
 ١٦٨ ، ٢٩٤  
 المقيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : ٣٢  
 المقرئى ( أحمد بن على ) : ٢٤٠  
 مكرز بن حفص : ٦٠  
 مهجع مولى عمر : ٥٩  
 مهران الهذليان : ١١٩ — ١٢٢ ، ١٢٤ ،  
 ١٦١ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ — ٢٠٩  
 موسى عليه السلام : ١٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ،  
 ٢٥٧ ، ٢٥٨  
 ميكائيل : ١٨ ، ٦٨  
 ميناكس : ٢٣١ ، ٢٣٢  
 ميور السندرق : ٢٤٧

٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣، ٣٢١، ٤٠٦، ٤٠٧  
 ٢٩٧، ٢٧٨  
 يزيد بن أبي سفيان : ٩٤، ١٢٨، ١٣٥  
 ١٤٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٦  
 ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٩٣  
 ٢٩٤، ٢٩٨  
 اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) : ٨٢  
 يعلى بن أمية : ١٠٣، ١٠٥  
 يوحنا بن رؤبة : ٤  
 يوليوس قيصر : ٢

الوليد بن عقبة : ٢٦٦ — ٢٧٠  
 يوليم ميور : ٨٤  
 وهب بن جرير : ٩١

(٥)

يرفأ مولى عمر : ٩٩  
 يزهد بن شهر بن كسرى : ١٢٥، ١٥٠  
 ١٥٢، ١٥٧ — ١٦٧، ١٧٦، ١٧٧  
 ١٧٩، ١٨٢ — ١٨٥، ١٩٢ —  
 ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٧

## فهرس الأمم والقبائل

أهل الحيرة : ١٥٧، ١٥٨  
 أهل دمشق : ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢  
 ١٤٣، ١٤٨  
 أهل الرقة : ٢٦٨  
 أهل الرملة : ٢٥٦  
 أهل الرها : ٢٦٩  
 أهل السقيفة : ٧٦  
 أهل البواد : ١٢٦، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٨  
 ١٩٢، ٢٢١  
 أهل الشام : ١٤٦، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣  
 ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٣  
 ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٥  
 أهل شبه الجزيرة = العرب  
 أهل شيرر : ٢٣٠  
 أهل الصفة : ٩١  
 أهل طرية : ١٤٧  
 أهل العراق : ٨، ١١١، ١٢٤، ١٢٨  
 ١٤٣، ١٥٦، ١٦٦، ١٨٧، ٢١٥  
 ٢١٧، ٢٢٢ — ٢٢٤، ٢٦٨، ٢٨٦  
 أهل عمان : ١٤٧  
 أهل عمواس : ٢٩٩  
 أهل نخل : ١٣١  
 أهل فلسطين : ٢٥٩، ٢٥٣، ٢٥٦  
 أهل المادسية : ١٨٢، ٢٠١  
 أهل قرقيسياء : ٢٦٦  
 أهل قنسرين : ٢٣٢، ٢٣٤  
 أهل السكوفة : ٢٢٠، ٢٢٣ — ٢٢٥، ٢٦٨  
 أهل اللاذقية : ٢٣٠

(١)

آل المغيرة : ٢٧٣  
 الأثوريون : ١٨٩، ٢٠٥  
 الإغريق : ١٩٤، ٢٠٥، ٢٤٥، ٣٠٣  
 لأكاسرة : ١٠٨، ١١٠، ١١٧، ١٢٥  
 ١٣٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٥ —  
 ٢٠٣، ٢١٨، ٢٢٢  
 الأناصار : ٥٤، ٥٤، ٥٦، ٦١، ٦٣، ٦٦  
 ٦٨، ٧٤ — ٧٦، ٧٨، ٨٧ — ٨٩  
 ٩٨، ١٠٦، ١٧٩، ٢٢٠، ٢٢٤  
 ٢٩١، ٢٩٤  
 أهل الأبله : ٢١٣  
 أهل أذرباغات : ١٤٧  
 أهل أليس : ١١٦  
 أهل بدر : ١٨، ٨٧، ٢٠١  
 أهل بصري : ١٤٧  
 أهل البصرة : ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٩٧  
 أهل البيت : ٨٧، ٣٠٥  
 أهل بيت المقدس : ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤  
 ٢٥٦، ٢٦١  
 أهل بيسان : ١٤٦، ١٤٧  
 أهل جرش : ١٤٧  
 أهل الجزيرة : ٢٣٦، ٢٦٤ — ٢٦٦  
 أهل الحجاز : ٢٣، ١٢٧  
 أهل حلب : ٢٣٤  
 أهل حاه : ٢٣٠  
 أهل حمص : ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٦٦

بنو غصات : ٧ ، ٦٨ ، ٢٢١ ، ٢٤٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧  
 بنو فزارة : ٢٤٣  
 بنو فهر بن مالك : ٣٩  
 بنو كنانة : ١١٩  
 بنو مخزوم : ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٨٢  
 بنو مدنج : ٢٠٢  
 بنو المصطلق : ٦٣  
 بنو المطلب : ٥١ ، ٥٣  
 بنو للنجار : ١١٦  
 بنو النزم : ١١٩ ، ١٢٢ ، ٢١٢  
 بنو هاشم : ٢٩ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ١٧٧ ، ٣٠٤  
 بنو وهيب : ١٥١

( ت )

الترك : ٢٠٠  
 تنوخ : ٢٣٠ ، ٢٦٦

( ث )

تقيف : ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

( ج )

جفنة : ٢٣٢ ، ٢٤٤

( خ )

الجزرج : ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٢٣٢

( د )

ذبيان : ٧٩

( ر )

رافضة نخل : ١٤٨

ربيعة : ٢٤٤ ، ٢٦٦

الروس : ١٦٢

الرو : ١ — ٧ ، ١٣ ، ١٧ — ١٩ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٤٨٢  
 ٨٩ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٩ — ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٩ —  
 ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٢ — ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ،  
 ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ — ٢٣١ ، ٢٣٩ —  
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ — ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٤ — ٢٥١ ، ٢٤٩ —  
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ — ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ — ٢٩٩ ،  
 ٣٠٣ ، ٣٠٣

الروبان : ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٩٤ ، ٢٥١

أهل اللد : ٢٥٧  
 أهل ماب : ١٤٧  
 أهل المدائن : ١٩٧ ، ٢٥٦  
 أهل المدينة : ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢٤٣ ، ٢٩٠ ، ٢٨٨  
 أهل مصر : ٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥١  
 أهل مكة : ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٨٧  
 أهل الموصل : ٢١٢  
 أهل ميث : ٢١٣ ، ٢٦٦  
 أهل برب = أهل المدينة  
 أهل البامة : ٧٤  
 أهل العين : ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٦٠  
 الأوس : ٥٧ ، ٦٥

( ب )

البايليون : ٢٠٥

الدوتسنافت : ١٠٤ ، ١٠٥

بنو الأزدي : ١١٩

بنو أسد : ٣٩ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٨

بنو أمية : ٢٩

بنو لباد : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢١٢

بنو بجيلة : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٤ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ٢٢١

بنو بكر بن وائل : ٩٤ ، ١٧٧ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٢٧

بنو تغلب : ١٢٦ ، ١٢٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ — بنو تميم : ٨٠ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٧١

بنو تيم بن مرة : ٢٩ ، ٣٩

بنو نعلبة المقاء : ٢٣٢

بنو حنيفة : ٧٤ ، ٨١

بنو زهرة : ٣٩ ، ١٥١

بنو ساسان : ٢٠٣

بنو سالم بن عوف : ٥٧

بنو سهم : ٢٩ ، ٤٩

بنو طسم : ٢٦

بنو عبد شمس : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٣٠٥  
 بنو عبد مناف : ٤٧ ، ٤٧ ، ٣٠٥

بنو عجل : ١٢٠

بنو عدى بن كعب : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٤

بنو عمرو بن عوف : ٥٦



١٦٩ — ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦  
 ١٨٨ — ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤  
 ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٠، ٢١٢  
 — ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤  
 ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥١  
 ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٠  
 ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٥

(ق)

قريش: ٢٨، ٣٥، ٣٣، ٣٢، ٢٩، ٢٨  
 — ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٥  
 ٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٤، ٧٠، ٧٢  
 ٧٥، ٨٤، ٩٤، ١٠١، ١٠٢، ١٨١

٢٢٤، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٤

قضاة: ٨٠، ٢٥٢

القيصرة: ١٣٤

(ك)

الكناوليك: ١٠٤، ١٠٥

الكلدان: ٢٠٥

كندة: ١٧٨، ٢٧٤

(ل)

لحم: ٧، ١٠٩، ١٥٦، ٢١٩

(م)

المجوس: ٤٧، ١٦٠، ٢٠٨، ٢٢٢

مزقياء: ٢٣٢

المستشرقون: ١٦، ١٧، ٢٢، ١٠٣

١٠٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٦٠

١٦٦، ١٧٢، ١٧٥، ١٨٣، ٢٥٨

مضر: ٢٤٤

معد: ١٦٩

للهاجرون: ٥٥، ٣٠، ٤٦، ٥٥، ٥٦، ٦١

٦٣، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٨٧

٨٩، ٩٨، ١٠٦، ١٥٢، ١٧٩

٢٢٤، ٢٧٣، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٩٤

(ن)

النخع: ١٧٨

النصارى: ٢٦، ٣٦، ٤٧، ٥٧، ١٠٤

١٤١، ١٤٢، ١٤٦، ١٦٠، ٢٤٠

٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٦٩

نصارى بنى تغلب: ١١٩، ٢٧٠

نصارى بنى النمر: ١١٨، ١١٩

(س)

لسامرة: ٢٧١

(ش)

الشعبة: ٧٧

(ط)

طبي: ١٩٨

(ع)

عاد: ٣٠

عيس: ٧٩

العرب: ٣، ١، ٧، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨

٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠

٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣

٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١

٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨

٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥

٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢

٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩

٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦

٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢

١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨

١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣

١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨

١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣

١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨

١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣

١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨

١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣

١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨

١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣

١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨

١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣

١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣

١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨

١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣

١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨

١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣

١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨

١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨

٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣

٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨

٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨

٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣

(ف)

الفراعنة: ٢٠٥

القرس: ١، ٣، ٥، ٨، ١٠، ١٣

١٦، ٢٢، ٣٧، ٤٧، ٥٣، ٨٩

٩٢، ٩٤، ٩٧، ١٠١، ١٠٤

١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٦

١١٨، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٥

١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣

١٥٥، ١٥٩، ١٦١، ١٦٥



## فهرس الأماكن

(ب)

الباب : ١٧٠  
 باب نوماء : ١٣٥  
 باب الجالية : ١٣٥ ، ١٣٨ - ١٤٠  
 الباب الشرق : ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤٠  
 الباب الصغير : ١٣٥  
 باب الفرديس : ١٣٥  
 باب قديس : ١٨٢  
 باب كيسان : ١٣٥  
 بابل : ١٩١ - ١٨٨ ، ١٠٨ ، ٩٢  
 باذية السماوة : ٢٢٥  
 بارسما : ١١٢  
 البحر الأبيض : ٢٣٥ ، ٢٠٦  
 بحر الروم = البحر الأبيض  
 بحر قزوين : ١  
 البحرين : ١١٧ ، ٢١٤  
 بحيرة طبرية : ١٣١ ، ١٤٤  
 بدر : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١٥٢  
 برج بابل : ١٨٩  
 برس : ١٨٨ ، ١٩٠  
 بزطية = القسطنطينية  
 البصرة : ٢١٣ ، ٢٢٠ - ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦  
 ٢٢٦ ، ٢٦٥ ، ٢٨٦  
 البطاح : ٨٠  
 بطن نخلة : ٢١٤  
 بعلبك : ٢٢٨  
 بغداد : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٠٥  
 بلاد العرب : ٣ ، ١٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٨٤ ، ٣٦٤  
 ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٤ ، ٧٨ - ٨٠ ، ٨٣  
 ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٩ ، ١٠٣ -  
 ١٠٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ،  
 ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٨ ،  
 ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ،  
 ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،  
 ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ -  
 ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ -  
 ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠١  
 البلد الحرام = مكة  
 البلقاء : ١٣٢ ، ١٤٤

(١)

آسيا : ٢٠٦ ، ٢٣٥  
 آمد : ٢٧٢  
 الآية : ١٨٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠  
 أبيض كسرى = قصر كسرى  
 أتينا : ٢٠٣  
 أجنادين : ١٤٨ ، ٢٤٧ - ٢٥١ ، ٢٧١  
 أجد : ٦١ ، ٦٢ ، ١٥٢  
 أذستان : ٢٣٠  
 أذربيجان : ١٩٤  
 أذرح : ٥  
 الأردن : ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،  
 ١٤٧ - ١٤٩ ، ٢٧٧ ، ٢٥٣ ،  
 ٢٧٨ ، ٣٠٤  
 أرمات : ١٧٧  
 أرمينية : ٢٧٢ ، ٢٧٨  
 أسرملة : ٢٠٣  
 الإسكندرية : ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ،  
 ٢٦٦ ، ٢٦٨  
 اصطخر : ٢١٤  
 أغوات : ١٧٤ ، ١٧٧  
 أفريقية : ١ ، ٢٠٦  
 ألبس : ١١٥ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨  
 أم القرى = مكة  
 أم قيس : ١٤٥  
 الأناضول : ١٤٤  
 الأنبار : ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٥٧ ، ٢١٥  
 أنطاكية : ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،  
 ١٥٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ - ٢٣٢ ،  
 ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ،  
 ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢  
 الأهواز : ١٨٨ ، ٢١٤  
 أوربا : ٣٧ ، ١٠٤ ، ٢٠٦  
 إيرات : ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،  
 ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٥  
 آيلة : ٤ ، ٤٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨  
 إيلياء = بيت المقدس  
 ليوان كسرى : ١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ،  
 ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٥٩

حصن فديك : ١٦٠  
 حصن قديس : ١٥٦  
 حصن الموصل : ٢١٢  
 حصن فينوي : ٢١٢  
 حلب : ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦  
 ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩  
 حلوان : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، -  
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، -  
 ٢١٢ ، ٢١٧  
 حماة : ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ، -  
 ٢٧٢ ، ٢٦٨  
 حصن : ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨  
 حوران : ١٤٧  
 الحرة : ٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٤ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٠

## (خ)

الخابور : ٢١٣  
 خاققين : ٢٠٩  
 خراسان : ١١٠  
 خفان : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨  
 خاققونية : ٢٤١  
 خليج عدن : ٢٠٧ ، ٢١٦  
 الخليج الفارسي : ١٠٨ ، ١٦٠ ، ٩٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠  
 الخنافس : ١٢٣  
 الخندق : ١٥٢  
 خندق سابور : ١٥٤ ، ١٦٣  
 خندق القادسية : ١٦٠  
 الخورنق : ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٥٢ ، ٧١

## (د)

دار أبي سفيان : ٧٠  
 دار الأرقم : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨  
 دار خالد : ٢٨٢

بهرسير : ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٥٧ ، ١٥٧ ، ١٦٤  
 بيت أبي أيوب الأنصاري : ٥١  
 بيت جرير : ٢٤٩  
 بيت عائشة : ٧٤ ، ٧٦ ، ٩١ ، ٢٨٢  
 البيت المتبق = المسجد الحرام  
 بيت لم : ٢٥٩  
 بيت القدس : ١٨٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٢ ، ٢٦٤ ، ٢٩٩  
 بئر التروذ = برس  
 بيروت : ٢٣٦  
 بيسان : ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦  
 بين النهرين : ٢٠٥ ، ٢٠٦

## (ت)

تبوك : ٤ ، ٤٠ ، ٢٩٤  
 تسكرت : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤  
 تل اعزاز : ٢٣٧  
 تل المارثة : ١٣٣  
 تونس : ٣٠٥

## (ج)

الجابية : ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٨  
 الجرباء : ٥  
 الجزيرة : ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢  
 الجسر : ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٥  
 جلولا : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣  
 جولان : ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ١٣٢

## (ح)

الحاضر : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٨٦  
 الحيشة : ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣ ، ١٦٠  
 الحجاز : ٤ ، ٥١ ، ٩٧ ، ١٥٢  
 الحجر : ٤٣  
 الحديبية : ٦٤ ، ١٥٢  
 حران : ٢٦٦ ، ٢٦٩

السدير : ١٤٠ ، ٢١٦  
 سرخ ( سرخ ) : ٢٦٧ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠  
 السقاية : ١١٦  
 سقيفة بني ساعدة : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٧٨  
 سامية : ٢٣٠  
 ساقية : ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦  
 سليج : ٢٣٠  
 السواد (سواد القراق) : ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٢  
 السودان : ١  
 سورا : ٦٨٨  
 سورية : ١٤ ، ١٤٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨  
 ٢٩٨  
 السيلج : ١٥٦ ، ١٦٣  
 (ش)  
 الشام : ٩ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥  
 شراف : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧  
 شمشاط : ٢٣٧ ، ٢٧٢  
 شيزر : ٢٢٩  
 (ص)  
 صخرة يعقوب : ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣  
 صراز : ١٥٠  
 الصفا : ٢٩ ، ٣١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩  
 صنعاء : ١٤٠  
 الصين : ١٥٦  
 الصين : ١ ، ٢١٣ ، ٣٠٥

دار الكتب المصرية : ٣١  
 دجلة : ١١١ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧  
 ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٦٨  
 دلتا القرات : ٥  
 دلتا النهرين : ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٥٣  
 ١٦٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢٢٠  
 الدراك : ٢٣٧  
 دمشق : ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤  
 دومة الجندل : ١٧٢  
 ديار بكر = نصيبين  
 الدير : ١٨٨  
 دير خالد : ١٣٥  
 دير صليبا = دير خالد  
 (ذ)  
 ذوقار : ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣  
 ذوقار : ٢٧ ، ٢٨  
 (ر)  
 راما : ٢٤٧  
 الرصانة : ٢٠٥  
 رفح : ٢٤٩  
 الرقة : ٢٦٦ ، ٢٦٨  
 الركن الأسود : ٤٣  
 الركن الجاني : ٤٣  
 الرملية : ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣  
 الرهاء : ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٢٧٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٦  
 الروم : ٣٥ ، ٣٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢  
 رومية : ١٣٤ ، ١٩١ ، ٢٥٨  
 الرى : ٢٠٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٨  
 (ز)  
 زرود : ١٥٢  
 (س)  
 سباط : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٨ ، ١٦٤  
 ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١  
 سبطية : ٢٤٧ ، ٢٤٩

٢٠٧، ١٩٩، ١٩٢، ١٩٠، ١٨٨  
 ٢٢٣ — ٢٢١، ٢١٤، ٢١٣، ٢٠٣  
 ٢٩٧، ٢٧١، ٢٧٠  
 غل: ١٥٠، ١٤٩، ١٤٦ — ١٤٣، ١٣١  
 ٢٤٦، ٢٣٨، ٢٢٦، ١٨٧، ١٧٢  
 ٢٧١، ٢٥١  
 الفرات: ١١٥، ١١٣، ١١١، ١٠٨  
 ١١٩ — ١١٢، ١٣٣، ١٥٤، ١٥٨  
 ١٩١، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٤  
 ٢١٦، ٢١٩، ٢٣٦  
 القراض: ١٠٨، ١٦٣، ٢٦٨، ٢٩٩  
 فرنسا: ١٦٢  
 فلسطين: ١٣١، ١٣٣ — ١٣٥، ٢٠٦  
 ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٥ — ٢٥٤  
 ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣  
 ٢٦٤، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٩، ٢٩٠  
 ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٨

(ق)

القادسية: ١١١، ١١٨، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٩  
 ١٥٠، ١٥٣ — ١٥٨، ١٦٠  
 ١٦٣ — ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥  
 ١٧٦، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٦  
 ١٨٨، ١٩٠، ٢٠٩ — ٢١١، ٢١٣  
 ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٥ — ٢٢٧، ٢٣٣  
 ٢٣٥، ٢٧٨، ٣٠٤

قاء: ٥٦

قر المسبح: ٢٤٥، ٢٥٨، ٢٦٤  
 قدس: ١٧١، ١٧٨  
 قرقيسيا: ٢٠٩، ٢١٣، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨  
 قرية الصيادين: ١٩٨  
 قس الناظف: ١١٣

القطنطينية: ٦، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٨  
 ١٩١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٤  
 — ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٦٨، ٢٨٤

قصر سمد (بالكوفة): ٢١٨، ٢١٩، ٢٧٤  
 قصر كسرى (أبيس كسرى): ١٩٣، ١٩٥  
 ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٦

قلقية: ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٧٢، ٢٧٨  
 قنسرين: ٢٢٩ — ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٦٤  
 — ٢٧٥، ٢٧٢، ٢٧١، ٢٦٨، ٢٦٥

٢٧٩

قنطرة البتيق: ١٥٦  
 قورس: ١٣٦  
 قيسارية: ٢٤٧، ٧١

(ض)

ضجنان: ٣٠، ٣٢

(ط)

الطائف: ٥٤، ٥٥، ٢١٥  
 طبرية: ١٤٥، ١٤٦، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٤٦  
 طيسقون: ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦

(ع)

عدن آيين: ١٨٢  
 العذيب: ١٥٦، ١٥٧، ١٧٢، ١٨٢، ١٨٧  
 عذيب القوادس: ١٥٤  
 عذيب الهجانات: ١٥٤

مراق: ١ — ٦، ٣، ١٠، ١٨، ١٩  
 ٣٣، ٨٢، ٨٤، ٨٦ — ٩٤، ٩٧  
 ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦ — ١٠٨، ١١٠  
 ١١٥، ١١٧ — ١١٩، ١٢٣، ١٢٤  
 ١٢٦ — ١٢٩، ١٣٢ — ١٣٤  
 ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤  
 ١٤٧ — ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٦١  
 ١٦٦، ١٧٢، ١٨١، ١٨٣، ١٩٢  
 ٢٠٣، ٢٠٥ — ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٢  
 ٢١٨، ٢٢٠ — ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٣٥  
 ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٦٣ — ٢٦٥  
 ٢٦٧ — ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٨  
 ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٥ — ٢٩٠، ٢٩٣  
 ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠

المراق العجمي: ٢٠٦

المراق العربي: ٢٠٦، ٢٠٧

المربات: ١٤٤

عرفات: ٢٧

المقبة: ٢٩٠

عكاظ: ٢٣ — ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣٣

عماس: ١٧٧

عمواس: ٢٤٩، ٢٨٧، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٠

عين البحر: ١٠٨

(غ)

غاز ثور: ٧٦

غزة: ٢٤٧، ٢٤٩

الغولقة: ١٣٤، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ٢٤٥

(ف)

فارس: ٢٤١، ١٠، ١٠، ١٩، ٣٥، ٩٠، ١٠٩  
 ١٢٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٠  
 ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٨٥

٤٤٤، ٤٤٣، ٢٣٥، ٢٢٥، ٢٢٣  
 ٤٥٩—٢٥٧، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٥١  
 ٤٧٠—٢٦٧، ٢٦٥، ٢٦٣، ٢٦٢  
 ٢٨٢، ٢٨٠—٢٧٧، ٢٧٤، ٢٧٢  
 ٤٣٠٢—٢٩٢، ٢٨٩—٢٨٧  
 ٣٠٥، ٣٠٤

الرج: ٢٧١

مرج الروم: ٢٢٨، ٢٢٧

مرج السباخ: ١١٩، ١١٨

مرج الصقر: ١٣١

مرعش: ٢٧٢، ٢٣٧، ٢٣٦

المرغاب: ٢١٤

المروحة: ١١٥، ١١٤، ١١٣

الروة: ٥٣

المسجد (مسجد الرسول): ٧٤، ٦٨، ٥٦

٤٩٥—٩٣، ٩١، ٩٠، ٨٣، ٧٦

٢٦٢، ٢٥٨، ٢٥٤، ١١٦، ١٠٧

المسجد الأقصى: ٢٥٧، ٢٤٥، ٢٣٣، ٢٢٧

٢٦٣، ٢٦٢، ٢٥٨

المسجد الحرام: ٤٥١—٤٩، ٤٤، ٤٣، ٢٧

٤٦٣، ٢٥٩، ٢٤٣، ٧٠، ٥٥، ٥٣

مسجد الصخرة: ٢٢٧

مسجد قباء: ٢٨٢

مصر: ١٧، ١٤، ١٠—٧، ٢، ١

٤١٨٥، ١٣٣، ١٠٩، ٩٠، ٣٠، ١٩

—٢٥٠، ٢٤٠—٢٣٧، ٢٠٥

٤٢٨١، ٢٧١، ٢٥٨، ٢٥٣

٣٠٥، ٢٨٧

معرة حصن = معرة النعمان

معرة النعمان: ٢٣٠

مقام إبراهيم: ٦٩، ٥٥

مكة: ٤٠—٣٨، ٣٦، ٣٤، ٣٢، ٢٩، ٢٦

٤٥٧—٥٣، ٥١، ٤٧—٤٥، ٤٣

٤١٥٢، ٨٥٧، ٧٠، ٦٥، ٦٤، ٥٩

٣٠٥، ٢٩٠، ٢٥٩، ٢٤٤، ٢١٥

منازل هنديل: ٨٢

منبج: ٢٣٦

الموصل: ٢٢١، ٢١٨، ٢٠٩، ٢٠٦، ١٩٤

٢٦٨—٢٦٦، ٢٩٤، ٢٢٥

ميسان: ٢١٤، ٢٥٧

(ك):

كسكر: ١٥٧، ١١١

الكعبة: ٤٥١—٤٧، ٤٣، ٤٠، ٣١

٢٦٣، ٢٥٩، ١٧٩، ٩٥، ٥٥—٥٣

كنيسة أنطاكية: ١٣٣

كنيسة القديسة أيا صوفيا: ٢٥٠

كنيسة قسطنطين: ٢٥٨

كنيسة القيامة: ٢٥٩، ٢٥٨، ١٣٤

٢٦٢، ٢٦١

كنيسة المهذ: ٢٦١، ٢٥٩، ١٣٤

كنيسة يوحنا المعمدان: ١٤٢—١٤٠

كوني: ١٩٠، ١٨٨

الكوفة: ٢٢٦، ٢٧٥، ٢٢٣—٢١٨

٣٠٠، ٢٩٩، ٢٨٦، ٢٦٦

(ل)

اللاذقية: ٢٣١—٢٢٩

اللد: ٢٥٧، ٢٤٩، ٢٤٧

(م)

ماسبذان: ٢١٣

مبجنة: ٢٨، ٢٧

مغراب داود: ٢٥٨

المحيط الهندي: ٢١٦، ٢٠٩، ٢٠٧

المدائن: ٤١٣—١٦٥، ١٠، ٩، ٤

٤١٢٦—٢٢٣، ١١٩، ١١٧، ١١٥

٤١٤٩، ١٤٣، ١٣٤—١٣٢، ١٢٨

٤١٦١—١٥٧، ١٥٥، ١٥٤

٤١٨٤، ١٨٢، ١٧٦، ١٦٧—١٦٤

٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٧—١٨٧

٤٢١٢، ٢١٠—٢٠٧، ٢٠٥

٤٢٢١، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٦، ٢١٥

٢٨٧، ٢٥٩، ٢٣٥، ٢٢٦، ٢٢٥

المدينة: ٤٩٩—٥٤، ٣٤، ١٩، ١٨، ٨، ٤

—٧٧، ٧٥، ٧٤، ٦٥—٦٣، ٦١

٤٩٨، ٩٤—٩٢، ٨٦، ٨٣، ٨١

—١٠٧، ١٠٥—١٠٣، ١٠٠

٤١٢٤، ١٢٣، ١١٩—١١٦، ١١٢

٤١٤٧، ١٤٦، ١٣٣، ١٣٢، ١٢٦

٤١٨١، ١٥٧، ١٥٣، ١٥٢، ١٥٠

٤٢٠٧، ٢٠٣—٢٠١، ١٩٠، ١٨٢

٤٢٢١، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٠

(و)

وادی رابع : ١٥٢  
 وادی الثور : ١٤٥  
 واسط : ٢٦٨  
 الواقوسة : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٤٨  
 الولجة : ١٥٥ ، ٢٩٦

(ی)

یاقا : ٢٤٧ ، ٢٤٩  
 الیرموک : ١١٨ ، ١٢٩ — ١٣٣ ، ١٣٦ ،  
 ١٣٩ ، ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦١ ،  
 ١٨٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ،  
 ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧١ ،  
 ٢٨٥  
 الیمامة : ٨١ — ٨ :  
 الیمین : ٤ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٤ ،  
 ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٨١ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ،  
 ٢٨٧

(ث)

تابلس : ٢٤٧ ، ٢٤٩  
 نجد : ١٥١  
 نجران : ١٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥  
 النجف : ١٦٣  
 نصیبین : ٢٦٦ ، ٢٦٨  
 الخمارق : ١١١ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨  
 نهاوند : ١٨٨  
 نهر الأردن : ١٣١ ، ٢٤٠  
 نهر الأرنط (الأرنط) : ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥  
 نهر أورتس = نهر الأردن  
 نهر بزدي : ١٣٥ ، ١٤٠  
 نهر التيق : ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٧٩  
 النهرین : ١٦٣ ، ١٨٣

(أ)

الهند : ٢١٣  
 هیت : ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،  
 هیکل سلیمان : ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،  
 ٢٦١ ، ٢٦٢



الفاروق ع

## للمؤلف

- ذو النورين عثمان بن عفان . . . . . الطبعة الأولى ١٩٦٤
- الشرق الجديد . . . . . الطبعة الأولى ١٩٦٣
- ١٩٦٠ » الإمبراطورية الإسلامية . . . . . الطبعة الثانية ١٩٦١
- ١٩٥٥ » هكذا خلقت . . . . . الثانية ١٩٥٩
- ١٩٥٣ » مذكرات في السياسة المصرية الجزء الثانى
- ١٩٥١ » » » » » الأول
- ١٩٤٥ » الفاروق عمر . . . . . الثانية ١٩٦٤ الطبعة الرابعة
- ١٩٤٤ » » » » » الأول
- ١٩٤٢ » الصديق أبو بكر . . . . . الخامسة ١٩٦٤
- ١٩٣٧ » في منزل الوحي . . . . . الرابعة ١٩٥٨
- ١٩٣٥ » حياة محمد . . . . . الثامنة ١٩٦٣
- ١٩٣٣ » ثورة الأدب . . . . . الثانية ١٩٤٨
- ١٩٣١ » ولدى . . . . . » » »
- ١٩٢٩ » تراجم مصرية وغربية . . . . . الثالثة ١٩٥٤
- ١٩٢٧ » عشرة أيام في السودان . . . . . الثالثة ١٩٤٩
- ١٩٢٥ » في أوقات الفراغ . . . . .
- ١٩٢٣ » جان جاك روسو . . . . . الجزء الثانى
- ١٩٢١ » » » » » الأول
- ١٩١٤ » زينب . . . . . الطبعة الخامسة ١٩٦٣
- ١٩١٢ » دين مصر العام — بالفرنسية . . . . .

### المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور هيكل

- التقديرية والعرفة . . . . . تحت الطبع
- » » يوميات باريس . . . . .
- » » مجموعة القصص القصيرة . . . . .

# الفاروق ع

جَعَلَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبَهُ  
حَدِيث شَرِيف

بقلم

محمد حسين صديقي

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة



مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده  
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٦٤



## فهرس الكتاب

صفحة

### الفصل الخامس عشر : التوسع في فتح فارس ... .. ١

السبب في عدول عمر عن سياسته العربية إلى سياسة التوسع و الفتح — لماذا تشجع الفرس على تقض عهودهم مع المسلمين ؟ — غزو الأهواز وتمقب الهرمزان براءهمزم ثم بتستر — الاستيلاء على تستر وأسر الهرمزان — سبب هزيمة الفرس بتستر — توغل المسلمين في الأهواز — وصول الهرمزان المدينة وحواره مع عمر — الأحنف بن قيس يشير بالانسياح في أرض فارس .

### الفصل السادس عشر : غزوة نهاوند ... .. ١٩

المسكبات بين يزيدجرد وأمرأ فارس للثورة بالمسلمين — عزل سعد بن أبي وقاص عن إمارة الكوفة — الجتاع الفرس بنهاوند في جوع مروعة ، وصدى أنبائهم بالمدينة — عمر يؤمر النعمان ابن مقرن على الجيش الذي يلقي الفرس بنهاوند ، ويكتب إلى أمرأ الكوفة والبصرة بإمداده — المسلمون يحاصرون نهاوند بعد أن أخفقت سفارة الصلح إلى الفيزان أمير الجند الفارسي — كيف استدرج المسلمون الفرس خارج المدينة — استشهد النعمان بن مقرن ، ثم انهزام الفرس ومقتل الفيزان — حزن عمر لمقتل النعمان — حديث السفطين اللذين ردهما عمر على المجاهدين فيبعا بأربعة آلاف ألف — غزوة نهاوند فتح الفتوح ؛ فلم تقم للفرس بعدها قائمة أبداً .

### الفصل السابع عشر : القضاء على سلطانة الأتاسرة ... .. ٣٤

لمحة من تاريخ فارس — عمر يأمر بالسير لفتح أصبهان — فتح أصبهان وهمدان والرى — ولايات الشمال في فارس تصالح المسلمين — موقف أمرأ الفرس من يزيدجرد بعد صلح الولايات الشمالية — استيلاء المسلمين على ولايات فارس وسابور وأردشير وإصطخر وكرمان ومكران — الأحنف بن قيس يسير في خراسان آخر معقل ليزدجرد — فرار يزيدجرد إلى خاقان الترك ، وعوده معه لحرب المسلمين — اندحار يزيدجرد وفراره إلى الترك ثم مقتله في خلافة عثمان — أبناء فارس والإسلام .

### الفصل الثامن عشر : التفكيك في فتح مصر ... .. ٦٢

تردد عمر في قبول ما نصح به عمرو بن العاص من فتح مصر — لإلحاح ابن العاص وكسبه ميل الخليفة إلى رأيه — الصلات القديمة بين مصر وبلاد العرب — حديث القرآن عن مصر — الصلة بين مصر والعرب لعهد رسول الله — الإسكندرية في عهد الرسول — اضطهاد هرقل لأبباط مصر — سبب الاضطهاد الأعظم وأثره — الحجج التي أقنعت عمر بفتح مصر — لمحة عن عمرو بن العاص — عمرو يسير إلى مصر ويدخل أرضها .

### الفصل التاسع عشر : فتح مريئة مصر ومهونها ... .. ٩٢

انتصار عمرو بالفراوموقودالمقوقس عن إمدادالروم — سير الأطربون إلى بلبس وهزيمته بها — موقف أهل مصر من المسلمين — المسلمون أمام بابليون ومنف — استيلاء المسلمين على حصن

صفحة

أم دنين — بجيء المدد الذي بعثه عمر إلى مصر — عمرو يعود من الفيوم فيلقى المدد على رأسه الزبير بن العوام بعين شمس — موقعة عين شمس وانتصار المسلمين الحاسم فيها — محاصرة المسلمين حصن بابلون — المفاوضة بين المقوقس والمسلمين ، ورفض هرقل للصلح الذي عقده عمرو والمقوقس — استيلاء المسلمين على حصن بابلون — ابن العاص وقبض مصر — السير إلى الإسكندرية .

## الفصل الثم للمسلمين : فتح الإسكندرية ... .. ١٢٤

الاضطراب في بلاط القسطنطينية — عودة المقوقس للدفاع عن الإسكندرية — انتصار المسلمين بنقيوس — سيرهم إلى كرون وانتصارهم بها — العرب أمام الإسكندرية الساحرة — مقاومة الإسكندرية وطول محاصرتها — موقف المصريين من محاصرة المسلمين للإسكندرية — عمر بن الخطاب يكتب إلى ابن العاص يستطلى فتح الإسكندرية — كيف تم هذا الفتح بعد كتاب عمر ؟ — دخول المسلمين الإسكندرية وفتنتهم بها — حضارة الإسكندرية وعمارتها وأثرها في نفوس العرب — مصير المقوقس بعد فتح الإسكندرية .

## الفصل الحادي والعشرون : مصر في يد المسلمين ... .. ١٥٩

المسلمون يشترون في أرحاء مصر — إخضاعهم ما بقي في البلاد من مقاومة — سير ابن العاص إلى برقة وطرابلس — القتال بين المسلمين وأهل النوبة — هل فتحت مصر عنوة أم صلحاً ؟ — شروط الصلح التي فرضت على مصر — الجزية التي كلف المصريون دفعها — سياسة ابن العاص في مصر أساسها حرية العقيدة والرخيف من الضرائب — بناء مدينة القسطنطينية — إقبال المصريين على الإسلام ودخولهم فيه — كيف نظم ابن العاص حكم مصر ؟ — وصل النيل بالبحر الأبيض — وصف عمرو لمصر — أسطورة عروس النيل — أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية — تنفيذ الأسطورتين — مكاتبات عمر وعمرو في أمر الجزية والحراج ودالاتها — قدر عمرو في فتح مصر .

## الفصل الثاني والعشرون : حكومة عمر ... .. ٢٠٠

نظام الحكم وتطوره في بلاد العرب — عمر يتم وحدة شبه الجزيرة ويقضى على كل الفوارق بين العرب — شخصية عمر والتطور السريع في شبه الجزيرة — المدينة العاصمة ، والشورى نظام الحكم — نظام الشورى في عهد عمر — موقف عمر من بني هاشم ومن رؤوس قريش — بقاء المسجد بالمدينة مكان النظر في الشؤون العامة — قسوة عمر بنفسه وبره بالمسلمين — عدل عمر ، وشدهته على ذويه وعماله — تولية عمر للقضاء ورأيه في القضاء — تدوين الديوان وفرض العطاء — تطور الحكم من البداوة العربية إلى ناحية الحضارة .

## الفصل الثالث والعشرون : الحياة الاجتماعية في عهد عمر ... .. ٢٣٩

الانتقال السريع في الحياة الاجتماعية — نظام الأسرة وهوان المرأة في الجاهلية — حياة القبيلة والصفات التي تنشأ عنها — عبادة الأصنام في الجاهلية — قضاء الإسلام على الشرك

صفحة

والوثنية — احترام الإسلام للمرأة وأثر ذلك في الحياة الاجتماعية — تعدد الزوجات ونظام الميراث في الإسلام — الإسلام والتنظيم الاقتصادي — أثر عمر في التطور الاجتماعي — ما بقي من عادات الجاهلية بعد الإسلام — تعصب العرب لجنسهم وعذرهم من ذلك — إقبال العرب على ألوان التناح والسبب فيه — موقف عمر من التناح خلاله وحرامه — النزاع بين النسبية الجاهلية والنسبية الإسلامية — فضل عمر في تطور الحياة العربية .

### الفصل الرابع والعشرون : اجتهاد عمر ..... ٢٧٣

نزول الوحي بالأحكام هداية للناس — اجتهاد رسول الله فيما لم ينزل به وحى — اجتهاد المسلمين الأولين — اجتهاد عمر قبل خلافته — عمر يمنع عطاء المؤلفه قلوبهم — ويمضي طلاق الثلاث بكلمة واحدة — وينهى عن رواية الحديث — ويأبى كتابة السنن — ويدبر الحد بسبب الاضطراب — ويساوى بين الناس في القضاء — ويمتهد فيما لم يرد فيه نص في كتاب الله — ويأبى نسمة الأرض بين المسلمين الذين فتحوها — وهو يعيل إلى الصرامة وإلى التطهر في اجتهاده — فيؤدى هذا الاجتهاد إلى قوة المسلمين وانفصاح الإمبراطورية .

### الفصل الخامس والعشرون : مقتل عمر ..... ٣٠٣

جهد عمر في خلافته — استمجاله لقاء ربه — أبو لؤلؤة يطعنه بخنجر طاعنات فائته — اضطراب المسلمين للصادق — الإرهاس بمقتل عمر — المسلمون يطلبون إلى عمر أن يستخاف — قصة الشورى — تفكير عمر في مصير المسلمين من بعده — حرصه على قضاء دينه ، وعلى أن يدفن في قبر الرسول — عافته حساب ربه — جزع المسلمين لوفاته — غسله وتكفينه ودفنه — الأدلة على المؤامرة لقتله — عبيد الله بن عمر يقتل المؤتمرين ، فيحبس — الشورى وموقف عبد الرحمن بن عوف منها — بيعة عثمان وموقف على منها — عثمان يأبى القصاص من عبيد الله بن عمر ويمتثل الدية في ماله — رحم الله عمر ورضى عنه ! .

### فخامز ..... ٣٣٤

تباين الأمم التي ألفت الإمبراطورية — تفكير أهل هذه الأمم في الإسلام — أثر الحروب في توسيع آفاق الفسكر — ماحدث من تفاعل بين خصائص الأمم التي ألفت الإمبراطورية ، وما أدى هذا التفاعل إليه — أثر الدين واللغة في وحدة الإمبراطورية واتسافها — بقاء الخصائص القومية مع قيام الوحدة الإمبراطورية — تفاعل هذه الخصائص يؤدي إلى قيام الحضارة الإسلامية — دورة الزمن ، وبرز الروح القومية وأثره في اقراض نظام الإمبراطورية .

### تفدير وشكر ..... ٣٤٩

### فهارس السكنااب ..... ٣٥٠

## تذكرة

تناولت فصول الجزء الأول من هذا الكتاب ، وعددها أربعة عشر فصلاً ، صوراً من حياة عمر في جاهليته ، وفي العهد الأول من إسلامه ؛ حين صحبته رسول الله ، وحين مقامه إلى جانب أبي بكر إبان خلافته ، وحين آلت إليه إمارة المؤمنين ، بعد أن قضى الصديق على الردة في بلاد العرب ؛ فهد بذلك لوحدها السياسية ، ثم مهد للفتح وللإمبراطورية بغزو العراق والشام . وقد عرض الجزء الأول كذلك كيف تابع عمر هذه السياسة من يوم استخلف ؛ فوثق أواصر الوحدة العربية في شعبة الجزيرة ، وأزال ملك الأكاسرة من العراق وملك القياصرة من الشام ، ومد وحدة العرب من خليج عدن جنوباً إلى أقصى الشمال من بادية السماوة .

أما هذا الجزء فيتناول ما حدث بعد فتح العراق والشام إلى مقتل عمر ، ويعرض الألوان المختلفة لهذا العهد في السياسة والاجتماع والفقہ .



## الفصل الخامس عشر

### التوسع في فتح فارس

كانت سياسة عمر أن يقف بالفتح في حدود العراق والشام لا يتعداهما . وأن يجمع العرب بذلك في وحدة تمتد من جنوب شبه الجزيرة إلى شمال بادية السماوة . لذلك كتب إلى سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن ، حين بعث يستأذنه في مطاردة الفرس وراء جبلهم : « وَدِدْتُ لو أن بين السواد والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ! حسبنا من الريف السواد . إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » . وكان عمر مخلصاً في هذه السياسة كل الإخلاص . والواقع أنها كانت خطوة جديدة في سياسة الإسلام ؛ فقد كان رسول الله يحرص كل الحرص على تأمين شبه الجزيرة وتخومها . حتى لا يعتدى الفرس أو الروم عليها ، وكان يرجو أن يَهْدِيَ الله كسرى وقيصر وأمراء مصر والشام والعراق إلى الإسلام بلا قتال . وكانت هذه سياسة أبي بكر حين أنفذ بعث أسامة لقتال الروم على تخوم الشام كما أمر به رسول الله . فلما دخل المُثَنَّى بن حارثة الشيباني العراق وأمدّه الصديق بج خالد بن الوليد فانتصر على الفرس ، ثم لما بدأ الفتح في الشام ، لم يَدْرُ بخاطر أبي بكر ولا بخاطر عمر أن يتخطيا حدود العراق والشام إلى ماوراءهما . فقد كان بالعراق والشام من قبائل العرب التي نزحت من شبه الجزيرة وأقامت مملكة الحيرة ومملكة غَسَّان من يمتون إلى المسلمين بأوثق الصلة ؛ فمن حق المسلمين أن يطمعوا في مؤازرتهم وانضمامهم إليهم . فأما ما وراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم فلم يكن للخليفتين الأولين مطمع في غزوه وفتحه .

عل أن الحوادث كثيراً ما كانت أقوى من الرجال ، وكثيراً ما حملتهم على تعديل اتجاههم وتغيير سياستهم وقد حملت الحوادث عمر على تعديل سياسته بإزاء الفرس وإيذاء الروم على كره منه بادئ الأمر ، ثم ملأته حماسة للسياسة الجديدة بعد أن حالف النجاح هذه السياسة إلى مدى لم يتوقعه الخليفة ولم يتوقعه أحد غيره .

فأنت تذكر أن المرُمرُمان أحد قواد الفرس بالقادسية قد نجا من الموت وفر بعد الهزيمة فاجأ إلى الأهواز وأقام بها ، وأن يزدجرد عاهل الفرس فر بعد فتح المدائن إلى حُلوان ثم إلى الرمي ، وأن سائر جنود فارس وقوادها فروا أشتاتاً في مُخْتَلَفِ أَرْجَائِهَا ، فلما أمر عمر سمداً ألا يتعمقهم وأن يتولى تنظيم العراق وإصلاحه . حَيَّلَ إلى الفرس أن العرب أمسكوا عن تعقبهم خوفاً منهم ، فأطعمهم ذلك فيهم وأغرامهم بمناوشتهم . وكان أهل الأهواز أسبق من غيرهم إلى اللفاوشة ، فكانوا لذلك أول من اصطدم بالمسلمين ، فدارت الدائرة عليهم ، فكانت هزيمتهم طليعة ما تلاها من هزائم الفرس واندحارهم .

والأهواز تقع إلى الجنوب الشرقي من العراق العربي وتتصل به ، ويجرى فيها من فروع دجلة نَهْرٌ دُجَيْلٌ ونهيز كارون ، ولا يفصلها عن العراق العربي جبل فارس الرفيع الذرى ، وإن فصلت بينهما في بعض الأماكن مرتفعات يتعذر اجتيازها إلا من مسالك مألوفة لأهل تلك الأرجاء . وكان موقع الأهواز على مقربة من الأُبلة والبصرة ، سبباً في اشتباك أهلها بالعرب قبل غيرهم من أهل فارس . فأكثر الروايات على أن المسلمين فتحوا الأُبلة في عهد أبي بكر أول مذهب خالد بن الوليد إلى العراق ، وأن الفرس استردوها بعد ذلك فبقيت في سلطانهم حتى فتحها عتبة بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب .

وتوفى عتبة وولى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة مكانه<sup>(١)</sup> . وكان عتبة قد شخص إلى المدينة قبيل وفاته ، فحدثت أهل الأهواز أنفسهم بالثورة بسلطان المسلمين في غيابه تفرج المغيرة لغزوم حتى يؤمن التخوم بينه وبينهم . ولم يجد مَشَقَّةً في التغلب عليهم . لكن ما يعرفه من سياسة عمر جعله لا يتعمقهم داخل بلادهم ، بل يكتفي بهزمهم ومصاحبتهم على مال يدفعونه . ثم إنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى نكثوا عهدهم ، فأحلوا المسلمين من صلحهم وأباحوا أرضهم .

ذلك أن عمر عزل المغيرة بن شعبة عن البصرة وولاهها أبا موسى الأشعري ، وأمره أن يُشخص المغيرة إليه ليحاكمه . فقد كانت أم جميل إحدى نساء بني هلال تمشي الأمراء والأشراف ، وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها ، فَنَشِبَتِ المغيرة يوماً

(١) راجع ص ٢١٤ ، ج ١ من هذا الكتاب .

فهيبت ربح فتحت كوة داره ، فراه أبو بكره وجماعة معه عليها . ثم خرج المغيرة ليؤم الناس للصلاة ، فنفعه أبو بكره وقال له : لا تُصل بنا ، وكتب إلى عمر بما حدث . ودعا عمر أبا موسى الأشعري إليه أول ما قرأ الكتاب وقال له : « يا أبا موسى إني مُستعملك . إني أبعث بك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرّخ فالزَم ما تعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك » . وأجاب أبو موسى : يا أمير المؤمنين أعني بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار ، فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملاح لا يصاح الطعام إلا به . قال عمر : « فاستعن بمن أحببت » فاستعان أبو موسى بتسعة وعشرين صحابياً . وبلغ أبو موسى البصرة ومعه كتاب عمر إلى المغيرة ، وإياه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس : « أما بعد ، فإنه بلغني نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى أميراً ، فسلم ما في يدك ، والمجل ا . » وكتب أمير المؤمنين إلى أهل البصرة : « أما بعد ، فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويمكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن ذمتكم ، وليمنضى لكم فياً كم ثم ليقسمه بينكم ، وليتقى لكم طرقكم » .

وارتحل المغيرة ومُشهوره حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم ، فشهد ثلاثة شهادة كاملة ، وشهد الرابع بما يؤيد أقوالهم ، ولكنه أجاب بأنه لم يعرف المرأة ولم ير الفعل ، فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا الحد . قال المغيرة موجّهاً القول إلى أمير المؤمنين : « اشفني من الأعبد » ؛ يريد بذلك أن يرَد إلى البصرة . لكن عمر نظر إليه شزرا وقال : « أسكت أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجحتك بأحجارك ! » وكذلك ظل أبو موسى على ولايته البصرة .

رأى أهل الأهواز هذا التغيير في ولاية البصرة ، فنجّل إليهم أنه سيجرّ إلى اضطراب يثير المسلمين بعضهم ببعض ويمكّنهم من الثورة بهم ، أليسوا قد ألغوا مثل ذلك في بلاط كسرى ! ألم يروا صلات أشرافهم وأمرائهم يكتبونها جوثاً من الدسائس يحمل كل أمير يثور بخصومه ما أمكنته الفرصة لذلك نقضوا عهدهم وأبوا أداء الجزية التي صالحوا المغيرة عليها . وزاد في تشجيعهم على الثورة بالمسلمين أن العلاء بن الحضرمي أمير البحرين اجتاز الخليج الفارسي بالجندي في السفن لغزو المنطقة المقابلة له ، منطقة فارس ، ونزل بمجنوده فسار قاصداً

إصطخر العاصمة العظيمة بعد ما تغلب على من لقيه من جنود الفُرس . لكنه نسي أن يحصى ظهره ، فقطع الفرس عليه خطاً رجعته إلى السفن . وكان العلاء قد اندفع إلى هذه المغامرة من غير أن يستأذن أمير المؤمنين ، مع ما يعرفه من كراهية عمر ركوب البحر . وإنما فعل ذلك لأنه نَفَس على سعد بن أبي وقاص أن يفتح المدائن ، فأراد هو أن ينافسه فيفتح إصطخر فيكون له مثل نغاره . فلما أخفق وأحيط به استغاث ، فأمر عمر حامياته بالبصرة والكوفة فأنقذوه وأنقذوا من معه . وعزل عمر العلاء عن البحرين وجزاه عن مغامرته بأن جعله مرءوساً لسعد بن أبي وقاص بالعراق .

شجعت هذه العوامل الفرس على الثورة بالمسلمين ، فأبوا أداء الجزية التي كانوا قد ارتضوها . فلم يكن بدُّ من مناقزتهم ، حتى لا يفريهم سكوت المسلمين عنهم بالإمعان في الثورة ، والتفكير في المقاومة ، والاسترسال من ذلك إلى اجتياز التخوم واتهك حرمة العراق العربي . لذلك جمع أبو موسى قواته ودفعها إلى مدينة الأهواز ، ففتحتها بعد أن كانت قد فتحت مناذر ونهر تيرى .

من هم أمراء الجند الذين تولوا قيادة المسلمين في هذا الغزو؟ ومن الذين واجهوم من قواد الفرس وقتلهم فانهزموا أمامهم؟ وكيف كانت مسيرة الجيوش؟ وماذا كانت خطة القتال؟ تختلف الروايات على إجمال ذلك وتفصيله اختلافاً كبيراً ، على أنها تنتهي جميعاً إلى أن المسلمين اجتازوا تخوم خوزستان ، وساروا في أرضها وحصروا الأهواز وفتحوها؛ وأن الفرس طلبوا الصلح بعد فتح الأهواز فأجابهم المسلمون إليه على أن يظل ما فتحوه من أرض خوزستان في حوزتهم وسلطانهم ، وأن يقرَّ الفرس في بلادهم ولا يتخطوها . والروايات على اختلافها تتفق في تأييد المعروف من سياسة عمر وحرصه على أن يقف بالفتح في حدود العراق العربي ، كما أنها تقص من التفاصيل ما يكشف عن جانب له قيمته في هذا المعنى . لذلك يجمل بنا أن نلخص هذه الروايات في إيجاز لا ينجني عليها .

يطيل الطبري الحديث عن فتح مناذر ونهر تيرى ، وعن موقف الهرمزان من المسلمين . وخلاصة روايته أن الهرمزان قرَّ من القادسية إلى الأهواز ، وجعل يُنير بأهلها على ميسان ودشت ميسان المجاورتين للعراق العربي متجهاً إليهما من وجهين هما مناذر ونهر تيرى .

وقد استمد عتبة بن غزوان سعد بن أبي وقاص لقتاله فأمدّه ، فوجّه سلمى بن القَيْن وحرّملة بن ربيعة فنزلا على حدود ميسان ودست ميسان واستمدّا غالباً وكليباً ، من أبناء عمومته من العرب الذين استوطنوا الأهواز ، ودفعوا للقاء الهرمزان . واتعد هؤلاء العرب من أبناء العم ، فلقوا الفرس وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا منازل ونهر تيرى ، وبلغوا دُجَيْلاً واجتازوه إلى سوق الأهواز . وعرف الهرمزان ما أصاب قومه ، فطلب إلى المسلمين الصلح فأجيب إليه على ألا يجلو المسلمون عما فتحوا من أرض خوزستان . ثم حدث أن اختلف الهرمزان مع غالب وكليب على تخوم ما بينهما من البلاد ، ولم ينزل على حكم سلمى وحرملة ، بل استعان بالأكراد حتى كثف جنده ، ونقض ما بينه وبين المسلمين من عهد . وأحيط عمر عملاً بما حدث . فأمر حرقوص بن زهير السعدي الصحابي على الجند الذي نهد لقتال الهرمزان ، فأجلاه عن الأهواز ، واضطره أن يفر مشرفاً إلى رامهرمز ، ثم أمر حرقوص جزء بن معاوية بمطاردته . فلما رأى الهرمزان أن لا قبل له بقتال المسلمين طلب الصلح كره أخرى ، فأذن عمر بإجابه إليه . وكتب إلى جزء وإلى حرقوص بلزوم ما غلبا عليه ، وأذن لجزء في عمارة البلاد ، فشق الأنهار وعمّر الموات .

هذه خلاصة وجيزة لرواية ابن جرير . وقد أخذ ابن الأثير في تاريخه الكامل بهذه الرواية . أما ابن كثير فقد أوجز في تلخيصها ، فلم يزد على القول بأن المسلمين نصروا على الهرمزان وفتحوا منازل والأهواز ونهر تيرى ، وقتلوا من جيشه جمّاً غفيراً ، وسلبوا ما بيده من الأقاليم والبلدان إلى تستر . وابن خلدون أكثر إيجازاً . ولعل ما بين رواية ابن جرير ورواية البلاذري من خلاف هو الذي دطام إلى هذا الإيجاز .

وخلاصة رواية البلاذري أن المغيرة بن شعبه غزا سوق الأهواز بعد أن هزم البيرواز وصالحه على مال . فلما ولى أبو موسى البصرة مكان المغيرة نكث البيرواز ، ففراه أبو موسى ففتح الأهواز ، وأصاب المسلمون من الفرس سبيّاً كثيراً . لكن عمر كتب إليهم : « إنه لا طاقة لكم بعمارة الأرض ، فحشوا ما في أيديكم من السبي ، واجعلوا عليهم الخراج » ، فردّوا السبي ولم يملكوهم . وسار أبو موسى من بعد إلى منازل فحاصر أهلها فاشتد قتالهم ، واستشهد المهاجر بن زياد في حربهم ، فحزّ وأرأسه ونصبوه بين مشرفتين

من شرفات قصرهم . وتولى الربيع أخو المهاجر إمارة المُقاتلة ، ففتح مئذراً عنوةً بعد أن قتل المقاتلة وسبي الذرية . وكتب عمر إلى أبي موسى : « إن مئذراً كقرية من قرى السواد ، فرُدُّوا عليهم ما أصبتم » .

أنت ترى أن اختلاف الروايات لا يقتصر على أسماء الذين قاموا بهذه الغزوات وكيف قاموا بها ، بل يتجاوز إلى تعاقبها التاريخي . والخلاف على تعيين بدئها ليس بأقل من الخلاف على أمراء الجند فيها ؛ فقد قيل : إنها بدأت في السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، وقيل في السنة السادسة عشرة ، وقيل في السنة السابعة عشرة ، وقيل في السنة التاسعة عشرة ، وقيل في السنة المتممة العشرين . وأكبر الظن أنها بدأت في أواخر السنة الخامسة عشرة ، وأن ما كان ينقضى بين كل صلح ونقضه جعلها تستطيل على الزمان كل هذه السنوات .

على أن الروايات المختلفة تتفق كلها على أن عمر كان حريصاً على سياسته ألا يتخطى الفتح حدود العراق العربي . ولذلك كان يجيز الصلح كلما طلبه الفرس بعد هزيمتهم ، وكان يأمر بردّ السبي إلى حريتهم والاكتفاء منهم بالخراج ، ثم يأمر رجاله بتعمير البلاد وشق الأنهار خلالها وإصلاح الموات من أرضها وإقامة العدل بين أهلها . ولو أن الفرس أذعنوا للأمر الواقع وارتضوا هذه السياسة وأخلصوا في عهدهم من المسلمين ، لبقى ليزدجرد سلطان فارس ولما امتدّ الفتح الإسلامي في عهد عمر إلى ما امتد إليه .

لم يكن قتال الفرس والتغلب عليهم ثم الظفر بهم بالأمر اليسير في هذه الأرجاء ؛ فقد كانوا يقاومون أشدّ المقاومة ، وكانوا يقفون المسلمين مواقف بالغة غاية الدقة ، ويضطرونهم أحياناً إلى الارتداد عن موقع إلى غيره حين يرون هذا الموقع أمنع من أن ينال . ولقد خرج جزء بن معاوية يتعقب الهرمزان في تراجعه إلى رَامَهْرُمُز ، حتى إذا انتهى إلى قرية الشُّعْرُ أجزه الهرمزان ، فمال إلى قرية لا يطبق أهلها منعها .

عرف يزدجرد مقاومة بنى وطنه ، فطمع في استرداد ما ضاع من ملكه ، فجعل يثير حمية الفرس ويحرك حماسهم بإظهار الألم على ما سلف من هزائمهم وما استولى عليه العرب من بلادهم . قيل : إنه كان يبرو وقتئذ ، وقيل كان ياصطخر ، أو بقم ،

وإنه كتب إلى أهل فارس يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم « أن قد رَضَيْتُمْ يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والأهواز ، ثم لم يَرْضَوْا بذلك حتى تَوَرَدَوكُم في بلادكم وعقر داركم ؛ فتحرَّروا أهل فارس تنصروا » . وتكاتب أهل فارس وأهل الأهواز وتعاقدوا وتعاهدوا وتوافقوا على النصر .

بلغت هذه الأنباء حرقوص بن زهير وأسرائ المسلمين ، فأبلغوها عمر ، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجل ، وسمي جماعة من أبطال المسلمين يسرون معه لينزلوا بإزاء الهرمزان حتى يتبينوا أمره . وكتب إلى أبي موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً عليهم سهيل بن عدى ، وسمي طائفة من الأبطال يسرون على رأس الجند معه .

أفكان ذلك عدولاً من عمر عن سياسته أن يلزم المسلمون العراق العربي ، فهو يريد بهذه البعوث أن يوغل في أرض فارس؟ أم كان تأديباً للفرس ، فإذا أذلتهم الهزيمة لم يعودوا إلى الغدر؟ الواقع أن عمر كان متردداً بين هذا وذاك ، ثم كان أشد ميلاً إلى الاستمساك بسياسته منه إلى الاستيلاء على أرض فارس . قدم عليه وفد من جند البصرة فيهم الأحنف بن قيس ، فتحدث إليهم ثم وجه الكلام إلى الأحنف يقول له : « إنك عندي مصدق؟ وقد رأيتك رجلاً ! فأخبرني : أن ظلمت لذمة ، المظلمة نفروا أم لغير ذلك؟ » . وأجابه الأحنف . « لا ! بل لغير مظلمة ، والناس على ما تحب » . قال عمر : « فنعم إذأ . انصرفوا إلى رحالكم ! » . فلما بلغته أنباء يزدجرد وتحريضه أهل فارس على المسلمين أراد أن يلتقي على هؤلاء الغدرة العجزة درساً لا ينسونه ، فبعث إليهم النعمان بن مقرن وسهيل بن عدى .

سار النعمان مجتازاً أرض الأهواز ليلقي الهرمزان برامه رمز . وسمع الهرمزان بمسيره فنهد يلقاه بأربك<sup>(١)</sup> في جيش عظيم من أهل فارس ، وبادره الشدة وهو يرجو أن يقتطعه .

(١) أربك ( بفتح الباء وضما ) : من نواحي رامهرمز ويقال فيها « أربق » بالالف . وقد وردت في بعض الكتب أثناء الكلام على هذه الفتوح : « أربل » باللام ، تحريف .

واشتد القتال بين الفريقين ، فلما رأى الهرمزان بأس المسلمين تراجع من أربك إلى رامهرمز ، فإلى تُسْتَر مطمئناً إلى أنه يستطيع أن يتحصن بأسوارها وبروجها ، وتقدم النعمان إلى رامهرمز فاستولى عليها .

وكان سهيل بن عدي قد سار من البصرة يريد لقاء الهرمزان ، فلما بلغته أنباء النعمان واستيلائه على رامهرمز وانحياز الهرمزان إلى تِستَر ، مال من سوق الأهواز ، فجعل وجهته إلى هذه المدينة الحصينة : وبلغها ، فألقى النعمان بن مُقرن سبقة إليها ووقف بجنده أمام حصونها . وخرج سلمى وحرملة وحرقوقص وجزء فنزلوا جميعاً على أسوارها . وحاصرت كل هذه القوات تلك المدينة المنيعه ، وقد تحصن الهرمزان وجنوده من أهل فارس ومن أهل الأهواز بخنادقها ، ووقفوا قبالة عدوهم مطمئين إلى منعة حصونها منعة تحول دون اقتحامها وترد كل عاد عليها .

ولم يخطئ الهرمزان في تقديره ؛ فقد حاول المسلمون اقتحام أسوار المدينة فرُدوا عنها . وزاحفهم الفرس غير مرة ، فارتدوا على أعقابهم أحياناً ، وردوا المسلمين عن مواقعهم أحياناً أخرى . وطال الحرب سجالاً بين الفريقين ، وأيقن المسلمون بأس عدوهم بعد أن اجتمع إلى الهرمزان داخل أسوار المدينة جند عظيم جاء لنصرته من شتى الأرجاء مليئاً نداء كِسْرَى . لا قبل للمسلمين إذاً باقتحام المدينة إلا أن يجيئهم مدد يزيدهم قوة . وكان أبو سبرة على جند الكوفة وجند البصرة جميعاً ، فكتب إلى عمر يصف له منعة تُسْتَر وقوة الفرس المتحصنين بها ويستمدّه : وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير في جند البصرة جميعاً مدداً لأبي سبرة . وأن يضع نفسه وقواته تحت إمرته . وسار أبو موسى بجنده يمدد أبطالاً شهدوا المواقع وأبلوا فيها بلاء كفل انتصارهم بهم جميعاً .

واستمر الحصار واشتد القتال ، وكان الفرس يخرجون من أسوار المدينة يزاحفون المسلمين ثم يرتدون إلى الحصون بعد أن يصاب من الفريقين عدد كبير : وكتب أبو موسى إلى عمر يصف له ما يلقونه ، فكتب الخليفة إلى عمار بن ياسر ، وكان على الكوفة ، أن يسير مدداً إلى أبي سبرة ، وأن يقيم عبد الله بن مسعود على إمارة الكوفة مكانه .



ورأى المسلمون حين أدركهم عَمَّار وجنوده أن لا مَقَامَ لهم حول الأسوار ، فلا بدّ أن يقتحموا المدينة بعد أن طال حصارهم لها مشهوراً . ورأى الهرمزان من أعلى الحصون تجهّز المسلمون للقتال فأمر جنده بالخروج إليهم والشدة عليهم ، وكله اليقين أنه ظافرٌ بهم فردّهم على أعقابهم . وخرج هو بنفسه ، حتى إذا كان على أبواب المدينة يقاتل المسلمين ويقتل منهم ، لقيه البراء بن مالك وعرفه فاندفع إليه يريد قتله . ولم تخدع البراء نفسه ؛ فقد كان البطل الجرب والفراس المَعْلَم ، عرف له المسلمون مواقفه في حروب الردّة وفي حروب العراق والشام جميعاً ، وشهدوا له بأنه لا يفلّج . ولقد أردى أمام تستر مائة مبارز خرجوا إليه ينازعونه الشجاعة والبأس . لكن الهرمزان لم يكن دونه قوة وبأساً ؛ لذلك انفلتت من ضربة سددها إليه خصمه ، ورمى البراء بضربة أصمته قتيلاً . وخرج مجزأة بن ثور يأخذ بئار البراء فلم يكن أحسن منه حظاً ، فاستشهد كما استشهد غيره من خيرة أبطال المسلمين وشجعانهم . لكن المسلمين كانوا يعلمون أن تستر عاصمة خوزستان وأكثر بلادها مَنعةً ، وأنها إن تُغْنِمَ تُخَضِّدُ شوكة الفرس وتضعف عزمتهم . لذلك لم يفلّ من عزمهم مقتل الصناديد من إخوانهم ، بل زادهم استشهاد هؤلاء حباً للقتال وإقداماً عليه وبلاء فيه وإقبالاً على الموت ابتغاء الظفر . ومالت الشمس آخر النهار وقد تولّى الفرس الإعياء ، فلم يكن لهم بدٌّ من التراجع إلى المدينة والتحصن بقلاعها وأسوارها . وأصبح الصباح فلم يخرج منهم للقتال أحد . ذلك بأنهم رأوا المسلمين استحَبُّوا الموت على الحياة ، وأقسموا لا يبرحون تستر أو يفنوا عن آخرهم .

وضاقت المدينة بالفرس وطالت حربهم ، فخرج أحد بنيها على غفلة منهم واستأمن أبا موسى فأمنه على أن يدلّه على مأتى المدينة يكون منه فتحتها . وفرض أبو موسى للرجل ولأهله رزقاً إذا أظفر الله المسلمين بعدوهم . ودلّم الرجل على مدخل الماء للمدينة ، فوجّه أبو موسى معه أشرس بن عوف الشيباني ، فحاض الرجل به دُجَيْلاً ودخل معه للمدينة من سَرَبٍ يجرى إلى جانب مدخل الماء<sup>(١)</sup> ، ثم ألبسه لباس الخدم وسار به في طرقات

(١) قال حمزة الأصفهاني : وبخوزستان أنهار كثيرة أعظمها نهر تستر بني عليه سابور الملك شاذوران بباب تستر حتى ارتفع ماؤه إلى المدينة ، لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض . وهذا الشاذوران طولُه نحو ميل ، مبنى بالحجارة المحكّمة والصخر وعمدة الحديد ، وبلاطه بالرصاص .

تستر ، وأظهره على عوراتها ، وأراه الهرمزان ، ثم رده إلى أبي موسى ، فشهد عنده بصدق ما قاله هذا الفارسي . وندب أبو موسى أربعين رجلاً مع أشرس وأتبعهم مائتين وسار الجميع في أعجاز الليل ، فدخلوا المدينة وقتلوا الحرس وعلوا الأسوار وكبروا . وراع الهرمزان ما فاجأه من أصواتهم ، ففر إلى قلعته وهو يقول لمن حوله : « ما دلّ العرب على عورتنا إلا بعض من معنا بمن رأى إقبال أمرهم وإدبار أمرنا » . واختلط حابل الفرس بنابلهم حين رأوا أميرهم يفر من بينهم ، ورأوا أبواب المدينة يفتتحها العرب ويدخلونها عليهم . وبلغ من اختلاطهم واضطراب أمرهم أن كان الرجل منهم يقتل أهله وولده ويُلقبهم في دُجَيْل خوفاً من الغزاة . ألم يكونوا قد سمعوا أن مدينتهم أعز من أن تنال ، وأن أميرهم أعظم شوكة وأشد بأساً من كل محارب ! وهذا الأمير يفر والمدينة تفتح أبوابها والعرب يقتحمونها ! فأى خير بعد هذا في عيش ذلة وضعة وانكسار ! ومتى يستحب الموت على الحياة إن لم يكن في مثل هذا المقام ! ! .

تخصّن الهرمزان بقلعته ، فأطاف به الذين دخلوا من مخرج الماء ، فأطلّ عليهم وقال لهم : « إن في جمبتي مائة نُشَّابة . ووالله ما تصالون إليّ مادام معي منها نُشَّابة ، وما يخيب لي سهم ! فما خير إيسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ! » وإعما وجه إليهم هذا القول وهو موقن أنه لا محالة مقتول إذا أُسر في قتال، وأن لا أمل له في حياة إلا على صلح . وقال له القوم : ماذا تريد ؟ فأجابهم : أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي ما شاء . وأجابه القوم إلى ما طلب ، فرمى بقوسه وأمكنهم من نفسه ، فشدّوه وثاقاً وساروا به إلى أبي موسى وذكروا ما كان بينهم وبينه . فحَمِلَ الهرمزان مع أس بن مالك والأحف بن قيس إلى عمر فكان بين الرجلين حديث طويل نقصه في ختام هذا الفصل . كان تسليم الهرمزان نفسه إيذاناً بإذعان تستر ؛ لذلك كف من بقي من أهلها عن المقاومة وألقوا بأيديهم ، فتسلّم المسلمون للمدينة ، واستولوا على ما فيها من الأموال ، فاستأثروا لأنفسهم بأربعة أخماسه ، وجعلوا الخمس لأُمير المؤمنين . وقد بلغ نَقْل الفارس يومئذ ثلاثة آلاف ، ونفل الراحل ألف درهم .

يُحْمَلُ بنا ، قبل أن تتابع جيوش المسلمين في مسيرتها لفتح ما بقي من أرض خوزستان ،

أن نقف هيمية نلتمس ما ينطوى عليه فتح تستر من عبرة . فتستر عاصمة خوزستان كما رأيت ، وكانت من أشدّ مدن الفرس منعةً وأقواها حصوناً . وكان يزدجرد قد وعد الهرمزان أن يطلق يده بالسلطان في خوزستان وفي منطقة فارس الواقعة جنوبيها ، فكان ذلك من أقوى الحوافز دفعاً له إلى الاستماتة في المقاومة والوقوف في وجه المسلمين أشهراً . فكيف تُسوّل لرجل من أهل تستر بعد ذلك نفسه أن يدلّ العرب على مدخلها ويكشف لهم عن عورتها؟ بل إن بعض الروايات لتجري بأن جماعة من أمراء الفرس انضموا رجالهم إلى المسلمين المحاصرين نُستَر وعاونوهم في قتال بني وطنهم منحدرين بذلك إلى هاوية سحيقة من الانحلال النفسى . ثم ما للهرمزان يرضى ، بعد أن أبلى ما أبلى في الدفاع عن المدينة الحصينة ، أن يسلم آخر الأمر نفسه ، وأن ينزل على حكم خليفة المسلمين في حياته وفي موته ؟ .

لا أرانى في حاجة إلى أن أكرر هنا ما ذكرته تعليقاً على القادسية من ضعف الشعور القومي في النفس الفارسية لذلك العهد ضعفاً جعل حب الذات والحرص على الحياة أقوى سلطاناً على هذه النفس من كل اعتبار معنوي ، وما أدى ذلك إليه من اضطراب البلاط واقتتال الأمراء على السلطان . وإنما أريد أن أرتب على هذه الحال المعنوية الآثار التي انتهت إلى هزيمة تستر وما تلاها من الهزائم .

فحينما أدّى انحلال الروابط الاجتماعية في أمة من الأمم إلى انحلال روحها المعنوى ، ضعفت مناعة هذه الأمة فقضرت عن أن تمدّ بصرها إلى المستقبل ، وأن تقدّر لماتصيها فيه . فالروابط الاجتماعية ملاك الحياة المعنوية وقوامها في الأمة . ومكان القوة المعنوية من الأمة مكان غريزة الاحتفاظ بالحياة في الفرد . وكما تدعونا هذه الغريزة للاحتفاظ بكل عضو من أعضائنا سليماً ما استطمنا الاحتفاظ به والدفاع عنه ، فإذا أوجب الاحتفاظ بحياتنا بتر عضو من الأعضاء لم نتردد في بتره بدافع من هذه الغريزة نفسها ، كذلك تدعو القوة المعنوية القائمة من الجماعة مقام تلك الغريزة من الفرد لأن تدافع الجماعة عن كل فرد من بنيتها إلى غاية ما تستطيع الدفاع عنه ، فإذا لم يكن بدّ من التضحية بطائفة من الأفراد محافظةً على كيان المجموع لم تتردد الجماعة في التضحية بهم ، واستحب هؤلاء

الأفراد هذه التضحية دفاعاً عن الكيان القومي الذي أعزّمهم ، والكفيل وحده بأن يعز أبناءهم وحفدّتهم .

وكما يحدث أن تنحلّ حيوية الجسم ، فإذا كلّ عضو من أعضائه يؤدّي وظيفته لحسابه لا لحساب مجموع الجسم فتضعف بذلك غريزة الاحتفاظ بالحياة ضعفاً ينتهي إلى الموت ، كذلك يحدث أن تضعف القوة المعنوية في الأمة بالخلل الروابط الاجتماعية بين أبنائها واقتصار كلٍّ منهم على التفكير في نفسه ولنفسه ، غير معتدّاً بما بينه وبين سائر أفراد الأمة من تضامن هو الحفيظ لكيان الجماعة . عند ذلك تضعف الأمة بعد قوة ، وتذلّ بعد عزّ ، وتنحلّ معنوياتها انحلالاً هو النذير بانقراضها بوصفها جماعة لها كيانها .

الأمة تبلغ الروح المعنوية فيها أوج قوتها لا تعرف اليأس ولا الاستسلام ، وتؤثر الموت على حياة ضعف ومذلة . ومثل هذه الأمة لا يمكن أن تذلّ أو تضعف ، ولا يمكن أن تفنّي ؛ لأنّ حيويتها المعنوية تتغلب على كل ضعف وتحول دون كل انحلال . أفرادها فيما بينهم كتلة واحدة متضامنة على الزمان كتضامنها في المكان ، فإذا فقدت الأمة طائفة منهم قامت طائفة غيرها مكانها وأدّت عملها ، حتى تسترد بالتعويض الطبيعي ما فقدت ، فتعود أكثر مفاعلةً وأشدّ بأساً مما كانت . وهذه الأمة لا يمكن أن يقوم من أبنائها من يدلّ عدوها على عورتها حرصاً على أمنه في الحياة أو على حياته نفسها . فإذا أحيط برجل من رجالها ما أحيط بالمرزبان آثر الموت مجاهداً ليكون جهاده ويكون موته مثلاً عالياً لمعاصريه ، ودرساً سامياً لمن يجرى بعده . وإذا قضى القدر أن تُغلب هذه الأمة يوماً فلتعود في غدها فتسترد قوتها وتثار لنفسها ، وتحيا بذلك مع سائر الأمم حياة عزّة وبأس وسلطان .

أمّا وقد انحلت الروابط الاجتماعية في الأمة الفارسية لأسباب أشرنا إليها في غير موضع من هذا الكتاب فأدى هذا الانحلال إلى تداعي قوتها المعنوية ، فقد كان طبيعياً أن يغلبها الروم وأن يغلبها العزب ؛ إذ كان أبنائها لا يلبثون حين يرون الدائرة تدور عليهم ، أن يدلّوا عدوها على عورتها ، وأن يكونوا إلّياً عليها معه ليحفظوا لأنفسهم أمن الحياة وإن جنوا بأنفسهم على أمن الوطن . وقد رأيت على ذلك أكثر من مثل : رأيت

اضطراب البلاط ودسائسه ، ورأيت فرار القواد والجنود ، ثم رأيت فرار يزدجرد نفسه من المدائن وحُلوان . فلا عجب وذلك شأن الحياة المعنوية في أمة أن يغدر بها من أبنائها من ينسى أنه ابنها وأن فضلها عليه عظيم : ثم عجب أن يلتمس كل واحد الحياة لنفسه ، والمجد لنفسه ، والجاه لنفسه ، مادامت الروابط القومية قد عراها التفكك والانحلال .

تقع تُستَر على نهر كارون شمال الأهواز ، على نحو خمسين فرسخاً منها . وتقع سُوس على بضعة فراسخ إلى الغرب من تستر . لذلك كانت المناوشات مستمرة بين أهل سوس والمسلمين أثناء حصارهم تستر ، فلما فرغوا منها كان طبيعياً أن يتجهوا إلى سوس ويحاصروها ويقاتلوا أهلها . وقد فعلوا . ولقى المسلمون جهداً في قتالهم الذي طال حتى قُتد مافي المدينة من طعام . ولم يجد أهلها مفرعاً من الموت إلا إلى الصلح ، فسألوا دِهْمَانَهَا أن يفاوض المسلمين فيه . وطلب الدهقان إلى أبي موسى أن يؤتمنه على حياة مائة من أهله ففعل ، وسمى الدهقان المائة ونسى نفسه ، فأمر به أبو موسى أن يقتل ، فنأدى : « رويدك! أعطك مالا كثيراً » ، وأبي أبو موسى وضرب عنقه . ولو أنه ذكر حكم أبي بكر ، يوم عفا عن الأشعث بن قيس حين نسي نفسه في مثل هذا الموقف ، لما قتل رجلاً أسلمه مفاتيح مدينته .

أورد الطبري في الروايات التي جرت عن فتح السوس أن سِيَاهِ الأَسْوَارِيَّ كان قد خرج من أصبهان بأمر يزدجرد لقتال المسلمين ، فلما رآهم غلبوا على تستر بعد أن احتلوا بلاد الأهواز ، دعا الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه وذكر لهم فعّال المسلمين وأنهاهم يلقون جنداً إلا قلوبهم ، ولا ينزلون حصناً إلا فتحوه ؛ فانظروا لأنفسكم » وأنه اتفق معهم فبعث إلى أبي موسى يقول : « إنا قد رغبتنا في دينكم ، فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتلحقونا بأشراف العطاء ، ويمقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك » .

وأجابهم أبو موسى : بل لغا مالكم وعلينا ما عليكم ، فلم يرضوا ، وكتب أبو موسى إلى عمر بما حدث ، فأجابه : « أعطهم ماسألوك » . فأسلموا ، وفرض لهم أبو موسى ، وجعل لمائة منهم ألفي ألفين ، ولسته هم زعماءهم ألفين وخمسمائة .

وكتب أبو موسى إلى عمر يذكر له أن بالسوس قبر النبي « دانيال » ، وأن جسده مكشوف يستسقى به الناس ، فأمره عمر أن يكفنه وأن يدفنه . ولا يزال قبر دانيال حتى اليوم بهذه المدينة موضع الإجلال والإحترام ، وقد أقيم حوله في القرن التاسع عشر المسيحي معبد يزار ويتبرك به .

فرغ المسلمون من السوس فخرجوا إلى جُنْدَى سابور الواقعة على مقربة منها إلى الشمال الشرقي . فأقاموا على حصارها زمناً ، ثم إذا أبوابها تُفتّح لهم فجأة ، كأن الصلح بينهم وبين أهلها قد تم . وبعث المسلمون يسألونهم في ذلك مخافة أن تكون مكيدة ، فذكروا أنهم قبِلوا الأمان الذي بعثه المسلمون إليهم ، وأقرّوا لهم بالجزية على أن يمنعوهم . وعجب المسلمون ، ثم تبينوا أن عبداً من عبيدهم هو الذي كتب لأهل المدينة بالأمان . وكتبوا إلى عمر بما حدث ، فأمر بإجازة الصلح والوفاء به .

كانت أنباء هذه الفتوح تبلغ عمر في مواعيدها ، فلا يسهه كلما بلغه نبأ منها إلا أن يسجد شكراً لله على توفيقه للمسلمين وتسديد خطاهم . وكان يزيد شكره ما يعرفه من أمر هذه المدن التي تُفتّح ، وما يذكره له الرسل من صفة ما لم يره منها . فالأهواز ، وأهرمزشير على لغة الفرس . كانت مدينة عظيمة تضم سبع كُور على طراز المدائن ، وكانت أهلةً بالتجارة والسكان ، وكان الفرس يعظمونها في مختلف الأرجاء من مملكتهم . وتستر عاصمة خوزستان ذات الصيت الدائع في عالم يومئذ ، ومقلّ الفرس الأيمن في الجنوب الغربي من سهل إيران ، والسوس ، وهي شوشان القديمة التي ظلت عاصمة ميدياً زمناً طويلاً ، كانت فتنة الناس جميعاً بجبالها وروعها . وخوزستان كلها ، المملوكة الفسيحة الأرجاء ، الممتدة ما بين العراق العربي والعراق العجمي ، كانت درة من أغلى الدرر في تاج الأكرسة . لقد نصر الله المسلمين وأعزهم في كل موافقهم بهذه البلاد . أفتتبع عمر الفتوح فيأمر باقتحام فارس إلى أقصى الشرق ، أم يقف من هذه الفتوح عند ما استولى عليه ، ويدع الفرس فيما وراء ذلك لا يزعمهم ولا يحرك الثارات في نفوسهم ، فيدفعهم إلى مقاومة جيوشه مقاومة لا يعلم إلا الله ما تكون نتائجها ؟ .

بينما يفكر عمر في هذا الأمر ، ويستخير الله فيما يصنع . كان أنس بن مالك

والأحفف بن قيس يسيران من تستر في رجالهما يحملون خمس النوى والهرمزان معه إلى أمير المؤمنين . فلما اقتربوا من المدينة ألبسوا الهرمزان لباسه من الديباج الموشى بالذهب ووضعوا على رأسه تاجه (الآزين) المرصع بالدر والجوهر ، وأمسك بيده صولجاناً من الذهب الخالص المسكل بالياقوت واللالى . ليرى عمر وأهل العاصمة الإسلامية صورة البهرج العظيم الذى يتزين أمراء الفرس به وبلغوا المدينة وقصدوا دار عمر ، فعلموا أنه ذهب إلى المسجد يلتقى وقدماً من أهل الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه هناك فلم يروه وبصّرهم غامان من أبناء المدينة عرفوا ما يريدون ، فذكروا لهم أن أمير المؤمنين نائم فى ميمنة المسجد متوسد برأسه . وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة فى برنس له ، فلما خرجوا عنه نزع برنسه ثم توسده فنام . وعاد الأحفف وأنس والهرمزان واتبعهم الغلمان والنظارة الذين أخذوا بمنظر الأمير الفارسى فى حُلة إمارته فساروا فى أثره يملثون أنظارهم منه ، حتى دخلوا المسجد وأجالوا نظرهم فى أرجائه ، ورأوا عمر وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره ، فجلسوا سكوناً مخافة إزعاجه ، ولم يقطن الهرمزان إلى قصد القوم من هذه الحركات المتعاقبة ذهاباً وحيثاً لأنه لم يفهم شيئاً مما يقولون . فلما رآهم اطمأنوا بالمسجد وليس فيه إلا ذلك الرجل النائم فى يده ديرة معلقة خيّل إليه أنهم سيصلّون قبل أن يلقوا مليكهم . فلم يدركه بخاطره إلا أن يكون عمر الساعة فى إيوانه دون حجاب . فهذا الملك القادر الذى قهرت جيوشه فارس والروم لا بد أن يكون له إيوان على بابه حجاب . ومهما يكن من حديث الناس عن بساطة عيشه ، فلن تبلغ البساطة منه أن يستغنى هذا الملك الواسع عن دواوين ترعى نظامه ، ولا بد لأمير المؤمنين من إيوان وحجاب ينتظم بهم وقته وعمله ! . ورأى الأحفف بن قيس يشير إلى كل هامس يمسك فلا يزعب الخليفة عن نومه ، فسأل بعض من حوله ممن يعرفون لغته : فأين عمر ؟ قالوا وأشاروا إلى النائم : هو ذا . وأخذ الأمير الفارسى بما رأى مما لم يكن يجرى له بخاطر . فوجم هنيهة ثم سأل : وأين حرسه وأين حجابيه ؟ . قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا إيوان . وزاد عجب الهرمزان فقال لمن حوله أو قال فى نفسه : « ينبغى أن يكون هذا الرجل نبياً فالأى يكن فإنه يعمل عمل الأنبياء ! » وأيقظ همس عمر فاستوى جالساً ، فرأى الأمير على مقربة منه عليه حُلتُه وفى يده

صولجانه يشعُ منهما لألاء الجواهر فقال: الهرمزان! قال القوم: نعم. فتأملته وتأمل ما عليه وقال: «أعوذ بالله من النار وأستمين الله! الحمد لله الذي أذلَّ للإسلام هذا وأشياعه! يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطنركم الدنيا فإنها غرارة!». قال الوفد الذين جاءوا من تستر: «هذا ملك الأهواز فكلمه». وأجاب عمر: «لا! حتى لا يبقى عليه من حليته شيء». وكيف يكلم أمير المؤمنين رجلاً قتل من أبطال المسلمين وشجعانهم من قتل وهو في حلة الملك وزية، وقد ينتهي أمره إلى التنكيل به وقتله! ونزع القوم كل ما على الهرمزان إلا ما يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً. فلما رآه عمر على هذه الحال قال له: «هيه يا هرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟!». وأجاب الهرمزان: «يا عمر! كنا وإياكم في الجاهلية وقد خلى الله بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا». قال عمر: «إنما غلبتمونا بالجاهلية باجتماعكم وتفترقتنا. والآن فاعذرنا وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟». ورأى الهرمزان الغضب في عين عمر وهو يلقى عليه هذا السؤال فقال: «أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك!». قال عمر: «لا تخف ذلك!» واستسقى الهرمزان ماء فأتى به في قده غليظ فقال: «لومت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا!» فأتى به في إناء يرضاه، فلما أخذه جعلت يده ترتجف وقال: «إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء!». قال عمر: «لا بأس عليك حتى تشربه» فأكفأ الهرمزان الإناء وأراق ما فيه من ماء، فقال عمر: «أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش». قال الهرمزان: «لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن أبه».

عند ذلك جرى بين الرجلين حوار تدخل فيه الأحنف بن قيس وأنس بن مالك. وكان فيه من جانب عمر عنف وشدة. وقد أورد الطبري وابن كثير هذا الحوار كما يلي:

عمر: إني قاتلك!

الهرمزان: قد آمننتي!

عمر: كذبت!

أنس بن مالك: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنته!



عمر: ويحك يا أنس! أنا أؤمن قاتل حِجْرَاءَ والبراء! والله لتأتيني بمنخرج أو لأعاقبك! .  
 أنس: قلت له: لا بأس حتى تخبرني، وقلت له: لا بأس حتى تشر به .  
 وأقرَّ الأحنف بن قيس ومن حوله كلام أنس، وذكروا جميعاً أن أمير المؤمنين آمن  
 الهرمزان . فنظر إليه عمر مفضباً وقال: « خدعتني! والله لا انخدع إلا لمسلم! » . وأسلم  
 الهرمزان، وفرض له عمر ألفين، وأنزله المدينة .

ويروى البلاذري عن أنس بن مالك حديثاً مسنداً إلى مروان بن معاوية عن حميد  
 عن أنس أنه قال: « حاصرنا تُسْتَرَّ فنزل الهرمزان فكنت الذي أتيت به إلى عمر،  
 بعث بي أبو موسى، فقال له عمر تكلم، فقال: أ كلام حيٍّ أم كلام ميت، فقال: تكلم  
 لا بأس . فقال الهرمزان: كُتِّبَنا معشر العجم ما حَلَّى اللهُ بيننا وبينكم نقضيكم وتقتلكم،  
 فلما كان الله معكم لم يكن لنا بكم يدٌ أن . فقال عمر: ماتقول يا أنس؟ قلت: تركت خلفي  
 شوكة شديدة وعدواً كلبياً؛ فإن قتلته يئس القوم من الحياة فكان أشد لشوكتهم، وإن  
 استحييته طمع القوم في الحياة . قال عمر: يا أنس، سبحان الله! قاتل البراء بن مالك  
 وحِجْرَاءَ بن ثور السدوسي! قلت: فليس لك إلى قتله سبيل . قال، ولم؟ أعطاك؟ أصبت  
 منه؟ قلت: لا! ولكنتك قلت له: لا بأس، فقال: متى؟ لتجئني معك بمن شهد  
 وإلا بدأت بعقوبتك! فخرجت من عنده فإذا الزبير بن العوام قد حفظ الذي حفظت  
 فشهد لي فخلى سبيل الهرمزان فأسلم ففرض له عمر » .

كان المغيرة بن شعبه يتولى ترجمة كلام الهرمزان إلى عمر وكلام عمر إلى الهرمزان،  
 وكان لا يحذق الفارسية ما يحذقها زيد بن ثابت . فدعا عمر يزيد فجاء فتولى الترجمة، فلم يجد  
 عمر في كلام الهرمزان جواباً على نقضه عهد المسلمين مرة بعد مرة . عند ذلك وجه عمر  
 القول إلى الوفد الذين جاءوا من تستر فسألهم: لعل المسلمين يُقَضُونَ إلى أهل الذمة بأذى  
 فهذا ينتقضون بكم . قال رجال الوفد: مانعهم إلا وفاء وحسن مأسكة . قال عمر: فما بالهم  
 ينتقضون؟ وتتابع رجال الوفد يحاول كل منهم أن يجد لهذا الانتفاض علة مع وفاء المسلمين  
 لهم، فلم يجد عمر في كلام أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصره، عند ذلك قال الأحنف بن قيس  
 « يا أمير المؤمنين أخبرك . إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاعتصار على  
 (٢م - الفاروق - ج٢)

ما في أيدينا . وإن مَلَكَ فارس حتى بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا مادام مَلَكَهم فيهم . فلم يجتمع ملكان فاتمقا حتى يُخْرَج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم . وملكهم هو الذي يحرّضهم وبيعهم . ولم يزل هذا دأبهم حتى تَأَذَّنَ لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ونُخْرِجُه من مملكته وعزّ أُمته . هناك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم » .

استمع عمر إلى الأحنف ملياً ، وأطرق إطراقة طويلة ، ثم قال له : « صدّقني والله وشرحت لي الأمر عن حقه » . وعرف الهرمزان حديث الأحنف فأقره ، فازداد عمر ثقة به واطمئنأنا له . ثم إن الأنباء جاءت باجتماع أهل نهاوند لقتال المسلمين ، فلم يبق لدى أمير المؤمنين في صدق هذا الحديث ريب ، فخرج من ترونده ، ورأى أن الوقوف بالفتح في حدود العراق لم يعد مستطاعاً ، وأن الحوادث تحمله طائعاً أو كارهاً على العدول عن هذه السياسة ، وتدفعه للتوسع في بلاد الفرس حتى يُجْلِيَ يزدجرد عن أرضها جميعاً . لذلك أذن أن ينساح المسلمون في بلاد فارس وعباً الألوية لقتال أهلها .

وأقام الهرمزان بالمدينة وحسن إسلامه ، وصار لا يفارق عمر ولا يرضنّ عليه بالمشورة فلما قتل عمر أتهم الهرمزان بالملاأة عليه وتدير المؤامرة لاغتياله . وقد اقتنع عبید الله ابن عمر بذلك ، فقتله وقتل جُفَينَةَ معه . وسنفضّل ذلك من بعد ونتحدّث عن آثاره .

والآن ، فلنعد إلى فارس لنرى ما حدث بها ، وكيف اجتمع أهل نهاوند لقاومة للمسلمين فيها ، ولننظر كيف نظّم عمر سياسته الجديدة ، وسياسة التوسع في الفتح فاستولى على فارس كلها ، وعلى مصر كلها .

## الفصل السادس عشر

### غزوة نهاوند

سمع عمر إلى الأحنف بن قيس ثم قال له : « صدقتي والله وشرحت لي الأمر عن حقه » . فلما جاءته أنباء نهاوند لم يبق للتردد في نفسه موضع .

وكان طبيعياً أن تُزِيل هذه الأنباء كل أثر للتردد من نفسه ؛ فإن أمراء الفرس في شتى الولايات لم يلبثوا ، حين عرفوا ما أصاب الهرمزان وجنوده ، أن ألقى في روعهم أنه مصيبيهم ما أصابه إذا ظلوا فيما هم فيه من تحاذل وانحلال ، فكاتبوا وأرسل بعضهم إلى بعض الرسل أن يجتمعوا كلمة واحدة لدفع هؤلاء الغزاة الذين كانوا ، إلى سنوات قلائل ، يدينون بياس فارس وسلطانها ، ولا يستطيع أحدهم أن يرفع رأسه من هيبتها ، فأصبحوا اليوم بغزونها في عُقر دارها ، ويمدّون سلطانهم على ولايات واسعة منها ، ثم لا يفتنون يتقدمون فيها ، وكان ليس لأحد على وجه الأرض بياسهم قبل .

وكان أول ما اتفق هؤلاء الأمراء عليه أن كتبوا إلى يزيد جرد ليكسبون على رأس حركتهم ، حتى يجتمع الناس حولها وينضموا إلى لوائها ؛ فهو كسرى عنون فارس ووارث مجدها وصاحب نظامها ، يدين له الناس بالطاعة في شتى أرجائها ، ولا يختلف عن أمره كبير ولا صغير من أبنائها . وكان يزيد جرد قد اضطرب في أرجاء فارس بين مختلف العواصم منذ فر من المدائن ؛ فكانت الحوادث تدفعه من حلوان إلى الرمي إلى أصفهان إلى أصفخر إلى مرو ، ثم تزيده أنباء المسلمين على السفين اضطراباً . فلما جاءته كتب الأمراء ورأى ما فيها من اجتماع كلتهم وشدة حماسهم لدفع عدوه وعدوهم ، عاودته من شبابه نفحة بدلت يأسه أملاً واضطرابه طمأنينة ، فكتب إلى أهل إيران كلها ، سهلها وجبلها ، يحثهم ويحرك حماسهم . كتب إلى الباب وإلى خراسان وحلوان وسجستان وطبرستان وخراسان ودمقون والرعي وأصفان وهمذان وسائر الولايات والبلاد في مملكته ، يشجع أهل فارس ويذكر لهم أن غزو العرب ليس إلا عاصفة نائرة لا تلبث أن تمر ، وسحابة

عارضة لا تلبث أن تنقشع ، وأن الأمر في انقشاع السحابة ومرور العاصفة إلى تكاتفهم وتضامنهم وثباتهم في وجه عدوهم ، فإذا ثبتوا طردوه من ديارهم وردّوه على أعقابهم خائب الظن كاسف البال يتحدث بفعالهم .

انتشرت أنباء حُوزِ شَتان والمهرمزان في فارس كلها ، فانزعج الناس كباراً وصغاراً لها . فلما جاءهم كتاب كسرى أسرعوا إلى تلبية نداءه ، فبعث كل أمير من جنده إلى نهاوند حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً اجتمعوا بإمرة الفيرزان . فلما اجتمعوا عنده وجلس إليه أمراء هذا الجند المقبل من شتى الأرجاء قال لهم : « إن محمداً الذي جاء العرب بهذا الدين لم يتعرض لبلادنا . وقام أبو بكر من بعده فلم يتعرض لنا في دار ملكنا ، ولم يثر بنا إلا فيما يلي بلاد العرب من السواد . وهذا عمر بن الخطاب لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عُقر دارنا ، فأخذ بيت الملكة وانتقصكم السواد والأهواز ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، وليس بمنته حتى تخرجوا من بلادكم من جنده وتقلعوا هذين المصرين ، البصرة والكوفة ، ثم تشغلوه في بلاده وقراره . »

نقل الأمراء هذا الحديث إلى الجند فاشتعلت حماسهم ، فأقاموا ينتظرون اليوم الذي يواجهون فيه عدوهم ويُقسِم كلٌّ منهم أن لن يرجع إلى موطنه حتى يقيم النصر لكسرى وجنوده . وبلغت هذه الأنباء عمر بن الخطاب نبأ إثر نبأ ، فأيقن أن الأحنف ابن قيس صدقه الرأي ، ولم يبق لديه ريب في أنه إن لم يوجه للفرس الضربة القاضية العاصمة فلن يزالوا يفاوئونونه ، وقد يبسم لهم الخطّ يوماً فإذا خيولهم تُغير على العراق العربي من جديد ، وإذا هذه الدولة العربية التي اطمأنَّ عمر إلى قيامها تتعرض للاضطراب ، بل للضياع .

وزاد في شغل عمر بأمر العراق ومصيره ما أبدى بعض العرب الذين استقروا به من ميل إلى الخصومة والشغب ، أغراهم به ما استراحوا إليه من رخاء جعلهم يتنافسون وينفَس بعضهم على بعض ، ثم لم يصرفهم عنه تهيمؤ الفرس لحربهم وإعدادهم لقتالهم ، فبينما يرسل سعد بن أبي وقاص أنباء يزدجرد والفيرزان والجند الذين اجتمعوا بنهاوند إلى أمير المؤمنين إذا جماعة من أهل الكوفة ، على رأسهم الجراح بن سنان الأسديّ .

يؤلّبون على سعد ويشورون به ويشكونه إلى عمر في كل شيء حتى يقولوا إنه لا يحسن الصلاة . ولقبهم عمر بالمدينة وسمع شكاتهم ، ثم قال لهم : « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في الأمر وقد استعدت لقتالكم من استعد . وإيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم ا » . وكان عمر قد أقام محمد بن مسلمة على تحقيق ما ينسب من الشكايات إلى عماله ، فأوفده إلى الكوفة ، فجعل يسأل الناس عما نُسب إلى سعد ، فيقولون : لا نعلم إلا خيراً ولا نشتى به بدلاً ، لم يخالف عن ذلك إلا الذين آتهموه . وعاد ابن مسامة إلى المدينة ومعه سعد والجراح بن سنان وأصحابه ، فاستمع إليهم عمر فلم يجد ما يؤاخذ به سعداً . لكنه آثر مع ذلك ألا يدعه في هذا الموقف الدقيق على عمله ، وبالكوفة من يثيرون الناس به ، فسأله من استخلفت على الكوفة ؟ قال : عبد الله بن عبد الله ابن عتبة . وكان ابن عتبة شيخاً كبيراً من أشرف الصحابة ، فأقر عمر نيابته على الكوفة واستبقى سعداً بالمدينة معزولاً من غير عجز ولا خيانة . ولولا ما كان سعد قد أبلغه إلى عمر عن اجتماع الفرس بنهاويد وما كان قد شافه به ، بعد قدومه المدينة ، من تهيبهم للقتال وتعاهدهم عليه ، لردّه إلى عمله ولما سمع فيه لشكايات لم يثبت شيء منها عنده .

وأرسل بن عتبة إلى عمر من أنباء الفرس ما أيد أقوال سعد عن تأهبهم ، وما زاد الخليفة إشفاقاً من تدبيرهم . وتواترت الأنباء بعد ذلك مروّعة تهزّ القلوب رعباً . فهذه قوات فارس التي اجتمعت بإمرة الفيرزان قد سارت إلى همدان ، وهي الآن قد تابعت مسيرتها تقصد حُلوان ، بل هاهي ذى في طريقها إلى الكوفة وعمّا قريب تبلُغها . ترى ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟! لقد أدرك بفراسته مافى هذه الأنباء من مبالغة بصورها الفزع ؛ إذ يدفع إلى النفوس من خوف الخطر ومن توقّعه ما يجعلها تتوهم الأشياء وتجسّمها إلى أضعاف الواقع من حقيقتها . لكن الأمر الذي لا ريب فيه أن الفرس قد جمعوا وأعدّوا ، وأنه ألا يواجههم ويبادروهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة ، وقد تنتهي بهم جرأتهم إلى تهديد ما استولى عليه جنده في خوزستان والعراق العربي . الخطر إذاً جسيم ، والتأهب للملاقاته واجب مقدس .

وأراد عمر أن يستشير الناس ، كدأ به في مثل هذه الأمور ، فنادى مناديه فيهم :

الصلاة جامعة . فلما التأم عقوم بالمسجد صعد المنبر وذكر للناس ما أنباه إليه عماله عن تهيؤ الفرس واجتماعهم وكثرة عدوهم ، ثم قال : « إن هذا اليوم له ما بعده . ألا وإنى قد هممت بأسر فاسمعوا وأجيبوا وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم أفمن رأى أن أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين فأستفرهم ثم أكون لهم رذءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب ؟ » . وتكلم القوم ، فأشار بعضهم بأن يسير أمير المؤمنين بالجيوش إلى العراق ، وأن يدعو جنده بالشام واليمن ، ليواجه الفرس ويفزو بلادهم . وأشار آخرون أن يُقيم بالمدينة وأن يبعث كل من قدر عليه من الجند لغزو الفرس . وكان قوم أكثر من هؤلاء ومن أولئك حذراً ، وكان بينهم على بن أبي طالب إذ قام فكان مما قاله : « يا أمير المؤمنين ! إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم صارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من بينهم سارت الحيشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأطرافها ، حتى يكون ما تدع وراءك أمم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات . وإنما مكانك من العرب مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً . وإن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكذبهم فتألبوا عليك . أما ما ذكرت من عدد القوم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكننا كنا نقاتل بالنصر . فأقيم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة ؛ فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، فليذهب منهم الثلثان وليقيم الثلث واكتب إلى أهل البصرة يُمدُّونهم » .

اقتنع عمر برأى على وسر به فأعلن في الناس أنه مقيم بالمدينة ومرسل الجيوش تلو الجيوش أمداداً لقتال الفرس ، ثم قال : « أشيروا علىّ برجل أوله أمر هذه الحرب وليكن عراقياً » . قالوا : أنت أفضل رأياً ، وأحسن مقدرة ، وأبصر بجندك ، وقد وفد عليك أهل العراق وجنده فرأيتهم وخبرتهم . قال : « أما والله لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً ، النعمان بن مقرن ! » . قال الناس : هو لها ! .

وكان النعمان لها حقاً ؛ عرفه المسلمون فارساً مقداماً لا يعرف التردد ولا الفرار ، مكيناً

غير متسرع إلا لفرصة . كان على ميمنة أبي بكر حين خرج يُقاتل الذين منعوا الزكاة فهزمهم بذي القصة ، وكان في غزوات العراق كلها إلى جانب خالد بن الوليد من يوم ذهب خالد إليه ، وكان النصر يسير في ركابه سيره في ركاب خالد . فلما ولّى عمر سعد بن أبي وقاص جند العراق كان النعمان معه في الطليعة ؛ برز في القادسية وفي فتح العراق العربي ، ثم أبلى في حروب خوزستان أعظم بلاء . رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ عاملاً على كَسْكَر ، فكتب إلى عمر يشكو إليه أن سعد بن أبي وقاص استعمله على جباية الخراج وهو يحب الجهاد . فكتب عمر إلى سعد : « إن النعمان كتب إليّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كره ذلك ورغب في الجهاد ، فابعث به إلى أمّ وجوهك » . فلما استقر رأى عمر على توليته حرب الفرس الذين اجتمعوا بإمرة الفيرزان كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن . سلام عليك ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند . فإذا أتاك كتابي هذا فسرّ بأمر الله وبعون الله وب نصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعرأ فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضةً ، فإن رجلا من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار . فسر في وجهك هذا حتى تأتي ماء ؛ فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافقوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم . والسلام عليك » .

وكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان وإلى الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان بن مقرن كذا وكذا ، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى ماء ، فليوافقوه بها وليسر بهم إلى نهاوند . وقد أمرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي بهم إلى النعمان . وقد كتبت إلى النعمان : إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة اليمان ، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن .

ودفع عمر هذا الكتاب إلى السائب بن الأقرع ليسير به إلى الكوفة ، وجعل السائب أميناً على الفء وقال له : « إن فتح الله عليكم فاقسم ما أفاء الله عليهم بينهم ، ولا تخدعني ولا ترفع إليّ باطلاً ، وإن نكبت القوم فلا تربي ولا أرينك » .

وكتب في اليوم نفسه إلى أبي موسى الأشعري أن أسر بأهل البصرة إلى ماء والأمير  
النعمان بن مقرن. وكتب إلى سلمى بن القين وحرثمة بن ربيعة وأمراء الجند الذين كانوا  
بين فارس والأهواز أن اشغلو فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم،  
وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرى. وإنما أراد عمر بأمره هذا  
أن يقطع عن أهل نهاوند أمداد فارس فلا يزيدوا الفيرزان قوة على قوته.

بهذا كله تجهز عمر لمواجهة الخطر الذي تواترت لديه أنباءه، وهياً الجوَّ حوله ليقوم  
المسلمون في وجه الفرس غير وانين ولا مترددين. وسارت الجيوش إلى ماء فأنتهت إلى  
النعمان بن مقرن، وفيها الفرسان والأبطال أولو البأس والخطر، ومنهم من حضر القادسية  
والمدائن وغيرها من الوقائع فأراد أن يضيف إلى نخاره نخاراً جديداً، ومنهم من لم يحضر  
القادسية فخف يريد نهاوند لكي لا يفاخره غيره ويستعلى عليه بحسن بلائه.

وبلغوا حلوان، فأراد النعمان أن يتنطس أخبار الفرس ليعرف أبشوا من العيون  
والأرصاد على الطريق ما يجب الاحتياط له، فبعث طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو  
ابن معدى كرب الزبيدي وعمرو بن أبي سلمى المزني طليعة يرتادون ويتبينون. وسار  
ثلاثتهم يوماً إلى الليل، ثم رجع عمرو بن أبي سلمى فأخبره القوم أنه لم ير شيئاً. وسرى  
طليحة وعمرو بن معدى كرب طول الليل ثم رجع عمرو فسأله الناس: ما رَجَاك؟ قال:  
سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق. ومضى طليحة ولم يحفل  
بصاحبيه حتى انتهى إلى نهاوند، فعلم علم القوم وعرف أنباءهم، ثم عاد فدخل على النعمان  
فأخبره أن ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه. عند ذلك نادى النعمان بالرحيل، وسار  
في جنوده على تعبئة حتى نزل قريباً من حصون أعدائه. وهناك كبر المسلمون ثلاث  
تسكيرات زلزلت الأعاجم وملأت قلوبهم رعباً.

عرف الفيرزان أنباء المسلمين وأنهم جاءوا ثلاثين ألفاً يقاتلونه، فلم يستهن بهم،  
ولم يحدعه أنه قبالتهم في خمسين ومائة ألف متعاهدين على القتال إلى الموت، متحصنين  
في بروج ذات مَنَعَةٍ؛ فقد حضر القادسية ورأى من بأس هؤلاء العرب ماراعه، ثم انتهت  
به الهزيمة كما انتهت بالهرمان إلى الفرار. لذا بعث إلى عسكر المسلمين أن أرسلوا إلينا



رجلاً نكلمه . وسار إليه المغيرة بن شعبة فاجتاز الميادين المحيطة بنهاوند وتخطى أسوارها وانتهى إلى مقر الفيرزان فيها . وكانت نهاوند مدينة عظيمة تقع في العراق المعجمي بين حلوان وهمدان على ثلاثين فرسخاً إلى الشرق من حلوان وعشرة فراسخ غرب همدان ، وبها مراعٍ فسيحة وأنهار وبساتين تدرّ على أهلها الرخاء ورفاهة العيش ، وفي وسطها حصن متين البناء قوى الجدران يحمي أسوارها الرفيعة المنيعة . وأدخل المغيرة على الفيرزان ، فإذا هو جالس فوق سرير من ذهب وعلى رأسه التاج ومن حوله حراسه كأنهم الشياطين يكاد النواع حراهم ونيازكهم يحفظ البصر . ودار بين الرجلين حديث ما أشبهه بما دار بين يزيد بن جردج ووفد المسلمين بالمدائن ، انتهى منه الفيرزان إلى قوله : « وما معنى أن أمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجسوا لجيفكم ، فإن تذهبوا محلّ عنكم ، وإن نابوا نركم مصارعكم » . وانتهى منه للمغيرة بعد موافقته على الذي كان من شقاء العرب إلى قوله : « والله ما زلنا مذجأنا رسول الله نعرف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم . وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نقتل بأرضكم » .

عاد المغيرة بن شعبة إلى المسلمين بعد ما أخفقت سفارته ، فاقى النعمان في فسطاط عظيم كان قد ضرب له لم ير فسطاط بالعراق مثله جلالاً وعظمة . فلما عرف النعمان إخفاق سفارته أنشب القتال وحصر المدينة ، فكانت الحرب سجلاً بين العرب والفرس يومين كاملين . وكان الفرس لا يخرجون من حصونهم إلا إذا أرادوا ورأوا في الخروج مغنماً لهم . ذلك أنهم أحاطوا أسوارهم بحسك الحديد ، ولم يتركوا إلا فرجاً يخرجون منها كلما عزموا الخروج ، فلم تكن خيول المسلمين لتقوى على اجتياز هذا الحسك . وقد اشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول وأن تسوء عاقبته ؛ فاجتمع أهل الرأي منهم فذهبوا إلى النعمان فأفصوا إليه بمخاوفهم . وكان النعمان يروى في الذي روى فيه ، فلما سمع منهم قال لهم : على رسلكم لا تبرحوا ، وبعث إلى أهل الرأي والتجندات في الحروب ، فلما توافقوا إليه قال لهم : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون ، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من هذا الموقف ، فما الرأي الذي

نستخرجهم به إلى المنابذة وترك التطويل ؟ وتكلم القوم ، فأشار بعض بتضييق الحصار ، فالتحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم . وقال عمر بن معدى كرب : نَاهِدْهُمْ وَكَأَثْرَهُمْ وَلَا تَخَفْهُمْ . فردّ الحاضرون جميعاً رأيه وقالوا : إنما تفتاح بنا الجدران ، والجدران أعوام لهم علينا . وتكلم طليحة بن خويلد فقال : « ... وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدبة<sup>(١)</sup> فيُحْدِقُوا بِهِمْ ثُمَّ يرموهم لينشبو القتال وَيُحْمِسُوهُمْ<sup>(٢)</sup> . فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ، أرزوا<sup>(٣)</sup> إلينا استطراداً<sup>(٣)</sup> ، فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قابلناهم . وإننا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجأونا وجاددناهم حتى يقضى الله فينا وفيهم ما أحب » .

استراح الحاضرون جميعاً إلى هذا الرأي واستجادوه ؛ فأمر النعمان القعقاع بن عمرو أن يذهب صباح الغد فيهاجم المدينة بالقوة التي في إمرته : فإذا برز الفرس له أظهر الفرار بين أيديهم . وتقدم القعقاع في الجند فرمى المدينة بالنبل ، وأظهر العزم على اقتحام الأسوار ، وأبدى من ضروب البأس ما جعل الفرس ينهّدون إليه في حذر يصدّون هجومه . وأعجل المسلمون كل من برز إليهم فأثاروا حماسة عدوّهم ، فخرجوا إليهم فرأوهم قلةً يمكن التغلب عليها ، فاجتازوا الأسوار والحسك إليهم يقاتلونهم . وثبت لهم القعقاع زمناً حتى لا تنكشف حيلته ، ثم ولى بجنده مديراً أمامهم . فلما رأوا فراره خرجوا في أثره يرويدون القضاء عليه . وكان النعمان قد أمر جنده بالتقهقر إلى ما وراء سرعى النيل من حصون المدينة وأسوارها . فتراجعت القوات في بُكرة الصبح إلى حيث استطاع أكثرها الاختفاء عن أعين العدو بمرتفع توارت وراءه . وتابعت القعقاع فراره ، وتابعت الفرس مطاردته ، ملتزمين أول الأمر من الخذر ما جعلهم يفتلون أمامهم حسك الحديد يجتمعون به من كرة العدو إذا حاول الرجعة لمهاجمتهم . وكان القعقاع قد أيقن ابتعاد جند المسلمين في تراجعهم فأمعن في الفرار ، وأمعن الفرس في تعقبه وقد ثبت عندهم أن هزيمة المسلمين تمتّ فلا حاجة للخذر منهم

(١) مؤدبة : عليها أدواتها من السلاح (٢) حمس الرجل وأحمشه فاستحمش : أغضبته فغضب .

(٣) أرزوا إلينا . رجعوا إلينا لاجئين . والاستطراد : أن يتظاهر المرء بالهزيمة أمام عدوه

ثم يكر عليه .

والاحتياط لهم . وتركوا حسك الحديد وراءهم وأسرعوا يطلبون هؤلاء الفارسيين ليستأصلوا شأقتهم . واندفع الجيش كله والفرزان على رأسه يريد أن يظهر أرض فارس من هؤلاء الغزاة الأجلاف ، نخلت نهاوند من سُحَّاتِهَا ولم يبق بها إلا حراس أبوابها . فلما بعدوا عن المدينة ولم يبق لهم مطعم في حماية حصونها وأسوارها رجعوا ، فقد رأوا المسلمين يقفون ، ورأوا القمعاق ومن معه كأنما يريدون أن يثبتوا لهم . لكن روعهم لم يلبث أن سكن ، وحسبوا مكيده أراد القمعاق بها أن يحمي ظهر الجيش المتقهقر في هزيمته ، حتى لا يفنيها الفرس ويقضوا بذلك على سلطان المسلمين القضاء الأخير .

وانضم القمعاق بقواته إلى سائر الجند ، وأقام مع الناس ينتظر أمر النعمان بالهجوم . وكان اليوم يوم جمعة ، وكان النعمان قد أمر الناس ألا يقاتلوا الفرس حتى تزول الشمس ثم يأذن لهم . وأدرك الفرس المسلمين قبيل الزوال ، فرموا بالنشاب فأفشوا فيهم الجراحات . فأشار قوم على النعمان في الحملة فلم يفعل . وقال له الغيرة بن شعبة : لو أن الأمر إلى علمت ما أصنع . وأجابه النعمان في سكون وتؤدة : « رويداً ترَ أمرك . وقد كنت تلى الأمر فتحسن ، فلا يخذلنا الله ولا إياك ! . ونحن نرجو في المسكت مثل الذي نرجو في الحث » .

وحان للشمس أن تزول ، فركب النعمان برذوناً له أحوى قريباً من الأرض ، وجعل يمر على الرايات راية راية يشجعهم ويحرضهم ويحركهم بأحسن ما فيهم ، يذكر أن الله أنجز لهم صدور وعده بنصرهم ، فلم تبق إلا أمجازه وأكواره ، ويذكرهم ما مضى إذ كانوا أذلة ، وما استقبلوا من هذا الأمر وهم أعزّة ، وأن عدوهم إنما يخاطر بأرضه في حين يخاطرون هم بدين الله ودينهم فلا يكن الفرس على دنياهم أحمى من المسلمين على دينهم . « فكل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمري فاستعدوا ؛ فإنني مكثرت ثلاثاً ، فإذا كبرت الأولى فليتهياً من لم يكن تهباً ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض ، وإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معي . اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك وانصر عبادك ! » .

جعل النعمان يقول هذه العبارات ومثلها لكل راية مرّ بها . فلما فرغ من حث

الناس وقضى إليهم أمره ، رجع إلى موقفه وأعين الجند مشدودة إليه وهو مُعَلِّمٌ ببياض القَبَاءِ والقَلْبَسُوتِ ؛ فكَبَّرَ الأولى والثانية والثالثة والمسامون عطاش للحرب يريدون أن يطيروا إليها وأن يُفَنِّوا عدوتهم فيها، وليس منهم أحد يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقْتَلَ أو يَطْفَرَ . وما لبث النعمان حين أتمَّ تكبيراته أن اندفع واللواء في يده ، فانهضَ على الفرس انقضاض العُقَابِ على فريستها ؛ وجعل يطيح بالروس ويجدُّ الفرسان ، فإذا هم حوله صرَعَى يتخبطنون في دمائهم . وشدَّ المسامون حوله ، فكان كل منهم النعمانَ بطشاً وبأساً . ورأى الفرس صدق المسلمين في حملتهم فشدوا كذلك عليهم ، فالتقى الفريقان متصالحين بالسيوف ، فلم يكن يسمع إلا وقع الحديد على الحديد ، وإلا صيحات الأبطال وكلهم الحماسة المتقدة والشجاعة التي لا تعرف من الموت فراراً . وبلغ القتال من الشدة مبلغاً لم يسمع السامعون بمثله في غير هذه الموقعة . وكثر القتل في الفرس لكثرة عددهم ولاستيائة المسلمين في قتالهم حتى تخضبَّت الأرض بدمائهم . واستحزَّت الحرب وانهمرت الدماء ، فكان الناس والدواب تراق عليها الكثرة ما تلتطخ به أديم الأرض منها . وتحدرت الشمس إلى ناحية المغرب والنعمان على جواده واللواء في يده يهزه يَمَنَّةً قتهوى بسيوف المسلمين رؤوس الفرس يمينا ، ويهزه يسرة قتهوى رؤوسهم يساراً . وبينما يشق طريقه في قلب العدو زلق جواده في الدماء فصرعه . وأراد الله أن يستجيب في هذه الساعة لدعائه ، فيستشهد في سبيله ، فأصابه سهم في خاصرته . وراه أخوه نُعَيْمٌ هوى فسجأه بنوبه ، وأخذ اللواء من يده ودفعه إلى حذيفة بن اليمان ، فأقامه حذيفة مكان أخيه وأمره بإخفاء ما حدث حتى لا يتزعزع الناس ، وسار باللواء إلى حيث كان النعمان فأقامه . وأقبل الليل والوطيس حام والمسلمون يدفعون عدوهم أمامهم ويندفعون في صدره يضمعون روحه . وانتشر الظلام وقد أصاب الفرس الإعياء فأنكشوا وتراجعوا منهزمين ، فإذا حسك الحديد وراءهم يقف تراجعهم ، فيُصْعِنُ المسلمون فيهم قتلاً ، فيتردى ألوفهم وكأنهم غم مُصرَّعة . وأراد الناجون اتقاء الحسك فأنحرفوا ، فإذا من خلفهم خندق عميق أحماه الخوف عنه وستره الظلام عنهم ، فهووا فيه بجنونهم ، فهلك منهم فيه خلق كثير قدَّره بعض المؤرخين بثمانين ألفاً غير الذين قتلوا في المعركة وكانوا ثلاثين ألفاً . وكذلك قُضِيَ على هذا الجيش

اللَّجْب الذى اجتمع من كل أرجاء فارس يريد أن يُجَلِّيَ المسلمِينَ عنها ، فإذا المسلمون يذيقونه الموت نكالا فلا يُفلت منه إلا الشريد .

١ وكان الفيرزان فيمن فرَّ يطلب النجاة بنفسه ، فاندفع وحيداً شريداً يركض جواده نحو همدان يرجو الاحتماء بها . وراه نُعَيْمُ بن مُقَرَّر بن دفع القعقاع بن عمرو فى أثره ، فأدركه القعقاع حين انتهى ثَنِيَّة همدان ، إذ كانت دواب من الحمير والبغال تحمل العسل سائرة فى الثنِيَّة بين الجبال ، فسَدَّت على القائد الهارب طريقه ، فترجَّل يريد النجاة فى الجبل ، فاتبعه النعمان وأدركه وقتله . وعرف المسلمون يومئذ ما حدث فقالوا : « إن لله جنوداً من عسل » ، فصارت مثلاً ، وسميت تلك الثنِيَّة من بعدُ : « ثَنِيَّة العسل » . ومضى الفلَّال من جيش الفرس مشرَّدين حتى بلغوا همدان . ولم يدعهم المسلمون يدخلونها آمنين ، بل طاردوهم إليها وحصروهم فيها ، وأقسموا لا يرحلونها حتى تفتح أبوابها . وعرف أميرها ما أصاب الفيرزان وجنوده ، فبعث إلى المسلمين يستأمنهم ويصالحهم عليها ، وصالحه القعقاع على أن يضمَّن لهم همدان ودَسْتَبِي ، وألا يُوتَى المسلمون منهم ، وأن يؤمنهم المسلمون فلا يُغير عليهم مغير . بذلك أمِن الناس وعاد كل هارب ، وسكنوا إلى طمأنينة الحياة .

رجع القعقاع ومن معه من المسلمين فألقوا حُدَيْفَةَ دخل سَهَا ونَدَّ بعد المعركة بجيشه واستولى على ما فيها من الأسلاب والغنائم ، ودفعها إلى السائب بن الأقرع الذى عيَّنه عمر على الأقباض : وقد بلغت الأنفال يومئذ مباحاً فاق كل ما توقعه المسلمون ؛ فقد قسمها حُدَيْفَةُ بن اليمان فى الفاتحين ، ونفل ذوى النجدات ، وأعطى من أرصدهم من الجند ليحفظوا ظهر المقاتلين حتى لا يُوتُوا من خلفهم ، كما أعطى من كان رداء المسلمين ومنسوبا إليهم مثل الذى أعطى لأهل المعركة . مع ذلك بلغ نَفْلُ الفارس من هؤلاء جميعاً ستة آلاف ونفل الراجل ألفين .

هذا ، ثم إن كسرى كان قد استودع صاحب المعبد الذى به بيت النار جواهر أعدها لنوائب الزمان ولم يكن المسلمون قد عثروا بها . وإنهم لفي جدِّهم بما أفاء الله عليهم إذ أقبل صاحب بيت النار مستأمناً لنفسه ولمن شاء على أن يدلَّ حُدَيْفَةَ على الذخيرة الثمينة .

وأمنه حذيفة ، فأخرج له سَفَطَيْنِ مملوءين جوهراً ثميناً لا يقوّم . ورآها المسلمون وكانوا قد أترعوا مما نالهم من الفء ، فَعَقُّوا عنها ، ورأوا أن يجعلوها لعمر خاصة . فلما اطمان الناس إلى مقامهم وإلى فيهم ، حمل السائب بن الأقرع السفطين وخمس الفء وسار إلى المدينة يبلغ عمر أبناء النصر ويدفع إليه هذه المقام العظيمة .

بينما يجري كل ذلك بنهاوند كان عمر بالمدينة يتسقط أبناء المسلمين ، وهو أشد ما يكون إشفاقاً أن يبلغه منها مالا يحب . لذلك لم يكن يذوق النوم إلا غراراً ، ثم يقضى سائر ليله يستنصر الله لجنده . فلما كانت تلك الليلة التي قدر للقائم ، جعل يخرج ويتلمس الخبر ، وقد ألقى في رُعه أن الله نصر جنده وأنجز وعده . وكان حذيفة قد بعث طريف ابن سهم ليسرع بالخبر إلى المدينة . فلما بلغها وسأله عمر ذكر له ما أنعم الله به على المسلمين من نصر وفتح وكرم عنه إلا ما سره . واعتبط عمر والمسلمون بما سمعوا . فرفعوا أكفهم إلى الله بضرعاً وخشية ، وهرعوا إلى المسجد فصلوا شكرياً لله . ثم خرج عمر في جماعة من أصحابه وكله الشوق أن يقف على الجلية من الأمر ، وأمعنوا في الطريق الذي يؤدّي إلى فارس ، فَبَصُرُوا عن بعدرا كِبٍ توَسَّم إليه عثمان بن عفان أنه السائب بن الأقرع . فلما دنا منهم وسلم عليهم قال له عمر : ما وراءك ! قال : البشرى والفتح . وسأل عمر : فما فعل النعمان ! قال : زلت فرسه في دماء القوم فصرع فاستشهد . قال عمر وقد أفرغه النبأ وهزّه : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ولم يتمالك أن بكى حتى نشج كأنما أصيب في بعض ولده أوفى أعز عزيز لديه . فلما سكنت عنه ثورة الحزن سأل السائب عمر قُتِل من المسلمين فذكر له أعيان الناس وأشرفهم ، ثم قال : وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين قال عمر ، والحزن لا يزال آخذاً بِمِحْنِاقِهِ : وما ضرهم إلا يعرفهم عمر ! لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة ! وما يصنعون بمعرفة عمر !

وانطلق القوم والسائب معهم ، حتى إذا دخلوا المدينة أدخلوا خمس الفء إلى المسجد وأمر عمر نقرأ من أصحابه ، منهم عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم ، بالمبيت فيه ، ليقسمه بين المسلمين متى أصبح .

وقام عمر فدخل منزله ، فاتبعه السائب فأخبره خبر السفطين وما فيهما من جواهر

لاتقوّم ، وذكر له أن أهل الغزاة جملوها لأمير المؤمنين خاصة . روى الطبري عن السائب ابن الأقرع أنه قال : « فأخبرته خبر السفطين فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحقّ بجنديك . فأدخلتهما بيت المال وخرجت سريعاً إلى الكوفة . وبات عمر تلك الليلة التي خرجتُ فيها ، فلما أصبح بعث في أثرى رسولا ، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة وأنحتُ بعيري وأناخ بعيره على عُرقوبَيْ بعيري ، فقال : الحقّ بأمير المؤمنين ، فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن . قلت ؛ وبلك ! ماذا ولماذا ؟ لا أدري والله . فركبت معه حتى قدّمت على عمر ، فلما رأيته قال : مالي ولا ابن أمّ السائب ، بل ما لابن أم السائب ومالي ! قلت : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويحك ! والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذبيك السفطين يشعلان ناراً يقولون لتكويتك بهما ، فأقول : إني سأقسمهما بين المسلمين . فخذها عني لا أبالك والحقّ بهما فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم . فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة ، وغشيتني التجار . فابتاعها مني عمرو بن حُرَيْث الخزومي بألفي ألف ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف ؛ فما زال أكثر أهل الكوفة مالاّ بعدُ .

وفي رواية أخرى أوردها الطبري كذلك أن السائب اتبع عمر بذبيك السفطين حين دخل منزله وأخبره خبرهما ؛ فقال له عمر : يا ابن مَلَيْكَة ! والله مادروا هذا ولا أنت معهم : فالنّجاء النّجاء ، عودك على بدئك حتى تأتي حُدَيْفَة فيقسمهما على من أفاءها الله عليهم ! . فانطلق السائب راجعاً حتى انتهى إلى حُدَيْفَة فباعهما ، فأصاب أربعة آلاف ألف قسّمها بين من أفاءها الله عليهم ، فنال كل فارس منها أربعة آلاف درهم غير ستة الآلاف التي أصابها من قبل .

كان اغتباط أهل المدينة لفتح نهاوند عظيماً . لكنه لم يقتبط أحد بهذا الفتح اغتباط أهل الكوفة ، حتى لقد سمّوه فتح الفتوح . ولعلمهم كذلك فعلوا لأن زهرة القتالة في المعركة كانوا من الكوفيين ، ولأن الكوفة كانت أقرب إلى مكان المعركة من المدينة ، فكان أهلها أشد إشفاقاً منها وأدق تقديراً لتأنيبها ؛ فلما تم النصر فيها دعّوها بهذا الاسم

تيمناً وتعبيراً عما بعثته إلى نفوسهم من الطمأنينة على موطنهم . وأياً ما كان السبب فقد كانت نهاوند فتح الفتوح بالفعل ؛ إذ لم تقم للفرس بعدها قائمة ، بل غزاهم المسلمون في عقر دارهم ، وأزالوا سلطانهم عن كل ولاياتهم ، ثم لم يُفَنَّ عنهم تجمُّعهم لصدِّ تيار المسلمين المتدفق في أرضهم ، بل انتهى الأمر إلى إخراج كسرى من فارس شريداً يلتمس العون من غير أهله ، والنجاة في غير بلاده ، ثم يموت بعيداً عن موطن ملكه ، كأن لم يستقر بها يوماً ولم يكن فيها صاحب السلطان .

وكان عمر أشدَّ من أهل الكوفة بنهاوند اغتباطاً ، وأكثر لغزواتها تقديراً وبهم إعجاباً ، حتى لقد زاد عطاء الذين أحسنوا البلاء فيها ، ففتح كل واحد منهم ألف درهم فوق فيثته تشريفاً لهم وإظهاراً لشأنهم . وكيف لا تبلغ منه الغبطة هذا المبلغ وكان يعلم أن جيش الفرس بنهاوند قد جمع كل الأبطال من شتى أرجاء المملكة ، وأن أشرف فارس وأمراءها جميعاً تعاهدوا على إخراج العرب من أرضهم ، وردَّهم مهيضى الأجنحة إلى شبه جزيرتهم . وهاهم أولاء الأبطال يفترون منهزمين ، والأشرف والأمراء يلتمسون ملجأ من خزي هزيمتهم فلا يجدونه ، بل لا يجدون أمامهم إلا العرب ينتشر سلطانهم ، وتعلو كلمتهم ، وبهز اسمهم الأسماع والقلوب في ولايات كسرى جميعاً ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن أقصى الغرب إلى أقصى الشرق .

رأيت همدان وإسراع أهلها إلى طلب الصلح التماساً للأمن حين عرفوا مصير نهاوند والغيرزان . وكان أبو موسى الأشعري أميراً على جند البصرة الذين قاتلوا بنهاوند . فلما سار منصرفاً عنها مرَّ بالدَّيْنُور ، فأقام عليها خمسة أيام لم يقع قتال إلا في اليوم الأخير منها . ولم يكد هذا اليوم ينتهي حتى طلب أهلها الصلح ، وأقرَّوا بالخراج والجزية ، وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فصولحوا على ما طلبوا . وصالح أبو موسى أهل السَّيْرَوان على مثل صلح الدَّيْنُور . وصالح عامله أهل الصَّيْمِرَة على حقن الدماء وترك السباء والصلح عن البيضاء والصفراء ، وعلى أداء الجزية وخراج الأرض وفتح جميع الكور بِهَزِجَانِ قَدَق . وصالح حديفة بن اليمان دنباراً الفارسي على بلدة ماه ، وأعطى أهلها عهداً « بالأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم ، لا يُغيرون عن ملة ، ولا يحال



بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من ورايهم من المسلمين ، وعلى كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين من مراء بهم فأوى إليهم يوماً وليلة ووفوا ونصحوا . فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة .

أما وقد أصاب الفرس كل هذا الفزع بهزيمة نهاوند فازدادوا اضطراباً وازدادت معنوياتهم انحلالاً ، فليس إلا أن يأخذهم عمر وهم فيما هم فيه ، وأن يدفع قواته في سائر ولاياتهم حتى تدعن كلها لسلطانه ولا يبقى فيها لمقاومة أثر ، ولا تحدث أميراً من أمرائها نفسه بمنزل ما كانت تحدثه به من قبل . لذلك عقد بنفسه ألوية عهد إلى أصحابها بالانسياح في أرض فارس جميعاً ، لجنل لواء خرأسان إلى الأحنف بن قيس ، ولواء أردشير وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي ، ولواء اصطنخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي ، ولواء درابجرد إلى سارية بن زنييم الكناني ، ولواء كرمان إلى سهيل بن عدى ، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو ، ولواء مسكران إلى الحكم بن عمرو التغلبي ، وأمرهم أن يكونوا على أهبة المسير إلى هذه الأمصار والولايات .

وكذلك كانت نهاوند من فتح فارس ما كانت القادسية من فتح العراق العربي . وقد حاول يزيد جرد بعدها أن يقاوم بالرعي وبمرو وياصطنخر كما حاول أن يقاوم بالمداين . وقد أمده أمراء الولايات بأذربيجان وخراسان وفارس ومكران ، وحاولوا الوقوف إلى جانبه لصد تيار المسلمين عنهم والاحتفاظ لوطنهم بعزته وكرامته . وسرى من محاولاتهم ، ومن اضطراب يزيد جرد بين ولاياتهم ، ومن أمر المسلمين معه ما نُجِّلَه في الفصل التالي .

## الفصل السابع عشر

### القضاء على سلطان الأكامرة

تقع نهاوند وهمدان في صميم العراق العجمي ، وهما لذلك من صاب المملكة الفارسية ؛ فأهلها من الفرس جنساً ولغة وديناً ، لا يمتنون إلى العراق العربي وأهله بنسب ، ولا يعرفون من لغة العرب كلمة . لذلك كانت نكبة الفرس في نهاوند نكبة في صميم ملك كسرى ، فلم يكن له ولا ابني وطنه بعدها إلا الإذعان والنزول على حكم المسلمين ، أو الحرب الضروس ، تنتهي بهم إما إلى نصر يُخرج العرب من بلادهم ، أو هزيمة تزيل الأكامرة عن عرشهم ، وتقضي القضاء الأخير على دولتهم وسلطانهم ! .

وكان الأمر كذلك بمخاصة لأن العراق العجمي يتوسط ولايات المملكة كلها : تقع إلى شماله أذربيجان وطبرستان وجيلان ، وإلى شرقه سمان وصحراء إيران ، وإلى جنوبه فارس وكرمان ، وإلى غربه وجنوبه الغربي يقع العراق العربي وتقع خوزستان . وبالعراق العجمي مدنٌ كبيرة تعدّ في حكم العواصم ، منها أصفهان وهمدان والري . فإذا توغل المسلمون فيه واستولوا على هذه المدن ، ففتحت ذلك أمامهم أبواب إيران كلها فانساحوا فيها ، وهيئات لقوة بعد ذلك أن تقف في طريقهم ! .

ولكن ! كيف ليزدجرد أن يقف تيار الغزاة الجارف ؟ لقد رآهم منذ نصرهم بالقادسية يدفعون خلال العراق العربي إلى المدائن وجولاء ، ويقبضون البصرة والكوفة ، ويحطمون مقاومة الهرمزان في خوزستان ، ويواجهون قوات فارس مجتمعة بنهاوند فيقضون عليها . أيما قضاء . ألا يدل ذلك على أن الأقدار حالقتهم ووقفت في صفهم فلن يستطيع أحد صدّهم ! ومحالفة الأقدار هي التي طوّعت لهم غزو هرقل بالشام وطرده إلى بزطية والاستيلاء على بيت المقدس مهد النصرانية ومستقر هيكل سليمان . أليس خيراً ليزدجرد أن يصلح غزاة ذلك شأنهم ، فيدع لهم ما فتحوا ويكتفي بما بقي له من ملك أجداده ؟ ! ولعل القدر الذي تجهّم له اليوم يكون أبرّ به غداً ! أم ترى تصدّه كبرياء الملك الذي تأثّل في فارس

عشرات الأجيال والقرون عن أن يطلب الصلح مقهوراً وتدفعه حماسة الشباب إلى مغامرة جديدة؟ ! الحق أنه اضطرب بين الأمرين أشد الاضطراب . فمن ذا يكفل له إذا طلب الصلح ألا يرفض خليفة المسلمين مطلبه، فيكون الرفض مذلة له شر مذلة؟ ! ومن ذا يكفل له إذا دعا قومه إلى مغامرة جديدة أن يجيب مرآزة فارس وأمرؤها نداءه ، فإذا لم يجيبوه أقام في ملكه كأنه مخلوع عن عرشه ، لا يُسمع له أمر ، ولا ينفضوى أحد إلى لوائه؟ ! لذا ترك الأمر للقدر يجري به كما يشاء ، من غير أن يكون له في رحمة القدر كبير رجاء . وأضعف رجاءه انصراف الأمراء والمرآزة كلٌّ إلى شأنه . لقد تعاهدوا على نصرته يوم تولى العرش وجلس بالمدائن في إيوان كسرى؛ لأن الملكة كان لها يوم يومئذ جيش تعزّز به ، ويحمل الناس على طاعته . وقد انضوا إلى لوائه وبعثوا بالجيوش إلى نهاوند لمقاتلة عدوّه يوم كان الرجاء في صد الغزاة لا يزال قويّاً في نفوسهم . أما وقد تضعض جيش الدولة ، وضعف الرجاء في جلاء الغزاة ، فقد اضطربوا وانصراف أكثرهم يفكر كل أمير في إمارته وفي مصير ولايته : أيدافع المسلمين عنها ، أم يصالحهم على أن يظل والياً باسمهم عليها . لم تبق صلة هؤلاء الأمراء بيزدجرد صلة ولاء ونظام ، بل صلة مجاملة للمليك أو هن القدر سلطانه ، فجعل يتنقل تنقل الشريد بين بلاد مملكته . فإن يكن القدر قد كتب في لوحه قرب خاتمته فلمهم العذر أمام أنفسهم عما صنعوا؛ وإن تكن الأخرى فلهم إلى بيزدجرد عودة ، وهو لا ريب يقدر يومئذ حكم الضرورة عليهم .

أنت في حلٍّ من التثريب على هؤلاء الأمراء لهذا التفكير؛ فاللدول لا تقوم ولا يرتفع شأنها بمثله . لكن هذا التفكير كان طبيعياً بحكم الأحداث التي أصابت فارس في العهد الأخير ، وكان طبيعياً لأنه كان وليد التاريخ الفارسي منذ أقدم الحقب . فقد استقرّ الفُرس في الأرض التي أطلق عليها اسمهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . وكانوا يوم استقرّوا بها شعباً شديداً الحرص على بساطة العيش ، صعب المراس ، صلب القناة في الحرب ، شديد الطموح إلى التوسع والفتح . وقد التقواهم والميديون في العراق العجمي ، ودارت بين الفريقين حرب طاحنة انتهت إلى صلح أذعن به أهل ميديا لسلطان الفرس وانخرطوا في سلكهم ، واندفعوا وإياهم يقاتلون عدوّهم . وتخطّى الفرس

بلاد إيران إلى ما بين النهرين ، وساروا منها إلى مصر وإلى بلاد الإغريق ، فكانت بينهم وبين مدن اليونان وقائع ردّهم بها الإغريق عن غزو أوروبا . وكانت فارس يومئذ ولايات استقرّ في كل ولاية منها أمير من أمرائها الحاربيين ، فنصب نفسه ملكاً عليها ، واستقل بإدارة شؤونها . ثم اجتمعت هذه الولايات في اتحاد قام كسرى على رأسه ، وتولّى توجيه شؤونه العامة ، واتخذ «الملك الأعظم» لقباً له . وقاتل الفرسُ الدول المجاورة لهم في الشرق والغرب فانفسح سلطانهم ، حتى دهمهم الإسكندر المقدونيّ ، فغلبهم على أمرهم ومدّ سلطانه في أرجاء بلادهم . وكانت سياسة الإسكندر تدع شؤون الحكم الداخلي لأهل البلاد . لذا بقي أسراء فارس ولهم ما كان لهم من سلطان مطلق في الولايات التي أقاموا أنفسهم ملوكاً عليها ، فزاد ذلك في استمساكهم بهذا الملك وحرصهم عليه . واستردّت فارس استقلالها بعد الإسكندر ، وقام بنو ساسان بأمرها فكانوا أكاسيرتها ، وكانت المدائن عاصمتها ، وإن احتفظ أمراؤها ومرازبتها بسلطانهم في مختلف ولاياتها . وغاد بنو ساسان بفارس سيرتها الأولى تقاتل وتمدّد سلطانهم . وتدفقت إليها الأموال من مختلف الأرجاء في البلاد المفتوحة تدفقاً نزع بأهلها إلى الترف ، فأخذوا من أسبابه بأعظم حظ وأوفر نصيب . واطمأنّ الفرس إلى هذا الترف عهوداً طويلاً تفتنوا أثناءها في أسبابه ، فتحدّر بهم شيئاً فشيئاً إلى الشهوات الدنيا ، فأورثهم رخاوة أضعفت فيهم صفات البطولة والإقدام التي كانت لأبائهم وأجدادهم ، ثم لم يستعصموا عن هذه الصفات صدق العزم وقوة الجلْد مما تبعته الحضارة السليمة إلى نفوس الآخذين بها ، فانكش بذلك سلطانهم شيئاً فشيئاً . وقد حاولوا استعادة هذا السلطان في أوائل القرن السابع المسيحي ، فحاربوا الروم وظفروا بهم واستولوا على بيت المقدس وعلى مصر . وانهزم الروم أمامهم بسبب ما فشا فيهم من سوء الحكم وفساد النظام . فلما تولى هرقل أمر الروم ردّ الفرس على أعقابهم ، واسترد الصليب الأعظم منهم . ولم يقف أثر الهزيمة بالفرس عند ارتدادهم إلى تخومهم ، بل ضعفت نفوسهم ، وفشت الفوضى في بلادهم وترعزعت ثقتهم بأنفسهم . فلما فاجأهم العرب زادتهم هذه العوامل رخاوةً ، فلم يستطيعوا الثبات في وجه غزاتهم ، فجعل كل منهم يلتمس النجاة لنفسه ، وجعل أمراؤهم يلتمسون السلطان الزائف في كنف الفاتح

يستمتعون به ولو إلى حين ، تاركين كِسْرَى رمز وحدتهم وعزّتهم ، تجرى الأقدار في أمره بما تشاء .

كان ذلك شأن عاهل الفرس وشأن كثيرين من المرابزة والأمراء في دولته . أما عمر فلم يلبث حين اطمأن إلى انتصار جنده بنهاوند ومصالحتهم أهل همدان أن ذكر قول الأحنف بن قيس : إن الفرس لن يزالوا يقاومون المسلمين مادام يزدجرد بين أظهرهم ، فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه . لا مفرّاً إذاً من تعقب الفرس في أرجاء ملكهم حتى يخلو عنه كسرى فيصير خالصاً للمسلمين ، فأى الخطأ أنجع لبلوغ هذه الغاية؟ لم يكن لعمر أن يُسيّر الألوية التي عقدها لتنساح في أرض فارس قبل أن يفتح العراق العجمي كله ، فيجمل بذلك ظهره ، ويأمن خط رجته ، ويسيطر على الطرق التي تسير خلالها الأمداد من العراق العربي ومن شبه الجزيرة لتعزيز جنده . واسكن ! هل تسير القوات في هذا العراق العجمي من همدان إلى الرمي تفتحها ، أم تنحدر من نهاوند إلى أصبهان ، لتتخضع من هذه الولاية المترامية الأطراف أفسح أرضها رقعةً ، وأكثرها بنخوزستان وبالعراق العربي اتصالاً ؟ .

فقد كان يزدجرد مقيماً بالري حين دخل العرب نهاوند وهدمان . فلما رآهم اقتربوا من مقرّه خف إلى أصبهان يحرّض أهلها على المقاومة . وبلغ عمر فأمر بالسير إلى أصبهان وكان رجاؤه أن يتولّى يزدجرد الدفاع عنها فيقع أسيراً ، فتتخطم بأسره مقاومة الفرس كلها . لذلك أمر عبد الله بن عبد الله بن عتيان فسار إليها فيمن كان معه من جند الكوفة ومن تبعه من جند النعمان بن مقرنّ بنهاوند .

وفي رواية أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان فقال له : وما ترى ؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان أم بأصبهان ؟ وأجابه الهرمزان : إن فارس وأذربيجان الجناحان وأصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان . فبدأ بالرأس . واطمأن عمر إلى هذا الرأي فأمر بالسير لفتح أصبهان .

وأصبهان ، أو أصفهان ، مدينة عظيمة كانت عاصمة إقليم من أقاليم العراق العجمي يُطلق عليه اسمها ، وكانت تتألف من مدينتين متجاورتين ، جىّ واليهودية . وهذه الأخيرة

كانت مستعمرة يهودية الأصل ، أنشأها يزدجرد الأول إجابة لرغبة زوجه اليهودية شوشن دخت . أما جيّ - فهي القصبة ، وهي من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ، ولذلك اختارها الملوك مسكناً لهم . وتقع أصبهان في نهاية المنطقة الجبلية من جهة الجنوب ، وهي خصبة الأرض واسعة الرقعة . تصل الطرق المعبّدة بينها وبين شتى أرجاء المملكة ؛ فالطريق منها إلى الرّمي يمر بقاشان ثم بقمّ .

سار ابن عتبان في جنده ، فلقمه جيش عظيم من الفرس بظاهر أصبهان ، ولم يممهله أمير<sup>(١)</sup> هذا الجيش إلى أنشب القتال معه . واشتد القتال وحى وطيسه . وكان على مقدّمة الفرس شيخ كبير هو شهريار بن جاذويّه<sup>(٢)</sup> ، وكان من أبطال الفرس المعدودين ومن المبارزين الذين لا يثبت لهم في الميدان خصم . وقد رأى المعركة تترجّح ورأى القتلى من الفرس يكثرون كثرة خشي أن تدخل الضعف إلى نفوس سائرهم ، فبرز إلى الصف الأول ودعا من جنود المسلمين من ينازله . وبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحي فصاوله فقتله .

ورأى الفرس فارسهم ألغم صريعاً فاضطربوا ، ثم أجلوا عن هذا الرستاق فنزله المسلمون وسمّوه لذلك رُستاق الشيخ . وتراجع الفرس إلى جيّ ، يحتمون بأسوار أصبهان ، على حين أقام المسلمون في خطوطهم الجديدة ينظّمون خطّتهم لهاجمة المدينة العظيمة الحصينة . عرف يزدجرد ما أصاب الفرس برستاق الشيخ ، ففر من أصبهان تاجياً إلى كرمان . وتقدّم عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى جيّ فحاصر أصبهان فتحصّن جندها ، بقلاعها وجعلوا يراخفون المسلمين ويقاتلونهم ثم يعودون إلى حصونهم . فلما طال ذلك بهم وضاقوا به خرجوا يريدونها موقعة حاسمة . واصطف الجيشان للقتال وكان موشكاً أن يبدأ غير أن الفاذوستان<sup>(٣)</sup> أمير أصبهان بعث إلى عبد الله بن عتبان يقول له : لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك . ولكن ابرز لي . فإن قتلتك رجعت أصحابك ، وإن قتلتني سالمك أصحابي ،

(١) الاستندار هو اسم الأمير على هذه القوات .

(٢) ويذكر هذا الاسم على أنه شهريار جاذويه .

(٣) ذكر اسمه في كتب مؤرخي العرب . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه : « سار عبد الله بن عتبان بأمر الخليفة عمر إلى جيّ ، وكان عليها واحد من الفاذوستان الأربعة وهم حكام الدولة الفارسية . »

وإن كان أصحابي لا تقع لهم نُشابة . وتداول الرجلان زمناً، ثم قال الفاذوستان لعبد الله: « ما أحب أن أقاتلك . فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكريك فأصلحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله ، وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوةً مجرام ويرجعون . ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه » ، وأقرّ عبد الله هذا الصلح ، ودخل أهل أصبهان في الذمة إلا ثلاثين رجلاً خلفوا قومهم ولحقوا بكرمان في حاشيتهم .

بينما يقاتل المسلمون ليفتحوا أصبهان كانت بلاد الشمال الواقعة جنوب بحر قزوين تجتمع إلى إسفنديار الرازي أخى رستم الذي هُزم وُقُتل بالقادسية ، تُعدُّ العُدَّة معه لدفع المسلمين عن الرى . وعرف همدان اجتماعهم فتشجّعوا ونقضوا الصلح الذي عقده مع المسلمين بعد نهاوند . وبلغت عمر أبناء الانتقاض في همدان . فأمر نعيم بن مقرن أن يسير إليها وأن يدخلها عنوةً عقاباً لأهلها حتى يعودوا لمثل فعلتهم ، ولكي يعتبر غيرهم بهم فلا يجرؤ قوم من بعده على نقض عهدهم مع المسلمين . وسمع أهل همدان اسم نعيم وعرفوا سيره إليهم ، فذكروا نهاوند وذكروا الفيرزان ومصيره بثنية العسل خسّط في أيديهم وتولاهم الرعب ، وأيقنوا أنهم محصورون مقهورون لاحتالة . وزادهم الجزع حين ترى إليهم استيلاء نعيم على ماحول همدان من البلاد ، ولم يبق لديهم ريب فيما قدر لهم من سوء المصير . فلما انتهى نعيم إليهم وحاصرهم مدينتهم بعثوا إليه يطلبون الصلح وهم في ريب من قبوله ما طلبوا . وكيف يطمئن إليهم وقد نكثوا من قبل عهدهم ؟ وما كان أشد اغتباطهم حين رأوه يقبل منهم الجزية على أن تقيم بهمدان قوة من المسلمين يذكروا وجودها أهل المدينة بالعهد ويقبض أميرها منهم الجزية . ترى أقبيل نعيم منهم ولم يفتض مدينتهم ضمناً بأرواح رجاله أن يصاب منهم أحد ؟ أم ترامت إليه أبناء إسفنديار والذين اجتمعوا إليه فآثر أن يحتفظ بقوته كاملة يواجه بها هذه الجوع المتزيدة تريد مهاجمته طمعاً في أن تدفعه عن الرى ، وأن تُجابه عن همدان ، وأن تسترد ما كسبه هو وما كسبه أخوه النعمان من قبل ؟

أيّاً كان السبب الذي أدى بنعيم إلى مصالحة أهل همدان فإن الجوع التي انضمت

إلى إسفنديار كانت تزداد على الأيام عدداً وقوة. وبلغ نعيماً، وهو على رأس اثني عشر ألفاً من المسلمين بهمدان، أن هذه الجموع تتحرك نحوه من جهات مختلفة: تحرك الديلم وعلى رأسهم أميرهم موتا، وتحرك أهل الري وعليهم الزينبي<sup>(١)</sup> أبو الفَرَّخَان، وتحرك أهل أذربيجان بإمرة إسفنديار، وجعلوا واج رُوذَ وجهتهم وملتقاهم. وكانت دَسَدَبِي أقرب محلة من واج رُوذ. لذلك جعل نعيم عيونهم بها ينتظسون الأخبار ويبعثونها إليه. وسبقت الديلم إلى الملتقى، فبعث العميون بأنبيائهم إلى همدان، فخرج نعيم منها واستخلف يزيد بن قيس عليها، وسار في جنده حتى نزل قبالة القوات المتحالفة التي اجتمعت لقتاله. وكانت هذه القوات قد كمل عددها، فلم تُهمل المسلمين أول ما نزلوا الميدان أن شدت عليهم، وفي ظنهم القدرة على الظفر بهم، بل على استئصالهم. واشتد القتال بين الفريقين شدة ذكراً بها الناس يوم نهاوند. وكان المسلمون قد أَلْفُوا النصر فلم يكن التغلب عليهم يسيراً. أما هذه القوات من الديلم والفرس فلم تعرف لواءً يجمعها فهي تدافع عنه وتموت دونه، لذلك انكشفت منهزمة حين أقبل المساء بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً غفيراً.

كان نعيم قد بعث إلى عمر بإخضاع همدان ومصالحته أهلها، وذكر له ما تراهي إليه من اجتماع الديلم وأهل الري وأذربيجان لقتاله. وفزع عمر لهذا النبأ وجعل يدعو الله أن يؤازر جنده وأن يؤيدهم بنصره، وأقام بالمدينة ينتظر أنباء هذا الجند وهو أشد ما يكون إشفاقاً عليهم. وإمته لكذلك إذ قدم عليه عُرْوَةُ بن زيد الخليل، وكان قدِم عليه من قبلُ بنبأ غزوة الجسر حيث قُتل أبو عبيد الثقفي وانهزم المسلمون. فلما رآه عمر قال: بشير؟ وأجاب الرجل: بل عروة. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! عند ذلك فطن عروة فقال: بل أحمد الله فقد نصرنا وأظهرنا، وحدثه بما كان. فلما أتم حديثه قال عمر: هلا أقت وأرسلت؟ وأجاب عروة: قد استخلفت أخى وأحببت أن أتيك بنفسى. ومن يومئذ سماه عمر البشير. وأمر عمر فقُرئ الكتاب الذي حمه عروة من نعيم بالفتح والنصر، فحمد الناس الله وصلوا شكراً لأنعمه.

وعاد عروة إلى همدان يحصل من عمر إلى نعيم كتاباً فيه: «أما بعد فاستخلف

(١) الاسم الفارسي الزيندى. أو الزيندى. ومؤرخو العرب يطلقون عليه اسم الزينبي.



على همدان وسير حتى تقدّم الري وتلقّى جمعهم ، ثم أقيم بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد . ولم يلبث نعيم حين قرأ هذا الكتاب أن أقرّ يزيد بن قيس على همدان وسار بالناس إلى الري وهو لا يشك في أن الله سيفتحها عليه . وكيف يخامر في ذلك شك أو تحالط نفسه فيه ريبة ، وقد لقي جموع الري مع الديلم وأهل أذربيجان ، فهزمت وقتل منهم موتاً ملك الديلم ولعله أفرط في تفاؤله ؛ فقد كان الملك بالري يومئذ سيّاوخش بن مهران ابن بهرام جوبين ، وكان قد أيقن بعد واج رُوذَ أن المسلمين لن يصبروا حتى يهاجموه ليفضوا عليه عاصمته . لذلك استبد أهل دُنْبَاوَنَد وطَبَرَسْتان وقومس وجُرجان وقال لهم : قد علمتم إن هؤلاء حلّوا بالريّ أنه لا مقام لكم ، فأمدوه بقوّات اجتمعت فكانت أضعاف القوّات التي سار بها نعيم عدداً وعدّة . وتمصنت هذه القوّات كلها بالري ، وكان سيّاوخش قد زاد معاقبها مناعة وقوة ؛ فلما رأى ما اجتمع في هذه المعائل أيقن أن المسلمين لم يظفروا به ، ولن يستطيعوا أن يفضوا عليه حصونه .

لم يكن عجيباً أن يجتمع أهل الشّمال للدفاع عن الري ؛ فقد كانت العاصمة الكبيرة لهذه الأرجاء ، والحصن الحصين تلوذ به وتلجأ إليه . وكان بها من المعابد القائمة حول بيوت النار ما جعل نفوس كثيرين تهوى إلى زيارتها في المواسم الدينية ، وترى في الاعتداء عليها اعتداءً على قدس يجب الدفاع عنه . ثم إنها كانت ، بموقعها من الأقاليم المحيطة بها ، ملتقى تجارة واسعة تجلب إليها من الشرق ومن الغرب ، وتجعل أهلها في رخاء ورفه عيش ، وكان أهلها وأهل الأقاليم المحيطة بها مطمئنين لمناعتها ، مطمئنين بذلك إلى مقامهم بها أوفى جوارها . فلما رأوها وتعرض للغزوت عاهدوا للدفاع عنها وذهبوا بجموعهم إلى واج رُوذَ يصدون غزواتها ، ثم لم تذهبهم الهزيمة عن الاجتماع كرة أخرى والتحصن بالمدينة والدفاع عنها . ولعل حماسهم في الدفاع عنها كانت تكلف المسلمين الضحايا الكثيرة لفتحها ، لولا أن أرادت الأقدار أن يتم هذا الفتح بأيسر مما قدّر له نعيم وأصحابه ؛ فقد أساء سيّاوخش ملك الري لقاء الزينبي أمير الفرخان بعد وقعة واج رُوذَ ، وعنفه على ارتداده أمام المسلمين عزله عن عمله . وأحفظ الزينبي ما حدث ، فخرج من الري حين عرف مقدّم نعيم لفتحها ، فلقبه بظاها فتحدّث إليه مسالماً وحالفه على سيّاوخش . ونزل المسلمون في سفح جبل

الرى ، فلقبهم حُماتها وأنشبوا معهم قتالاً لم ينته آخر النهار إلى ظفر أىّ الفريقين . فلما كان الليل قال الزينبي لنعيم : إن القوم كثير وأنت في قلة ، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا إليك لم يثبتوا لك . واطمان نعيم لقوله ، فبعث معه من الليل خيلاً عليهم ابن أخيه المنذر ابن عمرو ، فأدخلهم المدينة دون أن يشعر بهم أحد . وبات نعيم يشاغل حُماة الرى يرميهم بالنبل والنشاب فشغلهم عما يدور داخل مدينتهم . فلما كان الفجر برزت خيل المسلمين بالمدينة وعلت أصوات الفرسان بالتكبير ، فأيقن الفرس حين سمعوه أنهم أخذوا على غرّة من ولائهم فانهزموا ، فاتبعهم المسلمون يعمنون فيهم قتلاً . ودخل نعيم المدينة ، وانهزم سبواوخش فلم يقف له أحد على أثر . واستفاء المسلمون من الرى نحواً من فيء اللدائن ، وكتب نعيم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بأخماس الفىء .

ما عسى أن يكون مصير الرى بعد أن تم فتحها ؟ أليس من أبنائهم من يصلح المسلمين عليها ؟ نعم ! صالح نعيم الزينبي على أهل الرى ونصبه مكان سبواوخش سرزباناً عليهم بعد أن هدم قلاعهم وخرّب حصونهم ، وأمر ببناء مدينة جديدة بجوار مدينتهم العتيقة . بذلك سقط آل بهرام ، وآل شرف الملك من قبيل المسلمين إلى الزينبي الأمير وأبنائه ، وبقيت الرى مع أصابها مدينة عظيمة وثغراً من ثغور المسلمين فى عهد بنى أمية وبنى العباس . على أن نجمها هوى من بعدُ ومنذ بنيت طهران على مقربة منها إلى شمالها الغربى ، وإن بقيت أطلالها إلى اليوم بارزة للعيان تحدّث عما كان لها حين عزّها من جلال وعظمة .

وكان نصر المسلمين بالرى حاسماً ؛ لذلك أسرعت المدن والأقاليم القريبة منها تطلب الصالح وتودى الجزية . فلما سار سويد بن مقرن بأمر عمر إلى قومس لم يقم له أحد فأخذها سبياً ، وعسكر بها وصالح أهلها . وكان أهل ديباوند قد صالحوا أخاه نعيماً بعد انهزام الحلفاء عن الرى وعود كل منهم إلى مقره .

وديباوند مدينة قائمة على جبل قريب من الرى ، وكان أهلها قد دخلوا حصون الرى للدفاع عنها ، فلما فتحت المدينة أبوابها ، وجلا حلقاؤها ومنهم أهل ديباوند مرتدين

إلى منازلهم لم يكن أمام أهل دنباوند غير الصلح عقده على جزية مائتي ألف درهم يدفعونها كل سنة ، على ألا يُفارَ على أرضهم وألا يُدخَلَ عليهم بغير إذنتهم ما وفوا بعهدهم . أما قوس فسكورة كبيرة واسعة بها مدن وقرى ومزارع ، تقع إلى الجنوب من جبال طَبْرِسْتان ممتدة بين الرى ونيسابور ، وتفصل طبرستان بينها وبين بحر قزوين .

بفتح الرى وصلح قوس ودنباوند لم يبق بين المسلمين وشواطيء قزوين<sup>(١)</sup> من أرض فارس غير جرجان وطبرستان وأذربيجان ، فلو أنهم فتحوها وصالحوا أهلها لبلغوا أقصى الشمال في هذه المنطقة من ملك كسرى . وقد عسكر سويد بن مقرن بعد صلح قوس ببسطام ، وكاتب ملك جرجان يدعو إلى الصلح أو يسير إليه بجنوده . وبادر الملك الفارسي فصالحه عن دهستان وجرجان على الجزية يؤدِّيها أهلها ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم وملائمتهم وشراعتهم . وأدمج في هذا الصلح نص لم يؤلف من قبل مثيل له : «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه على معونته عوضاً عن جزيته» . ولا أدل من هذا النص على أن الجزية إنما كانت تُقرَض مقابل منع المسلمين من تغلبوا عليهم ، فإذا دفع هؤلاء عن أنفسهم أو أعانوا المسلمين كان لهم جزاؤهم .

تقع جرجان إلى الجنوب الشرقي من شاطيء قزوين . وتقع طَبْرِسْتان إلى الجنوب من هذا الشاطيء مجاورة جرجان . وتقع أذربيجان إلى جنوبه الغربي مجاورة طبرستان . وإذا رأى ملك طبرستان أن المسلمين أحاطوا به من الجنوب باستيلائهم على الرى ومصالحتهم أهل قوس ، ومن الشرق بصلحتهم مع أهل جرجان ؛ وأنه لم يبق له منفذ إلى أرض فارس إلا من طريق أذربيجان المهدة بالغزو هي كذلك ، فقد آثر الصلح وراسل سويداً فيه ، فتوادعا وتصالحا على طبرستان وجبل جيلان بأن يدفع أهلها جزية كل عام ، وهم من بعد ذلك آمنون لا يُفار عليهم ولم يتطرق أحد إلى أرضهم إلا بإذنتهم .

تجاور أذربيجان طبرستان من الغرب ، ويتاخم شمالها بلاد الديلم ، كما يتاخم جنوبها بلاد العراق العربي وبلاد الجزيرة . وكانت أَرْدَبِيل الواقعة على مقربة من مكان تبريز اليوم أجل مدتها . وهي بلاد جبلية ترتفع أرضها فوق سطح البحر نحو خمسمائة وألف متر ،

(١) بحر قزوين هو بحر الخزر

وبها قَمَمٌ يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف من الأمتار . وكلمة أذربيجان بالفارسية معناها أرض النار أو معابد النار . وإنما أطلق على هذا الإقليم هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت قائمة ذلك الحين به . فلما خمدت في الفرس عبادة النار ودان أهلها بالإسلام أبدل اسم أذربيجان باسم مازندجران .

بينما كان سويد بن مقرن يسير في جرجان وفي طبرستان ويمقد الصلح مع أهلها ، كان أخوه نعيم مقيا بالرى ينظم شؤونها مستعيناً بالزنبى الذى أقامه والياً عليها . فلما اطمأن إلى أمرها أمد عتبة بن فرقد وبكبير بن عبد الله اللذين سارا بأمر عمر لإخضاع أذربيجان بسماك بن حرشة الأنصارى فى قوة من غزاة الرى . وإن بكبيراً ليتقدم فى قواته إذ لقيه إسفنديار بن الفُرَّخزاد عائداً فى جنوده من هزيمة واج روذ ، فالتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى بإسفنديار إلى الهزيمة والأسر . ولم يقتله بكبير بل أمسكه عنده . ذلك أن إسفنديار قال له : الصلح أحب إليك أم الحرب ؟ وأجابه بكبير : بل الصلح ، فاستطرد القائد الفارسى قائلاً : فأمسكنى عندك ، فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء إليهم لم يقيموا لك وجلوا إلى الجبال فتحصنوا إلى يوم ما وتحطمت مقاومة أذربيجان حين تقدم عتبة بن فرقد إلى حيث عسكر بهرام أخو إسفنديار فهزمه وأجأه إلى الفرار . عند ذلك صالح عتبة إسفنديار عليها وأعطاه كتاباً بالأمان لأهل أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشها وشقارها وأهل ملأها ، على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم . كان طبيعياً أن يتابع المسلمون مسيرتهم فى شمال فارس حتى لا يبقى به لمقاومة أثر . وكان على بحر قزوين إلى جانب أذربيجان فرصة يقال لها الباب أو باب الأبواب ، وكانت محصنة ، قد وضعت على أفواها سلاسل فلا مخرج لسفينة منها ولا مدخل لسفينة إليها إلا بإذن . وكان أمير الباب يدعى شهر براز . فلما عرف مقدم المسلمين كتب إلى أميرهم عبد الرحمن بن ربيعة واستأمنه ، ثم لقيه وقال : « إني بإزاء عدوِّ كلب وأمم مختلفة . ولست أنا من القبح ولا من الأرمن فى شىء . وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمى ، فأنا منكم ويدي مع أيديكم وجزيتى إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتقوهنونا

بعُدوكم» . فبعث به عبد الرحمن إلى سُراقَة بن عمرو ، وكان الأمير على الجيش ، فأعاد عليه شهر براز حديثه . وقبل منه عبد الرحمن فأعفى من يقوم مع المسلمين في حرب العدو ، أما من أقام ولم ينهض فعليه الجزاء . وصار ذلك سنةً فيمن يجارب العدو من المشركين . وقد كتب به سُراقَة إلى عمر بن الخطاب فأجازه وحسنه .

١ . فرغ سُراقَة من الباب فوجه قواده إلى الجبال المحيطة بها ، فرضى أهل بلادها الجزية دون قتال ؛ إلا موقان فإنها تحصنت من بكير ففضها على أهلها ، ثم تراجعوا على الجزية . وفي هذه الأثناء مات سُراقَة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة . وخرج عبد الرحمن يريد غزو الترك ، فقال له شهر براز : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب . وأجابه عبد الرحمن : لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم . وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمان لبلغت بهم الروم ! . وسأله الأمير الفارسي عن هؤلاء الأقوام من هم ؟ فأجابه : أقوام صحبوا رسول الله ودخلوا في هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتسكرم في الجاهلية ؛ فازداد حياؤهم وتسكرتهم ، فلا يزال هذا الأمر لهم دائماً ، ولا يزال النصر معهم ، حتى يغيّروا من يليهم ، وحتى يُلْقَتُوا عن حالمهم . على أنه لم يمض في فتح الترك إذ جاءت الأنبياء بوفاة عمر ، وكان أهل هذه المنطقة قد اعتصموا من المسلمين بالجبال ، فعاد عنهم زمناً ثم عاد إلى غزوهم في عهد عثمان .

ها قد رأيت كيف تحطمت مقاومة الشمال الفارسي كله بعد همدان والري ، وكيف كان ملوكه ومرابطته يسارعون فيطلبون الصلح فتقبل طائفة منهم الجزية ، وتؤثر طائفة أن يقف القادرون من أبنائها محاربين في صف المسلمين لتعفى من ذلك هذه الجزية ؛ ثم رأيت سائر الولايات الفارسية ، فيما وراء العراق المعجمي إلى الشرق وإلى الجنوب ، لا تمتد إلى هذا الشمال يد معونة . أفكان ذلك غدرًا بالشمال وتخلياً عنه ؟ أم شغلت هذه الولايات بنفسها فلم تفكر فيه ؟ من حقت أن تلتصم لهذه الولايات عن قعودها غدرًا ؛ فقد روّعها المسلمون بانتصارهم في شتّى الأرجاء من مملكتهم ، فسلّ الروع تفكيرهم في إمداد غيرهم لمقاومة قوة حالقتها الأقدار فلا تقف قوة في وجهها . ثم إن الولايات جميعها كانت تتوقع أن يغير المسلمون عليها ، وتفزع إذ تتحيلم بيجتاحون أرضها ،

فكانت منهم في موقف الخائف الوجِل يريد أن يدفع عن نفسه خطراً ما أضعف رجاءه في القدرة على دفعه . ولن يطلب أحد إلى مذعور أن يمدّ لغيره يد معونة وهو عاجز عن عون نفسه . بل لم يكن توقعهم غزو المسلمين مجرد وهم يحسّمه خيالهم ؛ فقد كانت الأحوال كلها تؤيده وتجعله حقيقة تراها أعينهم ولا ينقصها إلا الزمن لتدهمهم بكل آثارها . وكيف كان لهم أن يتناسوها وقد أصبح المسلمون في خوزستان وفي العراق العجمي يجاورون ولاية فارس من شمالها ، ويجاورون خراسان من غربها ، فإذا تخطّوا إلى فارس وإلى خراسان انفسحت أمامهم كرمان ومُكران في الجنوب ، وأصبح ما وراء خراسان إلى أقصى الحدود من أرض الفرس ميداناً لانسياحهم . وقد اعتاد الفرس أن يرواغزاتهم ينحدرون إليهم ويحتاجون أرضهم كأنهم القدر الفازل لا يحيص منه ولا سبيل لاتقائه . بل لقد ذكر أهل ولاية فارس ما أصابهم منذ سنين حين تحطّى العلاء بن الحضرمي خليج فارس على السفن إليهم ، وما كان بينه وبينهم من قتال أعانتهم الأقدار يومئذ فيه . ترى أتعينهم الأقدار اليوم كما أعانتهم بالأمس ؟ أم ينحدر المسلمون إليهم من البصرة ويتخطون إليهم الخليج الفارسي من البحرين ، ثم يحتاجون أرضهم كما اجتاحوا العراق وخوزستان وأصفهان والريّ وغيرها من أراضي الملك الأعظم ؟ .

لم يكد نُعيم بن مقرن يفتتح الريّ حتى أذن عمر الأمراء الذين عقد لهم الألوية أن ينساحوا في أرض الفرس كلها ، فاندفعت القوات المسلحة بأصفهان إلى خراسان ، وتدقّت قوات من البصرة ومن البحرين إلى فارس وكرمان ، وسارت الأمداد من بلاد العرب تعزز الجيوش المنتشرة في مختلف الأرجاء من أرض كسرى ، ولا يشك عمر في أن الله سيفتح عليه هذه الأرض جميعاً ويورثها المسلمين . فهو لا يريد أن يدع للفرس مننفساً تجتمع أثناءه كلتهم أو تفكر أثناءه ولاية في أمر غيرها . وكذلك أصبحت بلاد كسرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مسرحاً لحرب عوانٍ كانت جيوش المسلمين في كل غزواتها قلة أبداً ، ثم كانت مع ذلك منتصرة فيها جميعاً . وكان الملك الشريد كسرى يزدرج ويتتبع أخبار هذا القتال حينما كان من منازل فراره فلا يرى لنفسه ملجأ بأوى إليه ليستقر فيه ، بل يضطر إلى النقلة من ملجأ إلى ملجأ ، والاعتصام بمدينة بعد مدينة ،

فتنفضه الملاحىء كلها فلا يجد في مدينة عاصمًا ، فيستأنف الفرار والقفلة حتى يخرج من بلاده كشرًّا ما يخرج ملك طريد يلتمس النصرة من قوم غير قومه ، وناس غير أهله .

اندفع المسلمون من البحرين ومن البصرة لغزو ولاية فارس ، فركب عثمان ابن أبي العاص الثقفي السفن عابراً الخليج الفارسي إلى جزيرة أيزر كاوان فاستولى عليها ، ثم تحطأها إلى أرض فارس ، فسار بجنوده إلى مدينة توج الحصينة يحاصرها . هناك ألنى نجاشع بن مسعود وقد انحدر من البصرة فاستوقفه الفرس عند توج ، وقامت المدينة الحصينة هذه القوات المتدفقة إليها من الشمال ومن الغرب ما استطاعت . فلما طال بها الحصار وهنت مقاومتها ، ففتحها المسلمون وقتلوا من المدافعين عنها مقتلة عظيمة ، واحتموا ما فيها وفرضوا عليها الجزية ، وكذلك أذعن توج منكسة الرأس ولقد طالما فخرت من قبل بأنها ردت العلاء بن الحضرمي على أعقابه .

وسار نجاشع إلى سابور وأردشير ففتحهما بعد قتال . أما عثمان بن أبي العاص فسار يريد إصطخر عاصمة هذا الإقليم ومدينته الكبرى . وجمع الهربز كل قواته للدفاع عن العاصمة المتيدة وقد عزم أن يرد غزاتها أو يموت دونها . ذلك أن إصطخر كان لها في نفوس الفرس مكانة سامية بلغت حد القدسية ؛ فقد كانت أول عاصمة للفرس حين نزلوا هذا الإقليم من أرض إيران ، كما كانت موطن الساسانيين أ كاسرة الفرس في الزمن الذي نتحدث عنه : فساسان جد الملك أردشير الأول كان قيميًا على بيت نار في إصطخر يقال له بيت نار الإلهة أناهيد . وكانت المدينة بعد قيام الساسانيين تُعدُّ مركزاً دينيًا للدولة ؟ ثم ظلت عاصمتها زمناً غير قصير ، وبها لذلك مقابر الكثيرين من ملوكها . لا عجب وذلك شأنها أن يجمع الفرس جموعهم لصد غزاتها ، وأن يعقدوا العزم على الاستماتة في الدفاع عنها وتجاوز إصطخر موقع پرسوپوليس القديمة عاصمة هذا الإقليم في عهد الأكمينيين الذين سبقوا بني ساسان . فالصخور التي دُفن بها بعض الملوك الساسانيين . إصطخر تجاور مقابر من قبلهم من ملوك الأكمينيين پرسوپوليس . والراجح أن إصطخر أنشئت عقب اضمحلال پرسوپوليس في أعقاب غزو الإسكندر الأكبر ؛ ولذلك استخدمت أطلالها

في بناء كثير من عمائر المدينة الجديدة . وأسَّرت إصطخر بعد بنائها إلى النماء والازدهار إذ أصبحت العاصمة الرسمية لدولة ساسان ، ثم أَدَّى مركزها الديني إلى أن تقام بها أنعم العائر . وصف المَقْدِسِي مسجدها الكبير وذكر عمدته الكثيرة الهائلة ورءوسها الضخمة المنقوشة على صورة رأس الثور ، وروى أن هذا المسجد كان بيت نار في العهد الفارسي ، استعملت في بنائه مواد أخذت من پرسوپوليس . وقد أشاد المقدسي بعظمة الجسر المقام على النهر في إصطخر كما أشاد بجمال حدائقها الغناء . وكانت الجبال التي تجاورها غنيّة بالمعادن المختلفة ، فكان ذلك سبباً في زيادة نموها وازدهارها .

جمع الهرز كل قوَّاته للدفاع عن المدينة العتيقة ، وخرج إلى ظاهرها بضاحية جُور وهناك لقيه عثمان بن أبي العاص فالتصّر عليه وردّه إلى أسوار إصطخر . وتخصّصت القوَّات بالمدينة وقامت المسلمين مقاومة عنيفة . لكن الأمداد كانت تصل تبعاً إلى المسلمين فتزيد الحصار على الفرس ضيقاً . وطال بالهرز وجنوده ما يلاقون من شدة هذا الحصار فوهنت عزائمهم ، وفتحت المدينة أبوابها ، ودخلها المسلمون فقتلوا حمايتها وأصابوا منها ما شاءوا وفرّ من أهلها من فرّ . ثم دعا ابن أبي العاص الناس إلى الجزاء والذمّة فعادوا وعاد الهرز ، ونزلوا جميعاً على حكم الغزاة .

وبلغ عثمان أن بعض المسلمين أخذ من المغنم لنفسه قبل قسمة الفء ، فقام في الناس فقال: «إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفهم ووفّر أمانتهم ، فاحفظوها ؛ فإن أوّل ماتفقدون من دينكم الأمانة ، فإذا فقدتموها جدّد لسكم كل يوم فقدان شيء من أموركم » . وجمع عثمان الفء وكان عظيماً . نَحَمَّسه وبعث إلى الخليفة بجمسه . وأكبر عمر فعال عثمان فأقامه والياً على البحرين .

ترى أذعنت إصطخر لما أصابها عن رضا ونزلت على حكم القدر؟ كلا ! بل تبقى ماضيها الجيد بصور لها هول ما أصابها ويحرك دخيلتها فلا تفتأ الحين بعد الحين تضطرب بئذُ الثورة والانتفاض . وقد انتقضت بعد قليل من صلح الهرز مع ابن أبي العاص ، ثم انتقضت كرة أخرى في عهد عثمان بن عفان ، فكان نصيبها في المرتين أن رُدَّت إلى الطاعة وأكرهت على احترام العهد .



ومما ساعد انتفاضها في المرة الأولى أن شَهَرَكَ ملك فارس كان قريباً من كسرى في مقره بكرمان ، فلما عرف ما أصاب إصطخر بعث يجرِّض أهلها ويبذر بذور الثورة في الإقليم كله ، ويذكرُ الناس بمواقفهم المجيدة قبل سنين قليلة حين جاء العلاء ابن الحضرمي من البحرين يحاول غزوهم . وانتقضت إصطخر ، وانتقض في فارس كل مكان استطاع الانتقاض ، وتابعوا شهرك وانضموا إلى لوائه . وسار الحكم بن أبي العاص أخو عثمان للقاء شهرك ، فنزل في تَوَجَّ وحصنها واتخذها مقر قيادته ، وجعل يُغير منها على ماحوله من المدن ثم يعود إليها يسوق أمامه مغانمه . ولم تَسَلِّمَ أقاليم سابور وأردشير وأرجان وإصطخر من هذه الغارات . وأثارت فعال المسلمين شهرك فسار بقواته يلقي الحكم بتَوَجَّ ، واستبقى في مؤخرته كتيبة أمر رجالها بقتل كل فارسي يرتد عن الميدان والتقى هو والحكم في موقعة حامية ظلت متأججة الوطيس زمناً غير قليل ، ولا يعرف أحد لمن يكون النصر فيها . على أن غُبارها مالبت أن تكشف عن انتصار المسلمين وفرار الفرس ومقتل شهرك وابنه . وكان لهذه المعركة من الأثر أن حطمت ما بقي من قوة معنوية في نفوس الناس ؛ حتى لقد انتقل عثمان بن أبي العاص من البحرين لنجدة أخيه فكان يسير من هذا الإقليم الفسيح حيث شاء فلا يلقي مقاومة تذكر .

ويذكر البلاذري أن أبا موسى الأشعري سار بأمر عمر من البصرة . وأنه انضم إلى عثمان بن أبي العاص في هذه المرحلة من قتال فارس ، ففتح معه أرجان صلحاً على الجزية والخراج ، ثم فتحا شيراز على أن يكون أهلها أهل ذمة يؤدون الخراج إلا من أحب منهم الجلاء : وألا يُقتلوا ولا يُستعبدوا ، كما فتحا سينيزا من إقليم أردشير وتركها أهلها مُعْمَرًا للأرض . وأتى عثمان بن أبي العاص دَرَابَجِرْد ، وكانت منزل علم ودين لأهل فارس ، فصالحه الهريز عنها على مال أعطاه إتياء ، وعلى مساواة أهلها بغيرهم ممن فتحت بلادهم بفارس ، ثم صالحه مثل هذا الصلح على مدينة فسَا القريبة من درابجرد .

يخالف الطبري ، ومن أخذ عنه ، رواية البلاذري في فتح فسَا ودرابجرد . ويذكرون أن سارية بن زُنَيْم هو الذي قصد إلى هذين البلدين : فلما انتهى إلى عسكر الفرس بهما نزل عليهم وحاصرهم وأطال حصارهم ، فاستمدوا فاجتمع إليهم أكراد فارس وأتاهم الفرس ( م - ٤ - الفاروق - ج ٢ )

من كل جانب ، فلما صاروا في قوة لا قبل للمسلمين بها عزموا مهاجمتهم في غدهم . ورأى عمر بن الخطاب تلك الليلة فيما يرى النائم انبلاج الصبح وابتداء المعركة وموقف الفريقين وعددهم ، وأن المسلمين بصحراء إن أقاموا فيما أحيط بهم ، وإن لجئوا منها إلى جبل هناك جعلوه خلفهم لم يؤثروا إلا من وجه واحد فكان ذلك أكفل لنصرهم . فلما أصبح وكان في الساعة التي رأى فيها مارأى أمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام في الناس فقال أيها الناس ! إنى رأيت هذين الجمعين وأخبرهم بما رأى ، ثم صاح وهو يخطب : يا سارية ابن زُنَيْمِ الجبل ، الجبل ، ثم أقبل على الناس وقال : إن لله جنوداً ، ولعل بعضها أن يبلغنهم ! .

في تلك الساعة أجمع سارية ومن معه على الاستناد إلى الجبل ، ففعلوا وقاتلوا الفرس من وجه واحد فظفروا بهم وقتلوا منهم ، واستولوا في المقام على سَفَطٍ فيه جواهر استوهبه سارية من الجند وبعث به وبالفتح إلى عمر : وبلغ رسول سارية المدينة ، فألقى عمرُ بطعم الناس فأكل معهم . فلما انصرف عمر تبعه الرجل إلى داره ، فظن عمر أنه لم يشيع فأدخله معه . وجرى بغداد الخليفة ، خبز وزيت وملح جريش ، فنظر عمر إليه ونادى امرأته : ألا تخرجين يا هذه فتأكلين ؟ فقالت : إنى لأسمع حسَّ رجل . فقال عمر : أجل افاقت لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لى غير هذه الكسوة ! . وردَّ عليها عمر : أو ما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت عليٍّ وامرأة عمر ؟ وأجابته أم كلثوم من خدرها لإجابة عقب بل سخط : ما أقلَّ غناء ذلك عني ! فالتفت عمر للرجل فقال : اذنُ فكل ، فلو كانت راضية لكان غداؤنا أطيب مما ترى ! .

فرغ عمر من طعامه ، فذكر له الرجل أنباء سارية فسُرِّي عنه ، ثم ذكر له نبأ السفط وأن سارية استوهبه من المسلمين وجعله لأمير المؤمنين ، فتجهَّم وصاح به : لا ولا كرامة ، حتى تقدَّم على ذلك الجند فتمسسه بينهم ؛ وفتح الباب يطرد الرجل من بيته واعتذر الرجل وذكر أنه أفضى بعيره ، فأبدله عمر بعيراً من إبل الصدقة ، وجعل بعيره مكانه ، ورجع الرجل مغضوباً عليه محروماً .

هذه رواية الطبري ومن أخذ عنه في فتح فسا ودرا مجرد ، وهى الرواية المشهورة .

فإن تكن هي الصحيحة فمن حقتك أن تسأل أممّ صلة بين صبيحة عمر : ياساريةُ الجبلَ ، وبين استفاد سارية وأصحابه إلى الجبل في تلك اللحظة ؟ أم هي مصادفة محتمة ؛ فعمر في شغله بشؤون المسلمين الذين يقاتلون في فارس قد رأى في نومه ما رأى ، وسارية في تقدير موقفه الحربى قد استند بجنده إلى الجبل ؟ تجرى رواية بأن أهل المدينة سألوا رسول سارية إذ كان بين أظهرهم : هل سمعوا بفارس شيئاً يوم الواقعة ، فقال : نعم ! سمعنا : « ياسارية الجبلَ الجبلَ » ، وقد أكدنا نهلك : فلجأنا إليه ففتح الله علينا . ولا أراى أجد تفسيراً علمياً يقنعنى بهذه الرواية . فالوحى قد انتهى بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإذاعة اللاسلكية لم تكن معروفة ، بل لم تكن تجرى في خيال أحد ذلك العهد . ولست أستطيع أن أقطع بأن الأمر جاء من طريق انتقال الأفكار ، وأن نفحة من روح عمر تسلطت تلك الليلة على نفس سارية ، فكان ينفذ أمر الخليفة كما ينفذ النائم في التثويم للمفناطيسى أمر منوّمه . مع ذلك فهذا التأويل الأخير ، على تعذّر تصويره ، أدنى إلى تفسير هذه الرواية إن صحت . وفي هذه الحالة يكون سارية ، إذ أمر أصحابه أن يستندوا إلى الجبل ، قد ذكر لهم أنه سمع هذا الأمر في صوت من السماء .

بينما كانت جنود ابن أبي العاص تسير في إقليم فارس كان سهيل بن عدى يغزو كرمان ، وكان الحكم بن عمرو التغلبي يغزو مكران . ولم يثبت أهل كرمان للمسلمين ففتحوا بلادهم وغنموا منهم من الإبل والشاه ما شاء الله أن يغنموا<sup>(١)</sup> . أما أهل مكران فتحصنوا بنهر مكران ، ودارت بينهم وبين غزاتهم معركة عظيمة انتهت بظفر المسلمين الذين أمعنوا في عدوهم قتلاً ثم اتبعوهم يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ، ثم رجعوا فأقاموا بمكران ، وكتب الحكم إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس وفيها فيلة مع حمار العبدي<sup>(٢)</sup> ، فأمر عمر ببيع الفيلة وقسم أمانها على الفاتحين .

(١) في رواية أن الذى فتح كرمان هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى .  
 (٢) يروى أن عمر سأل صحاراً عن مكزان ، وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذى يأتيه منه فقال صحار : « يأمر المؤمنين أرض سهلها جبل ، وماؤها وشل وثمرها دغل و وعدوها بطل ، وخيرها قليل . وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شر منها » . قال عمر : أسجاع أنت أم بخير : فقال صحار بل بخير .

كان يزدجرد بكرمان حين سار المسلمون إليها يفتحونها . فلما رآها لا تقام أكثر مما قاوم غيرها ، فرّ منها إلى خراسان . وأكبر رجائه أن يثبت أهلها وأهل سجستان للمسلمين . وإنما بعث إلى نفسه هذا الرجاء أن خراسان وسجستان كان بينهما وبين البصرة والسكوفة وغيرها من مسالخ المسلمين أماد غير قليلة ؛ فليس إرسال الجنود لغزوها يسيراً كإرسالها إلى العراق العجمي ، أو إلى فارس وكرمان .

تقع سجستان إلى الشمال من مكران . وكان عمر بن الخطاب قد عقد لواءها لعاصم ابن عمرو ، فقصده إليها ، ولحقه عبد الله بن عمير بها . ولقي أهل سجستان غزاتهم على تخوم بلادهم ، فلم يثبتوا لهم بل انسحبوا إلى الداخل وتمحصنوا بزرنج عاصمتهم . وحصرهم المسلمون بزرنج ، ثم بثوا كتابهم تُغير على ماحول العاصمة وتغم وتسي . وأيقن المدافعون عن زرنج أن طول الحصار أضرّ بإقليمهم ، فطلبوا الصلح على أن تكون مزارع سجستان لرحتى لا يطؤها المسلمون . وقبل المسلمون ماطلبوا ، ثم كانوا إذا ساروا تحاموا الأرض خشية أن يصيبوا منها شيئاً فينقضوا العهد . فتقوم لأهل سجستان الحجة عليهم فلا يدفعوا الخراج ، وبذلك حفظ كل من الفريقين عهده وقام بواجبه .

كيف أسرع سجستان إلى التسليم وهي فيما يقول المؤرخون : «أعظم من خراسان وأبعد فروعاً ، يقاتلون القندهار والترك وأما كثيرة» ؟ . أيسر التعليل أنهم رأوا كسرى يُسرع إلى الفرار كما رأى جيوش المسلمين مقبلة على مكان يقيم به ، فكان طبيعياً أن يقتدوا به وآلا يقاوموا مقاومة تجرّ عليهم النكال . فلم يقاومون والملك الأعظم لا يقاوم ، ثم لم يضحّون بأرواحهم ، والملك الأعظم لا يضحّي براحته ! .

ترى أيقاوم الملك الأعظم في مقرّه الأخير بخراسان ؟ لم يكن له إلا أن يفعل ! فلو أنه فرّ من خراسان كما فرّ من حُلوان ومن الرّمي ومن أصبهان ومن كرمان لما بقي له في أرض فارس ملجأ ، ولسكان بين أن يسلم نفسه لأعدائه وينزل على حكمهم كما فعل الهرمزان ، أو يتخطى تخوم بلاده إلى بلاد التتار أو بلاد الصين ، فيقيم في حماية عاهلها يلتمس منه العون ، فإما أعانه فنصره على عدوه وردّه إلى ملكه ، وإما تباطأ عنه فقضى في مقرّه حياة عار ومذلة لا نجاة له منها إلا أن يموت بأسا حزياً .

كان يزدجرد مقبياً بمرور حين تخطى الأحنف بن قيس تخوم خراسان على رأس القوّات التي عقد له عمر بن الخطاب لواءها . وخراسان بلاد واسعة ؛ تتاخم العراق العجمي من الغرب . وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد في الشمال إلى أقصى تخوم إيران . ومن أمهات مدنها نيسابور وهرّاة ومرّو وبلخ . وكانت خراسان في ذلك العهد ذات ثروة زراعية واسعة ، كما كانت تُصنع بها المنسوجات القطنية والحريية النفيسة . وقد طمع يزدجرد حين أقام بها محرّض أهلها ، في أن تصد الغزاة عما بقي له من أرض آبائه وأجداده ، ونسى أو تناسى أنه جمع قوّات فارس كلها وقذف بها إلى نهاوند ، فدارت الدائرة عليها ، وحطمها المسلمون هناك كل محطّم .

والواقع أن المؤرخين المسلمين لم يبالغوا حين سمّوا غزوة نهاوند فتح الفتوح ؛ فلم يكن الفرس يثبتون بعدها للمسلمين في الوقائع الكثيرة التي دارت شمال فارس وفي جنوبها ؛ ولم تكن خراسان أكثر من غيرها ثباتاً . دخلها الأحنف بن قيس من الطّبسين ، فلم يلق مقاومة تذكر حتى بلغ هراة . وهراة مدينة عظيمة قائمة في قلب خراسان ؛ تحف بها الجبال من كل جانب ، وتنشعب المياه في دورها وطرقاتها ، ولها تجارة واسعة جعلتها من أكثر المدن رخاءً وثروةً وأتاحت لها أن تحتفظ داخلها بأقوات تكفيها الشهور الطوال . ثم إنها كانت إلى مناعة موقعها الطبيعي ، محصنة تحصيناً زادها منعمة ، فكان بها حصون كثيرة تحيط بها ، وسور يردّ غائلة المعتدين عليها . مع هذا كله لم يطل وقوف الأحنف بن قيس أمامها ، بل فتحها عنوة فدانت له وصالحته .

كان سقوط هراة نذيراً بسقوط خراسان كلها . وقد خلف الأحنف فيها كتيبةً من جنده ، وبث بقوّات إلى نيسابور وإلى سرخس ، وسار بنفسه على رأس الجيش يريد مرّو الشاهيجان حيث يقيم يزدجرد : ومرّو هذه تقع إلى شمال هراة وتقع نيسابور بينها . وكانت مرو عاصمة خراسان ومدنتها الكبرى . لكن موقعها الطبيعي لم يكن في مناعة موقع هراة ؛ فقد كانت في أرض مستوية بعيدة عن الجبال ، وكانت المياه والأقوات حولها وفيرة ميسورة . لذلك لم يلبث يزدجرد حين سمع بمسيرة الأحنف إلى مرو أن خرج إلى مرّو الروذ ؛ وهي مدينة قريبة منها ، تقوم على نهر عظيم يمكن التحصن به .

لكن الأحنف لم يمهل حتى يتحصن ؛ فقد جاءته أمداد من الكوفة استطاع بها أن يتابع مسيرته، وأن يُرْعَج كسرى مرة أخرى . فيخرج من مرو الروذ إلى بلخ . ونزل الأحنف مرو الروذ ، وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلخ ثم اتبعهم الأحنف حين حاضروا المدينة القائمة على تخوم فارس وطخرسْتان . وكان طبيعياً ألا تقاوم بلخ أكثر مما قاومت هراة أو مرو . وكان طبيعياً أن يفرّ يزدجرد منها ؛ فهو قد جعل الفرار أمام المسلمين دأبه ودينه . ودخل الأحنف بلخ على رأس جند الكوفة ، فلما اطمان إلى إذعانها أقام رُبْعِي بن عامر عليها وعلى ما حولها . وعاد هو فنزل مرو الروذ واتخذها عسكراً لجنده ومقرّاً لقيادته ، لم يبقَ ليزدجرد في أرض مملكته موضع يقرّ فيه أو يفرّ إليه . لذلك فرّ هذه المرة مجتازاً النهر الذي يفصل بين فارس وأرض التتار . فنزل بَسْمَرَقَنْد على خاقان الترك لانداً به لاجئاً إليه ؛ وكان قد كتب إلى خاقان الترك وإلى إمبراطور الصين ، منذ كان بمرو الشاهجان يستمدّهما ويستعديهما على المسلمين ، فأبطأ رسله إليهما ولم يعودوا إليه من عندها بجواب . فلما دفعه المسلمون فلجأ إلى خاقان الترك ، دفعت النخوة هذا الأخير لنجدته . ولعل خاقان الترك رأى في تقدم المسلمين ما يهدّد ملكه ، فأثر أن يصدّم قبل أن يجتازوا إليه أرضه ، واتخذ من لجوء كسرى إليه حجة يجرّك بها نخوة قومه . وحشد خاقان جنده وحشد معهم أهل فرغانة والصفد ، وسار بهم ويزدجرد يلقي المسلمين بخراسان .

كان الأحنف بن قيس قد كتب في هذه الأثناء إلى عمر بفتح خراسان وغلبته على المروين وبلخ . فلما قرأ عمر كتابه تهلل وجهه وصاح : هو الأحنف وهو سيد أهل الشرق ! لكنه ما لبث ، بعد هذا الإعجاب بفائدة الظافر ، أن عاد إلى التفكير فيما يجب أن يعقب هذه الخطوة ، فعاوده حدّره فقال : « لو دِدْتُ لو أرى لم أكن بعثت إلى خراسان جنداً ، ولو دِدْتُ أنه كان بيننا وبينها بحر من نار ! » : وخشى أن يتقدّم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، كما خشى أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فتطفيهم فيعيشوا في الأرض فساداً . فكتب إلى الأحنف يقول له : « أما بعد ، فلا تجوزنّ النهر واقتصر على مادونه . وقد عرفتم بأى شيء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يدّم لسكم النصر . وإبّاكم أن تغبّروا فتنفضوا ! » .

وقد كان لهذا الخنز من جانب عمر ما يسوِّغه ؛ فقد آتست رقعة الفتح في الشرق  
فتناولت أرض فارس كلها ؛ وقد طالت خطوط المسلمين وتوزَّعت قواهم في أرجاء  
الشام والعراق وفارس ، ولا يأمن الخليفة انتقاض بعض هذه البلاد على نحو ما حدث  
إذ حُصر أبو عبيدة بمحص . هذا إلى أن التقدم فيما وراء فارس قين أن يثير به التثار  
والغول دفاعاً عن أنفسهم وعن بلادهم . فن الخير ومن حسن الرأي أن يقف الفتح زمناً  
حتى يستتب الأمر . ويطمئن أهل البلاد المفتوحة إلى حكم المسلمين . ومن الخير لذلك  
ألا يتقدم الأحنف أو غير الأحنف من أمراء الجند إلى ما وراء تخوم فارس .

دلت الحوادث من بعد على أن عمر كان حصيف الرأي ، بعيد النظر في حذاره ؛  
فقد سار خاقان الترك في جنده ويزدجرد إلى جانبه فعبروا النهر إلى بلخ ، واضطروا جند  
السكوفة فان يتراجموا إلى مرو الروذ ، وأن ينضموا إلى الأحنف وجنده . تعقبهم خاقان  
في تراجعهم وقد زاد عدد جنده بمن انضم إليهم من الفرس ، وبلغ مرو الروذ في جمع عظيم  
مزعج . ورأى الأحنف دقة الموقف لكثرة عدوه ، كما رأى أنه إن تم له النصر فردَّهم  
إلى بلخ وإلى ما وراء النهر لم يكن له أن يعبره ، فذلك رأى أمير المؤمنين . لهذا رأى  
أن ينسحب بجنوده إلى موضع يجري نهر مرو الروذ أمامه ، ويقوم جبل خلفه ،  
حتى يكون النهر خندقاً ، بينه وبين عدوه ، ويكون الجبل حصناً يكفل له ألا يُوتى من  
خلفه . فلما أصبح جمع الناس وقال لهم : « إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولكم ،  
فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم  
هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم  
من وجه واحد » . وانسحب الجند إلى هذا المكان ، وأقبل الترك فوقفوا قبالتهم .

لم يكتف الأحنف بما صنع من ذلك ، بل حرص على أن يعرف الترك وخاقانهم  
أمر عمر ألا يجتاز المسلمون النهر إلى بلادهم ، فبعث دسيساً أذاعوا هذا التبا فيهم واطمأن  
خاقان إلى صحة النبا حين رأى المسلمين لا يحاولون اجتياز النهر إليهم ولا يدعونهم لقتالهم  
فقد أقام الجيشان أياماً والترك يغادون المسلمين ويراجونهم ، فإذا جاء الليل تفصَّوا عنهم .  
ثم لا يخرج المسلمون إليهم وبعث لأحنف عيوناً فدلوه على مكان القوم بالليل ، ثم خرج

ليته طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان . فلما تنقّس الصبح خرج فارس من طليعة الترك كأنما كان يتحدّى المسلمين ، فبارزه الأحنف فقتله ، وخرج فارس ثان من الطليعة فأورده الأحنف حتفه ، وخرج ثالث فكان مصيره مصير صاحبيه .

رجع الأحنف بعد ذلك إلى عسكره وهو على تعبئة : وخرج خاقان الترك من قبته فرأى الفرسان الثلاثة الذين قُتلوا ، ورأى النهر بينه وبين المسلمين ، ورأى الأحنف ورجاله لا يدعون لقتال ، وأيقن صحة ما أمى إليه من أمر عمر ، فقال لرجاله : قد طال مقامنا وما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا . وارتدّ بالجيش حتى بلغ بلخ . وقال المسلمون للأحنف : ما ترى في اتباعهم؟ فأجابهم : أقيموا بمكانكم ودعوهم . بذلك ثبت في نفس خاقان الترك اليقين بأن المسلمين لا يريدون قتاله ، وأنهم لن يجتازوا النهر عند بلخ إلى أرضه ، فازداد حرصاً على ترك فارس إلى عاصمة ملكه ، وترك المسلمين يصبّون يزدجرد معهم حسابه .

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة من بلخ وانضموا إلى الأحنف بمرور الروذ قد فصل في قوة فارسية من بلخ إلى مرو والشاهجان ، فحصر حارثة بن النعمان ومن معه من المسلمين بها ، واستخرج خزائنه من موضعها ، وعهد إلى أمنائه في السهر عليها . فلما انسحب خاقان من مرو إلى بلخ وبلغت يزدجرد أنباء من عزيم هذا الخليف على الانسحاب من فارس كلها إلى بلاده ، أراد أن يحمل الخزائن وأن يلحق بحليفه . وكانت هذه الخزائن عظيمة تحوى جواهر كسرى وكل ما جمعه من خزائن فارس في أثناء فراره وكانت من ثمّة ثروة يخطيء تقديرها الإحصاء . وعرف أهل فارس عزم يزدجرد على حملها والفرار بها ، فسألوه : أى شيء تريد أن تصنع ؟ وأجابهم : أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين . فقالوا له : مهلا ! إن هذا رأى سوء ؛ فإنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك . ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصلحهم فإنهم يلون بلادنا . وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدوٍ يلينا في بلادنا . فأبى عليهم وأبوا عليه . قالوا : قدع خزائنا نرُدّها إلى بلادنا ومن يليها ولا نخرجها من بلادنا إلى غيرها نخالفهم يزدجرد وأصرّ على رأيه ، فخرجوا إليه وثاروا به وقتلوه وحاشيته ، واستولوا



على خزائنه ، ففرَّ فيمن معه إلى بلخ ، فإذا خافان سبقه إلى الانسحاب منها ، فتابع فراره حتى بلغ قرغانة عاصمة الترك بسمرقند .

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاهدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، ورجعوا إلى بلادهم فاطمأنوا بها . فسار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مقر قيادته : وقد كان ما استفتاء المسلمون في هذه المواقع عظيماً ، حتى بلغ نقلُ الحارب مثله يوم القادسية .

وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس ، فأمر عمر بالكتاب فقريء ثم خطب الناس ، فكان مما قاله : « ألا إن الله قد أهلك ملك الجوسية وفرَّق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يُضِرَّ بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون . والله بالغ أمره ، ومنجز وعده ، ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يوفِّ لكم بهمه ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ؛ فإنني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم » .

فرَّ يزيدجرد من أرض فارس إلى أرض الترك ، فتم بقراره القضاء على دولة الأكاسرة من بني ساسان . مع هذا أقام في مقره سنين يداعب الأمل الغرور خياله أن يعود يوماً إلى ملك آبائه وأجداده . لذا كان يكتاب من يطمئن إلى مكاتبهم من أهل خراسان ، طامعاً أن تنور الأرض بالمسلمين يوماً فتتوح له فرصة الثأر منهم . وقد ثارت خراسان في زمن عثمان بن عفان ، فنجَّ إلى يزيدجرد أن الفرصة تاحت ، فسار من بلاد الترك حتى نزل مرو واجتمع بمن كان يكتابهم . لكن المسلمين ما لبثوا أن قضوا على الثورة وأخذوا بيدهم زمام الأمر في الأرض التي كفرت بسطانهم . عند ذلك رأى أصحاب يزيدجرد أنه لا طاقة لهم بما يريد ، فاختلفوا معه وانقضوا من حوله ، فعاد يحاول الفرار والرجعة من حيث أتى . لكن الفرار لم يكن هذه المرة يسيراً ؛ فقد تحلت عنه الأرض كلها ، وقد بث المسلمون عيونهم من الفرس ليحيطوا به ويقعادوه إليهم أسيراً ، وعرف الملك الشريد مادُّ برله ، فأوى إلى طاحونة على شاطئ النهر ، وهناك قُتل شرَّ قتيله . قيل إن أهل خراسان أحاطوا به في مَلجئه ، ثم دخلوا عليه فقتلوه وألقوا بجثته في النهر .

وقيل إن صاحب الطاحونة رأى عليه حُتته فلما نام قتله ، وإن الترك خفوا لنجدته فوجدوه قتل ، فانتقموا له من صاحب الطاحونة وأهله فقتلوهم جميعاً ، ثم وضعوا جُثته في تابوت وحملها بعضهم إلى إصطخر . وقيل إن صاحب الطاحونة ذهب إلى أمير مرو فأخبره خبره ، فمرفه وقال لجنده : اذهبوا لجيئوني برأسه ، فدخل عليه الطحَّان فقتله وحزَّ رأسه ودفع بها إلى الجند ورمى بجثته في النهر . وأياً ماصح من هذه الروايات فكلها تتفق على أن سليل الأكاسرة العظام قتل وهو في ملجئه عند ذلك الطحَّان ، وبمقتله انتهت دولة الأكاسرة من بني ساسان .

ثم فتح فارس وفرار يزدجرد في عهد عمر . فهل ترى أذعن الفرس لحكم المسلمين من أول الأمر عن طوعية ورضا ؟ لا ريب في أنهم رأوا هذا الحكم أكثر إنصافاً ومعدلة وأقل إرهاباً لهم من حكم الأكاسرة ؛ فقد تركهم العرب لم يزججهم عن دينهم ولم يتدخلوا في شؤونهم ، ثم جعلوا الأمراء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم في عهد يزدجرد وأسلافه ، كما تركوا المناصب العامة للفرس لم يحاولوا استغلالها لأنفسهم ، مكتفين بالجزية يقتضونها وفاقاً للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات . لكن أبناء فارس لم يلبثوا أن شعروا بما في حكم الأجنبي من مذلة لهم وعار عليهم ، وأن أدركوا ما يحتويه نصُّ ورد في المعاهدات كلها من جرح لشعورهم وإذلال لكرامتهم ؛ فقد جاء في الفقرة الأخيرة من صلح أصهبان : « ومن سبَّ مسلماً بُلِّغ منه ، فإن ضربه قتلناه » . وكان صلح الرى يلزم أهلها بأن « يقرُّوا المسلمين يوماً وليلة ، وأن يفخّموا المسلم ، فمن سبَّ مسلماً أو استخف به نُهِك عقوبةً ، ومن ضربه قُتل » . ونص صلح جُرمان على أن « من سبَّ مسلماً بلغ جهده ، ومن ضربه حلَّ دمه » . أفيغني ترك الفرس أحراراً في دينهم ، وعدم التعرض لهم في التمتع بأموالهم عن ، الكرامة المهدورة والدم المباح كلما استخف فارسي بمسلم أو سبه أو ضربه ؟ ! لذلك بدأ الفرس ينتفضون بعد قليل من استقرار المسلمين بينهم ، مما اضطر عثمان إلى إرسال القوات المسلَّحة الحينَ بعد الحين لتأديبهم .

ولم يكن تأديبهم وردَّهم إلى الطاعة عسيراً ؛ فلم يكن عمر قد فاته أن أمة عريقة في الحضارة والمجد كأمة الفرس لن تذعن من بادىء الأمر لسلطان الأجانب عنها ، فأقام

المساح في شتى أرجائها ، واحتاط بذلك لكل انتفاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها . وقد كان عمر في هذا الأمر كما كان في كثير غيره حصيفاً بعيد النظر . فالشعور بالكرامة أقوى أثراً في النفس من كل شعور ، ولن يستطيع كبجه إلا قوة تضطر الثائر ، لمهانة نزلت به ، أن يختار بين كرامته وحياته ، وتجعل الشعور بالكرامة وغيرة الاحتفاظ بالحياة يقفان وجهاً لوجه . وقد كان لهذه الوقفة أثر بعيد في حياة الشعب الفارسي أدت به إلى أن يدين بالاسلام ، ثم كان له من الأثر في حياة الإمبراطورية الإسلامية ما لا يدخل تفصيله في نطاق هذا الكتاب .

فقد رأى العقلاء من أبناء فارس سُموَّ الإسلام ، ثم رأوا أن لا نجاة لكرامتهم مما نصّت عليه المعاهدات إلا أن يدبوا بدين الحاكين ، وأن يندمجوا فيهم جهد طاقتهم ، وأن يستردوا بذلك سلطاناً لم تمكنهم الأسلحة في حى يزدجرد من الاحتفاظ به . ولم يبلغ تعصبهم لدينهم أن يمنعمهم من أن ينعموا بمزايا الإسلام ، وأولها أن يصيروا بمجرد إسلامهم ألداداً للحاكين يساؤونهم ويصاهرونهم . ثم إنهم حرصوا بعد إسلامهم على أن تسود عقيدتهم القديمة في أمر السلطان ، فبلغوا من ذلك ما أرادوا أو نحواً منه . جاء في كتاب « تاريخ المؤرخ » الذي نشرته « الإنسيكلوبيديا بريتانিকা » في هذا الموضوع ما خلاصته : « دخل الفرس في الإسلام أفواجا عقب الفتح . ولذلك أسباب كثيرة يمكن ردّها جميعاً إلى سببين اثنين : أولها أن الإسلام كان دين الحاكين ، والثاني أن الفرس لم يكونوا يَمَنُونُ إلا قليلاً بالدين الرسمي للدولة السابقة . هذا إن أن العقيدتين كانتا تلتقيان في مواضع كثيرة ، فلم يكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى ليثير نفوساً تززع إيمانها بعقيدتها الأولى ؛ فقد ضعف إيمان الفرس بتعدد الآلهة ، وأصبح تصورهم أرمزاً قريباً من فكرة الألوهية الإسلامية . ثم إن بساطة العقيدة العربية كانت منجاة للفرس من تعقيد الشعائر المزدنية ، وكانت الزكاة المفروضة في القرآن تقابل بل تسمو على ما تدعو إليه « الأفيسْتا » من الصدقة والإحسان . أما ما جاء في القرآن عن الجنة والنار وعن الآخرة فكان مذكوراً في كتبهم . بذلك لم يغيّر الإسلام في نظر الشعب الفارسي ، شيئاً من عقائده الأساسية إلا أن جاءه باسمين جديدين : الله ومحمد ، وأن أحل الكلمات الثمان التي تعتبر

قواعد الإسلام محل الكلمات الإحدى والعشرين التي تقوم عليها عقيدة الفرس .  
« كان لهذا الانتقال الديني أثره في الناحية السياسية . فالعقيدة الفارسية تجعل  
السلطان للملك على أنه ابن الله ، فله المجد والقدسية بحكم مولده الأسمى . وقد أدت ثورة  
الفرس وانتقاضهم على سلطان المدينة و سلطان دمشق إلى اجتماعهم حول الوارث الشرعى  
لحمد : ابن عمه على - العربى الذى أقصى عن الخلافة وإلى أن يحيطوه بهالة من الجلال  
والقدسية ألف أسلافهم أن يحيطوا بها ملكهم القومى . وكما ألف أسلافهم أن يلقبوا  
كسرى : « الملك المقدس ابن السماء » ، وأن تصفه كتبهم بأنه « السيد والمرشد » ،  
كذلك فعلوا في عهدهم الإسلامى فدعوه الإمام . وكان هذا اللقب على بساطته جليل المعنى  
إذ جمع صاحبه السلطان الدنيوى والتوجيه العقلى .

« فلما قبض على اجتماع الفرس حول ولديه الحسن والحسين ، ثم اجتمعوا من بعدها  
حول عقبهما . وقد قيل : إن الحسين تزوج بنت آخر الأكاسرة الساسانيين ، فتركت  
الإمامة بذلك في عقبه بازواج الحق المقدس ، ثم بارك دم الحسين بسهولة كزبلاء على  
هذه الوحدة التي جمعت بين الإسلام وفارس القديمة .

« وكانت الثورة التي خلعت بنى أمية وأجلست العباسيين ذوى قرابة رسول الله  
على العرش مع صنع الفرس . بذلك حققوا مبدأهم في الإمامة ، وإن لم يتوَّجوا بالسلطان  
من بذلوا كل جهدهم في سبيل تنويجه الخ » .

هذه الحوادث ، التي يذكرها « تاريخ المؤرخ » ، ويذكرها المؤرخون جميعاً ، تتخطى  
عهد عمر . وإنما سقناها هنا لئلا نلقت القارئ إلى أن الفرس لم تطمئن نفوسهم لحكم العرب ،  
بل برموا به وحاولوا الانتفاض عليه جبهة من أول الأمر . فلما غلبوا على أمرهم جعلوا  
كل همهم أن يكون السلطان لهم ، فبلغوا من ذلك الشيء الكثير في ميادين الحياة العامة  
جميعاً . وقد بلغ من برهم بفتح المسلمين بلادهم أن ثارت نفوس طائفة منهم بعمر ،  
حتى قيل إن مقتله بعد قليل من فتح خراسان كان ثمرة لمؤامرة فارسية . وسنفضّل ذلك  
من بعد . وحسبنا أن نقول هاهنا إن عمر كان صادقاً كل الصدق حين قال يوم كتب  
إليه الأحنف بن قيس بفتح خراسان : « إن الله قد أهلك ملك الجوسية وأورث الإسلام

أرضهم وديارهم وأبناءهم» وأن هذا الفتح كان النذير الصادق بانتهاء دولة الأكرسة من بنى ساسان<sup>(١)</sup>.

أما وقد فرغنا من فتح فارس فلننتقل إلى ميدان آخر كانت أسلحة المسلمين مشهورة فيه حين كانت أسلحتهم مشهورة في أرض كسرى، وكان لها من مجيد الفعال هناك ما كان لها من مجيد الفعال هنا، ثم كان قائدهم عمرو بن العاص أوسع قواد المسلمين حيلة وأشدهم ذكاء.

هذا الميدان الآخر هو مصر.

(١) لعل القارئ قد لاحظ أننا لم نعين تاريخ أكثر الغزوات وفتح فارس. وأتينا أغفلنا في غير موضع ذكر أسماء القواد الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات: والواقع أنه تحقيق التواريخ لغزوات فارس غير ميسور، ولعله غير ممكن. وحسبى أن أذكر هنا أن أهم غزاتين فيها، وهما غزوة القادسية وغزوة نهاوند، بقع الريب في تاريخ وقوعهما. وليس يقتصر هذا الريب على المؤرخين المسلمين فليس المؤرخون الأجانب دون زملائهم ريباً. فهم تذكرون أن القادسية وقعت إما في سنة ٦٣٦ أو في الشهر الأول من سنة ٦٣٧، وأن نهاوند تراوح بين سنوات ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢. والطبري يذكر أن القادسية وقعت في السنة الرابعة عشرة، وهي توافق سنة ٦٣٥ أو أوائل سنة ٦٣٦، وأن نهاوند وفتح أصبهان كانا في السنة الحادية والعشرين للهجرة: وفتح خراسان والري وجرجان وطبرستان وأذربيجان في السنة الثانية والعشرين. ويجعل فتح فارس وكرمان ومكران وسجستان في السنة الثانية والعشرين. وهو مع ذلك يورد من الروايات التي يراها مرجوحة ما يجري بأن أذربيجان فتحت سنة ثمان عشرة بعد فتح همدان والري وجرجان وطبرستان. ويذكر ابن كثير أن فتح خراسان حدث بعد فتح فارس وكرمان ومكران، وهو رأي راجح، وبذلك نكون قد فتحت سنة ثلاث وعشرين إن صح أن فارس وجرانها فتحت تلك السنة. أما البلاذري فيخالف تلك الروايات كلها في كثير من الأحيان، ويذهب إلى أن إيران لم يتم فتحها إلا في عهد عثمان بن عفان، كما يخالف الطبري ومن ذهب مذهبه في تسمية كثير من الأمراء الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات الكثيرة المختلفة. وقد حرصت على تحقيق ما استطعت تحقيقه من ذلك كله جهده طاقتي، فقارنت الروايات بعضها ببعض وطبقتها على جغرافية فارس الطبيعية والسياسية لذلك العهد، وأثبتت في هذا الفصل ما اعتقدته أدنى الروايات كلها إلى الصحة. أما ما اضطربت الروايات فيه ولم يكن لإثباته ذا قيمة في التاريخ الامبراطورية الإسلامية العهد عمر فأغفلته. وأحسبني لم أضع على القارئ بهذا الإغفال ما يفوت عليه شيئاً جوهرياً في الموضوع الذي نحن بصدده. وأكبر رجائي أن أكون قد وفقت لتصوير الفتح الإسلامي لأرض فارس على نحو يحلوه أمام القارئ في صورة واضحة خالية من الاضطراب.

## الفصل الثامن عشر

### التفكير في فتح مصر

بينما كانت أسلحة المسلمين تنساح في بلاد الفرس، بإمرة الأخنف بن قيس و نعيم بن مقرن وسويد أخيه وعبد الله بن عبد الله بن عتبان وغيرهم من أمراء الجند ذوى المكنانة والبأس كان عمرو بن العاص يتقدم بجنوده في مصر؛ بفتح مدينتها، ويخلى الروم عنها ويُدبل دولتهم فيها. وقد بدأ عمرو مسيرته إلى مصر في شهر ذى الحجة للسنة الثامنة عشرة من الهجرة، وتخطى إلى أرضها في مستهل السنة التاسعة عشرة، ثم سار في قتال أهلها وقتال الروم بها حذراً أول الأمر. فلما جاءت له الأمداد من الخليفة طوعت له سرعة السير وكفلت له الغلبة والنصر.

وكانت مسيرة عمرو إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب. لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل. فالتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفة في غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها، وبعد أن صالح أمير المؤمنين أهلها في السنة السادسة عشرة من الهجرة. ولعل عمراً قد ذكر في حديثه يومئذ أن قائد الروم الأطربون انسحب بقوات الروم من فلسطين إلى وادى النيل، فمن الخير تعقبه وهو منهزم قبل أن تتاح له فرصة التحصن في بلاد وافرة الخصب عظيمة الثروة؛ يستطيع أن يجد في حصونها المنيعات وفي مبرتها الوفيرة، من وسائل الدفاع وأسباب المقاومة، ما يُنسى هرقل هزيمته وفراره من المدينة المقدسة. ولعل عمراً ذكر كذلك في حديثه ما تعج به مصر من خيرات ينال الروم أكثرها ولا يبقى للمصريين منها إلا القليل الذى يقيم أودهم ليعملوا في أرضها المنقطعة ولعله أعاد هذه الأحاديث غير مرة على الخليفة، وعززها بأن علاقات مصر بحكامها من الروم ليست خيراً مما كانت علاقة العراق بحكامها من الفرس؛ وأن النزاع المذهبي قد أثار على ضفاف النيل حفاظ المصريين وأضعف من حاستهم لحكامهم، إن لم يدعهم للتمرد عليهم. وهذه كلها عوامل تكفل للعرب الظفر بأعدائهم في الوادى الخصيب،

فإذا أضيف إليها ما استقرَّ في نفوس الناس لذلك العهد من بأس المسلمين ومن أن الله معهم فلا غالب لهم ، لم يبق موضع للتردد في غزو مصر ونشر لواء الإسلام فيها ، ثم كان للمسلمين من ثراء مصر ومن خيراتها الوفيرة ما يضاعف حظهم من نعيم الدنيا ، بقدر ما يضاعف الاستشهاد حين الجهاد حطم من نعيم الآخرة .

سمع عمر هذه الأحاديث ومثلها غير مرة . وكان يُنصت لها ويطلب التفكير فيها . فالإغراء بغزو مصر لمن استطاع غزوها قوى شديد . وأين منها العراق والشام ثروة ونصرة ! وهل يحدث تاريخ في بقاع الأرض بمثل ما يحدث تاريخها ، أو تنهض في المشرق قبايل آثار في جلال آثارها ! لكن عمر كان يتردّد كلما حدث في أمرها ، فلا يأذن لابن العاص في غزوها . فلما انتهى بعد سنتين إلى الإذن بهذا الغزو وجد جماعة من كبار الصحابة بالمدينة راغبة عنه ، خاشية سوء مغبته ، تحاول حمله على الرجوع عنه ، وردّ ابن العاص عن السير إليه .

وقد تداولت عمر أسباب متلاحقة حملته على هذا التردد . وأول هذه الأسباب أن سياسته في الفتح كانت إلى آخر السنة السابعة عشرة من الهجرة سياسة عربية بحثة ؛ فهو لم يكن يريد أن يتمدّى العراق والشام بعد أن ضمّهما إلى شبه الجزيرة ؛ وكان يرى أن يضمهما إليها لأن القبائل العربية التي نزحت إليها طوّعت للضميين والغنسانيين أن يُقيموا بهما ملكاً عربياً خضع لنفوذ كسرى ولنفوذ قيصر ، ومن الحق أن يكون هذا الملك للعرب وحدهم ، يستقلون به ويكونون أصحاب السلطان فيه ، حتى يجتمع العرب في وحدة تمتد من خليج عدن والمحيط الهندي إلى أقصى الشمال من بادية السماوة . ولذلك أبي على سعد بن أبي وقاص أن يتخطى سهول العراق إلى جبل فارس ، وودّ لو أن بين السواد والجبل سداً من نار ، فلا يخلص الفرس إليه ولا يخلص هو إليهم . وقد ظل حريصاً على هذه السياسة حتى لم يكن للمسلمين من قتال الهرمزان مفراً . فلما جمع الفرس لهم بعد ذلك بنهاوند وأظفر الله المسلمين بهم ، أمر عمر بالانسياح في بلادهم ليُخرج يزدجرد منها ، وليقتضى على كل خارج عليه فيها .

وسبب آخر حمل عمر على التردد في فتح مصر . ذلك أن الشام لم تكن خضعت

كلها لسلطان المسلمين إلى آخر السنة السادسة عشرة . وقد بقي شمالها يفاوضهم ولا يستقر لهم فيه أمر حتى قضى أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد على مقاومتهم ، وذلك حين بعث هرقل قوّاته تحملها السفن من الإسكندرية إلى أنطاكية ، وحين خرج أهل الجزيرة يُمدّونه ، ثم انتهى الأمر بهؤلاء وأولئك إلى الفرار . هذا ، ثم إن قيسارية ظلت في موقعها الحصين على شاطئ البحر تقاوم قوّات المسلمين وتهدد مراكزهم بفسططين إلى أن افتتحتها معاوية بن أبي سفيان . لم يكن لعمر ، وذلك كان شأن سورية وفسططين إلى أخريات السنة السابعة عشرة من الهجرة ، أن يغامر بإرسال قوّاته من الشام لمواجهة الروم بمصر . أتراه يُقدّم على هذه المغامرة إذا فتح الله عليه الشام ؟ كان يتردد في هذا ، وكان يجد من عثمان بن عفان ومن غيره من الصحابة المقيمين بالمدينة من يزيده دون الإقدام والمغامرة تردداً .

فلمّا خضعت الشام كلها طراً سبب جديد أبقاه في تردده ؛ فقد فشلت الجماعة في شبه الجزيرة وهددت أهلها بالفناء ، فشغلت عمر عن التفكير فيما سواها . وكيف يفكر في غزو الروم بمصر والناس في شبه الجزيرة جميعاً لا يصلحون مدداً لأي جنود يواجه الروم أو يواجه الفرس ! . ولم تكد الجماعة تيقض حتى فشا طاعون عمّواس بفسططين وامتدّ منها إلى الشام والبصرة ، فأزعج عمر والمسلمين جميعاً ، حتى لقد ساورتهم الخشية من انتقاص العراق والشام بهم ؛ ورجعة الفرس والروم للقضاء ثمّ على سلطانهم . وكان طبيعياً أن ينسى عمر في أثناء الجماعة والطاعون كل ما حدثه به عمرو بن العاص عن مصر ، وأن ينصرف كل الانصراف عن التفكير في غزوها .

ولزم ابن العاص الصمت في أثناء هذه الحوادث فلم يخاطب عمر في غزو مصر . لكن الأمل في إقناع الخليفة عند سnoch الفرصة لهذا الفتح العظيم ظلّ مع ذلك ماثلاً أمامه . ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها ، وبرأت الشام من الوباء وجاء الخليفة إليها يصلح شؤونها وينظّم جندها ، لقيه عمرو بالجابية وسار معه في أرجاء البلاد وعاد يحدثه في فتح مصر ويُدلى إليه بمحجج جديدة حسبها تُزيل تردده . فلو أن المسلمين قنعوا ، بعد الذي أصابهم من هول الجماعة والطاعون ، بالاستقرار في البلاد التي فتحوها لظن



أعداؤهم بهم الضعف ، ولأغرام هذا الظن بمهاجتهم . وهذا الأطربون بمصر قد جمع إليه الجند وأعد للقتال العُدَّة ، فإذا لم يجد من يهاجمه خرج في قواته إلى فلسطين يقاتل المسلمين . أليس الخبير أن يفاجئه المسلمون في مأمته ؛ فلهجوم خير وسائل الدفاع ؟ وإذا تقدمت قوات العرب لغزو مصر أيقن الروم أن المسلمين لا يزال بأسهم شديداً كما كان ، فهابوهم ووقفوا منهم موقف المدافع . بذلك تأمن الشام رجعتهم لغزوها . وكيف لم يقل أن ينقل الجند على السفن من مصر إلى أنطاكية أو غير أنطاكية والمسلمون يهاجمونه في مصر نفسها ! فإذا فتح الله مصر يوماً للمسلمين وأورثهم إياها ، وذلك ما يؤمن ابن العاص به ، فذلك الفوز الذي لا فوز يمدله ؛ وإن تكافأت القوتان فطلب الروم الصلح ، أمّن المسلمون جانبهم في الشام وفي جزيرة العراق ، وفي سائر الأجزاء التي حانت من قبل بأسلحة أمير المؤمنين . ولا خوف من أن يهزم المسلمون في مصر وأن تؤدّي هزيمتهم إلى كارثة تضيق ما كسبوا من ملك قيصر ؛ فقد أصبحت الشام كلها حصينة بقوات المسلمين المنتشرة فيها ، وبانضمام العرب من أهلها إلى بني عمومهم في الدفاع عنها ، وباطمئنان غير العرب من أهلها إلى أن المسلمين خير من الروم حكماً ، وأكثر منهم عدلاً وإنصافاً .

سمع عمر إلى هذه الحجج وقلتها في نفسه فمالت به إلى مشاركة ابن العاص في رأيه . وزاده ميلاً إلى هذه المشاركة ما رآه من إيمان عمرو بالقدرة على فتح مصر إيماناً مستنداً إلى منطق تتعدّر معارضته . هذا إلى أن الإغراء بفتح مصر شديد ؛ فقد كان عمر وكان كثيرون من العرب في عهده يعرفون الشيء الكثير عن مصر وثروتها ، وعن برّ أهلها بسطان الروم وأساليب حكمهم . لذلك لم يرفض طلب عمرو ، ولكنه استمهله حتى يكتب إليه بعد عودته إلى المدينة . وأقام ابن العاص ينتظر هذا الكتاب ويدبّر في أثناء انتظاره حُطّة السير إلى مصر .

كان عمرو وكان كثيرون من العرب يعرفون الشيء الكثير عن مصر . ولم يكن علمهم بها مقصوراً على ما ينقله عنها من يذهبون في تجارتهم إليها من أمثال عمرو بن العاص ، بل كان أوسع من ذلك مدى وأكثر دقة وإحاطة . فبين مصر وبلاد العرب صلوات

ترجع إلى أقدم الحقب . ذلك أن مصر كانت دولة بحرية منذ عهد الفراعنة ، فكانت أساطيلها الحربية والتجارية تشق عُباب البحرين الأبيض والأحمر من أقدم عصور التاريخ . وكانت سفن من هذه الأساطيل تذهب إلى الجنوب من بلاد العرب تحمل إليه التجارة ونجىء منه بمختلف السلع ، وفي مقدمتها العطور والروائح التي توضع في حنوط الموميات . وكانت هذه السفن تسير وترسو من حيث تقع القُصير اليوم ، ثم يُنقل ما نجىء به إلى مصر في طريق امتد في عهد الأسر الفرعونية الأولى بين القصير على البحر الأحمر وقِط على ضِفة النيل . وقد أثبت الأثر يون ماسجلته نقوش الكرنك وطائفة من المعابد المصرية من صور لهذه السفن المصرية وما تحمل من تجارة ، كما أثبتوا ماسجلته نقوش الدير البحري من قيام الملكة الفرعونية ( هاناسو ) بشق طريق ملاحى يصل النيل بالبحر الأحمر عند خليج السويس ماراً بالبحيرات المرة . وفي هذا الطريق الملاحى كانت السفن تنتقل بين البحرين الأبيض والأحمر ؛ تحمل تجارة مصر والمغرب إلى الشرق ، وتحمل تجارة مصر والشرق إلى الغرب . فكانت مصر يومئذ ، أكثر مما هي اليوم ، مركز التجارة للعالم المعروف كله ، وكان تيسير الانتقال لهذه التجارة بعض ما يؤليه ملوكها أعظم العناية . ولم تكن الأساطيل البحرية وحدها أداة هذه الصالات القديمة المتصلة على القرون بين مصر وبلاد العرب ، بل كان برزخ السويس أداة اتصال بينهما لم تنقطع في عصر من العصور . وكان في شبه جزيرة سيناء طريق عبده المصريون القدماء إلى مناجم النحاس الواقعة بها ، وكان هذا الطريق يجرى في شمال الحجاز حتى يتصل عند تيناء بالطريق المؤدى إلى بابل على شاطئ الفرات وكانت بابل وكان العراق كله تابعاً لمصر في عصور مختلفة ؛ فكان هذا الطريق وسيلة الصلة بين البلدين في التجارة ، كما كان سبباً لنشوب الحرب بينهما في بعض العصور .

وكان هذا الطريق الممتد من سيناء في شمال الحجاز يتصل كذلك بطريق القوافل المنحدر إلى مكة وإلى اليمن ، وفي هذا الطريق كان جانب كبير من تجارة مصر وبلاد البحر الأحمر ينقل إلى اليمن وفارس ، وإلى الهند وبلاد الشرق الأقصى ، كما كان جانب عظيم من تجارة اليمن وفارس والهند والشرق الأقصى ينقل إلى مصر وبلاد البحر الأبيض

في الطريق عينه ، فكان المصريون الذين يصحبون تجارتهم يجتازون بلاد العرب أثناء سير القوافل بها ، وكان العرب الذين ينقلون متاجر الشرق إلى مصر يدخلونها بقوافلهم ويقيمون بهارثما يعودون منها بتجارة جديدة ، وكان ذلك يحدث من أقدم العصور ، ثم ظل متصلاً مع إلف الناس البحر ونقلهم التجارة في السفن على متنه .

ومؤرخوا العصور القديمة يذكرون أن هذا الاتصال أدى إلى استقرار عدد غير قليل من العرب ببوادي مصر منذ عهد الفراعنة ، وإلى استقرار جالية من المصريين عند واحة على طريق القوافل ، وأن هذه الجالية كانت النواة التي نشأت حولها مدينة يَثْرِب ، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

لم تكن صلة التجارة وحماية القوافل هي وحدها التي ربطت بين العرب والمصريين في العصور القديمة ، بل ربطت بينهما كذلك صلة رحم إن نسيها أهل اليمن لم ينسها أهل الحجاز ، وما كان لأهل مكة بخاصة أن ينسوها . فإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أبو العرب ، و « هَاجِرٌ » أمُّ إسماعيل مصرية صميمية . فقد ارتحل إبراهيم مع زوجته « سارة » من العراق إلى فلسطين ثم إلى مصر ، فأهدى إليه ملكها هَاجِرَ ، فولدت له إسماعيل . وغضبت سارة حين رأت إبراهيم يسوّى بينهما وبين هاجر ، فأقسمت لانتساكنها ، فذهب إبراهيم بهاجر وابنها إلى بلاد العرب وأنزلها بالوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وتزوج إسماعيل فتاة ولوداً من جُرْهُم أعقبت له اثني عشر ولداً هم آباء العرب المُسْتَعْرَبَةِ . فهؤلاء العرب ينتمون من ناحية خؤولتهم في جُرْهُم إلى العرب أبناء يَعْرُب ابن قحطان ، وينتمى أبوهم إسماعيل من ناحية خؤولته إلى مصر .

نزل إبراهيم مصر وانتقل بهاجر إلى بلاد العرب ، فربط بين الجنسين برابطة النسب لمائة وألفى سنة قبل مولد المسيح ، وأضاف بذلك صلة جديدة إلى صلة التجارة القائمة بين الشعبين من أقدم الحقب . وبعد قرنين اثنين من هذا النسب نشأت بين الشعبين صلة سياسية تركت أثراً باقياً على التاريخ ؛ فلوك مصر الرعاة « الهكسوس » عرب نزحوا إلى فلسطين واستقروا بها ، ثم ساروا منها إلى مصر فغزوها وأقاموا بها مُلْكَاً دام خمسة قرون متعاقبة ، من أوائل القرن اللتتم العشرين إلى أواخر القرن الخامس عشر قبل

الميلاد . وقد ظل ملكهم ممتداً في وادى النيل كل هذه القرون ، ثم أجلاهم المصريون عنه ، فخرجوا من مصر وقد بلغ عددهم قرابة ربع المليون . ويذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء الهكسوس هم بنو إسرائيل ، وأن قصة يوسف الصديق حدثت في عهدهم . ظلت هذه الصلات في التجارة والسياسة والنسب متصلة بين مصر وبلاد العرب ، تضعف حيناً وتقوى حيناً آخر . وقد أضعفها استيلاء الروم على مصر زمنياً ، ثم عادت إلى مثل ما كانت عليه . ذلك أن العرب ظلوا يقومون برحلة الصيف إلى الشام ، ثم كان منهم من ينحدر من طريق القوافل عند أيلة ( العقبة ) إلى مصر ، وكان أكثرهم يسيرون إلى الشام ، فإذا بلغوها وقضوا وطراً من تجارتهم فيها توجهوا إلى مصر . وذلك ما كان عمرو بن العاص يصنعه في الجاهلية وفي الإسلام .

ولم يكن طريق البحر أقل إدامة للصلة بين مصر وبلاد العرب من طريق القوافل ؛ فقد كانت السفن عليها الملاحون المصريون ترسو بجدة وغيرها من فُرُصات بلاد العرب ، تبادلها التجارة ويأخذ الملاحون منها ما يحتاجون إليه من أقوات . وأدت هذه الصلات إلى نزول بعض المصريين ببلاد العرب وإقامتهم بها ، كما كان بعض العرب الذين يذهبون في رحلة الصيف ينزلون مصر ويقيمون بواديهما . وكُتِبَ السيرة تذكر أن السيل طغى على بناء الكعبة قهتّم اسنوات قبيل مبعث النبي العربي ، وأن البحر رمى إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومي اسمه « باقوم » فخطمها ، فابتاع أهل مكة أخشابها لإدخالها في بناء الكعبة ، واستعانوا بقبطيٍّ يقيم بمكة ويعرف بنجر الخشب وتسويته ، فوافقهم على أن يعمل لهم وأن يعاونه « باقوم » . ولم يكن هذا القبطي المصري الوحيد المقيم بالبلد الحرام . كان العرب بحكم هذه الصلات يعرفون الشيء الكثير عن مصر . وقد تحدّث القرآن عنها في مواضع كثيرة منه ، فزاد السامعين بها علماً . لقد كانوا يعرفون عن نهريها العظيم ، وأرضها المعطاء ، وزروعها الناضرة ، وخيراتها الوفيرة ما يذكره لهم أهلهم الذين يتجرون بها . فلما أورد القرآن قصص يوسف وموسى زادهم بحديث أهلهم علماً وتثبيتاً . يقول تعالى في سورة الدخان تعقيماً على ما كان من غرق فرعون وقومه : ﴿ كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانكِهَيْنِ ﴾ . ويقول في سورة

الزخرف : ( وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ) . ويقول على لسان بنى إسرائيل : ( وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِجُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ) . وبذكري غير موضع صروح مصر وآثارها ، ويشير إلى تاريخها وعبادات أهلها . وهذه الآيات ومثلها ماورد في وصف مصر إنما ورد حين قص القرآن حديث إبراهيم ويوسف وموسى والأنبياء ، فأثار في نفوس المسلمين صورة مصر الطبيعية ، كما أثار في نفوسهم صورة من تاريخها منذ أقدم العهود إلى عهدهم .

أعاد حديث موسى إلى ذاكرتهم صورة من حياة ابن عمران منذ مولده ، وبعد أن أسر فرعون بقتل كل مولود ذكر في مملكته واستجابة لمن فسروا له أضغاث أحلامه . فقد ألفت أم موسى رضيعها في النيل ، فالتقطه آل فرعون وعنوا به ، فلما شب موسى نصر رجلا من قومه بنى إسرائيل على مصري ، فوكل المصري قضى عليه ، فقتل نفساً بغير حق ، وفر موسى مخافة المصريين ، ونزل مدين فتزوج ابنة شيخها وآجره عشر حبيح عاد بعدها من طريق الطور يريد مصر ، فقاداه ربه من جانب الوادي الأمين وألقى عليه رسالته . وذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون وملائته يدعوانهم إلى الله ، فاستكبر فرعون ونادى في قومه : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ » ، وقال لوزيره : « يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا تَعْلَىٰ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا » . وأظهر موسى معجزاته ، فدعا فرعون السحرة ، فلما رأوا عصا موسى تلقف ما صنعوا آمنوا به . واتبع بنو إسرائيل موسى ، فرأى فرعون في بقائهم إثارة للفساد في الأرض ، فأراد القضاء عليهم . وفر موسى وبنو إسرائيل يريدون أرض المَعَاد ، فأتبهم فرعون وجنوده فأغرقه الله في اليم ، فهلك تاركا وراءه جنات وعيونًا وزروعًا ومقامًا كريمًا ونعمة كان هو وقومه فيها فاكهين .

وذكر العرب بحديث يوسف ما بمصر من نعمة وترف كان لحكامها منها الحظ الأوفى .

فقد ابتاع عزيز مصر يوسف ، فأنزله امرأته منزلة السكرامة عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولداً . فلما ترعرع وبدت فتنة جماله جئت به امرأة العزيز غراماً . « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْنِ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستعصم وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » . وأصرَّ يوسف على إباته فسُجن ، فلم ير النسوة اللاتي قطعن أيديهن ما يدفعن إلى لوم المرأة المفتونة به على ما فعلت . ولبت في السجن بضع سنين ، ثم خرج بعد أن فسر رؤيا الملك : سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجافٍ وسبع سنبلاتٍ خضرٍ وأخرًا يابسات ، فقال : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ » . وجعله الملك على خزائن الأرض ، فأحسن تدبيرها حتى عاد إليها النماء والخصب كأحسن ما كانت ، وحتى عادت جنة ناضرة تنبت أرضها من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ما شاء الله أن تنبت . في هذا الحديث عن يوسف وعن موسى صورة من طبيعة مصر وثروتها ، ومن عبادات أهلها وعقائدهم ، ومن عاداتهم وأخلاقهم ، ومن تاريخهم وصورة الحكم فيهم في العصور الأولى . وإنما أوجزنا فيما تقدم بعض ما ذكره القرآن عن مصر . وطبيعي أن يتتبع المسلمون الأولون كل ما جاء فيه عنها ، وأن يثير تدبُّعهم في نفوسهم كل ما يذكرونه من أمرها . وكان اليهود والنصارى يجادلونهم في أمر موسى وعيسى والأنبياء وما ورد في القرآن عنهم ، فيزيدهم الجدل علماء ، ويزيد علمهم بمصر فسحة وعمقا .

ولم تكن معرفة المسلمين مصر مقصورة على ما كان من أمرها في العصور الأولى ، بل كانوا يعرفون من أمرها في زمانهم أكثر مما يعرفونه من تاريخها . ذلك أن العرب كانوا يتابعون ما يجري بين فارس والروم بعناية بالغة ، حتى لقد انقسموا في ذلك أحزاباً

يتشيع فريق منهم لفارس وفريق للروم . فلما كان العقد الثاني من القرن السابع وانتصر الفرس على الروم وفتحوا مصر والشام ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث ، وكان خصومه يتشيعون للفرس ويذكرون أن الروم هُزموا لأنهم أهل كتاب كالمسلمين . وتشيع المسلمون للروم ، واشتد تشييعهم لهم حين نزل قوله تعالى : ( غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سنِينَ ) . وأقام الفريقان يتابعان ما يجري بين الدولتين العظيمةتين ، ويعلقان بما يعين لهما على ما يبلغهما من أنباء الوقائع التي تشتبك فيهما .

وقد اتصل القتال بين الدولتين في مصر زمناً غير قليل . ذلك لأن الفرس دخلوها في سنة ٦١٦ لميلاد المسيح ، وأقاموا بها تسع سنوات حتى أجلاهم هِرَقْل عنها وعن الشام وفي أثناء هذه السنوات كان المسلمون يمدون أبصارهم إلى تلك الأرجاء ، مؤمنين بأن الروم سيفلبون الفرس لا محالة ، كما أوحى الله إلى نبيه . فلما تمت كلمة ربك وارتد الفرس إلى بلادهم كان رسول الله قد هاجر إلى المدينة ، وكانت سراياه تسير منها إلى ماحولها . فلما استتب له الأمر ، بعث رسله إلى كِسْرَى وإلى قَيْصَرَ وإلى ملوك الحيرة وِغْسَانَ وإلى أمراء الجنوب من شبه الجزيرة وإلى حاكم مصر يدعوهم جميعاً إلى الإسلام . وقد بلغت النظر أن المَقْوِس حاكم مصر كان أجمل الملوك والأمراء ردّاً على رسالة النبي وأكثرم مجاملة له . وقد بعث مع حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي إليه بكتاب يشير فيه أنه يعتقد أن نبياً سيظهر ، ولكنه ظن أنه سيظهر في الشام ، ويذكر أنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث بهدية : جارتين وبغلة بيضاء وجمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر<sup>(١)</sup> . وقد اصطفى محمد مارية القبطية إحدى الجاريتين لنفسه ، فولدت له إبراهيم ، فرفعهما إلى مقام زوجاته ، ثم كانت يقول : « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمّةً ورِحاً » .

(١) فصل ابن عبد الحكم في « فتوح مصر وأخبارها » سفارة حاطب إلى المقوقس ، وأورد نص الكتاب الذي حمله حاطب فيما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ! أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتاك الله تاجرك مرتين . ( يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً »

واختيار النبي حاطب بن بلتمعة لأداء رسالته إلى المقوقس ، واختياره عمرو بن العاص في الوقت نفسه رسولا إلى ملكي عُمان ، بشهد بأن حاطباً كان كثير التردد على مصر في التجارة ، ويبعث على الظن بأنه كان يعرف لغة المصريين . ولو أن عمرو بن العاص كان أهدى بهذه البلاد وأكثر علماً ببلغة أهلها لآثره النبي على حاطب ولاختاره رسولا إلى المقوقس .

ولا ريب في أن المسلمين قد ازدادوا معرفة بمصر وعلماً بما فيها بعد أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وبعد أن فتحوا العراق والشام واستقرّوا بهما واتصلوا بأهلها مدى السنوات التي انقضت قبل أن يفتح عمرو بن العاص أمير المؤمنين في فتح مصر . فقد ظلّ الفرس حُكّاماً لمصر عشر سنوات قبل أن يُجلبهم هِرقل عنها ، فمروا من مواقعها وحصونها وثروتها وحضارتها ما أفضوا به إلى العرب الذين اتصلوا بهم من بعد . وكانت الصلة بين مصر والشام وثيقة ؛ إذ كانتا جميعاً في حكم الروم ، وإذ كان أهل الشام يذهبون إلى مصر يبادلون أهلها التجارة . وقد عرف المسلمون منهم ما يعرفونه هم عن مصر . لذلك كانت صورة مصر واضحة في ذهن عمر ، وفي ذهن بن العاص ، وفي ذهن كثيرين حين بدأ عمرو يفتح الخليفة في فتحها .

وكانت هذه الصورة مغرية أيما إغراء ؛ فقد كان خصب مصر ووفرة إنتاجها مضرب المثل في العالم كله ؛ وكان ما يفيض عن حاجات أهلها من القمح والشعير وغيرهما من أنواع الغلال يغذّي الإمبراطورية الرومية . ثم إنها كان بها غير الغلال أرزاق لا تحصى ، وكانت ثروتها من الأحجار والمعادن فوق الحصر . وقد كانت ، مع خضوعها لسلطان الروم

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ) . وما رواه ابن عبد الحكم أن المقوقس خلا بجاطب ليسة وسأله عن صفة النبي . فلما ذكرها حاطب له قال : « قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك تخرج الأنبياء من قبله ، فأرام قد خرج في العرب أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في أتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمجاورتني لياك ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ماها هنا ، وأنا لا أذكر للقبط من ذلك حرفاً ، فارجع إلى صاحبك » . فلما أصبح دعا كاتباً يكتب بالعربية فكتب : « محمد ابن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام . أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بقلعة لتركبها والسلام » .



وما كان من اجتياح الفرس أرضها في قتالهم قيصر ، أعظم مركز في العالم اجتمع فيه العلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة اجتماع نماء وازدهار يأخذ بالنظر ، ويستهوى اللب . وكانت عاصمتها الإسكندرية قد احتفظت بكل ما كان لها يوم أنشأها الإسكندر المقدوني من بهاء وجمال ، وأضافت إليه في أنشاء القرون العشرة التي انقضت منذ إنشائها مازادها جلالاً وعظمة ، وما جذب الناس من أقطار الأرض للعقام بها . فكان سكانها يزيدون على المليون ، وكانوا يمثلون الأجناس والعقائد المختلفة المعروفة لذلك العهد . فلم يكن المصريون أخلص منهم يزيدون على نصفهم ، وكان النصف الآخر من الروم واليونان والفينيقيين والعرب وغيرهم ؛ ومن هؤلاء من كانوا يدينون باليهودية ، ومنهم من كانوا يدينون بالمسيحية ، وكلهم يعيشون في جو المدينة الساحر مطمئنين إلى رخائها وجمال عظمتها . وأية عظمة وأى جلال ! كانت منافرتها الكبرى ، منارة فاروس إحدى عجائب الدنيا السبع . وكان بها من المعابد الضخمة وساحات الفن الفسيحة والقصور الفخمة والمسارح والحمامات العامة مالا يقع تحت حصر . وكان ذلك كله يبهر السائح القادم إليها من أعظم المدن رقيًا وحضارة . وكانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثوره ازدحامًا بالحركة . وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتان والورق والزجاج ، وغير ذلك من مزروعات مصر ومصنوعاتها ، ثم كانت تحمل إليها مقادير كبيرة من الذهب والعاج مجلوبة من بلاد النوبة وإثيوبيا ، ومن أنواع البهار والحريير والفضة والجواهر وغيرها آتية من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر ، متنقلة إلى النيل في القناة التي تصل ما بين البحرين ، جارية بعد ذلك فوق النهر العظيم إلى الإسكندرية .

لم يكن عجيبًا ، وتجارة الإسكندرية بهذه الضخامة ، أن تكون ميناؤها أكبر موانئ العالم ، وأن تكون صناعة السفن أكبر صناعاتها . كانت ميناؤها تتسع لاثني عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام . وكان بناء السفن فيها متصلًا لا ينقطع في يوم من أيام العام . وكان الخشب اللازم لبناء السفن يُحمل إليها من الشام ، وكانت مصر تبت نوعًا متينًا من الكتان اسمه « الدقس » تصنع منه حبال السفن وتنسج قلاعها . وكانت السفن الحربية تصنع بالإسكندرية كما كانت تبنى بها السفن التجارية .

وكان يبني بها من السفن الحربية نوطان : أحدها ضخمة تحمل السفينة منه ألف رجل والآخر خفيف تحمل السفينة منه مائة رجل . وكان النوطان يجهّزان بالآلات تقذف « النار الإغريقية » المهلكة الملوثة من مواد سريعة الالتهاب شديدة الاشتعال لا يمكن إطفائها ذات قوة على النفس والتحريق ، تُحدث تخريباً كبيراً ، وتُلقى في النفوس الرعب . وكان في بعض السفن الضخمة صروح عالية فوق ظهرها ، فإذا حازت إحداها أسوار مدينة محصنة كان جنود السفينة مع المدافعين عن المدينة علّوا سواء ، فأمكنهم أن يتنابوا من الصروح إلى الأسوار ، أو يقيموا جسراً من الصرح والأسوار يعبرون عليه .

أما السفن التجارية التي كانت تصنع بالإسكندرية فكان بعضها يبلغ من الضخامة أن يحمل أربعة آلاف إردب من القمح : وكان الكثير منها يسير بالتجارة في البحر الأحمر ، ويسو في فُرُضات شبه الجزيرة ، فينقل بما يحمل من التجارة الناتجة في مصر أو المجلوبة إليها صورة من حياة هذا الشعب المصري الدائم الدأب والجِدِّ إلى عرب الحجاز وعرب اليمن حضرم وبدوم .

لم يكن النشاط التجاري والصناعي كل ما امتازت به الإسكندرية على غيرها من مدن العالم ! فقد كانت ، منذ أنشأها الإسكندر الأكبر واستقرّ بها البطالسة إلى أن فتحتها العرب ، مركز النشاط العقلي والعلمي في العالم كله .. صحيح أن هذا النشاط كان يخبو أحياناً ويضطر أحياناً أخرى ، وأن بعض المدن كانت تشارك فيه الإسكندرية في بعض الحقب ، وبخاصة أيام حكم الرومان مصر . لكن العاصمة المصرية ظلّت دائماً مرجع هذا النشاط ، وظل أبنائها من العلماء والشعراء والكتّاب وأرباب الفن يوجهون الحياة العقلية في العالم عشرة قرون كاملة . إليهم يرجع الفضل في نشر الثقافة الإفريقية التي سبقت إنشاء مدينتهم ، وفي إقامة مذاهب جديدة يمتُّ بعضها بأوثق الصلة إلى مذاهب الإغريق ، ويخالف بعضها هذه المذاهب ، ويستقل بعضها بنفسه كل الاستقلال . ولم يكن ذلك عجيباً وقد كانت الإسكندرية ملجأ العلماء ورجال الفن والأدب من كل أمة وملة ، وكان بها من المكتبات العامة ومن مناهل العلم ومدارسه ما لم يكن لغيرها .

وقد سمت مدرسة الطب في الإسكندرية إلى مكانة لم تشمُ إليها مدرسة أخرى

في العالم كله ؛ فكان الأطباء الذين يخرجون فيها مشهوداً لهم ، وكانوا موضع الإكبار حينما أنزلوا من بقاع الأرض . كذلك ازدهرت فيها دراسات الفقه والإلهيات ازدهاراً بدأ واضحاً في المذاهب الفلسفية التي اختصت بها مدرسة الإسكندرية ، والتي حاولت التوفيق بين المسيحية في أساسها الروحي ومذاهب الإغريق الفلسفية المستندة إلى منطق العقل وحده . وكان ازدهار الفقه لذلك العهد بعض ما قويت به النزعة الدينية التي أقامت مصر وأقعدتها . ووقفتها في وجه الروم وقفة بلغت قبيل الفتح العربي حدة العنف . وكان الفلك والرياضة وتقويم البلدان والهندسة من فروع العلوم التي تُدرّس في معاهدها . وقد وضع علماءها مؤلفات لم يبق منها إلا ما ذكره المؤرخون من بعد عنها . هذا إلى تعلق الكتاب والأدباء بالشعر تعلقاً جعلهم يفتنون فيه . وجعل العلماء أنفسهم ينظمون العلم شعراً . لا عجب ، وذلك شأن العلوم والآداب ، أن تزدهر الفنون وأن يزداد أهلها براعة ، وأن تظهر آثارها في نشاط أهل الإسكندرية وفي حياة مدينتهم . وقد اشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة الأولين ببراعة بنائها في هندسة العمارة ، فكان طبيعياً أن تجمع عمارة هذا العهد المسيحي بين جلال المعابد القديمة وزخرف العمارة الإغريقية ، وأن تُجَمَّل مباني الإسكندرية بالرسم المصري البديع ونقوش الفسيفساء ذات الألوان ، والفسيفساء الزجاجية والحق أن تنظيم الإسكندرية وعمارتها كانا من الروعة بما يقف النظر. ويهر الفؤاد : فقد حُطِّطت على صورة رقعة الشطرنج : ثمانية طرق تجرى بين الغرب والشرق ، تقاطعها ثمانية أخرى تجرى من الشمال إلى الجنوب ، والطريقان المتوسطان منها فسيحان تقوم على جانبيهما أنعم مباني المدينة وحصونها وقصورها وكنائسها مشيدة من مرمر ناصع البياض يعشى النظر دونه ، فكان ظاهر أكثرها يُغطَّى نهاراً بنسيج أخضر من صناعة مصر .

هذه صورة من عاصمة مصر لذلك العهد . وهي تشهد بترف أهلها وسمو مكانتهم في الحضارة ، وبأنها اجتمع لها من ألوان الثقافة ومتاع العقل ومالم يجتمع لغيرها من عواصم العالم يومئذ . فقد كانت تتجاوز فيها المذاهب الفلسفية والدينية المتناقضة جوار كفاح كلامي لم يبلغ حد العنف في غير اليهود التي حاول الأباطرة فيها أن يفرضوا مذهبهم

على أهل مصر . أما في غير هذه العهود فكان التراشق الجدليّ أقصى ما بلغه النضال بين أصحاب هذه المذاهب . كان الأبيقوريّون يدعون إلى المتاع بالحياة والنهل من موردها السائغ ، لا يُنسيهم المتاع أن الحياة سخريّة مستطابة ونعيم قتال . وكان الرّواقيون يسخرون من الأبيقوريين ويدعون للزهد في المتاع لأنه يتلف العقل ويفسد طهارة النفس . وكان المتطهرون من المسيحيين يناون بجانبهم عن مغريات المدينة ، ويلتمسون في عزلة الصحراء القريبة منها سكينه نفوسهم وطمأنينة قلوبهم . أما في عهود الاضطهاد الديني فكان الأمر مختلف ، وكثيراً ما كانت تُصبح الإسكندرية الرافلة في حلل النعيم مسرحاً لاضطرابات تفسد جوّها المرح ، وتُشيع فيها القلق والفوضى .

وكان الاضطهاد الديني منتشرًا في مصر وفي عاصمتها حين كان ابن العاص يحاول إقناع الخليفة بفتحها . ذلك أن هرقل لم يلبث ، حين انتصر على الفرس وأعلى الصليب في بيت المقدس ، وحين رأى الأنظار تُشدُّ إليه من أرجاء العالم المسيحيّ كله لينتقد المسيحية مما ألمّ بها ، أن فكر في توحيد المذاهب المسيحية وصوغها مذهباً واحداً . وقد تحدّث في هذا الأمر إلى بطارقة الشام وبزُنطية ممن يمثلون شتى المذاهب المسيحية ، ثم دعاهم إلى مجمع « خلقدونية » فأقروا مذهباً مسيحياً موحدًا . عند ذلك جعل بطرقة الدين في الإسكندرية لقيس أسقف فاسيس في بلاد القوقاز ، وطلب إليه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمي « الموحد » . غير أنه لم يقطن إلى أن مذهبه الذي حاول به التوفيق قد تأباه كنيسة مصر ، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم للجماعة أن يرغمهم عليه ويقذف به في حلوقهم ، إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ ذاقوه . وعلى أي حال قد كانت هذه خُطته في مصر والشام ، وكان من رأى ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغي للدولة أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه على أمرها<sup>(١)</sup> .

كان نينامين<sup>(٢)</sup> كبير أساقفة القبط بمصر إذ ذاك ، وكان حبيباً إلى الناس عزيزاً

(١) فتح العرب لمصر لألفريد بتر ، ترجمة فريد أبوحديد ؛ ص : ١٥٥ .

(٢) وبنض المؤرخين من العرب يسونه أبوميامين .

عليهم ، وكان رجلاً ذكياً محبباً للخير والفضل ، قاسياً على القسوس والشمامسة من أهل العناد والكبر ، شديد التعصب للمذهب المسيحي الذي يؤمن المصريون به ، مذهب اليعاقبة الذي يقول : « إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا في المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ؛ فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة » . وهذا المذهب يخالف مذهب الملكانية الذي يقول : « إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره . والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحداً وهو المسيح » . فلما قدم قيرس الإسكندرية في خريف سنة ٦٣١ ، ليحل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمي ، فرّ بنيامين من الاسكندرية ، وسار متخذاً من الأديار المنتشرة بالصحراء ملجأه حتى بلغ قوص ، وهناك أقام بدَيْرٍ صغير قريب منها قائم في الصحراء تحميه الجبال فلا يسهل الوصول إليه .

كان فرار بنيامين نذيراً أزعج القبط وأفزح أهل الدين منهم ، فرأوا في دعوة قيرس إلى المذهب الجديد كفرًا لا كفر بعده . ولم يُعْنِ عن قيرس تظاهره أول ما نزل مصر بأنه جاء مسلماً ، وأنه لا يفرض المذهب بالقوة بل يدعو إليه ويحاول الإقناع به ؛ فقد تنكر له القبط اليعاقبة وتنكّر له الملكانيون على سواء ، ورأوا جميعاً في دعونه بدعة هي الضلالة بعينها . وازداد الناس نفورا من هذه البدعة حين جاء صُفْرَنْيُوس من بيت المقدس إلى مصر ، وقام على رأس الملكانيين فيها . فلما جمع قيرس مجلساً دينياً بالاسكندرية ودعا أعضائه لبحث ما يدعوم إليه أظهر صُفْرَنْيُوس أنه يحاول أن يثني قيرس عن عزمه ، بالحجة تارة وبالتوسل أخرى . ورأى قيرس نفور شعب من دعوته وعداوته لها ، فلجأ إلى البطش والتعذيب يُكره الناس بهما على الدخول فيما يريدنهم عليه .

لجأ قيرس إلى البطش والتعذيب ، ولج في « الاضطهاد الأعظم » عشر سنوات حُسوماً . وكان التعذيب وحشياً لم يعرف عصر من العصور مثله . عُدِّبَ أخو الأسقف الأكبر بنيامين بأن أوفدت له المشاعل وسلّطت على جسمه ، فأخذ يخرق حتى سالت دهنه من جانبيه إلى الأرض ، فلما لم يترزعزع إيمانه خُلعت أسنانه ووُضِعَ في كيس مملوء بالرمل وحمل إلى الشاطئ ، ثم عُرِضت عليه الحياة إذا آمن بالمذهب الجديد فأبى . وتكرر

العرض وتكرر الإباء مرات ثلاث ألقى العابد بعدها في البحر فمات غرقاً. وتلقى الأب صمويل في دير بالصحراء كتاباً يحمله إليه أمير فرقة عدتها مائة جندي يدعو إلى المذهب الجديد ، صمويل الكتاب وقال : « ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ، ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفار الذي جاء من الإمبراطور الروماني ، ولعنة الله على جمع خلقيدونية وكل من آمن بما أقره » . وضرب صمويل حتى ظن أنه مات ، لكنه عاد إلى نفسه وإلى محاربة قيرس . وأمر قيرس فجىء به مكتوف اليدين من خلاف وفي عنقه طوق من الحديد ، فسار مستبشراً وهو يقول : « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يُسَفِّكَ دمي في سبيل المسيح » . ثم جعل يسب قيرس لا يخشى شيئاً . ودخل قيرس فأمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه ، ثم قال له : « صمويل أيها الزاهد الشقي ، من ذا أقامك رئيساً للدير ، وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبي ؟ » وأجابه العابد : إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين لا في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني ، يا سلالة الطاغوت ! ويا أيها المسيح الدجال ! » . وأمر قيرس جنده بضرب صمويل على فمه وقال له : « لقد غرق يا صمويل أن رهبانك يُجِلُّونك ويُعلون من شأن زهدك ، ولهذا تجرأت وقويت نفسك ولكني سأشعرك أثر سبابك للعظاء إذ سؤلت لك نفسك ألا تؤدِّي ما ينبغي عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير حياة المال في أرض مصر » . وأجاب العابد : « لقد كان إبليس من قبل كبيراً على اللائكة ، ولكن كبره وكفره فسق به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدوني ؛ فإن مذهبك مذموم ، وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » . وضاق قيرس بكلام العابد ذرعاً فأوماً إلى الجند أن يقتلوه ؛ واستنقذه حاكم الفيوم من يديه فأمر به أن يُنْفَى من الأرض .

هاتان الصورتان من تعذيب أخى بنيامين وتعذيب صمويل تصفان بطش قيرس في الاضطهاد الأعظم . كان الذين يأبون الدخول في المذهب الجديد يُجَلِّدون ويعذبون ويُلقَوْنَ في غيابات السجون ويلاقون الموت . وكان أثر هذا الاضطهاد أن ازداد الناس كراهية لمرقل ولقيرس ، حتى لقد هاجر كثيرون من مصر إلى بلاد النوبة وإلى إثيوبيا

فراراً إلى الله بدينهم . أما الذين لم يستطيعوا الفرار ولم يُطيقوا العذاب ففتنوا عن دينهم كارهين ، فأظهر كثيرون منهم غير ما يُبطنون . وقد خُدع غير هؤلاء وأولئك بساطان المال والجاه ، فارتضوا المذهب الجديد ، لا حباً فيه ولا إيماناً به ، بل حرصاً على ما يُيسره لهم من مطامع هذه الحياة الدنيا . على أن ما تقميه الشعب في هذه السنوات العشر قد زرع في قلبه ليزنطية ولقيصر ولقيرس كراهية امتزجت بحياته ، وجرت مجرى الدم في شرايينه .

أفكان التعصب الديني هو وحده الذي دفع شعب مصر للنفور من المذهب الجديد كل هذا النفور ، ولحاربه هذا الحرب العوان ؟ قد لا يخطيء من يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب ؛ فالتوجه الديني أصيل في الشعب المصري بحكم طبيعته . كذلك كان شأنه في عهود الفراعنة ، وكذلك ظل شأنه على القرون . ولعل بساطة عقيدته ، مع تغير الأديان التي دان بها ، كانت ذات أثر في تمسكه بمذهبه ؛ فهو موحد من أقدم العصور ، وهو على توحيده يشعر بأن الإله الخالق المنعم جل شأنه أعظم من أن يسمو سواد الناس إلى الاتصال بذاته وإن تطهرت قلوبهم ، فلا بدّ من زُلْفَى تقربهم إليه ، وتحمّلهم منه محل الرضا .

لكن هذا التوجه الديني لم يكن وحده هو الذي دفع المصريين ليقاموا في سبيل مذهبهم ما قاوموا سنى الاضطهاد الأعظم ؛ فقد دانوا بالمسيحية بعد وثنيّتهم الفرعونية . ثم كان لهم في فقه مذهبهم القبطي بحوث تبخّر رجال الدين فيها ما تبخّر أسلافهم في العهود الفرعونية في فقه مذهبهم . ثم دانوا بعد ذلك بالإسلام ، فكان الفقه الإسلامي موضع عنايتهم به وتبخرهم فيه . ولم يُحمّلوا على المسيحية وعلى الإسلام بالاضطهاد والإكراه ، بل دُعوا إليهما بالحجة فأروا الخير في قبولها فقبولها . فالهم نقروا من مذهب هرقل الرسمي لأول ماعرض عليهم بالحسنى ، بل أبوا أن ينظروا فيه ؟ ثم ألهم قاوموه من بعد هذه المقاومة التي اضطرت قيوس إلى اضطهادهم وفتنتهم على الفحو البشع الذي رأياه ؟ .

لا ريب أنه كان للعامل السياسي في هذا الأمر أثر عظيم . فقد ضاق الشعب المصري بحكم الرومان ضيقاً أثاره برومية ثم بيزنطية ثورات عنيفة غير مرة . وهو لم يكن أقل ضيقاً بهذا الحكم قبل تغلب الفرس على فوكاس واستئثارهم بأمر مصر ولا بعد تغلب هرقل

على الفرس وإجلالهم عن مصر . فقد كان حكم فوكاس حكم بطش وإرهاق ثارت مصر به فأزرت هرقل في ثورته على القصر الطاغية . وقد شعر المصريون في السنوات العشر التي استقرت الفرس فيها بينهم بحرية لم يكن لهم بمثلها في عهد فوكاس عهد . ذلك أن الفرس تركوا لهم أمر الحكم على نحو من اللامركزية المألوفة في بلادهم ، وأعفوهم من كثير من الأعباء التي كانت تُرهقهم ، وإن أقاموا بينهم سادة متدالين . فلما انتصر هرقل على الفرس واسترد مصر ، فرح المصريون لأنهم مسيحيون مثله ، ولأنهم طمعوا في أن يذكروهم يدهم عند أيام ثورته بفوكاس ، وعظم رجاؤهم ألا يُرهقهم حكمه . لكنهم سرعان ما رأوا الحكم الروماني القديم عاد كما كان ، ورأوه شرًا من حكم الفرس بمراحل . لم يكتف صاحب السلطان من قبيل قيصر بأن يأخذ منهم غلاتهم ومصنوعاتهم ليرسلها إلى بزنتية مقابل الضرائب المفروضة عليهم ، بل اعتبرت الأرض ملكًا تُفرض على أصحابها جزية ، وإن شئت فقل تكليفاً ، يدفعونها أجراً للأرض التي يزرعونها . وربما احتل الناس الضريبة والجزية بشيء من الصبر أيام الرخاء . لكن مصر عادت إلى هرقل في سنى شدة وبأساء . فقد انتهى الاضطراب في عهد فوكاس إلى تعطيل القناة التي كانت تصل البحر الأحمر بالنيل فالبحر الأبيض ، ثم لم يُعِدّها الفرس ولم يعدها عمال هرقل ، فتدهورت التجارة تدهوراً أفلس بسببه كثيرون من اليهود واليونان المشغولين في أسواق الإسكندرية ، وتدهورت أسعار الحاصلات والمصنوعات في داخل البلاد تدهوراً أدى إلى أزمة انزعج لها الناس أيما انزعاج . وما قيمة صناعة الزجاج أو صناعة المنسوجات أو صناعة الورق من البردي ، أو غيرها من الصناعات المصرية التي كانت زاهرة في مصر السفلى وفي مصر الوسطى ، إذا لم تجد أسواقاً في الخارج لتصريفها ، واقتصر أمرها على أن تؤخذ جزية لقيصر ! لذا كره الناس حكم الروم ، وودّوا لو استطاعت مصر أن تتخلص منه وأن تستقل بنفسها . لكن الروم كانوا قد حرموا على مصر صناعة الأسلحة واستعمالها ، وكانت الطبقة المستتيرة من المصريين الموظفين في الدولة قد ذلت لوظائفها ، فلم يكن بدّ من التدرّج بوسيلة ينفّس بها الشعب عن نفسه ، وذلك بأن ينزع للثورة . وسرعان ما جاء قيصر بالذهب المسيحي الجديد يحاول فرضه



على مصر حتى هبَّ رجال الدين في وجهه يلعنونه . بذلك فتحوا للشعب باباً يُروى ظمأه للانقياض ، فكان الاضطهاد الأعظم الذي رأيت ، والذي زاد المصريين كراهية لقيصر ولقيصر ولحكهما ولذهبهما الجديد .

لم يكن علم ذلك كله ليخفي على أمير المؤمنين ولا على المستنيرين حوله من المسلمين . فقد دام الاضطهاد والتعذيب في مصر عشر سنوات ، بدأت قبيل وفاة النبي واستمرت طيلة خلافة الصديق ، وظلت متصلة في عهد عمر إلى أن دخل العرب مصر . وفي هذه السنوات العشر كان المصريون والعرب يتبادلون التجارة كما كانوا يفعلون من قبل ، فكانت أبناء العرب البارزة تبلغ المصريين ، وكانت أبناء المصريين البارزة تبلغ العرب . وزاد العرب علماً بأبناء مصر متآخرتهم لها بالشام . ولا جرم قد كان عمرو بن العاص من أكثر الناس بها علماً ؛ إذ كان مقيماً بفلسطين ، أدنى الأرض من ميدان الاضطهاد والتعذيب ، ومن ثورة المصريين بقيصر وبعثاله . لذلك لم يغب عنه أن شعب مصر المضطهد لن تأخذ منه الحماسة فيعاون الروم إذا قاتلهم العرب في أرض مصر ، وإن أيقن أن هذا الشعب لن يقاتل الروم في صف العرب من خشية أن تدور على العرب الدائرة . ولأنه ليس بينه وبين العرب صلة تثير الحماسة في قلبه ، فهو ليس من جنسهم ، وليست لغته لغتهم ولا عقيدته عقيدتهم .

وزاد ابن العاص اقتناعاً بما ظنّه من فتور المصريين عن نصرته الروم ما كان الناس في مصر وفي غير مصر يعرفونه يومئذ عن سياسة المسلمين ، وأنها كانت تدع الناس أحراراً في دينهم ، لا تحاول صرفهم عنه أو حملهم على تغييره ، فمن أهدى فإنما يهدى لنفسه ؛ ومن استمسك بدينه ورضى الجزية فله ما اختار . أما وقد كان الاضطهاد الديني دعامة الثورة بالروم تنلظي بها نفوس المصريين جميعاً ، فلا عجب أن يلقوا تسامح المسلمين الديني بالغبطة ، وأن يقفوا من قتالهم الروم موقف المتفرج : لا يُقبضون بالروم بمظاهرة المسلمين عليهم ، ولا تدفعهم لقتال المسلمين حماسة لعقيدة مشتركة بينهم وبين حكامهم ، أو طمأنينة إلى عدل يسوّى بينهم وبين هؤلاء الحكام .

لحق ابن العاص أمير المؤمنين حين جاء إلى الشام بعد طاعون عمّواس ، وسار معه

من الجابية في أرجاء فلسطين وسورية ، وجعل يعيد على سمعه ما كان قد فاتحه فيه من أمر مصر ، ويذكر له ما سبق إلى ذكره من حجج تؤيد رأيه ، ويدلّ إليه بحجج جديدة ، حتى انتهى عمر إلى الاقتناع برأيه ، وإن استمهله في تنفيذه حتى يكتب إليه من المدينة بعد عوده إليها .

وزاد عمرَ ميلاً إلى الاقتناع بهذا الرأي ما يعرفه من جرأة بن العاص في الحرب ، ودهائه في السياسة ، واقتداره لذلك على أن يسير بإذن الله في هذا الفتح سيراً موفقاً . وقد دلت الحوادث على أن أمير المؤمنين لم يخطيء في تقديره ، وأن شخصية عمرو وما اجتمع فيها من الدهاء والإقدام قد جعلته الرجل المختار في فتح مصر . فلم تكن جرأته في الحرب جرأة مغامرة كجرأة خالد بن الوليد . بل كانت جرأة الداهية الذي يرى النجاح في المكث أكثر مما يراه الخش ، ويرى المطاولة والصبر حتى تحين فرصة الإقدام ، وحتى يثق بأن النجاح خليف هذا الإقدام . هذا إلى أن دهاءه كان يجنبه إثارة غير المحاربين به ، فكان يؤثر ملايتهم في حزم على البطش بهم إلا أن يضطر إلى البطش اضطراراً فإذا اضطر إليه لم يتردد دونه ، على ألا يتجاوز به قدر الحاجة إليه . ثم إنه كان أكثر أمراء الجند إيماناً بأن الحرب خدعة ، فليس للمعايير المعروفة للفضل والنبل وزن أثناءها . قائد ذلك شأنه جديره بتوفيق الله إذا سار لفتح مصر .

وكان عمرو بن العاص في العقد الخامس من عمره ، أو كان قد تجاوزه ، حين فكر في فتح مصر<sup>(١)</sup> . وكان قصير القامة ، عظيم الهامة ، ناثيء الجبهة ، له عينان سوداوان

(١) المتفق عليه أن عمراً توفي يوم الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة (٦ يناير سنة ٦٦٤) وإنما اختلف في سنه حين وفاته ؛ أكانت سبعين أم كانت تسعين سنة . ويرى بتلر أنه كان ابن سبعين ، فكان في الخامسة والأربعين حين سار إلى مصر . ويرى الذين يخالفون بتلر أن ابن العاص عاش إلى التسعين . ويؤيدون رأيهم بأن سفارته إلى النجاشي لرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول بأربعة أعوام . فلو أنه توفي في السبعين أو الثالثة والسبعين لسكانت سنه حين هذه السفارة بين الثالثة والعشرين والسادسة والعشرين ، وهي سن لا يوفد صاحبها سفيراً ملك . أما بتلر فيؤيد رأيه بأن عمراً شهد صفين عام ٦٥٨ وأبلى فيها بلاء عظيماً ، وأظهر فيها الدهش من الرأي والعمل فلو أنه توفي في التسعين لسكانت سنه يوم صفين اثنتين وثمانين ، وهي سن تقعد بصاحبها ، في رأى بتلر عن مثل ما ينسب إلى ابن العاص في هذه الواقعة .

ثاقبتان تمان عما يتأثر به في حالى سروره وغضبه ، يعلوها حاجبان غزيران . ومن دون ذلك فم واسع ولحية عظيمة ترتسم من حولها سماء البشر والأنس . وكان عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الكفين والقدمين ؛ لذلك كان كل مظهره ينم عن القوة في غير شدة . وكان فارساً متفوقاً في فنون الفروسية والضرب بالسيف ، قوى البنية مرناً الأعضاء مرونة وقوة عودتاه احتمال المشقات . وكان إلى ذلك راجح العقل ، كثير الأناة واسع الخيلة ، فصيح اللسان مفتناً في أساليب الكلام . لذلك بعثت به قريش إلى الحبشة أول مهاجر المسلمون إليها ليحمل النجاشي بقوة حجته على ردّهم إلى مكة . وقد أبدى من حسن الخيلة في محاولته ما يشهد بمقدرته ، وإن لم يوفق لتحقيق الغاية من سفارته . وقد هداه رجحان عقله من بعد إلى الإسلام . ذلك أنه رأى رسول الله هاجر إلى المدينة ، ورأى كلمته تملو بين العرب ، فساوره الشك في مقدرة قريش على النيل منه فآثر أن ينصرف إلى تجارته ينتميا ، وعاد سيرته الأولى يسافر في هذه التجارة إلى الشام واليمن والحبشة ومصر . فلما كانت غزوة الأحزاب واشترك مع أهل مكة فيها فأبت قريش بالهزيمة ، أيقن أن قريشاً لم يبق لها بمحمد قبيل . عند ذلك جمع رجالاً من قريش وقال لهم : « والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً متكرراً . وإنى قد رأيت أن تلحق بالنجاشي فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ؛ وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا . فلن يأتينا منهم إلا خير » . وأقر سامموه رأيه وساروا معه إلى الحبشة وقد قرّ رأيهم على المقام بها حتى ينتهى ما بين قريش ومحمد إلى وضع ثابت . فلما عقد محمد عهد الحديبية مع قريش فتهدأنا عشر سببين ، واتفقا على ألا يدخل محمد مكة عام العهد وأن يدخلها للعمرة العام الذى يليه ، أيقن عمرو أن أمر محمد يزداد علواً ، وأن مقامه بالحبشة سيطول . فلما استدار العام ، وعرف أنباء حُمرة القضاء وما كان من دخول المسلمين مكة وطوافهم بالكعبة وسميهم بين الصفا وللروة ، أيقن أن محمداً على الحق ، فخرج إلى مكة فلقى خالد بن الوليد متأهباً للسير إلى المدينة ليسلم . فذهب الرجلان ، فأسلم ابن الوليد وبايع . ودنا ابن العاص من محمد فقال : « يا رسول الله ! إنى أباعك على أن يُغفر لى ماتقدم من ذنبي ، ولا أذكر

ما تأخر . « وأجابه محمد : « ياعمرؤ بايع ؛ فإن الإسلام يَجِبُ ما كان قبله ، وإن الهجرة يَجِبُ ما كان قبلها » فبايع عمرو وانصرف .

تُرى هل اندفع عمرو إلى الإسلام بعد ما أيقن أن محمداً منتصر على قريش لا محالة ، فأثر أن يسبق قومه إلى صف المنتصر ؛ أم أنه تدبّر رسالة محمد حين طال مُقامه بالحبشة فأمن بها فدعاه إيمانه إلى أن يُسلم ؟ روى أن فتى من قريش ذهب إليه فقال له : يا أبا عبد الله ! إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد ؛ فواءعه عمرو ميقات الظل من جبل حراء ، فلما التقيا سأل عمرو الفتى : أنشدك الله ، أنحن أهدي أم فارس والروم ؟ وأجابه الفتى في غير تردد : بل نحن . فاستطرد عمرو : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن لنا هذه الدنيا وهم فيها أكثر أمراً . . . قد وقع في نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق لِيُجْزَى المحسن في الأخرى بإحسانه والمسيء بإساءته .

ولئن صحت هذه الرواية لتكونن بالغة في الدلالة على اتجاه عمرو في تفكيره ، وعلى أنه كان يؤمن بنظرية المنفعة إيماناً قوياً . فهو قد أنكر على محمد مع قومه ، فلما ذهبت ريح قريش راجع نفسه ونظر في أمر النبيّ وفيما يدعو إليه من الإيمان بالله إيماناً يدخل صاحبه الجنة ، وقد يجعل له هذه الدنيا ، فبادر إلى الإسلام عن بينة وإيمان ، لا عن خوف ولا عن إذعان ؛ وذلك قد يفسر ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أسلمُ الناسِ وآمنُ الناسِ عمرو بن العاص » .

وأسرع عمرو إلى كسب ثقة النبيّ ، حتى لقد كان يقول : « ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمنا » . ولا عجب أن تعظم ثقة رسول الله بالرجلين وقد عرفهما بمكة ، وعرف مكانهما من قومهما ، ورأى مواقفهما في خصومته حين الغزوات التي كانت بينه وبين قريش وخبر بأسه ما ثم إنه عرف من دهاء عمرو وحزمه ما زاده ثقةً به . كان عمرو على إمارة المسلمين في غزاة ذات السلاسل في الشمال من أرض الحجاز ، فلما انتصر على القبائل من أعدائه أتى على أصحابه أن يتعقبوهم ، وأمر الجنود ألا يوقدوا ناراً يصطلون عليها ، وتوعّد المخالف أن يلقيه فيما يوقد . وعاد إلى المدينة ، فشكاه أصحابه ، فسأله رسول الله في الأمر ، فكان جوابه : « كرهت أن أذن

لهم أن يُوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون للعدو مدد .  
 عظمت ثقة النبي بعمر و على حدائثه عهدته بالإسلام ، فكان فيمن بعثهم رسلاً للملوك  
 والأمراء يدعوهم لدين الله . بعثه إلى عُثمان على الخليج الفارسي يدعو أميرها جيفراً وعباداً  
 ابني أُنْجَلَنْدَى للدخول في الإسلام . وكانت عُثمانُ في ذلك العهد خاضعة لقفوذ فارس .  
 مع ذلك لم يتردد عمرو في الذهاب إليها وأداء الرسالة التي عهد النبي إليه في أدائها . وقد  
 تحدّث إلى عبّاد فجعل يقنعه بالحجة تارة ، ويَعِدّه تارة ، ويتوعده وأخاه تارة ، ويذكر له  
 أن رسول الله يقبّل جيفراً إذا أسلم أميراً على عُثمان ، كما أقام باذان من قبله أميراً على اليمن ،  
 وعند ذلك يأخذ جيفر الصدقات من أغنياء عمان ليردّها على فقرائها . وأقام الأخوان أياماً  
 يتشاوران . ورأى جيفر أمر المسامين بعظم . وخشى ما توعدّم به عمرو أن يوطىء محمد خيله  
 أرضهم ، فدخل في الإسلام وبقى أميراً على عمان . وأقام ابن العاص إلى جانبه يبث الدعوة  
 لدين الله ويفقه الناس فيه . وظل كذلك حتى قبض رسول الله وتولى أبو بكر خلافة المسلمين .  
 فلما فشّت الرّدة في العرب عاد عمر إلى المدينة يتلقّى أوامر أبي بكر في مقاومة المرتدّين .  
 هذه المقدرة التي أبداها عمرو في السياسة وفي الحرب جعلته شديد الاعتداد بنفسه ،  
 ولوعاً بالإمارة ، حتى لا يرضى أن يتأمّر عليه أحد إلا كارهاً . لما أرسله النبي إلى شمال  
 الحجاز يقاتل القبائل في ذات السلاسل ، خاف هو أن يدهمه العدو بجند عظيم ، فاستمدّ  
 النبي فبعث إليه أبو عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر ، وقال  
 لأبي عبيدة حين وجّهه : « لا تختلفا » . وحين وقت الصلاة وأراد أبو عبيدة أن يؤمّ الناس  
 فأبى عليه عمرو وقال : إنما جئت مدداً لي . قال أبو عبيدة : لا ا ولكني على ما أنا عليه  
 وأنت على ما أنت عليه . وأجابه عمرو : بل أنت مدد لي . فقال أبو عبيدة : يا عمرو !  
 إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعتك : قال  
 عمرو : فأبى الأمير عليك وأنت مدد لي . قال أبو عبيدة : فدونك ، وصلى عمرو بالناس .  
 هذا الحديث بين الرجلين يكشف عن جانب من نفس عمرو ، ويشهد بحبه للإمارة  
 حباً ملك عليه نفسه . فلأبى عبيدة سابقة في الإسلام ليست لعمر و بن العاص ، بل ليست

لعمر بن الخطاب . وأبو عبيدة أمين الأمة على لسان رسول الله ، وقد أمره رسول الله في هذا المدد على أبي بكر وعمر . مع ذلك أصرّ عمرو على أنه جاء مددا له ، ويجب لذلك أن يكون مرءوساً له . وكان أبو عبيدة رجلاً لئباً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا ، وكان إلى ذلك يؤمن بأمر رسول الله الإيمان كله ؛ فلما رأى تشبث عمرو بالإمارة نزل على إرادته وقاتل مرءوساً له .

وكان عمرو أميراً على اللواء الذي بعثه أبو بكر في قتال المرتدين بقضاعة ، فلما قضى على رِدّتهم ، وقضى على الردة في بلاد العرب كلها ، وعزم الصديق فتح الشام ، وأرسل إليه الجيوش على أحدها أبو عبيدة وعلى آخر عمرو بن العاص ، وجعل لأبي عبيدة القيادة العامة إذا اجتمعت جيوش المسلمين بالشام في غزاة - توجه ابن العاص إلى عمر بن الخطاب وسأله أن يكلم أبا بكر ليجمعه أميراً على المسلمين بالشام ، فقال له عمر : « لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً ، وأبو عبيدة أفضل منزلةً عندنا منك » . وألح ابن العاص يقول : « إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن أليّ عليه » . فكان جواب ابن الخطاب على إلحاحه : « ويحك يا عمرو ! إنك لتحبّ الإمارة ! والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا ، فاتق الله يا عمرو ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش ، فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فما أسرع ماتكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . وخرج ابن العاص مذعناً لإمارة أبي عبيدة لا عن رضا . لكن إذعانه لم ينقص من قدره عند أبي عبيدة ولا عند غيره من أمراء الجند ، بل كانوا جميعاً يعرفون له ذكاه ودهاءه ورجحان عقله وبعده نظره ، وكانوا لذلك يلتمسون عنده الرأي كلما حزب الأمر ، فيجدون في مشورته خير ما يدفع الخطر ، ويضئ السبيل إلى الظفر .

ولعل حبه الإمارة وحرصه عليها لم يكن مرجعهما إلى اعتداده بنفسه وكفى ، بل كانا يرجعان كذلك إلى حسبه ونسبه ومكانه من قريش ؛ فقد كان من قبيلة بنى سَهْم القرشية صاحبة الرياسة على الأموال الخاصة بألمة قريش ، فكان زعيمهما يتصرف في هذه الأوقاف بما تقضى به سنة القوم لذلك العهد . وكان أبناؤها لذلك يحسنون القيام على الأموال إحساناً ظهرت آثاره في مقدرة عمرو بن العاص على جمع المال وتثمينه ، سواء في حياته

الخاصة وفيما تولاه من المناصب العامة : وقد كان لبني سهم إلى ذلك منصب الفصل في المنازعات ، وهو منصب أفاد أفرادها منه حسن الرأي والأناة ودقة التقدير . لهذا ولذاك زاد ثراء بني سهم وارتفعت مكاتها ، واجتمعت لها أسباب القوة ، فاستطاعت أن تجير قبيلة بني عدى قوم عمر بن الخطاب حين أجلاها بنو عبد شمس عن منازلها القائمة عند الصفا ، كما استطاع العاص بن وائل السهمي أبو عمرو أن يجير عمرو بن الخطاب حين أعلن في الناس إسلامه فأراد بنو سهم قتله . وكان العاص بن وائل وافر الثراء ، حتى كان يلبس الديباج مُزَرَّراً بالذهب . لا عجب ، وذلك نسب عمرو وتلك قبيلته ، أن يزداد اعتزازاً بنفسه وأن يطمح إلى الإمارة ويحرص عليها .

وجعله حبه الرياسة بتوسم سبها في غيره . سمع وهو بالمدينة يوماً خطبة من خطب زياد ، فأعجب ببلاغتها وقال : « الله ذر هذا الغلام ! لو كان من قریش لساق العرب بعصاه » وهذا الطموح إلى الإمارة هو الذي دعاه لمناصرة معاوية على عليّ ؛ فقد رأى المسلمين لذلك العهد مقبلين على الدنيا راغبين عما يدعوا على له من التقشف والزهد ، ورأى معاوية يتألفهم بالثبوت والعطاء ، ويظهر لهم المحبة والود ، فأيقن أن الدنيا مقبلة عليه مدبرة عن عليّ . لكنه ، فيما يروى ، لم يُخفِ على معاوية رأيه الحق في أمره ، والمطامع التي دفعته إلى مناصرته . سمع معاوية يوماً يُكثّر من الحديث في رغبته عن الدنيا وعن إمارة المؤمنين لولا حرصه على خير المسلمين ، فنصَّ عمرو بما سمع من ذلك ، فلما خلا إليه قال له : « يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك ! أترى أننا خالفنا عطياً لفضل منا عليه ؟ لا والله ! إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها . وأيمُ الله لتقطعن لي قطعة من دينك أو لأنا بذنك ! » .

لم يكن تطلع عمرو للإمارة وحبه المال وإقباله على الدنيا ليصرفه عن التفقه في الدين والعلم بكلام الله ، فكان من أكثر المسلمين علماً به وفقها فيه ، كما كان من أغزر العرب ثقافة وأكثرهم علماً بمعارف عصره . ثم إنه كان كريم النفس رضى الخلق ، رقيق القلب ، ذوقاً للجمال : يطرب للشعر ، ويُقبل على الغناء ويحبه حباً جماً . وقد ملك بصفاته هذه أفئدة الناس ، كما فرض ذكاؤه عليهم احترامه . وكان جَوَّابَ آفاق كبنى قومه . وجَوَّوبُهُ بِالآفاق في تجارته وفي سفارته هو الذي ذهب به إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى الشام ومصر .

ولسنا نشك في أنه تردد على مصر غير مرة ، وإن ذهب بعض المؤرخين إلى أنه لم يذهب إليها إلا مرة واحدة هي التي دفعته في ظنهم إلى التفكير في فتحها .

وقصة ذهابه إلى مصر هذه المرة الواحدة طريفة في روايتهم طرافة تدعوننا لذكرها وإن رأيناها أدنى إلى الأساطير : فقد زعموا أن عمراً قدم بيت المقدس لتجارته في نفر من قريش ، وأن شماساً روميًا من أهل الإسكندرية جاء بيت المقدس حاجًا وكان نازلاً من الجبال ، فربعرو وهو يعرى إبله وإبل أصحابه . وكان الشمس قد أجهدهم العطش لشدة الحر في ذلك اليوم ، فاستسقى عمراً فسقاه حتى روي . ثم إن الشمس نام مكانه إلى جانب حفرة خرجت منها حية عظيمة بصُر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . واستيقظ الشمس ورأى الحية ، وقص عليه عمرو نبأها ، فأقبل الشمس فقَبِل رأس عمرو وقال له : قد أحياني الله بك مرتين ؛ مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ؛ فما أقدمك هذه البلاد ؟ وذكر له عمرو أنه جاء في تجارته ، وأنه يرجو أن يصيب ما يشتري به بغيراً ، وعرف الشمس أن دية الرجل في العرب مائة من الإبل قيمتها ألف دينار ، فقال لعمرو : هل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ؛ فإن الله عز وجل أحياني بك مرتين . وعرف عمرو أن الشمس من الإسكندرية ، وأنها بلد لم يدخل قط مثلها ، فاستشار أصحابه واستصحب أحدهم يأنس به ، وسار مع الشمس حتى بلغوا الإسكندرية ، فرأى عمرو من عمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها ومابها من الأموال ، فأعجب بها وقال : ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال . ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيمًا يجتمع له الأمراء والأشراف وأهل المدينة ، فألبس الشمس عمراً ثوباً من ديباج وذهب به إلى هذا العيد . وكان الملوك والأمراء يترامون في هذا العيد بكرّة لهم من ذهب مكلّة . فن وقعت الكرة في كفه واستقرت به لم يمت حتى يملكهم . وإنهم ليترامون بالكرة في ذلك اليوم إذ أقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو بن العاص . وعجب الناس لذلك وقالوا : ما كذبنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة . أتري هذا الأعرابي يملكنا هذا ما لا يكون أبداً . ثم إن الشمس جمع لعمرو ألفي دينار من أهل الإسكندرية ودفعها له ، وبعث معه دليلاً رده



هو وصاحبه إلى بيت القدس . يقول ابن عبد الحكم : « فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا » .

أحسب القارىء يوافقنى على أن هذه القصة مع طرائقها أدنى إلى الأساطير ، وأنها لا يمكن بحال أن تكون سبب التفكير في فتح مصر . ولعل رواية الرواة لها هي التي جعلت البلاذرى والمقرزى وابن عبد الحكم وغيرهم من المؤرخين يروون ما قيل من أن عمرو ابن العاص سار إلى فتح مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي ، وأن عمر غضب لذلك وكتب إليه يوبخه ويعتقه على افتتانه برأيه . وهذا القول لا يزيد عندنا على أنه حديث خرافة . فلو أن عمراً سار إلى غزو مصر من تلقاء نفسه لكان أيسر جزائه عند عمر أن يعزله . وإنما دعا للتفكير في فتح مصر ما سقناه مما أدى بعمر إلى الميل لمشاركة ابن العاص في رأيه . مع ذلك استتمهله حتى يكتب إليه بعد عودته إلى المدينة ، فلما نزلها جمع أولى الرأى فيها وذكروا لهم حجج عمرو وشاورهم في الأمر فانقسم رأيهم . وإذا كان عمر يرى الفتح ، فقد كتب إلى عمرو يأمره بالشخص إلى مصر ، وبعث بالكتاب مع شريك ابن عبدة ، وفيه يقول : « انذب الناس إلى السير معك إلى مصر ، فمن خف معك فسر به » . وكان عمرو محاصراً قيسارية حين جاءه كتاب أمير المؤمنين ، فاستخلف معاوية بن أبى سفيان على حصارها ، وفصل في قوة صغيرة اختلف : أكانت ثلاثة آلاف وخمسمائة أم أربعة آلاف . ثم إنه رد شريك بن عبدة رسول الخليفة يطلب المدد حتى لاتضعف مسالح الشام . وسار متمهلاً بساحل البحر ، جاعلاً وجهته إلى العريش ، آملاً أن يلحقه المدد حتى يدخل أرض مصر . وإنه لفي مسيرته وتنهله إذ جاءه النبأ بأن الذين يرون في فتح مصر خطراً على المملكة الناشئة ، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان ، قد ازداد نشاطهم بالمدينة ، فخشى أن يضطر عمر آخر الأمر إلى النزول على رأيهم فلا يبعث إليه بمدد بل يرده عن مسيرته .

ولم يخطئ عمرو في تقديره ؛ فقد كان عثمان والذين معه يرون تلك الغزاة عظيمة الخطر ولا يفتشون بكررون ذلك على مسامح عمر . بل لقد زاد عثمان فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن عمراً لمُجَبَّرٌ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة

فيعرض المسلمين للهلاكه رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا . ترى ما ذا يفعل عمر وقد سمع ما سمع ؟ أيرد قائده عن السير بعد أن أمره به ، وبعد أن مال إلى رأيه ؟ وإن هو فعل وكان ابن العاص قد تخلى حدود مصر ، أفلا يكون ارتداده خذلاناً للمسلمين قد يُجرىء عليهم عدوهم !؟ لكنه خشي كذلك أن تثور نائرة عثمان والذين معه ، إن أعرض عن رأيهم ولم يظهر الرضا عما يقولونه . ثم إن مخاوفهم قد تبطل إذا هو أمد عمرًا بقوات تجعل ظفره بجميوش الروم في مصر أمراً محققاً ! لذلك كتب إلى عمرو يقول : « إن أدركت كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك واعلم أني مُدِّدك » . ودفع بالكتاب إلى رسول يحمله إلى القائد السائر إلى مصر .

أدرك الرسول عمرًا وهو برَفَّح ، فلم يذكر له شيئاً عن المدد الذي كان ينتظره ، بل حاول أن يدفع إليه كتاب الخليفة . وذكر عمر نشاط عثمان والذين يتهببون الإقدام على هذا الفتح ، وقدّر أن الكتاب قد ينطوى على أمر بالعدول عنه ، فأخذ يستدرج الرسول وهو يسايره وجعل يسأله عن اللديفة وأنبأها ، وظل على ذلك حتى نزلوا قرية بين رفح والعريش . وسأل عمرو عن هذه القرية من أى أرض هي ؟ فقيل إنها من أرض مصر ، فنزلها ونزل الرسول معه ودفع إليه الكتاب . فلما قرأه ابن العاص قال لمن حوله : « إن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقتي كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلصقتي كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا على بركة الله وعونه » . كذلك قال ، فكانت كلماته هذه أول الفتح<sup>(١)</sup> .

(١) هذه هي الرواية المتواترة عن كتابي أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، يأمره في أولها بالسير إلى مصر ، ويرده في الثاني عن هذا السير إلا أن يكون قد دخل أرض مصر . وثم روايات أخرى أوردتها ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين تختلف بعض الاختلاف عن هذه الرواية المتواترة . منها أن عمر ظل على تردد في أمر الفتح وتخوفه منه . وأصحاب هذه الرواية يوردون كتابه إل عمر بالنص الآتي : « سر وأنا مستخير الله في مسيرك . وسيأتيك كتابي سرّياً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركت كتابي أمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وأن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واسعن بالله واستنصره » . ولا تظن عمر يأمر بالسير إلى فتح عظيم كنتح مصر قبل أن يقتنع بصوابه والقدرة عليه ، وقبل أن يزول كل ما قد يقوم بنفسه من تردد في أمره . =

وإنما دفع عمرو رجاله للسير في أرض مصر لأنه خشى إن هو أقام بالقرية التي نزلها حتى يجيئه المدد أن يزداد عثمان بن عفان والذين يرون رأيه نشاطاً ، فيحبس الخليفة المدد عنه ثم يرده إلى أرض فلسطين ، فتموت المسلمين بذلك فرصة يؤمن ابن العاص بقدرته على انتهازها . فقد كان يرى الروم بمصر أشدّ مجزأً عن القتال منهم بالشام . ومصر أكثر الأرض أموالاً ، فإذا فتحت كانت قوة للمسلمين ليس كمثليها قوة .

وسار عمرو في أربعة آلاف الذين معه إلى العريش ، فألقوها خلاء ليس بها للروم قوة . وشد ذلك من عزم عمرو ودفعه لمتابعة سيره . ورجع رسول الخليفة إلى المدينة وذكر له أن عمراً دخل أرض مصر وسار يطلب الروم فيها ! فلن يرتد عنها إلا إذا اضطرتهم الهزيمة إلى الارتداد . عند ذلك لم يبق في وسع الذين رأوا في إقدامه مخاطرة تعرّض المسلمين للخطر إلا أن يمسكوا حتى يتبين لهم أمره ، فإما خُذِلَ فكان خذلانه دليلاً على حسن رأيهم وبعد نظرهم ، وإما ظفر فكانوا أول المُعْتَبِرين به والمهتمين له ١ .

وقد كتب القدر لعمرو أن يكون الظفر نصيبه ، وأراد الله أن تدخل مصر في حِمَى الإسلام ، وأن تصبح الدرّة الغالية في تاج الإمبراطورية الإسلامية .

١ ومن هذه الروايات أن عمراً كان على جنده بقيسارية حين كان عمر بالجابية ، فكتب سراً إلى عمر فاستأذنه إلى مصر وأمر أصحابه ففتحوا ثم سار بهم ليلاً ، فلما عرف أمراء الأجناد صنيعه أنكروه ورفضوا أمره إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه : « إلى العاصي بن العاصي . أما بعد ، فإنك قد غررت بمن معك ، فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع ، وإن أدركك وقد دخلت مصر فامض واعلم أني معك » . ولو صح هذا لكان تمايلاً من عمر لا يتفق وما عرف من خلقه ومن صراحته في حمل التبعات .

## الفصل التاسع عشر

### فتح مدينة مصر وحصونها

عاد رسول عمر بطوى الطريق إلى المدينة ، حاملاً إلى أمير المؤمنين النبا بأن عمرو ابن العاص دخل أرض مصر أشد ما يكون عزمًا على فتحها ، وأكثر ما يكون حاجة إلى الدد . وسار ابن العاص إلى العريش فلم يجد بها من يدافع عنها ، فتخطاها منحدراً إلى الجنوب من بحيرة سِرْبُونَة سائراً في الطريق الذي سار فيه الفرس لفتح مصر قبل خمس وعشرين سنة من ذلك التاريخ ، ولم يلق عمرو من يقف سيره حتى بلغ مدينة الفرما ، وهناك لقيه الروم في قوة وقفت في وجهه وحاولت صدّه عن الغزو .

والطريق من العريش إلى الفرما طويل يباغ نحو سبعين ميلاً . وهو يجرى خلال الصحراء ، تتخلله عيون وقرى تهوّن على السائر شقته ؛ لذلك كان الطريق المعبد بين فلسطين ومصر من أقدم الحقب ، حتى لقد شهد «مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقبيلو الإسكندر وكليوباترا وأسرة المسيح<sup>(١)</sup>» إلى هذه البلاد . وكان هذا الطريق طريق الحاج بين مصر وبيت المقدس ، كما كان طريق التجارة والأسفار بين آسيا وأفريقيا . وقد سار عمرو ابن العاص فيه غير مرة من قبل في تجارته ، كما سار فيه مع ذلك الشماس الذي روينا قصته ، والذي قيل إنه سار بعمرو إلى الإسكندرية ليجزيه عن إحيائه إياه مرتين .

والفرما هي «يرامون» القبطية ، و«بلوز» الفرعونية . وهي تقع على هضبة من الأرض قريبة من البحر الأبيض ومن مصب الفرع «البلوزي» من أفرع النيل السبعة ؛ فقد كان النيل في ذلك العهد والعهود التي سبقتة يتفرع في مصر السفلى (الوجه البحري) سبعة أفرع : اثنان منهما هما المعروفان في وقتنا الحاضر باسم فرع دمياط وفرع رشيد ، وكان أولها يسمى في ذلك الزمن الفرع الفتنّي والثاني يسمى الفرع البليبيتي ؛ أما الفرع الثالث فكان مستقلاً عنها يبتدىء جنوبهما بنحو ستة أميال ويتجه إلى الشرق

(١) بتل : فتح مصر ، ص ١٨٥ ؛ ترجمة أبو حديد .

خلال ما نعرفه اليوم باسم مديرية الشرقية حتى يصب في البحر الأبيض على مسافة تزيد عن أربعة وعشرين ميلاً شرقي الموقع الذي تقوم فيه بورسعيد . وهذا الفرع الثالث هو الفرع البلوزي . أما الأفرع الأربعة الأخرى فكانت تنشعب من فرعى النيل الباقيين في عهدنا الحاضر . وكان اثنان منها يجريان في مديرتي الشرقية والدقهلية ويصبان في البحر الأبيض خلال بحيرة المنزلة ؛ الشرقى منهما هو الفرع التانيق الذي يمر بتانيس ، وهي « صان الحجر » المدينة الأثرية المعروفة في عهدنا الحاضر ، والآخر هو الفرع المنديزي الذي يخرق مديرية الدقهلية متشعباً من النيل عند نقطة قريبة من موقع ميث غمر ليصب أثناء بحيرة المنزلة في موضع بين بورسعيد ودمياط . وكان الفرع السبتي يخرق مديرتي المنوفية والغربية مبتدئاً من فرع دمياط على مقربة من موقع القناطر الخيرية ليصب في بحيرة البرلس . ثم كان الفرع الكائوني يتشعب من أوسط فرع رشيد ليذهب شمالاً بفرب حتى يصب على مقربة من الإسكندرية إلى شريقها .

وكانت هذه الشبكة المائية الرئيسية تمتدّ ترعاً كثيرة تُروى هذا الثلث العظيم من أرض مصر الخصبنة المغطاء . وكان هذا الثلث يمتدّ غرباً فيما وراء الإسكندرية حتى يبلغ برقة ، فكانت منطقة مربوط أهلة ألف ناسها الترف ، يقيمون في منازل جميلة تحيط بها حدائق زاهرة غناء . وكانت هذه المنطقة الكثيرة الفاكهة تمتدّ إلى تخوم برقة وتنتج من شهى الثمار ما يرسل الكثير منه إلى بلاد الروم . وكانت أعناؤها ذات شهرة واسعة جعلت « فرجيل » و « سترابو » يتحدثان عن جودة خمرها ما تحدّث أبو نواس وأصحابه عن خمر هيت وعانات .

كان ابن العاص على رأس الزاوية الشمالية الشرقية من هذا الثلث حين نزل القراما . وكانت أنباء سيره قد سبقت إلى الروم منذ تحطى تخوم مصر . فإذا تراهم يصنعون ؟ لم يدّر بخواطرم أن يواجهوه أثناء سيره في الصحراء بين العريش والقرا ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن العرب أقدر الناس على حرب الصحراء ، ولأن قرب العريش وماجاورها من فلسطين يجعل إمداد عمرو بالجنود من بيت المقدس وماجاورها أصراً يسيراً . لذلك آثر المقوقس حاكم مصر أن يدع عمراً يمضى في طريقه حتى يبعد عنه المدد أو الأمل فيه ،

وأن يتخذ من حصون الفرما القوية أول موضع لِقَاء المسلمين ، دون أن يخاطر فيذهب إلى هذا الموقع بنفسه ، أو يبعث إليه الأطربون كبير القواد .

وتحصّن الروم بالمدينة لمواجهة العرب ، مؤمنين بقدرتهم على الذود عنها ، وردّ العدو على أعقابه دونها ؛ فقد علموا أن العرب الذين جاءوا مع عمرو قِلّة في العدد ، وأنهم ليس معهم من عُدّة الحصار ما كان مع الفرس حين هاجموا الفرما من قبل ففتحوها دون أن يلقوا كبير مشقة . وعرف عمرو عُدّتهم وقوتهم وأنهم يزيدون على جنده أضعافاً . مع ذلك لم يتردد في النزول وفي إنشأ الحرب ، بعد ما خطب أصحابه وذكّرهم بأن المسلمين كانوا قِلّة دائماً حيثما واجهوا الروم والفرس ، وأنهم قهروا عدوّهم في المواقع كلها ؛ لأن الله وعدم النصر وكان معهم . ولم يكذب عمرو أصحابه ؛ فقد حاصروا الفرما شهراً ثم اقتحموها واتخذوها معقلاً بعد أن هزموا الروم فيها شرّاً هزيمة .

كيف حدث هذا ؟ كيف استطاع أربعة آلاف أن يحاصروا مدينة منيعة قوية الأسوار والحصون ، فيقهروا جندها ويقتحموا أسوارها ويفتضوا حصونها ؟ يرى بعض المؤرخين الأمر مجباً ، فيلتمسون له العلة ويزعمون أن قبطن الفرما أمدوا العرب بالمعونة أثناء الحصار ، فكان ذلك سبب قهرهم عدوّهم . كذلك يقول المقرئزي وأبو الحسن . ويذكر ابن عبد الحكم « أنه كان بالإسكندرية أُسْقِفٌ للقبطن يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبطن يُعلمهم أنه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقّي عمرو . فيقال إن القبطن الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً » . وهذا الذي يذكره ابن عبد الحكم لا يستقيم أكثر مما تستقيم رواية المقرئزي ورواية أبي الحسن ؛ فأبو ميامين هذا هو الاسقف بنيامين ، وهو لم يكن بالإسكندرية حين مجيء العرب إلى مصر ، بل كان قد قرّر منها منذ سنوات إلى قوص ، كما ذكرنا في الفصل السابق .

ولعل ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المتأخرين إنما أثبتوا هذه القصة لأنهم لم يجدوا تأويلاً لا تنتصر عمرو على الروم إلا أن يكون قد لقي العون من أهل مصر ، فأثبتوا القصة وصدّقوها استناداً إلى ما كان من كراهية القبطن لحكم الروم وقيامهم في وجه الاضطهاد الديني الذي فُرض عليهم . والواقع أن القبطن لم يعاونوا المسلمين ولم يعاونوا

الروم ، وأنهم لا أثر لهم في ظفر المسلمين بعدوهم واستيلائهم على مواقعه وحصونه .  
 لاشك في أن القبط لم يعاونوا الروم في قتال العرب إلا بالقدر الذي يضطرهم إليه  
 خضوعهم كارهين لسلطان قيصر وعماله . ولكن لاشك كذلك في أنهم لم يعاونوا العرب ،  
 إلا أن تكون معاونات فردية يتبرع بها خفية من بلغت ثورة نفوسهم بالروم وحكمهم  
 مبلغاً جعلهم يفامرون بحريتهم وبجياتهم ، ليدلوا العرب على عورات الروم ، وليكشفوا  
 لهم عن أسرارهم . أما فيما وراء ذلك فقد وقف شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف  
 المتفرج شديد التطلع . لقد أصابه الروم من ألوان الظلم والاستغلال والاضطهاد بما أزال  
 من نفسه كل حماسة لنصرهم . وهو لا يعرف من أمر العرب ما يدعوه إلى كراهيتهم  
 ولا إلى الترحيب بهم . هذا إلى أن قوة الروم وبأسهم في مصر جعلاه يشك في الغلب ،  
 لمن يكون آخر الأمر . صحيح أن أنباء العرب وانتصارهم في الشام والعراق كانت تبغضه ،  
 لسكته لتأينك قد نسي تغلب هرقل على الفرس في مصر وإجلاءه إياهم عنها . فلو أن  
 هذا الشعب ناصر العرب جهرة فانتصر الروم فالويل ثم الويل له وسيلقى من ألوان  
 الاضطهاد أضعاف ما كان يلقي من قبل . وليس طبيعياً أن يناصر الروم وفي نفسه من  
 كراهيتهم ما فيها . أما والحرب لا تزال في بدايتها ، وليس يعلم أحد مصيرها ، فالحكمة  
 تقتضيه أن ينتظر ليري ، وأن يكتفٍ موقفه من بعدُ تكييفاً يجنبه الظلم والضرر ،  
 ويحقق له ما يستطيع تحقيقه من منفعة .

وموقف الشعب المصري هذا هو الموقف الطبيعي لكل شعب في مثل حاله يومئذ .  
 لقد ودّد أن يخرج الروم من بلاده حتى تخلص له خيراتها فيستأثر بحقه الطبيعي فيها ،  
 وحتى تتم له حريته وكرامته وعزته كاملة في كل أرجائها . لسكته غلب على أمره منذ  
 عصف الإسكندر المقدوني بحريته واستقلاله ، كما عصف بحرية غيره من الأمم واستقلالها  
 فلما مات الإسكندر قال أمر مصر إلى البطالسة الإغريق ، فانفصلوا عن أمتهم وانفصلوا  
 عن رومية واستقلوا بمصر وأصبحوا مصريين ، لم يرى الشعب المصري فيهم عنصراً أجنبياً  
 يثور به أو ينتقض عليه . فالأسرُ المالكه كانت يومئذ في مصر وفي غير مصر من أصل  
 أجنبي ، ولا يزال ذلك شأنها إلى اليوم . وقد جاءت هذه الأسرُ إلى البلاد التي استقرت

على عرشها غازية في عهد من اليهود ، مستعينة بقوات من الجنود الأجراء الذين اتخذوا الحرب والفتح صناعتهم . فلما سكنت الحرب وضوى الناس إلى السلام اطمانت هذه الأسر إلى البلاد التي تربعت على عرشها واتخذت منها وطنها ، فرحب بهم أهلها واتخذوهم حصناً يقيمهم المنازعات بينهم . وكان ذلك شأن البطالسة ؛ أووا إلى مصر وأصبحوا مصريين ، واستقلوا بمصر واستقلت بهم مصر . وظل الأمر على ذلك حتى جاء « يوليوس قيصر » ثم جاء « أنطونيوس » فزلا مصر في عهد « كليوباترا » ونزلها مصر انضمت إلى الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف الممتدة إلى أقصى الغرب وأقصى الشمال من أوروبا ، وإلى بادية السماوة من أرض آسيا .

ولم يمض غير قليل على هذا الانضمام حتى جدَّ عنصرٌ نقل العالم من فكرة التوسع في الفتح ابتغاء المجد إلى ميدان أكثر سمواً في اتجاهه ، وأجدر بالإنسان يوم يتم التصنُّج لضمير الإنسان . ذلك العنصر كان المسيحية . فقد دعت الناس إلى المحبة والإخاء ، وإلى احتقار متع الحياة الدنيا ، والتنزه عن التقاتل بسببها . وما لبثت المسيحية حين انتشرت في رومية وفي مصر ، أن أنست الناس ما بينهم من عداوة وبغضاء ، وأن صورت أمامهم فكرة الإمبراطورية المقدسة يعيشون تحت سماؤها إخواناً متحابين في ظل الله . على أن هذه الصورة سرعان ما غشيتها سحب أضعفت إيمان الناس بها ، وذلك حين بدأت المذاهب المسيحية تتعدد ، فبدأ أصحاب كل مذهب ينظرون إلى أصحاب المذاهب الأخرى نظرة كراهية وحقد . بذلك عاد الناس إلى ما كانوا من قبل فيه ، فعاد المصريون يمتقون الرومان المتحكين في بلادهم ، ثم ازدادوا لهم مقتاً بسبب الاضطهاد الأعظم الذي أخضعهم الروم له .

لم يعاون المصريون عمرو بن العاص في الفرما . فكيف استطاع بقوته الصغيرة أن يحاصر مدينة منيعة قوية الأسوار والحصون فيقهر جندها ويقتحم أسوارها ويفتض حصونها لقد أقام أمامها شهراً في الرواية المشهورة ، وشهرين في رواية أخرى ، فكان جنودها يخرجون إليه من حين إلى حين يقاتلونه ثم يرتدون إلى مدينتهم يتحصنون بها . وكان عمرو يغير في هذه الأثناء بكتائب صغيرة على ما حوله من البلاد ، يجيء منها



بالأقوات التي يحتاج إليها جيشه . وكانت حامية المدينة تتوقع ، بعد أن طال حصارها ، أن تبعث الحكومة المركزية إليها مدداً يعاونها على ردّ العرب وإجلأهم عن مصر . لكن المدد لم يجرى ، ولم يبلغ الحامية نبأ يبشّر بقرب قدومه . عند ذلك رأى أميرها أن يغامر فيخرج بها إلى ما وراء الأسوار يلتقى العدو وجهاً لوجه ، طامعاً في التغلب عليه والظفر به . لكنه ما لبث حين اشتد القتال أن ألغى المسلمين ليوثاً ضارية لانهاب الموت ، فأمر أصحابه بالارتداد إلى الحصون والاحتباء بها . ورآهم المسلمون يرتدّون فتعقبوهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأفسوا الاضطراب في صفوفهم ، وسبقوهم إلى باب المدينة وملكوه عليهم ، وتجاوزوا الأسوار إلى الحصون فاحتلّوها ، فلم يبق للروم إلا التسليم . واستولى عمرو على المدينة ، فهدم أقوى حصونها ، وأحرق السفن الراسية في المرفأ القريب منها ، وخرّب كل كنيسة أو دير يمكن التحصن به فيها ، ثم اتخذها معقلاً يؤمّن الطريق إلى فلسطين وإلى بلاد العرب ، وأقام يفكر في الخطوة التي يجب عليه أن يخطوها بعد أن كسب هذه الموقعة الأولى في الصميم من أرض مصر .

ما السبب في قعود المقوقس عن إمداد حامية القرما ؟ هذا سؤال يردُّ بخاطر كل مؤرخ . ويذهب بتار إلى أنه لا يجد ما يفسر به هذا القعود إلا خيانة قيرس لقيصر ، طمعاً منه في فصل بطرقة الإسكندرية وشقها عن القسطنطينية ، بالاتفاق مع العرب وإعطائهم على دولته . وبتار لا يدعّم هذا الرأي بأى سند من الواقع ، بل يستنبطه من الحوادث استنباطاً . وفي رأينا أنه مذهب أملمته عاطفة مسيحية ، ولم تمله حقيقة تاريخية ، إذ لما يكن قيرس قد رأى أحداً من العرب ليتفق معه ، وهو قد ثبت من بعد لقتال عمرو والمسلمين في بابلون وفي الإسكندرية . فالقول بأنه خان دولة الروم لغاية في نفسه استنباط مصدره العاطفة وليس له من منطق التاريخ سند .

ونحن نرى أن القعود عن إمداد حامية القرما يرجع إلى أكثر من سبب . وأول هذه الأسباب شعور الروم في مصر بعداوة الشعب المصري لهم عداوة لايسهل التكهن بما يمكن أن تنفّس عنه . فلو أنهم بعثوا بقواتهم العسكرية في مصر أو في الإسكندرية للقتال في القرما ثم نار المصريون بهم لفتّ ذلك في أعضادهم ، وكلما كان إمداد القرما ( عمر ج ٢ - ٧ م )

لينتقدهم من شرّ هذه الثورة في المدن الكبرى . ثم إنهم كانوا يذكرون هزائمهم أمام المسلمين في سورية وفي فلسطين ، وكانوا لذلك لا يريدون المغامرة بمقاومة هؤلاء الجبابرة في ميدان لا يثقون بقدرتهم على المقاومة فيه . لهذا آثروا أن يتحصنوا ببابلبيون على مقربة من مصر ومن منف ليكون النيل خندقاً بينهم وبين عدوّهم ، وأن يقتصر أمرهم في الفرما وفي غيرها من البلاد الصغيرة الحصينة على وقف العرب أطول زمن حتى تتاح لهم الفرصة لتقوية حصونهم في المراكز الرئيسية . فإذا غامر العرب من بعد وبلغوا مدينة مصر صدّتهم حصونها عن التّقدم ، وربما أمكن القضاء عليهم ، فكان ذلك كافياً لصرفهم عن مصر وصدّهم عن التفكير في العودة إليها .

قد يكون هذا التفكير خاطئاً من الناحية الحربية . لكن الحوادث التي وقعت من بعدُ قدّلت على أنه كان تفكير المقوقس وأصحابه في الفترة الأولى من دخول العرب مصر فقد انضم إلى عمرو بعد فتح الفرما جنودٌ من البدر المقيمين على تخوم الصحراء المصرية طمعوا في مقام القتال . فعوضوا المسلمين عن فقدوا في أول حصار ضربه بمصر . ثم إن عمراً سار منحدرًا إلى الجنوب ملازمًا هذه التّخوم فتخطى مدينة تجدل القديمة إلى موضع « القنطرة » اليوم ، ومن ثمّ أتجه غربًا إلى القصاصين ، وتابع مسيرته جنوبًا بنرب حتى بلغ بلبليس . وفي هذا الطريق الطويل الذي قطعه فرسان المسلمين في أرض مصر لم يكن عمرو « يدافعُ إلا بالأمر الخفيف على تعبیر ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه من مؤرخي العرب . وهؤلاء المؤرخون يروون أن راعياً من البدو المواليين للمسلمين دنا من منازل قرية في طريق عمرو ، فسمع نقرأ من القبط يقول أحدهم : ألا تعجبون من هؤلاء القوم يُقدّمون على جموع الروم وهم في قلة من الناس ! ويجب آخر : إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه . وهذا السير الطويل وهذا الحديث يتناقضه المصريون صريح في الدلالة على أن المقوقس وأصحابه لم يكونوا مطمئنين لولاء المصريين ، وأنهم لذلك آثروا التّحصن عند مدينة مصر على مواجهة الغزاة في هذه الأرض المكشوفة المتاخمة للصحراء ، فلم يلق المسلمون من يعترض طريقهم أو يدافعهم » إلا بالأمر الخفيف » ، حتى بلغوا بلبليس وصاروا على ثلاثة وثلاثين ميلاً من مدينة مصر وحصونها .

يتفق المؤرخون على أن المسلمين أقاموا بلبليس شهراً قاتلوا أثناءه عدوهم وظفروا به . لكنهم يختلفون : أكان القتال بين الفريقين عنيفاً أم أن المسلمين لم يلقوا فيه من بأس الروم أكثر مما لقوا منذ غادروا الفرما . وتذهب بعض الروايات إلى أن المقوقس بعث إلى عمرو ، أول ما نزل بلبليس ، من يفوضه ليرجع عن مصر ، وأن عمراً تحدث إلى الأساقفة المفاوضين عن بعث الله رسوله بالحق ، وأنه صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالإعذار إلى الناس ، « فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجيبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة . وقد أعلمنا أننا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم ، وأن لكم إن أجبتُمونا بذلك ذمة إلى ذمة » وفتن الأساقفة إلى أن عمراً يشير بصلة الرحم إلى هاجر أم إسماعيل ، فقالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء ! ثم أضافوا : آمناً حتى نرجع إليك . فقال عمرو : إن مثلي لا يُجَدِّع ، ولكني أؤجلكم ثلاثة أيام لتنظروا وتناظروا قومكم وإلا ناجرتكم . فاستزادوه فزادهم يوماً ثم يوماً خامساً . ورجع الملأ إلى المقوقس فحدثوه بحديث عمرو ، فأبى القائد الأطربون إلا المناجزة للمسلمين . وقال الأساقفة للمفاوضين للناس وقد رأوا مخاوفهم : « أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم ، وقد بقيت أربعة أيام فلا تصابون فيها بشيء إلا رجونا أن يكون له أمان » .

سار الأطربون عقب هذا الحديث في اثني عشر ألفاً كاملي العُدَّة حتى يأخذ المسلمين بلبليس على غرّة . ولقد فُجِّمَ وبيَّتَهم بيئاتاً شديداً . لكن عمراً كان الحذر كل الحذر ، وكان كل جيشه فرساناً في عُدَّة القتال . لذلك حميت المعركة بين الفريقين ، فيما يذكر أصحاب هذه الرواية ، فقتل فيها من العرب عدد ليس بالقليل ، وخسر الروم ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، ثم انهزم الأطربون وتمزق جيشه ، ويقال إنه قُتل .

لماذا أقام عمرو شهراً كاملاً بلبليس ؟ وهل أقام هذا الشهر قبل لقائه بجند الروم وظفروه بهم ، فلما تم له النصر سار يريد مدينة مصر ؛ أم أنه أقام هذا الشهر بعد انتصاره بدبر حُطَّته ويفكر في موقفه ، فلما اطمأن إلى تديره تابع مسيرته ؟ ليس في المراجع التي وقفت عليها ما يكشف عن ذلك . وكل ما استطاع بتلر أن يستنبطه من بحوثه في تواريخ الفتح العربي أن جيش عمرو كان بالعريش في عيد الأضحى من السنة الثامنة عشرة

للهجرة ، وهذا التاريخ يوافق ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ ، وأنه فتح القرما حول ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ بعد حصار دام شهراً ، وأنه بلغ هليوبوليس في الأيام الأخيرة من شهر أبريل لتلك السنة . فهو إذاً قد بلغ بلبليس في شهر فبراير ، ثم أقام بها معظم شهر مارس . لكن إيراد هذه التواريخ لا جواب فيه عما نسأل عنه . وأنت تستطيع أن تجيب استنباطاً أن المفاوضين المصريين جاءوا عمراً أول ما نزل بلبليس ، وأن الموقعة بينه وبين الأَطربون كانت في الأيام الأولى من مُقامه بها ، فلما تم له النصر لم يسارع إلى السير ، بل أقام حتى يطمئن إلى ولاء البلاد المحيطة به ، وأنه بقي لذلك شهراً اتصل فيه بالمصريين وكسب ولاءهم . لكنك تستطيع أن تجيب استنباطاً كذلك بأنه أقام بلبليس هذا الشهر قبل أن يجيئه المفاوضون المصريون . وأنه كان ينتظر أن يجيئه المدد الذي وعده الخليفة به في أثناء هذا الشهر ، فلما سار الأَطربون إليه فقدّر عليه وظفر به ، أراد أن يستفيد مما بعته النصر إلى نفوس جنده من حماسة ، وإلى نفوس عدوه من اليقين بأن المسلمين لن يفلحهم غالب ، فسار يريد مدينة مصر راجياً أن يفتحها الله عليه ويوطئه أكنافها .

أخلاء المدد الذي كان ينتظره قبل أن يلتقي الأَطربون فتغلب عليه وهذا المدد معه ، أم أنه ظفر به وليس معه إلا الجند القليل الذي بقي له بعد القرما والبدو الذين انضموا له وعودوه عن قدهم في حصارها ؟ الظاهر من الروايات أن المدد لم يجئه إلا بعد انتصاره بلبليس ومسيرته منها . يقول ابن عبد الحكم ويتابعه السيوطي وابن تَعَرِي بِرَدِي : « فتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف : حتى أتى بلبليس فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه . ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دُنَيْن ، فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح ، فكتب إلى عمر يستمده فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف . » وظاهر هذا النص صريح في أن عمراً غادر بلبليس بعد انتصاره على الأَطربون قبل أن يصله المدد ، وأنه هزم الأَطربون وعدّة جيشه اثنا عشر ألفاً بأربعة آلاف من الذين كانوا معه من العرب ومن بدو مصر .

سار عمرو من بلبليس متاخماً الصحراء حتى نزل قريباً من قرية « أم دنين » على النيل عند مأخذ خليج تراجان الذي يصل مدينة مصر بالبحر الأحمر عند السويس . وكانت

أم دنين تقع في موضع حيّ الأزرابية من أحياء القاهرة اليوم ، وكانت حصينة يجاورها مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة ، وكانت تقع إلى الشمال من بابلون حصن مدينة مصر الأعظم ، فكانت مساحتها لذلك طليعة الدفاع عن هذه المنطقة العزيزة على المصريين ، ومقر ملكهم في عهد الفراعنة الأقدمين . وكان حصن بابلون حصناً رومانياً منيعاً يقع موقع مصر القديمة اليوم ، وكان متين البنيان قوى الأسوار ، قاومت متانته أحداث الزمن فلم ينقض بنيانه إلا في العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر المسيحى ، ثم بقيت مع ذلك منه أطلال لا تزال تشهدنا أعيانها . وعلى أميال قليلة إلى الجنوب من هذا الحصن كانت تقوم مدينة منف الخالدة الذكر الباقية الأثر . منف عاصمة مصر حين كان العالم كله يتطلع إلى مصر على أنها مهبط الوحي ومستقر الحضارة فيه . وقد بقي لمنف كل جلالها حتى نافستها الإسكندرية من يومئذ بدأت تطأطأء رأسها وتتكش عظمها . لكنها ظلت على ذلك تلى الإسكندرية بهاء وجلالا ، وظلت تفخرُ الإسكندرية بما حولها من تراث ضخم خلفه زوسر ورمسيس وفراعنة مصر أيام أظلت العالم حضارة مصر ، كما كانت تفخرها بالأهرام والمقابر العظيمة القائمة حولها . وكان اسم مصر يطلق على مدينة منف ، أو على مدينة تقابلها على الجانب الآخر من النيل نما أمرها وزاد سكانها حتى كانت تسمى باسم منف في بعض الأحيان . وفي الصحراء الغربية الذهبية بين منف والجيزة كانت تتصل سلسلة من الأهرام ذات العظمة والجلال ، تتلاحق حتى تنتهى إلى هرم خوفو والمهرمين المجاورين له وأبى الهول الرابض تحت سفوحها يرقب بعيون ثابتة مطلع كل شمس ، وقد قامت كلها قبالة حصون الروضة وبابلون وأم دنين .

أفتصورّ المسلمون الذين ساروا مع عمرو هذا المشهد الباهر لا نظير له في العالم كله ؟ وهل حدّثهم عنه أحد من البدو الذين ساروا معهم بعد ما فصلوا من القرما ، وحين ساروا من بلبليس بعد ظفرهم بجند الروم ؟ وهل كان منهم من أحدٍ شهدفتح المدائن وشهد أبيض كسرى ليرى عجائب الدنيا مجتمعة في هذا المكان الذى أقبلوا عليه من أرض مصر ؟ أم تراهم كانوا في شغل بقلّة عددهم وما يريدهم عليه عمرو من مواجهة الروم في حصون عزيزة المال ؟ لقد نزلوا قريبا من أم دنين ؛ فبهرم منظر النيل بسعة مجراه وبالخصب المرع

حوله وبأشجار الربيع ونباته يتثنى ريان ضاحك الحضرة ، فوق أرض أخذت زخرفها وازيدت فهي جنة للناظرين . لكنهم سرعان ما شغلوا عن هذا المنظر بالحصون القائمة أمامهم ، وبما عرفوا من أن الروم أعدوا لهم بعد ما أيقنوا أن هذه الحصون ملاذهم ، فإن تفتض عليهم فلا بقاء من بعد ذلك لهم . فقد جاء الروم إلى حصن بابليون بجمل قوتهم ، وأمّدوا حصن أم دنين بمسلة قوية ، وتهيئوا لقتال لم يبق لديهم شك في أنه قتال حياة أو موت ، فإمردوا العرب بعده على أعقابهم ، وإما قالوا في أعقابها ماقاله هرقل يوم ودّع سورية الوداع الأخير : عليك السلام يا مصر سلاماً لا اجتماع بعده ! .

وأدرك عمرو بن العاص دقة الموقف وخطره ؛ فقد جاءته عيونته بأبناء عرف منها أنه لن يستطيع أن يفتح حصن بابليون أو يحاصره بمن معه من الجند ، ولن يستطيع أن يفتح مدينة مصر ، وهي في جوار الحصن وفي حمايته . لكنه أدرك كذلك أنه إن يرجع عن مهاجمة الروم يضيع شوكة رجاله ويذهب عزمهم ، فيقوى عليهم عدوهم فيردّهم ناكسين على أعقابهم . وما كان له أن يأتي أسراً ذلك أثره ، وهو هو الذي أصرّ على فتح مصر ، وهو موقن أن أمير المؤمنين لا ريب ممّده عما قليل . لا بدّ له إذاً من مغامرة يكتب له فيها النصر ، وله من بعدها أن يداور ليكسب من الوقت ما يشاء حتى يجيء المدد . أمّا وحصن بابليون لا سبيل إليه فليحاصر حصن أم دنين ، وليبذل في سبيل فتحه كل ما يستطيع بذله ، فإذا استولى عليه أصبحت السفن الراسية في مرفئه رهن أمره ، وأصبح في مقدوره أن يدبّر خطته وأن يحكم مداورته .

وكان الخذر يقتضى عمراً ألا يفرط في رجاله أو يدفعهم إلى هلكة ، وأن يستعجل أمير المؤمنين المدد ليضعف الأمل في قرب مجيئه قوة الجند الذين معه . لذلك بعث رسولا إلى المدينة بكتاب يصف فيه مسيره إلى مصر وموقفه من حصونها وحاجته إلى المدد لافتحامها ، وأذاع في الجند أن المدد موشك أن يجيء . ثم إنه تقدم إلى أم دنين لحاصرها ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والميرة . ولم يفكر الروم المقيمون في حصن بابليون أن يخرجوا إليه وقد علمهم مصير الأطربون أنه لا طاقة لهم بالقتال المكشوف . أما مسلة أم دنين فكانت تخرج إلى القتال أحيانا ثم يرتد إلى الحصن أن لم تنظر بالمسلمين . ومضت

أسابيع لم يتغيّر الموقف فيها ، وإن لم يشعر المسلمون أثناءها بشيء من القلق أن كانت الميرة في متناول أيديهم .

ولأنهم لذلك إذ جاءتهم الأنباء بمقدّم أول مدد لهم . وبأن هذا المدد موشك أن ييلفهم ، فقوى بأسهم ، واشتدّت سطوتهم . وأقبل المدد ، ورآه حُمّاة الحصن من جنود هرقل ، فسقطَ في أيديهم وقتل خروجهم للقاء المسلمين . فلما رأى عمرو ذلك منهم ، وكان قد عرف مداخل الحصن ومخارجه ، تخيّر وقتاً أمر فيه أصحابه أن يشدّ كلهم على الحصن شدّة رجل واحد ليأخذوه عنوةً ، وسار هو في طليعتهم إلى بابه ، ففتحه الله عليهم فاستولوا عليه بعد مقتلة عظيمة ، وبعد أن أسروا ما بقي فيه حيّاً .

لم يذكر المؤرخون تفصيل ما وقع في اليوم الحاسم لهذه المعركة . ويذهب بتار إلى أن عمراً شقّ على رجاله في ذلك اليوم ، مستنداً إلى قصة رواها مؤرخو العرب أن عمراً رأى جماعة يترددون في القتال فصاح بهم يحثّهم عليه ويدفعهم إليه ، فقال له أحدهم : إنا لم نُخلّق من حديد ، فاتهره عمرو بقوله : أسكت ! إنما أنت كلب ! وأجابته الرجل : فأنت أمير الكلاب ! فأعرض عمرو عنه ونادى بأصحاب رسول الله وقال لهم : تقدّموا فبكم ينصر الله ، فاندفعوا في الوطيس وتبعهم الناس ، ففتح الله على المسلمين . وابن الأثير يذكر هذه القصة حين يذكر وقعة عين شمس . وأياً ما كانت الواقعة التي حدثت القصة فيها فلا ريب في أن إقبال المدد قد كان له أثر كبير في استيلاء المسلمين على أم دينين بعد أن أبطأ عليهم فتحها ، وأن عمراً نزلها ثم عبر مع جنده النيل في السفن التي كانت بمرفئها ، وسار على رأسهم يتخطّون الصحراء بمجازين أهرام الجيزة .

أخذ الروم اللاجئون إلى بابلين حين عرفوا مصير أصحابهم بأمّ دينين ، وتولّتهم الدهشة حين قيل لهم إن جيش المسلمين تحطّى النيل ضارباً في الصحراء . فما مقصد عمرو من عبور النهر ؟ وما عسى أن تكون وجهته ؟ أتراه أزمع السير على الفرع الكانوبي يريد الإسكندرية محاولاً فتحها بمن معه من الجنود ؟ إنه إذا لردود دون غايته ، ولن يبوء إلا بالهزيمة النكراء . لكنهم عرفوا من أنبائه أثناء سيره بمصر ، وجربوا من دهائه وبعد نظره ما أورثهم الريبة في مقصده ، وأعمامه عن غرضه . وهو لم يفكر بالفعل في السير

إلى الإسكندرية . وكيف يسير إليها وهو يعلم أنها مفتوحة لمدد الروم من البحر ! بل كيف يسير إليها تاركاً وراءه حصن بابليون سليماً زاخراً بالرجال والعَتَادِ ! إنما فكّر في أن يسير إلى الفيوم يُشيع الفزع في نفوس أهلها ، وقيم الدليل للمصريين على أن دولة الروم لا محالة زائلة . وليس في طريق الصحراء بين الفيوم وبابليون عقبة واجتياز هذا الطريق هيّن على أبناء البادية من أهل شبه الجزيرة . وهو بعدُ طريق قريب يقطعها الفارس في ساعات معدودة . فإذا استطاع عمرو إشاعة الفزع في هذا الإقليم بلغ مقصده ، وكسب من الوقت ما يكفي الخليفة لإرسال مدد جديد يستطيع به عمرو أن ينفذ خُطّته في الفتح ، وأن يدخل به مصر في حكم المسلمين .

لكن عمراً لم يلبث حين بلغ تخوم الفيوم أن علم أن الروم أعدّوا للدفاع عن الإقليم ووضعوا الجنود على مداخلة ، لذلك لزم الصحراء وجعل يغير بكتائب قليلة على البلاد القريبة منه ، يسوق النعم طعماً لجيشه . وجاء البدو المقيمون بهذه المنطقة بأنباء عرف منها أن كتيبة من الروم بإمرة رجل اسمه حنا تسير مختفية في النخيل والآجام قبائله متنطّسة أخبأه فإذا حاول اقتحام البلاد الآهلة دعت الجيش المرابط في ثغور الفيوم لمواجهته . عند ذلك أعذّ السير حتى بُعداً بجنّاً وكتيبته عن الجيش ، ثم ارتد إليه وحاصره ومن معه وقتلهم عن آخرهم . أذاعت هذه الفعلة الرعب في قلوب أهل الإقليم جميعاً . وقد حزن قائد الروم بالفيوم لمقتل حنا أشدّ الحزن وأمر بالبحث عن جثته ، فلما انتُشِلت من النهر حُنِطت ووضعت على سرير وحملت إلى حصن بابليون ، وُبعث بها إلى هرقل في القسطنطينية ، وحزن هرقل لمراها وأقسم ليدافع عن مصر بكل قوته . واندفعت قوة من الفيوم تلتقي جيش المسلمين وتُنشِب القتال معه . لكن عمراً اكتفى بالظفر بجنّاً وأصحابه وبما أنزله من الرعب في أهل الإقليم ، وظل متحصناً بالصحراء راغباً عن لقاء عدو يحشى الصحراء ويرى الموت كامناً فيها . ولشُدّ ما اغتبط الروم حين رأوه ينسحب بقواته ممعناً في الفيافي ؛ فقد خيّل إليهم أنه خشي لقاءهم فقر منهم ، فعادوا إلى قومهم وعلى ثغورهم ابتسامه الرضا بأن كفاهم الله شرّ القتال .



والواقع أن عمراً لم ينسحب لأنه خافهم ، بل انسحب عائداً إلى أم دنين يُسرِع السير جهد طاقته ؛ لأن رسولاً من المسلمين جاءه فذكر له أن أمير المؤمنين بعث إليه بمدد جديد ، وأن هذا المدد سار من الفرما إلى بلبيس في الطريق الذي سار فيه عمرو وأنه يوشك أن يصل إلى حصون الروم ، فلم يكن لعمرو بدٌّ من أن يرجع للقاء المدد خشية أن يقطع الروم عنه وأن يردّوه عن عبور النهر إليه . والحقق أنه أبدى في ذلك مهارة فائقة ؛ فقد كانت جيوش الروم مشرفة على النيل من حصن بابليون ، وكان في مقدورها أن تخرج من الحصن وأن تعبر النهر ، وأن تحول بين قائد المسلمين والمدد المقبل إليه . لكنها لم تفعل واستطاع عمرو أن يعبر إلى الشاطئ الشرقي وجيشه معه ، وأن يتصل بالمدد الذي نزل هليوبوليس على مقربة من الحصن الروماني .

كيف أتّم القائد البارِع هذه المعجزة من معجزات الحرب ؟ أترأه أخذ الليل لباساً له ولجيشه ثم عبر النهر محتماً في ظلمته ؟ وهل بقي الروم في غفلة عنه أثناء سيره وأثناء عبوره فلم يواجهوه ولم يحاولوا رده ؟ أم هم عرفوا مجيء المدد وسيره للقائهم فخافوا أن يتخلّوا عن الحصن فيهاجمه المدد ويفتضه على من فيه ؟ لم يذكر المؤرخون ما يلقي شيئاً من النور على هذه المداورة البارعة ، وهذا الانسحاب الدقيق من القيوم إلى هليوبوليس . وكل ما يذكره بترا استفاداً إلى مراجعته الكثيرة أن عمراً استطاع أن يعبر النهر ، إما عنوة وإما على غرّة من الروم . وأغلب الظن أنه عبر النهر في موضع أسفل من موضع أم دنين إلى الشمال منها . فقد علم بأن أمداد المسلمين سائرة في طاقتين ميمّة شطر « عين شمس » وهي « هليوبوليس » ، وعلم أن مقامه في الجانب الغربي مخطر . والحق أنه فزع خوفاً من أن يفطن الروم إلى الأمر ، فيحولوا بينه وبين الاتصال بالمدد الذي جاء به الزبير ، ولكن « تيودور » ( قائد الروم ) ضيع الفرصة على عادته ، فلم يضرب الضربة القاضية واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين في هليوبوليس وقد امتلأت قلوب أصحابه عزّة وبشراً بما وفّقوا له من الفوز في غزوتهم .

كانت عدّة المدد الذي أقبل ثمانية آلاف ، عليهم الزبير بن العوام ومعه عبادة ابن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد . وقد اغتبط عمر بمقدمهم أيما اغتباط

فلو أنهم أبطثوا عليه أكثر مما أبطثوا لبلغ موقفه من الدقة ما يتمدّد معه على أكثر القواد مهارة أن يفالبه ويغلبه . والحق أن المغامرة التي أقدم عمرو عليها ، منذ قدّم مصر إلى أن جاءه المدد ، جديرة أن تعقد تاج الفخر على هامة أشد القواد مخاطرة وأعظمهم براعة ؛ فقد ظل يواجه الأخطار ويقتحمها ، ويدفع إلى النفوس اليقين بأن الروم لا حيلة لهم في قوم هزموا كسرى وقهروا قيصر . ألم يواجه جموع الروم في الفرما وفي بلبيس وفي أم دُنَيْن وفي الفيوم ، فلم يظفروا به مرة واحدة على حين ظفر هو بهم مرات ! . وفي هذه الأثناء كانت كُتُبُه إلى عمر باستمجال المدد لا تنقطع . وكان المدد الأول إليه قليلاً فلم يضعضع ذلك من عزمه ، ولم يبعث اليأس إلى نفسه ، بل كان يلتمس وجوه الحيلة للإبقاء على القوة المعنوية سامية بروح جيشه ، واثقاً من مضاعفة أمير المؤمنين المدد له ، ومن إنقاذ حُطَّتُه كاملة متى حانت الفرصة لإنقاذها .

وقد يتولانا العجب لإبطاء المدد عن عمرو كل هذا الزمن ؛ فقد كان انتصاره في الفرما وفي بلبيس قميناً أن يُعجّل أمير المؤمنين بإمداده ، حتى لا يتعرّض لمواجهة الروم في حصونهم المنيعه على النيل بجنده القليل . أتراه ظنّ أن قائده يقيم بالعريش أو بالفرما حتى يأتيه المدد ، وأنه لن يغامر بقتال عدوّه وهو فيمن هو فيهم من الجند ، فلما جاءته الأنباء بانتصاره في الفرما وبمسيرته إلى بلبيس ، وبأنه يوشك أن يواجه الروم في عاصمة الفراعنة ، ندب الناس مدداً له ، ثم ضاعف هذا المدد من بعدُ وجعل على رأسه الزبير ابن العوام حين جاءته أنباء أم دُنَيْن وانتصار عمرو فيها <sup>(١)</sup> ؟

أياً ما يكن الأمر فقد كان الزبير يومئذ قد همّ بالغزو وأراد أن يأتى أنطاكية . والزبير ابن عمه النبي وصاحبه ، وكان من أبطال العرب المعدودين . فلما عرف عمر ما همّ به دعاه

(١) اختلفت الروايات في المدد متى أرسل إلى مصر ، وهل أرسل دفعة واحدة أو دفتين . وقد أورد بن عبد الحكم هذه الروايات وأخذها عنه أكثر المؤرخين . وإنما اخترنا الرواية التي في النص لأنها أكثر الروايات اتفاقاً مع سياق الوقائع . أما الروايات الأخرى فتجري إحداها بأن « عمر بن الخطاب أشفق على عمرو فأرسل الزبير في أثره في اثني عشر ألفاً فشهد معه الفتح » . ونجري رواية أخرى بأن عمر أمد عمر أ « بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل وكتب إليه : « لاني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم ، رجل مقام ألف : الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة ابن الصامت وخارجة بن حذافة واعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » .

وقال له : « يا أبا عبد الله ! هل لك في ولاية مصر ؟ » فأجاب الزبير : « لا حاجة لي فيها ، ولكنني أخرج مجاهداً والمسلمين معاونا ، فإن وجدت عمراً قد فتحتها لم أعرض لعمله ، وقصدت إلى بعض السواحل فإبطلت به ، وإن وجدت في جهاد كفت معه » . ودعا له عمر وودّعه ، فسار على رأس الجيش حتى دخل مصر وجعل وجهته عين شمس . وكان اختيار عمر للزبير توفيقاً من أعظم التوفيق ؛ فقد عُرف هذا البطل بشدة اللراس وقوة الشكيمة منذ نشأته ، وكان إلى ذلك كريماً في الناس عزيزاً عليهم . أسلم وهو ابن ست عشرة سنة ، وهاجر إلى أرض الحبشة المهجرتين جميعاً . فلما سار إلى المدينة لم يتخلّف عن غزاة غزاها رسول الله . وقد باع رسول الله على الموت في أحد . وندب النبي الناس يوم الخندق من يأتيه بخبر الأحزاب وبنى قريظة ، فانتدب الزبير ، وندبهم الثانية فانتدب الزبير وندبهم الثالثة فانتدب الزبير ، فقال رسول الله : إن لكل نبي حوارياً وحواريّ الزبير بن العوام » . وكانت مع الزبير إحدى رايات المهاجرين الثلاث يوم فتح مكة . لهذا كله أذناه النبي ومحضه الحب ، فلما خط الدّور بالمدينة جعل له بقيعاً واسعاً وأقطعه مَخْلاً كانت من أموال بني النّضير ، ورخص له في لبس الحرير . وقد أحبه أبو بكر وعمر كما أحبه رسول الله ، فأقطعه الصّدّيق الجُرف ، وأقطعه عمر العقيق أجمع ؛ بل لقد أحبه كل من عرفه ، وكان الجنود الذين يسرون في إمرته أشد الناس حباً له .

تخطى عمرو بن العاص النيل وسار إلى عين شمس ، واتصل بالزبير وبالمدد العظيم الذي جاء معه . وكان الزمن قد جرّ على عين شمس يومئذ ذيل العفاء ، فلم تبق « أون » مدينة الشمس الفرعونية العظيمة التي كانت كعبة العلوم والدراسات ، والتي عرفها أفلاطون وعرّفها غيره من فلاسفة اليونان ، وتلقوا فيها المعرفة والحكمة ، ودرسوا بها الفلسفة والفلك ، ورأوا من سعة عمرانها وعظمة عمارتها وجلال معابدها ومسلاتها وتمائيلها ما ذكره « هيرودوتس » ، كما ذكر تبجّر رجال الدين بها في التاريخ المصري كله . فقد جرّت الإسكندرية وفلسفتها على عين شمس ماهوى بها وبمنف من ذروتها الرفيعة . فلما حكم الرومان مصر ثم دان أهلها بالمسيحية ، هجر العلم وهرج الفقه عين شمس إلى غير عودة ، ونقلت منها المسلات والتماثيل إلى طائفة من مدن الدلتا ، بل نقل بعضها عابراً البحر

الأبيض إلى رومية. وكذلك تدهور كل ما في مدينة الشمس بعد أن أضاءها العلم وأضاءتها الحكمة بنورها قروناً طويلة ، يبقَ بها حين نزلها العرب من مجدها القديم إلا اسمها اليوناني « هليوبوليس » وإلا أسوار مهدمة وتماثيل مطمورة تحت الثرى ، ومسألة لاتزال قائمة ببلدة المطرية إلى يومنا الحاضر ، تدلّ شاهدها على موقع مدينة الشمس القديمة ، ويروى صمتها حديث ذلك العهد المجيد العظيم .

وقد اختار عمرو بن العاص أطلال عين شمس ، فعسكر بها وعسكر معه المدد الذي جاء مع الزبير بن العوام ؛ لأن هذا المسكان كان نهذاً من الأرض يسهل الدفاع عنه ، ولأنه كان فيه ماء كثير ، ومن حوله ميرة وفيرة تصلح لإمداد الجيش بالموثونة . فلما اطمان إلى منازلها فيها ورأى من حوله خمسة عشر ألفاً وخمسمائة جندي أيقن أن ساعة الفصل بينه وبين الروم اقتربت ، فجمع أصحابه من أولى الرأى في الحرب وتداول معهم في خطة القتال . وكان أكبر همه أن يستخرج الروم من حصن بابليون ليقاتلهم في السهل . وسرعان ما جاءت عيبونه بأن الله محقق عما قليل رجاءه ؛ فقد تداول تيودور أمير جنود الروم مع أصحابه ، فرأوا أن مقامهم بالحصن يُظهرهم أمام المصريين مظهر الجبن والضعف ، ويفرى الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم . وقد كانت أعدادهم تفوق أعداد المسلمين ، وكانوا خيراً منهم عدّة . لذلك عزموا الخروج إلى العرب لمناجرتهم ، وأزمعوا السير إلى عين شمس لإجلاتهم عنها . فلما عرف عمرو خططهم دبرَ للقائهم والقضاء عليهم ، فأخرج خمسمائة رجل ساروا تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل عند قلعة الجبل ، وأخرج خمسمائة آخرين جعل عليهم خارجه بن حُدافة فساروا قبيل الصبح إلى أم دُنَيْن ( في حى الأزبكية الحالى ) وزود هؤلاء وهؤلاء بأوامره . فلما تنفس الصبح سار هو من عين شمس على رأس قواته كلها حتى بلغ موضع العباسية في وقتنا الحاضر ، وهناك أقام ينتظر جموع الروم القادمة من حصن بابليون عند مصر القديمة .

وخرج الروم من حصنهم في الصباح الباكر ، وساروا بين الأديار والبساتين المحيطة بالحصن من شماله الشرقى . وإنهم ليتقدمون إلى ناحيه عين شمس إذ بلغهم أن عمراً انحدر منها في صحبة يريد لقاءهم . وقد استخلفوا الطرب لذلك ، وأيقنوا الظفر به ، وتعاهدوا

فيا بينهم على القتال حتى الموت . فلم يكن عندهم من شبهة في أنهم إن يقتهم النصر ذلك اليوم فقد اندك صرحهم ودالت دولتهم في هذه البلاد الغنية المعطاء . والتقى الفريقان ، فأنشبو القتال وعضوا على النواجذ والتحموا وعلام غبار المعركة ، ولا يريد أيهم أن يفصلوا حتى تفصل الحرب بينهم . وإنهم كذلك إذ انحدرت الكتيبة المختبئة في مغار بني وائل تهوى من الجبل فقعصف بمؤخرة الروم عصفاً . ولم يكن الروم على علم بهذه المكيدة ؛ لذا تولاهم الفرع لما أصابهم ، فاضطربت صفوفهم وتقهقروا متياسرين نحو أم دُنين . عند ذلك خرج الكمين الآخر إليهم فأمعن فيهم قتلاً ، فخيل إليهم أن ثلاثة جيوش من العرب تقاتلهم من ثلاث نواح مختلفة ، وأنهم لا أمل لهم في المقاومة ، فأنحل نظامهم ولاذ أكثرهم بالهرب يطلبون النجاة من سيوف العرب . وبلغت طائفة من الفارين الحصن فلاذت به ، وساق الفرع طائفة إلى النهر فنزات السفن تلتمس النجاة في حى الماء حتى تباغ الحصن على ظهره ، وكان عدد الذين هلكوا في الموقعة وفي الطلب أجل من أن يُحصَى . ورأى العرب ما أصاب عدوهم من الفرع ، فالوا إلى حصن أم دنين فاستولوا عليه ككرة أخرى . وكذلك انتصر المسلمون في هذه الموقعة التي يسميها المؤرخون موقعة عين شمس نصراً حاسماً وطّد أقدامهم على ضفاف النيل ، وأراهم مصر كلها في قبضة أيديهم .

وكيف لا يرونها في قبضة أيديهم وقد علموا أن الذين هربوا إلى حصن بابليون لا ندين به لم يلبثوا حين سمعوا بهلاك من هلك من جيش الروم أن فرّوا من ملجئهم وركبوا السفن ، وساروا في الفرع الغربى للنيل ( فرع رشيد ) حتى بلغوا حصن نقيوس إلى الشمال من منوف . ولئن بقيت مع ذلك بالحصن مسلحة قوية وُكل إليها الدفاع عنه ، لقد أشاع انتصار المسلمين من الفرع في الناس جميعاً مادفع إلى نفوسهم اليقين بأن النصر كتب لهؤلاء الغزاة لا محالة . وكان تصرف عمرو بعد الموقعة مما زاد الناس بهذا الأمر إيماناً ؛ فقد سار إلى مدينة مصر فاستولى عليها بغير قتال ، ولم يستطع الجيش الذى بالحصن أن يمد لها يد معونة كما كان يفعل من قبل ، ثم نقل عسكره من عين شمس فأنزله في شمال الحصن وشرفه بين البساتين والكنائس ، في المكان الذى أقام فيه القسطنطين من بعد .

وجاءته الأنباء بأن حامية الروم بالفثيوم فرّت إلى « نقيوس » حين علمت بنصر المسلمين فجهزت كتيبة عبرت النهر وسارت في طريق الصحراء ، فاستولت على إقليم الفيوم كله . ولم يكتف بهذا ، بل أرسل قوة أخرى إلى جنوب الدلتا ، فاستولت في إقليم المنوفية على أتريب ومنوف . لهذا كله آمن الناس بأن النصر قد حالف الغزاة . فخشعت نفوسهم وخضعوا طوعاً أو كرهاً لما فرضه عليهم عمرو من الأموال والميرة ، وبخاصة بعد أن رأوا الحكام من الروم يؤتى بهم بأسره مجموعة أيديهم في الأصفاد وأرجلهم في القيود . واستولى الروع على كثيرين وأفزعتهم رهبة الغزاة الفاتحين ، ففرّوا إلى الإسكندرية زرافاتٍ يخطئها العدو ، يرجون أن يجدوا في حصونها وأسوارها ملجأ ، ويطمعون في أن يُمدّها قيصر من البحر بقواتٍ تمسكها من دفع الغزاة القاهرين .

لم يبظر الظفر عمراً ، ولم يُغره بالسير إلى الإسكندرية ليفتحها قبل أن يفتضّ حصن بابليون على من فيه . فلو أنه فعل لا ضطرّاً إلى توزيع قواته ليذر جانباً منها على حصار الحصن ويسير بساثرها إلى الشمال على فرع النيل يقاتل حتى يبلغ العاصمة . وفي هذا التوزيع من الخطر ما لم يرغب عنه ؛ فقد كثرت القوات اللائذة بالحصن ، وأصبح في مقدورها الذود عنه ، لاسيما أنها كانت مهددة بالفناء إذا فتح العرب أبواب الحصن ودخلوه عليها عنوةً ، فلم يكن لها بدٌّ من أن تقاتل قتال المستميت . ولئن كانت روحها المعنوية قد تضعفت ، لقد كانت ترجو أن يفتق طول الحصار الحيلة لهرقل أو لقواد الروم بالإسكندرية فيميدّوا الحصن ويُنقذوا من فيه . ولم تكن هذه القوات في ريب من أن الحصار سيطول ؛ فقد تقدّم الصيف وبدأ فيضان النيل وارتفاع مياهه ، فلم يكن في مقدور المسلمين أن يجتازوه أو يهاجموا الحصن على متنه ، ولم يكن لهم بدٌّ من انتظار هبوط الفيضان . فليصبر حُمّاة الحصن وليصابروا ، فكثيراً ما غيرت المفاجآت سير الحرب . والظفر في كل حرب لأطول الجند صبراً وأكثرهم احتمالاً .

عزم عمرو محاصرة الحصن ، وعزم اللاجئون إليه الدفاع عنه أو يبيدوا دونه . وقوى عزمهم على الاستماتة في الدفاع ما كانت عليه أسوار الحصن وأبراجه من منمعة لا تُنال . فهذا الأثر الذي لا تشهد أعيننا منه اليوم في مصر القديمة إلا أطلالا دوارس

لأسوار متهدمة وبقايا محطمة لبرجين بينهما باب قديم ، قد كان حين الفتح العربي قلعة رومانية من أمتع القلاع وأقواها . كانت أسواره ترتفع نحو ستين قدماً ، وكان سمك هذه الأسوار ثمانية عشر قدماً ، وكانت صروحه تزيد على الأسوار إرتفاعاً ، وكان في كل صرح سلمٌ صاعد إلى أعلى البناء يشرف الناظر منه على جبل المقطم من الشرق ، وعلى الجزيرة والأهرام وسحراء لوبيا من الغرب ، ويرى منه مجرى النيل إلى مسافات بعيدة من الشمال ومن الجنوب . وكان النيل يبلغ باب الحصن الأكبر ، فكانت السفن الرماومانية ترسو عنده إلى جانب درجٍ يُهَبَّطُ منه إليها . وكان هذا الباب الأكبر مصنوعاً من الحديد أو مصفحاً به فكان اقتحامه مستحيلاً لثباته ولحماية السفن له . هذا إلى أن جزيرة الروضة القائمة وسط النهر كانت بها حصون قوية تزيد حصن بابليون منعةً وقوة . وكان في داخل الحصن آبار يستسقى منها سُحَّاته ، كما كانت المزارع والحدائق المتمددة من حوله تمتد بالميرة الوفيرة . وكان يحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يستطيع فتحها أو تحريكها إلا من داخله . لهذا كله أمنت القوات المتحصنة به جانب العدو ، وأطمأنت إلى مقدرتها على الدفاع عنه حتى يأتيها المدد أو تحدث مفاجأة من مفاجات الحرب تردّ العرب على أعقابهم .

حاصر عمرو الحصن ومن فيه . وكان يعلم أن الحصار قد يطول بسبب ارتفاع النهر وتدفع تياره ، ولناعة الحصن وقوة أسواره . لكنه كان يعلم كذلك أن الفيضان لن يدوم إلا شهراً أو شهرين ففناجزة القوم في أثنائهما كفيلاً بأن تزيد روحهم ضعفاً . ثم إن تدفع التيار بسبب الفيضان يجعل مجيء المدد على النيل من تقيوس أو من الإسكندرية إلى الحصن أمراً عسيراً . فإذا تعاقبت الأيام والأسابيع ويئس سُحَّاته الحصن من المدد ازدادت روحهم ضعفاً فذهبت ريحهم . فإذا ثبتوا مع ذلك حتى ينزل الفيضان أصبح اقتحام الحصن عليهم أمراً مستطاعاً .

كان المقوقس بالحصن<sup>(١)</sup> منذ ابتداء الحصار . وكان على إمرة جنود الحصن خالد

(١) يطلق المؤرخون على هذا الحصن اسم بابليون وباب إليون وقصر الشمع . يقول ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة : وسار عمرو حتى بلغ بابليون ، ويقول : وكان على القصر ( يعني قصر الشمع الذي بمصر القديمة ) رجل من الروم . وابن عبد الحكم يذكر الاسم أكثر الأمر على أنه باب لبون =

رومى يسميه مؤرخو العرب « الأعيرج » ، ويحسب بتل أن هذه التسمية تحريف منهم لاسم « جورج » . وكان جند الحصن كلهم من الروم إلا قليلا من القبط لعلمهم كانوا في خدمتهم . وكان الروم بالحصن يرمون العرب بالمجانيق ، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام . ودام الحصار على ذلك شهراً والعرب لاتهن لهم عزيمة ولا ينفذ لهم صبر . ورأى المقوقس وأصحابه أن الليل قد بدأ فيضائه ينزل ، إذ كان شهر أكتوبر من سنة ٦٤٠ قد بدأ ، فاجتمعوا في سرّ من معهم وتشاوروا في الأمر وبسط لهم المقوقس رأيه . وكان يرى أن المدد لن يأتي ليرفع عنهم الحصار قبل أشهر ، وأن العرب سيضيقون عليهم الخناق في هذه الأثناء ويُرهمونهم بألوان البأساء . وكيف لا يفعلون وقد قضوا من قبل على جيوشهم في الفرما وبلبيس وأم دُنَيْن والقيوم وعين شمس وهاهم أولاء محاصروهم بما لا قبيل لهم به . أليس خيراً لهم أن يفتدوا أنفسهم بالمال ليرحل هؤلاء العرب عنهم ولتعود مصر إلى ملك الروم؟! وما زال المقوقس يسوق الحجج في بيان ساحر حتى انضم الحاضرون جميعاً إلى رأيه . لكنهم رأوا أن من الخير أن تجرى المفاوضة مع العرب سرّاً حتى لا يقف أحد من المدافعين عن الحصن على شيء من أمرها ، وأن يتولوا المقوقس بنفسه وتسلسل المقوقس وجماعة من أصحابه من الحصن تحت جنح الليل ، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة فلما بلغها أرسل إلى عمرو بن العاص برسالة مع أسقف بابليون وجماعة معه يقول فيها :

« إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا ، وطال مُقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عُصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العُدّة والسلاح ، وقد أحاط هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه . ولعلكم أن تندموا إن

== ويقول البلاذرى : وكان اسم المدينة لبونة فسماها المسلمون فسطاطاً . ويدكر بتل أن اسم الحصن باللغة القبطية كان « بابليون — أن — خيمي » ومعناه بابليون مصر . ويروى أن القيصر تراجان بنى الحصن في جوار حصن قديم كان يطلق عليه اسم بابليون قرناً طويلاً قبل أيام تراجان ، وأن السبب في تسميته أن جماعة من أسرى بابل جاء بهم سيزوستريس كانت مقبلة فيه . وثم روايات أخرى في سبب هذه التسمية يطول شرحها .



كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى . نحن وهم به من شيء . » .

وانتظر المقوقس أن يعود إليه رسله في اليوم نفسه بردّ عمرو ، فما كان هذا الرد ليزيد على قبول المفاوضة أو رفضها . فإن رُفِضَتْ : عاد كلٌّ إلى موقفه وعاد القتال كما كان ، وإن قُبِلَتْ اختار كل فريق مفاوضيه ابتغاء الوصول إلى صلح إن أمكن . لكن رسل المقوقس حُبِسوا عنه يومين كاملين ، نخاف عليهم وقال لأصحابه : أترون القوم يحبسون الرسل أو يقتلونهم ويستحلون ذلك في دينهم ! وإنما أراد عمرو بحبسهم أن يريهم حال المسلمين . ولقد عادوا بعد يومين يحمل رئيسهم رسالة عمرو إلى المقوقس يقول فيها :

« إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا . وإما أيتيم فأعطيتم الجزية عن يداؤتم صاغرون . وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو غير الخاكين . » .

دهش المقوقس لما سمع ؛ فليس هذا جواب من يريد المفاوضة ، بل هو جواب المنتصر يريد أن يفرض حكمه . أتري بلغ من هؤلاء القوم الغرور أو بلغت منهم النعمة بالنفس فليس إلى إغرائهم بالمال أو بغير المال سبيل ! وسأل رسله كيف رأوهم ؟ فأجابهم رئيسهم : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كأنه واحد منهم ؛ ما يُعْرَفُ رفيعهم من وضيعهم ؛ ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد ؛ يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم . » .

أطرق المقوقس حين سمع هذا الوصف ، ثم رفع رأسه وقال لأصحابه : والذي يُحْلَفُ به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد ! واتن لم نفتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكفتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم : » .

أتري هوَى الضعف بنفس المقوقس فأملى عليه هذا الجواب ؟ أم كان يطمع في إغراء

( عمر ج ٢ - ٨ م )

العرب بعرض سخّيّ يستهويهم فيرضونه ويرحلون عن أرض مصر؟ الجواب عن هذا وذلك تنطق به الحوادث من بعد؛ فقد ردّ المقوقس رسله إلى المسلمين يقول لهم: «ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم وتنداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم». ولم يرتض عمرو ما طلب إليه، فبعث عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، وكان أسود اللون ضخماً طويلاً، وأمره أن يكلم القوم، والآي يجيبهم إلى شيء دغوه إليه. إلا إحدى هذه الخصال الثلاث. ودخل القوم على المقوقس وأراد عبادة مخاطبته، فلما رآه قال: «نحوأعنى هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمنى». ولعله أراد بهذا أن يوقع بينهم. لكنهم أجابوه جميعاً بأنهم يرجعون إلى قول عبادة ورأيه: وتكلم عبادة وذكر ما أمر الله ورسوله المسلمين به من الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجهاد في الله، وحب الاستشهاد في سبيله. وأعجب المقوقس بكلامه، وأبدى إعجاباً لأصحابه، ثم قال لعبادة: «لقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدّة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل. وإنا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم لضعفكم وقتلكم. وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأتمتم في ضيق وشدّة من معاشكم وحالككم. ونحن نرقي عليكم لضعفكم وقتلكم وقلة ما بأيديكم، وتطيب أنفسنا أن نصلحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار وتخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوّة لكم به.»

هذا كلام يجمع إلى الوعد الوعيد، وإلى الإغراء التهديد؛ فهذه ثلاثون ألف دينار تعرض على عبادة ثمناً للانصراف عن الحرب، فإن أباهها كان مهدداً بمدد الروم الذي يتكلم المقوقس عنه. ولكن أواخر عمرو إلى عبادة كانت صريحة، وكان عبادة شجاعاً لا يهاب الموت. لذلك أجاب المقوقس مزدرباً جمع الروم وعددهم، ذاكراً قوله تعالى (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)، وأن كل رجل من المسلمين يدعوره صباح مساءً أن يرزقه الشهادة، وأنهم إلى ذلك في أوسع السعة من معاشهم وحالمهم. «فانظر الذي تريد فبيّنه لنا؛ فليس بيننا وبينك خصلة تقبلها منك أو نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل -

بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبلُ إلينا . « ثم ذكر له أنهم إن أسلموا انصرف العرب عنهم ، وإن أبوا الإسلام وأدوا الجزية أدخلهم المسلمون في حمايتهم ودافعوا عنهم ، وإن أبوا الإسلام والجزية جميعاً فليس إلا الحرب تفصل بين الفريقين .

حاول المقوقس عبثاً أن يصرف عبادة إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ، والتفت إلى من معه يستطلع رأيهم فأبوا إجابة المسلمين إلى شيء مما طلبوا ؛ فانصرف عبادة وأصحابه لم يغيروا مما قالوه حرقاً . وعاد المقوقس ينصح أصحابه بمصالحة المسلمين ، فسأله : أى خصلة نجيبهم إليها ؟ قال : « إذا أخبركم أمّا دخولكم في غير دينكم فلا آسركم به . وأما قتالهم فأننا أعلم أنكم لن تقوّوا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بدّ من الثالثة . قالوا فنكون لهم عبيداً أبداً . قال : « نعم ! تكونون عبيداً مسيطرين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذرائعكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم أو تكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مُستعَبدين أبداً أتم وأهلكم وذرائعكم . قالوا : الموت أهون من هذا ! وعادوا إلى الحصن وقطعوا الجسر من الجزيرة ، وعادت الحرب بينهم وبين المسلمين .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ يقول مؤرخو العرب : « فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على مَنْ بالقصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم ، فقتل منهم خلق كثير وأسِر من أسر منهم ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة » . ويقول بئر . « ويظهر لنا أن كبار الروم طلبوا أن يهادنهم العرب شهراً ليروا رأيهم ، فأجابهم عمرو جواباً قاطعاً أنه لن يمهلم أكثر من أيام ثلاثة . غير أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع في الناس ، فنار نائهم وأبي جند الإمبراطور إلا القتال ، فما انتهت أيام الهدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهّزون للخروج إلى المحاصرين يناجزونهم ، ولم يبعثوا ردّاً إلى عمرو . وخرجوا إليه بغتة فوق قناطرهم فأخذوا جنود المسلمين على غرّة . ولم تُذهل تلك البغته العرب ، فأسرعوا إلى سلاحهم وقتلوا الروم قتالاً شديداً ، وقتلهم الروم يومئذ مستبسلين . غير أن العرب تواردوا إليهم منذ نذروا بهم فتكاثروا عليهم ، فما استطاعوا إلا أن يتراجعوا إلى الحصن بعد أن قُتلت منهم مقتلة عظيمة » .

ليس بين الروايين فيما نرى خلاف . وكلاهما متفق على أن العرب أحرزوا هذا النصر بعد أيام معدودة من مفاوضة عبادة بن الصامت والمقوقس . ولم يُردِّ المقوقس أن يُضيع الفرصة فعاد إلى قومه يحدثهم في ضرورة الإذعان لما طلبه العرب من الجزية ، وأقره القوم كارهين . فبعث إلى عمرو يذكر له أنه لا يزال على رأيه في مصالحته ، « فأعطني أماناً أجتَمِعَ أنا وأنت ، أنا في نفر من أصحابي ، وأنت في نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعاً ، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه » . وأبى أصحاب عمرو معارضه المقوقس ، وآثروا الحرب حتى تصير الأرض كلها لهم فيثا وغنيمة . فقال لهم عمرو : قد علمت ماعهد إلى أمير المؤمنين في عهده ؛ فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إلى فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم ، مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم . وقد كان هذا الرأي من عمرو رأى السياسى الحنك والقائد البارع ؛ فقد أهدق الماء بالمسلمين من كل وجه ، وصاروا لا يقدرين على أن يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى فدفعهم إلى القتال خطأ في التقدير ، وانتظارهم هبوط الماء قد يتيح للدو فرصة وقد يهيء للإسكندرية إمداده . ثم إن الروم في الحصن قد تضعضعت قواهم وخارت عزائمهم ، فمن حسن الرأي مفاوضتهم وهم فيما هم فيه من هذه الحال النفسية ، حتى لا يبعث اليأس إلى نفوسهم قوة التجلد والاستماتة ، ولهم من مناعة الحصن ملجأ يستطيعون المقام فيه زمناً طويلاً .

وتصالح عمرو والمقوقس على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين على كل نفس شريفهم ووضعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعلى أن للمسلمين منهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم وكفائسهم وصلبهم وبرمهم وبحرهم ، وألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

عقد هذا الصلح وعلق نفاذه على رضا الإمبراطور به ، وأخذ المقوقس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل . واتفق الفريقان على أن تبقى جيوشهما حيث هي حتى يجيء رد

قيصر ، وأن يبقى الحصن مع الروم إلى ذلك الحين . وركب القوقس النهر إلى الإسكندرية ، ومنها بعث بتفصيل ما حدث إلى القسطنطينية . مصحوباً بمذكرة ضافية طلب في ختامها إلى هرقل إقرار الصلح حتى يكفى مصر شر الحرب وولاياتها . وحين أطلع على المذكرة وعلى الوثائق ، فلم يعلم منها أكان الصلح خاصاً بحصن بابليون ، أم كان مداه ترك مصر كلها للعرب ؟ وهل يبقى العرب في البلاد بعد أخذ الجزية أو يرحلون عنها ؟ لذلك استدعى القوقس إليه يجولاه ما اشتبه عليه . وحاول القوقس حين لقيه أن يهون الأمر ، فذكر له أن العرب قد يُمكنون على الخروج بعدد من مصر . فلما أخرجه الإمبراطور بالسؤال لم يجد خيراً من الحقيقة يصارحه بها ، فقال له : « لو رأيت هؤلاء العرب وبلادهم في القتال لعرفت أنهم قوم لا يُغلبون . فليس لنا من سيبل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوةً وتصبح البلاد غنيمة لهم » .

لم يكن هرقل بالذي يجهل قوة العرب وبأسهم ؛ فقد بلا من ذلك في الشام من سنوات عدة ما لم ينسه وما لا يمكن أن ينساه . لكنه لم يتوقع قط أن تدور الدائرة على جيوشه في مصر ، وأن تدور عليهم بهذه السرعة . فالعوامل الجينية والجغرافية التي أعانت العرب في الشام لاشيء من مثلها في وادي النيل . وهو أعرف الناس بحصن بابليون ، وأنه أمنع من أن يقال منه محاصر ما حسنت قيادة المدافعين عنه . وقد كان له بمصر مائة ألف من الجند يقاتلهم اثنا عشر ألفاً . فكيف يُغلب هذا العدد القليل الذي يسير في الصحراء تلك القوات الضخمة المتحصنة في أسوار متينة وقلاع مملوءة عتاداً ! . لا بد في الأمر من سرٍّ هو الذي أدّى إلى النكبة النكراء التي أصابته في صميم ملكه . لهذا نثار ثائره ، فاتهم القوقس بأنه خان الدولة وتخلّى للعرب عن مصر ، وحكم عليه بأنه مرتكب مجرم . ووصفه بالجن والكفر ، وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهّر وأوقع به المهانة ، ثم نفاه من بلاده طريداً . لم يكن هرقل غالباً حين ثارت بنفسه الهواجس وتولاه الريب في الأسباب التي أدّت إلى هزيمة جنده . ولسنا نقصد من هذا القول إلى الحكم على القوقس بأنه تعمّد خيانة الدولة ، وإنما نقصد إلى أن الحصن كان يستطيع أن يقاوم وألا تنزل بمحاته أية هزيمة

لو أن قائده كان قادراً فلم يُعْرَضْ مَنْ فِيهِ لَلْقَاءِ الْعَرَبِ فِي مِيدَانِ مَكشُوفٍ ، وَاكْتَفَى بِأَنْ يَسُدَّ إِلَيْهِمُ الْفَيْلَ وَالْمَجَانِيقَ . وَلَا أُدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا حَدَثَ بَعْدَ نَفْيِ الْمُقَوْسِ . فَقَدْ رَفَضَ هِرَقْلُ إِقْرَارَ الصَّلَاحِ مَعَ عَمْرُو ، وَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ بِمَصْرَ هَذَا الرَّفْضِ فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ مِنْ دَيْسَمْبَرِ سَنَةِ ٦٤٠ ، فَانْتَهتِ الْهَدَنَةُ وَعَادَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ . وَكَانَ حِمَاةُ الْحِصْنِ قَدْ قَلَّ عَدَدُهُمْ ، وَلَمْ يَأْتِهِمْ مَدَدٌ مِنْ أَيَّةِ نَاحِيَةٍ ، وَكَانَتْ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا مُوَاطِيَةً لِلْعَرَبِ ؛ فَقَدْ انْتَهَى الْفَيْضَانُ وَهَبَطَ مَاءُ النَّيْلِ ، وَغَاضَ الْمَاءُ مِنَ الْخَنْدَقِ الَّذِي حَوْلَ الْحِصْنِ ، وَأَصْبَحَ فِي مَقْدُورِهِمْ مَهَاجَتُهُ . غَيْرَ أَنَّ الرُّومَ أَتَقُوا فِي الْخَنْدَقِ حَسَكَ الْحَدِيدِ عَوْضًا عَنْ مَائِهِ ، وَجَعَلُوا هَذَا الْحَسَكَ كَثِيفًا عِنْدَ مَدْخَلِ أَبْوَابِهِ ، فَصَدَّ هَذَا الْعَمَلُ الْعَرَبَ عَنِ التَّقَدُّمِ لِمَهَاجَةِ الْحِصْنِ وَأَخَذَهُ عَنُوتَهُ وَأَبْقَاهُمْ حَوْلَهُ شَهْرًا عِدَّةً اقْتَصَرَ الْأَمْرُ أَثْنَاءَهَا عَلَى تَرَامِي الْفَرِيقَيْنِ بِالْمَجَانِيقِ وَالسَّهَامِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِ حِمَاةِ الْحِصْنِ غَيْرَ هَذَا ؛ وَلِذَا رَدَّاهُمْ الْعَرَبُ إِلَى الْحِصْنِ كُلِّ مَرَّةٍ خَرَجُوا فِيهَا مِنْهُ يَحَاوِلُونَ لِقَاءَهُمْ . وَكَذَلِكَ تَصَرَّمَتْ أَشْهُرُ الشِّتَاءِ وَالْحِصْنُ يَقَاوِمُ . فَلَوْ أَنَّهُ جَاءَ الْمَدَدُ مِنْ نَقْيُوسٍ أَوْ مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَلَوْ أَنَّ هِرَقْلَ بَعَثَ مِنْ لَدُنْهُ بِقَائِدٍ مِنْ مَهْرَةِ قَوَادِهِ عَلَى قُوَّةٍ مِنَ الْجُنْدِ لِلدَّفَاعِ عَنْهُ ، لِتَغْيِيرِ وَجْهِ الْمَوْقِفِ ، وَلَلِقَى الْمُسْلِمُونَ فِي الْاسْتِيلَاءِ عَلَى هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ الْمُنِيعةَ مُشْتَقَةً كَبِيرَةً . لَكِنَّ الْمَرَضَ فَتَكَ بِأَهْلِ الْحِصْنِ وَلَمْ يَأْتِهِمُ الْمَدَدُ ، وَكَانَتْ عَيُونُهُمْ تَضَعُدُ كُلَّ يَوْمٍ فَوْقَ أَبْرَاجِهِ فَلَا تَرَى إِلَى أَيْمَدِ حُدُودِ الْأَقْفِ لِهَذَا الْمَدَدِ أَتْرَأَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانَتْ تَبْلُغُهُمُ الْأَنْبَاءُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَنَّ الْعَرَبَ يَشْتُونَ النَّارَاتِ عَلَى مَا حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَقْبَلَ شَهْرُ مَارَسٍ مِنْ سَنَةِ ٦٤١ وَجَفَّ مَاءُ النَّيْلِ أَوْ كَادَ . وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ جَاءَتْ الْأَنْبَاءُ بِمَوْتِ هِرَقْلٍ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ فَبْرَايْرِ سَنَةِ ٦٤١<sup>(١)</sup> فَاضْطَرَبَ الرُّومَ لِمَوْتِهِ أَيْ اضْطَرَابَ . مَعَ ذَلِكَ بَقِيَ الْحِصْنُ يَقَاوِمُ ، وَبَقِيَ الْأَمَلُ يَدَاعِبُ نَفُوسَ حِمَاةِهِ بِمَجِيءِ الْمَدَدِ لِإِنْقَاذِهِ .

وَكَانَتْ نَكْبَةُ هِرَقْلٍ فِي مَصْرَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي عَجَّلَتْ مَمِيئَتَهُ ؛ فَقَدْ حُمِّمَ بَعْدَ لِقَاءِهِ

(١) يَذْكَرُ بَتْلَرُ أَنَّ هِرَقْلَ مَاتَ فِي ١١ فَبْرَايْرِ سَنَةِ ٦٤١ ؛ وَفِي تَارِيخِ الْمَوْزَخِ أَنَّهُ مَاتَ فِي مَارَسٍ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ . « وَالْاضْطَرَابُ مِثْلٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ مِثْلُهُ فِي غَيْرِهِ » عَلَى تَعْبِيرِ بَتْلَرِ نَفْسِهِ . لَكِنَّ الْاِخْتِلَافَ لَا يَتَجَاوَزُ شَهْرِيَّ فَبْرَايْرِ وَمَارَسٍ سَنَةِ ٦٤١ عِنْدَ الْمَوْزَخِيِّينَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ .

المقوقس وأعجزه الاضطراب عن التفكير في إمداد بابليون أو تنظيم الدفاع عنها . ولم يفكر أحد غيره في هذا الأمر أن كانت الدولة كلها ترزح تحت عبء ثقيل من عار هزيمتها منذ استولى العرب على دمشق وعلى بيت المقدس ، وطردها الروم من الشام وساروا ينشرون الفزع في أرجاء مصر . على أن متانة أسوار الحصن وأبراجه طوّعت للذين ظلوا على قيد الحياة من حُماته أن يشتتوا للفرزاة إلى آخر شهر مارس والأيام الأولى من شهر أبريل . ولقد ضاق العرب ذرعاً بالشهور السبعة التي انقضت منذ حاصروا الحصن ، فهانت عليهم الحياة وهانت عليهم أنفسهم ، وذكروا فعال خالد بن الوليد بدمشق ، وسعد بن أبي وقاص بالمدائن ، ونُعَيْم بن مُقَرِّن بنهاوند ، فلم يروا أن يكونوا دون هؤلاء الأبطال بإقداماً وجرأة . وكان الزبير بن العوام أشدهم حساسة وأكثرهم على الموت في سبيل الله إقبالاً ، فقام في الناس فقال : « إني أهب نفسي لله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » . ثم أقبل بعد أيام تحت جناح الليل مع كتيبة أزرته فطمموا الخندق المحيط بالحصن في موضع اختاروه ووضعوا سلماً على السور علاه الزبير بعد أن أمر أصحابه إذا سمعوا تكبيره أن يرقوا إليه وأن يجيبوه جميعاً . واستوى الزبير بأعلى الحصن وانطلق يكبر ويسيفه يلعق في يده ، فتمعه أصحابه وصعدوا السلم وساروا إلى جانبه وكبروا معه ؛ وأجاب المسلمون من خارج الحصن تكبيرهم ، فلم يشك الروم في أن العرب قد اقتحموا الحصن فهربوا ، وعهد الزبير إلى باب الحصن ففتحه ودخل المسلمون واستولوا على ما فيه .

هذه رواية . وتذهب رواية أخرى بتل عن الطبري إلى أن الزبير علا الحصن مع أصحابه ، وأناموا من كان هناك من حرسه وملكوا رأسه وأرادوا الهبوط إليه فألقوا حُماته بنوا حائطاً يعترض المشى الذي فوق السور من تلك الناحية فأقاموا حيث كانوا . فلما بكر الصبح عرض قائد الجند في الحصن على عمرو أن يسلمه إليه على أمان من فيه من الجند ؛ واعترض الزبير على الصلح وقال لعمرو : لو صبرت قليلاً نزلت من السور إلى داخل الحصن ، ولسكان الأمر على ما نشتهي ، ولم يقف عمرو عند قوله ، بل كتب عهد الصلح مع قائد الحصن ، على أن يخرج الجند منه في ثلاثة أيام فيركبوا النهر ومعهم قوتهم لبضعة أيام ، تاركين الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب للمسلمين . والطبري لا يورد مثل

هذا التفصيل . على أن المؤرخين المسلمين جميعاً يذكرون أن عمراً أجاب المقوقس إلى الصلح على الجزية بعد أن اقتحم المسلمون الحصن . فإذا صح أن المقوقس لم يكن بالحصن وكان قد نفي بعد ذهابه إلى هرقل ، فلعل قائد الحامية هو الذى صلح عمراً على ما جاء فى رواية بتلر .

خرج جند الروم من الحصن فى اليوم السادس من شهر أبريل سنة ٦٤١ من ميلاد المسيح ؛ لكنهم أبوا ، فى هذا اليوم الذى انسحبوا فيه يجلب هامهم الخزى والمار ، إلا أن يجملوا منه للمصريين يوم نواح وحسرة ؛ فقد سحبوا القبط الذين سجنوهم داخل الحصن أثناء الحصار ، وقطعوا أيديهم ، ونكّلوا بهم تنكيلاً أثار الأسقف المصرى حنّاً . النقيوسى مؤرخ ذلك العهد ، وحمله على أن يسبهم فى ديوانه وأن يسميهم : « أعداء المسيح الذين دتسوا الدين برجس بدعهم ، وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلا عبدة الأوثان ولا الممّج ، وعصّوا المسيح وأذّلوا أتباعه ، فلم يكن فى الناس من أتى بمنل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان » .

خلص الحصن للمسلمين بعد خروج الروم منه ، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل الفتح العربى لمصر . ولقد كان لهذه المرحلة من الخطر ما تشهد به الحوادث التى وردت فى هذا الفصل . وقد استطاع عمرو بآناته وحكمته وحسن رأيه أن يدور حوله هذا الخطر حيناً ، وأن يقتحمه حيناً آخر ، حتى اجتازه آخر الأمر رافعاً لواء النصر والظفر . فلندعه الآن يجلس بين جنده يجمّون جميعاً ، ثم يدبّر هو لتنظيم ما فتحة من الأقاليم ، ليكتب بعد ذلك إلى عمر يستأذنه فى السير إلى الإسكندرية .

ولم يكن لديه ريب ، يوم بعث يطلب هذا الإذن ، فى أن الله قد مهّد له السبيل لإدراك بعيته ؛ فقد رأى من كراهية القبط للروم ، ورأى من تخاذل الروم وضعفهم ، ما ثبت فى نفسه اليقين بأن طاحمة الإسكندر الأكبر ستفتح أبوابها أمامه ، وستتلقاه كما تلقت يُلْيُوس قيصر وأنطونيوس من قبل ، وأنه سيجلس بها على عرش البطالسة . والرومان ، كما جلس سعد بن أبى وقاص بالمداين فى إيوان الأكاصرة من بنى ساسان . ولعله كان يستعجل إذن أمير المؤمنين بالسير بعد أن رأى جيشه قد جم ، ورأى الأرض



من حوله دانت له . فقد أمر بعد ما استتب له الأمر ، فأقيم جسر من السفن بين الحصن  
وجزيرة الروضة ، وبين الجزيرة والجيزة ، فوصل بذلك بين شاطئ النهر ، وتيسر له  
الإشراف على ما يجري فيه من السفن والبضائع . ثم إنه نشر جنوده فيما استولى عليه من  
الأقاليم ، فرأى القبط من جنود الحرس الوطنى ينظرون إليهم شزراً ويقولون : ما أرتت  
العرب وأهون عليهم أنفسهم ! ما رأينا مثلنا دان لهم ؛ نخاف أن يثير هذا الأمر القبط بهم  
فأمر بـجُزُرٍ فذُبجت وطبخت بالماء والملح ، ودعا القبط فأجلسهم إلى جانب جنده من  
العرب ، فجعل العرب يحتمسون المرق وينهشون اللحم على نحو زاد زراية القبط عليهم ،  
وزادهم طمعاً فيهم . فلما كان الغد أمر بطعام من ألوان مصر فصنع ، وأمر جنده أن يجيئوا  
في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، ودعا القبط كما دعاهم أمس ، فأكل العرب أكل أهل  
مصر ونحوها نحوهم ، ففترق القبط بعد الطعام وقد راهبهم ما رأوا . ثم أمر عمرو جنوده  
بكرة الغداة فتسلحوا للعرض فعرضهم على أعين القبط ، ثم قال لهؤلاء : إني قد علمت  
أنكما قدر رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم ، فخشيت  
أن تهلكوا ، فأردت أن أريكم حالهم وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم .  
ثم حالهم في الحرب . ففترق القبط وهم يقولون ؛ لقد رمتكم العرب برجلهم . وفي رواية  
أنهم قالوا : إن العرب قوم لا يُغلبون وقد وطئونا تحت أقدامهم . وبلغ عمر ما صنع عمرو  
فقال جلسائه : إن عمراً يقاتل بالقول ، وغيره يقاتل بالسيف ، أو قال : والله إن حربته  
للينة ما لها سطوة ولا ثورة كثورات الحروب من غيره .

خشع القبط حين رأوا بأس العرب ودابوا لهم ؛ بل لقد اختار جماعة منهم الإسلام  
فدخلوا فيه ، فساوهم ذلك بالمسلمين وأعقام من دفع الجزية ، وإن عرّضهم لعنة بنى قومهم  
وأخذ هؤلاء القبط الذين أسلموا يساعدون إخوانهم العرب في اقتضاء الجزية واستصفاء  
أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم . بذلك كله توطّد سلطان عمرو على  
ما تحت يده من الأرض وازداد بسطة ، وأصبح في مقدوره أن يسير إلى الإسكندرية  
مطمئناً متى أذن له أمير المؤمنين في السير إليها .

لم يكن جند عمرو دونه رغبة في السير للقتال ؛ فقد سما النصر على حصن بابليون

ومن فيه بقوتهم المعنوية سموًا كبيراً ، وثبتت في نفوسهم ما ثبتت في نفس عمرو من اليقين بأن الله معهم ، وأنهم لا غالب لهم . وبهذا الروح كله العزة والأثفة كانوا يجوسون خلال الديار ، ويتنقلون حيثما شاءوا من الأرض ، ويفشون ماشاءوا أن يفشوه من مدن الفراعنة وآثارهم الباقية في هذه البقعة الناطقة في صمتها بجديث التاريخ كله ، والتي شهدت فجر الحضارة ، ورأت مولد الضمير الإنساني وتفتتح عينيه . فإذا عادوا إلى عسكرهم آخر النهار عادوا وقد ملأ الإعجاب أفئدتهم وملك عليهم حواسهم ، فلم يتناول حديثهم إلا ما شهدت أعينهم من هذه الآثار الخالدة ليس من آثار العالم ما يدانيها عظمة وجلالا . ومن هذه الحياة الزاخرة في مدينة منف وفي ضرتها مصر القائمة قبالتها على النيل تنافسها في عظمة الحياة ثم تقصر دونها حين ينطق التاريخ بما لمنف على الأجيال من مجد وسلطان .

وكان ما أنارته منف بجلال آثارها أعمق أثرًا في نفوسهم من الحضرة الزاهية والنعيم المقيم الذي تراه أعينهم في كل ماحولهم من الأرض الخصبية المعطاء . لقد رأوا مثل هذه الحضرة في العراق والشام ، وقد ملأوا منها أعينهم منذ نزلوا مصر فزادتهم إيمانًا بقدرة الخالق الباري جل شأنه . لكنهم رأوا بمنف ما لم يكن عليه قيام الإسكندر ، وما لم يروا له في غير منف من مدن العالم نظيرًا . رأوا آثاراً تحدث عن حضارة الفراعنة الأقدمين وعبادتهم حديثًا عجبًا . كان فيها منعب «فتاح» الضخم الفسيح ، تُعبد فيه الشمس كما كانت تعبد بالكرتك في طيبة . وكان بظاهرها معبد السرابيوم ، مقام العجل أيس ، محاطًا بكل مجالى الإجلال والإكبار . وكان أمام هذا المعبد صقان طويلان من آباء الهول يلقيان في رُوع الداخل إليه الهيبة . وكانت قبور العجول المقدسة قائمة وراء المعبد تأخذ عظمةها بالنظر ثم لا تحول هذه العظمة دون العجب من قوم يُحدث ما تركوا من صور وتمائيل وملاعب وعمائر كلها العظمة عن سمو مكاتهم من الحضارة . ذلك كان شأنهم في تصوير معبوداتهم ، وفي إقامة ما أقاموا لهذه العبودات ورموزها من تماثيل بارعة يخطئها المد فكيف أنسام رهبانهم وفراعنتهم عبادة الله الواحد الأحد تؤمن به القلوب المضيئة بنور الحق اصدق تعالى : ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ) ولذلك عمت المسيحية هذه الألوان والطقوس من العبادة : وهاهو ذا الإسلام

يسير جنده في أرض القراعنة ، وتحقق أعلامه فوق ربوعها ليقرّ فيها دين الحق إلى يوم الدين .

وأين يستقر الحق إن لم يستقر في جنة الله على الأرض !! ومن ذا يُقرّه فيها إلا جنود الله الذين وهبوا أنفسهم لله مخلصين له الدين حنفاء . لذلك لم تجذب منف بجهاها هؤلاء الجنود للبقاء حولها ، بل كان الشوق للسير إلى الإسكندرية يحرك نفوسهم بالقوة التي كان يحرك بها نفس قائدهم ، ويدعوه إلى استعجال الإذن من أمير المؤمنين بهذا السير . ولم يبطل هذا الإذن ؛ فقد عرف عمر أن النيل يعود بعد ثلاثة أشهر إلى مدّه . وفيضانه ، وأن الخير في أن يسير جيش مضر يفتح عاصمتها قبل أو ان هذا الفيضان . وما لبث ابن العاص حين تسلّم الإذن بالسير أن خلف في حصن بابليون مسلحة من المسلمين جعل عليها خارجة بن حذافة السهمي ، ثم سار على رأس جيشه يريد المدينة العظيمة ، مستقر الجمال والعلم والفن في العالم كله .

## الفصل المتم للمشرين

### فتح الإسكندرية

يجمل بنا قبل أن تتابع مسيرة الغزاة العرب إلى مدينة الإسكندر أن نتخطى مياه بحر الروم إلى البسفور ، لنرى من حوله ما تضطرب به أحشاء الإمبراطورية الرومية ، وما يبدو من أثر هذا الاضطراب في عاصمة قسطنطينية .

فقد مات هرقل بالقسطنطينية والاضطراب يسود بلاطه بسبب ما أصاب الإمبراطورية من النكبات في الشام وفي مصر . وازداد البلاط بموته اضطراباً ، وفشت فيه دسائس الطامعين وذوى المآرب من الأشراف ومن رجال القصر . ولقد عظم أمر هذه الدسائس في شؤون الدولة ؛ لأن الأمر لم يؤل بعد هرقل إلى عاهل ذى حزم وقوة ، بل آل إلى ولديه « قسطنطين » و « هرقلينوناس » وهما أخوان لأب ، وإلى « مرتينا » زوج هرقل وأم هرقلينوناس التي شاركتها في الحكم . وقد حاولت مرتينا أن تستأثر بالأمر كاستئثارها به في العهد الأخير من حياة زوجها ، في حين كان قسطنطين أكبر الأخوين وآثرهما عند الناس ، وكان له بسبب ذلك حزب قوى يؤيده . ونشأ عن ذلك ما كان لا بد أن ينشأ عنه : جعل كل شريف وكل عظيم غاية همهم أن يكسب لنفسه الجاه والسلطان بالزنى إلى الإمبراطورة أو إلى قسطنطين ، أو بالاثمار مع مرتينا على ابن زوجها ومع قسطنطين على زوج أبيه . بذلك سادت بلاط بزنية حال كالتى سادت بلاد فارس قبل أن يعتلى يزدجرد عرش الأكاسرة ، فكان ذلك مما أعان المسلمين على الأسدين ، فارس والروم ، ومكثهم من الظفر بهم .

مع ذلك كان الناس يتطلعون إلى هذا الثالث الذى جلس على عرش هرقل ؛ يرجون في حكمته ما يتخذ الإمبراطورية مما هوت إليه في السنوات الأخيرة من عهد العاهل الشيخ العظيم الذى سما به الحظ في أول حكمه إلى ذروة رفعت اسم هرقل فوق السماء ، ثم قذف

به في آخر أعوامه من هذه الذروة الشاهقة إلى حافة الهزيمة والعار . وكانت مصر وما يجري فيها وما يمكن عمله لإتقادها ، أول ما يشغل رجال الدولة وأهل بزنتية جميعاً . فضياع مصر وغلاتها معناه نقص الأقوات في أرجاء الإمبراطورية كلها . لذلك أسرع قسطنطين فبعث إلى قبرس فجاء به من منفاه ، كما دعا أحد قادة الروم في مصر ليشير عليه بما يجب للدفاع عنها . واغتبطت مَرْتِينَا بدعوة قبرس لعلها يجدها إليها وثقتها بدهاء البطريق وقوة مكره . وكان قبرس لا يزال على رأيه الذي صرح هرقل به ، ولكنه أظهر الاقتناع بمحجج الذين يرون ألا يدخل الروم في صلح مع العرب . ووعد قسطنطين بإرسال الأمداد الكبيرة إلى مصر ، وأمر بتحميز السفن التي تحمل تلك الأمداد . وأبدت الإمبراطورة مرتينا من الحماسة لهذا كله ما ضاعف حماسة الشعب واغتباطه . لكن هذا الشعب لم يلبث أن فوجيء باغتيال قسطنطين ووفاته بعد مائة يوم من وفاة أبيه . لذلك أسرع الناس إلى اتهام مرتينا بأنها دبّرت موته ، وعمل جانب من البلاط والنبلاء على ترويح هذا الاتهام وكان كونستاس بن قسطنطين ممن أعلنوا هذه التهمة . وأداعوها ؛ فأدى ذلك إلى ثورة الناس بمرتينا وانتقاضهم عليها ، وإلى وقوف الأمداد دون السير إلى مصر . وعبثاً حاولت مرتينا أن تكذب ما يُنسب إليها ، وأن تستخلص العرش لابنها هرقيوناس . فقد اتخذت محاولتها استخلاص العرش لابنها حجة عليها . فنار الجند كما نار الشعب بها . وظلّت هذه الثورة وارية الضرام أشهراً ، ثم انتهت إلى مبايعة كونستاس ابن قسطنطين شريكاً لهرقليوناس في ولاية الأمر .

رأى قبرس أن الثورة موشكة على نهايتها ، وأن كونستاس سيرث مكان أبيه من العرش ، فأسرع بالسفر إلى مصر ، متفقاً مع مَرْتِينَا وابنها . وسافر معه عدد كبير من القسوس وجيش أعد مدداً لقوات الروم المدافعة عن مصر . ولعله أدخل في روع الإمبراطورة أن هذا الجيش سيكون قوة لها في أرض الفراغة ، وأنها تستطيع أن تلجأ هي وابنها إليه إذا عادت دسائس خصومها في بزنتية فأثارت الشعب بها كرة أخرى . وبلغ الأسطول الذي أقل قبرس ومن معه عاصمة مصر في شهر سبتمبر سنة ٦٤١ ، فاستقبل أهلها البطريق الشيخ استقبال البطل الفاتح الذي جاء من قبل قيصر يتقد

مدنيتهم ، وينفذ دينهم ، وينفذ الإمبراطورية (١) .

(١) يذهب بتلر إلى أن القائد الرومي الذي استدعاه قسطنطين من مصر ليشير عليه حين استدعى قيرس من منفاه إنما هو تيودور قائد الجند العام ، ويذكر أن مرتينا أرادت أن تجعل تيودور على رأس الجند الداهب في الأسطول الذي أقل قيرس إلى مصر ، وذلك لما كانت تعرفه من حب الجيش له ، ولأنها خشيت أن ينضم إلى خصومها إذا بقي بالقسطنطينية . وهو يزعم بعد ذلك أن تيودور رأى ما يفمر جو البلاط من دسائس اضطرت مرتينا بسببها أن تغادر عاصمة الإمبراطورية إلى رودس ، ورأى خصوم مرتينا يأمرّون بها ويعملون على التخلص منها ، فأثر الذهاب إلى قرطاجنة إثارةً لاعافية ، أو ترهباً للحوادث أن تتيح له فرصة كالتى أتاحتها لهرقل من قبل ، فإذا بدت هذه الفرصة لتيودور ذهب بجيشه إلى القسطنطينية وخلع الثالث الضعيف عن عرشها واستأثر به لنفسه ، متأسيماً بهرقل حين أسر فوكاس وخامه وقتله . وأسرت تيودور ذلك في نفسه وأظهر الإذعان لأمر مرتينا ، واستقل الأسطول مع قيرس وجند الروم إلى مصر فلما كان ذات ليلة أسرت إلى رمان السفينة التى هو فيها أن يتجه به غرباً صوب قرطاجنة . وتظاهر الرمان بالنزول على أمره ، ثم زعم أن الريح قصد السفينة عن الاتجاه إلى الغرب وألنى تيودور نفسه ينزل الإسكندرية مع قيرس ، وألنى الناس بها يستقبلون الطريق الشيخ استقبال البطل الفاع .

ويستند بتلر في رأيه هذا إلى عبارة وردت في كتاب حنا النقيوسى . ولكنه يذكر أنه تصرف في هذه العبارة بعض التصرف . فعبارة حنا أن الإمبراطور : أرسل إلى انستاسيوس ليأتى إليه ويتكلم نيودور على حراسة الإسكندرية ومدائن الساحل « وقد أبدل بتلر اسم انستاسيوس باسم تيودور . وهذا هو التصرف الذى يشير إليه . وذلك لأن تيودور كان القائد العام ولأن حنا نفسه ذكر أن انستاسيوس كان حاكم الإسكندرية قبل عودة قيرس إليها ، كما ذكر أن تيودور كان مع قيرس في رودس وأنه عاد معه من هناك إلى الإسكندرية .

ولا شبهة عندنا في أن بتلر قد أخطأ في مخالفة حنا النقيوسى ، وفي القول بأن قسطنطين دعا تيودور ولم يدع انستاسيوس . والتواريخ التى اعتمدها بتلر أقوى شاهد على خطئه . فقد ذكر أن المسلمين ساروا من بابلون يربدون الإسكندرية في شهر مايو سنة ٦٤١ ، وأنهم بلغوها وحاصروها في شهر يونيو بعد أن التجموا بالروم في عدة مواقع مفصلة في صلب هذا الكتاب . وبتلر نفسه يسلم بأن تيودور كان قائد الروم في بعض هذه الحملات ، ويذكر ذلك صراحة ، فإذا كان قسطنطين قد دعا تيودور إلى القسطنطينية واقبى بها . فلا بد أن ذلك كان قبل شهر مايو ؛ لأن قسطنطين مات في الشهر المذكور . وفي هذا الشهر وفي شهر يونيو كان تيودور يتولى قيادة الجند في قتال العرب بنفسه . ومن المستحيل أن يجتمع هذان الأمران في وقت واحد .

أما استناد بتلر إلى أن تيودور عاد مع قيرس إلى الإسكندرية فلا يغير شيئاً مما سبق . فهو إن صح لا يدل على شيء إلا على أن تيودور ذهب إلى رودس أثناء حصار الإسكندرية ، ثم عاد منها مع قيرس ، وأنه أسند القيادة أثناء غيابه إلى انستاسيوس الذى أسرع بالعودة إلى مصر بعد موت قسطنطين . ويلاحظ مع هذا أن التواريخ التى اعتمدها بتلر بعد تمحيص وبحث جديرة بإعادة النظر فيها . ولا أسوق لإلا دليلاً واحداً من أدلة كثيرة تؤيد ذلك . فقد ذهب بتلر إلى أن هرقل مات والعرب لا يزالون يحاصرون بابلون وقبل أن يسيروا إلى الإسكندرية بأشهر ، على حين يكاد يجمع مؤرخو المسلمين على أن هرقل مات بعد خمسة أشهر من حصار الإسكندرية ، ثم يوافق كثيرون من المؤرخين الأوروبيين قول المؤرخين المسلمين ويقرونه . فنحننا والمالة هذه أن نأخذ بالحقيقة ، وأن ندع مواضع الشبهة في تواريخ ذلك العهد المليء بالتناقض والاضطراب .

أفكان لقيس خُطة مرسومة وسياسة ذاتية جاء بها إلى مصر؟ يذهب بتلر إلى أنه جاء وطيد العزم على مصالحة العرب، وأنه . « من غير شك حمل الإمبراطور — وهو غير ربي لا رأى له — على الإذعان للعرب والتسليم لهم ، كما حمل على رأيه هذا مجلس الشيوخ المُستضعف ، ورجال البلاط وهم من أهل العجز والخور . . . ومن الجلي فوق ذلك أنه استمال الإمبراطورة مرتينا إلى رأيه الضعيف ، لاسيما وقد كان أنصارها ممن يرون مصالحة العرب . وإن كلفهم ذلك ما كلفهم . وكانت هي دائماً ترمي في سياستها إلى التسليم والإذعان وذلك كان رأى قيرس الذي ظل يجاهر به في كل حين » . وفسر بتلر رأيه هذا بأن قيرس كان « يريد أن يزيد في سلطانه الديني بالإسكندرية ، وأن يُقيمه على أطلال الدولة بعد خرابها . ولسنا نجد رأياً آخرأ أكثر ملاءمةً لما بدا منه ، فهو خيرُ رأيٍ نستطيع به أن نُدرك ما كان بينه وبين عمرو من صلوات خفية ، وما قارفه من خيانة دولته الرومانية فلنصفه بأنه كان خائناً للدولة في سبيل ما توهمه صلاحاً للكنيسة » .

أراني في حلٍّ من مخالفة بتلر في مذهبه هذا . ومن القول كره أخرى بأنه متأثرٌ فيه بنزعه للمسيحية أكثر من تأثره بوقائع التاريخ . فقد كان قيرس يعلم تمام العلم أن المسلمين يكفلون حرية العقيدة لأهل البلاد التي يفتحنونها ، وينصون على ذلك نصاً صريحاً في المعاهدات التي يعقدونها معهم . كذلك فعلوا في الشام وفي العراق في عهد أبي بكر وفي عهد عمر . وما كانوا ليخالفوا سُنتهم هذه في مصر . وهم إذ يفرضون الجزية على أهل البلاد المفتوحة إنما يفرضونها لقاء تأمين دافعها على أنفسهم وذرائعهم وأموالهم وعقائدهم ومعايدهم ، لا يفرضون في هذا التأمين بين الملكانيين والمينوفيسيين ، ولا بين الروم الحاكمين والقبط المحكومين . ولا نحسب قيرس غرته نفسه فظن بها القدرة على أن يلعب بعمرو بن العاص داهية العرب أو أن يخدعه ، فيسترد لنفسه ما كان له من قبل من حرية الاضطهاد والعسف ، فإذا صح ما ظنه بتلر من أن قيرس جاء إلى مصر معتزماً بمصالحة العرب ، فلم يكن ذلك لغرض ديني أو لغرض سياسي ، بل لأنه رأى قتالهم غير مؤدٍّ إلى نتيجة إلا هزيمة الروم واندحارهم . وبخاصة بعد أن فشت الدساس في بلاطهم فزادتهم ضعفاً وأذنت دولتهم بالتدهور والانحلال .

وما لنا نسبق الحوادث فنتحدث عن مقاصد قيوس وسياسته ، مع أن الحوادث ستحدد هذه السياسة تحديداً لا يبقى معه مجال للأخذ بالظن . فلندع قيوس بالإسكندرية ولنعد إلى بابلون لتتابع المسلمين في مسيرتهم إلى غايتهم .

فقد فصل عمرو بجنده من بابلون في شهر مايو من تلك السنة ، أي حين كان الاضطراب لمقتل قسطنطين قد بلغ أشده في عاصمة الإمبراطورية الرومية . وقد آثر عمر السير على الضفة اليسرى للنيل حيث مديرية البحيرة اليوم ، حتى لا تقف الترع التي تشق جنوب الدلتا بمديرية المنوفية في طريق جيشه . وقد استطاع أثناء مقامه ببابلون أن يستعين بالقبط الذين دخلوا في سلطانه على إصلاح الطرق وإقامة الجسور ، فكان ذلك مما أعانه على سرعة السير . واستصحب عمرو في مسيرته جماعة من رؤساء القبط اصطفاهم وأحسن معاملتهم ليكونوا أداة اتصال بينه وبين من يلقاهم من أهل البلاد .

كان الاستيلاء على « نقيوس » وحصنها المنيع أول ما فكر عمرو فيه ، وكانت نقيوس تقع على ضفة النهر اليمنى على فراسخ إلى الشمال من منوف ، وكانت منوف سلطان المسلمين كما قدمنا . وقد آثر الروم أن يلقوا عمراً قبل أن يبلغ نقيوس ليصدوه عن عبور النهر إليها ، وأن يلقوه لذلك أثناء مسيرته على الضفة اليسرى ، فإبطوا له عند « طرنوط » أو « الطرانة » كما يسميها بعض المؤرخين ، وهي تقع على النيل قبالة زاوية رزين إلى الجنوب من منوف . ولقيهم عمرو بها وأنشب القتال معهم ، فلم يجد مشقة في التغلب عليهم رغم استبسالهم في القتال .

تابع عمرو مسيرته حتى كان قبالة نقيوس وحصنها المنيع . وكان أكبر ظنه أن يعتصم أهل الحصن به وأن يجعلوا النهر بينهم وبين الغزاة ، لذلك أتجه إلى تدبير الوسيلة التي يعبر بها إليهم ، وشاور الرؤساء القبط الذين ساروا معه في هذا الأمر . ولم يدرك بخلافه أن بذر نقيوس وحصنها وراءه . وأن يتخطاها جميعاً في السير نحو العاصمة ؛ فقد خشى أن تخرج مسلحة الحصن منه وأن تدهم مؤخرته فتفسد عليه خطته . ولم يكن عبور النهر في هذه الأيام من شهر مايو بالأمر العسير ؛ فقد انخفض ماء النيل وركد تياره ، فأصبح اجتيازه في السفن أو فوق جسر منها في متناول الجيش الفاتح .



لكن الروم فكروا في الأمر غير تفكير ابن العاص ؛ فقد ألقى في روعهم أنهم إن يتركوه متابعاً طريقه إلى العاصمة دون مقاومة ، وبخاصة بعد أن انهزمت أمامه حامية طرنوط ، قَتَّ ذلك في أعضاء الناس فأسرعوا إلى التسليم والإذعان لهؤلاء الذين لا يقاومهم أحد . لذا خرج أمير الحصن في جنده جميعاً ، فركبوا سفناً أُعدت للدفاع عن المدينة ، وحاولوا صدَّ العرب دون غايتهم . ورآهم عمرو في السفن ورأى منهم من حاول الخروج للوقوف في طريقه ، فأمر رجاله فرموهم بالنبل ، فارتدَّ الذين تركوا السفن إليها وحسبوا ملجأً يقيهم الالتحام بعدوِّهم . ولم يدعهم فرسان المسلمين يفرون ، بل طاردوهم إلى الماء وجعلوا يرمون من فيه بالسهم . وخيَّل إلى القائد الرومي أن المسلمين سيقتمون النهر إليه . ولعله كان قد سمع بصنيعهم حين عبروا دجلة إلى المدائن على خيولهم ودجلة في فيضه وتدفع تياره ، فأمر ملاح السفينة التي كان بها فانطلقت مسرعةً تولى به فراراً إلى الإسكندرية . ورأى جنده صنيعة ، فوضعوا سلاحهم وألقوا بأيديهم وجعلوا النجاة من الموت غاية همهم . ولم يُفلِّهم العرب بغيتهم ، بل حصروهم وقتلواهم عن آخرهم ، ثم دخلوا المدينة من غير مقاومة بعد أن خلت من المدافعين عنها .

يقول حنا النقيوسي مؤرخ ذلك العصر : إنهم دخلوا المدينة « فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها ، ولم ينج من دخل الكفانس لائذاً ، ولم يدعوا رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد ، فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها . فلما دخلوا مدينة « صوونا » وجدوا بها « اسكوتاوس » وعيلته ، وكان يمت بالقرابة للقائد تيودور ، وكان محتبباً في حائط كرم مع أهله ، فوضعوا فيهم السيف فلم يُبقوا على أحد منهم . ولكن يجدرُ بنا أن نُسدل الستار على ما كان ؛ فإنه لا يتيسر لنا أن نسرِد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس<sup>(١)</sup> . وهذه العبارة التي أوردها بقر من كتاب حنا لا تخلو من مبالغة ؛ ولذا علق عليهم مترجم بقر الأستاذ محمد فريد أبو حديد بقوله : « أغلب الظن أن هذه مبالغة من الكاتب ( حنا النقيوسي ) دفعته إليها غيْرته وحقده على الغالبين من العرب ؛ إذ كان من أوَّل أصول العرب في الحرب ألا يقتلوا

(١) فتح العرب لمصر ؛ الترجمة العربية : ص ٢٤٨ .

من استسلم ، وألا يقتلوا امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً ، يأمرهم بذلك دينهم يحضهم عليه . أمر خلفائهم الأولين إلى القواد والجنود .

أقام عمرو بنقيوس يستبرئ ما حولها من الأرض ويطهرها من كل أثر للروم ، وبعث شريك بن سُمَيَّ على كتيبة لتمقب الروم الذين فروا من نقيوس يريدون الإسكندرية . وأدرك شريك الروم الفارين ، فأرأه ومن معه قلة لا تستطيع ثباتاً ، فارتدوا إليهم وأحاطوا بهم . ورأى شريك كثرتهم ، ورأى نهذاً من الأرض قريباً منه . فاعتصم به وحاربهم من فوقه . لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه مخذولٌ إذا لم يُسعفهُ مددٌ ، فأمر مالك بن ناعمة الصّدْفِيّ ، وكان صاحب فرس لا يُسْقُ في الجري غباره ، فانحطّ من ذلك النهدي على الروم فاقتحم صفوفهم ، وطار عدوّاً إلى عمرو بنقيوس ولم يدركه أحد . وأمدّ عمرو شريكاً لأول ما بلغه حرجُ موقفه . وعرف الروم مسير المدد فلاذوا بالفرار من قبل أن يلقوه . من ذلك اليوم أطلق على النهدي الذي وقع القتال حوله اسم القائد العربي الذي اعتصم به ، فهو يعرف إلى يومنا باسم « كوم شريك » .

وأدرك عمرو شريكاً والذين معه ، وسار في قوته الكاملة تاركاً فرع رشيد عن يمينه ، متابعاً الفرع الكانوبي المؤدى إلى الإسكندرية . وعلم أن الروم أعدوا للقائه عند سُلْطَيْسَ على ستة أميال إلى الجنوب من دمنهور ، فقصده إليهم واشتبك معهم ، ودار بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة الروم . وما كان لهم ألاّ ينهزموا وإيس . ثمّ حصون يمتنعون بها ، ولقد فروا بعد هزيمتهم فلم يقفوا بدمنهور ، بل لم يقفوا دون حصون كَرَبِيّونَ آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية ، وهناك انضموا إلى سائر جيش الروم ، وتأهب الجميع للقتال يقودهم تيودور .

وقدر تيودور قائد الروم الأكبر في مصر أنهم إن نهزموا بكريون تنكشف العاصمة أمام العرب ، فيغريهم ذلك بحصارها والتضييق عليها . ولئن كانت حاميتها قوية والدفاع عنها يسيراً ، إن الخير كل الخير في الحيلولة بين الغزاة وبلوغ أسوارها ما كان إلى هذه الحيلولة سبيل . لذلك خرج بنفسه إلى كربون في جند عظيم اطمأنّ به إلى قدرته على الوقوف عندها وصدّ الغزاة دونها . وزاد في اطمئنانه أن الروم كانوا قد رموا حصون

كاريون وزادوها قوة، وأن ترعة الشعبان أمامها كانت تحمي المدافعين عنها، وأن الطريق بينها وبين الإسكندرية كان معبداً يحمل المدد الكثير إذا أحوج الأمر إلى مدد - وإذا عرف الروم في المواقع المحيطة بكاريون أن الموقعة حاسمة، وأن لها لذلك ما بعدها، فقد أقبلوا من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ يعززون تيودور وجنوده. أقبلوا من خَيْس ومن سَخَا ومن بَلْهَيْب ومن غيرهما من البلاد، وانضموا إلى صفوف الإمبراطورية يؤيدونها ويزيدونها بأساً وقوة.

كم كان عدد الجند الذين بلغ بهم عمرو كاريون؟ لم يذكر المؤرخون ما يفيد أن أمير المؤمنين بعث إلى مصر غير الاثني عشر ألفاً الذين سبق أن ذكرناهم. وقد خاض هؤلاء معارك عدة قُتِلَ منهم فيها لا ريب عدد غير قليل، وقد ترك عمرو منهم مَسَالِحَ في البلاد التي فتحها ليحفظوا الأمن والنظام فيها، وليكفلوا السكينة في ربوعها. أتراه استعان بمن والاه من القبط فأدخلهم في جيشه؟ أم تراه استعان بالبدو الضاربين في صحارى مصر شرقاً وغرباً على نحو ما فعل بعد انتصاره في القَرَمَا؟. يتعذر القول بأيٍّ من هذين الاحتمالين. وأغلب الظن أن أمير المؤمنين أمدَّ عمراً بمدد جديد بعد ظفره بحصن بابليون وحين أذن له في السير إلى الإسكندرية. ولم يكن إمداده في ذلك الوقت متعذراً؛ فقد كانت مسالح البصرة والكوفة هي التي تُمِدُّ جيوش المسلمين في فارس، وكانت الشام قد سكنت إلى حال من الطمأنينة لم يبق معها خوف من انتقاص أهلها بحكمهم، وكان الروم في شغل بمصر عن محاولة الرجعة إلى الشام أو مهاجمة ثغوره، فضلاً عن اشتغالهم بما فشا من الدسائس في بلاطهم. فإذا ذكرنا مع ذلك كله أن عمر لم يَصْنَعْ يوماً على أمراء جنده في مختلف الميادين بمدد، وأنه وعد ابن العاص أن يمدّه إذا دخل مصر، كفا في حلٍّ من القول بأنه أرسل إليه الجند تلو الجند بعد الذي صادفه من نجاح في فتح مصر، وأن عمراً سار إلى الإسكندرية وفي إمرته ما يزيد على خمسة عشر ألفاً إن لم يزد على عشرين ألفاً.

ولعله قد استعان بالمصريين وبالبدو في تعبيد الطرق وحراستها، وفي الحجى بالميرة إلى جيشه. بل لعله قد استعان بمن اطمأن إليه منهم، وجعله في المسالح التي تشرف على

الأمن وتحفظ النظام . أما الجند المقاتلون الذين كانوا يلقون الروم في المعارك فكانوا جميعاً من العرب المسلمين .

التقى عمرو والروم في كريون ، واشتدَّ القتال بين الفريقين شدَّةً لم تُؤلَّفَ فيما سبقها من المعارك ؛ وظلُّوا كذلك حتى فصلَ بينهم الظلام ولم يظفر أَى الفريقين بِخَصْمِهِ . بل لعل الروم كانوا أرجح في ذلك اليوم كِفَّةً لكثرة عددهم ، ولاستماتتهم في الدفاع عن مواقعهم ، ولأن حصون كريون كانت تحمى ظهورهم وتشدُّ أزرهم . واستحضر القتال منذ الصباح في اليوم التالي ثم انفصل الفريقان في آخره كما انفصلا في اليوم الأول . وظلَّ القتال دائراً على هذا النحو بضعة عشر يوماً ، ترجَّح فيه كِفَّةً المسلمين تارة ، وترجح كفة الروم تارات . وقد أظهر الروم فيه من ضروب البراعة ومن شدَّة البأس وصلابة العود ما أدخل الرُّوع إلى نفوس المسلمين ، حتى لقد صلى عمرو يوماً صلاة الخوف ركعةً وسجدتين مع كل طائفة من جنده على أن بأس الروم لم يُذهب عزم المسلمين ولم يُضعِف روحهم ، بل زادهم حماسةً وإقبالاً على الموت . كان وُرْدان مولى عمرو بن العاص يحمل اللواء في مقدِّمة المسلمين ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقاتل إلى جانبه . وأصاب عبد الله في أحد أيام المعركة جراحات بالغة هاضته وأجهده ، فالتفت إلى جاره وقال له : « يا وُرْدان ! لو تأخرت قليلاً نصيب الرُّوح ! » يريد فترة يتنفس فيها وينفِّس بها عن نفسه . فأجابه وردان ، وهو يندفع أمامه واللواء في يده والحماسة آخذةً منه : « الرُّوح تريد الرُّوحُ أمامك وليس خلفك ! » واندفع عبد الله لسماع هذا الجواب يقاتل متقدِّماً غير عابئٍ بجراحه . وعرف أبوه ما أصابه ، فبعث رسولا يسأل عن حاله ، فكان جواب عبد الله أن تمثل بقول ابن الإطنابة :

أقولُ لها إذا جَشَّاتُ وجاشَتْ مَكَانَكَ مُحَمَّدِي أو تَسْتَرِيحِي

ورجع الرسول إلى عمرو بجواب عبد الله ، فرضى عنه وقال : هو ابني حقاً . وبهذا الصبر ، وبهذه الحماسة ، وبهذا الإقبال على الموت لايهابونه ، فتح المسلمون مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها .

كيف كان انتصارهم ؟ وماذا كانت فعالهم ؟ وكيف انهزم الروم بعد الذي أبدوه من براعة وأظهوره من بأس وقوة احتمال ؟ ذلك ما لا يذكر المؤرخون عنه شيئاً ،

مع اتفاقهم على أن معركة كريون دامت عشرة أيام أو بضعة عشرة يوماً ، وأن الفريقين كانا يريانها حاسمةً بينهما . وكل ما يذكره ابن عبد الحكم . بعد الذي قدّمنا من صلاة الخوف ومن جراحات عبد الله بن عمرو ، قوله : « تم فتح الله للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلةً عظيمة . واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية » تلك هي بعينها عبارة السيوطي ومن أخذوا عن ابن عبد الحكم . وهذا القول على إيجازه ، وعلى أنه لا يصف فعال المسلمين وكيف كان انتصارهم ، صريح في أن هزيمة الروم كانت تامة مفكرة . أما بتل فيشتم من رواية حنا الفقيوسى أن تهقر الروم إلى الإسكندرية كان وتبدأ مع أن رواية حنا كما أوردها بتل لا تزيد على أن عمراً أرسل جيشاً عظيماً من المسلمين في الإسكندرية فلكوا كريون . فسار من فيها من قائدهم تيودور إلى الإسكندرية .

وهذا الإيجاز في تصوير معركة حاسمة دامت عشرة أيام أو أكثر ، يوجب الشيء الكثير من الأسف . فمعرفة العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين وهزيمة الروم . لها من غير شك قيمتها في الدلالة على الحالة النفسية للفريقين من ناحية ، وعلى الحالة النفسية للشعب المصري بإزاء الفريقين من ناحية أخرى . لقد استأسد الروم في أول الأمر وكانت الإسكندرية تدمم كلما احتاجوا إلى المدد . فما بالهم تقاعسوا في نهايته مع أنهم كانوا أضعاف المسلمين في العدد ، وكانوا في منعةٍ بحصونهم وبالمدد الذي تبعه العاصمة لهم ؟ أفكان ذلك لضعف في قيادتهم ومهارة في قيادة عدوهم ؟ أم كان سببه وصول أنباء إلى الإسكندرية بتفاقم الاضطراب في عاصمة الإمبراطورية ، وأن هذه الأنباء بلغت الجند في كريون فأضعفت معنوياتهم ؟ أم أن العرب وصلتهم أمداد قوّوا بها فاقحموا على عدوهم حصونه ؟ أم شعر المسلمون بحرج موقفهم فتعاهدوا على النصر أو الموت ، كما فعلوا باليامة وباليرموك ، فلم يستطع الروم في حرصهم على الحياة أن يصدّوا هجمة المسلمين ؟ أم كان للشعب المصري أثرٌ في موقف الفريقين بأن عاون العرب على الروم ، فكان لهذه المعاونة أثرها ؟ قد يكون لبعض هذه العوامل ، وقد يكون لها جميعاً أثرٌ في النتيجة التي انتهت المعركة إليها . وقد يكون ثمّ عوامل أخرى ، لا اتصال لها بها ، هي التي أدت إلى هذه النتيجة . نحن لا نستطيع على كل حال أن نثبت أن عاملاً بذاته كان سبب النصر ؛

لأن المؤرخين الذين أسهبوا ما أسهبوا في تصوير القادسيّة ، وفي تصوير اليرموك ، وفي تصوير نهاوند ، لم يذكروا شيئاً فيه غناء يمكن الاطمئنان إليه في بيان العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين وهزيمة الروم في كربيون .

على أننا مع ذلك نستطيع أن نستنبط من سياق الحوادث أن موقف المصريين لم يكن له أثرٌ يذكر في نتيجة المعركة ؛ فهم كانوا يمتقنون الروم في أعماق قلوبهم أشد المقت ، فلم يكونوا يبذلون لهم أى عون إلا مكرهين . وهم كانوا مع ذلك في ريبٍ من مقاصد المسلمين بإزائهم ، وبخاصة أن هؤلاء المسلمين كانوا ، بحكم الحرب ، يأخذون لأنفسهم من أموال المصريين كل ما يحتاجون إليه ليرتحم وذخيرتهم ، وكانوا يعاملون من لا يدعون لهم من أهل البلاد معاملة بطش وقسوة . هذا إلى أن أهل البلاد كانوا قبل مجيء العرب في ثورة دائمة بالروم ، وكانوا يرجون أن تُتيح لهم هزائم هرقل بالشام فرصة التخلّص من حكمه وحكم عماله . ليستقل المصريون بأمر بلادهم ، فيرتفع الظلم والعسف عنهم وتخلّص لهم خيرات أرضهم . أتى العرب إذا غلبوا الروم على مصر إلا يَحْتَلُونَ محلهم فيها ، ويستأثرون بالسلطان على أهلها ، ويختصون أنفسهم بما كان الروم يختصون أنفسهم به من خيراتهم ! ألم يفرض هؤلاء المسلمون الجزية عليهم في صلح بابليون ؟ والمسلمون يخالفونهم في الجنس واللغة والعقيدة والعادات ؛ وقد يحاولون غداً أن يحموهم على تغيير دينهم ، كما حاول الروم أن يحموهم على تغيير مذهبهم ! لهذا كله كان المصريون يمتقنون حكم الروم ويخافون حكم العرب ، فلم يكونوا يعاونون هؤلاء إلا كارهين ، أو يعاونون أولئك إلا مكرهين . قومٌ ذلك شأنهم لا يخطيء من يستنبط أنهم لم يكن لهم أثرٌ فيما أصاب العرب من نصر ، وما أصاب الروم من هزيمة في موقعة كربيون .

لا ينصرف هذا الرأي بطبيعة الحال إلى فئة قليلة من المصريين انضموا إلى الروم بدافع من مصلحتهم أو من حماسهم للمسيحية وخشيتهم أن يحملهم المسلمون على تغييرها وهو لا ينصرف كذلك إلى فئة قليلة انضمت إلى المسلمين ودان بعض أفرادها بالإسلام بدافع من مصلحتهم كذلك ، أو حقداً منهم على الروم بسبب عسفهم بالمصريين واضطهادهم لهم ، فمثل هذه الفئات القليلة توجد في كل أمة وعصر . وإنما ينسحب هذا

الرأى على كثرة المصريين فى أدانى البلاد وأقاصيها ؛ فهذه السكثرة التى تصور اتجاه المجموع .أصدق تصوير ، كانت حانقة على الروم غير راغبة فى العرب ، وكان أكبرهما ألا يشارك .أبناء مصر مشارك فى حكمها وفيما تنتجه أذرع بنيتها من ثمرات أرضها .

انتصر العرب على الروم بكريون وردّوهم على أعقابهم . ولم يُقيم عمر بكريون إلا ريثما جَمَّ جنده ، ثم سار على رأس هذا الجند الباسل حتى بلغ الإسكندرية دون أن يلقى فى طريقه ما يصدّه . فلما اقترب من أسوارها وقف الجند كله أمامها وقد أخذ البهرُ من كل مكان لمرآها . فأين منها دمشق ! وأين منها بيت المقدس ، بل أين منها أنطاكية ! بل أين منها المدائن وفيها أبيض كسرى ! فتتح هؤلاء العرب أبناء البادية عيونهم واسعة على منظر رائع تسحر روعته العقول والقلوب ، وظلّوا وقوفاً يُجِيلون أعينهم يَمَنَّةً وَيَسْرَةَ فلا تقع إلا على ما يزيدهم سحراً وبَهْرًا . فهم يرون من شرق المدينة العظيمة ومن غربها هذا البحر الأبيض يتراعى أمام النظر إلى حدود الأفق ، وقد كست السماء الصفوماء زرقة جعلت الماء فى لون السماء وفى صفائها ورقتها ، والماء مع ذلك دائم التقلب مع الموج المتدافع يأخذ بعضه برقاب بعض حتى يتفانى عند الشاطئ على رمال ناعمة ملساء . وترتدّ هذه الأعين من البحر إلى المدينة العظيمة ، فما أسرع ما تنسى البحر وموجه فيما ترى من عجيب .دونه كل عجب ! فهذه ضواحي المدينة أمامهم نُثِرَتْ فيها الحدائق نثراً ، وقامت فيها القصور والأديار خلال غابات من أشجار ضخمة ، بعضها مشمر وبعضها لا ثمر له . ومن بعد الضواحي تقوم أسوار وحصون يصغر أمامها كل ما رآوا من أسوار وحصون ، ولا يزيد حصن بابليون الذى وقفهم أمامه ما وقفهم على أنه واحد من هذه المجموعة الضخمة القائمة حول العاصمة الفاتنة تحدّث عن مناعتها وقوّة دفاعها . وتحمى هذه الأسوارُ والحصونُ بدائع من العِارة لا تشهد الأعين منها إلاّ أعاليها وقد زُبِنَتْ بقباب دقيقة النقش ، ومُحَدِّ ترتفع فوقها بعض هذه القباب فتزيد الناظرَ إليها عجباً منها وإعجاباً بها . وبين هذه القباب تندلع فى الجوّ مسلّات أكثر ارتفاعاً مما رآوا فى عين شمس ، ولم يكونوا قد رآوا له فى غير مصر نظيراً . ويقع النظر أثناء ذلك على كنيسة سان مارك « القديس مرقس » القائمة بين هذه المسلّات فى حراسة الطلّسمات المنقوشة على جوانبها الأربعة ، فإذا الكنيسة دُرّة

في العمارة ، صاغها البناء الصنّاع فلم يترك لوّناً من ألوان الجمال إلاّ أسبغه عليها . و ينتقل النظر في الناحية الأخرى من المدينة ، فإذا معبد السرايوم بسقفه المذهب يأخذ وجهه باللب ، وإذا عمود « دقلديانوس » الفارع يُشرف على القلعة التي تحرس المعبد وما حوله . ويتخطى النظر متّجهاً إلى ناحية البحر ، فإذا مفارةً فاروس تنبعث خلال الجو معلنةً للشاهدين أنها من عجائب الدنيا السبع . ويتردّد نظر الجند بين هذه العجائب ، من عمائر وتماثيل . ومسلات وكفائس وحصون وأسوار ، فلا يزدادون إلاّ سحراً وبهراً . ولا عجب ، فقد كانت إسكندرية ذلك العهد أجمل مدائن العالم وأبهاها . أقيضنّ هذا الجيش الباسل ببذل في سبيل اقتحامها وفتحها ؟ ! كلا ! لقد عوّده الله النصر ، فلم تخذله أسوار ولا حصون . أيّاً كانت قوتها ومناعتها .

ورأى عمر فتنة الجند وحماستهم ، فلم يتردد ، مع ما اشتهر به من حرص وحذر ، فأمرهم أولَ مقدّمهم باقتحام أسوار المدينة وأبراجها . وكان تقديره أن هزيمة الروم بكريون لا بدّ أن تكون قد أدخلت الرّوع إلى نفوس المدافعين عن الإسكندرية ، وأقنعتهم بأن مصيرهم لن يكون خيراً من مصير أصحابهم الذين ولّوا مدبرين إليهم . ولم يخالج المسلمين ريب في أن المدينة البارعة ستفتح أبوابها لقاء هجمتهم ، فاندفعوا ينفذون الأمر مهلّين مكبّرين ، فلم يرعهم إلاّ الحجارة العظيمة تنساقط عليهم مقدوفة من الجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة . ذلك أن الروم أيقنوا حين انسحبوا من كريون أن العرب سيلحقون بهم ، وأن نشوة الظفر ستنتسبهم الحيلة ، وستدفعهم إلى مهاجمة المدينة . ولذا أدخل تيودور الجيش في حصونها وأمر بإخلاء ضواحيها ، وأقام القاذفين بالجانيق على أسوارها ليرموا الحجارة الضخمة منها في وجه العدو المقبل عليها . وأيقن عمرو حين رأى وابل القذائف أن الروم أعدّوا واستعدّوا ، فعاوده حدّره ، وأمر رجاله بالارتداد إلى ما وراء مرمى الجانيق .. وهناك ضرب عسكره وأقام يدبّر أمره .

عسكر عمرو شرق المدينة فيما بين الحلوة وقصر فاروس . وسرعان ما أدرك أن مهاجمة المدينة ليست بالأمر اليسور . فقد كان البحر يحميها من شمالها ، وكان الروم وحدهم هم المتسلطون عليه ، فلم يكن للعرب فيه شراع واحد وكانت بحيرة مريوط تحميها



من الجنوب ، وكان اجتيازها عسيراً بل غير مستطاع . وكانت ترعة الثعبان تدور حولها من الغرب . بذلك لم يبق إليها طريق إلا من الشرق ، وهو الطريق الجارى بينها وبين كليون . وكانت المدينة حصينة من هذه الناحية بأسوارها وحصونها ، كما كانت حصينة بهما من سائر نواحيها . وكان تموين الإسكندرية من البحر يسيراً ؛ إذ كانت مدن الساحل المصرى كلها فى يد الروم ، فكان فى مقدورها أن تبعث السفن محملة بالميرة إلى سكان العاصمة وُحاتها . وكان هؤلاء الحماة ، ويبلغ عددهم خمسين ألفاً ، موقنين أنهم إن يهزموا لم يبق للروم فى مصر دولة . بل لقد بلغتهم كلمة قيصر : « لئن ظفر العرب بالإسكندرية لقد هلك الروم وانقطع ملكهم ، فليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية » ، فزادتهم هذه الكلمة حساسة فى الدفاع عن المدينة وفى الاستماتة دونها . لا أمل إذاً فى مهاجمة المدينة مادام حُماؤها متحصنين بأسوارها وبروجها ، ولارجاء فى مناجزة هؤلاء الحماة والظفر بهم إلا أن يخرجوا منها للقاء العرب فى ميدان مكشوف ! . أترام يفعلون ؟ فإن لم يفعلوا فماذا عسى أن يصنع القائد الداهية ؟ أفقدّر للإسكندرية وحدها أن تُنقذ مصر كلها من يده ؟ .

لم ييأس عمرو مع ذلك من التغلب على عدوه . وكان أول رأيه أن يقف حياؤه بعيداً عن مرمى مجانيقه ، فإذا طال بالروم الحصار شعروا بما فى ذلك من مذلة لهم ، فغامروا بالخروج فتمكن المسلمون منهم . لذلك أقام بعسكره بين الحلوة وقصر فاروس شهرين كاملين ، لم يخرج له الروم أثناءها ولم يحاولوا مناجزته . ونقل عمرو عسكره بعد ذلك إلى ألقس ، فخرجت عليه الجند من ناحية البحيرة مستترة بحصن هناك ، فواقعوه فقتل من المسلمين بكنيسة الذهب اثنا عشر رجلاً ، ثم ارتدت الروم إلى الحصون حين رأوا المسلمين مجتمعين ليلقوهم . ولم يغير ذلك من عزم عمرو على المقام بإزاء المدينة ، وإن دطا لمضاعفة الحذر والحيلة . وكذلك بقى الروم محصورين قلماً يخرجون ، وبقى المسلمون قبالتهم تأتيتهم أرزاقهم من البلاد المجاورة لهم . ولم يدُر بخاطر عمرو أن يغامر بهم لمهاجمة حصون يعلم علم اليقين أنها لا تنال .

لكنه رأى بعد قليل من حصار المدينة أن بقاءه أمامها ، يرصد خروج حاميتها من

غير أن يقوم جيشه بعمل خربي يقوَّى به عزم جنده قمين أن يدفع إلى نفوس الجنود السأم ، وأن يشعرهم بالمعجز عن المناجزة عدوهم ؛ وفي ذلك ما يزعزع من ثقتهم بأنفسهم ، وطمأنينتهم إلى غدهم . وقد هداه تفكيره إلى ما يحقق غرضين في وقت معاً ، فيزيل سأم جنده ويضعف من عزم الروم المحتمين بالعاصمة ؛ فيبعث كتائب تجوس خلال بلاد الدلتا تطارد الروم فيها ، ثم أبقى معظم الجنود على حصار الإسكندرية .

هل سار عمرو على رأس هذه الكتائب بنفسه ، أم جعل الإمارة عليها لغيره من أمراء جنده ؟ تختلف الروايات في هذا الأمر ، وتذهب طائفة منها إلى أن بعض هذه الكتائب كان يجوس خلال صعيد مصر حين كان بعضها الآخر يجوس خلال الدلتا ، وأن عمراً بدأ ينفذ هذه الخطة مذ كان محاصراً حصن بابليون وقبل أن يسير إلى الإسكندرية . والقارىء يذكر ما قدّمنا من أنه بعث ، وهو على حصار بابليون ، كتائب استولت على أثريب ومنوف ، كما استولت كتائب أخرى على إقليم الفيوم كله . أفضلت هذه الكتائب تتقدّم في الدلتا وفي الصعيد حين كان عمرو يسير بمعظم الجيش إلى كرون وإلى الإسكندرية ؟ أم جمع عمرو كل قواته حين أزمع السير إلى العاصمة الحصينة ، فلم يتخلف منها عن السير معه إلا ما تركه في بابليون وفي البلاد التي تم فتحها لحفظ النظام ، وللقضاء على كل سبب للانتفاض يمكن أن يظهر فيها ؟ .

يذهب بتلر معتمداً على رواية حنا النقيوسى ، إلى أن عمراً سار بنفسه ، بعد ما رأى منعة الإسكندرية ، على رأس كتائب فصلت من الإسكندرية إلى كرون فدمهور ، ثم اتجه بها إلى الشرق حتى بلغ سخا من إقليم الغربية ، فوقف دونه ما يحيط بها من أسوار وما يكتنفها من مياه ؛ ولم يقدر عليها ، ولذلك تركها وسار جنوباً إلى طوخ الواقعة على نحو ثلاثين ميلاً منها فصدّه أهلها ، فسار إلى دمسيس فعجز عن فتحها . ولم يكسب عمرو من مسيرته هذه ، وقد استغرقت اثني عشر شهراً ، إلا أن أشعر أهل الدلتا بشوكته ، وأن أوقع بالبلاد غير الحصنة وغنم منها ، ثم عاد إلى بابليون . ويضيف بتلر في موضع آخر من كتابه ، مستنداً دائماً إلى رواية حنا النقيوسى ، أن عمراً ذهب على رأس قوات إلى الصعيد ، وأنه فتحها أو فتح على الأقل بلاد مصر الوسطى ، ثم عاد

بعد ذلك إلى بابليون فأقام بها وهناك جاء إليه المتوقس من الإسكندرية وصالحه .  
ويروى البلاذري عن يزيد بن أبي حبيب عن الجديشاني أنه قال : « سمعت جماعة  
من شهدوا فتح مصر يُخبرون أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجّه عبد الله بن  
حُذافة السهمي إلى عين شمس ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط  
ووجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وإخميم والبشرودات وقرى  
الصعيد ففعل مثل ذلك ، ووجه عمير بن وهب الجهمي إلى تَنْيَس وديمياط وثونة ودميرة  
وشطا ودقنلة وبنأ وبوصير ففعل مثل ذلك ، ووجه عقبة بن عامر الجهني — ويقال  
وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر — إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل  
ذلك ، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج .  
ونحن نميل إلى الأخذ برواية البلاذري ، وإن لم تذكر بها تواريخ معينة . ونميل  
لذلك بخاصة لأن ابن عبد الحكم وغيره ممن أرتخوا لفتح مصر يقررون أن عمراً بقي  
على حصار الإسكندرية مذ سار إليها إلى أن تم له فتحها . وعلى ذلك كانت كتابته تسيير  
في الدلتا وفي الصعيد حين كان هو على هذا الحصار . وإذا صح أن هذه الكتاب  
لم تفتح البلاد الحصنة إلا بعد فتح الإسكندرية فالذي لا شبهة فيه أنها حصرت الروم  
في هذه البلاد ، وأنها مدت سلطانها على ما سواها من الأرجاء التي سارت فيها .  
ولا شبهة كذلك في أن أهل مصر لم يرحبوا بالعرب ولم يثوروا بهم ولم يقاوموهم ؛ لأنهم  
كانوا يخشون أن ينتصر الروم بالإسكندرية ثم يعود الأمر لهم في مصر كلها ، كما كانوا  
لا يعرفون ما سيؤول إليه أمرهم إذا عقد النصر لواء للعرب . أتري هؤلاء العرب  
يدعونهم يستقلون ببلادهم؟ ما أحسبهم خدعوا أنفسهم بمثل هذا الأمل وقد رأوا المسلمين  
يستقرون بالشام يأخذون بأيديهم مقاليد حكمه . لذلك أذعنوا للواقع فلم يقاوموا أحداً  
ولم يثوروا بأحد ، بل ظلوا على ولائهم الظاهر للروم حينما بقي الأمر للروم ، وأبدوا ولاءً  
ظاهراً للعرب حينما آل السلطان للعرب ، ووقفوا من المعركة الدائرة في أرضهم موقف  
المتفرج ، وقد شدت أنظارهم إلى العاصمة العظيمة فكلمهم التشوف إلى إنباتها والتطلع  
إلى ما ينتهي إليه أمرها .

وكيف لا يكون ذلك شأنهم وقد كان الشهر يمشى يعقبه الشهر والعاصمة الحصينة آمنة مطمئنة لا يجرؤ المسلمون على التفكير في مهاجمتها ، بله اقتصامها ذلك لأنها كانت مفتوحة للروم من ناحية البحر فهم يستطيعون أن يمدوها بما يشاءون من جند وعتاد . والظاهر من مختلف الروايات أن القتال عندها كان مقصوراً أغلب الأمر على مناوشات لا تبلغ أن تكون حرباً . روى ابن عبد الحكم أن طرفاً من الروم خرجوا من باب حصن الإسكندرية ، فحملوا على الناس فقتلوا رجلاً من متهرة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به ، فغضب المهريون وقالوا : « لا ندفعه أبداً إلا برأسه » . فقال لهم عمرو ؛ « تَغَضَّبُونَ ! كأنكم تغضبون على من يبالي بفضيكم . احموا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم » وخرج الروم يوماً فقتل العرب منهم رجلاً فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم ، فرمى الروم برأس المهري إليهم فدفنوه وطبعوا ألتحسماً مثل هذه المناوشات حرباً . ولقد ضاق عمرو بها ذرعاً ، ثم لم يستطع أن يدفع جنده لأكثر منها ، حذراً أن يسوقهم إلى هلكة يؤاخذ بها عثمان بن عفان ومن كانوا على رأيه فعابوا على ابن العاص جرأته في الإقدام على فتح مصر . ولعله كذلك كان يجد من جنده من يتقاعسون إذا دُعوا للإقدام ، وإن كان على ثقة من أن أكثرهم يستحب الموت على الحياة . يدل على ذلك ما روى من قوله يصف طرائف هذا الجند « ثلاث قبائل في مصر : أما متهرة فقوم يقتلون ولا يُقتلون ، وأما غافق فقوم يُقتلون ولا يُقتلون ، وأما بيلي فأكثرها رجلا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضلها فارساً » على أن أمداد الروم إلى الإسكندرية ما لبثت أن انقطعت بعد قليل من موت هرقل ؛ فقد شغل أهل بزنتية بما ساد بلاطهم من الاضطراب ، وبما نشأ في عاصمتهم من الانتقاض على مرتيننا وابنها ، فانسوا الإسكندرية ونسوا مصر ، ولم يعد منهم أحد يفكر في الدفاع عنها . وذلك قول المؤرخين المسلمين إذ يذكرون موت هرقل : « إن الله كسر بموته شوكة الروم » . وقت انقطاع المدد عن عاصمة مصر في أعضاء حُمايتها ، فأوجسوا خيفة أن يدهمها العرب ، أو أن يتغلبوا على بلاد الساحل فيقطعوا عنها ميرتها وزاد في مخاوفهم ما كان يبلغهم من انتشار هؤلاء العرب في الصعيد وفي مصر السفلى .

ومِن حَصْرهم حاميات الروم في البلاد الحصينة داخل أسوار هذه البلاد . وما عسى أن تستطيعه الإسكندرية إذا حُرِّمت الطعام وفشت فيها المجاعة ! وما بقاء جنود الروم بعاصمة هذا حالها في حين أن عاصمتهم على ضفاف البسفور مضطربة مهددة بشر ألوان الفساد والقوضى . هذه كلها عوامل تزعزع الروح المعنوية في نفس كل جيش مقاتل . وقد زعزعت روح الجيوش المدافعة عن الإسكندرية ، وجعلتها لا ترى في مناعة الحصون والأسوار المحيطة بها ما يدفع عنها أو يعصمها من الهزيمة إذا غامر محاصروها بمهاجمتها .

وكيف لا تنحلّ روحهم وكان اشتغال الروم في مدينة قسطنطين بدسائس بلاطهم وباضطراب شؤونهم قد صرفهم عن التفكير في مصر والدفاع عنها ! وكان شعور الجند المدافع عن الإسكندرية بهذه الحال يشدد يوماً ، فيوماً ، فيزيد روحهم المعنوية بتوالى الأيام انحلالاً . وكان عمرو بن العاص وجنوده مقيمين على حصار الإسكندرية لا يبرحونها ، مطمئنين إلى وفرة ميرتهم وذخيرتهم ، وإلى ما يبلغهم من أنباء إخوانهم المنتشرين في الصعيد وفي الدلتا . أما عمر بن الخطاب بالمدينة فكان ينتظر أنباء مصر إذ ترد إليه القينة بعد الفينة ، وهو أشد ما يكون استعجالاً للنبأ بسقوط الإسكندرية في يد المسلمين . لكن هذا النبأ أبطأ عنه شهراً . وساء هذا الإبطاء فأخذ يبحث عن السبب فيه . فهؤلاء الجنود هم الذين فتحوا أمنع المدن وأقواها حصوناً . وهو لم يقصّر عن إمداد عمرو بما يكفل له الظفر بخصومه . فما باله مع ذلك يقيم أمام أسوار المدينة المحصورة كأنما طاب له ولجنده هذا المقام ، وكأنهم اكتفوا به فلم يحاولوا ما بعده ؟ ! ولم تسكن أنباء الروم واضطراب ملكهم لتغيب عن خليفة المسلمين . فكيف وهذه فرصة نادرة للظفر بهم يضيعها ابن العاص والذين معه ، مع أنهم ظفروا بالروم من قبل في أجنادين حين كان هرقل لا يزال حيّاً . وحين كان الروم يرون أجنادين الحصن الأول في خط الدفاع عن بيت المقدس ، ويرون دفاعهم عن بيت المقدس دفاعاً عن دينهم وعن قبر المسيح نفسه ؟ ! ليست قوة الروم إذا هي التي وقفت المسلمين على أبواب الإسكندرية . ولا بدّ أن يكون قد طرأ على هؤلاء المسلمين ما أضعف إقدامهم على الموت وحِرْصهم على الشهادة . وماذا عسى أن يطرأ عليهم إلا ما أغرتهم به خيرات مصر من تعلق بالدنيا وشره إلى نعيمها ! وعمر

أشدّ الداس إيماناً بأن حب الدنيا يُفسد في النفس نخوتها وإقدامها . لذلك جعل الغضب يأخذ من نفسه كلّما أبطأ عنه نبأ الفتح . فلما فاض عنه الغضب قال لأصحابه يحدثهم عن مصر : « ما أبطئوا بفتحها إلا لما أحدثوا » . ثم كتب إلى عمرو بن العاص يقول له : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر . إنكم تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوّكم . وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلنتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غيّروا ما غيّر غيرهم . فإذا أتاك كتابي هذا فاخطبُ الناس وحضهم على قتال عدوّهم ورغّبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومُرِ الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليسكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة ، وليعجج الناس إلى الله ويسألونه النصر على عدوّهم » .

كم كانت الأشهر التي حاصر العرب فيها الإسكندرية ، فأحفظ طولها عُمر ودفعه إلى أن يكتب هذا الكتاب ؟ يقول ابن عبد الحكم : إنها كانت أربعة عشر شهراً خمسة قبل موت هرقل وتسعة بعده . ويروى البلاذري أن عمراً بلغ الإسكندرية فوجد أهلها معدّين لقتاله ، فأرسل إلى المقوقس يهدده ويذكر له ظفر المسلمين بالروم في كل مكان . ونصح المقوقس لقومه بالصلح « فأبوا إلا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصرهم ثلاثة أشهر . ثم إن عمراً فتحها بالسيف وغنم ما فيها ، واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب ، وجعلهم ذمّة كأهل إلبونة » . ويذهب بتلر ، في الملحق الرابع الذي جعله في ذيل كتابه عن (تواريخ الفتح العربي) ، إلى أن المسلمين بدءوا حصار الإسكندرية في أواخر يونيو سنة ٦٤١ ، وأن المدينة سلمت في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ . وهذا يعني أن الحصار دام أربعة أشهر ونصف شهر . وقد يؤيد هذا القول الذي أورده بتلر ماجاء في كتاب عمرو ابن الخطاب إلى عمرو بن العاص : « إنكم تقاتلونهم منذ سنتين » . فما بين وصول عمرو إلى العرش في ديسمبر سنة ٦٣٩ وتسليم الإسكندرية في نوفمبر سنة ٦٤١ يعادل سنتين

هلايتين ؛ وهما لا ريب كافيتان لإثارة عمر ودفعه لأن يبعث إلى قائده على جيوش مصر يتهمهم بأنهم أحدثوا وأن الدنيا غيرتهم .

تلا عمرو كتاب أمير المؤمنين وأخذ يفكر في خُطّة يفتح بها الإسكندرية . وفي رواية أنه بدأ هذا التفكير ولم يصله كتاب من المدينة . روى ابن عبد الحكم عن أبيه عبد الله ابن عبد الحكم أنه قال : « لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال : إني فكّرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله — يريد الأنصار — فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذاك » .

أما الذين يثبتون كتاب أمير المؤمنين فيقولون إن عمراً جمع الناس وقرأ عليهم الكتاب ، ثم دعا أولئك النفر الذين ذُكروا فيه فقدمهم ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلّوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوّهم ، ففعلوا ففتح الله عليهم . وفي رواية أن عمراً استشار مسّلمة بن مَخْلَد في خُطّة الفتح ، فأشار عليه أن يعقد لعبادة بن الصامت ليباشر القتال ، فدعا عمرو عبادة وتناول منه سِنان رجمه وعقد له وولاه قتال الروم ، فقاتلهم ففتح الله عليه الإسكندرية ليومه .

هذه الروايات التي أوردها ابن عبد الحكم تنتهي كلها إلى ما تنتهي إليه رواية البلاذريّ من أن المسلمين هاجموا المدينة ففتحها الله عليهم ، وأن ذلك كان يوم الجمعة لمستهل الحرامّ سنة عشرين من الهجرة . وأنت تراها جميعاً خِلاً من كل تفصيل . وغاية ما أورده البلاذريّ من هذا التفصيل أن عمراً وجد أهل الإسكندرية مُعَدِّين لقتاله إلا القبط ، فإنهم كانوا يحبّون الموادعة « فأرسل المقوقس يسأل عمراً الصلح والمهادنة إلى مدة ، فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن إلى داخله ، وأقام الرجال في السلاح مُقبِلين بوجوههم إلى المسلمين ليُرهبهم بذلك ؛ فأرسل إليه عمر : « إنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غلبنا من غلبنا ، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان » . فقال المقوقس لأصحابه : قد صدق

هؤلاء القوم ؛ أخرجو ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ، فنحن أولى بالإذعان . فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصروهم ثلاثة أشهر . ثم إن عمراً فتحها بالسيف . « وهذا تفصيل طريف قد يصور حيلة المقوقس أول ما حاصر عمرو الإسكندرية ، وما دار بين الرجلين من سفارة إذ ذاك ؛ لكنه لا يصور الموقعة الحاسمة التي انتهت بفتح الإسكندرية عنوةً ، ولا يصف قتال المسلمين حين اقتحموا ما يحيط بالمدينة من أسوار متينة ، وحين اجتاحوا حصونها المنيعة ودخلوها ظافرين منتصرين .

وليس يسعنا إلا أن نبدي من الأسف على هذا الإغفال مثل ما أبدينا حين الكلام عن فتح كريون . فصيحات الأبطال الذين فتحوا الإسكندرية ، والتحامهم بعدتهم ، وكيف قاومهم العدو ، والأسباب التي أدت إلى ظفر الأولين وهزيمة الآخرين ، وكيف استقبل شعب الإسكندرية الفاتحين ، كلها أمور عظيمة الشأن . وشأنها لا يقف عندما تفتوى عليه من رائع القصص ، بل تتعدى ذلك إلى أنها تجلونا الميول والاتجاهات الإنسانية التي كانت قائمة بنقوس الجماعات في ذلك العصر ، وتهدينا لذلك إلى تبين العوامل التي كيّفت ما حدث بعد ذلك من تطور في أحوال المنتصرين والمنهزمين على سواء ، وترسم لنا جانباً من صورة الإنسانية لذلك العصر على نحو يكشف عن اتجاه الضمير الإنساني في عصر بعينه . ومعرفتنا هذا الاتجاه تمكنا من أن نضع رسماً بيانياً ، على تعبير المهندسين والطبعيين ، لسير الإنسانية في دأبها المنصل على العصور ابتغاء الكمال .

وليس يخفف من أسفنا ما أورد المؤرخون من مواقف فردية لبعض الأبطال ؛ فهذه المواقف ، إن صحّت الرواية في أمرها ، لا تصور اتجاهها هاماً للتفكير الإنساني في العهد الذي وقعت فيه ، وإن أمكن أن تصوّر ناحية من نواحي الخلق الفردي لأبطال ذلك العهد . ذكروا أن الروم بالإسكندرية قاتلوا المسلمين يوماً من الأيام قتالاً شديداً ، فلما حمى الوطيس بارز رجل من الروم مسّلمة بن مخلد فسرعه وألقاه عن فرسه ، وأهوى عليه ليقتله لولا أن حمى مسّلمة رجل من أصحابه . وكان مسّلمة على شجاعته بديناً .



فلما رأى عمرو بن العاص ما حدث غضب من مسلمة وقال : « ما بال الرجل الذى يُشبهه النساء يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم ! ». وغضب مسلمة من قول عمرو ؛ لكنه كظم غضبه وأسرها في نفسه . ثم إن القتال اشتد واقترح المسلمون حصن الإسكندرية ، ودخله عمرو ومسلمة فيمن دخله ، وكره عليهم الروم وأخرجوهم جميعاً من الحصن إلا أربعة نفر لم يستطيعوا الخروج ، فأغلق عليهم الروم باب الحصن وحبسوهم فيه . وكان عمرو ومسلمة بين هؤلاء الأربعة ؛ لكن الروم لم يعرفوها . وتكلم رومى بالربية فقال لعمرو وأصحابه : إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ، فامتنعوا عليهم . فقال لهم الرومى : إن في أيدي أصحابكم رجالا منا أسروهم ، ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم ، فأبوا عليهم . فاستأنف الرومى قائلاً : هل لكم إلى خطة نصف بيننا وبينكم : أن يبرز منكم رجل ومنا رجل ، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خَلينا سبيلكم إلى أصحابكم ؟ فرضى المسلمون الأربعة بذلك . وبرز من الروم رجل وثق أصحابه بنجدته وشدته . وأراد عمرو أن يبرز بنفسه ، فمنعه مسلمة حتى لا يتعرض للقتل فيكون قتله بلاء على أصحابه جميعاً ، واستأذنه في أن يبرز . قال عمرو : دونك ، فربما فرجها الله بك . وبارز مسلمة الرومى فتجاولا ساعة ثم أعان الله مسلمة على الرومى فقتله . وفتح لهم الروم باب الحصن فخرجوا وقد استحيوا عمرو مما كان قاله لمسلمة ، فاستغفروه منه فغفروه له . فقال عمرو : « والله ما أخشيت قط إلا ثلاث مِرار : مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ، وما منهن إلا وقد ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ! والله إنى لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت ! » .

هذه الصورة أدنى إلى الأساطير ، وهى مع ذلك تصف لنا جانباً من خلق مسلمة ، وجانباً من خلق عمرو ، وكلا الجانبين مضى يحمل التأسي به . لكنها لا تزيد على هذا الوصف ، فلا تصوّر اتجاهاً عائياً في حياة الجماعة كان له أثره في هذا اليوم الحاسم الذى قضى على وجود الروم في مصر . ومن عجب أن تبلغ الروايات التى انتهت إلينا من الإيجاز فلا تذكر أى أبواب المدينة دخل منه المسلمون ، ولا كيف اقتحموه ، ولا كيف دافع

(عمر ج ٢ - ١٠٢)

الروم عنه ، مع أن هذا اليوم الحاسم قد كان لا ريب من أهول الأيام في حروب ذلك العهد ؛ فكان أهول من أيام القادسية الثلاثة ، ومن يوم المدائن ويوم نهاوند . وأعجب من ذلك أن يكتبني المؤرخون المسلمون من وصف هزيمة الروم بمثل هذا القول : « فلهزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية هرب الروم في البر والبحر » ١ .

مهما يكن من أمر هذا الإيجاز ، فالمؤرخون المسلمون جميعاً متفقون على أن الإسكندرية فتحت عنوةً ، وأن الروم هربوا لفتحها يلتمسون من سيوف الغزاة ملجأً حيناً وجدوه . لكن بتل بصور هذا الفتح صورة تختلف عن ذلك كل الاختلاف : صورة التسليم على صلاح ، لاصورة الإذعان عن هزيمة . فهو يذكر ، كما قدمنا ، أن عمرو بن العاص سار بنفسه على رأس الكتائب التي ذهبت من الإسكندرية تذيع الفرع في بلاد الدلتا ، وأن اللطاف انتهى به إلى بابليون حين فيض النيل . وبينما هو في الحصن واقاه قيرس آتياً من الإسكندرية يحمل رسالة الإذعان والتسليم ، ويقول للأمير العربي : « إن الله قد أعطاكم هذه الأرض ، فلا تدخلوا بعد اليوم في حرب مع الروم » ، ثم ينتهي بعد المفاوضة إلى عقد الصلح معه .

وعاد قيرس إلى الإسكندرية يحمل عهداً عقده مع القائد العربي وأهلها لا يعلمون ماصنع ، ولم يجد مشقة في حمل أمراء الجند على إقرار هذا الصلح والنزول على أحكامه . وتسامع الناس همساً بما حدث ، فثارت نفوسهم ، ثم زادهم ثورة ما فجأهم من دخول فئة من العرب مدينتهم ؛ يسرون على خيلهم لا يلبون على شيء ، ولا يعبثون بضجة الناس من حولهم . وبلغت منهم الثورة لصنيع قيرس أن أقبلوا إلى قصره ، وأحاطوا به يريدون أن يقتلوه . ومع إحداق الخطر بحياته استطاع البطريق الشيخ . ببلاغته وقوة حجته وهيبة شيخوخته ، أن يسكن نائرة الناس ، وأن يقنعهم بصدق رأيه ، وأن يحملهم على قبول ماصنع . بل لقد بلغ من تأثر الثائرين بأقواله أن جعلوا « يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الخبر الطاهر ، في حين كان يسعى جهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاه ، وأخذوا يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم وزادوا عليها مقداراً كبيراً من الذهب ، ووضع ذلك المال في سفينة خرجت من الباب الجنوبي

الذى تدخل منه التربة ، وذهب قيرس بنفسه ليحمله إلى قائد المسلمين . وبذلك تم فتح الإسكندرية<sup>(١)</sup> .

هذه رواية بتلر ، وهى تختلف عن تصوير المؤرخين المسلمين لفتح الإسكندرية أشد الاختلاف . وقد أورد بتلر فى روايته هذه طائفة من نصوص المعاهدة التى أشار إلى أن المقوقس عقدها مع عمرو بن العاص خاصة بالإسكندرية . ولو أن هذه الرواية بقيت قائمة ، لكانت جديرة أن تبعث إلى نفس القارئ شيئاً من الإضطراب ، إذ يوازن بينها وبين رواية المؤرخين المسلمين . فقد أمدى هذا المؤرخ العالم من النزاهة ومن الحرص على الدقة العلمية فى بحوثه ما يدعو لاحترام رأيه فى الوقائع التى حققها ، وإن اختلف الإنسان معه فى استنباطاته وفى آرائه وفى طريقة توجيهها . لكن هذه النزاهة نفسها هى التى اقتضت هذا العالم الدقيق أن يعدل عن رأيه ذاك حين ثبت له عدم صحته ، وأن يسلم بأن عمراً والمقوقس لم يعقدا غير معاهدة واحدة هى التى وضعت شروطها حين حصار حصن بابليون ، ثم رفضها هرقل ونفى قيرس من أجلها . بهذا أصبحنا قادرين على أن نطمئن كل الاطمئنان إلى رواية المؤرخين المسلمين على إيجازها ، وأن نسلم بأن الإسكندرية فتحت عنوة ، وأن ماربما حدث بعد هذا الفتح بين المقوقس والقائد العربى لم يتجاوز تنظيم الوسيلة لاجلاء جند الروم عن العاصمة المصرية وعن بلاد مصر كلها<sup>(٢)</sup> .

دخل المسلمون الإسكندرية عنوة فاقتحموا أسوارها وفتحوا بابها ، ففر الروم منهم إلى البر والبحر ، وأذن لهم سكان العاصمة وأسلموهم مقاليدها ، فأخذ هؤلاء البدوم أهل شبه الجزيرة يجوسون خلال مدينة الاسكندر ، فلا يكادون يخطون فيها خطوة بعد خطوة حتى يبلغ منهم البهر حد الدهول . لقد تولتهم الدهشة ، أول مقدمهم لحصارها ، حين رأوا ضواحيها وأسوارها ، وحين تبدت لهم أعاليها من وراء الأسوار محدثة عما فيها من بدائع الفن والعمارة وزخرفها . بل لقد كانت الأسوار وحدها عجباً بمتانتها وبراعة صماعتها وما ينهض فيها من بروج وحصون . أما الآن وقد تخطوا الأسوار إلى داخل المدينة فليس ما يروونه عجباً وكفى ، بل هو بارع باهر يسحر اللب ويلعب بالفتواد . فهذان الطريقان العظيمان ،

(١) بتلر ؛ الترجمة العربية : ص ٢٨٨ (٢) الملحق السابع فى الترجمة العربية لكتاب بتلر : ص ٤٩٨

الذنان يشقان المدينة من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب ، فريدان لانظير لها في كل مارأوا بالشام أو بالعراق ، تكتنفهما على طولها عمدٌ من مرمر ناصع يأخذ للألوه النظر ، ويتقاطعان في ميدان فسيح غرست فيه الحدائق الغناء فجعلته روضة من رياض الجنة ، وقامت من حوله القصور المنيفة تُحيط بها جنّات من أعناب وزهر وفاكهة وكل زرع نضير . ويبلغ أحد الطريقين البحر فينكشف الرفأ للنظر ، وتتجلى من حوله عجائب بحار المرء عند أيها يقف ، فإذا وقف عند أحدها سُحِرَ به فلم تُطاوعه نفسه إلى مجاوزته . فهذه قصور البطالسة يحدّث ما بقي من جلالها وإبداعها عن عظمة في العلم والفن لاتدانيها عظمة . وهذه المقبرة الكبرى التي كانت بها جثة الإسكندر وعليها غشاء من ذهب . وهذا المتحف يتصل به مكاتبته العجيبة التي كانت مقر العلوم في العالم أجمع . وهذا إيوان عظيم تحيط به أربعة صفوف من العمُد ، يسميه أهل المدينة ( التتريلوُس ) ، ويذكرون أن الإسكندر الأكبر دفن به النبي أرْميا ، وهم لذلك يحترمونه ويجلّونه . وإلى جانب ذلك المشهد تقوم الكنيسة الكبرى ، كنيسة القديس مرقس ، البديعة البناء ، وعلى مقربة منها تقوم طائفة من الكنائس تعنو لعظمتها ، وهي مع ذلك بدائع في الفن تشهد بما جُبل عليه أهل مصر من حب الإنفاق في بناء المعابد زُلْفَى إلى الآلهة التي يعبدونها .

كانت كنيسة القديس مرقس تحتوى جثمان ذلك الرسول موضوعاً أمام الحراب في تابوت من المرمر ، وكانت لهذا السبب وللفخامة بنائها موضع الإكبار والتقديس من جميع الناس . على أن كنيسة « القيصريون » القائمة في الحى نفسه عند ثنيّه الرفأ الأعظم كانت أعظم منها شأنًا ، وكادت لذلك أن تحل محلّها . ولم تكن القيصريون « كنيسة أوّل تشييدها ، بل كانت معبدًا وثنيًا أقامته « كليوباترا » فوق نهد من الأرض مشرف على البحر ليراه كل قادم إلى الإسكندرية ، فيرى العظمة والجلال والجمال مجتمعة وقد شادت الملكة البارعة ابنة البطالسة الأعظمين هذا المعبد الفخم إعظاماً ليكيوس قيصر ، ولذلك أطلق عليه اسم « القيصريون » . فلما انتحرت وآل حكم مصر إلى الرومان أتمّ القيص « أغسطس » بناء المعبد وزاد فيه وجعله من العظمة بما جعل « فيلو » يقول

في وصفه : « ... كان معبد قيصر أترأ لا مثيل له، وكان على ميناء فسيحة ، عظيم البناء عجيب الصناعة على السمك يعدّه الناس علماً من أعلام البحر ؛ قد زانته أبداع الصور والتماثيل ؛ تُقدّم إليه جليل الهدايا والقرابين ؛ وكانت تجمله كله حلية من الذهب والقضبة ؛ فكان نموذجاً في جمال تنسيقه وإبداع أجزائه المؤلف من متاحف ومكاتب وقياب وساحات وأبهاء ومماشٍ وخمائل من أشجار ظاهرة . قد وضع كل شيء في موضعه اللائق به ، وأبدعت فيه يد الصناعة فأبرزته في حلة أنيقة من الرونق ، يُبدل في سبيلها المال لم يذخر بأذله ثميناً ولا غالياً ، وكان إلى ذلك مُتعة لأهل الأسفار وجلاء لأعينهم إذا وقعت عليه في غداواتهم وروحاتهم <sup>(١)</sup> . »

وكان في صدر « القيصريون » مسلتان أثارنا من العرب أشد العجب ؛ فقد كانتا من الجرانيت الأحمر ، وكانتا مر بعينين تقومان على قاعدتين كُسيبت إحداهما بغطاء من النحاس على شكل أربعة من الجعلان نُقشت عليها نقوش قديمة . وكانت هذه الجعلان تفصل بين المسلة وبين القاعدة ، ثم كانت القاعدة قطعة واحدة من الجرانيت تحتها ثلاث طبقات مدرّجة من الحجر . أما القاعدة الثانية فكان يفصل بينها وبين المسلة أربعة تماثيل من حجر شفاف خاله العرب زجاجاً . وكان على رأس كل المسلتين غطاء من النحاس أو البرنز يرتكز عليه تماثيل من هذا المعدن ، ويمثل أحد التماثيل إلهاً لعله إله النصر ، ويمثل الآخر إلهة لعلها من آلهة البحر . وكانت هذه المسلات بتماثيلها وقواعدها بارعة الجمال في دقة صناعتها ، فكانت متاعاً لعين الناظر إليها من البحر إذ تمر بها السفن داخلة إلى المرفأ أو خارجه منه .

كانت هذه المجموعة البديعة ، من قصور ومعابد وكنائس وتماثيل وعمد ومسلات ، مشرفة على البحر عند نهاية أحد الطريقين الرئيسيين للمدينة ، فكان العرب إذ يبلغونها يقفون عند كل واحد منها مسحورين تولاّم البهر . وما ندرى لعل بهرم بها أول دخولهم المدينة قد أتاح للروم الذين فرّوا في البحر فرصة الابتعاد بالسفن عن الشاطئ .

وفي حَيٍّ آخر على مقربة من الباب الجنوبي للإسكندرية ، كان يقوم عمود

(١) نقله بتلر : ص ٣٢٣ من الترجمة العربية .

« دقلد يونس » الذى سمّاه العرب من بعد « عمود السوارى ». وهذا العمود لا يزال قائماً يشهد فى صمته بما كان عليه معبد السرايوم القائم حوله من جمال وجلال وعظمة . فما من شىء يرسم أمامنا صورة منه إلا أطلال الكرنك ، لولا أن الكرنك مصرى كلُّ عمارته العظمة والجلال ، وأن السرايوم قد جمع بين الفنين المصرى والإغريقى ، فجمع إلى الجلال المصرى ذقة الفن الإغريقى وزينته .

فقد شُيِّد هذا المعبد أوّل ما شُيِّد فى عهد البطالسة قدساً للإله « سيراييس » . ويذكرون أن بطليموس الذى شاده جاء بتمثال إله من جزيرة إغريقية ، وأطلق عليه اسماً مشتقاً من الاسمين أوزوريس وأيبس ، ليجمع حوله عبادة أهل الإسكندرية ، من المصريين الأصليين ، ومن اليونان الذين نزحوا إليها واستوطنوها . وشاد بطليموس قدس هذا الإله فوق ربوة يذهب بعضهم إلى أنها ربوة طبيعية كربوة الأكروبوليس بأثينا ، على حين يذهب آخرون إلى أنها من صنع الإنسان . وأياً ما يكن الواقع فقد كان هذا البناء قائماً على نَهْد له نواة من الصخر الطبيعى ، وكان مشرفاً بارتفاعه على المدينة ، وكان قاصده يصل لذلك إليه عن أحد طريقين : أولهما سُلّم مائة درجة ، والثانى سفح ممهد تسير عليه العجلات .

والظاهر من روايات المؤرخين أن بناء السرايوم كان مستطيلاً خمسمائة ذراع فى مائتين وخمسين . وكان قدس سيراييس يقوم فى وسطه مُشَيِّداً داخله وخارجه من أثمن المرمر ، وقد خلع على بنائه من الروعة غاية ما بلغه فى الممار فى مصر . وفى وسط هذا القدس كان يقوم تمثال عظيم لسيراييس من الخشب الملبس بالذهب والعاج ، له ذراعان ممدودتان ، تكاد كل منهما تلمس الحائط الذى يليها . وكانت تزين القدس نقوس باهرة لا سبيل إلى تقويمها . وقد أحيط القدس بصف من العمد توازى العمد التى كانت تحيط بالفناء كله فى أربعة صفوف متوازية . ولقد هدم المسيحيون هذا القدس الوثنى قبل دخول العرب ، فلم تصدّم عن روعة عمارته ولم تحملهم على الاكتفاء بإخراج التمثال الوثنى منه والإبقاء على بنائه البارع البديع .

ولم يكن بناء السرايوم فيما حول قدس سيراييس دون هذا القدس جلالات . قال

« أميانوس » في وصفه : « إن اللفظ ليمجز عن تصوير صورة حقيقية له ؛ فقد كانت أبهاؤه ذات العباد ، وتمائيله التي كأنها من الأحياء ، وما كان به غير ذلك من آثار الفن ، كل ذلك كان يميزه ويخلع عليه بهاء يجعله فذاً في العالم ، فلا شيء مما فيه يزيد عليه جمالا اللهم إلا بناء الكابيتول ، ذلك الفخر الخالد الذي تفخر به رومية العظيمة » .

وكان في بناء السراييوم حجرات عظيمة شَقَّاتٌ بعضها مكتبة الإسكندرية ، وشغلت بعضها مشاهد لآلهة مصر القديمة . وكان فيه مسلتان قديمتان وحوض ماء عظيم من المرمر الفائق الجمال . وقد اتخذ المسيحيون بعض مبانيه كنائس بقي بعضها قائماً إلى ما بعد الفتح العربي . وكان يلاصق مدخله ببناء له قبة مذهبة عالية قائمة على دائرة مزدوجة من الأعمدة . وقد بقي هذا البناء ، كما بقي كثير من عمد السراييوم قائماً إلى زمن طويل بعد الفتح . وكان بعض المؤرخين يذكرون هذا البناء ، ويطلقون عليه اسم « مدرسة أرسطو » ، و « قبة أرسطو ، و « بيت الحكمة » .

وعلى مقربة من السراييوم أقيم ميدان لسباق الخيل ، قيل إنه كان يتسع لألف ألف من النظارة ، وإن بناءه كان يتيح هذا العدد العظيم أن يروا ويسمعوا ما يجري فيه من غير مشقة . أما دار التمثيل فكانت في حي آخر استقلت فيه ببناء عظيم تلفت عظمتها النظر ويسحر جماله الفؤاد .

أخذ الفاتحون بهذا العمران الذي تجلّى لهم أول ما دخلوا المدينة وجاسوا خلالها . لكنهم لم يلبثوا أن بلغت منهم الدهشة حين رأوا أسفل هذه المباني الرائعة مباني أخرى تحت أرض المدينة ، ثم رأوا هذه المباني السفلى طبقات بعضها دون بعض ، أربع طبقات أو خمساً ، وفي كل طبقة منها عدد عظيم من الأعمدة ومن الحجرات التي كانت تستعمل صهاريج لخزن المياه . وقد كانت المياه تجري إليها أثناء فيض النيل في قنوات تصلها بالترعة الحلوة ، فإذا امتلأت شرب الناس منها طول العام .

أخذ العرب وتولّاهم البهرمان رأوا من ذلك كله . على أن ذلك كله لم يثر من دهشتهم ومعجبهم وإعجابهم ما أنارت المنارة الكبرى . كان ذلك البناء العظيم العجيب ، قائماً في الشمال الشرقي من جزيرة فاروس المتصلة بالمدينة بطريق طويل ، قائم على عقود

متينة<sup>(١)</sup>. وقد أقام بطليموس الثاني هذه المنارة التي كانت عجيبية من عجائب الدنيا السبع هداية السفن ، فشادها من أحجار بيضاء تلمع نهاراً في ضوء الشمس فإذا جَنَّ الليل أضيئت ليرها راكب البحر ؛ فكانت بذلك هادي السفن إلى المدينة اليوم كله .

وقد شاد بطليموس المنارة على صخرة في البحر ، وبنهاها من صخور متينة منحوتة صب بينها الرصاص حتى لا يتسرب ماء البحر إلى أى جزء من أجزائها . وكان ارتفاعها ثلاثمائة ذراع قسمت إلى طبقات أربع ؛ أولها مما بلى الأرض مربعة والثانية التي تعلوها مثنى ، والثالثة مستديرة ، والرابعة مكشوفة بها مواضع للنار التي تهدي السفن ، ومرآة طال حديث الكتاب والمؤرخين عنها . وكان في كل طبقة طُفُفٌ يُشرف على المدينة . ويصل بين الطبقات سلمٌ صاعد خلال المنارة من أسفلها إلى أعلاها ، تضيئه نوافذ فتحت في مواضع مختلفة من البناء على نحو هندسى دقيق .

وكان بالمنارة عُرفٌ كثيرة متداخلة ، أثار عددها وتداخلها عجب العرب ، حتى لقد قال المقرئى : « ويقال إن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف . العدة والطبقات والماشى » . فأما المرآة التي كانت في أعلاها فكانت أعجوبة الأعاجيب ، ولذلك كثرت الأقاويل في معدنها وفي الغرض من وضعها وفي مبلغ قوتها . يقول السعوى : « إنها مرآة عظيمة من الحجر الشفاف ، يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهى بعيدة عن مدى البصر » . ويقول آخر : « إنها من زجاج محكم الصنعة » . ويقول ثالث : « إنها من الحديد الصينى » . ويقول السيوطى : « إن عرضها كان سبع أذرع ، وإنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوربا ، وكانت تستعمل لإحراق سفن العدو ، فكان الموكلون بها يُديرونها نحو الشمس وهى مائلة للغروب فتعكس عليها الأشعة وتُحرق سفن العدو . والإجماع على أنها تظهر السفن وهى أبعد من مدى البصر » . ويذهب بعضهم إلى أن الإنسان كان يرى فيها كل شىء إلى القسطنطينية .

وكانت المنارة سليمة حين الفتح العربى ، وكذلك كانت المرآة . لكنهما لم تدومَا بعد الفتح طويلا . والمؤرخون يختلفون فيما بينهم : هل جاهد العرب بعد هدمها لإعادة

(١) كانوا يطلقون على هذا الطريق اسم الهيتاستاديوم .



بنائها . ولا غناء في تحقيق خلافهم . والذين يذهبون منهم إلى أن المسلمين حاولوا إعادتها متفقون فيما بينهم على أنهم لم ينجحوا في هذه المحاولة<sup>(١)</sup> .

لا حاجة لي إلى أن أذكر ما تركته عمارة الإسكندرية ، وما امتازت به من جمال وجلال ، من الأثر العميق في نفوس العرب الذين فتحوها . وحسبُك ، لتدرك عمق هذا الأثر ، أن تتلو عبارة عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب في هذا الفتح إذ يقول : « أما بعد ، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حَمام . وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك » . فهذا الإيجاز ، من رجل اشتهر بالإطناب ودقة التصوير في الوصف حجة على أن عمر أراى كل وصف يقصُر عن تصوير ما رآه بالإسكندرية على حقيقته . بل لقد بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج رسولا إلى عمر يُنبئُه بالفتح ، فسأله معاوية : « ألا تكتب معي كتاباً ؟ » ، فكان جواب ابن العاص : « وما أصنع بالكتاب ؟ ألسنت رجلا عربياً تُبَاغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ل؟ » . وقد كان هذا جوابه وهو يعرف حرص عمر على أن يقف على الدقيق والجليل من كل شيء ، وأن يقف عليه مفصلاً أوفى تفصيل .

كان للإسكندرية أثر عميق في نفوس الذين فتحوها ، ثم كان لها أعمق الأثر في نفوس المؤرخين الذين أثبتوا بعد قرنين حديث أولئك الفاتحين . فأنت ترى في رواياتهم مبالغات عجيبية لا يفسرهما إلا دهشة رواتها دهشة جعلتهم يصدّقون كل ما يسمعون . يقول ابن عبد الحكم في رواية مُسنّدة : « وكان بالإسكندرية فيما أحصى من الحمامات اثنا عشر ديماس ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، كل مجلس منها يسع جماعة نفر » .

(١) يذكرون في سبب تخريبها أنها أعانت المسلمين على صد غارات الروم من البحر ، إذ حتمهم من المباغنة ، فتحايل الروم على تخريبها بأن بعثوا رجلا من خواص ملكهم إلى الوليد بن عبد الملك يحمل الهدايا النفيسة . وقد تظاهر الرجل بأن ملكه حاقده عليه يريد قتله ، وأنه يريد أن يسلم ويبقى بالشام . ورحب به الوليد وأدناه . ثم إن الرجل دل الوليد على دقائن استخرجت من بلاد الشام ، فاغتنب الوليد بها لعظم قيمتها . وزعم الرجل بعد ذلك أن منارة الإسكندرية تحتها كنوز عظيمة من الذهب والجوهر فشرهت نفس الوليد لهذه الكنوز ، وبعث جماعة من جنده فهدموا نصف المنارة ، وأزالوا المرآة قبل أن يقطن أحد إلى السكيدة . ولم يجد المنقبون كنوزاً تحت ما هدموا ، فعرفوا أنهم خدعوا فبنوا بناء من الآجر ، ولكنهم لم يستطيعوا الارتفاع به إلى مثل ارتفاع المنارة الأولى . فلما وضعوا المرآة فوقه لم تقف شيئاً .

ويقول: « لما فتحت الإسكندرية وُجد بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر ». و يذكر السيوطي أن أهل الإسكندرية جميعاً كانوا يلبسون الثياب السود والحمر لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض ، وكان تألق الرخام سبباً في اتخاذ الرهبان السواد في لباسهم ، وكان من المثل أن يسير الإنسان في المدينة بالليل فإن ضوء القمر إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضيء ، حتى كان الخائف يستطيع أن يضع الخيط في الإبرة بغير أن يستضيء بمصباح ؛ وما كان يستطيع أحد أن يدخل المدينة إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه يقيه بريق الطلاء والمرمر . ويقول المسعودي في وصف السرايوم : « وكان في ذلك القصر مائة عمود ، وفي صدره عمود عظيم لم يُر مثله في الحجم وله قمة كالتاج . . . وكان ذلك العمود يهتز عند هبوب الريح عليه » . ويقول السيوطي : « إنه قد بنى الجان لسليمان في الإسكندرية إيواناً للاجتماع ، به ثلاثمائة عمود علو كل منها ثلاثون ذراعاً » ، وكانت من المرمر الجزع ، بلغ من صقله أن صار كالمرآة يرى الإنسان فيه من يسير خلفه . وكان في وسط الإيوان عمود علوه مائة ذراع وإحدى عشرة ذراعاً ، وكان سقفه قطعة واحدة من المرمر الأخضر نحتته الجن . وكان هؤلاء الجان على صورة الإنسان لهم رؤوس كالقباب وعيون تمزق الأسد » . هذه الروايات وما ورد مثلها ، وهو كثير ، تشهد كلها بأن عاصمة مصر تركت في نفس الفاتحين أثراً لم يحسوا مثله في جميع أنحاء البلاد التي فتحوها فصاروا لا يذكرون ما شهدوا ويضيفون إليه ما سمعوا عنه من أحاديث صحيحة أو ملققة لا يثبت الكثير منها للنقد .

وقع هذا الأثر في نفوس الفاتحين لأول ما دخلوا الإسكندرية . ثم إنهم لم يلبثوا فيها إلا قليلاً حتى رأوا حياة أهلها عجيباً زادم دهشة وإعجاباً . فهذه الأجناس المختلفة التي تسكنها ، وهذه الأديان والمذاهب المتباينة التي تتجاوز فيها ، وهذه اللغات واللهجات العدة التي يتكلمها أهلها — هذا كله تجتمع فيه صورة مليئة بالحياة لا يماثلها شيء مما كانوا يتخيلونه عن برج بابل . مع ذلك لم يكن اختلاف الأجناس ، ولا تباين الأديان والمذاهب ، ولا تعدد اللغات واللهجات ، ليحجن في قليل ولا كثير على طمأنينة أهل العاصمة العظيمة للعيش وسكينتهم للحياة . فقد غرق سادتها في ألوان من الترف والنعيم أنستهم

كل خلاف بينهم ، وأنستهم كل ما سوى المتاع بهذا الترف بلغ من تعدد فنونه وألوانه ما وقف العرب حيارى لا يكادون يصدقون ما يرون وما يسمعون !! .

فلم تكد المدينة تستعيد طمأنينتها بعد انتهاء حصارها حتى عادت سيرتها الأولى ، تستمتع بصنوف اللهو ، وتستمرى المتاع بشتى ألوانه ؛ فهذه مجالس العلم تُعقدُ يتحدث حضورها في الفلسفة وفي الرياضة وفي الطب وفي الفن وفي غير ذلك من متع العقل وتركة وهم يُعْمَنون في منطقتهم وفي نظام حديثهم بالافتتان في هذا الترف ، حتى ليظنهم شاهد مجلسهم كأن الحياة كلها للعقل وما أبدع من علم وفن . وهذه ودور اللهو فيها الرافصات البارعات ، والمغنيّات المشجيات ، وفيها من التمثيل والموسيقى وألوان الفن الجميل كله ما لم تره من قبل أعينهم ، ولم تسمعه آذانهم ، ولم يخطر على قلوبهم . وهذه دور الصناعة تعج عجيبة شديداً ، ويشمر الصناع فيها عن سواعدهم ؛ فهي تنتج من كل شيء ما لا مثيل لإتقانه في غير الإسكندرية . وهذه متاجر المدينة في أحيائها التي لم تصبها الحرب بالكساد يتعامل الناس فيها مقبطين بما يجيء إلى عاصمة وادي النيل من ثمرات مصر المختلفة في الزراعة والصناعة ، وبما ينتقل إليها من النوبة ومن الشرق الأقصى ومن الشام ومن بلاد أوربا المختلفة . وهؤلاء سرة الإسكندرية ، في ثيابهم الجميلة بشتى ألوانها ، يذهبون إلى دور اللهو وإلى المتاجر وإلى دور العلم وإلى مسارح التمثيل ، فإذا أوا إلى قصورهم زادهم المتاع فيها حباً للحياة وحرصاً على أنعمها ، أى شيء هذا كله !! إلا إنه إلى الخيال أقرب منه إلى الحقيقة وهو مع ذلك حقيقة ملموسة تقع عليها حواس الفاعين ، فهم منها في عجب بالغ يذرم وليس لهم إلى حديث في غيرها سبيل .

ولم يكن أمراء الجند أقل من الجند عجباً وإعجاباً . وقد رأيت أثر هذا الإعجاب والعجب في كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة ؛ إذ أعجزه الجلال عن وصف ما رأى ، فلم يذكر إلا « أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية . وأربعمائة ملهى للوك » . وهذا العجز هو الذى جعله يبعث معاوية بن حديج إلى المدينة ولا يبعث معه كتاباً ، بل يقول له : « وما أصنع بالكتاب ! ألسنت امرأ عربياً تُبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ! » .

ولقد سار معاوية أياماً ثم بلغ المدينة في الظهرية ؛ فأتناخ راحلته بباب المسجد ودخله وجلس قريباً من بابه . وخرجت جارية من دار عمر بن الخطاب فرأته شاحباً عليه ثياب السفر ، وعرفت منه أنه رسول عمرو بن العاص ، فدخلت مسرعة إلى الدار ثم رجعت إليه مسرعة وقالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك ودخل معاوية الدار يتبعها ، وأجاب عمر حين سأله : ما عندك ؟ فقال : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية . فخرج عمر من فوره إلى المسجد ومعه معاوية وأمر المؤذن أن يؤذن في الناس أن الصلاة جامعة . فلما اجتمع الناس قال عمر لمعاوية : قم فأخبر أصحابك . فلما أخبرهم قام عمر فصلى شكراً لله ، ثم دخل منزله واستقبل القبلة ودعا بدعوات ، ثم أمر الجارية فجاءت الرسول الذي حمل النبا بفتح الإسكندرية بطعام خبز وزيت ، وأكل معاوية على حياء . ثم أتته بطبق من تمر ، فأكل على حياء كذلك . فلما فرغ من طعامه سأله عمر : ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد ؟ وأجاب معاوية : قلت إن أمير المؤمنين قاتلٌ . فأردف عمر : بسما ظننت الائن نمت النهار لأضيمن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيمن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية !؟ .

وبينا كان معاوية في طريقه إلى المدينة كان الروم قد بدءوا يجلبون عن الإسكندرية من طريق البر ومن طريق البحر . وقد سبق أن قلنا : لعله قد تم بين عمرو والمقوقس اتفاق بعد فتح الإسكندرية لم يتجاوز تنظيم الجلاء لجنود الروم عن عاصمة مصر وعن مصر كلها . يقول البلاذري : « ويقال إن المقوقس صالح عمراً على ثلاثة عشر ألف دينار ، على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج وأن يقيم بها من أحب المقام ، وعلى أن يفرض على كل حالم من القبط دينارين ، فكتب لهم بذلك كتاباً » . وقد استنبط بئر من رواية حنا النقيوسي أن المقوقس وعمراً اتفقا بعد فتح الإسكندرية على هدنة أحد عشر شهراً ؛ يبقى العرب أثناءها في أماكنهم ، وترحل مسلحة الإسكندرية من الروم أثناءها في البحر ومع جنودها أموالهم ومتاعهم ، فمن أراد الرحيل منهم في البر دفع جزية كل شهر حتى يبلغ أرض قيصر . وقد أضاف بئر إلى ما ذكره من ذلك شروطاً تتصل بالصلح الذي كان قد تم بين بابليون وبين القائد العربي والبطريق الرومي . وجلى أن هذه الشروط

كانت واردة بالمعاهدة التي وضع مشروعها حين كان العرب يحاصرون حصن بابليون ، وهي المعاهدة التي رفض هرقل إقرارها . أما بعد فتح الإسكندرية عنوة فقد اقتصر الأمر على تنظيم جلاء الروم عن الإسكندرية وعن غيرها من بلاد مصر .  
والراجح أن ما ذكره بقلر عن الهدنة صحيح ، وإن كان تحديد مدتها بأحد عشر شهراً موضع خلاف . فبعضهم يرى أنها لم تزد على الزمن الذي قدره عمرو بن العاص كافيًا لرد الخليفة على شروط الهدنة والجلاء ، وهو زمن لا يتجاوز الشهرين . ولعل هذا القول أدنى إلى الصحة ؛ فما كان مجيء السفن إلى الإسكندرية لنقل جند الروم منها ليستغرق أكثر من ذلك .

لم يفادر المقوقس الإسكندرية مع الروم الذين جلاوا عنها ، بل ظل مقياً بقصره فيها حتى مات بها ودفن في مقبرها . وهو لم يفكر في مغادرتها لأنه كان يعلم أنه يخاطر بحريته ، بل بحياته ، إذا نزل بزَ نطية ، وأن مصيره إن فعل سيكون النفي أو الموت لا محالة . فقد بقي هذا البطريق الشيخ في النفي الذي بعث به هرقل إليه حتى دعاه قسطنطين وسرتينا وابنها بعد موت هرقل . ثم إنه جاء إلى الإسكندرية على وفاق مع مرتينا ، وبقي بها حتى فتحها العرب فهاذتهم . وفي هذه الأثناء كان الروم قد بلغت ثورتهم بمرتينا وابنها بعد مقتل قسطنطين أن نُحِّيَ الشاب وأمه عن الحكم أو قُتلا ، وانفرد كنيستانس ابن قسطنطين بالعرش . وكانت صلة المقوقس بمرتينا غير خافية على أحد من أهل قسطنطينية . فلو أنه ذهب إليها لما كان عجبا أن يصيبه ما أصاب الإمبراطورة حليفته . لذلك آثر البقاء بمصر مقتنعا بأن الفاتح العربي سيبقى له من النفوذ ما تطمئن إليه شيخوخته المحطمة (١) .

(١) لا يشير المؤرخون المسلمون إلى سفر قيرس إلى القسطنطينية ولا إلى خبر نفيه ، بل يذكر أن هرقل كتب إليه يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ، ويأمره أن يناهض العرب القتال وألا يكون له رأى غير ذلك ، وأنه بعث الجيوش فأغنقوا أبواب الإسكندرية وآذنوا المسلمين بالحرب ، ففرج المقوقس إلى عمرو فقال له : أسألك ثلاثاً . قال عمرو : ما هي ؟ قال : لا تبذل لاروم ما بذلت لي فإنني قد نصحت لهم واستغشوا نصيحتي ؛ ولا تنقض بالقبط فإن النقض لم يأت من قباهم ؛ وأن تأمر لإذات فأدفن في كنيسة أبي يحنس . فقال عمرو : هذه أهونهن علينا .  
أما غير المسلمين من المؤرخين فقد ذكروا سفر المقوقس ونفيه ثم عودته إلى مصر ، وفضلوا ذلك على نحو لا يدع مجالاً للشك فيه بل يدعو لإثباته والقطع بصحته .

كان كثيرون من المصريين والروم الذين لاذوا بالإسكندرية بعد سقوط حصن بابلين يرجو أن يرجعوا إلى قراهم بعد أن سقطت الإسكندرية ، فطلبوا إلى القوقس أن يخاطب عمراً في الأمر . لكن عمراً أبى عليه ما طلب ؛ لأن بعض البلاد الحصينة كانت لا تزال تقاوم ، فمن الخطر أن ينضم إليها قوم ربما عاونوها على المقاومة . ورأى القوقس في إباء عمرو نذيراً بزوال سلطانه ، فاعتراه من الهم ما عجل به إلى الموت . أفات ندماً على تسليم الإسكندرية للمسلمين ، كما يقول حنا النقيوسى ؟ أم خشى أن يقتله عمرو فلما بلغ منه الخوف جعل في فمه خاتماً مسموماً ففات من ساعته ، كما يقول ساويرس ؟ أم إنها الشيخوخة انتهت به إلى موت طبيعي ؟ يثبت بتلر أنه أصيب بالدوسنتاريا ، وأنه مات منها موتاً طبيعياً ، فدفن بالإسكندرية في الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ٦٤٢ .

مات قيرس ، وجلا الروم عن عاصمة مصر ، فتولى المسلمون أمرها ، وأخذوا يديرون شؤونها . بذلك دالت دولة الروم فيها وزال سلطانهم عنها ، وإن بقيت لهم بها حاميات محصورة في بعض الأرجاء . وما عسى أن تغنى هذه الحاميات عن دولة دالت وسلطان تقلص لذلك كان سقوط الإسكندرية في يد عمرو بن العاص إيذاناً من الله بأن مصر كلها آلت إلى المسلمين ، وأنه ألقى عليهم إصلاح ما فسد من شؤونها ، وتعمير ما أصابه الخراب منها . لكنهم لم يكونوا ليفعلوا حتى يطهروا الأرض كلها من الروم ، وحتى يبعثوا إلى نفوس القبط الطمأنينة والأمن ؛ ليستقر الأمر في البلاد كلها ، فلا تحدث الروم أنفسهم بالعود إليها ، فإن فعلوا رُدُّوا على أعقابهم ، وذاقوا وبال أمرهم . وذلك ما حدث . وسيرى القارىء من بعد كيف حدث .

## الفصل الحادي والعشرون

### مصر في يد المسلمين

كان فتح الإسكندرية إبداناً بأن بلاد مصر آلت كلها إلى المسلمين ؛ فقد استولى خارجة بن خذافة على بلاد الصعيد إلى حدود طيبة ، فلم يبق من الروم إلا عدد قليل لم يُغامر بعد فتح العاصمة بقتال ، ولم يفاوض الفاتحين السلطان . وما كان هؤلاء الروم ليغامروا ، وهم يعلمون ما يُضمره القبط لهم من كراهية ، بسبب ما أصابهم في أرزاقهم وفي دينهم من اضطهاد . وقد بلغ من أمر هذه الكراهية أن كان القبط إذا رأوا روميًا منفرداً قتلوه ، ثم لا يعرف أحد من قتله . ولم يكن ذلك حبًا من القبط الغزاة أو ترحيبًا بمقدمهم ؛ فقد كان أهل الصعيد بعيدين عن سلطان المسلمين في تلك الأيام الأولى من عهد الفتح ، ولم تكن في نفوسهم حفيظة عليهم ، بل كانت كل حفيظتهم على الروم الذين أذاقوهم النكال قرونًا متطاولة .

وقد استولت الكتائب التي سارت في بلاد الدلتا على أكثر قرأها ، ونشرت سلطانها في أرجائها ؛ فلم تقاوم تلك الكتائب إلا البلاد المحصنة . ثم إن هذه البلاد بقيت محصورة لا تستطيع أن تقهر الغزاة وإن استطاعت أن تدفع نفسها . فلما فتح عمرو الإسكندرية فتح الكثير من هذه البلاد أبوابها ؛ لأنها أيقنت أن العرب سيضيّقون الخناق عليها فلن تطول مقاومتها . أما البلاد القريبة من ساحل البحر الأبيض فظلت على مقاومتها ، ولم تُدعن ولم تدخل فيما دخل الناس فيه من عهد .

وقد يرجع ذلك إلى أن هذه البلاد كانت بها مسالح من الروم ، ظنّ جندها أن مصيرهم إلى الهلاك إن سأموا أو قاوموا ، فدفعتهم فطرة المحافظة على النفس إلى المقاومة . وقد يرجع كذلك إلى أن المصريين من أهل هذه البلاد ترامت إليهم عن قسوة المسلمين أبناء حملتهم على التحصن والمقاومة . فلا شك في أن دعاية الروم كانت تُذيع ، بكل ما عُرِف من وسائل الإذاعة لذلك العهد ، أن المسلمين يسيئون معاملة القبط ويُرهبونهم ويأخذون

أرزاقهم غضباً ، وأنهم يُكرهون الناس على إنكار مسيحتيتهم لِيَتَّخِذُوا الإسلام ديناً . وإنك لتجد من هذه الأنبياء ، فيما نقله بتلر عن حنا القميوسى ، ما لعله يفسر مقاومة بلادٍ لا أملَ لها في نجاح مقاومتها ، ومع ذلك قاومت حين شاع بينها ما أذاعه الروم عن الغزاة المسلمين مما رَوَّع أهلها وحملهم على الاستماتة في القتال .

ويذكر المؤرخون أسماء بعض المدن التي قاومت ، ومنها « إخنًا » على مقربة من الإسكندرية ، و « بلهيب » في جنوب رشيد ، والبرُّس ودمياط و تَنيس ، و يروون حوادث وقعت بين الغزاة وأصحاب هذه البلاد لبعضها دلالة خاصة . فقد أراد « طَلما » صاحب إخنًا مصالحة عمرو ، فلم يُعجب عمراً كلامه ، وأمر رجاله فساروا إلى إخنًا وأخذوا منها أسرى مع أنها سلمت من غير مقاومة ؛ ولذا ردَّ عمرو أسراها الذين أرسلوا إلى المدينة ، وجعلهم أهل ذمة . وحدث ببلهيب مثلما حدث بإخنًا . ويقال إن عمراً تسلَّم وهو عند بلهيب كتاباً من الخليفة يطلب إليه أن يخيَّر الأسرى ، فن دخل الإسلام كان للمسلمين أخاً . وسمع الأسرى بذلك ، فأسلم كثيرون ، فجعل المسلمون يكتبون لإسلام كل واحد منهم . وسار العرب من البرُّس إلى دمياط فاستولوا عليها ، وأصبحت لهم بذلك شواطئ البحر من العريش إلى الإسكندرية . مع ذلك لم تُسلم تَنيس ولم تفتح أبوابها للمسلمين ، بل وقفت في وجوههم وناجزتهم القتال في مواطن كثيرة ؛ وظلَّت كذلك حتى فتحت عنوةً وغنم المسلمون أموالها وقسموها . وترجع مقاومتها إلى أنها كانت مدينةً صناعيةً عظيمةً كثيرة السكان ، ثم كانت لها إلى ذلك مكانة ذاتية خاصة . وكانت ذات أسوار حصينة فيها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد الثقيل . وكان بها اثنتان وسبعون كنيسة ، وستة وثلاثون حماماً . ويذكر المقرئى أن تَنيس ظلت على مقاومتها زمناً ، فلما أبطأ فتحها خرج حاكم مدينة قريية من دمياط . اسمه شَطَّاب بن الهاموك ، كان قد أسلم ، فنجح جيشاً من البرُّس ودميرة وأشمون طنّاح ، وجَهَّزه ولحق بالمسلمين وحارب معهم عدوهم ، وأحسن البلاء في ذلك اليوم الذى فتحت فيه تَنيس أبوابها ، الذى قُتل هو فيه . فأطلق اسمه على الموضع الذى خرج منه في شرق دمياط .

وكذلك تحطمت مقاومة الروم والمصريين الذين مالوهم ، أو الذين طمعوا في الاستفادة



من هذه الحرب لاستقلال بلادهم ، وأصبح الأمر في مصر خالصاً للمسلمين من شواطئ بحر الروم إلى بلاد النوبة .

وكان لعمر و أن يستريح بعد ذلك ، وألاً يتجاوز مصر إلى ما بعدها . لسكبه قدر أن للروم قوات ببرقة وطراً بلس قد تُفريهم بالتحصن هناك ، والتريص حتى تحين فرصة الثأر والرجمة إلى مصر . لذلك خرج في قواته ، بعد أن اطمأن إلى استقرار الأمر في مصر ، خسار من الإسكندرية إلى برقة . ولم يكن الطريق بينهما صحراوياً مهملًا مثلما هو اليوم ، بل كان يجرى في أرض خصبة ، تُحيط به من الجانبين زروع . وفا كته وكروم وعمران متصل . لذلك كانت مسيرة الفرسان المسلمين فيه نزهة ممتعة أدت إلى برقة ، فلم يجدوا فيها مقاومة تذكر ، والراجح أنها سلمت صلحاً بعد مقاومة ضعيفة ، ورضيت أداء جزية ثلاثة عشر ألف دينار كل عام .

وبرقة إقليم من طرابلس ، سُمي باسم مدينة كانت تقوم حيث تقوم اليوم بنى غازى . قال ابن دُقماق : إن هذا الإقليم كانت به مدن كثيرة عامرة ذات أنهار وأشجار ، وإنه كان كثير الناس والضياع ، ويزرع به الزعفران . وقد روى أن التجار كانوا يُسكنون التردد على برقة مُشرِّقين ومُقرِّبين ؛ لأنه كان يلج إليها من الشرق ومن الغرب صنوف من التجارة ليس في كثير من بلاد المغرب مثلها . لذلك لم يكن مجبياً ألا يدخلها جياة المسلمين بعد صلحها يقتضون جزيتها ؛ إذ كانت تبعث بالجزية إلى عمرو بمصر مع جماعة من أهلها . ومن عجيب ما يروى عن صلحها أن أهلها أبيع لهم أن يبيعوا أبناءهم لأداء الجزية . ولا تفسير لهذه الإباحة إلا أن بيع الأبناء في أداء الدين كان جائزاً عندهم ، فلم يجرمه المسلمون إلا على من أسلم<sup>(١)</sup> . وأكبر الظن أن أبناءها كانوا غير راضين عن هذا النظام ، بدليل ما ذكره ياقوت من أن أكثر الناس في برقة أسلموا .

وسار عمرو من برقة إلى طرابلس ، وكانت مرفأ حصيناً به مسلحة من الروم تحميها ،

(١) في رواية أوردها البلاذري أن عمرو بن العاص « صالح أهل أنطابلس ومدينتها برقة ، وهي بين مصر وإفريقية ، بعد أن حاصرهم وقتلهم ، على الجزية على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا في جزيتهم . وكتب لهم بذلك كتاباً . ولو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم .

وتجد حوله من الخصب ميرة تخزنها في قلاعه . فلما رأوا مقدّم المسلمين أقفلوا أبوابه وثبتوا  
للحصار الذي ضربه العدو عليهم ، وانتظروا مجيء مدد من البحر يُعينهم في موقفهم .  
وانقضت أسابيع لم يجيء المدد خلالها ، وعرف العرب أثناءها أن المدينة غير محصنة  
من جانب البحر ، فانسَلَّ جماعة منهم من تلك الناحية وصاحوا مكبرين ، فلم يسع الروم ،  
إلا الفرارُ إلى السفن تاركين المدينة يفتح الحراس أبوابها فيدخلها عمرو على رأس جيشه .  
وسارت كتائب أذاعت الرعب في قلوب أهل الإقليم ، فلم يسع الناس في كل  
أرجائه إلا التسليم . وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين يستأذنه في السير إلى تونس وما وراءها ،  
من شمال إفريقية فلم يأذن له ، فعاد إلى برقة حيث أقبلت إليه أكبر قبائل البربر  
فدانت له بالطاعة<sup>(١)</sup> . فلما اطمان إلى زوال ملك الروم من تلك البلاد كلها قفل راجعاً  
إلى الإسكندرية بالأسرى والغنائم .

وأراد عمرو أن يؤمّن حدود مصر من الجنوب كما أمّن حدودها من الغرب ، فبعث  
عُقبه بن نافع النهريّ إلى النوبة ، فلقية أهلها وقتلوا المسلمين قتالاً شديداً ارتدَّ عُقبه  
على أثره . ولم يمتد صلحاً ولا هدنة . ذلك أن أهل النوبة كانوا يرمون بالنبل فلا يُخطئون ،  
وكانوا يتحرّون الأعين فيرمونها فيفتنونها ، فستام العرب رُمّة الحدق . وظلت كتائب  
عمرو بعد ارتداد عُقبه تناوشهم على الحدود . فلما كانت خلافة عثمان بن عفان صالحهم  
عبد الله بن سعد بن أبي سرح على هُدنة : ألا يقاتل أحد الفريقين الفريق الآخر ،  
وأن يتبادل الفريقان الرقيق يعطيه أهل النوبة المسلمين ، والطعام يعطيه المسلمون أهل  
النوبة بما يوازي ثمن رقيقهم .

على أن أهل النوبة لم يفكروا في اجتياز التخوم إلى مصر لمناجزة قوات المسلمين ،  
بل كفاهم أن ردّوا عدوهم عن ديارهم فأقاموا بها على حدّ منهُ . لذلك لم يُنحس عمرو جانبهم  
وأقام مطمئناً إلى سلامة مصر من ناحية الجنوب ، كما اطمان إلى سلامتها من ناحية

(١) أكبر تلك القبائل لوانة . يقول السيوطي في حسن المحاضرة : « وكان البربر بفلسطين وكان  
ملكهم جالوت . فلما قتله داود ( س ) خرج البربر متوجهين إلى الغرب حتى انتهوا إلى لوبية ، ففترقوا  
هناك ، فتقدمت زفانة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت لوانة فسكنوا أرض أنطا بلس وهي  
برقة ، وتفرقت في هذا المغرب وانتشرت فيه ، ونزلت هوارة مدينة لبدة » .

الغرب بعد أن هزم الروم في بَرَقَة وطرَّابُلُس . أما وقد تمت له هذه الطمانينة فقد انصرف بكل تفكيره إلى تدبير الأمر في مصر وتنظيم حكمها . فكيف كانت سياسته في هذا التدبير وهذا التنظيم ؟

يُجْمَل بنا ، لنجيب عن هذا السؤال ، أن نَفْصِل في مسألة طال خوض المؤرخين فيها . فأنت قد رأيت ، مما تقدّم في هذا الفصل وفي الفضلين اللذين سبقاه ، أن عمرأ فتح مصر كلها عنوةً ، فلم يتمّ بينه وبين الروم صلح عليها ، ولم يكن القبط من أهلها ليصالحوه وهم في سلطان هرقل والذين جلسوا على العرش من بعده . وقد وقع المُقَوِّس مشروعاً للصلح مع عمرو أثناء حصار بابليون فرفضه هرقل ، ورفضه عادت الحرب بين الفريقين ، حتى انتهت إلى هزيمة الروم وجلائهم عن البلاد كلها . مع ذلك يُقَيض المؤرخون المسلمون في ذكر روايات يذهب بعضها إلى أن مصر فُتحت صلحاً ، ويذهب بعضها إلى أنها فُتحت عنوة ، ويغلون في هذه الإفاضة ، حتى يكاد الإنسان يحسب أنه لن ينتهي في هذا الأمر إلى رأى يطمئن إليه .

فأما الذين يذكرون أن مصر فُتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، فيستندون إلى روايات تنسبُ لجماعة ممن شهدوا الفتح أنهم قالوا إن مصر فُتحت عنوة ؛ وإلى تأييد ذلك القول بأنه كان لعمر بن الخطاب تابوت ؛ فيه كل عهد كان بينه وبين أحد من عاهده ، فلم يوجد فيه لمصر عهد . وهم يُضيفون إلى ذلك عن عمرو بن العاص أنه كان يقول : « لقد عمدت مَعْدَى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إلا لأهل أنطابُلُس فإن لم عهداً نوفي لهم به » . ويذكر أحد الرواة أن عمرأ أضاف : فإن شئت قتلت ، وإن شئت خست ، وإن شئت بعت » . ويورد أصحاب هذا القول حجة أخرى تؤيد رأيهم أن عمرأ كتب إلى عمر في رهبان بترهبون بمصر فيموت أحدهم وليس له وارث ، فكتب إليه عمر : « إن من كان له عقب فادْفَع ميراثه إلى عقبه ، ومن لم يكن له عقب فاجْعَلْ ماله في بيت مال المسلمين ، فإن ولاءه للمسلمين » .

وأما الذين يذكرون أن مصر فُتحت صلحاً فيستندون إلى روايات يذهب بعضها إلى أن البلاد فتحت صلحاً كلها ، ويستثنى بعضهم الإسكندرية فيذكر أنها فُتحت

عنوة . روى أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر صُوح على جميع من فيها من الرجال من القبط ، ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ ، على دينارين دينارين ، فأحصوا فبلغت عدتهم ثمانية ملايين . وقيل إن عمراً لما فتح الإسكندرية كان أكثر المسلمين يريدون قسماً ما عليها ومن فيها ، فقال لهم عمرو : لا أقدر على قسّمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . وكان جواب عمر على كتاب ابن العاص : « لا تقسّمها وذّرهم ، يكون خراجهم فيئاً للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم » . فأقرها عمرو وفرض على أهلها الخراج ، وأحصاهم فكان عدّة من بلغ الخراج بها ستائة ألف . بذلك فُتحت مصر كلها صلحاً بفریضة دينارين دينارين على كل رجل . وفي رواية أن شيخاً من القدماء ممن شهدوا فتح مصر قيل له إن ناساً يذكرون أنه لم يكن لأهلها عهد ، فقال : لا يبالي ألاّ يصلى من قال إنه ليس لهم عهد . وسئل : فهل كان لهم كتاب ؟ فقال : نعم ، كتب ثلاثة : كتاب عند طلما صاحب إخنك ، وكتاب عند قزمان صاحب رشيد ، وكتاب عند يحنس صاحب البرّاس . وأجاب هذا الشيخ ، حين سئل عن صلحهم ، أنه كان على دينارين على كل إنسان جزية وأرزاق المسلمين ، وأنه شُرح ألا يخرجوا من ديارهم ، وألا تنزع نساؤهم ولا كنوزهم ولا أراضيهم ولا يزداد عليهم .

هذه أهم الروايات التي استند إليها من يقولون إن مصر فتحت صلحاً ، ومن يقولون إنها فتحت عنوة ، ولعلك توافقني على أنها مع ظاهر اختلافها ، تنتهي إلى نتيجة واحدة ، وتؤيد أن مصر فتحت عنوة ، وفتحت في الوقت ذاته صلحاً . فالجرب التي وقعت في أرضها إنما كانت بين المسلمين والروم ، ولم تكن بين المسلمين والقبط من أهل البلاد . وقد كان موقف المصريين من الفريقين موقف حياد إن شئت . وهو بالأحرى موقف المغلوب على أمره ، لا يملك أن ينضم انضماماً ظاهراً إلى أحد الفريقين ويقاوم الجانب الآخر في صفه . لذلك كانوا يُنفذون ما يأمرهم الغالب على منطقة من المناطق بتنفيذه ، وكانوا ينفذونه كرهاً إن لم ينفذوه طوعاً . فحينما كان الأمر للروم كان القبط يعاونونهم في تعبيد الطرق وإقامة الجسور وما إلى ذلك مما يحتاجون في القتال إليه . وحينما كان الأمر للعرب كان القبط يبذلون لهم مثل هذه المعاونة . وهم كانوا كما رأيت يمتنون الروم أشد المقت لما يبلغ

منهم في دينهم وفي أرزاقهم ، وكانوا يخافون العرب أن يحلوا بينهم محل الروم ، وألا يعاملوهم بخير مما كان الروم يعاملونهم به . قومٌ ذلك شأنهم لا يمكن اعتبارهم محاربين ، ولا يمكن أن يقال إنهم قاتلوا العرب أو قاتلوا الروم ؛ إنما كان القتال بين العرب والروم في أرض مصر . وقد انتصر العرب على الروم فأجلوهم عن مصر وأدوا دواتهم فيها . وهم لذلك قد فتحوا مصر عنوة في وجه الروم الذين قاتلوهم وانهزموا أمامهم ، ولم يفتحوها عنوة في وجه المصريين الذين لم يقاتلوهم .

وقد رأيت بمد فتح الإسكندرية كيف سلمت إخنا وبلهيب والبرأس ودمياط دون مقاومة . وكيف عاون المصريون العرب في قتال تنيس وفي فتحها . وما كان المصريون ليقاتلوا العرب أو يحاولوا إجلاءهم عن بلادهم ولم ينشئ الروم في البلاد جيشاً من أبنائها ، ولم يتركوا سلاحاً يذود به أهلها عن أنفسهم . بل جرّ دوها من كل سلاح حتى لا تنور بهم ولا تحاول الاستقلال عنهم . لذلك كان طبيعياً أن تُذعن للعرب أول ما غلبوا الروم في أرضها وأخرجوهم منها أما وقد فعلوا فقد أوجب الإسلام على الفاتحين أن يعرضوا على القبط أن يُسلموا فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، أو يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية لقاء حماية المسلمين لهم . وهذا ما رآه عمرو بن العاص مخالفاً فيه رأى الذين أرادوا قسمة البلاد فيما بين المسلمين . وقد أقرّ عمر بن الخطاب هذا الرأي ، ورضيه المصريون . بذلك كان فتح مصر عنوةً بالنسبة للروم ، وصالحاً بالنسبة للمصريين .

أى صلح أقره عمرو ورضيه المصريون ؟ تكثر الروايات في هذا وتعدد . لكننا نستطيع أن نقول مطمئدين : إنه يطابق الصلح الذي رفضه هرقل . والذي عُقدت شروطه بين عمرو بن العاص والمقوقس حين كان المسلمون يحاصرون حصن بابليون . وقد أورد الطبري نص هذا العهد فيما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وميلتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرّهم وبحرهم ، لا يُدخّل عليهم شيء من ذلك ، ولا يُنتقص ، ولا تساكنتهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية

إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جرى لَصُوتُهُمْ<sup>(١)</sup> . فإن أبي أحد منهم أن يُجيب رُفْعَ عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا من أبي بريئة . وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفْعَ عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم . ومن أبي واختار الذهب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمة المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً ، على ألا يُغزوا ولا يمتنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر .

ذكرنا أن هذا العهد يطابق الصلح الذي عُقدت شروطه بين عمر والمقوقس ولم نقل إنه هو . فهذا النص الذي أثبتته الطبري ليس عقداً بين طرفين ، وإنما هو تصريح من جانب واحد ، على تعبير فقهاء القانون الدولي في عصرنا الحاضر . صحيح أن أهل مصر قبلوا هذا العهد بعد إعلانه ودخلوا فيه ، لكن هذا القبول لا يعرّف من طبيعته القانونية ؛ فهو عهد أملاء من فتح أرضاً لم يقاومه أهلها ، أريد به بعث الطمأنينة إلى نفوس الناس في هذه الأرض بتحديد تبعاتهم لقاء تأمينهم على حرّيتهم وعلى ممتلكاتهم وأموالهم . وقبول مثل هذا العهد إنما هو نزول على حكم الواقع اتقاء ما هو شر منه ، وليس رضا بالمعنى الفقهي ؛ وإنما يقوم هذا الرضا على أساس من حرية صاحبه في أن يرضى أو لا يرضى .

عهد ذلك شأنه يختلف في طبيعته القانونية عن الصلح الذي رفضه هرقل ، بعد أن عقده عمرو والمقوقس أثناء حصار بابلين . أشدّ الاختلاف ؛ فقد كان صلح المقوقس هذا بين طرفين ، وكان ينظّم أموراً ما كان لعهد الأمان الذي أذاعه عمرو بين المصريين أن يتناولها وقد أورد بتلر شروط هذا الصلح نقلاً عن كتاب حنا النقيوسي ، وإن لم يوردها على الترتيب الذي أوردها به المؤرخ القبطي . وظاهر من هذه الشروط أنها كانت صلحاً بين المسلمين الظافرين والروم المقهورين على مصر كلها وكان مدى هذا الصلح أن يجلو

(١) لصوت : جمع لصت (بفتح اللام) وهو اللص .

الروم عن البلاد، وألا يعودوا إليها أو يسعوا ردها، وأن يتم هذا الجلاء في أحد عشر شهراً من إقرار هرقل لهذا الصلح، وأن يبعث الروم رهائن من قبلكم مائة وخمسين من الجنود وخمسين من غير الجنود ضمناً لإفناذ العهد، وأن يبقى العرب في أماكنهم مدة الهدنة لا يسعون للقتال، وأن يباح لليهود الإقامة بالإسكندرية، وأن يكف المسلمون عن أخذ كفائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم، وألا يفرق في الجزية بين القبط وغير القبط من سكان مصر. شتان ما بين هذا العقد وعهد الأمان الذي أعلن من جانب واحد. فهذا العقد أريد بمشروعه الذي رفض تصفية لحالة حرب قائمة؛ وخلصته ترك الروم مصر للعرب، وتعهد العرب للروم بعدم إجلاء اليهود عن العاصمة، واحترام معابد المسيحيين وعقائدهم، وعدم التفريق بين المصريين وغير المصريين في الجزية. أما عهد الأمان فلا شأن للروم به. ولا عهد على المسلمين لهم فيه. لذلك كان من الخطأ أن يقول بتلإن عهد الأمان لا يخالف عقد الصلح، وإن كلا النصين يكمل الآخر.

على أن عهد الأمان لم يُورد في أمر الجزية أيّ تفصيل عن طريقة توزيعها بين ساكني مصر. وقد اتفق المؤرخون على أن الجزية قدرّت بدينارين على كل حالم من الرجال دون سواهم، فلا جزية على الأطفال والنساء والرقيق والشيوخ الفانين والمعجزة غير القاديرين والصبيان. وجليّ أن هذه الجزية كانت على الرؤوس، وأنها كانت غير خراج الأرض يلزم به الرجل على قدر المساحة التي يزرعها. وروى البلاذري عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن عمراً « وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً، وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقاً للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسّم فيهم ». ويتعذر القطع برأى في هذه الفريضة من الحنطة والزيت والعسل والخل: أكانت ملحقة بالجزية على الرؤوس فهي ليست من سخراج الأرض، أم كانت تحسب من هذا الخراج؟ فقد روى البلاذري، بعد أن أورد قول عبد الله بن عمرو، حديثاً نسبته إلى يزيد بن أبي حبيب « أن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول، مكان الحنطة والزيت والعسل والخل، على دينارين دينارين، فألزم كل رجل أربعة دنانير، قرصوا بذلك وأحبوه ».

وتذهب بعض الروايات إلى أن عمر كتب إلى ابن العاص أن يفرق بين أهل مصر في مقدار الجزية على قدر يسارهم ، فيجعلها أربعة دنانير على الموسر ، ودينارين على أوساط الناس ، وديناراً على من دونهم . وهذا الاجتهاد من عمر أتبع من بعد . يقول أبو يوسف في كتاب الخراج : « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة . . . وإنما تجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهماً يؤخذ ذلك منهم في كل سنة » .

أذاع عمرو في مصر عهد الأمان ، فرضيه المصريون ودخلوا فيه . بذلك آن له أن ينتقل من سياسة الحزب إلى سياسة السلام . ولا ريب في أن عمرراً لجأ أثناء الحرب إلى ما توجبه الحرب من تدابير في بعضها بطش وقسوة بالروم ومن طونهم من المضربين . ولا تثير عليه في ذلك ، والحزب هو الحرب ، وتمهيد الطريق للنصر مع ضمان السلامة للجيش المقاتل هو أول واجب على القائد الذي يعرف واجبه . ولئن كان واجباً عليه ألا يتجاوز في البطش والقسوة ما يحقق هذين الغرضين ، إن عليه لفرصاً أكبر ؛ ذلك ألا يتردد لأي اعتبار دون تحقيقهما . أما وقد تمّ للمسلمين البصر فانهزم الروم وجئوا عن أرض مصر ، فقد انتهت مهمة القائد وبدأت مهمة السياسي . وقد كان عمرو بن العاص في كل المواقف السياسي الخنك الذي لا يُشَقُّ غباره . وكان عمر بن الخطاب يعرف ذلك منه أكثر مما يعرفه غيره ، لذلك ولاه على مصر ، فكان نجاحه في سياستها وتدير أمورها أعظم من نجاحه في طرد الروم منها والقضاء على دولتهم فيها . هذا ما رأيت من بلوغه كل أغراضه من الحرب على نحو يكاد يكون معجزةً يدق إدراكها على الأقدام .

وحسبنا قبل أن نعالج هذه السياسة في تفصيلها أن نُشير إلى جملتها . فقد رأى عمرو أول ما رأى أن يُزيل ما يشكو المصريون منه ، وما كانوا يتورون بالروم من جرّاته . وقد كان الاضطهاد الذي أول سبب لتذمر الناس وشكواهم . لذا كان أول أمر أذاعه عمرو بن العاص في الناس جميعاً من النوبة إلى الإسكندرية ، أن لا إكراه في الدين . وأن حرية العقيدة أمر مقدّس ؛ فلن يضارَّ أحدٌ في حريته أو في ماله بسبب دينه أو مذهبه فن شاء أن يبقى ملكانياً أو مونوفيسياً فله ما يشاء أن ينتقل من دين



إلى دين أو من مذهب إلى مذهب فلن يصاب ذلك بسوء . ومن أسلم فله ما للمسلمين  
وعليه ما عليهم . وقد نُفِذت هذه السياسية بدقة ليس كمثلها دقة . ذكر ساويرس أن أُسْتُقْفَا  
ملكائياً بقي على مذهبه حتى مات ، لم يمسه أحد بأذى ؛ وأن بنيامين المونوفيسي كان  
يستميل الناس إلى مذهبه بالحجة والبرهان ، فلا يقف أحد في سبيله ولا يعطل أحد نشاطه .  
وقد بقيت كنائس الملكانيين وكنائس المونوفيسيين قائمة تؤدّي فيها الشعائر ، ولا يجرؤ  
أحد أن يدنس حرمتها ، أو يحمل أحداً من أهل هذا المذهب أو ذاك على أمر لا يرضاه .  
ومن اليسير عليك أن تقدّر ما كان لهذه السياسة من أثر في نفوس المصريين بعد أن ذاقوا  
مرارة الاضطهاد الديني ، وبعد الذي كان يصيبهم في سبيل مذاهبهم من عذاب وتشريد  
ونفي عشرة أعوام تِباعاً .

وازداد الناس اطمئناناً إلى حكم الفاتحين حين رأوم يُزِيلون من أسباب تذرهم  
وشكواهم سبباً آخر لم يكن أقلّ إثارة لنفوسهم من السبب الأول ؛ فقد خفف عمرو  
وطأة الضرائب ، وألغى ما قرره الروم من فروق بين الناس في أمرها . ذلك أن الروم  
كانوا يجبون عن جزية الروم ضرائب كثيرة من أنواع شتى أكثرها غير عادل ؛ وكانوا  
قد أعفوا بعض الطوائف من الجزية ومن ضرائب معينة ؛ وكان أهل الإسكندرية أكثر  
الناس استمتاعاً بهذا الإغفاء . فلما ألغى عمرو ما كان غير عادل من الضرائب ، وسوّى  
بين الناس في أدائها ، كانت هذه التسوية ، وكان تخفيف العبء ، مدعاة لرضا الناس عن  
سياسته وحسن قبولهم لها ، ثم لم يكن تذمّر ذوى الامتيازات التي ألغيت ليعتبر من هذا  
الرضا وحسن القبول .

حَسْبُنَا في هذه الإشارة الجملّة أن نذكر هذين الأمرين ، وأن نضيف إليهما أن عمراً  
جعل العدل والإصلاح أساس سياسته في مصر ، لتتوسّم ما قدّر لهذه السياسة من نجاح  
أسرع بمصر لتكون ذات شأن في حياة المسلمين ، وفي سياسة الأباطورية الإسلامية .  
أين تُرَى أن يتخذ عمرو مقرّ حكمه والموضع الذي تصدر عنه سياسته وينبعث منه  
سلطانه؟ الطبيعي أن يكون هذا المقرّ مدينة الإسكندرية ؛ فهي عاصمة مصر منذ بناها  
الإسكندر ، وهي المدينة العظيمة لا تضارعها مدينة غيرها في الجمال والعظمة ، وبها القصور

التي كانت مُقاماً للملك البطالسة وحكام الروم . ولذا كتب إلى عمر يستأذنه في المقام بها ، وإقامة حكومته فيها . وسأل عمرُ الرسولَ : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ فأجابهُ : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . وكان عمر ، كما رأيت من قبل ، حريصاً أشد الحرص على ألا يحول بينه وبين المسلمين في البلاد المفتوحة حائل . لذلك كتب إلى عمرو : « لا أحب أن تُنزل المسلمين مُنزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف » . ولما بلغت هذه الرسالة عمراً لم يجد مكاناً يحقق رغبة أمير المؤمنين خيراً من المكان الجاور لحصن بابليون ؛ فهو على ملتقى فروع النيل المنتشرة في الدلتا مع الجرى الرئيسي للنهر ، وهو إلى ذلك قريب من مدينة منف التي كانت عاصمة مصر في عهد الفراعنة ، وليس بفصيل بينه وبين الحجاز ماء ؛ ففي مقدور عمر أن يركب إليه راحلته حتى يبلغه من غير أن يعبر ماء في طريقه .

وكان عمرو بن العاص قد ضرب قبةً إلى جوار حصن بابليون حين حصاره ، وسمى المسلمون الذين معه هذه القبة الفُسطاط<sup>(١)</sup> . فلما فتحوا الحصن وأزمع عمرو السير إلى الإسكندرية أمر بنزع هذا الفُسطاط ، فإذا فيه يمامٌ قد فرَّخ ، فقال : لقد تحرّم بنا أمر بإبقاء الفُسطاط حتى يطير الفراخ ، وأوصى به صاحب القصر . فلما عاد من الإسكندرية أمر جنده أن ينزلوا عند الفُسطاط ، وأن يختطّوا دورهم حوله . وكذلك اختطّت البلدة ، وقُسمت بين أحياء العرب وبنائها لهم القبط وبنى عمرو مكان الفُسطاط وما حوله مسجداً بين حدائق وأغراب ، وظل قائماً مع أصحابه حتى حرروا قبيلته . ثم إنه اتخذ في المسجد مذبراً يخطب الناس من فوقه . فلما عرف عمر صنيعه ذلك كتب إليه يقول : « أما بعد ، فإنه قد بلغني أنك اتخذت مذبراً ترقى به على رقاب المسلمين . أما حسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك ا فمزمت عليك إلا ما كسرتَه ا » ، فكسره عمرو وأزاله . وبنى عمرو داراً لعمر بن الخطاب وكتب إليه : إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد

(١) في لسان العرب أن الفُسطاط مجتمع أهل الكورة حوالى مسجد جامعهم ، وقد أورد في الفُسطاط ست لغات ؛ منها الفُسطاط ولا ضرورة لذكر ساثرها . ويذهب بعض العلماء إلى أن كلمة الفُسطاط مأخوذة من كلمة Fossatum البيزنطية الأصل ، ومعناها المسكر أو المدينة المحصنة ، وأن العرب سمعوها في الشام وفي مصر فأدخلوها لغتهم .

الجامع . فأجابه عمر : أتى لرجل بالحجاز أن تسكون له دار بمصر ! وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين ، فنقذ عمرو أمره .

وإنما تخيّر عمرو هذا الفضاء فأقام به قسطنطين مصر حتى لا يخرج المسلمون أهل مصر من ديارهم ليحلّوا محلّهم ، وليتجنّب بذلك كل ما يوجب شكوى المصريين أو تذمّرهم . ولعله أراد كذلك أن ينشئ مدينة إسلامية يربط بها جند المسلمين ، وتقيم فيها أسرهم لتسكن بينة يعيشون فيها مألوف عيشهم ، على نحو ما فعل سعد بن أبي وقاص حين مصر الكوفة والبصرة . على أن اتخاذا ابن العاص ، وهو والى مصر ، هذا البلد مقراً لحكمه أسرع به إلى العمران ، وأدى بطائفة كبيرة من المصريين إلى الانتقال إليه والبناء فيه . فلما اتسعت روضة المدينة أشأ المسلمون بظاهرها ضاحية أطلقوا عليها اسم العسكر ، ونقلوا إليها قاعدة الحكم . بذلك صارت قسطنطين مصر عاصمة البلاد كلها ؛ تشد إليها الأنظار من الصعيد ومن مصر السفلى ومن ثغور البحرين الأبيض والأحمر ، مما أدى بها إلى أن تزداد على الأيام سعةً وعمراناً . وقد ترتب على ازدياد عمرانها أن انتقلت إليها التجارة ، وأن ازدهرت فيها الحياة ، فبرز إليها كثيرون من أعيان الإسكندرية ومن أعيان منف وكان ذلك مقدّمة للقضاء على منف وأن تصبح قرية أثرية لا تذكر عظمتها إلا إذا قرّنت إلى عظمة الفراعنة الذين اتخذوها مدى آلاف السنين عاصمتهم ، كما جنى على الإسكندرية فلم تبق المدينة العظيمة ذات الجلال الباهر ، والنفر المضيء بجلاله كل ما حوله من أرجاء العالم .

أقام عمرو بفسطاط مصر يفكر في تديروسياستها . وقد رأيت أنه جعل حرية العقيدة من أسس هذه السياسة . فلما عرف رهبان القبط هذا الأمر وتيقنوه ، خرج عدد عظيم منهم من الأديار التي كانوا قد اعتصموا بها من الإضطهاد ، وساروا إلى عمرو يعلنون له الطاعة . وكان عمرو حريصاً على أن يعود البطريرق بنيامين إلى رياسته الدينية لما عرفه من محبة القبط له وتعلقهم به ، ومن ازدياد هذه المحبة في نفوسهم بعد فرار بنيامين إلى أقصى الصعيد واعتصامه من الروم بالصخراء . لذا كتب للقبط جميعاً أماناً خص فيه بنيامين بقوله : « فليأت البطريرق الشيخ آمناً على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها ، لا يبالهم أذى ولا تخفّر لهم ذمة » وعرف بنيامين عهد الفاتح العربي ،

تفرج من نخبته بالصحرَاء وسار إلى الإسكندرية ، فدخلها دخول الظافر في مظاهر من ابتهاج القبط لا يساورها خوف ولا يشوب صفوها كمدبر .

ولما استقر بنيامين المقام بين أتباعه ، دعاه عمرو إليه وقابله بالترحيب والتكريم . وتحدث بنيامين إليه ، وكان عذب المنطق ، في تودة ورزانة ، فأعجب الفاتح بمديته ، وجعل له ولاية الدين على القبط يسوسهم في أموره بما يشاء . وخرج البطريرق القبطي من حضرة الفاتح الإسلامي ممتليء النفس غبطةً وابتهاجاً ، وعاد إلى الإسكندرية يلتهج بحمده والثناء عليه ويقول لأتباعه : « عدت إلى بلدي الإسكندرية ، فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء . وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم . » ولم تسكن الأيام لتزيده إلا ثناء وحمداً ؛ فقد اجتمع القبط من حوله أحراراً في إقامة شعائرم ، فأصلح لهم كمناسمهم وذهب إلى أديارهم ، فكانوا يقابلونه في مواكب يحملون فيها بين يديه المباخر وسعف النخيل .

وقد بلغ من ابتهاج القبط بعود الحرية إليهم مبلغاً يعبر عنه ساويرس بقوله « إنهم فرحوا كما تفرح الأسخال إذا حلت قيودها وأطلقت لترشف من لسان أمهاتها » . ومع ما عرف من بغض حنا النقيوسي للمسلمين وتسقطه خطأهم لقد كتب عن عمرو يقول : « لقد تشدد في جباية الضرائب التي وقع الإتفاق عليها ، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب ، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته » ونقل حنا عن المصريين أنهم كانوا يقولون : « ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالقبط ومثلهم على يد قيس . لقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر » .

لم يكن الملكانيون ، من المصريين ومن الروم الذين أقاموا بمصر ، أقل تمتعاً بحريتهم الدينية من القبط ، بل أظلمت حمايتهم عمرو كما أظلمت المونوفيسييين . صحيح أن الملكانيين كانوا قلة إلى جانب المونوفيسييين ، وأن عدداً كبيراً من القبط الذين انتقلوا أيام الإرهاب إلى المذهب الملكاني لم يلبثوا حين عادت لهم حريتهم الدينية أن رجعوا إلى مذهبهم الأول

والتفوا حول راعيهم القديم ، ونالوا على يده « تاج الإعراف » كتعبير ساويرس . لكن آخرين من القبط الذين انتقلوا إلى المذهب الملكاني أصرّوا عليه فلم يسمح الحكم الإسلامي بحملهم قهراً على تغييره . لذلك بقي بمصر عدد كبير من الملكانيين إلى ما بعد الفتح بخمسين عاماً . وإنما تفاقصوا من بعدُ لأن المصريين منهم شعروا بأن صلّاتهم الاجتماعية تقتضيهم الدخول في مذهب جماعتهم ، ولأن من بقي من الروم بمصر آثر أن يندسج مع أهلها فدان بدين الكثرة أو بدين الجاكين .

كان من أثر هذه الحرّية الدينية أن أقبل كثيرون من عقلاء الروم والمصريين على النظر في المذاهب المختلفة ، ثم انتهى أكثر هؤلاء إلى قبول الإسلام والدخول فيه . فقد رأوا في تنازع المذاهب المسيحية واضطهاد أصحابها بعضهم لبعض مازهدم فيها ، وجعلهم يلتمسون عن طريق الحرية العقلية سبيلاً إلى عقيدة يؤمنون بها مختارين . وكان الإسلام في هذا العهد الأول يدعو إلى النظر في الكون نظراً حراً مطلقاً من كل قيد . فلم تكن قد نشأت فيه المذاهب والشيع ، ولم يكن أهله قد عرفوا التمسب الذمى للمذهب على مذهب ، بل كان باب الاجتهاد مفتوحاً لكل ذى عقل وبصيرة ، وكان ماورد في القرآن الكريم من المبادئ البالغة غاية السمو يدعو إلى الإقبال عليه والإطمئنان إليه . وإذا صح مايقال أحياناً من أن المصريين الذين دانوا بالإسلام في ذلك العهد إنما دانوا به ليتساوا بالفاتحين ، فلن يصدّق ذلك إلا على الأقلين منهم ؛ أما أكثرتهم فقد دانت به عن بيّنة وإيمان . ولا عجب في ذلك وفطرة المحافظة على العقيدة الدينية أقوى في النفس من أن يزلزها مثل هذا الإعتبار . يقول بتلر في هذا الصدد : « ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها . وإذا كان منهم من أسلم طمعا في أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون لهم ما لهم وينجو من دفع الجزية ، فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقيدتهم غير راسية . أما الحقيقة المرّة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعتها وأحزابها . ومنذ بدأ ذلك لهؤلاء العقلاء لجثوا

إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بداعته وطمانينته وبساطته<sup>(١)</sup> .  
 حتى عمرو حرية الاعتقاد ، ورسم سياسته في جباية الضرائب وفي أعمال الإصلاح  
 وفي إقامة العدل بين الناس ، وعهد إلى العمال الذين ولّاهم في القيام على تنفيذها . أفكان  
 هؤلاء الحكام من العرب ، أم من المصريين ، أم من غير هؤلاء وهؤلاء ؟ تأتي طبيعة  
 القتل أن تكون إمارة جند غير مسلم ، فعهد الأمان يجعل على المسلمين حماية مصر  
 ومن فيها ؛ فطبيعي أن يتولى المسلمون إمارة القوات التي يعهد إليها في هدم الحماية .  
 هذا إلى أن مصر لم يكن لها جيش في عهد الروم ، وإنما كان حرسها الوطني جند نظام  
 لاجند قتال ، فليبق هذا الجرس كما كان في ذلك العهد . أما الجيش وإماراته وأسلحته  
 فكانت للمسلمين دون سواهم .

وليكون هؤلاء المسلمون على أهبة دائمة للدفاع عن البلاد ، لم يُبَخِّ لهم أول الأمر  
 امتلاك أرضها ، بل فُرِضت لهم أرزاق يقتضونها لنفقتهم ونفقة عيالهم . ويظهر أنهم أقاموا  
 على ذلك كل خلافة عمر . فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر لم يُقَطِّع أحداً من الناس  
 شيئاً من أرض مصر إلا ابن مستور ، وكان عبداً مثل به سيده فأعتقه عليه رسول الله  
 وبقي عيالاً على الخليفة غير صالح لقتال . على أن هذا المنع لم يدم إلا ريثما اطمان المسلمون  
 إلى قرارهم في مصر . عند ذلك أُبيح لهم أن يمتلكوا الأرض ، فإذا ملكوها دفعوا عنها الخراج  
 كسائر الناس ، فلا يزداد خراجها ولا ينقص بسبب تغير مالسكها وكونه مسلماً أو قبطياً .  
 ولم تكن الأرزاق التي فُرِضت لجند المسلمين مقصورة على ما ينالونه من الجزية ،  
 بل كان لهم على المصريين فريضة الضيافة ثلاثة أيام ، وكان لهم إلى ذلك حقوق على ما يترك  
 من الأرض في كل قرية للمنافع العامة . يدل على ذلك خطاب ألقاه ابن العاص على الناس  
 جاء فيه : « . . . وعلى الراعي حسن النظر لرعيته . فَحَيَّ لَكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ إِلَى رَيْفِكُمْ  
 فَنَالُوا مِنْ خَيْرِهِ وَلَبَنَهُ وَخِرَافَهُ وَصَيْدَهُ ، وَأَرَبُوا خَيْلَكُمْ وَأَسْمَنُوا وَصَوْنُوا وَأَكْرَمُوا فَإِنَّهَا  
 جَنَّتْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَمَهَا مَغَانِمُكُمْ وَأَنْفَالُكُمْ . . . وَاَعْلَمُوا أَنِّي مَعْتَرِضُ الْخَيْلِ كَاعْتَرِضُ  
 الرِّجَالِ ؛ فَمَنْ أَهْزَلَ فَرَسَهُ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ حَطَطْتَهُ مِنْ فَرِيضَتِهِ قَدَرًا ذَلِكَ . وَاَعْلَمُوا أَنَّكُمْ

في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية .

كان هذا إذًا شأن الجيش وإمارته وأسلحته ؛ فأما المناصب للذنية فترك عمرو أكثرها لجماعة من الروم كانوا يتولونها من قبيل دولتهم قبل الفتح . ثم آثروا البقاء بمصر على أن يعودوا إلى بلادهم ، ورضى كثير منهم الإسلام ليسكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكذلك أقرّ عمرو ميناكس على حكم مصر السفلى حيث كان من عهد هرقل ، وأقرّ غيره من بنى جنسه على حكم بعض الأقاليم ، كما أقرّ الروم الذين كانوا فيما دون ذلك من المناصب ولم يتركوا مصر . وإنما شغل القبط المناصب التي خلت لأن أصحابها من الروم تركوا البلاد إباءً منهم أن يكونوا رعية لغير دولتهم .

لم يكن لعمرو أول الفتح أن يسلك غير هذه الخطة ؛ فهي بعينها الخطة التي سلكها المسلمون في العراق والشام ، وهي كانت محتومة في مصر أكثر منها في تلك البلاد . فلم يكن العرب يعرفون لغة المصريين ، ولم تكن تربطهم بها آصرة الجنس العربي الذي حكم العراق والشام قرونًا قبل ظهور الإسلام . هذا إلى أن تغيير النظام القائم في أمة من الأمم لا يمكن أن يتم ظفرةً ، فلا بد من بقائه حتى يتطور على الأيام ليلائم العهد الجديد . أمّا وقد كان جماعة من الروم عمالًا على الأقاليم حين جاء الفتح ، فلبقوا كما كانوا ولينظر الفاتح العربي في أناة ، فيدخل ما يحسن إدخاله على نظام الحكم من تعديل يزيد نصيب أهل البلاد من هذا الحكم ، على شريطة ألا يضطرب النظام فيسبب اضطرابه إلى الحاكمين والمحكومين على سواء .

كان عمرو يكتب إلى الخليفة بما يتم في مصر ويطلعه على كل خطواته فيها . فلما عرف عمر مكانة بنيامين من قومه كتب إلى ابن العاص أن يلتمس الرأي عند البطريق القبطي في خير الوسائل لحكم البلاد وطمانينة أهلها . ولم يَصْنِ بنيامين بالمشورة وقد أعاد إليه عمرو كل نفوذه . وكانت مشورته أن يُجَبِّي الخراج من غلة الأرض عند فراغ الناس من زروعهم ومن عصر كرومهم ، وأن تُحْفَر خُلجان مصر وتُصَاح جسورها وتُسَدَّ ترعها كل عام ، وأن يُعْطَى العمال أرزاقهم بغير انقطاع لثلاث برنسوا ، وألا يباح مطل الناس

حقوقهم بغير حق ، وألا يلى أمور الناس عامل ظالم . وارتاح عمرو إلى هذه المشورة فكتب إلى عماله في أرجاء البلاد ، وأمرهم أن يتبعوا هذا الرأي لا يحيدون عنه ، ثم اتجه بتفكيره إلى أعمال الإصلاح يزيد بها البلاد ثروة ، فيزداد أهلها طمأنينة ويزداد خراجها نماء . ولعل تفكيره في الإصلاح قد سبق مشورة بنيامين . وكان أول عمل خطير مر بخاطره أن يُحفر خليج تراجان الذى يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويزيد الاتصال بين مصر وثور شبه الجزيرة تيسيراً . وقد قلبت من قبل إن الفراعنة حفروا هذا الخليج قبل عهد تراجان بألوف السنين<sup>(١)</sup> ، وإنما أصلح تراجان ما فسد من أسره فأحسن حفره وتطهيره . فلما توالى على مصر غزوات الفرس والروم وفشا فيها الاضطهاد وسوء الحكم أهمل هذا الخليج فطمح مجراه ، فرأى عمرو أن يُعيد سيرته الأولى . والظاهر أنه بادر إلى القيام بهذا العمل العظيم أول ما استقر له أمر مصر ، وأنه أتمه في وقت قصير لم يبلغ عاماً كاملاً ، مع أن طول الترعَة يزيد على ستين ميلاً .

وكان هذا الخليج يجرى مبتدئاً من شمال بابلون متجهاً شمالاً بشرق إلى بلبس ، فإذا جاوزها اتجه شرقاً إلى بحيرة التمساح ، ليخرج من جنوب هذه البحيرة فيتابع جريانه خلال البحيرات المرة فيبلغ البحر الأحمر عند السويس . ولا شك أن القيام بهذا العمل العظيم وإتمامه في هذا الزمن الوجيز مما يشهد لعمرو بالمقدرة الإدارية الممتازة ، وبخاصة إذا عرفنا ما قبل من أن الخليج كان في ذلك الوقت قد خفي أثره ، حتى احتاج عمرو إلى دليل من القبط يرشده إليه . وقد أجاز عمرو هذا القبطى برفع الجزية عنه .

ولعل عمراً قد لجأ في تنفيذ هذا العمل إلى السخرة ، فحند الألوف من العمال المصريين للقيام به . وربما جاز لمؤرخ في هذا العصر أن يؤاخذ به بما صنع من ذلك ، وأن يعتبر هذه السخرة قسوةً بأهل تلك البلاد لم يكن له أن يلجأ إليها . وهذه المؤاخذة تُشتم من كلام بتلر ، ومن استشهاده بكلام حنا النقيوسى إذ يقول عن المسلمين : « وكان نيرهم على أهل مصر أشدّ وطأةً من بنى فرعون على بنى إسرائيل . ولقد انتقم الله منه انتقاماً

(١) وإن العلامة قيل ليذكر أن فرعون مصر (نخاو) قد حفر خليجاً في برزخ السويس ، من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر .



عادلاً بأن أغرقه في البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائته على الناس والحيوان . ونسأل الله إذا ما حلّ حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل . « ولا أراى أشارك من يذهب هذا المذهب في التثريب على الفاتح العربي ؛ فقد كانت السخرة في مصر من مألوف ذلك العصر ، ثم ظلت مألوفة بعده أكثر من ألف سنة ، فخلجأت إليها شركة قنال السويس الدولية حين بدأت تشق القناة في القرن التاسع عشر المسيحى . وليست السخرة في الواقع إلا نوعاً من التجنيد الإجبارى للقيام بعمل عام ؛ وإنما عيبتها ، والسبب الذى وجّهت من أجله المطاعن إليها ، أن القائمين بهذا التجنيد لم يكونوا يرعون فيه عدلاً ولا نظاماً ، وأن المجندين لم يكونوا يتناولون أجراً عن العمل العام الذى يقومون به . ولولا هذا العيب الجدير بأشدّ النقد ، ولو أن التجنيد للتعوير وضع على نظام عادل وفرض للقائمين به أجر معقول ، لما كان للتثريب عليه موضع .

ولعل المؤرخين الذين أخذوا عمراً بهذا التجنيد إنما اشتدوا في مؤاخذته لاعتبارهم أنه فتح خليج تراجان لمصلحة بلاد العرب لا لمصلحة مصر . ولا شبهة في أن بلاد العرب كان لها من فتح هذا الخليج فائدة كبرى ، ولكن لا شبهة في أن مصر كانت أكثر استفادة من هذا العمل ؛ فقد أعاد لها طريقاً أيسر من طريق القوافل للتجارة مع الهند وبلاد الشرق الأقصى ، ويسّر لها بذلك أن تستعيد حظاً من المكانة التجارية العظيمة التى كانت لها أيام سؤدها وعزّها . ومصالحة مصر كانت بعض ما قصد إليه عمرو حين تفكيره . ولا أدلّ على ذلك من أنه كان يريد حفر خليج بين بحيرة التمساح وبحر الروم ، يصل مياه البحرين ، بحر القلزم وبحر الروم ، على نحو ما هو حادث اليوم ، مقتدياً في ذلك بما صنعه بطليموس الثانى ، وبما صنعه الفرعون « نحاو » من قبله ولقد كان معتزماً أن يقوم بها العمل الضخم ، لولا اعتراض الخليفة بأنه يسّهل للروم اختراق هذه القناة وتسيير سفنهم إلى بحر القلزم . ولم يكن للعرب إلى يومئذ أسطول تجارى أو أسطول حرى يقف في وجه أسطول الروم أو ينافسه ، فكان العدول عن حفر قناة تصل مياه البحرين بعض ما يقضى به الحذر . وإذا نحن ذكرنا موقف انجلترا في القرن التاسع عشر ومعارضتها في شقّ قناة السويس خوفاً على مكاتها في الهند ، تجلّى لنا أن خليفة المسلمين (عمر ج ٢ - ١٢ م)

كان له أبلغ العذر عن تخوّفه من شقّ هذه القناة منذ ثلاثمائة وألف سنة خلت .  
 لم يكن عمرو أقلّ تفكيراً في خير مصر منه في خير بلاد العرب . ولا يغلو من  
 يقول إنه كان يتجه بسياسته إلى بثّ الطمأنينة في روع مصر وتخفيف الأعباء عن أهلها  
 وإقامة العدل بينهم ، ويرى في هذه السياسة خير توفيق بين مصالح الأمتين العربية  
 والمصرية ، وخير توطيد لقواعد الإمبراطورية الإسلامية . ومما يشهد بأن هذه كانت  
 خُطّته أنه أخذ بنصيحة بطريق القبط بنيامين في أمر الخراج وجبايته ، وأنه ذهب إلى  
 أبعد من ذلك في تخفيف وطأته ؛ فقد كان هذا الخراج يزيد وينقص تبعاً لحال الفيضان  
 وغلّة الزراعة ، وكان أعيان كل قرية وبلد يجتمعون كل عام في لجنة تحديد مقدار ما يُجبى  
 منها حسب هذه الأحوال . فإذا زاد المال الذي يجبى من بلد على الخراج المفروض عليها  
 أنفق الزائد في إصلاح أحوالها . ولقد جُمِعت في كل بلد قطعة أرض خصّص ريعها  
 للمنافع العامة ، كإصلاح الكنائس والحمامات والطرق وما إليها . وكان ما يجبى من  
 الخراج أقلّ بكثير مما كان الروم يجبونه من الضرائب الكثيرة الفادحة التي فرضوها  
 على المصريين فيما سوى العاصمة من أرجاء البلاد ، فكان هذا التخفيف مدعاة لطمأنينة  
 القبط جميعاً إلى الحكم الجديد وإشادتهم به .

وكان للإسكندرية أن تتذمّر من هذا النظام الذي فرضه عمرو بقدر ما كان للبلاد  
 كلها أن تستريح له وتفتبط به ؛ فقد أعفى الإسكندر أهل المدينة التي شادها من الجزية  
 من يوم إنشائها ، وجعل لليهود وللروم الذين جاءوا معه واستقرّوا بها امتيازات في  
 التقاضي رفعت مكاتبتهم على المصريين الذين ساكنوهم فيها . وجرى البطالسة على سُنّة  
 الإسكندر ، ثم توسّع الرومان من بعد فامتدّ الإعفاء إلى أبناء رومية الحاكين . ولم  
 يقف الإعفاء عند الجزية والتقاضى ، بل أعفى أهل الإسكندرية من السخرة ، وأعفيت  
 الأرض المحيطة بها من الخراج<sup>(١)</sup> .

لم يكن إلغاء الإعفاء الذي تتمتع به الإسكندرية ليسدّ النقص الذي أصاب إيراد

(١) راجع كتاب : « الامتيازات والإعفاءات التي يتمتع بها الأجانب في مصر » ؛ وهو بالفرنسية ،  
 لبني الدين بركات باشا : ص ٣٥ — ٤٧ .

الدولة بسبب تخفيف الضرائب ؛ فقد هاجر من الإسكندرية أثناء الحصار وبعد الفتح كثيرون ، وترتب على ذلك أن أقفلت متاجر كثيرة . وقد اختلف المؤرخون في تقدير ما كان يُجْتَبَى من مصر اختلافاً كبيراً ، لكنهم متفقون جميعاً على أنه يقلّ كثيراً عما كان الروم يجبونه . مع ذلك لم يغيّر عمرو من سياسته في هذا الأمر طيلة السنوات التي تولى فيها إمارة مصر ، والتي اعتبرها المصريون خيراً وبركة عليهم .

اختلف المؤرخون في تقدير ما كان يُجْتَبَى من مصر ؛ فذكر البلاذري أن عمراً كان يجبي من خراجها ألف ألف دينار ، وذكر القريري أنه كان يجبي منها اثني عشر ألف ألف . وقيل في تأويل هذا الاختلاف أن بعض المؤرخين يذكر الخراج وحده ، وبعضهم يذكر الجزية وحدها ، وبعضهم يذكر مجموعهما . وهم مع هذا الاختلاف متفقون على أن متوسط الجزية كان دينارين على كل مكافئ بها ، مع تفاوت بين الطبقات في تقديرها . أما من فرضت عليهم الجزية من أهل مصر ، فبلغ عددهم ستة آلاف ألف في رواية ، وثمانية آلاف ألف في رواية أخرى . والاختلاف على تقدير ما كان يجبي من مصر لا يغيّر من أنه كان على كل حال أخف وطأة مما كان الروم يجبونه .

قام العمال الذين ولّاهم عمرو من الروم والقبط بإدارة شؤون الدولة في الحدود التي رسمها ، ثم بقي نظام الإدارة في دواوينها جارياً مجزأً من قبل . واغتبط عمرو بنجاح سياسته ، وكان أشد اغتباطاً بخضب مصر وما فيها من ظل وارف ونعيم مقيم ، وكتابه المشهور إلى عمر بوصف مصر بنمّ عن ذلك وبشهاد عليه . فقد كان عمر ، فيما رأيت ، حريصاً على أن يصف عمّاله البلاد التي يكونون فيها وصفاً يجعله كأنه شاهدها . فلما كتب إلى ابن العاص يطلب إليه أن يصف مصر بعث إليه يقول :

« ورد كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه ! - يسألني عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قريةٌ غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكفها جبل أغبر ، ورملٌ أعفر . يخطّ وسطها نيل مبارك الغدّوات ، ميمون الرّوحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر . له أوان يدّر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمدّه عيون الأرض ويناييها ، حتى إذا ما اضلختم مجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض

على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صيفار المراكب ، وخباف القوارب ، وزوارق كأنها في الخايل وُرُق الأصائل . فإذا ما تمكامل في زيادته ، نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ، وطا في درته . فعند ذلك يخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ما سعوا من كدّهم ، فناله منهم بغير جدّهم . فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذ هي عبدة سوداء ، فإذا هي زُمُرْدَة خضراء ، فإذا هي ديباجة رَقْشَاء . فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذي يصلح هذه البلاد ويُنمّيها ؛ ويقرّ قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العتال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفّق في المبدأ والمآل ! » .

يقول المؤرخون المسلمون : فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب وقرأه قال : « لله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لي خيراً كأنني أشاهده » .  
وبعض النقاد يفتون نسبة هذا الكتاب إلى ابن العاص . ونقاد الأدب أشدّ بهذا اللقي تشبهاً . فهم يرون أسلوب الكتاب وما فيه من محسنات بدعية لا يتفق وأسلوب العهد الإسلامي الأول ، ولا يتسق وما وصل إلينا من كتب عمرو الأخرى . وتلك لعمرى حجة لها قيمتها . ولعل القارىء يشارك أصحابها في رأيهم متى اطلع في بقية هذا الفصل على الكتب التي تبودلت بين الخليفة وابن العاص خاصة بالجزية والخراج . لكن هذه الحجة إن نفت نسبة ألقاظ الكتاب إلى عمرو ، فهي لا تنفي أنه كتب إلى الخليفة يصف مصر ؛ فخرّصُ عمر على معرفة مصر وصفتها لم يكن أقلّ من حرصه على معرفة القادسية وما يحيط بها ، والعراق وسدوده ومدنه . وأكبر ظننا أن عمرأ كتب هذا الوصف بأسلوبه هو ، وأنه بلغ غاية الدقة فيه ، ثم تناوله أديب متأخر ، فصاغه في هذا الأسلوب الذي أثبتته المؤرخون وأثبتناه هنا ، فإذا صح هذا الظن كان لنا أن نعتقد أن الأديب المزيّف قد حافظ جهده على وصف عمرو ؛ ثم صاغه بأسلوب عصره وما فيه

من محسّنات بديعية . بذلك نسي الناسُ كتاب عمرو أن لم يُثبت مؤرخ ، وبقي هذا الكتاب الزائف . وصرنا لا نستطيع أن نفرّق من عباراته بين ما يمكن أن ينسب إلى ابن العاص ، وما يجب أن ينسب إلى المزيبف الذي عاش من بعده بعدة قرون .

أما ونحن ننفي هذا الزيف عن كتاب عمرو في وصف مصر . فيجمل بنا أن ننفي زيفاً آخر لا شك في أنه ابتدع ابتداءً من أوله إلى آخره ، وأنه لم يكن له أى أصل من الواقع ؛ ذلك ما قيل في أسطورة عروس النيل . فقد زعموا أنه « لما ولي عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط فقالوا له : إن لنيلنا عادةً وسنةً لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذلك ؟ قالوا : إنه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها ، وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الخلي والنياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجرى . فقال لهم عمرو ابن العاص : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة وأيب ومسرّى لا يجرى النيل قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلء . فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين ، فأجابه عمر : « قد أصبت ؛ إن الإسلام يهدم ما قبله . وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النيل إذا أتاك كتابي » . فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة إذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك ، فانسأل الله الواحد القهار أن يجريك ! » . فعرّفهم عمرو بهذا الكتاب وبالبطاقة ، ثم ألقى البطاقة في النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم ؛ وقد تهبأ أهل مصر للجلء والخروج منها لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها إلا النيل . فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ست عشرة ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر » .

هذه رواية عروس النيل كما أثبتها المؤرخون المسلمون . وقد نقلنا نصّها هذا عن كتاب النجوم الزاهرة لابن تفرى برّدى : ولسنا نتردد لحظةً في نفيها من أولها إلى آخرها . ولو لم يقدّم الدلائل العلمى على هذا النفي لكفانا أن نستند فيه إلى ما بلغه الفراعنة من علم وحضارة ، وإلى أن انتشار المسيحية بين المصريين في عهد الرومان لم يكن ليسوغ قيام بدعة

كهنه البدعة . وقد ذهب بئر هذا المذهب فنفي القصة في العهد المسيحي ، ثم قال : « ويوح أن هذه القصة أصلاً في التاريخ ؛ فقد كان من عادة أهل السودان حقيفة في أنصى أمحائه الجنوبية أن ترمى قبائله المميج في النهر بفتاة عذراء في زينة الزفاف . ولعل عادة كهذه كانت مُتَّبَعَةً في بعض جهات المميج من بلاد النوبة التي نتجها الإسلام في أول أمره . ولعل عادة التضحية بفتاة عذراء تُرْمَى في النهر كانت متبعة في مصر في أيام الفراعنة . وإنه من الحق أن الاحتفال بالنيل والدعاء من أجل زيادته وفيضه كانت تقع فيه أعمال خرافية كثيرة تخلقت من العصور القديمة . ولكنها لم يكن بها شيء مثل ذلك الجُرم من التضحية بالعذراء . . . . فن أ كذب الكذب أن يُتهم المسيحيون بأنهم حافظوا على مثل هذه العادة الشنيعة التي لا ترضى عنها ديانتهم ولا تُقرّها ملتهم » .

ومن عجب أن يدور بخاطر بئر أن مثل هذه العادة الشنيعة ربما كانت متبعة في مصر في عهد الفراعنة ، وأن يثور هذه الثورة العنيفة لاتهم قبط مصر المسيحيين بأنهم حافظوا عليها من بعد . فلو أن الفراعنة أتبعوها في أيامهم لبقيت من بعدهم . ولما كان على المسيحيين تزيب في اتباعها . فما أكثر ما انتقل من عادات الفراعنة إلى العهد المسيحي ، وإلى العهد الإسلامي ، وما لا يزال بعضه باقياً إلى عهدنا الحاضر <sup>(١)</sup> . ولا عذر لبئر ، عن تسامحه في إنهام الفراعنة وثورته في نفي التهمة عن المسيحيين ، إلا ما ذكرنا من قبل من حماسته لديانته . على أن العلم قد أثبت من بعد أنه لم يحدث قط أن أقيمت عذراء في النيل حثاً على الفيضان ، وإن قيل إن تمثالاً من الخشب لعذراء عليها زيتنها كان يُلقى في النهر قبيل فيضانه ، ثم نفي جماعة من العلماء هذا القول أيضاً . ولو صح أن الفراعنة أو غير الفراعنة كانوا يُلقون في النيل تمثالاً من الخشب ابتهاجاً وابتهاجاً بالفيضان لما طعن ذلك على علمهم وحكمتهم ، ولما زاد على أنه نوع من الخرافة يستريح إليه السواد فلا يعترضه العقلاء والحكماء .

هذا هو ما يستخلص من تاريخ مصر الفرعونية . وقد أردت زيادة تجميعه ، فطلبت إلى العالم الأثري الأستاذ سليم بك حسن أن يمدني بعلمه ورأيه ، فكان مما أثبتته أن ما قيل

(١) أنظر كتاب : Legrain : Louqsor sans les pharaons :

عن الوثيقة التي بعث بها عمر بن الخطاب فألقيت في النيل ليفيض ، لا يزيد ، إن صح ، على أنه كان مجارة من الخليفة للمصريين في عادة لهم لا ضرر من مجاراتهم فيها . فقد كان من عادة الكهنة المصريين ، ومن عادة بعض ملوكهم ، أن يقيموا للإله النيل احتفالاً في بدء الانقلاب الصيفي يقربون فيه للإله ثوراً وإوزةً وقرابين أخرى من الخبز وغيره ثم يُلقون في النيل وثيقة محتومة من ورق البردي مخطوطاً عليها أمر للنيل أن يجرى في فيضان معتدل يكفل للبلاد الخير والرخاء . وكان هذا الاحتفال يقام في اليوم الذي تصل فيه مياه النيل الصيفية قادمة من أسوان إلى بلدة السلسلة ، مبشرة بفيضان عظيم . والظاهر أن المسيحية عفت على القرابين فلم تكن تقدم في عهد الرومان المسيحيين ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون للنيل إلهاً ، ثم بقيت الوثيقة تُلقى في النيل ليجرى فيضانه فتمّ البلاد خيراته . فلما دخل العرب مصر كانت الوثيقة الإسلامية الأولى هي هذه التي يعزوها المؤرخون إلى عمر بن الخطاب ، والتي يأمر النيل فيها بأن يجرى كما كان يأمره الأمير الروماني في العهد المسيحي ، وكما كان يأمره الكهنة وبعض الملوك في عهد الفراعنة .

أما قصة عروس النيل كما رُويت تخرافة تستند إلى أسطورة روجها المؤرخ الإغريقي بلوتارك . خلاصتها أن « إاجبتوس » ملك مصر استلهم الوحي ليهديه السبيل للاقتناء كوارث نزلت بالبلاد ، فنصحته أن يضحي بابنته بأن يُلقيها في النيل ففعل . ثم إنه ناء بالرزء الذي ألمّ به ، فألقى بنفسه في النيل فهلك كما هلكت ابنته . وهذه التخرافة التي روجها بعض كتاب الإغريق واللاتين من بعد بلوتارك لم يردها ذكر في الكتابات المصرية ، وهي مع ذلك مصدر الأسطورة التي ذاعت في الناس قروناً ، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص ما جعل كثيرين يتوهمونها حقيقة حدثت بالفعل ، وأنها كانت تتكرر في كل عام .

أم ترى نسج الخيال أسطورة عروس النيل حول ما جاء في ورقة هاريس البردية التي ترجع إلى عهد « رمسيس » الثالث فيما بين سنة ١١٩٨ وسنة ١١٦٧ قبل الميلاد ؟ إن صح ذلك فهو الدليل على أن الإنسانية كثيراً ما تؤمن بأساطير لا أصل لها في الحياة ، وإنما زيّفها وزينها خيال الكتّاب وأرباب الفن . فليس في ورقة هاريس ذكر لعروس

عذراء تزيّن وتلقى في النيل ، وإنما جاء فيها أنه كان على امتداد النيل ما يزيد على مائة مرساة ، بين كل مرساة والتي تليها نحو سبعة أميال ، وفي كل مرساة محراب لحاى إله النيل ، يراه كاهن يتناول من راكبي النيل أطعمة يقدمونها قرابين لحاى . وكان لسكل محراب حراس لهم فيه طعامهم ولباسهم . وكان يوضع في كل محراب طاقة من الزهر تجدد في كل يوم ، وستة تماثيل من خشب الجميز لحاى إله النيل ، وستة تماثيل أخرى من الخشب نفسه للإلهة « ريبب » زوجة النيل . هذا عدا تماثيل أخرى للإله حانى مصنوعة من الذهب والفضة والقصدير والأحجار المصرية المختلفة الأنواع كاللرصر واللازورد والزمرد والبور الطبيعي وأساور من ذهب وفضة . كانت هذه التماثيل كلها تُلقى في النيل يوم الاحتفال بعيد حانى في بداءة الانقلاب الصيفي ، ويؤتى بدلها بجديد غيرها بعام في تلك المحاريب ، إلى أن يجل العيد بعد عام فتلقى في النهر قبيل فيضانه ثم يؤتى في المحاريب بتماثيل جديدة في كل عام .

ترى هل استمد الخيال قصة عروس النيل من هذه التماثيل التي كانت تُلقى في النهر ، فنفع الحياة في خشب الجميز وفي غيره من المواد التي كانت تصنع التماثيل منها ؟ وهل الإلهة « ريبب » زوجة النيل هي التي أمدت الخيال بفكرة العروس العذراء النابضة بالحياة ؟ أياً ما يكن الأمر فالقصة كما ترى أسطورة من أولها إلى آخرها زينها الوهم ، ثم خلع القدم على الوهم صورة الحقيقة ، فإذا للنيل عروس من بنات حواء تُلقي فيه في ريعان شبابها وفي ثياب زينتها ، وإذا المؤرخون يتناقلون هذه الأسطورة على أنها حقيقة بقيت على الحياة القرون الطوال . وما أدري أيقضى على هذه الأسطورة بعد أن فندها المؤرخون وفندها الأستاذ سليم حسن هذا التفنيد العلمى الدقيق ، أم يبقى من الناس من يذكرونها ويتوهم أنها كانت حقيقة في يوم من الأيام<sup>(١)</sup> .

أما وقد فندنا أسطورة عروس النيل فلننتقل إلى أسطورة أخرى ألفت على عمر

(١) استند الأستاذ سليم بك حسن في تفنيد هذه الأسطورة إلى ورقة هاريس Harris Papyrus

41-37-1 L. W. Erichsen ؛ وإلى مصادر أخرى ، منها كتاب ماسيرو

س ٣٩ وما بعدها ، The Dawn of Civilisation

وكتاب شارل بالانك : Le Nil à l'époque Pharaonique ص ٦٩ وما بعدها الخ ..



ابن الخطاب وعلى المسلمين في عهده تهمة شنيعة. ظلّ المؤرخون يتناقضون قرونًا عدّة ، ولا يرى المؤرخون المسلمون في روايتها ما يدعوهم إلى تحييدها ؛ تلك التهمة هي إحراق مكتبة الإسكندرية . ولعل المهارة التي زُيِّت بها هي التي هَوَّنت أمرها على المسلمين كل تلك القرون . ويجب أن نعترف أن الفضل في الكشف عن زيفها يرجع إلى المستشرقين الذين محصوها وفنّدوها منذ القرن التاسع عشر ، وأن لبتلر أكبر الفضل في القضاء عليها قضاء حاسماً بما أورد من حجج لا يتردد إنسان قعدها في القطع بزيفها وكذبها من أساسها .

ويزيد في شناعة هذه التهمة الباطلة التي أُلصقت بعمر وبالمسلمين في عهده أن مكتبة الإسكندرية كانت أعظم مكتبة في العالم ، وكان فيها من نفائس الكتب في كل العلوم والفنون ما قلّ نظيره في مكاتب العالم الحاضر . فقد أنشأها البطالسة ، وجمعوا فيها سبعمائة ألف مجلد ، وجعلوها في عدّة أهباء من أبنية متحف الإسكندرية الجاور لقصور الملك . وكانت أبنية هذه المكتبة العظيمة تتصل بأبنية مدرسة الطب والتشريح والجراحة ، ومدرسة الرياضيات والفلك ، ومدرسة القانون والفلسفة ، وبيداء المرصد ، ومكان الحديقة التي خصصت لدراسة علم النبات . بذلك كانت المكتبة والجامعة المتصلة بها أعظم مركز لتقافة العالم في ذلك العصر . ولا ريب أن إحراق مكتبة ذلك شأنها جرمٌ فظيع ، وجنايةٌ على الإنسانية لا يزتكبها متعمداً إلا الأهمج ومن كانوا في مثل درجتهم من الوحشية .

مع ذلك أُلصقت هذه التهمة بعمر بن الخطّاب وبالمسلمين في عهده . وظلّت لاصقة بهم عدّة قرون كانت خلالها سبباً في تجنّي المنجّنين وطعن الطاعنين عليهم ، ثم ظلّت كذلك حتى نفاها العلم قلم يبق من يذكرها إلا لينكرها . ولو أن المتقدمين من المؤرخين كانوا يُعنون بنقد الحوادث ، ويدققون في تحييدها لتيسر لهم تبين الزيف فيها ، ولما ظلّ التاريخ في ضلال ستة قرون . وأيسر ما كان يهديهم لزيفها أنها لم ترد في كتاب طيلة القرون الخمسة التي تلت فتح المسلمين مصر ، مع أن المؤرخين الذين سجّلوا تاريخ هذه الفترة بينهم مصريون مسيحيون لم يدعوا منقصةً يمكن أن تنسب للعرب إلا أثبتوها ، ثم لم يذكر أحد منهم شيئاً عن مكتبة الإسكندرية وإحراقها .

ولعل هذه الأسطورة نجمت في بيئات الشيعة ، فذكرها أبو الحسن القفطي في كتابه: ( تاريخ الحكاء ) ، ونقلها عنه أبو الفرج بن العبري ، وكلاهما عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد تداولها عنهما من جاء بعدهما من المؤرخين . وقد أحكوا حبكها . وفي وسعك أن تتبين هذا الإحكام من طريقة روايتها . فقد ذكروا أن قسيساً من القبط يدعى حنّا<sup>(١)</sup> النحويّ عزله مجمع الأساقفة لزيغ في عقيدته ، كان قد اتصل بعد الفتح بعمر بن العاص ، فلقى عنده حظوةً لذكائه وصفاء ذهنه وغازاة علمه . فلما اطمأن إلى إقبال عمرو عليه قال له يوماً : « لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف . ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به ، بل شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » . وسأله عمرو : ما يعني بقوله ؛ فأجاب : « أعني بقولي ما في خزائن الروم من كتب الحكمة » . فقال له عمرو : « إن ذلك أمر ليس لي أن أقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة » . ثم إنه بعث إلى عمر يسأله رأيه في الأمر ، فجاءه الرد من المدينة وفيه ما يأتي : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيها وأحرقها » . فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب فوزّعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها ، فإزوالها يوقدون بها ستة أشهر . هذه خلاصة وجيزة لرواية القفطي ، وقد أردفها بقوله : « فاسمع لما جرى وأعجب ! » .

أنت ترى راعة الحبكة في هذه القصة . فحوارٌ بين حنّا وعمرو ، وكتابٌ من عمرو إلى الخليفة ، وردٌّ من الخليفة بأمر بإحراق المكتبة ، وتفصيلٌ دقيق للطريقة التي نُفذ بها هذا الأمر . كيف يبقى بعد ذلك كله أي ريب في صحة هذه الوقائع ؟ وكيف يخالج المؤرخين المسلمين فيها الشك وقد كتبت في القرن السادس الإسلامي حين جد التفكير والنقد ، وأصبح جهد المؤلفين مقصوراً على نقل الروايات التي ذكرها من سبقهم دون تمحيصها لمعرفة صحتها من باطلها . فلا يُشكك المؤرخون المسلمون هذه القصة العجيبة كما هي ، وليُنقلها الخلف عنهم عن السلف ؛ وليذكرها المؤرخون المسيحيون مؤمنين بصحتها . وليعلموا عليها بما يشاءون ، فهم لم يكونوا يتصورون الإسلام والمسلمين إلا اقتراناً في أذهانهم بالتمسب المذموم والقسوة الوحشية . ولتبقى هذه الوقائع مقطوعاً بصحتها حتى يلتقي عليها

(١) يسميه المؤرخون المسلمون « يحيى » .

النقد العلمى ضياءه الكشاف فيظهر بطلانها ، فيزيّفها « جِبُون » ، ويزيّفها « سِدِيُو » ، ويزيّفها « رِنان » ، ويزيّفها « جُستاف لِيُون » ، ويزيّفها بَقَر ، ويزيّفها غير هؤلاء من المؤرخين ، ثم تزيّفها دوائر المعارف البريطانية والإسلامية وغيرها ، ويزيّفها تاريخ المؤرخ ، ويذكر في تزيّفها ونفيها ما قرره علماء المسلمين صراحة من « أن ماينغم في الحرب من كتب اليهود والمسيحيين الدينية لا يجوز بحال أن يقدم طعاماً للنار ، وأن مؤلفات العلماء والمؤرخين والشعراء وعلماء الطبيعة والفلاسفة يحقّ الانتفاع بها لخير المؤمنين » . ولا تحسّب أن المؤرخين اكتبوا في نفي هذه الأسطورة بالاستناد إلى مثل هذا الاعتبار العام ؛ فقد تناولوها بالتحخيص حتى ثبت لهم أنها لا تثبت له ، ثم نفوا حوادثها واحدةً بواحدةً نفيًا علميًا دقيقًا مستنداً إلى أوثق المصادر .

فليس صحيحاً أن حنّا النحوى تحدّث إلى عمرو بن العاص في أمر المكتبة أو في أمر غيرها ؛ لأن حنّا النحوى مات قبل دخول المسلمين مصر . فالثابت أنه كان يكتب قبل سنة ٥٢٧ م ، أى قبل دخول العرب مصر بخمس عشرة ومائة سنة . فإذا فرضنا أنه كان يكتب وهو في العشرين لسكانت سنه خمساً وثلاثين ومائة سنة . وهذا غير معقول ، فلم يُعرف أن الناس في مصر يكتبون في مثل هذه السن .

وليس صحيحاً أن مكتبة البطالسة كانت باقية عند فتح العرب مصر ؛ فقد أجمع للؤرخون على أن هذه المكتبة احترقت في سنة ٤٨ للميلاد حين ذهب قيصر إلى الإسكندرية فأحيط به في مرفئها ، فأحرق السفن التي فيه ، فامتدّت النيران منها فأحرقت المكتبة وأفتتها . يتحدّث أميانوس وسيلوس عن « مكانب الإسكندرية التي كانت لا تُنقوّم بشمن ، والتي اتفق الكتّاب الأقدمون على أنها كانت تحوى سبعمائة ألف كتاب يبدل البطالسة في جمعها جهداً كثيراً ، ولقوا في سبيل ذلك عناءً كبيراً . وقد أحرقتها النيران في حرب الإسكندرية عند ما غزاها قيصر وخرّبها » . ويقول أورسيوس : « وفي أثناء النضال أمر - قيصر - بإحراق الأسطول المللكى ، وكان عند ذلك راسياً على الشاطئ » ، فامتدّت النيران إلى جزء من المدينة وأحرقت فيها أربعمائة ألف كتاب كانت في بناء قريب من الحريق ، فضاعت خزانة أدبية عجيبة مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة

الجليلة من مؤلفات النابغين » . ويقول ديوكاسيوس : « وامتدّت النيران إلى ما وراء المراسى بالبناء ففضت على أنبار القمح ومخازن الكتب ، وقيل إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة » . وهذه الأقوال وغيرها لا تدع مجالاً للريب في أن مكتبة البطالسة احترقت قبل الفتح العربي بستة قرون .

وليس صحيحاً أن المكتبات التي نُقلت إلى الإسكندرية ، أو أنشئت بها بعد احتراق مكتبة البطالسة ، كانت باقية عند الفتح العربي . فقد أهدى مارك أنطونيوس مكتبة بروجاموس إلى كليوباترا ، عوضاً عن الخسارة التي لحقتها بضياح مكتبة أبائها ملوك مصر البطالسة . ولعل الإسكندرية كان بها مكتبات أخرى ، أقيمت ما كان للعاصمة المصرية من مكانة علمية سامية جعلت جامعها مقصد الطلاب والعلماء من أبناء الإغريق ورومية وكل محب للعلم في عالم ذلك العصر . لكن هذه المكتبات قضى عليها هي أيضاً في الثورات التي اندلع لها بين المسيحيين والوثنيين في النصف الثاني من القرن الرابع المسيحي . يقول تاريخ المؤرخ : « كان بالإسكندرية مكتبتان ، إحداهما مكتبة الثرؤكيون التي أنشئت في عهد جاليناس سنة ٢٦٣ م ، والثانية مكتبة السرايوم ، وقد أصابها ما أصاب الأولى في ثورة تيوفيلوس سنة ٣٩١ م . وكذلك انعدم كل أثر لهاتين المجموعتين قبل خمسين ومائتي سنة من فتح عمرو لمصر . ولم يذكر التاريخ أن أميراً أو بطريقاً أو حاكماً أراد أو قدّر في هذه الفترة على أن يُحِلَّ غيرها محلهما » . ويقول بتلر : « رأيت فيما سبق كيف خُرب القيصرون ونُهب في سنة ٣٦٦ في أثناء نضال ديني . وأغلب الظن أن المكتبة التي كانت فيه قد ذهبت ضحية في ذلك النضال » ، ثم يقول : « وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم ، معبد سيراييس ؛ وعلى رأسهم تيوفيلوس ، وجعلوا يهدمونه ويحربون فيه ، وكان ذلك في عام ٣٩١ م ، ولا يختلف فيه اثنان ، وقد ثبت أن المكتبة كانت في حجرات متصلة بهذ المعبد ، وثبت أن ذلك المعبد كله قد هدم وخُرب . فلا بد أن تكون المكتبة قد لحقها الخراب نفسه<sup>(١)</sup> .

(١) بحث بتلر أسر مكتبة السرايوم بحثاً مفصلاً استغرق تسع صفحات ، فليرجع إليه من شاء : ( ص ٣٥٧ — ٣٦٦ : الترجمة العربية ) .

أما وقد ثبت أن حنا النحوى لم يكن حيًا حين الفتح ، وأن مكتبة البطالسة احتزقت في عهد قيصر ، وأن المكتبات التي أنشئت بعد احتراقها أُنلفت قبل دخول المسلمين مصر ، فقد انهارت أقوال الرواة فيما اتهموا به عمر بن الخطاب من الأصر بإحراق مكتبة الإسكندرية . على أن ذلك لا يعنى أن الإسكندرية انعدمت كل مكتباتها العامة والخاصة ، وأن مصر لم يبق بأديارها وجامعاتها مكتبات خاصة بها ؛ بل كانت عاصمة مصر عند الفتح العربى لا تزال محتفظة بسمعتها العلمية . وقد زارها قبيل الفتح رجلان من محبى العلم هما صُفْرُ نِيوس وحنّا مَسْكوس ، وتَنَقَّلَا في أرجائها وذكرا ما اطلما عليه من الكتب في مكتباتها مُعْجَبِينَ به أيما إعجاب ، ثم لم يرد فيما كتبنا أى شىء عن المكتبة العامة التي زعم رواة الأسطورة أنها أُحْرِقت بأمر خليفة المسلمين . وهذا دليل جديد يضاف إلى ما تقدم من الأدلة على كذب الأسطورة وزيفها . فلما كتب حنا النقيوسى بعد الفتح وفصل أنباء عمرو بن العاص وأعماله ، وأنحى بأشد اللأمة على المسلمين حتى فيما اضطُرُّوا إليه بحكم الحرب ، لم يكتب مع ذلك كلمة عن مكتبة الإسكندرية وإحراقها ، فانتفت هذه التهمة الباطلة انتفاءً باتًا ، وزال كل ما يمكن أن يبقى في نفس أشد الناس للمسلمين عداوة من شبهة في أمرها .

لا حاجة لنا بعد هذه الأدلة كلها إلى بيان السخف الذى تطوى عليه عبارة المؤرخين عن توزيع الكتب على الحمامات لتوقد فيها ، وأن هذه الحمامات ظلت توقد منها ستة أشهر . وإذا كان لهذه العبارة دلالة فعلى أن المؤرخين لم يتورعوا فتنسجوا بأباطيلهم من أوام خيالهم ليختموا عبارتهم بمثل قول القفطى : « فاسمع لما جرى واعجب ! » . ولو أن النقد العلمى عُرِف في تلك العصور لما بقيت هذه الأسطورة أسابيع قبل أن يفتدوها الناقدون ، ولَعَدَّ راويها مُهْرَجًا لا يصح الاعتداد برأيه أو الاستماع إلى قوله .

كيف تسنى لأسطورة تقوم هذه الأدلة الكثيرة على بطلانها أن تبقى قرونًا ، والأيرى بعض المؤرخين المسلمين بأساً بروايتها وبتصديقها ؟ السبب عندى واضح . بين ، وهو الفرق بين عقلية المسلمين في القرن الأول ، وعقلية المسلمين في القرن السابع الهجرى والقرون التي تلتها .

كان المسلمون في عهد الرسول وفي عهد خلفائه الأولين يرون واجباً عليهم أن ينظروا في الكون، وأن يلمسوا أسرارَهُ ليقفوا على سنة الله فيه . ولم يكن لوسائلهم في هذا النظر وفي التماس هذه الأسرار حدٌّ بل كانت حرية التفكير مطلقة لهم وكانت السبب في قوة إيمانهم . كان الاطلاع على تفكير غيرهم والوقوف على ما كتبه الأولون جائزاً عندهم بل واجباً عليهم . لم يكونوا يهابون مواجهة الباطل لأن قلوبهم كانت سليمة وبصائرهم كانت مستديرة ، ولأن التفاصيل لما تكن قد طغت عليهم فقيدت عقولهم وأفئدتهم وسجنبتها في قوالب صُلْبَة لا يجدون عنها حولا . لذلك كانوا يجتهدون ، فلا ينقص اختلافهم قَدْرَ أَيٍّْ منهم ؛ لأنهم كانوا جميعاً متضامنين ، يؤمن كل واحد منهم بأن صاحبه يريد باجتهاده خير الإسلام والمسلمين جميعاً . وقد رأيت كيف اختلف عمر أبو عبيدة عام مطاعون ، فلم يميّز ذلك من احترام المؤمنين لأمين الأمة ، ولا من إكبار أمير الأمة لأمر المؤمنين .

وأدى اجتهادهم إلى سعة في آفاق الفهم ، بلغت بالخلفاء في عهد العباسيين أن يأمرُوا بترجمة كتب اليونان والفرس وغيرهم من الأمم في الطب والرياضة والحكمة والفلسفة ، ثم لم يخشوا أن تُزَيغ ترجمتها العقائد أو تفسد النفوس . قومٌ ذلك شأنهم لا يمكن أو يُعزَى لأحدهم أن يقول : « أما الكتب فإذا كان ماجاء بها يوافق ماجاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه » . فقد كانوا يعلمون أن كتاب الله لم يفصل علوم الطب والرياضة والهندسة وغيرها من العلوم والفنون الكثيرة ، وأن معرفة ما كتب في هذه العلوم على حقيقته من أقوم السبل لمعرفة سُنَّة الله في الكون .

فلما بدأ المسلمون يتراشقون بالاتهام بزيف العقيدة عند الاختلاف في الرأي ، تدهورت العقلية الإسلامية إلى الهاوية التي تدهورت إليها العقلية المسيحية من قبل ، فجمد الناس على مذاهبهم ، وأصبح الاتهام بالمروق والزندقة أيسر ما يجري على ألسنتهم ، وصار التعرض بالنقد لأمر مقرر تجديماً لا يفامر به إلا مجازف بأن يتهم في دينه ، وأن يصيبه من جراء ذلك أعظم الحيف في رزقه وفي حريته وفي حياته . وذلك هو السبب في أنك قلما تعثر في كتب المتأخرين على نقد لرأي سلف ، بل تراهم يكتبون بإثبات ما ذكره الذين من قبلهم وأن اختلفت الروايات فبلغ اختلافهم حد التناقض والتضارب . فإذا لم يُطبق أحد

على تناقضها صبراً لم يفكر في تقويم معوجتها وتصحيح باطلها ، بل اكتفى بعد إيراد الروايات جميعاً بقوله : « والله أعلم . كذلك قيل » .

وقد أصابهم الجمود أول الأمر في شؤون العقائد والعبادات وأصول النقد ، لكن هذا الجمود سرعان ما امتد إلى سائر العلوم والفنون ، والتاريخ من بينها ، ذلك لأن العقل لا يمكن أن يكون حراً طليقاً في ناحية جامداً مقيداً في ناحية أخرى . وهو متى رضى أن يرسف في القيود فجمد عن البحث في أصول العقائد والتشريع ، أصبح الجمود عادة له ونظاماً يجرى عليه في كل شؤونه . ولا عجب ! فأنت لا تستطيع أن تقيم حداً فاصلاً بين علم وآخر . أو بين علم من العلوم وفن من الفنون ؛ فالعلوم والفنون تتداخل كلها وتتعاون فإذا كان العقل حراً في ناحية لم يستطع أن ينزل عن حريته في ناحية أخرى ، وإذا جمد في ناحية جمد في سائر النواحي فركد نشاطه وذبلت حيويته . وذلك ما حدث في اليهود الإسلامية المتأخرة فأدى المؤرخين المسلمين إلى تصديق أسطورة باطلة كأسطورة مكتبة الإسكندرية وإحراقها بأمر الخليفة العظيم عمر بن الخطاب .

وهذا أمر يؤسف عليه أشد الأسف ؛ فقد كانت الحرية العقلية جوهر الإسلام ، والأساس المتين للحياة الإسلامية في عهدنا الأولى . وهذه الحرية العقلية هي التي طوّعت للمسلمين أن يبلغوا من الرفعة ما بلغوا ، وأن تمتد إمبراطوريتهم في أعوام معدودة إلى المدى العظيم الذي امتدت إليه .

وهذه الحرية العقلية التي أقرها الإسلام هي التي زادت العرب اعتداداً بأنفسهم ، واعتزازاً بكرامتهم وحرصاً على المساواة التي كانت سليقة فيهم من بدء نشأتهم . فقد كان العربي في باديته وفي حضره يجعل حياته ثمن حريته ، يدفع عنها كل من ينتقص منها ، ولا يرضاه إلا كاملة طليقة كالمواء الذي يتنفسه . على أن عقائدهم الوثنية كانت غلاً في أعناقهم أقبلهم وقدم بهم عن التطلع إلى مثل أعلى يتوجهون إليه بقلوبهم ، ويهبون له حياتهم . فلما حطم الإسلام هذا القلّ وأطلق حريتهم العقلية من عقالها انتشروا في الأرض كآرابت ، ثم زادهم الإيمان الصادق بالمساواة والإخاء بين المؤمنين جميعاً حرصاً على حريتهم وعلى كرامتهم ، فلم يكن أحدهم ينزل عنهما أو يفرط فيهما . ولم يكن يرضى

من أحد ولا من أمير المؤمنين نفسه أن يمستهما . وظلّ ذلك شأنهم في القرون الأولى فزادهم قوة وساطاناً . فلما آن للزمن أن يدور دورته ، ونزل المسلمون شيئاً فشيئاً عن هذه الحرية ثم رضوا بالجلود العقلي ، دبت فيهم ديبب الانحلال ، وبدءوا يصدّقون أساطير كأسطورة عروس النيل ، وحريق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر .

هذه الحرية العقلية هي التي مكنت لعمر بن العاص أن يسوس مصر كما رأيت ، وأن يوفق غاية التوفيق في تألّف أهلها مع اختلافهم مع العرب في الجنس واللغة والدين وقد اغتبط عمر بما عرف من ذلك أول الأمر ، ثم لم يلبث أن خالف عمراً فيما اتصل من سياسته بتخفيف الضرائب مخالفةً بلغت مبلغ المؤاخذه . وكتب إليه في ذلك مرات فلم يغير عمرو من رأيه ولا من خطّته ، بل أصرّ على ذلك إصراراً أقام الشبهات في نفس عمر . وهذه الشبهات هي التي جعلت الرجلين يتبادلان من الكتب ما لا يستطيع تصور مثله في العصر الحاضر . وكيف تستطيع أن تتصوره وقد وقف ابن العاص من أمير المؤمنين موقف الند من نده ، مع ما يعرفه من شدة عمر على عماله ، حتى ليسرع إلى عزلهم متى زابت نفسه الطمأنينة إلى عدلهم وأمانتهم ! .

فقد كان عمرو بن العاص حريصاً كل الحرص على أن يتألّف المصريين وألا يرهقهم وأن يقوم من إصلاح شؤونهم بما يرضيه ، فكان ينفق من خراج مصر ومن الجزية المضروبة على أهلها ما يحتاج إلى إنفاقه في حفر خُجانها ، وإقامة جسورها ، وبناء قناطرها وقطع جزائرها ، ثم يبعث ما يبقى بعد ذلك إلى أمير المؤمنين . وقد احتاج تدمير البلاد أوّل الفتح إلى كثير من النفقة . فقد بدأ عمرو أوّل ما استقرّ به الأمر ، فحفر خليج تراجان — وهو الخليج الذي أطلق عليه من بعد اسم خليج أمير المؤمنين — كما أخذ نفسه بإصلاح ما أفسده الروم من مرافق البلاد . هذا إلى أنه أعنى القرى التي أصابها الخراب من الجباية . وكان عمر في حاجة إلى المال لتنفيذ سياسته في شبه الجزيرة ، وكان لذلك يلح على عمرو ليعث إليه بالخراج كاملاً ، فلا يجد منه إسرعاً إلى تلبيةه لما يريد تشبُّهاً منه هو أيضاً بسياسته . وضاق عمر بذلك ذرعاً ، فكانت بين الرجلين تلك الكتب العنيفة بلغ عنفها وبلغت شدتها حدّ الاتهام .



وأول ما يورده المؤرخون من هذه الكتب كتابٌ من عمر إلى عمرو يقول فيه :  
« أما بعد ، فإنني فكّرت في أمرك والذي أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة  
رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوةً في برِّ وبحر . وإنما قد عالجتها الفراعنة  
وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوِّهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك . وأعجب مما عجبت أنها  
لا تؤدُّ نصف ما كانت تؤدِّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب . ولقد  
أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج ، وظننت أنه سيأتينا على غير نزر  
ورجوت أن تفيق فترفع إليّ ذلك ، فإذا أنت تأتيني بعماريض تبعث بها لا توافق الذي  
في نفسي . ولست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست  
أدرى مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك . فلئن كنت مُجْزِئاً كافياً صحيحاً  
إن البراءة لنافعة ، وإن كنت مضيقاً نطقاً إن الأمر لعلى غير ما تحدّث به نفسك .  
وقد تركت أن أبتغي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إليّ ذلك . وقد علمت  
أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال سوء ، وما توالس عليه وتلقف . اتخذوك  
كهنفاً ، وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه . فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ  
منك الحق وتُعْطاه فإن النهز يُخرج الدّرّ ، والحقّ أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ،  
فإنه قد برح الخفاء . والسلام » .

هذا كتاب لحمته اللوم وسداه التهديد ، فهل تراه أزعج عمراً أو دفعه لأن يعدل  
عن سياسته ؟ اكلا ابل أجب أمير المؤمنين بكتاب جمع ، إلى الاعتداد بالنفس والاعتزاز  
بالكرامة ، حرصاً أصدق الحرص على هذه السياسة ، ودفعاً للهمة التي وُجّهت إليه بلغة  
لا تقلّ شدةً في لهجتها عن لغة أمير المؤمنين . فقد أجب كتاب عمر يقول : « أما بعد فقد  
بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج ، والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة  
قبلي وإجبابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام . ولعمري قد كان  
الخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوِّهم ، أرغب  
في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام ، وذكرت أن النهز يخرج الدّرّ فحلبتها حلباً قطع  
ذلك درّها . وأكثرت في كتابك وأنتبت وعرضت وثرّبت . وعلمت أن ذلك عن شيء

تُخْفِيهِ عَلَى غَيْرِ خَبِيرٍ ، فَجِئْتُ لِعَمْرَى بِالْمُفْطَمَاتِ الْمُقَدِّعَاتِ . وَلَقَدْ كَانَ لَكَ فِيهِ مِنَ الصَّوَابِ رَصِينٌ صَارِمٌ بَلِيغٌ صَادِقٌ . وَقَدْ عَمَلْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ بَعْدِهِ ، فَكُنَّا بِحَمْدِ اللَّهِ مُؤَدِّينَ لِأَمَانَتِنَا ، حَافِظِينَ لِمَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ حَقِّ أُمَّتِنَا ، نَرَى غَيْرَ ذَلِكَ قَبِيحًا وَالْعَمَلَ بِهِ شَيْنًا . فَيَعْرِفُ ذَلِكَ لَنَا وَيَصَدِّقُ فِيهِ قَيْلُنَا ، مَعَازِ اللَّهِ مِنْ تِلْكَ الطُّعْمِ ، وَمِنْ شَرِّ الشُّبْمِ وَالِاجْتِرَاءِ عَلَى كُلِّ مَأْتَمٍ . فَاقْبِضْ عَمَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ نَزَّهَنِي عَنْ تِلْكَ الطُّعْمِ الدُّنْيِيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِيهَا بَعْدَ كِتَابِكَ الَّذِي لَمْ تَسْتَبِقْ فِيهِ عَرَضًا وَلَمْ تُكْرَمْ فِيهِ أَخَا . وَاللَّهُ يَأْبَى الْخَطَابَ لِأَنَا ؛ حِينَ يَرَادُ ذَلِكَ مِنِّي أَشَدَّ لِنَفْسِي غَضَبًا وَلَهَا إِتْرَاهَا وَإِكْرَامًا . وَمَا عَمَلْتُ مِنْ عَمَلٍ أَرَى عَلَى فِيهِ مُتَعَلِّقًا . وَلَكِنِّي حَفِظْتُ مَا لَمْ تَحْفَظْ . وَلَوْ كُنْتُ مِنْ يَهُودٍ يَثْرِبُ مَا زِدْتُ . يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ وَلَنَا ! وَسَكَتُ عَنْ أَشْيَاءَ كُنْتُ بِهَا عَالِمًا وَكَانَ اللِّسَانُ بِهَا مِنِّي ذُلُولًا ، وَلَكِنِ اللَّهُ عَظَّمَ مِنْ حَقِّكَ مَا لَا يُجْتَهَلُ وَالسَّلَامُ » .

لم ينزعج عمر بن الخطاب لهذا الكتاب ، بل رأى أن يأخذ ابن العاص بالشدة ، وألا تلبس قفاته له مخافة استرساله ، فكتب إليه يقول : « أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابتك إليّ بِبُيُنَاتِ الطَّرْقِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ . وَلَمْ أَقْدِمْكَ إِلَى مِصْرٍ أَجْمَلَهَا طُعْمَةً لَكَ وَلَا لِقَوْمِكَ ؛ وَلَكِنِّي وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَوْتُ مِنْ تَوْفِيرِكَ الْخَرَاجَ وَحَسَنِ سِيَاسَتِكَ . فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاجْهَلِ الْخَرَاجَ فَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمُسْلِمِينَ . وَعِنْدِي مِنْ قَدْ تَعَلَّمُ قَوْمَ مَحْصُورُونَ وَالسَّلَامُ » .

كان جواب عمرو على هذا الخطاب أقلّ عنفاً ، ولكن إصراره فيه على سياسته لم يكن أقلّ وضوحاً وبروزاً . ترى ذلك صريحاً في قوله : « أما بعد ، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطنني في الخراج ، ويزعم أنني أعني عن الحق وأنكب عن الطريق . وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْغَبُ عَنْ صَالِحِ مَا تَعَلَّمُ ! وَلَكِنِ أَهْلُ الْأَرْضِ اسْتَنْظَرُونِي إِلَى أَنْ تَدْرِكَ غَلَّتْهُمْ ، فَفَنظَرْتُ ، فَكَانَ الرَّفْقُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يُخْرَقَ بِهِمْ ، فَيَصِيرُوا إِلَى بَيْعِ مَا لَاعْنَى لَهُمْ عَنْهُ وَالسَّلَامُ » .

لعلك توافقتي ، وقد قرأت هذه الكتب ، على أنه لا يسهل علينا تصور إمكانها اليوم بين حاكم له سلطان عمر ، وعامله على بلاد فتحها . فهذا ابن العاص يصّر على ألا يرهق المصريين بجباية الخراج قبل أن يدرك الزرع ، وألا يزيد عليهم حتى لا يؤذيهم ويحملهم على بيع ما هم في حاجة إليه لمعاتهم وسعيهم ، ويرى في الفرق بهم ما يزيدهم حرصاً على أداء ما يطلب منهم من غير تدمير أو شكاية . وهذا عمر يرى الخراج الذي يُجْبَى من مصر دون ما كان يجبيه الرومُ وما كان يجبيه الفراعنة<sup>(١)</sup> ، فلا يرى في حجج عمرو إلا تسويقاً ومطلاً وتعملاً غير مقبول . ثم يبلغ الريب منه فيها أن يراها معاذير يشوبها الكذب ، يريد ابن العاص بها أن يستر تقصيره ، بل أن يستر ما يضره لنفسه ولقومه من ملك مصر الطويل المريض .

ولقد ضاق عمر آخر الأمر ذرعاً بهذه الكتب ، ورأى فيها نذيراً إن لم يتداركه بما عُرِف من شدته تغاقم الأمر بينه وبين عمرو تفاقماً قد ينتهي إلى غير ما يجب . لذلك انتقل إلى الاتهام الصريح ، ثم إلى التحقيق مع عمرو فيما كسب من مال أثناء ولايته مصر . فقد كتب إليه يقول : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن لك حين وُلّيت مصر » . وأجابه عمر : « إن أرضنا أرض مُزْدَرَجٍ ومَتَجَرٍ ، فنحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا » . فكان ردّ الخليفة : « إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك إلى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق . وقد سوّئتُ بك ظننا ، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فأطعمه طامعه وأخرج إليه ما يطالبك ، وأغفه من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء » .

وذهب ابن مسلمة إلى مصر فقاوم عمر ما له . فقال له عمرو : « إن زماناً عاملنا فيه ابنُ حَنَسَمَةَ هذه المعاملة لزمانٌ سوء لقد كان العاص يلبس الخبز بكفّاف الديباج » . وأجابه

(١) قيل إن الروم كانوا يجبون من مصر عشرين ألف ألف دينار ، وإن الفراعنة كانوا يجبون منها تسعين ألف ألف دينار ، وإن خراجها في عهد يوسف عليه السلام بلغ ثلاثة وسبعين ألف ألف دينار إسلامية . أما ما كان يبعث به عمرو فاختلف فيه : قيل كان اثني عشر ألف ألف ، وقيل كان في السنة الأولى دون ذلك بكثير حتى قدره البلاذري بألني ألف وقدره غيره بأربعة آلاف ألف دينار .

ابن مسلمة : « مه ! لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تسكره ألفت ممتعلا عزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكؤها » . قال عمرو : « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولي ؛ فإن المجلس بالأمانة » . وأجابه ابن مسلمة : « لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حتى<sup>(١)</sup> » . تشهد هذه الكتب التي تبودلت بين عمر وعمرو ، كما يشهد ما دار من قبل بين عمر وخالد بن الوليد ، بما كان عليه هؤلاء المسلمون الأولون من حرية ، ومن اعتداد بالنفس واعتزاز بالكرامة في غير كبرياء باطل . لقد كانوا يحترمون النظام ، ولا يتجاهلون ما جعله الله وجعله الإسلام للخليفة من حق . لكن احترامهم النظام وعرفانهم حق الخليفة ، لم يكن ليُنسيهم كرامتهم وحرّيتهم ومساواتهم للخليفة فيما يجب عليه من احترام حقهم بقدر ما يجب عليهم من احترام حقه . لم يكن النظام عندهم ذلاً ولا عبودية ، ولم تكن حقوق الخليفة لتطغى على حقوقهم ، ولم يكن سلطانه ليضعف من حرّيتهم ومن اعتزازهم بكرامتهم ، بل كانت الحرية والنظام يتوازيان فلا يطنى أحدهما على الآخر ، بل يؤيد كل منهما الآخر ويزيده ثباتاً وقوة . فإذا قامت في نفس الخليفة شبهة من رجل فاتمه ثم تبين له أنه ظلمه ، رأى من الحق لهذا الرجل عليه أن يعتذر من اتهامه ، وأن يعلن على رهوس الأشهاد براءته . وإذا اقتضى النظام أو قضت المصلحة العامة بعزل رجل عن عمله لغير ريبة فيه ، أعلن الخليفة سبب عزله ، حتى لا تثور شبهة من الشبهات حوله . وقد كان هذا الاحترام المتبادل ، وهذا التقديس للحرية والنظام جميعاً ، من أسباب القوة التي يسّرت للمسلمين أن ينشروا في العالم حضارة استقرت فيه دهرأ طويلاً .

كان عمر ، على احترامه لهذا النظام أصدق الاحترام ، لا يتردد في عزل كل عامل لا تنتفي الشبهات من نفسه في أمره ، بل يرى ذلك واجباً عليه وجوب احترامه للحرية والنظام : وقد رأيت في هذه الكتب التي تبودلت بينه وبين عمرو أنه كان موشكاً أن يعزله . ولعله كان قاعلاً لولا أنه قتل بعد قليل من تبادل هذه الكتب ومن مقاسمة

(١) نقلنا نصوص ماجرى بين عمرو وابن مسلمة عن البلاذري . وقد أثبتنا ، في الفصل الأول من هذا الكتاب ، رواية ابن عبد ربه في العقد الفريد لهذه النصوص ، مع تقييح بعض الكلمات من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . والروايتان لا يختلفن جوهرهما وإن اختلفت تفصيلهما ، وهما تدلان على أن الأمر كان قد بلغ بين الخليفة وعامله غاية الدقة .

عمرو ماله ، فبقي أمر عمرو معتقاً . لكن هذا التعليق لم يدم طويلاً في خلافة عثمان بن عفان . ترى لو أن عمر لم يُقتل وعزل عمراً ، أفكان يتعصب لابن العاص أقواماً كما تعصب لخالد بن الوليد يوم عزله عمر أقوام ؟ وهل كان عمر يُتهم في تصرفه هذا كما اتهم في تصرفه بعزل خالد ؟ أم أن فاتح مصر لم يكن له من الأنصار ما كان لسيف الله ، وأنه كان متهماً عند الناس بما اتهمه الخليفة به ، فما كان عزله ليثير نائرة أو يُزعج أحداً ؟ ١٩ .

يتعذر الجواب عن هذا السؤال ؛ فقد عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولاهما عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فلم يذكر المؤرخون المسلمون عما أثاره هذا العزل شيئاً يشبه ما ذكروا للعزل خالد بن الوليد . أفيرجع ذلك إلى أن عمراً كان يفيد من مصر لنفسه ولقومه فلم يفضب أحد منهم لعزله ، بل لم يُمن أحد منهم بأمره ؟ أم أن قوماً تعصبوا لعمرو بالفعل ، وروى الرواة ما حدث من ذلك ، ثم أهمل المؤرخون ذكره لأنهم رأوا في مملأة عمرو ولعاوية في خلافته مع علي بن أبي طالب ما صرفهم عن ذكره ؟ أيّاً ما يكن الأمر فإن الدولة الإسلامية مدينة لعمرو بفتح مصر ، مدينة له بحسن سياستها وتآلف قلوب أهلها ، وذلك دين لم يكن ليجزيه ما قيل إنه أفاده لنفسه إن صحَّ صحيح أن نزاهة الحكم يجب أن تسمو على كل اعتبار ؛ لكننا لم نجد فيما نُسب إلى عمرو ما يدل على أنه خالف النزاهة مخالفة تسوّغ التمتّط من حقه ، أو التّهوين من جليل عمله .

ويزيدنا إكباراً لعمرو وتنويهاً بفضله أن ما حدث من عزله لم يدفعه للتسكول من بعد عن أداء واجبه . فقد أقام بمكة في حين كان عبد الله بن سعد بمصر يُرهب أهل الإسكندرية بالضرائب فيدفعهم للتذمّر ، ويدفع الروم منهم أن يكتبوا إلى قيصر بالقسطنطينية أن الفرصة سانحة له ليأخذ بثأره . وقد استجاب قيصر لهذا النداء ؛ فبعث القائد « مانويل » في جند كثيف حمله أسطول مؤلف من ثلاثمائة سفينة سار بهم إلى الإسكندرية وأنزلهم بها ، فاحتلّوها وقتلوا جند المسلمين المرابطين فيها ، وأذاعوا الرعب في قلوب أهلها ، ووضعوا أيديهم على كل مرافقها . ولم يستطع عبد الله بن سعد مقاومة هذا الغزو ، فبعث إلى الخليفة يستنجده . ودعا الخليفة عمرو بن العاص وطلب إليه أن يعود إلى مصر ليقاتل الروم ،

فلم يتردد<sup>(١)</sup> ، ولم يجعل من حفيظيته لعزله أى أثر في نفسه ، بل سار حتى بلغ بابلون حين كان مانويل وجنوده يتقدمون في مصر السفلى . ولقيهم عمرو بنقيوس ، فهزمهم وردّهم إلى الإسكندرية ففتحوا بها . ولما رأى عمرو حصون المدينة تقاومه أسف أن ترك هذه الحصون قائمة ، وأقسم : لئن أظفره الله بالمدينة ليهدم أسوارها ، حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان اوذكر المصريون ما كان من رفقه بهم وحسن سياسته فيهم ، فأعانوه على عدوه فظفر به ، ثم حطم حصون الإسكندرية وأسوارها بعد أن قتل مقاتلتها ، وأخذ النساء والذرائع فجعلهم فيئاً .

وأراد عثمان بن عفان مكافأة عمرو بأن يجعله أميراً على جند مصر ، مع بقاء عبد الله ابن سعد واليها وصاحب خراجها ؛ فرفض عمرو عرض الخليفة وقال : « أنا إذا كاسكت البقرة بقر نبيها ، وآخر يحملها ! » . وعاد إلى مكة حتى آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، فولاه مصر وأطلق يده فيها . وساس ابن العاص مصر بحكمته وحسن رأيه ، وظلّ مقيماً بها إلى آخر عمره ، ثم مات بها ودُفن فيها . لكن الزمن عفى على قبره ، فما من أحد يعرف اليوم مكانه .

لم تفصل أعمال عمرو بمصر بعد عهد عمر ، لأنها لا تدخل في نطاق هذا الكتاب . فلنعد بدأ كرتنا إلى ما أثبتناه فيه ، مذ بدأ عمرو يقصر في فتح مصر ، لنذكر ما كان لهذا الرجل من فضل في نقل مصر من يد الروم إلى يد المسلمين . فهو الذي سار إليها في جند لا يبلغ أربعة الآلاف . وهو الذي فتحها بهذا الجند وبالمدد القليل الذي أمده الخليفة به . وهو الذي وجّه سياستها ، ونظّم حكمها ، ودبّر أمورها ، وتألف أهلها . وليس يغلو لذلك من يقول : إن مصر الإسلامية مدينة بوجودها لعمرو بن العاص ، دينا لا تعرف العراق ولا الشام ولا الفرس دينا مثله لفاتح من المسلمين .

(١) تجرى بعض الروايات بأن عثمان لما يكن قد عزل عمر أعن مصر حين هاجم مانويل الإسكندرية ، وأت عمرأ إنما قام بواجب الوالى حين قاتل الروم . وتجرى روايات أخرى بأن عثمان كان قد عزله ؛ لكنه كان لا يزال مقيماً بمصر . فلما دعى لقتال الروم ، بعد فشل ابن أبي سرح ؛ استجاب للدعوة طمأ في أن يعود إلى ولايته التي عزل منها .

الآن فرغنا مما تم في عهد عمر من فتوح عظيمة هزّت العالم وسهرت المؤرخين . وقد تركنا شبه الجزيرة ، في أثناء هذه الفتوح ، لنرى كيف أдал الغزاة العرب من دولة كسرى ومن دولة قيصر ؛ فلنعدّ كربةً أخرى إلى المدينة ، ولنقف إلى جانب عمر ، لنرى كيف تطورت شبه الجزيرة في عهده ، وكيف واجه أهلها هذه الأطوار الجسيمة التي حدثت تحت سمعهم وأبصارهم . وسيرى القارئ معنى أن ماتم من ذلك لم يكن أقلّ عظمةً ولا جلالاً من عظمة الفتوح وجلالها ، وأنه كان أكثر من الفتوح بقاءً على الزمن ، وأعمق منها أثراً في حياة العالم كله .

## الفصل الثاني والعشرون

### حكومة عمر

كان عهد عمر كما رأيت عهد غزو وفتح ؛ حالف النصر فيه أعلام المسلمين ،  
 فامتدَّت دولتهم حتى جاورت أفغانستان والصين شرقاً ؛ والأناضول وبحر قزوين شمالاً ،  
 وتونس وما وراءها من إفريقيا الشمالية غرباً ، وبلاد النوبة جنوباً . هذا مع أن التوسع  
 في الفتح لبلوغ هذه الأرجاء لم يكن مما أراد عمر أو أراد أبو بكر من قبله ؛ وإنما كانت  
 سياسة عمر أن يجمع الجلس العربي في وحدة تمتد من خليج عدن جنوباً إلى أقصى الشمال  
 من بادية السماوة ، وأن يدخل العراق والشام في هذه الوحدة ؛ لأن السلطان فيهما كان  
 لِلخَمِيَّينِ والنَسَّانِيَّينِ من العرب . فلما تمَّ له ما أراد من ذلك ودَّ لو يقف جنده في هذه  
 الحدود لا يتعدَّها ، وتمنَّى لو أن بينه وبين الفرس جبلا من نار لا يخلُصون إليه ولا يخلُص  
 إليه منه ، ولو أن بينه وبين الروم سداً يحول بينهم وبين استرداد ما فتحه من أرضهم .  
 لكن الحوادث كثيرة ما كانت أقوى من الرجال . والحوادث هي التي دفعت المسلمين إلى  
 متابعة الفتح ، والبلوغ به إلى المدى الذي رأيت .

وقد أذهل هذا الفتح عالم يومئذ ، وأدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه وحاولوا  
 استقصاء أسبابه . وقد أشرت من قبل إلى ما اتصل من هذه الأسباب بنفسية المسلمين  
 الغزاة ونفسية خصومهم من الفرس والروم . وتمَّ عامل آخر كان له أثر كبير في امتداد  
 الفتح : ذلك نظام الحكم في شبه الجزيرة . فقد تطور هذا النظام ، خلال السنوات  
 العشرين التي تلت هجرة الرسول ، تطوراً مكَّن الأمة العربية من مواجهة تلك الأحداث  
 التاريخية الجليلة في طمأنينة زادتها اعتزازاً بنفسها ، وشعوراً بقوتها ، وإيماناً بأن عليها  
 رسالة يجب أن تؤديها للعالم ، ويجب أن يسمع العالم لها . لذلك لم يقف في سبيلها سلطان ،  
 ولم تصدّها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

لم يكن هذا النظام نتيجة تفكير منطقي ، ولا عملاً من أعمال الفقهاء والمشرعين اجتماعاً



له ونظروا فيه واتهوا إلى تدوينه ، ثم أمر رسول الله أو أمر خلفاؤه بتنفيذه . كلا ! فقد كانت هذه الدولة الناشئة تنمو في سرعة دونها سرعة الناشئ في نموه من الطفولة إلى الصِّبا في الشباب . لذلك لم يكن بدّ لمن ولى أمرها من أن يلحظ أحوالها تبعاً لأطوار نموها ، وأن يجعل همّه أول كل شيء إلى تنظيم مركز القوة الدافعة لهذا التطور وهذا النمو ، وأن يعمل على توفيق الروابط بين أجزاء الدولة وتوكيد تضامنها . وإنما بدأ انبعاث هذه القوة الدافعة من بلاد العرب قبل أن تلتئم وحدتها ، أو يستقر بها نظام ثابت يصدر عنها ويمتد منها إلى غيرها من الأمم . فقد كان النظام الموحد المستقرّ معروفاً في البلاد المجاورة لها قبل أن تعرفه هي ، ثم كان النظام الفارسي مبسوطاً في العراق ، والنظام البزَنْطى مبسوطاً في الشام . ولم يفكر أحد من أهل المدينة في استعارة أيّ من هذين النظامين ، ولم يحاول أحد فيها أن يسطر على الورق نظاماً عربياً كله ، أو إسلامياً كله . يطبق في بلاد الدولة أدانيتها وأقاصيها . ولو أن أحدهم فسّر في مثل هذه المحاولة لقضى السنين يسطّر ويمحو ويثبت حتى تلتئم لهذا النظام وحده تجرّي في مختلف أجزائه . وما كان عهد الفتح الفسيح السريع الخطأ ليتسع لشيء من هذا ولا ليطبيقه . فعهد الفتح ، بطبعه ، عهد اجتهاد تملّيه أحداث الساعة وتقضى به أطوارها . فإذا أسرع الفتح ما أسرع في عهد أبي بكر وعمر ، وجب أن يستند النظام إلى بديهته وليّ الأمر أكثر من استناده إلى منطقه ، وأن يساير وليّ الأمر الفتح في أطواره لا يسبقها ولا يستأخر عنها .

وذلك ما حدث منذ انضوت بلاد العرب كلها إلى لواء الإسلام بعد فتح مكة والطائف . فقد أقبلت الوفود من أرجاء شبه الجزيرة تنزّري إلى المدينة تعلن بين يدي رسول الله إسلامها ، وجعل رسول الله يبعث عمّاله إلى مختلف الأرجاء يفقهون الناس في الدين ، ويجيبون منهم الصدقات ، تاركاً للأمراء الذين أسلموا ما كان لهم من سلطان في بلادهم قبل إسلامهم ؛ ينهضون به في حدود النظام المتوارث عندهم ، بعد أن يدخلوا عليه من التعديل ما جاء الإسلام به . فلما اختار الله إليه رسوله وبايع أهل المدينة أبا بكر بالخلافة ، فبعث عمّاله يجيبون ما كانوا يجيبونه من الصدقات لعهد النبي : برّم العرب بهذا الأمر ولم يرضوا عنه ، وعدّوه انتقاصاً من استقلالهم السياسي ومن حريتهم المدنية ،

وأصرّوا لذلك على دفعه . وكذلك قامت حروب الردّة ، ثم انتهت بظفر أبي بكر واستقرار السلطان بالمدينة . وهذا الظفر هو الذي مهد للوحدة السياسية في بلاد العرب . فلما تولى عمر بعد أبي بكر جعل همه إلى تنظيم هذه الوحدة تنظيمياً لا يقلو من يقول إنه كان تنويرياً للثورة الروحية الكبرى ، ورفماً للقواعد من سلطانها الثابت في العالم .

كان ذلك شأن العصر الذي بدأ فيه انتشار الإسلام واستقراره . ولذلك كانت سيرة القائم بالنظام وتعاليمه هي صورة هذا النظام المتصل بشخصه ، المرتبط بتصرفاته وأحكامه فسيرة رسول الله هي النظام الروحي للإسلام ، وبداية التصور المدني لنظام الجماعة الإسلامية . وقد تطوّر هذا التصور على الزمان متأثراً بالأحوال المحيطة به ، مع التزامه النطاق الذي فرضه القرآن للحياة الروحية وللحياة المدنية ولئن ظلّ النظام السياسي في شبه الجزيرة قائماً فلم يتغير في عهد الرسول عما كان عليه قبله ، لقد تأثرت الحياة المدنية بأوامر القرآن ونواهيها تأثراً كان له أعمق الأثر في كل ماتمّ من بعد : وكان أبو بكر خليفاً بعد أن قضى على الردّة واستفتح عهد الوحدة السياسية لبلاد العرب ، أن ينظّم هذه الوحدة وأن يضع أسسها ويرفع قواعدها . لسكن التمهيد لافتتح وللإمبراطورية في العراق والشام بدأ ولما تكن حروب الردة فد انتهت ، فلم يكن في مقدور الخليفة الأول أن ينصرف عن مواجهة الفرس والروم إلى تفصيل النظام الملائم للوضع الجديد ، في بلاد كانت الثورة لا تزال قائمة في بعض أرجائها ، ولم تكن أمورها قد اطمأنت إلى وحدة مستقرة مع هذا بدأت الوحدة السياسية تنتظم بلاد العرب من ذلك الحين شيئاً فشيئاً ولا عجب ، فحيثما تجرّ في البلاد المتجاورة أحكام متشابهة تزلّ الفوارق بينها في الحياة المدنية ، فيدكّ زوالها ما بين هذه البلاد من حوائل . وحيثما يتم التوافق بين المثل الأعلى والغرض المشترك لأمم متجاورة ، يصبح اندماج هذه الأمم أمراً طبيعياً ينصحهم الزمن . ومنذ أسلم العرب تمتّ وحدتهم في العقائد والمعادن والمعاملات .. كان تحريم الربا والنحر والميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به ، وكان الحدّ من تعدد الزوجات وتحريم وأد البنات ؟ وكان تنظيم المعاملات وترتيب الميراث ، مما بعث إلى حيائهم المدنية تساقاً لم يكن مألوفاً من قبل : ثم زادت وحده العقيدة والعبادة ما بينهم من وحدة الجنس

ووحدة اللغة متانة وقوة . فلما قُضِيَ على الردة واندفع المسلمون إلى العراق والشام ، وتجاوبت أجواء شبه الجزيرة بآبناء انتصارهم وبقوتهم على مواجهة الفرس والروم . زاد الاشتراك في الغزو والنصر ووحدة العرب قوة ، وجعلهم يشعرون بحاجتهم إلى التآزر والتضامن ليظل النصر حليفهم فتزاد بين أيديهم ثمراته . لذلك رأيت الذين منعهم أبو بكر من الاشتراك في حرب العراق والشام ، لِمَا كان من رِدَّتِهِمْ ، يودّون على اختلاف قبائلهم ومواطنهم أن يشتركوا في هذه الحرب جهاداً في سبيل الله ، وليكون لهم من مغانمها نصيب كمنصيب الذين أقاموا على إسلامهم واشتركوا فيها منذ بدأت . فإذا أضعفت إلى هذا كله ما هدى الإسلام العرب إليه من مثل أعلى أضاء لهم بنوره ، وأراهم جلال الإيمان وجماله ، وحبب إليهم الاستشهاد في سبيله ، أدركت كيف كانت وحدة شبه الجزيرة تزداد على الأيام اتساقاً وقوة ، وكيف كانت تتجه لتسكون وحدة سياسية كاملة ، وكيف كان الزمن يُنضجها شيئاً فشيئاً .

لا ريب في أن القائم بأمر الإسلام في شبه الجزيرة قد كانوا محور هذه الوحدة بقوة شخصياتهم وبتعاليمهم وأسوتهم . كان النبي العربي ورسالته بالإسلام مصدرَ هذه الوحدة وأساسها . وكان خليفته الأول هو الذي قضى على العوامل التي حاولت مقاومتها والقضاء عليها . وكذلك آل الأمر إلى عمر حين كانت وحدة شبه الجزيرة تتراعى خلال الحُجُب ، وحين لم يكن لها مفرٌّ من أن تكمل ، ما لم يضعف القائم بأعبائها دون الإضطلاع بالتَّيَبَات الملقاة على عاتقه لتثبيتها وتوطيد دعائمها .

وما كان عمر بن الخطاب ليضعف ؛ فقد كان له من قوة الشخصية وبروزها ما رأيت الكثير من مظاهره مجلّوا في هذا الكتاب ، وما كان له أثره البين قبل الإسلام وبعده . وكان هذا الأمر أشدَّ وضوحاً بعد هجرة المسلمين إلى المدينة حيث كان عمر وزير رسول الله كما كان أبو بكر وزيره . كان عمر يخالف رسول الله في أمور أقرَّ القرآن رأيه في بعضها كما كان في أشدِّ بدر . ثم كان له من صدق إيمانه بالله ورسوله ما يجعله أول المسلمين إذعاناً إذ نزل الوحي بما يخالف رأيه ، وأولى المسلمين تأسيماً برسول الله إذا جرت سُنَّتُهُ بأمر من الأمور . وكان عمر يخالف أبا بكر أثناء خلافته ، فإذا أصرَّ أبو بكر على رأى

أطاعه عمر لأنه ولى الأمر . لكن طاعته لم تمتح في يوم من الأيام شخصيته ، وتأسيسه بالرسول لم يُنسى أن يفرّق بين الثابت على الزمان من سنّته صلى الله عليه وسلم ، وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فمن المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه من غير أن يكون ذلك إنكاراً له ، اقتناعاً بأن رسول الله لو امتدّ به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه .

كانت الوحدة السياسية لبلاد العرب بعض ما شغل به عمر في خلافة الصّدّيق <sup>رضي</sup> وإن لم يصرفه اشتغاله بها عن معاونة أبي بكر في تنفيذ سياسته أصدق المعاونة . فلما استخلف كان تثبيت هذه الوحدة وتوطيد دعائمها أول ما أتجه إليه همّه . وقد هداه تفكيره إلى أن هذه الوحدة لن تكون سليمة إلا أن تصفو من كل شائبة ، وذلك بأن يكون الجنس العربي كله متحداً في موطنه وفي عقيدته كأئحاده في لغته . واليهودية النصرانية لاتزالان قائمتين في شبه الجزيرة . أنراه يستطيع إجلاءم عنها من غير أن يخالف كتاب الله وسنة رسوله ؟ .

لقد وادع رسول الله اليهود أول ما نزل بيثرب . فلما تقضوا عهدهم وحاولوا القدر به ، أجلام عن المدينة . ثم إنه أجلام عن أكثر مواطنهم من شبه الجزيرة لما ناصبوه العداوة . ألا يدل ذلك على أن بقاء اليهود في مواطنهم لم يكن حقاً لهم يجب احترامه ، وأن موادعتهم كانت سياسة قضت بها مصالحة الدولة أول العهد بيثرب ، فلما رأى الرسول مصالحة الدولة العليا لاتستقيم بها عدل عنها إلى سياسية غيرها ومصالحة الدولة العليا توجب في رأى عمر أن توحّد العقيدة في شبه الجزيرة كلها . لذلك كان من أول ما استفتح به عهده أن أجلى نصارى نجران عن شبه الجزيرة ، فأمر يعلى بن أمية ألا يفتنهم عن دينهم ، وأن يخرج منهم من أقام على نصرانيته ، وأن يعطوا بالعراق أرضاً كأرضهم بنجران ، وأن تُحسّن معاملتهم . كذلك فعل بمن بقي من اليهود بخيبر أو بفدك : أجلام عن أرضهم إلى الشام ، وعوضهم عنها بمال يعدل قيمتها ، ولم يُسب إلى أحد منهم . بذلك خلصت شبه الجزيرة من كل عقيدة إلا الإسلام ، فتوطدت فيها قواعد الوحدة التي قصد إليها أمير المؤمنين .

هذا تصوير واضح للباعث الذي دفع عمر إلى إخراج اليهود والنصارى من شبه الجزيرة .

وهو في ذلك لم يخالف سنة ولم يخرج عليها . فعهد رسول الله مع اليهود والنصارى لم يكن سنة تُثبت حكماً ، بل كان سياسة تغيرت في عهد الرسول ، فلا بأس بأن تتغير بعده . وإنما غيرتها عمر لأن أحداث الوقت ، وامتداد الفتوح ، وشدة الحرص على تمكين أوامر الوحدة في شبه الجزيرة قضت بتغييرها . وما كان عمر ليخمد على عهد تنير عليه العهد ، وأصبح مُضراً بمصلحة الدولة وسياستها العليا . فكيف به وهو موقوف بطبيعته ؛ يقضى بانقضاء مدته ، ولا يتجدد إلا إذا رضى أمير المؤمنين تجديده .

لا يحسب أحد أنى أنسب لعمر ما لم يدُرْ بخاطره من التفكير في وحدة العرب ؛ فقد أجمع المؤرخون على أنه استند في إجلاء اليهود والنصارى ما روى عن رسول الله أنه قال : « لا يجتمع ببلاد العرب دينان » ، وما ذكره البلاذري وغيره من أن عمر رأى أن أهل نجران كثروا ، يخافهم على الإسلام ، فأجلام ، وأمر عماله بالعراق والشام أن يعوضوهم من أرضهم وأن يُحسنوا معاملتهم ، ولو أنه أجلام لأنهم نقضوا عهدهم لما لطف بهم كل هذا اللطف ، ولما أحسن معاملتهم كل هذا الإحسان .

لا يكفي لتثبيت دعائم الوحدة في بلاد العرب ألا يبقى بها دين غير الإسلام ، إذا بقي من الفوارق بين أهلها ما يجعلهم يشعرون بأن بعضهم أكثر حرية أو أوفر كرامة من بعض ، وإذا لم تقم المساواة الصحيحة بينهم علماً على سلامة تضامنهم . وقد بقيت بعض الفوارق بينهم بسبب الردة والحروب التي قضت عليها . أمّا وعمر يريد الوحدة صحيحة فلا بد من القضاء على هذه الفوارق بإزالة أسبابها . لذا رفع عن أهل الردة ما كان أبو بكر قد فرضه عليهم ألا يجاروا في صفوف المسلمين ! كما أمر برد السبي من العرب إلى عشائهم وردّ حريتهم إليهم ؛ لأنه كره أن يكون السبي سنة في العرب . بذلك استفتح عهداً جديداً سرى معه في نفوس العرب جميعاً روح أشعرهم ، على اختلاف مواطنهم من شبه الجزيرة ، بأنهم أمة واحدة ، لها هدف مشترك وتوجهها سياسة عامة ومصلحة عليا يهيمن عليهما أمير المؤمنين .

وهذه المصلحة العليا ، التي أملت على عمر ما قدّمت تحقيقاً لوحدة العرب في ظل الإسلام ، هي التي أملت عليه أن يجعل هجرة الرسول مبدءاً للتاريخ العربي . فقد كان العرب

إلى ذلك العهد يؤرخون بعام الفيلس حيناً ، وبععض أيام العرب الكبرى حيناً آخر . وإذ كانت هذه الأيام كلها جاهلية ، وكان الإسلام يهدم ما كان قبله ، فقد رأى عمر في هجرة النبي إلى يثرب أعظم حادث في تاريخ الإسلام لهده صلى الله عليه وسلم ، أن كانت هذه الهجرة مبدأ نصر الله رسوله وإعزاز دِينه . وقد قويت الوحدة العربية بهذا الاختيار للوقت ، زاده توفيقاً أنه تم في السنة السادسة عشرة للهجرة ، حين كانت أعلام المسلمين تسير مظفورة في بلاد كِسْرَى وبلاد قيصر ؛ تقتجم اللدائن وتفتض الإيوان الأعظم ، وتفتح بيت المقدس وتقيم فيه للمسجد الأقصى إلى جانب كنيسة القيامة . وقد واجه عمر بهذا التاريخ المجيد تاريخ الفرس وتاريخ الروم فإذا هو أعظم منها ضياء ، لأنه يمثل أجل حادث في تاريخ العالم .

ولا ريب أن اختيار هذا التاريخ كان إلهاماً موقفاً . وعلى هذا الإلهام الموفق كان عمر يعتمد في سياسته لمواجهة أحوال الدولة المنهضة في تطورها السريع . ملتصقاً دائماً ما براه أصلح لها وأدنى إلى تحقيق أغراضها .

وكان طبيعياً أن يعتمد عمر في سياسته على قوة شخصيته وتوثب إلهامه ؛ إذ كانت الدولة في أول نشأتها ، وكانت الحروب في العراق والشام تقتضى أشد الحذر واليقظة . ولو أن ما واجه عمر يومئذ حدث في زماننا أو في أى زمان آخر ، لغضت أحوال الحرب بإسناد الأمر إلى رجل موثوق به ؛ تجتمع السلطة في يده لتنظيم جهود الحرب ، والاضطلاع بتبعتها . وقد رأى عمر كيف استطاع أن يتم للعرب وحدتهم ، وبكفل لهم حريتهم ، وأن يضطلع في الوقت نفسه بتبئة الحرب ، وأن ينظم ما اقتضته من جهد في بقظة ودقة امتدت إلى السيق والجليل من أحوال الجند وسيرهم ، ومن كرمهم وفرهم ، حتى لقد كان يشارك أمراء الجند في وضع خطط القتال ، بل كان هو الذى يضعها في كثير من الأحيان . فإذا تم الفتح رسم السياسة التي تجرى في البلاد المفتوحة ، وصور ما يجب القيام به من شئون الإصلاح فيها .

أفكان في مقدور عمر وهذه الأحداث تواجهه أن يبدأ عهده بأن يضع للحكم نظاماً مفضلاً يجرى في بلاد العرب كلها ، أو أن يتخذ من النظام الفارسي السائد في العراق ،

أو النظام البُزنطى السائد في الشام نظاماً لشبه الجزيرة ؟ ما أحسب شيئاً من هذا دار بخلده فشبّه الجزيرة تختاف بتكوينها عن العراق والشام اختلافاً جوهرياً . وقد ألف العرب حياة لا تلائمها مركزية الفرس ولا نُظُم الروم . هذا لو أن الحرب لم تكن تشغله وتستنفد كل جهده ، فكيف به وقد كان جنده في أول عهده يُواجه في العراق أدق موقف ، وكانت قواته في الشام تواجه من جيوش الروم ما يزيد عليها في العدد والأعدّة أضعافاً مضاعفة ! حسبه أنه جمع شبه الجزيرة في وحدة عربية إسلامية حرّة تزيد أهلها اعتداداً بأنفسهم ، وتزيدهم بذلك على الفتح قوة ، وليدع التنظيم للزمن يُنضجه في يسر في حدود كتاب الله وسنة رسوله .

ولو أنه حاول أن يفرض على البلاد المختلفة في شبه الجزيرة نظاماً موحداً لأدّى ذلك إلى نتائج لا يحمدها عمر ولا يحمدها المسلمون . فما كان أهل الحضر ليرضوا نظام البدو . ولا أهل البدو ليرضوا نظام الحضر . لقد اغتبط الناس بما أمر به عمر من ردّ السبي إلى عشائرم ، ومن رفع الخذر عن أهل الرّدة ؛ فليدعهم في اغتباطهم ليزدادوا تضامناً ، وليدفعهم تضامنهم إلى تلبية ندائه لمواجهة الموقف الحربى والتغلب على دقته ولا ضير في أثناء ذلك أن تبقى الأمور جاريةً مجراها في اليمن وفي غير اليمن من أرجاء شبه الجزيرة ، وأن يكتفى عمر بأن يبعث إلى كل إمارة منها والياً من قبّله يمكن سلطان المدينة فيجيبى من الناس الصدقات ، ويقم بينهم حدود الله ، ويقمهم في دينهم لينظّموا حياتهم بموجب أحكامه ، وأن يُبقى لكل أمة وكل قبيلة فيما وراء ذلك من الاستقلال الذاتى ما ألقته منذ أجيال ، وألا تتمدى الروابط المشتركة بين هذه الإمارات شؤون الدولة العامة . أما وقد كان شأنها فن حققنا أن نستعير تعبير القانون الدولى في عهدنا الحاضر ، وأن نسمى هذه الروابط اتحاداً كاتحاد الولايات الأمريكية المتّحدة أو الولايات السويسرية .

كانت المدينة عاصمة هذا الاتحاد . ولم يكن ظفرها بالمرتدين هو وحده الذى جعل لها هذا التقدم . فلو أن الرّدة لم تحدث لكان طبيعياً أن تكون المدينة هي العاصمة الإسلامية الأولى ، وأن يكون لها التقدم على جميع الحواضر والبادى ؛ فهى التى آوت رسول الله وعززته ونصرته ، وقد نزل بها من القرآن أكبر مما نزل بمكة ، وفيها اجتمع المهاجرون

والأنصار الذين استمعوا إلى رسول الله وعرفوا سنته ، والذين أعزوا دين الله ونصروه ؛ فكانت منزل الوحي المحمدي ، ومصدر التشريع الإسلامي ، ومقر السابقين الأولين إلى الدين الذي ضوى العرب كلهم إلى لوائه . ثم إن رسول الله قد اتخذها عاصمته ، ووجه منها رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دين الله . لا عجب وذلك رشاها أن تكون العاصمة ، وأن تُشدَّ إليها الأنظار من كل صوب وحَدَب . فلما ظفرت بعد ذلك بالمرتدين ، ثبَّت هذا الظفر سلطانها ومدّه على أرجاء شبه الجزيرة كلها . بذلك ظلت مركزَ الحكومة الإسلامية إلى أن انتقل الأمر منها إلى دِمَشقَ في عهد معاوية بن أبي سفيان . وكان نظام الحكم بالمدينة في عهد عمر قائماً على الأساس الذي قام عليه في عهد رسول الله وفي عهد أبي بكر من بعده . وكان هذا الأساس هو الشورى ، استناداً إلى قوله تعالى : « وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » ، وإلى قوله تعالى مخاطباً نبيّه : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » وقد كان رسول الله يشاور أصحابه ، وفي مقدّماتهم أبو بكر وعمر ، وكان يقول لهما : « وأيمُّ الله لو أنكما متفقان على أمر واحد ما عصيتكما في مشورة أبداً » . وكان أبو هريرة يقول : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فلما استخلف أبو بكر واستفتح عهده بأن وجه أسامة بن زيد لحرب الروم ، استأذنه في بقاء عمر بالمدينة ، ليشير عليه مع غيره من الصحابة . وكذلك فعل عمر فجعل الشورى أساس حكمه .

لم تكن الشورى يومئذ نظاماً أريد به الحدُّ من سلطان الخليفة على ما يفهم الناس اليوم في النظام البرلماني ، ولم تكن لأصحاب الرأي الذين يُشِيرُونَ على الخليفة حقوقاً يفرضون بها رأيهم عليه ؛ بل كان الخليفة مطلق السلطان مع هذه الشورى ، وحسابه على الله ، وعلى نفسه ، وعلى الشعب الذي بايعه . فإذا تجاوز الحقَّ وعصى الله ورسوله ولم يردعه حسابُ ربِّه وحساب نفسه ، وكان على الشعب أن يُقَوِّمَ اعوجاجه بحدِّ السيف ولم يكن الانتخاب بالصورة التي نعرفها اليوم أساس تلك الشورى ، بل كان الخليفة هو الذي يختار من يستشيرهم ، ثم كان يُفاضل بين آرائهم ، فيأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء . وكان أهل الرأي في عهد رسول الله هم المهاجرين والأنصار المقيمين بالمدينة ،



وكانوا جميعاً حوله ، يستمعون إليه ويشيرون عليه ويسرون معه في غزواته . فلما كان عهد أبى بكر ذهب كثيرون إلى الميادين في العراق والشام ، ثم بقى كبار الصحابة من قريش إلى جانبه . وكذلك كان الشأن في عهد عمر ؛ بقى إلى جانبه أعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار ، يمحّص على ضوء آرائهم كل مسألة لا يجد لها حكماً في كتاب الله ولا في سنة رسوله . هؤلاء كانوا خاصة أصحاب المشورة ، وكان في مقدمتهم العباس ابن عبد المطلب ، وعبدُ الله بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبدُ الرحمن بن عوف ، ومن إليهم . على أن عمر كان يلجأ في كثير من الأحيان إلى الشورى العامة ؛ فكان يدعو الناس إلى المسجد بالمدينة أو يدعوهم إلى صلاة جامعة حيثما كان ، فيعرض عليهم ما يريد أن يستشيرهم فيه ، ولمن شاء منهم أن يبدى بالرأى الذى يعن له . بل لقد كان إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم . فإذا انكشف له وجهُ الرأى من الشورى العامة فاعتزم أمراً أنفذه ، وإذا استبهم عليه الرأى عاد إلى خاصته يستمع إليهم ويناقشهم حتى يطمئن إلى ما يؤمن بأنه الصواب . ولقد رأينا الكثير من مشاورات عمر العامة والخاصة فيما سبق من هذا الكتاب :

رأيناه يستشير الناس بعد مقتل أبى عبّيد بالعراق يسألهم رأيهما ماذا يصنع . قال العامة : ميرٌ وسيرٌ بنا معك ، وأجمع الخاصة على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله على رأس الجيش إلى العراق ، ويبقى هو بالمدينة يمدّ هذا الرجل . عند ذلك جمع الناس وقال لهم : « يحقّ للمسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذؤاب الرأى منكم عن الخروج ؛ فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً » .

ورأيناه يسير إلى الشام ، فيلقاه أمراء جنده فيذكرون له أن الأرض سقيمة ، وأن فتنك الطاعون شديد . فيجمع الناس يستشيرهم : أيتابع طريقه إلى الشام مع الوباء ، أم يعود أدراجه إلى المدينة ؟ فيختلف الناس : يشير قوم بالسير ، ويشير آخرون بالرجوع ، فينتهى إلى رأى الآخرين ويرجع أدراجه بمن كان معه .

وكان يرى الشورى نظاماً أساسياً واجب التطبيق فى أرجاء الدولة كلها ، يأمر الولاة وأمراء الجند به ، فيقول لأبى عبّيد يوم بعثه إلى العراق : « إسمع من أصحاب

رسول الله وأشرِكهم في الأمر ، ولا يتجهد مسرعاً فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل  
اللكيئ الذي يعرف الفرصة . وكذلك كان يفعل مع الولاة سواء منهم من ولى  
شؤون الحرب ومن ولى غيرها .

لاحظ قوم أن أولى الراى من قرابة رسول الله إنما كانوا فيمن يشيرون على عمر ،  
وأنة لم يجعل أحداً منهم على إمارة الجند ، ولم يولّ منهم أحداً في بلاد العرب ولا في البلاد  
المتفوحة . ومن أصحاب هذه الملاحظة من يذهب بهم الظن إلى أن عمر بقى في نفسه  
من بنى هاشم شيء بعد موقفهم من بيعة أبي بكر . ولا أراى أشارك أصحاب هذا الراى  
في رأيهم ، وتختلف بنى هاشم عن بيعة الصديق موضع ريبة عندى . ولو أن قصة تخلفهم  
صحّت لما جاز أن يكون لها في نفس عمر أثرٌ إبان خلافته ؛ فقد بايعوا أبان أبا بكر جميعاً  
من بعد . ولما أوصى أبو بكر باستخلاف عمر لم يخالفه أحدٌ من بنى هاشم ، بل كانوا  
أول من بايعه . وقد كان لهم من الخطوة في خلافته ما لم يكن لأحد من المسلمين . وسنرى  
هذه الخطوة بارزةً ، عند الحدث عن تدوين الديوان وفرض العطاء ، بروزاً ترك في حياة  
المسلمين وفي تقاليدهم أثراً لا يزال باقياً إلى اليوم . وكثيراً ما كان عمر يقدم قرابة النبي  
تقدماً يشهد بإكباره لهم وإعظامه إليهم . وقد رأينا استشفاعه إلى الله عام الجماعة بالعباس  
عم رسول الله ، ورأيناه يستخلف على بن أبى طالب على المدينة حين ذهب إلى الشام  
لصلح بيت المقدس . وما أكثر ما كان يُشيد بفضل ابن عباس وعلمه وأدبه ! .  
فلما حضرت عمر الوفاة وأوصى بالشورى جعل الخلافة في ستة أشخاص بينهم على بن  
أبى طالب . وليس شيء من هذا بشأن رجل في نفسه على بنى هاشم موجودة .

فلم إذا لم يجعلهم على إمارة جند ، ولم يولّ منهم أحداً في بلاد العرب أو في البلاد  
المتفوحة ؟ لقد تأخذ منك الدهشة إذا قيل لك إنه لم يولّهم إكراماً لقرابتهم من رسول الله .  
وهذا المعنى يستفاد مع ذلك من قوله يوماً لابن عباس : « إني رأيت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم استعمل الناس وترككم . . . والله ما أدري أصرفكم عن العمل ورفعكم عنه وأتم  
أهل ذلك ، أم خشى أن تعاونوا مكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بدّ من عتاب » .  
يذهب بعضهم إلى أن هذا الكلام ، إن صحّت نسبته إلى عمر ، إنما كان اعتذاراً

فيه لطف وتبجمل ، وأنه اعتذار يُخفى ما انطوى عليه عمر من حذر من بني هاشم ومن كبار الصحابة ورءوس قريش . وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أنه استبقي هؤلاء جميعاً بالمدينة ، وجعلهم من أصحاب مشورته ، لأنه خشي إن هم تفرقوا في أرجاء الدولة وتولوا السلطان فيها . أغرام ذلك بالاستئثار بما في أيديهم والانتقاض على سلطان المدينة ، اعتماداً على مؤازرة المناطق التي يُلونها وتأبيدها لهم فيما يبنونه من أغراض . وأصحاب هذا الظن يذكرون أن عمر قد عزل خالد بن الوليد بدافع من هذا الحذر ، وأنه كان شديد الحساب لولائه في مختلف الولايات ، سريعاً إلى عزلهم لجرّد الريبة فيهم ، حتى لا تحدث أحدهم نفسه بأنه أصبح صاحب السلطان في منطقتة . ولو أن هذا الظن صح لما عيب به عمر ولا طعن في سياسته ؛ فالحذر بهض ما يجب على من أمر أمة من الأمم ، وبخاصة في مثل الأحوال الدقيقة التي كانت تحيط بالمسلمين في ذلك العهد . على أني لا أرى لهذا الظن ما يسوغه ؛ فهو لا يتفق وما عُرف عن عمر من صراحة وبأس ، ولا يتفق وما عُرف عن المسلمين في هذا العصر الأول من تضامن زاده إيمانهم الصادق بالله وبرسوله قوة وتثبيتاً . هذا إلى أن المخاطر التي كانت محيطة بهم كانت قبيحة أن تصرفهم عن مثل هذا التفكير . وكيف يظن أحدهم في نفسه القدرة على مواجهة الفرس في العراق أو الروم في الشام إلا أن تكون وراءه قوة الإسلام والمسلمين مجتمعة ! وكيف تحدث أحدهم نفسه بالاستئثار بالسلطان في فارس أو في مصر وهو بحاجة في كل حين إلى مدد يأتيه من شبه الجزيرة ، فإذا أبطأ عليه المدد عجز عن مواجهة الموقف الذي هو فيه ! . وقد ظل الأمر كذلك طيلة عهد عمر ؛ لأن الحرب طيلة عهده كانت سجّالاً متغيّرة المصائر . وقد رأينا جاهل الفرس قبيل مقتله يستعدى الترك والصين لمناجزة المسلمين ، ورأينا الروم لا ينقطع تفكيرهم في الرجعة إلى مصر واستردادها . لا مسوّغ مع هذا كله للظن بأن عمر استبقي بني هاشم ورءوس قريش بالمدينة حذراً منه ، كما أنه لا مسوّغ للظن بأنه بقي في نفسه شيء من بني هاشم لما قيل من تخلفهم عن بيعة أبي بكر .

والواقع أن عمر لم يُنكر على بني هاشم أن يكون لهم ما لغيرهم من حق في الخلافة ، وإنما أنكر عليهم أن يستأثروا بها على أنها ميراث لهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك قوله لابن عباس فيما تُثبته بعض الروايات : « إن الناس كرهوا أن يجمعوا الحكم النبوة والخلافة ، وإن قريشاً اختارت لنفسها فأصابت » . ولهذا جعل علي بن أبي طالب في الستة الذين أوصى باستخلاف أحدهم من بعده .

استبق عمر بالمدينة بنى هاشم وكبار الصحابة ورءوس قريش ليشيروا عليه بما أوتوا من عقل راجح وحكمة وحُسنكة ؛ لأن الشورى كانت أساس الحكم . وإذا كان أمير المؤمنين صاحب الرأي الأخير والقول الفصل في كل أمر ، فقد كان عليه لقاء ذلك كلِّ التبعة عن سياسة الدولة . بذلك اجتمعت في يده السلطات كلها ، فكان المشرِّع في حدود كتاب الله وسنة رسوله ، وكان المنفذ ، والقاضي ، والقائد الأعلى للجيش . وقد نهض عمر بتبوعات ذلك كله ، فخلد التاريخ اسمه وأضفى عليه هالة مضيئة بنور العظمة والجلال .

ونهوضه بهذه التبوعات الجسام يُثير في النفس غاية الإعجاب ، ويدعو كثيرين للتساؤل عن السر في قدرته هذه القدرة العجيبة . وهذا السر مع ذلك لا يخفى على من صدق القصد لمعرفته ؛ فهو يرجع إلى إنكار عمر نفسه ، وإلى تجرُّده للقيام بواجبه شعوراً منه بجسامة هذا الواجب . فهو لم ينظر من الخلافة إلى سلطانها وظاهرها ، وإنما كان كلُّ نظره إلى القيام بأعبائها وتبعاتها . لذلك لم يُبهره سلطانها المطلق ، ولم يزد مظهرها البراق . وقد بلغ شعوره بهذا الواجب مبلغاً لا يقص التاريخ في عصر من العصور نظيره . ولا أحسب تعبيراً بصور هذا الشعور خيراً من قوله هو : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني ما يمسنهم ؟ ! » . وقد جعله هذا الشعور يضع نفسه موضع الضعيف والفقير ليشعر شعورها ، فيأخذ للضعيف حقه من القوي ، ويدفع عن الفقير غائلة الفقر . وأنت تذكر من أمثلة ذلك ما كان منه عام الرَّمادة حين قسا على نفسه ، فلم يطمم طوآل ذلك العام سمناً ولا لحمًا ، حتى شحَبَ واسودَّ لونه وخاف الناسُ على حياته . وقد بلغت منه خشية الزهو مبلغاً يكفي بعض ما ورد من الروايات عنه ليكون عجباً . روى عن أنس أنه قال : « كنت مع عمر ، فدخل حائطاً ، فسمعتُه يقول ، وبينى وبينه جدار الحائط : « عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! يخج ! يخج ! والله لتتقين الله بُني الخطاب أو ليعذبنك ! » . وقيل إنه

حمل يوماً قرابة على عاتقه، فقيل له في ذلك، فقال: « إن نفسى أعجبتنى فأردت أن أذلمها ». ولم يقره اتساع رقعة المملكة في عهده بأن يجلس في إيوان غير المسجد لينظر في شؤون الدولة، شأنه في ذلك شأن رسول الله وأبي بكر . وكان المسجد في السنوات الأولى من عهده باقياً كما كان يوم أقامه رسول الله، جدرانها اللبن وسقفه من سعف النخل . وكان في مقدور عمر أن يهدمه وأن يعيد ببناء فخماً كفخامته في العصور التي تلت عهده، حتى يتفق مظهر مجلسه مع عظمة سلطانه . وما كان أحد ليوأخذه لو أنه فعل؛ فقد نزل سعد بن أبي وقاص إيوان كسرى بالدائن واتخذ مقرر سلطانة، فلما تحول إلى الكوفة بنى لنفسه داراً سماها الناس: « قصر سعد ». لكن عمر لم يمس المسجد بتغيير في السنوات الأربع الأولى من خلافته. فلما ازداد أهل المدينة وضاق المسجد بهم، أمر بالزيادة فيه مستنداً إلى ما كان رسول يقوله: « ينبغي أن يزيد في المسجد ». وكان عمر يقول: « لولا أننى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ينبغي أن يزيد في مسجدنا، ما زدت » .

وحرص عمر حين أمر بالزيادة في المسجد على أن يجعله خالصاً للصلاة ولشؤون الحكم . فقد كان أهل المدينة يتخذون منه دار نذورهم، ويتحدثون به في شؤون تجارتهم، ويجعلون منه مكان سمرهم وتفاخرهم، حتى كان يعلو فيه اللفظ أحياناً وأمير المؤمنين جالس ينظر في الجسيم من مهام الدولة . لذلك أخذ إلى جانب المسجد بعد توسيعه مكاناً سمى البطحاء، وقال: « من أراد أن يلعظ أو يرفع صوتاً أو ينشد شعراً فليخرج إليه ». على أن ما أحدثه عمر من الزيادة في عمارة المسجد لم يتجاوز توسعة رقعته وزيادة عدد أبوابه . أما سائره فبقي كما بناه رسول الله؛ إذ جعل أساس الجدر من الحجارة وما فوقه من اللبن، والعمد من الخشب، والسقف من الجريد . ومن هذا المسجد البسيط بناؤه كانت تصدر أوامر عمر إلى إمارات الجند؛ فإذا كسرى يُقتض عليه إيوانه، وإذا قيصر يقر هارباً من الشام إلى القسطنطينية، وإذا الإسكندرية العظيمة عاصمة الحضارة المامية لذلك العهد تسلمت فاتها للمسلمين!

لم تغيّر سعة الفتح شيئاً كذلك مما أخذ عمر به نفسه من بساطة العيش ، وما دعاه إليه إيمانه من ازدياء الدنيا . فقد جعل المسلمون له في أول خلافته مثلاً جعلوا لأبي بكر من حق في بيت المال يُقيمه ويقيم عياله . فلما تدفق النفيء على المدينة لم ينلّ عمر منه أكثر مما كان يناله رجلٌ من المسلمين ؛ ذلك أنه لم يكن يرى أن له بسبب الخلافة حقاً يزيد عن حق غيره . وقد سئل يوماً عما يحلّ له من مال الله ، فقال : « أنا أخبركم بما أستحلّ منه ؛ يحلّ لي حُلَّتَانِ : حُلَّةٌ في الشتاء وحُلَّةٌ في الصيف ، وما أحجّ عليه وأعتَمِر من الظَّهْر ، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغنام ولا بأقترم . ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يصيبني ما أصابهم » . وكان يقول : « إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عَفَفْتُ عنه ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » . وكان تعفّفه عما في بيت المال يبلغ به في بعض الأحيان حدّ الحرج . اشتكى يوماً ، فوصف له العسل ، وفي بيت المال عُسْكَةٌ منه ، فلما كان على المنبر قال : « إن أذتم لي فيها وإلا فإنها على حرام » . فأذّنوا له . ورأى المسلمون مارأوا من شدته على نفسه ، فذهبوا إلى ابنته حَفْصَةَ أم المؤمنين ، فقالوا لها : « أبي عمر إلّا شدة على نفسه وحصرأ ، وقد بسط الله في الرزق فليبسط في هذا النفيء فيما شاء منه ، وهو في حلٍّ من جماعة المسلمين » . وكانما قاربتهم حفصة في هواهم ، فلما دخل عليها عمر أخبرته بالذي قالوا ، فكان جوابه : « يا حفصة بنت عمر ، نصحت قومك وغششت أباك . إنما حق أهلي في نفسي ومالي ، فأما في ديني وأمانتي فلا » .

وقد روى الفخري عن عمر قصة تشهد بشدة حرصه على مساواة نفسه بسائر المسلمين أصدق الشهادة ، قال : « جاءت عمر بن الخطاب بُرُودٌ من اليمن فقرّتها بين المسلمين ، فخرج في نصيب كل رجل بُرْدٌ واحد ونصيب عمر كنصيب واحد منهم . قيل : واعتلّى عمر المنبر وعليه البرد وقد فصله قيصاً ، فندب الناس للجهاد ، فقال له رجل : لا سمعاً ولا طاعة . فقال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ؛ لقد خرج في نصيبك من الأبراد اليمنية بردٌ واحد ، وهو لا يكفيك ثوباً ، فكيف فصلته قيصاً وأنت رجل طويل ؟ فالتفت عمر إلى ابنه قائلاً : أحجبه يا عبد الله . فقال عبد الله :

لقد ناولته من بُردى فاتمّ قيمه منه . قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة . . .  
لم يبتغ عمر من الخلافة شيئاً إذاً لنفسه ، بل كان يعدُّ نفسه الحارس الأمين على مال  
المسلمين ، كما كان الحارس الأمين على وحدتهم وحرّيتهم . وقد قرّبه ذلك إلى الناس  
وحبّبه إليهم . وزادهم محبة له أنه كان يرى الخلافة أبوةً تُلتقى على الخليفة واجبات للمسلمين  
هي واجبات الأب نحو أبنائه . والحنانُ والبرُّ أقدس عواطف الأبوة وأسماها . وكان عمر  
أشدّ الناس حناناً على المحتاجين إلى الحنان وأشدّهم برّاً بهم ؛ فقد كان يرى الحنان والبر  
بعض واجبات الحكم كإقامة العدل والمحافظة على الأمن سواء .

خرج ليلةً إلى ظاهر المدينة ومعه مولاه أسلم ، فلاح لها بيت شعّر فقصداه ، فإذا فيه  
امرأة تبكي وقد جاءها المخاض ، فسألها عمر عن حالها فقالت : أنا امرأة عربية وليس  
عندي شيء . فعاد عمر يهرول إلى بيته وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب :  
هل لك في أجرٍ ساقه الله إليك ؟ وأخبرها الخبر ، قالت : نعم ! وحمل عمر على ظهره دقيقتاً  
وشحماً ، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة . ودخلت أم كلثوم على المرأة وجلس عمر  
يتحدث إلى زوجها وهو لا يعرفه . ووضعت المرأة غلاماً ، فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين  
بشّر صاحبك بغلام . فلما سمع الرجل قولها استعظم صنيع عمر وأخذ يعتذر إليه ، فقال  
له عمر : لا بأس عليك ! ثم أعطاهم ما يصلحهم وانصرف .

وسمع عمر ليلةً بكاء صبيّ فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتقى الله تعالى ، وأحسني  
إلى صبيّك ! فلما كان بعد قليل سمع عمر بكاء الطفل كرّةً أخرى ، فعاد إلى أمه يقول  
لها مثل قوله الأول . فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبيّ ، فأتى إلى أمه فقال لها :  
وَيْحَكَ أُمِّ سَوْء ! ما لي أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة من البكاء ؟ ! قالت الأم : يا عبد الله  
إني أسكنته عن الطعام فيأني ذلك . قال عمر : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم .  
قال : ومم عمر ابنك هذا ؟ قالت : كذا وكذا شهراً . فقال : وَيْحَكَ ! لا تُعْطِيه عن الطعام !  
فلما صلى الصبح انفتل إلى الناس وقال لهم والدمع يملأ عينيه : بؤساً لعمر ! كم قتل من أولاد  
المسلمين ! ثم أمر مناديه فنادى : لا تُعْطُوا صبيانكم عن الطعام ، فإننا نفرض لكل مولود  
في الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وليس يجهل أحد قصة عمر إذ مرّ في أعجاز الليل بامرأة يتصانحى صبيانها حول قدر منصوبة على النار ، فسألها ، فسألها : لم يتألون ؟ فقالت : من الجوع . قال : وأى شيء على النار ؟ قالت : ماء أعلّهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر ؟ فمرول عمر راجعاً إلى دار الدقيق فأخذ منها جراب شعير وعِدلاً من الدقيق وعاد بهما يحملهما على ظهره ووضع من الدقيق في القدر وألقى عليه الشعير ، وجعل ينفخ النار تحت القدر ، حتى إذا طاب الطعام ناوله الأطفال فأكلوا وشبعوا وناموا ، وانصرف من عند المرأة وهي لا تعرفه وهو يقول : الجوع الذي أسهرهم وأبكامهم ! .

حبّ هذا الختان وهذا البر حكم عمر إلى الناس ، وجعلهم يرون الخليفة أباً لكل ضعيف وكل يتيم وكل محروم . ثم حبب الفاروق إليهم عدل كان سليقة فيه ، وحبب للنخريّة وللساواة أيسره أنه كان يساوي نفسه بالضعفاء والفقراء . كان من أول ما خطب به الناس قوله : « والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ له الحق » ، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه . وخطبهم يوماً فقال : « إنى لم أستعمل عليكم عملاً ليضربوا أباركهم وليشتتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم ، ولكى استعملتهم ليملموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم . فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على ليرفعها إلى حتى أقصه منه » . وكتب إلى أمراء الأجناد : « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتكفروهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تنزلوهم القياض فتضيعوهم » .

وهو إنما كتب بذلك إلى أمراء الأجناد فيما لم يكن يستطيع أن يلبّيه بنفسه ؛ فأما ما قدر على مباشرته فلم يكن يسكّه إلى أحد غيره . وأنت تذكر كلمته أول خلافته : « والله لا يحضرني شيء من أمركم فيلبيّه أحد من دوني » . وقد بلغ من صدقه في ذلك أنه كان بلى الكبير والصغير من الشؤون . فكما كان ينظم شؤون الجند ويولّي العمال ويدبر سياسة الدولة ويقضى بين الناس بالعدل ، كان لا يذر صغيرة يستطيعها إلا قام بها . رآه علي بن أبي طالب يعدو إلى ظاهر المدينة ، فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ قال : قد نذ بعير من إبل الصدقة فأنا أطلبه . قال علي : قد أتعبت الخلفاء من بعدك ! وجاء عمر إلى عبد الرحمن بن عوف ، وهو يصلى ليلاً ، فقال له عبد الرحمن : ما جاء بك في هذه



الساعة؟ قال: رُفِقَةٌ نزلت في ناحية من السوق خشيت عليهم سُراق المدينة . فانطأق فلنحرسهم ، فأتيا السوق فقعدا على نَشْرٍ من الأرض يتحدثان . وبَصُرَا بِصَبَاحٍ فقال عمر : ألم أنه عن المصاييح بعد النوم ! وانطلقا فإذا قوم على شَرَابٍ لهم عَرَفَ عمر أحدهم . فلما أصبح دعاه إليه وقال له : كنت وأصحابك البارحة على شراب . قال : وما أعلمك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : شيء شهدته . وأجابته الرجل : أو لم ينهك الله عن التجسس ؟ فتجاوز عمر عنه .

وبلغ من حرصه في آخر عهده على أن ينظر في أمور الناس بنفسه أن ودَّ أن ينتقل في أرجاء الإمبراطورية يتفقد شؤونها ويرى تصرف عماله فيها . روى عنه بعد فتح مصر أنه قال : « لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا كاملا . فإني أعلم أن للناس حوائج تُقَطَّعُ دوني ؛ أما عمالم فلا يرفعونها إلي ، فأما هم فلا يصيرون إلي . فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين . والله لئن عم الحولُ هذا ! » لكن الأجل لم يطل به لِيَتِمَّ ما أرادته .

كان عدل عمر ولا يزال مضرَب المثل . ذلك أنه كان أشدَّ عباد الله خشيةً لله ووجلا من حسابه . وكان يدرك ما يقتضيه الحكم بين الناس من أناة ودقة ومحاسبة نفس فإذا أتاه الخصمان برك على رُكْبتيه وقال : « اللهم أعني عليهما ؛ فإن كل واحد منهما يريدني عن ديني » ولم يكن به على أهله في إقامة العدل رأفة ، بل كان إذا أراد أن ينهي الناس عن شيء تقدَّم إلى أهله فقال : « لا أعلمن أحدا وقع في شيء مما مهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة » . كان عبد الرحمن ابنه بمصر ، فشرِب هو وأبو سرَّوَعَةَ فسكرا ، فذهبا إلى عمرو بن العاص ليقيم الحدَّ عليهما قال عمرو فزجرتهما وطردتهما . فقال عبد الرحمن : إن لم تفعل ما أخبرت أبي إذا قدمت عليه . ففعلت أني لم أقم عليهما الحدَّ . غضب على عمر وعزَّلي . فأخرجهما إلى صحن الدار وضربتهما الحدَّ ، ودخل عبد الرحمن ابن عمر إلى ناحية الدار فجلق رأسه . والله ما كتبت لعمر بحرف بما كان حتى جاءني ،

كتابه فإذا فيه : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي . عجبت لك يا بن العاص وجرأتك علىّ وخلافك عهدي ، فما أراى إلا عازلك . تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك ، وقد عرفت أن هذا يُخالفنى ، إنما عبد الرحمن رجلٌ من رعيّتك تصنع به ما تصنمه بغيره من المسلمين ! ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ! وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب عليه . فإذا جاءك كتابى هذا فأبعث به فى عباءة على قَتَب حتى يعرف سوء ما صنع . » فبعثت به كما قال أبوه ، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه أنى ضربته فى صحن دارى ، وبالله الذى لا يُخالف بأعظم منه إنى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الدثمى والمسلم . وبعثت الكتاب مع عبد الله بن عمر فقدم بعبد الرحمن على أبيه . فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من سوء مَرَكبه ، فقال : يا عبد الرحمن فعلتَ وفعلتَ ! فكلّمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد ، فلم يلتفت إليه وجعل عبد الرحمن بن عمر يصيح : إننى مريضٌ وأنت قاتلى ! » وتجرى الرواية بأنه مع ذلك أقام عليه الحد ثانية ، فضره وحبسه ففرض ثم مات .

وكان لا يفرّق فى عدله بين أمير وسوقة ، ولا بين والٍ ورعيّة ، سقنا من قبل قصة الأمير الفسّانى جبلة بن الأيهم ، وكيف أراد عمر أن يقتص منه للأعرابى الذى ضربه . وضرب محمد بن عمرو بن العاص مصرياً بالسوط وهو يقول له . خذها وأنا ابن الأكرمين وحبس ابن العاص المصرى مخافة أن يشكو ابنه إلى الخليفة . فلما أفلت الرجل من حبسه ذهب إلى المدينة وشكا لعمر ما أصابه ، فاستبقاه عنده واستقدم عمر ابنه من مصر ، ودعاها إلى مجلس القصاص ؛ فلما مثلاً فيه نادى عمر : أين المصرى ؟ دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين ! وضرب المصرى محمداً حتى أنحنفه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! . فلما فرغ الرجل وأراد أن يردّ الدرّة إلى أمير المؤمنين قال له « أجلبها على صلّة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانة ! » قال عمرو : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت . وقال المصرى : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى : فقال عمر : « إنك والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تسكون أنت

الذي تدعه . والتفت إلى عمرو مغضباً وقال : « أيا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! » .

ليس من غرضي أن أفصل ها هنا قضاء عمر ، فليس هذا الفصل موضع تفصيله ؛ وإنما أردتُ بما قدّمتُ أن اشير إلى شدّته في العدل ودقّته في إقامته ، ومساواته بين الناس فيه مساواة عبّر هو عنها بقوله : « لا أبالي إذا اختصم إلى رجلان لأيهما كان الحق . وترجع شدته على ذويه وعلى عمّاله وذويهم إلى اقتناعه بأنه لا سبيل إلى كفالة الحرية والعزة والكرامة للأمة إلا أن يسوّى العدل بين الحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والأمير والسوقة . والولاة أجسم من المحكومين تبعاً ؛ لأن الحكم يُغيرهم بالبطش إذا لم يجدوا من يرَدّ عنهم عنه . وذلك قوله : « إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهُدّاتهم » . وقوله : الرعية مُؤدّبة إلى الأمام ما أدى الإمام إلى الله ، فإذا ارتع الإمام رتعوا » . وهو لذلك كان يرى مكان عمّاله منه مكان الرعية من عمّاله ؛ هو مسئول عنهم كما أن العامل مسئول عن تولى عليهم ، فإذا ظلم العمّال الرعية وجب أن يقتص منهم كما يقتص من أى فرد في المدينة ظلم غيره . وقد عبّر عن شعوره بهذه التبعة بقوله : « أىّ عاملٍ ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته » .

كلت لعمر صفات الزهد والرأفة والعدل والبر بالفقير والمحروم ، فحبّبت إلى الناس حكمه ، وهوّنت عليهم ما كان فيه من شدّة وغلظة ، وما كان له من هيبة تصدّع عنه كثيرين ، فلولاها لرفعوا إليه حوائجهم فقضاها لهم . وشدّته هي التي جعلته يحمل الدّرة يؤدّب بها من يخرجون عن المألوف من أدب الجماعة ، لا يفرّق فيمن يُصيبه بها من هؤلاء بين كبير وصغير . وزاد حمله الدّرة في هيبة الناس له وخوفهم منه مع إيمانهم ببرّه وعدله ورحمته . اجتمع على عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وكان عبد الرحمن أجراًم على عمر ، فقال له إخوانه : يا عبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين للناس ، فإنه يأتي الرجلُ طالبا الحاجة فتمنعه هيئته أن يكلمه حتى يرجع ولم يقض حاجته . ودخل عبد الرحمن على عمر فقال له : « يا أمير المؤمنين ! لئن للناس ؛ فإنه يقدّم القادم فتمنعه هيئتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك » . قال عمر : « يا عبد الرحمن

أَشْهُدُكَ اللَّهُ ، أَعْلَىٰ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ أَمْرُوكَ بِهَذَا ؟» . قال ابن عوف: اللهم نعم ! فأردف عمر : يا عبد الرحمن ، لقد لفتُ للناس حتى خشيت الله في اللين ، ثم اشتدَّت عليهم حتى خشيت الله في الشدة . فأين المخرج ١؟ . فخرج عبد الرحمن يبكي ويقول : أف لهم من بعدك ! أف لهم من بعدك !

هذه أمثلة تصوّر لك كيف نهض عمر بتدبّعات الحكم ، وتكشف لك عن السر في قدرته المتنازة على الاضطلاع بأعبائه الجسام على نحو لا يزال مثاراً لعجب الناس وإعجابهم ، كما تبين لك كيف كان نظام الحكم في عهد عمر من الأسباب التي هيأت لامتداد الفتح ودفعت المسلمين إليه ورغبتهم فيه . لقد كانوا يرون أمير المؤمنين خير كفيل بحقوقهم وعن يخلّفون وراءهم من عيالهم ، وكانوا يرونه يؤثّر على نفسه وأهله ، ويؤدى لكل ذي حق حقه . فلا جرم إنهم ليندفعون إلى ميادين القتال وكلهم الطمأنينة إلى غدوم وإلى مصير أبنائهم وذويهم . وما ضرَّ أحدهم أن يُقتل في سبيل الله وفي سبيل الإمبراطورية الإسلامية ، وهو على يقين من أن بنيه سيُجزّونَ إذا استشهد بخير مما يجزون إذا ظل حياً ، وأنه ستفتح له أبواب الجنة بما وهب الله نفسه مجاهداً في سبيله ! .

يُنبت المؤرخون الغربيون لعمر هذه الصفات ويشيدون بها ، ثم يذهب بعضهم إلى أنها إن صورت نظاماً للحكم فهو النظام العربي المعروف في ذلك العهد ، والذي يشبه كل الشبه نظام القبائل ؛ إذ يتولى أمرها أكثر رجالها قدرةً على التسلط عليها بقوته في الذود عن حماها ، أو بحزمه في إدارة شؤونها ، أو بدهائه وحسن رأيه في توطيد صلاتها بغيرها من القبائل . فقد كان هذا الشيخ يجمع في يديه السلطات كلها على نحو ما كان يجمعها عمر في يديه ، وكان يتخذ من العرف المألوف شرعته ، يقضى على أساسه بالقصاص أو بالدية بين رجال قبيلته ، ويقضى بأيّهما إذا رفع له الأمر بحجتيّ عليه أو وليّ دم من قبيلة أخرى يطلب الحق ممن اعتدى عليه أو على من كان هو وليّ دمه ، من قبيلة هذا الشيخ . وهؤلاء المؤرخون يذكرون أن القرآن نظم هذا العرف المألوف عند العرب وهذبه ، ولكنهم لم يخرجوا بالعرب على نظامهم الذي جروا عليه من قبل . فحكومة عمر وحكومة أبي بكر من قبله إنما قامت على أساس من هذا النظام العربي . لم تعتمد على قواعد ، فكانتا أدنى إلى

نظام البداوة منها إلى نظام الحضرة الذي عرفه الفرس والروم في ذلك الزمان .  
ولاريب أن حكومة أبي بكر كانت عربية صرفة ، لم تتأثر في قليل ولا كثير بنظم  
الروم ولا بنظم الفرس ، وكانت لذلك بسيطة بساطة النظام البدوي المعروف يومئذ في  
كثير من أرجاء شبه الجزيرة . لكهما مع هذه البساطة كانت الحلقة القوية التي ربطت  
بين عهد الرسالة وعهد الإمبراطورية ، وكانت الطور الطبيعي لنظام بدأ يتغير في عهد  
الرسول . فقد كانت يثرب يوم نزلها رسول الله تتألف كغيرها من بلاد العرب من قبائل  
لا تعترف أيتها بسلطان لغيرها عليها . وكانت الحرب لذلك تقوم بين الأوس والخزرج  
تارة ، وبين العرب واليهود من أهل يثرب تارة أخرى ، ثم لا تجتمع كلمة هؤلاء وأولئك  
إلا إذا دهمهم خطر من الخارج . فلما استقر رسول الله بالمدينة وآخى فيها بين المهاجرين  
والأنصار ، ثم أجلى اليهود عنها ، زال ما كان بين قبائلها وبطنونها من فوارق ، فاجتمعت  
كلتها وأصبحت وحدة مدنية شريعتها القرآن وولئ أمرها رسول الله . وقد كان هذا  
تطوراً في نظام الحكم لم يألفه أهل الحجاز . لسكنه لم يلبث بعد فتح مكة أن انتقل من  
المدينة إلى أم القرى ثم انتقل منها إلى الطائف بعد غزاة حنين .

ولما أرسلت المدن والقبائل وفودها إلى المدينة قبل عام من وفاة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم تعلن إسلامها بين يديه ، فبعث إليها رجالاً من أصحابه يفتهمون الناس في دينهم  
ويقبضون منهم الصدقات ، كان هؤلاء الرجال طليعة الانتقال الذي تطورت إليه العرب  
زويداً رويداً : فلما كانت الردة أبلى هؤلاء الرجال كما أبلى غيرهم في القضاء عليهم أحسن  
البلاء ، فجعلوا المدينة بذلك من حق الفتح ما لم يستطع أحد من العرب إنكاره . وزاد  
ذلك في سلطان العمال والولاة الذين عينهم أبو بكر ، فلم يبق هذا السلطان مقصوراً على  
تفقيه الناس في دينهم وتسلم الصدقات منهم ، بل صار لهم في البلاد التي تولوا أمرها  
ما لشيخ القبيلة أو أمير المدينة من حق ؛ فاجتمع في أيديهم سلطان التنفيذ والقضاء  
وإمارات الجند ، مع مسئوليتهم الكاملة أمام الخليفة عن تصرفاتهم في ذلك كله <sup>(١)</sup> .

(١) كان عمال أبي بكر : عتاب بن أسيد على مكة ، وعثمان بن أبي العاص على الطائف ، والمهاجرين  
أبي أمية على صنعاء ، وزيد بن لبيد على حضرموت ؛ ويحيى بن أمية على خولان ؛ وأبا موسى على زييد .

آل الأمر إلى عمر بعد أن صدقت عودة العرب كلهم إلى إسلامهم ؛ فلم يبق مسوِّغ للحدز منهم والخوف من انتقاضهم . وكيف يخشاهم عمال الخليفة وقد ساروا بظلمهم من كل القبائل إلى ميادين الجهاد في سبيل الله يقاتلون ويقتلون ! . لذا رأى عمر أن يزيد وحدتهم متانة ، فأمر عماله عليهم أن يكونوا على مثاله حزمًا وعدلاً وبرًا ورحمة ، وأن يسوا بين العرب في المعاملة على اختلاف منازلهم من شبه الجزيرة .

ولهذا الغرض أصدر وصاياه لعماله بما قدمنا . فهو لم يكن يبعثهم إلى العرب ليذِّقوهم ، بل ليعلموا بينهم حدودَ الله بالعدل والتوسط . وذلك قوله لهم : « اجعلوا الناس عندكم سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم . إياكم والرِّشَاء والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ا تقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » . ولقد كان يرى نفسه مسئولاً أمام ضميره وأمام الله عن إقامة هذا العدل في كل مكان ، فإذا ظلم عامله في أقصى الأرض رجلاً فكأنما هو الذي ظلمه . قال يوماً لمن حوله : « أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت الذي عليّ ؟ » قالوا : نعم ! قال : « لا ! حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته به أم لا » . وكان لذلك شديد الحساب لهؤلاء العمال شدة رأينا مظاهرها في عزل خالد بن الوليد ، ومقاسمة عمرو بن العاص . والروايات تثبت من هذه الشدة في المحاسبة قصصاً لا يكاد الإنسان يصدقها . قيل : إن أبا عبيدة كان يوسِّع بالشام على عياله ، فلما بلغ عمر ذلك نقصه من إعطائه حتى شحَّب لونه وتغيرت ثيابه وساء حاله . فلما عرف عمر ما صار إليه أمره قال : « يرحم الله أبا عبيدة ! ما أعفَّ وأصبر ! » ، وردَّ عليه ما كان حبسه عنه . وبلغ من شدة عمر في محاسبة عماله أن كان يعزل أحدهم أحياناً لشبهة لا يقطع بها دليل ، وقد يعزل لريبة لا تبلغ حد الشبهة . ولقد سئل في ذلك يوماً فقال : « هان شيء أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير » .

وقد رأينا غير مرة عزل عمالاً عن عملهم لغير ريبة فيهم ، بل التماساً لمصلحة يراها في عزلهم . من ذلك أنه عزل سعد بن أبي وقاص عن إمارة الكوفة لغير شيء إلا أن طائفة من أهل هذه المدينة باروا به وقالوا لعمر : إنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ، ولا يفز في السرية . وقد بعث عمر محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، فرأى الناس

جميعاً راضين عن سعد . مع ذلك عزله خوف الفتنة ؛ لأن جيوش الفرس كانت تتجمع للغزو والتأر .

وكان عمر يجمع عماله بمكة في موسم الحج من كل عام ، يسألهم عن أعمالهم ، ويسأل الناس عنهم ، ليرى مبلغ دقتهم في الاضطلاع بواجبهم ونزاهتهم حين أدائه عن الإفادة لأنفسهم أو لذويهم ؛ فقد كانت النزاهة مقدّمة عنده على كل شيء . ولذلك كان يحصى أموال الولاة قبل ولايتهم ، فإذا زادت بعدها زيادةً تضع نزاهتهم موضع الشبهة ، فاسمهم مالم ، وقد يستولى على كل زيادة فيه ، ثم يقول لهم : نحن إنما بعثناكم ولادولم نبعثكم تجاراً . على أن هذه الشدة في محاسبة الولاة لم يكن يقصد منها إلا إضعاف سُلْطَنَتِهِمْ أو تهوين هيبتهم ؛ فقد كانت أيديهم مطلقة ، وأحكامهم نافذة ، وسلطانهم مساوياً لسلطان عمر ما عزموا العدل ولزموه . فإذا اعتدى عليهم مع ذلك معتد ، أو استهان بأمرهم مستهين عوقب أشدّ العقاب . حسب أهل العراق إمامهم استهانةً بأمره ، وكانوا قد حصبوا إماماً قبله ؛ فغضب عمر وقال لأهل الشام : « تجهّزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ » . ثم إنه كان يسمع لحجة عاملة ، فإذا أقنعته لم يُخَفِّق اقتناعه بها وثناءه على عامله بعدها . قدم الشام راكباً حماراً ، فتلقاه معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم ؛ ونزل معاوية وسلم على عمر بالخلافة ، فمضى في سبيله ولم يردّ عليه سلامه . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ! فالتفت عمر إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذي أرى ؟ قال معاوية : نعم ! قال عمر : مع شدة احتجاجك ووقوفك ذوى الحاجات ببابك ؟ قال معاوية : نعم قال : ولم اويحك ! وأجابه معاوية : « لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ؛ فإن لم تتخذ العُدَّة والعدد استخف بنا وهم علينا . وأما الحجاب فإننا نخاف من البدلة جراءة الرعية . وأنا بعدُ عاملك ، فإن استنقصتني نقصت وإن استزددتني زدت ، وإن استوقفتني وقفت » . قال عمر بعد أن سكت هنيهة : « ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ! إن كنت صادقاً فإنه رأى لييب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب . لا آمرك ولا أنهاك ! » ،

وكان عمر يشتد اغتباطه حين يرى عماله يتجردون لخير الرعية ، وبنى عليهم لذلك أعظم الثناء وتلى عُمر بن سعد على حمص ثم كتب إليه : « أُقْبِلْ بما جبيت من في المسلمين ». فلما أقبل سأله عما صنع فقال : « بعثتني حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم . حتى إذا جمعوه وضعتهم مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأنتيتك به » . قال عمر : « فما جئتنا بشيء » ؛ فلما أكد له أنه أنفق كل شيء على أهل حمص قال : « جدّدوا لعمر عهداً » .

وعمر هذا هو الذي قال وهو على منبر حمص : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان . وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف أو ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل » . ليس عجيباً وهذه الكلمة الحكيمة سنّته أن يقول عمر فيه : « ودِدْتُ لو أن لي رجلاً مثل عمر بن سعد أستمع به على أعمال المسلمين » .

كان هؤلاء العمال يلون في أول عهد عمر ما يليه هو بالمدينة ؛ فيجمعون بين سلطان القضاء والتنفيذ وإمارة الجند . على أن عمر ألقي نفسه بعد قليل من ولايته قد شغلته شؤون الدولة العامة وسياستها العليا عما كان قد عوّل يوم بويع على أن يضطلع هو به . كانت أنباء جنده بالعراق والشام تستغرق الكثير من وقته وانتباهه . وكانت تصرفات عماله في أرجاء الدولة المختلفة موضع عنايته وتفكيره . ثم إن مصالح الناس بالمدينة كانت تزداد تشابكاً وتعقداً بازدياد عدد ساكنيها ، وكثرة المال الذي يرد عليها . وكان تقدم الفتح ، وما يقتضيه من تنظيم لشؤون البلاد التي تم الاستيلاء عليها ، يدعو أن يكتب إلى أمراء جنده بما يمنّ له من آراء في هذا التنظيم . لذلك لم يكن بدّ من أن يوتى أعواناً له يقضون مصالح الأفراد فيما لا تتأثر به مصلحة الدولة .

وكان أول ما صنعه من ذلك أن فصل قضاء المدينة عن سلطته ، وأقام أبا الدرداء عليه ، وجعل له اسم القاضى ، وناط به الحكم بين الناس فيما يرفعونه إليه من خصوماتهم . فلما تمّ تمصير الكوفة والبصرة وأقام العرب فيهما وكثرت المنازعات بين أفرادها ، جعل قضاء الكوفة لشريح ، وقضاء البصرة لأبي موسى الأشعري . ولما فتحت مصر جعل القضاء بين المسلمين فيها إلى قيس بن أبي العاص السهمي . وكان هؤلاء القضاة يحكون مستقلين



برأيهم في حدود كتاب الله وسنة رسوله ، فكانت توليتهم أول خطوة في تنظيم السلطات . وفصل بعضها عن بعض . على أنها كانت خطوة أدت إليها الحاجة وقضت بها ضرورات التطور في أحوال الدولة . وقيمت كذلك فلم تُصبح مبدأ مقررًا يطبق في أرجاء المملكة كلها إلا بعد زمن طويل من عهد الفاروق .

وكان اختيار عمر لقضائه موفقًا كاختياره عماله ، بل لعله كان أكثر توفيقًا . ذلك لأنه كان عالمًا بالفقه والتشريع ضليعًا فيهما ، لا يكاد يُقدِّله أحدٌ في ذلك ، حتى لقد قال عنه ابن مسعود : « لو وُضِع علم عمر في كفة وعلم أحياء العرب في كفة لرجح علم عمر » ولم يكن ذلك عجبًا وقد كان عمر يتولى قبل إسلامه مهمة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل ، فلما أسلم لزم رسول الله وجعل يتأقَّب عنه كل ما يوحيه الله إليه ، ويقف على سنته وعلى قضائه . هذا إلى ما كان له من فراسة صادقة في الرجال ومقدرة على زنة أقدارهم ببعض ما يراه من تصرفاتهم . وقصة تولية شريحًا قضاء الكوفة خيرُ شهيد على ذلك . فقد ساوم عمر رجلًا على فرس ثم ركبهُ ليجرَّ به فمطَّب ، فأراد أن يردّه إلى صاحبه فأبى فقال له : اجعل بيني وبينك حَكَمًا ، قال الرجل : شريحُ العراقي . فتجا كما إليه ، فقال شريح بعد أن سمع حجة كل منهما : يا أمير المؤمنين ، خذ ما ابتعت ، أو رُدَّ كما أخذت ! قال عمر ! وهل القضاء إلا هكذا ! وأقام شريحًا على قضاء الكوفة ، فبقي عليه ستين سنة . ولا تزال كتب عمر وأقواله تشهد بسعة علمه في القضاء وأصوله وأحكامه . وكتابه إلى أبي موسى الأشعري قطعةً من أدب القضاء خالدة على الزمان . فهو يقول فيه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ! أما بعد ، فإن القضاء فريضة مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فافهم إذا أدلَّيَ إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تَكَلُّمٌ بحق لا نفاذ له . وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلاسك . حتى لا يطمع شريفٌ في حَيْفِكَ ، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك . التَّبَيَّنَةُ على من ادَّعى ، واليَمِينُ على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرمَّ حلالًا . ولا يَمْنَعَنَّكَ قضاء قضيتَه بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهُدَيْتَ فيه إلى ( عمر ج ٢ - ١٥٣ )

رشدك . أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خيرٌ من التماهى في الباطل .  
 الفهم الفهم فيما تلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال .  
 وقس الأمور عند ذلك بنظائرها ؛ واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن  
 ادعى حقاً غائباً أو بيّنة أمدأ ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنة أخذت له بحقه وإلا وجهته  
 القضاء عليه ؛ فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض ، إلا مجلداً  
 في حدّ ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظليماً في ولاء أو نسب ؛ فإن الله سبحانه تولى  
 منكم السرائر ودرأ بالبيّنات والأيمان . وإياكم والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتسكّر  
 عند الخصومات . فإن الحق في مواطن الحق يُعظم الله به الأجر ويُحسن به الذكر . فمن  
 صحّت نيّته وأقبل على نفسه كفاء الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه  
 ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ! والسلام .  
 رأيت إلى المبادئ التي قرّرها عمر في هذا الكتاب ! أليست هي المبادئ ، التي  
 يجرى القضاء عليها اليوم في أكثر الأمم حضارة ؟ بل أليست هي المبادئ النابتة التي  
 لم تتغيّر بتغير الأزمان والتي تناوّلها كتب الفقه والتشريع بالتعليق والشرح في عشرات  
 الصحف ومئاتها ! أوليس ما ذكره عمر ، عن أدب القاضى وما يجب عليه أن يلزمه في  
 معاملة الخصوم ، بالغاً غاية السمو ! ولا عجب أن يصدر ذلك عن عمر وقد كان أبو بكر  
 يعهد إليه في بعض شؤون القضاء ، وقد تولى هو القضاء بنفسه في العهد الأول من خلافته  
 ثم لا عجب وقد كان فقيهاً رصيناً العلم في الفقه ؛ يأخذ في قضائه بخير ما يعرف في المسألة  
 المعروضة عليه ، فإذا استبهم عليه أمر استشار واجتهد رأيه ، فكان اجتهاده موقفاً بل  
 كان حجةً يأخذ بها من بعده مطمئناً إليها واثقاً بها .

وهل غير القاضى النزيه العادل يقول ما قاله في بعض وصاياه لمن يلون القضاء :  
 « إذا تقدّم إليك الخصمان فمليك بالبيّنة العادلة أو باليمين القاطمة وأذن الضعيف حتى  
 يشتد قلبه وينبسط لسانه . وتعهّد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله  
 وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ! » .

كانت إقامة القضاة خطوة أدت إليها الحاجة وقضت بها ضرورات التطور في أحوال الدولة ، ولم تكن تنظيمياً عاماً أريد به تطبيق مبدأ لذاته ؛ فقد بقي الفصل في الخصومات متروكاً أمره للولاة الذين لم تُرهقهم أعباء الولاية ولم تمنعهم من القيام به . وهؤلاء لم يعيّن عمر قضاء إلى جانبهم ، بل ترك السلطات كلها مجموعة في أيديهم . لكن هذه الخطوة الأولى لم تلبث بعد سنوات أن أصبحت نظاماً من نُظَم الدولة ، فانفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وصارت للقضاة مكاتهم الخاصة ، وأحيط مركز القاضى بكل ما يجب له من التجلة والاحترام .

عيّن عمر القضاة حين شغلته شؤون الدولة العامة عن الفصل في خصومات الأفراد ، فكان تعيينهم خطوة جديدة في تنظيم الحكم . وثمّ سبب آخر أدى إلى هذه الخطوة ؛ فقد كثرت الذين ينزلون المدينة ويتخذونها سكناً بعد أن أصبحت عاصمة الدولة ، وبعد أن عظم رشاؤها لكثرة ما كان يُرسل إليها ويقسم بين أهلها من الفء . وأنت تذكر فيء المدائن وجولاء وغيرها من مدائن العراق ، وفيء دمشق وحمص وغيرها من مدن الشام . والرخاء وكثرة السكان يُغريان الناس بالخصومة ويزيدان في أعباء القاضى . فلم يكن بدّ ، وقد استغى الناس وكثروا ، من أن يفرغ لخصوماتهم من يفصل فيها فلا تشغل أمير المؤمنين عما هو أجسم منها خطراً وأجل مكاناً . وكان الأمر كذلك بخاصة أن كانت الأموال التي تُجسبى إلى المدينة مطردة الزيادة باطراد الفتح وسعة رقعته . بل لقد بدأت هذه الأموال تشغل أمير المؤمنين نفسه ، وتقتضيه أن يضع لها نظاماً خاصاً بها ، فيكون وضعه طوراً جديداً من أطوار الحكم ، ومن أطوار الحياة الاجتماعية في بلاد العرب .

شغل عمر بكثرة الأموال التي كان عمّاله يبيعنون بها ، ورأى أن لا بدّ من وضع نظام لإحصائها وتوزيعها . ولم تكن هذه الأموال ما يؤدّيه المسلمون في شبه الجزيرة من الزكاة والصدقات ، فتلك كانت توزع على الذين نزل فيهم قوله تعالى : ( إِمَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا .. ) إلى آخر الآية . وكان الكثير من هذه الصدقات لا يرسل إلى المدينة ، بل يوزع على الفقراء والمساكين من أهل القبائل والأمم

التي تؤدّيها . فأما ما كان يُرسل منها إلى المدينة ، ومعظمه من الإبل والماشية ، ثم يفيض بعد التوزيع عن حاجة من ورد ذكروهم في آية الصدقات ، فكان يوسم بميسم خاص ويوضع على مقربة من المدينة بمكان أطلق عليه اسم الحنّى . فإذا غزا المسلمون أعانوا بهذه الإبل والأموال من لا يجد دابة تحمله أو سلاحاً يقاتل به ، وعلوا فقراء المسلمين بما بقي منها . فأما ما كان المسلمون يفتنونه في غزوات رسول الله من الفء ، فكان هو يوزّعه بعد المعركة ولا يبقى منها شيئاً . وقد سار أبو بكر سيرته وصنع صنيعه ؛ فكان ما يرد من فء العراق يوزع بين أهل المدينة ، ولا يبقى منه شيء . وجرى الأمر على ذلك في العهد الأول من خلافة عمر . لكن اتساع رقعة الفتح زاد في أموال الفء ، كما فتح مورداً آخر أغزرَ مادّةً وأبقى ؛ ذلك مورد الخراج والجزية . فقد صالح المسلمون أهل البلاد التي استولوا عليها ، في العراق وفارس وفي الشام ومصر ، على أن يدفعوا جزية كان متوسطها على كل رأس دينارين ، وذلك فضلاً عن الخراج الذي كان الزّراع يدفعونه عن أرضهم ؛ فينفق جانب منه على مراقبتهم وعلى تنظيم الحكم فيهم ، ويرسل ما بقي منه بعد ذلك إلى المدينة ؛ وقد بلغت غزارة هذا المورد ، قبل أن يتم فتح فارس وقبل أن يبدأ غزو مصر مبلناً حمل الخليفة على التفكير في إقامة نظام مالى للدولة الناشئة .

أورد المؤرخون روايات عدّة في السبب الذي أدّى بعمر إلى هذا التفكير . قيل إن أبا هريرة قدّم من البحرين ، فسأله عمر عن الناس ثم قال . ماذا جئتَ به ؟ قال أبو هريرة : جئتَ بخمسمائة ألف درهم . فدهش عمر وقال : هل تدري ماذا تقول ؟ فأعاد أبو هريرة أنه جاء بخمسمائة ألف درهم . وظن عمر أن الرجل يببالغ فكرر عليه السؤال ، فلما سمع الجواب الأول قال له : إنك ناعس ، فارجع إلى أهلك فتمّ ، فإذا أصبحت فأتني فلما غدا عليه أبو هريرة وأكّده أنه جاء بخمسمائة ألف درهم ، قال عمر للناس : إنه قدّم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعدّه لكم عدّاً ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إنى قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوون ديواناً يُعطون الناس عليه ، قدوّن عمر الديوان .

وقيل إن عمر استشار الناس في تدوين الديوان ، فقال له عليّ ابن أبي طالب :

« تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ، ولا تبق منه شيئاً » . وقال عثمان بن عفان : « أرى مالا كثيراً يسع الناس ؛ وإن لم يُحصَوْا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، خشيت أن ينتشر الأمر » . فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : « يأمر المؤمنين ! قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجنّدوا جنوداً ، فدوّن ديواناً وجنّد جنوداً » . فأخذ بقوله ، فدعا عقيّل بن أبي طالب ومخرّمة بن نوفل وجبّير بن مُطعِم ، وكانوا من نُسَاب قريش ، فقال لهم : « اكتبوا الناس على منازلهم » .

وفي رواية أن عمر استشار المهاجرين والأنصار في تدوين الديوان وفرض العطاء ، فأشاروا عليه به ، ثم استشار مُسلمة الفتح فوافقوا عليه إلا حكيم بن حزام ، وكان من أشرف مكة وذوى الرأى فيها ، فقد قال : « يأمر المؤمنين ، إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم ، فيأني بمدك من يجبس عنهم العطاء فتكون التجارة قد خرجت من أيديهم » . وكأنما كان حكيم قد تفتحت له حُجب الغيب وهو يُلقى بهذا القول ! فقد أغرى العطاء العرب بالكسل وأغناهم عن السعى للرزق . فلما تبدلت الأحوال ووقف اندفاع الفتح واشترك غير العرب فيه ، وذلك بعد أن انتقلت العاصمة من المدينة إلى دمشق ثم إلى بغداد ، انقبض العطاء الذي كان مفروضاً لأهل شبه الجزيرة فلم يطق الجيل الذي نشأ في البطالة أن يعود إلى التجارة والسعى للرزق ، فأحلح الحجاز وظل محملاً إلى وقتنا الحاضر .

كيف غابت هذه النتيجة عن عمر فلم يحسب لها حسابها ولم يتخذ الحيطة لاتقانها ، وبخاصة أنه نُبِّه لها ولُقِّت إلى آثارها ؟ هذا اعتراض يبدو ظاهر الوجهة بعد الذي احدثت إليه شبه الجزيرة من فقر وإحمال ، وكأنما كان عمر يتوسمه ويتوقعه ، فهو كثيراً ما كان ينبّه الناس إلى وجوب الدأب في السعى والاستكثار من الرزق ، كما أنه كان شديد البرم بأولئك الذين يُظهرون الإعراض عن الدنيا تعبداً وزهادة . رأى رجلاً يوماً يُظهر النسك والتماوت ، فحفّقه بالدرة وقال له : « لا تُمِتْ علينا ديننا ، أمانك الله ! » . وكان يقول للناس : « من كان له مال فليصلحه . ومن كانت له أرض فليعمرها ، وإنه يوشك أن يجيء من لا يعطى إلا من أحب » . وكان يؤمن بأن على المرء أن يعمل لدنياه

كأنه يعيش أبداً ، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً .

وإتاما دون عمر الديوان وفرض العطاء ليفرغ العرب للجهاد في سبيل الله كما يُصبح ميدان الدعوة إلى دين الله حراً طليقاً ، لا يتحكم فيه الفرس والروم ولا غير الفرس والروم ولهذا الفرض حرّم في عهده قسمة الأرض في البلاد المفتوحة على الجند ، حتى لا يُشغلوا بالزراعة عن الجهاد ، وحتى لا تجذبهم الأرض إليها فتُنسيهم الرسالة الكبرى التي ألقى القدر على العرب أن ينهضوا بها ، فينشروا نور الله وحكمته في أقطار العالم جميعاً . وقد أعان تدوين الديوان وفرض العطاء أولئك العرب الأولين على أداء الرسالة التي أَلقت الأقدار عليهم أداءها كما رأيت . وأداؤهم لها هو الذي خلد على التاريخ أسماءهم ، ودون في صحفه فعالمه .

وهذا الحرص من عمر على أن ينهض العرب لينشروا لواء الإسلام ، هو الذي صرفه عن توجيه أموال الخراج والجزية لإصلاح الأرض في شبه الجزيرة ، بإقامة سدود كسد مأرب تخيل باديتها المحلة مزارع ممرعة الخصب . فلو أنه فعل لتعد العرب عن الجهاد إلى ما هو أيسر مشقة وأقلّ تعريضاً للخطر ، ولما أدوا رسالة الإسلام على النحو الذي أدوها به . هذا إلى أن العرب لم يكونوا أهل زراعة وصناعة مثلما كانوا أهل حرب وتجارة . ولذلك كان فرض العطاء قيناً أن يدفعهم إلى تنميته في الناحية التي توجههم طبيعتهم إليها . ولعلمهم فعلوا أو كانوا يفعلون لولا أن قامت الثورات في بلاد العرب من بعد عمر ، فصرفت الناس إلى المنازعات على السياسة والملك . وقد أدت هذه المنازعات إلى انتقال العاصمة إلى الشام ثم إلى العراق ، كما أدت ببلاد العرب إلى الفقر والإحمال الذي تعانیه من ذلك العهد .

ونعود الآن إلى تدوين الديوان وفرض العطاء . والديوان كلمة فارسية معرّبة ، معناها مجتبع الصحف . يُكتب فيها رجال الجيش ومن فرض لهم العطاء . وقد تطوّر مدلول هذه الكلمة من بعد . فصارت تطلق على الموضع الذي تحفظ فيه سجلات الدولة ، ثم صارت تطلق على الأمكنة التي يجلس فيها القائمون على هذه السجلات ، كما تطلق على السجلات نفسها وبديهي أنها لم تتعدّ في عهد عمر معناها الأول ، فكان الديوان سجلاً أحصى فيه من

فُرض لهم العطاء من رجال الجيش ومن غيرهم . وذكُر فيه أمام كل اسمٍ عطاء صاحبه .  
عزم عمر على تدوين الديوان ، فدعا عَقِيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجُبَيْر  
ابن مطعم ، وقال لهم : « أكتبوا الناس على منازلهم » ، فكتبوهم مبتدئين بيني هاشم ، ثم  
بنى تيم قبيلة أبي بكر ، فبنى عدى قبيلة عمر . فلما رأى عمر ما صنعوا قال : وَدِدْتُ وَاللَّهِ  
لَوْ أَنَّهُ هَكَذَا ، وَلَكِنْ أَبَدُوا بِقِرَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبٍ حَتَّى تَصْعُقُوا  
عَمْرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ « رُوِيَ أَنَّ بَنِي عَدِيَّ عَرَفُوا مَا صَنَعُوا فَنَجَّأُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ : أَنْتَ خَلِيفَةُ  
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> ؛ فَلَوْ جَعَلْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ جَعَلْتَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَفَنَظَرَ  
إِلَيْهِمْ شِزْرًا وَأَجَابَهُمْ : بَخَّ بَخَّ بَنِي عَدِيٍّ أَرَدْتُمْ الْأَكْلَ عَلَى ظَهْرِي وَأَنْ أَذْهَبَ حَسَنَاتِي  
لَكُمْ أَلَا وَاللَّهِ حَتَّى تَأْتِيَكُمْ الدَّعْوَةُ ، وَإِنْ أَطْبِقَ عَلَيْكُمْ الدَّفْتَرَ (بَعْنَى أَنْ تَكْتُبُوا آخِرَ  
النَّاسِ) . إِنْ لِي صَاحِبِينَ سَلَكَ طَرِيقًا ، فَإِنْ خَالَفْتَهُمَا خُوِّفَ بِي ، وَاللَّهِ مَا أَدْرَكُنَا الْفَضْلَ  
فِي الدُّنْيَا وَلَا نَرْجُو مَا نَرْجُو فِي الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ عَلَى مَا عَمِلْنَا إِلَّا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ ؛ فَهُوَ شَرَفْنَا وَقَوْمَهُ أَشْرَفَ الْعَرَبَ ، ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبٍ » .

هذه نزعة جديدة أريد بها تقسيم الناس طوائف بعضها فوق بعض درجات ، وهي  
نزعة لم ينزعها أبو بكر ، ولم ينزعها عمر نفسه في أول عهده . فالقرآن لم يفضل طبقة من  
المسلمين على طبقة ، ولم يزد جماعة في الرزق لنسبهم على نحو ما فعل عمر في الديوان ، ولم  
يجعل الناس طبقات يمتاز بعضهم على بعض بالنسب ، ويكرّم بعضهم عند الله على بعض  
بغير التقوى . وذلك قول عمر نفسه : « وَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَتِ الْأَعْجَامُ بِالْأَعْمَالِ وَجِئْنَا بِغَيْرِ  
عَمَلٍ فَهَمُّ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ مِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَا يَنْظُرُ رَجُلٌ إِلَى الْقِرَابَةِ وَلِيَعْمَلَ لِمَا عِنْدَ اللَّهِ .  
فَمَنْ قَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » . على أن هذا المنزاع الجديد الذي نزع عمر ، لم يقف  
عند ترتيب الأسماء في السجل والبدء بالأقرب فالأقرب من رسول الله ، بل تعدى ذلك  
إلى فرض العطاء ؛ فأنشأ طوائف ما كان لأبيها أن تبقى . وقد ترك هذا المنزاع في الحياة  
الإسلامية أثرًا لا يزال باقياً إلى اليوم .

فضّل عمر بعض المسلمين على بعض في العطاء ، تخالف في ذلك أبا بكر ؛ إذ كان

(١) في رواية أخرى : خليفة أبي بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله

يسوّى بينهم في القسمة . وقد قيل للصدّيق يوماً : ألا تفضّل السابقين إلى الإسلام ؟ فكان جوابه : « إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيههم ذلك يوم القيامة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ » . وذُكر صنيع الصدّيق لعمر حين أراد تفضيل السابقين فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » . ولذا فضل أهل بدرٍ على غيرهم ، ثم جعل من بعدهم درجات . على أنه فضل الأذنين من قرابة رسول الله ، لم ينظر في ذلك إلى جهاد ولا إلى سابقة في الإسلام ؛ ففرض للعبّاس بن عبد المطلب عم النبي اثني عشر ألف درهم ، ولصفيّة ابنة عبد المطلب أخته ستة آلاف درهم ، وفرض لكل واحدة من نساء النبي عشرة آلاف درهم إلا من جرى عليها الملك ؛ لكنهن قلن : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضّلنا عليهن في القسمة ، فسوّى بيننا ، ففعل . مع هذا فضل عائشة بألفين لحجة رسول الله إياها ، ففرض لها اثني عشر ألفاً ، فلم تأخذ ما فضلها به على غيرها من أمهات المؤمنين<sup>(١)</sup> .

ثم إنه فرض لكل رجل شهد بدرًا خمسة آلاف درهم في كل سنة . وفرض لكل من كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدًا أربعة آلاف درهم في سنة . وفرض لأبناء البدرين ألفين ألفين إلا حسنًا وحُسَيْنًا فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم . وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجل من مُسلمة الفتح ألفين ، ولعلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مُسلمة الفتح . وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم . ثم جعل من بقي من الناس بابًا واحدًا ، ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة وأقام بها خمسة وعشرين دينارًا ، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ، ولم ينقص أحدًا عن ثلاثمائة ، وقال : « لئن كثّر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم ؛ ألق لسفروه ، وألف لسلاحه ، وألف يخلّقها لأهله ، وألف لفرسه وبقله » .

(١) هذه رواية الطبري . وفي رواية لابن سعد أنه فرض لكل واحدة من أزواج النبي اثني عشر ألفاً وجوزيرية بنت الحارث وصفيّة بنت حنيفة . ويرد ابن سعد هذه الرواية بقوله : « هذا الجعجع عليه » .



وكان عمر يفرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده وكان إذا أتى بلقيط فرض له مائة درهم وفرض لوليه كل شهر رزقا يصلحه، وجعل رضاعه ونفقته من بيت المال، ثم يزيد عطاءه بعد ذلك من سنة إلى سنة، كما كان يصنع بغيره من الأطفال.

والقاعدة التي وضعها عمر وجعلها أساساً لتوزيع العطاء تبدو واضحة في قوله: « مامن الناس أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه. ومامن أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك. وما أنا فيه إلا كأحدهم، ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وعناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. والله لئن بقيت لياتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه ». وكذلك فرض عمر للناس جميعاً لم يترك منهم أحداً. وأورد ابن سعد في الطبقات رواية عن سالم أبي عبد الله أنه قال: « فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحداً من الناس إلا فرض له، حتى بقيت بقية لا عشار لهم ولا موال ففرض لهم ما بين المائتين وخمسين إلى ثلاثمائة ».

غير أن عمر خرج عن القاعدة التي وضعها لتنظيم العطاء في أمر رجال ونساء زاد في عطائهم على عطاء أمثالهم ممن في طبقتهم. فرض لعمر بن أبي سلفة أربعة آلاف درهم. وعمر هذا هو ابن أم سلمة أم المؤمنين. وقد اعترض محمد بن عبد الله بن جحش وقال لأمر المؤمنين: لِمَ تفضل عمر علينا؟ فقد هاجر أبائنا وشهدوا ». وأجابه ابن الخطاب بقوله: أفضله لمكانه من النبي صلى الله عليه وسلم. فليأتني الذي يستعصب بأم مثل أم سلمة أعتبه! » وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم. فقال عبد الله بن عمر: « فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف وقد شهدت مالم يشهد أسامة! ». وأجابه عمر: « زدته لأنه كان أحب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وكان أبوه أحب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ». وفرض لأسماء بنت عميس زوج أبي بكر ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم، فزادهن على أمثالهن لمكانتهن الخاصة إذ كن أزواجاً وأمهات لرجال لم على غيرهم منزلة وفضل

وكان عمر حريصاً على أن يبلغ كل ذى حظ في العطاء حظه ، حتى لكان يمشم نفسه في ذلك المتاعب . روى عن حزام بن هشام الكعبي عن أبيه أنه قال : رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قَدِيدًا ، فلا يغيب عنه امرأة بكرٌ ولا نَيْبٌ فيعطيهن في أيديهن ، ثم يروح فينزل عُسْفَانَ فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي . وكتب عمر إلى حذيفة أن أعطِ الناس أعطيتهم وأرزاقهم ، فكتب إليه : « إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير » فكتب إليه عمر : « إنه فيؤم الذي أفاء الله عليهم ، فليس هو لعمر ولا لآل عمر : أقسمه بينهم » .

وإنما كتب عمر هذا الكتاب إلى حذيفة لأن الدواوين ، وهى سجلات العطاء ، لم تكن كلها بالمدينة ، بل كان كل ديوان على حدة عند والى البلد أو القبيلة التى فرض فيها لأهل العطاء . فكان ديوان حمير على حدة عند والى اليمن ، وديوان البصرة عند واليها ، وديوان كل إمارة عند أميرها . بهذا أصبح كل رجل من المسلمين يقبض عطاءه من البلد الذى هو فيه ، وأصبح كل وال مسئولاً عن إيصال العطاء إلى أصحابه فى ولايته ، كما كان عمر يوصل العطاء لأصحابه فى المدينة وفيما حولها من الأرجاء الداخلة فى نطاقها .

متى دون عمر الديوان وفرض العطاء ؟ ذلك أمر اختلف فيه . يقول الطبرى : إنه كان فى السنة الخامسة عشرة للهجرة ، ويقول ابن سعد : إنه كان فى محرم سنة عشرين . وقد يتعذر القطع أى التاريخين أصح ؛ فلما يكن الفتح فى السنة الخامسة عشرة قد بلغ اللدائن ، لكن سواد العراق كان مع ذلك قد صار فى يد المسلمين ؛ ولما تكن بيت المقدس قد فتحت أبوابها لعمر ، لكن المسلمين كانوا قد استولوا على دمشق وطهروا الأردن وتقدموا إلى حمص وقنسرين . أتى عمر رأى فيما يجئ إلى المدينة من سواد العراق ومن بلاد الشام ما أدى به إلى تدوين الديوان ؟ ذلك ما يقوله الطبرى . أم هو لم يدون الديوان حتى تم فتح العراق والشام ، وجب منهما الجزية والخراج ، وكثر بذلك ما يرد إليه من المال ، حتى لقد حار أعمده عدداً أم يكيله كيلا إلى أن أشهر عليه بتدوين الديوان ، فكان ذلك سنة عشرين على ما يقول ابن سعد ؟ أراى أميل إلى هذا الرأى الأخير وإن كنت لا أستطيع القطع به . وإنما يميل إلى أن تدوين الديوان لا يمكن أن يعتمد على

الغني الذي يرد من الغزو. فالغني مورد غير ثابت، وعطاء الديوان مصرف سنوي ثابت. لا بد إذاً أنه اعتمد على الجزية والخراج. ولم تبلغ الجزية ولم يبلغ الخراج المبلغ الذي يسع عطاء العرب جميعاً في التاريخ الذي يذكر الطبري أنه دون فيه.

لم يكن العرب في شبه الجزيرة وفي البلاد المفتوحة أقل حرصاً على قبض أعطياتهم من عمر على إيصالها إليهم. ولم لا يفعلون، وكان هو يحضهم على ذلك ويحرضهم عليه، ويدعوم لحسن استغلال ما يقبضونه. فيقول: «لو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العرب ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم، ثم إذا خرج العطاء ثانياً ابتاع الرأس فجعله منها إني أخاف عليكم أن يليكم بعدى ولاة لا يعدّ العطاء في زمانهم مالا، فإن بقي أحد منهم أو أحد من ولوه كان لهم شيء قد اعتمده فيتكثرون عليه». وكان أكثرهم يعملون بنصيحة عمر.

على أن طائفة من ميزم عمر في العطاء كانوا يتصدقون به. روى أن أم المؤمنين زينب بنت جحش قالت حين دخل عليها العطاء: غفر الله لعمر أغيري من أخواني كان أقوى على قسم هذا مني. قيل: هذا كاه لك. قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب، وقالت: ضبوه واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت لبرزة بنت رافع: أدخل يدك فاقبض منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رحمة وأيتامها؛ حتى بقيت بقية تحت الثوب. فقالت لها برزة: غفر الله لك يا أم المؤمنين! والله لقد كان لنا في هذا حق! قالت: فكم ما تحت الثوب. فلما كشفوا الثوب لم يجدوا تحته إلا خمسة وثمانين درهماً. ثم رفعت زينب يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عاى هذا! واستجاب لها ربها، فقبضها إليه.

كان ذلك شأن أم المؤمنين زينب، وشأن أفراد قليلين غيرها. فأما الأكثرون فكانوا يقبضون عطاءهم ويثمرونه في التجارة. لذلك أسرع ثروة أصحاب العطاء الذين يعدون بالألوف إلى الزيادة أضماً مضعفة، فظهرت بين الطبقات فوارق تأثر بها النظام الاجتماعي تأثراً واضحاً، لفت عمر ودعاه للتفكير في الأمر والتماس الوسيلة لإعادة النظر فيه. وقد انتهى به الرأي إلى تفضيل ما جرى الصديق عليه من تسوية بين المسلمين في قسمة الغني،

وود لو صنع صنيعه في أمر العطاء ؛ لذلك قال : « والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجملنهم رجلاً واحداً ! » ، وقال : « لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلامهم ! » . وهو قد كان مع ذلك يدرك أن التسوية ، بنقص العطاء الذي فرضه لمن ميزهم ، ربما جرّت إلى امتعاض لا تحسن مغبته ، فكان أكبرهمه أن يرفع عطاء ذوى العطاء القليل ليساويهم بمن زاد عطاؤهم . وذلك قوله : « لئن عشت حتى يكتر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف : ألف لكرأعه وسلاحه ، وألف نفقة له ، وألف نفقة لأهله » . لكنه لم يبق إلى الحول ، بل قُتل قبل هذا العام المقبل ، فبقيت الطبقات ، ثم كان لبقائها من الأثر في حياة الأمة الإسلامية من بعد ما لا يدخل تفصيله في نطاق هذا الكتاب .

لم ينشئ عمر ديوان العطاء وحسب ؛ فقد قيل إن أول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الإنشاء ، وإن دواوين الشام كانت تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ، ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها الفرس والروم والقبط دون المسلمين . وقد كان إنشاء هذا الديوان ، كما كان إنشاء ديوان الخراج وتشديد مصنع السكة لضرب النقود وإقامة بيوت المال في مختلف الأمصار ، مما قضى به التطور السريع الذي أدى إليه الفتح وانتشار المسلمين في أقطار الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . أما قبل ذلك فلم يكن للدولة الإسلامية شيء من هذه الدواوين . فقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتبون له الكتب والرسائل . وكانت هذه الكتب تحفظ صورها وتحفظ الردود عليها في داره بالمدينة . ولم يكن له بيت مال لأنه كان يوزع النوى ، ويوزع الصدقات أول ما يقبضها وصنع الصديق صنيعه ؛ فكان يحفظ في داره كتبه ورسائله إلى أحد أمراء جنده ، وإلى المرتدين الذين بعث هؤلاء الأمراء لقتالهم ، وإلى من نذبهم من القواد والجند للسير إلى العراق والشام . وصنع أمراء الجند صنيعه ، فكانوا يحفظون في مضاربهم رسائلهم إلى الخليفة ، وأوامرهم إلى الجند ، وكتبهم إلى العدو ، وعقود الصلح التي تبرم بينهم وبين البلاد التي يظفرون بها ويصالحون أهلها . وكان الصديق يوزع ما يجيئه من النوى لا يبقى منه شيئاً . فلما اتسعت في أيام عمر رقعة المملكة ، وتضاعفت بذلك أعمال الدولة ، وعيّنت لجندها

مسالخ فيما وراء حدودها ، وزاد اللال الذي يرد إليها ، لم يكن بدُّ من مواجهة هذا الطور الجديد بوسائل تكفل دقة ضبط ذلك كله ضبطاً تنسني معه الهيمنة على مصالح الدولة ، وإقامة العدل بين الناس ، وتساس به الأفطار المفتوحة سياسة حكيمة تُرضى أهلها عن الحكم الذي قام فيهم مقام حكم الأكاسرة وحكم القياصرة . وقد رأيت في هذا الفصل وفيما سبقه كيف تم ذلك كله في أناة وحزم وحكمة ورواية ، وكيف كان عمر يعالجه مسيراً أطوار الفتح ، لا يسبقها ولا يستأخر عنها .

والحق أن الجهود الضخم الذي نظم الحكم الإسلامي ، في الفترة التي انقضت بين هجرة رسول الله وقيام الإمبراطورية العمرية ، جدير بكل إجلال وإكبار . فأين من هاته الإمبراطورية العظيمة ونظمها الجديد ما كان من تولى رسول الله أمور المدينة بعد هجرته إليها ومؤاخاته بين المسلمين فيها ١١ . نعم ! من هذه الحكومة المدينة التي تشرف على بلاد فارس والعراق والشام ومصر وشبه الجزيرة العربية كلها ، تلك الحكومة البدوية التي لم تتعدد حدود المدينة قبل السنة السادسة للهجرة ، حين عقد رسول الله عهد الحديبية مع أهل مكة ! وهذا العهد هو الذي نزل فيه قوله تعالى : ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ) .

وقد بدأ المسلمون بعد هذا العهد حياة جديدة تطوّر معها نظام الحكم شيئاً فشيئاً . ففي السنة السابعة بعث رسول الله إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام ، فكان رد كسرى ثم وفاته مؤذنين بإسلام عامله الفارسي على اليمن ، وانضوائه إلى لواء النبي العربي ، وتوليه الأمر في اليمن باسمه . وفي السنة الثامنة فتحت مكة تم فتحت الطائف وأسلم أهلها ، فبعث رسول الله عاملاً من لدنه إلى كل منها . وفي السنة التاسعة أقيمت وفود شبه الجزيرة إلى المدينة تعلن إسلامها وإسلام القبائل التي تنتمي إليها ، فبعث إليها رسول الله في السنة العاشرة عماله يفتقرون الناس في الدين ويحبون منهم الصدقات . وفي السنة الحادية عشرة قبض رسول الله ، وبويع أبو بكر ، فكان قضاؤه على الردة إيذاناً بقيام نظام جديد في شبه الجزيرة . وفي السنة الثانية عشرة بدأ الصديق التمهيد للفتح وللإمبراطورية بفزو العراق

وغزو الشام . وفي السنة الثالثة عشرة قبض الصديق ، وبويع عمر ، فتم في عهده فتح العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، وأصبحت الإمبراطورية الإسلامية بذلك حقيقة واقعة . هذه أحداث ضخمة تمت في أقل من خمس عشرة سنة ، فغيّرت وجه التاريخ ووجه الحضارة الإنسانية وجهة جديدة ؛ وكان الجهد الذي أنمها جديراً بكل إجلال وإكبار . وفي هذه السنوات المعدودة كان نظام الحكم يتطور شيئاً فشيئاً من البداوة العريضة إلى الصورة المدنية التي رسمها . على أن هذه الصورة ظلت في جوهرها عربية إسلامية ، أقامت النظام الجديد على أساس من الشورى ، ثم دفعته خطوات تقدّم بها أحدث المبادئ التي كانت معروفة في ذلك العصر . فقد كان عاهل الفرس وعاهل الروم يزعمان أنهما يستمدّان سلطانهما من الله . أما أمير المؤمنين فكان يستمدّ سلطانه ممن بايعوه . ولم يكن لسلطان العاهلين حدٌّ يحول بينهما وبين التصرفات المطلقة في حرية العباد وفي رقابهم . بما يريان . أما أمير المؤمنين فكان مقيداً بما جاء في كتاب الله ، وبما جرت به سنة رسوله . ثم إن مشورة أولى الرأي كان لها وزن أى وزن . وكان أصحاب هذه المشورة يُبدونها أحراراً في حدود إيمانهم الصادق بالله ورسوله ، وبالرسالة التي أتى على العرب تبليغها للناس في أقطار الأرض كافة . وكانت حربهم ، وحرية غيرهم من المسلمين ، تقوم على أساس من المساواة الصحيحة بينهم جميعاً أمام الله وما أمر به ونهى عنه ؛ فلا فضل لأمر على رجل من سواد الناس ، ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح . وإيمانهم بهذه المساواة وبهذه الحرية هو الذي سما بإخائهم إلى حيث يجب كل واحد منهم لأخيه ما يجب لنفسه .

هذه هي المبادئ السامية التي تطور الحكم الإسلامي في ظلها فأعزت المسلمين . واحترام عمر لهذه المبادئ ، وحرصه البالغ على دقة تطبيقها ، هما موضع مجده ونفخه . وحيثما كانت المبادئ التي يتعامل الناس على أساسها ويتطور نظام الحكم في ظلها سليمة محترمة بين الجميع ، وكان الحكم عادلاً نزيهاً ، كانا من أقوى العوامل لعظمة الأمة وجلال مجدها . ولذا بلغ المسلمون ما بلغوا في عهد عمر ، فقامت الإمبراطورية الإسلامية في عهده ثم قامت من بعده ، متينة الأساس شامخة البناء .

## الفصل الثالث والعشرون

### الحياة الاجتماعية في عهد عمر

ما أعظم التطور الذي تمَّ في بلاد العرب خلال السنوات الخمس عشرة التي تلت فتح مكة ! وعظمته تجعلك غير مبالي إذ لم تُسمَّ تطوراً ! إنما هي طفرة لم يعرف تاريخ العالم لها نظيراً ، ففي هذا الزمن الوجيز انتقل العرب من وثنيّتهم إلى الإسلام ، ومن تفرقتهم قبائل وأممًا متنافرة إلى وحدة متضامنة لها سيادة تامة وغرض مشترك ، ومن انكماشهم في حدود شبه الجزيرة إلى تسلطهم على الإمبراطورية الفسيحة التي جمعت لهم سلطان الفرس وسطان الروم ، ومن شطَفُ البداوة الذي يسود أكثر مواطنهم إلى رخاء لم يألفوه من قبل . لا عجب وذلك شأنهم أن تتأثر حياتهم الاجتماعية بهذه الانتقالات السريعة وأن تتغيّر نظرتهم للحياة ومطالبهم فيها .

وذلك ما حدث بالفعل . فقد كان لكلّ من العوامل التي أدّت إلى هذه الطفرة أثره في حياتهم أفراداً وجماعات . كان للعامل الديني أثره ، وللعامل السياسي أثره ، وللعامل الاقتصادي أثره . وكانت هذه الآثار متناقضة في بعض الأحيان ، لكنها تفاعلت واندجت بعضها في بعض ، فأدّت إلى انتقال في الحياة الاجتماعية يُلَفِّتُ النظر ويدعو للتفكير فيما ترتّب عليه من بعد في حياة الإسلام والمسلمين .

يجمل بنا لفقد مدى هذا التطور أن نرجع البصر إلى ما كان العرب عليه في حياتهم الاجتماعية قبل الإسلام . لقد كان أكثرهم أهل بادية ، وكان الأقلون أهل المدن والأمصار . ذلك لأن شبه الجزيرة لم تكن بها أسهار منتظمة الجريان ، ولم تكن أمطارها تهتن في فصول معينة من السنة هتناً متقارب القدر ، بل كانت الأمطار تنهمر سيولا مخربّة أحياناً ، وتكف فصولاً متعاقبة أحياناً أخرى ، فلم يكن تنظيم الزراعة ميسوراً إلا في بعض الأرجاء . من ثمّ كانت المدن والأمصار إنما تقوم حيث تغزر مياه الينابيع ، ثم يظل ما وراء ذلك بادية يثبت بها المرعى حين ينزل الغيث ويجف حين يمسك . ولهذا كانت

بادية اليمن ، كغيرها من البوادي ، تشمل القسم الأكبر من أهل اليمن ، وإن كانت نسبة حضر اليمن إلى باديته تزيد على نسبة حضر نجد والحجاز وسائر بلاد العرب إلى بواديهما . وأساس الاجتماع في البادية القبيلة . والقبيلة تتألف من أحياء يربط النسب وترابط القرابة بين الذين يتألف الحيّ منهم . وكل أهل في الحيّ يقيم في بيت من الشعر يسهُل حملُه كلما أرادت القبيلة الظعن تنتجع المرعى لإبلها والرزق لبنيها . وكان أكثر تنقل القبائل في الربيع والصيف ، حين يكثر العُشب والكلأ حول يقاييع المياه الصغيرة في البادية . فإذا أقبل الشتاء وجفت للمرعى ، تحمّلوا إلى الحضر فأقاموا على مقربة منه ، يلتمسون عند أهله ، بالتعامل معهم أو الغارة عليهم ما يعيشون به عيش كفافٍ يرضيهم ؛ لأنه يكفل لهم الحرية التي كانت أعزَّ عليهم من طيب الطعام ولُبس الشُفوف .

وكان لكل قبيلة شيخها ولكل حيّ زعيمه ، ولكل بيت ربه . ورب البيت هو الأب ، فله على كل من فيه سلطة مطلقة . وكان أعظم سلطانه على زوجته ؛ فقد كان مكان المرأة من زوجها مكان الخادم من سيده ، لا رأى لها معه ، ولا تستطع أن تردّ له كلمة أو تعصي له أمراً ؛ وإنما عملها أن تقوم بخدمة البيت ، وأن تزيد في نسل ربهما . ولهذا كان النُقم أهم أسباب الطلاق . وكان تعدد الزوجات لا حدّ له حتى يبلغ النسل غاية مدها . ذلك لأن العرب كانوا حريصين أشدّ الحرص على كثرة البنين ليقووا بهم على حماية القبيلة وحماية الأهل . وأنت تذكر قصة عبد المطلب بن هاشم جدّ النبي حين نذر إن وُلد له عشر بنين ثم بلغوا معه حتى يذمّوه لَيَذَجَرَنَّ أحدهم لله عند الكعبة ، وتذكر أَدَى نَذَرَه ، فافتدى عبد الله بمائة من الإبل .

وكان العرب يؤثرون الزواج من غير قبيلتهم ، لاعتقادهم أن النسل من مثل هذا الزواج أقوى وأزكى ، ولأن الزواج من بنات القبيلة كثيراً ما كان يؤدي إلى النزاع والشحناء . واعتقادهم هذا هو الذي كان يحملهم على إمساك سبّيات الحرب ليذلن لهم ، كما كان أول ما يطلبونه دية قتيل فتاتين من بنات الحيّ الذي منه القتال ، لا يزنولون عنهما وإن نزلوا عن غيرهما من الإبل والشاء والأموال . مع هذا كان لابن العم أولوية



على غيره إذا خطب ابنة عمه ، فلا يستطيع أبوها أن يمسكها عنه مادفع المهر المتعارف في القبيلة ، وإن أغلى غيره مهرها أضعافاً مضاعفة .

كانت خِطبةُ الشاب الفتاة إلى أهلها ، والتزوج منها بعد مهرها ، ونقلها معه إلى حيه بوقبيلته ، هي الصورة المألوفة عند العرب . على أنهم كانوا يألفون صوراً غيرها من الزواج ؛ بقي بعضها بعد الإسلام ، وعقَّ الإسلام على سائرها . من ذلك أن يتزوج رجل من امرأة فيذرها في قومها ، فإذا سر بهم في تجارته أو رحلاته نزل عندها . وكان بعض النسوة يؤثرون البقاء في أهلهم إذ كن ذوات مال وحسب ، فكن لا يرصن مفاقة ما لهن ومن يقومون على الأتجار فيه وتنميره . وكان الأبناء يبقون مع أولئك الأمهات حتى يشبون ، ولذلك كانوا ينسبون إليهن وإلى قبيلتهن . وذلك كان شأن سلمى بنت عمرو لأحد بني النجار من الخزرج أهل يثرب ؛ فقد كانت امرأة ذات شرف ومال يتجر لها فيه قومها . وصراهاشم بن عبد مناف يوماً ييثرب عائداً من الشام ، فراها تطل على قومها ، فأعجبته فخطبها إلى نفسها فرضيته زوجاً ، على أن تكون عصمتها بيدها . وولدت له شيبه ، فأقام معها بين أخواله بني النجار حتى مات أبوه ، ثم عاد به عمه المطلب إلى مكة مردفاً إياه على بعيره . فلما رأته قريش ظنوه عبداً اشتراه فقالوا : « عبد المطلب » ، فغلب عليه هذا الاسم ، ولم يدعه أحد من بعد باسمه « شيبه » .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الزواج أصل الزواج المتعة الذي أبيض في صدر الإسلام إلى أن حرّمه عمر . ولا يزال زواج المتعة حلالاً عند الشيعة إلى اليوم .

وكان الزواج المؤقت صورة أخرى وكان للمرأة في هذا الزواج أن تفصم عروته إذا شاءت ، وحسبها لذلك أن تغير موقع الباب من خباثها ليعلم صاحبها أنها لم تبق له زوجاً . ويذكر ابن بطوطه في رحلته أن مثل هذا الزواج كان باقياً في أحياء زبيد حين كان هو في بلاد اليمن .

ومما يذكره مؤرخو اليمن كذلك أن الملك كان مشاعاً بين أفراد الأسرة في عهد من العهود ، وأن المرأة كانت بعض هذا الملك للشاع ، فكانت زوجاً أو خلية لأفراد ( عمر ج ٢ - ١٦٢ )

الأسرة جميعاً . فإذا دخل أحدهم خبائها لوططٍ ركز عصاه عند الباب ، فلا يفتحه عليه أحد ؛ ولكن ميبتها كان مع رب الأسرة دائماً . مع ذلك كان زنا هذه المرأة مع أجنبي . جريمة عقابها الموت . وما يروى في ذلك أن ابنة أحد الأمراء كانت في أسرة متاعاً لأهلها ، وأنها أحببت شاباً من غير أبناء هذه الأسرة ، فكانت كلما جاءها ركزت عصا عند الباب حتى لا يفتحها أحد متلبسة بجريمتها . واجتمع رجال الأسرة كلهم يوماً ، فرأوا العصا المركوزة عند الباب ، فعرفوا ما أتت الفاجرة فجزّوها به .

وقد يبدو هذا النوع من الزواج عجيباً ؛ وأعجب منه نكاح الاستبضاع ، ذلك حين كان الزوج يدع زوجته لغيره ، حتى إذا حملت ردّها ونسب حملها إليه . ولعلمهم لم يكونوا يلجئون لهذا المنكر إلا لثقم الرجل وحرصه على الولد . على أنه قد كان له في التبنّي مندوحة عن مثل هذا الأمر ؛ فقد كان العرب يميزون تبنّي البنين دون البنات ، وكانوا يجعلون للتبنّي مقام الابن في الانتساب إلى من تبنّاه وإلى قبيلته ، ويباعون به أحياناً أن يجعلوا له حق الاشتراك في الميراث على سواء مع أبناء الرجل من صلبه . ومهما يكن من إنكارنا لهذا النكاح ، وإنكار الإسلام له وللتبنّي جميعاً ، فالثورخون يذكرونه على أنه بعض عادات العرب في الجاهلية .

ذكرنا هذه الصور من الزواج لما فيها من دلالة على امتهان المرأة عند العرب . والحق أن مكاتها كانت أدنى إلى مكانة الرقيق . وحسبك شاهداً على ذلك أن وارث رب البيت ، أباً كان أو أخاً أو ابناً ، كان من حقه أن يذهب إلى الأرملة فيأقّي عليها رداءه ويمهرها فتصبح له زوجاً ، كما كان له أن يزوّجها من غيره إذا شاء ويقبض مهرها . ولم يكن للمرأة مفرّ من هذا المصير إلا إذا رجعت إلى أهلها قبله ؛ عند ذلك يرجع الأمر في زواجها إليها أو إلى وليها .

ولم يكن للمرأة رأى في فسم عروة الزواج إلا في زواج المتعة وهو الزواج المؤقت ، أما غيره فكانت عروة الزواج تنفصم بالخلع أو بالطلاق . وكان الخلع يتم باتفاق بين الزوج ووليّ الزوجة . ولم يكن الطلاق يقع إلا إذا ذكره الزوج ثلاث مرات توكيداً لمنيته فيه .

وكانت المرأة لاترث ، أمّا كانت أو زوجاً أو بنتاً أو أختاً أو ذات رحم . ذلك لأن العرب كانوا يقولون : إنما يرث من طاعن بالرماح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة . أما البنون فكانوا يرثون حصصاً متساوية ، وكل ما للأكبر منهم من امتياز على إخوته أنه كان يدعى لاختيار النصيب الأول .

كان سلطان الرجل على زوجه مارأيت ، وكان سلطانه على بنيه عظيماً ، وعلى بناته أعظم . فقد كان الرجل في بعض القبائل يثد ابنته خوف العار أو المتربة ، فإذا وأدها لم يسأله أحد حساباً ولم يكن للبنت ولا لأمها رأى في زواجها ، بل كان الرأى للأب وحده وكان عليه لذلك أن يحميها بعد أن تنتقل إلى بيت زوجها ، في قبيلتها كان هذا البيت أو في قبيلة غيرها . فإذا أساء زوجها إليها أو طلقها ، رجعت إلى بيت أبيها وعاشت في كنفه ورعايته . أما الإبن فكان يختار من يخطبها ، ثم يحرص على أن يقال رضا أبيه عن خطبته . فإذا استقلَّ بعد زواجه ببيت كفل لامرأته فيه معيشتها ، ضَعَفَ سلطانُ أبيه عليه ؛ وإذا بقي معها في بيت أبيه ، فلأبيه عليه سلطان مطلق .

هذه صورة موجزة من نظام الأسرة والأهل في البادية . وقد كانت في جملتها صورة لنظام الأسرة والأهل في المدن والأمصار العربية ؛ فقد كان أهل هذه المدن والأمصار قبائل كأهل البادية سواء ، وكان أكثرهم يمتون بأصلهم إلى البادية ، ثم هوت نفوسهم إلى حياة الحضّر فركنوا إليه واستقرّوا به . ولملك وقد ألمت بها تجد من آثارها ما لا يزال باقياً إلى اليوم في حياة البدو حيث كانوا ، وإن كان الإسلام قد عني على الكثير منها . بل إنك لتجد بعض هذه الآثار في حياة من يفتسبون إلى العرب من أهل الحضّر في مصر وفي غير مصر من البلاد التي تتكلم العربية . فكثيرون يَحْرَمون بناتهم من الميراث ، وينظرون إليهن نظرة تجعل ما للرجال عليهن من درجة فسيح المدى يكاد يبلغ ما كان مألوفاً في البادية قبل الإسلام . وكثيرون لا يُقيمون لرأى البنت ولا لرأى أمها وزناً في زواجها . ولا تزال البنت تأوى إلى بيت أبيها إذا مات عنها زوجها أو طُلِّقت أو أُسيئت معاملتها . وسلطة الأب على أبنائه الذين يقيمون معه لا تزال عظيمة ما كانوا غير قادرين على الكسب .

كان العرب من أهل البادية ومن أهل الحضر يتشابه عندهم نظام الأسرة والأهل لكنهم كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً في أسباب العيش وما نسميه اليوم النظام الاقتصادي فأهل الحضر كانوا يعتمدون في عيشهم على التجارة على ما يزرعه لهم الفلاحون في الحدائق والكروم والمزارع المحيطة بهم والملوكة ملكاً خاصاً لهم ، وكان ربحهم من تجارتهم ومن زراعتهم غير قليل . وكان كثيرون منهم يُقرضون أموالهم لمن يريد أن يتجر فيها أو أن يثمرها لقاء فوائد فاحشة تضاعف ما أقرضوا في زمن قصير . هؤلاء جميعاً كانوا يعرفون من متع الحياة وأنعمها مالا يعرفه أهل البادية . كانوا يعرفون مجالس الشراب والغناء والميسر ويتوفرون عليها . وكانوا يجردون في إشباع شهواتهم ما يرضيهم عن الحياة ويزيدهم اطمئناناً لها . لكن ابن خلدون يبالغ إذ يقول عنهم إنهم : « قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعادات الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ؛ فكان الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ، لا يصدّم عن ذلك وازع الحشمة لما أخذتهم به عادات السوء من التظاهر بالقواحش قولاً وعملاً . وعلى الجملة فهم أهل غدر وخدمة ونقص عهد » . ولقد كانت لهم من غير شك فضائل ومزايا ، ولولا ذلك لبارت تجارتهم ، ولما استطاعوا مقاومة الطبيعة القاسية المحيطة بهم . لكنهم كانوا تجاراً أولى حيلة ، وكانت الحيلة تدفعهم إلى بعض ما يروى عن ابن خلدون من نقائصهم ؛ فقد كانت أرباحهم من التجارة ومن الربا تيسر لهم الاتعاس في اللذات ، والاستهانة بكثير من فضائل الخلق الكريم .

أما عيش البادية فكان قوامه انتجاع المرعى ، والانتفاع بلحوم الإبل وألبانها ، ولم يكن البدوي يملك لنفسه غير بيت الشعر الذي يُقيم فيه ، وما قد يفرس حوله من غلال وفاكهة . فقد كانت القاعدة أن الزرع لمن زرعه . على أن هذا الملك كان قليل الشأن ، فقد كان البدوي يافون الزراعة ، ويرون الفلاحة دون ما يليق بهم . فأما ما كان يُحيط بمنزل القبيلة من المرعى فكان ملكاً مشتركاً للقبيلة ، وكذلك كان الكلال الذي تُنتبه

الصحراء في حى تلك المنازل . وكان للقبائل المتجاورة حق تبادل المرعى في مقابل . وكانت منازل القبائل محدودة بالعرف والاتفاق . فإذا أجذبت قبيلة فانتجعت المرعى بعيداً عن منازلها ، لم يجزُ لغيرها من القبائل أن يحل محلها فيها أو يتعرض لقتال أهلها وأصحابها . ونحن لذلك نستطيع أن نتعرف منازل أهل هذه القبائل إلى وقتنا الحاضر على الخرائط الجغرافية . على أن مثل هذا العدوان وما يجزُ إليه من قتال بين القبائل لم يكن نادراً ، بل كان مألوفاً في حياة الجاهلية . لذلك كان البدويّ محارباً بنشأته ، وكانت حياة القبائل في كثير من الأحيان حياة غزو وانهاب ، فكانت الغارات وانهاب الأسلاب والفرار بها إلى المضارب من مألوف أهل البادية . فإذا رجعت القبيلة من غزوها أقامت في مضاربها على حدّزٍ تنتظر أن يُغير عليها غيرها ليثار لنفسه منها أو يسلب مالها مثلما سلبت هي غيرها ماله . وذلك قول بن خلدون في أهل البادية إنهم « أهل انهاب وعبث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مناسبة وركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالفقر . ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبة التي بها المدافعة . فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مرآغمتهم لئلا يختلّ عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكاً وهلاكهم » .

وطبيعيٌّ أن يزيد الخوف من النار والغارات تضامن القبيلة ، وأن يدفع رجالها لتعزيره بذكريات الماضي وما كانت لأسلافهم فيه من بطولة وإقدام . وذلك هو السر في حرصهم على معرفة أنسابهم ؛ يفاخرون بها غيرهم ، ويقوون تضامنهم ، ويرتفعون إلى أسلاف اشتهروا بالشجاعة والكرم وحماية الجار وما إليها من صفات غرستها هذه الحياة فيهم ، وجعلتها بعض شمائلهم وسجاياهم . وكان حتماً على أبنائهم أن يقتدوا بهم في هذه الصفات فهي وحدها التي تجعل عيش البادية مستطاعاً فابن البادية معرض لغارة غيره عليه وعيش البادية عيش شظف يبلغ الفاقة أحياناً . فإذا لم يكن أهلها كراماً يؤون الضيف ، ويمحون الجار ، تمرّض كثيرون للهلاك . وحياة البادية حياة مغالبة للطبيعة ومقاومة للمعتدين ؛ فإذا لم يكن أهلها شجعاناً ذوي حيلة وجلّة ناءوا بعبء الحياة ، وإذا لم يكن لهم من الدعاية ما يجعل غيرهم يخشاهم تعرضوا للشر . ولذا كان أكثر شعرهم ونثرهم في الفخر والحجاسة وذكر الكرم ، والتحدّث عن شتى الفضائل التي توجبها هذه الحياة وتدفع أهلها للحديث عنها .

لم يكن العرب يثأرون من المعتدين على منازلهم فحسب ، بل كان الثأر للنفس والمال وللعرض وللإهانة ولكل ما يوجب الثأر نظاماً قائماً بينهم . وكانت القبيلة ترى واجباً عليها أن تتأثر لكل واحد من بنينا . فإذا قُتِلَ رجل منهم حمل أبناؤها كلهم السلاح حين تدوى بينهم صيحة أهل المقتول : « يا ثارات العرب ! » وكان الأمر كذلك بخاصة إذا كان القاتل من قبيلة أخرى . فإذا كان منزل القاتل قريباً أُحرق ، وقتلت إبله وأغنامه ، وأبيحت كل حرماته ثلاثة أيام كاملة . وفي هذه الحال لم يكن لقبيلة القاتل أن تؤاخذ أولياء الدم وقييلتهم بما صنعوا . على أن القاتل كثيراً ما كان يلجأ بعد ارتكاب جريمته إلى من يُبِيره ويستطيع منعه ؛ فإذا استجار وأجير وجبت عليه الدية . وقد جرت العادة في الدية بأن يطلب أصحاب الثأر من أهل القاتل بنات وإبلاً وأموالاً ، وأن يبدأ أهل القاتل بالقبول ، ثم تجرى مساومات ينزل صاحب الثأر على أثرها عن الكثير مما طلبه . لكنه لم يكن ينزل أبداً عن أن تكون في الدية فتاتان من حى القاتل ؛ يأخذها لنفسه ، أو يهبها لمن يشاء .

فأما الثأر للعرض وللإهانة فكان يؤدُّ أغلب الأمر إلى قتال بين القبائل يطول أمده سنين متعاقبة . فإذا كانت القبيلة الطالبة للثأر أضعف من أن تتأثر لنفسها ، عرضت على أحياء العرب مالقتها من هضم حقوقها وعدوان على كرامتها ، واستئذنت غيرها من القبائل المجاورة أو المحالفة لها لتنهض معها في ثأرها . والمحالفات لهذا الغرض كانت مألوفة . ولملك تذكرك حلف الفضول الذي اشترك فيه محمد قبل بعثه ؛ إذ تعاهدت قبائل مكة وتعاهدت ليكوئن مع المظلوم حتى يُؤدى إليه حقه . وكانت غزوة الأحزاب للمدينة بعد هجرة الرسول إليها نتيجة التحالف بين يهود المدينة وقبائل مكة وغيرها من قبائل العرب . ومثل هذه المحالفات كانت كثيرة في الجاهلية . وأخبارها لذلك مستفيضة في كتب التاريخ وكتب الأدب .

من شأن حياة الثأر والغزو والمغامرة أن تدعو إلى التفاؤل وإلى التطيُّر يتفاءل الظافر إذا أدى إلى ظفروه أمر لم يكن في حسبانته ، ويتطيُّر المصهور لمثل هذا السبب . والعرب كانوا من أكثر الأمم تفاؤلاً وتطيُّراً . ولم يكن ذلك شأنهم في أمر القتال وحده ،

بل كان كذلك في كل شؤون الحياة ، وإن بعض المؤرخين لينسبون تسمية العرب بأبناءهم بأسماء الحيوان إلى تطيرهم وتفاؤلهم . فيذكرون أن أحدهم كان إذا أنجب أبناء فتأوا ثم ولد له ولد ، أطلق عليه اسم حيوان كثعلب أو ثور أو كلب أو ذئب أو فهد أو أسد ويذكر هؤلاء المؤرخون أن نسبة كثير من القبائل إلى أسماء الحيوان ترجع إلى أن جدّها الأعلى أطلق عليه اسم هذا الحيوان تحرزاً من الموت . فإذا صح هذا التعليل وجب إطلاقه على غير العرب أيضاً ؛ فسمية الناس بأسماء الحيوان أمر حادث في الأمم كلها . ونسبة الأسر إلى الثعلب أو الذئب أو غيرها من الحيوان بعض ما نجده عند الإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم . وقد يكون مرجعه إلى تطيرهم وتفاؤلهم كمرجع مثله عند العرب .

كانت عبادة الأصنام والاستقسام عندها بالقداح مما زاد في تطير العرب وتفاؤلهم . فقد كان أحدهم إذا أراد أمراً جاء بأزلام الاستخارة ، وهي قطع من خشب أو حجر كتبت على أحدها « أمر » ، وعلى الثاني « ناه » وترك الثالث غفلاً ، ثم خلطها في حبي صنم كهنبل ، وأخرج منها واحداً ، فإذا خرج الأمر أقدم على ما عزم وإذا خرج الناهي أحجم ، وإذا خرج العقول استأنف الخلط والاستقسام . وكان اعتقادهم أن الصنم الذي يعبدونه ويستقسمون عنده هو الذي يخرج الأزلام على النحو الذي تخرج به ، ولذلك كانوا يطعمونها على أنها آية آلهتهم وأمرها .

وكان لكل قبيلة ، بل لأهل كل دار ، صنم يعبدونه . فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع أن يتمسح به ، وإذا قديم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل داره أن يتمسح به أيضاً . ويذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام أن عبادة الأوثان والحجارة ترجع إلى « أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصيانة بمكة . فحينما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ... ثم سأل ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا : فعبدوا الأوثان » . وكذلك اتخذت القبائل الأصنام فأتخذت هذيل بن مدركة سواعاً بأرض يثبع ، واتخذت كلبٌ ودًا بدومة الجندل ، واتخذت همدان ومن والها من أرض اليمن يعوق وكان بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين بسير الإبل مما يلي مكة . واتخذت خيبر نسرًا فعبدوه بأرض يقال لها بلنخ ،

واتخذت مذبح وأهل جُرَش يَفُوث . . وهذه الأصنام هي التي نزل فيها قوله تعالى :  
( وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ  
أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا <sup>(١)</sup> ) .

وكانت مَنَاءُ من أقدم أصنام العرب . وكانت منصوبة بقُدَيْد بين مكة والمدينة ،  
وكانت العرب جميعاً تعظمها وتذبح حولها . وكانت اللات صنم الطائف ، وكانت صخره  
مربعة بنى عليها سدنتها من ثقيف بناء زاد في إعظامها . أما العزى فكانت في بيت  
بواد من محلة ، ويقال إنهم كانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ،  
وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح . وكانت قريش تقول عن هذه  
الأصنام الثلاثة : إنهن بنات الله تعالى وإنهن يشفعن إليه . وذلك قوله تعالى : ( أَفَرَأَيْتُمْ  
اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ  
ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ <sup>(٢)</sup> ) .  
وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة ، وكان أعظمها عندهم هُبَل . وكان  
من عقيق أحر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ؛ ولذلك جعلت له قريش يداً  
من ذهب . وكان إساف ونائلة صنمين عند الصفا والمروة . هذا إلى أوئان أخرى ذكر  
ابن الكلبي أكثرها في كتاب الأصنام ، وذكّر ساثرها في تاج العروس وفي مروج  
الذهب وفي غيرها من كتب المؤرخين .

ولم يكن العرب يُنكرون وجود الله حين يعبدون الأصنام ، بل كانوا يُشركونها معه  
جل شأنه ويتخذونها إليه زُلْفَى ؛ ولهذا كانوا يذكرون الله في تلبيتهم حين حجهم الكعبة  
ويذكرون الأصنام على أنها شركاؤه . فكانت بعض القبائل تقول : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ »  
لببيك لا شريك لك ، إلا شريكٌ هو لك ، تملكه وما ملك . وكانت قريش تطوف بالكعبة  
وتقول : « واللَّات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرائق العُلا ، وإن شفاعتهن  
لترجي ا » . وفي ذلك يقول الله تعالى : ( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ) .  
هذه صورة مجلّة من عقائد العرب وعاداتهم في حياتهم الاجتماعية قبل الإسلام .

(١) آية ٢٣ وما بعدها ، سورة نوح .

(٢) آية ١٩ وما بعدها ، سورة النجم .



ومن اليسير أن تُدرك ما قضى عليه الإسلام منها . والشرك هو بطبيعة الحال أول ما تحطّم في النفس العربية أثره . فقد سمع العرب من آيات الوحي فيه ما جعلهم بعد إسلامهم يذكرونه أشدّ إنكار . سمعوا قوله تعالى : ( وَجَعَلُوا اللَّهَ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ <sup>(١)</sup> ) . وقوله : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا اللَّهَ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ <sup>(٢)</sup> ) . وقوله : ( وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ <sup>(٣)</sup> ) . وقوله : ( أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا <sup>(٤)</sup> ) . وقوله : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ ، بَلْ إِن يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا <sup>(٥)</sup> ) . وقوله : ( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ <sup>(٦)</sup> ) . وقوله : ( فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ <sup>(٧)</sup> ) . سمع العرب هذه الآيات وسمعوا غيرها عشرات من مثلها ، فحقت كل أثر للشرك في نفوسهم . ولذلك رأينا الذين ارتدوا والذين تنبأوا حين وفاة النبي ، لا يُشرك أحد منهم بالله ، وإنما يزعم كل متنبئ أنه نبي لقومه ، وأن محمداً كان نبياً لقومه . فلما قضى على الردّة آمن العرب كلهم بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

كان لهذا القضاء على الشرك أثر عميق في النفس العربية ، وفي الحياة الاجتماعية العربية . لم يبق لمسلم ولي من دون الله ، بل أصبح ولاؤهم جميعاً له جلّ شأنه ولم يبق لمسلم أن يستقسم بالأزلام أو أن يستخير الأصنام ، وإنما يستخير الله وحده . عليه يعتمد ،

(١) س ٣٠٢ . ١٤ (٢) س ٢٢٢ . ٢٤ (٣) س ٧٣٢ . ٧ (٤) س ١٩٨ و ١٩٧٢ . ٧ (٥) س ١٠٢٢ . ١٨

(٦) س ٤٠٢ . ٣٥ (٧) س ١١٣٠٢ . ٩ (٧) س ٥٢٠٩ . ٥

وإياه يستعين ، وإليه يركن ، وهو الذي يهديه سيده . بذلك تحرر العقل العربي وتحرر الضمير العربي من رق الوثنية ، وأصبح هذا العقل وهذا الضمير هائلان توجَّهان صاحبهما فيما يعزم القيام به أو الإحجام عنه ، وبذلك أصبحت دون سواها وساطة المرء إلى ربه ، ولذلك لم يبق للتناؤل ولا للتطير موضع ، ولم يبق لسوانح الطير ولا لبوارحها أثر في إرادة الإنسان ، ولم يبق لأحد أن يقرأ في النجوم مصائر الأفراد والأمم ؛ وإنما يجري كل شيء في الكون وفاق سنة الله . ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولا تبديلاً .

تحرر العقل العربي من رق الوثنية ، وآمن بالله خالق كل شيء ، وتحرر بذلك من رق الوهم والعبودية لكثير من الشعائر التي فرضتها عليه الجاهلية ، ففتتح للنظر فيما جاء من عند الله وتسياً للأخذ به . وكان لهذا التحرر أثره العظيم في الحياة الاجتماعية ، كما كان له أثره العظيم في الحياة الدينية .

وكان أعظم أثره في الحياة الاجتماعية أن تغيرت نظرة الرجل للمرأة ؛ فقد سوى الوحي بين الجنسين ووجه القول للمؤمنين والمؤمنات ، وللشركيين والمشركات ، وتحدث عن النساء في رفق وإكرام ، وجعل لهن مثل الذي عليهن بالمعروف . قال تعالى : (أَنْتِ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ) (١) . وقال : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (٢) . وقال : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٣) . وقال : (وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) (٤) . وقال : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَهْزَأْ لَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ أَرْحَمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (٥) . كانت هذه الآيات والكثير من مثلها نعمة جديدة على السمع الجاهل . المرأة والرجل متساويان أمام الله ، تُجزي

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران (٢) آية ١٢٤ سورة النساء (٣) آية ٩٠٧ سورة النحل (٤) آية ٦ سورة الفتح (٥) آية ٢٣ وما بعدها سورة الإسراء .

كما يُجَزَى ، وتتاب كما يثاب . هذا أمر لم يسمع به العرب فيما بينهم ، ولم يسمعو بشيء من مثله عند جيرانهم من الفرس والروم . ولكنه مع ذلك أمر هذا الدين الجديد الذي أوحى إلى النبي العربي ، وقد أوجب على كل مسلم أن يؤمن به أو يتبعه .

وكان لهذا الأمر أثره في صلات ما بين الزوج وزوجه ، والأب وابنه ، والأخ وأخيه . لم تبق الزوج مقام الخادم أو الرقيق ، بل أصبحت شريكة زوجها في الحياة ، لها على زوجها ما للشريك من حق على شريكه . فإله تعالى يقول : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا بِأَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً <sup>(١)</sup> ) . ولم يبق لرجل أن يكره فتاته ، أى أمته ، على أن تتجر في ذات نفسها ليكسب المال ، وهو جل شأنه يقول : ( وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَانِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> ) . ولم يبق لرجل أن يضيق ذرعاً بابنته أو أن يشدها خوف العار أو التربة . والقرآن ينكر ذلك في قوله تعالى : ( وَلَا تَقْبَلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ <sup>(٣)</sup> ) ، وفي قوله تبارك وتعالى : ( أُمِّ اتَّخَذُوا مَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ <sup>(٤)</sup> ) . ويقسم بالمودة فيقول : ( وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ <sup>(٥)</sup> ) . هذه الثورة على العادات الموروثة جديرة بأن تؤدي إلى انقلاب اجتماعي في أساس الحياة العربية ينتظم البادية والحضر جميعاً . وهى ثورة نزل بها الوحي على رسول الله ، فهى أمر الله لا مرد له ، ولا مفر من النزول على حكمه .

ولا ريب أن هذه الثورة كانت أعنف فعلا في نفوس العرب من الثورة العقلية التي انتهت إلى تحطيم الأصنام ، ونفي الشرك ، وتوحيد الله . فقلوبنا وعقولنا تسرع إلى الحرية تستضيء بنورها ، متى حطمت من حولها الأغلال التي تعيدها . والأمر كذلك ما كان مقصوراً على تفكيرنا وعلى عقائدنا الذاتية ؛ فأما إذا امتد الأمر إلى سلطاننا في الحياة وصلاتنا بغيرنا فليشد ما نتردد في الإذعان له والتسليم به . وإذا سلمت عقولنا حاولنا مع

(١) س ٣٠ آ ٢١ (٢) س ٢٤ آ ٣٣ (٣) آية ١٥١ سورة الأنعام (٤) آية ١٦ وما بعدها سورة الزخرف (٥) آية ٨ وما بعدها سورة التكاوير .

ذلك أن نستبقى سلطاننا أو نسترد ما ضاع أو نقص منه ؛ لأن شهواتنا تحملنا على ذلك حملا وتدفعنا إليه دفعا . ومهما يسمُ العقل على الشهوة ، ومهما يستطع التحرر لإدراك المعاني العليا ، فللغريزة التي تستند إليها الشهوة حكمها . ولا أدل على ذلك فيما نحن بصدده من حديث لعمر بن الخطاب نفسه . روى مسلم بإسناده أن عمر قال : « والله إن كنا في الجاهلية لا نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسمَ لهن ما قسم . فيينا أنا في أسراً تمره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : وما لك أنت ولما هاهنا ، وما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي : محبباً لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تُراجعَ أنت ، وإن ابتكت لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلل يومه غضبان ! قال عمر : فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بُنَيَّة ، إنك لتُراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظال يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لتراجعها ! فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بُنَيَّة لا يفرئك هذه التي قد أعجبها حسنُها وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ! ثم خرجت حتى أدخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها ، فقالت لي أم سلمة : محبباً لك يابن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد نفرجت من عندها » .

جرى هذا الحديث بين عمر وحفصة وأم سلمة في السنة التاسعة من الهجرة ، بعد أن أنزل الله تعالى في النساء ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فإذا كان ذلك شأن عمر ، وهو من هو قرباً من رسول الله وامتثالاً لتعاليمه ، فما بالك بغيره من العرب المنتشرين في شتى الأرجاء من شبه الجزيرة ! لاشك أنه كان بينهم وبين أزواجهم وبناتهم وذوي قراباتهم مثل الذي كان بين عمر وابنته وأم سلمة أو أعنف منه . ولا شك أن النساء قد أصررن على ما فرض الله لهن من حق لم يكن للرجال أن ينكروه عليهن أو يناقشوهن فيه وقد آمنوا بالله وكتابه ورسوله .

إذا كان هذا أثر الانقلاب الذي أحدثته مساواة المرأة بالرجل في المركز الإنساني ، فأحر بالأمم أن يكون أشدَّ عنفاً حين قرر الإسلام للمرأة حق الإرث الذي أنكرته

عليها الجاهلية ، وحين حدّ الإسلام ما كان مطلقاً من تعدد الزوجات فقصره على أربع ، ثم آثر الزوجة الواحدة إذا خيف عدم العدل . فالمساواة في المرتبة الإنسانية وفي ثبوتة المرأة وجزائها في الآخرة أدنى إلى الاعتبارات المعنوية . ولاضير على الرجل أن تكون بينه وبين زوجه مودة ورحمة ، مودة من جانبها ، ورحمة من جانبه . ولاضير عليه أن يرضى الله الإنسان بالديه : ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي سَامِيْنٍ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى التَّمْصِيْرِ<sup>(١)</sup> ) . فأما أن ترث المرأة فتشارك الرجل فيما ترك المورث ، والرجل هو الذي يطاعن بالرماح ويحمى الحوزة ويحوز الغنيمة ، فذلك يمس ما يسميه بعضهم اليوم « الحقوق المكتسبة » مساساً مباشراً ، ويمس المنافع المادية في صميمها . والأكثر من الناس أشدّ تعلقاً بالمنافع المادية وحرصاً عليها منهم على كل ما سواها .

ومثل هذا كان الشأن في قصر تعدد الزوجات على أربع ، وإيثار الزوجة الواحدة في قوله تعالى : ( فَأَكْحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْمَلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا<sup>(٢)</sup> ) . فما قررتة هذه الآية يتفق مع المركز الإنساني الذي جعله القرآن للمرأة . لكنه مع ذلك حدّ بما كان مباحاً للعرب في الجاهلية . وقد قرره الإسلام فلم يكن مفرّطاً لمن أسلم من أتباعه . وإنما هوّن على العرب أن يذعنوا لما نزل من هذه الأحكام في شأن المرأة حين رأوه تعالى يقول : ( الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ<sup>(٣)</sup> ) ، ويقول : ( وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى<sup>(٤)</sup> ) ، وحين جعل للذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث ، فهذه الآيات تفتح باباً لمن استعزّ بآرائه القديمة ، وإن لم تفتح هذا الباب إلا قليلاً ، ولم تفتحها إلا لأنها ألقت على الرجل أعباء الإنفاق على أسرته والدفاع عن دينه ووطنه جهاداً في سبيل الله . كان ما نزل في النساء من هذه الآيات وأمثالها جديراً بأن يؤدي إلى انقلاب

(١) آية ١٤ سورة لقان (٢) س ٣٢٤ (٣) ٣٤٢٤ (٤) س ٢٨٢٢ .

اجتماعي خطير في الحياة العربية . فالمرأة أساس الأسرة ، والأسرة أساس القبيلة والأمة والاجتماع كله . واحترام الرجل للمرأة واشتراكما معا فيما تؤهله لها طبيعتها من شؤون الحياة ، يدفع إلى الحياة روحاً وقوة لا سبيل إليهما إذا هي عوملت معاملة الرقيق وأُنصبت عن كل شركة في شؤون الحياة . هذا إلى أن إكرام المرأة يسمو بالفن الجميل إلى ذرعى يقصر دونها إذا هي حُبست في حدود أنها متاع الرجل وخادم بيته . ولعلك تلاحظ ذلك في الشعر الجاهلي ؛ فأكثر ما فيه عن المرأة يضعها موضع المتاع . ولا يجعل لها مكاناً من قلب الرجل أو من تقديره إلا في حدود هذا المتاع . والمعلقات السبع تشهد بهذا وتؤيده . وأنت تذكر أن نساء قريش خرجن مع مقاتليها للثأر من هزيمة بدر ، فلما التقواهم والمسلمون في أحدٍ ، كنَّ يحرضن الرجال فيقلن :

إِنْ تَقْبِلُوا نَعَانِقَ وَفَرَشَ الْمَارِقِ  
أَوْ تُدْبِرُوا نَفَارِقَ فِرَاقِ غَيْرِ وَاْمِقِ

فلم يكن الظفر بالعدو ، إعزازاً للوطن وثأراً للكرامة ، جزاءً كافياً لأبطال قريش في نظر نساها ، بل كان عناقهن الرجال وفرشهن المارق لهم جزاء أوفى لمن أقبل ، وكان فراقهن الرجال عقاباً أنكى لمن أدبر ونكص على عقبيه . ولو أن علاقة الرجل والمرأة لم تُقصر على المتاع كشأنها في الجاهلية ، بل قامت على المودة والرحمة على ما جاء في القرآن ، لكان لنسوة قريش غير هذا الرأي في مشوبة أبطالها وفي عقابهم .

لم يكن الانقلاب الاقتصادي الذي جاء به القرآن دون الانقلاب الاجتماعي أنراً . فقد كان للأغنياء من التجار والمرايين ومن إليهم مكان في الجاهلية يتطلع إليه الفقراء والعمال بعين الإكبار ، وإن لم يحملهم الإكبار على النزول عن حريتهم وأفتهم . وكان الأغنياء لذلك إذا أعطوا فقيراً أعطوه مُسفقين ، ثم مثوا بإشفاقهم منهم بمطامهم ، وأخذوا العطاء وسيلة ترتفع بها مكاتهم بين الناس فوق رفعتها .

قاوم الإسلام هذه النزعة الأنانية لأول ما نزل الوحي . قاومها بتقرير مبدأ الإخاء والمساواة بين الناس ، وبالتثريب على الأغنياء الذين يتبعون صدقاتهم بالتمن والأذى ، وبتقرير الزكاة فريضة على الأغنياء للفقراء . قال تعالى : ( قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ

مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى <sup>(١)</sup> ) وقال: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَيُعَمَّمَا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتَوْتُواهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ <sup>(٢)</sup> ) . وليست الصدقة فضلا للغني على الفقير ، بل هي حق في مال الغني للفقير . وذلك قوله تعالى : ( إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَدَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرَّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ <sup>(٣)</sup> ) . وهي حق للفقير يساوي حق الأبوين في مال ابنتها إذا احتاجا . وذلك قوله تعالى : ( يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَكَثِيرًا وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ <sup>(٤)</sup> ) هذا توجيه جديد من اليسير عليك أن تقيم على أساسه مذهبا كاملا للاشتركية الإسلامية . وهو توجيه لم يكن مألوقا بين العرب بمثل هذه القوة . فالناس في كل العصور يتحدثون عن الإحسان وعن العطاء على أنهما فضل ممن أعطى ، وليس أحقا لمن أخذ . أما القرآن فيعتبرها حقا هو وحده الذي يطهر مال الغني مما يخالطه من الإثم . لذا كان لهذه النعمة أثرها القوي في انتشار الإسلام أول نزوله ، وكان لها أثرها من بعد في تطور الجماعة الإسلامية هذا التطور السريع الذي رأيت .

أما الربا فقد حاربه الإسلام حربا عوانا . وَحَسْبُكَ لِعَقْدَرِ ذَلِكَ أَنْ تَذَكَرَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ( يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُبْئِ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٌ <sup>(٥)</sup> ) . وقوله : ( الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْأَسِّ <sup>(٦)</sup> ) . بل لقد اعتبر القرآن الربا أكلا لأموال الناس بالباطل في قوله تعالى : ( وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا <sup>(٧)</sup> ) . أما وقد كان الربا مشاعا في الجاهلية فخرمه الله ، فقد وجب ألا يأخذ أحد ما تعاقده عليه منهم . وذلك قوله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَى وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ

(١) س ٢٦٣ آ ٢ ، ٢٦٤ (٢) س ٢٧١ آ ٢ (٣) س ٦٠٢ آ ٩ (٤) س ٢١٥ آ ٢

(٥) س ٢٧٦ آ ٢ (٦) س ٢٧٥ آ ٢ (٧) س ١٦١ آ ٤ .

وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتِغُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (١) .  
 كان لهذا التنظيم الاقتصادي أثره في الحياة الاجتماعية . وكان هذا الأثر قوياً عميقاً .  
 زاده عمقاً وقوة أنه لقي التأييد الحارّ من جانب السكّنة الكبرى من المسلمين . ولذا ظلّ  
 المسلمون ينكرون الربا بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا العصر الأخير .

اقترن الانقلاب الديني والانقلاب الاجتماعي في بلاد العرب بالانقلاب السياسي  
 الذي أدى إلى وحدتها بعد شتات ، وبالتوسع في الفتح توسعاً رأينا أي مدى بلغ في عهد  
 عمر . وقد تضافرت هذه العوامل فنقلت العرب ، في حياتهم العمرانية وفي حياتهم الاقتصادية ،  
 نقلة لم تدّر لهم ولا لأبائهم بخاطر . فقد انتقل الألو ف وعشرات الألو ف من أهل البادية  
 إلى حضر العراق وحضر الشام ، وأقام الكثيرون منهم بين الرياض والغياض في دمشق  
 وحمص وقنسرين والمدائن والكوفة والبصرة وفي غير هذه من المدن الزاهرة العامرة .  
 وقد رأوا في الإسكندرية وفي منف وطيبة وفي غيرها من بلاد مصر عمارة وصناعة وريفاً  
 خصباً وظلاً وارقاً . وقد اجتمع لهم من الفء والعطاء رزق حسن يجنّبهم شظف العيش  
 بل يعوّدهم لينه ويسرّ لهم متعه . ثم إنهم رأوا في بنات الأصفر من الروم والشام وفي  
 عذارى مصر وظباء العراق جمالاً غير الذي ألفوا في بدوهم وحضرهم ، جمال الحياة الناعمة  
 اللينة ، كما وجد بعضهم في نبيذ هذه البلاد المفتوحة طعماً سائغاً وفعلاً رقيقاً . وإلى جانب  
 هذا كله كانت تقوم آثار الفن بارعة رائعة في معابد الروم ومقابرهم وما فيها من تماثيل  
 وفنون أبدع صناعها في تصويرها أي أبداع ، وفي كنائس المسيحيين وأديارهم وما فيها  
 من صور تكاد تنطق بما أراد مصوروها أن تنطق به . هذا إلى ما كانت مدرسة  
 الإسكندرية تُذيعه في الناس من مبادئ وآراء ، ومن علوم وفنون ، وما كان يذيعه  
 الروم والفرس في دمشق والمدائن من تعاليم وآداب أثمرتها حضارات نصجت على  
 القرون ثم آن للعفاء أن يجرّ عليها ذيله .

تري أي أثر أدّى إليه اجتماع هذه العوامل الكثيرة في حياة العرب الاجتماعية

لذلك العهد ؟ .



تقتضينا الإجابة على هذا السؤال أن نضم إلى هذه العوامل عاملاً وجَّهها جميعاً ، هذا العامل هو عمر نفسه ؛ فقد كان لاجتهاده في النقه والسياسة والاقتصاد والاجتماع أثره أعظم الأثر في الجماعة الإسلامية كلها وفي العرب جميعاً ، سواء من أقام منهم في شبه الجزيرة ومن استوطن البلاد المفتوحة . وسنفصل شيئاً من هذا الاجتهاد في الفصل التالي . وهذا الاجتهاد هو الذي عصم الحياة الاجتماعية في عهده من التدهور ، وهو الذي حفظ للروح الإسلامي سؤدده على نفوس المسلمين حيثما كانوا . وهذا فضل لعمر عظيم يضاف إلى سيرته العادلة في الحكم ، وإلى اضطلاع به بأعبائه في قوة وبراعة .

فقد أدرك بإلمامه أن النفس الإنسانية ، حين تندفع إلى السمو الروحي ، مُعَرَّضَةٌ دائماً لجواذب الأهواء تميل بها إلى المستوى الذي يلائم طباعها وسلائقها ؛ كطائرة ترتفع محلقة في الجو ، وهي معرضة أبدأ للانحدار ، بحكم جاذبية الأرض ، إذا ضمعت القوة التي رفعتها في أجواز الأثير ، فإذا لم يصرف أمير المؤمنين عنايته لمقاومة أسباب الضعف في نفسه أولاً ليكون الأسوة لغيره ، ولمقاومة أسباب الضعف في نفوس الناس جميعاً ، خيف أن تنحرف المبادئ التي أدت إلى السمو والقوة عن وجهتها ، وأن تغلب عليها السلائق والأهواء الدنيا ، وأن يعود الناس سيرتهم الأولى مُصَوَّرَةً في ظاهر جديد يظن الناظر إليه أنه يتفق مع مبادئ الإسلام وتعاليمه . وقد رأيت كيف بلغ عمر من القسوة بنفسه ، كما يحس إحساس أقر المسلمين وأضعفهم ، حتى أشفق أصحابه في حين من الأحيان على حياته . وقد جعلته قسوته بنفسه في حلٍّ من أن يقسو بكل من يراه مخالفاً لموجب العدل والتقوى ، أو منحرفاً عن سبيل النزاهة وأخلق القويم . بذلك استطاع أن يحاسب عماله الحساب العسير ، وأن يعزل منهم من رأى فيه اعوجاجاً ، مع المحافظة على هيبة المحسنين . منهم وتقوية سلطانهم ، وأن يجتهد في بعض الحدود والأحكام اجتهاداً لم يعرفه الناس في عهد أبي بكر ولا في حياة الرسول ، وأن يستن في الاقتصاد والاجتماع سنناً صارمة رآها تكفل لمبادئ الدين القيم أن تظل في صفائها ونقاها .

أدى مثل عمر ، وأدت سياسته في الاقتصاد والاجتماع ، إلى بقاء ماركب في النفس العربية من خلال الإقدام والفرز سليماً قوياً ؛ فهو لم يسمح للعرب المحاربين باستغلال (عمر ج ٢ - ١٧٢)

الأرض في العراق والشام ومصر ، بل أبقاهم في مساحاتهم جنود جهاد وفتح ، فكانت الإمبراطورية المترامية الأطراف نتيجة محتومة لهذه السياسة . وأدى اجتهاد عمر إلى بقطلة النشاط العقلي عند العرب في ميادين لم يكونوا يألفون الخوض فيها . فقد أغرى تدفق المال الناس بالإقبال على الثروة والحرص على جمعها وتثميرها ، فحبذ بعضهم هذا الاتجاه ورآه خيراً لرخاء المسلمين ، وعابه بعضهم ورآه مخالفاً لمبادئ الدعوة الإسلامية ، مستندين إلى قوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَى . أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . إِنْ إِلَى رَبِّكَ أَرْجَى (١) ) . ورأى المسلمون في البلاد المفتوحة آثاراً من الفن بعضها تماثيل تُشبه الأصنام التي كانت عند الكعبة في الجاهلية فلم يحطموها ، بل لم ير سعد بن أبي وقاص بأساً بأن يتخذ إيوان كسرى بالمدائن مصلى ، وأن يترك ما به من تماثيل قائماً على أنه بعض الزخرف الذي اذنان به القصر وازدانت به أبهاؤه . وهو إنما أبقاها لأنه لم يكن أحد يعبدها . وكان معظم هذا النشاط متجهاً إلى مالم ينزل فيه قرآن ولم تجر به سنة من رسول الله ، فكان اجتهاد الرأي فيه مما عُنِيَ العرب به . على أن هذه العناية لم تتعدّ المنافع العاجلة ، فلم تخرج بالعرب عن طبيعتهم ، ولم تبلغ بهم إلى إقامة مذاهب في الفلسفة أو الاقتصاد أو الاجتماع ، قوامها المنطق الذي يتعمق الأشياء كما فعل اليونان ، ولا إلى إقامة مذاهب في الأدب على اختلاف صوره ، يتطور معها الشعر إلى الملحمة ، والنثر إلى القصة الطويلة كما فعل الفرس .

ومن الشطط أن يطلب إنسان إلى أمة العرب لذلك العهد أن تنتقل في فلسفة التوحيد إلى ما فصله الفزالي والفارابي وابن رشد وغيرهم من بعد . وحسبها أنها آمنت بالعقائد والقواعد التي جاء بها الرسول من عند الله . وأنها اتخذت هذه العقائد والقواعد أساساً لمبادئها ونظم حياتها ومعاملاتها . ثم حسبها بعد ذلك نغارا أن أقامت القواعد من الإمبراطورية الإسلامية ، فساد أبناء هذه الإمبراطورية رويداً رويداً مبادئ الحضارة التي وجهت الإنسانية قروناً طويلة من بعد . فإذا ذكرت أن هذا الانتقال لم يكن بالأمر الهين ، وذكرت جهاد رسول الله وأصحابه في سبيله ، وقدّرت حال العرب في ذلك الطور

من حياة الإنسانية ، وجب عليك أن تفظر في كثير من التسامح إلى ما بقى بين العرب من عاداتهم القديمة التي لم يجرمها الإسلام ، وإلى ما اندفعوا إليه بحكم التطور الذي أقام الإمبراطورية ، بعد أن أفاء عليهم من الأموال والنعم ما لم يكن لهم من قبل به عهد .

والواقع أن العرب لم يكونوا في ذلك طرازاً وحدهم ، ولم يخرجوا فيه على مألوف الجماعة الإنسانية في كل العصور . فما أكثر ما في التاريخ من شواهد على أن الثورات لا تتغير من ميول البشر وعاداتهم ، بقدر ما تتغير من مساح تفكيرهم ونظم جماعتهم ! فهم ينتهون إلى التسليم برأى من الآراء أو بمبدأ من المبادئ وإلى الإيمان به ، ومع ذلك تراهم لا يلبثون أن يكتفوا ما تفرضه عليهم سليقتهم من ميول وأهواء ليسلكوها في نطاق هذا المبدأ ، وفي نطاق النظام الذي يقوم على أساسه . ذلك بأن الكثرة الكبرى من الناس تتأثر بدوافع الغريزة ومغرياتها أضعاف ما تتأثر بالمثل العليا التي تُرسم لها وتراءى أمامها .

وهذه الكثرة شديدة الرجاء دائماً في التخلص من الجزاء الذي يترتب على اندفاعها مع أهواء الغرائز ودوافعها . وهي تلتمس هذا الرجاء في الاستتار عن أعين الناس حيناً ، وفي شبهة القاضى يدرأ بها الحد حيناً آخر ، وفي مغفرة الله دائماً . أليس عفوه وغفرانه قد وسعنا كل شيء ؟ أو لا تجزى الحسنة عنده بعشر أمثالها ، ولا تجزى السيئة إلا بمثلها ؟ وياؤس الإنسان إذا لم يكن له في عفو الله مطمع أو ما أكثر ما يجد الإنسان في خلق الله من متاع فمن استحلّ منه ما أحل الله ، وحرّم على نفسه ما حرم ، وعمل صالحاً ، فله أجره عند ربه . ومن زلفت به القدم وأغرته النفس الأثارة بالسوء ثم تاب وأناب ، فإن الله يقبل التوبة من عباده .

ماذا بقى من عادات الجاهلية في حياة العرب الاجتماعية بعد إسلامهم ؟ وماذا طرأ عليهم في هذه الحياه حين انفسحت إمبراطوريتهم ، واستقر الألو ف ، منهم خارج شبه الجزيرة ؟

كان العرب في الجاهلية يتعصب كل منهم لقبيلته ، ويتمصبون جميعاً للجنس العربي وطبيعة الدعوة الإسلامية تُنكر هذه العصبية الجاهلية ؛ فهي تسوّى بين الناس جميعاً ، وإنما يتفاضلون بأعمالهم وتقواهم ، لافرق في ذلك بين عربي وغير عربي . والقرآن صريح في ذلك إذ يقول تعالى : ( إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ <sup>(١)</sup> ) ، ويقول :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ<sup>(١)</sup>) . وإسلام قد نزل للناس كافة ، أحمرهم وأسودهم ، عربهم وأعجمهم . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب . ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلا بالتقوى » . مع ذلك بقيت العصبية للقبيلة متأصلة في نفوس أكثر العرب ، وبقي التعصب للجنس العربي قوياً فيهم جميعاً ؛ بل لقد تضاعف هذا التعصب للجنس بانتشار العرب في ملك فارس والروم وحكمهم أهلها ، وأيقن العرب أن ما ألقاه القدر عليهم من رسالة وقف عليهم لا يشاركون فيه أحد .

والأمثلة على بقاء التعصب للقبيلة كثيرة في التاريخ . وقد حدث من ذلك في حياة النبي أن تفاخر الأوس والخزرج وذكروا يوم بُعث وقال أحدهم : « إن شتم والله لعبيدتها جَذَعَةٌ » . ولولا أن تدخل النبي بينهم وأعاد إليهم إخوانهم لسكان بين الفريقين شرٌّ . وقد سكن التعصب للقبيلة في العهد الأول من حكم الخلفاء ؛ لأن اشتغال المسلمين بالفتح أمات ما بينهم من منازعات . فلما اختلف على معاوية عادت العصبية للقبيلة سيرتها الأولى ، وعاد ما كان بين بني هاشم وبني أمية إلى مثل ما كان في الجاهلية . ولا تزال هذه العصبية للقبيلة قوية في العرب أهل البادية إلى وقتنا الحاضر ، سواء في ذلك من أقام منهم في شبه الجزيرة ومن أقام خارجها .

أما تعصب العرب لجنسهم فقد زاده الفتح أضغاث مضاعفة . كيف لا وهم يرون الإمبراطوريتين العظيمتين ، فارس والروم ، تنهار أركانها أمام قوتهم ويدول سلطانها لدولتهم . ولعلمهم لم يجدوا بهذا التعصب بأساً والله تعالى يقول فيهم : ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ<sup>(٢)</sup> ) ، ويقول : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا<sup>(٣)</sup> ) . فذكروا هذه الآيات ونسوا تثريب الله عليهم ولومه لهم في كثير غيرها ، كما نسوا مبادئ الإخاء والمساواة التي دعا الإسلام إليها وجعلها أساس الإيمان . وليس لنا أن نؤاخذ العرب بتعصبهم لجنسهم ؛ فالتعصب للجنس كان ولا يزال

(١) س ١٠٤٩ (٢) س ١١٠ (٣) س ١٤٣

سنة في الأمم تأخذ بها وتعمل على تقويتها . ألا يزعم الجنس الأبيض اليوم أن القدر اختاره ليرقى بالأجناس الملوثة ، على تعبيرهم ، في مدارج الحضارة ! أو لا يزعم الجنس الآري أنه أفضل من الجنس السامي ومن سائر الأجناس ، وأنه أحدها ذكاء ، وأدقها منطقتاً ، وأكثرها في العلم والفن ابتكاراً وإنتاجاً ! والجنس السكسوني والجنس الألماني يدعى كل منهما لنفسه مثل هذه الدعوى التي يتشدد بها كل من بسم له لحظ ، فجل له سلطان البطش بالشعوب الأخرى في طور بذاته من أطوار التاريخ الإنساني . وهؤلاء جميعاً يتشددون بهذه الدعوى وهم يعرفون ما يُثبت التاريخ من أن السلطان دولاً ، فهو يتنقل بين الأجناس والألوان والأمم في أطوار تتصل بالحياة المعنوية حيناً ، وبالحياة الاقتصادية حيناً آخر ، ولا علاقة له ألبتة بجنس بذاته ولا بلون بذاته . فإذا كان العرب قد بالغوا في التعصب لجنسهم ، يوم كانوا الغالبين وكانت مقاليد الحضارة في أيديهم ، فلم من العذر أنهم جروا على السنة التي تجرى عليها الأجناس كلها والشعوب جميعاً ؛ فتعصبوا العربيتهم ، وإن خالف هذا التعصب مبادئ الإسلام ، ودعوته الصريحة القوية إلى الإخاء والمساواة .

وقد أدى بهم هذا التعصب إلى التشبث بعادات جاهلية لا تقرها تعاليم الإسلام . من ذلك حرصهم على النار وتشبثهم بعاداتهم القديمة فيه . فالتعاليم الإسلامية لا تبيح من النار ما كان مباحاً في الجاهلية ، وما كان يُشير بين القبائل قتالاً يتصل أعواماً . فالله تعالى يقول : ( وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ <sup>(١)</sup> ) . ويقول : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى <sup>(٢)</sup> ) . والقصاص حدٌّ من الحدود يقيمه ولي الأمر ، ولا يتولاه ولي الدم بنفسه . هذا ، ثم إن القرآن يأمر بالنفو وينصح به في كثير من الآيات . مع ذلك تشبث العرب بالنار ، فبقي عادة متصلة فيهم منتقلة على الأجيال بينهم . وذلك شأن البدو منهم إلى يومنا هذا . بل إن من الحضرة الذين يمتنون إلى البدو بصلة القرابي من لا تزال فكرة النار متصلة في نفوسهم بكرامتهم وبحياتهم ؛ فهم

لا ينزلون عنها ، ولا يجردون في القانون وقصاصه ما يرضى عاطفتهم ويعدل بهم عن جاهليتهم . سكنت العصبية للقبيلة ، وسكنت الثارات في عهد عمر ؛ لأن المسلمين شغلوا بالجهاد والفتح . على أن ما أفاءه الفتح عليهم من مغنم ، وما بدّله من حياة مَنْ سكن الحضر في العراق والشام ومصر من أهل البادية ، أثار في كثير من النفوس نزعتها الأولى للمتاع المادى بالحياة .

فقد كان للعرب في جاهليتهم غرام بالنبيذ والخمر ، وولع بالنساء والغناء ، وافتتان في إشباع الشهوات بالقدر الذي يبئس لهم حظهم من الرخاء أو من شطَف العيش . فلما كان الفتح وعظّم حظهم من الرخاء فصارت أسباب المتاع في متناول أيديهم ، هرع الكثيرون منهم إلى إرضاء ما أحببت نفوسهم من قبل . وما أسرع ما هيأ لهم المنطق وسيلة الاقتناع بأنهم لا يخالفون في ذلك ما أمر الله به وما نهى عنه وما أقام حدوده ؛ بذلك عاد منهم إلى الشراب من عاد ، وهو يزعم أن لا إثم عليه فيما يتناوله منه ؛ فلم يفرض الله حداً لشارب ، ولم يُنزل رسول الله ولم ينزل أبو بكر بشارب عقاباً . أما النساء فقد أرضى ولع الكثيرين بهن ما ملكت أيمانهم منهن ؛ فقد كانت سبايا الفرس والروم ، ومنهن فانات الجبال والدلال ، يُقسَمَنَ بين الجند كما تُقسم أموال الفيء ، ويُعرضن في الأسواق رقيقاً يبتاع منهن من شاء أن يرضى بهن هوأه .

وإن كتب الأدب وكتب التاريخ لتقص من ألوان هذا المتاع بالخمر والميسر والنساء الشيء الكثير . سقنا من قبل حديث أوائلك نفر من المسلمين الذين شربوا الخمر بالشام فسألهم أبو عبيدة ، فلم يُفكروا ولكنهم تأولوا وقالوا : « خيرنا فاخترنا ؛ قال : هل أتم مشتهون ، ولم يعزم علينا » . وقصصنا كذلك حديث عبد الرحمن بن عمر حين شرب الخمر بمصر ، وذهب إلى عمرو بن العاص ليقيم عليه الحد . وذكرنا نبأ أولئك الذين رآهم عمر ليلة يشربون بظاهر المدينة ، فلما سأل أحدهم الغداة عما كانوا يفعلون أجابه : ألم ينهك ربك عن التجشس ! وهذه أمثال سقناها في مناسباتها ، وهي مع ذلك تدل على أن الشراب كان فاشياً في بعض طبقات المسلمين لذلك العهد ، مع ما كان من شدة عمر في تحريمه وإقامة الحد عليه .

وما يروى عن حديث النساء أكثر استفاضة ، وبعضه ينسب إلى أشخاص لهم مكاتهم . وقد رأينا كيف كان اصطفاه ذوات الجمال من السبايا أسراً جارياً مجرى العادة ، لا يُنكره أحد ، ولا يلام من أجله أحد . وقد اصطفى على بن أبي طالب وخالد ابن الوليد وغيرها من كبار الصحابة سبيات من الفرس والروم أنجب بعضهم ولم يُنجب بعضهم الآخر . ويروى صاحب الأغاني أن عبد الرحمن بن أبي بكر استهم بليلى بنت الجودي الفسّاني ، وكان قد رآها ليلة في بيت المقدس في جوارٍ ونساء يتهادين ، فإذا عثرت إحداهن قالت : يا ابنة الجودي ، وإذا حلفت إحداهن حلفت بابنة الجودي . وكانت ليلى تقيم بدمشق ؛ فلما فتحتها المسلمون سبواها وغنموها لعبد الرحمن ، فسارها إلى المدينة وأقام معها مفتوناً بها فتنة جنون . وتحدث الناس بغرامه وما يصنع ، حتى كلمته شقيقته عائشة أم المؤمنين وذكرت له حديث الناس ، فلم يزد على أن قال : « يا أخية دعيني ، فوالله لساكني أرشف من ثناياها حب الرمان ! » .

وبادلتها ليلى أول الأمر حبّاً بحب وغراماً بغرام ، وسرّها أنها كانت في بيته الملكة المتفردة بالأمر على كل ما فيه ومن فيه . لكن مرّ الأيام دسّ إلى قلبها حنيئاً لأهلها ، ولما كانت تستمتع به من مكان الملك بينهم . ولا عجب ، فأين حياتها بالمدينة من حياتها في قصر الإمارة بدمشق بين الفيض والرياض من جناته الفيحاء ! وأين عيشها مع عبد الرحمن ممّا كان لها في قصر أبيها من أسباب الخفض والنعمّة ! كان لها في هذا القصر بساط يُمدّها إذا ذهبت إلى حاجتها ، وكان يُرعى بين يديها برمانتين من ذهب تتلها بهما في طريقها ؛ وكان لها بدمشق جوارٍ يخطّهن العدّ ، وهي بالمدينة جارية وإن نالت عند سيدها من الخطوة ما نالت . وزاد بها الحنين ، فكان عبد الرحمن إذا خرج من عندها ثم رجع إليها رأى في عينها البكاء ، فإذا سألها : ما يبكيك ؟ لم تُجِرْ جواباً . وقال لها يوماً : اختاري خصالاً أيها شئت فهي لك : إن شئت أعتقتك وتزوّجتك ، وإن شئت رُدّدت على قومك ، وإن أحببت رددتك على المسلمين . وأبت كل ما عرضه ، فألح عليها يسألها عن سبب بكائها فقالت : « أبكي الملك من يوم البؤس ! » . وحزّت هذه الكلمة في نفس عبد الرحمن ، ورأى فيها من التبنكر له وإنكار جميله ما غير قلبه على ليلى ، فأعرض

عنها . وزادها إعراضه ألبا ، فرضت فشحب لونها وانطفأ نورها وذهب جمالها ، فلما عبد الرحمن ، وهانت عليه وأساء معاملتها . وبلغ من بؤس الأميرة الأسيرة أن تحرك قلب عائشة أم المؤمنين رفقا بها وشفقة عليها ، فقالت لأخيها : « يا عبد الرحمن ، لقد أحبت ليلي فأفرطت ، وأبغضتها فأفرطت ، فإما أن تُنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها ! » . وجهزها عبد الرحمن فرجعت إلى أهلها كاسفة البال كسيرة الطرف ، وقضت بينهم بقية حياة حُرمت خير أنعم الحياة .

ليست قصة عبد الرحمن بن أبي بكر فريدة في نوعها . وإذا كان لهذا النوع من القصص المنشورة في كتب الأدب والتاريخ دلالة ، فهي أن العرب طُبعوا على حبهم للمرأة وغزلم بالنساء بعد الإسلام ، وأنهم وجدوا في سببا الفتح ما زادهم في التعلق بالنساء افتتاناً . كانت قصة عبد الرحمن وأشباهها مما يقع بالمدينة ؛ ما بالك بما كان يقع بالكوفة والبصرة وبدمشق وحمص والفسطاط والإسكندرية ! وأنت تذكر قصة أم جميل إحدى نساء بني هلال ، وأنها كانت تغشى الأمراء والأشراف . فقشيت المغيرة بن شعبة وهو على ولاية البصرة ، فاتهمه فيها قوم عند عمر فعزله عن ولايته . والطبرى يسوق قصة أم جميل هذه وأنها كانت تغشى الأمراء والأشراف ويقول : « وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها » ، أى في عهد عمر .

ربما فسر لنا بعض الذى كان من إقبال كثيرين على الشراب وعلى النساء وعلى غير هذين من مُتّع كان العرب يحبونها قبل إسلامهم ، أنهم كانوا في حرب دأمة وقتال متصل ، فإذا رجعوا من الميادين كانوا على أهبة دأمة للعود إليها . فقد كانت البصرة والكوفة وبلاد كثيرة غيرها في العراق والشام مسالّح تضمّ الجند العائدين من القتال والمتأهبين له . ونحن نشهد اليوم والتاريخ يحدّثنا في أبناء ما سلف من العصور أن الحرب تنير في كثير من النفوس شهواتها وتدفعها لإمتاع هذه الشهوات وإشباعها . والسرى ذلك أن الجند لا يجدون ، إذا فرغوا من القتال ، ما يملئون به فراغهم إلا أن يذكروا فعالمهم يفاخرون بها ، وفعال زملائهم الذين خروا صرعى في حومة الوغى يتحدّثون عنها . ولم تكن الممارك في ذلك العهد تستنفد من الوقت ما تستنفده مارك هذا العصر ، وقد رأينا القادسية



لا تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ورأينا معركة نهاوند تنتهي في مثل هذا الوقت أو في أقل منه . ولم يكن القتال ليطول إلا أن يحاصر المسلمون مدينة منيعة كدمشق أو قيسارية أو بابلون أو الإسكندرية . وكان الجند كلما انتصروا عادوا بالفنائم والأسلاب ، ومن بينها السبايا من نساء البلد المفتوح وبناته . وكثيراً ما يحدث في الحروب أن يستباح البلد المفتوح أياماً عقب الفتح يُرُخى للجند فيها العنان ، يأكلون ويشربون ، ويستمتعون بكل ما يطلب لهم أن يستمتعوا به . وكان الذين يعودون من الفتح بالسبايا في حلٍّ من الاستمتاع بما ملكت أيانهم منهن . فأما من لم يكن له منهن حظ يرضيه ، ثم هوت نفسه إلى المتاع ، فقد كان يلتمس بعد أوبته وسيلة متاعه . ذلك شأن الجند في كل عصر ، وهو شأنهم اليوم ، وهو يفستر لنا بعض ما ترويه كتب الأدب والتاريخ لما حدثت من مثله في عهد الفتح الإسلامي .

على أن هذا التفسير لا يكشف لنا عن السر في حرص العرب على هذا المتاع ، بعد أن انقضى عهد الفتح والغزو ؛ فقد ظل كثيرون يتوقرون على الشراب ويولعون بالنساء في عهد الأمويين ، وفي عهد العباسيين ، وفي عهود الانحلال التي تلت هذين العهدين . ولم يكن الرأي العام شديد الإنكار على أصحاب هذا المتاع ، بل كان الناس يحسنون الاستماع لما يروى عنهم وما يوصف به متاعهم . ولا أحسبني أعرف شعراً بلغ من الاقتنان في الحمريات وفي الغزل ما بلغه الشعر العربي . والشعر الإسلامي يستمد الوحي في هذين البابين من الشعر الجاهلي أكثر مما يستمدّه منه في غيرها . فإذا كان في طبيعة القتال أن يثير الشهوات وأن يدعو إلى الإيمان في إرضائها ، فهو إنما يثير الشهوات الأصيلة في النفس ولا يخلق غيرها . لذا لم يزد الفتح العربي على أن أثار في بعض النفوس شهوات جاهلية وقف منها عمر موقفاً حازماً نتحدث عنه بعد حين .

لكن عمر لم يقف مثل هذا الموقف مما أحله الإسلام من ألوان المتاع السائغ عند بني جنسه . من ذلك أن العرب كانوا من أكثر الشعوب حباً للفناء وولماً بسماعه ، بل كان الفناء من حاجات حياتهم وضرورات عيشتهم ؛ فحداؤهم الإبل كان يذسيهم وينسى إبلهم وعناء السفر ويهون عليهم مشقته . فإذا نزلوا منزلاً يستريحون فيه بعد طول الشرى

كان الغناء بعض سلوتهم ، وبخاصة إذا كان بينهم مطرب رخم الصوت حسن الإيقاع تحي أنغامه ماني نفوسهم من حنين للأهل ، أو حرص على الثأر ، أو تطلع للمجد . وقد شاع ذلك في باديتهم وفي حضرهم ؛ فكانت مجالس الغناء تعقد بمكة والمدينة وغيرهما من بلاد شبه الجزيرة ، كما كانت تعقد في أرجاء البادية من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال . وكان عمر نفسه ، على ما عُرِف من شدته وغلظته ، يطرب للغناء ويردده أحيانا . خرج رهط من الشبان في ركب فيه عمر وعثمان وابن عباس ، وفيه رباح الفهرى الذي كان يُجيد الحداء والغناء . فلما أمسوا سأل الشبان رباحا أن يحدو لهم فأبى وقال : مع عمر ؟ قالوا : أخذ ، فإن نهاك فانتَه . فحدا فلم يعترض عمر ، بل طرب لسماعه . فلما كانت ساعة السحر قال له : كف ! هذه ساعة ذكر . وسأل الشبان رباحا في الليلة الثانية أن ينصب لهم نصب العرب ، وقالوا له حين أبى خوفاً من عمر : انصب فإن نهاك فانتَه . وسمع له عمر حتى ساعة السحر ثم قال له : كف ! فإن هذه ساعة ذكر . وسأل الشبان رباحا في الليلة الثالثة أن يغنيهم غناء القيان ، فلم يكذب يبدأ حتى صاح به عمر : كف فإن هذا ينفر القلوب ! .

وخرج عمر مرة للحج ، فاقترح من معه على خوات بن جبير أن يغنيهم من شعر خِرار . قال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بُدَيَّات فؤاده . وغنى خوات وطرب عمر ، حتى إذا كان السحر قال له : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وتغنى عمر يوما وهو في ركب :

وما حملت من ناقةٍ فوق رحلها أبرَّ وأوفى ذمَّةً من محمد  
فاجتمع الركب يسمعون إليه . فلما رأهم اجتمعوا قرأ القرآن فتفرقوا . وتكرر ذلك منهم ومنه ، فصاح بهم : يا بني اللقطاء ! إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم ، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم !

ونهيهم رباحا عن غناء القيان بعد استماعه له وهو يحدو وهو ينصب ، وغضبه من الذين تفرقوا حين قرأ القرآن بعد اجتماعهم لسماعه يتغنى بالشعر ، يشهدان بأنه كان يحب السماع ويحب الغناء . ولقد كان يحب الغناء يُحسن صاحبه التعبير عن المعاني التي ترضاها

النفس الكريمة ، ولا ينزل به إلى حيث يستهوى في النفس نوازع ضعفها ونزع شهواتها وكان ، على حبه الغناء والاستماع له ، يؤثر عليه سماع القرآن وتلاوته . ولا عجب وقد كان عمر إذا سمع القرآن وهو مغضب سكت عنه غضبه ، وكثيراً ما كان يستدر ماقيه دموعاً تعبر عن عمق إيمانه وصدق إسلامه . ولا عجب وقد كان ضعف النفس لأمرها بالسوء شرّ ما يعاب به الرجل عند عمر .

ولمّا نهى عمر عما يحرّك في النفس نوازع الضعف ونزع الشهوة لِمَا رأى من سوء أثره في حياة الجماعة . وحياة الجماعة وقوة هذه الحياة ونشاطها وتوثبها إلى الأغراض السامية واجبات يضطلع بها الحاكم ، كاضطلاعهم بحفظ النظام في الدولة والحفاظة على سلامتها ؛ لأن هذه القوة وهذا النشاط وهذا التوثب كلها أدوات للنظام والسلامة . وليست الأقوال دون الأفعال أثراً في هذه الحياة . كان المديح وكان الهجاء من أغراض الشعر العربي في الجاهلية ، ثم ظلّ من أغراضه في الإسلام ، ولا يزالان من أغراضه إلى اليوم . وكان بعض الشعراء يفلون في مدائحهم وأهاجيهم غلوّاً يحرّك الحفاظ ويثير المنازعات ؛ فكان عمر يؤاخذ هؤلاء الشعراء ، ويأخذهم بالشدة التي ترددهم وتردهم عن الاسترسال في غيهم .

والرواية عنه في ذلك مستفيضة . روى أنه حبس الحطيئة لأنه كان يقول الهجر ويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم . فلما أعطاه الحطيئة موثقاً ألا يعود إلى ما حبس فيه أطلقه . فلما ولي ناداه فرجع فقال له : كأني بك يا حطيئة عند فتى من قريش قد بسط لك تمرقة<sup>(١)</sup> وكسر لك أخرى ثم قال : غننا يا حطيئة ، فطفقت تغنيه بأعراض الناس ! فأقسم الحطيئة أن لن يفعل . قال زيد بن أسلم : ثم رأيت الحطيئة يوماً عند عبيد الله ابن عمر قد بسط له تمرقة وكسر أخرى ، ثم قال : تغنيننا يا حطيئة ، وهو يغنيه ؛ فقلت : يا حطيئة ! أما تذكر قول عمر ؟ ففزع وقال : رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حياً ما فعلنا هذا . ولما حبس عمر الحطيئة لهجائه الزبيرقان بن بدر في أبياته التي يقول فيها :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبَغِيَّتَيْهَا      وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

(١) التمرقة : الوسادة .

وكان عمر مشعوقاً بالشعر ، يرويه ويتمثل به ويحث على روايته . فلما شكا الزبرقان إليه الخطيئة أراد أن يدرأ التعزير بالشبهة ، فقال حين سمع هذا البيت : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . ثم إنه سأل حسان بن ثابت وهو الخبير في الشعر ، فلما شهد بإخاش هذا البيت في الهجاء ، جلس الخطيئة ثم أنذره ألا يعود إلى مثل ما فعل . ولم يمد الخطيئة إلى الهجاء إلا في خلافة عثمان .

وحبس عمر الذي هجا بني العجلان بأبياته التي يقول فيها :

أولئك أولاد المهجين وأسرهُ ۞ لئيم ورهط العاجز المتذلل

حبسه وضربه ، وأنذره إن عاد لئلهما ضاعف عقوبته .

وإنما عاقب عمر الشعراء المهجائين فحبسهم وضربهم وعزرمهم وأنذرمهم ، مع شغفه بالشعر وروايته ، لما يعلمه من أن القول أعمق في حياة الجماعة الإنسانية أثراً من كل ما سواه . فالناس ، من طفولتهم إلى ختام حياتهم ، يتأثرون به ويندفعون إلى أعمالهم بما يلقونونه منه : عقائدنا وعاداتنا وعلومنا وتفكيرنا وعواطفنا وميولنا تتكيف كلها بما نسمعه منذ طفولتنا من أهلنا وأساتذتنا وأصحابنا ، وما نقرؤه في كتب من سبقنا . والمديح والهجاء كانا سائغين في الجاهلية ، بل كانا من المقومات الأساسية للحياة الاجتماعية فيها ، ثم كانا صيحة الحرب والدعاية حين تندفع قبيلة لتتأثر من قبيلة . وإذا كان القتال من مألوف الحياة إذ ذاك ، فقد كان الشعراء يُشيدون بحاسن إحدى القبيلتين وينشرون مثالب الأخرى . أما وقد أصبح العرب أمة واحدة تقف في وجه عدوها صفاً واحداً ، فقد وجب أن تزول هذه العادة الجاهلية من حياة الأمة الاجتماعية ، وقد وجب على أمير المؤمنين أن يعمل لذلك جهده . وزوالها أوجب في عهد النضال والفتح ، لما يقتضيه من تألف القلوب وتضافر القوى واتجاه الأمة بأسرها في وحدة لا انفصام لها لمواجهة العدو والقضاء على كل مطامعه .

وقد كانت سياسة عمر في القضاء على هذه النعرة القبليّة موفقة ، بل كانت كلها السداد والحكمة وبعد النظر . أقرّر هذا وأنا أشد الناس إيماناً بحرية الرأي وحرية التعبير عنه بالقول وبالكتابة . وبكل ما عرفت الانسانية وما ستعرف من وسائل التعبير . ذلك

بأن الرأي شيء ، والهجاء والقذف شيء آخر . الرأي فكرة أو مجموعة من الأفكار تصدر عن النطق أو عن الوجدان ، وغاية صاحبه منه أن يكون الناس أقل شقاء أو أسعد حالاً مما هم فيه . قد يخطئ صاحب الرأي وقد يصيب . وأنت في حِلٍّ من أن تحارب الرأي إذا عقدته خاطئاً . لكنك لا تملك أن تحارب صاحب الرأي إلا أن تُقيم الدليل على سوء نيته في إبدائه ، وعلى أنه لم يقصد به إلى خير عام ومصالحة يشترك فيها الناس جميعاً . فإذا استطعت إقامة هذا الدليل لم يسعُ لك مع ذلك أن تتناول من حياة صاحب الرأي الخاصة ما لا يتصل بالرأي الذي أبداه ، أو بالعمل الذي يريد أن يرتبه على هذا الرأي ، أو بما أقمت عليه الدليل من سوء قصده . في هذه الحدود وحدها أنت في حِلٍّ من أن تحاربه وأن تبلغ في حربه ما شئت من شدة وعنف . أما أن تتعرض إلى ما وراء ذلك من حياته فذلك هو القذف ، وهو الهجاء والإفذاء فيه ، وهو ما لا يجوز لقانون أو الحاكم أن يُبيحه ، بل يجب أن يعاقب مرتكبه عقاباً رادعاً في بدنه وفي ماله ، وأن يبلغ هذا العقاب من الشدة بحيث يصون لأصحاب الرأي وللمعاملين للخير العام حرمتهم في رأيهم وفي عملهم ، بقدر ما يصدّم النقد النزيه عن تجاوز الحق في الرأي والخير العام في العمل .

أدت سياسة ابن الخطاب في محاربه الهجاء والهجائين إلى استئمان الحفائظ وسكون كل ما يثيرها . ولا أدل على ذلك مما تلوته من قول الحطيئة حين تغنى بعد عمر بأهاجيه : « رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حياً ما فعلنا هذا » . لكن الهجاء لم يلبث أن عاد بعد عمر ، وأصبح من مألوف الحياة الاجتماعية في الجماعة الإسلامية . على أنه لم يعد كما كان أداة دعابة للقبائل في منازعاتها بقدر ما أصبح أداة تكشيب وارتزاق ، أو أداة إرضاء للأهواء وإشباع للشهوات . وكذلك كان الشأن في غير الهجاء من مألوف الحياة الاجتماعية قبل الإسلام . ولا عجب ! فقد بقيت في نفوس أكثر العرب الذين أسلموا نزعات جاهلية لم يستطيعوا التغلب عليها ، بل لعلهم لم يحاولوا هذا التغلب . وقد عبّر الأستاذ أحمد أمين بك خير تعبير عن هذا المعنى في كتابه : « فجر الإسلام » بقوله :

— الحق أن النزاع بين النفسية الإسلامية والنزعات الإسلامية ، والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية ، كان شديداً وكان عهده طويلاً ، وأن الإسلام لم يصبغ العرب صبغةً

واحدة على السواء . بل إن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أولئك دخل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره . فأما من أسلموا يوم الفتح أو بعده ، وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتصرون فلم يسمهم إلا الإسلام ، فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقاً . ( لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى (١) ) . وبحق قسم المؤرخون الصحابة إلى طبقات حسب مراتبهم ، أوصلها بعضهم إلى اثنتي عشرة طبقة آخرها من أسلم يوم الفتح .

كان عمر من خير المسلمين إدراكاً لأصول الدين وقواعده ، ومن أحسنهم تقديراً لما يؤدّي إلى إقرار هذه الأصول واستقرار هذه القواعد . لذلك حرص أعلى أن ينفى عن الجمعية الإسلامية ما لا يقرّه الإسلام مما ألف العرب في جاهليتهم ، أن يصبغها بصبغة الدين الجديد في مظاهر حياتها جميعاً . والإسلام إمبراطوري في جوهره ، وإمبراطوريته روحية أولاً وقبل كل شيء . وهو لذلك يؤلّف بين القلوب بروابط الإخاء والمساواة ، « فلا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . لا مفرّ للأمين على مبادئ هذا الدين إذاً من أن يزود عن مبادئه كل ما يخالف أغراضه أو يعطل تحقيقها .

وقد كان عمر حازماً في ذلك كل الحزم ، صارماً فيه كل الصرامة ، لا يعرف تردداً ولا هواده . كان يقيم حدود الله ، ويضع من الحدود ، بعد مشورة أولى الرأي ، ما يتفق وأغراض الإسلام . وقد رأيت من فعله بمن شربوا الخمر في الشام وفي غير الشام . روى أنه استشار في الخمر يشربها الرجل ، فقال عليّ بن أبي طالب : « أرى أن تضربه ثمانين حدة القذف ؛ فإنه إذا شربها سكر ، وإذا سكر هذى ، وإن هذى افتري » . فجلد عمر في الخمر ثمانين ، واعتبر عمله هذا حداً لشارب الخمر بإجماع المسلمين في عهده ، ومن بعده (٢) . وسنرى عند الكلام في الفصل التالي عن (اجتهاد عمر) ، ما كان من شدة

(١) آية ١٠ سورة الحديد

(٢) في بعض الروايات أن رسول الله حد شارب الخمر . ذكر المرحوم محمد بك الحضري في كتابه : (تاريخ التشريع الإسلامي) ما ورد في القرآن من حدود : هي القصاص وحد الزنا وحد القذف وحد السرقة وحد قاطع الطريق ثم قال « وليس في القرآن من الأجرية غير ما ذكرنا . وقد بينت السنة حداً سادساً هو حد شارب الخمر ؛ فقد حده رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

حرصه على أن تستقر الحياة الإسلامية على أساس صحيح من المبادئ التي نزل بها الوحي ،  
والتي قررتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

\*\*\*

أنت ترى ، من كل ما سقناه في هذا الفصل ، أن الحياة الاجتماعية تطوّرت في عهد  
عمر متأثرة بعوامل كثيرة متباينة ، لم يكن الكثير منها قائماً في عهد النبي ، ولم يكن قد  
أُتيح لبعضها أن يظهر أثره في عهد أبي بكر . فمن تقاليد الجاهلية ما اندثر ، منذ أعلن  
العرب إسلامهم قبيل وفاة رسول الله ؛ ومن هذه التقاليد ما اختفى بحكم الأحوال ، ثم جعل  
يبرز بين حين وحين بروزاً يدلّ على بقاء جذورة حياة متأصلة ، متأهبة لتنمو وتتفرع من  
جديد . هذا إلى ما أنشأه الإسلام في نفوس من أخذوا به من عقائد وتقاليد جديدة لم يكن  
لهم عهد بها من قبل ، وإلى ما لقيه المسلمون في البلاد التي فتحوها من حضارة لم تكن  
مظاهرها مألوفة لهم ، فلما خالطوا أهلها واتصلوا بهم أصبحت سائفة عندهم محببة إليهم .  
ولم يكن العامل الاقتصادي أقل أثراً من سائر العوامل في هذا التطور ؛ فقد أضاء  
الفتح على كثيرين رخاء جعل المتاع يلين الحياة في متناول أيديهم ، فأقبلوا عليه ينهلون  
منه . وكان الذين ذهبوا إلى العراق والشام ومصر أشد على المتاع إقبالاً ؛ لأن الحضر  
والخصب يبسّران من ألوان هذا المتاع ما لا تيسره البادية أما الذين أقاموا في شبه الجزيرة  
فوجدوا في العطاء الذي فرضه عمر لهم ما جعلهم يفتنّون ، فيما عرفوا من ألوان المتاع  
في الجاهلية افتناناً رأيت صوراً منه فيما قصصنا من قبل .

وقد أدّى هذا التطور إلى نشاط في الحياة العقلية ، اقتصر مداه عند العرب في ذلك  
العهد على اجتهاد الرأي فيما لم ينزل به وحى ، ولم تجر به سنة من رسول الله . ولعلك  
تذكر قول أبي بكر في مرض موته : « وَدِدْتُ لو أننى سألت رسول الله عن ميراث  
ابنة الأخ والعمة ؛ فإن في نفسى منها شيئاً » وقد أطرد اجتهاد الرأي في عهد عمر وفي  
العهود التي تلتها ، فكان الفقه الإسلامي ثمرته .

ثم أدّى هذا التطور كذلك إلى اتجاه جديد في حياة الأمم التي فتحتها المسلمون ؛  
وكان لهذا الاتجاه أثر عميق في حياة العرب أنفسهم . وقد بدا هذا الاتجاه الجديد في العراق

والشام وفارس بنوع خاص ، وإن اختلف في هذه الأمم باختلاف الأجناس التي تتكون منها . ذلك أن العراق والشام كان بهما من قبائل العرب من أقبلوا على الإسلام وتأثروا بتعاليمه ، ومن احتفظوا بدينهم وتأثروا مع ذلك بما فرضه الفتح الإسلامي من نظم في السياسة والاقتصاد . أما فارس فاختلف اتجاهها عن العراق والشام . وسنرى أثر هذا الاختلاف عند الكلام عن مقتل عمر .

وقد تحدثت من قبل عن الأثر الذي تركه الفتح الإسلامي أول عهده في مصر . وإنما اختلف هذا الأثر عن مثله في العراق والشام وفارس ، لأن سياسة ابن العاص في مصر لم تكن كسياسة خالد بن الوليد في العراق لعهد أبي بكر ، ولا كسياسة الولاية الذين قاموا بالأمر في الشام بعد فتحه ، ولم تكن مصر كفارس في وضعها الساسي ؛ إذ كانت فارس مستقلة ومصر ولاية رومانية ، لكنها كانت تشبه فارس من حيث اختلاف أهلها عن العرب في الجنس واللغة والدين . مع ذلك لم تكن سياسة ابن العاص ضعيفة الأثر في تحويل المصريين ليكونوا أمة إسلامية لغتها العربية ، وليكونوا من بعد ذلك قلب العالم الإسلامي ومركز الحضارة فيه .

كان لعمر أثر كبير في توجيه ما تم من تطور في الحياة الاجتماعية لبلاد العرب . ولا أخالني أغلو إذا قلت إن فضله في هذه الناحية لا يقل عن فضله في الناحية السياسية . وأثره في توجيه هذا التطور لم يقف عند ما أشرنا إليه في هذا الفصل وفيما سبقه من فصول الكتاب ، بل كان لاجتهاده رأيه أكبر الأثر في هذا الأمر ، كما كان له أكبر الأثر في غيره من أمور المسلمين .

وهذا ما سنبيّنه في الفصل التالي عند الكلام عن اجتهاد عمر .



## الفصل الرابع والعشرون

### اجتهاد عمر

رَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ سَلْمَانَ : أَمَلِكُ أَنَا أَمْ خَلِيفَةُ ؟ فَأَجَابَهُ سَلْمَانُ :  
 إِنْ أَنْتَ جَبَيْتَ مِنْ أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ دِرْهَمًا أَوْ أَقْلًا أَوْ أَكْثَرَ ثُمَّ وَضَعْتَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ  
 فَأَنْتَ مَلِكٌ غَيْرِ خَلِيفَةٍ ، فَاسْتَعْبَرَ عُمَرَ . وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا : وَاللَّهِ مَا أَدْرَى : أَخْلِيفَةُ أَنَا  
 أَمْ مَلِكٌ ، فَإِنْ كُنْتُ مَلِكًا فَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ ! قَالَ قَائِلٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا .  
 قَالَ عُمَرُ : مَا هُوَ ؟ وَأَجَابَهُ صَاحِبُهُ : الْخَلِيفَةُ لَا يَأْخُذُ إِلَّا حَقًّا وَلَا يَضَعُهُ إِلَّا فِي حَقِّ ،  
 فَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ . وَالْمَلِكُ يَعْسِفُ النَّاسَ ، فَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا وَيُعْطَى هَذَا . فَسَكَتَ عُمَرُ .  
 وَتَعْرِيفُ الْخِلَافَةِ عَلَى هَذَا الذَّخْوِ وَحَبْسِهَا فِي هَذِهِ الْحُدُودِ لَا يَتَّفِقُ وَمَا فَهَمَهُ الْمُسْلِمُونَ  
 الْأَوَّلُونَ عَنْهَا ؛ فَقَدْ نُعِيَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ بِأَنَّهُمُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ، وَقَصِدَ بِهَذَا النِّعَتِ  
 أَنَّهُمْ خُلَفَاءُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ سَارُوا سِيرَتَهُ ، وَأَتَّبَعُوا سُنَّتَهُ ، وَنَهَجُوا نَهْجَهُ فِي أُمُورِ  
 الدِّينِ وَالدُّنْيَا . وَذَلِكَ قَوْلُ عُمَرَ : إِنْ لِي صَاحِبِينَ سَكَّ طَرِيقًا ، فَإِنْ خَالَفْتَهُمَا خُوفِ بِي .  
 أَمَّا الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَقَدْ سَارُوا فِي النَّاسِ سِيرَةَ الْمُلُوكِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانُوا  
 أُمَرَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَكُونُوا خُلَفَاءَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَلَا لَخُلَفَائِهِ .

فَرَسُولُ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ قَطًّا مَلِكًا ، وَمَا تَوَلَّاهُ مِنْ شُؤْنِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَةِ لَا يَشْبَهُ  
 مَا تَوَلَّاهُ مَلُوكُ الْفَرَسِ وَالرُّومِ لِهَدْيِهِ ، وَمَا تَوَلَّاهُ الْمُلُوكُ فِي مَخْتَلِفِ الْأُمَمِ وَالْعُصُورِ . إِنَّمَا كَانَ  
 رَسُولُ اللَّهِ هَادِيًا لِلنَّاسِ وَمُرْشِدًا لَهُمْ ، وَكَانَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا يُبَلِّغُ النَّاسَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ،  
 وَيَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ الْقِيمِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . وَلَقَدْ أَوَى الْمُسْلِمُونَ إِلَى ظِلِّهِ لِيَزِدَادُوا  
 هُدًى بِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ آيِ الْوَحْيِ وَبِمَا يَعْلَمُهُمْ مِنْ سُنَّتِهِ : وَخُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ هُمُ الَّذِينَ  
 قَامُوا فِي النَّاسِ مَقَامَهُ . لَمْ يَكُنْ لَهُوَلَاءُ الْخُلَفَاءُ رِسَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ  
 رَسُولِ اللَّهِ ، اِمْتَثَلُوا تَمَالِيْمَهُ وَأَشْرَبُوا مِبَادِيَهُ . فَلَمَّا اسْتَخْلَفُوا مِنْ بَعْدِهِ نَشَرُوا هَذِهِ التَّعَالِيمَ  
 وَالْمِبَادِيءَ بَيْنَ النَّاسِ تَوْجِيهًا لَهُمْ إِلَى الْهُدَى ، لِيَأْخُذَ كُلُّ مَنْهُمْ بِالْحَقِّ وَلَا يَضَعَهُ إِلَّا فِي حَقِّ

( عمر ج ٢ - ١٨٢ )

وعلى هذا المعنى كان عمر خليفة ، كما كان أبو بكر خليفة . ولذا حرص على أن يترسم طريق الصديق في بساطة العيش ، وفي التسوية بين نفسه وبين الناس . وفي تحريم الحق ودعوة الناس إليه والقضاء بينهم به .

كان رسول الله يدعو الناس لاتباع ما يوحى إليه من ربه فلما كثرت أصحابه جعلوا يسألونه عن أمور تعرض لهم لم ينزل فيها وحى ، والأخذ فيها بمعروف الجاهلية يخالف ما كان النبي يذيعه بينهم من تعاليمه . وكثيراً ما كان ينزل الوحي جواباً على ما يسألون عنه ، فيقول تعالى في سورة البقرة<sup>(١)</sup> : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْغَفْوَةُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَلْفَسَادِ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ مِنَ الْأُمَّةِ مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو

إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَبَيَّنُّ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ) .

هذه الآيات المتتابعة من سورة البقرة نزلت في أوقات متفرقة . وقد نزلت كلها جواباً على مسائل كان المسلمون يوجهونها لرسول الله ، فأوحى الله إليه هذه الآيات لمدايتهم وهداية البشر وإرشادهم ، ولبيان الأحكام فيما يسألون عنه . وهذه الآيات نزلت في حوادث رواها المفسرون ، وأسماؤها: « أسباب النزول » . يقول المرحوم محمد بك الخضرى في كتابه ( تاريخ التشريع الإسلامى ) : « أمّا الأحكام التي نزلت بدون حدث أو سؤال فقليلة . وقلما نرى حكماً لم يذكر المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه » .

روى أن رسول الله أرسل مرتداً الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوماً مُسْتَضْعَفِينَ ، فعرضت امرأة مشركة عليه نفسها تريد زواجه ، وكانت ذات جمال ومال ، فقبل ما عرضت ووقف التنفيذ على إذن رسول الله . فلما رجع إلى المدينة وعرض الأمر على النبي لإجازة النكاح نزل قوله تعالى : ( وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُوْمِنَ ) . . إلى آخر الآية . وأنت تذكر أن اليهود والمنافقين بالمدينة كثيراً ما كانوا ينتهزون أوقات الشراب ليثيروا بين الأوس والخزرج منازعاتهم القديمة ، وأن عمر سأل رسول الله لذلك عن الخمر ولم يكن قد نزل فيها قرآن وقال : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِيهَا ، فنزلت الآية : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ أَفْعٌ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ) .

وكان المسلمون يسألون أحياناً عن أشياء ، فلا ينزل الوحي بالجواب عليها لأول ما يسألون النبي عنها . عند ذلك كان يقضى فيها برأيه ؛ وذلك قوله : إنما أفضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى » . فإذا نزل القرآن بعد ذلك بغير ما كان قضى به ترك ما قضى به على حاله ، واستقبل ما نزل به القرآن<sup>(١)</sup> . وقد نزل الوحي غير مرة مخالفاً لما قضى به . من ذلك ما سبق أن ذكرناه في أسرى بدر ؛ فقد طمع هؤلاء الأسرى في الفداء

(١) الجزء الرابع من كتاب الإحكام للامدى : ص ٤٢ و ٤٣ على أن بعض الأصوليين والفقهاء لا يسلمون بأن الحكم من النبي بغير القرآن لا يكون إلا اجتهاداً ، وينهجون إلى أن من السنن ما كان وحياً لا اجتهاداً .

وأغلوه ، فاستشار رسول الله أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر : « قومك وأهلك استأن بهم لعل الله يتوب عليهم ، وخُذْ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَتَّقُوا بِهَا عَلَى الْكُفَّارِ » وقال عمر : « كَذَّبوك وأخرجوك ، قَدَّمهم فاضرب أعناقهم ؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله تعالى أغناك عن الفداء » . وسمع محمد ، بعد وزيريه ، لكبراء المسلمين ، ثم قبل الفداء وأطلق الأسرى . من بعد ذلك نزل قوله تعالى : ( مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ <sup>(١)</sup> ) . فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله : « لو نزل بنا عذابٌ مانجا لآلِ عمر » .

وخالف الوحي رسول الله كذلك في أمر الخوالم الذين دُعُوا للخروج إلى غزوة تبوك لقتال الروم ، فاعتذروا إلى النبي بشتى المعاذير واستأذوه في التخلف بالمدينة فأذن لهم ، فنزل في ذلك قوله تعالى : ( لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا نَخْرُجَنَّامَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْمَهُمْ كَذَابُونَ . عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ <sup>(٢)</sup> ) . فلو أن هذه الآية نزلت قبل أن يأذن رسول الله للخوالم لما أذن لهم . على أن ما خالف الوحي فيه اجتهاد رسول الله قليل . ولذلك كانت سنته صلى الله عليه وسلم حجة مُتَّبَعَةٌ فيما لم يخالفه الوحي فيه ، كما كانت طريقته في الاجتهاد حجة مُتَّبَعَةٌ كذلك . وقد كان يلجأ إلى القياس . سألته جارية ختمية فقالت : يارسول الله إن أبي أدركته فريضة الحج شيخاً زَمِيناً لا يستطيع أن يحج ، إن حججت عنه أينفعه ذلك ؟ فقال لها : « أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ أَمَا كَانَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ؟ » ، قالت : نعم . قال : فدين الله أحقَّ بالقضاء » . وإلحاق دين الله بدين الآدمي في وجوب القضاء ونفعه هو عين القياس .

وكان رسول الله يقضى بين المسلمين ويقول لهم : « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على محوماً أسمع منه . فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً

(١) آية ٦٧ وما بعدها ، سورة الأنفال . (٢) آية ٤٢ وما بعدها ، سورة التوبة .

فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار . يقول الآمدي : « وذلك يدل على أنه قد يقضى بما لا يكون حقاً في نفس الأمر » . ولا عجب في قول الآمدي هذا ؛ فإنما كان رسول الله يقضى بما كان يرفعه إليه الخصوم من حجة . ولم يكن قضاؤه وحياً من عند الله ، بل وزناً للبيئات التي تقدّم إليه . وقد يعجز صاحب الحق عن إقامة الحجة على حقه ، أو يعجز عن دفع حجة خصمه . والقاضي العادل لا يقضى بعلمه ، وإنما يقضى بما يطمئن ضميره إلى قيام الحجة عليه .

على أن القضاء شيء والسنة شيء آخر ، وإن صح أن ينطوى القضاء على السنة إذا رتب الحكم مبدأ يطبق عمومه على الحوادث المتشابهة . أما السنة لذاتها فما بين به رسول الله ما أوجبه القرآن من المبادئ والأحكام ، بالقول أو بالفعل أو بهما معاً . وذلك قوله تعالى : ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ <sup>(١)</sup> ) . والسنة بالفعل كالصلاة والحج ؛ فقد كان رسول الله يصلي بالمسلمين الصلوات الخمس ويقول لهم : « صلّوا كما رأيتموني أصلي » . ولما حج رسول الله قال للذين معه : « خذوا عني مناسككم » أما السنة بالقول فهي الحديث . ومن الحديث ما اتصل بالوحي مفصلاً مفسراً له ، ومنه ما اتصل بالحياة مما وقع في عهد النبي ورفّع إليه فأبدى فيه رأيه . وكان النبي يبدي رأيه في هذه الأمور بعد مشاورة أصحابه عملاً بقوله تعالى : ( وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ) .

وقد شاور النبي أصحابه في الدعوة للصلاة ، فقال بعضهم : نار . وقال بعضهم : بوق ، وقال بعضهم : ناقوس ، ثم اتهموا إلى الأذان على ما قدمنا . وكان يشاور أصحابه فيما يصنع إذا خرج للقتال . وشاورهم في غزوة أحد أيتحصن بالمدينة أم يلقى العدو بظاهرها ؛ وشاورهم يوم الحديبية ، وشاورهم في غير هذين من غزواته . وكان أبو هريرة يقول : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم » .

وكان رسول الله يدعو أصحابه إلى الاجتهاد . روى عن عمرو بن العاص أنه قال : « جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا عمرو ! اقض بينهما ؛

قلت : أنت أولى بذلك مني يا نبي الله . قال : وإن كان . قلت : على ماذا أقضي ؟ قال :  
 إن أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات ، وإن اجتهدت فأخطأت فلك حسنة .  
 وحكم رسول الله سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم بقتلهم وسبي ذراريهم ،  
 وأقر النبي رأيه .

وقتل أبو قتادة رجلاً من المشركين ، فأخذ سلبه غيره ؛ فقال أبو بكر : لا نقصد  
 إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ففعلت سلبه ؛ أردد عليه سلب قتيله .  
 فقال رسول الله : « صدق ، أردد عليه سلبه » .

ولما بعث النبي معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقهه الناس في دينهم سأله . بم تحكم ؟  
 وأجاب معاذ : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنن رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟  
 قال : اجتهد رأيي . وأقره النبي على ذلك وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يحببه  
 الله ورسوله » . وهذا يتفق وما روى عنه عليه السلام أنه قال لعبد الله بن مسعود :  
 « أفض بالكتاب والسنة إذا وجدتهما ، فإذا لم تجد الحكم فيهما اجتهد رأيك » .

على أن اجتهاد الرأي لم يقصد به ، في زمن النبي ولا في العصور الأولى ، إلى إقامة  
 مذاهب في الفقه تستوعب ما يجري في الخاطر أو تؤدي إليه الفروض ، بل كان مقتصرأ  
 على ما يحدث بالفعل من شؤون الحياة مما يحتاج إلى الرأي لحسمه . روى عن ابن عباس  
 أنه قال : « مارأيت قوماً قطُّ كانوا خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
 ماسألوه عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن في القرآن . . . وما كانوا يسألونه  
 إلا عما يفهمهم . وكان عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن » . وعن عمر بن  
 إسحاق أنه قال : « لمن أدركت من أصحاب رسول الله أن أكثر مما سبقني منهم ، فما  
 رأيت قوماً أبسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم » .

لذلك لم يكن للخلاف الذي ينشأ عن اجتهاد الرأي ، لإقامة مذهب كامل ، أثر ظاهر  
 في التشريع لذلك العهد . بل كان رسول الله ينهى أصحابه عن التفرق والتنازع في الدين ،  
 امتثال لما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى : ( أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ <sup>(١)</sup> ) ،

(١) آية ١٣ ، سورة انشورى .

وقوله : ( إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيَنَهُمْ وَكَانُوا شَهِيمًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ <sup>(١)</sup> ) وغيرها من الآيات الكثيرة التي في معناها . وقد نهى أصحابه حين رآهم يتكلمون في القدر وقال لهم : « إنما هلك من قبلكم بخوضهم في هذا » : لذلك لم يُنقل عن أحد من الصحابة الخوض والنظر في المسائل الكلامية مطلقاً . ولو أن ذلك حدث لنقل إلينا كما نقل عنهم اجتهادهم الرأي في المسائل المتصلة بالواقع من أمور الحياة .

وقد كان المسلمون الأولون أشد احتياجاً لاجتهاد الرأي ، بعد أن اختار الله رسوله إليه . ذلك أنهم كانوا في عهده يستفتونه فيفتيهم ، وترفع إليه القضايا فيقضى فيها ، ويرى الناس يفعلون معروفات فيمدحه ، أو منكراً فينكره . وكان أصحابه يقولون بأرائهم فيبلغه ذلك ، فيصوب المصيب ويخطئ الخطيء . فلما قبض لم يكن لهم بدٌّ من الأخذ بالقياس في الوقائع التي لانصت فيها . وقد فعلوا ولم ينكروا أحدٌ منهم على من فعل لكنهم لم يفتوا برأيهم على سبيل الإلزام ولا على أنه حق ، بل على أنه ظنٌّ يستغفرون الله منه ، أو على سبيل صلح بين الخصمين . يقول ابن حزم في كتاب ( الإحكام في أصول الأحكام ) : « وأما القول بالرأي والإستحسان والاختيار فكثير عنهم . رضى الله عنهم ، جداً . ولكنه لا سبيل إلى أن يوجَّه إلى أحد منهم أنه جعل رأيه ديناً أوجب حكماً ، وإنما قالوا إخباراً منهم بأن هذا الذي يسبق إلى قلوبهم ، وهكذا يظنون ، وعلى سبيل الصلح بين المتخصمين ، ونحو هذا <sup>(٢)</sup> » . وما كان لهم ألا يجتهدوا والأفضية الجديدة ترفع إليهم ، وأحوال الحياة في القبائل والأمم التي انصل أصحاب رسول الله بها تختلف عن أحوال الحياة عندهم ، وهذه الأحوال وهذه الأفضية تحتاج كلها إلى رأى لا سبيل إلى طمأنينة الناس للعيش من دونه .

وكان أولُ اجتهادهم استخلافهم أبا بكر إثر وفاة النبي . وأنت تذكر ما حدث في سقيفة بني ساعدة من محاوراة ومن جدل اشتدَّ وعُنف حتى كاد يؤدِّي إلى الفتنة ، ثم انتهى إلى بيعته أبي بكر ، فلما تولى أبو بكر أمر المسلمين اختلفوا في بعث أسامة لقتال الروم ، وذلك حين رأوا انتقاض العرب بسطان المدينة . قال قوم من المهاجرين والأنصار

(١) آية ١٥٩ سورة الأنعام ، (٢) الجزء السابع : ص ١١٨ ، ١١٩ .

للصدِّيق: « إنَّ هؤلاء ( يقصدون جيش أسامة ) جلُّ المسلمين . والعرب على ما ترى قد انتفضت بك ؛ فليس ينبغي أن تفرِّق عنك جماعة المسلمين » . وطلب أسامة نفسه إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى الصدِّيق يستأذنه أن يعود بالجيش ، ليكون قوته على المشركين فلا يتخطفون المسلمين . وكان جواب الصدِّيق على ذلك كله : « والذي نفسُ أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تحطُّفني لأنفذت بنتَ أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته » .

ولما امتنعت القبائل القريبة من المدينة عن إيتاء الزكاة وعزم أبو بكر قتالهم ، جمع الصحابة يستشيرهم ، فخالفه قوم ، بينهم عمر بن الخطاب ، ورأوا ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . قال عمر : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحمها ؟ » وأجابه أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق للمال . وقد قال : إلا بحمها » . قال عمر « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال ففرفت أنه الحق » .

ولما وقعت غزوة اليمامة واستشهد فيها من استشهد من حفاظ القرآن ، ذهب عمر ابن الخطاب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد وقال له : « إن القتل قد استجر يوم اليمامة بالناس . وإني أخشى أن يستجر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن . إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن » . قال أبو بكر وقد تولته الدهشة لما سمع « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . ودار بين الرجلين حوار طويل افتتح الصدِّيق على أثره برأى عمر ، فدعا زيد بن ثابت وذكر له اقتراح عمر بجمع القرآن وقال : « فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هو والله خير : فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لتلك صدرى . ورأيت الذي رأى عمر » . ثم استطرد موجِّهاً الحديث لزيد فقال : « إنك رجل شاب عاقل ولا تهملك . كفت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمه » قال زيد : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر : هو والله خير



وأتمّ زيد هذا الحديث فقال : فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر . فقام من مجلسه هذا فجعل يتتبع القرآن من الرّقاع والأكتاف والعُسب وصدور الرجال حتى جمعه .

فلما انتهت حروب الرّدة وبدأ غزو العراق وبعث خالد بن الوليد بأخماس الفداء إلى المدينة ، أمر أبو بكر بالتسوية بين الناس في العطاء ، فقال له عمر : كيف تجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ أو قال له : كيف تجعل من ترك داره وأمواله وهاجر إلى رسول الله كمن دخل في الإسلام كرهاً ؟ فقال له أبو بكر : إنما أسلوا الله وأجورهم على الله . وإنما الدنيا بلاغ . وقد رأيت أن عمر فرق بينهم في العطاء وجعلهم طوائف لما استخف .

هذه أمثلة من اجتهاد أبي بكر في شؤون الدولة العامة ؛ وهي كما ترى ، شؤون كلها جليلة الخطر . وأما اجتهاده في الفقه فنه : أنه ورث أم الأم دون أم الأب ، فقال له بعض الأنصار . لقد ورثت امرأة من مَيِّتٍ لو كانت هي الميِّتة لم يرثها ، وتركت امرأة لو كانت هي الميِّتة ورث جميع ما تركت ، فرجع إلى التشريك بينهما .

وسئل أبو بكر عن الكلالة فقال : أقول في الكلالة برأبي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فتنى ومن الشيطان ؛ الكلالة ما عدا الوالد والولد .

أنت ترى مما سبق في هذا الفصل ، ومما سقناه في الفصلين الثالث والرابع حين تحدّثنا عن عمر في صحبته النبي وفي عهد أبي بكر ، ما كان للفراروق من نصيب عظيم في اجتهاد الرأي ، أيّد بعضه القرآن ، وأقرّ بعضه رسول الله وأعجب به حتى كان يقول : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » . وقد رأيت أن عمر استفتح عهده فأمر برد السبايا من أهل الرّدة إلى عشائرم . على خلاف ما رأى أبو بكر من قبيله . وقال : إني كرهت أن يصير السبي سنة في العرب ؛ وأنه لم يول على البعث الأول إلى العراق رجلاً من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما كان يفعل أبو بكر ، بل ولّى عليهم أبا عبّيد الثقفي لأنه كان أول الناس انتداباً لهذا البعث بعد أن تقاعس الناس ثلاثة أيام ؛ وأنه عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجند بالشام ، مع أنه سيف الله بحديث رسول الله ، وأن أبا بكر

قال فيه : ما كنت لأشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين ؛ وأنه أجلى اليهود والنصارى عن مواطنهم من شبه الجزيرة : وكان رسول الله ثم أبو بكر من بعده قد عقدا مع نصارى نَجْرَانِ عهداً على الجزية يدفعونها لقاء احترام المسلمين عقيدتهم ودفاعهم عنها . وهذا كله اجتهاد رأي من جانب عمر أبناً حكمته في مواضعه .

ثم إنك رأيت اجتهاد عمر رأيه بعد ذلك في مواطن كثيرة ، حَسْبُنَا أن نشير منها إلى اجتهاده في حدّ الخمر ، وفي اعتزال البلد الموبوء وعزله عن غيره من البلاد ، وفي التفريق في العطاء بين المسلمين حَسَبَ سَبَقِهِمْ إلى الإسلام أو قرابتهم من رسول الله ، وفي أمور كثيرة غير هذه قضى بها تطور الأحوال في شبه الجزيرة وفي البلاد المفتوحة ، وسيقتضينا هذا الفصل أن نعود إلى الحديث في بعض هذه الأحوال ، وأن نتناول من اجتهاد عمر ما كان جليل الأثر في عهده ؟ وما كان لموافقته أو لخالفته من أثر بعد ذلك في حياة الإسلام والمسلمين .

ويجمل بنا ، قبل أن نفصل ما نرى تناوله من اجتهاد عمر . أن نذكر أن الفاروق كان يؤمن بأن الإسلام روحٌ وعقيدة ، وأن الإنسان لا يكمل إيمانه حتى يدرك الروح الذي أوحى الله به دين الحق إلى رسوله . لذلك كان يطبّق أحكام القرآن بالروح التي نزلت بها ، فإذا ثبتت عنده سُنَّةٌ عن رسول الله من قول أو فعل ، عرف مناسبة هذه السُنَّة ليكون دقيقاً في الأخذ بها . من ثم كان يسترشد بالروح لا بالحرف عند الفصل فيما يُعرَض عليه . وكان ، لعظيم إيمانه ولشدة امثالته تعاليم رسول الله ، جريئاً في الاجتهاد ، وإن خالف ظاهر النص . . فإذا ورد نص لم يبقَ في أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبّقه ، وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أوّله ، حريصاً في هذا وفي ذلك على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفائه في الوقت نفسه مع روح اللبائء والتعاليم الحمّدية السليمة .

أظهر جماعة من العرب الإسلام ، وكانوا سادة في قومهم ، فجعل الله لهم سهماً في الصدقات ، وأمر النبي أن يعطيهم سهمهم تألفاً لقلوبهم وتثبيتاً لإيمانهم ؛ هؤلاء هم المؤلّفة قلوبهم وقد نص القرآن على عطايتهم في قوله تعالى : ( إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ

لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةَ قُلُوبُهُمْ ) . وكان رسول الله يعطيهم من النية ومن الزكاة . أعطى أبا سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعباس بن مرداس ، وصفوان ابن أمية ، وعيينة بن حصن . وكان يعطي الواحد منهم مائة من الإبل . فلما ولي أبو بكر الخلافة أعطاهم كما كان يعطيهم رسول الله ، ثم جاءه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس يطلبان أرضاً فكتب لها بها . فلما استخلف عمر ذهباً إليه يستوفياته ما في كتاب أبي بكر . لكن عمر مزق الكتاب وقال : إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ، فإن تبتم إليه وإلا فيبيننا وبينكم السيف . ثم منع هذه الطائفة كلها ما كان لها من نصيب في الزكاة ، وجعلها كثيرها من المسلمين .

هذا اجتهاد من عمر في تطبيق نص من نصوص كتاب الله . وهو لا ريب اجتهاد موفق . فإنما فرض الكتاب لهذه الطائفة من العرب حين كان الإسلام في حاجة إلى تأليفهم . فلما عز الإسلام زالت الحاجة فلم يبق للعطاء مسوغ . ولو أن عمر وجد في الفرس أو في الروم من يحتاج الإسلام إلى تأليفهم لفرض لهم . وهو قد فرض للهرمان بالفعل حين جاء المدينة ثم أسلم . من ثم كان هذا الفرض معلقاً على الحاجة إلى من فرض له ، فإذا زالت الحاجة سقط الفرض . هذه روح النص ، ويجب لذلك تطبيقها كما طبقها عمر . واجتهد عمر في نص من كتاب الله اجتهاداً يخالفه اليوم فيه ؛ فقد قال تعالى : ( الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ ) ، ثم قال : ( فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ) . وجلي أن المقصود من هذا النص أن يقطع الطلاق بالفعل مرة فرة ، وللزوج بعد كل من المرتين أن يراجع زوجته ، فإذا طلقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . وحكمة هذا النص واضحة ؛ فالطلاق فم الحياة الزوجية تترتب عليه نتائج خطيرة لكل من الزوجين ، وتتمدها لأبناهما ، وكثيراً ما يسوء أثرها في هؤلاء الأبناء طيلة حياتهم . لذلك أباح الكتاب مراجعة الزوج زوجته بعد الطلقة الأولى ، وبعد الطلقة الثانية ، وأشار إلى أن الطلاق يجب أن يسبقه سعى للتوفيق بين الزوجين في قوله تعالى : ( وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ) . فإذا تعذر التوفيق وقعت الفرقة

بالطلاق جازت المراجعة مع ذلك مرتين . ولكيلا يستخف أتي الزوجين بعد ذلك بفصم عروة الزواج ، فرض الكتاب الأجل للزوج مراجعة زوجته بعد الطلاق الثالث حتى تنكح زوجاً غيره . فإذا قال الرجل لزوجته : أنت طالق ثلاثاً ، لم تكن إلا طلقة واحدة ؛ لأن الطلاق فعلٌ يقع لا قولٌ يلفظ . وكان ذلك الشأن في عهد النبي وفي عهد أبي بكر . جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ قد كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيتم عليهم ! فأمضاه عليهم .

كيف رأى عمر هذا الرأي وأمضاه على الناس مع مخالفته ظاهر النص وظاهر الحكمة ؟ يجب لندرك ذلك أن نرجع إلى السبب في نزول الآية : ( الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ) . روى ابن جرير في تفسيره ما ذكره بعضهم من : « أن هذه الآية أنزلت لأن أهل الجاهلية وأهل الإسلام قبل نزولها لم يكن لطلاقهم نهاية تبين بالانتهاء إليها امرأته منه ما راجعها في عدتها منه . فجعل الله تعالى ذكره لذلك حداً حرّم بانتهاء الطلاق إليه على الرجل امرأته المطلقة إلا بعد زوج وجعلها حينئذ أملاك بنفسها منه » . ورؤى أن رجلاً قال لامرأته على عهد النبي صلى الله عليه وسلم : لا آويك ولا أدعك تحلين ! فقالت له : كيف تصنع ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضيي عدتك راجعتك ، فتحي تحلين ؟ ! - أي لغيره - فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : ( الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ) ، فاستقبله الناس جديداً ، من كان طلق ومن لم يكن طلق وعن قتادة أنه قال : « كان أهل الجاهلية كان الرجل يطلق الثلاث والعشر وأكثر من ذلك ثم يراجع ما كانت في العدة ، فجعل الله حدَّ الطلاق ثلاث تطليقات » .

يتضح من هذا السبب في نزول الآية أن تحديد حق الرجل في مراجعة زوجته ، مادامت لم تبين باقضاء عدتها ، وجعل المراجعة مرتين لا أكثر ، إنما أريد به ألا يضارَّ الرجل المرأة وألا يذرهما كالمعلقة حياتها . وهذا رفق بالمرأة يتفق وروح الإسلام . فقد ذهب القرآن في هذا الرفق بالنساء كل مذهب ، فأمر أن تبقى المطلقات للمرتين

الأوليين في بيت الزوجية طول عدتهن ، وأن تحسن معاملتهن ، فقال : ( لا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ <sup>(١)</sup> ) وقال : ( والمطلقات مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ) وقال : ( فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ <sup>(٢)</sup> ) . وقال : ( وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا <sup>(٣)</sup> ) . وقال : ( وإذا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ <sup>(٤)</sup> ) هذه الآيات وغيرها تحرّم على الزوج أن يضار زوجته ، وترى المضارة إنما عظيماً . وقد فرض الله المراجعة للإصلاح . فإذا تبين أن الإصلاح غير ممكن ، وتبين أن مراجعة الزوج زوجته لا يقصد بها إلا المضارة ، لم تبق حكمة المراجعة قائمة .

وأ كبر الظن أن الذين كانوا يطلقون نساءهم في عهد عمر لم يكونوا رجماء بهن بعد طلاقهن . ذلك أن سبايا العراق والشام كثرن وافتنن بهن أهل المدينة وأهل شبه الجزيرة ، فكانوا يسارعون إلى طلاق نساءهم مبالغة في إرضاء من شغفت قلوبهم بهن ، وكانوا يذكرون الطلاق الثلاث في كلمة واحدة حتى تطمئن ذات الدل على أنها أصبحت المنفردة بقلبه .

ولعل أسباباً أخرى دفعت جماعة من المسلمين في هذا العهد الأول إلى العبث بالطلاق الثلاث استهتاراً وضراراً . من ذلك أن يتزوج الرجل أخرى عربية أو أعجمية من غير السبايا ، فتشترط عليه أن يطلق زوجته الأولى ثلاثاً فلا تحمل له من بعد حتى تنسكح زوجاً غيره . فإذا راجعها مع ذلك أثار مراجعته لها في البيت نزاعاً لا تستقر معه على حال ولا تطمئن به حياة .

مثل هذه الأسباب هي التي دعت عمر إلى فتواه ، وإمضائه طلاق الثلاث بكلمة واحدة كأنه ثلاث طلاقات متفرقات . فقد رأى أن الرجل إذا بلغت به الاستهانة بمقدرة الزواج ، فجمع الطلاق الثلاث في واحدة كان رجلاً مستهتراً يجب أن يحمل وزر استهتاره ؛ وذلك قوله : « إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيها عليهم » .

(١) آية ١ سورة الطلاق . (٢) آية ٢ سورة الطلاق . (٣) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

(٤) آية ٢٣٢ سورة البقرة .

هذا اجتهاد رأي خالف عمرَ فيه من بعد غير واحد من الفقهاء ، وخالفه أهل عصرنا الحاضر في طائفة من البلاد الإسلامية . ولا ضير على عمر من ذلك ، ولا ضير منه على مخالفيه ؛ فعمرو وغيره من الصحابة لم يكونوا يُفتنون برأيهم على سبيل الإلزام ولا على أنه وحده الحق ، بل على أنه رأى إن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمن صاحبه ، فهو يستغفر الله منه . لقي عمر رجلاً له قضية فسأله : ما صنعت ؟ قال : قضى علىّ وزيدٌ بكذا . قال عمر : لو كنت أنا لتقضيت بكذا ! قال الرجل : فما يمنعك والأمر إليك ؟ وأجابه عمر : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لفعلت . لكني أردك إلى رأيي ، والرأي مشترك . ولهذا لم ينقض ما قضى به عليّ وزيد وأبدى عمر يوماً رأياً ، فقال قائل : هذا ما رأى الله ورأى عمر ، فاتهره عمر بقوله : بسما قلت ! هذا ما رأى عمر ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر . وأمسك هنيهة ثم قال : السنة ما سنّه الله ورسوله . لا تجعلوا خطأ الرأي سنة الأمة .

أما وقد ذكرت اجتهاد عمر في الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ومخالفته فيه ظاهر النص وظاهر الحكمة للأسباب التي قدّمت . فيجمل بي أن أشير إلى أنه اجتهد في غير هذه ، من مسائل الزواج والطلاق وحقوق الزوجية والأمومة ، اجتهاداً كان له أثر في التشريع الإسلامي من بعد . فقد نهى عن نكاح المّتمة ، فجرى المسلمون من أهل السنة على رأيه من يومئذ . ومنع بيع أمهات الأولاد وكن يُبعن في حياة الرسول وفي عهد الصديق . وقد أراد عليّ بن أبي طالب أن يرجع في خلافته إلى بيعهن ، وقال إن عدم البيع كان رأياً اتفق عليه هو وعمر ؛ فقال قاضيه عبدة السلماني : رأيك ورأى عمر في الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك . وأجابه عليّ ؛ اقضوا كما كنتم تقضون ؛ وذلك لأنه كره الخلاف ، وأفتى عمر في المطلقة وزوجها من غير زوجها الأول في العدة ، وميراثها قبل انقضائها ، وما يتصل بذلك بفتاوى لا يزال أكثرها معمولاً به إلى اليوم .

لا أراني بحاجة إلى أن أعود إلى القول فيما قرره عمر حدّاً لشارب الخمر ، وقد سبقت فذكرت ذلك من قبل . وحسبي أن أذكر هنا أن عمر اجتهد في تقرير هذا الحد بالقياس إلى حد القذف الوارد في القرآن . والرأي والاجتهاد والقياس واحد . وهذا

الاجتهاد حق لولى الأمر الذى يملك أن يشرع فى حدود الكتاب والسنة .  
ولعمر موقف من سنة رسول الله جدير بالوقوف عنده ؛ فقد كان عمر من أثبت  
المسلمين إيماناً بالله ورسوله ، ومن أشدهم حرصاً على اتباع ما جاء به الرسول من عند الله ،  
وعلى التأسي به صلى الله عليه وسلم فى قوله وفعله . لكنه كان شديد الحرص كذلك على  
ألا يشوب كتاب الله بشيء ، وعلى أن يحول دون ما قد يصرف المسلمين عن الكتاب  
الكريم . وهو فى ذلك قد كان متبعاً سنة رسول الله وسنة أبي بكر من بعده . روى عن  
رسول الله أنه قال : « لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ، ومن كتب شيئاً غير القرآن  
فليمح به » . وقال : « إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب  
الله فما وافقه فمضى وما خالفه فليس عنى <sup>(١)</sup> » .

وكان هذا الحرص رأى عمر فى حياة النبي إلى حين وفاته . روى عن ابن عباس أنه  
قال : لما حضر النبي صلى الله عليه وسلم قال — وفى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب —  
« هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده <sup>(٢)</sup> » . فقال عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم  
غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ؛ فحسبنا كتاب الله . واختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من  
يقول : قرّبوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلوا بعده : ومنهم من

(١) طعن بعضهم فى نسبة هذا الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال الشافعى : ما رواه أحد  
عمن يثبت حديثه فى شيء صغير ولا كبير . وذهب بعضهم إلى أنه من وضع الزنادقة . مع هذا أثبت  
الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده حديثاً يشبهه تمام الشبه فى معناه وإن اختلف عنه فى لفظه . ذلك أن  
أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جاءكم عنى من خير قلته أو لم أقله فأنا أقوله ،  
وما أتاكم عنى من شر فأنا لا أقول الشر . وإنما طعن الذين طعنوا وحديث : ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب  
الله الخ ، لما رأوه من معارضة لما رواه المقدم بن معد يكرب الكندى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أنه قال : « ألا لى أوتيت القرآن ومثله معه . ليوشك الرجل متكثراً على أريكته يحدث بمحدثي فيقول  
بيننا وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من حلال استحللناه ؛ وما وجدنا فيه من حرام حرمناه .  
ألا وإن ما حرم رسول الله فهو مثل ما حرم الله » . ولست أرى معارضة بين هذا الحديث وبين القول  
بأن ما ينسب إلى رسول الله لا يمكن أن يخالف ما فى كتاب الله . فالطبعى ألا يخالف حديث رسول الله  
ما أوحاه الله إلى رسوله ، كما أن الطبعى أن ما ينسب إلى رسول الله من خير فرسول الله يقول ؛ لأنه يقول  
الخير ولا يقول الشر .

(٢) وفى بعض الروايات أنه قال : لئيتون بقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، أو قال :  
لئيتون بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً .

يقول ما قال عمر . فلما كثرت اللفظ والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قوموا عني » ، وكان ابن عباس يقول : « إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولنظهم » فكان ذلك — والله أعلم — وحياً أو حاه الله أنه إن كتب لهم ذلك الكتاب لم يضلوا بعده ألبتة ، فتخرج الأمة من مقتضى قوله : ( وَلَا يَرَوْنَ مَخْتَلِفِينَ ) بدخولها تحت قوله : ( إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّكَ ) . فأبى الله إلا ما سبق في علمه من اختلافهم كما اختلف غيرهم .

هذا رأى ابن عباس . أما عمر فظل على الرأى الذى قال به : « حسبنا كتاب الله » وقد اتبع المسلمون هذا الرأى في خلافة أبى بكر وفي خلافته إلا ما نلت لهم بطريق القطع اليقين أن رسول الله قاله .

روى عن أبى بكر أنه جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال : « إنكم تحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها . والناس بعدكم أشدّ اختلافاً فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه » فلما استخلف عمر سار على سنة أبى بكر هذه ، وأمر الناس ألا يحدّثوا عن رسول الله حتى لا يختلفوا . وقد بلغ من شدته في تنفيذ هذا الأمر أن حبس ثلاثة من كبار الصحابة هم ابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو مسعود الأنصارى ، لأهم أكثروا الحديث عن رسول الله هذا مع شدة احتياطهم في روايتهم : وقد كان من أثر ما أمر به عمر أن قلت رواية الحديث حتى قال أبو عمر والشيبانى : كفت أجلس إلى ابن مسعود حولاً لا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته الرعدة وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا . وكان أبو هريرة ممن يكثرون الحديث عن رسول الله بعد عهد عمر ، فسأله . أبو سلمة يوماً : أكنت تحدّث في زمان عمر هكذا ؟ فقال : لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخهّته .

وسير عمر قرظة بن كعب وجماعة معه إلى العراق ومشى معهم ، فلما فصلوا عن المدينة سأهم : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم ، مكرمة لنا . قال : ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دو بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوم بالأحاديث فتشغلهم . جوّدوا القرآن وأدّلوا



الرواية عن رسول الله وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قال له أهل العراق : حدثنا عن رسول الله ، فقال : نهانا عمر .

نهى عمر عن رواية الحديث ، واشتد في تنفيذ أمره بذلك ؛ مع هذا روى الناس الأحاديث في مناسبات لم يكن لعمر قبل بمنعهم عن الرواية فيها . والقضايا أهم هذه المناسبات ؛ فما قضى به رسول الله حجة ويقاس عليه . لم يجد أبو بكر في كتاب الله ميراثاً للجدة يقضى به لامرأة جاءت تطلب ميراثها ، فقال المغيرة بن شعبه : سمعت رسول الله يعطيها السدس ، وشهد محمد بن مسامة بمثل ذلك ، فقضى به أبو بكر . وسلم رجل على عمر ابن الخطاب من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع ، فأرسل عمر في أثره وسأله : لم رجعت ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سلم أحدكم ثلاث مرات فلم يُجب فليرجع » ، فطلب منه عمر البيعة على هذا الحديث فجاءها . وكان قضاء عمر يقضون بكتاب الله وسنة رسوله ، فإذا جاءهم خصمٌ بمحدث أو سنة عن رسول الله تبيّنوا ماجاء به ، فإذا ثبت قضوا به . وما كان عمر ليستطيع أن يمنع الاستشهاد بالحديث أو بالسنة في القضاء كما منع رواية الحديث . وقد خشى أن تكثر الرواية لهذا السبب ، وأن تدفع المصلحة بعضهم لاختلاق الأحاديث والتحايل على إثبات صحتها ، فيكثر الحديث الكذب . لذلك فكر في كتابة السنن حتى لا يزيد أحد عليها ، كما أشار على أبي بكر من قبلُ بجمع القرآن . لكنه لم يلبث حين عاود التفكير في الأمر أن تردد فيه ؛ فدعا أصحاب رسول الله فاستشارهم ، فوافقهم وأشاروا عليه بكتابة السنن . وقضى شهراً يفكر في الأمر ويستخير الله فيه : أبُقدم عليه أم يُحجم عنه . ثم إنه أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال للناس : إني كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أنا من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً ! . وعدل عن كتابتها وكتب في الأمصار عنها : « من كان عنده شيء فليمحه » .

أكان عمر على حق حين عدل عن كتابة السنن وأمر بحمو ما كان مكتوباً منها ، أم كان مخطئاً فكان لخطئه نتائج من بعد ؟

تستطيع أن تقول إنه أخطأ ، وإن مرَّ الزمن دل على خطئه ؛ فقد بدأت الأحاديث من بعده تتوالد وتتداول إلى غير حد . فمنذ عادت الحصومة بين بني أمية وبني هاشم إلى الظهور في أعقاب مقتل عثمان ، ثم لما قامت الحرب الأهلية بين عليٍّ ومعاوية فخاضت عائشة عليًّا وأيدَّ عليًّا من أيده ، كثرت الأحاديث الموضوعة لعليٍّ وعليه كثرةً أنكرها عليٌّ في حياته فقال : « ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا ما في القرآن ، وما في هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله وفيها فرائض الصدقة » . ولم يَقِفْ هذا القول واضع الحديث عن وضعه لهوى يدعو الناس إليه ، أو لفضائل يحسبون أن الناس أحرص على اتباعها حين ينسب إلى رسول الله حديثها . وكثرت الأحاديث الموضوعة لأغراض سياسية أو غير سياسية كثيرة راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما في كتاب الله . ولم تنجح المحاولات التي بُذلت لوقفها في زمن الأمويين ، بل جعلت تزداد وتتضاعف كل يوم عما قبله . فلما كانت الدولة العباسية وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبي ، كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها ، وبينها من التضارب وفيها من التهافت ما لا يخاطر بالبال . وَحَسْبُكَ لتقدَّر ذلك أن تذكر أن البخاري ألفى الأحاديث المتداولة تُرى على ستمائة ألف حديث ، لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف حديث ، وأن أبا داود جمع خمسمائة ألف حديث لم يصح لديه منها غير أربعة آلاف وثمانمائة ؛ وكثير من هذه الأحاديث التي صحَّت عند جامعي الحديث نقدها غيرهم من العلماء والفقهاء . فلو أن عمر جمع ما صح لعهد من الأحاديث والسنن لوقف توألهما من بعده ، ولما أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، على تعبير الدَّارَقُطَنِيِّ ، ولأمكن أن يتحقق ما روى عن معاوية أنه قال : « خذوا من الحديث بما كان في عهد عمر فإنه قد أخاف الناس في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أما ولم يفعل ، فكثرت رواية الحديث ، ولم يعد الناس يعرفون ما كان في عهد عمر وما وضع من بعده ، وترتب على ذلك من ابتداع الأحاديث ما رأيت ، فذلك الدليل على أن عمر أخطأ حين عدل عن جميع السنن ، وأمر بمحو ما كان مكتوباً منها . تستطيع أن تقول هذا ، وأن تكون لك شبهة فيه ، بعد أن بلغ عدد الأحاديث في عهد

المأمون ستائة ألف حديث ، لم يصح منها إلا أربعة آلاف تعرض الكثير منها للتفنيد والظمن من بعدُ . لكنك تكون غير منصف في هذا الحكم وإن قامت لك الشبهة فيه ؛ فقد كان عمر يحسب أن الذين يخلفونه من أمراء المؤمنين سيسيرون سيرته في النهي عن رواية الحديث ، وسيحسبون مثله من يُكثرون الحديث عن رسول الله . فإذا لم يفعل هؤلاء الخلفاء ، بل تفاضوا متعمدين عن الأحاديث توضع لأسباب سياسية وغير سياسية ، وشجع بعضهم على وضعها ، فالذنب في ذلك ليس ذنب عمر ، بل ذنب أولئك الخلفاء . والذين شجعوا منهم على وضع الأحاديث أعظم وزراً وأكبر جريرة . أفيكون من العدل ، والأمر كذلك ، أن ينسب الخطأ إلى عمر ؟ ! .

وهبَّ عمر أمر بكتابة السنن ، ثم حدثت الفتنة من بعده وقامت الحرب الأهلية بين عليٍّ ومعاوية ؛ وبين الأمويين وبنى هاشم ، واتخذت رواية الحديث عن رسول الله أداة دعابة في هذه الحرب وهذه الفتنة ، أتري أن الناس كانوا يصدون عن كتابة هذا الحديث الموضوع وروايته ؟ أم ترى كان الدعاة السياسيون يشجعون عليه ويجمعون منه مثل الذي جمع عمر ، ثم يُضفي أصحاب المصاحفة فيه من سلطانهم الرسمي عليه مالم يُضفِ مثله أحد على ما جمعه البخاري وسائر الأئمة المحدثين من بعد ، ولا يكون عجباً بعد ذلك أن يصبح لهذه المدونات الرسمية من القيمة الدينية ماخشيها عمر حين قال : « والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً ! » وحين قال : « ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله ؟ » وكانت عبارة عمر هذه يزداد مدلولها تحقُّقاً لو أنه كتب الشنن ثم لم تحدث الفتنة ولم يوضع الحديث الكذب ، ولم تبلغ كثرته حتى يصبح الحديث الصحيح فيه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود . فما كان كتاب عمر ليحتوي السند الذي يرفع به الحديث إلى النبي ، بل كان زيد بن ثابت أو غيره من كبار الصحابة يتولَّى تحقيب ما يذكر له من الأحاديث في نصها ونسبتها ، ويثبتها على أنها من كلام رسول الله لا ريب فيها . عند ذلك كان الناس يجدون أمامهم كتابين : أحدهما أوحاه الله إلى رسوله ليبلغه للناس ، والآخر حدث رسول الله به الناس ، ويكون الكتابان مقترنين في زمن التدوين . وقد يؤدي ذلك إلى ما خشيها عمر من إقبال الناس على كتاب الحديث وتركهم كتاب الله . لهذا

الأمر احتاط عمر ، فنجح في احتياطه كل النجاح . فكتاب الله لا يزال ولن يزال بين أيدي الناس أوحاه إلى رسوله هدى للناس ورحمة ونوراً . فأما ما جمعه الجامعون المحققون من بعد من حديث رسول الله مسنداً إلى رواته ، فلا يشوب كتاب الله به أحد ، ولا يُقبل عليه ويدع كتاب الله من أجله أحد ، بل ينظر الناس إليه نظرة الإكبار والإجلال تقديراً لمن أسند إليه ، ثم لا يحول ذلك بينهم وبين تمحيصه بعرضه على كتاب الله ، ونقده من جهة السند والمتن .

أحسبك ترى بعد الذي سبق أن اجتهاد عمر في تدوين الحديث ، وانهاءه إلى العدول عنه ، اجتهاد له ما يسوغه ، وافقته أنت على رأيه أو خالفته فيه .

أما واجتهاد عمر ما رأيت ، فأحر به أن تطمئن له نفوس المسلمين . وذلك ما كان . وأنت لذلك تستطيع أن تسمى عمر إمام المجتهدين ، فلا يهتمك أحد بفلو أو مبالغة على أن عمر لم يقصد قط إلى الاجتهاد النظري ولم يرض عنه ، علماً منه بأن هذا الاجتهاد يؤدى إلى الاختلاف ، وهو أشد الناس كراهية له . سمع يوماً عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد أو الثوبين ، فصعد المنبر وقال : « رجالان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفا ، فعن أى فنيا كم يصدر المسلمون ، لا أسمع اثنين يختلفان بعد مقامى هذا إلا فعلت وصنعت » . وكان يقول : « لا تختلفوا ؛ فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافاً . وكانت الدعوة إلى عدم الاختلاف بعض رأيه منذ أسلم . وكان لذلك يلعب من سأل رسول الله عما لم يكن . فلما استخلف دفعته شدة الحرص على اتفاق كلمة المسلمين ألا يصدر رأى قبل أن يستشير كبار الصحابة ويفاقتهم فيه ، حتى يطمئن كل الاطمئنان إلى الرأى الذى يصدره . قال الدهلوى في كتابه ( حجة الله البالغة ) : « كان من سيرة عمر رضى الله عنه أنه كان يشارر الصحابة وينظرهم حتى تنكشف الغمة ويأتيه الثلج ، فصار غالب قضاياه وفتاواه متبعة في مشارق الأرض ومغاربها<sup>(١)</sup> » . ولذلك كان ابن مسعود

(١) ج ١ ص ١٠٥ . والمراد بقوله « يأتيه الثلج » أى تستريح نفسه كل الراحة ، ويطمئن ضميره كل الاطمئنان .

يقول : « كان عمر إذا سلك طريقاً وجدناه سهلاً » .

والفقه الإسلامي مدين لاجتهاد عمر بما لا يقلّ عن دين السياسة الإسلامية لحسن رأيه ؛ وصدق إيمانه وعزمه ، في إقامة الإمبراطورية . فقد قرر مبادئ وآراء في الفقه أخذ بها الذين جاءوا من بعده ، وعدّوا صدورها عنه حجة على صحتها . والكثير من هذه المبادئ خطيرة الأثر جليله ؛ وهو لذلك باق إلى اليوم يطبّق ، في الفقه الإسلامي وفي غير الفقه الإسلامي من الشرائع ، على أنه من المبادئ العالمية التي لا تقبل نقضاً .

من هذه المبادئ مبدأ الضرورة ؛ فقد قرر الكتاب ، للقتل والسرقة والزنا وللقذف ولقطع الطريق ، حدوداً هي حدود الله . وقال : ( وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ <sup>(١)</sup> ) . مع ذلك رأى عمر أن يدرأ الحد بالضرورة استناداً إلى قوله تعالى : ( فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ <sup>(٢)</sup> ) .

جاءوه يوماً بامرأة زنت وأقرت فأمر برجمها . فقال علي بن أبي طالب : لعل بها عذراً ! ثم قال لها : ما حلك على ما فعلت ؟ قالت : كان لي خيط ، وفي إبله ماء ولبن ، ولم يكن في إبلي ماء ولا لبن ، فظممت فاستسقيته فأبى أن يسقيني حتى أعطيه نفسي ، فأبيت عليه ثلاثاً . فلما ظممت وظفنت أن نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد ، فسقاني . قال علي : الله أكبر ! ( فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) وفي السنن للبيهقي عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عمر أتى بامرأة جهدتها العطش ، فمرت على راع فاستسقت فأبى أن يسقيها إلا أن تمسكته من نفسها ففعلت ، فشاور الناس في رجمها فقال علي <sup>٣</sup> : هذه مضطرة أرى أن تُخلى سبيلها ، ففعل .

وروى أن غلاماً لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة . فأبى بهم عمر فأقرّوا ، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم . فلما ولى رده ثم قال : أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيئونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرّم الله عليه حلّ له ، لقطعت أيديهم . ثم وجّه القول إلى عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة فقال : وأبى الله إذ لم أفعل ذلك لأعزمتك غرامة تُوجعك ! ثم قال : يأمُرني ، بكم أريدت منك ناقتك ؟

(١) آية ٤٧ سورة المائدة . (٢) آية ١٧٣ سورة البقرة .

قال : بأربعائة . قال عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة ، وأعفى الغلمان السارقين من الحد ؛ لأن حاطباً اضطرهم إلى السرقة لجوعهم وحاجتهم إلى سد رمقهم .  
ومن البادىء التى قررها عمر ، وهى جارية اليوم فى أكثر الأمم حضارة ، مبدأ للمساواة أمام القضاء . كتب بذلك إلى أبى موسى الأشعري وإلى غيره من قضائه كما رأينا ونفذه هو فى قضائه بدقة بالغة . وقد ذكرنا من قبل امتثالاً على ما فعله من ذلك . وقصة جبلة بن الأيهم الغساني من الأمثلة البارزة فى هذا الصدد . ويجرى مجرى هذه القصة ما حدث حين خاصم يهودى على بن أبى طالب إلى عمر ومكانة على من رسول الله ومن المسلمين جميعاً لا تخفى . مع ذلك قال له عمر : قم ياأبا الحسن واجلس أمام خصمك ، أو قال له : ساوِ خصمك ياأبا الحسن . فساوى على خصمه وجلس أمامه وقد بدا التأثر على وجهه . فلما انتهت الخصومة قال عمر : أكرهت يا على أن تجلس أمام خصمك ؟ والرواية تجري بعد ذلك بأن علياً أجابه : كلاً ! ولكنى كرهت أنك لم تسو بيننا حين قلت ياأبا الحسن . يريد أن الكنية تشير إلى التعظيم وعبارة على هذه لا تنفى أن عمر كان شديد الحرص على المساواة بين الناس أمام القضاء ، وأنه كان يرى هذه المساواة من أول مقتضيات العدل ، بغض النظر عما فى نفس القاضى من تقدير خاص ومن محبة أو كراهية لأحد الخصوم .

وأثر هذه المساواة وإدخالها الطمأنينة إلى نفوس المتقاضين يبدو فى حوار طريف ، ساقه ابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » ، حين قال عمر لرجل : إنى أحببك . فسأله الرجل : فتنقصنى من حقى شيئاً ؟ قال عمر : لا . قال الرجل : فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء .

قد تحسب أن مبدأ المساواة أمام القضاء ليس اجتهاداً فى الفقه ، وأن ذكره عند الكلام عن اجتهاد عمر تجاوز لا يجوز . والحق أنه اجتهاد أى اجتهاد ؛ فكثيرون لا يزالون يجاهدون إلى اليوم فى بعض الأمم لتقرير هذا المبدأ ، وهو لم يتقرر فى أم أخرى إلا من زمن قريب . وحسبى أن أذكر ما كان قائماً من امتيازات للأجانب فى التشريع والقضاء فى الإمبراطورية العثمانية إلى زمن قريب ، وما لا يزال باقياً من ذلك فى مصر إلى

أن تزول بقيته الباقية ، لترى أن ما قرره عمر كان فقها كل الفقه ، واجتهاداً كل الاجتهاد . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك أن الثورات التي قامت في أوروبا ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للمسيحيين ، إنما كان مرماها الأول تحقيق هذه المساواة أمام القانون وأمام القضاء ، وأن مبدأ المساواة كان في مقدمة المبادئ التي قررتها الثورة الفرنسية وأثبتتها وثيقة حقوق الإنسان ، لم يبق لديك ريب في أن هذا الرأي الذي اجتهد به عمر من صميم الفقه ، وأن عمر واجه به تطور العرب من حال البداوة القبليّة التي لا تعرف الولاية العامة والقضاء العام ، إلى حال الحضارة ونظامها الإسلامي القائم على أساس من المساواة أمام الشرع وأمام من ينفذون الشرع .

ومن صميم الفقه الذي واجه به عمر التطور الجديد في الحياة العربية اجتهاده في تفصيل ما لم يرد عنه نص صريح في كتاب الله فقد وضع القرآن نظاماً للتوريث لم يكن معروفاً قبل الإسلام ، وفرض لسكل ذى حق من الورثة حقه . على أن من التفاصيل ما لم يكن عليه نص في هذا النظام . وقد رأيت ما كان من أنى بكر في توريث أم الأم . وقد رفعت لعمر مسائل أخرى لم يكن عليها نص في كتاب ولا سنة ، فلم يكن بدّ لحلها من اجتهاد الرأي . من ذلك المسألة المعروفة بالمسألة العمريّة ، أو المسألة الحجريّة ؛ فقد قُسمت تركة فأصاب أخو المورث لأمه فرضه ، ولم يبق لأخى المورث الشقيق ما يرثه . فلما رُفِع الأمر إلى عمر أفتى بأن الأخ الشقيق أخ لأم وأخ لأب معاً ؛ فليس من الإنصاف أن يحرم لأنه شقيق ، ولذلك قال : هَبُوا أباه كان حجراً ، وفي رواية كان حماراً ، وورثته من التركة على أنه أخ لأم يشترك مع غيره من الإخوة لأم .

وقد واجه عمر الشيء الكثير من مشاكل الميراث بعد طاعون عمّاس بالشام ؛ فقد هلك ألوف بهذا الطاعون ، وتداخلت مواريتهم تداخلاً كان يشمل دور القضاء في أية أمة من الأمم الأعوام الطوال . فلما برئت الأرض ذهب عمر إلى الشام بنفسه ، فنظم مصالحه ودبّر أموره ، وكان مما صنعه أن قسم المواريث فورث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم . وتستطيع أن تتصور الدقة في هذا الأمر ، وما يمكن أن يثور بسببه من نزاع . وليس من غرضي أن أفصّل شيئاً من ذلك ، وإنما أشير إليه

تفويهاً باجتهاد عمر في مشكلة عويصة حلها في أسابيع حلاً رضيهِ المسلمون جميعاً مع تعلقه بمناقضهم الخاصة ، وهذا دليل بالغ وحجة قاطعة على أن الناس يطعنون إلى اجتهاد الرأي ما قام على أساس عادل نزيه .

أنتقل الآن إلى مسألة كان اجتهاد عمر فيها متأثراً بسياسته العامة لأُمور الإمبراطورية الناشئة ، وبمحصه على مواجهة أطوارها الجديدة ، وكان له أثره في ازدياد رقعتها فسحة وسعة ؛ ذلك اجتهاده في شأن الأرض التي فُتحت عنوة بالعراق والشام .

وقد رأيت المسلمين في العراق والشام انتصروا بالقادسية ؛ وفتحوا المدائن وجولاء وحصص وحلب وغيرها من المدن وغنموا منها ، فكان ماغنموه يُفَرِّزُ خسه ويرسل إلى أمير المؤمنين ، وتقسم أربعة أخماسه بين الجند المنتصرين ؛ وذلك عملاً بقوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ<sup>(١)</sup>) فلما فتحوا أرض السواد بالعراق أراد قسمتها على هذا النحو ؛ يكون خمسها لبيت المال ، ويقسم سائرها بين الجند الذين اشتركوا في فتحها . وخالفهم عمر عن رأيهم في قسمة الأرض وقال : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلاجها قد قُسمت ووُرِثت عن الآباء وحيزت ا ما هذا برأى قال عبد الرحمن بن عوف : ما الأرض والعلاج إلا ما أفاء الله عليهم ! أى على الفاتحين . ورد عليه عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ؛ والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير تيسل ، بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين . فإذا قُسمت أرض العراق بعلاجها ، وأرض الشام بعلاجها فماذا تُسدُّ به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ا لم يسترح الفاتحون إلى قول عمر ، فأكثروا عليه وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ا أما عمر فأصر على رأيه ، ولم يزد على أن قال : هذا رأي فلما رأوا إصراره عليه قالوا : فاستشِرُّ . فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا : بقي عبد الرحمن بن عوف على رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعليٌ وطلحة رأى عمر . وأرسل عمر إلى عشرة من كبراء الأنصار وأشرافهم ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج

(١) آية ٤١ سورة الأنفال .



وقال لهم : « إني لم أزعجكم إلا لتشركوا في أمانتي فيما حُمَّت من أموركم ؛ فإني واحد كأحدكم وأتم اليوم تقرّون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ؛ فلكنم من الله كتاب ينطق بالحق . فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ! » . قالوا : « قل نسمع يأمر المؤمنين ! » قال عمر « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإني أعوذ بالله أن أركب ظالماً ! لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيتُ . لكني رأيت أنه لم يبق شيء يُفتحُ بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلاجهم ، فقسمتُ ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجتُ الخمس فوجّهته على وجهه ، وأنا في توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأَرْضِينَ بعلاجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فينا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولن يأتي بعدهم . رأيتم هذه الثغور ، لا بدّ لها من رجال يلزمونها ! رأيتم هذه المدن العظام ، لا بدّ لها من أن تشحنَ بالجيوش ، ولا بد من إدرار العطاء عليهم ! فن أين يُعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلاج ! ؟ » .

أرأيت إلى هذا الخطاب وإلى ما فيه من الحجج ؛ فهو يشهد بأن الجدل بين عمر وبين الذين يزعمون لأنفسهم حقاً في أرض العراق قد كان عنيفاً ؛ بلغ من عنفه أن اتهم أمير المؤمنين بالظلم ، وأن أصر أمير المؤمنين مع ذلك على رأيه ، غير معتمد في هذا الرأي على نص في الكتاب أو سنة سبقت من رسول الله ، بل على المنفعة العامة للدولة وسياستها هو إذاً رأيُّ اجتهاده عمر ، وساق من الحجج في تأييده ما أقنع عثمان وعلياً وطلحة ، وما أقنع هؤلاء الأنصار العشرة الذين سمعوا له ، فقالوا جميعاً : « الرأي رأيك . فنعم ما قلت وما رأيت ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدّنتهم » .

اطمأن عمر إلى رأيه ولم يبق للخالفية ما يفتضونه به ، فقال : قد بان لي الأمر ، فَنَ رجُلٌ له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوّج ما يحمّلون ؟ واجتمع رأي القوم على عثمان بن حنيف وقالوا : تبعته إلى أهم ذلك ، فإن له بصراً وعقلاً وتجربة . وولاه عمر أرض السواد ، فكان من حسن تصرفه أن أدّت جباية الكوفة وحدها قبل عام

من مقتل عمر مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المنقال .  
 خير ما يصور الرأي الذى انتهى إليه عمر فى قسمة مغامم الحرب كتابه الذى بعث به  
 إلى سعد بن أبى وقاص ، بعد أن شاور أصحابه وبان له الأمر ؛ فقد كتب إليه يقول :  
 « بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغاممهم وما أفاء الله عليهم  
 فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما جلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه  
 بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعلها ليكون ذلك فى أعطيات  
 المسلمين ؛ فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شئ » .

وقد حدث مثل هذا الحوار بين عمر وأصحابه على أثر فتح الشام ؛ وجعل أصحابه  
 يحاجونه يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ؛ فقد أراد جماعة المسلمين أن يقسم عمر بينهم أرض  
 الشام كما قسم رسول الله خير ، وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال  
 ابن رباح . لكن عمر أجابهم كما أجاب الذين حاوروه فى أرض العراق : إذا أترك  
 من بعدكم من المسلمين لا شئ لهم . ولم يقسم الأرض بل تركها لعلها ليكون خراجها  
 فى أعطيات المسلمين .

كان هذا اجتهاد رأيي من عمر فى أمر الأرض التى غنمها المسلمون فى القتال . وقد  
 كان هذا الاجتهاد ، على تعبير أبى يوسف فى كتاب الخراج : « توفيقاً من الله كان له فيما  
 صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ؛ وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين  
 عموم النفع لماعتهم ؛ لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق  
 لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد . ولما أمن رجوع أهل الكفر  
 إلى مدينتهم إذ خلت من المقاتلة والمرزقة . والله أعلم بالخير حيث كان » .

\* \* \*

هذه أمثلة من اجتهاد عمر فى الشؤون الكبرى ، وفى شؤون الدولة العامة على وجه  
 أخص . واجتهاده فيما وراء ذلك من أمور التشريع والفقہ كثير تفيض به كتب الفتاوى  
 ويعتمد عليه الأئمة الأربعة وغيرهم من فقهاء السنة الإسلامية كل الاعتماد . وليس من  
 غرضي أن أتقصي هذه الفتاوى أو أثبت كل هذه الآراء ؛ فهذا التفصيل لا يدخل

في نطاق بحث عن الإمبراطورية الإسلامية ونهوضها . إنما أردت أن أبرز في هذا الفصل ما كان لعمر من أثر عميق في تطور الحياة العامة لبلاد العرب : وللبلاد التي فتحها العرب في الناحية السياسية كان هذا الأثر أو في الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

وأنت لا ريب قد لاحظت أن عمر كان أشد ميلا في اجتهاده إلى الصرامة والحزم مع ما عُرف عنه من لين مع الضعفاء ورفق بهم . كان الحزم وكانت الصرامة شأنه مع المؤلفة قلوبهم : ومع الذين يطلّون ثلاثاً بكلمة واحدة ، ومع شاربي الخمر ، ومع الذين يكثرون من رواية الحديث ، ومع الغزاة المسلمين فيما غنموا من أرض العراق والشام . وكان العدل الصارم ديدنه في قضاؤه ، وفي تسويته بين الخصوم الذين يقفون أمامه وإن تفاوتت أقدارهم في نظر الناس : وكان حملهُ الدرّة بمض مظاهر هذه الصرامة الحازمة التي لم تفته حتى في أمور لا يحل أصحابها شيئاً من تبيعتها .

كان عمرُ يَمَسُّ ليلةً ، فسمع امرأة تقول .

ألا سبيلٌ إلى خسرٍ فأشربها أم هل سبيلٌ إلى نصرٍ بن حجاج

فلما أصبح سأل عن نصر هذا وأرسل في طلبه . فلما جرى به ألفاه من أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً . فأمره أن يطمّ شعره ففعل ، فظهرت جبهته فازداد حسناً ، فأمره عمر أن يعمّم ، ففعل فازداد حسناً . فقال عمر : لا ! والذي نفسي بيده لا تكون بأرض أنا بها ، وأمر له بما يصلحه وسيّره إلى البصرة . ولا ذنب لنصر في جماله حتى يُنفى من الأرض ، وإنما أراد عمر أن يقضى في مدينة الرسول على فتنة النساء به .

وسمع عمر نسوة في المدينة يقلن ذات ليلة وهو يمسّ : أيّ أهل المدينة أصبح ؟ قالت امرأة منهن : أبو ذئب . فلما جرى به فرآه من أجمل الناس قال له : أنت والله ذئبن ! وكررها مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : والذي نفسي بيده لا تكون بأرض أنا بها ! قال أبو ذئب : فإن كنت لا بدّ مسيرى فسيرى حيث سيّرت ابن عمى ، يريد نصر بن حجاج فأمر له عمر بما يصلحه وسيّره إلى البصرة .

وإنما أراد عمر بهذه الصرامة الحازمة أن يحارب في نفوس العرب كل ضعف يجعل للهوى سلطاناً عليها . ذلك بأن القوة روح الإسلام وجوهره . فالقوة هي التي يتسلط بها

المرء على نوازع النفس ونزغ الهوى ، وهى التى تنزع من الأمة كل نقائص الضعف ، وتدفع عنها كل معتد عليها يريد فتنها عن عقيدتها . وهذه الروح هى التى فرضت على المسلمين الرفق بالضعفاء وجعلت المنّ بهذا الرفق إنمّا عظيما . فإنما أريد بالرفق معالجة ضعفهم لكيلا ينحدر بهم الفقر أو الجهل أو المرض إلى ما يزيدهم ضعفاً ، وإلى ما يؤدي إليه الضعف من الذلة والخضوع لغير الله . فإذا زال ضعفهم سحوا وأصبحوا أعزّة في أنفسهم وقوة للجماعة التى ينتمون إليها .

وكان عمر من أقوى الناس إدراكاً لروح الإسلام هذه ، كما كان من أحسنهم علماً بما فى الحياة من عوامل تُضعف هذه الروح ، وكان لذلك شديد الحرص على مقاومة هذه العوامل . والواقع أن النفس الإنسانية تضطرب ، فى تطلمعها للسمو وفى تهيئتها للانحدار بين عوامل لا قبيل لها أكثر الأمر بها . والانحدار أيسر لها ، وهى له أكثر انجذاباً أما السمو فيقتضيها جهاداً نفسها حتى لا تقع فى الشباك الكثيرة التى نصبها طبيعة الحياة لها ، وجعلتها من ضرورات بقائها ، تم زينتها بما يغرى هوى النفس ويستهوى شهوتها والإنسان يفتنّ فى تزيين هذه الشباك فيزيدها فتنة واستهواء .

وكثيراً ما يرى الناس فى زينة هذه الشباك رفاهةً وحضارة . وهم فى ذلك يختلفون عن الحيوان . فالإنسان والحيوان جميعاً فى حاجة إلى الطعام والشراب حفظاً للحياة ، وإلى النسل حفظاً للنوع . والحيوان ينال من الطعام والشراب ما يُبقى على حياته ، ولا تزيد صلة الذكّر منه بالأثني عما يقتضيه النسل ، أما الإنسان فيرى فى الطعام والشراب والحب متاعاً يفتنّ فيه ، ويهرع إليه ، وينال منه جهد طاقته ، وهو يلتمس لهذا المتاع من الأسباب والوسائل ما لا تعرفه غريزة مخلوق غيره .

والناس يزدادون فى هذا المتاع افتتاناً وعلى النهل منه حرصاً كما أوفت جماعاتهم على الانحدار والانحلال . أما الجماعة الفتية فتدفع إلى التطهر من رجس هذا الافتتان ، وتتخذ من هذا التطهر وسيلتها إلى القوة وإلى السمو وهذا التطهر هو مادعا الإسلام إليه فكان رسول الله أسوة المسلمين فيه ، ثم عمل أبوبكر وعمل عمر على تثبيت غرسه فى قلوب المسلمين ليحتلّ من سويدائها مكان الإيمان . لهذا انبعثوا ، بدافع مما فى هذا التطهر

من قوة معنوية زادها الإيمان بالله أضعافاً مضاعفة ، فاقتموا حدود الفرس والروم ، واكتسحوا سلطانهم ، وفضوا على دولتهم قضاء لم تقيم لها بعده قائمة .

وكان هذا التطهر غرض عمر من اجتهاده . قد رأيتُه بلغ منه في أمر نفسه غاية المدى . كذلك بلغ المسلمون في مجموعهم حظاً منه عظيماً بفضل ما أبدى عمر من حزم في محاسبة الولاة ومن قسوة بالمستهترين لسكن ما يقع من حوادث الحياة بجانب في كثير من الأحيان غرض المصلحين ، ويشوب سعيهم لتحقيق هذا الغرض بشق الشوائب . وقد يدعوه ذلك لتجاوز القصد في اجتهادهم . ذلك بأن التداول بين السمو والانحدار في طبيعة الإنسان ، وعواملهما تتجاوز في نفس الفرد وفي نفس الجماعة جوار تجاذب وتنافس . وكثيراً ما يخذع الناس فيها فيأخذون بأسباب الضعف بحسبونها أسباب القوة وبعوامل الانحدار يظفونها عوامل السمو . بل إن هذه الأسباب والبواعث لتتداخل وتتفاعل ، ويبلغ من تداخلها وتفاعلها أن يضل الرأي ويضطرب الاجتهاد بينها . وقد رأيتَ أبا بكر أمر بالتسوية في قسمة الفئ بين المسلمين ، فلما استخلف عمر وانهالت عليه مفاتم فارس والروم دَوَّن الديوان وفرق بين الناس في العطاء ، ثم رأى أثر ما فعل فماد إلى النظر في الأمر ، وأيقن بأن ما فعله أبو بكر كان خيراً فعزم أن يرجع إليه ، ولكن مدينته عاجلته قبل أن يفعل .

ولعمر عذره ؛ إذ كان تدفق المال من فارس والروم على جزيرة العرب قد غشى في نفوس كثيرين على ما أراده لهم من تطهر ؛ فقلَّ من الناس من يستطيع أن يصفى بواعث السمو في نفسه من شوائب النقص ، وقلَّ منهم من يرفعه التطهر إلى مراتب العصمة من الخطأ والخطيئة . فالخطأ والخطيئة من طبيعة الإنسان ، تدفع إليهما أهواء هي بعينها الغرائز التي رُكِّبت فيها لحفظ الحياة ولحفظ النوع . والتطهر يرسم لنا الحدود بين الإثم والنفع ، وبين الخير والشر ، ويحملنا على أن نقف عندما يقعنا ، ولا نتعداه إلى ما يضرنا . والإثم والنفع والخير والشر والفائدة والضرر ، تمتزج أكثر الأحيان بعضها ببعض ، امتزاج الذهب وغيره من المعادن النفيسة بالصخر والمعادن الخسيسة . فإذا أريد استخلاص المعدن النفيس خالياً ، وجب أن يُصَهَّرَ هذا المزيج صهراً قد يجنى على خير

مافيه إذا كان قليل الكمّ بالقياس إلى ما يخالطه . وقد يكون الصهر لذاته سبب فساد إذا لم يُعالج بالحكمة واليقظة .

وعمر كان لا يرب حكماً بقطاً في اجتهاده وفي دعوته إلى التطهر . ويرجع الفضل في حكمته إلى أنه امتثل روح الإسلام كما أوحاه الله إلى رسوله أدقّ الامتثال ، وأدرك هذا الروح أدق إدراك . ولذلك سما اجتهاده بالمسلمين إلى حيث يسر لهم أن يأتوا بالمعجزة في تشييد الإمبراطورية الإسلامية .

من الماثور على نابليون أنه كان أكثر افتخاراً بالقانون المدني الذي وضع في عهده وشارك هو في وضعه ، منه بالمعارك العظيمة التي انتصر فيها فتحت أمامه أبواب أوروبا وأوصلته إلى موسكو . أفنستطيع أن نقول مثل هذا القول عن عمر ، وأنه كان يستطيع أن يفاخر باجتهاده أكثر من مفاخرته بالفتوح التي تمت في عهده ؟ يجب ، قبل أن تجيب على هذا السؤال ، أن تفرّق بين ما آلت إليه إمبراطورية نابليون ، وما آلت إليه إمبراطورية عمر . لقد تحطمت الأولى ونابليون حيّ ، وبقيت الثانية يتوارثها المسلمون قرونًا عدة جيلا بعد جيل وأسرّة بعد أسرة . مع ذلك لو أن عمر كان ممن يفاخرون لكان أكثر فخرًا باجتهاده ؛ فهذا الاجتهاد هو الذي أقام الإمبراطورية الإسلامية ، وهو الذي ألقاها على مرّ الزمان .

على أن الاجتهاد والإمبراطورية كليهما قد هاضا عمر وأجهداه . ولئن كان قد نهض بمبهما صُلْبًا قوياً لقد انتهياه إلى حيث دعا ربه أن يضمه إليه ، وقد أحفظا عليه كثيرين من أهل الأمم التي فتحها المسلمون ، ثم كان مقتله بعد أثرها .

هذه نتيجة قد تثير في نفسك الدهشة ، لكنها الواقع من الأمر . وسترى هذا الواقع مجلّواً في الفصل الآتي ، آخر فصول هذا الكتاب .

## الفصل الخامس والعشرون

### مقتل عمر

عشر سنوات وأشهر قضاهها عمر أميراً للمؤمنين ، متجرداً لله ولدين الله ، مفكراً نفسه وأهله ، متوجهاً بكل عقله وقلبه وجوارحه لينهض بالعبء العظيم الذى ألقاه القدر على عاتقه ؛ فكان القائد الأعلى للجيش ؛ والفقير الأكبر بين فقهاء المسلمين ؛ والمجتهد الذى يرجع الكل إلى رأيه ، ويقر الكل اجتهاده ؛ والقاضى الذى يفاضل العادل الذى يفصل فى الخصومات ، وبأخذ للضعيف حقه من القوى ؛ والأب البار الرحيم بالمسلمين جميعاً ، صغيرهم قبل كبيرهم ، وضعيفهم قبل قويهم ، وفقيرهم قبل غنيهم ؛ والمؤمن الصادق الإيمان بالله ورسوله صدقاً زاده اعتداداً بنفسه ، واعتزازاً برأيه ؛ والسياسى المحنك الذى يعرف ما يريد ، ولا يريد إلا ما يقدر عليه ، فإذا ازدادت قدرته ، انفسحت إرادته ؛ والإدارى الحكيم يسرت له حكمته أن يسوس الأمم المتباينة فى الجنس واللغة والدين ، ويدبّر أمورها تدبيراً ألانها له ، وزادها تعلقاً به . لا عجب ذلك شأنه أن اندفع المسلمون فى عهده يحررّ كههم صدق إيمانهم ، وعظيم حرصهم على الاستشهاد فى سبيل الله ، ففتحوا فارس والعراق والشام ومصر وما وراءها . ولا عجب ذلك شأنه أن أصبح العرب محط أنظار العالم من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وكانوا قبل إسلامهم أمة بادية تعيش لنفسها وتخضع لنفوذ غيرها

ما أعظم الجهد الذى بذله عمر لينهض خلال هذه السنوات العشر بهذا العبء العظيم ! وقد رأيت صوراً من هذا الجهد مجلوة فى هذا الكتاب ، وهذه الصور لم تصف مع ذلك جهد عمر كله . وهل يستطيع كاتب أن يحيط بكل دقيق وجليل حين يصور حياة الرجل العظيم ! إنما ينظر الكاتب إلى هذه الحياة من أحد جوانبها ، وحسبُه أن يلتقى على هذا الجانب من الضياء ما يبرزه فى وضوح وجلاء . وأنا لم أقصد من هذا الكتاب إلا ما قصدت إليه من كتاب أى بكر : أن أؤرخ للامبراطورية الإسلامية . لذلك

لم أقف من حياة كلا الرجلين إلا عندما يتصل بقيام الإمبراطورية وانفاسح رقعتها .  
 كم كانت سنّ عمر بعد هذه السنوات العشر التي قضاها أمير المؤمنين ؟ أشرت من  
 قبل إلى اختلاف المؤرخين في هذا الأمر . يقول ابن الأثير : « كان مولده قبل الفجر  
 بأربع سنين ، وكان عمره خمساً وخمسين سنة . وقيل ستين سنة ، وقيل ثلاثاً وستين سنة  
 وأشهر ، وهو الصحيح ، وقيل إحدى وستين سنة » . وفي رواية أنه كان خمساً وستين .  
 ومن هذه الروايات كلها يظهر أنه كان بين الخامسة والخمسين والخامسة والستين . وأكبر  
 الظن أنه كان قد تجاوز الستين . أمّا وقد شقّ على نفسه وآثر الشظف في حياته طيلة  
 خلافته حتى خاف قومه عليه الموت عام الجماعة ، فطبعي أن تُنقله هذه السن أكثر  
 مما تُنقل من عرف الرفق والدعة . وكانت جسامة تبعياته تزيدها ثقلًا عليه ، وتجمعه أكثر  
 شعوراً بوطأة عبئها على كاهله ، ثم لا يدعوه ذلك إلى الترفيه عن نفسه أو التخفيف من  
 أعبائه في الإضطلاع بكل ماجلٍ ودقّ من شؤون الإمبراطورية في عهده .

كان عمر كما قدمنا يحجّ كل عام ويدعو ولاته وعماله فيوافونه أيام الحج بمسكة  
 كي يحاسبهم على أعمالهم ، ويشاركهم في تدبير شؤون ولايتهم . وقد حج كعادته في هذه  
 السنة الثالثة والعشرين للهجرة ؛ وحج معه أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما قضى  
 مناسكه وأفاض من منى ، أناخ بالأبطح فكّوّم كومة من بطحاء ألقى عليها طرف ثوبه ،  
 ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم كبرت سنى ورقّ عظمى وضعفت  
 قوتى وانتشرت رعيتى ، فأقبضنى إليك غير عاجز ولا ملوم ا » . وهذا دعاء لا يقوله  
 رجل قبل الستين ، وبخاصة إذا كان سليم البنية قويها ما كان عمر .

ولعله قد شعر بدبيب الوهن في جسمه فكان يستعجل لقاء ربه ، قد كان طويل  
 التفكير في هذا المصير . روى ابن سعد في الطبقات أنه لم يلبث حين نزل المدينة عائداً من  
 حجه أن خطب الناس يوم الجمعة ، فذكر نبي الله وذكر أبا بكر ، ثم قال : « أيها الناس ا  
 إنى أريت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى . رأيت ديكا أحمر نقرنى نقرتين » ،  
 وقال : « أيها الناس قد فرّضت لكم الفرائض وسننت لكم السنن وتركتكم على الواضحة



إلا أن تَضَلُّوا بالناس يمينًا وشمالاً<sup>(١)</sup>». فهذه العبارة الأخيرة أشبه بوصية الشاعر بدنوُّ الأجل منها بعبطة من يحضّ على الخير . وأشبه بالوصية كذلك ، في تلك الخطبة قوله : « إني لم أدع شيئًا هو أهمُّ إليَّ من الكلالَةِ ، وما راجعت رسولَ الله في شيء ما راجعته في الكلالَةِ ، وما أغلظ عليَّ في شيء منذ صاحبت ما أغلظ لي في الكلالَةِ ، حتى طعن بإصبعه في بطني فقال لي : ( يا عمر تكفيك الآية التي في آخر النساء ) : وإن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن » . ثم قال : « اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار ! فإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسُنَّة نبيهم ، ويعدلوا عليهم ، ويقسموا فيهم بينهم ، ويرفعوا إليَّ ما أشكل عليهم من أمرهم » . قال جويرية ابن قدامة من بني تميم : « حججتُ عام توفي عمر ، فأتي المدينة فخطب فقال : رأيت كأن ديكًا نقرني ، فما عاش إلا تلك الحِجَّة حتى طُعن » .

وشعور عمر بدنوِّ أجله وليس به مرض ، وليس به إلا شعور بضعف قوته ووهن جسمه ، يدعو إلى شيء غير قليل من التفكير : فقلَّ من الناس من تحدّثه نفسه وهو في صحته بمثل ما حدثت عمر نفسه ، وإن شعر بعضهم في أوّل مرضه الأخير بدنوِّ ساعته . أفكان عمر في هذه مُحدِّثًا ألهم ماسيكون قبل أن يكون ؟ أم أن كِبَر سنّته وضعف قوته وانتشار رعيتيه جملة يفكر في دنوِّ أجله ، ويدعو الله أن يضمّه إليه ؟ أنت في حلٍّ من أن تختار لنفسك الجواب . أمّا المؤرخون المسلمون فساقوا في هذا الأمر روايات نقضها عليك بعد أن نُفصّل مقتل أمير المؤمنين .

خرج عمر من منزله قبل مطلع الشمس من يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، يؤمُّ الناس لصلاة الفجر . وكان يوكل رجالاً في المسجد بالصفوف يسوّونها قبيل كل صلاة ، فإذا استوت جاء هو فنظر إلى الصفِّ الأول فإذا

(١) أورد ابن سعد خطباً متفرقة نسب إلى عمر أنه قالها يوم الجمعة بعد عودته من هذا الحج الأخير وتقع آخر جمعة من ذى الحجة لذلك العام في اليوم التاسع والمشرين منه ، ولم يخطب فيها عمر كما ستري من بعد . وهو قد أفاض من متى في الثاني عشر من ذى الحجة فلو أنه لم يقم بمكة وعاد نوا إلى المدينة لباخها بعد الخامس عشر من ذى الحجة ، ولما بقى يوم جمعة في ذلك الشهر إلا اليوم الثاني والعشرون وهو اليوم الذي يمكن أن يكون عمر قد خطب فيه .

رأى فيه متقدماً أو متأخراً علاه بالدرة ، حتى إذا انتظم الجمع في أماكنهم كبر للصلاة ودخل في تلك الساعة من ذلك اليوم ولما يكذب يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فلما بدأ ينوي للصلاة ليكبّر إذا رجل ظهر فجأة قبالة ، فطمنه بخنجره ثلاث طعنات أو ست طعنات ، إحداها تحت سُرته . وأحس عمر حرّ السلاح ، فالتفت إلى المصلين باسطاً يديه يقول : « أدركوا الكلب فقد قتلني ! » . وكان الكلب أباؤلؤثة النصراني فيروز غلام المغيرة ، وكان فارسياً . أُسِرَ في نهاوند ثم وقع في ملك المغيرة ابن شعبة . وقد جاء إلى المسجد متعمداً قتل عمر في هذه الساعة المبكرة من الغلس يخبيء تحت رداءه خنجراً قَبَضْتُهُ في وسطه وله نَصْلانِ حادّان . واختبأ في أحد أركان المسجد حتى إذا بدأت الصلاة ارتكب فعلته ، ثم اندفع يريد الفرار نجاة بنفسه . وماج الناس مضطربين لما سمعوا ، وأقبل كثيرون منهم على الكلب يريدون القبض عليه والتنكيل به . ولم يدعهم فيروز يأخذون بتلابيبه . بل جعل يطعنهم يَمَنَةً ويسرة حق طعن اثني عشر ، مات منهم ستة على قول وتسعة على قول آخر . ثم إن رجلاً أتاه من ورائه فألقى عليه رداءه وطرحه أرضاً ، وأيقن فيروز أنه مقتول لا محالة مكانه ، فانتحر بالخنجر الذي ضرب به أمير المؤمنين .

كانت الطعنة التي أصابت عمر تحت سُرته قد قطعت الصفاق والأمعاء ، وكانت لذلك قاتلة ، قيل إن عمر لم يستطع الوقوف من حرها ، بل سقط طريحاً ، فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة بالناس ، فصلى بهم ، بأقصر سورتين في القرآن : العصر والكوثر . وقيل بل ماج الناس بعضهم في بعض لمصاب عمر ومصاب الذين طعنوا من حوله ، واشتد اضطرابهم حين رأوا عمر محمولا إلى داره في جوار المسجد ، وظلوا في مرجهم واضطرابهم حتى قال قائل : الصلاة عباد الله ! قد طلعت الشمس ! فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلى بأقصر سورتين .

وهي الرواية الثانية هي الراجحة لا ريب ؛ فما كان الناس لتستوى صفوفهم للصلاة من جديد وهم في مرجهم واضطرابهم ، وأمير المؤمنين طريح يدفق جرحه دماً أمامهم ، ودماء المطعونين تسيل من حولهم ، والقاتل صريع بينهم أولوا أنا استظننا أن نتصور عمر

يفكر ، مع ما أصابه من طعنات ، في استخلاف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة — وهو تصوّر بعيد عن مألوف العقل — لما استطعنا أن نتصور الناس في هذه الساعة تلتئم صفوفهم وهم فيما هم فيه من روع وفزع . لا بد إذاً أن يكون عمر قد حُمل إلى داره في جوار المسجد واعياً أو فاقد الوعي من هول طعناته ، وقد أحاط الناس به حين أدخل إلى أهله ، وقد أسعف الذين أُصيبوا وأُخرجوا من المسجد أو نقلوا إلى بعض جوانبه . وأُخرجت جثة فيروز إلى البطيحاء ، ثم عاد الناس إلى المسجد يتحدثون فيما وقع حتى نبههم إلى الصلاة من نبههم ، فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم .

فرغ الناس من الصلاة وتفرقوا في جوانب المسجد وفي بُطَيحائه ، ولا حديث لهم إلا هذا الحادث المروّع الذي وقع بأعينهم . وانتشر الخبر في المدينة انتشار البرق ، فاستيقظ من أهلها من لم يكن قد استيقظ ، وأسرعوا جميعاً ، رجالاً ونساءً وصبياناً ، يريدون أن يقفوا على جلية الخبر في هذا الأمر الجلل . ونقل المصابون الآخرون إلى منازلهم ، ومنهم من أسلم الروح أو كاد ، ومنهم من يتزىء المأمن جراحه . ودخل كبار أهل الرأي على عمر مستفسرين . قال عبد الله بن عباس : « فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح ؛ فلما أسفر أفاق فنظر في وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ قلت : نعم ، فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة » . ثم إن ابن عباس خرج إجابة لرغبة عمر ، فنادى في الناس : أيها الناس ! إن أمير المؤمنين يقول . أعن ملاً منكم هذا ؟ وفزع الناس لسماع هذه الكلمات موجّهة إليهم ، فصاحوا كلهم بلسان واحد : معاذ الله ما علمنا ولا أطلعنا ! وكيف يكون ذلك وإنهم لو علموا لافتدوا عمر بأبنائهم وأرواحهم ! وسألهم ابن عباس : فمن طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

كان عمر ممدداً على فراشه ينتظر رجوع ابن عباس بالجواب عمّا سأل عنه ، وينتظر طبيباً طلب إلى أهله أن يدعوه إليه . فلما رجع ابن عباس وحدثه بحديث الناس ، وذكر له أن أبا لؤلؤة هو الذي طعنه وطعن معه رهطاً ثم قتل نفسه ، قال : « الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ! ما كانت العرب لتقتلني ! » . وجاء طبيب من العرب فسقى عمر نبيذ ، فأشبه النبيذ الدم حين خرج من الطعنة التي

تحت الشرة؛ فدعا عبد الله بن عمر طيباً من الأنصار، ثم آخر من بني معاوية فسقى|عمر  
لبناً فخرج اللبن من الطعنة أبيض لم يتغير لونه، فقال: يا أمير المؤمنين: اعهد. يريد أنه  
ميت لا محالة: قال عمر: صدقتني أخو بني معاوية، ولو قلت غير ذلك لكذبتك. وتولى  
الحاضرين الجزعُ لقول الطيب فبكوا، فقال عمر: «لا تبكوا علينا! من كان باكياً  
فليخرج. ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعذب الميت ببكاء أهله عليه!»  
بينما كان عمر يسمع ما نقله ابن عباس عن الناس، ثم يستشير الطيب ويصغى لذيره  
كان المسلمون بالمسجد وما حوله يتحدثون جماعات، يسأل بعضهم بعضاً عما دفع أبا لؤلؤة  
لارتكاب فعلته الشنعاء. وقد أورد المؤرخون في ذلك روايات لعلها لبعض ما جرت به  
أحاديث هذه الجماعات، ولعل بعضهم كان يناقش هذه الروايات، فيقبل بعضها، وينفي  
بعضها، ويرى بعضها حديث خرافة. وسأبسط هذه الروايات جميعاً أمام نظر القارئ  
ليكون له فيها رأى، وإن رأيت واجباً على قبل روايتها أن أعلن اقتناعي بأن مقتل عمر  
أدّت إليه مؤامرة استغرق تديرها زمناً قبل الحادث، ولم يتيسر للحاضرين بالمسجد على  
أثره أن يقطعوا بها أو يتبينوا دليلها، ثم قام هذا الدليل من بعد، فكان لقيامه من  
الأثر ما نقص نبأه بعد حين.

روى ابن سعد في الطبقات حديثاً أسنده إلى جُبَيْر بن مُطْعِمٍ أن عمر كان واقفاً  
في حجته الأخيرة على جبال عرفة إذ سمع رجلاً يصرخ فيقول: يا خليفة، يا خليفة! فسمعه  
رجل آخر وهم يعترفون: فقال: مالك؟ فك الله لهواتك! فصخب جُبَيْر على هذا الرجل  
قائلاً لا تسبه. فلما كان الغد وقف عمر على العقبة يرميها وجُبَيْر معه إذ أصابت رأس عمر  
حصاة عائرة ففصدت، وسمع جُبَيْر رجلاً من الجبل يقول: «أشعرتُ ورب الكعبة  
لا يقف عمر هذا الموقف بعد العام أبداً!». وكان هذا الرجل هو الذي صرخ بالأمس:  
«يا خليفة يا خليفة» وروى ابن سعد كذلك عن أم كلثوم بنت أبي بكر عن أختها عائشة  
أم المؤمنين أنها قالت: لما كانت آخر حجة حجها عمر بأهات المؤمنين وصدرنا عن عرفة  
مررت بالمحصب، فسمعت رجلاً على راحلته يقول: أين كان عمر أمير المؤمنين؟ فسمعت  
رجلاً آخر يقول: ها هنا كان أمير المؤمنين؛ فأناخ راحلته ثم رفع عقيرته فقال:

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ  
 قَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نَعَامَةً  
 يَدُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْأَدِيمِ الْمَمْرُقِ  
 لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسْبِقُ  
 قَضِيَّتْ أُمُورًا نَمَّ غَادَرَتْ بَعْدَهَا  
 بَوَاتِقَ فِي أَكْلِمِهَا لَمْ تُفْتَقِ  
 فلم يُحْرُكْ ذَلِكَ الرَّاكَبُ وَلَمْ يُذَرَّ مِنْهُ هُوَ ، فَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ مِنَ الْجَنِّ ؛ فَقَدِمَ عُمَرُ  
 مِنْ تِلْكَ الْحِجَّةِ فَطَعَنَ فَمَاتَ .

لا أراى بحاجة إلى التعليق على هذه الروايات . ويتعذر الظن بأن هذا الذى قيل  
 إنه من الجن ، وذلك الذى قال : لا يقف عمر هذا الموقف بعد العام أبداً ، وقيل إنه كان  
 عائفاً ، قد كان أيهما على علم بشيء مما كان يدور بخاطر فيروز أو كان يدبر معه . لكن  
 ما روى من الأنباء ، عما حدث بعد رجوع عمر إلى المدينة قبيل مقتله ، جديرٌ بقدر  
 من التخصيص ؛ لعله يدلنا على حقيقة لم يقطع بها أحد من المؤرخين الأولين .

روى الطبرى وابن الأثير وغيرهما أن عمر خرج يوماً بعد عوده من حجه يطوف  
 بالسوق ، فلقبه أبو لؤلؤة فقال له يأمرير المؤمنين أعدنى على المغيرة بن شعبه فإن على خراجاً  
 كثيراً . قال عمر : وكم خراجك ؟ قال : درهمان فى كل يوم . قال عمر : وما صناعتك ؟  
 قال : نجار ، نقاش ، حداد . قال عمر : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال  
 قد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحتى تطحن بالريح فعلتُ ! قال : نعم . قال  
 عمر : فاعمل لى رحتى . قال : لئن سلمتُ لأعملن لك رحتى يتحدث بها من بالشرق  
 والمغرب ! ثم انصرف عنه . قال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً ! .

ودخل عمر منزله . فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له : يأمرير المؤمنين اعهد  
 فإنك ميت فى ثلاثة أيام . وكان كعب هذا من كبار أحبار اليهود فى عهد النبي صلى الله  
 عليه وسلم ، وكان يتردد عليه مظهراً للميل إلى الإسلام ، مرجئاً إعلان إسلامه حتى يتحقق  
 من كل الأمارات التى يجدها فى كتب قومه عن النبي العربى وأصحابه ، فلما انتهى أمر  
 الخلافة إلى عثمان أعلن إسلامه . وعجب عمر لنذير كعب ، فسأله . وما يُدريك ؟ قال :  
 أجدته فى كتاب الله عز وجل : التوراة . ودهش عمر لهذا الكلام فقال : الله ! إنك  
 لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! قال كعب : لا ، ولكنى أجد صفتك وحليتك وأنه

قد فنى أجلك . وإذ كان عمر لا يحسُّ وجعاً ولا ألماً فقد زادت دهشته لهذا الحديث ،  
ثم لم يُعِرْهُ عناية خاصة .

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهب يوم وبقى يومان .  
وفي الغداة من ذلك اليوم قال له : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها .  
وفي فجر الغداة طعن أبو لؤلؤة عمر طعنفاته المميّنة . فلما دخل الناس على أمير المؤمنين  
ودخل كعب معهم وراه عمر قال :

توعّدنى كعبٌ ثلاثاً أعدّها ولا شكَّ أنّ القول ما قال لى كعبٌ  
وما بى حذارُ الموت إني لميتٌ ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنبُ

ساق سير وليم ميور قصة كعب هذه فى كتابه ( الخلافة الأولى ) وأودفها بقوله :  
« يتعدّر علينا أن نعرف كيف نشأت هذه القصة العجيبة . وربما أنذر كعب عمر حين  
رأى ما بدا على أبى لؤلؤة من مظهر التجدّى والوعيد » . والذى نستطيع نحن أن نستخلصه  
من حديث أبى لؤلؤة مع عمر ، ومن قصة كعب ، أن الفارسى توعّد أمير المؤمنين ، وأن  
اليهودى عين الموعد الذى تم فيه القتل قبل حدوثه بثلاثة أيام . وما إخال أحداً يظن  
أن السكتب السماوية تميّن الأحداث التى تقع لأفراد الناس بمثل هذه الدقة ؛ فهذه السكتب  
كلها ترَجِّعُ علم الغيب إلى الله وحده . لا بدّ إذأ أن يكون كعب عرف سرّ ما كان  
يجرى ، فوجّه النذير إلى عمر . وأغفل عمر أمر هذا النذير بعد أن توعّده أبو لؤلؤة  
بما توعده به فحدث ما حدث . ونذير كعب وطعنات أبى لؤلؤة تدلّ على أن فى الأمر سرّاً  
لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة ، ولكنه ظهر من بعد ، وسنبيّته فى موضعه .

كان الناس فى المسجد يتساءلون عما دفع أبا لؤلؤة لارتكاب جريمته ، وكان عمر  
فى داره ممدّداً على فراشه ، يشير الطيب عليه بأن يمهّد ، ويتحدّث إليه كبار المسلمين  
فى هذا الذى أصابه وأصاب المسلمين فيه ، وفيما يتوقمونه إذا قضى الله فى الخليفة العظيم  
بقضائه . وكان التفكير فيمن يخلف عمر أ كبر ما يشغل بالهم وبال عمر . أتراه يصنع  
صنيع أبى بكر فيختار خليفته ، أم يدعمهم يصنعون ما صنعوا فى اجتماعهم بسقيفة  
بنى ساعدة حين اختار الله إليه رسوله ؟ روى أن ابن عمر قال لعمر بن الخطاب :

لو استخلفت؟ قال: مَنْ؟ قال: تجتهد فإنك لست لهم برب! أرايت لو أنك بعتت إلى قيم أرضك، ألم تكن تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض؟ قال بلى. قال: أرايت لو بعتت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلا حتى يرجع؟ قال عمر: «إن استخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني، وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني» وروى أن سعد بن زيد بن عمرو قال لعمر: إنك لو أشرت برجل من المسلمين أتمنك الناس. فقال عمر: إني قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً. ثم قال: لو أدركني أحدٌ رجلين فجعلتُ هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح. وفي رواية أن عمر قال: مَنْ استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح! فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عبد الله بن عمر؟ وأجابه عمر: قاتلك الله! والله ما أردتُ الله بهذا! استخلف رجلا ليس يُحسن أن يطلق امرأته! ويروى كذلك أن عمر دعا إليه عبد الرحمن بن عوف بعد أن سُجِّل إلى داره إثر طعنته، فقال له: إني أريد أن أعهد إليك، قال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين، إن أشرت عليّ قبلتُ منك. قال عمر وما تريد؟ وسأله ابن عوف: أنشدك الله! أنشير عليّ بذلك؟ قال عمر: اللهم لا! وكانت كلمة عبد الرحمن بعد هذه المشورة أن قال: والله لا أدخل فيه أبداً! .

تدل هذه الروايات على أن اختيار الخليفة لم يكن له نظام مقرر في الإسلام، وتدل كذلك على أن المسلمين كانوا قد بدءوا، لأول ما انفسحت الإمبراطورية أمامهم، ينافس بعضهم بعضاً ويتنافس بعضهم على بعض. وذلك قول عمر: «إني قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً». وهذا الحرص السيئ هو الذي جعله يتردد في استخلاف أحدٍ مكانه على نحو ما صنع أبو بكر حين استخلفه. فأما قوله إنه كان يستخلف سالم مولى أبي حذيفة أو أبا عبيدة بن الجراح لو أن أحدهما كان حياً، فإنما قصد به — أكبر الظن — إلى التخلي عن موقف دق حتى على عمر الذي عُرف طيلة حياته بالصراحة والحزم وعزم الأمور.

لكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يدع الأمر مرسلًا يضرب بين عامة الناس وخاصتهم، بعد أن رأى ما حدث بالسقيفة إثر وفاة الرسول. والحال اليوم أكثر مما كانت

لذلك العهد دقة ؛ فقد اشترك العرب جميعاً في محاربة الفرس والروم ، وأصبح لكل قبيلة بذلك أن تزعم لنفسها من حق الاشتراك في اختيار الخليفة ما للمهاجرين والأنصار . هذا إن لم تذهب بعض القبائل إلى إبداء الحق في ترشيح زعيمها لمقام الخلافة . وفي هذا الأمر من الخطر على العرب وعلى الإمبراطورية الناشئة ما يُدركه عمر أكثر مما يدركه غيره . لذلك لم يلبث ، بعد قليل من إعمال الرأي ، أن جعل الخلافة من بعده شورى في ستة ؛ هم عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبّيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . ومن المأثور عنه في استخلافهم قوله : « لا أجد أحداً أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين تُوِّق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ؛ فأيتهم استُخلف فهو الخليفة من بعدي » . وبعد أن سُمي هؤلاء الستة أردف : « فإن أصابت سعداً فذاك ، وإلا فأيتهم استُخلف فليستعن به ؛ فإنني لم أعزله عن عجز ولا خيانة (١) » .

عرف الناس ما صنع عمر فسكنوا إليه . ودعا عمر هؤلاء النفر الذين جعل الخلافة شورى بينهم فقال : « أنشدك الله يا علي إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل

(١) أجل الطبري وابن الأثير قصة الشورى وكيف استخلفهم عمر فيما يلي : « قيل لعمر ، لا طعن : يأمر المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال . لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألتني : سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألتني : سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله تعالى . قال رحل : أدلك على عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا ! ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته . إنه لا أرب لنا في أموركم ، فاحمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فقد صرف عنا بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمة محمد ! أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر فإنني لسعيد ! أنظر ، فإن استخلف فقد استخاف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ولت يضيع الله دينه . وخرج القوم من عنده ثم راحوا فقالوا . يأمر المؤمنين لو عهدت عهداً ! فقال : كنت أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولى رجلاً منكم ؛ لكنني ما أردت أن أحلها حياً وميتاً . فإليك هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم من أهل الجنة . وذكر الستة .

وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن عمر قال : « لو أدركت معاذ بن جبل استخلفته . ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته » ، وروى في شأنهما أحاديث عن النبي يعتذر بها إلى ربه إن سأله وأنا في شك من هذه الرواية وبخاصة في أمر خالد ؛ فإكان عمر يستخلفه على إمارة المؤمنين ، وهو هو الذي عزله عن إمارة قنسرين .



بني هاشم على رقاب الناس ! أنشدك الله يا عثمان إن ولّيت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي مُعَيْط على رقاب الناس ! أنشدك الله يا سعد إن ولّيت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس ! وناشد الآخرين مثل هذه المناشدة ، ثم قال : قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمركم ، وليصلّ بالناس صُهَيْب .

كان عمر يود لو يتم القوم التشاور ، ويختاروا خليفته قبل أن يُقَبَّضَ ، ليموت مطمئناً إلى مصير الإسلام ومصير الإمبراطورية من بعده . لذا جعل ابنه عبد الله معهم يشاورونه وليس له من الأمر شيء ليكون الصلة بينهم وبينه . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعاني عثمان مرة أو مرتين ليدخلني في الأمر ، ولا والله ما أحب أني كنت فيه ، علماً أنه سيكون في أمرهم ما قال أبي . والله لقلّما رأيت يجرّك شفّتيه بشيء قط إلا كان حقاً . فلما أكثر عثمان عليّ قلت له : ألا تمقلون ! تؤمّرون وأمير المؤمنين حتى ! ! فوالله لكأنى أيقظت عمر من مرّقه ، فقال : « أمهلوا ، فإن حدث بي حدث فليصلّ بكم صُهَيْب ثلاث ليال ، ثم أجمعوا أمركم ، فن تأمر منكم على غير مشورة من المسامين فاضربوا عنقه » .

وكان طلحة بن عبيد الله غائباً من المدينة يوم طُعن عمر . لذلك قال بعد أن استعمل القوم : « انتظروا أخاكم طلحة ثلاثة أيام ، فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم » .  
وكأنما خشى عمر أن يختلف القوم بينهم بعد موته ، فيؤدى اختلافهم إلى الثورة ؛ ينصر بنو هاشم عليّاً ، وينصر بنو أبي مُعَيْط عثمان ، وينتصر من الجند من ينتصر للزبير أو لطلحة أو لسعد ، وكلهم من كبار القواد . لذلك دعا إليه الأنصار وقال لهم : « أدخلوهم بيتاً ثلاثة أيام ، فإن استقاموا وإلا فادخلوا واصربوا أعناقهم » . ودعا أبا طلحة الأنصاري وكان من الشجعان الممدودين فقال له : « قم على بابهم فلا تدع أحداً يدخل إليهم » . وفي رواية أنه قال : « يا أبا طلحة ! كن في خمسين من قومك الأنصار مع هؤلاء نفر أصحاب الشورى ، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم ، فقم على ذلك الباب بأصحابك ، فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضون اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم . اللهم أنت خليفتي عليهم ! » .

ترى لو أن عمر استخلف واحداً بذاته من هؤلاء الفجر الستة . أكان المسلمون يُقرّون اختياره كما أقروا اختيار أبي بكر وعمر ؟ لو أن عمر اطمأن إلى هذا الأمر لما تردد دونه<sup>(١)</sup> ؛ لكن البوادر أمامه لم تكن تبعث على هذه الطمأنينة . لذلك قال للناس : « من تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه » . وقد رضى الناس خلافة عثمان بعد عمر سنوات عدّة ، فلما طال به الأمد ضاقوا به ذرعاً فناروا به وقتلوه . ومن بعد مقتله قامت الحرب الأهلية بين المسلمين واتصلت على السنين . وقيامها يشهد بأن عمر لم يكن مغالياً حين خشى مغبة الاختلاف بين القوم ، وبأنه كان مدركاً أدق الإدراك ما تنطوى عليه قلوبهم ، مقدراً أن العصبية القبليّة التي سكنت ، منذ أظلم الرسول بلوائه جزيرة العرب ، تؤذّن بالظهور من جديد ، وقد تجدد في فسحة الإمبراطورية ما ينشرها ويؤجج ضرامها . ولذا عالج الأمر بأن جعل الخلافة شورى في هؤلاء الستة : وكان هذا العلاج خير ما يواجهه به الموقف لوقته . وقد نجح هذا العلاج طيلة عشر سنوات بعده . لكن البواعث التي تخوّفها عمر كانت دائمة أثناء ذلك على تحريك الأهواء الأصيلة في النفوس . وكثيراً ما طغت الأهواء على حكم العقل وحكمتها ، فأدّت إلى مثل ما أدت إليه في حياة المسلمين ، بعد خمس وعشرين سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يكفِ عمر أن يجعل الشورى في الستة الذين توفّي رسول الله وهو عنهم راض ، بل حرص على أن يعهد للخليفة من بعده بما يراه أقوم سياسة تطمئن بها أمور الدولة ويزداد بها عز الإسلام . وكان مما قاله في ذلك : « أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وبالمهاجرين الأوّلين أن يحفظ لهم حقهم وأن يعرف لهم حرمتهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردة الإسلام وغيظ العدو وجباة المال ألا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم . وأوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم . وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ

(١) تجرى رواية بأن عمر قال : ليدخل هؤلاء الفجر في بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل فن خالفهم فاضربوا عنقه . فلما خرجوا من عنده قال : لو ولوها هذا الأجلح — يريد على بن أبي طالب — لسلك بهم الطريق . فقال له ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أتحمّلها حياً وميتاً . وبعضهم ينفى هذه الرواية ويرى أنها وضعت من بعد لأغراض سياسية .

من حواشي أموالهم فيزد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يؤف في لهم بعدهم  
والآ يكلفوا إلا طاقتهم ، وأن يقاتل من وراءهم . « . ويضيف بعض المؤرخين إلى هذه  
الوصية أنه قال : « اللهم هل بلغت لقد تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة » .  
كان عمر يفكر منذ طعن في مصير المسلمين ، وكان حريصاً على ألا يذر بعده  
من بادر الرأى في اجتهاده ما لم يكن قد اطمأن إليه ووثق بصحته . سُئنا من قبل  
حديثه عن الكلالة وما دار بينه وبين رسول الله فيها وقول رسول الله له : « تكفيك  
الآية التي في آخر النساء » . وهذه الآية هي قوله تعالى : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ  
فِي الْكَلَالَةِ ، إِنْ أُمِرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَا أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا  
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُلْدٌ ، فَإِنْ كَانَ ثَمَّ أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا  
إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، يُسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا ،  
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »<sup>(١)</sup> وقد أثبتنا قول عمر في خطبته الأخيرة : « وإن أعش أفض  
في الكلالة بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن » وكان قد كتب رأيه  
الذي اجتهده في فريضة الجد على عظم كتف عشية اليوم الذي طعن فيه . فلما عرف  
أن طعنته قاتلة قال لابنه عبد الله : « اثنتى بالكثف التي كتبت فيها شأن الجد بالأمس » ،  
يريد أن يحوم ما كتب حتى لا يحتج به أحد من بعده . قال عبد الله : نحن نكفيك  
هذا الأمر يا أمير المؤمنين . ولم يكن أيسر من أن يقوم عبد الله بالحو وأن يدع أباه في شغله  
بجراحه . لكن عمر أبى وقال : لا ! ولم يطمئن حتى جىء بالكثف فحما الكتابة بيده .  
وأنت تذكر أن عمر قد استفتح عهده أول خلافته فأمر الناس أن يردوا سبأيا أهل  
الردّة إلى عشائهم ، وقال لهم : « إني كرهت أن يصير السبي سنّة في العرب » . وقد كان  
لهذا الأمر أثر أعظم الأثر في امتداد الفتح . وأهل الردّة جميعاً كانوا في شبه الجزيرة .  
وكان من بطون العرب وقبائلها من نزع إلى الشام وإلى العراق ، ومن وقع أسيراً في يد  
المسلمين أثناء الغزوات المتلاحقة التي تمت فيها . فلما رأى عمر أنه مؤف على أجله أراد  
أن يزيد وحدة العرب قوة ، ويزيد العرب بأنفسهم اعتزازاً . لذلك قال وهو على فراشه :

(١) آية ١٧٦ سورة النساء .

« من أدرك وفاتي من سبي العرب فهو حرٌّ من مال الله ». ولم يكن هذا القول اجتهاداً منه خالف به سابق رأيه ، إنما هو تطبيق دقيق لقوله : « إني كرهت أن يصير السبي سنةً في العرب ». ولعله خشى ألا يطبّق خليفته هذا الرأي الذي اجتهده يوم استخلف ، فلم يُرِدْ أن يترك الدنيا قبل أن يتم ما بدأه ، وقبل أن يذر العرب جميعاً أحراراً .

فكر عمر إذاً في مصير المسلمين من بعده ، وفكر فيما كان من اجتهاده ، ثم فكر كذلك فيما عليه من دينٍ لم يُرِدْ أن يذر الدنيا قبل أن يكفل أداءه . ذلك أنه كان استسلف من بيت المال ستة وثمانين ألف درهم ، فدعا إليه ابنه عبد الله فذكرها له ثم قال : « بئح فيها أموال عمر ، فإن وفيت وإلا فسل بني عدي ، فإن وفيت وإلا فسل قريشاً ولا تعدّهم ». وكان عبد الرحمن بن عوف يعلم ، كما كان يعلم غيره من المسلمين ، أن عمر لم يقترض هذه الأموال إلا لاشتغاله بأمر المسلمين ؛ لذلك قال له : ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤدّيها ؟ . وأجابه عمر : « معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدى : أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر ، فتعزّوني بذلك فتبعمني تبعته وأقع في أمر لا ينجيني إلا المخرج منه ا » ثم قال لعبد الله بن عمر : اضمنها ، فضمنها . فلم يدفن عمر حتى أشهد بها ابنه علي نفسه أهل الشورى وعدّة من الأنصار ، وما مضت جمعة حتى حمل عبد الله ابن عمر المال إلى عثمان بن عفان وأحضر الشهود على البراءة بدفعه .

وفي رواية أنه أوصى بربع ماله لأهل المؤمنين حفصة ابنته ، فإذا ماتت فإلى الأكارم من آل عمر . فرغ عمر من حساب الدنيا ، فاتجه بتفكيره إلى ما يرجوه بعد موته . وكان أكبر همه أن يُدفن في جوار صاحبيه رسول الله وأبي بكر في بيت عائشة . وكان قد استأذنها من قبل في ذلك فأذنت له . فلما حضرته الوفاة قال : إذا مت فاستأذنيها ، فإن أذنت وإلا فدعوها فإني أخشى أن تكون أذنت لي لسلطاني . وفي رواية أن عمر لما طعن فأوصى قال لانيه : « اذهب يا عبد الله إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تملي أمير المؤمنين ، فإني لست لهم اليوم بأمر ، يقول : تأذنين له أن يدفن مع صاحبيه ؟ ». فأتاها ابن عمر فوجدها قاعدة تبكي ، فسلم عليها ثم قال : يستأذن عمر ابن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ؟ قالت : « قد والله كنت أريده لنفسى ، ولأوترته

به اليوم على نفسى ! » فلما رجع عبد الله وذكر لعمر أن عائشة أذنت له قال : « ما كان شئ أهم إلى من ذلك المضعج . يا عبد الله بن عمر انظر ، إذا أنا مت فاحلني على سريري ثم قف بي على الباب فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي فأدخلني وإن لم تأذن فادقني في مقابر المسلمين . »

جعل عمر بعد ذلك يحاسب نفسه عما قدّمت يدها ، فهو مقبل عما قليل على موقف هو أعسر المواقف وأشدّها ، ذلك موقفه بين يدي ربه يسأله عما قدّم وأخر ، عما نوى وعما عمل ، عما أضر وأظهر . ترى ماذا أعدّ له ربه من مصير ؟ أتذهب حسناته سيئاته ، أم تغلب السيئة الحسنه فيجزيه الله الجزاء الأوفى ؟ لقد كان في وجلي من ذلك أذى وجل . قال له أحد عواده : والله إنى لأرجو ألا تمسّ النار جلدك أبداً ! فنظر إليه ، وقد ملأت العبرة عينيه حتى رثى له من كان حوله ، ثم قال له : « إنّ علمك بذلك يا فلان لقليل . لو أن لي مافي الأرض لافتديت به من هول المطلع ! » . وفي رواية أنه قال هذه العبارة الأخيرة وابن عباس عنده ، فقال له ابن عباس : « والله إنى لأرجو ألا تراها إلا مقدار ما قال الله : ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ) ، إن كنت ماعلمنا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين ، تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية » . فأعجب هذا الكلام عمر فاستوى جالساً وقال : « أتشهد لي بهذا يا ابن عباس ! » ، فسكت ابن عباس ، فضرب عمر على كتفه وقال : « اشهد لي بهذا يا ابن عباس » . قال ابن عباس : « نعم ، أنا أشهد » . والحق أن ماروى عن خوف عمر من هول الحساب يشهد له بثبات إيمانه وقوة يقينه ومخافته الله مخافة هي العدة لمن صدق قصده وجه الله في كل عمله ، جاء الناس حين طعن يُدنون عليه ويودّعونه ويدعونه أمير المؤمنين ، فقال : « أبالإمارة تزودونني ! لقد صحبت رسول الله فقَبَضَ اللهُ رسوله وهو عني راض ، ثم صحبت أبا بكر فسمعت وأطعت فتُوفى أبو بكر وأنا سامع مطيع ، وما أصبحت أخاف على نفسى إلا إمارتكم هذه » . وكان يتألم من جراحه فجعل جلساؤه يُنسونه ألمه بالثناء عليه ، فقال : « إن من غرة عمره لمغزور . والله لو دِدْتُ أذى أخرج منها كما دخلت فيها ، لا على ولا لي » . وروى عن ابن عباس أنه قال : أنا أول من أتى عمر بن الخطاب حين طعن فقلت له : أبشر بالجنة ! صاحبت

رسول الله فأطلت صحبته ، ووليت أمير المؤمنين فقويّت وأدّيت الأمانة ، فقال : « أمّا تبشيرك إياي بالجنة فوالله الذي لا إله إلا هو لو أن لي الدنيا وما فيها لافتديت به من هول ما أمأى قبل أن أعلم الخير . وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك » . وقد كان يشتد خوفه كلما ازداد ثناء الناس عليه . روى أنه مد يده فأخذ تبنّة كانت على الأرض إلى جنب فراشه فرفعهما أمام عينيه وقال : ليتني كنت هذه التبنّة ! ليتني لم أخلق ! ليت أمي لم تلدني ! ليتني لم أك شيئاً ! ليتني كنت نسيماً منسياً ! » .

هذه حال تشهد بصدق الإيمان ، وتدلّ على شعور هذا الرجل العظيم بجلال ما حمل من تبعه في إمارة المؤمنين ؛ فهو لم يفتّر بما تمّ في عهده من نصر وفتح ، ولم يُبطره ظفره بالفرس والروم ، ولم يزدّه حديث الناس عنه وثناؤهم عليه ، بل خشى أن يكون قد ظلم يوماً ضعيفاً ، فارتفعت أنات هذا الضعيف إلى السماء ، فوزّنت عند ذى العرش حسنات عمر جميعاً .

وهذه الخشية هي التي جعلته ينظر إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ، وقد دخلت عليه باكية تندبه بقولها : يا صاحب رسول الله ، ويا صهر رسول الله ، ويا أمير المؤمنين ! فيقول لها : إني أحرّج عليك بما لي عليك من الحق أن تندبيني بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلن أملكها . إنه ليس من ميت يُندبُ بما ليس فيه إلا الملائكة تمقته . ونهى عمر أهله أن يبكوا عليه . وكان عمر في النهى عن الندب وعن البكاء شديداً صارماً . سمع صهيباً يقول ، وقد رأى اللبن يخرج من جراحه ، : وأعمراه وأخاه ، من لنا بعدك ا فقال له : مَهْ يا أخي ، أمّا شعرت أنه من يُبكَ عليه يُعدَّب ؟ ! .

وخشى عمر أن يبالغ أهله بعد موته في تكفينه ودفنه ، فأوصى ألا يغسلوه بمسك أو يقرّبوا منه مسكاً ، على ما كان يصنع العرب بذوى المكانة منهم ، وقال لابنه : « اقصدوا في كفي فإنه إن يكن لي عند الله خير أبدلني خيراً منه ، وإن كنتُ على غير ذلك سلبني فأسرع سلبى . واقصدوا في حفرتي ، ولا تخرجن معي امرأة ، ولا تزكوني بما ليس فيّ فإن الله هو أعلم بي . وإذا خرّجتم بي فأسرعوا في المشي ؛ فإنه إن يكن لي عند الله خير قدّمتموني إلى ما هو خير لي ، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرّاً تحملونه » .

كان عبد الله بن عمر يسمع هذه الوصية وقد جلس إلى فراش أبيه ووضع رأسه على فخذه . فلما أحس عمر أنه موفٍ على لقاء ربه قال لابنه : ضع خدي بالأرض . فقال له عبد الله : هل نخذي والأرض إلاّ سواء ! قال عمر : ضع خدي بالأرض لا أمّ لك ! فلما وضع ابنه خده بالأرض شبك بين رجليه وجعل يقول : وبلى ووبل أمى إن لم يغفر الله لى ؟ وظل يكررها حتى فاضت نفسه<sup>(١)</sup> .

فاضت نفسه وهو بين يدي ربه أكبرُهمه أن يترك الدنيا كفافاً لاعليه ولا له . وكان الناس إذ ذاك بالسجد يحدث بعضهم بعضاً في مقتله . وفيما يخشون أن يصيبهم ويصيب الدولة الناشئة من بعده . وكان لهم العذر أن تتور مخاوفهم . فمن ذا يستطيع أن يضطلع من بعده بالعبء العظيم الذى خلفه بمثل ما اضطلع هو به ! ومن ذا يستطيع أن ينسى نفسه وأهله ، وأن يتجرد لله وللخدمة المسلمين والعدل بينهم تجرده ! لقد استفتحت عهده وشبه الجزيرة وحدها في سلطانه ، ومات والإمبراطورية الإسلامية تشتمل فارس والعراق والشام ومصر ؛ مع ذلك لم يغير من تقشفه وبساطة عيشه ومن قسوته بنفسه ، ولم يقرّه السلطان بالخروج عن مألوف حياته ، وعما عرف الناس من تسويته بين نفسه وبين سائر المسلمين لذلك اشتد حزن الناس لموته وجزعهم عليه ، روى عن أبي طلحة أنه قال : ما من أهل بيت من العرب حاضرٍ ولا بادٍ إلا وقد دخل عليهم بقتل عمر نقص في دينهم وفي دنياهم وروى عن الحسن أنه قال : « أىّ أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء » . وقال حذيفة يوم قتل عمر : « اليوم ترك الناس خافة الإسلام ؛ وأيم الله لقد جار هؤلاء القوم عن القصد حتى لقد حال دونه وعورته ما يبصرون فهم لا يهتدون » ، وبكى سعيد ابن زيد ذلك اليوم فقيل له : وما يبكيك ؟ قال : على الإسلام أبكى ! إن موت عمر ثم الإسلام ثلثة لا تُرَنَّقُ إلى يوم القيامة ، ولا عجب ، وذلك شعور الحكماء وأولى الرأى ،

(١) بين الروايات عن اليوم الذى طعن فيه عمر واليوم الذى دفن فيه خلاف ، فإحداها تجرى بأنه طعن يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس لثلاث ليالٍ بقیين من ذى الحجة . وتجرى أخرى بأنه طعن يوم الأربعاء ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرون . وتجرى رواية ثالثة بأنه توفى لأربع ليالٍ بقیين من ذى الحجة . ونم روايات أخرى أنه توفى فى الثامن أو العاشر من المحرم سنة أربع وعشرين .

أن يكون الضعفاء والبؤساء أقوى شعوراً بوقع الكارثة التي نزلت بهم؛ فقد كان عمر لهم أبا وأخا، وكان لهم حصناً حصيناً وملجأ أميناً .

قد يدهشك، والأمر ما ترى، ألا يورد المؤرخون من رثاء أصحاب الرأي يومئذ لعمر مثل ما أوردوا من رثائهم لأبي بكر يوم قبض . فكل ما ينسب إلى علي بن أبي طالب أنه دخل على عمر إثر وفاته، فألفاه مسجى بثوب في ناحية من غرفته، فرفع الثوب عن وجهه وقال . « يرحمك الله أبا حفص ! ما أحد أحب إلي بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن ألقى الله بصحيفته منك » . والأكثر تواتراً أن علياً وقف على عمر بعد أن غسل وكفن وحمل على سريره فأثب عليه وقال : « والله ما على الأرض رجل أحب إلي من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب ا » . فلما صلى على عمر جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه ، ثم وقف عند سريره وقال : نعم أخو الإسلام كنت يا عمر، جواداً بالحق . بخيلاً بالباطل ، ترضى حين الرضا وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، لم تكن مداحاً ولا مغتاباً ثم جلس :

وإنما يذهب بعض الشيء من دهشتك أن تعلم أن أهل الرأي كانوا في شغل بأمر الشورى فيمن يخلف عمر عن التفكير في شيء سواه . وكان أصحاب الشورى الذين استخلفهم عمر أشد من غيرهم اشتغالا بهذا الأمر، وتوقا لمعرفة مآله لما حان دفن عمر، فحمل إلى المسجد ووضع بين قبر رسول الله ومثبره ليصلي عليه، أقبل عثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب، وكل منهما يريد أن يتقدم صاحبه لهذه الصلاة . فلما رأهما عبد الرحمن بن عوف على هذه الحال قال : إن هذا هو الحرص على الإمارة، لقد علمتا ما هذا إليكما، ولقد أمر به غيركما . تقدم يا صهيب فصلي عليه . كذلك روى ابن سعد في الطبقات . وفي رواية الطبري أن عبد الرحمن بن عوف قال : ما أحرصكما على الإمارة ! أما علمتا أن أمير المؤمنين قال : « ليصل صهيب بالناس » ! فتقدم صهيب فصلي عليه وكبر أربعاً .

وفي رواية أوردتها الطبري عن المغيرة بن شعبه أنه قال : لما مات عمر رضى الله عنه



بكتته ابنة أبي حنمة فقالت : « واعمراه ! أقام الأود ، وأبرأ العمَد ؛ أمات الفتن ، وأحيا الشنن . خرج نقي الثوب ، بريئاً من العيب » فلما دفن عمر أتيت علياً أريد أن أسمع منه في عمر شيئاً ، فخرج يفيض رأسه ولحيته وقد اغتسل وهو ملتحف بثوب لا يشك أن الأمر يصير إليه ، فقال : « يرحم الله ابن الخطاب ! لقد صدقت ابنة أبي حنمة . لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها . أم والله ما قالت ولكن قولت ا » .

ربما أذهب اشتغال أهل الشورى بالخلافة بعض الشيء من دهشتك لقله ما أورده المؤرخون عمارئى به عمر يوم وفاته . وسترى مبلغ هذا الاشتغال بعد حين فلا يبقى من دهشتك شيء ، ثم ترى إعظام الناس عمر وإكبارهم لحقه فتطيب نفسك بأن الحق باق أبداً ، وإن أخفته الأهواء حيناً .

غُسل عمر وكُفن في ثلاثة أثواب ، وحُمل إلى المسجد فصلى عليه صهيّب ، ثم حمل القوم جثمانه فوقوا به على باب عائشة ، وقال عبد الله بن عمر : يستأذن عمر ابن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ؟ وأجابت عائشة : أدخل بسلام .

ودخل القوم إلى حجرة رسول الله ، فأنزلوا الجثمان إلى مشواه الأخير . وكان رأس أبي بكر قد جعل عند كتفي النبي ، فوضع رأس عمر عند كتفي أبي بكر . وتولى عبد الله بن عمر تسوية الجثمان في مكانه ، وكان قد نزل معه أصحاب الشورى الخمسة : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام<sup>(١)</sup> . أما طلحة بن عبيد الله فكان لا يزال غائباً عن المدينة ، فلم يحضر وفاة عمر ولم يحضر دفنه .

وسوى القوم التراب على الجثمان وأقلوا القبر ، والناس على مقربة منهم مجتمعون في المسجد وقد هوى الحزن بأفئدتهم إلى أعماق قرار ، وذهب الأسى بألبابهم لموت رجل عزّ في الرجال نظيره ، وأمير للمؤمنين تولى أمرهم وهم من شدته وغلظته في خوف ووجل ،

(١) هذه رواية الطبري وابن الأثير ، أما ابن سعد فيروى عن أبي الحويرث عن جابر أنه قال : « نزل في قبر عمر عثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وصهيب بن سنان ، وعبد الله بن عمر » .

ثم قضى بينهم عشر سنوات وستة أشهر كان من خلالها أوبر أمير وأعدله وأتقاه ، وكانوا لذلك يزدادون كل يوم له حبا .

وكيف لا يفعلون وقد كانوا أول عهده في عيلة فأغنام الله من فضله ، وكان الخوف من الفرس والروم يساورهم فأصبحوا بفضل الله سادة الفرس والروم ! بذلك استقر سلطان الإسلام وتوطد عرشه ، فحق لعمر أن يدفن مع صاحبيه ، لينعم بجوارها ، وتطمئن روحه إلى أنه سار على سنتهما ، وأنه أتم على الأرض ما قضى الله أن يتم حين أوحى إلى نبيه رسالة السماء .

وقد أتم عمر هذه الرسالة ؛ لأنه نسي نفسه ، وجعل وحدة المسلمين وعظمة الإسلام غرضه ، فلم يفكر حين خلافته في مال أو جاه يكون لذويه وأهله ، بل رأى ما ولىه من أمر المسلمين عبثا ألقاه القدر على كاهله ، فكان كل همهم ألا تعلق به فيما ولى من ذلك ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدّى في ولايته لكل ذي حق حقه . وقد فعل ، فأعز الله الإسلام ، وأورث الأرض عباده الصالحين .

تفرق الناس بعد أن فرغ من دفن عمر ، وساروا تعلموا الكتابة ويساورهم الحزن ، وجعل كثيرون يذكرون يوم طعن ، ويسأل بعضهم بعضا عن باعث أبي لؤلؤة إلى ارتكاب فعلته الشقاء ، فلأن الخراج لم يكن يبهظ ، بالقياس إلى كسب عمله لما أقدم على جريمة عاقبتها القضاء على حياته ، لكن ، أو يكفي أن يقول له عمر إن ما فرض عليه من خراج ليس بالكثير ليدفعه ذلك إلى قتله ؟ إن صح هذا كان عجبا ؛ فقد كان مقدوره أن يعود فيعرض عليه جلية أمره على الخليفة ، ليخفف العبء عنه ، أم أن في الأمر سرا كان أقوى أثرا في نفسه ، وكانت الشكوى من الخراج خدعة أريد بها ستر الحقيقة عن الأعين ؟ الحقيقة أن الفرس واليهود والنصارى قد كانت في نفوسهم حفيظة أى حفيظة على العرب عامة وعلى عمر خاصة ، بعد أن غلب المسلمون الفرس والنصارى على أسرم ، وتولوا حكم بلادهم ، واضطروا عاهل الفرس إلى فراز انتهى به إلى شر مصير . و ذكر الناس في أحاديثهم هذه الحفيظة ، وذكروا قول عمر حين عرف أن الذى طعمه هو أبو لؤلؤة الفارسي : « قد كنت نهيتكم عن أن تجلبوا علينا من علوجهم أحدا فمصيتموني ! » . وبالبلدية من

هؤلاء الملوح جماعة إن يكونوا قليلين فهذه الخفيضة تجمع قلوبهم وتوعد صدورهم . ومن يدري ! لعلمهم ائتمروا فكانت فعلة فيروز ثمرة مؤامرة أرادوا بها شفاء ماني نفوسهم من غلٍ ، وحسبوا أنهم قادرون بها على أن يشتتوا شمل العرب ويفتتوا في أعضاد المسالمين . كان أبناء عمر أشد الناس حرصاً على معرفة الحقيقة ؛ وقد كانوا يستطيعون كشفها والوقوف على جلية أمرها لو أن فيروز لم ينتحر . لسكنه انتحر ، فذهب بسرّه إلى القبر معه . أفقضى الأمر ، ولم يبق إلى معرفة السر سبيل ؟

كلا ! بل أرادت الأقدار أن يقف على السر من سادة العرب من يدل عليه . رأى عبد الرحمن بن عوف السكين التي قُتل بها عمر فقال : رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجفينة فقلت : ما صنعان بهذه السكين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ، فإننا لانمس اللحم . وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمرو معه جفينة والهرمزان وهم نجبي ، فلما بغتهم ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب في وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذي قُتل به عمر ، فوجدوه الخنجر الذي نعت عبد الرحمن بن أبي بكر ، لم يبق إذناً في الأمر ريبة . هذان شاهدا عدل ، بل هما من أعدل شهود المسلمين ، يشهدان بأن الهرمزان وجفينة كان معهما السكين الذي قتل به عمر ، ويشهد أحدهما أنه رأى أبا لؤلؤة القاتل ياتمر قبل القتل معهما ، ويقران أن ذلك كله كان عشية طمن عمر . أفيستطيع أحد بعد ذلك أن يشك في أن أمير المؤمنين ذهب ضحية مؤامرة كان هؤلاء الثلاثة أبطالها ، ولعل غيرهم من أبناء فارس أو من الأمم التي غلبها المسلمون كان معهم فيها ؟

سمع عبد الله بن عمر قول عبد الرحمن بن عوف وشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر فاصطبغ الوجود كله دماً أمام عينيه ، ودخل في روعه أن كل أجنبي بالمدينة شريك في المؤامرة ، وأن أيديهم جميعاً تقطر من دم الجريمة . لذلك لم يتردد أن تقلد سيفه ، ثم بدأ بالهرمزان وجفينة فقتلها . روى أنه دعا الهرمزان ، فلما خرج إليه قال له : انطلق معي حتى ننظر إلى فرس لي . وتأخر عنه ، حتى إذا مضى بين يديه علاء بالسيف ، فلما وجد الفارسي حرّه قال : لا إله إلا الله ! وخرّ صريعاً . وروى أن عبيد الله بن عمر قال : «ودعوت جفينة ، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة ، وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه

المدينة للملح الذي كان بينه وبينه ، وكان يُعَلِّمُ الكتاب بالمدينة ، فلما علوته بالسيف صلب بين عينيه .

لم يكتف عبيد الله بقتل الهرمزان وجفينة ، بل انطلق فقتل ابنة أبي لؤلؤة صغيرة تدعى الإسلام ، وأراد ألا يترك سبياً بالمدينة إلا قتله . وسمع الناس في المدينة بما يصنع فأمرعوا إليه ، واجتمعوا المهاجرون الأولون عليه فنهوه وتوعده ؛ لكنه كان في حال من الهياج حتى لقد قال : والله لأقتلنهم وغيرهم ! وعرض ببعض المهاجرين . وعرض له عمرو بن العاص وجعل يحدّثه بالشدة تارة وباللين أخرى ، ولم يزل به حتى دفع إليه بالسيف .

وأقبل سعد بن أبي وقاص ، وقد عرف مقتل جفينة ، فأخذ بناصية عبيد الله وأخذ عبيد الله بناصيته ، واشتد بينهما الأمر لولا أن حجز بينهما الناس . ثم أقبل عثمان بن عفان ، ولما يكن قد بويع ، فأمسك بتلابيب عبيد الله وأمسك عبيد الله بتلابيبه ، وتناصيا وأظلمت الأرض من حولهما ، ثم تدخل الناس فحجزوا بينهما وعثمان يقول : قاتلك الله ! قتلت رجلا يعلو وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله ! ما في الحق ترزك ! لكن عبيد الله لم يكن يرى أمامة غير الدم المراق ، دم أبيه الكريم ، فكان كهيفة السبع يعترض المعجم بالسيف حتى حُبس (١) .

ولم يكن إخوة عبيد الله دونه ثورة لمقتل أبيهم . وكانت حفصة أم المؤمنين من أشدهم ثورة . روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « يرحم الله حفصة ! فإنها من شجع عبيد الله على قتلهم » .

وفعلة عبيد الله من حمية الجاهلية لاريب ؛ فما كان لرجل أن يثار لنفسه ، أو يأخذ حقه بيده بعد أن أصبح القضاء لرسول الله وخلفائه من بعده ؛ يحكون بين الناس بالعدل ، ويتولون القصاص ممن أجرم . لذلك كان حقاً على عبيد الله إذ عرف المؤامرة التي أودت

(١) يذكر ابن كثير في ( البداية والنهاية ) قتل عبيد الله الهرمزان وجفينة ويقول : « وقد كان عمر قد أمر بحبسه ليحكم فيه الخليفة من بعده » . ومؤدى هذا القول أن عبيد الله قتل من قتل وعمر حتى فأمر بحبسه . وأكثر الروايات وأرجحها عندي أن عبيد الله فعل ما فعل بعد وفاة عمرو قبل بيعة عثمان .

بحياة أبيه ، أن يحتكم إلى أمير المؤمنين ؛ فإن ثبتت المؤامرة عنده أجرى فيها حكم القصاص ، وإن لم تثبت أو قامت الشبهة في نفسه منها درأ الحد بالشبهة ، أو قضى بأن أبا لؤلؤة وحده هو الآثم .

أياً ما يكن الحكم فقد آن للشورى أن يجتمعوا ، وأن يختاروا أحدهم أميراً للمؤمنين . وقصة الشورى حدثت بعد وفاة عمر ، فلم تكن من ثم تدخل في نطاق هذا الكتاب ، لولا أن عبيد الله بن عمر بقي محبوباً إلى تمامها ، وإلى أن استخلف عثمان بن عفان ، ثم كان لأمر المؤمنين معه شأن يجب أن يؤرخ لعمر الأبعد .

ثم إن قصة الشورى تصوّر الحال النفسية للمسلمين حين وفاة عمر تصويراً يشهد بأن هذا العهد ، وما تم فيه من اتساع رقعة الفتح وانفساح مدى السلطان ، قد انطوى إلى جانب عظمته وجلاله على بذرة ثورة بقيت مستكنة في خلافة عمر ومعظم خلافة عثمان وهذه البذرة هي التي أدت من بعد إلى مقتل عثمان ، إلى الحرب الداخلية بين عليّ ومعاوية ، وإلى ما تلا ذلك من نزاع بين الأمويين والعباسيين . وقد كان لذلك كله أثر واضح في غظمة الإمبراطورية الإسلامية ، كما كان له أثر واضح في انحلالها بعد بضعة قرون . فحق علينا ، ونحن نؤرخ لعمر ، أن نبرز هذه الحال النفسية التي ظهرت إثر وفاة عمر على نحو لم تظهر به في حياته .

وفي رواية المؤرخين لقصة الشورى بعض الاختلاف . ويرجع اختلافها إلى ما بيده بعض المؤرخين من إثبات عليّ ولبنى هاشم وحقهم في إمارة المؤمنين ، وما بيده بعضهم الآخر من الحرص على رواية الوقائع كما بلغتهم دون التأثير عميل خاص . على أن هذه الروايات في جملتها وتفصيلها تشهد بأن بني هاشم وجدوا فرصة الشورى ساحة لاسترداد حقهم في إمارة المؤمنين ، لأنهم ورثة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وبأن الأكثرية من قريش كانوا يترددون في إجابة بني هاشم إلى هذا الطلب ، بل كانوا يؤثرون ألا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد .

رؤى أن عمر لما استخلف الشورى قال العباس بن عبد المطلب لعليّ : لا تدخل معهم ! قال عليّ : إني أكره الخلاف ؛ وكان جواب العباس : إذن ترى ماتكروه . وقد كان

عمر قال للشورى: «إن رضى ثلاثة رجالاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا حكم عبد الله فكنونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف». فلما خرجوا من عند عمر قال على لقوم معه من بنى هاشم: إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً. وقال لعنه العباس: عدلت عتاً، وذكر له قول عمر: «كونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف»؛ ثم قال: «فسعدت لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان فيولئها أحدهما الآخر. فإن كان الآخران معي لم يفتعاني». فقال له العباس: «لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأجراً بما أكره: أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت. وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت. وأشرت عليك حين سمّك عمر في الشورى ألا تدخل معهم فأبيت. احفظ عني واحدة: كلما عرض عليك القوم فقل: لا، إلا أن يوتوك. واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا. وأيم الله لا نناله إلا بشر لا ينفع معه خيراً». لا أرب لي في ترجيح هذه الرواية ولا في تفنيدها: وهى تشهد على كل حال بأن بنى هاشم كانوا يرون أنفسهم أحق بخلافة النبي وتوَلَّى أمر المسلمين، وأنهم كانوا يرشحون على بن أبي طالب لأنه كان من أول المسلمين، إذ أسلم ولما يبلغ الحلم، ولأنه صهر رسول الله وابن عمه. ولكن علياً لم يكن يحرص على الخلافة إثر وفاة الرسول حرص من يقيم الثورة إذ لم يبلغ أربه. فلما استتخلف أبو بكر عمر لم يثر على ولم يثر أحد من بنى هاشم. ولما طعن عمر وجعل الشورى في ستة بينهم على تحريك بنو هاشم من جديد لتتحقيق غرضهم، ولكن علياً بقى مع ذلك أشد حرصاً على وحدة المسلمين منه على الاستئثار بالأمر لنفسه، مع اقتناعه بأنه أحق المسلمين بهذا الأمر.

وذلك ما تشهد به قصة الشورى في وضوح وجلاء؛ فقد اجتمع أهل الشورى بعد الفراغ من دفن عمر. قيل اجتمعوا في بيت المسور بن مخرمة، وقيل في بيت المال، وقيل في حجرة عائشة بإذنها، وقيل في بيت أحدهم. واجتمع معهم عبد الله بن عمر يشير عليهم وليس له من الأمر شيء. وأمروا أبا طلحة الأنصاري أن يجلبهم، ولم يرضوا أن يجلس عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة بالباب، بل حضبهما سعد بن:

أبي وقاص وأقامهما، وقال لهما: تريدان أن تقولوا حضرنا وكنا في أهل الشورى ا .  
وبدأ القوم يتشاورون ، فاشتد بينهم الجدل وارتفعت منهم الأصوات ارتفاعاً دلياً  
أباً طلحة الأنصاري على شدة اختلافهم ، فدخل عليهم وقال لهم : « أنا كنت لأن  
تدافعوها أخوف مني لأن تنافسوها . والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة  
التي أمرتم ، ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون ا » .

تجربى رواية بأن هذا الخلاف ظل متصل الحدة يومين كاملين ، تداركه عبد الرحمن  
ابن عوف بعدها باقتراح سكن من حدته ، وانتهى إلى الغاية المنشودة . وتجربى رواية  
أخرى بأن عبد الرحمن تدارك الخلاف منذ اليوم الأول ، وأنه استطاع بحكمته أن يتغلب  
عليه . وأما الروایتين صحت فقد قال عبد الرحمن للمجتمعين : أيكم يخرج منها نفسه  
ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ ونظر إليه القوم في دهش ولم يخرج أحد منهم جواباً .  
وكيف يجيبونه والإمارة متنازعة بين بني هاشم وغيرهم من قريش ! قال عبد الرحمن : فأنا  
أنخلع منها . قال عثمان : فأنا أول من رضى . وقال سعد والزبير : رضينا . أما علي بن  
أبي طالب فبقي ساكناً . فسأله عبد الرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ؟ وأجابه علي : أعطني  
موثقاً ، لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألوا الأمة نصحاً . ذلك  
أن عبد الرحمن كان صهراً لعثمان بن عفان وابن عم لسعد بن أبي وقاص ؛ ولهذا خشى علي  
أن يؤثر عليه عثمان . لكن عبد الرحمن لم يلبث حين سمع كلام علي أن قال : أعطوني  
موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعلي  
ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين نصحاً ؛ وبذلك أخذ منهم ميثاقاً  
وأعطاهم مثله :

خلع عبد الرحمن نفسه من ترشيح عمر له ، وجعل كل همه إلى توحيد كلمة المسلمين  
على من يختاره لإمارتهم . لهذا بدأ يعمل لتضييق دائرة المرشحين . وإذا كان يعلم أن علياً  
وعثمان هما المتنافسان اللذان يخشى اختلافهما فقد بدأ يسعى ليحصر الترشيح فيهما . وأول  
ما صنع من ذلك أن خلا يعلي وقال له : تقول إنك أحق من حضر بهذا الأمر لتقرابتك  
وسابقتك وحسن أترك في الدين ، ولم تبعده . ولسكن ، رأيت لو صرف . هذا الأمر عنك

فلم تحضره ، من كفت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ وأجابه عليّ : عثمان . ثم إنه خلا بعثمان وقال له : تقول شيخ من بني عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، ولي سابقة وفضل ، فأين يُصرفُ هذا الأمر عنى ! ولكن لو لم تحضر ، أرى هؤلاء الرهط تراهم أحق به ؟ وأجابه عثمان : عليّ . وكان قد تحدّث إلى الشورى جميعاً قبل ذلك ، وطلب إليهم أن يفوض ثلاثة منهم ما لهم من الحق في ولاية الأمر إلى ثلاثة . وإذا كان سعد والزبير يعلمان أن مالهما من أمل في ولاية الأمر ضعيف ، فقد قوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى عليّ وقوض سعد ماله فيها من حق إلى عبد الرحمن ، وترك حق طلحة لعثمان . أما وقد خلع عبد الرحمن نفسه فقد انحصر الترشيح في عليّ وعثمان ، وقد أصبح الأمر في اختيار أحدهما معلقاً في عنق عبد الرحمن .

قدّر ابن عوف جلال التّبعة الملقاة على عاتقه ، وما يحب عليه لله ولدين الله وللمسلمين . أن يبلغ بها غايةً تجتمع عليها الكلمة وينحسم بها كل خلاف . لذلك جعل يلتقي أصحاب رسول الله ومن وافى المدينة بعد الحج ، من أمراء الأجناد ورؤوس الناس ، يسألهم جميعاً منّى وفرّادى ، مجتمعين ومتفرقين ، سرّاً وعلانية ، حتى يجتهد في أفضل الرجلين فيؤليه ورأى الكثرة الواضحة أشد ميلاً لعثمان . مع ذلك لم يُرد أن يعلن للناس رأياً يتهمه أنصار عليّ فيه ، بل ذهب إلى دار ابن أخته المسور بن مخزّمة فأيقظه ، وقد مضى أكثر الليل من تلك الليلة الأخيرة التي فرضها عمر لاختيار أمير المؤمنين ، وطلب إليه أن يدعوله عليّاً وعثمان . فلما أقبل قال لهما : إني قد سألت الناس فلم أجدهم يعدلون بكما أحداً . ثم أخذ المهدي على كلٍّ منهما : لئن ولّاه ليعدلنّ ، ولئن ولّى عليه ليستمعنّ وليطيعنّ .

وخرج بهما إلى المسجد في الصباح بعد أن نودي في الناس إن الصلاة جامعة . وغصّ المسجد بالناس ، فصعد عبد الرحمن المنبر فدعا دعاء طويلاً ثم قال : أيها الناس ، إن الناس قد أختبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلاً . قال عبد الرحمن : أشيروا عليّ بغير هذا . وأشار عمار بن ياسر والمقداد ابن عمرو بعلّ ، وأشار عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن أبي ربيعة بعثمان . وأدى اختلاف الفريقين إلى تشاتم بين عمار وابن أبي سرح ؛ فصاح سعد بن أبي وقاص : يا عبد الرحمن ! افرغ



قبل أن يُفْتَنَّ الناس . قال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلان أيها الرهط على أنفسكم سييلا .

ثم إنه دعا علياً فأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعي لتعمنان بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفة من بعده ؟ قال عليٌّ : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي . فأرسل يده ، ودعا عثمان وأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعي لتعمنان بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفة من بعده ؟ قال عثمان : اللهم نعم . فرجع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال ثلاثاً : اللهم اسمع واشهد ثم قال : اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك ، وجعلته في رقبة عثمان ! وبإيعه . فازدحم من بالمسجد يبائعون عثمان .

أى موقف وقفه عليٌّ من اختيار عثمان بن عفان وبيعته ؟ ذلك أمر اختلفت الروايات فيه . روى ابن سعد بإسناد أن أول من بايع عثمان عبد الرحمن بن عوف ، ثم علي بن أبي طالب . وروى بإسناد آخر أن علياً بايع عثمان أول الناس ، ثم تتابع الناس فبائعوه . وروى ابن كثير أن عبد الرحمن بن عوف قعد على المنبر مقعد النبي ، وأجلس عثمان بعد أن بايعه على الدرجة الثانية . « وجاء إليه الناس يبائعونه ، وبإيعه علي بن أبي طالب أولاً ، ويقال آخرأ » . أما الطبري فيسوق روايتين تقرب إحداها من هذه الروايات ، وتختلف الثانية عنها كل الاختلاف ، وتدلان كليهما على أن اختيار عثمان ترك في نفس عليٍّ أثرأ عميقاً . أما الأولى فتذهب إلى أنه لما أقبل الناس يبائعون عثمان ، بعد أن بايعه عبد الرحمن ، تلكأ عليٌّ فقال عبد الرحمن ؛ ( فَمَنْ نَكَّثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِنَةٌ لَهُ أَجْرًا عَظِيمًا ) . فرجع عليٌّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خَدَعَةٌ وَأَيُّمَا خَدَعَةٌ <sup>(١)</sup> . وأما الرواية الثانية فتذهب إلى أنه لما بايع عبد الرحمن عثمان قال له عليٌّ : « حَبِوتَهُ حَبَوَ دَهْرًا ! لَيْسَ هَذَا أَوَّلَ يَوْمٍ تَظَاهَرْتُمْ فِيهِ عَلَيْنَا ، فَصَبِرْ بِجَمِيلٍ

(١) يفسر الطبري قول علي « خَدَعَةٌ » بأن عمرو بن العاص لقي علياً في ليلى الشورى فقال له : إن عبد الرحمن رجل مجتهد وأنه منى أعطيتُه العزيمة كان أزهده فيك ، ولكن الجهد والطاقة فإنه أرغب له منك ، ثم لقي عثمان فقال له : إن عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله يبائك إلا بالعزيمة فأقبل لذلك قال علي خدعة . وهذه رواية ضعيفة نسجت بعد الذي كان بين علي وعمرو بن العاص حين الخلاف مع معاوية . فلما اختار عبد الرحمن عثمان بعد أن استشار الناس من أهل المدينة وغيرهم .

والله المستعان على ما تصفون ! والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ! والله كل يوم هو في شأن » فقال عبد الرحمن : « يا علي لا تجعل على نفسك سيلاً ؛ فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بثمان » . فخرج علي وهو يقول : سيبلىغ الكتاب أجله » .

ينفى ابن كثير روايتى الطبرى هاتين فيقول : « وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره من رجال لا يعرفون ، أن علياً قال لعبد الرحمن : خذعتنى ، وأنتك إماماً وليته صهرك وليشارك كل يوم في شأنه ، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن : فمن نسكت فإنما ينكث على نفسه إلى آخر الآية ، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردودة على قائلها وفاعلها والله أعلم » .

أنت ترى ما بين هذه الروايات من اختلاف ؛ لسكنها جميعاً تشهد بأن قريشاً كانت تؤثر ألا تجتمع النبوة والخلافة في بنى هاشم . وقد نسب إلى علي أنه قال بعد بيعة عثمان : « إن الناس تنظر إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم » . وهذا القول ، صحت نسبته إلى علي أو لم تصح ، يتفق وما حدث لذلك العهد . فقد كان علي من أعلم الناس وأقصام بالحق والعدل ؛ فالعدول مع ذلك عنه يفسر هذا الحرص من قريش على أن تكون إمارة المؤمنين مداولة بينهم ، لا يتوارثها أهل بيت توارث الملوك عروش آبائهم . وربما تمت البيعة لعلي لولا هذا الشعور وتأصله في قريش .

جلس عثمان بعد البيعة في جانب المسجد ، ثم دعا عبيد الله بن عمر من محبسه ، ليحاكمه في قتله الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة بعد الذي اعتقده من ائتمامهم بحياة أبيه . فلما مثل عبيد الله بين يدي عثمان وجه أمير المؤمنين القول لجماعة من المهاجرين والأنصار يسألهم : أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق ؟ قال علي بن أبي طالب : ما من العدل تركه ، وأرى أن تقتله . ورأى بعض المهاجرين في هذا الرأي من الفسوة مالا تطيقه النفس فقالوا : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! ووجم الحاضرون لهذا الاعتراض ، وأمسك علي عن القول ، وأجال عثمان في الحاضرين بصره يلمس الرأي . فلو أنه استجاب لرأى علي

وقتل عبيد الله لنفسكأ من آل عمر جزاحات لعماء تندمل ، ولأنار بذلك ثائرات لا يعلم إلا الله عُبَّابها ، ولكان مثلاً في القسوة لا يقاس به أشد الناس غلظة وبطشا . وفي طبع عثمان لين يتجافى به عن مثل هذا البطش لذلك ودّ لو يجد له أحد الحاضرين مخرجاً من موقف ما أحرصه على الخروج منه . وكان عمرو بن العاص حاضراً هذا المجلس ، فقال : « إن الله قد أعفأك من هذا الحدث ، وقد كان وليس لك على المسلمين سلطان . تلك قضية لم تكن في أيامك ، فدعها عنك » ورأى عثمان في قول ابن العاص سفسطة فلم يقتنع برأيه ، وإنما وجد فيه ما يسوّغ الدية ، لذلك قال : أنا وِليهم — يريد ولي الذين قتلوا — وقد جعلتها دية واحتملتها في مالى .

والحق أن الفتوى بقتل عبيد الله كانت قاسية ، وكانت الشبهة في عدلها قائمة . فصب عبيد الله خطأ في اعتقاده أن الهرمزان وجفينة ائتمرا مع أبي لؤلؤة بأبيه ، لقد كان له مع ذلك من العذر ما ينهض شبهة تدرأ عنه الحد وتخفف العقاب . ولعل عثمان لو أجرى التحقيق الدقيق لا نكشفت المؤامرة أمامه ، ولثبتت ثبوتاً تنفي معه كل ريبة فيها . فشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر وشهادة عبد الرحمن بن عوف كافتيتان لتدفعاً عبيد الله إلى ما فعل ، إن لم تنهض دليلاً على الهرمزان وجفينة . وأيد هاتين الشهادتين أن النصل الذى قتل به عمر كان في أيدي المؤتمرين وهم نجى .

ولعل عثمان رأى ألا يقوم في هذا الأمر بتحقيق قد يثير نأثر الفرس ، ويزيد الحفاظ بينهم وبين العرب ؛ ولهذا ودى القتلى من ماله ، وأمر في الوقت نفسه زياد بن لبيد البياضى أن يكف عن التعريض بعبيد الله بن عمر . وبذلك نامت فتنة لم يكن من الخير أن تستيقظ ، وانصرف المسلمون في أرجاء الإمبراطورية إلى مألوف حياتهم قبل وفاة عمر .

\* \* \*

بانتحار أبي لؤلؤة ، وقتل الهرمزان وجفينة ، ودية عثمان إياهما من ماله ومنعه الخوض فيما كان من عبيد الله ، أسدل على السبر في مقتل عمر ستار لا يزال إلى اليوم مسدلاً ، ولا تزال المؤرخون يتعاشون إزاحته . ولعمر الحق ما أرنى لذلك سبباً ، وشهادة عبد الرحمن ابن عوف وعبد الرحمن بن أبي بكر تسوّغ ما اعتقده عبيد الله بن عمر ، واعتقده أخته

حفصة أم المؤمنين ، من ائتمار هؤلاء الأعاجم بأبيهما ! وقد كان لفيروز وللهرمزان من العذر عن هذه المؤامرة أن المسلمين فتحوا بلادهم ، واضطروا ملكهم للفرار لينتهي إلى أشنع مصير وأرذله فإذا تحركت نفوسهم لما أصاب وطنهم فدبروا وائتمروا ، فذهب عمر ضحية مؤامرتهم لم يكن ذلك محجبا وإنما العجب أن يظل الناس يعتقدون أن فيروز قتل عمر لأنه لم يُنصفه بتخفيف الخراج عنه ، مع أن عوده للشكوى من ثقل الخراج لم يكن أيسر منه . وإذا كانت اعتبارات الوقت قد ألفت على عثمان أن يسدل على المؤامرة حجابا فليس للمؤرخين مثل عذره . فقد أسلم الفرس فاعتزوا بالإسلام وأعزوه ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم التي دانت به ، فحق على كل مؤرخ أن يبدي رأيه في أمر أصبح ملك التاريخ فأصبح واجبا جلاؤه . لهذا أبديت رأبي فيه ، موقفا أن هذا الرأي يفسر الكثير مما حدث ، من بعد ، بين العرب والفرس <sup>(١)</sup> .

والأمر أجدر بالمصراحة لأنه يتعلق بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ هذا الرجل الذي ظل اسمه ، وسيظل أبد الدهر ، علما في التاريخ على العدل والنزاهة والحزم وجسنا الرأي . وصدق الإرادة ، والتجرد لله ولدين الله تجردا أعز الله به الإسلام ومدّ لواءه في الخالقين . كان عبد الله بن مسعود إذا ذكر مقتل عمر بكى وقال : « إن عمر كان حصينا حصيفا للإسلام ، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه . فلما مات عمر انتم الحصن فالتباس يخرجون من الإسلام » . وعن حذيفة أنه قال : « إنما كان مثل الإسلام أيام عمر مثل امرئ مقبل لم يزل في إقبال ، فلما قتل أدبر فلم يزل في إدبار » وروى أن عبدة ابن الجراح قال ، وهو لا يزال في عنفوان نشاطه وقوته : « إذا مات عمر رقت الإسلام . ما أحب أن لي ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وأن أبقى بعده . وسترون ما أقول إذا بقيتم فإن وليّ وال بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس ولم يحتملوه ، وإن ضعف عنهم قتلوه » .

(١) يرى الأستاذ عباس محمود العقاد هذا الرأي في كتابه عبقرية عمر فيقول : فمير إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لاشك فيها . وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذي يتوارى به التآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة الفساص الذي يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه أو جهروا بالعلّة التي من أجلها تربصوا بذلك التدبير . وفي رأي الأستاذ العقاد أن كتب الأخبار كان شريكا في المؤامرة . وأنا مقتنع بأنه كان على علم بها ، لكنني لا أستطيع القطع باشتراكه فيها .

وإعسا قال ابن مسعود وحذيفة وأبو عبيدة ما قالوا لاجتماع ما اجتمع من الصفات في عمر . واجتماع هذه الصفات هو الذي جعل المسلمين يحملون منه ما لا يحملونه من غيره ، وهو الذي أحزنهم أشد الحزن لوفاته حتى كأنهم لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ . وكيف لا يحزنون وقد كانوا ، أول ما استُخلف ، فقراء فأغناهم الله ؛ وكانوا يخشون الفرس والروم ، فأصبحوا سادة الفرس والروم ؛ وكانوا في زاوية من الأرض لا يكاد يذكرها العالم ، فأصبحوا بفضل الله ملء السمع والبصر من حياة العالم . كل ذلك وعمر هو هو ، لم يتغير مظهره ولم تتغير حياته ؛ فلم يفكر في نفسه ولا في أهله ، بل رأى فيما وليه من أمر المسلمين عبثاً ألقاه القدر على عاتقه ، فكان كل همه ألا تعلق بولايته ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدي لكل ذي حق حقه . بذلك أعز الله الإسلام ، وأورث الأرض عباده الصالحين .

رحم الله عمر ، ورضى عنه ! إنه كان من عباده المؤمنين .

## خاتمة

مهّد أبو بكر لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، فامتدت في عهد عمر من حدود الصين شرقاً إلى ماوراء برقة غرباً ، ومن بحر قزوين في الشمال إلى النوبة في الجنوب ، واشتملت فارس والعراق والشام ومصر ، وضمّتها كلها إلى بلاد العرب ؛ فكان لتفاعل العوامل ، التي اختصت بها كل واحدة من هذه الأمم ، أثر بالغ في توجيه حضارة العالم من بعد ، وكان تفاعل هذه العوامل طبيعياً ؛ فلم يكن لأمير المؤمنين ولا لغيره من السلطان ما يمجّو أثره ، أو يغيّر النتائج التي ترتبت عليه .

وقد كانت هذه الأمم ، حين انضمت إلى لواء الإمبراطورية الإسلامية ، متباينة أشد التباين في كل مقوماتها ؛ إذ كانت كل واحدة منها تختلف عن سائرها في اللغة ، والحس ، والعقيدة ، والحضارة ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة الاقتصادية . صحيح أن قبائل من العرب كانت تقيم ببادية السّماوة ، على تخوم العراق والشام ؛ وأن هذه القبائل أقامت ملك الحيرة ، وملك بنى غسان . لكن أهل الشام الأصليين وأهل العراق الأصليين كانوا من جنس غير عربي ، وكانوا يتكلمون لغة غير العربية . أما فارس ومصر فكانتا لا تتمّان للعرب في الجنس ولا في اللغة بصلة . كانت عقائد الفرس تخالف عقائد أهل الشام وأهل مصر ، وكان أهل العراق مقسمين بين نصرانية الروم ومجوسية الفرس ، وكانت الحياة ولون الحضارة في كل وحدة من هذه الأمم يختلفان عنهما في الأمم الأخرى اختلافاً كبيراً . وقد تم اجتماع هذه الأمم كلها ، وبينها هذا التفاوت والتباين ، في وحدة الإمبراطورية في زمن لم يزد عن عشر سنين . لكن القوة التي تستطيع أن تخضع الأمم ، وأن تجمعها في سلطان سياسي واحد ، لا تستطيع أن تربل ما بينها من تفاوت في مقوماتها الأساسية . والتطور وحده هو الذي يُحوّل الأمم إلى غير حالها ، بعد أن تكون قد ثبتت على هذه الحال الأجيال والقرون . فكيف كان هذا التحول ، وإلى أي مدى بلغ في عهد عمر ، وماذا كان اتجاهه من بعده ؟ .

عد بالذكرة إلى ما سجله المؤرخون من محاورات قيل إنها حدثت بين سفراء المسلمين وكسرى يزدرجرد وقائده رستم ، وبين خالد بن الوليد وجرجة القائد الرومي في غزوة اليرموك ، وإلى ما كان قبل ذلك من مثل هذه المحاورات بين نجاشي الحبشة والمسلمين الذين هاجروا إليها . لقد كان محور هذه المحاورات ومداها أن العرب كانوا ضماقاً لانحلال الروابط بين شتى أممهم ، أذلةً يتحكم غيرهم من الأمم في مصيرهم ، فقراء يقتلهم الجهد في سبيل العيش ، فلما أرسل الله رسوله إليهم بالإسلام اجتمعت كلمتهم ، وشبعوا من جوع ، وعزوا بعد ذلة . ولا ريب أنه قد حدثت محاورات من هذا القبيل ، إلا تسكن على الوجه الذي فصله المؤرخون فعلى وجه آخر لا يختلف في جوهره عنه . فالرسالة الجديدة للإسلام كانت إذاً موضع التفكير في كل مكان ذهب إليه المسلمون ، وانتصارُ العرب الذين آمنوا بهذه الرسالة كان حجةً صلاحياً نظاماً للحياة الروحية وللحياة الاجتماعية . وحيثما انتشرت فكرة بين الناس ، واستحوذت على الشعور العام ، خلفت أثراً يقوى أو يضعف بحكم الأحوال التي تنتشر الفكرة فيها . وعلى قدر قوته أو ضعفه ترسخ الفكرة في النفوس حتى تبلغ منها مكان الإيمان ، أو تتبخّر شيئاً فشيئاً حتى يجر النسيان عليها ذيل العفاء .

كانت الأحوال التي أحاطت بالفكرة الإسلامية ، في البلاد التي غزاها المسلمون ، كقيلة بأن تجعل هذه الفكرة على كل لسان وفي كل مجتمع . ذلك بأن الأساس الروحي الذي قامت الفكرة عليه كان بسيطاً كل البساطة ، خالياً من كل تعقيد ؛ وأن النظام الخلقى الذي تفرّع عن هذا الأساس كان سامياً غاية السمو ، يأخذ بهاؤه بالأبصار ؛ وأن النظام الاجتماعي في الإسلام لم يكن دون النظام الخلقى والأساس الروحي بساطة وسمواً . وكانت الفكرة الإسلامية في أساسها ونظماً لا تزال يومئذ في صفاء جوهرها ؛ لم يكن عليها الجدل المذهبي ، ولم تحجب تفاصيلُ الجدل ضياء الجوهر عن الأنظار . فلما تنقل المسلمون في أحشاء العراق والشام ، وانتشروا في فارس ومصر ، تسير أعلامهم أمامهم مظفرة قاهرة ، لم يكن لأهل البلاد التي انتشروا فيها بدٌّ من التفكير في سر هذا الظفر وفي مرده إلى الفكرة الإسلامية .

هذا ، ثم إن الخلاف على المذاهب المسيحية وعلى المذاهب المجوسية كان قد بلغ أعظم مبلغ ، وكان الناس في بعض البلاد يسامون بسبب هذا الخلاف أروانا من البطش تزعزع عقيدة فريق وتفتنه عنها ، تزيد فريقاً تعصباً لهذه العقيدة وتضحية في سبيلها ؛ فكان ذلك داعياً آخر للتفكير في الدين الجديد وما ينطوى عليه .

يضاف إلى ما تقدم أن المسلمين لم يُكروهوا أحداً من أصحاب المذاهب المختلفة المسيحية أو المجوسية على الإسلام ، بل جعلوا حرية العقيدة أساس دعوتهم ؛ فكان لذلك من بالغ الأثر في نفوس المتعصبين لمذهبهم والمستضعفين الذين فُتِنوا عنه ما جعل الكثيرين ينظرون إلى هذا الدين الجديد وأهله نظرة خالية من الحقد والكراهية . ولا حاجة بي إلى العود للحديث في ذلك وهو مجلّوف في هذا الكتاب . وأنت قد رأيت كيف نصت جميع المعاهدات التي عقدها المسلمون ، مع أهل الشام والعراق وفارس ومصر ، على احترام كل ملة فلا يُقتن صاحبها عنها ، واحترام كل معبد فلا يمس بسوء . ثم رأيت ، فيما رويناها مما حدث بمصر ، إلى مدى بلغ المسلمون في حمل أهل المذاهب المختلفة على احترام كل مذهب ، وعدم التعرض لأهله بأذى . طبيعىً وهذه هي الحال أن ينظر أهل البلاد المفتوحة إلى الدين الجديد وأهله نظرة تقدير ، وأن يُكبروا هؤلاء الفاتحين الذين أقاموا العدل بين الناس بالقسط .

وزاد أهل البلاد المفتوحة تفكيراً في الدين الجديد وما ينطوى عليه أن المعاهدات التي نصت على حرية العقيدة فرقت بين من أسلم ومن لم يسلم من أهل هذه البلاد . فعلى الذين استمسكوا بدينهم ومذهبهم أن يؤدوا للفتاحين الجزية لقاء منعمهم لهم وحمايتهم حرية عقيدتهم . أما من أسلم من أهل هذه البلاد فقد سقطت عنه الجزية ، وساوى المسلمين الفاتحين ، فصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؛ يصلى في جماعتهم ، وينضم إلى صفوفهم في القتال ، ويرتبط معهم بأصرة النسب ، ويشاركهم في المغامرات ما أحسن البلاء في المعارك . أما ومبادئ هذا الدين سليمة سامية ، وللذين يدخلون فيه كل هذه المزايا ، فلا جرم قد انضم إليه في عهد عمر عدد إلا يكن عظيماً في البلاد التي لا تتكلم العربية فلم يتذوق أهلها كل جماله وسموه ، فقد كان لإسلام هذا العدد ومساواتهم للفتاحين أثر حمل غيرهم



على التفكير في أمر الدين الجديد ، وهوى بنفوس الكثيرين ، فمن فهموا قواعده ونظامه ، إلى الدخول فيه والإيمان به .

ثم إن اتصال العرب الفاتحين بأهل العراق وأهل الشام والفرس والروم والمصريين ، قد كان له من الأثر ما لكل الحروب ؛ إذ تخرج الألوف وعشرات الألوف من أهل الأمم المختلفة عن مواطنهم ، وتربهم ألواناً من العيش لم يكونوا يعرفون ، وتفتح بذلك أمامهم آفاقاً من التفكير والنظر كانت محجوبة عنهم لبعدها عن مواطن إقامتهم . ولا يزال المؤرخون يتحدثون عما كان للحروب الصليبية من أثر في علاقات الشرق والغرب ، وما حدث بعد غزو الترك أوروبا واستيلائهم على القسطنطينية ، من اتجاه الحضارة الغربية كلها وجهة جديدة أدى إليها بعث العلوم والفنون الإغريقية وانتشارها في أنحاء أوروبا المختلفة . وقد كان للفتح الإسلامي مثل هذا الأثر من أول عهده . فكما أدى اختلاط العرب بالأمم التي فتحوها إلى تفكير هذه الأمم في الدين الجديد ، كذلك أدى إلى إعجاب العرب بحضارة الفرس والروم والمصريين ، وإلى انفساح الأفق الفكري أمام هؤلاء وأولئك ، وامتناله عناصر جديدة نقلت التفكير العربي في الحياة المدنية ، وتفكير أهل البلاد المفتوحة في الحياة الروحية والمعنوية ، خطوات فسيحة قربت بين عقلية الجميع ، وإن لم تمنح الفوارق الطبيعية التي صاغت البيئات فيها هذه العقليات المختلفة .

وقد رأيت أثر ذلك في إسلام من أسلم من الفرس والروم ، وفي إقبال العرب على النهل من أنعم الحياة بعد أن يسرت لهم مغامرات الحرب هذا النهل . صحيح أن الأمم المفتوحة ، وإيران خاصة ، قد بقيت في نفوس أهلها حفاظ على الفاتحين كانت تثيرهم بهم الحين بعد الحين . لكن هذه الحفاظ لم تكن لتقف التفاعل الطبيعي وما أدى إليه من تطور في عقلية الغالبين والمغلوبين على سواء ، وتحوّل نظرهم إلى الحياة عما كانت عليه ، ولم تقف ما أدى هذا التطور إليه من تقارب في هذه النظرة لم يكن أثره بادياً للعيان في عهد عمر ، ولكنه مع ذلك كان يعمل دائماً ، فيؤدي عمله إلى ظهور هذا الأثر بعد سنوات معدودة ؛ إذ يتخذ علي بن أبي طالب من السكوفة عاصمته ؛ ثم يتخذ معاوية ابن أبي سفيان من دمشق عاصمته ، ثم تدخل مذاهب التفكير التي أقامتها الفلسفة

الإغريقية في العقلية العربية ، ثم يدخل الفن الفارسي ونظام الحكم الفارسي في الحياة الإسلامية ، وينتهي بأن يجعل من بغداد عاصمة العالم .

كان هذا التطور يسير حثيثاً في عهد عمر ، وإن لم يبدو أثره ظاهراً للعيان وكان سيره هذا يمهد الحضارة الجديدة تجمع في كنفها دين المسلمين ، وفلسفة الإغريق والفرس والمصريين ، وعلومهم وفنونهم وآدابهم ؛ ويمهد بذلك لنظام جديد في الحياة يشمل مناحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية ، ويصوغها في حياة الجماعة العامة وفي حياة الأفراد الخاصة .

لم يظهر أثر هذا التطور واضحاً للعيان في عهد عمر ؛ لأن العرب كانوا في شغل عن التفكير في أمره بما هم فيه من لقاء عدوم وقهره ، ولأن الأمم المغلوبة على أمرها نسيت التفكير في أي شيء إلا فيما نكبت به من هزائمها . وأنت لذلك قلما تجد في كتب المؤرخين الأولين وقفات تصور هذا التطور في النفس الإنسانية ؛ فإذا عثرت بشيء من ذلك وجدته دفيناً لا يكاد يظهر ؛ لأن سرد الحوادث طغى عليه فأغرقه في لجته . على أن سرد الحوادث لا يدع عندنا مجالاً للريب في قيام هذا التفاعل من عهد الفتح الأول .

فقد أحصى المؤرخون مغنم المسلمين في المعارك التي حدثت في عهد عمر ، وذكروا ألوانها وكثرتها وبهر العرب لمرآها وفتنتهم بها ، كما ذكروا مخاوف عمر أن يبلغ المسلمون من الاقتتان بهذه المغنم مبلغاً ينسيهم المبادئ التي أظفرتهم بعدومهم ، فتتغير نفوسهم ، فيغير الله ما بهم ، كذلك رووا ما كان من تنافس البصرة والكوفة ، ومن اختلاف القبائل العربية التي أقامت في كلتا المدينتين . وهذا كله ، وما حدث من اختلاط العرب والعجم ، يثبت عندنا اليقين بأن ما قام من بعد من نضال بين الخلافة والملك ، وما شاع في الجماعة الإسلامية من ألوان الترف الفني والفكري ، وما نشأ عن هذا التطور منذ العهد الأول مما جعل البلاد التي فتحت في عهد عمر منازل الإسلام ومدارس الفقه فيه ، كل ذلك قد كان له أثره في قيام الحضارة الإسلامية ، وكان له أثره في عظمة الإمبراطورية في القرون الأولى ، كما كان عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب في كيان الإمبراطورية .

كيف يؤدي تفاعل عوامل بذاتها إلى آثار متناقضة ، فيكون سبباً في قيام الإمبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سبباً في تدهورها وانحلالها ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدق الإمبراطورية الإسلامية ، وعلى غيرها من الإمبراطوريات . فكلمة هذه العوامل ومبلغ تفاعلها يختلفان في زمن عنهما في زمن آخر . وهذا الاختلاف يؤدي إلى تباين النتائج . ذلك أمر طبيعي نشهده في الظواهر الاجتماعية ، كما نشهده في الظواهر الطبيعية . فكما يؤدي اختلاف الأنواع والمقادير في العناصر الكيميائية إلى اختلاف تفاعلها وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدي اختلاف الكم والنوع في العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة . فإذا زادت القوى المعنوية في الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية ، أدى تفاعلها مع القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها . ذلك بأن القوى المعنوية هي التي تدفعنا إلى طلب الكمال الإنساني وإلى الدأب في سبيله . والجماعة مع ذلك لاغنى لها عن قواها المادية ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطاً وإنتاجاً بدافع من القوى المعنوية . فإذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادي ، وتضاءل إنتاجنا .

وقد أشرنا غير مرة في هذا الكتاب إلى سمو القوى المعنوية عند العرب ، بعد أن حطم الإسلام في نفوسهم قيود الوثنية ، وبعد أن جمع كلمتهم حول عقيدة واحدة ولواء واحد . وكان لتغلب المسلمين على الأسدين ، فارس والروم ، أثر صالح كذلك في البلاد التي فتحوها . ذلك أن دسائس البلاط كانت السبب الجوهرى في اضطراب أمور الفرس وفي سوء حكمهم ، وأن الاضطهاد الدينى كان السبب الجوهرى في سوء حكم الروم للشام ومصر . فلما تغلب المسلمون على العراق وعلى فارس ، لم يبق للبلاط وجود ، فلم يبق لدسائس البلاط موضع ؛ ولذا شغل كل أمير بإمارته ، وحرص على أن يحسن سياستها حتى لا يتعرض لغضب ولاية المسلمين وغضب أمير المؤمنين . وشعر أهل العراق والفرس بتفوق المسلمين عليهم لمدحهم في حكمهم ، وأدركوا بالسليقة أنهم إن لم يُظهروا للمسلمين خير صفاتهم لم يقف هوانهم ولم تقف مذلتهم عندما نزلت الهزيمة بهم إليه ، بل تدلّوا في أعين الفاتحين إلى شر من ذلك مكاناً ، وبأوا بازدراءهم وتحقيرهم . لهذا بدءوا يُبرزون خيراً ما عندهم

من تراث قومهم ، وخير ماورثوا من صفات آباؤهم في تجويد الفنون والعلوم والصناعات ، وكل ما كانت لهم فيه اليد الطولى مما لم يكن العرب يستطيعون مجاراتهم فيه . وكذلك فعل أهل الشام وأهل مصر ، فقد زال الاضطهاد الديني بعد فتح العرب بلادهم ، وزالت بذلك أسباب امتعاضهم وثورتهم ، وما كان ينشأ عن هذا وذلك من سوء الحكم واضطراب الأمور بينهم . عند ذلك بدءوا يظهرن خير الصفات التي ورثوها عن آباؤهم في التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، فبرزت القوى السليمة التي وهبتها لهم الطبيعة وجعلت تنشط وتنتج خير ثمراتها .

أدى هذا كله إلى نوع من الاستباق إلى المكرمات وإلى المجد وإلى اعتماد كل جماعة على أفضل مواهبها ، لتبلغ خير ما تستطيع من احترام الأمم للمكونة للإمبراطورية معها . وطبيعي أن يؤدي الاستباق في هذا المضمار إلى عظمة المجموع ، أي إلى عظمة الإمبراطورية وجلال مكانها في العالم .

كان أمراء المؤمنين يباركون على هذا النشاط الجهم في أرجاء الإمبراطورية المختلفة ، وينظرون إليه بعين الرضاء ، ويرجون منه المزيد . وكانت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التي سنّها الإسلام تقرّب بين العاملين الدائبين في هذا النشاط ، مع ما كان من اختلاف أصولهم ولغاتهم وعقائدهم . وزاد دخول الكثيرين ، من أبناء الأمم التي راف عليها لواء الإمبراطورية الناشئة في الدين الجديد في هذا التقريب ، حتى كاد يدمج هذه الأمم في وحدة منسجمة تسمى كل أطرافها إلى غاية مشتركة ؛ هي عظمة الكل ، وعظمة كل جزء من أجزائه .

أدى هذا النشاط الجهم إلى تنافس الأمم التي تكونت منها الإمبراطورية تنافساً زاد الإمبراطورية اندفاعاً إلى التوسع والعظمة . وكيف لا تندفع في هذه السبيل وعوامل الوحدة والانسجام تزداد بين هذه الأمم قوة على مر الأيام والسنين فلم يحل ماقررت مبادئ الإسلام من حرية العقيدة ، وأنه لا إكراه في الدين ، دون إقبال الأكثرين من أهل مصر والشام والعراق وفارس على النظر في الدين الجديد ، ودخولهم فيه أفواجا عن رضا وبيفة .

وكان لدخولهم في الإسلام أثر بالغ في تعزيز وحدتهم ؛ لأن الإسلام لا يتناول العقيدة

وكفى ! بل هو يتجاوز الميدان الروحي إلى الميدان الخلقى والميدان الاجتماعى ، ويفرض على الآخذين به نظماً في الأخلاق وفي التشريع تختلف في جوهرها عن النظم المسيحية والجنسية ، كما تختلف عن النظم الجاهلية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل مبعث النبي العربي .

واتفاق القيم الأخلاقية في جماعة ما من شأنه أن يجمع أطرافها في وحدة تزيد أهلها تعارفاً وتآلفاً . فاتفق الجميع على المعروف والمنكر ، وعلى الخير والشر ، وعلى الحرام والحلال ، يبعث في كيان المجموع من الانسجام ما يزيد في قوته المعنوية ، ويزيد تبعاً لذلك في نشاطه المادى . فإذا صدر هذا الاتفاق عن أصل واحد هو العقيدة ، فآمن الجميع بأنهم مسئولون أمام الله خالق كل شيء ، يجزيهم عن أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كان ذلك سبباً في اتساق الانسجام ، وازدياد الوحدة قوة بقدر هذا الاتساق . ولا ريب أنه قد حدث هذا الانسجام ، وآتق في أرجاء الإمبراطورية كلها بعد أن سكن أهل الأمم للفتوحة إلى عالم الجديدة ، ونظّموا حياتهم في ظلها .

وزاد الانسجام اتساقاً والوحدة قوة أن تجاوز الإسلام ميدان العقيدة وميدان الأخلاق إلى ميدان التشريع ، وأن أذعن المسلمون في مختلف الأرجاء من إمبراطوريتهم المسيحية إلى ما جاء في كتاب الله عن نظام الأسرة ، وعن الميراث ، وعن التنظيم الاجتماعى والاقتصادى لكثير من شؤون الحياة . صحيح أن ما نصّ عليه في القرآن من هذه الشؤون لم يزد على المبادئ العامة ، لكن هذه المبادئ العامة في التشريع كانت ذات أثر بالغ في توجيه تفاسيله ؛ كما أن تطبيق العرب لها ، عن طريق القضاء في أرجاء الإمبراطورية ، قد زاد في هذا الأثر ، وأدى إلى وحدة في التشريع أطردت في الأجيال الأولى من حياة الإمبراطورية . وزاد في أطرافها أن التشريع الإسلامى ، وقواعد الخلق الإسلامى ، وقواعد الإسلام في العقيدة ، كانت تعتبر في ذلك العهد وحدة لا انفصام لها ، فزاد ذلك في اتساق الانسجام ، وفي قوة الوحدة التي انتظمت أجزاء الإمبراطورية كلها .

وكان طبيعياً ، والقرآن كتاب الله وأساس هذا الدين ، أن يتعلم الناس في البلاد المفتوحة لغة القرآن ، ليزدادوا فقهاً في دينهم ، وليعرفوا لغة حكامهم . والعقيدة واللغة

قوتان بالغتا الأثر في توحيد من يشتركون فيهما ، وفي تعاونهم وتألفهم . ولا أراني بحاجة إلى إقامة الدليل على هذا الأمر ونحن نرى في عصرنا الحاضر وحدة الأمم اللاتينية ، وجماعة الأمم التي تتكلم الإنجليزية ، وتضامن الأمم المسيحية ، وهلم جرا . هذا مع أننا في عصر تقرر فيه مبادئ الحربة بأوسع مما كانت في القرن السابع المسيحي ، وهدى العلم فيه إلى أسباب الوحدة ، إذ ضيق نطاق العالم على نحو لم يكن يدور بخلد أحد في ذلك الزمان .

أدرك كثيرون ممن أرخوا لذلك العهد الأول من عهود الإمبراطورية الإسلامية ، ما كان لاقتشار الإسلام وانتشار العربية من أثر بالغ في قيام هذه الإمبراطورية وفي قوتها ؛ ولهذا تساءل بعضهم : لِمَ لم يفرض الفاتحون دينهم ولغتهم على البلاد المفتوحة ؟ وظنوا أنهم لو كانوا قد فعلوا لما دبت من بعد عناصر الانحلال في هذه الإمبراطورية . وأحسبني في غنى عن تفنيد هذا الظن وإدحاضه . وليس يرجع ذلك إلى أن من إضاعة الوقت مناقشة فرض لم يحدث ؛ فناقشة أمثال هذا الفرض جليلة الفائدة في هداية الإنسانية طريقها خلال المستقبل ؛ وإنما يرجع إلى أن هذا الظن فاسد الأساس . فلو أن العرب أكرهوا الأمم التي فتحوها على دينهم وعلى لغتهم لما قامت الإمبراطورية إلا لتنهار . ذلك بأن كل اجتماع لا يقبل الناس عليه أحراراً مختارين سرعان ما يتقضم ، وكل نظام يستند إلى القسر يؤدي إلى بريم الناس به وانتقاضهم عليه . فلو أن المسلمين أكرهوا الأمم المفتوحة على الإسلام لما أغنى ذلك عنهم ، ولكفرت الأرض بهم وانتقضت الناس عليهم ، ولما استطاعوا أن يقيموا حكمهم في هذه البلاد ، على أساس غير البطش . والحكم القائم على البطش حكم سريع الزوال . وقد رأينا ، ورأى المسلمون الأولون ، ما أصاب هرقل حين أراد أن يفرض مذهباً مسيحياً موحداً على أهل المذاهب المسيحية المختلفة . ثار الناس به وبعماله ثورة انتهت بفراره من الشام أمام قوات المسلمين ، وفتوح المسلمين مصر وضياعها من إمبراطوريته .

فأما إذا أقبل الناس على عقيدة من العقائد ، فدخلوا فيها أحراراً مختارين ، فإن هذه العقيدة تصبح بعض حياتهم ، ويصير لها في قلوبهم من القداسة ما يحملهم على الدفاع

عنها ، والتضححية بالروح في سبيلها . فهذا الذي صنعه المسلمون الأولون تقييداً لمبادئ دينهم : من حرية العقيدة وعدم الإكراه في الدين ، كان الحكمة كل الحكمة ، وهو الذي دفع الإمبراطورية الإسلامية إلى التوسع والعظمة .

والأمر في اللغة كالأمر في الدين ؛ إن لم يُقبل الناس عليها راغبين مختارين ، مقدرين ما في تعلمها من فائدة جليلة ، أخفقت كل محاولة لحملهم على تعلمها ، بله التكلم بها . كانت الحرية التي كفلها المسلمون لأهل البلاد المفتوحة في أمر العقيدة بعض مادما الفرس والروم وغيرهم للإقبال على الإسلام ، وعلى اللغة العربية . وزاد في إقبالهم ما فرضه الإسلام من المساواة بين المؤمنين به على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ، وما قرره من أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، ومن أن المؤمنين إخوة ؛ فلا يكفل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فهذا الإخاء وهذه الحرية والمساواة أدت كلها إلى انتشار جوٍّ ضاعف من قوة الوحدة في الإمبراطورية ، وتضاعف في ظله نشاط كل جزء من أجزائها .

وأنت مع ذلك تستطيع أن تميز ، في عصور الإسلام الأولى أو في العصور التي تلتها ، نصيب كل جزء من هذه الأجزاء فيما أثمر نشاطها جميعاً من آثار عظيمة في الفقه ، والأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والصناعة ، والزراعة ، وكل مظاهر الحياة المعنوية والمادية : ذلك بأن لسلك أمة طابعاً أنشأته البيئة ، وثبت على الزمان بحكم الوراثة . وهذا الطابع يبدو واضحاً في الفنون والآداب وألوان التفكير المختلفة ؛ وهو لا يخفى في الصناعة والزراعة وغيرهما من آثار الحياة المادية . وتاريخ الأدب العربي يحدثنا عما أدخله الفرس والروم ، في مذاهب الكتابة والتفكير ، من صور وألوان لم تكن مألوفة عند العرب من أهل شبه الجزيرة ، وذلك مع أن الفرس والروم تعلموا العربية عن أهل شبه الجزيرة . ولا عجب ، فاللغة كائن حتى يسائر الوسط الذي يعيش فيه . وهي ، بحكم أنها الأداة لإبراز التفكير والتصور الإنساني ، تتأثر في أساليبها وفي قوالبها بما تؤدبه من متباين ألوان التفكير والتصور . لذلك كان طبيعياً أن تتأثر اللغة العربية بالصور والألوان التي ألقيها الفرس والروم في ثقافتهم وفي تفكيرهم ، وأن يدخل على أساليبها في الشعر والنثر ما يؤدي هذه الأغراض .

كان للألوان الجديدة ، التي أدخلها الفرس والروم في الفن العربي والأدب العربي ، أثر واضح في العرب أنفسهم . وأنت ترى هذا الأثر ملموساً في اختلاف مذاهب البصريين والكوفيين في اللغة ، اختلافًا لا يزال مؤرخو اللغة والأدب يذكرونه إلى وقتنا الحاضر . وإنما نشأ هذا الخلاف لأن البصرة والكوفة في العراق ، فهما تجاوران فارس ؛ وطبيعي أن يتأثر أهلها بهذا الجوار ، وبما يجلبه إليهم من ألوان الثقافة الفارسية . ولا عجب في أن تكون إحدى المدينتين أكثر محافظة على عربيتها ، وأن تكون الثانية أكثر حرية في امتثال الثقافة الفارسية .

لم يكن الطابع القومي واضحاً في الحياة المعنوية وحدها ، وفي مظاهر هذه الحياة من فن وعلم وأدب ، بل إنك لتقرأ الكثير عن آثار هذا الطابع في الحياة المادية ؛ فيرود المين ، وحرائر دمشق ، وقباطى مصر ، هذه وأمثالها ، من الألوان المتميزة في الصناعة والاقتصاد يتميز البيثة ، تشهد ببقاء هذا الطابع ، وبأن ما حدث من وحدة الإمبراطورية لم يكن ليحوه أو ليزيل آثاره .

على أن وضوح الطابع القومى في مظاهر الحياة المعنوية والمادية المختلفة ، لم يكن في قليل ولا كثير على وحدة الإمبراطورية في عصورها الأولى ؛ فقد آتت قوى الإمبراطورية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ؛ ونشأ عن هذا الانساق تزواج بينها أنتج من الثمرات ما ربط بين أجزاء الإمبراطورية كلها بأوثق رباط . تزوجت الفلسفة الإغريقية والثقافة الفارسية في ظل التوحيد الإسلامى فأنتج هذا التزواج الفلسفة الإسلامية . وتزواج الخيال الفارسى والفن البنزنى باللغة العربية ، فأنشأ في الشعر العربى والنثر العربى ألوان الأدب الإسلامى . وتزواج فن الزخرفة الفارسية والحارة البنزنية ، فكانت الحارة العربية ثمرة هذا التزواج . وامتد التزواج إلى مرافق الحياة في أرجاء الإمبراطورية كلها ، فأنشأ خلقاً جديداً كان يزداد على الأيام والسنين قوة وازدهاراً ، وكان يتقدم الفتح العربى ثم يسايره ، وكان يبسط على أرجاء العالم القريبة والبعيدة سلطانه ، وكان أبقى من الفتح العربى أثراً وأقوى أصولاً وأغزر فروعاً ؛ هذا الخلق الجديد هو الحضارة الإسلامية .



وفي ظل هذه الحضارة ترعرعت الإمبراطورية في القرون الأولى على نحو بهر العالم، وشدَّ إليها الأنظار من كل جانب . وكان من أثر ذلك أن نسي الناس في أرجائها الواسعة فوارق القومية؛ ولم يذكروا إلا أنهم مسلمون ، وأنهم إخوان تربط بينهم مبادئ الحرية والإخاء والمساواة المقررة في الإسلام ، ويقوم الحكم بينهم على أساس من العدل والتقوى ولهذا كانوا يضحون بعضهم إلى بعض ؛ يتزوج العربي من بنات فارس أو العراق أو الشام أو مصر ، ويتزوج المسلمون من أهل هذه البلاد العربيات . وكذلك أقامت لحمة الدم والنسب صلات المودة بين المسلمين جميعاً ، ومحت من نفوسهم معاني التعصب القوي والجنسي ، وبنّت في وحدة الإمبراطورية روحاً زادت قوة وتثبيتاً ، وزادت أبناءها إقبالا على الإنتاج المعنوي والمادي ، ورفعت بذلك من صرح الحضارة الإسلامية .

ظلت هذه الحال أجيالا متعاقبة . وكان لتفاعل العوامل التي اختصت بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية أبلغ الأثر في توجيه حضارة العالم في الشرق والغرب . وإذا كانت القوى الدافعة لتفاعل هذه العوامل والموجهة لها بالغة السلطان ، فقد استجنت عوامل الفرقة والضعف خلال هذه الأجيال وتقاّص أثرها ، فإذا بدا من هذا الأثر شيء أسرع القوى الدافعة للقضاء عليه . وقد رأينا صورة من ذلك في مقتل عمر على أن استجنان هذه العوامل لم يقض عليها قضاء ينتهي إلى فنائها ، بل بقيت كلها في مكانها بقاء جرائم المرض في الجسم الصحيح ؛ إذا حاولت النشاط أو البروز غلبتها أسباب الصحة ، فردتها إلى أوكارها وخللاها ، فلم يشعر أحد ولم يشعر صاحبها نفسه بوجودها ولا بقدرتها على أن تنشط إذا ضعفت أسباب الصحة . وفي ظل هذه القوى الدافعة كان أبناء الشام أعوانا للعرب المسلمين في عهد بني أمية ، وكان الفرس أعوانا أقوياء للعباسيين من قرابة رسول الله ، وكان المصريون يظهرون على مسرح السياسة الإسلامية في أدق المواقف ، ثم كان لظهور هؤلاء ومعاونة أولئك أثر بالغ في إسراع الإمبراطورية إلى النماء والقوة . وإلى بقائها متماسكة الأجزاء ، حتى آن للزمن أن يدور دورته ويفعل فعله .

وإنما بدأت دورة الزمن حين ضعفت القوى الدافعة لتفاعل العوامل ، التي اختصت

بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية ، تفاعلا يزيد في نماء الإمبراطورية وفي سلطانها ومع أن عوامل الفرقة والضعف كانت تبرز من أوكارها وخلاياها منذ العهد الأول حيناً بعد حين ، فقد كانت تردّنا كصبة على أعقابها ، متراجعة أمام أسباب الصحة الجارية في كيان الإمبراطورية . على أنها كانت كلما ظهرت تركت وراءها أثراً يتحدث الناس عنه حيناً ، ثم لا يلبث جلال الحوادث المحيطة بهم أن ينسيهم إياه .

وكان مقتل عمر أول أثر ظاهر لبروز عوامل الفرقة من مكانها . فلما تولى عثمان ، وقضى على الفتنة التي كادت تنجم حين قتل عبید الله بن عمر من اقتنع بأنهم اثتمروا بحياة أبيه ، انصرف الناس إلى حياة الغزو والفتح وإلى تثبيت قواعد الإمبراطورية .

وبعد ست سنوات من خلافة عثمان بن عفان ، عاد الخلفاء القديم بين بني هاشم وبني أمية ، فظهر بعد استتاره وبرز من مكانه . ذلك أن عثمان آثر ذوى قرابته بمناصب السلطان ، فألب خصومته المسلمين في أرجاء الإمبراطورية المختلفة عليه ، واتخذوا من تصرفاته في هذا الأمر وسيلة للتشنيع عليه . وانتهى التأليب إلى الفتنة ، وكان للمسلمين المقيمين بمصر أثر أى أثر فيما أدت هذه الفتنة إليه من قتل عثمان فلما قضى الخليفة الشيخ نجبه ، وبويص على من أبى طالب بالخلافة مكانه ، طالب بنو أمية بدم عثمان ، ثم أثاروها عياءاً للثأر . وانقسم المسلمون في أرجاء الامبراطورية : ينصر فريقٌ بني هاشم ، وفريقٌ بني أمية .

انتهت هذه الفتنة بمقتل على وابنه الحسين ، فتولى بني أمية أمر المسلمين ولم تصدع هذه الفتنة بقاء الإمبراطورية ، وإن هزته هزاً عنيفاً ؛ لأن هذا البناء كان متيناً قوى الأركان ، ولأن عوامل الفرقة كانت لا تزال ضعيفةً . إذ كانت البلاد المفتوحة لا تزال تنوء بعار هزيمتها ، وبأسباب العنف التي ورثتها عن حكامها السابقين . لذلك لم يلبث بنو أمية حين استقر لهم الأمر ، أن عادوا يتابعون سياسة الفتح التي بدأها الخلفاء من قبلهم ، فعادت عوامل الفرقة إلى مكانها ، واستمرت أمم الإمبراطورية تتعاون في تشييد الصرح العظيم ، صرح الحضارة الإسلامية .

على أن هذه الفتنة طوّعت للأمم المفتوحة أن تسترد حيوياتها ، وأن تكيف اتجاهها

في ظل الحضارة الجديدة تكيفاً يكفل لأصحابها السلطان . وكان الفرس أبرع هذه الأمم وأسرعها إلى بلوغ هذه الغاية ؛ فقد رأوا بني هاشم حريصين على النار لعلّ وللحسين ولبن نكهم فيه بنو أمية ؛ فصور مفكروا الفرس مبدأ الإمامة والإمام تصويراً استهوى أبواب أهل فارس والعراق ، فتشيعوا لعلّ وأنصاره ، وظهروا أبا مسلم الخراساني مظهراً انتهت بانتصار العباسيين على بني أمية ، وبنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد .

استقر الأمر للعباسيين فاتخذوا من الفرس وزراءهم والمشيرين عليهم ، فكان لهم في الحياة الإسلامية أثر بالغ . وحسبك لتقدر هذا الأثر أن تذكر ما حدث في هذا العهد : ففيه جمعت الأحاديث الروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ونقلت الفلسفة الإغريقية إلى العربية . وبرع من الفرس في النثر والشعر من نقلوا إلى لغة القرآن ألواناً من الثقافة الفارسية ، وازدهرت العلوم والفنون والآداب ازدهاراً لفت أنظار العالم كله ، ولقّحت هذه العلوم والفنون بما أنتجته عبقرية كل واحدة من أمم الإمبراطورية . بذلك عظم مقام الحضارة الإسلامية ، فوجهت العالم أجيالاً وقرونًا .

وكان من نتائج هذا الازدهار أن تعددت مذاهب التفكير وأوانه في علوم الكلام والفقهاء ، وفي الأدب واللغة ، وفي أساليب السياسة والحكم ، وفي كل مظهر من مظاهر الفكر وأثر من آثاره . ونشأ عن ذلك أن استطاعت كل أمة أن تصبغ تفكيرها الإسلامي بطابعها القومي ، وأن تذيب هذا التفكير في أرجاء الإمبراطورية ، وأن تجدد من يسيغ هذا التفكير لأنه اصطبغ باللون الإسلامي وكتب اللغة العربية . بهذا استردت كل أمة شخصيتها مصبوبة في قالب عربي من قوالب الحضارة الإسلامية ، وأن لكل أمة أن تصبو إلى مكان السلطان من الإمبراطورية ، فإن لم تستطع صَبَّتْ إلى الاستقلال القومي تتمتع به في ظل هذه الحضارة .

وكذلك انقرط نظام الإمبراطورية ، فلم تبق لها سياسة موحّدة ، غرضها إذاعة رسالة الإسلام في الناس . وكذلك سادت الفكرة القومية في السلطان والحكم ، وظلت سائدة بعد أن تغابب الترك على أجزاء الإمبراطورية كلها ، وجمعوها من جديد بحكم الفتح ، وجعلوا منها الإمبراطورية العثمانية . فقد كانت هذه الإمبراطورية

تركية قومية ، ولم تكن عربية إسلامية ؛ وكانت لذلك لا تجعل إذاعة الرسالة الإسلامية غرضها ، بل تتخذ من الإسلام وسيلتها للحفاظ على مكائنها وعلى سلطانها .

\* \* \*

هذه لمحة سريعة أردت بها أن أظهر تفاعل العوامل ، التي اختصت بها كل واحدة من أم الإمبراطورية الإسلامية ، بعضها مع بعض في العصور المختلفة : وأن أبين كيف كانت سبباً في نماء الإمبراطورية وقوتها ، وفي قيام الحضارة الإسلامية ورفعها ، ثم كانت سبباً في ديبس الاحلال إلى هذه الإمبراطورية . وأحسبك ترى معنى أن تفصيل هذه العوامل وتحليلها ، وإبراز مآثرها وما خفي من صور تفاعلها . وما حدث خلال العصر من اتصالها بغيرها من الأمم والحضارات ، هذا كله ينشر في أرجاء التاريخ ضوءاً جديداً ما أشد حاجة العالم الإسلامي ، بل ما أشد حاجة العالم كله إليه ! .

وقد كان للكتاب العرب والمسلمين ، كما كان للمستشرقين ، فضل عظيم في تناول الكثير من جوانب هذا التاريخ بالبحث والتحليل . وإنني لحريص على أن أتابع الجهد لشاركتهم في هذا المضمار ، على الطريقة التي اتبعتها منذ كتاب « حياة محمد » وفي نيتي أن أجعل وجهتي . في الحلقة الرابعة من هذا البحث ، إلى تحليل ما حدث بين خلافة عثمان وملك بني أمية ، مع تقديري لدقة هذه الفترة من حياة الإمبراطورية وجلال خطرهما .

والله أرجو أن يوفقني في هذا الجهد ، كما وفقني من قبل ؛ فنه جل شأنه الهدي وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله ! .

## تقدير وشكر

حق عليّ ، وأنا أطلع الناس بهذه الطبعة الأولى للجزأين الأول والثاني من كتاب ( الفاروق عمر ) ، أن أقدر جهد الذين عاونوني في إظهاره وأن أشكرهم لهم . وفي مقدمة هؤلاء صديق مصطفى عبد الرازق باشا ؛ إذ أعارني أصول محاضراته بجامعة فؤاد الأول في الفلسفة الإسلامية ، فيسر لي طريق البحث في الفصل الذي وضعته عن اجتهاد عمر . وقد جمع لي الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ما في كتب السنة من أحاديث رسول الله عن عمر بن الخطاب ، فأعانتني في تدوين ما اتصل من حياة عمر بالرسول الكريم . وللدكتور سيد نوفل جهد في المعاونة على إظهار هذا الكتاب حقيق بأعظم الشكر . فقد بدأت كتابته في شهر مارس سنة ١٩٤٣ ، وفرغت منه في يونيو سنة ١٩٤٤ . وفي هذه الأثناء كنت أضع ما أراجعه من فصول الكتاب إلى الدكتور نوفل ، فيمليه علي لبيب أفندي فكري إبراهيم لكتابته على الآلة الكاتبة ، ثم يراجعه ويبدى لي ما يعن له من ملاحظات . فلما بدأت طبع الكتاب شارك في تصحيح تجاربه في كل أدوارها أدق المشاركة . وهذا الجهد في الإملاء والملاحظة والتصحيح والمراجعة ، جسم جدير بأجزل الثناء . وللأستاذ عبد الرحيم محمود من الفضل في تحقيق ما في الكتاب من نصوص ، وضبط ما فيه من أعلام ، والتدقيق في مراجعة تجارب الطبع وتصحيحها ، ما لا يكفي الثناء جزاء عليه .

وقد وضع الشيخ أحمد عبد العلم البردوني والشيخ محمد البرهامي فهارس الكتاب على علي النحو المحكم الذي يراه القارىء ؛ فلهما أجزل الشكر . ولطبعة مصر ومصححها شكر يقدره القراء ؛ إذ يرون في طبع الكتاب من الذوق الفني وجماله ، ما لا حاجة بي أن أدلم عليه .

والفضل الأول والأخير لله جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ؟

محمد بن هادي

## فهارس الكتاب :

### فهرس الأعلام

١٠٧، ١٢٧، ٢٠٠ — ٢٠٥،  
 ٣٠٨ — ٢١١، ٢١٣، ٢١٤،  
 ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣١،  
 — ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٨ — ٢٥٧،  
 ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦،  
 ٢٧٨ — ٢٨٦، ٢٨٤، ٢٨٩،  
 ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤،  
 ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧،  
 ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٣٤،  
 أبو بكر (مولى الرسول صلى الله عليه وسلم) : ٣  
 أبو الحسن القفطي (علي بن يوسف) : ١٨٦،  
 ١٨٩  
 أبو الحويرث (عبد الرحمن بن معاوية) : ٣٢١  
 أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) : ٢٩٠  
 أبو الدرداء : ٢٢٤، ٢٨٨  
 أبو ذئب (من بني سليم) : ٢٩٩  
 أبو سبرة (بن أبي رهم) : ٨  
 أبو سروعة (بن الحارث بن عامر) : ٢١٧  
 أبو سفيان (بن حرب) : ٢٨٣  
 أبو طلحة الأنصاري (زيد بن سهل) : ٣١٣،  
 ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٧  
 أبو عبد الرحمن السلمي : ٢٩٣  
 أبو عبيد النقي : ٤٠، ٢٠٩، ٢٨١  
 أبو عبيدة بن الجراح : ٥٥، ٦٤، ٨٥،  
 ٨٦، ١٩٠، ٢٢٢، ٢٦٢، ٣١١،  
 ٣١٢، ٣٣٢، ٣٣٣  
 أبو عمرو الشيباني : ٢٨٨  
 أبو الفرج العبري : ١٨٦  
 أبو قتادة (الأنصاري) : ٢٧٨  
 أبو لؤلؤة فيروز للنصراني : ٣٠٦ — ٣١٠،  
 ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٢  
 أبو مسعود الأنصاري : ٢٨٨  
 أبو مسلم الخراساني : ٣٤٧  
 أبو موسى الأشعري : ٢، ١٠، ١٣،  
 ١٤، ١٧، ٢٤، ٣٢، ٤٩، ٢٢١،  
 ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٤  
 أبو يمامين = بنيامين الأسقف  
 أبو نواس (الحسن بن هاني) : ٩٣

(١)

آدم — عليه السلام : ٢٦٠  
 الأمدى (أبو الحسن علي بن علي) : ٢٧٧، ٢٧٥  
 إبراهيم — عليه السلام : ٦٧، ٦٩، ٧١، ٩٢  
 ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد بن  
 هبة الله) : ١٩٦  
 ابن الأثير (أبو الحسين علي بن محمد) : ٥،  
 ١٠٣، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٢١  
 ابن الإطابة (عمرو) : ١٣٢  
 ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : ٢٤١  
 ابن تفرى بردى (أبو الحسن يوسف) : ٩٤،  
 ١٠٠، ١١١، ١٨١  
 ابن خزم (أبو محمد علي) : ٢٧٩  
 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) : ٥،  
 ٢٤٤، ٢٤٥  
 ابن دقاق (إبراهيم بن محمد) : ١٦١  
 ابن رشد (أبو الوليد محمد بن احمد) : ٢٥٨  
 ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد) : ٢٣٢،  
 — ٢٣٤، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٣٥،  
 ٣٢١، ٣٢٩  
 ابن طباطبا (محمد بن علي) : ٢٩٤  
 ابن عباس = عبد الله بن عباس  
 ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : ٧١،  
 ٧٢، ٨٩، ٩٤، ٩٨، ١٠٠، ١٠٦،  
 ١١١، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢،  
 ١٤٣، ١٥٣، ١٧٤  
 ابن عبد ربه (أبو عمر احمد بن محمد) : ١٩٦  
 ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : ٣١٢  
 ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل) : ٥، ١٦،  
 ٦١، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٠  
 ابن السككي (أبو المنذر هشام بن محمد) : ٢٤٧،  
 ٢٤٨  
 ابن مستور : ١٧٤  
 ابنة أبي حنيفة : ٣٢١  
 ابنة أبي لؤلؤة : ٣٢٤، ٣٣٠  
 أبو بكر الصديق — رضى الله عنه : ١، ٢،  
 ١٣، ٢٠، ٢٣، ٨١، ٨٥، ٨٦

أطلونيوز = مارك أنطو	أبو هريرة (الذوسي) : ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨
أورسيوس : ١٨٧	أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) : ١٦٨ ، ٢٩٨
أوزوريس : ١٥٠	أبي بن كعب : ٢٩٢
(ب)	أبيس : ١٥٠
بازان — أمير النين : ٨٥	أجيتوس — ملك مصر : ١٨٣
باقوم — الرومي : ٦٨	أحمد أمين بك : ٢٦٩
بترل : ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠	أحمد بن حنبل : ٢٨٧
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٦	أحمد عبد العليم البردوني : ٣٤٩
١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧	الأخنف بن قيس : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٨
١٨٨	٢٠ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧
البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : ٢٩٠ ، ٢٩١	٦٢ ، ٦٠
البراء بن مالك : ٩ ، ١٧	أرمزد : ٥٩
برزة بنت رافع : ٢٣٥	إساف (ضم) : ٢٤٨
بطليموس : ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٧٧	أسامة بن زيد : ٢٠٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٩
بكير بن عبد الله : ٤٤ ، ٤٥	٢٨٠
البلاذري (أحمد بن يحيى) : ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٤	الاستنار : ٣٨
٦١ ، ٨٩ ، ١١٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢	إسفنديار بن الفرخزاد : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤
١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٩	إسكندر الفدوني : ٣٦ ، ٤٧ ، ٧٣ ، ٧٤
١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٥	٩٢ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٤٧
بلال بن رباح : ٢٩٨	١٤٨ ، ١٦٩ ، ١٧٨
بلوتارك — المؤرخ : ١٨٣	إسكوتوس : ١٢٩
بنيامين — الأسقف الأكبر : ٧٦ ، ٧٨	أسلم — مولى عمر : ٢١٥
٩٤ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٦	أسماء بنت عميس : ٢٣٣
بهرام بن الفرخزاد : ٤٤	إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام : ٦٧
بهي الدين بركات باشا : ٧٨	أشرس بن عوف الشيباني : ٩ ، ٢٠
البيرواز : ٥	الأشعث بن قيس : ١٣
البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) : ٢٩٣	الأطربون : ٦٢ ، ٦٥ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢
(ت)	الأعرج = جورج
تراجان — القصر : ١١٢ ، ١٧٦	أغسطس : ١٤٨
تيودور — القائد الرومي : ١٠٥ ، ١٠٨	أفلاطون : ١٠٧
١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٦	الأفرع بن حابس : ٢٨٣
تيوفيلوس : ١٨٨	أم جميل (بنت الأرقم) من بني هلال : ٢٤٠ ، ٢٤٤
(ج)	أم سلمة — أم المؤمنين : ٢٣٣ ، ٢٥٢
جابر (بن عبد الله) : ٣٢١	أم عبد الله بن مسعود : ٢٣٣
جالوت : ١٦٢	أم كلثوم بنت أبي بكر : ٣٠٨
جاليناس : ١٨٨	أم كلثوم بنت عقبة : ٢٣٣
جبله بن الأيهم الغساني : ٢١٨ ، ٢٩٤	أم كلثوم بنت علي : ٥٠ ، ٢١٥
جبوت : ١٨٧	أم موسى عليه السلام : ٦٩
	أميانوس : ١٥١ ، ١٨٧
	أنس بن مالك : ١٠ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢١٢
	أنستاسيوس — حاكم الإسكندرية : ١٢٦

٥٥٩ ، ١٢٩ ، ١٢٣  
خاقان الترك : ٥٤ — ٥٧  
خالد بن الوليد : ١ ، ٢ ، ٢٣ ، ٦٤ ، ٨٢  
— ٨٤ ، ١١٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،  
٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ ،  
٢١٣ ، ٢٣٥

خوات بن جبير : ٢٦٦

(د)

الدار قطنى (أبو الحسن على بن عمر) : ٢٩٠  
داود عليه السلام : ١٦٢  
دنبار الفارسى : ٣٢

الدهلوى (أحمد بن عبد الرحيم) : ٢٩٢  
ديوكاسيوس : ١٨٨

(هـ)

ربيع الفهرى : ٣٦٦

ربيع بن عامر : ٥٤

رييت — إلهة النيل : ٣٨٤

الربيع بن زياد : ٦

رستم (بن الفرخزاد) : ٣٩ ، ٣٣٥

رسميس : ١٠١ ، ١٨٣

رينان : ١٨٧

(ز)

الزبرقان بن بدر : ٢٦٧ ، ٢٦٨

الزبير بن العوام : ١٧ ، ١٠٥ — ١٠٨ ،  
١١٩ ، ١٦٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٩٨ ،  
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨

زوسر : ١٠١

زياد (بن أبيه) : ٨٧

زياد بن ليث : ٢٢١ ، ٣٣١

زيد بن أسلم : ٢٦٧

زيد بن ثابت : ١٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ،  
٢٩١

زينب بنت جحش — أم المؤمنين : ٢٣٥

الزبني أبو الفرخان (٢) : ٤٠ — ٤٢ ، ٤٤

(س)

سأبور : ٩

سارة — زوجة إبراهيم عليه السلام : ٦٧

سارية بن زعيم الكنانى : ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١

ساسان — جد الملك أردشير الأول : ٤٧

جبير بن مطعم : ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٣٠٨

الجراح بن سنان الأسدى : ٢٠٠ ، ٢١

جرجة — القائد : ٣٣٥

جزء بن معاوية : ٨٤ ، ٦٥ ، ٨

بخينة : ١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

جورج — قائد الروم : ١١٢

جوستاف ليون : ١٨٧

حورية بنت الحارث : ٢٣٢

جويرية بن قدامة : ٣٠٥

الجيشاقى (أبو وهب ديلم) : ١٣٩

جيفر بن الجلتى : ٨٥

(ح)

حاجى — إله النيل : ١٨٤

حارثة بن النعمان : ٥٦

حاطب بن أبى بلنعة : ٧١ ، ٧٢ ، ٢٩٣

حديفة بن الهيمان : ٢٨ ، ٢٣ — ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥

٣١٩ ، ٣٣٣

حرقوص بن زهير السعدي : ٥ ، ٧ ، ٨

حرمة بن ربيعة : ٥ ، ٨ ، ٢٤

حزام بن هشام الكعبى (١) : ٢٣٤

حسان بن ثابت : ٢٦٨

الحسن (البربرى) : ٣١٩

الحسن (بن علي بن أبى طالب) : ٦٠ ، ٢٣٢

الحسين (بن علي بن أبى طالب) : ٦٦ ، ٢٣٢ ،  
٣٤٦ ، ٣٤٧

الحطيئة (جروول بن أوس) : ٢٦٧ — ٢٦٩

حفصة — أم المؤمنين : ٢١٤ ، ٢٥٢ ، ٣١٦ ،  
٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٣١

الحكم بن أبى العاص : ٤٩

الحكم بن عمرو التتلى : ٣٣ ، ٥١

حكيم بن حزام : ٢٢٩

حزمة الأصفهاني : ٠٩

حميد (بن أبى حميد الطويل) : ١٧

حنا (أمير كتيبة من الروم) : ١٠٤

حنا مسكوس : ١٨٩

حنا النحوى : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩

حنا البقيروسى — الأسقف : ١٢٠ ، ١٢٦ ،  
١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،  
١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٩

(خ)

خارجة بن حذافة العدوى : ١٠٨ ، ١٠٩ ،  
١١٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١



شهریار — شهربراز — بن جاذويه : ٤٨  
شوشن دخت : ٣٨  
شيبه بن هاشم — عبد المطلب بن هاشم  
(ص)  
صحارى العبدى : ٥١  
صفر نبوس : ١٨٩ ، ٧٧  
صفوان بن أمية : ٢٨٣  
صفية بنت حيي : ٢٣٢  
صفية بنت عبد المطلب : ٢٣٢  
صمويل — الأب : ٧٨  
صهيب ( بن سنان ) : ٣١٣ ، ٣١٨  
٣٢١ ، ٣٢٠  
(ض)  
ضرار ( الشاعر ) : ٢٦٦  
(ط)  
الطبرى ( محمد بن جرير ) : ٤٤ ، ٤٥ ، ١٣٤  
٤١١٩ ، ٦١ ، ٤٥٠ ، ٤٩ ، ٣١ ، ٤٦  
٤٢٣٥ ، ٢٣٤٤ ، ٢٣٢٤ ، ١٦٦٤ ، ١٦٥  
٤٣٢٠ ، ٣١٢٤ ، ٣٠٩٤ ، ٢٨٤٤ ، ٢٦٤  
٣٣٠ ، ٣٢٩٤ ، ٣٢١  
طريف بن سهم : ٣٠  
طلحة بن عبيد الله : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٩٦ ،  
٣٢٨ ، ٣٢١ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٢٩٧  
طلما — صاحب إحصاء : ١٦٠ ، ١٦٤  
طليحة بن خويلد الأسدى : ٢٤ ، ٣٦  
(ع)  
العاص بن وائل السهمى : ٨٧ ، ١٩٥  
عاصم بن عمرو : ٣٣ ، ٥٢  
عائشة — أم المؤمنين : ٢٣٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤  
٣٢١ ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣٠٨ ، ٢٩٠  
عباد بن الجندى : ٨٥  
عبادة بن الصامت : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤  
١٤٣ ، ١١٦  
عباس بن عبد المطلب : ٢٠٩ ، ٢١٠ ،  
٢٣٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦  
عباس محمود العقاد : ٢٣٢  
عباس بن مهزبان : ٢٨٣  
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٦٦ ، ٢٦٤  
٣٣١ ، ٣٢٣  
عبد الرحمن بن حاطب بن أبي عيسى : ٢٩٤  
عبد الرحمن بن ربيعة : ٤٤ ، ٤٥

٢٣٣ م — ٢٣

سالم أبو عبد الله : ٤٣٣  
سالم مولى أبي حذيفة : ٣٩١ ، ٣٩٢  
ساويرس : ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣  
السائب بن الأقرع : ٢٣ ، ٢٩ ، ٣١  
سترابو : ٩٣  
سديو : ١٨٧  
سرافة بن عمرو : ٤٥  
سعد بن أبي وقاص : ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧  
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ١١٩ ،  
١٢٠ ، ١٧١ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،  
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ،  
٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ —  
٣٢٨  
سعد بن معاذ : ٢٧٨  
سعید بن زيد بن عمرو : ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،  
٣٢٨  
سلمان الفارسي : ٤٧٣  
سلمى بنت عمرو : ٢٤١  
سلمى بن القين : ٥٥ ، ٨٤ ، ٤٤  
سليم بك حسن : ١٨٤ ، ١٨٢  
سليمان — عليه السلام : ١٥٤  
سماك بن خرشة الأنصاري : ٤٤  
سهيل بن عدى : ٧ ، ٨ ، ٣٣ ، ٥١  
سواخ ( صنم ) : ٢٤٧ ، ٢٤٨  
صويد بن مقرن : ٤٢ — ٤٤ ، ٦٢  
وصياء الأسوارى : ١٣  
وصياوخش بن مهران بن بهرام جوين : ٤١ ، ٤٢  
مسيد نوفل : ٣٤٩  
سيرايسين : ١٥٠  
سيزوستريس : ١١٢  
سيلوس : ١٨٧  
مطليبوطنى ( جلال الدين عبد الرحمن ) : ١٢٠ ،  
١٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٢  
(ش)  
شيارل بالانك : ١٨٤  
الشافعى ( الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس ) :  
٢٨٧  
شريح ( بن الحارث الفاضل ) : ٢٤٤ ، ٢٢٥  
شريك بن سمي : ١٣٠  
شريك بن عبدة : ٨٩  
شطان بن المأموك : ١٦٠  
شهربراز — أمير الباب : ٤٤ ، ٤٥  
شهرك — مالك فارس : ٤٩

٤١٩٨٤١٩٧٤١٦٢٤١٤٠٤٩١٠  
 ٤٢٦٦٤٢٢٩٤٢٢٠٤٢١٩٤٢٠٩  
 ٤٣٠٩٤٢٩٧٤٢٩٦٤٢٩٠٤٢٦٨  
 ٤٣٢١٤٣٢٠٤٣١٦٤٣١٤ — ٣١٢  
 ٤٣٣٢ — ٣٢٨٤٣٢٦ — ٣٢٤  
 ٣٤٨٤٣٤٦  
 عروة بن زيد الخيل : ٤٠  
 العزى ( صنم ) : ٢٤٨  
 عزيز مصر : ٧٠  
 عقبة بن عامر الجهني : ١٣٩  
 عقبة بن نافع النهزي : ١٦٢  
 عقيل بن أبي طالب : ٢٣١٤٢٢٩  
 العلاء بن الحضرمي : ٤٩٤٤٧٤٤٦٤٤٣  
 علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ٦٠٠٤٢٢  
 ٤٢١٢٤٢١٠٤٢٠٩٤١٩٧٤٨٧  
 ٤٢٦٠٤٢٢٨٤٢٢٠٤٢١٩٤٢١٦  
 ٤٢٩١٤٢٩٠٤٢٨٦٤٢٧٠٤٢٦٣  
 ٣١٢٠٤٢٩٧٤٢٩٦٤٢٩٤٤٢٩٣  
 — ٣٢٥٤٣٢١٤٣٢٠٤٣١٤ —  
 ٣٤٧٤٣٤٦٤٣٣٧٤٣٣٠  
 عمار بن ياسر : ٣٢٨٤٩٤٨  
 عمر بن أبي سلمة : ٢٣٣  
 عمر بن إسحاق : ٢٧٨  
 عمرو بن أبي سلمى الزرق : ٢٤  
 عمرو بن حريث الخزومي : ٣١  
 عمرو بن العاص : ٦١٤٠٤٦٥ — ٦١٤٠٤٦٨  
 — ٩٦٤٠٤٩٤ — ٨١٤٠٤٧٦٤٠٤٧٢  
 ٤١٣٣ — ١٢٨٤١٢٧٤١٢٧٤١٢٣  
 — ١٥٥٤١٥٣٤١٤٧ — ١٣٥  
 — ١٨٦٤١٨١ — ١٧٤٤١٧٢  
 — ٢١٧٤١٩٨ — ١٩٢٤١٨٩  
 ٤٢٧٧٤٢٧٢٤٢٦٢٤٢٢٢٤٢١٠  
 ٣٣١٤٣٢٩٤٣٢٦٤٢١٠  
 عمرو بن معدى كرب الزبيدي : ٢٦٤٠٤٢٤  
 عمير بن سعد : ٢٢٤  
 عمير بن وهب الجمحي : ١٣٩  
 عيسى عليه السلام : ٥٦٧٤٠٤٧١٤٥٠  
 ١٢٠٤٢٩٢٤٢٨٤٢٧  
 عيينة بن حصن : ٢٨٣

( غ )

غالب ( الوائلي ) : ٥٠  
 الغزالي ( أبو حامد محمد بن محمد ) : ٢٥٨

عبد الرحمن بن عمر : ٢٦٢٤٢٢٨٤٢١٧  
 عبد الرحمن بن عوف : ٢١٦٤٢٠٩٤٣٠  
 ٤٣٠٧٤٣٠٦٤٢٩٦٤٢٢٣٤٢١٨  
 ٤٣٢١٤٣٢٠٤٣١٦٤٣١٢٤٣١١  
 ٣٣١ — ٣٢٦٤٣٢٣  
 عبد الرحيم محمود : ٣٤٩  
 عبد الله بن أبي ربيعة : ٣٢٨  
 عبد الله بن أرقم : ٣٠  
 عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٥١  
 عبد الله بن حذافة السهمي : ١٣٩  
 عبد الله بن الزبير : ١٦٦  
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ١٩٧٤١٦٦٤  
 ٣٢٨٤١٩٨  
 عبد الله بن سلام : ٣٢٠  
 عبد الله بن عباس : ٢١٢٤٢١٠٤٢٠٩  
 ٤٢٨٨٤٢٨٧٤٢٨٤٢٢٧٨٤٢٦٦  
 ٣١٧٤٣٠٨٤٣٠٧  
 عبد الله بن عبد الحكم : ١٤٣  
 عبد الله بن عبد الله بن عثمان : ٢٣٤٢١  
 ٣٧٤٣٩ — ٦٢٤٣٧  
 عبد الله بن عبد الملك بن هاشم : ٢٤٠  
 عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٢١٨٤٢١٤  
 ٤٣١٣ — ٣١٠٤٣٠٨٤٣١٣  
 ٤٣٢١٤٣١٩٤٣١٧ — ٣١٥  
 ٣٤٦٤٣٢٦٤٣٢٤  
 عبد الله بن عمرو بن العاص : ١٣٣٤١٣٢  
 ١٦٧  
 عبد الله بن عمير : ٥٢  
 عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعري  
 عبد الله بن مسعود : ٢٧٨٤٢٢٥٤٠٤٢٧٨  
 ٣٣٣٤٣٣٢٤٢٩٢٤٢٨٨  
 عبد الله بن ورقاء الرياحي : ٣٨  
 عبد الملك بن هاشم : ٢٤١٤٢٤٠  
 عبيد الله بن عمر : ٢٢٣٤٢٦٧٤١٨  
 — ٣٢٣٤٣٣٠٤٣٢٥  
 عبيدة السلماني : ٢٨٦  
 عتاب بن أسيد : ٢٢١  
 عتبة بن غزوان : ٥٤٢  
 عتبة بن فرقد : ٤٤  
 عثمان بن أبي العاص الثقفي : ٤٧٤٣٣ — ٤٩  
 ٢٢١  
 عثمان بن حنيف : ٢٩٧  
 عثمان بن عفان رضي الله عنه : ٤٥٤٣٠  
 — ٨٩٤٦٤٤٦١٤٠٨٤٥٧٤٤٤

## (م)

- مارك أنطونيوس : ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٨٨  
 مارية القبطية : ٧١  
 ماسيرو : ١٨٤  
 مالك بن ناعمة الصنفي : ١٣٠  
 المأمون ( عبد الله بن هارون الرشيد ) :  
 ٢٩١ ، ٢٩٠  
 مانويل - القائد : ١٩٧ ، ١٩٨  
 المنى بن حارثة الشيباني : ١  
 مجاشع بن مسعود السلمي : ٣٣ ، ٤٧  
 مجزأة بن ثور : ١٧  
 محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١ ، ٣ ، ٤  
 ٢٠ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ،  
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨١ - ٨٦ ،  
 ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٤ ،  
 ١١٥ ، ١١٥ ، ١٤٤ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ،  
 ٢٠٠ - ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ،  
 ٢٣١ - ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ -  
 ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،  
 ٢٥٦ - ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،  
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ - ٢٨٤ ، ٢٨٦ ،  
 ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،  
 ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ،  
 ٣١٤ - ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،  
 ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ،  
 ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧  
 محمد البرهاني منصور : ٣٤٩  
 محمد بك الحضري : ٢٧٠ ، ٢٧٥  
 محمد بن الزبير : ١٦٦  
 محمد بن عبد الله بن جحش : ٢٣٣  
 محمد بن عمرو بن العاص : ٢١٨  
 محمد بن سلمة : ٢١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٢ ،  
 ٢٨٩  
 مخزومة بن نوفل : ٢٢٩ ، ٢٣١  
 مهدينا - زوج هرقل : ١٢٤ ، ١٢٧ -  
 ١٤٠ ، ١٥٧  
 مرشد التنوي : ٢٧٥  
 مروان بن معاوية : ١٧  
 مريم ( بنت عمران ) : ٧٧  
 المسعودي ( أبو الحنفين علي بن الحسين ) : ١٥٣ ،  
 ١٥٤  
 مسسل ( بن الحجاج القشيري ) : ٢٥٢ ، ٢٨٤  
 مسلمة بن مخلد : ١٠٥ ، ١٤٣ - ١٤٥  
 المتور بن مخزومة : ٣٢٦ ، ٣٢٨

## (ف)

- الفاذوستان - أمير أسبها : ٣٨ ، ٣٩  
 الفارابي ( أبو نصر محمد بن محمد ) : ٢٥٨  
 فرجيل : ٩٣  
 فرعون : ٦٨ ، ٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧  
 فريد أبو حديد : ٧٦ ، ٩٢ ، ١٢٩  
 فؤاد عبد الباقي : ٣٤٩  
 فوكاس : ٧٩ ، ٨٠ ، ١٢٦  
 الفيزان : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ - ٢٧ ، ٢٥٠ ،  
 ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٩  
 فيلو : ١٤٨ ، ١٧٦

## (ق)

- قنادة ( بن دعامة السدوسي ) : ٢٨٤  
 قرظلة بن كعب : ٢٨٨ ، ٢٨٩  
 قرمان - صاحب رشيد : ١٦٤  
 قسطنطين - الأكبر : ١٢٤ ، ١٤١  
 قسطنطين بن هرقل : ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،  
 ١٥٧  
 القفقاخ بن عمرو : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩  
 قنبر : ٩٢  
 قيس - الأسقف : ٧٦ ، ٨١ ، ٩٧ ،  
 ١٢٥ - ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٢  
 قيس بن أبي العاص السهمي : ٢٢٤  
 قيسر : ٤١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٩ -  
 ٨١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،  
 ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٨٧ ،  
 ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢١٣

## (ك)

- كثير بن الصلت : ٢٩٣  
 كسرى : ١ ، ٣ ، ٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ،  
 ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٣ -  
 ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ،  
 ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ ، ١٠٦ ، ١٩٩ ،  
 ٢١٣ ، ٢٣٧ ، ٢٩٧ ، ٣٣٥  
 كعب الأحبار : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٣٢  
 كليل ( بن وائل ) : ٥  
 كليوباترا : ٩٢ ، ٩٦ ، ١٤٨ ، ١٨٨  
 كونستانس بن قسطنطين : ١٢٥ ، ١٥٧

## (ل)

- اللات ( صنم ) : ٢٤٨  
 لى بنت الجودي الساسي : ٢٦٣ ، ٤٦٤

هاريس : ١٨٣ ، ١٨٤  
 هاشم بن عبد مناف : ٢٤١  
 هامان — وزير فرعون : ٦٩  
 هاناسو : ٦٦  
 هبل (صنم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨  
 هرقل : ٣٤ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧١ ،  
 ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٨ — ٨٠ ، ٩٥ ،  
 ١٠٢ — ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٦ —  
 ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ،  
 ١٤٠ — ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ،  
 ١٦٣ ، ١٦٥ — ١٦٧ ، ١٧٠ ،  
 ١٧٥ ، ٣٤٢  
 هرقلوثاس بن هرقل : ١٢٤ ، ١٢٥  
 الهرمزان : ٢ ، ٤ ، ١٢ ، ١٥ — ٢٠ ،  
 ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣ ،  
 ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١  
 هيرودوتس : ١٠٧

## (و)

ود (صنم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨  
 وردان مولى عمرو بن العاص : ١٣٢ ، ١٣٩ ،  
 ١٦٦  
 الوليد بن عبد الملك : ١٥٣  
 الوليد بن هشام بن الزبير : ٢٢٩  
 وليم ميور : ٣١٠

## (ى)

ياقوت (بن عبدالله) : ١٦١  
 يحنس صاحب البرلس : ١٦٤  
 يزدجرد : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٣ ، ١٨ ،  
 ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٧ ،  
 ٣٨ ، ٥٢ — ٥٩ ، ٦٣ ، ١٢٤  
 يزدجرد الأول : ٣٨  
 يزيد بن أبي حبيب : ١٣٩ ، ١٦٧  
 يزيد بن قيس : ٤٠ ، ٤١ ،  
 يعقوب عليه السلام : ٩٢  
 يعلى بن أمية : ٢٠٤ ، ٢٢١  
 يعوق (صنم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨  
 يعوث (صنم) : ٢٤٨  
 يوسف عليه السلام : ٦٨ — ٧٠ ، ٩٤ ، ١٩٥ ،  
 يوليوس قيصر : ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٤٨

مصطفى باشا عبد الرازق : ٣٤٩  
 المطلب بن عبد مناف : ٢٠٤١  
 معاذ بن جبل : ٢٧٨ ، ٣١٢  
 معاوية بن أبي سفيان : ٦٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ،  
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣ ، ٢٦٠ ،  
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ،  
 معاوية بن حديج : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦  
 المغيرة بن شعبة : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ١٧ ، ٢٥ ،  
 ٢٧ ، ٢٦٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،  
 ٣٢٠ ، ٣٢٦  
 المقداد بن الأسود : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٣٢٨  
 المقدم بن معدى كرب : ٢٨٧  
 المقدسي (محمد بن طاهر بن علي) : ٤٨  
 المقرئ (أحمد بن علي) : ٩٤ ، ٨٩ ، ١٥٢ ،  
 ١٦٠ ، ١٧٩

المقوقس : ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٣ ، ٩٧ — ٩٩ ،  
 ١١١ — ١٢٠ ، ١٣٩ ، ١٤٢ —  
 ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٦ — ١٥٨ ،  
 ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦

مناة (صنم) : ٢٤٨  
 المنذر بن عمرو : ٤٢  
 المهاجر بن أبي أمية : ٢٢١  
 المهاجر بن زياد : ٦٠ ، ٥٠  
 موتا — ملك الديلم : ٤٠ ، ٤١ ،  
 موسى عليه السلام : ٦٨ — ٧٠ ،  
 ميناس : ١٧٥

## (ن)

نابليون : ٣٠٢  
 نائلة (صنم) : ٢٤٨  
 النجاشي — ملك الحبشة : ٨٢ ، ٨٣ ، ٣٣٥ ،  
 نسر (صنم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨  
 نصر بن حجاج : ٢٩٩  
 النعمان بن مقرن : ٧ ، ٨ ، ٢٢ ، ٢٨ —  
 ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٩  
 نعيم بن مقرن : ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ — ٤٤ ،  
 ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١١٩

## (هـ)

هاجر — أم اسماعيل : ٦٧ ، ٩٩  
 هايون بن عمران عليه السلام : ٦٩

# فهرس الأماكن

اليونة : ١١٢  
 أم دنين : ١٠٠ — ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢  
 الأناضول : ٢٠٠  
 إنجلترا : ١٧٧  
 أنطابلس : ١٦٢  
 أنطاكية : ١٣٥ ، ١٠٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٤  
 الأهرام : ١١١ ، ١٠٣ ، ١٠١  
 الأهواز : ١٤ ، ١٣ ، ٨ ، ٧ ، ٥ ، ٤ ، ٤ ، ٢  
 ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٠ ، ١٦  
 أوربا : ٢٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٢ ، ٩٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٠ ، ٢  
 أون — عين شمس : ١٠٧  
 إيران : ٣٣٧ ، ٥٣ ، ٤٧ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ١٤ ، ١٤  
 أيلة — العقبة : ٦٨  
 إيوان سليمان بالإسكندرية : ١٥٤  
 إيوان كسرى : ٢١٣ ، ٢٠٦ ، ١٢٠ ، ٣٥ ، ٢٥٨

## (ب)

الباب : ٤٥ ، ٤٤ ، ١٩  
 باب البيون = بابليون  
 بابل : ٦٦  
 بابليون : ١٠٨ ، ١٠٥ — ١٠١ ، ٩٨ ، ٩٧  
 ١٢٣ ، ١٢١ — ١١٩ ، ١١٧ ، ١١٢  
 ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣١ ، ١٢٨ ، ١٢٦  
 ١٥٦ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٣٩ ، ١٣٨  
 ١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٣ ، ١٥٨ —  
 ٢٦٥ ، ١٩٨ ، ١٧٦ ، ١٧٠  
 بادية السماوة : ٣٣٤ ، ٢٠٠ ، ٩٦ ، ٦٣ ، ١٠  
 البحر الأبيض : ١٠٧ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٨٠ ، ٦٦  
 ١٤٨ ، ١٣٧ — ١٣٥ ، ١٢٤  
 ١٧١ ، ١٦٢ — ١٥٩ ، ١٥٦ ، ١٤٩  
 ١٧٧ ، ١٧٦  
 البحر الأحمر : ١٠٠ ، ٨٠ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٦٦  
 ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧١  
 بحر الحزر = بحر قزوين  
 بحر الروم = البحر الأبيض  
 بحر قزوين : ٣٣٤ ، ٢٠٠ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٩  
 بحر القلزم = البحر الأحمر

## (١)

آسيا : ٩٦ ، ٩٢  
 الأطلح : ٣٠٤  
 الأبله : ٢  
 أبيض كسرى : ١٣٥ ، ١٠١  
 أتريب : ١٣٨ ، ١١٠  
 أئينسا : ١٥٠  
 إثيوبيا : ٧٨ ، ٧٣  
 آجنادين : ١٤١  
 أحد : ٢٥٤ ، ٢٣٢ ، ١٠٧  
 أنخيم : ١٣٩  
 إخنسا : ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٠  
 أذربيجان : ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ٣٣  
 أربك — أربق : ٨٧  
 أرجان : ٤٩  
 أردبيل : ٤٣  
 أردشير (١) : ٢٩ ، ٤٧ ، ٣٣  
 الأردن : ٢٣٤  
 الأزبكية : ١٠٨ ، ١٠١  
 إسكندرية : ٨٨ ، ٨٠ ، ٧٧ — ٧٣ ، ٦٤ ، ٩٢  
 ١٠٣ ، ١٠١ ، ٩٧ ، ٩٤  
 ١١٦ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٧ ، ١٠٤  
 ١٢٦ ، ١٢٣ — ١٢٠ ، ١١٨ —  
 ١٤٤ — ١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٣١ —  
 ١٦٥ — ١٥٣ ، ١٤٩ — ١٤٦  
 ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٢ — ١٦٧  
 ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٨٩ — ١٨٦  
 ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢١٣  
 أسوان : ١٨٣  
 أشمون طناح : ١٦٠  
 الأشموين : ١٣٩  
 أصبهان : ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ١٩ ، ١٣  
 ٥٨ ، ٥٢ ، ٤٦  
 إصطخر : ٤٨ ، ٤٧ ، ٣٣ ، ١٩ ، ٦ ، ٤ ، ٤  
 ٥٨ ، ٤٩  
 أفريقيا : ٢٠٠ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ٩٢  
 أفغانستان : ٢٠٠ ، ٥٣  
 الأكر و بولوس : ١٥٠  
 (١) صوابها : « أردشير خره »

بهبب : ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٣٢  
 يلوز — الفرما : ٩٢  
 اليلوزى — فرع النيل : ٩٣ ، ٩٢  
 بنا : ١٣٩  
 بنى غازى : ١٦١  
 بورسعيد : ٩٣  
 بوسير : ١٣٩  
 بيت الحكمة = مدرسة أرسطو  
 بيت عائشة : ٣٢٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٦  
 بيت المقدس : ٣٤ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٥٦  
 ٧٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٩ ،  
 ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٦ ، ٢٣٤ ،  
 ٢٦٣  
 بيت نار الإلهة أناهيد : ٤٧  
 بين النهرين : ٣٦  
 ( ت )  
 التانيق — فرع النيل : ٩٣  
 تانيس — صان الحجر : ٩٣  
 تبريز : ٤٣  
 التترايولوس ( مدفن النبي أرميا ) : ١٤٨  
 ترعة الثعبان : ١٣١ ، ١٣٧  
 الترعة الحلوة : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥١  
 تستر : ٥ ، ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧  
 تيس : ١٣٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥  
 توج : ٤٧ ، ٤٩  
 تولس : ١٦٢ ، ٢٠٠  
 تونة : ١٣٩  
 تياء : ٦٦  
 ( ث )  
 ثنية السسل : ٢٩ ، ٣٩  
 ثنية الرفأ : ١٤٨  
 ثنية هندان = ثنية السسل  
 ( ج )  
 الجابية : ٦٤ ، ٨٢ ، ١  
 الجبل : ١  
 جبل جيلان : ٤٣  
 جبل حراء : ٨٤  
 جبل صنعاء : ٢٣٣  
 جبل القطم : ١١١  
 جدنة : ٦٨٠  
 جرجان : ١٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨  
 الجرف : ١٠٧  
 الجزيرة : ٤٣ ، ٤١٧

البحرين : ٤٦ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٨  
 البحيرات المرة : ٦٦ ، ١٧٦  
 بحيرة الإسكندرية : ١٣٧  
 بحيرة البرلس : ٩٣  
 بحيرة التمساح : ١٧٦ ، ١٧٧  
 بحيرة سرهوتة : ٩٢  
 بحيرة صرطوط : ١٣٦  
 بحيرة المنزلة : ٩٣  
 برج بابل : ١٥٤  
 برزخ السويس : ٦٦ ، ١٧٦  
 برسبوليس : ٤٧ ، ٤٨  
 برقة : ٩٣ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤  
 البرلس : ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥  
 برمون — الفرما : ٩٢  
 بزطية = القسطنطينية  
 ألبفور : ١٢٤ ، ١٤١  
 بسطام : ٤٣  
 البسرودات : ١٣٩  
 البصرة : ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٢٠ ، ٣٢ ،  
 ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٤ ،  
 ١٣١ ، ١٧١ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ،  
 ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤  
 (الطيطياء : ٢١٣ ، ٣٠٧  
 جناد : ٢٢٩ ، ٣٤٧  
 بلاد التار : ٥٢ ، ٤  
 بلاد الترك : ٥٧  
 بلاد الخليم : ٤٣  
 بلاد الروم = الروم  
 بلاد العرب : ١ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٦ ،  
 ٦٣ — ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٩٧ ،  
 ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٩ —  
 ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٢ ،  
 ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،  
 ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،  
 ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ،  
 ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ،  
 ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٣  
 بلاد المغرب = المغرب  
 بلاد النوبة = النوبة  
 ألبليق — فرع رشيد : ٩٢  
 بلبيس : ٩٨ — ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،  
 ١١٢ ، ١٧٦  
 بلخ : ٥٣ — ٥٧  
 بلخ : ٢٤٧

- جزيرة أيزكاوان : ٤٧  
 جزيرة الروضة : ١٠١ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١١٥  
 جزيرة العراق : ٦٥ -  
 جزيرة فاروس : ١٥١  
 جزيرة قيقوس : ١٢٩  
 حلوان : ٣٤ ، ٢٢٧ ، ٢٩٦  
 حندي سابور : ١٤٠  
 جور : ٤٨  
 جي : ٣٧ ، ٣٨  
 الجيزة : ١٠١ ، ١١١ ، ١٢١  
 جيلان : ٣٤
- (ح)  
 الحبيشة : ٢٢ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٠٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥  
 الحجاز : ٦٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠  
 حديقة الإسكندرية : ١٨٥  
 حصن الإسكندرية : ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٩٨  
 حصن بابليون = بابليون  
 حصن كزيون = كزيون  
 حصن قيقوس = قيقوس  
 حضرموت : ٢٢١  
 حلب : ٢٩٦  
 حلوان : ٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥  
 حمص : ٥٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦  
 ٢٦٤ ، ٢٩٦  
 الحمى : ٢٢٨  
 حنين : ٢٢١  
 الحيرة : ١ ، ٧١ ، ٣٣٤
- (خ)  
 خراسان : ١٩ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٤ - ٦٠ ، ٥٧  
 خلدونية : ٧٦  
 خليج تراجان : ١٠٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٢  
 خليج السويس : ٦٦  
 خليج عدن : ٦٣ ، ٢٠٠  
 الخليج الفارسي : ٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٥  
 خوزستان : ٤ ، ٤٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٢٠٠ ، ٤٦  
 ٢١ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٦  
 خلوان : ٢٢١  
 خير : ٢٠٤ ، ٢٨٨
- خيس : ١٣١  
 خيوان : ٢٤٧  
 (د)  
 دار التمثيل بالإسكندرية : ١٥١  
 دار عمر بن الخطاب : ١٥ ، ١٥٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧  
 دارا مجرد : ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٠  
 دجلة : ٢ ، ١٢٩  
 دجيل = نهر دجيل  
 دست ميسان : ٤ ، ٥  
 دستي : ٢٩ ، ٤٠  
 دقهلة : ١٣٩  
 الدلتا : ١٠٧ ، ١١ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٧٠  
 دماوند : ١٩  
 دمسيس : ١٣٨  
 دمشق : ٦٠ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧  
 دمنهور : ١٣ ، ١٣٨  
 دمياط : ٩٣ ، ١٣٩ ، ١٦ ، ١٦٥  
 دميرة : ١٣٩ ، ١٦٠  
 دنباوند : ٤٢ ، ٤٣  
 دهستان : ٤٣  
 دومة الجندل : ٢٤٧  
 دير الأث صمويل : ٧٨  
 الدير البحري : ٦٦  
 الديرثور : ٣٢
- (ذ)  
 ذو القصة : ٢٣
- (ر)  
 رامهرمز : ٥ - ٨  
 رستاق الشيخ : ٣٨  
 رشيد : ١٦٠ ، ١٦٤  
 رفع : ٩٠  
 رودس : ١٢٦  
 الروم : ٩٣ ، ١٥٢ ، ٢٠٦ ، ٢٦٠ ، ٢٠٩ ، ٣٣٩  
 رومية : ٧٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١٥٩ ، ١٧٨ ، ١٨٨  
 الري : ٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٧ - ٣٩ ، ٤١ - ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٨

شطا : ١٣٩	( ز )
الشعر : ٦	زاوية ززين : ١٢٨
شوشان = السوس	زبيد : ٢٢١
شيراز : ٤٩	زرچ : ٥٢
( ص )	( س )
سان الحجر : ٩٣	سابور : ٤٩ ، ٤٧ ، ٣٣
صحراء لوييا : ١٦٢ ، ١١١	السبتق — فرع النيل : ٩٣
الصعيد : ١٣٨ ، ١١٦ — ١٥٩ ، ١٤١	سجستان : ٥٣ ، ٥٢ ، ٣٣ ، ١٩
١٧١	سنخا : ١٣٨ ، ١٣١
الصفاء : ٢٤٨ ، ٨٧ ، ٨٣	سد مأرب : ٢٣٠
صفين : ٨٢	السرابيوم : ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٣٦ ، ١٢٢ ، ١٥٤
صنعاء : ٢٤٧ ، ٢٢١	سرخس : ٥٣
صوونا : ١٢٩	سقيفة بنى ساعدة : ٣١١ ، ٣١٠ ، ٢٧٩
الصين : ٢٠٠ ، ٧٣ ، ٥٦ ، ٥٤ ، ٥٢	سلطيس : ١٣٠
٣٣٤ ، ٢١١	السلسلة : ١٨٣
( ط )	سمات : ٣٤
الطائف : ٢٤٨ ، ٢٣٧ ، ٢٢١ ، ٢٠١	سمرقند : ٥٧ ، ٥٤
طبرستان : ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٤ ، ١٩	السواد : ٢٩٦ ، ٢٣٤ ، ٢٠٠ ، ٧٤ ، ٦٤ ، ٢٩٧
الطبيين : ٥٣	سورية : ١٠٢ ، ٩٨ ، ٨٢ ، ٦٤
طخرستان : ٥٤	نسوس : ١٤ ، ١٣
طرابلس : ١٦٣ ، ١٦١	سوق وردان : ١٣٩
طرنوط — الطراة : ١٢٩ ، ١٢٨	السويس : ١٧٦ ، ١٠٠
طهرات : ٤٢	سينين : ٤٩
طوخ : ١٣٨	( ش )
الطور : ٦٩	الشام : ٦٥ — ٦٣ ، ٥٥ ، ٣٤ ، ٢٢ ، ٩ ، ١
طيبة : ٢٥٦ ، ١٥٩ ، ١٢٢	٨١ ، ٧٦ ، ٧٣ — ٧١ ، ٦٨
( ع )	٩٥ ، ٩١ ، ٨٩ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٣
عانات : ٩٣	١٢٧ ، ١٢٤ ، ١٢٢ ، ١١٩ ، ١١٧
العابسة : ١٠٨	١٥٣ ، ١٤٨ ، ١٣٩ ، ١٣٤ ، ١٣١
العراق : ٢٢ ، ٢٠ ، ١٨ ، ٩ ، ٢ ، ١	٢٠٠ ، ١٩٨ ، ١٧٥ ، ١٧٠ ، ١٥٥
٤٦٦ ، ٦٤ — ٦٢ ، ٥٥ ، ٤٦ ، ٢٣	٢١٣ ، ٢١١ — ٢٠٩ ، ٢٠٧ —
١٢٧ ، ١٢٢ ، ٩٥ ، ٧٢ ، ٦٧	٢٣٠ — ٢٢٧ ، ٢٢٤ — ٢٢٢ ، ٢١٧
٢٠٠ ، ١٩٨ ، ١٨٠ ، ١٧٥ ، ١٤٨	٢٣٨ — ٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢
٢٢٧ ، ٢٢٤ ، ٢١١ ، ٢٠٩ ، ٢٠٧	٢٦٤ ، ٢٦٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٤١
٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨	٢٨٥ ، ٢٨١ ، ٢٧٢ — ٢٧٠
٢٦٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٣٨	٣٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥
٢٨٥ ، ٢٨١ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٦٤	٣٣٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣١٩ ، ٣١٥
٣٠٣ ، ٢٩٩ — ٢٩٦ ، ٢٨٨	٣٤٥ ، ٣٤٢
٣٣٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣١٩ ، ٣١٥	شبه الجزيرة = بلاد العرب
٣٤٥ ، ٣٤٤	الشرق الأقصى : ١٥٥ ، ١٧٧
المراق العجمي : ٣٧ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٢٥ ، ١٤	
٥٣ ، ٥٢ ، ٤٦ ، ٤٥	
العراق العربي : ٢٠ ، ١٤ ، ٧ ، ٦ ، ٤ ، ٢	



فأشان : ٣٨ -	٤٣ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٢٣ ، ٢١
القاهرة : ١٠١	عرفة : ٣٠٨
قبر المسيح : ١٤١ -	العريش : ١٠٦ ، ٩٩ ، ٩٣ - ٩٠ ، ٨٩ ،
قبر النبي دانيال : ١٤	١٦٠ ، ١٤٢
قبة أرسطو = مدرسة أرسطو	عسفان : ٢٣٤
قديد : ٢٤٨ ، ٢٣٤	العسكر : ١٧١
قرطاجنة : ١٢٦	القبعة : ٣٠٨
قسطنطينية : ١٠٤ ، ٩٧ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٦ ، ٣٤	العتيق : ١٠٧
١٢٤ ، ١١٧ - ١٢٦ ، ١٤٤	عمان : ٨٥ ، ٧٢
١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٩٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٧	عمواس : ٨١ ، ٦٤
القضاحين : ٩٨	عمود دقلديانوس = عمود السواري
قصر سعد - بالكوفة : ٢١٣	عمود السواري : ١٥٠ ، ١٣٦
قصر الشمع = بابليون	عين شمس : ١٠٩ - ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٣
قصر فاروس : ١٣٧ ، ١٣٦	١٣٩ ، ١٣٥ ، ١١٢
النصير : ٦٦	( ف )
قفط : ٦٦	فارس : ٢٤ ، ٢١ - ١٨ ، ١٤ ، ١١ ، ٣
قم : ٣٨ ، ٦	٤٣ ، ٣٧ - ٣٢ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٧
القناطر الخيرية : ٩٣	٥٥٨ - ٥١٤ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٤
قنال السويس : ١٧٧	٢١١ ، ٢٠٦ ، ١٣١ ، ٦٦ ، ٦٢ - ٦١
الندهار : ٥٢	٢٧٢ ، ٢٦٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٢٨
قنسرين : ٣١٢ ، ٢٥٦ ، ٢٣٤	٣٣٤ ، ٣٢٣ ، ٣١٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠١
النفطرة : ٩٨	٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٣٩ ، ٣٣٥
قوس : ٩٤ ، ٧٧	فدك : ٢٠٤
القوقاز : ٧٦	فاسيس : ٧٦
قومس : ٤٣ ، ٤٢	الفتنني - فرع دمياط : ٩٢
قيسارية : ٢٦٥ ، ٩١ ، ٨٩ ، ٦٤	القرات : ٦٦
القيصريون : ١٨٨ ، ١٤٩ ، ١٤٨	فرع دمياط : ٩٣ ، ٩٢
( ك )	فرع رشيد : ١٣٠ ، ١٠٩ ، ٩٢
الكاتبول : ١٥١	فرغانة : ٥٧
الكأنوبي - فرع النيل : ١٣٠ ، ١٠٣ ، ٩٣	الفرما : ٩٢ - ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٤ - ٩٠ ، ١
كر بلاه : ٦٠	١٣١ ، ١١٢ ، ١٠٦ ، ١٠٥
سكرمان : ٤٦ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٤ ، ٣٣	قسا : ٥٠ ، ٤٩
٥٣ - ٥١ ، ٤٩	القساط : ١٧٠ ، ١٣٩ ، ١١٢ ، ١٠٩
الكرنك : ١٥٠ ، ١٢٢ ، ٦٦	٢٦٤ ، ١٧١
كربون : ١٤٤ ، ١٣٨ - ١٣٠	فلسطين : ٦٩ ، ٦٧ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٢
كسكر : ٢٣	٩٧ ، ٩٣ - ٩١ ، ٨٢ ، ٨١
الكعبة : ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٠ ، ٨٣ ، ٦٨	١٦٢ ، ٩٨
٣٠٨ ، ٢٥٨	الفيوم : ١١٠ ، ١٠٦ - ١٠٤ ، ٧٨
كنيسة أبي يحيى : ١٥٧	١٣٩ ، ١٣٨ ، ١١٢
كنيسة الذهب : ١٣٧	( ق )
كنيسة سان مارك = كنيسة القديس مرقس	القادسية : ٣٣ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ١١ ، ٤ ، ٢
كنيسة القديس مرقس : ١٤٨ ، ١٣٥	١٨٠ ، ١٣٤ ، ٥٧ ، ٣٩ ، ٣٤
كنيسة القيامة : ٢٠٦	٢٩٦ ، ٢٦٥

٤٣٠٩٤٣٠٧٤٣٠٥٤٣٠٤٤٢٩٩  
 ٣٢٨٤٣٢٤—٣٢١٤٣١٣  
 خزانة الإسكندرية : ١٥٢  
 مرصد الإسكندرية : ١٨٥  
 سرو الروذ : ٥٣—٥٧  
 سرو الشاهجان : ١٩٤٦ : ٤٣٣٤٤٤٥٣٤٣٣  
 المروة : ٨٣ : ٢٤٨  
 صربوط : ٩٣  
 المسجد (مسجد المنبئة) : ١٥ : ٤٣٠٤٢٢٤١٥  
 ٢٠٥٤٢٨٠٤٢١٣٤٢٠٩٤١٥٦  
 ٠٣٢١—٣١٩٤٣١٠٤٣٠٨—  
 ٣٣٠—٣٢٨  
 مسجد إسطخر : ٤٨  
 المسجد الأقصى : ٢٠٦  
 مسجد عمرو : ١٧٠  
 مسجد الكوفة : ٣١  
 مسألة الإسكندرية : ١٣٥ : ٤٤٩٤١٥١  
 مصر : ١٨٤١ : ١٨٤١ : ٣٦٤١٨٣—٨٧٤٨٣—  
 ١٩١٢٤١٠٩٤١٠٧٤١٠٦٤١٠٤  
 ١٣١٤١٣٠٤١٢٧—١١٦٤١١٤  
 ١٤٥٤١٤٣—١٣٩٤١٣٧٤١٣٥  
 ١٥٩—١٥٤٤١٥٠٤١٤٨٤١٤٧  
 ١٦١—١٨٣٤١٨٥٤١٨٧—  
 ١٩٧٤١٩٥٤١٩٤٤١٩٢٤١٨٩  
 ٤٢٤٤٤٢١٨٤٢١٧٤٢١١٤١٩٨  
 ٤٥٦٤٢٤٣٤٢٣٨—٢٣٦٤٢٢٨  
 ٤٢٩٤٤٢٧٢٤٢٧١٤٢٦٢٤٢٥٨  
 ٤٣٣٩٤٣٣٦—٤٣٤٤٣١٩٤٣٠٣  
 ٣٤٦—٣٤٤٤٣٤٢  
 مصر السفلى : ٨٠ : ٤٩٢٤٤٠٤١٧١  
 ١٩٨٤١٧٥  
 مصر القديمة : ٩٠ : ٤٣٠٨٤١١٠  
 ١٥١٤١١١  
 مصر الوسطى : ٨٠ : ١٣٨—  
 مطبعة مصر : ٣٤٩  
 المطرية : ١٠٨  
 معبد السرايوم = السرايوم  
 معبد سيرابيس : ١٨٨  
 معبد فتاح : ١٢٢  
 معبد قيصر = القيصريون  
 مفار بنى وائل : ١٠٨ : ١٠٩  
 المغرب : ١٦٢ : ١٦٢  
 مقبرة الإسكندرية : ١٤٨  
 القدس : ١٣٧

كنيسة القيصريون : ١٤٨  
 الكوفة : ٤٤ : ٤٨٤٢٠٤٨٤٢٣٤٣١  
 ٤١٣١٤٥٧—٥٤٤٥٢٤٣٧٤٣٤  
 ٤٢٢٤٤٢٢٢٤٢١٧٤٢١٣٤١٧١  
 ٤٣٣٧٤٢٩٧٤٢٦٤٤٢٥٦٤٢٢٥  
 ٣٤٤٤٣٣٨  
 كوم شريك : ١٣٠  
 (ل)  
 لبدية : ١٦٢  
 (م)  
 مازندجران = أذربيجان  
 ماه : ٢٣ : ٢٤ : ٣٢  
 متحف الإسكندرية : ١٤٨ : ١٨٥  
 مجدل : ٩٨  
 الحصب : ٣٠٨  
 المحيط الهندي : ٦٣  
 المدن : ١٤٤١٣٤٤٤٢٤١٩٤١٩  
 ٤١٠١٤٤٢٤٣٦—٣٣٤٢٥٤٢٤  
 ٤٢٠٦٤١٣٥٤١٢٩٤١٢٠٤١١٩  
 ٤٢٥٨٤٢٥٦٤٢٣٤٤٢٢٧٤٢١٣  
 ٢٩٦  
 مدرسة أرسطو : ١٥١  
 مدرسة الرياضات والفلك بالإسكندرية : ١٨٥  
 مدرسة الطب بالإسكندرية : ٧٤ : ١٨٥  
 مدرسة القانون والفلسفة بالإسكندرية : ٧٥ :  
 ١٨٥ : ٢٥٦  
 مديرية البحيرة : ١٢٨  
 مديرية الدقهلية : ٩٣  
 مديرية الشرقية : ٩٣  
 مديرية الغربية : ٩٣ : ١٣٨  
 مديرية النوبية : ٩٣ : ١١٠ : ١٢٨  
 مدن : ٦٩  
 المدينة : ٢٠٤١٥٤١٧٤١٨٤٢٢٤٢٢  
 —٦٣٤٦٠٤٥٠٤٤٠٤٣١٤٣٠  
 ٤٨٧٤٨٥—٨٢٤٧١٤٦٧٤٦٥  
 ٤١٤٣٤١٤١٤١٠٧٤٩٢—٨٩  
 ٤١٩٩٤١٨٦٤١٦٠٤١٥٦٤١٥٥  
 ٤٢١٢—٢٠٦٤٢٠٤—٢٠١  
 ٤٢٢٤٤٢٢١٤٢١٩—٢١٤  
 ٤٢٣٤٤٢٣٢٤٢٢٩—٢٢٧  
 ٤٢٤٨٤٢٤٦٤٢٤١٤٢٣٧—٢٣٦  
 ٢٧٥٤٢٧٣٤٢٦٦٥٢٢٤—٢٦٢  
 ٤٢٨٨٤٢٨٣٤٢٨١٤٢٧٩٤٢٧٧—

نهر مكران : ٥١	مكتبة الإسكندرية : ١٥١، ١٨٥ - ١٨٧،
الثوبة : ٧٣، ٧٨، ١٥٥، ١٦٦، ١٦٢، ١٦٢	١٨٩، ١٩١، ١٩٢
١٦٨، ١٨٢، ٢٠٠، ٣٣٤	مكتبة برجاموس : ١٨٨
نيسابور : ٤٣، ٥٣	مكتبة البروكيون : ١٨٨
النيل : ٦٦، ٧٣، ٨٠، ٩٢، ٩٣	مكتبة البطالسة : ١٨٧، ١٨٩ -
٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥ -	مكتبة السراييوم : ١٨٨
١٠٧، ١٠٩ - ١١٣، ١١٨، ١١٨	مكرات : ٤٦، ٥١، ٣٣
١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٤٦، ١٥١، ١٥١	مكة : ٦٦ - ٦٨، ٨٤، ٨٣، ١٩٧، ١٩٨،
١٧٠، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١ -	٢٠٧، ٢٠٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٩،
١٨٤، ١٩٢	٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٦ -
(هـ)	٢٤٨، ٢٦٦، ٢٧٥، ٣٠٤، ٣٠٥،
هراة : ٥٣، ٥٤	مناذر : ٤ - ٦
هرمزشير = الأهواز	منارة الإسكندرية : ٧٣، ١٣٦، ١٥١ - ١٥٣
هليوبوليس : ١٠٠، ١٠٥، ١٠٨	المنديزي - فرع النيل : ٩٣
هنان : ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٩، ٣٢، ٣٤	منف : ٩٨، ١٠١، ١٠٧، ١٢٢، ١٢٣،
٣٧، ٣٩ - ٤١، ٤٥	١٧٠، ١٧١، ٢٥٦
الهند : ٥٣، ٦٦، ٧٣، ١٧٧	منوف : ١٠٩، ١١٠، ١٢٨، ١٣٨
هيت : ٩٣	منى : ٣٠٤، ٣٠٨
الهيئة ستاديوم : ١٥٢	مهرجان قذف : ٣٢
هيكل سليمان : ٣٤	موسكو : ٣٠٢
(و)	مولفان : ٤٥
واج رود : ٤٠، ٤١، ٤٤	ميت غمر : ٩٣
وادي النيل : ٦٢، ٦٨، ١١٧	ميسديا : ١٤
الولايات الأمريكية : ٢٠٧	ميسات : ٤، ٥، ٥
الولايات السويسرية : ٢٠٧	(ن)
(ي)	نجد : ٢٤٠
يثرب = المدينة	نجران : ٢٠٤
اليرموك : ١٣٣، ١٣٤	نخلة : ٢٤٨
اليانعة : ١٣٣، ٢٨٠	نقيوس : ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٨،
اليمين : ٢٢، ٦٦، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٢٣٤	١٣٨ - ١٣٠، ١٩٨
٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٧٨، ٢٧٨	نهبوند : ١٩ - ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧،
٣٤٤	٢٩، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٥٣،
ينبع : ٢٤٧	١١٩، ١٣٤، ٢٦٥، ٣٠٦
اليهودية : ٣٧	نهر تستر : ١٩
	نهر تيرى : ٥، ٤
	نهر دجيل : ٢، ٥، ٥، ٩، ١٠
	نهر كارون : ٢، ١٣

## فهرس الأمم والقبائل

بنو عبد شمس : ٨٧  
 بنو عبد مناف : ٣٢٨  
 بنو العجلان : ٢٦٨  
 بنو عدى : ٣١٦ ، ٢٣١ ، ٨٧  
 بنو غسان : ٣٣٤ ، ٢٠٠ ، ٤٧١ ، ٦٣ ، ٤١  
 بنو قريظة : ٢٧٨ ، ١٠٧  
 بنو معاوية : ٣٠٨  
 بنو النجار : ٢٤١  
 بنو النضير : ١٠٧  
 بنو هاشم : ٤٢٦٠ ، ٢٣١ ، ٢١٢ — ٢١٠  
 — ٣٢٥ ، ٣١٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠  
 - ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٣٠ ، ٣٢٧  
 بنو هلال : ٢٦٤ ، ٢  
 (ت)  
 التار : ٥٥  
 الترك : ٤٥٥ ، ٥٢ ، ٥٥ — ٤١١ ، ٤٥٨  
 ٣٤٧ ، ٣٣٧  
 (ث)  
 ثقيف : ٢٤٨  
 (ج)  
 جرهم : ٦٧  
 (ح)  
 حمير : ٢٣٤ ، ٢٤٧  
 (خ)  
 خزاعة : ٢٣٤  
 الخزرج : ٢٩٦ ، ٢٧٥ ، ٢٦٠ ، ٢٤١ ، ٢٢١  
 (د)  
 الديلم : ٤١ ، ٤٠  
 (ر)  
 الروافيق : ٧٦  
 الروم : ٤٤٥ ، ٣٦٤ ، ٢٢٢ ، ١٥٠ ، ١٢٠ ، ٤١  
 ٤٧٣ — ٧٠ ، ٦٨ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٢  
 ٤٩٥ — ٩٠ ، ٨٤ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٥  
 ٤١٠٦ — ١٠١ ، ٩٩ — ٩٧  
 ٤١٢٠ — ١١٤ ، ١١٢ — ١٠٨  
 ٤١٤٧ — ١٢٩ ، ١٢٧ — ١٢٤  
 ١٧٩ — ١٥٦ ، ١٥٣ ، ١٤٩

(١)

آل بهرام : ٤٢  
 آل عمر : ٣٣١ ، ٣١٦ ، ٢٣٤  
 آل فرعون : ١٧٦ ، ٦٩  
 الأيتوريون : ٧٦  
 الأحزاب : ١٠٧  
 الأرمن : ٤٤  
 الإغريق : ٣٣٨ ، ١٨٨ ، ١٨٣ ، ٣٦  
 الأكاسرة : ٤٦٠ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٤٤ ، ١٤  
 ٢٣٧ ، ٦١  
 الأكراد : ٥  
 أكراد فارس : ٤٩  
 الأكينيون : ٤٧  
 الألمان : ٢٤٧  
 الإنجليز : ٢٤٧  
 الألبان : ٣ ، ١٤٣ ، ٣ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٧٩ ، ٢٧٠ ، ٢٣٢ ، ٢٢٩ ، ٢٢١  
 ٣١٢ ، ٣٠٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٨٨  
 — ٣٣٠ ، ٣١٦ ، ٣١٤  
 الأنوقيسيون : ١٢٧  
 (ب)  
 البابليون : ١١٢  
 البربر : ١٦٢  
 البطالسة : ٤١٤٨ ، ١٢٠ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٧٤  
 ٤١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٧٨ ، ١٧٠ ، ١٥٠  
 ١٨٨  
 بلي : ١٤٠  
 بنو أبي ميط : ٣١٣  
 بنو إسرائيل = اليهود  
 بنو أمية : ٢٩٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٠ ، ٦٠ ، ٤٢  
 ٣٤٨ — ٣٤٥ ، ٣٢٥ ، ٢٩١  
 بنو تميم : ٣٠٥  
 بنو تيم : ٢٣١  
 بنو ساسان : ٥٨ ، ٥٧ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٣٦  
 ١٢٠ ، ٦١  
 بنو سهم : ٨٧ ، ٨٦  
 بنو العباس : ٢٦٥ ، ١٩٠ ، ٦٠ ، ٤٢  
 ٣٤٧ ، ٣٤٥ ، ٣٢٥

١٢١، ١٢٠، ١١٦، ١١٢، ٩٨  
١٥٦، ١٤٣، ١٣١، ١٢٨، ١٢٧  
١٦٧، ١٦٥ — ١٦٣، ١٥٩ —  
١٧٦، ١٧٥، ١٧٣ — ١٧٠  
١٨٦، ١٨٢، ١٨١، ١٧٩، ١٧٨  
٢٣٦

فط القرما : ٩٤

قربش : ٨٣، ٨٤، ٨٦ — ٨٨، ٢٠٩  
٢٢٩، ٢٢٥، ٢١٤، ٢١٢، ٢١١  
٢١٦، ١٧٠، ٢٥٤، ٢٤٨، ٢٤١  
٢٣٠، ٢٢٧، ٢٢٥

قضاة : ٨٦

القياصرة : ٢٣٧

قيس : ٢٣٢

(ك)

كلب : ٢٤٧

السكينة المصريون : ١٨٣

(ل)

اللاتين : ١٨٣

لحم : ٦٣، ٢٠٠

لوانة : ٥٦٢

(م)

مدحج : ٢٤٨

مزينة : ٢٩٣

المستشرقون : ١٨٥

المسيحيون : ٧٦، ٧٠، ١٥٠، ١٥١، ١٦٧

١٨٢، ١٨٦ — ١٨٨، ٢٠٤

٢٠٥، ٢٥٦، ٢٨٤، ٢٢٢

المصريون : ٦٢، ٦٦ — ٦٩، ٧٢، ٧٣

٧٦، ٧٧، ٧٩ — ٨١، ٩٤، ٩٨

١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٨، ١٢٠

١٢١، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩

١٤٨، ١٥٠، ١٥٨ — ١٦٠، ٩٦

١٦٤، ١٧٠، ١٧١ — ١٧٦، ١٧٦

١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٢

١٩٥، ١٩٨، ٢٧٢، ٢٣٣، ٢٣٤

٢٣٨، ٣٤٠، ٣٤٥

المنول : ٥٥

مغيلة : ١٦٢

المسكانيون : ٧٧، ١٢٧، ١٧٢، ١٧٩

١٧٣

المنوفسيون : ١٦٩، ١٧٢

المهاجرون : ٣، ٨٥، ٢٠٧ — ٢٠٩، ٢٢٣

١٨٦، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨  
٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦ —  
٢٠٨، ٢١١، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٣٦  
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٠  
٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٩  
٢٨٣، ٣٠١، ٣١٢، ٣١٨، ٣٢٢  
٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٣  
٣٤٤  
الرومان : ٧٤، ٧٩، ٩٦، ١٠٧، ١٢٠  
١٤٨، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣

(ز)

زبيد : ٢٤١

زنانة : ١٦٢

(ش)

الشيعة : ١٨٦، ٢٤١

(ع)

العجم = الفرس

(غ)

غانق : ١٤٠

(ف)

القراعة : ٧٥، ٧٩، ١٠١، ١٠٦، ١٢٢

١٢٣، ١٢٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦

١٨١، ١٨٣، ١٩٣، ١٩٥

الفرس : ٤، ١١، ١٣ — ١٥

١٧، ٢٩، ٣٢ — ٣٨، ٤٠، ٤٢

٤٤، ٤٤، ٤٦ — ٥٠، ٥٣، ٥٥

٥٧، ٦٠، ٦٢ — ٦٤، ٧٠

٧٣، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٥

٩٢، ٩٢، ٩٥، ١٢٢، ١٧٦

١٩٠، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣

٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢٢١، ٢٢٣

٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٨

٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٢

٢٦٣، ٢٧٣، ٢٨٣، ٣٠١، ٣١٢

٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣١

٣٤٤، ٣٣٦ — ٣٤٠، ٣٤٣

٣٤٥، ٣٤٧

الفرنسيون : ٢٤٧

الفيديقيون : ٧٣

(ق)

القيج : ٤٤

القرط : ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٤، ٩٥

(و)	٢٨١، ٢٧٩، ٢٧٠، ٢٣٢، ٢٢٩
الوثنيون : ١٨٨	٢٣٠، ٢٢٤، ٣١٤، ٣١٢، ٢٩٦
(ى)	(ن)
اليعاقبة : ٧٧	مهرة : ١٤٠
يعرب بن قحطان : ٦٧	النصارى = المسيحيون
اليهود : ٦٨ — ٧٠، ٨٠، ١٦٧، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٨، ١٧٨، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢١	نصارى الحيرة : ٣٢٣
يهود المدينة : ١٩٤، ٢٤٦	نصارى نجران : ٢٠٤، ٢٨٢
اليونان : ٣٦، ٧٣، ٨٠، ١٠٧، ١٥٠	(هـ)
١٩٠، ٢٥٨	هذيل بن مدركة : ٢٤٧
	الهيكسوس : ٦٧، ٦٨
	همدان : ٢٤٧
	هواراة : ١٦٢

## فهرس الأيام والغزوات والوقائع

غزوة اليمامة : ٢٨٠	(ح)
(ف)	حلف التضيول : ٢٤٦
فتح أذربيجان : ٦١	(ع)
فتح الإسكندرية : ١٢٤	عام الرمادة : ٢١٠، ٢١٢، ٣٠٤
فتح أسبهان : ٦١	عام الطاعون : ٨١، ١٩٠، ٢٩٥
فتح إيران : ٦١	عام الفجار : ٣٠٤
فتح جرجان : ٦١	عام القيل : ٢٠٦
فتح خراسان : ٦١	عمرة القضاء : ٨٣
فتح الري : ٦١	عهد الحديبية : ٨٣، ٢٣٧، ٢٧٧
فتح سجستان : ٦١	(غ)
فتح طبرستان : ٦١	غزوة أحد : ٢٧٧
فتح قارس : ١، ٦١	غزوة الأحزاب (الحنديق) : ٨٣، ١٠٧، ٢٤٦
فتح كرمان : ٦١	غزوة بدر : ٢٣٢، ٢٥٤
فتح المدائن : ١٤٦	غزوة تبوك : ٢٧٦
فتح مصر : ٦٢، ٩٢	غزوة الجسر : ٤٠
فتح مكران : ٦١	غزوة ذات السلاسل : ٨٤، ٨٥
افتتح مكة : ١٠٧	غزوة القادسية : ٦١، ١٤٦
فتح همدان : ٦١	غزوة نهاوند : ١٩٠، ٦١، ١٤٦
(ى)	غزوة اليرموك : ٣٣٥
يوم بعاث : ٢٦٠	

## سجل المراجع

### المراجع العربية

- صحيح البخارى : لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفي  
 تفصيل آيات القرآن الكريم : للأستاذ محمد فوزاد عبد الباقي ؛ على نظام المستشرق جول لا يوم .  
 سيرة سيدنا محمد رسول الله : لأبى محمد عبد الملك بن هشام .
- جامع البيان في تفسير القرآن : { لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .  
 تاريخ الرسل والملوك : {
- الكامل في التاريخ : لعز الدين أبى الحسين على بن أبى الكرم محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير .  
 البداية والنهاية في التاريخ : لعناد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى .
- تاريخ ابن خلدون : { لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .  
 مقدمة ابن خلدون : {
- فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى .  
 تاريخ اليعقوبى : لأحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى .  
 مروج الذهب ومعادن الجواهر : لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى .
- الإمامة والسياسة : { لأبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى .  
 عيون الأخبار : {  
 كتاب المعارف : {
- الطبقات الكبير : لمحمد بن سعد كاتب الواقيدى .  
 وفيات الأعيان : لابن خلكان ، شمس الدين أبى العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى .  
 تاريخ دمشق : لابن عساكر ، أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله .  
 الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية . للسيد أحمد بن السيد زنى دحلان .  
 فتوح الشام : لأبى عبد الله محمد بن عمر المعروف بالواقيدى .  
 فتوح الشام : لأبى إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصرى .
- فتوح مصر وأخبارها : لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى .  
 حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى .  
 النجوم الزاهرة . في ملوك مصر والقاهرة ، لأبى المحاسن يوسف بن تترى بردى .  
 فتح العرب لمصر : لألفرد بتلر ، ترجمة الأستاذ محمد فرهد أبو حديد .  
 نجر الإسلام : للأستاذ أحمد أمين بك .  
 أشهر مشاهير الإسلام : للسيد رفيق العظم بك .  
 الإدارة الإسلامية في عز العرب : لمحمد كرد على .
- عمرو بن العاص : { للأستاذ عباس محمود العقاد .  
 عبقرية عمر : {



- خلفاء محمد : للأستاذ عمر أبي النصر .  
تاريخ التشريع الإسلامي : للشيخ محمد الخضري .  
كتاب الحراج : لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، صاحب أبي حنيفة .  
القضاء في الإسلام : للأستاذ عطية مصطفى مشرفة .  
من تاريخ الحركات العسكرية في الإسلام : لبندلي جوزي .  
الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين القرشي الأموي .  
الغزى من الآداب السلطانية : لابن طباطبا محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي .  
العقد القرظي : لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه .  
قاموس الأمانة والباق التي يردد ذكرها في كتب الفتوح : لعلي بك بهجت .  
دائرة معارف القرن العشرين .

Annals of the Early Caliphate,  
The Early Caliphate

by Sir William Muir.  
by Maulana Mohammad  
Aly.

The Early Development of Mohammedanism.  
History of the Arabians,  
Arabia Before Mohammad,  
History of the Decline and Fall of the

by D. S. Margoliouth.  
by Abbè de Merigny.  
by O'Leary.

Roman Empire ,  
Le Berceau de L' Islam,  
Le Monde Musulman et Byzantin,  
Essai sur l'Histoire des Arabes.  
l'Historire des Arabes,  
Privilèges et Immunttés des Etrangers en  
Egypte,

by Edward Gibbon.  
par Lammens.  
par Gaudfroy-Demombynes.  
par Caussin de Perceval.  
par Huart.

Historian's History of the World.  
The March of Man.  
Encyclopaedia Britannica.  
Dictionnaire Larousse.

par M. B. Barakat.

القاهرة  
مطبعة السنة المحمدية  
١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين  
ت ٩٠٦٠١٧  
١٩٦٤









